تنوير العقول والأذهان

في

تفسير مفصل القرآن

إعداد

أ. د سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

الأستاذ بقسم القرآن وعلومه

بكلية الشريعة وأصول الدين - جامعة القصيم

المجلد الأول

من سورة الحجرات إلى آخر سورة الحديد

دار العاصمة

للنشر والتوزيع

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله

تنوير العقول والأذهان في تفسير مفصل القرآن. /

سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم - الرياض ، ١٤٢٨هـ

٣مج

ردمك ٨-٣٨-٦٩٢-٩٩٦٠ (مجموعة)

٦-٣٩-٦٩٢-٩٩٦٠ (ج١)

١- القرآن - تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧،٦ ١٤٢٨/٤٢٣٢

رقم الإيداع: ١٤٢٨/٤٢٣٢

ردمك: ٨-٣٨-٦٩٢-٩٩٦٠ (مجموعة)

٦-٣٩-٦٩٢-٩٩٦٠ (ج١)

الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م

دَارُ العَاصِمَة

المملكة العربية السعودية

الرياض - ص.ب ٤٢٥٠٧ - الرمز البريدي ١١٥٥١

هاتف ٤٩١٥١٥٤ - ٤٩٣٣٣١٨ - فاكس ٤٩١٥١٥٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

أهدي هذا التنوير المبارك لجميع المسلمين ، وأخص منهم أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته ، وكل من ينشد السعادة ويستلهم الرشد والهداية من كتاب الله عز وجل .

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله الذي جعلنا من خير أمة أخرجت للناس، أنزل عليها أعظم كتبه وأشرفها، وأرسل إليها أفضل رسله وسيدهم، وأكمل لها الدين، وأتم عليها النعمة، ورضي لها الإسلام دينا.

والصلاة والسلام على البشير النذير، والداعي إلى الله بإذنه والسراج المنير، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ـ أما بعد:

فإن الله ـ عز وجل ـ أنزل القرآن العظيم ليكون نوراً يهتدى به، ونبراساً يقتدى به، ومنهج حياة تسير عليه الأمة، وتتربى به، وتتأدب بآدابه، وتتخلق بأخلاقه؛ بتدبر ألفاظه؛ تلاوة وحفظاً، وتدبر معانيه؛ علماً وفهماً، وتدبر أحكامه؛ امتثالاً لأوامره واجتناباً لنواهيه، وتدبر أخباره؛ تصديقاً لها، ورجاءً لوعده، وخوفاً من وعيده، كما قال ـ عز وجل: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

وقد كان نبينا ﷺ قرآنا يمشي على الأرض، ولهذا وصفه الله ـ عز وجل بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. ولما سئلت عائشة – رضي الله عنها – عن خلقه ﷺ قالت: «كان خلقه القرآن»[(١)].

وقد ضرب صحابته الكرام – رضي الله عنهم – وأتباعهم من سلف هذه الأمة أروع الأمثلة في تدبر القرآن وتعلمه والعمل به، والتخلق بأخلاقه، والوقوف عند حدوده، فعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن».

وعن أبي عبد الرحمن السلمي قال: «حدثنا الذين كانوا يُقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يُخلّفوها حتى يعملوا بما فيها

(١) سيأتي تخريجه.

من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً»[1].

ولهذا سادوا الدنيا وقادوها، وفتحوا قلوب الناس للإسلام في صدقهم وحسن تعاملهم وأخلاقهم وآدابهم، فانتشر الإسلام في شتى بقاع الأرض وأحب الناس الإسلام وأهله، ودخلوا في دين الله أفواجا

أيام كان المسلمون أعزة   في دينهم والعود صلب المكسر
أيام كان الدين ملء نفوسهم   وأتوا على كسرى العظيم وقيصر

وما انحصرت رقعة الإسلام وجزر مده إلا بعد أن شوّه كثير من المسلمين صورة الإسلام فصاروا حائلاً بين الناس وبين الدخول فيه، بعد أن أصبح كثير منهم لا يمثلون حقيقة الإسلام، لا علماً، ولا عملاً، ولا سلوكاً، ولا خلقاً، ولا أدباً؛ يتباكون ويتلاومون على واقع الأمة، وهم أصل بلائها، وسبب دائها، بإعراضهم عن تدبر القرآن وتطبيقه في واقع حياتهم، فهجره كثير منهم، فلا يقرؤونه إلا في المآتم، وأصبح كثير منهم يقرؤونه لا يجاوز تراقيهم، فلا يتفهمون معانيه، ولا يطبقون أحكامه، ولا يتخلقون بأخلاقه، بل ربما كانوا أبعد من غيرهم عن أخلاق الإسلام والقرآن، فتفريط في جنب الله وتقصير في القيام بحقوقه - عز وجل، وحقوق الخلق، ومسؤوليات الأمة، وتهالك على الدنيا، وحسد وشحناء، وعداوة وبغضاء، وغلظة وجفاء - وأين هذا من خلق القرآن الكريم.

وما أصاب الأمة ما أصابها من الهوان، والضعف وتسلط الأعداء عليها، وما غزي المسلمون في عقر دارهم إلا بسبب ذلك، مصداقاً لقول الله ـ عز وجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

ولن يُصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، وذلك بتصحيح مسارها وفق ما رسمه الله - عز وجل - لها في كتابه العظيم، وفي سنة رسوله الكريم، والاهتداء بهديهما، قولاً وعملاً واعتقاداً، منهجاً وسلوكاً، ومحاسبة كل مسلم لنفسه محاسبة

(١) أخرجهما الطبري في «جامع البيان» ١/ ٧٤ وإسناد كل منهما صحيح.

دقيقة، فيما يأتي وفيما يذر، وفيما يقول ويفعل؛ في تعظيم الخالق – عز وجل – والقيام بحقوقه، وفي الإحسان إلى الخلق والقيام بحقوقهم، لأنها من حقوق الله – عز وجل – والقيام بما تحمله وتولاه من مسؤوليات الأمة إذ كل فرد منا على ثغر من ثغور الإسلام فالله الله أن يؤتى الإسلام من قبله.

وهذا ما أردت التنبيه عليه والتوجيه إليه في هذا التفسير، وما توفيقي إلا بالله ولهذا سلكت فيه مسلك البسط والإيضاح، وتسهيل العبارة، لأن هذا المسلك هو الأمثل لتربية المسلمين بالقرآن الكريم وأحكامه وآدابه وأخلاقه، والذي هو الغاية من إنزال القرآن الكريم، وهو حقيقة تدبره وثمرته.

وقد كانت نواة هذا التنوير دروساً في التفسير كنت ألقيها في بعض المساجد منذ سنوات عدة وقد سميته: «تنوير العقول والأذهان في تفسير مفصل القرآن» أسأل الله العظيم – بمنه وكرمه أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به المسلمين، وأن يجعله خطوة مباركة في سبيل صحوة الأمة وعودتها إلى تدبر كتابه والعمل به والتخلق بأخلاقه - وما ذلك على الله بعزيز وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

المؤلف

تفسير سورة الحجرات

ذهب بعض أهل العلم من المفسرين وغيرهم إلى أن سورة الحجرات هي أول الحزب المفصل.

وذهب أكثرهم إلى أن حزب المفصل يبدأ من سورة ﴿قٓ﴾

لما رواه أوس بن حذيفة قال «سألت أصحاب رسول الله ﷺ -: كيف تحزِّبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل وحده»[١].

وقد اختار هذا الحافظ ابن كثير رحمه الله فقال في مطلع كلامه على سورة ﴿قٓ﴾[٢]: «وهذه السورة هي أول الحزب المفصل على الصحيح» مستدلاً بحديث أوس بن حذيفة ثم قال ابن كثير مفصلاً لما جاء في هذا الحديث:

«فإذا عددت ثمانيًا وأربعين سورة فالتي بعدهن سورة ﴿قٓ﴾، بيانه: ثلاث: البقرة، وآل عمران، والنساء، وخمس: المائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، وبراءة. وسبع: يونس، وهود، ويوسف، والرعد، وإبراهيم، والحجر، والنحل. وتسع: سبحان، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، والحج، والمؤمنون، والنور، والفرقان. وإحدى عشرة: الشعراء، والنمل، والقصص، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والم السجدة، والأحزاب، وسبأ، وفاطر، ويس. وثلاث عشرة: الصافات، وص، والزمر، وغافر، وحم السجدة، وحم عسق، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف، والقتال، والفتح، والحجرات. ثم بعد ذلك الحزب المفصل، كما قاله الصحابة رضي الله عنهم. فتعين أن أوله سورة ﴿قٓ﴾ وهو الذي قلناه ولله الحمد والمنة».

وهذا- و الله أعلم – هو الراجح – إلا أنني آثرت إدخال سورة الحجرات في هذا

---

(١) اخرجه أبو داود في الصلاة – باب تحزيب القرآن ١٣٩٣، وابن ماجه في إقامة الصلاة - في كم يستحب ختم القرآن ١٣٤٥، وأحمد ٤/ ٩.

(٢) في (تفسيره) ٧/ ٣٧٠ – ٣٧١.

التنوير لأمرين: الأول احتمال كونها أول المفصل وإن كان مرجوحًا. الأمر الثاني: وهو الأهم اشتمال سورة الحجرات على كثير من الأحكام والأخلاق والآداب والدروس التربوية.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝١﴾.

قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ «يا» حرف نداء، و«أي» منادى مبني على الضم في محل نصب، إذ أن المنادى في الأصل مفعول به، فمعنى (يا فلان): أدعوك، و«ها» للتنبيه، و«الذين» اسم موصول مبني على الفتح صفة لـ «أي» أو بدل، و«آمنوا» صلة الموصول.

والحكمة من تصدير الكلام والخطاب بالنداء: التنبيه والعناية والاهتمام.

والحكمة من نداء المؤمنين بوصف الإيمان: الحث والإغراء على الاتصاف بهذا الوصف، وتكريم المؤمنين وتشريفهم بهذا الوصف - كما يقال للجواد: يا جواد، وللشجاع: يا شجاع. وبيان أن امتثال ما بعده إن كان أمرًا، والانتهاء عنه إن كان نهيًا، وتصديقه إن كان خبرًا كل ذلك من مقتضيات الإيمان، وأن عدم ذلك يعد نقصًا في الإيمان.

وقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فارعها سمعك فهو خير يأمر به، أو شر ينهى عنه»[(١)].

والقرآن كله دائر بين أمر ونهي، أو خبر مقتضاه الأمر والنهي كأخبار السابقين وأخبار القيامة فمقتضى ذلك سلوك طريق الأنبياء وأتباعهم، وما فيه النجاة من أهوال يوم القيامة، وهذا معناه الأمر، كما أن من مقتضى هذه الأخبار التحذير من سلوك طرق المكذبين وأعداء الرسل، وما فيه الهلاك في الدنيا والآخرة، وهذا معناه النهي.

والإيمان لغة: التصديق، كما قال تعالى ﴿يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة:٦١] وقال إخوة يوسف لأبيهم فيما حكاه الله تعالى عنهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧] اي : وما انت بمصدق لنا.

والإيمان: شرعًا: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وهو القلب، وعمل بالأركان وهي الجوارح.

بهذا قال أكثر الأئمة، بل حكى الإجماع عليه عدد من الأئمة منهم الشافعي وأحمد

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في (تفسيره) ٣/ ٩٠٢ - الأثر ٩٠٢٧.

وأبوعبيد ـ رحمهم الله ـ : فالإيمان: قول وعمل واعتقاد يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية[١].

وقد ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية إلى أن من لازم الإيمان اللغوي: الإقرار ولا يكفي مجرد التصديق[٢]

ولهذا لا يقال لأبي طالب عم النبي ﷺ مؤمن، لأنه لم يقر، وإن كان مصدقًا كما قال في شعره:

لقد علموا أن ابننا لا مُكذب ... لدينا ولا يعنى بقول الأباطل[٣]

وقال:

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا

لو لا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتني سمحًا بذاك مبينا[٤]

﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قرأ يعقوب: (لا تَقَدَّموا) بفتح التاء والقاف والدال، وقرأ الباقون: (لا تُقَدِّموا) بضم التاء وكسر الدال.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة»[٥].

أي: لا تتعجلوا ولا تتسرعوا في الأشياء لا بقول ولا بفعل قبل أن يقول الله ورسوله، فلا تقولوا حتى يقول، ولا تأمروا حتى يأمر، ولا تفتوا حتى يحكم، ولا تفعلوا حتى يفعل رسول الله، ولا تقطعوا أمرًا حتى يحكم الله فيه ورسوله.

كما قال ﷺ: «لا تتقدموا رمضان بصوم يوم أو يومين»[٦] وفي الحديث: «من صام اليوم الذي يشك فيه فقد عصى أبا القاسم ﷺ»[٧].

---

(١) انظر (تفسير ابن كثير) ١/ ٦٢-٦٣، (تفسير آيات الأحكام في سورة النساء)، ١/ ٣٣٥ - ٣٣٩.

(٢) انظر (مجموع الفتاوى) ٧/ ١٢٣، ٢٦٣، ٥٢٩ - ٥٤٣، ٦٣٨.

(٣) انظر (السيرة النبوية) لابن هشام ١/ ٢٩٩.

(٤) انظر (شرح الطحاوية) ٢/ ٤٦١.

(٥) اخرجه الطبري في (جامع البيان) ٢٦/ ١١٦.

(٦) اخرجه البخاري في الصوم ـ لا يتقدم رمضان بصوم يوم أو يومين ١٩١٤، ومسلم في الصيام ـ لا تتقدموا رمضان بصوم يوم أو يومين ١٠٨٢، وأبو داود في الصوم ٢٣٣٥، والنسائي في الصيام ٢١٧٢، والترمذي في الصوم ٦٨٤، وابن ماجه في الصيام ١٦٥٠ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٧) اخرجه البخاري في الصوم ـ إذا رأيتم الهلال فصوموا ـ معلقا، وأخرجه موصولاً أبو داود في الصوم ٢٣٣٤، =

قال ابن القيم[1]: «والقول الجامع في معنى الآية: لا تعجلوا بقول ولا فعل قبل أن يقول رسول الله ﷺ أو يفعل».

وفي حديث معاذ رضي الله عنه لما بعثه النبي ﷺ قال له: «بم تحكم؟ قال: بكتاب الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي: فضرب في صدره. وقال: الحمد لله الذي وفق رسولَ رسولِ الله لما يرضي رسول الله»[2].

فأخّر معاذ رضي الله عنه اجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة.

وقال ﷺ: «إن الله قد فرض عليكم الحج فحجوا» فقال: رجل : أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثًا: فقال رسول الله ﷺ:«لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم» ثم قال: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه»[3].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أعظم المسلمين في المسلمين جرما رجل سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين فحرم عليهم من أجل مسألته»[4].

فكل من خالف أمر الله ورسوله ﷺ من أهل الكفر والنفاق، وكذا أهل البدع والمعاصي فهو ممن تقدم بين يدي الله ورسوله وكل منهم بحسب عظم مخالفته، قد يخرج بذلك من الملة، وقد لا يخرج.

وقد عطف قوله (ورسوله) على اسم الله بالواو التي تقتضي التشريك في الحكم، لأن

=

والنسائي في الصيام ٢١٨٨، والترمذي في الصوم ٦٨٦ـ من حديث عمار بن ياسر ـ رضي الله عنه.

(١) انظر (بدائع التفسير) ٤/١٧٨.

(٢) أخرجه أبو داود في الأقضية ٣٥٩٢، والترمذي في الأحكام ١٣٢٧.

(٣) أخرجه البخاري في الاعتصام ٧٢٨٨، ومسلم في الحج ١٣٣٧، والنسائي في مناسك الحج ٢٦١٩، والترمذي في العلم ٢٦٧٩، وابن ماجه في المقدمة ١، ٢ ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الاعتصام ٧٢٨٩، ومسلم في الفضائل ٢٣٥٨، وأبو داود في السنة ٤٦١٠.

هذا من باب التشريع والطاعة، فطاعة الرسول ﷺ طاعة لله ـ عز وجل ـ كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] بخلاف باب المشيئة فلا يجوز العطف فيه بالواو في هذا المقام؛ لأن مشيئة الرسول ﷺ ومشيئة جميع الخلق تابعة لمشيئة الله ـ عز وجل ـ ولهذا قال ﷺ للرجل الذي قال له: ما شاء وشئت: «أجعلتني لله نداً ما شاء الله وحده»[(١)]

ويؤخذ من الآية تحريم اتباع الأهواء وآراء الرجال والقوانين الوضعية ووجوب اتباع الكتاب والسنة، والرد على جميع طوائف الضلال.

قال ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»[(٢)].

كما يؤخذ من الآية مشروعية الأدب مع الوالد والعالم والأمير والكبير وغيرهم من ذوي المكانة، وعدم التقدم بين يديهم، وفي الحديث: «كبر كبر»[(٣)].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وكلمة «تقوى» أصلها: «وقوى» فقلبت الواو تاء لعلة تصريفية.

وهي: مأخوذة من الوقاية، وهي: أن يجعل المرء بينه وبين الشيء المخوف وقاية، فيتقي البرد ويتقي الحر، ويتقي الشوك، وغير ذلك.

رُوي أن عمر رضي الله عنه سأل أبَيّ بن كعب عن التقوى، فقال: «هل مررت بأرض ذات شوك: أو بوادي كذا؟ قال: نعم. قال: ما صنعت؟ قال: شمرت عن ثيابي».

قال الشاعر:

خل الذنوب صغيرها ... وكبيرها فهو التقى
كن مثل ماشٍ فوق أر ... ض الشوك يحذر ما يرى

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢١٤، ٢٢٤، وابن ماجه في الكفارات ٢١١٧ـ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أبو داود في السنة ـ لزوم السنة ٤٦٠٧، والترمذي في العلم ـ ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع ٢٦٧٦، وابن ماجه في المقدمة ـ اتباع سنة الخلفاء الراشدين ٤٢ـ من حديث العرباض بن سارية ـ رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٣) قاله ﷺ لمحيصة بن سهل لما ذهب يتكلم قبل أخيه حويّصة وكان حويصة أكبر منه، أخرجه البخاري في الأحكام ٧١٩٢، ومسلم في القسامة ١٦٦٩، وأبو داود في الديات ٤٥٢٠، والنسائي في القسامة ٤٧١٤، والترمذي في الديات ١٤٢٢، وابن ماجه في الديات ٢٦٧٧ – من حديث سهل بن أبي حثمة رضي الله عنه.

لا تحقـــرن صـــغيرة إن الجبـال مــن الحصـى[١]

وأعظم من يُخاف ويُتقى هو الله ـ عز وجل ـ وعذابه. وتقواه بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

قال علي رضي الله عنه: «التقوى: الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل».

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «حقيقة تقوى الله: أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يُشكر فلا يُكفر».

وقال طلق بن حبيب: «حقيقة تقوى الله: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تجتنب معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله»[٢].

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، اي سميع لما تقولون، عليم بما تفعلون.

و«السميع» و «العليم» اسمان من أسماء الله ـ عز وجل ـ على وزن «فعيل».

يدل «السميع» على إثبات صفة السمع لله ـ عز وجل ـ وعلى سعة سمعه وإدراكه ـ عز وجل ـ لجميع الأصوات ما خفي منها وما ظهر، كما قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «والذي وسع سمعه الأصوات لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ، وأنا في ناحية البيت تشكو زوجها، وما أسمع ما تقول، فأنزل الله ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾»[٣].

وإثبات السمع لله عز وجل يتضمن وعداً ووعيداً، وعداً لمن أحسن كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، ففي هذه الآية وعد بالحفظ، وكما في قول إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩] ففي هذه الآية وعد بالإجابة، أي: يسمع الدعاء ويجيبه. ومثل هذا قول المصلي:

---

(١) الأبيات لابن المعتز ـ انظر «ديوانه» ٢/ ٣٧٦ ـ تحقيق محمد بديع شريف ـ دار المعارف بمصر.

(٢) أخرجه ابن المبارك في (الزهد) ص ٤٧٣، وابو نعيم في (الحلية) ٣/ ٦٤، وابن أبي شيبة في (المصنف) الأثران ١٠٤٠٥، ١٧٠٠٩.

(٣) أخرجه النسائي في الطلاق ٣٤٦٠، وابن ماجه في المقدمة ١٨٨.

«سمع الله لمن حمده»[1] أي: سمع واستجاب. ويتضمن وعيداً لمن أساء كما في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١].

ويدل «العليم» على إثبات صفة العلم الواسع لله ـ عز وجل ـ والعلم أشمل وأعم من السمع، لأن السمع يتعلق بالمسموعات، أما العلم فيتعلق بكل شيء؛ لأن الله عز وجل أحاط بكل شيء علماً ومن ذلك أيضاً المسموعات فهو يعلمها. قال تعالى: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام: ٨٠].

فعلمه عز وجل محيط بالأشياء، كلها في أطوارها الثلاثة: قبل الوجود، وبعد الوجود، وبعد العدم، يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون. ولهذا لما سئل موسى عليه السلام عن القرون الأولى ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢]، فلا يعتري علمه ـ عز وجل ـ جهل سابق، ولا نسيان لاحق. وفي إثبات سعة علمه ـ عز وجل ـ وعد لمن أطاع الله ورسوله واتقى، ووعيد لمن خالف وعصى.

والعلم: هو إدراك الأشياء على ما هي عليه، إدراكًا جازمًا.

والناس في ذلك أقسام ثلاثة: عالم، وجاهل جهلاً بسيطًا، وجاهل جهلاً مركبًا، فمثلاً من قال: عدد سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة، فهذا عالم – يعني بالنسبة لهذه المسألة فهذا يدري ويدري أنه يدري.

ومن قال: لا أدري، فهذا جاهل جهلاً بسيطًا، لا يدري، ويدري أنه لا يدري.

ومن قال: بل عددها مائة وعشرون سورة، فهذا جاهل جهلاً مركبًا، لا يدري، ولا يدري أنه لا يدري.

وما أكثر هذا الصنف – وهذا أشبه بـ«توما الحكيم» الذي قال عنه حماره:

لو أنصف الناس كنت أركب ... لأنني جاهل بسيط وصاحبي جاهل مركب

وذلك أن صاحبه «توما الحكيم »تصدق ـ فيما يقال عنه ـ بيناته على رجال

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٦٨٩، ومسلم في الصلاة ٤١١، وأبو داود في الصلاة ٦٠١، والنسائي في الإمامة ٧٩٤، والترمذي في الصلاة ٣٦١، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨٧٦ ـ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

بطريق الحرام يريد بذلك الجنة كما حكى عنه الشاعر:

ومن رام العلوم بغير شيخ يضل عن الصراط المستقيم
وتلتبس الأمور عليه حتى يصير أضل من توما الحكيم
تصدق بالبنات على رجال يريد بذاك جنات النعيم[(١)][(٢)]

الفوائد والعبر:

١ ـ تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام.

٢ ـ تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان.

٣ ـ الترغيب بالاتصاف بهذا الوصف.

٤ ـ أن امتثال ما ذكر بعد هذا النداء يعد من مقتضيات الإيمان، وأن عدم امتثاله يعد نقصاً في الإيمان.

٥ ـ تحريم مخالفة أمر الله ورسوله بقول أو بفعل، ووجوب طاعة الله ورسوله.

٦ ـ وجوب تقوى الله ـ بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

٧ ـ إثبات اسمين من أسماء الله ـ عز وجل ـ وهما «السميع» و «العليم» وأنه ـ عز وجل ـ ذو السمع الذي وسع جميع الأصوات، وذو العلم الذي وسع كل شيء وفي ذلك وعد لمن لم يتقدم بين يدي الله ورسوله واتقى الله، ووعيد لمن خالف ذلك.

---

(١) الأبيات لأبي حيان الأندلسي.

(٢) انظر الكلام على قوله تعالى : (إن الله كان عليمًا حكيمًا) الآية: ١١ من سورة النساء في كتابنا «تفسير آيات الأحكام في سورة النساء» ١/٢٠٧ ـ ٢٠٩.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾.

سبب النزول:

عن عبد الله بن أبي مليكة أن عبد الله بن الزبير أخبره: «أنه قدم على النبي ﷺ ركب من بني تميم، فقال أبو بكر: يا رسول الله أمِّر عليهم الأقرع بن حابس، وقال عمر: أمِّر عليهم القعقاع بن معبد، فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي، فقال عمر: ما أردت خلافك، وارتفعت أصواتهما عند النبي ﷺ، فأنزل الله قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ - إلى قوله - وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾».

قال ابن الزبير: «فما كان عمر يُسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية - حتى يستفهمه»[(١)].

ورُويَ أن أبا بكر رضي الله عنه قال: «قلت يا رسول الله، و الله لا أكلمك إلا كأخي السرار»[(٢)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل: يا رسول الله أنا أعلم لك علمه، فأتاه فوجده جالسًا في بيته منكسًا رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شر، كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ، فقد حبط عمله فهو من أهل النار، فأتى الرجل النبي ﷺ - فأخبره أنه قال: كذا وكذا، فقال: اذهب فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة»[(٣)].

وفي رواية: «فكنا نراه يمشي بين أظهرنا، ونحن نعلم أنه من أهل الجنة، فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف، فجاء ثابت بن قيس بن شماس، وقد تحنط ولبس كفنه،

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحجرات ٤٨٤٥، والنسائي في آداب القضاة ٥٣٨٦٥، والترمذي في التفسير ٣٢٦٦.

(٢) أخرجه البزار في مسنده فيما ذكر ابن كثير في (تفسيره) ٧/ ٣٤٦ من حديث حصين بن عُمر، عن مخارق عن طارق بن شهاب، عن أبي بكر الصديق قال ابن كثير: «حصين بن عمر - هذا ضعيف - لكن رويناه من حديث عبد الرحمن بن عوف وأبي هريرة بنحو ذلك».

(٣) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦١٣، وفي تفسير سورة الحجرات ٤٨٤٦، ومسلم في الإيمان ١١٩، وأحمد ٣/ ١٣٧، والطبري في (جامع البيان) ٢٦/ ٧٥.

فقال: بئسما تُعَوِّدون أقرانكم. فقاتلهم حتى قتل»[١].

وفي رواية فقال له النبي ﷺ : «أما ترضى أن تعيش حميدًا وتقتل شهيدًا وتدخل الجنة؟ فقال: رضيت ببشرى الله ورسوله ﷺ، ولا أرفع صوتي أبداً على صوت رسول الله ﷺ...»[٢].

ولهذا يشهد لثابت بن قيس ـ رضي الله عنه بالجنة لأن الرسول ﷺ شهد له بها.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ سبق الكلام عليه.

﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ أي: لا تجعلوا أصواتكم عند مخاطبتكم للنبي ﷺ وفي مجلسه أعلى وأجهر من صوت النبي ﷺ، بل لتكن أصواتكم أغض من صوته ﷺ.

﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ كقوله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور:٦٣]، أي: غضوا أصواتكم عند مخاطبته وخاطبوه بسكينة ووقار، تعظيمًا وتوقيرًا واحترامًا له ﷺ.

وهكذا يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ؛ لأنه محترم حيًا وميتًا صلوات الله وسلامه عليه، كما يكره رفع الصوت في مسجده ﷺ، و في سائر المساجد.

﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ اي: لئلا تحبط اعمالكم، أي: إنما نهيناكم عن رفع أصواتكم فوق صوت النبي، وعن الجهر له بالقول، كما يجهر بعضكم لبعض لئلا تحبط أعمالكم أو خشية أن تحبط أعمالكم، أي: يبطل ثوابها فحبوط العمل معناه: بطلان ثوابه، كما قال عز وجل ﴿لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨] أي: بطل.

﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ اي: لا تشعرون بذلك، ولا تعلمون عظم الذنب في رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ وفي الجهر له بالقول، وأنه يحبط العمل.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالا يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في جهنم»[٣].

---

(١) جاءت هذه الزيادة عند أحمد، وبعضها عند مسلم.

(٢) جاءت هذه الزيادة عند الطبري.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق – حفظ اللسان ٦٤٧٨.

وهكذا ينبغي عدم رفع الصوت، وعدم الجهر بالقول مع الوالد والعالم والكبير والأمير وغيرهم من ذوي المكانة في الأمة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ بعد ما نهى الله عز وجل المؤمنين عن رفع أصواتهم فوق صوت النبي ﷺ وعن الجهر له بالقول؛ أثنى على الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله، ترغيبًا في ذلك وندباً إليه وحثًا عليه.

قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ﴾ أي: إن الذين يخفضون أصواتهم عند رسول الله تعظيماً له وتوقيراً واحتراماً وتقديراً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: أولئك الذين اختبر الله قلوبهم، وأخلصها وجعلها محلاً للتقوى، فغضوا أصواتهم عند رسول الله ﷺ، وبخاصة بعد نزول هذه الآية، منهم أبو بكر وعمر وثابت بن قيس رضي الله عنهم وغيرهم من صحابة رسول الله ﷺ، ومن المؤمنين المتقين بعدهم.

قال مجاهد: «كُتِبَ إلى عمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، رجل لا يشتهي المعصية ولا يعمل بها أفضل، أم رجل يشتهي المعصية، ولا يعمل بها؟ فكتب عمر رضي الله عنه: إن الذين يشتهون المعصية، ولا يعملون بها ﴿أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم﴾»[١].

والتكاليف الشرعية كلها امتحان واختبار للقلوب قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

قوله ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ المغفرة: ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة عليه، كما جاء في حديث ابن عمر في المناجاة قال ﷺ: «يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه ـ عز وجل ـ حتى يضع عليه كنفه[٢] فيقرره بذنوبه، فيقول:أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟، فيقول: أي رب، فيقول الله عز وجل: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها

---

(١) أخرجه أحمد في كتاب الزهد – فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٣٤٨.
(٢) أي: ستره ورحمته: انظر «النهاية» مادة (كنف).

لك اليوم[١]».

ومنه سمي «المغفر» وهو: البيضة، التي توضع على الرأس، تستره وتقيه السهام ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي: وثواب عظيم، وقدم المغفرة على الأجر؛ لأن التخلية والتطهير قبل التحلية والتزيين، وسمي ثوابهم أجرًا لأن الله ـ عز وجل ـ تكفل به وأوجبه على نفسه، كما أوجب أجرة الأجير على المستأجر، مع أن الله عز وجل لا يجب عليه شيء لخلقه، وإنما أوجب ذلك على نفسه، تفضلاً منه وكرمًا، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:١٢]. وقال عز وجل: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقوله (عظيم) أي: عظيم في كيفيته، وفي كميته، وفي غير ذلك، وإذا كان العظيم سبحانه وصف هذا الأجر بأنه عظيم، فلا يقدر قدر عظمته إلا العظيم سبحانه وتعالى، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة : ١٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «قال الله أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رات، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر فاقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾».[٢]

الفوائد والعبر:

١- تصدير الكلام بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام.

٢- تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان والترغيب بالاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما ذكر بعد هذا النداء من مقتضيات الإيمان، وعدم امتثاله يعد نقصاً في الإيمان.

---

(١) اخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٤١، ومسلم في التوبة ٢٧٦٨، وابن ماجه في المقدمة ١٨٣.

(٢) اخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٤، ومسلم في الجنة ٢٨٢٤، والترمذي في التفسير ٣١٩٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٢٨.

٣- نهي المؤمنين عن رفع أصواتهم فوق صوت النبي والجهر له بالقول، ووجوب غض الصوت عنده، والتأدب معه ﷺ واحترامه في حياته وبعد مماته.

٤- جواز رفع الناس أصواتهم فيما بينهم وجهر بعضهم لبعض مالم يكن في ذلك أذى، أو ما يستنكر قال لقمان لابنه فيما ذكر الله عنه ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩].

٥- أن رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ والجهر له بالقول سبب لحبوط العمل وبطلانه.

٦- أن عمل الإنسان قد يحبط من حيث لا يشعر مما يوجب الحذر من محبطات الأعمال.

٧- ينبغي عدم رفع الصوت والجهر بالقول مع ذوي المكانة في الأمة كالوالد والعالم والكبير والأمير، ونحوهم.

٨- تكريم الله ـ عز وجل ـ وتشريفه لنبيه ﷺ ودفاعه عنه.

٩- ثناء الله ـ عز وجل ـ على الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ﷺ بأن الله أخلص قلوبهم للتقوى وفي مقدمتهم الصحابة ـ رضوان الله عليهم.

١٠- عظم ما أعد الله لمن يغضون أصواتهم عنده ﷺ وخلصت قلوبهم للتقوى من المغفرة الواسعة، والأجر العظيم.

١١- أن التخلية تكون قبل التحلية.

١٢- تأكيد تكفله ـ عز وجل ـ بهذا الجزاء، لهذا سماه أجراً، وأوجبه على نفسه.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾.

صلة الآيتين بما قبلهما:

الآيتان مرتبطتان بما سبق من وجوب الأدب مع رسول الله ﷺ، وعدم رفع الصوت والجهر بالقول عنده، إذ في ندائه ﷺ من وراء الحجرات أذية له في رفع الصوت عنده مع ما في ذلك من عدم مراعاة ظروفه وأحواله.

سبب النزول:

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن الأقرع بن حابس : أنه نادى رسول الله ﷺ - فقال: يا محمد ، يا محمد، إن حمدي لزين، وإن ذمي لشين، فقال النبي ﷺ: «ذاك هو الله».[١]

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ، فقال: يا محمد إن حمدي زين، وإن ذمي شين قال النبي ﷺ: «ذاك هو الله عز وجل»[٢].

وعن زيد بن أرقم قال: اجتمع أناس من العرب، فقالوا: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يك نبياً فنحن أسعد الناس به، وإن يك ملكًا نعش بجناحه، قال: فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما قالوا. فجاؤوا إلى حجرته، فجعلوا ينادونه وهو في حجرته: يا محمد، يا محمد، فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ قال: فأخذ رسول الله ﷺ - بأذني فمدها فجعل يقول: «لقد صدق الله قولك يا زيد، لقد صدق الله قولك يا زيد»[٣].

قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ قرأ أبو جعفر (الحجَرات) بفتح الجيم، وقرأ الباقون بضمها، أي: إن الذين ينادونك ويدعونك من خلف حجرات أزواجك بقولهم: يا محمد، يا محمد، أي: اخرج إلينا.

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٤٨٨، ٦/ ٣٩٣ - ٣٩٤.

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير ٣٢٦٧، والطبري في (جامع البيان) ٢٦/ ٧٧ وقال الترمذي (حديث حسن غريب).

(٣) أخرجه الطبري في (جامع البيان) ٢٦/ ٧٧، وابن أبي حاتم في (تفسيره) ١٠/ ٣٣٠٢ - الأثر ١٨٦٠٧، وذكره ابن كثير في (تفسيره) ٧/ ٣٤٩.

﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ اي: اكثرهم لم ينتفعوا بعقولهم، وذلك بأن تحملهم وتدلهم على الأدب مع رسول الله ﷺ، الذي يجب عليهم احترامه وتوقيره والتأدب معه ﷺ، لما له من المكانة العظيمة عند الله.

ولما لم ينتفعوا بعقولهم نفى عنهم العقل، فكأنهم لا عقول لهم، مع أنهم عندهم العقل الذي هو مناط التكليف قال ﷺ : «رفع القلم عن ثلاثة النائم حتى يستيقظ والصغير حتى يبلغ والمجنون حتى يفيق»[1] فالمجنون والمغمى عليه لا تكليف عليهم؛ لأن الله إذا أخذ ما وهب أسقط ما وجب .

فالعقل المنفي عن أكثرهم في الآية هو العقل الذي هو مناط المدح والذم كما قال عز وجل ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] .

فالعقل عقلان: عقل هو مناط التكليف، ففاقده لا يكلف، وهو المثبت للكفار والعصاة وغيرهم، ولولاه ما كلفوا.

وعقل هو مناط المدح والذم، وهو الذي يثبته الله عز وجل للمؤمنين كما في قوله ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨] لأنهم انتفعوا بعقولهم، فعرفوا بها الحق واتبعوه، ففازوا الفوز العظيم.

وينفيه عن الكافرين والمجرمين، لأنهم لم ينتفعوا بعقولهم فيما يقربهم إلى الله عز وجل ففاتهم النصيب الأوفر، وخسروا الخسران المبين.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ الواو: عاطفة و «لو» حرف امتناع لامتناع وهي شرطية غير جازمة.

اي: ولو ان هؤلاء الذين اخذوا ينادونك من وراء الحجرات (صبروا) فلم ينادوك (حتى تخرج إليهم) ولم يؤذوك بهذا النداء، أو يلجئوك للخروج في وقت أوحال غير مناسب ويشقوا عليك.

---

(١) اخرجه ابو داود في الحدود ٤٤٠٣، والترمذي في الحدود ١٤٢٣، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٤٢ ـ من حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه.

﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: لكان صبرهم وعدم ندائهم لك من وراء الحجرات خيرًا لهم، لأدبهم مع رسول الله ﷺ في عدم رفع الصوت عنده، ومراعاة ظروفه وأحواله وتقدير مكانته القيادية في الأمة، فيكونوا بهذا ممن امتحن الله قلوبهم للتقوى، وأعد لهم المغفرة والأجر العظيم.

وأيضًا يكون خيرًا لهم بأن يخرج إليهم ﷺ وقت خروجه المناسب فيجيبهم على ما عنه يسألون، ويعطيهم ما يطلبون، وبهذا يحصلون على خيري الدنيا والآخرة.

وهكذا ينبغي للأمة أن تقدر لأهل المكانة، وذوي المسؤوليات الكبيرة فيها ظروفهم وأحوالهم من العلماء والملوك والرؤساء والأمراء والوزراء ونحوهم فإن بعض الناس قد ينغص على بعض المسؤولين حياتهم، ويضايقهم في مراجعتهم في بيوتهم، وربما في أوقات نومهم وراحتهم، أو في وقت لا يحبون مقابلة أحد فيه ونحو ذلك. وعلى ذوي المسؤوليات في الأمة في المقابل أن يخصصوا من وقت دوامهم وعملهم اليومي وقتًا لمقابلة الناس، وقضاء حوائجهم، والإجابة على أسئلتهم، ومعرفة متطلباتهم، واستماع شكاواهم.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ «الغفور» و «الرحيم» اسمان من أسماء الله عز وجل «الغفور» على وزن (فعول)، يدل على إثبات صفة المغفرة الواسعة لله عز وجل. والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة كما جاء في حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - في المناجاة[1].

و«الرحيم» على وزن «فعيل» يدل على إثبات صفة الرحمة الواسعة لله - عز وجل - رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، كما قال عز وجل ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨]، ورحمة فعلية يوصلها من شاء من خلقه كما قال عز وجل ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ [العنكبوت: ٢١]، رحمة عامة لجميع الخلق، كما قال عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣، الحج : ٦٥]، ورحمة خاصة بالمؤمنين، كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وقدم «الغفور» على «الرحيم» لأن التخلية قبل التحلية، وقرن بينهما؛ لأن

---

(١) سبق قريباً تخريجه.

وقدم «الغفور» على «الرحيم» لأن التخلية قبل التحلية، وقرن بينهما؛ لأن بالمغفرة زوال المرهوب، وبالرحمة حصول المطلوب.

الفوائد والعبر:

١ـ وجوب التأدب مع الرسول ﷺ ومراعاة ظروفه وأحواله، وعدم الجهر في مناداته وتحاشي أذيته.

٢ـ ذم الذين ينادون الرسول ﷺ من وراء الحجرات بنفي العقل عنهم، وأن الخير كل الخير لهم لو صبروا حتى يخرج إليهم.

٣ـ أن من لم ينتفع بعقله كمن لا عقل له.

٤ـ ينبغي للأمة تقدير ظروف ذوي المسؤوليات الكبيرة فيها، وعدم التضيق عليهم في بيوتهم.

٥ـ إثبات اسمين من أسماء الله ـ عز وجل ـ وهما «الغفور» و «الرحيم»، وأنه ـ عز وجل ـ ذو المغفرة التامة والرحمة الواسعة.

٦ـ الإشارة إلى أن التخلية قبل التحلية بتقديم المغفرة على الرحمة، فبالمغفرة زوال المرهوب، وبالرحمة حصول المطلوب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝﴾

سبب النزول:

عن الحارث بن ضرار قال: «قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام، فدخلت فيه، وأقررت به، فدعاني إلى الزكاة فأقررت بها، وقلت: يا رسول الله، أرجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة، فمن استجاب لي جمعت زكاته. ويرسل إليَّ رسول الله ﷺ رسولاً لإبّان كذا وكذا، ليأتيك ما جمعت من الزكاة، فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له، وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله ﷺ - أن يبعث إليه، احتبس عليه الرسول فلم يأته، فظن الحارث أنه قد حدث فيه سَخْطةٌ من الله عز وجل ورسوله، فدعا بسروات قومه [1] فقال لهم: إن رسول الله - ﷺ - وقت لي وقتًا يرسل إليَّ رسوله ؛ليقبض ما كان عندي من الزكاة ، وليس من رسول الله ﷺ - الخلف، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة كانت فانطلقوا فنأتي رسول الله ﷺ . وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق، أي: خاف - فرجع فأتى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله، إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي.

فضرب[2] رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث، وأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث فقالوا: هذا الحارث، فلما غشيهم قال لهم: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك. قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ كان بعث إليك الوليد بن عقبة، فزعم أنك منعته الزكاة، وأردت قتله. قال: لا والذي بعث محمدًا بالحق ما رأيته بتة، ولا أتاني. فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: «منعت الزكاة، وأردت قتل رسولي؟» قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني، وما

---

(١) أي: أشرافهم.

(٢) أي: بعث.

أقبلت إلا حين احتبس عليّ رسول رسول الله ﷺ - خشيت أن تكون كانت سخطة من الله عز وجل ورسوله ﷺ. قال: فنزلت الحجرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ إلى هذا المكان ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾»[1].

قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ الفاسق: هو الخارج عن طاعة الله عز وجل، ومنه سميت الفأرة فويسقة لخروجها للإفساد، ويقال فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها فتعرضت للفساد. ويطلق الفسق على الكفر، وعلى ما دونه من المعاصي، والمراد بالفاسق هنا مرتكب المعاصي دون الكفر.

قوله (بنبأ) النبأ: هو الخبر الهام، الذي له شأن قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبأ: ١ -٣].

(فتبينوا) قرأ حمزة والكسائي وخلف (فتثبتوا) من التثبت، وقرأ الباقون (فتبينوا) ومعنى القراءتين واحد أي: فتبينوا وتثبتوا وتأكدوا.

﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لأجله. أي: خشية أن تصيبوا قوماً بجهالة، أي: أن تقعوا فيهم بأذيتهم بقول أو بفعل بجهل منكم وعدم علم، وإنما بناءً على أخبار كاذبة وإشاعات، مع براءتهم مما نسب إليهم.

﴿فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ الإصباح في الأصل الدخول في الصباح، وليس مرادًا هنا، وإنما المراد ما هو أعم من ذلك، وهو أن يحصل لهم الندم بعد ذلك الفعل في أي وقت من صباح أو مساء أو ليل أو نهار.

و«ما» في قوله (ما فعلتم) موصولة، أو مصدرية، أي: فتصبحوا على الذين فعلتم، أو على فعلكم (نادمين) أي: متأسفين متحسرين على ما مضى من فعلكم، مما لا يمكن رده، وليس هو في محله بل هو خطأ وظلم وعدوان، فتندموا ولات حين مندم، فإذا وقع الفأس بالرأس – كما يقال - لا ينفع الندم.

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢٧٩، وابن أبي حاتم في (تفسيره) ١٠/ ٣٣٠٣ – الأثر ١٨٦٠٨، والطبراني فيما ذكر ابن كثير في (تفسيره) ٧/ ٣٥١ وأخرجه الطبري في (جامع البيان) ٢٦/ ٧٨ مختصرًا – بمعناه – من حديث أم سلمة وابن عباس رضي الله عنهما.

ولله ما أعظم هذه التوجيهات الربانية التي بها سعادة المرء في دنياه وأخراه، والتي تحفظه بإذن الله عز وجل من أسباب الشقاء في الدنيا والآخرة، فإن الظلم والتعدي سبب للشقاء والندم والحسرة والأسى في الدنيا والآخرة.

ويؤخذ من الآية وجوب التثبت في قبول خبر الفاسق، فلا نقبله مطلقاً، ولا نرده مطلقاً، بل نتثبت فيه فإن دل قرينة على صدقه قبلناه، وإن دل قرينة على كذبه رددناه. وإلا توقفنا فيه.

قال ابن القيم رحمه الله[1] : «وههنا فائدة لطيفة، وهي أنه سبحانه لم يأمر برد خبر الفاسق وتكذيبه جملة، وإنما أمر بالتبين، فإن قامت قرائن وأدلة من خارج تدل على صدقه عمل بدليل الصدق، ولو أخبر به من أخبر. فهكذا ينبغي الاعتماد في رواية الفاسق وشهادته. وكثير من الفاسقين يصدقون في رواياتهم وشهاداتهم، بل كثير منهم يتحرى الصدق غاية التحري، وفسقه من جهات أخر، فمثل هذا لا يردُّ خبره ولا شهادته، ولو ردت شهادة مثل هذا وروايته لتعطلت أكثر الحقوق، وبطل كثير من الأخبار الصحيحة، ولا سيما فسقه من جهة الاعتقاد والرأي، وهو متحر للصدق، فهذا لا يرد خبره ولا شهادته، وأما من فسقه من جهة الكذب، فإن كثر منه وتكرر بحيث يغلب كذبه على صدقه، فهذا لا يقبل خبره ولا شهادته، وإن ندر منه مرة ومرتين ففي رد شهادته وخبره بذلك قولان للعلماء، وهما روايتان عن الإمام أحمد رحمه الله».

وإذا وجب التثبت في خبر الفاسق في عهد الرسالة فيجب التثبت والتأكد في قبول خبره في هذا العصر من باب أولى، والذي تعددت وتنوعت فيه وسائل النشر والإعلان مرئية ومسموعة ومقروءة وتسابق الكثير من ضعاف الإيمان وضعاف النفوس ـ ممن زين لهم الشيطان سوء أعمالهم ـ على تلفيق الأخبار ونشر الإشاعات في هذه الوسائل وبخاصة في شبكة المعلومات الإنترنت، ورسائل الجوالات، والقنوات الفضائية التي يمول أكثرها اليهود، وخصصت لحرب الإسلام وضرب المسلمين بعضهم ببعض.

---

(١) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ١٨٠.

وكل هذا يوجب علينا تمحيص الأخبار والتثبت فيها والتأكد من صحتها، وعرضها على الكتاب والسنة ومنهج سلف الأمة، ورد الشائعات ورفضها واطراحها، وبخاصة ما ينشر في هذه الوسائل المشبوهة والتي استغلها كثير من ضعاف الإيمان وضعاف النفوس، حتى ممن يحسبون على الإسلام وياللأسف، بل ممن يزعمون ويدعون تبني قضايا الأمة والدفاع عنها، وهم أعظم بلية بليت بها الأمة، ضربوها في أغلى شيء لديها وهو وحدتها وتضامنها، واجتماع كلمتها، فقدموا أعظم خدمة لأعداء الإسلام بما ينشرون في هذه الوسائل من أخبار كاذبة، وافتراءات باطلة، وإشاعات مغرضة، تحت شعارات مختلفة تارة دينية، وتارة سياسية، وتارة اقتصادية للتفريق بين المسلمين، وإيجاد العداء والضغائن بين الأمة وحكامها وعلمائها وذوي المسؤوليات فيها، بل بين الأولاد ووالديهم.

ويبدو بعض هؤلاء على هذا الشبكات والقنوات، وكأنه المنقذ للأمة والناصح لها والمدافع عن قضاياها دون غيره وهو - في الحقيقة - من ألد أعدائها.

ويبث بعضهم سمومهم في الخفاء وراء رموز وأسماء مستعارة في السوق السوداء، وفي الحراج العام، لعلمهم أن بضاعتهم مزجاة، وأكثرها سرقات ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨].

خفافيش أعشاها النهار بضوئه فوافقها من ظلمة الليل غيهب[١].

وقد اغتر الكثيرون وانشغلوا بما ينشر في هذه الوسائل من هذه الأخبار الكاذبة، والتحليلات الخاطئة والإشاعات الباطلة فتناقلوها في مجالسهم وكأنها حقائق ومسلمات. فحذار حذار أخي المسلم من وحل هذه المستنقعات؛ شبكة المعلومات وتلك القنوات، وفي الأثر: «على مثلها - يعني الشمس - فاشهد».

فعليك بالاحتياط لدينك، وإمساك اللسان عما لا يعني قال ﷺ «دع ما يريبك إلى

(١) البيت لابن مشرّف، انظر «ديوانه» ص٣٢.

ما لا يريبك»[١] واعلم أن العافية لا يعدلها شيء، وأن السلامة غنيمة.

واستق ثقافتك ومعلوماتك من كتاب الله ـ تعالى ـ وسنة رسوله ﷺ وكتب سلف الأمة. واعرض ما يعرض لك من هذه الأخبار والمقولات على الكتاب و السنة ومنهج سلف الأمة تسلم بإذن الله عز وجل من الحيرة والبلبلة الفكرية والتذبذب والاضطراب النفسي . واحفظ وقتك وعمرك من الضياع وراء هذه الشبكة وتلك القنوات، فإن الكثير من المسلمين وللأسف لم يستفيدوا من شبكة المعلومات (الإنترنت)، بل تضرر منها الكثيرون لأنهم يلهثون وراء الجنس، والإشاعات الباطلة في حين أن غير المسلمين استفادوا من هذه الشبكة. ولقد أظهرت الإحصائيات أن أكثر من ثمانين بالمائة من المشاهدين من المسلمين تضرروا بهذه الشبكة بينما أكثر من ثمانين بالمائة من المشاهدين من غير المسلمين استفادوا منها.

وأخيرًا فإذا تحقق أن ضرر هذه الشبكة أكثر من نفعها بالنسبة للشخص نفسه وجب عليه تركها وحرم عليه مشاهدتها. وهكذا أي أمر غلب شره على خيره يجب تركه؛ لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح في الشريعة الإسلامية الغراء.

ولست بهذا أصدر حكمًا بتحريم هذه الشبكة، إذا أحسن استغلالها واستفيد منها، فهي من أعظم وسائل الدعوة إلى الله عز وجل وتوجيه الناس إلى الخير – أسأل الله أن يصلح أحوال المسلمين ويبصرهم في أمر دينهم ودنياهم.

ويفهم من قوله: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ قبول خبر العدل، ولا إشكال في هذا، لكن لابد من اكتمال نصاب الشهود حسب الأمر المشهود عليه ففي الشهادة على رؤية هلال رمضان يكفي خبر الشاهد الواحد العدل، كما في حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما قال: «تراءى الناس الهلال فرأيته فأخبرت النبي ﷺ ـ فصامه وأمر الناس بصيامه»[٢].

ولابد في الشهادة على السرقة والقتل ونحو ذلك من شاهدين لقوله تعالى

---

(١) أخرجه النسائي في الأشربة ٥٧١١، والترمذي في صفة القيامة والرقائق ٢٥١٨ وقال: «حديث حسن صحيح».
(٢) أخرجه أبو داود في الصوم ـ شهادة الواحد على رؤية هلال رمضان ٢٣٤٢، والدارمي في الصوم ١٦٩١.

﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ولابد في الشهادة على من أصابته جائحة من ثلاثة شهود لحديث قبيصة «حتى يشهد ثلاثة من ذوي الحجا من قومه أن فلاناً قد أصابته جائحة»[1].

ولابد في الشهادة على الزنا من أربعة شهود لقوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ [النساء: ١٥].

قوله ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي: واعلموا أن بين أظهركم رسول الله فعظموه ووقروه وتأدبوا معه وأطيعوه، ولا تتقدموا بين يديه بقول ولا فعل، فإنه أعلم بمصالحكم، وأشفق عليكم منكم، ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم كما قال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦] .

﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ «لو» حرف امتناع لامتناع، وهي شرطية غير عاملة، (لعنتم) العنت: المشقة، والمعنى: لو يطيعكم في كثير مما تختارونه لأنفسكم وتطلبونه، لأوقعكم ذلك في المشقة والحرج، وفي هذا إشارة إلى ضعف آراء البشر وعدم معرفتهم لوجوه المصالح، ما لم يربطوا بوحي السماء قال تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١] .

ولما قال ﷺ «إن الله كتب عليكم الحج فحجوا» قام الأقرع بن حابس فقال: أفي كل سنة يا رسول الله؟ قال ﷺ: «لو قلتها لوجبت، الحج مرة فما زاد فهو تطوع»، وقال ﷺ : «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم»[2].

وقال ﷺ: «إن من أعظم المسلمين في المسلمين جرمًا رجل سأل عن مسألة لم تحرم فحرمت من أجل مسألته»[3].

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة ـ من تحل له المسألة ١٠٤٤، وأبو داود في الزكاة ١٦٤٠، والنسائي في الزكاة ٢٥٩١ ـ من حديث قبيصة بن مخارق ـ رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه في الموضع السابق.

ولهذا أنكر ﷺ على عثمان بن مظعون وأصحابه التبتل والانقطاع للعبادة وقال ﷺ: «أما أنا فأقوم وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[١].

وكذلك أنكر ﷺ على عبد الله بن عمرو بن العاص قوله: «لأصومن النهار ولأقومن الليل ما عشت»[٢].

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ اي: القى محبته في قلوبكم، وهذا أمر خاص به عز وجل، فلا أحد يستطيع تحبيب الإيمان إلى القلوب ووضعه فيها، ولا هدايتها هداية التوفيق والقبول سوى الله عز وجل كما قال عز وجل ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [القصص: ٥٦].

﴿وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ اي: حسّنه في قلوبكم، بذكر شرف الإيمان وفضله وحسّن صفات أهله وما وعد الله به المؤمنين من الفوز بالجنات والأجر العظيم.

والقلوب: جمع قلب، وهو الذي عليه مدار صلاح العمل قال ﷺ «الا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[٣].

وعن أنس: رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «الإسلام علانية، والإيمان في القلب» قال: ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات، ثم يقول: «التقوى ههنا، التقوى ههنا»[٤].

وقال ﷺ: «من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن»[٥].

(١) اخرجه البخاري في النكاح ٥٠٦٣، ومسلم في النكاح ١٤٠١، والنسائي في النكاح ٣٢١٧ـ من حديث أنس ـ رضي الله عنه.

(٢) اخرجه البخاري في الصوم ١٩٧٦، ومسلم في الصيام ١١٥٩، وابو داود في الصوم ٢٤٢٧، والنسائي في الصيام ٢٣٩١ ـ من حديث عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنه.

(٣) اخرجه البخاري في الإيمان ٥٢، ومسلم في المساقاة ١٥٩٩، وابو داود في البيوع ٣٣٢٩، والنسائي في البيوع ٤٤٥٣، والترمذي في البيوع ١٢٠٥، وابن ماجه في الفتن ٣٩٨٤ – من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٤) اخرجه احمد ٣/ ١٣٤ – ١٣٥.

(٥) اخرجه الترمذي في الفتن ٢١٦٥، وابن ماجه في الأحكام ٢٣٦٣، واحمد ١/ ١٨، ٢٦ – من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وقال الترمذي (حسن صحيح غريب). واخرجه احمد ايضاً ٣/ ٤٤٦ – من حديث عامر بن ربيعة رضي الله عنه.

ومحل القلب هو الصدر كما قال عز وجل﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] وهو أداة ومحل العقل مع ارتباط ذلك بالمخ.

﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ (كرَّه إليكم): أي جعل ذلك مكروهًا ومبغضًا عندكم.

و«الكفر» لغة: الستر، ومنه سمي الزارع كافرًا، لأنه يستر البذر ويغطيه في الأرض، وسميت الكفارة كفارة؛ لأنها تستر الذنب وتغطيه، وسمي الليل كافرًا؛ لأنه يستر الكون ويغطيه بظلامه، وسمي وعاء طلع النخل كافورًا أو كفرًا؛ لأنه يستر الثمر الذي بداخله ويغطيه، إلى غير ذلك.

والكفر شرعاً: هو إنكار وجود الله وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشريعته أو شيء من ذلك، وهو ضد الإيمان. والمراد بالكفر هنا: الكفر المخرج من الملة.

وقد يكون الكفر دون المخرج من الملة كما في قوله ﷺ: «اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في الأنساب، و النياحة على الميت[1]» ومنه كفران النعم.

والفسوق: الخروج عن طاعة الله تعالى وعن الإصلاح إلى الإفساد، ومنه سميت الفأرة فويسقة لخروجها من جحرها للإفساد. والفسق والفسوق قد يطلق على الكفر كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [السجدة: ٢٠].

وقد يطلق على ما دون الكفر كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ٩٧]، والمراد به في الآية هنا: الذنوب الكبار خاصة لذكر الكفر قبله، والعصيان بعده.

والعصيان والمعاصي: عدم الطاعة، والمراد بالعصيان هنا: الذنوب الصغار لذكر الكفر والفسوق قبله. وقد يحمل العصيان هنا على ما يشمل الكفر والفسوق وغير ذلك.

قال ابن كثير رحمه الله[2]: «أي: وبغض إليكم الكفر والفسوق، وهي الذنوب الكبار والعصيان وهي جميع المعاصي وهذا تدرج لكمال النعمة».

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٦٧، والترمذي في الجنائز ١٠٠١ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) في (تفسيره) ٧/ ٣٥٢.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ الإشارة لمن حبب الله إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وأشار إليهم بالإشارة للبعيد إشارة لعظم منزلتهم ورفعة مكانتهم. و«هم»: ضمير منفصل للتوكيد.

فأكد هذه الجملة بثلاثة مؤكدات، وهي: كونها اسمية، وطرفاها معرفين وضمير الفصل؛ لتأكيد أن هؤلاء هم الراشدون حقًا الذين بلغوا من الرشد غايته.

والرشد: هو الاهتداء إلى طرق الخير عامة، وهو بالنسبة لكل شيء بحسبه، فالرشد في الدين: الاستقامة عليه، والرشد في المال: حسن التصرف فيه، والرشد في الولاية: حسن التصرف فيما ولي عليه، وهكذا.

فالمراد بـ (الراشدون) هنا الذين بلغوا من الرشد غايته في أمور دينهم ودنياهم وأخراهم ولهذا جاء في الدعاء في حديث عبيد الله بن عبد الله الزرقي عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين»[1].

﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ الفضل: الزيادة والتفضل.

«ونعمة» أي: ونعمة منه عز وجل أي: ما حصل لكم من تحبيب الإيمان وتزيينه في قلوبكم، وتكريه الكفر والفسوق والعصيان إليكم، وجعلكم من الراشدين هو زيادة وتفضل من الله وإنعام منه عليكم، لا باستحقاقكم ذلك، ولا بحولكم وقوتكم، فياله من فضل ويالها من نعمة لمن عرف قدر ذلك. نسأل الله التوفيق.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ «عليم» و «حكيم» اسمان من أسماء الله ـ عز وجل ـ كل منهما على وزن «فعيل» يدل «العليم»، على أنه عز وجل ذو العلم التام، الذي هو إدراك الأشياء على ما هي عليه إدراكًا جازمًا في أطوارها الثلاثة قبل الوجود، وبعد الوجود وبعد العدم، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

ويدل «الحكيم» على إثبات صفة الحكم والحكمة له ـ عز وجل ـ، وأنه ذو

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٤٢٤.

الحكم التام النافذ بأقسامه الثلاثة:

الحكم الكوني، وهو: كل ما يقع في الكون من حركة أو سكون، ومنه قول أكبر اولاد يعقوب فيما حكى الله عنه أنه قال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠]، اي: أو يحكم الله لي حكمًا كونيًا.

والحكم الشرعي: هو ما شرعه الله من أحكام شرعية كأحكام الصلاة والزكاة والصيام وغير ذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ﴾ [الممتحنة: ١٠]، أي: حكمه الشرعي.

والحكم الجزائي وهي أحكامه الجزائية في الآخرة، حيث يجازي كلاً بعمله إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر كما قال عز وجل ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

ويجمع الأحكام الثلاثة قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ﴾ [يوسف: ٤٠] أي: بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي. وكقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨].

وهو عز وجل ذو الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية. فالحكمة الغائية: هي الغاية من حدوث حكم ما من الأحكام الكونية، أو من مشروعية حكم من الأحكام الشرعية أو الجزائية.

والحكمة الصورية هي: الحكمة من مجيء الحكم سواء الحكم الكوني أو الشرعي أو الجزائي على هذه الصورة، إذ لكل حكم من الأحكام حكمة غائية وحكمة صورية.

فهو عز وجل عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

ويؤخذ من اجتماع «العليم» و«الحكيم» كما له عز وجل، وكمال صفاته، فإنه عز وجل مع كمال علمه وكمال حكمه وحكمته يزداد باجتماع هذين الاسمين «العليم» و«الحكيم» كمالاً إلى كمال؛ لأن العلم يحتاج إلى الحكمة وإلى الحكم أيضًا، كما أن الحكمة والحكم يحتاج كل منهما إلى العلم؛ولهذا كثيرًا ما يقرن عز وجل بين هذين الاسمين؛ لأن اجتماعهما – مع كمالهما في حقه عز وجل يزيد كماله إلى كمال.

ولهذا نشاهد – ولله المثل الأعلى – أن من توفيق الله للعالم أن يجمع الله له بين العلم والحكمة، فتأتي أحكامه وفتاواه وتوجيهاته بإذن الله وتوفيقه أسد وأصوب، ويكون لها قبول عند الناس لما عرفوا عنه من العلم والحكمة ويحبونه ويشهدون له بذلك وأحسب أن ممن جمع الله له بين هتين الصفتين في هذا العصر، فأحبه الناس، وشهدوا له بالفضل ولقيت فتاواه قبولاً عندهم سماحة شيخنا الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، فأوصي جميع المسلمين بالاستفادة من آثاره العلمية وفتاويه – ولا أزكي على الله أحدًا.

أما من كان عنده علم وليس عنده حكمة، فتجده يتسرع في الأحكام والفتاوى، وربما كان ضرره أكثر من نفعه، وما أكثر هؤلاء، وهذا ليس من آداب أهل العلم وليس من الورع في الفتوى، ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم يتدافعون الفتوى، وهؤلاء يقولون: بل نحن المفتون ـ وإن خالفوا جماهير العلماء، ومع أن هؤلاء لم يأتوا ولن يأتوا بجديد. فالخلاف في المسائل موجود منذ القدم ـ لكن الورع كل الورع والخوف من الله أن لا يتسرع الإنسان في الفتوى، وأن لا يحرص عليها ما وجد مندوحة عنها وأن لا يتجرأ على مخالفة ما عليه جمهور أهل العلم وما عليه علماء عصره ويعمل على إشهار ذلك مما يسبب ضرب أقوال أهل العلم بعضها ببعض، وتشكيك العامة في دينهم وعلمائهم، وأن يربي طلابه على احترام أقوال أهل العلم ويبصرهم بالخلاف وأسبابه، وأن لا يعتقدوا أن الحق ما قاله شيخهم فقط. والله المستعان.

كما أن الواجب عليهم أن يحرصوا على ما فيه جمع كلمة الأمة على علمائها فإن الخلاف شر كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حين أتم الصلاة وراء عثمان رضي الله عنه وكان عبد الله لا يرى الإتمام في السفر فقيل له في ذلك فقال: «الخلاف شر». رحمك الله يا أبا عبد الرحمن، صدقت بأبي أنت وأمي إن الخلاف شر.

وإن من توفيق الله ـ عز وجل ـ لطالب العلم ـ أن يترسم خطى الأئمة المجتهدين والعلماء المحققين، ويقتفي آثارهم وأن يبتدئ من حيث انتهوا، فيجمع إلى علمه علوم من سبقوه وحكمتهم وأناتهم فيسلم ـ بإذن الله عز وجل ـ من عثرات البدايات والتصدر المبكر، وخفة وعجلة الشباب، فلا يقول اليوم قولاً يندم عليه غداً وقد قال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه: «من كان مستناً فليستن بمن قد مات فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة».

الفوائد والعبر:

١ ـ تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام.

٢ـ تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان، والترغيب بهذا الوصف وأن امتثال ما بعد هذا النداء من أمر وتوجيهات من مقتضيات الإيمان.

٣ـ وجوب التثبت في خبر الفاسق.

٤ـ وجوب تمحيص الأخبار والتثبت فيها، والتأكد من صحتها، وعرضها على الكتاب والسنة، ومنهج سلف الأمة، ورد الشائعات ورفضها واطراحها وتنزيه الأسماع والأبصار مما تبثه وسائل الإعلام المشبوهة.

٥ـ التحذير الشديد من أذية الآخرين والوقوع فيهم بقول أو فعل بغير جرم منهم، وإنما بناء على وشايات فيهم وإشاعات كاذبة مغرضة.

٦ـ التثبت في الأمور وعدم التسرع لئلا يندم الإنسان حين لا ينفع الندم.

٧ـ حفظ الإسلام لحقوق الآخرين، وحرصه على إبعاد المسلم عمّا يضره ويندم عليه.

٨ـ امتنان الله ـ عز وجل ـ على المؤمنين بوجود الرسول ﷺ في حياته بينهم يدلهم على الخير ويحذرهم من الشر، وما يشق عليهم.

٩ـ لو ترك الناس لأنفسهم، أو أطاعهم الرسول ﷺ في كثير من الأمر لشقوا على أنفسهم ولما عرفوا مصالحهم.

١٠ ـ حرصه ﷺ على أمته وشفقته عليهم ونصحه لهم وعلمه بما يصلحهم.

١١ ـ فضل الله ـ عز وجل ـ ونعمته على المؤمنين حيث حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وجعلهم من الراشدين.

١٢ ـ أن هداية القلوب بيد الله ـ عز وجل ـ.

١٣ ـ امتداح الله ـ عز وجل ـ للراشدين وثناؤه عليهم، والإشارة لرفعة منزلتهم.

١٤ ـ إثبات اسمين من أسماء الله ـ عز وجل ـ وهما «العليم» و«الحكيم» وأنه ـ عز وجل ـ ذو العلم الواسع، والحكم التام، والحكمة البالغة.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾

سبب النزول:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «قيل للنبي ﷺ: لو أتيت عبد الله بن أبيّ؟ فانطلق إليه النبي ﷺ - وركب حمارًا، وانطلق المسلمون يمشون معه وهي أرض سبخة، فلما أتاه النبي ﷺ - قال: إليك عني، فوالله قد آذاني ريح حمارك، فقال رجل من الأنصار: و الله لحمار رسول الله ﷺ - أطيب ريحًا منك. قال: فغضب لعبد الله رجال من قومه، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، قال: فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنه أنزلت فيهم: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾»[1].

قوله ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾

الطائفة: الجموعة من الناس قليلة كانت أو كثيرة.

(اقتتلوا) أي: حصل بينهم اقتتال، والاقتتال: ما كان بين طرفين.

وإن مما يحز في قلب كل مسلم ويندى له الجبين أن الاقتتال اليوم بين المسلمين أنفسهم أكثر من الاقتتال مع أعدائهم الكفار، وأن دماء المسلمين التي تراق على أيدٍ مسلمة أضعاف أضعاف الدماء التي تراق منهم على أيدي الكفار وكما قيل:

ما يبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه[2]

نسأل الله تعالى أن يصلح أحوال المسلمين، ويجمع كلمتهم على الحق.

﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ أي: أصلحوا بين الطائفتين المقتتلتين من المؤمنين بالأخذ بالطرق التي يكون بها الصلح، والتوسط للقضاء على أسباب هذا الاقتتال، وما ينتج

---

(١) أخرجه البخاري في الصلح ٢٦٩١، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٩٩، وأحمد ٣/ ١٥٧، ٢١٩.

(٢) البيت لصالح عبد القدوس.

عنه من الاختلاف، وفساد ذات البين التي لا تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين كما قال ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة»؟ قالوا: بلى. قال: «إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة»[١] قال الترمذي ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: «هي الحالقة، لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين».

﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ أي: فإن لم تستطيعوا الإصلاح بينهما، أو بغت إحداهما على الأخرى بعد الصلح. ومعنى بغت: تعدت وتطاولت على الأخرى وظلمتها. والبغي: العدوان والتطاول والظلم.

﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾ أي: فقاتلوا الطائفة الباغية التي تبغي على الأخرى. والأمر للوجوب.

﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: حتى ترجع الفئة الباغية إلى أمر الله وحكمه الشرعي فتكف عن البغي والعدوان.

ويؤخذ من الآية قتال الفئة الباغية وفي الحديث: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا. قال يا رسول الله هذا أنصره مظلومًا فكيف أنصره ظالمًا؟ قال: تكفه عن الظلم، فذاك نصرك إياه»[٢].

﴿فَإِن فَآءَتۡ﴾ أي: فإن رجعت الطائفة الباغية عن البغي ولزمت حكم الله وشرعه.

﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾ فيما تقولون لهما وفيما تطالبون به كلا منهما من التنازل عن شيء من حقه للطائفة الأخرى وغير ذلك.

فالإصلاح الأول لوقف القتال بينهما، والإصلاح الثاني للتسوية بينهما فيما لكل منهما على الأخرى من حقوق أو متلفات.

﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ﴾: أي: اعدلوا، مأخوذ من «أقسط» الرباعي الذي معناه: عدل وأنصف،

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٥٠٩، وأبو داود في الأدب ٤٩١٩ ـ من حديث أبي الدرداء ـ رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري في المظالم والغصب – أعن أخاك ظالمًا أو مظلومًا ٢٤٤٣، والترمذي في الفتن ٢٢٥٥ – من حديث أنس رضي الله عنه وأخرجه البخاري أيضًا من حديث جابر رضي الله عنه في المناقب ٣٥١٨، ومسلم في البر والصلة – نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا ٢٥٨٤، والترمذي ٣٣١٥.

واسم الفاعل منه مقسط وليس من «قسط» الثلاثي الذي معناه: جار وظلم، واسم الفاعل منه «قاسط» ومنه قوله تعالى ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥].

فإن لم يكن الإصلاح بالعدل والقسط بل كان بالجور والظلم فلا يعد ذلك من الإصلاح، بل هو من الإفساد، كما في بعض الإصلاحات بين الأطراف التي لا تقوم على العدل بل على الضغط على أحد الخصمين، أو إماتة القضية حتى يرضى صاحب الحق ببعض حقه ليأسه من وصول حقه إليه، فهذا صلح حرم حلالاً أو أحل حرامًا، وفي حديث عمرو بن عوف المزني أن رسول الله ﷺ قال: «الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحًا حرم حلالاً أو أحل حرامًا»[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[٢] أي: الذين يعدلون في أنفسهم وأهليهم وما ولوا، كما جاء في الحديث.

وفي الآية إثبات صفة المحبة لله عز وجل على ما يليق بجلاله وعظمته، فهو عز وجل يحب المؤمنين العادلين، وإذا كان عز وجل يحبهم فلا تسأل عما أعد لهم من الفضل، ولهذا قال ﷺ: «المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»[٣].

ويفهم من قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾، عدم محبته للظالمين الجائرين، كما قال عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧، ١٤٠].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ هذا كالتعليل لقوله ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ الآية (إنما) أداة حصر، وهي كافة ومكفوفة، أي: إنما المؤمنون إخوة في الدين تربطهم أخوة الإيمان وفي الحديث: «وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»[٤].

---

(١) أخرجه الترمذي في الأحكام ١٣٥٢، وابن ماجه في الأحكام ٢٣٥٣.

(٢) كما قال تعالى (إن الله يحب المقسطين) [المائدة: ٤٢، الممتحنة: ٨].

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة - فضل الإمام العادل ١٨٢٧، والنسائي في آداب القضاة - فضل الحاكم العادل ٥٣٧٩ - من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠٦٥، ومسلم في البر - تحريم الظلم ٢٥٥٩، وأبو داود في الأدب - الستر على =

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، و الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»[1].

وعن صفوان بن عبد الله عن أم الدرداء رضي الله عنها أنها قالت له: أتريد الحج العام فقلت: نعم: قالت: فادع الله لنا بخير، فإن النبي ﷺ كان يقول: «دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه، قال الملك الموكل: آمين، ولك بمثله، قال صفوان: فخرجت إلى السوق، فلقيت أبا الدرداء، فقال لي مثل ذلك يرويه عن النبي ﷺ[2]».

وقال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»[3].

وقال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا، وشبك بين أصابعه»[4].

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، يألم المؤمن لأهل الإيمان كما يألم الجسد لما في الرأس»[5].

﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ﴾ قرأ يعقوب ﴿بَيۡنَ إِخۡوَتِكُم﴾ بكسر الهمزة وإسكان الخاء

=

المسلم ٤٩١٠. والترمذي في البر والصلة ١٩٣٥ - من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(١) أخرجه مسلم في الذكر - فضل الاجتماع على تلاوة القرآن والذكر ٢٦٩٩، وأبو داود في الصلاة ١٤٥٥ وفي الأدب ٤٩٤٦، والترمذي في الحدود - ما جاء في الستر على المسلم ١٤٢٥، وابن ماجه في المقدمة - فضل العلماء والحث على طلب العلم ٢٢٥ وأحمد ٢/ ٢٥٢، ٢٧٤.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٧٣٣، وأبو داود في الوتر - الدعاء بظهر الغيب ١٥٣٤.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب - رحمة الناس والبهائم ٦٠١١، ومسلم في البر - تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ٢٥٨٦، وأحمد ٤/ ٢٦٨ - من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الصلاة - تشبيك الأصابع في المسجد وغيره ٤٨١، ومسلم في البر - تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ٢٥٨٥، والنسائي في الزكاة - أجر الخازن إذا تصدق بإذن مولاه ٢٥٦٥، والترمذي في البر - ما جاء في شفقة المسلم على المسلم ١٩٢٨، وأحمد ٤/ ٤٠٤ - ٤٠٥ - من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٥) أخرجه أحمد ٥/ ٣٤٠ وقال ابن كثير في (تفسيره) ٨/ ٣٥٥ : «تفرد به، ولا بأس بإسناده».

وتاء مكسورة على الجمع، وقرأ الباقون ﴿بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ بفتح الهمزة والخاء، وياء ساكنة على التثنية.

أي: فاصلحوا بين أخويكم المتقاتلين وجوبًا، فلا يجوز أن يقف المسلمون من الفئات المتقاتلة من إخوانهم المسلمين موقف المتفرج كما هو حال كثير من المسلمين اليوم، أو ربما يعمد بعضهم ويعمل على إشعال تلك الفتنة ـ نسأل الله العافية ـ ولا شك أن الاستعمار جنى ثمار تمزيقه للمسلمين وتفريقهم إلى دويلات بل وإيجاده روح العداء بين الدول الإسلامية فاصبح حال المسلمين اليوم كما قال الشاعر:

فتفرقوا شيعًا فكل مدينة ... فيها أمير المؤمنين ومنبر

ولكن هذا لا يعفي المسلمين من التبعة والمسؤولية أمام الله ـ عز وجل ـ فإنهم — وهم أكثر من مليار مسلم — لو صدقوا الله لنصرهم الله، ولما استطاع أن ينال منهم العدو مهما كان. نسأل الله أن يصلح أحوالنا وأحوال المسلمين في كل مكان.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: لأجل أن يرحمكم الله برحمته الواسعة التي بها سعادة الدنيا والآخرة، وهذا وعد من الله، ووعده حق وصدق فبالقيام بحقوق المؤمنين والإصلاح بينهم وتقوى الله تحصل لنا الرحمة من الله عز وجل.

ويؤخذ من الآية أن الإيمان والأخوة الإيمانية لا يزولان مع وجود الاقتتال كغيره من كبائر الذنوب التي هي دون الشرك، وعلى هذا مذهب أهل السنة والجماعة، خلافًا للخوراج والمعتزلة.

ومن هذا قوله ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»[1] أي: كفر دون كفر، وقوله ﷺ: «اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في الأنساب والنياحة على الميت»[2].

---

(١) اخرجه البخاري في الإيمان ـ خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر ٤٨، ومسلم في الإيمان ـ قول النبي ﷺ سباب المسلم فسوق وقتاله كفر ٦٤، والنسائي في تحريم الدم ٤١٠٥، والترمذي في البر والصلة ١٩٨٣، وابن ماجه في المقدمة ٦٩ ـ من حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه.

(٢) اخرجه مسلم في الإيمان ـ إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة ٩٣٤ ـ من حديث أبي مالك الأشعري ـ رضي الله عنه.

قال ابن كثير:[١] «فسماهم مؤمنين مع الاقتتال، وبهذا استدل البخاري على أنه لا يخرج من الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم، ثم ذكر حديث أبي بكرة أن رسول الله ﷺ خطب يومًا، ومعه على المنبر الحسن بن علي، فجعل ينظر إليه مرة وإلى الناس أخرى ويقول: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين[٢]» فكان كما قال صلوات الله وسلامه عليه، أصلح الله به بين أهل الشام وأهل العراق بعد الحروب الطويلة والواقعات المهولة».

الفوائد والعبر:

١ـ وجوب الإصلاح بين الطوائف المتقاتلة من المؤمنين ولا يجوز للمسلمين الوقوف منها موقف المتفرج كما هو حال المسلمين اليوم.

٢ـ أن التقاتل بين المؤمنين لا يخرجهم من الإيمان.

٣ـ وجوب قتال الطائفة الباغية حتى ترجع إلى الحق.

٤ـ تأكيد أمر الصلح بين المسلمين وأهميته، وأنه يجب كونه بالعدل والقسط.

٥ـ إثبات صفة المحبة لله ـ عز وجل.

٦ـ فضل المقسطين ويكفيهم شرفاً أن الله يحبهم. ويفهم من ذلك ذم الظالمين وعدم محبة الله لهم.

٧ـ إثبات الأخوة بين المؤمنين، وأنها لا تزول بالتقاتل بينهم لكن يجب إصلاح ذات بينهم.

٨ـ وجوب تقوى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وأنها سبب لرحمة أرحم الراحمين.

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٣٥٣.

(٢) أخرجه البخاري في الصلح – باب قول النبي ﷺ للحسن: إن ابني هذا سيد ٢٧٠٤، وأبو داود في السنة ٤٦٦٢ والنسائي في الجمعة ١٤١٠، والترمذي في المناقب ٣٧٧٣.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾.

صلة الآية بما قبلها:

أمر الله عز وجل في الآيتين السابقتين بالإصلاح بين المؤمنين والمحافظة على الأخوة بينهم ثم نهى عمّا يكون سبباً في العداوة بينهم من السخرية واللمز والتنابز بالألقاب والظن السيء والتجسس والغيبة في هذه الآية وما بعدها إلى قوله ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ السخرية: هي الاستهزاء والازدراء والاحتقار للآخرين واستصغارهم وهو من الإعجاب بالنفس والكبر الذي هو من أعظم الكبائر والمحرمات. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة. قال: «إن الله جميل يحب الجمال. الكبر: بَطَر الحق وغمط الناس[(١)]»[(٢)]

والقوم: هم الجماعة من الناس الذكور والإناث في الأصل، لكن المراد بقوله هنا ﴿قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ الرجال خاصة لذكر النساء بعدهم منفردات فالمعنى هنا: لا يسخر رجال من رجال.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي: عسى أن يكون القوم المسخور منهم خيرًا وأفضل من القوم الساخرين بهم - كما هو الواقع غالبًا؛ لأن السخرية بالناس تدل على نقص في الساخر فهو بسخريته من الآخرين يريد تكميل ما فيه من نقص، كما تدل على أنه بلغ من الشر نهايته، كما قال ﷺ: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»[(٣)].

---

(١) بطر الحق: رده. وغمط الناس: احتقارهم.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ٩١، وأبو داود في اللباس ٤٠٩١، والترمذي في البر والصلة ١٩٩٩، وابن ماجه في المقدمة ٥٩.

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٦٤. من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ أي: ولا يسخر نساء من نساء عسى أن يكون النساء المسخور منهن خيرًا وأفضل من النساء الساخرات بهن. وخص النساء بالذكر بعد قوله: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ والذي إذا أطلق وحده يشمل الجنسين إشارة – و الله أعلم – إلى كثرة السخرية بين النساء – كما هو واقع – لضعف عقولهن ودينهن.

ويؤخذ من الآية تحريم السخرية بالآخرين، وأن المسخور منه حري أن يكون خيرًا وأفضل من الساخر؛ لأن الله عز وجل قال: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ وعسى من الله واجبة كما قال ابن عباس وغيره. وهذا يؤكد أن المسخور منه خير من الساخر غالبًا.

﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ اللمز: هو التنقص للآخرين بالقول. والهمز هو التنقص للآخرين وعيبهم بالفعل بالإشارة باليد والحواجب ونحو ذلك كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، وقال تعالى ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١١]، أي: همّاز للناس يحتقرهم ويزدريهم وينتقصهم بفعله، ومشاء بالنميمة بينهم بقوله.

ومعنى قوله ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا يلمز بعضكم بعضًا. ولمز المؤمن لأخيه المؤمن بمثابة لمزه لنفسه لهذا قال: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ كما قال تعالى ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١]، اي ليسلم بعضكم على بعضكم، وقال تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، أي: لا يقتل بعضكم بعضًا. وأيضاً فإن لمز الإنسان لأخيه سبب لأن يلمزه أخوه، كما في الحديث: «لعن الله من لعن والديه. قيل كيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يسب الرجل أبا الرجل، فيسب أباه ويسب أمه، فيسب أمه»[1].

واللمّاز الهمّاز مرتكب لكبيرة من كبائر الذنوب، لأن الله توعده بالعذاب فقال ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، واللمز والتنقص إن كان لعيب خِلْقي فهذا فيه تنقص للخالق سبحانه وتعالى، وإن كان لعيب خُلُقي فقد يعافيه الله ويبتليك، والواجب على المؤمن عون أخيه المؤمن والدفاع عنه ونصحه إذا وقع في مخالفة قال

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٥٩٧٣، ومسلم في الإيمان ٩٠، وأبو داود في الأدب ٥١٤١، والترمذي في البر والصلة ١٩٠٢ـ من حديث عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما.

ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»[(١)].

وقال ﷺ: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، و الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه[(٢)]».

وقال ﷺ:«من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة»[(٣)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا و لا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولايبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ههنا، ويشير إلى صدره ثلاث مرات، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»[(٤)].

وإذا كان هذا هو واجب المسلم على المسلم بل الواجب عليه ما هو أعظم من ذلك وهو أن يحب له ما يحب لنفسه، الأمر الذي لا يتم إيمان العبد إلا به كما قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[(٥)] فكيف يليق به أن يسخر منه أو يلمزه و يتنقصه؛ ولهذا سمى الله الأخ المسلم نفسًا لأخيه المسلم لأن المؤمنين ينبغي أن يكون هذا حالهم. قال ﷺ فيما رواه النعمان بن بشير رضي الله عنه : «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[(٦)].

فيا لها من مبادئ سامية وآداب عظمية وأخلاق كريمة – لو أخذنا بها لكان لنا شأن– فالله المستعان.

---

(١) سبق تخريجه قريبًا.

(٢) سبق تخريجه قريبا.

(٣) أخرجه الترمذي في البر والصلة ١٩٣١ – من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه. وقال الترمذي «حديث حسن».

(٤) سبق تخريجه قريباً.

(٥) أخرجه مسلم في الإيمان ٤٥، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠١٦، والترمذي في صفة القيامة ٢٥١٥، وابن ماجه في المقدمة ٦٦ – من حديث أنس رضي الله عنه.

(٦) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠١١، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٦، وأحمد ٤/ ٢٦٠.

﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ التنابز: التداعي والتنادي على وجه يشعر بالكراهة. والألقاب: جمع لقب، واللقب: اسم لما يسمى به المرء غير اسمه الأول - مشعرًا بمدح أو ذم. والمراد به هنا ما أشعر بذم.

والمعنى: لا يُعيِّر أحدكم أخاه ويلقبه بلقب يكرهه ويسوؤه سماعه فهذا محرم ولا يجوز، بل يجب أن يدعو المسلم أخاه بأحب الأسماء إليه.

قيل: إنهم كانوا يقولون لمن أسلم من أهل الكتاب: يا يهودي أو يا نصراني، وروي أن الآية نزلت في بني سلمة.

لكن إن كان اللقب غير مذموم، بل مما يميزه عن غيره ونحو ذلك على سبيل التعريف لا على سبيل التنقص والاحتقار فهذا لا بأس به كما جاء في ذكر بعض رواة الحديث : «الأعمش» و «الأعرج» ونحو ذلك.

﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ بئس: أي : قبح، والفسوق: الخروج عن طاعة الله تعالى بالسخرية بالآخرين ولمزهم والتنابز بالألقاب ونحو ذلك.

﴿بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أي: بعد الإيمان الذي حرم عليكم هذه الأشياء، وأوجب عليكم الأخوّة في الله.

أي: قبح وساء أن تنتقلوا من وصف الإيمان إلى وصف الفسق بارتكابكم هذه الأعمال.

﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ «من» شرطية، و«لم» حرف نفي وجزم وقلب، و«يتب» فعل الشرط. وجوابه جملة: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ اقترنت بالفاء لأنها جملة اسمية. أي: ومن لم يتب من تلك الأعمال التي هي من الفسوق (فأولئك هم الظالمون). الذين بلغوا مبلغًا عظيمًا في الظلم، وأكد هذا المعنى بكون الجملة اسمية، معرفة الطرفين وبضمير الفصل «هم».

والتوبة: هي الرجوع من المعصية إلى الطاعة. قال ابن القيم[1]: «والتائب: هو الراجع إلى أمر الله من نهيه، وإلى طاعته من معصيته».

وشروطها خمسة: الأول: الإخلاص لله عز وجل، فلا تكون خوفاً من الخلق أو

---

(١) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ١٨١، ١٨٢.

طمعاً فيما عندهم.

الثاني: الإقلاع عن المعصية وتركها فإن كان فيها حق لآدمي رده؛ لأنه لا يُعد مقلعاً عن المعصية في هذه الحال حتى يرد حقوق الآدميين إليهم، إن أمكن ردها، وإن لم يمكن ردها كالسخرية واللمز والتنابز بالألقاب والغيبة والنميمة استحل منها إن امكن من غير مفسدة كان يكونوا قد علموا بذلك، فإن لم يمكن أو خاف ترتب مفسدة على ذلك كما في حال إذا لم يعلموا بذلك استغفر الله لهم واثنى عليهم في المجالس التي نال منهم فيها. قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وفي الحديث: «كفارة من اغتبته أن تستغفر له»[١].

الثالث: الندم على فعل المعصية والتحسر، والحياء من الله ـ عز وجل.

الرابع: العزم على عدم العودة إلى المعصية، فإن لم يعزم على تركها لم تصح توبته، وإن عزم على تركها لكنه وقع فيها مرة أخرى فعليه تجديد التوبة.

الخامس: أن تكون في وقتها، قبل طلوع الشمس من مغربها، وقبل بلوغ الروح الحلقوم[٢].

والظالمون: جمع ظالم. والظلم وضع الشيء في غير موضعه على سبيل التعدي، وهو النقص قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾[الكهف: ٣٣].

وأظلم الظلم الشرك بالله كما قال تعالى عن لقمان أنه قال لابنه ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان: ١٣]. وإنما كان الشرك أظلم الظلم؛ لأن حق الله أعظم الحقوق وأوضحها؛ فإنه تعالى خلق ورزق وأنعم على الخلق بسائر النعم وأعظمها نعمة الإسلام.

أي: من لم يتب ويرجع عما اقترفه من المعاصي من ترك واجب أو ارتكاب محرم ومن السخرية بالآخرين ولمزهم والتنابز بالألقاب والفسوق بعد الإيمان وغير ذلك فأولئك الذين بلغوا الغاية في الظلم، فالناس قسمان: تائب وظالم. قال ابن القيم[٣]: «وأوقع اسم

---

(١) اخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» ٢٩٣، والبيهقي في «شعب الإيمان» ٦٧٨٦.

(٢) انظر تفصيل الكلام على التوبة في «تفسير آيات الأحكام في سورة النساء» في الكلام على قول الله تعالى: ﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة﴾ [الآيتين: ١٧، ١٨].

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ١٨١.

الظالم على من لم يتب، ولا أظلم منه لجهله بربه وبحقه وبعيب نفسه وآفات أعماله».

ويؤخذ من الآية تحريم السخرية بالآخرين ولمزهم، وتحريم التنابز بالألقاب، وأنواع الفسوق وأن ذلك من الظلم، ووجوب التوبة والإنابة إلى الله عز وجل فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس توبوا إلى الله، فوالله إني لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»[١] وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما «فإني أتوب في اليوم مائة مرة»[٢] وكان يقول: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي»[٣].

الفوائد والعبر:

١ـ تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام.

٢ـ مناداة المؤمنين بوصف الإيمان تشريفاً وتكريماً لهم، وحثاً على الاتصاف بهذا الوصف وعلى اجتناب ما بعده من نواهٍ.

٣ـ تحريم السخرية بين المؤمنين رجالاً ونساءً، وتأكيد ذلك في حق النساء، لكثرة السخرية بينهن.

٤ـ أن المسخور منه غالباً خير من الساخر، لأن الساخر لولا نقصه ما سخر بالآخرين، فهو يريد تكميل نقصه بهذه السخرية.

٥ـ النهي عن تنقص المؤمنين بعضهم بعضاً، وأن تنقص المؤمن لأخيه بمثابة تنقصه لنفسه.

٦ـ تحريم التنابز بالألقاب.

٧ـ التنفير من السخرية بالمؤمنين وتنقصهم ونبز بعضهم بعضاً بالألقاب وتقبيح ذلك وأنه من الفسوق بعد الإيمان.

٨ـ وجوب شكر نعمة الإيمان والابتعاد عما يشينها ويدنسها.

٩ـ وجوب التوبة من هذه الأعمال السيئة، ومن جميع الذنوب.

١٠ـ من لم يتب من هذه الذنوب وغيرها فهو الظالم لنفسه ولغيره غاية الظلم.

١١ـ حرص الدين الإسلامي على صفاء القلوب والتآليف بين المؤمنين، وتجنيبهم كل ما يسبب الفرقة والاختلاف.

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات ـ استغفار ـ النبي ﷺ في اليوم والليلة ٦٣٠٧، والترمذي في التفسير ٣٢٥٩، وابن ماجه في الأدب ٣٨١٦ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٧٠٢، وأبو داود في الصلاة ١٥١٥.

(٣) أخرجه البخاري في الأذان ٧٩٤، ومسلم في الصلاة ٤٨٤، وأبو داود في الصلاة ٨٧٧، والنسائي في التطبيق ١٠٤٧، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها ٨٨٩ ـ من حديث عائشة رضي الله عنها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾.

قوله: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ : أي: ابتعدوا عن كثير من الظن، وهو الاتهام للآخرين بلا علم ولا دليل بل بمجرد الظن؛ وإذا جب اجتناب كثير من الظن ـ مع أن الظن هو الاحتمال الراجح فمن باب أولى يجب الابتعاد عن الشك وهو ما كان متردد الطرفين لا رجحان فيه.

قال ابن كثير[1]: «هو الاتهام والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله».

﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثم﴾ أي: ذنب محض - وهو الظن السيء بمن ليس محلاً لذلك. وإذا كان بعض الظن إثمًا فليجتنب كثير منه احتياطًا لئلا يقع المؤمن في هذا البعض الذي هو إثم وذنب وهو الظن السيء بمن ليس محلاً لذلك.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا»[2] .

وعن حارثة بن النعمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ثلاث لازمات لأمتي: الطيرة والحسد وسوء الظن». فقال رجل: ما يذهبهن يا رسول الله ممن هن فيه؟ قال: «إذا حسدت فاستغفر الله، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض»[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ثلاث لا ينجو منهن أحد: الحسد والظن والطيرة، وسأحدثكم بما يُخرج من ذلك: إذا حسدت فلا تبغ، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض»[4].

وقد رُوي: «أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج يعس ومعه عبد الرحمن بن

---

(١) في (تفسيره) ٧/ ٣٥٧.
(٢) أخرجه البخاري في الأدب باب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ ٦٠٦٤ ومسلم في البر - تحريم الظن والتجسس ٢٥٦٣، والترمذي في البر ١٩٨٨.
(٣) أخرجه الطبراني فيما ذكره ابن كثير في (تفسيره) ٧/ ٣٥٧.
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا ـ انظر «الجامع الصغير» ٢٤٦٦.

عوف رضي الله عنه، وبينما هما يطوفان في شوارع المدينة وجدا باباً مجافا على قوم ولهم أصوات مختلطة وشرب فقال عمر لعبد الرحمن: «أتدري بيت من هذا؟ قال: لا. قال: هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف، فقال عبد الرحمن: يا أمير المؤمنين قد كفينا ما نهانا الله عنه فقال: (ولا تجسسوا) ثم انصرفا».

فيجب على المؤمن اجتناب كثير من الظن، وهو الظن السيء بمن هم ليسوا محلاً لذلك، فإن سوء الظن بهم من الإثم والذنب، بل يجب حسن الظن بمن هم كذلك من المؤمنين وغيرهم، وحمل ما يصدر منهم على أحسن محمل ما أمكن ذلك. عن عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما قال: رأيت النبي ﷺ وهو يطوف بالكعبة ويقول: «ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك، ماله ودمه، وأن نظن به إلا خيرًا»[1].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «لا تظنَّنَّ بكلمة خرجت من أخيك المسلم إلا خيرًا، وأنت تجد لها في الخير محملاً»[2].

ويفهم من قوله:﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ أن ما عدا الكثير منه لا يؤمر باجتنابه، وهو ما لا يكون إثما بدليل قوله ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ فالبعض الآخر وهو ما عدا الكثير منه ليس بإثم فالظن الذي في محله، كأن يوجد له قرائن ودلائل ممن هم أهل لذلك من أهل الشر والسوء ممن ليسوا محلاً لحسن الظن بهم جائز، والاحتياط الاحتراز منهم ومن شرورهم، وإذا كان الحال وصل بالبعض إلى تهريب المخدرات في احشائهم وفروجهم فليس هناك محل لحسن الظن بمثل هؤلاء، و الله المستعان.

(ولا تجسسوا) التجسس غالبًا يطلق في الشر، والتحسس في الخير، كما في قوله تعالى: ﴿فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧] وقد يطلق التحسس في الشر كما في الحديث : «لا تجسسوا ولا تحسسوا»[3] ومن التحسس: الاستماع إلى حديث قوم

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الفتن ـ حرمة دم المؤمن وماله ٣٩٣٢، قال ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٣٥٧: «تفرد به ابن ماجه من هذا الوجه».

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٣٥٧.

(٣) سبق تخريجه قريبا.

وهم له كارهون كأن يستمع على أبوابهم ونحو ذلك.

والتجسس: هو تتبع عورات المسلمين والتنقيب والتفتيش عنها[(١)] قال ﷺ: «من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو في جوف بيته»[(٢)].

فيجب حمل الناس على ما يظهر منهم، والحكم عليهم ومعاملتهم بذلك. عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فمن أبدى لنا صفحته أقمنا عليه كتاب الله»[(٣)].

أما ما خفي من أحوال الناس فلا ينبغي البحث عنه، بل ينبغي التغافل ما أمكن عن زلاتهم التي إذا فتشت ظهر منها ما لا ينبغي.

عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم» فقال أبو الدرداء رضي الله عنه: كلمة سمعها معاوية من رسول الله ﷺ نفعه الله بها»[(٤)].

وعن جبير بن نفير وكثير بن مرة وعمرو بن الأسود والمقدام بن معد يكرب وأبي أمامة رضي الله عنهم عن النبي ﷺ قال: «إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم»[(٥)].

وعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: لا يخبرني أحد عن أحد شيئاً فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر»[(٦)].

وروي أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أُتي برجل، فقيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمرًا، فقال عبد الله: « إنما نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ

(١) وقيل التجسس بالجيم أن يطلب العيب بنفسه، والتحسس بالحاء ان يلتمسه من غيره، وقيل التجسس أن يطلبه لغيره، والتحسس أن يطلبه لنفسه. وقيل معناهما واحد. انظر «النهاية» مادة «جسس».

(٢) سيأتي تخريجه قريباً.

(٣) أخرجه الحاكم ٤/ ٢٤٤، ٣٨٣، والبيهقي ٨/ ٣٣٠. وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب ـ النهي عن التجسس ٤٨٨٨.

(٥) أخرجه أبو داود في الأدب – النهي عن التجسس ٤٨٨٩.

(٦) أخرجه أبو داود في الأدب ـ رفع الحديث من المجلس ٤٨٦٠، والترمذي في المناقب ـ فضل أزواج النبي ﷺ ٣٨٩٦ ـ من حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث غريب».

به»[1].

لكن من كان يتعدى ضرره مباشرة إلى الآخرين ويعظم خطره كمروجي المخدرات والمتفجرات فتجب متابعته والتجسس والتحسس عليه، لأنه من المفسدين في الأرض، بخلاف من يعمل معصية في بيته فيما لا يتعدى ضرره مباشرة إلى غيره فلا يجوز التجسس عليه.

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ الغيبة: ذكرك أخاك بما يكره كما قال ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا الله ورسوله أعلم. قال: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»[2].

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾: الهمزة للاستفهام، ومعناه الإنكار والتعجب، أي: هل يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا، والجواب: لا (فكرهتموه) أي: بل أنتم تكرهون ذلك غاية الكراهة فلا يمكن أن يأكل الإنسان لحم أخيه الميت، والمراد بهذا أن اغتياب المسلم لأخيه بمثابة أكله للحمه ميتًا، فكيف يقع ذلك من الكثيرين.

وفي قوله (ميتًا) ـ إضافة إلى دلالته على شدة الكراهة ـ إشارة إلى أن الذي اغتيب ـ لكونه غائبًا لا يستطيع الدفاع عن نفسه ـ أشبه بالميت فاقد الروح.

وقد بلغ القرآن الكريم الغاية في التنفير عن الغيبة بهذا التشبيه، إذ لا يتصور منظر أبشع من أكل المسلم للحم أخيه الميت.

ويؤخذ من الآية شدة تحريم الغيبة وبشاعتها وشناعتها وقبحها، وأنها من أكبر الكبائر، وبلوغ القرآن الغاية في التنفير مما يريد التنفير منه.

قال ابن كثير[3]: «والغيبة محرمة بالإجماع. وقد ورد فيها الزجر الأكيد، ولهذا شبهها تعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت» كما قال تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن

---

(١) أخرجه أبو داود في الموضع السابق ٤٨٩٠.
(٢) أخرجه مسلم في البر ٢٥٨٩، وأبو داود في الأدب ٤٨٧٤، والترمذي في البر والصلة ـ ما جاء في الغيبة ١٩٣٤.
(٣) في (تفسيره) ٧/ ٣٥٩ – ٣٦٠.

يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ اي: كما تكرهون هذا طبعًا؛ فاكرهوا ذاك شرعًا، فإن عقوبته أشد من هذا، وهذا من التنفير عنها، والتحذير منها، كما قال ﷺ في العائد في هبته: «ليس لنا مثل السوء، الذي يعود في هبته كالكلب يقيء، ثم يعود في قيئه[1]».

وعن أبي بكرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا»[2]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «لا تحاسدوا ولا تناجشوا، ولا تباغضوا ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ههنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه، إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم، وأشار بأصابعه إلى صدره»[3].

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ «حسبك من صفية أنها كذا وكذا - تعني أنها قصيرة - فقال ﷺ: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته»[4].

ومر ﷺ بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة....»[5].

بل إن تتبع عورات المسلمين واغتيابهم من أعظم الدلائل على ضعف الإيمان، فعن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : «يا معشر من آمن بلسانه

---

(١) أخرجه البخاري في الهبة وفضلها ٢٦٢٢ ومسلم في الهبات ١٦٢٢، والنسائي في الهبة ٣٦٩٨. والترمذي في البيوع ١٢٩٨ - من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في العلم ٦٧، ومسلم في القسامة ١٦٧٩، وابن ماجه في المقدمة ٢٣٣، وأخرجه البخاري أيضًا في الحج ١٧٤١ - من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري في النكاح ٥١٤٤، ومسلم في البر والصلة ٢٥٦٤، وأبو داود في البيوع ٣٤٣٨، والنسائي في النكاح ٣٢٣٩، والترمذي في النكاح ١١٣٤، وابن ماجه في التجارات ٢١٧٢، وفي الزهد ٤١٤٣.

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٨٧٥، والترمذي في صفة القيامة ٢٥٢، والطبري في (جامع البيان) ٢٦/ ٨٧.

(٥) أخرجه البخاري في الوضوء ٢١٨، ومسلم في الطهارة، ٢٩٢، وأبو داود في الطهارة ٢٠، والنسائي في الطهارة ٣١، والترمذي في الطهارة ٧٠، وابن ماجه في الطهارة ٣٤٧ - من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

ولمّا يدخل الإيمان في قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من اتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته»[(١)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ :« لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، قلت: من هؤلاء يا جبريل، قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم»[(٢)].

ونظر ابن عمر رضي الله عنهما يومًا إلى الكعبة فقال: «ما أعظمك، وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك»[(٣)].

ولا يستثنى من تحريم الغيبة إلا ما كان لمصلحة، كما إذا كان ذلك لرفع الظلم، قال تعالى: ﴿۞لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨]، كما في قول هند امرأة أبي سفيان: «إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني وولدي، فقال لها رسول الله ﷺ: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»[(٤)].

وكما إذا كان ذلك لمشورة في زواج أو غير ذلك، كما في قوله ﷺ لفاطمة بنت قيس لما جاءت تستشيره فيمن تتزوج قال لها ﷺ: «أما معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه انكحي أسامة بن زيد»[(٥)].

وكما إذا كان ذلك بغرض دراسة الأسانيد والحكم على الأحاديث، كقولهم: فلا كذاب، فلان سيء الحفظ، ونحو ذلك.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾: «التواب» اسم من أسماء الله على وزن «فعّال» يدل على أنه عز وجل ذو التوبة الكثيرة الواسعة بقسميها، وهما: توفيقه عز وجل للعبد أن

---

(١) اخرجه ابو داود في الأدب – باب في الغيبة ٤٨٨٠، واخرجه ابو يعلى في مسنده من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه. انظر (تفسير ابن كثير) ٧/ ٣٦٠.

(٢) اخرجه ابو داود في الأدب ٤٢٣٥، واحمد ٣/ ٢٢٤.

(٣) اخرجه الترمذي في البر – عظم حرمة المؤمن ٢٠٣٢ وقال: (حسن غريب).

(٤) اخرجه البخاري في النفقات ٥٣٦٤، ومسلم في الأقضية ـ قضية هند ١٧١٤، وابو داود في البيوع ٣٥٣٢، والنسائي في آداب القضاة ٥٤٢٠، وابن ماجه في التجارات ٢٢٩٣ ـ من حديث عائشة ـ رضي الله عنها.

(٥) اخرجه مسلم في الطلاق ـ المطلقة ثلاثا لا نفقة لها ١٤٨٠، وابو داود في الطلاق ٢٢٨٤، والنسائي في النكاح ٣٢٢٢، والترمذي في النكاح ١١٣٥ من حديث فاطمة بنت قيس ـ رضي الله عنها.

يتوب كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة: ١١٨] أي: وفقهم للتوبة ليتوبوا.

والقسم الثاني: قبولها منه كما قال ـ عز وجل ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥].

و «الرحيم» أيضًا: اسم من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل» يدل على أنه عز وجل ذو الرحمة الواسعة الرحمة الذاتية التي هي صفة من صفاته الثابتة له عز وجل، كما قال ـ عز وجل: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨].

والرحمة الفعلية التي يوصلها من شاء من عباده كما قال ـ عز وجل: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١]، رحمة عامة لجميع الخلق، كما قال عز وجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣، الحج: ٦٥] ورحمة خاصة بالمؤمنين كما قال عز وجل ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

فإذا انفرد «الرحيم» أو «الرحمن» دل كل منهما على إثبات صفة الرحمة الذاتية والرحمة الفعلية لله عز وجل، وإثبات صفة الرحمة العامة والخاصة له عز وجل أما إذا اجتمعا فيدل «الرحمن» على إثبات صفة الرحمة الذاتية، ويدل «الرحيم» على إثبات صفة الرحمة الفعلية، ويدل «الرحمن» على إثبات صفة الرحمة العامة. ويدل «الرحيم» على إثبات صفة الرحمة الخاصة له عز وجل.

ومن رحمته عز وجل أن شرع التوبة، ووفق لها من شاء من عباده، وقبلها منهم ممن تتوفر فيهم شروط التوبة، وهي: الإقلاع عن المعصية، والندم على فعلها، والعزم على أن لا يعود إليها، وأن تكون في وقتها قبل بلوغ الروح الحلقوم وحضور الأجل، وقبل طلوع الشمس من مغربها وغلق باب التوبة، وأن تكون خالصة لله عز وجل لا خوفًا من أحد ونحو ذلك.

وإذا كانت المعصية تتعلق بحقوق الآدميين فمن شرط صحة الإقلاع عن المعصية رد حقوق الآدميين إليهم كالدماء والأموال ونحو ذلك فإن كان غيبة ونميمة وغير ذلك وجب أن يتحللهم منها إن أمكن ذلك بلا ضرر، فإن لم يمكن ذلك أو خيف أن يؤدي ذلك إلى زيادة الشر وبخاصة إذا علم أنهم لم يعلموا بذلك، ونحو ذلك، فإنه يثني عليهم في المجالس التي اغتابهم فيها، ويدفع عن أعراضهم إذا تُكُلِّم فيهم، فتكون هذه

عليهم في المجالس التي اغتابهم فيها، ويدفع عن أعراضهم إذا تُكُلِّم فيهم، فتكون هذه بتلك. ففي حديث جابر بن عبد الله وأبي طلحة بن سهل الأنصاري أن رسول الله ﷺ قال: «ما من امرئ يخذل امرأ مسلمًا في موضع تنتهك فيه حرمته، وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته، وما من امرئ ينصر امرأ مسلمًا في موضع ينتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمته، إلا نصره الله في مواطن يحب فيها نصرته»[1].

الفوائد والعبر:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام.
٢- نداء المؤمنين بوصف الإيمان تشريفاً لهم وتكريماً، وحثاً على الاتصاف بهذا الوصف، وامتثال ما بعده من أوامر ونواهٍ.
٣- وجوب اجتناب كثير من الظن، لأن بعض الظن إثم، وهو الظن السيء في غير محله.
٤- تحريم الظن السيء بالمؤمنين، ووجوب حسن الظن بهم.
٥- تحريم التجسس والتحسس.
٦- جواز الظن بمن ليسوا محلاً لحسن الظن والاحتراز منهم والتجسس عليهم لدرء شرورهم عن المسلمين.
٧- تحريم الغيبة بين المؤمنين والتنفير منها.
٨- بلوغ القرآن الغاية في التنفير فيما يراد التنفير منه.
٩- حرص الدين الإسلامي على سلامة الصدور بين المؤمنين والحفاظ على أسرارهم وأحوالهم وصيانة أعراضهم.
١٠-وجوب تقوى الله، باجتناب ما نهى عنه في الآية، وبفعل أوامره واجتناب نواهيه.
١١-إثبات اسم الله ـ عز وجل ـ «التواب» وأن من صفته ـ عز وجل ـ توفيق عباده للتوبة وقبولها منهم.
١٢-إثبات اسم الله «الرحيم» وصفة الرحمة الواسعة له ـ عز وجل ـ.

---

(١) اخرجه ابو داود في الأدب – باب من رد عن مسلم غيبته ٤٨٩٣.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾.

صلة الآية بما قبلها:

نهى الله عز وجل في الآيات السابقة المؤمنين أن يسخر بعضهم من بعض أو يلمز بعضهم بعضًا، وعن التنابز بالألقاب، وأمرهم باجتناب كثير من الظن، ونهاهم عن التجسس وعن أن يغتاب بعضهم بعضًا، ثم أتبع ذلك ببيان أنهم خلقوا من أصل واحد وأن أكرمهم عند الله أتقاهم.

قوله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يقال في إعرابه كما قيل في إعراب (يا أيها الذين آمنوا) وقد سبق. والناس: هم بنو آدم الموجودون وقت نزول الآيات، ومن سيوجد إلى قيام الساعة. وعمومات الكتاب والسنة كما يدخل فيها عموم الإنس يدخل فيها أيضاً عموم الجن للإجماع على أنهم مكلفون كما كلف الإنس من حيث أصول الشرائع، أما في الفروع فقد قال بعض أهل العلم: إنه لا يلزم أن يكون الجن مكلفين بما كلف به الإنس في جميع الفروع على حد سواء.

والناس: يقال: أصله «أناس» كما قيل:

إن المنايـــا يطّلِعْـــــ ... ـــن علـى الأنـاس الآمنينـا[1]

وهو مشتق من النوس، وهو الحركة؛ لأن الناس يتحركون في قضاء حوائجهم، أو من الأُنس؛ لأنهم يأنس بعضهم ببعض، أو من الإيناس، وهو الرؤية والمشاهدة؛ لأنهم يُرون ويُشاهدون بخلاف «الجن» فهم مستترون، ومنه قوله تعالى ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩]، أي: أبصر ورأى، وقوله ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: ٦]، أي: أبصرتم ورأيتم. وقيل مشتق من النسيان كما قيل:

وما سمي الإنسان إلا لنسيه ... ولا القلب إلا أنه يتقلب

ورد هذا ابن القيم رحمه الله، وقال[2]: «لو كان الإنسان مشتقاً من النسيان لقيل:

---

(١) البيت لذي جرن الحميري. انظر (اشتقاق أسماء الله الحسنى) للزجاجي ٣٢، (لسان العرب) مادة (نوس).
(٢) انظر (بدائع الفوائد) ٢/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

نسيان ولم يقل إنسان».

﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ المتكلم بضمير العظمة (إنا) هو العظيم سبحانه الذي له العظمة التامة، كما قال عز وجل عن نفسه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾[البقرة: ٢٥٥]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:قال الله تعالى «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري»[1].

(خلقناكم) أي: أوجدناكم وأنشأناكم، وأصل الخلق التقدير.

كما قال الشاعر[2]:

ولأنت تفري ما خلقت وبعض الـ قـوم يخلـق ثـم لا يفـري

فالمتفرد بالخلق هو الله عز وجل الذي له تمام القدرة وتمام العلم، قال عز وجل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

وقد يطلق الخلق بمعنى تحويل الشيء إلى شيء آخر كتحويل الحديد أو الخشب الذي أوجده الله عز وجل إلى مصنوعات حديدية وخشبية. ولهذا جمع الله كلمة (الخالق) في قوله تعالى : ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، إذ لا خالق في الحقيقة إلا الله عز وجل.

﴿مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ أي: من آدم وحواء، أو من جنس ذكر وأنثى أب وأم، فهم من أصل واحد وجنس واحد مما يوجب على كل منهم أداء حق الآخر عليه ذكورهم وإناثهم، الأزواج، والوالدين والأولاد والإخوة والأخوات وسائر القرابات، ويوجب على كل منهم أداء حقوق إخوانه المسلمين، وكذا أداء حقوق غير المسلمين ممن ليسوا بمحاربين.

وقدم (الذكر)؛ لأنه من حيث العموم أفضل من الأنثى، كما قال عز وجل:

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٢٠، وأبو داود في اللباس ٤٠٩٠، وابن ماجه في الزهد ٤١٧٤، وأخرجه مسلم أيضًا من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) البيت لزهير وانظر (الكشاف) ١/ ٤٥، (مجموع الفتاوى) ١٦/ ٦٠.

﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨] قال ابن القيم[1]: «ولأنه هو الأصل فمنه البذر والسقي، والأنثى وعاء ومستودع للولد تربيه في بطنها كما تربيه في حجرها، ولهذا كان الولد للأب حكمًا ونسبًا، وأما تبعيته للأم في الحرية والرق فلأنه إنما تكوَّن وصار ولدًا في بطنها، وغذته بلبانها، مع الجزء الذي فيه منها. وكان الأب أحق بنسبه وتعصيبه؛ لأنه أصله ومادته ونسخته، وكان أشرفهما ديناً أولى به، تغليبًا لدين الله وشرعه».

على أن التفضيل إنما هو لجنس الرجال على جنس النساء، و إلا فإن من بين النساء من تكون أفضل من زوجها، بل ومن عشرات الرجال، ويكفي النساء أن منهن أمهات المؤمنين رضي الله عنهن وفاطمة و مريم وآسية امرأة فرعون رضي الله عنهن.

ولهذا ينبغي أن يقدم في الخطابات والمكاتبات من قدم الله عز وجل، وهم الذكور، خلاف ما يفعله بعض المستغربين والمنهزمين من قولهم: آنساتي سيداتي سادتي.

﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾

الشعوب: جمع شعب، سموا شعوبًا لأنهم تشعبوا عمن قبلهم، كما يتشعب عنهم من بعدهم كما قال عز وجل: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾[النساء: ١]، أي: فرّق ونشر وذرأ من آدم وحواء رجالاً كثيرًا ونساءً.

والقبائل: جمع قبيلة، والقبيلة دون الشعب.

ويتفرع عن القبائل: الفصائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغير ذلك.

(لتعارفوا) أي: لأجل أن تتعارفوا فيما بينكم، فيُدْعى الإنسان باسمه واسم أبيه وجده، فيقال فلان بن فلان بن فلان، ولتعرفوا أنسابكم، ليؤدي بعضكم حقوق بعض من صلة الأرحام والتوارث وغير ذلك، فمعرفة الأنساب أمرٌ مطلوب شرعًا، لأن الله جعل الناس شعوبًا وقبائل لأجل ذلك، لما يلزم عليه من أداء حقوق بعضهم على بعض. عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «تعلموا من أنسابكم ما

---

(١) في (التبيان في احكام القرآن) صـ ٣٥٢ – ٣٥٣.

تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثراة في المال، منسأة في الأثر»[١].

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ أي: إنما جعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا ليؤدي بعضكم حقوق بعض، لا لتتفاخروا بالأحساب والأنساب وكثرة العدد ، فإن أكرمكم عند الله وأرفعكم منزلة عنده (أتقاكم) لله عز وجل؛ بفعل أوامره واجتناب نواهيه. وفي الحديث: «فمن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ أي الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم» قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله» قالوا ليس عن هذا نسألك. قال: «فعن معادن العرب تسألوني»؟ قالوا: نعم. قال: «فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم» وأشار إلى صدره، وفي رواية: «ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[٤].

وعن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «انظر فإنك لست بخير من أحمر، ولا أسود، إلا أن تفضله بتقوى الله»[٥].

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال : «لينتهين قوم يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونُنَّ أهون على الله من الجعل الذي يدهده الخراء بأنفه. إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية[٦]، وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي وفاجر شقي ، الناس كلهم بنو آدم، وآدم خلق من تراب»[٧].

---

(١) أخرجه الترمذي في البر – ما جاء في تعليم النسب ١٩٧٩ – وقال : (حديث غريب).

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٦٩٩، والترمذي في القراءات ٢٩٤٥، وابن ماجه في المقدمة ٢٢٥ – من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير ٤٦٨٩، ومسلم في الفضائل ٢٣٧٨.

(٤) سبق تخريجه قريبًا.

(٥) أخرجه أحمد ٥/ ١٥٨.

(٦) عُبِّيَّة الجاهلية: أي: تكبرها.

(٧) أخرجه أبو داود في الأدب ٥١١٦، والترمذي في المناقب ٣٩٥٥.

وعن حذيفة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : «كلكم بنو آدم، وآدم خلق من تراب، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان»[١].

وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: «طاف رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته القصواء يستلم الأركان بمحجن في يده، فما وجد لها مناخًا في المسجد حتى نزل ﷺ على أيدي الرجال فخرج بها إلى بطن المسيل، فأنيخت، ثم إن رسول الله ﷺ - خطبهم على راحلته فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية، وتعاظمها بآبائها، فالناس رجلان: رجل برتقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله، والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب قال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ ثم قال: أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم»[٢].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: « ما أعجب رسول الله ﷺ - شيء من الدنيا، ولا أعجبه أحد قط إلا ذو تُقى»[٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٤] ـ رحمه الله تعالى ـ:«أعظم الكرامة لزوم الاستقامة».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ «العليم» و«الخبير»: اسمان من أسماء الله عز وجل على وزن (فعيل) يدلان على أنه عز وجل ـ ذو العلم الواسع، وذو الخبرة التامة.

و«العليم» و«الخبير» من الأسماء التي إذا اجتمعت افترقت، وإذا افترقت اجتمعت. فالعليم هنا بمعنى المطلع على ظواهر الأمور وجلائلها وجلياتها، والخبير: المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها.

أما إذا انفرد «العليم» فمعناه المطلع على الظواهر والبواطن على حد سواء.

---

(١) اخرجه البزار في مسنده - فيما ذكر ابن كثير في (تفسيره) ٧/ ٣٦٦.

(٢) اخرجه الترمذي في التفسير ٣٢٧، وقال : (حديث غريب). وابن أبي حاتم في (تفسيره) ١٠/ ٣٣٠٦ - الأثر ١٨٦٢٢.

(٣) اخرجه احمد ٦/ ٦٩.

(٤) في «مجموع الفتاوى» ١١/ ٢٩٨.

وكذا «الخبير» إذا انفرد فمعناه المطلع على البواطن، وإذا كان مطلعًا على البواطن فاطلاعه على الظواهر من باب أولى.

فبعلمه ـ عز وجل ـ وخبرته خلق الناس وجعلهم شعوبًا وقبائل ليتعارفوا وجعل التفاضل بينهم بالتقوى، وبعلمه وخبرته يهدي من يشاء ويضل من يشاء ويرحم من يشاء ويعذب من يشاء، ويفضل من يشاء على من يشاء، وهو الحكيم العليم الخبير في ذلك كله.

ويؤخذ من الآية أنه لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، فالناس كلهم من آدم وآدم من تراب. عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الناس لآدم وحواء طف الصاع[1] لم يملؤوه، إن الله لا يسألكم عن أحسابكم ولا عن أنسابكم يوم القيامة إن أكرمكم عند الله أتقاكم[2]».

قال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه:

الناس من جهة التمثيل أكفاء	أبوهُمُ آدمٌ والأم حواء
فإن يكن لهمُ من أصلهم نسب	يفاخرون به فالطين والماء

فالفضل إنما هو بالتقوى فمن اتقى الله فهو الأكرم عند الله ولو كان عبدًا حبشيًا كبلال وسلمان رضي الله عنهما، ومن لم يتق الله فهو الأذل المهان عند الله ولو كان حرًا قرشيًا كأبي جهل وأبي لهب وغيرهما.

وقد أحسن القائل:

أبي الإسلام لا أب لي سواه	إذا افتخروا بقيس أو تميم

وقد قيل:

لعمرك ما الإنسان إلا بدينه	فلا تترك التقوى اعتماداً على النسبْ
فقد رفع الإسلام سلمانَ فارسٍ	وقد وضع الشرك النسيب أبا لهبْ

---

(١) طفّ الصاع: أي: قريب بعضهم من بعض وبمنزلة واحدة في النقص والتقاصر عن غاية التمام.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ١٥٨، والطبري في «جامع البيان» ٢٦/ ٨٩.

وقد استدل بهذه الآية على عدم اشتراط الكفاءة في النكاح، قالوا: فلا يشترط سوى الدين لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

الفوائد والعبر:

١ـ تصدير الخطاب للناس بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام.

٢ـ عموم شريعة محمد ﷺ لجميع الناس.

٣ـ تذكير الناس بأصل خلقهم وأنهم خلقوا من ذكر وأنثى ليؤدي بعضهم حقوق بعض، وليعلموا حاجة بعضهم إلى بعض، ولا يفخر بعضهم على بعض.

٤ـ فضل الذكر على الأنثى من حيث العموم لا من حيث الأفراد، فكم من امرأة خير من كثير من الرجال.

٥ـ الهدف من جعل الناس شعوباً وقبائل ليتعارفوا بينهم ويعرفوا أنسابهم ليتواصلوا ويتوارثوا، لا ليتفاخروا بالأحساب والأنساب.

٦ـ أن معرفة الأنساب أمر مطلوب شرعاً.

٧ـ أن أكرم الناس عند الله أتقاهم لله ـ عز وجل ـ، فلا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود، ولا لغني على فقير إلا بالتقوى.

٨ـ إثبات اسمين من أسماء الله ـ عز وجل ـ وهما «العليم» و «الخبير» وما يدلان عليه من سعة علمه ـ عز وجل ـ وكمال خبرته.

﴿۞قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

قوله: ﴿۞قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾

قال السعدي رحمه الله[1]: «يخبر تعالى عن مقالة بعض الأعراب الذين دخلوا في الإسلام على عهد رسول الله ﷺ دخولاً من غير بصيرة ولا قيام بما يجب ويقتضيه الإيمان، أنهم مع هذا ادعوا وقالوا: آمنا، أي إيمانًا كاملاً مستوفيًا لجميع أموره».

والأعراب: هم سكان البادية، وهم أقرب إلى الجهل والجفاء كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩٧].

(آمنا): أي: آمنا الإيمان الكامل المطلق، ظاهرًا وباطنًا.

﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ أي: قل لهم يا محمد لم تؤمنوا بعد - يعني الإيمان القوي، أو الإيمان الكامل الذي يحمل صاحبه على الإخلاص ومتابعة الرسول ﷺ في فعل الواجبات والبعد عن المنهيات، كما قال ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة يرفع إليه فيها الناس أعناقهم وهو مؤمن[2]».

وكقوله ﷺ: «و الله لا يؤمن، و الله لا يؤمن، و الله لا يؤمن» قيل: من يا رسول

---

(١) في (تيسير الكريم الرحمن) ٧/ ١٣٩.

(٢) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٧٥، ومسلم في الإيمان ٥٧، وأبو داود في السنة ٤٦٨٩، والنسائي في قطع السارق ٤٨٧٠، والترمذي في الإيمان ٢٦٥٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٣٦ - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه»[١].

﴿وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ أي: دخلنا في الإسلام، بمعنى استسلمنا وانقدنا ظاهرًا. وأمْرُهم بهذا وعدم وصفهم بالنفاق والكذب، كما وصف الله المنافقين في آيات عدة كقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] وكذا قوله بعد ذلك ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ وقوله ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ وقوله ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ كل هذا وغيره يدل على أن المذكورين ليسوا بمنافقين.

﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ أي: ولمّا يباشر الإيمان قلوبكم فتذوقوا طعمه وحلاوته وتسعدوا به ويهون عليكم بَذْلُ كل غال ورخيص في سبيله من المال والنفس، والوقت، وغير ذلك.

قال الحسن البصري : «ليس الإيمان بالتحلي، ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل»[٢].

وفي قوله: (ولما يدخل) دون أن يقول: «ولم يدخل» إشارة إلى قرب دخول الإيمان في قلوبهم.

فالإيمان المنفي عنهم هو الإيمان الكامل، والإسلام المثبت لهم هو الإسلام الشرعي الذي يثابون عليه وبهذا فسر الآية كثير من السلف واختاره جمع من المحققين منهم الطبري، وابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير وغيرهم.

وذهب طائفة من المفسرين من السلف وغيرهم إلى أن المنفي عنهم هو الإيمان الشرعي الصحيح، والمثبت لهم هو الإسلام اللغوي، وهو الاستسلام خوف السبي والقتل، فعل المنافقين، واختار هذا بعض أهل العلم منهم البخاري، والصحيح

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠١٦ – من حديث أبي شريح رضي الله عنه.

(٢) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ١٨٤.

الأول[1]

قال ابن القيم[2]: « ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ نفيًا للإيمان المطلق لا مطلق الإيمان لوجوه منها:

انه أمرهم وأذن لهم أن يقولوا: أسلمنا والمنافق لا يقال له ذلك.

ومنها أن هؤلاء الجفاة الذين نادوا رسول الله ﷺ من وراء الحجرات ورفعوا أصواتهم فوق صوته غلظة منهم وجفاءً لا نفاقًا وكفرًا.

ومنها أنه قال: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ ولم ينف دخول الإسلام في قلوبهم ولو كانوا منافقين لنفى عنهم الإسلام كما نفى عنهم الإيمان.

ومنها أن الله تعالى قال: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ أي لا ينقصكم، والمنافق لا طاعة له.

ومنها أنه قال: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم﴾ فاثبت لهم إسلامًا، ونهاهم أن يمنوا على رسول الله ﷺ، ولو لم يكن إسلاماً صحيحاً لقال: لم تسلموا، بل أنتم كاذبون؛ كما كذبهم في قولهم: (نشهد إنك لرسول الله) لما لم تطابق شهادتهم اعتقادهم.

ومنها أنه قال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ ولو كانوا منافقين لما منَّ عليهم.

ومنها أنه قال: (أن هداكم للإيمان)، ولا ينافي هذا قوله (قل لم تؤمنوا) فإنه نفى الإيمان المطلق، ومنّ عليهم بهدايتهم للإسلام الذي هو متضمن لمطلق الإيمان.

ومنها أن النبي ﷺ لما قسم القسم قال له سعد: أعطيت فلانًا، وتركت فلانًا وهو مؤمن. فقال: أو مسلم ثلاث مرات، وأثبت له الإسلام دون الإيمان، والمقصود الفرق بين الإيمان المطلق، ومطلق الإيمان. فالإيمان المطلق يمنع دخول النار، ومطلق الإيمان

---

(١) انظر (جامع البيان) ٢٦/ ٨٩ – ٩٠، (فتح الباري) ١/ ٩٩، (التمهيد) لابن عبد البر ٩/ ٢٤٨، (الوسيط) للواحدي ٤/ ١٦٠، (الجامع لأحكام القرآن) ١٦/ ٣٤٨، (الإيمان) لابن تيمية صـ ٢٢٥ – ٢٣٩، (تفسير ابن كثير) ٧/ ٣٦٨، (تيسير الكريم الرحمن) ٧/ ١٤٠، (أضواء البيان) ٧/ ٦٣٧ – ٦٣٩.

(٢) في (بدائع الفوائد) ٤/ ١٧.

يمنع الخلود فيها».

ويؤخذ من الآية أن الإيمان أخص من الإسلام فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً. كما أن الإحسان أخص من الإيمان - كما دل عليه حديث جبريل عليه السلام حين سأل النبي ﷺ عن الإسلام ثم عن الإيمان ثم عن الإحسان فترقى من الأعم إلى الأخص ثم للأخص منه. وهذا مذهب أهل السنة والجماعة.

ويدل عليه أيضًا حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ أعطى رهطًا وسعد جالس فترك رسول الله ﷺ رجلاً هو أعجبهم إليّ، فقلت: يا رسول الله مالك عن فلان، والله إني لأراه مؤمنًا، فقال: «أو مسلمًا» فسكتُ قليلاً، ثم غلبني ما أعلم منه فعدت لمقالتي، فقلت: مالك عن فلان، فوالله إني لأراه مؤمنًا فقال: «أو مسلمًا» ثم غلبني ما أعلم منه فعدت لمقالتي، وعاد رسول الله ﷺ، ثم قال: «يا سعد إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليَّ منه، خشية أن يكبه الله في النار»[1].

فقوله ﷺ: «أو مسلمًا» يدل على أن الإيمان أخص من الإسلام.

كما يدل أيضًا على أن هذا الرجل ليس بمنافق، بل هو مسلم لأنه ﷺ تركه من العطاء ووكله إلى إسلامه.

قال ابن كثير[2]: «فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمنافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقامًا أعلى مما وصلوا إليه، فأدبوا في ذلك - وهذا معنى قول ابن عباس وإبراهيم النخعي وقتادة واختاره ابن جرير[3] - قال: «وإنما قلنا هذا لأن البخاري - رحمه الله - ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين يظهرون الإيمان وليسوا كذلك وقد روي عن سعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد أنهم قالوا في قوله (ولكن قولوا أسلمنا) أي: استسلمنا خوف القتل والسباء». قال ابن كثير: والصحيح الأول: أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يحصل لهم بعد،

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان - باب إذا لم يكن الإيمان على الحقيقة ٢٧ ، ومسلم في الإيمان - تألف من يخاف على إيمانه لضعفه ١٥٠، وأبو داود في السنة ٤٦٨٣، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٩٢، وأحمد ١/ ١٧٦.

(٢) في (تفسيره) ٧/ ٣٦٨.

(٣) انظر (جامع البيان) ٢٦/ ٩٠.

فأُدِّبوا وأُعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد، ولو كانوا منافقين لعنفوا وفُضحوا، كما ذكر المنافقون في سورة براءة، وإنما قيل لهؤلاء تأديبًا: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد».

والإيمان، لغة: التصديق، وشرعًا قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان.
والإسلام: هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك.
والإسلام والإيمان من الكلمات التي إذا اجتمعت افترقت،وإذا افترقت اجتمعت.

فإذا انفرد أحدهما عن الآخر حمل كل منهما على الأعمال الظاهرة والباطنة، وإذا اجتمعا حمل الإسلام على الأعمال الظاهرة ، وحمل الإيمان على الأعمال الباطنة كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦]،

وكما دل عليه حديث جبريل الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، فجلس إلى النبي ﷺ وأسند ركبتيه إلى ركبتيه، وجعل يديه على فخذيه فسأله عن الإسلام، فقال له: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً. فقال: صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدقه. وسأله عن الإيمان فقال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدقه. وسأله عن الإحسان فقال: الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» الحديث[1] .

﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الطاعة فعل المأمور واجتناب المحذور أي: وإن تطيعوا الله ورسوله بفعل ما أمركم الله به ورسوله، وترك ما نهاكم الله عنه ورسوله. وعطف وصف الرسول ﷺ أو اسمه على اسمه عز وجل بالواو التي تقتضي التشريك في الحكم؛ لأن هذا في باب التشريع؛ وطاعة الرسول ﷺ من طاعة الله تعالى؛ بل طاعة

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٨، وأبو داود في السنة ٤٦٥٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٩٠، والترمذي في الإيمان ٢٦١٠، وابن ماجه في المقدمة ٦٣.

لله كما قال عز وجل ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

بخلاف باب المشيئة والإرادة فلا يجوز العطف فيه بالواو في هذا المقام[1].

﴿لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ اي: لا ينقصكم من اعمالكم واجورها شيئًا ولو كان مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الطور: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الآية: ٢١].

والمعنى: وإن تطيعوا الله ورسوله لا ينقصكم من أعمالكم وثوابها شيئًا، بل ستجدون ثوابها عند الله كاملاً أوفر ما يكون، بل ومضاعفًا الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، كما قال عز وجل: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ «الغفور» و «الرحيم» اسمان من أسماء الله عز وجل، يدل «الغفور» على أنه عز وجل ذو المغفرة التامة، ويدل «الرحيم» على أنه ذو الرحمة الواسعة سبحانه. فهو عز وجل غفور لمن تاب وأناب إليه يستر ذنبه ويتجاوز عن عقوبته. رحيم به حيث وفقه للتوبة وقبلها منه. وقدم عز وجل «الغفور» على «الرحيم» لأن التخلية قبل التحلية.

وفي ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إشارة لقرب مغفرة الله منهم.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

«إنما» أداة حصر – والحصر معناه: إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه، فاسم المؤمنين ووصفهم محصور بمن اتصفوا بهذه الصفات: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ

---

(١) راجع ص١٢ ـ ١٣.

لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

والمعنى: إنما المؤمنون الكُمَّل، الذين يستحقون وصف الإيمان المطلق (الذين آمنوا بالله) أي: آمنوا بالله فشهدوا أن لا إله إلا الله، فآمنوا بوجوده وبربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

(ورسوله) أي: وآمنوا برسوله أي: صدقوا برسوله محمد ﷺ فشهدوا أن محمدًا رسول الله، فأطاعوه فيما أمر، وصدقوه فيما أخبر، واجتنبوا ما عنه نهى وزجر، ولم يعبدوا الله إلا بما شرع. فلا يتم الإيمان إلا بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

ومن لازم الإيمان بالله ورسوله الإيمان بكل ما جاء عن الله ورسوله من الأوامر والنواهي وغير ذلك كبقية أركان الإيمان الستة وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره وغير ذلك.

﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ «ثم» للترتيب والتراخي والمهلة، والريب: الشك، أي: ثم استمروا على الإيمان مع طول المدة، ولم يحصل عندهم ريب ولا شك في إيمانهم بالله ورسوله، وما جاءهم عن الله ورسوله، بل عندهم اليقين والتصديق الجازم في ذلك مع الثبات عليه كما قال تعالى عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[لقمان: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الجهاد: بذل الجهد وما يستطيعه الإنسان.

(بأموالهم وأنفسهم) الأموال كل ما يتمول من النقود والأثاث والمراكب وغير ذلك.

(وأنفسهم) أي: بذلوا أنفسهم ومهجهم رخيصة في سبيل الله بعد بذل أموالهم فبذلوا جهدهم بالمال والنفس والنفيس في سبيل الله لإعلاء كلمة الله عز وجل قال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[1].

وقدم الجهاد بالأموال لأهميته؛ لأن الجهاد بالنفس لا يمكن أن يقوم إلا بالمال

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٤٥٨، ومسلم في الإمارة ١٩٠٤، وأبو داود في الجهاد ٢٥١٧، والنسائي في الجهاد ٣١٣٦، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٤٦، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٨٣ ـ من حديث أبي موسى ـ رضي الله عنه.

لتمويل المجاهدين بالغذاء والمراكب والسلاح وغير ذلك؛ ولأن الجهاد بالمال يسبق الجهاد بالنفس إذ لا بد من تهيئة المجاهدين وإعدادهم وإمدادهم قبل دخول المعركة؛ ولأن المجاهد بالمال قد يجهز عددًا كبيرًا من المجاهدين إلى غير ذلك.

لهذا نجد القرآن الكريم قدم الجهاد بالأموال على الجهاد بالأنفس في جميع المواضع التي ورد فيها عدا قوله تعالى في سورة التوبة ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [الآية: ١١١].

وجعل كل منهما جهادًا ليأخذ كل نصيبه من الجهاد، فهناك من يستطيع الجهادين، وهناك من لا يستطيع الجهاد بالنفس لكنه يستطيع الجهاد بالمال، وهناك من لا يستطيع الجهاد بالمال ولكنه يستطيع الجهاد بالنفس.

وذكر الجهاد بالأموال والأنفس – بعد الإيمان بالله ورسوله، لأن الجهاد ذروة سنام الإسلام كما قال ﷺ في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه: «رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد»[1].

فالقيام بالجهاد، من أعظم الأدلة على قوة الإيمان؛ فإن من جاهد غيره على الإسلام والإيمان والقيام بشرائعه فجهاده لنفسه من باب أولى وأحرى.

﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ أي: الصادقون في إيمانهم، الذي صدقوا مقالهم بفعالهم فجمعوا بين العلم النافع والعمل الصالح الذي أرسل الله به رسوله كما قال عز وجل ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩] أي: بالعلم النافع والعمل الصالح، كما قال الحسن رحمه الله: «ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل»[2].

فتجد الكثير من الناس يهمهم ويحوقل، ويقول: يا الله التوبة، وهو غارق في المعاصي مفرّط في جنب الله، ومقصر في حقوق الخلق، وإذا سمعت كلامه قلت ما شاء الله هذا من صفوة الأخيار لكن إذا سبرت أحواله في تعامله سواء في القيام

---

(١) أخرجه الترمذي في الإيمان ٢٦١٦، وابن ماجه في الفتن٣٩٧٣ .

(٢) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ١٨٤.

بحقوق الله أو حقوق الخلق زهدت فيه.

وما أكثر هؤلاء. وقد قيل:

وكـل يـدعي وصـلاً بليلـى　　　وليلـى لا تقـر لهـم بـذاكا

وقيل:

والدعاوى إذا لم يقيموا عليها　　　بينـات أبناؤهـا أدعيـاء

وقيل أيضًا:

لو لا المشقة ساد الناس كلهم　　　الجود يفقر والإقدام قتال

أسأل الله أن يهدينا ويوفقنا إلى العلم النافع والعمل الصالح، وأن يجعلنا ممن جمعوا بين القول والعمل، لا ممن يقولون ما لا يفعلون، قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣].

﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ﴾: الأمر للنبي ﷺ - وهذا في معرض الرد على الأعراب في دعواهم وقولهم آمنا، وعلى غيرهم ممن يحذو حذوهم في مثل هذه المقالة، أي: أتعلمون الله وتخبرونه بما في قلوبكم وما تنطوي عليه ضمائركم. والاستفهام هنا للتوبيخ والإنكار.

ويؤخذ من هذا الإنكار على من ينطق بالنية، فيقول: اللهم إني أريد أن أتوضأ، اللهم إني أريد أن أصلي، اللهم إني أريد أن أصوم ونحو ذلك.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ العلم هو إدراك الأشياء على ما هي عليه إدراكًا جازمًا و (ما) موصولة – تفيد العموم، أي: يعلم الذي في السموات والذي في الأرض ولهذا قال بعده توكيدًا:

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ أي: بكل شيء من الأشياء قل أو كثر، صغر أو كبر، خفي أو ظهر، بما في ذلك ما تنطوي عليه القلوب والضمائر كما قال عز وجل: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر : ١٩]، وقال عز وجل ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾[الأنعام:

٥٩]، وقال تعالى: ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٣].

قوله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

سبب النزول:

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما قال «قدم وفد بني أسد على رسول الله ﷺ، فتكلموا، فقالوا: قاتلتك مضر ولسنا بأقلهم عدداً، ولا أكلّهم شوكة، وصلنا رحمك، فقال لأبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما تكلموا هكذا، قالوا: لا، قال: «إن فقه هؤلاء قليل وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم» قال عطاء في حديثه: فأنزل الله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟﴾»[1].

قوله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: يمن عليك يا محمد هؤلاء الأعراب أن أسلموا ويغترون بذلك ويُدِلُّون به.

ومعنى (أن أسلموا): أي: أن دخلوا في الإسلام ظاهرًا؛ لأن قولهم (آمنا) إما من باب التعليم لله - وهذا سوء أدب مع الله الذي لا تخفى عليه خافية من أعمالهم وغيرها.

وإما من باب الإدلال على الله بذلك، والمنة بذلك وأنهم كذا وكذا: تكثرًا بما ليس فيهم، وذلك مذموم؛ لأن المنة تبطِل وتفسد الصنيعة وقد قال الله عز وجل لنبيه ﷺ ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: ٦].

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ردًا عليهم في دعواهم: ﴿ لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم ﴾.

﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾.

أي: بل المنة والفضل لله عز وجل عليكم بذلك أن هداكم للإيمان الذي هو أعظم نعمة وأكبر منة منه عز وجل كما قال عز وجل: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ

---

(١) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» في التفسير ـ قوله تعالى: (يمنون عليك أن أسلموا) ٦/ ٤٦٧ رقم ١١٥١٩، وأبو يعلى في مسنده ٤/ ٢٥٠ رقم ٢٣٦٣، والضياء المقدسي في «المختارة» ١٠/ ٣٤٥ رقم ٣٧٣.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ۝ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي: في دعواكم الإيمان. و الله بذلك أعلم سبحانه، كما قال النبي ﷺ للأنصار: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟ كلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أمن»[1].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾.

الغيب في الأصل ما غاب عن الأعين، و الله عز وجل لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء فكل ما غاب في السموات والأرض عن الخلق هو عنده سبحانه ظاهر معلوم، لأنه لا تخفى عليه خافية في الأرض، ولا في السماء، كما قال عز وجل ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[إبراهيم: ٣٨].

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ قرأ ابن كثير (يعملون) بالغيب، وقرأ الباقون بالخطاب (تعملون).

(ما): مصدرية، أو موصولة، أي: بصير بعملكم، أو بالذي تعملون. و«البصير» من أسمائه ـ عز وجل.

والمعنى: والله بصير بأعمالكم، مطلع عليها يحصيها عليكم، ويجازيكم عليها، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، وهذا فيه وعيد وتهديد لمن خالف أمر الله عز وجل، ووعد لمن امتثل أمر الله وأطاعه.

الفوائد والعبر:

١ ـ الإنكار على هؤلاء الأعراب ونفي ما ادعوه لأنفسهم من الإيمان كأنهم يعلّمون الله بدينهم وليس معهم في الحقيقة إلا الإسلام الظاهر.

٢ ـ أن الأعراب سكان البادية هم أقرب إلى الجفاء والجهل.

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ـ غزوة الطائف ٤٣٣٠، ومسلم في الزكاة ـ إعطاء المؤلفة قلوبهم ١٠٦١، وأحمد ٤/٤٢ من حديث زيد بن عاصم رضي الله عنه.

٣ ـ أن الإيمان أخص من الإسلام، فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً، وأن الإيمان في البواطن والقلوب والإسلام علانية.

٤ ـ أن الحقائق لا تثبت بالدعاوى والأمانيّ.

٥ ـ أن هؤلاء الأعراب لم يكونوا منافقين، إذ لو كانوا منافقين لما أثبت لهم الإسلام ولنفاه عنهم، كما نفى عنهم الإيمان.

٦ ـ الترغيب في طاعة الله ورسوله، وأن من أطاع الله ورسوله سيوفّى أجره تاماً لا ينقص منه شيء وفاءً منه ـ عز وجل ـ وعدلاً.

٧ ـ وجوب طاعة الرسول ﷺ، وأنها من طاعة الله ـ عز وجل.

٨ ـ إثبات اسمين من أسماء الله ـ عز وجل ـ. وهما «الغفور» و «الرحيم»، وأنه ذو المغفرة التامة، والرحمة الواسعة.

٩ ـ أن التخلية قبل التحلية فزوال المرهوب أولاً بالمغفرة، ثم حصول المطلوب بالرحمة.

١٠ ـ أن المؤمنين الصادقين حقاً هم الذين آمنوا بالله ورسوله من غير شك، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله. وفي هذا وصف لهم وثناء من الله ـ عز وجل ـ عليهم، كما أن فيه إشارة لبعد هؤلاء الأعراب عن منزلتهم.

١١ ـ تلازم الإيمان بالله ورسوله، فلا يصح الإيمان بالله دون الإيمان بالرسول، ولا الإيمان بالرسول دون الإيمان بالله.

١٢ ـ عظمة مكانة الجهاد بالأموال والأنفس في الإسلام، لأن الله خصه هنا بالذكر من بين أعمال الإيمان.

١٣ ـ أهمية الجهاد بالأموال، لأن الله قدمه على الجهاد بالأنفس.

١٤ ـ علم الله ـ عز وجل ـ المحيط بما في السموات والأرض وأنه عز وجل بكل شيء عليم.

١٥ ـ منة هؤلاء الأعراب على الرسول ﷺ بإسلامهم جهلاً منهم.

١٦ ـ وجوب الأدب مع الله ـ عز وجل ـ ومع رسوله ﷺ وتحريم المنة والإدلال بالعمل.

١٧ ـ لا منة لهؤلاء الأعراب على الرسول ﷺ بإسلامهم بل المنة لله ـ عز وجل عليهم وعلى الخلق كلهم، وعلى المؤمنين خاصة بهدايتهم للإيمان.

١٨ ـ علم الله ـ عز وجل ـ بغيب السموات والأرض واطلاعه على العباد وأعمالهم وإحصاؤها ومجازاتهم عليها وفي هذا وعد لمن أحسن ووعيد لمن أساء.

تفسير سورة (ق)

تقدم في أول الكلام على سورة الحجرات: أن سورة (ق) أول الحزب المفصل على قول أكثر أهل العلم، وهو الراجح؛ لأنه هو الذي يدل عليه تحزيب الصحابة رضي الله عنهم، وصححه ابن كثير رحمه الله.

وعن أبي واقد الليثي رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأله: «ما كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيد؟ قال بـ« ق»، واقتربت»[1].

وعن أم هشام بنت الحارث بن النعمان قالت: «ما حفظت ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ إلا من (في) رسول الله ﷺ يخطب بها كل جمعة»[2].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[3]: «والقصد أن رسول الله ﷺ - كان يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار كالعيد والجمع، لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور، والمعاد والقيام، والحساب، والجنة والنار، والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب» .

---

(١) اخرجه مسلم في صلاة العيدين - ما يقرأ به في صلاة العيدين ٨٩١، وابو داود في الصلاة ـ ما يقرأ في الأضحى والفطر ١١٥٤، والنسائي في العيدين - القراءة في العيدين بـ «ق»، واقتربت ١٥٦٧، والترمذي في الجمعة ٥٣٤، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها ـ ما جاء في القراءة في صلاة العيدين ١٢٨٢، وأحمد ٥/ ٢١٧ - ٢١٨.

(٢) اخرجه مسلم في الجمعة - باب تخفيف الصلاة والخطبة ٨٧٣، وابو داود في الصلاة - باب الرجل يخطب على قوس ١١٠٠، والنسائي في الافتتاح ٩٤٩، واحمد ٦/ ٤٣٥ - ٤٣٦.

(٣) في (تفسيره) ٧/ ٣٧١.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ﴿٣﴾ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ﴿٤﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾.

افتتح الله عز وجل تسعًا وعشرين سورة من سور القرآن الكريم بالحروف المقطعة كقوله: «الم، المص، الر، كهيعص، طسم، طس، يس، ص، حم، حم عسق، ق، ن».

واختلفوا هل تعد هذه الحروف آيات أو لا. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «وهذه الحروف ليست آيات عند جمهور العلماء، وإنما يعدها آيات الكوفيون».

قلت: وعلى قول الكوفيين جاء ترقيم المصحف حيث عدت هذه الحروف آية من السورة التي جاءت فيها عدا قوله «حم، عسق» فعدوها آيتين من السورة وعدا قوله «المر، الر، طس، ص، ق، ن» فعدوها بعض آية من السورة.

كما اختلفوا في إعرابها.

فذهب الخليل وسيبويه وأكثر المعربين إلى أنها حروف هجاء محكية لا محل لها من الإعراب، وذهب بعضهم إلى أنها معربة ومحلها الرفع على الابتداء لخبر مقدر، أو على الخبر لمبتدأ مقدر، وقيل: محلها النصب على المفعول به بتقدير: اقرأ «الم» ونحو ذلك، وقيل: محلها الجر بالقسم. والراجح القول الأول: أنها لا محل لها من الإعراب.

كما اختلف المفسرون سلفًا وخلفًا في المراد بهذه الحروف.

فذهب جمهور المفسرين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى أن هذه الحروف من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، واختار هذا بعض المفسرين، منهم جلال الدين السيوطي[2] والشوكاني[3]، والسعدي، وغيرهم قال السعدي[4]: «وأما الحروف المقطعة في أوائل السور فالأسلم فيها السكوت عن التعرض لمعناها من غير مستند

---

(١) في (مجموع الفتاوى) ٢٠/ ٤٢٠.
(٢) انظر (الإتقان) ١/ ٣٢.
(٣) انظر (فتح القدير) ١/ ٣٢.
(٤) في (تيسير الكريم الرحمن) ١/ ٣٩.

شرعي، مع الجزم بأن الله تعالى لم ينزلها عبثًا، بل لحكمة لا نعلمها».

وذهب كثير من العلماء إلى أن هذه الحروف ليست من المتشابه لكنهم اختلفوا في المراد بها اختلافًا كثيرًا وحكي في ذلك نحو ثلاثين قولاً.

فقيل: هي حروف يتكون منها اسم الله الأعظم، وقيل: هي أسماء للسور المفتتحة بها، وقيل: هي من أسماء القرآن، وقيل: هي أقسام أقسم الله بها لشرفها وفضلها. وقيل: هي حروف دالة على أسماء أخذت منها وحذفت بقيتها. وقيل: هي فواتح يفتتح الله بها القرآن، وقيل: للدلالة على انتهاء السورة التي قبلها، وافتتاح ما بعدها. وقيل هي حروف يشتمل كل حرف منها على معانٍ شتى مختلفة، وقيل: هي أسماء للرسول ﷺ. وقيل: هي لصرف أسماع المشركين إلى القرآن الكريم لما تواصوا بعدم سماع القرآن، وقيل: هي حروف من حساب الجمل. وقيل: هي تنبيه كـ «يا» النداء.

وأقرب الأقوال في المراد بها: القول بأنها حروف من حروف الهجاء كما قال مجاهد[1]. فهي حروف هجائية لا معنى لها بحد ذاتها لكن لذكرها مغزى وحكمة، وهي بيان إعجاز القرآن الكريم، وبيان أن الخلق عاجزون عن معارضته مع أنه مركب من هذه الحروف الهجائية التي يتخاطبون بها ويؤيد صحة هذا القول أمران:

الأول ـ أن القول بأن لها مغزى وحكمة فيه بيان أن لها فائدة عظيمة ـ وإن كانت في حد ذاتها حروفًا من حروف الهجاء المعروفة ليس لها معنى؛ بخلاف القول بأنها من المتشابه الذي استأثر الله تعالى بعلمه؛ لأن الله عز وجل خاطب العرب بما يعرفون وبذلك قامت عليهم الحجة كما قال سبحانه ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، كما أن بقية الأقوال التي قيلت في المراد بها لا دليل عليها، ولا حكمة تظهر منها ولا فائدة.

الثاني – أن جميع السور المفتتحة بالحروف المقطعة يذكر فيها بعد هذه الحروف غالبًا: الثناء على القرآن الكريم وبيان إعجازه، وأنه الحق الذي لا شك فيه كقوله في

---

(١) أخرجه الطبري في (جامع البيان) ١/ ٢٠٨.

مطلع سورة البقرة ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وكقوله ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ وكقوله ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾. وبهذا قال جمع من أهل اللغة واختاره الزمخشري[١]، والرازي[٢]، وشيخ الإسلام ابن تيمية، والمزيّ وابن القيم[٣] وابن كثير[٤]، ومحمد رشيد رضا[٥]، والشنقيطي[٦] والعثيمين[٧] وغيرهم.

قال ابن كثير[٨]: «وقال آخرون: بل إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بيانًا لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها، قال: وقد حكى هذا المذهب الرازي في تفسيره عن المبرد وجمع من المحققين، وحكى القرطبي عن الفراء وقطرب نحو هذا، وقرره الزمخشري في (كشافه) ونصره أتم نصر، وإليه ذهب الشيخ الإمام العلامة أبو العباس بن تيمية وشيخنا الحافظ المجتهد أبو الحجاج المزي، وحكاه لي عن ابن تيمية ».

قوله (وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ) الواو حرف قسم وجر، و(القرآن) مقسم به مجرور، والمقسم بالقرآن هو الله عز وجل.فأقسم عز وجل بالقرآن وهو كلامه وصفة من صفاته.

وسمي القرآن بهذا الاسم لأنه مقروء متلو أخذاً من «قرأ» إذا تلا، ولأنه أيضا مجموع آيات وسور أخذاً من «قَرَى» إذا جمع، ومنه سميت القرية لأنها تجمع أُناساً كثيرين، وسمي مجمع الماء «قَرْواً» لاجتماع الماء فيه. فالقرآن كلام الله ـ عز وجل ـ المنزل على الرسول ﷺ المتعبد بتلاوته والعمل به، المعجز بأقصر سورة منه.

و(المجيد) العظيم الواسع الكريم، كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾[البروج:

---

(١) انظر (الكشاف) ١/ ١٣ – ١٨.
(٢) انظر (التفسير الكبير) ١/ ٣ – ١٢.
(٣) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٩٩، «تفسير القرآن الكريم» للشيخ العثيمين ١/ ٢٣.
(٤) انظر (تفسير ابن كثير) ٧/ ٥٩ – طبعة دار الشعب.
(٥) انظر (تفسير المنار) ٨/ ٢٩٦.
(٦) انظر (أضواء البيان) ٣/ ٥.
(٧) انظر «تفسير القرآن الكريم» للشيخ العثيمين ١/ ٢٢ـ ٢٣.
(٨) في (تفسيره) ١/ ٣٨ – الطبعة الحلبية. وانظر الكلام على مطلع سورة «ن».

٢١] والمجد: سعة الأوصاف وعظمتها. فهو الكتاب العظيم الواسع الكريم، واسع الأوصاف، عظيم المعاني، ذو السلطان المطلق، والهيمنة التامة على جميع الكتب يهدي للتي هي أقوم، وفيه البشارة والدعوة إلى كل خير والنذارة والتحذير من كل شر، والأخبار والغيوب السابقة واللاحقة.

قال ابن القيم[1]: «وههنا قد اتحد المقسم به والمقسم عليه، وهو القرآن، فأقسم بالقرآن على ثبوته وصدقه، وأنه حق من عنده، ولذلك حذف الجواب ولم يصرح به، لما في القسم من الدلالة عليه؛ أو لأن المقصود نفس المقسم به».

﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي: بل عجب المكذبون للرسول ﷺ، عجب استغراب وإنكار وتكذيب، أن جاءهم رسول منهم ينذرهم عذاب النار لمن كفر وخالف أمر الله ـ مع البشارة بالجنة لمن آمن وأطاع الله؛ لأن مهمة الرسل هي البشارة والنذارة كما قال عز وجل: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[النساء: ١٦٥]. وإنما اكتفى ـ هنا ـ بذكر النذارة فقط ـ والله أعلم ـ لأن الكلام مع الكافرين المكذبين.

﴿مِّنْهُمْ﴾ أي: لا من غيرهم، بل منهم وبلسانهم لتقوم الحجة عليهم كما قال عز وجل ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[إبراهيم: ٤].

وقال عز وجل ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[الشعراء: ١٩٥]، وقال تعالى ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[فصلت: ٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال تعالى : ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾[الشعراء: ١٩٨، ١٩٩].

ولا شك أن من نعمة الله عز وجل عليهم كون القرآن بلغتهم، والرسول بلسانهم ليتبعوه لا لأجل أن يحسدوه ويحتقروه كما قال الله عز وجل عن قوم صالح عليه

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٨٧.

السلام ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٣ - ٢٥].

وقال تعالى: عن قريش أنهم قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[الزخرف: ٣١].

وجعله منهم لا لأجل أن يطالبوه بما ليس في مقدروه، كما قال عز وجل: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[الأنعام: ٨، ٩].

﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: الجاحدون لتوحيد الله وشريعته جهلاً منهم وظلمًا.

﴿هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ يشيرون إلى مجيء المنذر لهم بالبعث والحساب بعد الموت أي: هذا الأمر وهو أن نبعث بعد الموت أمر وشيء في غاية العجب، كيف يحصل هذا؟؟

فتعجبوا من غير عجيب، واستغربوا أمرًا غير غريب، كما قال عز وجل ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ١، ٢].

فكيف يتعجبون من رحمة الله تعالى للخلق بإرسال الرسل وإنزال الكتب لهدايتهم لما فيه سعادتهم في أمر دينهم ودنياهم، وذلك ببيان طريق الخير والأمر باتباعه والبشارة لمن اتبعه وبيان طريق الشر، والنهي عن اتباعه والنذارة لمن اتبعه. فليس في هذا ما يثير العجب، ويجعلهم ينسبون ذلك إلى السحر، لولا كفرهم وعنادهم، بل إن العجب كل العجب هو كفرهم وتكذيبهم بالبعث كما قال عز وجل ﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

ثم ذكر عز وجل وجه تعجبهم وهو قولهم:

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾.الاستفهام للإنكار والتكذيب، فهم ينكرون البعث ويرونه ضربًا من المستحيل.

والموت: هو خروج الروح ومفارقتها للجسد.

﴿وَكُنَّا تُرَابًا ۖ﴾ اي: وبلينا وتقطعت الأوصال منا وتحولت أجسامنا إلى تراب.

﴿ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٞ﴾ الإشارة للبعث الذي يوعدون به وأشاروا إليه بإشارة البعيد «ذلك» استبعاداً له، والمراد بالرجع: الرجوع، أي: رجوع الحياة إلى الأجسام وإلى هذه البنية والتركيب وبعثها بعد الموت وبعد كونها ترابًا.

(بعيد) أي: بعيد الوقوع، مستحيل غير ممكن، لأنهم ينكرون البعث كما حكى الله عنهم ذلك في أكثر من موضع قال تعالى:﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[النحل: ٣٨].

فرد الله عليهم بقوله:

﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ﴾ (قد) للتحقيق، أي تحقيق علمه ـ عز وجل، أي: قد علمنا الذي تأكل الأرض من أجسادهم بعد البلى مدة مقامهم في البرزخ، وأين تفرقت، وإلى أي شيء صارت وتحولت.

وفي قوله: ﴿مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ﴾ إشارة إلى أن الأرض لا تأكل كل الأجساد. فالأنبياء ـ عليهم السلام ـ حرم الله على الأرض أكل أجسادهم، كما قال ﷺ: «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»[1]

كما يبقى من جميع الأجساد عجب الذنب لا تأكله الأرض منه يركب الإنسان ويعاد خلقه كما قال ﷺ: «كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب»[2].

﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ﴾ أي: وعندنا كتاب يحفظ ذلك كله، وهو اللوح المحفوظ، و(حفيظ) على وزن (فعيل) صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، أي: حفيظ لكل شيء من أجسادهم وأعمالهم وأحوالهم وغير ذلك، محفوظ عن التغيير والتبديل، فعلمه ـ عز وجل شامل، وكتابه حافظ، وهذا يدل على أنه عز وجل لكمال وسعة علمه وتمام قدرته قادر على بعث الخلق بعد الموت والبلى، وأن البعث أيضًا لهذه الأجساد

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٠٤٧، والنسائي في الجمعة ـ إكثار الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة ١٣٧٢، وابن ماجه في إقامة الصلاة ـ فضل الجمعة ١٠٨٥ ـ من حديث أوس بن أوس ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨١٤، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة ٢٩٥٥، وأبو داود في السنة ٤٧٤٣، والنسائي في الجنائز ٢٠٧٧، وابن ماجه في الزهد ٤٢٦٦ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

والأرواح التي عاشت في الدنيا فأطاعت أو عصت لِتُنَعَّمَ أو تعذب، لا أن البعث خَلْقٌ لأجساد وأرواح أخرى كما زعم بعض منكري البعث.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ بل: للإضراب الانتقالي، أي: إن الذي حملهم على التعجب مما لا يثير العجب، وإنكار البعث بعد الموت والكفر هو تكذيبهم بالحق الذي جاءهم من عند الله في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ.

﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ الفاء للتعقيب والسببية، أي: فهم بسبب تكذيبهم بالحق الذي جاءهم من عند الله في أمر مختلط غاية الاختلاط مختلف مضطرب ملتبس لا يحصلون منه على شيء، بل هم مضطربون مختلفون بسبب ذلك، لا يثبتون على أمر، ولا يستقرون على حال، كما قال ـ عز وجل ـ عنهم: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٨، ٩]. وقال تعالى ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبأ: ١ – ٣]، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠)﴾[الأنعام: ١١٠].

فتارة يقولون عن الرسول الله ﷺ: ساحر، وتارة مجنون، وتارة شاعر.

وكذا قالوا في القرآن فجعلوه (عضين) أي: أجزاء بعضها صدق وبعضها باطل ـ كما زعموا. وكذا اختلفوا في البعث بعد الموت والحساب بعده بين مصدق ومكذب، وهكذا فإن الكفر والبعد عن الحق حيرة واضطراب وتذبذب وشقاء في الدنيا والآخرة. كما أن الإيمان واتباع الحق طمأنينة وثبات وسعادة في الدنيا والآخرة، نسأل الله الهداية والتوفيق.

قال ﷺ: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[1].

---

(١) اخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٧٧٠، وأبو داود في الصلاة ٧٦، والنسائي في قيام الليل ١٦٢٥، والترمذي في الدعوات ٣٤٢٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٥٧ – من حديث عائشة رضي الله عنها.

الفوائد والعبر:

١ ـ إعجاز القرآن وبلوغه أعلى درجات الفصاحة والبلاغة وتحدي العرب بذلك.

٢ـ إقسام الله ـ عز وجل ـ بالقرآن المجيد ـ تعظيماً له، وبياناً لسعة أوصافه، وما اشتمل عليه من الهدى، وأنه حق وصدق من عند الله ـ عز وجل.

٣ ـ عظم منزلة القرآن الكريم وعلو مكانته عند الله ـ عز وجل ـ مما يوجب على الأمة تعظيمه والاهتداء بهديه واتباعه.

٤ ـ تعجب الكافرين من أمر لا يثير العجب وهو مجيء الرسول ﷺ يخبرهم بالبعث وينذرهم عذاب الله تعالى.

٥ ـ نعمة الله ـ عز وجل ـ على العرب بجعل الرسول منهم، ويتكلم بلسانهم، وإنزال القرآن بلغتهم، وهذا أقوم للحجة عليهم.

٦ ـ إنكار الكافرين للبعث بعد الموت واستبعادهم له.

٧ ـ علم الله ـ عز وجل ـ التام بما تنقص الأرض من الأجساد بعد البلى وقدرته التامة على جمعها بعد التفرق وبعثها بعد الموت.

٨ ـ الإشارة إلى أن من الأجساد ما لا تأكله الأرض، وهي أجساد الأنبياء عليهم السلام، وعجب الذنب من كل إنسان.

٩ ـ إثبات اللوح المحفوظ الذي يحفظ كل شيء من أعمال الخلق وأحوالهم، وأين كانت أجزاؤهم، وغير ذلك، والمحفوظ من التبديل والتغيير.

١٠ ـ تكذيب الكفار بالحق الذي جاءهم في القرآن وعلى لسان الرسول ﷺ، واختلافهم واضطرابهم بسبب ذلك، وهذه عقوبة من كذب بالحق.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله ـ عز وجل ـ استبعاد الكافرين للبعث بعد الموت بعد أن كانوا ترابًا، ثم أتبع ذلك بذكر دلائل قدرته التامة من خلق السموات والأرض والجبال، وإنزال الماء المبارك من السماء، وإنبات النبات بأنواعه وأشكاله المختلفة رزقًا للعباد وإحياءً للبلدة الميتة تبصرة وذكرى ودلالة على صحة آياته الشرعية وصدق رسوله ﷺ وعلى قدرته سبحانه على إحياء الأجساد بعد موتها.

وكثيرًا ما يوجه ـ عز وجل الأنظار للتأمل في آياته الكونية الدالة على صحة آياته الشرعية، وعلى قدرته التامة على البعث وعلى كماله سبحانه في ذاته وأسمائه وصفاته واستحقاقه العبادة دون ما سواه مما يوجب على الإنسان التأمل في هذه الآيات، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[يونس: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الروم: ٢٢]، وقال تعالى ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت:٣٧]، وقال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧ – ٣٢].

قوله: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾.

الاستفهام للتوبيخ والتقريع أي: أعموا أو أغفلوا فلم ينظروا إلى السماء نظر بصر بالعين، ونظر تفكر بالقلب، (فوقهم) فيه إشارة إلى علوها وارتفاعها وسعتها وعظمتها (كيف بنيناها) أي: كيف بنيناها بقوة كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾[الذاريات: ٤٧] أي: بقوة، وقال تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾[النبأ: ١٢]، وجعلناها قبة مستوية الأرجاء ثابتة البناء (وزيناها) أي: وجملناها بالنجوم والمصابيح. (ومالها من

فروج) الفروج: الشقوق والصدوع والفتوق.

والمعنى: أغفلوا فلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وجملناها بالنجوم والمصابيح، وما لها من فتوق أو صدوع أو شقوق، بل هي على أكمل وأقوى وأجمل خلقة كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٣ - ٥].

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ تذكر السماء ـ غالباً ـ قبل الأرض لعلو السماء وارتفاعها وصغر الأرض بالنسبة لها. ومعنى (مددناها) أي: جعلناها ممتدة مفروشة مبسوطة واسعة قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ [الرعد: ٣]، وقال تعالى في سورة الحجر ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾[الآية: ١٩]، وقال تعالى في سورة الذاريات ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الآية: ٤٨].

﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ اي: جعلنا فيها، اي: في الأرض رواسي وهي الجبال، التي ترسي الأرض وتثبتها لئلا تميد وتضطرب بأهلها. كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧].

قال ابن كثير[١]: «(والقينا فيها رواسي) وهي الجبال لئلا تميد بأهلها وتضطرب، فإنها مقرة على تيار الماء المحيط بها من جميع جوانبها».

﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ الزوج: هو الشفع ضد الوتر، أي أنبتنا فيها من كل صنف من أنواع النباتات والزروع والثمار والفواكه وغيرها. كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

(بهيج): أي: حسن نضر جميل، يبهج القلب والنفس مرآه، من الحدائق ذات

---

(١) في (تفسيره) ٧/ ٣٧٤.

الأشجار والأزهار والثمار مما يحار الطرف في حسنه كما قال تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ [النمل: ٦٠]، البهجة حسن اللون وظهور السرور، أي: ذات جمال وحسن يبهج النفوس ويسر القلوب.

﴿تَبۡصِرَةٗ﴾ التبصرة: ما يجعل الإنسان يتبصر باستمرار من عمى الجهل ويتفكر ويتأمل، ويستعمل بصره الظاهر وبصيرته الباطنة، فيتأمل في هذه المخلوقات العظيمة، فهي من آيات الله العظيمة الدالة على عظمته واستحقاقه للعبادة كما قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

﴿وَذِكۡرَىٰ﴾ الذكرى: ما يجعل الإنسان يتذكر ويتعظ، فلا يغفل ولا ينسى، أي: يتذكر بها عظيم حق الله تعالى عليه، وتمام قدرته على البعث ووجوب الإقبال على طاعته ـ عز وجل ـ.

﴿لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ أي: لكل عبد من عباد الله منيب، أي: خاضع خائف وجل رجّاع إلى الله عز وجل مقبل على الله تائب إليه، بخلاف المكذب المعرض فلا ينتفع بهذه الآيات.

قال ابن القيم[1] : «تبصرة – إذا تأملها العبد المنيب وتبصر بها – تذكر ما دلت عليه، مما أخبرت به الرسل من التوحيد والمعاد، وأن هذا لا يحصل إلا لعبد منيب إلى الله بقلبه وجوارحه».

والمعنى: أن النظر إلى هذه المخلوقات العظيمة: السموات والأرض والجبال والنبات وما هي عليه من الإحكام فيه أعظم معين على التبصر والتذكر في عظيم خلق الله عز وجل وكمال قدرته وأن ذلك من آكد الأدلة وأقواها على قدرته عز وجل التامة على البعث بعد الموت لمن وفقه الله عز وجل إلى التوبة والإنابة من العباد.

﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا﴾ يتكلم عز وجل عن نفسه بضمير العظمة في (ونزلنا) وكذا ما قبله وما بعده من الضمائر، لأنه عز وجل هو العظيم حقًا كما قال سبحانه

---

(١) انظر: (بدائع التفسير) ٤/ ١٨٨، ١٩٥.

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥، الشورى: ٤].

وقوله (ونزَّلنا) بتشديد الزاي، لأن المطر ينزل شيئاً فشيئاً لكي تبلغ به الأرض وترتوي، ولأنه لو انصب بقوة لأضر بما ينزل عليه، ويأتي (أنزلنا) كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨] وذلك لأن المطر يتكاثر حتى تجري وتسيل منه الوديان.

﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من العلو؛ لأن كل ما علا فهو سماء، والماء ينزل من السحاب الذي يتكون بين السماء والأرض على الأظهر والأشهر كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤]. ومن الحكمة في كونه ينزل من السماء أن يشمل ويعم كل شيء؛ التلال وقمم الجبال والسهول والوهاد، وغير ذلك.

﴿مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ أي: ماءً نافعًا كثيراً خيره. والبركة: كثرة الخير.

﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ﴾ النبات هو ما يخرج من الأرض بعد نزول الماء عليها أي: أخرجنا بهذا الماء المبارك (جنات) والجنات: جمع جنة بفتح الجيم، وهي الحدائق والبساتين المشتملة على أنواع الأشجار التي فيها مختلف الثمار، وسميت جنات لأنها تجن وتستر من بداخلها بسبب أشجارها الكثيرة الملتفة، ومن هنا سميت دار السلام ودار المتقين بالجنة؛ لأنها تجن وتستر من فيها لكثرة ما فيها من أنواع الخضرة والحبرة والنعيم نسأل الله تعالى من فضله وكرمه مع البون الشاسع والفرق الواسع بين بساتين الدنيا وجنان الآخرة.

﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ أي: وحب الزرع الذي يزرع ثم يحصد ويؤكل منه ويدخر من البر والشعير والذرة والأرز والدخن وغير ذلك.

﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ النخل: هي الأشجار ذات السيقان الطويلة وذات الثمر الذي يعد من أفضل الثمار ومن أهمها وأنفعها والذي يعد قوتًا كاملاً.

وخصها بالذكر لفضلها وشرفها، فهي أشرف الأشجار، شبه بها المؤمن، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤ ، ٢٥] قال

ﷺ: «شجرة تشبه أو كالرجل المسلم، لا يتحات ورقها، ولا، ولا، ولا، ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ﴾، النخلة»[١] . وفي رواية: «إن من الشجر شجرة لا يطرح ورقها، مثل المؤمن، هي النخلة»[٢].

ولهذا جاء في حديث عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبي ﷺ قال «لا يجوع أهل بيت عندهم التمر»[٣]، وعن عروة بن الزبير عنها رضي الله عنها قالت: «إن كنا لننظر إلى الهلال، ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار، فقلت: يا خالة، ما كان يعيشكم؟ قالت الأسودان: التمر والماء، إلا أنه كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار كانت لهم منائح، وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقينا»[٤].

﴿بَاسِقَٰتٖ﴾ طوالاً شاهقات يعجب منظرها الرائي. قال ابن القيم[٥].«وأفرد النخل لما فيه من موضع العبرة والدلالة التي لا تخفى على المتأمل».

﴿لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ﴾ الطلع: هو ثمرها الذي يخرج منها. و (نضيد) فعيل بمعنى مفعول. أي: منضود، نضد بعضه على بعض.

﴿رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ﴾: حال، أو مفعول لأجله. والرزق: العطاء، أي: عطاء منه عز وجل للعباد لمعاشهم. والمراد هنا العبودية الكونية العامة التي تعم المؤمن والكافر، كما قال تعالى: ﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾[الإسراء: ٢٠].

﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ﴾ لما كانت «بلدة» مؤنثة اللفظ مذكرة المعنى صح أن توصف بمذكر (ميتا) أي: بلداً ميتا، أي: أحيينا بهذا الماء المبارك بلدة ميتة، أرضها وما فيها من الحيوانات تكاد تهلك من الجدب والقحط، فأصبحت تهتز خضراء. كما قال عز وجل ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ [الحج : ٥].

---

(١) اخرجه البخاري في تفسير سورة إبراهيم ٤٦٩٨، ومسلم في صفات المنافقين ٢٨١١ ـ من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما.
(٢) أخرجها البخاري في العلم ـ قول المحدث: حدثنا ٦١، ومسلم ٢٨١١، والترمذي في الأمثال ٢٨٦٧.
(٢) اخرجه مسلم في الأشربة ٢٠٤٦ ، وأبو داود في الأطعمة ٣٨٣١، وابن ماجه في الأطعمة ٣٣٢٧.
(٣) اخرجه البخاري في الهبة وفضلها ٢٥٦٧، ومسلم في الزهد ٢٩٧٢، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٧١، وابن ماجه في الزهد ٤١٤٤.
(٤) انظر: بدائع التفسير ٤/ ١٩٥.

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ أي: فكما خلق الله عز وجل هذه المخلوقات العظيمة السموات والأرض والجبال وأنزل الماء من السماء و أحيا به الأرض بعد موتها كذلك يحيي الله الموتى، فتكون الإشارة في قوله (كذلك) لما تقدم من قوله ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾ إلى هنا.

وكثيرًا ما يستدل عز وجل بقدرته على خلق السموات والأرض، وإحياء الأرض بعد موتها على قدرته عز وجل التامة على البعث كما قال عز وجل: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر الآية ٥٧]،

وقال عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

ويحتمل أن المعنى: مثل هذا الإخراج من الأرض للفواكه والثمار والأقوات والحبوب وإحياء الأرض بعد موتها خروجكم من الأرض إذا غيبتم فيها، فتكون الإشارة في قوله (كذلك) لما تقدم في الآيات من قوله ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ إلى هنا.

الفوائد والعبر:

١ ـ التوبيخ والتقريع للكفار الذين كذبوا بالحق وأنكروا البعث والإنكار عليهم في عدم نظرهم في آيات الله ـ تعالى ـ الكونية ودلائل قدرته على البعث ونعمه.

٢ ـ وجوب التأمل والتبصر في آيات الله الكونية، في السماء وشدة بنائها وتزيينها وحبكها، وفي الأرض وبسطها وتثبيتها بالرواسي، وإخراج النبات منها، وتذكر نعم الله ـ عز وجل ـ وعظم حقه على العباد، وكمال خلقه، وتمام قدرته على البعث.

٣ ـ إثبات عبودية المؤمنين الخاصة لله ـ عز وجل ـ وأنه إنما يتأمل في آيات الله ويتبصر بها ويتذكر من وفقه الله ـ عز وجل ـ لعبوديته ـ عز وجل ـ والإنابة إليه.

٤ ـ التذكير بنعمة الله ـ عز وجل ـ على العباد، وعظيم قدرته في إنزال المطر وإنبات الجنات وأصناف الحبوب والنخيل رزقاً للعباد وإحياءً للأرض بعد موتها.

٥ ـ الاستدلال بخلق السموات والأرض وإنبات النبات وإحياء الأرض بعد موتها على قدرة الله ـ عز وجل ـ التامة على البعث بعد الموت.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ۝ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝﴾.

صلة الآيات بما قبلها :

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة تكذيب المشركين لرسول الله ﷺ وإنكارهم البعث، ثم ذكر في هذه الآيات تكذيب الأمم قبلهم وما حل بهم من وعيد الله لهم وعقوباته، وأن من أعظم الدلائل على قدرته عز وجل التامة على البعث خلقهم الأول، فالذي بدأ الخلق قادر على إعادته من باب أولى.

وفي هذا كله تهديد للمشركين، وتسلية للنبي ﷺ ببيان أن التكذيب هو ديدن كثير من الأقوام مع أنبيائهم، كما أن فيه تقرير النبوة والمعاد. قال تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾[فصلت: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝﴾[الذاريات: ٥٢ ، ٥٣].

وقوله ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أي: كذبت قبل قومك يا محمد قوم نوح نبي الله عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، والذي هو أول رسل الله وأحد أولي العزم فقد دعاهم عليه السلام بشتى الطرق والأساليب، وتحبب إليهم بشتى الوسائل فلم ينجع ذلك فيهم، فبين لهم ما أعده الله لمن أجاب رسل الله من الخير والثواب في الدنيا والآخرة، وما توعد به المكذبين لرسله من العقوبات في الدنيا والآخرة قال تعالى عنه أنه قال: ﴿رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ إلى قوله ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ٥-١٨] فكذبوه فأهلكهم الله بالغرق.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾ الرس: الماء الكثير، وقيل الماء القليل، وقيل: البئر غير المطوية.

﴿وَثَمُودُ﴾ وهم قوم صالح عليه السلام، فقد كذبوا نبيهم صالحًا عليه السلام فأهلكهم الله بالصيحة الطاغية والصاعقة التي قطعت قلوبهم في أجوافهم. ومساكنهم هي المعروفة بمدائن صالح في العلا شمال الجزيرة، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

﴿وَعَادٌ﴾ هم قوم هود عليه السلام كذبوا هودًا عليه السلام فأهلكهم الله - عز وجل - بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام متتالية ومساكنهم بالأحقاف جنوب الجزيرة في اليمن.

قال تعالى: ﴿۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١]، وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦-٨].

وقد سمى الله عقوبة كل منهما صاعقة قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣].

﴿وَفِرْعَوْنُ﴾ هو فرعون مصر الذي ادعى الربوبية والألوهية، فأرسل الله إليه نبيه موسى وأخاه هارون عليهما السلام فكذب هو وقومه فأهلكه الله بالغرق.

﴿وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ وهم قوم لوط عليه السلام كذبوا لوطًا عليه السلام فقلب الله ديارهم عليهم وجعل عاليها سافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود ومساكنهم قرب نهر الأردن بنواحي الشام، ويقال: هي المعروفة الآن بالبحر الميت.

﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ وهم قوم نبي الله شعيب عليه السلام. والأيكة هي: الغيضة والواحة الخضراء الملتفة بالأشجار. حذرهم شعيب عليه السلام من نقص المكيال والميزان ودعاهم إلى الله عز وجل لكنهم كفروا وعاندوا فأهلكهم الله قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝﴾ [الشعراء: ١٨٩].

﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ تبع: أحد ملوك اليمن وكان من أشدهم وأعظمهم ملكًا، وقومه سبأ، وكانوا كلما ملك فيهم رجل سموه تبعًا، كما يقال كسرى لكل من ملك الفرس، وقيصر لمن ملك الروم، وفرعون لمن ملك مصر كافرًا.

أي: وقوم تبع كذبوا رسولهم الذي أرسل إليهم.

﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ أي: كل من هؤلاء الأقوام كذبوا رسلهم.

وفي هذا دلالة على عدم الاغترار بما عليه الأكثرون كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أي: فحق عليهم وعيد الله بالعذاب الدنيوي مع ما ينتظرهم من العذاب الأخروي يوم القيامة قال عز وجل: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وفي ذكر تكذيب هؤلاء الأقوام وما حق عليهم من وعيد الله وعقابه تهديد وتخويف وتحذير للمكذبين من أمة محمد ﷺ، وتسلية له ﷺ تجاه تكذيب قومه؛ لأن المصائب إذا عمت خفت، فليس هو فقط الذي كذبه قومه، بل كل الأنبياء قبله كذبهم أقوامهم. وفيه دروس تربوية للدعاة والمصلحين والموجهين والمربين والآباء، فهؤلاء رسل الله وأنبياؤه كذبهم أقوامهم، ولم يستطيعوا هدايتهم، بل لم يستطيعوا هداية أخص الأقربين إليهم، فلم يستطع نوح ـ عليه السلام ـ هداية ابنه ولا هداية امرأته، ولم يستطع إبراهيم ـ عليه السلام ـ هداية أبيه، ولم يستطع لوط هداية امرأته، كما لم يستطع محمد ﷺ هداية عمه.

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ الاستفهام بمعنى النفي. أي: لم نعي بالخلق الأول. والعي بمعنى: العجز عن الشيء، يقال: عيي فلان بهذا الأمر، أي عجز عنه، ويقال: أعياه كذا، أي: أعجزه.

والمعنى: أفعجزنا عن ابتداء الخلق الأول، أي: لم يعجزنا ذلك، أولم نعجز عن ذلك مع أنه أعظم وأشد.

والمراد بـ(الخلق الأول) خلق الناس من العدم أول مرة كما قال تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ بل للإضراب، ﴿فِي لَبۡسٖ﴾ أي: في شك واضطراب، ﴿مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ أي: من إرجاعهم وبعثهم أحياء بعد الموت، وبعد كونهم ترابًا.

أي: بل هم مقرون بأننا لم يعجزنا الخلق الأول كما قال تعالى عنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾[الزخرف: ٨٧] لكنهم في شك من الخلق الثاني، وهذا

عجب من حالهم كيف يقرون بالخلق الأول ثم ينكرون البعث مع أن من قدر على الخلق الأول فهو على الخلق الثاني أقدر من باب أولى كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: «**كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدًا، وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفئاً أحد**»[1].

قال ابن القيم رحمه الله[2] : «وهو سبحانه يقرر المعاد بذكر كمال علمه وكمال قدرته، وكمال حكمته فإن شُبَه المنكرين كلها تعود إلى ثلاثة أنواع: أحدها: اختلاط أجزائهم بأجزاء الأرض على وجه لا يتميز ولا يحصل معه تميز شخص عن شخص. الثاني: أن القدرة لا تتعلق بذلك. الثالث: أن ذلك أمر لا فائدة فيه ... قال: فجاءت براهين المعاد في القرآن مبينة على ثلاثة أصول:

أحدها: تقرير كمال علم الرب سبحانه كما قال في جواب من قال :﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]. وقال ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٥، ٨٦]، وقال: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ﴾ [ق: ٤].

والثاني: تقرير كمال قدرته كقوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ﴾ [يس: ٨١]، وقوله ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: ٤]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج: ٦].

ويجمع سبحانه بين الأمرين كما في قوله ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٧٤.

(٢) انظر (بدائع التفسير) ٤/١٩٣ – ١٩٤، ١٩٦ – ١٩٧.

بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١].

الثالث: كمال حكمته، كقوله: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨]. وقوله ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ﴾ [ص: ٢٧]، وقوله: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، وقوله: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]، وقوله: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]».

قال ابن القيم[1]: «ولهذا كان الصواب: أن المعاد معلوم بالعقل مع الشرع، وأن كمال الرب تعالى وكمال أسمائه وصفاته تقتضيه وتوجبه، وأنه منزه عما يقوله منكروه، كما ينزه كماله عن سائر العيوب والنقائص».

الفوائد والعبر:

١ـ ذكر تكذيب قوم نوح ومن بعدهم من الأمم لأنبيائهم، وتحقق وعيد الله لهم بالعقوبات التي أنزلها فيهم في الدنيا، وما ينتظرهم من ذلك في الآخرة ـ وفي ذلك تحذير وتخويف للمكذبين، وتسلية للرسول ـ ﷺ .

٢ـ اجتماع كثير من الأمم على تكذيب الرسل، ولهذا ينبغي عدم الاغترار بما عليه الأكثرون.

٣ـ الرد على المكذبين بالبعث المنكرين له، وبيان قدرة الله ـ عز وجل ـ التامة على ذلك، لأن من قدر على الخلق الأول فهو أقدر على الخلق الثاني من باب أولى.

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ١٩٤.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها :

دلّل - عز وجل - فيما سبق بالخلق الأول على قدرته على الخلق الثاني - على سبيل الإجمال - ،ثم اتبع ذلك بشيء من التفصيل في هذه الآيات.

قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾.

الواو: للاستئناف. واللام: للقسم. و(قد) للتحقيق، أي: و الله ﴿لقد خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ وقد أقسم - عز وجل - على كثير من الأخبار في القرآن الكريم - مع أنه أصدق القائلين وقوله حق وخبره صدق لأن من عادة العرب في مخاطباتهم تأكيد الخبر بالقسم وقد قال - عز وجل - : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأحكام.

ومعنى قوله ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ أي: ونعلم الذي توسوس به نفسه من الوساوس والخواطر والمكنونات والمضمرات خيرها وشرها. وإذا كان عز وجل يعلم ما توسوس به نفس الإنسان من الخواطر ونحوها فعلمه بما عدا ذلك من جميع أحواله وأموره الظاهرة من باب أولى - لكنه عز وجل لا يؤاخذ بحديث النفس، ما لم يتكلم الإنسان أو يعمل، لقوله ﷺ «إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها، ما لم تعمل أو تكلم»[1].

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ حبل الوريد: هو حبل العنق وهو عرق بين

---

(١) اخرجه البخاري في الطلاق ٥٢٦٩، ومسلم في الإيمان - باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر ١٢٧، وابو داود في الطلاق - باب الوسوسة في الطلاق ٢٢٠٩، والنسائي في الطلاق ٣٤٣٣، والترمذي في الطلاق - ما جاء فيمن يحدث نفسه في طلاق امرأته ١١٨٣، وابن ماجه في الطلاق - من طلق في نفسه ولم يتكلم به ٢٠٤٠، وأحمد ٢/ ٢٥٥، ٣٩٣ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الحلقوم والودجين إذا قطع مات الإنسان، يضرب به المثل في القرب، وقيل المرادبه الودجان. قال ابن القيم[١]: «وأجزاء القلب وهذا الحبل يحجب بعضها بعضًا. وعلم الله بأسرار العبد وما في ضميره لا يحجبه شيء».

قال ابن تيمية[٢] في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾، وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ [الواقعة: ٨٥]: «فالمراد قربه إليه بالملائكة، وهذا هو المعروف عن المفسرين المتقدمين من السلف قالوا: ملك الموت أدنى إليه من أهله، ولكن لا تبصرون الملائكة».

وقال أيضاً[٣]: «هذا مثل قوله ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، وقوله ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨]، فإن جبريل عليه السلام هو الذي قصه عليه بأمر الله، فنسب تعليمه إليه إذ هو بأمره، وكذلك جبريل هو الذي قرأه عليه..».

وقال ابن كثير[٤]: «يعني ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه، ومن تأوله على العلم فإنما فر لئلا يلزم حلول أو اتحاد، وهما منفيان بالإجماع – تعالى الله وتقدس ـ ولكن اللفظ لا يقتضيه، فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من حبل الوريد، وإنما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ كما قال في المحتضر ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥] يعني: ملائكته، وكما قال ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] فالملائكة نزلت بالذكر ـ وهو القرآن ـ بإذن الله عز وجل. وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه، بإقدار الله لهم على ذلك، فللملك لَمّة في الإنسان كما أن للشيطان لَمّة[٥]. وكذلك «الشيطان يجري من ابن آدم

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/١٨٨.

(٢) في «شرح حديث النزول» ص١٢١، وانظر (مجموع الفتاوى) ٥/٢٣٢ – ٢٣٦، ٦/١٩ – ٢٠.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٤/١٨٨ ـ ١٨٩.

(٤) في (تفسيره) ٧/ ٣٧٦.

(٥) كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للشيطان لَمّة بابن آدم، وللملك لَمّة، فأما لَمّة الشيطان، فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير، وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من عند الله، فليحمد الله، ومن وجد الأخرى، فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم قرأ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾» أخرجه الترمذي في تفسير سورة البقرة ٢٩٨. وقال (حديث حسن غريب).

مجرى الدم»[1] كما أخبر بذلك الصادق المصدوق.

وقد قال ابن تيمية في «مجموع الفتاوى»[2]: «فقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾: «هو قرب ذوات الملائكة، وقرب علم الله منه».

وقال السعدي[3] في كلامه على قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥] قال: «بعلمنا وملائكتنا».

وهذا كله مما يوجب على العبد مراقبة خالقه المطلع عليه ظاهرًا وباطنًا، القريب إليه، بعلمه وإحاطته وقدرته، وبملائكته الموكلين به، في جميع أحواله.

﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾.

إذ: ظرف متعلق بـ «أقرب»، أو مفعول لـ «اذكر» مقدرًا.

(يتلقى) فعل الشرط. و(المتلقيان) هما الملكان اللذان يكتبان أعمال الإنسان وأقواله.

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ﴾ أي: عن يمين الإنسان وعن شماله.

﴿قَعِيدٌ﴾ أي: مترصد، فالذي عن اليمين يكتب الحسنات، والذي عن الشمال يكتب السيئات. قال الأحنف بن قيس: «صاحب اليمين يكتب الخير، وهو أمير على صاحب الشمال، وإن أصاب العبد خطيئة، قال له: أمسك، فإن استغفر الله تعالى نهاه أن يكتبها، وإن أبى كتبها»[4].

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ «ما» نافية، و «من» زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى للعموم، و «قول» نكرة في سياق النفي تعم كل قول، أي: ما يلفظ الإنسان من أي كلمة خير أو شر، أو غير ذلك.

﴿إِلَّا لَدَيْهِ﴾ أي: عنده ﴿رَقِيبٌ﴾ أي: ملك يراقب ما يصدر منه من كلمة، لا ينفك عنه.

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتكاف ٢٣٨، ومسلم في السلام ٢١٧٥، وأبو داود في الأدب، ٤٩٩٤، وابن ماجه في الصيام – باب في المعتكف يزوره أهله في المسجد ١٧٧٩، وأحمد ٦/ ٣٣٧ – من حديث صفية رضي الله عنها.

(٢) ٥/ ٢٣٦ ـ لكن ابن تيمية ـ رحمه الله ـ ضعف القول بأن المراد بالقرب في الآيتين القرب إليه بالعلم والقدرة والرؤية. انظر: «شرح حديث النزول» ص١٢١.

(٣) انظر «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٢٨٧، وانظر ٧/ ١٥١.

(٤) ذكره ابن كثير في (تفسيره) ٧/ ٣٧٧.

يصدر من الإنسان من قول، وكذلك ما يصدر عنه من فعل. قال ابن القيم[(١)]: «ونبه بإحصاء الأقوال وكتابتها على كتابة الأعمال التي هي أقل وقوعًا وأعظم أثرًا من الأقوال، وهي غايات الأقوال ونهاياتها».

وهذا مما يوجب على الإنسان الاحتراز لدينه، ومحاسبة نفسه.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]، وقال تعالى ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

فكل ما يتلفظ به الإنسان من الكلام يتلقاه الملكان ويكتبانه أيا كان هذا الكلام سواء كان مما فيه ثواب وعقاب، أو لا ؛ لقوله ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

وقد ذُكر أن الإمام أحمد رحمه الله كان يئن في مرضه، فبلغه عن طاوس أنه قال: «يكتب الملك كل شيء حتى الأنين» فلم يئن رحمه الله حتى مات.

وهذا هو ظاهر الآية، واختاره جمع من المحققين كابن تيمية وابن كثير وغيرهما.

وقال بعض المفسرين من السلف ومن بعدهم: إنما يكتبان ما فيه ثواب وعقاب. قال ابن رجب[(٢)]: «وقد أجمع السلف الصالح على أن الذي عن يمينه يكتب الحسنات، والذي عن شماله يكتب السيئات، وهم متفقون على أن المجازاة على ما فيه ثواب وعقاب، وما سوى ذلك: فيمحى إن كتب».

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم»[(٣)].

وعن بلال بن الحارث المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله بها عليه رضوانه إلى يوم يلقاه. وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت،

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ١٩٧.

(٢) (جامع العلوم والحكم) ١/ ٣٣٦ وانظر (جامع البيان) ٢١/ ٤٢٤، (تفسير ابن أبي حاتم) ١٠/ ٣٣٠٨، (مجموع الفتاوى) ٧/ ٤٩، (تفسير ابن كثير) ٧/ ٣٧٦ - ٣٧٧.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٧٨.

يكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه»[1].

وعن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ أخذ بلسانه وقال: «كفّ عليك هذا، فقلت: يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال له ﷺ: «ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»[2].

﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّ﴾ ـ هذا وما بعده إلى قوله ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٌ﴾ تفصيل لحال الاحتضار وما بعده من البعث والحساب والجزاء.

و«سكرة الموت» أي: سكراته وشدته وآلامه، وغمراته التي تغشى الإنسان وتغلب على عقله وتغطيه. عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ لما تغشاه الموت جعل يدخل يديه في الماء فيمسح بها وجهه، ويقول: «لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات»[3].

قال ابن تيمية[4]: «أي: جاءت بما بعد الموت من ثواب وعقاب، وهو الحق الذي أخبرت به الرسل، ليس مراده أنها جاءت بالحق الذي هو الموت، فإن هذا مشهور لم ينازع فيه، ولم يقل أحد إن الموت باطل حتى يقال: جاءت بالحق».

وقال ابن القيم[5]: «وأنها تجيء بالحق وهو لقاؤه سبحانه، والقدوم عليه، وعرض الروح عليه، والثواب والعقاب الذي تعجل لها قبل القيامة الكبرى».

وقال ابن كثير[6]: «أي: كشفت لك عن اليقين الذي كنت تمتري فيه»

وقيل إن المراد بالحق هو الموت والفناء الذي كتبه الله على الخلق[7] قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٤٦٩، والترمذي في الزهد – ما جاء في قلة الكلام ٢٣١٩، وابن ماجه في الفتن – كف اللسان في الفتنة ٣٩٦٩. وقال الترمذي: (حديث حسن صحيح).

(٢) أخرجه الترمذي في الإيمان ـ ما جاء في حرمة الصلاة ٢٦١٦، وابن ماجه في الفتن ٣٩٧٣ ـ وقال الترمذي: «حسن صحيح»

(٣) أخرجه البخاري في المغازي ٤٤٤٩، والترمذي في الدعوات ٣٤٩٦، وابن ماجه في الجنائز ـ ما جاء في ذكر مرض رسول الله ﷺ ١٦٢٠، وأحمد ٦/ ٦٤، ٧٠.

(٤) في (مجموع الفتاوى) ٤/ ٢٦٥.

(٥) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ١٩٧.

(٦) في (تفسيره) ٧/ ٣٧٧.

(٧) انظر (جامع البيان) ٢١/ ٤٢٧ – ٤٢٨.

رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] فالموت حق ويقين، والجنة حق والنار حق.

ولا مانع من حمل الحق في الآية على الأمرين فالموت حق والوعد والوعيد حق. لكن ما بعد الموت أطم وأعظم.

﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ الإشارة إلى الموت و(ما) موصولة، والخطاب لعموم الإنسان، أي: ذلك الذي كنت أيها الإنسان منه تحيد، أي تهرب وتفر، قد حل بك ونزل بساحتك، ويحتمل أن (ما) نافية، أي: ذلك ما لا يمكنك الفرار منه.

قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٨]، وقال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[النساء: ٧٨]

قال ابن كثير[1]: «أي: هذا هو الذي كنت تفر منه قد جاءك، فلا محيد ولا مناص ولا فكاك ولا خلاص».

قال الشاعر[2]

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدر

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ أي: نفخ إسرافيل - بأمر الله عز وجل - بالصور وهو: «القَرْن» لبعث الخلق بعد موتهم ورد الأرواح إلى أجسادها للقيامة الكبرى، وهي النفخة الثانية المسماة بالرادفة كما قال عز وجل: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦، ٧]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وانتظر أن يؤذن له. قالوا: يا رسول الله كيف

---

(١) في (تفسيره) ٧/ ٣٧٨.
(٢) البيت لحاتم الطائي انظر (ديوانه) صـ ٥٠: وانظر «النهاية»، (اللسان) مادة (حشرج).

نقول؟ قال: قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل. فقال القوم: حسبنا الله ونعم الوكيل»[(١)].

﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ أي: يوم القيامة الذي توعد الله به المكذبين لمجازاتهم على أعمالهم بالعذاب الأليم، ووعد به المتقين بالنعيم والثواب العظيم. وأشار إليه بإشارة البعيد «ذلك» تعظيماً له. وخصه بالوعيد ـ هنا ـ لأن السياق من أول السورة مع المكذبين.

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ أي: وجاءت كل نفس من الإنس والجن معها سائق وهو ملك يسوقها إلى المحشر، (وشهيد) وهو ملك يشهد عليها بأعمالها.

وقيل المراد بالشهيد: العمل، وقيل المراد به: الإنسان نفسه، يشهد على نفسه بما عمل.

والذي يدل عليه ظاهر سياق الآية هو القول الأول.

قال الفرزدق:

إذا جاءني يوم القيامة قائد عنيف وسوأق يسوق الفرزدقا

وأيضًا فقد دلت النصوص من القرآن الكريم على أن الإنسان يشهد على نفسه وتشهد عليه أيضًا جوارحه قال تعالى ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات: ٦ ، ٧].

وهذا على أظهر وأشهر القولين في مرجع الضمير (إنه) وأن المراد به أن الإنسان يشهد على نفسه بذلك. قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور:٢٤]، وقال تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

ويشهد المؤمنون بعضهم على بعض كما في الحديث: أنه مر بالنبي ﷺ جنازة فأثنوا على صاحبها خيرًا – الحديث وفي آخره قال ﷺ: «أنتم شهداء الله في أرضه»[(٢)].

فيشهد على الإنسان الملك، وتشهد عليه نفسه وجوارحه والمؤمنون، وتشهد الأمة المحمدية

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير ٣٢٤٣.

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز ١٣٦٧، ومسلم في الجنائز ٩٤٩، والنسائي في الجنائز ١٩٣٢، والترمذي في الجنائز ١٠٥٨، وابن ماجه في الجنائز ١٤٩١ – من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

على الأمم السابقة، ويشهد محمد ﷺ على أمته كما قال عز وجل ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

ويشهد على الخلق العليم الخبير الذي لا تخفى عليه خافية، الرقيب عليهم، وهو خير الشاهدين. قال ابن القيم[1]: «ثم أخبر عن أحوال الخلق في هذا اليوم، وأن كل أحد يأتي الله سبحانه ذلك اليوم ومعه سائق يسوقه وشهيد يشهد عليه وهذا غير شهادة جوارحه وشهادة الأرض التي كان عليها له وعليه، وغير شهادة رسوله والمؤمنين فإن الله سبحانه يستشهد على العبد الحفظة والأنبياء والأمكنة التي عملوا عليها الخير والشر، والجلود التي عصوه بها، ولا يحكم بينهم بمجرد علمه، وهو أعدل العادلين وأحكم الحاكمين».

وإذا كان الإنسان قد وكل به كل هؤلاء الشهود فيجب عليه تقوى الله والاحتراز من المخالفات والمعاصي.

﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ هكذا يقال للمكذب المعرض توبيخًا له ولومًا وتعنيفًا، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب للتنبيه وشد الذهن.

اللام لام القسم، و(قد) للتحقيق. أي: و الله لقد كنت في غفلة من هذا.

والخطاب للإنسان عمومًا، وقيل المراد به الكافر. وظاهر الآية أن المراد به عموم الإنسان: أي: لقد كنت أيها الإنسان في غفلة من هذا ـ يعني من هذا اليوم وذلك لأن الآخرة بالنسبة للدنيا كاليقظة والدنيا كالمنام وبقدر ما يكون إعراض الإنسان عن الحق تكون غفلته.

﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ اي: أزلنا ما على بصرك من غطاء وغشاوة وما على قلبك من الختم والران والغفلة.

﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ اي: فبصرك اليوم حاد قوي؛ لأنه في ذلك اليوم تظهر للناس الحقائق بعد ذهاب ما على القلوب والأبصار من الغشاوة والغفلة، ويكون كل إنسان

---

(١) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ١٩٧، ١٩٨.

في ذلك مستبصرًا حتى الكفار في ذلك الوقت يؤمنون لكن لا ينفعهم ذلك كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

الفوائد والعبر:

١ ـ تأكيد الخبر في القرآن الكريم بالقسم، كما هي عادة العرب الإقسام لتأكيد الخبر.

٢ ـ إثبات خلقه ـ عز وجل ـ للإنسان وعلمه بما تنطوي عليه نفسه وقربه إليه بعلمه وإحاطته وقدرته، وبملائكته، وذلك من أعظم الدلائل على قدرته ـ عز وجل ـ على بعثه.

٣ ـ سعة علم الله ـ عز وجل ـ ودقيق خبرته، لأنه إذا كان يعلم ما توسوس به النفوس فعلمه بما يظهر من باب أولى.

٤ ـ إثبات وجود الملكين الكاتبين لجميع أقوال الإنسان وأفعاله، أحدهما عن اليمين لكتابة الحسنات والثاني عن الشمال لكتابة السيئات.

٥ ـ وجوب مراقبة الله ـ عز وجل ـ وطاعته، والبعد عن معصيته، فكل شيء محصىً ومكتوب قولاً كان أو فعلاً.

٦ ـ أن الموت حق على كل مخلوق لا محيد له عنه، وبه يظهر الحق الذي جاءت به الرسل ونزلت به الكتب من الحساب والجزاء على الأعمال.

٧ ـ إثبات النفخ في الصور لحياة الناس وقيامهم من قبورهم للحساب يوم القيامة، وهي النفخة الثانية.

٨ ـ مجيء كل نفس في ذلك اليوم معها ملك يسوقها إلى أرض المحشر، وملك يشهد على أعمالها.

٩ ـ غفلة الإنسان عن الآخرة حتى ينكشف عنه الغطاء بالموت ومعاينة أهوالها فتظهر له الحقائق، وتزول عنه الغشاوة ويندم حين لا ينفع الندم.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ أي: قرين هذا المكذب المعرض الذي قرن به في الدنيا من الملائكة، ووكل بحفظه وحفظ أعماله وأقواله يشهد عليه يوم القيامة بذلك.

وقال بعضهم: المراد به السائق. واختار ابن جرير أنه يعم السائق والشهيد[1].

﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أي: يقول الملك لَما يُحضره: هذا الذي كنت وكلتني به في الدنيا قد أحضرته وأتيتك به، وهذا ما كتبته عليه وأحصيته من قوله وعمله حاضر عندي، بلا زيادة ولا نقصان.

﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ الخطاب في قوله: (ألقيا) للسائق والشهيد، أو للملك الموكل بعذابه وإن كان واحدًا قال ابن كثير[2]: «والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد، فالسائق أحضره إلى عرصة الحساب، فلما أدى الشهيد ما عليه، أمرهما الله تعالى بإلقائه في نار جهنم وبئس المصير».

و(جهنم) اسم من أسماء النار، سميت به لجهمتها وظلمتها وبُعد قعرها وشدة حرها - أعاذنا الله وجميع المسلمين منها.

﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾ (كفار) على وزن «فعّال» صيغة مبالغة، أي: أنه قد جمع أنواع الكفر، وبلغ من الكفر غايته.

والكفر معناه: الجحود، أي: كُلّ جحود لربه، لربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ودينه، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، فالكفر ضد الإيمان، ومنه كفر النعم.

(عنيد) على وزن «فعيل» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، أي: أنه كثير العناد

---

(١) انظر (جامع البيان) ٢١/ ٤٣٦.
(٢) في (تفسيره) ٧/ ٣٨٠.

شديده، لا يقبل الحق بحال بأي أسلوب عرض عليه. والعناد: دفع الحق ورده ومعارضته بالباطل وعدم قبوله عن علم ومعرفة، لا عن جهل.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ (مناع) على وزن (فعّال) كما سبق في (كفار) يدل على منعه لكل خير، وبلوغه في المنع غايته. والمراد بالخير المال، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨]، أي: لحب المال.

ويحتمل أن المراد ما هو أعم من ذلك، وأن المراد: منع الإحسان القولي، والإحسان الفعلي، والإحسان إلى نفسه بالطاعات وإلى غيره بوجوه الإحسان.

قال ابن القيم[1] «وهذا يعم منعه للخير الذي هو إحسان إلى نفسه من الطاعات والقرب إلى الله، والخير الذي هو إحسان إلى الناس، فليس فيه خير لنفسه، ولا لبني جنسه كما هو حال أكثر الخلق».

﴿مُعْتَدٍ﴾ أي: ظلوم غشوم معتد على الناس بيده ولسانه، فخيره ممنوع عنهم وشره واصل إليهم، معتد على حدود الله، متجاوز الحد في نفقاته.

﴿مُّرِيبٍ﴾ أي: ذو شك وريب في أمره، وفي وعد الله ووعيده مشكك لغيره في ذلك، آت لكل ريبة، مخيف لمن نظر في أمره.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي: أشرك مع الله غيره، فلم يخلص العبادة لله، بل عبد معه إلهًا آخر من الأصنام والأوثان، أو انشغل عن طاعة الله تعالى بهوى نفسه أو جمع الدنيا كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[الجاثية: ٢٣]، وقال ﷺ: «تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم...»[2].

فوصفه الله عز وجل بست صفات: كفّار، عنيد، منّاع للخير، معتد، مريب، مشرك.

﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ أيها الملكان القرينان ﴿فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ كمًا وكيفًا وهو عذاب النار.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن نبي الله ﷺ أنه قال: «يخرج عنق من

---

(١) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ١٩٢.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٨٧، والترمذي في الزهد ٢٣٧٥، وابن ماجه في الزهد ٤١٣٦ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

النار يتكلم، يقول: وكلت اليوم بثلاثة: بكل جبار، ومن جعل مع الله إلهًا آخر، ومن قتل نفسًا بغير نفس، فينطوي عليهم، فيعذبهم في غمرات جهنم»[1].

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ وهو الشيطان الذي وكل به.

﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ أي: يقول عن الإنسان الذي قد وافى القيامة كافرًا يتبرأ منه شيطانه، فيقول: (ربنا ما أطغيته) والطغيان: الزيادة وتجاوز الحد كما قال تعالى ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١].

والمعنى: ليس أنا الذي جعلته طاغيًا متجاوزًا الحد.

﴿وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: ولكن كان هو في نفسه ضالاً قابلاً للباطل معاندًا للحق كما في قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وهكذا يتبرأ قرين السوء من قرينه والمتبوعون من أتباعهم والأتباع من متبوعيهم كما قال عز وجل: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وقيل: المراد بـ (قرينه) الملك الذي يكتب عمله فيدعي الإنسان أنه زاد عليه فيما كتبه عليه، وأنه أعجله بالكتابة عن التوبة، ولم يمهله حتى يتوب، فيقول الملك: ما زدت في الكتابة على ما عمل، ولا أعجلته عن التوبة ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾.

---

(١) اخرجه احمد ٣ / ٤٠.

﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾ يقول الله عز وجل للإنسان وقرينه: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾ أي: عندي.

وذلك أن الإنسان وقرينه من الشياطين يختصمان بين يدي الحق سبحانه، ويلقي كل منهما التبعة على الآخر، فيقول الإنسان: يا رب هذا أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني، ويقول الشيطان ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي عن منهج الحق فيقول الرب عز وجل لهما ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾ أي: عندي فلا فائدة ولا منفعة في ذلك ولا ثمرة.

﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ الواو: للحال، أي: والحال أني قد قدمت إليكم بالوعيد لمن خالف أمري، وأقمت عليكم الحجة بما أرسلت من الرسل وبما أنزلت من الكتب، كما قال عز وجل ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]. وبذلك قامت عليكم الحجة، وزال العذر، لأن من أنذر فقد أعذر.

﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ (ما) نافية، أي: إن قولي لا يمكن أن يخلف، وخبري لا يمكن أن يتخلف كما قال عز وجل ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار وعدلاً في الأحكام، وقال عز وجل: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٦٤].

والمعنى: أن وعيدي للكافرين بالنار لا يبدل ولا يغير كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

كما أن وعدي للمؤمنين بالجنة لا يبدل ولا يغير قال تعالى: ﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ﴾ [الأعراف: ٤٤].

وقال عز وجل في الحديث القدسي: «أنت الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء، وأنت النار عذابي أعذب بك من أشاء. ولكل واحدة منكن عليَّ ملؤها»[١].

---

(١) سيأتي تخريجه قريبًا.

ويحتمل أن المعنى: ما يغير القول عندي بالكذب والتلبيس عليَّ كما يغير عند الملوك والحكام والقضاة، فيكون المراد بالقول في قوله (ما يبدل القول لدي) قول المختصمين أي: ما يكذب عندي لعلمي بالغيب، ويؤيد هذا أنه قال: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ (ما يبدل القول لدي) أي: عندي، ولم يقل: (لا يبدل قولي) وينبغي حمل الآية على المعنيين معًا؛ لأن منهج محققي أهل العلم أنه إذا كانت الآية تحتمل أكثر من معنى وجب حمل الآية عليها كلها.

قال ابن القيم[1] بعد أن ذكر القولين: «فعلى القول الأول يكون قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ من تمام قوله ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ في المعنى، أي: ما قلته ووعدت به لابد من فعله. ومع هذا فهو عدل لا ظلم فيه، ولا جور. وعلى الثاني يكون قد وصف نفسه بامرين: أحدهما: أن كمال علمه واطلاعه يمنع من تبديل القول بين يديه، وترويج الباطل عليه. والثاني: أن كمال عدله وغناه يمنع من ظلمه لعبيده».

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ الواو: عاطفة و(ما) نافية كسابقتها. (بظلام) الباء داخلة على الخبر أي: لست بذي ظلم، أو لست أظلم أحداً، وهي نكرة في سياق النفي فتعم نفي أي ظلم منه للعبيد، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢، والأنفال: ٥١]، وقال تعالى في سورة فصلت: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الآية: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤].

واللام في قوله ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾ للاستغراق في جميع العبيد، فلا يظلم عز وجل أحداً منهم، مؤمنهم وكافرهم، ناطقهم وبهيمهم، لأن المراد بالعبودية هنا العبودية العامة لجميع الخلق، كما قال عز وجل: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

فلا يظلم عز وجل أحدًا من العبيد، ولا يعذب أحدًا بذنب غيره، أو بغير ذنب، ولا يمنع أحدًا أجر ما عمله من عمل صالح، ولا يزاد في سيئاتهم، ولا ينقص من

---

(١) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ٢٠٠.

حسناتهم كما قال عز وجل: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

ولا يظلم ـ عز وجل ـ ظلمًا صغيرًا ولا كبيرًا ولا قليلاً ولا كثيراً كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

بل إنه عز وجل حرم الظلم على نفسه كما حرمه على العباد قال عز وجل في الحديث القدسي: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا»[1].

الفوائد والعبر:

١ـ أن كل إنسان قرن به من الملائكة من يحفظه ويحفظ أعماله ويشهد عليه ويحضره وأعماله لموقف الحساب بلا تأخير.

٢ـ الأمر للملكين الموكلين بالإنسان بإلقاء كل كفَّار في النار والعذاب الشديد، لشدة كفره وعناده ومنعه الخير واعتدائه وشكه وشركه.

٣ـ الجمع لأهل النار من المكذبين والكفار بين العذاب الحسي للأبدان والعذاب المعنوي المنصب على القلوب.

٤ـ بيان صفات أهل النار المستوجبين دخولها للتحذير منها، والاتصاف بضدها.

٥ـ تبرؤ الشيطان من أتباعه وقرين السوء من قرينه، وتخاصمهم يوم القيامة، وأنىَّ ينفعهم ذلك وقد قامت الحجة عليهم.

٦ـ أن الله ـ عز وجل ـ أقام الحجة على الخلق جميعاً وحذرهم وأنذرهم.

٧ـ أن الشيطان والنفس الأمارة بالسوء هما أعظم أسباب الوقوع في الطغيان.

٨ـ أن ما حكم الله ـ عز وجل ـ به وقضى من تعذيب الكافرين في النار لا يبدل ولا يغير، كما أنه ـ عز وجل ـ لا يلبس عليه بالقول، لأنه لا تخفى عليه خافية.

٩ـ تمام وكمال عدل الله ـ عز وجل ونفي الظلم عنه.

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٧٧، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٩٥، وابن ماجه في الزهد ٤٢٥٧ ــ من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ قرأ نافع وأبو بكر عن عاصم (يوم يقول) بالياء وقرأ الباقون (يوم نقول) بالنون.

أي: يوم القيامة نقول لجهنم وهي النار التي أعدها الله عز وجل لتعذيب المكذبين والعصاة. وسميت بجهنم لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدة حرارتها.

﴿هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ استفهام لا يقصد منه الاستعلام فالله عز وجل لا تخفى عليه خافية، وإنما يقصد منه التخويف والتهديد، والتحذير والوعيد، والإشارة إلى عظمة جهنم ومدى سعتها بحيث تتسع لجميع المجرمين والعصاة، فما دام عددهم لم يكتمل فيها فهي لم تمتلئ ولهذا تقول ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾. والله سبحانه وتعالى أعلم بها إذا امتلأت، ومتى تمتلئ وقد وعدها عز وجل بملئها قال تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

وفي الحديث القدسي عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن الله عز وجل قال للجنة: «أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منهما ملؤها، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله، فتقول: قط قط، فهنالك تمتلئ، ويزوى بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله من خلقه أحدًا، وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقًا آخر»[1].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يلقى في النار وتقول هل من مزيد حتى يضع قدمه فيها فتقول: قط قط»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ق ٤٨٥٠، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٤٦، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٦١.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ق ٤٨٤٨، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٤٨، والترمذي في التفسير ٣٢٧٢.

وفي رواية(١): «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط، وعزتك وكرمك، ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقًا آخر، فيسكنهم في فضول الجنة».

فهي بقولها (هل من مزيد) لا تزال تطلب الزيادة من المجرمين والعصاة غضبًا لربها وغيظًا على الكافرين.

وقيل: معنى قولها (هل من مزيد)، وهل بقي فيَّ مكان يزاد فيه، أي: قد امتلأت. وهذا المعنى لا يصح والحديث السابق يرده. والصحيح القول الأول وهو أظهر من حيث السياق، وأقوى في الوعيد والتهديد والزجر والتخويف، وهو قول عامة المفسرين من السلف وغيرهم، واختاره جمع من المحققين، منهم الطبري(٢)، وابن تيمية(٣)، وابن القيم، وابن كثير(٤)، وغيرهم. قال ابن تيمية(٥): «والصحيح أنها تقول (هل من مزيد) على سبيل الطلب، أي: هل من زيادة تزاد فيَّ، والمزيد ما يزاد فيها من الجن والإنس» وقال ابن القيم(٦): «وأخطأ من قال: إن ذلك للنفي، أي: ليس فيَّ من مزيد. والحديث الصحيح يرد هذا التأويل».

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

بعد ما ذكر عز وجل حال النار وأهلها أتبع ذلك بذكر حال الجنة وأهلها على طريقة القرآن الكريم في الجمع بين الترغيب والترهيب. ليجمع المسلم في طريقه إلى

---

(١) أخرجها مسلم في الجنة وصفة نعيمها- باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ٢٨٤٨، وأحمد ٣/ ٢٣٤.

(٢) انظر: «جامع البيان» ٢١/ ٤٤٣ ـ ٤٤٩.

(٣) انظر (مجموع الفتاوى) ١٦/ ٤٦، ١٨/ ١٤١ (منهاج السنة) ٥/ ١٠٠.

(٤) انظر: (تفسير ابن كثير) ٧/ ٣٨١.

(٥) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٥٢٦.

(٦) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ٢٠٠.

الله عز وجل في هذه الحياة بين الخوف والرجاء، فلا يأمن من مكر الله، ولا ييأس من رحمة الله. وأن يكون الخوف والرجاء له كجناحي الطائر لا يغلب أحدهما على الآخر ـ كما قال الإمام أحمد رحمه الله[١].

قوله ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ الواو: استئنافية (أزلفت) أدنيت وقربت، والجنة في الأصل هي البستان، وسمي البستان جنة لأنه يجن، أي: يستر من بداخله بكثرة أشجاره قال تعالى: ﴿۞وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ [الكهف:٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق: ٩، ١٠] والمراد بالجنة هنا الدار التي أعدها الله لأوليائه في الآخرة، والتي لا يقدر قدر ما فيها من ألوان الخضرة والحبرة والنعيم إلا الله عز وجل، كما قال عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: للذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ وذلك يوم القيامة وليس ببعيد لأنه آت لا محالة وكل آت قريب.

ويحتمل أن المعنى: مكانًا غير بعيد. أي: أدنيت الجنة وقربت مكانًا قريبًا غير بعيد تشاهد وينظر ما فيها، من النعيم المقيم، والحبرة والسرور.

ومن عظيم كرامة المتقين عند الله أن تقرب الجنة لهم لا أنهم يقربون إليها، وهذا يدل على أن من إكرام الضيف أن يقرب الطعام إليه، لا أن يوضع الطعام ويؤمر الضيف بالقرب إليه.

ولا مانع من حمل الآية على الأمرين، قرب الزمان، وقرب المكان.

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ الإشارة للجنة وما فيها من النعيم يقال لهم هذا على وجه التهنئة لهم والتكريم والتعظيم لذلك الموعود به و (ما) موصولة، أي: هذا الذي توعدون. أو مصدرية، أي: هذا وعدنا.

---

(١) وقال بعض أهل العلم: يغلّب جانب الرجاء عند فعل الطاعة، ويغلّب جانب الخوف عندما تزين له النفس الأمارة بالسوء والشيطان فعل معصية. وقال بعض أهل العلم: يغلب الخوف حال الصحة ويغلب الرجاء حال المرض.

والوعد غالبًا في الخير، والوعيد في الشر و(وعد) - غالبًا في الخير، و(أوعد) غالبًا في الشر. قال الشاعر:

وإني وإن أوعدته أو وعدته ... لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ أي: لكل رجاع تائب إلى الله عز وجل مقلع عن المعاصي نادم على فعلها عازم على عدم العودة إليها، إخلاصًا لله تعالى وخوفًا منه.

وهذا يدل على أن الإنسان لا يكاد يسلم من الوقوع في الذنب وأنه بعد التوبة الصادقة أفضل منه قبل المعصية.

والتوبة: الرجوع من المعصية إلى الطاعة قال ابن القيم[1]: «أي: رجاع إلى الله من معصيته إلى طاعته، ومن الغفلة عنه إلى ذكره».

(حفيظ) أي: يحفظ الله في أوامره ونواهيه فلا يخالف أمر الله ولا يرتكب نهيه، كما قال ﷺ لابن عباس: «احفظ الله يحفظك»[2] وقال تعالى: ﴿حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤].

فيحفظ العهود والعقود التي بينه وبين الله والتي بينه وبين الخلق، فلا ينقض عهده ولا ينكثه.

﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ (من) بدل من قوله ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾، وهي: موصولة، أي: الذي خشي الرحمن بالغيب و﴿خَشِيَ﴾ بمعنى خاف، بل إن الخشية أشد واخص من الخوف؛ لأن من شرطها - كما يقول بعض أهل العلم -: عظم المخشي وعلم الخاشي، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

و «الرحمن»: اسم من أسماء الله، بل هو الاسم الثاني من أسماء الله عز وجل كما قال تعالى ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠] ويؤيد هذا قوله ﷺ: «أحب الأسماء إلى الله عبد الله

---

(١) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ٢٠١.

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٥١٦، وقال (حديث حسن صحيح) وأحمد ٤/ ٢٨٦، ٢٨٨.

وعبدالرحمن»[١].

وهو على وزن (فعلان) صفة مشبهة أو صيغة مبالغة يدل على سعة رحمته عز وجل وعظمتها وكثرتها، ويؤخذ منه إثبات صفة الرحمة الذاتية لله عز وجل القائمة به، كما قال سبحانه ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨]، وإثبات صفة الرحمة الفعلية التي يوصلها من شاء من عباده كما قال عز وجل : ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

كما يدل على إثبات الرحمة العامة له سبحانه التي تعم جميع المخلوقات، والرحمة الخاصة بالمؤمنين. هذا في حال انفراده عن (الرحيم) ، وكذلك اسمه (الرحيم) إذا انفرد عن (الرحمن) دل على كل ما سبق. أما إذا اجتمعا فإن (الرحمن) يدل على الصفة الذاتية ويدل (الرحيم) على الصفة الفعلية، كما يدل (الرحمن) على الرحمة العامة، ويدل (الرحيم) على الرحمة الخاصة.

قوله (بالغيب) أي: وهو غيب لم يره سبحانه. والغيب ما غاب عن الحواس. ولهذا كان الإحسان أعلى درجات الإيمان وهو: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[٢].

والمعنى: من خشي الله وخافه في سره حيث لا يراه، وهذا من أخص صفات المؤمنين المتقين أنهم يؤمنون بالغيب كما قال عز وجل ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣] أي: بكل ما أخبر الله به من الأمور الغيبية السابقة واللاحقة، ومن ذلك الإيمان بأركان الإيمان الستة، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره.

وهذا من أعظم ما يحمل المرء على تقوى الله ومراقبته والاحتياط لدينه والورع بأداء حقوق الله وحقوق الخلق والبعد عما نهى الله عنه قال ابن القيم[٣]:«قوله ﴿مَّنْ

---

(١) أخرجه مسلم في الآداب ٢١٣٢، وأبو داود في الأدب ٤٩٤٩، والترمذي في الأدب ٢٨٣٣، وابن ماجه في الأدب ٣٧٢٨ ـ من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه البخاري في الإيمان ٥٠، ومسلم في الإيمان ٩، والنسائي في الإيمان ٤٩٩١، وابن ماجه في المقدمة ٦٤. وأخرجه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه مسلم في الإيمان ٨، وأبو داود في السنة ٤٦٩٥، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٩٠، وابن ماجه في المقدمة ٦٣.

(٣) انظر (بدائع التفسير) ٤/٢٠١.

﴿خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ يتضمن الإقرار بوجوده وربوبيته وقدرته وعلمه واطلاعه على تفاصيل أحوال العبد ويتضمن الإقرار بكتبه ورسله وأمره ونهيه، ويتضمن الإقرار بوعده ووعيده ولقائه، فلا تصح خشية الرحمن بالغيب إلا بعد هذا كله».

و(خشي الرحمن بالغيب) أيضًا في حال غيبته عن أعين الناس، فهو يراقب ربه ويخشاه في الغيب والشهادة، كما في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله: «ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»[1].

وقد كان الإمام أحمد رحمه الله كثيرًا ما يتمثل بهذين البيتين:

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل ... خلوت ولكن قل عليَّ رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا أن ما يُخفى لديه يغيب[2]

﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ أي: وجاء إلى الله بأن مات ولقي الله بقلب سليم منيب إليه خاضع لديه راجع عن المعاصي مقبل على طاعة الله عز وجل: كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢ ، آل عمران: ١٠٢].

قال ابن القيم[3]: «وحقيقة الإنابة عكوف القلب على طاعة الله ومحبته والإقبال عليه».

﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ أي يقال لهم أمر إكرام: ادخلوا الجنة (بسلام) والباء للمصاحبة، أي: دخولاً مصحوباً بسلام من عذاب الله ومن الآلام والأحزان والمخاوف، والأكدار والمنغصات، كما قال تعالى حكاية لقول أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ۝﴾[فاطر: ٣٤ ، ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: ٤٣]. وقال تعالى في الحديث القدسي:

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ـ من جلس في المسجد ينتظر الصلاة ٦٥٩، ومسلم في الزكاة ـ باب إخفاء الصدقة ١٠٣١، والنسائي في آداب القضاة ٥٣٨٠، والترمذي في الزهد ٢٣٩١ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٢) البيتان لصالح بن عبد القدوس انظر (ديوانه) ص ١٣٣.

(٣) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ٢٠١.

«إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا، وإن لكم أن تنعموا فلا تباسوا أبداً».

وبسلام من الله عليهم ومن الملائكة، ومن بعضهم على بعض. كما قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

وقال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة:٢٥، ٢٦]. وفي هذا من النعيم المعنوي ما لا يدرك كنهه إضافة إلى النعيم الحسي نسأل الله تعالى من فضله.

﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ ذلك: الإشارة ليوم القيامة.

أي: يوم الخلود في الجنة فلا يموتون أبدًا ولا يظعنون أبدًا ولا يبغون عنها حولا كما جاء في حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «ينادي مناد إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا وإن لكم أن تنعموا فلا تباسوا أبدًا، فذلك قوله عز وجل ﴿وَنُودُوٓا أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الأعراف: ٤٣]»(١).

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ لهم: اي للمتقين ﴿مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ اي: الذي يختارون ويريدون ويشتهون في الجنة كما قال عز وجل: ﴿وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٢]، وقال عز وجل: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف:٧٠].

﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ يقول عز وجل: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ أي: وعندنا زيادة على ذلك المذكور من ألوان النعيم لأهل الجنة، كما قال عز وجل: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] وقد فسر ﷺ «الحسنى بالجنة والزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم»(٢).

وهكذا فسر أنس بن مالك رضي الله عنه قوله: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ بأن الرب عز

---

(١) اخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٣٧، والترمذي في التفسير ٣٢٤٦.

(٢) اخرجه مسلم في الإيمان ١٨١، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٢، وابن ماجه في المقدمة ١٨٧ - من حديث صهيب رضي الله عنه.

وجل يظهر لهم في كل جمعة[1].

ولا مانع من حمل الآية على المزيد من ألوان النعيم من زيارة الرب عز وجل وتجليه لهم سبحانه ومن الحور العين وغير ذلك من النعيم كما قال عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وقال ﷺ «قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» فاقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾»[2] نسأل الله تعالى من فضله وكرمه أن يجعلنا ممن تزلف لهم الجنة غير بعيد، ومن أهل الخلود فيها والمزيد.

الفوائد والعبر:

١- إثبات الكلام لله - عز وجل - على ما يليق بجلاله وعظمته.

٢- شدة ظلمة النار، وبعد قعرها، وتناهي حرارتها، ولهذا سميت جهنم.

٣- سؤال الله - عز وجل - النار وهو أعلم بها (هل امتلأت) على سبيل التخويف والوعيد والتهديد للمجرمين.

٤- إثبات القول لجهنم والله أعلم بكيفية ذلك.

٥- سعة جهنم، وشدة تلهفها إلى المزيد من المجرمين، وغضبها لغضب رب العالمين.

٦- تقريب الجنة للمتقين تكريماً لهم، والترحيب بهم، والثناء عليهم بالتوبة وحفظ حقوق الله وخشيته والإنابة إليه، وتهنئتهم بالسلامة والخلود في الجنة.

٧- إثبات اسم الله - عز وجل - «الرحمن» وصفة الرحمة الواسعة له - عز وجل - رحمة ذاتية، ورحمة فعلية، عامة وخاصة.

٨- الوعد لأهل الجنة بأن لهم فيها ما يشاؤون، ووعد الله - عز وجل - لهم بالمزيد من عنده، وأعظم ذلك تمكينهم من النظر إليه - عز وجل.

٩- جمع القرآن الكريم بين الترغيب والترهيب.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في (تفسيره) ١٠/ ٣٣١٠ - الأثر ١٨٦٤٥.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٤ ومسلم في الجنة ٢٨٢٤، والترمذي في التفسير ٣١٩٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٢٨ - من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

أكدّ عز وجل في هذه الآيات وعيد المكذبين بذكر إهلاك المكذبين قبلهم تذكيراً وتحذيراً وبياناً لكمال قدرته وتسلية لنبيه ﷺ آمراً له بالاستعانة على آذاهم بالتسبيح والصلاة.

قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ الواو استئنافية و (كم) خبرية بمعنى: كثير. (اهلكنا) اي: أمتنا وافنينا بإنزال العقوبات فيهم، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾[طه: ٢٨].

والهلاك نوعان: هلاك حسي بالموت والفناء، كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ [غافر: ٣٤].

والنوع الثاني: هلاك معنوي بالكفر والمعاصي وهو أشد بل هو الهلاك الحقيقي، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن سلمة بن صخر رضي الله عنه لما وقع على امرأته في نهار رمضان وهو صائم جاء فزعًا مرعوبًا يقول: «يا رسول الله هلكت وأهلكت»[١].

وهؤلاء جمعوا بين الهلاكين.

(قبلهم) أي: قبل كفار مكة المنكرين للحق والبعث (من قرن) القرن في الأصل: هو المدة التي يعيش فيه جيل وأمة من الناس وتقدر بمائة سنة، والمراد به هنا الجيل

---

(١) اخرجه البخاري في الصوم ١٩٣٦، ومسلم في الصيام ١١١١، وابو داود في الصوم ٢٣٩٠، والترمذي في الصوم ٧٢٤، وابن ماجه ١٦٧١.

والأمة أي: كم أهلكنا من أمة.

قال ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»[١] والمراد بقوله (قرني) القرن الذي عاش فيه ﷺ وأصحابه، ثم قرن التابعين، ثم قرن تابعي التابعين.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات ليلة، صلاة العشاء في آخر حياته، فلما سلم قام، فقال: «أرأيتم ليلتكم هذه فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد»[٢].

ومعنى الآية: وكثيراً من القرون أهلكنا قبلهم.

﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي: هذه القرون الكثيرة، الذين أهلكهم الله (هم أشد منهم بطشًا). أي: أشد قوة من كفار مكة كما قال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦ – ١٤]، وقال تعالى عن قارون: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ [القصص: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٨].

﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾.

التنقيب: البحث عن الشيء وطلبه وابتغاؤه، أي: فضربوا في الأرض وساروا فيها طولاً وعرضاً وهنا وهناك يبحثون عن الرزق ويطلبونه أو يبحثون عن النجاة من الهلاك ويطلبونها.

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٥٢، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٥٣٣، والترمذي في المناقب ٣٨٥٩، وابن ماجه في الأحكام ٢٣٦٢ – من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة ٢٥٣٧، والترمذي في الفتن ٢٢٥١ – من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

قال امرؤ القيس[(١)]:

لقد نَقَّبْتُ في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب

﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ الاستفهام معناه النفي، والمحيص: المفر والمهرب.

والمعنى: هل من مفر أو مهرب كان لهم من قضاء الله وقدره وعقابه وهل نفعهم أو دفع عنهم ما عندهم من قوة، وما كان منهم من تطواف في البلاد وعمران لها وطلب للمفر والمهرب من الهلاك أي: أن ذلك لم ينفعهم ولم يدفع عنهم الهلاك وعقاب الله لما كذبوا رسله، فكذلك أنتم يا كفار مكة أيضًا لا مفر لكم من قضاء الله وعقابه ولا محيد ولا مناص ولا محيص. قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾[سبأ: ٥١]، وقال تعالى: ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾[محمد: ١٠]

وقال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ [الأنعام: ٦٢].

ولهذا جاء في الأثر: «بشر القاتل بالقتل، والزاني بالفقر، ولو بعد حين» .

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ الإشارة لإهلاك كثير من القرون مع ما هم عليه من شدة وبطش وقوة، وما كانوا عليه من تنقيب في البلاد.

والذكرى: العظة، والعبرة، أي: إن في إهلاك تلك القرون تذكرة وموعظة وعبرة، والسعيد من وُعظ بغيره.

﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي: لمن كان له لبٌ وعقل واع، يعي ويعقل به، وهو القلب والعقل الذي ينتفع به صاحبه، والذي هو مناط المدح، لا القلب والعقل الذي هو مناط التكليف فقط، ولا ينتفع به صاحبه، كما قال عز وجل عن الكفار ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ

---

(١) انظر (ديوانه) ص ٧٣ طبعة بيروت والرواية فيها (وقد طوفت).

﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال عز وجل: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

﴿أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ «أو» بمعنى الواو، أي: وألقى السمع، وإلقاء السمع هو الإصغاء أي: ألقى سمعه وأصغى واستمع الذكرى، وهو شهيد، أي: حاضر بجسمه وعقله، فسمعه بأذنيه، ووعاه وعقله وفهمه بعقله وقلبه وفطنته وكان لذلك أثره على جوارحه.

فاجتمع عنده القلب الذي هو مناط التكليف، فكان ذا قلب وعقل، وأنصت وألقى سمعه بشهود قلبه وعقله الذي يستفيد به، والذي هو مناط المدح والذم؛ لأن وجود القلب والعقل ليس بكاف، ما لم يكن القلب والعقل شاهدًا حاضرًا منتفعًا مستفيدًا يظهر أثر ذلك على الجوارح؛ لهذا نجد القرآن الكريم يثبت العقل للمؤمنين المتقين لانتفاعهم به، وينفيه عن الكفار المكذبين ـ كما في الآيات السابقة وغيرها ـ لعدم انتفاعهم به، وهذا مما يوجب على الإنسان أن يحضر قلبه وعقله عند قراءة أو سماع الآيات القرآنية ويتدبر فيها كما قال عز وجل: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]. وقال عز وجل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

فبالتدبر في آيات الله الشرعية والتأمل والتفكر في آياته الكونية يحصل الانتفاع والفائدة، وبدونه لا يحصل شيء من ذلك، ولهذا قال ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه فيما ينبغي أن يكون عليه الداعي: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافلٍ لاهٍ»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٤٧٩ وقال: «حديث غريب».

وقال ابن القيم[١] في كلامه على قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾: «فتأمل ما تحت هذه الألفاظ من كنوز العلم، وكيف تفتح مراعاتها للعبد أبواب العلم والهدى، وكيف ينغلق باب العلم عنه من إهمالها وعدم مراعاتها، فإنه سبحانه أمر عباده أن يتدبروا آياته المتلوَّة المسموعة، والمرئية المشهودة بما تكون تذكرة لمن كان له قلب، فإن من عدم القلب الواعي عن الله لم ينتفع بكل آية تمر عليه، ولو مرت به كل آية، ومرور الآيات عليه كطلوع الشمس والقمر والنجوم ومرورها على من لا بصر له، فإذا كان له قلب كان بمنزلة البصير إذا مرت به المرئيات فإنه يراها ولكن صاحب القلب لا ينتفع بقلبه إلا بأمرين:

أحدهما: أن يحضره ويشهد لما يلقى إليه، فإن كان غائبًا عنه مسافرًا في الأماني والشهوات والخيالات لا ينتفع به، فإذا أحضره وأشهده لم ينتفع إلا بأن يلقي سمعه ويصغي بكليته إلى ما يوعظ به ويرشد إليه، وههنا ثلاثة أمور:

أحدها سلامة القلب وصحته وقبوله.

الثاني: إحضاره وجمعه، ومنعه من الشرود والتفرق.

الثالث: إلقاء السمع وإصغاؤه والإقبال على الذكر.

فذكر الله تعالى الأمور الثلاثة في هذه الآية».

وقال أيضا[٢]:

«وجاء العطف بـ «أو» – و الله أعلم – دون الواو للإشارة إلى أن المنتفع بالآيات من الناس نوعان:

أحدهما: ذو القلب الواعي الذكي الذي يكتفي بهدايته بأدنى تنبيه؛ لأن قلبه واع ذكي وهذه حال أكمل الخلق، كما قال تعالى في وصفهم: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾[سبا: ٦]، وقال تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥]. فهؤلاء يدعون بالحكمة، ترَقَّوا من علم اليقين إلى عين اليقين، ومن مقام الإيمان

---

(١) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ٢٠٣.
(٢) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ١٩١، ١٩٢، ٢٠٦، ٢٠٩.

إلى مقام الإحسان.

والثاني: من ليس له هذا الاستعداد والقبول فإذا ورد عليه الهدى أصغى إليه بسمعه وأحضر قلبه وجمع فكرته عليه وعلم صحته وحسنه بنظره واستدلاله وهذه طريقة أكثر المستجيبين، فهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة، وهم في مقام الإيمان ولم يصلوا إلى مقام الإحسان، عندهم علم اليقين ولم يصلوا إلى عين اليقين. فمن كان ذا قلب واع، وأصغى بسمعه وأماله كله نحو المخاطب، وأحضر قلبه وذهنه عند المتكلم انتفع بالذكرى، فإن فقد واحدًا من هذه الثلاثة لم ينتفع».

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ الواو: للاستئناف، واللام: للقسم، و«قد» للتحقيق، أي: و الله لقد خلقنا وأوجدنا السموات السبع والأرضين السبع، وما بينهما من سائر المخلوقات.

﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: في مدة ستة أيام من مثل أيام الدنيا على الصحيح من أقوال أهل العلم لأن الله خاطب البشر بما يعرفون.

وهو عز وجل: قادر على خلقها في لمح البصر أو أقل كما قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، وبقوله كن كما قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. لكنه عز وجل جعل لخلق الأشياء أسباباً ومقدمات تتكامل شيئاً فشيئاً حتى تتم كما جعل عز وجل خلق الإنسان أطواراً، كما قال نوح عليه السلام لقومه ـ فيما حكاه الله عنه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤﴾[نوح: ١٣ ، ١٤]. وقد قيل: إن من الحكمة في ذلك أن يعلم عباده الأناة في الأمور، وأن المهم فيها الإتقان لا الاستعجال.

﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ عن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ قال: «جاء اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: يا محمد، أخبرنا ما خلق الله من الخلق في هذه الأيام الستة؟ فقال: «خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء، وخلق المدائن والأقوات والأنهار وعمرانها وخرابها يوم الأربعاء، وخلق السموات والملائكة يوم الخميس إلى ثلاث ساعات؛ يعني من يوم الجمعة، وخلق في أول الثلاث الساعات الآجال، وفي الثانية الآفة، وفي الثالثة آدم، قالوا: صدقت إن أتممت. فعرف النبي ﷺ ما يريدون،

فأنزل الله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝٣٨ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾».

وقال قتادة: «قالت اليهود - عليهم لعائن الله - خلق الله السموات والأرض في ستة أيام، ثم استراح في اليوم السابع، وهو يوم السبت، وهم يسمونه يوم الراحة فأنزل الله تكذيبهم فيما قالوه وتاولوه ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾»[١].

والمعنى: وما أصابنا من لغوب، وهو الإعياء والنصب والتعب. وفي هذا تقرير كمال قدرته عز وجل، والرد على اليهود في زعمهم الباطل، وتقرير المعاد وأن من قدر على خلق السموات والأرض وما بينهما قادر على بعث الناس بعد الموت بطريق الأولى والأحرى، كما قال عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف:٣٣]، وقال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧].

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ اي: اصبر يا محمد على ما يقوله المكذبون من قومك من الذم لك، من قولهم: ساحر شاعر كاهن مجنون، ونحو ذلك، ومن التكذيب لما جئت به من الحق، وإنكار البعث. و(ما) موصولة أو مصدرية، أي اصبر على الذي يقولون، أو على قولهم وهذا كما قال في الآية الأخرى ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠]، وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

قال ابن القيم[٢]:«أمر نبيه بالتاسي به سبحانه بالصبر على ما يقوله أعداؤه فيه، كما انه سبحانه صبر على قول اليهود أنه استراح. ولا أحد أصبر على أذى يسمعه منه».

وفي الحديث: «لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله، إنهم يجعلون لله ندًا، ويجعلون له ولدًا، وهو يرزقهم ويعافيهم»[٣].

وفي أمره ﷺ بالصبر على المعاندين تثبيت لقلبه وترويض له، فإن الصبر نصف

---

(١) اخرجهما الطبري في (جامع البيان) ٢١/ ٤٦٥ ـ ٤٦٧.

(٢) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ٢٠٢، ٢١٠.

(٣) اخرجه البخاري في الأدب ٦٠٩٩، ومسلم في صفة القيامة ٢٨٠٤ – من حديث ابي موسى رضي الله عنه.

الإيمان، وهو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، وهو يتضمن أمرين، عدم التضجر مما يقوله المكذبون من قومه، والمضي قدماً في سبيل الدعوة وعدم المبالاة بما يقولون.

وهكذا ينبغي أن يعي الدعاة والمصلحون هذا المعنى، فإن طريق الدعوة ليس مفروشًا بالورود والرياحين، بل هو طريق شاق يحتاج إلى الصبر والمصابرة والمرابطة، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

ونيل الإمامة يحتاج إلى صبر وجهد وتضحية قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

ثم أمره ـ عز وجل ـ بما يعينه على الصبر على قولهم وهو الإقبال على الله ـ عز وجل ـ وتسبيحه وعبادته، فقال:

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ التسبيح: معناه تنزيه الله عن النقائص والعيوب، وعن مشابهة المخلوقين. و(الحمد) وصف المحمود بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم.

ومعنى الآية: سبح ربك ونزهه متلبسًا بحمده، أي قارنا بين تسبيحه وحمده، كما في دعاء الركوع والسجود: (سبحانك ربنا وبحمدك) وكما في الأذكار بعد الصلوات: (سبحان الله والحمد لله والله أكبر).

ومن تسبيح الله عز وجل بالمعنى العام وحمده عبادته بأنواع العبادة كلها، ومن ذلك: صلاة الفجر قبل طلوع الشمس، وصلاة العصر قبل غروبها. عن جرير بن عبد الله قال: كنا جلوسًا عند رسول الله ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «أما إنكم سترون ربكم، كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها – يعني صلاة العصر والفجر ـ ثم قرأ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٥٤، ومسلم في المساجد – فضل صلاة الصبح والعصر والمحافظة عليهما ٦٣٣، وأبو داود في السنة – باب في الرؤية ٤٧٢٩، والترمذي في أبواب صفة الجنة – ما جاء في رؤية الرب تبارك وتعالى ٢٥٥١، وابن ماجه في المقدمة – باب فيما أنكرت الجهمية ١٧٧، وأحمد ٤/ ٣٦٥، ٣٦٦.

وقال ﷺ: «من صلى البردين دخل الجنة»[1].

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وحمزة وخلف (وإدبار السجود) بكسر الهمزة، وقرأ الباقون (وأدبار السجود) بفتحها.

ومعنى ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ اي صل له ويدخل فيه صلاة المغرب والعشاء والتهجد، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾. [الإسراء: ٧٩].

وأطلق على الصلاة التسبيح؛ لأن التسبيح من أهم ما يقال فيها.

وأيضًا فإن التسبيح يطلق على ما هو أعم من ذلك وهو تنزيهه سبحانه عن النقائص والعيوب، والعبودية والانقياد له عز وجل، كما قال تعالى ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم: ٩٣].

وقيام الليل من أفضل الأعمال وقد أثنى الله عز وجل على أهل قيام الليل في آيات عدة قال تعالى في مدح المتقين ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨]، وقال تعالى ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝١٦ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦، ١٧]، وقال تعالى: ﴿۞لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣] وقال تعالى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ [الزمر: ٩].

وقال ﷺ لابن عمر: «نعم الرجل عبد الله لو كان يقوم من الليل» فكان ابن عمر بعد هذا لا ينام من الليل إلا قليلاً»[2].

---

(١) اخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٧٤، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٦٣٥ – من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) اخرجه البخاري في التعبير ٦٥١٠، ومسلم في فضائل الصحابة ٤٥٢٧، وابن ماجه في تعبير الرؤيا ٣٩٠٩ - من حديث نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عبد الله لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل»[١].

وقد قام ﷺ حتى تفطرت قدماه[٢].

وسئلت عائشة رضي الله عنها كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ في رمضان؟ فقالت: «ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره، على إحدى عشرة ركعة، يصلي أربعًا، فلا تسل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعًا فلا تسل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثًا»[٣].

ولم يترك ﷺ قيام الليل لا حضرًا ولا سفرًا، وكان إذا غلبه نوم أو وجع صلى من النهار اثنتي عشرة ركعة[٤].

(وأدبار السجود) أدبار الشيء ما يأتي بعده، أي: وسبحه أدبار السجود، أي: بعده. واختلف في المراد بذلك، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: «التسبيح بعد الصلاة»[٥] فحمل السجود على الصلاة. ويؤيد هذا ما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم. فقال: «وما ذاك؟» قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق. فقال رسول الله ﷺ: «أفلا أعلمكم شيئًا تدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم، إلا من صنع مثل ما صنعتم؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين مرة». فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله:

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة ١١٥٢، ومسلم في الصيام ١١٥٩.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٣٦ من حديث المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ ومن حديث عائشة ـ رضي الله عنها ٤٨٣٧.

(٣) أخرجه البخاري في صلاة التراويح ٢٠١٣، وأبو داود في الصلاة ١٣٤١، والنسائي في قيام الليل ١٦٩٧، والترمذي في الصلاة ٤٣٩.

(٤) انظر: «زاد المعاد» ١/ ٣٢٤.

(٥) أخرجه الطبري في (جامع البيان) ٢١/ ٤٧٣.

فقال رسول الله ﷺ: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»[١].

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المراد بـ (أدبار السجود): الوتر[٢].

وروي عن جمع من الصحابة والتابعين أن المراد بـ (أدبار السجود): الركعتان بعد المغرب[٣].

وهذان القولان فيهما نظر؛ لأن الوتر وصلاة الليل كلها تدخل تحت قوله (ومن الليل فسبحه)؛ ولأن القول بأن المراد به الركعتان بعد المغرب تخصيص بلا دليل.

والذي يدل عليه ظاهر الآية هو القول الأول، وأن المراد بقوله (وأدبار السجود) التسبيح والذكر بعد الصلوات الخمس، ويشمل ذلك ـ والله أعلم ـ الرواتب بعد الصلوات ـ مع الأذكار، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣].

وقد جاءت السنة النبوية ببيان هذه الأذكار المشروعة عقب الصلوات الخمس. فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «من سبح الله في دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، وحمد الله ثلاثًا وثلاثين، وكبر الله ثلاثًا وثلاثين، فتلك تسعة وتسعون. وقال تمام المائة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، غفرت خطاياه، وإن كانت مثل زبد البحر»[٤].

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ: إذا انصرف من صلاته، استغفر ثلاثًا، وقال: اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ذا الجلال والإكرام» قال الوليد – أحد الرواة عن الأوزاعي، فقلت للأوزاعي: كيف الاستغفار؟ قال: تقول: أستغفر الله، أستغفر الله»[٥].

---

(١) اخرجه البخاري في الأذان – باب الذكر بعد الصلاة ٨٤٣، ومسلم في المساجد ـ باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته ٥٩٥، وأبو داود في الصلاة ١٥٠٤.

(٢) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ٢٠٢.

(٣) انظر (جامع البيان) ٢١/ ٤٦٩ ـ ٤٧٣.

(٤) اخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٥٩٧.

(٥) اخرجه مسلم في المساجد ٥٩١، وأبو داود في الصلاة ١٥١٣، والترمذي في الصلاة ٣٠٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٩٢٨.

وعن المغيرة بن شعبة أنه أملى في كتاب إلى معاوية رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقول دبر كل صلاة مكتوبة «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»[1].

وعن الزبير بن العوام رضي الله عنه: «أنه كان يقول دبر كل صلاة حين يسلم: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة، وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله، مخلصين له الدين، ولو كره الكافرون». وقال: كان رسول الله ﷺ يهلل بهن دبر كل صلاة»[2].

وعن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لفاطمة رضي الله عنها: «إذا لزمت مضجعك فسبحي الله ثلاثًا وثلاثين، وكبري ثلاثًا وثلاثين، واحمدي أربعًا وثلاثين، فذلك مائة، فهو خير لك من الخادم. وإذا صليت الصبح فقولي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد ، يحيي ويميت بيده الخير، وهو على كل شيء قدير. عشر مرات، بعد صلاة الصبح، وعشر مرات بعد صلاة المغرب» الحديث[3].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أوصيك يا معاذ لا تدعنَّ دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[4].

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: «أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذات دبر كل صلاة»[5].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «من قرأ آية الكرسي دبر

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٨٤٤، ومسلم في المساجد ٥٩٣، وأبو داود في الصلاة ١٥٠٥، والنسائي في السهو ١٣٤١.

(٢) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٥٩٤، وأبو داود في الصلاة ١٥٠٦، والنسائي في السهو ١٣٣٩.

(٣) أخرجه أحمد ٤/ ٢٢٧.

(٤) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٥٢٢، والنسائي في الافتتاح ١٣٠٤.

(٥) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٥٢٣، والنسائي في السهو ١٣٣٦، والترمذي في فضائل القرآن ٢٩٠٣، وقال (حديث غريب) وأحمد ٤/ ١٥٥.

كل صلاة لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت»[1].

إلى غير ذلك من الأذكار الخاصة والعامة. قال تعالى:﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣].

وقد أثنى الله عز وجل على الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات عمومًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَٰتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إلى قوله ﴿وَالذَّٰكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وعن عبد الله بن بسر رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله: إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ فأخبرني بشيء أتشبث به قال: «لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[3].

وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «أحب الكلام إلى الله: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»[4].

وقال ﷺ: «الباقيات الصالحات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله والله أكبر»[5] وقد قال الله ـ عز وجل ـ ﴿وَالْبَٰقِيَٰتُ الصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٦٤].

وقال ﷺ: «أفضل الكلام أو خير الكلام سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»[6].

وقال ﷺ: «لأن أقول سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، و الله أكبر،

---

(١) أخرجه النسائي، وصححه الألباني في (تخريج المشكاة) ٩٧٤.

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٣٧٥ وابن ماجه في الأدب ٣٧٩٣.

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٤٠٦، ومسلم في الذكر والدعاء ٢٦٩٤، والترمذي في الدعوات ٣٤٦٧، وابن ماجه في الأدب ٣٩٠٦.

(٤) أخرجه مسلم في الآداب ٢١٣٧.

(٥) أخرجه أحمد ١/ ٧١ ـ من حديث عثمان رضي الله عنه، ومن حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه ٤/ ٢٦٨.

(٦) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم في الأيمان والنذور ـ باب إذا قال: والله لا أتكلم اليوم ـ قال: قال النبي ﷺ (أفضل الكلام أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر) (فتح الباري) ١١/ ٥٦٦.

أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس»[1].

ولما كان ذكر الله عز وجل وشكره وتسبيحه وحمده أكبر معين على ثبات القلب وطمأنينته ورباطة الجاش، وانشراح الصدر، أمر الله عز وجل رسوله ﷺ بذلك بعد ما أمره بالصبر على ما يقوله المكذبون من قومه فقال عز وجل. ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾.

فانتبه أخي الكريم لهذا المعنى قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

الفوائد والعبر:

١- تخويف المكذبين بإهلاك كثير من القرون قبلهم مع قوتهم وشدة بطشهم وضربهم في الأرض، فلم ينفعهم ذلك، ولم يفلتوا من عذاب الله.

٢- أن في التأمل فيما أوقع الله في المكذبين من الأمم السابقة من العقوبات - مع شدة بطشهم - أعظم الموعظة لمن استمع بحضور قلب.

٣- يجب إحضار القلب عند قراءة القرآن وسماع مواعظه، والتدبر في ذلك لتحصل الذكرى والمنفعة.

٤- إثبات كمال قدرة الله - عز وجل - في خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وتقرير المعاد والرد على اليهود في زعمهم الباطل لعنهم الله.

٥- تقوية قلب الرسول ﷺ وعزيمته بأمره بالصبر على ما يقول المكذبون من ذمه وتكذيبه فيما جاء به، وأمر الله - عز وجل - له بتسبيحه وحمده.

٦- إثبات ربوبية الله - عز وجل - الخاصة لنبيه ﷺ.

٧- وجوب تسبيح الله - عز وجل - بأداء الصلوات المفروضة، واستحباب الإكثار من النوافل وقيام الليل والأذكار العامة، والذكر بعد الصلوات، وأن ذلك أعظم معين على الصبر على أذى الأعداء.

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٢٦٩٥ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

أكد عز وجل في الآيات السابقة وعيد المكذبين بذكر ما حل بمن كان قبلهم من العقوبات الدنيوية ثم أتبع ذلك بذكر ما ينتظرهم من العقوبات الأخروية تخويفاً وتحذيراً لهم، وتسلية للنبي ﷺ، آمراً له بالاستمرار بالتذكير بالقرآن لمن يخاف وعيد الله وعذابه.

قوله: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي: واستمع يا محمد، يوم ينادي المنادي: وهو إسرافيل عليه السلام بالنفخ في الصور يوم القيامة للبعث، وهي النفخة الثانية.

وفي قوله: (واستمع) إشارة إلى قرب الساعة لأنها آتية وكل آت قريب، وقد قال ﷺ «بعثت أنا والساعة كهاتين. وأشار بإصبعيه السبابة والتي تليها»[1].

﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ لأنه يُسمِع الخلق كلَّهم؛ فيَسْمعه من بَعُدَ كما يسمعه من قرب.

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾ الصيحة الصوت الشديد المرتفع، وهي النفخة الثانية في الصور وهي الرادفة كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦-٧].

فالراجفة النفخة الأولى في الصور ليموت كل حي من المخلوقات، والرادفة: النفخة الثانية للبعث بعد الموت وعود الأرواح إلى أجسادها.

(بالحق) أي الصيحة المحققة الوقوع، والتي تأتي بالحق الذي وعدوا به وهو

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٠٥، وابن ماجه في الفتن ٤٠٤٠ ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

البعث الذي كان أكثرهم فيه يمترون.

﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ ذلك: أي يوم نداء المنادي بالبعث هو يوم الخروج من القبور والأجداث كما قال عز وجل ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]، وقال تعالى ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣]. وقال تعالى ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾[طه: ١٠٢].

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ يقول عز وجل عن نفسه بضمير العظمة إنه عز وجل هو الذي يحيي ويميت فهو الذي بدأ الخلق وهو الذي يعيده سبحانه وتعالى، وهو الذي ينفخ الحياة في الأجسام، وهو الذي يميتها كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [السجدة: ٧ – ٩]، وقال تعالى ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، وقال تعالى ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ [النحل: ٧٠].

﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: إليه عز وجل مصير الخلائق ومرجعهم ومردهم فيحاسبهم على أعمالهم، ويجازي كلاً منهم بما عمل، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

فمهما طال عمر الإنسان في هذه الحياة فإن الله له بالمرصاد، ومرده ومرجعه إليه، ولن يفوته، ولن يعجزه هربًا، فالطريق إليه وحده، والطرق إلى غيره مسدودة قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، وقال تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ أي: يوم تشقق الأرض عن أجسادهم للخروج من الأجداث يوم القيامة كما تتشقق عن الحب والنبات قال ﷺ فيما رواه أبو هريرة

رضي الله تعالى عنه: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع»[1].

قال ابن كثير[2]: «وذلك أن الله تعالى ينزل مطرًا من السماء تنبت به أجساد الخلائق في قبورها كما ينبت الحب في الثرى بالماء فإذا تكاملت الأجساد أمر الله إسرافيل فينفخ في الصور».

﴿سِرَاعًاۚ﴾ أي: فيقومون مسرعين إلى موقف الحساب استجابة لأمر الله عز وجل قال تعالى: ﴿مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾ [سورة القمر: ٨]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣]، وقال الله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٥٢].

﴿ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ﴾ الحشر: هو الجمع للحساب أي: إخراجهم من القبور وجمعهم للحساب أمر يسير علينا؛ لأنه عز وجل لا يعجزه شيء، كما قال عز وجل: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ۝٥٣﴾ [يس: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾ [النازعات: ١٣ ، ١٤]، وقال تعالى: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾[لقمان: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]

﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ﴾ يقول الله عز وجل مخاطبًا نبيه ﷺ ومسليًا له ومطمئنًا له ومؤيدًا، ومتوعداً المكذبين: نحن أعلم بما يقول لك المشركون المعاندون من التكذيب والمعاندة، وما يقولون فيك من المزاعم الباطلة، كما قال عز وجل: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٧ ـ ٩٩].

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل ـ باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق ٢٢٧٨.
(٢) في (تفسيره) ٧/ ٣٨٨.

فقد كذبه - بأبي هو وأمي - كثير من قومه بل الكثير من كبارهم وأهل الرأي فيهم، بل من أقاربه وأعمامه كأبي جهل وأبي لهب، ورمي ﷺ بالسحر والشعر والكهانة والجنون وما ثناه ذلك ﷺ عن دعوته، بل صبر وصابر وكان يقول ﷺ: «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[1].

قال ابن القيم[2]: «أخبر سبحانه أنه عالم بما يقول أعداؤه، وذلك يتضمن مجازاته لهم بقولهم إذ لم يخف عليه، وهو سبحانه يذكر علمه وقدرته لتحقيق الجزاء».

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ أي: وما أنت عليهم بجبار تجبرهم على الهدى وتلزمهم به وإنما مهمتك البلاغ فقط كما قال عز وجل: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾[يونس: ٩٩]،وقال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة: ٩٩]، وقال تعالى ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقال عز وجل ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢]، وقال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال عز وجل ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾. [القصص: ٥٦].

فمهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام هي البلاغ وليس عليهم هداية الخلق وإجبارهم على الدخول في دين الله، فإن هداية القلوب بيد علام الغيوب.

ولهذا لم يستطع نوح عليه السلام هداية ابنه، ولا هداية زوجته، ولم يستطع إبراهيم عليه السلام هداية أبيه، ولم يستطع لوط عليه السلام هداية زوجته، ولم يستطع سيد الخلق محمد ﷺ هداية عمه أبي طالب.

وينبغي أن يأخذ المصلحون والدعاة إلى الله تعالى من هذا دروسًا وعبرًا في طريق دعوتهم إلى الله.

﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾ أي: فعظ بالقرآن بتلاوته على الناس ليتذكروا ويتعظوا بما فيه

---

(١) أخرجه البخاري في استتابة المرتدين ٦٩٢٩، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٩٢، وابن ماجه في الفتن ٤٠٢٥ - من حديث عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه.

(٢) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ٢٠٢.

من الوعد والوعيد والزجر والتهديد ﴿مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (من) موصولة بمعنى الذي أي: فذكر بالقرآن الذي يخاف وعيدي بالعذاب، أي: ويرجو وعدي بالثواب، وهم المؤمنون لأنهم هم الذين ينتفعون بالذكرى، كما قال عز وجل: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: ٥٥]، وقال عز وجل: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص : ٢٩].

وإنما خص عز وجل بالأمر بالتذكير من يخاف وعيده؛ لأنه هو الذي ينتفع بالتذكير، أما من لا يؤمن بلقائه ولا يخاف وعيده ولا يرجو وعده فلا ينتفع بالتذكير.

ومهمة الرسل عليهم السلام هي التذكير بالوعيد والتخويف والإنذار من عذاب الله، والتبشير بوعد الله بالنعيم المقيم قال عز وجل ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

الفوائد والعبر:

١ـ الإشارة إلى قرب الساعة والنفخ في الصور لخروج الناس من قبورهم وقيامهم لرب العالمين، وتحقق ذلك.

٢ـ قدرة الله ـ عز وجل التامة على إحياء الخلق وإماتتهم وبعثهم وردهم إليه سبحانه، وثناؤه ـ عز وجل على نفسه بذلك.

٣ـ تشقق الأرض يوم القيامة عمَّن فيها من الموتى وخروجهم منها مسرعين إلى موقف الحشر والحساب.

٤ـ يسر أمر حشر الناس وجمعهم على الله ـ عز وجل ـ لأنه عز وجل لا يعجزه شيء ولا يتعسر عليه أمر.

٥ـ تسلية النبي ﷺ وتطمينه والوعيد للمكذبين بإحاطة علم الله بما يقولون ومجازاتهم على ذلك.

٦ـ أن مهمة الرسول ﷺ التذكير والدعوة إلى الله ـ عز وجل ـ وتبليغ الرسالة، وليس عليه هداية الخلق وإجبارهم على اتباع الحق.

٧ـ إنما يتذكر بالقرآن من يخاف وعيد الله ويرجو وعده.

تفسير سورة الذاريات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝٦﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ الواو: حرف قسم وجر، و«الذاريات» مقسم به وهي: الرياح. أقسم الله عز وجل بها لكثرة منافعها للإنسان والحيوان والنبات وغير ذلك، تثير السحاب وتنشره وتلقحه وتسوقه وتبشر بالمطر وتقم الأرض وتسوق السفن إلى غير ذلك، تأتي بأمر الله رحمة، وتأتي بأمره عذاباً.

وسميت الرياح بالذاريات؛ لأنها تذرو المطر والتراب والنبات إذا يبس، أي: تنشر ذلك وتفرقه قال تعالى:﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ [الكهف: ٤٥].

«ذروا» مصدر أي : نشرًا وتفريقًا تارة بشدة وقوة وتارة بلين ولطف وتارة بين ذلك.

﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ الفاء عاطفة، و«الحاملات» وما بعدها معطوف على «الذاريات» داخل ضمن المقسم به.

و«الحاملات»: السحاب «وقرًا» أي: ثقلاً من الماء الكثير الذي ينفع الله به العباد والبلاد، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ [الرعد: ١٢].

قال ابن القيم[(١)]: «وهي روايا الأرض يسوقها الله سبحانه على متون السحاب بالرياح».

قال زيد بن عمرو بن نفيل[(٢)]:

وأسلمتُ نفسي لمن أسلَمَتْ ... له المزن تحمل عذبًا زلالا

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢١٣.

(٢) انظر «سيرة ابن هشام» ١/ ٢٣١.

و«الجاريات»: السفن التي تجري في البحار، وتمخر عبابها بقدرة الله عز وجل، تحمل الناس والأرزاق وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ [الشورى: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الحج: ٦٥] وبهذا قال جمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم.

وقال بعض أهل العلم: المراد بالجاريات النجوم، التي تسير وتجري كما قال تعالى ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥،١٦].

واختار هذا شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال: «وهو أحسن في الترتيب والانتقال من السافل إلى العالي، فإنه بدأ بالرياح، وفوقها السحاب، وفوقه النجوم، وفوقها الملائكة»[1].

﴿يُسْرًا﴾ أي: جريًا بيسر وسهولة، مسخرة مذللة منقادة.

(فالمقسمات): الملائكة، «أمرًا» أي: تقسم ما أمرها الله عز وجل بتقسيمه، كما قال عز وجل ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]، أي: الملائكة تدبر ما أمرها الله عز وجل بتدبيره.

فجبريل يقسم بأمر الله الوحي والعذاب وأنواع العقوبات على من خالف الرسل، وميكائيل يقسم بأمر الله القطر والبرد والثلج والنبات، وملك الموت يقسم بأمر الله المنايا بين الخلق، وإسرافيل يقسم بأمر الله الأرواح على أبدانها عند النفخ في الصور، وهكذا غيرهم من الملائكة كل منهم قد جعله الله على تدبير أمر من أمور الدنيا والآخرة لا يتعداه ولا ينقص منه.

فأقسم - عز وجل بالذاريات وهي الرياح، وبالحاملات وهي السحاب، وبالجاريات وهي السفن على قول عامة المفسرين، وبالمقسمات وهي الملائكة.

قال ابن القيم رحمه الله[2]: «وأقسم سبحانه بهذه الأمور الأربعة لمكان العبرة

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢١٣، ٢١٤.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢١٤-٢١٥.

والآية والدلالة الباهرة على ربوبيته ووحدانيته وعظم قدرته، ففي الرياح من العبر هبوبها وسكونها، ولينها وشدتها، واختلاف طبائعها وصفاتها ومهابها وتصريفها، وتنوع منافعها، وشدة الحاجة إليها، فللمطر خمسة رياح: ريح، ينشر السحاب، وريح يؤلف بينه، وريح تلقحه، وريح تسوقه حيث يريد الله، وريح تذرو أمامه وتفرقه، وللنبات ريح وللسفن ريح وللرحمة ريح، وللعذاب ريح، إلى غير ذلك من أنواع الرياح، وذلك يقضي بوجود خالق مصرف لها مدبر لها يصرفها كيف يشاء، ويجعلها رخاءً تارة، وعاصفة تارة، ورحمة تارة، وعذابًا تارة، فتارة يحيي بها الزرع والثمار، وتارة يغطيها بها، وتارة ينجي بها السفن، وتارة يهلكها بها، وتارة ترطب الأبدان، وتارة تذيبها، وتارة عقيما، وتارة لاقحة، وتارة جنوبًا، وتارة دبوراً، وتارة صبًا، وتارة شمالا، وتارة حارة، وتارة باردة، وهي مع غاية قوتها ألطف شيء، وأقبل المخلوقات لكل كيفية، سريعة التأثر والتأثير لطيفة المسارق بين السماء والأرض. إذا قطع عن الحيوان الذي على وجه الأرض هلك، كبحر الماء الذي إذا فارقه حيوان الماء هلك، يحبسها الله سبحانه إذا شاء، ويرسلها إذا شاء، تحمل الأصوات إلى الآذان، والرائحة إلى الأنف، والسحاب إلى الأرض الجرز، وهي من روح الله تأتي بالرحمة، ومن عقوبته تأتي بالعذاب، وهي أقوى خلق الله... إلى أن قال: «والمقصود أن الرياح من أعظم آيات الرب الدالة على عظمته وربوبيته وقدرته...».

قال: «ثم أقسم بالسحاب، وهو من أعظم آيات الله في الجو في غاية الخفة ثم يحمل الماء والبرد، فيصير أثقل شيء، فيأمر الرياح فتحمله على متونها، وتسير به حيث أمرت، فهو مسخر بين السماء والأرض حامل لأرزاق العباد والحيوان فإذا أفرغه حيث أمر به اضمحل وتلاشى بقدرة الله، فإنه لو بقي لأضر النبات والحيوان فأنشأه سبحانه في زمن يصلح إنشاؤه فيه، وحمله من الماء ما يحمله، وساقه إلى بلد شديد الحاجة إليه...

إلى أن قال: فسل السحاب من أنشاه بعد عدمه، وحمله الماء والثلج والبرد؟ ومن حمله على ظهور الرياح؟ ومن أمسكه بين السماء والأرض بغير عماد، ومن أغاث بقطره العباد، و أحيا به البلاد، وصرفه بين خلقه كما أراد.

وسل الرياح من أنشأها بقدرته؟ وصرفها بحكمته، وسخرها بمشيئته، وأرسلها

بُشرًا بين يدي رحمته...

وسل الجاريات يسرًا من السفن من أمسكها على وجه الماء، وسخر لها البحر؟ ومن أرسل لها الرياح التي تسوقها على الماء سوق السحاب على متون الرياح؟ ومن حفظها في مجراها ومرساها من طغيان الماء وطغيان الريح؟ قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ۝ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٢-٣٤].

وسل الجاريات يسرًا من الكواكب والشمس والقمر من الذي خلقها وأحسن خلقها، ورفع مكانها وزين بها قبة العالم...

إلى أن قال: وأنت إذا تأملت أحوال هذه الكواكب وجدتها تدل على المعاد كما تدل على المبدأ، وتدل على وجود الخالق، وصفات كماله، وربوبيته وحكمته، ووحدانيته أعظم دلالة، وكل ما دل على صفات جلاله ونعوت كماله دل على صدق رسله، فكما جعل الله النجوم هداية في طريق البر والبحر فهي هداية في طريق العلم بالخالق سبحانه وقدرته وعلمه، وحكمته، والمبدأ والمعاد والنبوة ودلالتها على هذه المطالب لا تقصر عن دلالتها على طرق البر والبحر، بل دلالتها للعقول على ذلك أظهر من دلالتها على الطرق الحسية فهي هداية في هذا وهذا».

ثم قال: «وأما دلالة (المقسمات أمرا) وهم الملائكة فلأن ما يشاهد من تدبير العالم العلوي والسفلي وما لا يشاهد إنما هو على أيدي الملائكة فالرب تعالى يدبر بهم أمر العالم وقد وكل بكل عمل من الأعمال طائفة منهم فوكل بالشمس والقمر والنجوم والأفلاك طائفة منهم، ووكل بالقطر والسحاب طائفة، ووكل بالنبات طائفة، وبحفظ بني آدم طائفة، ووكل بالأجنة والحيوان طائفة، ووكل بالموت طائفة، وبإحصاء أعمالهم وكتابتها طائفة، وبالوحي طائفة، وبالجبال طائفة، وبكل شأن من شؤون العالم طائفة، هذا مع ما في خلق الملائكة من البهاء والحسن، وما فيهم من القوة والشدة ولطافة الجسم، وحسن الخلقة، وكمال الانقياد لأمره، والقيام بخدمته، وتنفيذ أوامره في أقطار العالم».

قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾.

جملة جواب القسم، فأقسم عز وجل بالرياح والسحاب والسفن والكواكب والملائكة على أن ما يوعد به الخلق لصادق وأن الدين لواقع.

(إنما) «إن» حرف توكيد ونصب و«ما» موصولة أو مصدرية، والتقدير: إن الذي توعدونه أو إن وعدكم لصادق. واللام في قوله (لصادق) وفي قوله (لواقع) للتوكيد.

والمعنى: إنما توعدون من أمر القيامة والبعث والثواب والعقاب لوعد صادق، كما قال عز وجل ﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣].

و «الدين» هو الجزاء على الأعمال فيجازى كلا بما عمل إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر كما قال عز وجل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

فوعده عز وجل صدق ومجازاته العباد واقعة لا محالة.

الفوائد والعبر:

١ـ إقسام الله ـ عز وجل ـ على أن البعث والمعاد حق وصدق، وأن الحساب والجزاء واقع لا محالة ـ تأكيداً لذلك وتعظيماً له.

٢ـ في إقسام الله ـ عز وجل ـ بهذه المخلوقات العظيمة تنبيه على كمال قدرته، وعظيم نعمه. فأقسم عز وجل بالرياح والسحاب، والسفن أو النجوم، والملائكة لما في خلقها من العظمة ولما لها من الفوائد والمنافع التي لا تحصى.

٣ـ أن لله ـ عز وجل ـ أن يقسم بما شاء من مخلوقاته لما في ذلك من الدلالة على عظمته ـ عز وجل.

٤ـ إثبات وجود الملائكة وأنهم مكلفون بأعمال مختلفة.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ۝ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ۝ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ۝ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ۝﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

أقسم عز وجل بالآيات السابقة على أن ما وعد الله به حق وصدق، وأن الجزاء على الأعمال كائن وواقع لا محالة، ثم أقسم في هذه الآيات بالسماء على اختلافهم في ذلك.

قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ﴾ الواو: حرف قسم وجر، و«السماء» مقسم به مجرور، والمراد أجرام السموات السبع التي هي من أعظم المخلوقات. وإقسامه عز وجل بها وبغيرها من المخلوقات ليدل على عظمته هو فهو الخالق العظيم لذلك كله.

﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ ذات بمعنى: صاحبة، ومعنى الحبك في الأصل: إجادة عمل الشيء وإتقان صنعه، يقال: ثوب محبوك إذا أجيد نسجه، وحبل محبوك: إذا كان شديد الفتل.

والمعنى: والسماء ذات الصنع المستوي الحسن البديع، والخلق القوي الشديد، والبنيان المتقن الرفيع، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٣-٥].

قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: «ذات البهاء والجمال والحسن والاستواء»[١].

وقال ابن كثير[٢] رحمه الله بعد أن ذكر عدة أقوال عن السلف في معنى الحبك: «وكل هذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد، هو الحسن والبهاء، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما-فإنها من حسنها مرتفعة شفافة صفيقة شديدة البناء متسعة الأرجاء أنيقة البهاء مكللة

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢١/ ٤٨٨ - ٤٨٩.
(٢) في «تفسيره» ٧/ ٣٩٢.

بالنجوم الثوابت والسيارات، موشحة بالشمس والقمر والكواكب الزاهرات، كما قال تعالى: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]».

﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ۝ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ هذا هو المقسم عليه والخطاب للمشركين من أهل مكة واللام في قوله: ﴿لَفِي﴾ للتوكيد.

والمراد بالقول المختلف: أقوالهم في القرآن الكريم، وفي النبي ﷺ، وفي البعث، المختلفة المتضاربة، والتي مبناها على التخمين والتخرص والحيرة بسبب تكذيبهم بالحق، فإنهم لما كذبوا بالحق التبس الأمر عليهم، فاختلفت أقوالهم ومذاهبهم وطرائقهم وآراؤهم فلم يستقر لهم رأي، ولم يثبتوا على حال، كما قال عز وجل: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ [ق:٥]، وقال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبأ: ١-٣]. فقالوا عن القرآن سحر، ومن قول البشر وأساطير الأولين ونحو ذلك، وقالوا عن الرسول ﷺ ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون، وأنكروا البعث فهم فيه بين مكذب ومشكك.

قال ابن القيم[١]: «وفي ضمن هذا الجواب أنكم في أقوال باطلة متناقضة يكذب بعضها بعضا بسبب تكذيبهم بالحق»

﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ﴾ يؤفك: بمعنى يصرف (عنه) أي: عن الإيمان بالحق الذي جاء من عند الله تعالى: القرآن الكريم، والرسول، والبعث والجزاء على الأعمال وغير ذلك.

﴿مَنْ أُفِكَ﴾ من صرف ممن سبق في علم الله انه من أهل الضلال، كما قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾:[الأعراف: ١٤٦].

ويحتمل أن تكون «عن» هنا فيها معنى السببية وضمير الهاء عائد إلى القول المختلف فيكون المعنى: يصرف بسببه أي بسبب هذا الاختلاف في القول من صرف وقضي عليه بالخذلان.

وهذا وذاك مما يوجب على العبد الإقبال على الله، وطلب مرضاته والتقرب إليه

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٢٠، ٢٣٣.

بطاعته فهذا هو السبب الوحيد للتوفيق، وليحذر الإنسان كل الحذر من المعاصي التي تبعده عن الله، وتكون سببًا لصرفه عن الحق والقضاء عليه بالخذلان قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل : ٥-١٠].

وقال ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له، فأهل السعادة سوف ييسرون لعمل أهل السعادة، وأهل الشقاوة سوف ييسرون لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ [الليل:٥]»(١).

﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ قتل: أي: لعن وأهلك، كما قال تعالى: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس:١٧] أي: لعن وأهلك.

و ﴿الْخَرَّاصُونَ﴾ الكذابون المرتابون المخمنون الذين اختلفت أقوالهم فيما جاءهم من الحق من عند الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦].

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ الغمرة: الغفلة والجهالة، أي الذين هم في غفلة وجهالة قد غمرت قلوبهم فغطتها وغشيتها كغمرة الماء وغمرة الموت قال تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا﴾ [المؤمنون:٦٣] أي: في غفلة وجهالة وشك وشرك.

﴿سَاهُونَ﴾ أي: غافلون، والسهو هو الغفلة عن الشيء وذهاب القلب عنه.

﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ أي: يسألون استبعادًا للوقوع وجحدًا وشكًا وعنادًا وتكذيبًا. كما حكى الله عنهم قولهم: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣]، وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨].

«أيانَ» أي: متى «يَوْمُ الدِّينِ». و «الدين»: هو الجزاء على الأعمال.

(١) أخرجه البخاري في «التفسير» ٤٩٤٩، ومسلم في القدر ٢٦٤٧، وأبو داود في السنة ٤٦٩٤، والترمذي في القدر ٢١٣٦، وابن ماجه في المقدمة ٧٨- من حديث علي رضي الله عنه.

أي: متى يوم الدين الذي نجازى فيه بأعمالنا، يقولون هذا استبعادًا وتكذيبًا كما قال تعالى ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ [الانفطار: ٩].

وسُمي يوم القيامة بيوم الدين؛ لأن المرء فيه يدان ويجازى بما عمل من خير وشر كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

ثم أخبر تعالى أن ذلك ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾.

أي: يوم هم على النار يوقفون ويعرضون، وفيها يعذبون ويحرقون، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [البروج: ١٠] أي: أحرقوهم بالنار.

﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ أي: يقال لهم هذا إهانة وتوبيخًا لهم وتقريعًا، والذوق هو أحد الحواس الخمس، والمعنى: تجرعوا وكابدوا وأحسوا بالعذاب في النار واحتراقكم فيها كما قال تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩].

قال ابن القيم[1]: «وحقيقة الأمر أن الفتنة تطلق على العذاب وسببه، ولهذا سمى الله الكفر فتنة، فهم لما أتوا بالفتنة التي هي أسباب العذاب في الدنيا سمى جزاءهم فتنة؛ ولهذا قال: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ وكان وقوفهم على النار وعرضهم عليها من أعظم فتنتهم، وآخر هذه الفتنة دخول النار والتعذيب بها ففتنوا أولا بأسباب الدنيا وزينتها، ثم فتنوا بإرسال الرسل إليهم، ثم فتنوا بمخالفتهم وتكذيبهم ثم فتنوا بعذاب الدنيا، ثم فتنوا بعذاب الموت، ثم يفتنون في موقف القيامة، ثم إذا حشروا إلى النار ووقفوا عليها وعرضوا عليها وذلك من أعظم فتنتهم، ثم الفتنة الكبرى التي أنستهم جميع الفتن قبلها».

وقريب من هذا -والله أعلم- قوله تعالى :﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى:٤٠] فاطلق على المجازاة على السيئة سيئة من باب المشاكلة، وأن الأولى سبب الثانية.

﴿هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ هذا إشارة إلى تعذيبهم في النار، أي هذا الجزاء

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٢١.

والتعذيب في النار الذي كنتم تستعجلونه بقولكم وسؤالكم ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ وهذا على سبيل التقريع والتوبيخ والتحقير والتصغير لهم.

وهذا من العذاب المعنوي الذي لا يقل عن العذاب الحسي. نسأل الله السلامة والعافية.

الفوائد والعبر:

١ ـ إقسام الله ـ عز وجل ـ بالسماء العظيمة الخلق الرفيعة البناء، المتقنة الصنع للدلالة على عظمته وكمال قدرته.

٢ ـ اختلاف المشركين في صدق رسالته ﷺ وما جاء به من الوحي والإخبار بالبعث على أقوال كلها باطلة متناقضة.

٣ ـ لا يصرف عن الحق إلا من قضي عليه بالخذلان، فلا سبيل إلى هدايته.

٤ ـ أن الاختلاف ورد الحق سبب للخذلان.

٥ ـ لعن الله ـ عز وجل وإهلاكه لأهل التخرص والغفلة والجهل المنكرين للبعث والمعاد والجزاء على الأعمال، وطردهم من رحمته.

٦ ـ الوعيد للمكذبين بالبعث والجزاء بالعذاب الحسي بالنار والعذاب المعنوي للقلوب بالتوبيخ والتقريع.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ۝﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر ـ عز وجل ـ ما أعده من العذاب في النار للمكذبين، ثم أتبع ذلك بذكر ما أعده للمتقين على طريقة القرآن الكريم في الجمع بين الترغيب والترهيب؛ ليجمع المؤمن في طريقه إلى الله في هذه الحياة بين الخوف والرجاء كما قال عز وجل: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦].

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ «إن» حرف توكيد ونصب، والمتقين الذين اتقوا الله ، واتقوا عقابه بفعل ما أمرهم الله به واجتناب ما نهاهم عنه. فهذه حقيقة تقوى الله.

والتقوى في الأصل: مأخوذة من الوقاية، وهي أن يجعل الإنسان بينه وبين الشيء المخوف وقاية، فيتقي البرد بالملابس ويتقي الحر بالبعد عن الشمس، ويتقي الشوك بلبس النعلين ونحو ذلك، ويتقي عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

قال ابن المعتز[1]:

خل الذنوب صغيرها	وكبيرها ذاك التقى
واعمل كماش فوق أر	ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة	إن الجبال من الحصى

وأصلها «وقوى» فقلبت الواو تاء لعلة تصريفية فقيل: «تقوى».

﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ الجنات: جمع جَنَّة وهي المنازل التي أعدها الله لأوليائه

(١) انظر: «ديوانه» ٢/ ٣٧٦- تحقيق محمد بديع شريف.

المتقين وحزبه المفلحين، فيها من الكرامة وأنواع النعيم ما لا يقدر قدره إلا الكريم العظيم. كما قال عز وجل:﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وأصل الجنة: البستان، سُمي جنة؛ لأنه يجنّ ويستر من بداخله بأشجاره وثماره الكثيرة الملتفة. والجيم والنون بمعنى الستر، ومنه سُمي الجن «جنًا»؛ لأنهم مستترون، وسُمي القلب (جنانا)؛ لأنه مستتر، وهكذا.

والعيون: جمع عين، وهي ينبوع الماء الذي ينبع من الأرض ويجري.

والمراد بالعيون في قوله (وعيون) عيون الجنة التي تنبع من أرضها وتجرى في وسطها، ومنها التسنيم والسلسبيل كما قال عز وجل: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٧-٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٧-١٨]، وقال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦].

فالمتقون في جنات يسكنونها ويتمتعون بما فيها من المآكل والمشارب والمناكح وغير ذلك من ألوان النعيم، وفي عيون يشربون منها ويتمتعون برؤيتها.

﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ آخذين: حال من «المتقين» أي: حال كونهم آخذين ما آتاهم ربهم. كما قال تعالى: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [الطور: ١٨].

والأخذ: هو تناول الشيء باليد وغيرها.

و«ما» موصولة تفيد العموم بمعنى «الذي»، أي: آخذين الذي أعطاهم ربهم من ألوان النعيم وأنواع الكرامة، والخير والثواب، والأجر العظيم، والسرور والغبطة.

قال ابن القيم[١]: «وفي ذلك دليل على أمور، منها: قبولهم له، ومنها: رضاهم به، ومنها: وصولهم إليه بلا مانع و عائق، ومنها: أن جزاءهم من جنس أعمالهم. فكما أخذوا ما أمرهم به في الدنيا وقابلوه بالرضا والتسليم وانشراح الصدر، أخذوا ما آتاهم من الجزاء كذلك».

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٢٢.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ الإشارة في قوله ﴿قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ إلى ما قبل مجازاتهم أي: إلى حالهم في الدنيا وأنهم كانوا في حياتهم الدنيا محسنين، أي بسبب إحسانهم في الدنيا كما قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

أي: إنهم كانوا في الدنيا محسنين في عبادة الله تعالى، ومحسنين إلى عباد الله، فالإحسان في عبادة الله تعالى بالإخلاص لله عز وجل والمتابعة للرسول ﷺ كما قال عز وجل ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وقال تعالى ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:١١٢].

وقال ﷺ وقد سئل عن الإحسان: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[١].

والإحسان إلى عباد الله بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة من الوالدين والأولاد والأزواج والأقارب وسائر الناس، وذلك بنوعي الإحسان: القولي والفعلي، من حسن الخلق وطلاقة الوجه وكف الأذى وبذل الندى وغير ذلك قال ﷺ: «من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه»[٢].

وقال الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ... فطالما استعبد الإنسان إحسان

وإن أساء مسيء فليكن لك في ... عروض زلته صفح وغفران[٣]

---

(١) كما في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قصة مجيء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ وسؤاله عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة وأماراتها ـ أخرجه مسلم في الإيمان ٨، وأبو داود في السنة ٤٦٩٥، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٩٠، وابن ماجه في المقدمة ٦٣ وكما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البخاري في الإيمان ٥٠، ومسلم في الإيمان٩، والنسائي في الإيمان ٤٩٩١، وابن ماجه في المقدمة ٦٤.

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة ـ وجوب الوفاء ببيعة الأول فالأول ١٨٤٤، والنسائي في البيعة ٤١٩١، وابن ماجه في الفتن ٣٩٥٦ ـ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما.

(٣) البيتان لأبي الفتح البستي.

وما أسعد من وفقه الله ـ عز وجل ـ إلى الجمع بين الإحسانين: الإحسان في عبادة الله، والإحسان إلى عباد الله قولا وفعلا.

والقرآن الكريم كله، بل التشريع كله في الكتاب والسنة دائر بين الأمر بالإحسانين والنهي عن ضدهما، وبيان حال المحسنين ومآلهم، وحال المسيئين ومآلهم، ولا يطلب من العبد في هذه الحياة إلا أن يكون محسنًا؛ محسنًا في عبادة الله ومحسنًا إلى عباد الله فكن أخي الكريم جامعًا بين الإحسانين وكن في هذه الحياة دائرًا بينهما وأحسن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ هذا تفصيل لما وصفهم الله به من الإحسان في الآية السابقة.

قوله: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ «قليلا» ظرف منصوب بيهجعون، أوصفة للمصدر أي: كانوا يهجعون هجوعًا قليلا، و«ما» صلة للتأكيد، والمعنى: كانوا يهجعون قليلا من الليل أو يهجعون في طائفة قليلة من الليل.

ويجوز كون «ما» مصدرية، والمعنى: كانوا قليلا من الليل هجوعهم.

ويجوز أن تكون «ما» موصولة والمعنى: كانوا قليلا ما يهجعونه، أي الذي يهجعونه.

وقيل «ما» نافيه، والتقدير: كانوا قليلا من الليل ما يهجعونه، بمعنى أن لهم وقتًا قليلا من الليل يقومونه ولا ينامونه أي: أنهم يقومون من الليل شيئًا يسيرًا فقيل: يصلون بين المغرب والعشاء، وقيل: لا ينامون حتى يصلوا العتمة.

وحمل الآية على هذا فيه نظر؛ لأن القيام التام المحمود الذي يستحق أهله الثناء عليهم هو ما كان مثل قيامه ﷺ ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه ـ كما سيأتي بيانه .

وقيل المعنى: أنهم ما يهجعون قليلاً من الليل، فكيف بالكثير منه، بمعنى أنهم يقومون الليل كله. وهذا ضعيف؛ لأن الله عز وجل لم يأمر بقيام الليل كله، وإنما أمر رسوله ﷺ بقيام نصف الليل، أو النقص منه، أو الزيادة عليه قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ١-٤]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء:٧٩]

«ومن» للتبعيض، ولم يقل: فتهجد الليل كله، بل لا يشرع قيام الليل كله ولهذا لما بلغ النبي ﷺ، أن عبد الله بن عمرو كان يقوم الليل كله قال له ﷺ: «إن لنفسك عليك حقًا، ولزوجك عليك حقًا»[(١)].

وأنكر ﷺ على عثمان بن مظعون وأصحابه الذين قالوا: نقوم ولا ننام[(٢)].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وكان يصوم يومًا، ويفطر يومًا»[(٣)].

وهذا كله يدل على ضعف قول من حمل معنى الآية ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ على قيام الليل كله وقد رد ابن القيم هذا من عدة أوجه[(٤)].

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم رضي الله عنه قال: قال رجل من بني تميم لأبي: يا أبا أسامة صفة لا أجدها فينا، ذكر الله قومًا، فقال: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ ونحن والله قليلا من الليل ما نقوم، فقال له أبي: «طوبى لمن رقد إذا نعس، واتقى الله إذا استيقظ»[(٥)].

وفي الآية دلالة على فضل قيام الليل وأنه من أعظم الإحسان؛ لأن الله وصف المتقين بأنهم محسنون، ثم ذكر من أول صفاتهم قيام الليل فدل على أنه من أفضل وأعظم الإحسان، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان، نسأل الله التوفيق.

وقد قام ﷺ حتى تفطرت قدماه[(٦)]، وكان لا يزيد في رمضان، ولا في غيره على

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٧٤، ومسلم في الصيام ١١٥٩، والنسائي في الصيام ٢٣٩١.
(٢) سيأتي تخريجه قريبًا.
(٣) أخرجه البخاري في الصوم ـ حق الأهل في الصوم ١٩٧٧، ومسلم في الصيام ـ النهي عن صيام الدهر ١١٥٩ وأبو داود في الصوم ٢٤٤٨، والنسائي في قيام الليل ١٦٣٠، والترمذي في الصوم ٧٧٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٧١٢
(٤) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٢٢-٢٢٤.
(٥) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٦/ ١٢٣.
(٦) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٣٦ من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ، ومن حديث عائشة رضي الله عنها ٤٨٣٧.

إحدى عشرة ركعة[1]، وكان لا يترك قيام الليل لا حضرًا ولا سفرًا، وإذا غلبه نوم أو وجع صلى من النهار اثنتي عشرة ركعة[2].

وقال ﷺ لابن عمر: «نعم الرجل عبد الله لو كان يقوم من الليل» فكان ابن عمر بعد هذا ما ينام من الليل إلا قليلا[3].

وقال ﷺ لعبد الله بن عمرو: «يا عبد الله لا تكن مثل فلان كان يقوم من الليل فترك قيام الليل»[4].

وعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»[5].

وجاء في الأثر أن أهل قيام الليل يسبقون الناس إلى الجنة على أجاود خيل.

قال بعض السلف: «كابدنا قيام الليل عشرين سنة، وتلذذنا به عشرين سنة».

وقد أحسن القائل:

ولم أجد الإنسان إلا ابن سعيه ... فمن كان أسعى كان بالمجد أجدرا

فلم يتأخر من أراد تقدمًا ... ولم يتقدم من أراد تأخرا[6]

وقال الآخر:

سوف ترى إذا انجلى الغبار ... أفرس تحتك أم حمار

فاحرص أخي بارك الله فيك أن يكون لك حظ مع هؤلاء المتقين المحسنين من قيام الليل ما أمكنك ولو بالتشبه بهم كما قيل:

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ... إن التشبه بالكرام فلاح

---

(١) أخرجه البخاري في صلاة التراويح ٢٠١٣، وأبو داود في الصلاة ١٣٤١، والنسائي في قيام الليل ١٦٩٧، والترمذي في الصلاة ٤٩٣ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) انظر: «زاد المعاد» ١/ ٣٢٤.

(٣) أخرجه البخاري في التعبير ٦٥١٠، ومسلم في فضائل الصحابة ٤٥٢٧، وابن ماجه في تعبير الرؤيا ٣٩٠٩ - من حديث نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري في الجمعة ١١٥٢، ومسلم في الصيام ١١٥٩ - من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه أحمد ٥/ ٤٥١، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٨٥، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٣٤.

(٦) البيتان لابن هانئ انظر (ديوانه) ص ١٤٠.

قال عز وجل في الحديث القدسي : «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»[(١)].

وعلى الأقل فلا تغلب على الوتر بثلاث ركعات.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أوصاني خليلي ﷺ بثلاث: صيام ثلاثة أيام من كل شهر وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام»[(٢)].

وفي الآية رد على الذين يتبتلون فيقومون ولا ينامون قال ﷺ لما بلغه عن عثمان ابن مظعون أنه لا ينام من الليل بعث إليه فجاء، فقال: «يا عثمان أرغبت عن سنتي؟» قال: لا والله يا رسول الله، ولكن سنتك أطلب، قال: «فإني أنام وأصلي، وأصوم وأفطر، وأنكح النساء، فاتق الله يا عثمان، فإن لأهلك عليك حقًا، وإن لضيفك عليك حقًا، وإن لنفسك عليك حقًا، فصم وأفطر، وصل ونم»[(٣)].

وفي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دخل رسول الله ﷺ فإذا حبل ممدود بين الساريتين، فقال: «ما هذا الحبل؟» قالوا: هذا حبل لزينب، فإذا فترت تعلقت به. فقال النبي ﷺ: «لا حلّوه، ليصل أحدكم نشاطه فإذا فتر، فليرقد»[(٤)].

قوله: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:١٧] والأسحار: جمع سحر، وهو آخر الليل، ما قبل طلوع الفجر، وهو وقت إجابة الدعاء كما ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له»[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٠٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٨١، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٧٢١، وأبو داود في الصلاة ١٤٣٢، والنسائي في قيام الليل ١٦٧٧ والترمذي في الصوم ٧٦٠.

(٣) أخرجه أحمد ٦/٢٦٨ ـ من حديث عائشة ـ رضي الله عنها.

(٤) أخرجه البخاري في الجمعة ١١٥٠، ومسلم في صلاة المسافرين ٧٨٤، وأبو داود في الصلاة ١٣١٢، والنسائي في قيام الليل ١٦٤٣، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٧١.

(٥) أخرجه البخاري في الجمعة ١١٤٥ومسلم في صلاة المسافرين ٧٥٨، وأبو داود في الصلاة ١٣١٥، والترمذي في الدعوات ٣٤٩٨، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٦٦، وأخرجه أحمد ١/٣٨٨ بنحوه من حديث ابن مسعود

وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن في الليل ساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله خيرًا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه، وذلك كل ليلة»[١]

وهكذا قال أكثر المفسرين في قول يعقوب عليه السلام ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ [يوسف:٩٨] أنه أخرهم إلى وقت السحر لأنه وقت إجابة الدعاء.

قال الناظم[٢]:

فسوّفهم فيها وأوعدهم بها لوقت إجابات الدعا ساعة السحر

(يستغفرون) أي: يطلبون من الله عز وجل المغفرة لذنوبهم.

والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة عليه كما جاء في حديث ابن عمر في المناجاة[٣].

والمعنى: أنهم يختمون صلاتهم بالليل بالاستغفار بالأسحار والتوبة فباتوا لربهم سجدًا وقيامًا، ثم تابوا إليه واستغفروه عقيب ذلك، فانتقلوا من عبادة إلى عبادة، ومن ذل وخضوع لله عز وجل إلى ذل وخضوع واعتراف بالتقصير وخوف من الذنوب وذلك بالاستغفار والتوبة ولم يُدِلُّوا على الله بعبادتهم، فجمعوا بين الإحسان والخوف، بخلاف من جمع بين الإساءة والأمن من مكر الله ـ والعياذ بالله ـ كما هو حال كثير من الناس ـ والله المستعان.

والاستغفار من أفضل الأعمال وبه تحط الذنوب والأوزار، وهو لا يحتاج إلى كلفة وتعب مع أنه عظيم المقدار وهو ختام الأعمال والأعمار.

فعن ثوبان رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثًا وقال: «اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام»[٤].

وأمر الله رسوله ﷺ أن يختم عمره بالاستغفار في قوله ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ

=

رضي الله عنه.

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٧٥٧.

(٢) يحيى الصرصري في قصيدته المسماة «القصيدة الصرصرية» ص٤٥.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه مسلم في المساجد ٥٩١، وأبو داود في الصلاة ١٥١٢، والترمذي في الصلاة ٣٠٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٩٢٨.

﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١ - ٣]. وفي هذا أمر لكل مسلم أن يختم عمره بالاستغفار.

كما أمر الله - عز وجل - المؤمنين أن يختموا إفاضتهم من عرفات بالاستغفار في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾ [البقرة:١٩٩].

وشرع للمتوضئ أن يختم وضوءه بالتوبة لما رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من توضأ فأحسن الوضوء، ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء»[١].

قال ابن القيم[٢]: «فأحسن ما ختمت به الأعمال التوبة والاستغفار».

﴿وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ بعدما وصف الله عز وجل المتقين المحسنين بالصلاة والاستغفار وهذا إحسان فيما بينهم وبين الله - عز وجل - ثنى بوصفهم بالزكاة والصدقة والبر والصلة، وفي هذا إحسان إلى عباد الله، فقال:﴿وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ أي: نصيب واجب مقدر مقسوم قد أفرزوه للسائل والمحروم. والسائل: هو الذي يبتدئ بالسؤال وله حق، كما جاء في الحديث: «للسائل حق وإن جاء على فرس»[٣].

والمحروم: المتعفف الذي لا يسأل الناس كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان، ولا اللقمة ولا اللقمتان، إنما المسكين الذي لا يسأل الناس، ولا يُفطن له فيُتصدق عليه».

وفي بعض الروايات: «إنما المسكين الذي يتعفف، واقرؤوا إن شئتم يعني قوله: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾»[٤].

(١) أخرجه النسائي في الطهارة ١٤٨، والترمذي في الطهارة ٥٥، وابن ماجه في الطهارة ٤٧٠.
(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٢٥.
(٣) أخرجه أحمد ١/ ٢٠١ وأبو داود في الزكاة - باب حق السائل ١٦٦٥، من حديث علي وابنه الحسين رضي الله عنهما.
(٤) أخرجه البخاري في التفسير ٤٥٣٩، ومسلم في الزكاة - باب المسكين الذي لا يجد غنى ولا يفطن له فيتصدق عليه ١٠٣٩، وأبو داود في الزكاة ١٦٣١، والنسائي في الزكاة ٢٥٧١.

فالمحروم الذي لا يسأل الناس وليس له سهم في بيت المال ولم تتيسر له أسباب الكسب وهو المحارف الذي قُتّر عليه رزقه، وتعسرت في وجهه سبل الرزق.

وسمي بـ«المحروم»؛ لأنه حرم الرزق كونًا وقدرًا كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ [الفجر:١٦]، أي: ضيق عليه رزقه.

قال ابن القيم[1]: «ثم أخبر سبحانه عن إحسانهم إلى الخلق مع إخلاصهم لربهم فجمع لهم بين الإخلاص والإحسان ضد ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٥، ٦] وأكد إخلاصهم في هذا الإحسان بأن مصرفه للسائل الذي لا يقصد بإعطائه الجزاء منه ولا الشكور، والمحروم المتعفف الذي لا يسأل. وتأمل حكمة الرب تعالى في كونه حرمه بقضائه، وشرع لأصحاب الجِدَة إعطاءه، وهو أغنى الأغنياء، وأجود الأجودين، فلم يجمع له بين الحرمان بالقدر وبالشرع، شرع إعطاءه بأمره وحرمه بقدره، فلم يجمع عليه حرمانين»[2].

وفي قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ إضافة إلى كونه ثناءً على المحسنين ببذل الزكاة والصدقة والنفقات ترغيب وحث على هذا العمل لما فيه من الإحسان إلى عباد الله، وأن هذا العمل من صفات المحسنين الذين جمعوا بين الإحسانين الإحسان في عبادة الله والإحسان إلى عباد الله.

وفي قوله: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ ما يدل على مشروعية الإنفاق من جميع ما يتموله الإنسان من أي أصناف المال كان لكن الزكاة إنما تجب في الأموال الزكوية، كما دلت على ذلك السنة، وهي: النقدان وعروض التجارة، والسائمة من بهيمة الأنعام، والخارج من الأرض من الحبوب ونحوها.

وفي قوله «حق» دليل على وجوب الزكاة. وتحديد أنصبتها ومقدارها كما دلت على ذلك السنة. وفي مقابلة السائل بالمحروم ما يدل على جواز السؤال عند الحاجة.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٢٥.

(٢) كما يقال للبخيل «محروم» لأنه حُرم قدرًا وكونًا بحرمانه لنفسه بخلا، وما أمر شرعًا بذلك بل نهي شرعًا عن البخل.

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

في هتين الآيتين الكريمتين تذكير الخلق بآيات الله الكونية في الأرض وفي الأنفس الدالة على كماله في ذاته وأسمائه وصفاته واستحقاقه للعبادة دون من سواه، وأن ما جاء به الرسول ﷺ والمرسلون قبله من الوحي والوعد والوعيد وتقرير المعاد كل ذلك حق من عند الله عز وجل.

وآيات الله عز وجل تنقسم إلى قسمين آيات شرعية، وهو ما أنزله من الوحي على أنبيائه ورسله، وآيات كونية في الكون والأنفس وسائر المخلوقات، والمراد بالآيات هنا الآيات الكونية أي: تأملوا وتفكروا وانظروا واعتبروا بهذه الآيات العظيمة في الأرض وفي الأنفس الدالة على وجود الخالق وعظمته وكماله في ذاته وأسمائه وصفاته وربوبيته وألوهيته كما قال عز وجل ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [يونس:١٠١]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٦-٨].

قال الشاعر:

فوا عجبًا كيف يُعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

والموقنون: هم أهل الإيمان واليقين، واليقين أعلى درجات الإيمان، وهو التصديق الجازم.

وهي آيات لجميع الخلق فيها إقامة الحجة عليهم - مع إرسال الرسل وإنزال الكتب. وإنما خص الموقنين بالذكر؛ لأنهم هم الذين يتفكرون ويتأملون في آيات الله ويتعظون ويعتبرون كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية:٣] بخلاف من لا يقين عنده ولا إيمان فلا ينتفع بالآيات كما قال عز وجل ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف:١٠٥].

وآيات الله في الأرض أنواع كثيرة لا تحصى منها: خلقها وما فيه من العظمة كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران:١٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [الشورى: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [العنكبوت:٤٤].

ومنها تعددها كما قال عز وجل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢].

ومنها تثبيتها بالجبال لئلا تميد بأهلها، كما قال عز وجل: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل:١٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١].

ومنها: سعتها كما قال عز وجل ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ [الزمر:١٠]، وقال تعالى ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ [العنكبوت:٥٦]، وقال تعالى:﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ [الحجر:١٩، ق: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ [الرعد: ٣].

ومنها كونها مسطحة مع أنها في الحقيقة كروية الشكل قال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية:٢٠].

ومنها كونها مهادًا وفراشًا وبساطًا وقرارًا كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه:٥٣]، [الزخرف:١٠]، وقال تعالى ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ [النبا:٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات:٤٨]، وقال تعالى ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة:٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح:١٩-٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ [الشمس:٦]، وقال تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [النمل:٦١]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [غافر:٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [الرحمن:١٠]،

وقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة:٣٦]، [الأعراف:٢٤].

ومنها كونها ذلولاً كما قال عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

ومنها إنشاء الخلق وإنباتهم منها وإعادتهم فيها وإخراجهم منها كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١]، وقال تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: ١٧، ١٨] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ [المرسلات: ٢٥، ٢٦].

ومنها ما أودعه الله ودحاه فيها كما قال عز وجل: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات:٣٠-٣٢].

ومنها: إسكان الماء فيها لمصالح الإنسان والحيوان والنبات كما قال عز وجل: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨].

ومنها: إحياؤها بعد موتها وما أخرجه الله منها من النبات والجنات والماء والمرعى، كما قال عز وجل: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۝ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ۝ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس:٣٣-٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج:٥]، وقال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم:٥٠]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء:٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [ق:٧]، وقال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد:٤]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق:٩-١١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً

فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ [لقمان:١٠].

ومن آياتها أنها تسبح لله عز وجل كما قال سبحانه ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ [الإسراء: ٤٤].

إلى غير ذلك من آيات الله ـ عز وجل ـ في الأرض والتي لا تحصى كثرة ولا نوعًا، من ذلك ما يحصل لها يوم القيامة من الارتجاج والارتجاف والدك والزلزلة والبروز والتبديل وغير ذلك.

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله أنواعًا كثيرة من آيات الأرض منها: «بروز هذا الجانب فيها عن الماء مع كون مقتضى الطبيعة أن يكون مغمورًا به.

قال:

فيالك من آيات حق لو اهتدى بهن مُـريدُ الحق كنَّ هواديـــا

ولكن على تلك القلوب أكنـةٌ فليست وإن أصغت تجيب المناديا»

إلى آخر ما قال رحمه الله في كلام طويل يحسن الوقوف عليه[١]

قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾ أي: وفي أنفسكم آيات ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ الاستفهام معناه الأمر، وفيه أيضًا معنى التوبيخ والتقريع، أي: لم لا تبصرون، أي: تبصروا وتفكروا في أنفسكم وما فيها من دقيق الخلقة وبديع الصنع، وعظيم التدبير، وما ركبت منه من الأعضاء والعظام والأعصاب والعروق واللحم والدم والحواس من السمع والبصر والعقول وغير ذلك قال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۖ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ [الملك:٢٣]،

وقال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِهِۗ﴾ [الأنعام:٤٦].

وأيضًا تبصروا وتفكروا فيما بين الناس من الاختلاف العظيم في ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم وما جبلوا عليه، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم والحركات، وما في تركيبهم من الحكم في وضع كل عضو في المكان الذي هو محتاج إليه فيه قال قتادة: «من

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٣٠.

تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة»[1].

﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ السماء هي: التي في العلو.

والرزق: هو العطاء، والمراد به عطاء الدنيا من المطر الذي هو رحمة من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ [الروم: ٥٠]، وكذا غيره من أنواع الرزق المقدرة لهم بقدر الله الكوني النازل من السماء من الأموال والأولاد والصحة وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

وقيل: إن الرزق يشمل عطاء الآخرة والذي هو أعظم عطاء، وهو نعيم الجنة التي هي رحمة الله تعالى كما قال عز وجل في الحديث القدسي للجنة «أنت الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي»[2].

قال ابن القيم[3] بعد ما ذكر أن الرزق فسر بالمطر، وفسر بالجنة، وفسر برزق الدنيا والآخرة قال: «ولا ريب أن المطر من الرحمة، وأن الجنة مستقر الرحمة، فرزق الدارين في السماء التي هي في العلو».

﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ «ما» موصولة، أي: والذي توعدون من أمر الساعة والقيامة والجنة وما فيها من الخير والنعيم والثواب، والنار وما فيها من الشر والعذاب والعقاب وغير ذلك.

قال ابن القيم[4]: «كون الجنة والخير في السماء لا إشكال فيه، وكون النار في السماء وما يوعد به أهلها يحتاج إلى تبيين، فإذا نظرت إلى أسباب الخير والشر، وأسباب دخول الجنة والنار وافتراق الناس، وانقسامهم إلى شقي وسعيد، وجدت ذلك كله بقضاء الله وقدره، النازل من السماء، وذلك كله مثبت في السماء في صحف الملائكة وفي اللوح المحفوظ قبل العمل وبعده، فالأمر كله من السماء».

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير» ٧/ ٣٩٦.
(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٥٨٠، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٤٦ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٣٤.
(٤) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٣٤.

وقال أيضًا[1] بعدما ذكر قول مجاهد في قوله ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾: «الجنة والنار» قال: وهذا يحتاج إلى تفسير فإن النار في أسفل السافلين ليست في السماء، ومعنى هذا ما قاله في رواية ابن أبي نجيح عنه، وقاله أبو صالح عن ابن عباس «الخير والشر كلاهما يأتي من السماء»[2].

﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الفاء: عاطفة، والواو للقسم والمقسم به رب السماء، فأقسم عز وجل بنفسه. والمراد بالسماء والأرض السموات السبع والأرضون السبع وهكذا إذا ذكرا معًا فالغالب أن يراد بذلك أجرام السموات والأرض قال عز وجل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق:١٢].

وجواب القسم قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ ومرجع الضمير في قوله: (إِنَّهُۥ) إلى ما وعدوا به من القيامة والبعث والجزاء على الأعمال.

﴿لَحَقّٞ﴾ أي: إنه كائن لا محالة وحق وصدق لا مرية فيه ولا شك، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي صدقًا في الأخبار وعدلا في الأحكام.

﴿مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ مثل: شبه و(ما) مصدرية، أي: مثل نطقكم، والنطق: الكلام.

أي: لصدق وحق واقع مثل كونكم تنطقون وتتكلمون، فكما لا يخالج الإنسان أدنى شك في نطقه، فكذلك ما أخبر الله عنه من أمر التوحيد والنبوة والمعاد والجزاء على الأعمال حق ثابت وواقع لا شك فيه، كما يقال: هذا حق مثل الشمس.

قال الشاعر:

وليس يصح في الأفهام شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

وما أحسن قول المتنبي في مدح الحسين بن إسحاق التنوخي، وكان أحد الوشاة قد هجاه في قصيدة ونسبها للمتنبي؛ فكتب إليه أبو الطيب قصيدة منها قوله:

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٣٧.

(٢) انظر: «جامع البيان» ٢١/ ٥٢٢.

وهبني قلت هذا الصبح ليل أيعمى العالمون عن الضياء[١]

قال ابن القيم[٢]: «وههنا أمر ينبغي التفطن له، وهو أن الرب تعالى شهد بصحة ما أخبر به، وهو أصدق الصادقين، وأقسم عليه، وهو أبر المقسمين، وأكده بتشبيهه بالواقع الذي لا يقبل الشك بوجه، وأقام عليه من الأدلة العيانية والبرهانية ما جعله معاينًا مشاهدًا بالبصائر، وإن لم يعاين بالأبصار، ومع ذلك فأكثر النفوس في غفلة عنه لا تستعد له، ولا تأخذ له أهبة، والمستعد له الآخذ له أهبة لا يعطيه حقه منهم إلا الفرد بعد الفرد، فأكثر الخلق لا ينظرون في المراد من إيجادهم وإخراجهم إلى هذه الدار، ولا يتفكرون في قلة مقامهم في دار الغرور ولا في رحيلهم وانتقالهم عنها، ولا إلى أين يرحلون؟ وأين يستقرون؟ قد ملكهم الحس، وقل نصيبهم من العقل، وشملتهم الغفلة، وغرتهم الأماني، التي هي كالسراب، وخدعهم طول الأمل..

والعجب كل العجب من غفلة من تعد عليه لحظاته، وتحصى عليه أنفاسه، ومطايا الليل والنهار تسرع به، ولا يتفكر إلى أين يحمل، ولا إلى أي منزل ينقل

وكيف تنام العين وهي قريرة ولم تدر في أي المحلين تنزل؟».

وصدق ابن القيم -رحمه الله- في نظرته لواقع الناس، وهذا مصداق قول الله عز وجل: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ﴾ [ص:٢٤].

وأَمَر الله عز وجل آدم لما استخرج ذريته أن يامر من كل ألف بواحد للجنة والبقية إلى النار[٣]. وفي الحديث «الناس كإبل مائة لا يوجد فيها راحلة»[٤] وقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «لا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين ولا تستوحش من

---

(١) انظر «ديوان المتنبي» ص ٩ دار إحياء التراث العربي - بيروت.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٣٥-٢٣٦.

(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٣٤٨، ومسلم في الإيمان٢٢٢ - من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٩٨، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٥٤٧، والترمذي في الأمثال٢٨٧٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٩٠ - من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

الحق لقلة السالكين».

وقال الشاعر:

والناس ألف منهم كواحد ... وواحد كالألف إن أمر عنى[1]

الفوائد والعبر:

١ ـ جمع القرآن الكريم بين الترغيب والترهيب.

٢ ـ عظم ما أعده الله للمتقين في الجنات والعيون من جزيل العطاء والنعيم.

٣ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة للمتقين.

٤ ـ ثناء الله ـ عز وجل ـ على المتقين، الذين جمعوا بين تقوى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، والإحسان في عبادته وإلى عباده.

٥ ـ الترغيب في الإحسان في عبادة الله وإلى عباد الله، وفي قيام الليل والاستغفار بالأسحار، والسنة في ذلك أن ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه.

٦ ـ وجوب إخراج زكاة الأموال وإعطائها لمستحقيها، واستحباب الصدقة والإحسان إلى المحتاجين من سائل ومتعفف.

٧ ـ الإشارة إلى جواز السؤال عند الحاجة.

٨ ـ الحث على التأمل في آيات الله ـ عز وجل ـ في الكون؛ في الأرض، وفي الأنفس.

٩ ـ إنما يتأمل في آيات الله في الأرض وفي غيرها ويتفكر فيها أهل اليقين.

١٠ ـ أن رزق الخلائق كلهم من السماء من عند الله ـ عز وجل ـ بالمطر وغيره.

١١ ـ أن الجنة في السماء، وأن كل ما يوعد به الخلق من خير أو شر بقضاء الله ـ عز وجل ـ النازل من السماء.

١٢ ـ إقسام الله ـ عز وجل ـ بنفسه وهو رب السماء والأرض للخلائق على أن البعث والحساب والجزاء على الأعمال حق، وأن ذلك حق كنطقهم.

---

(١) البيت لابن دريد انظر «ديوانه» ص١٣٢.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾.

ذكر الله عز وجل قصة ضيف إبراهيم عليه السلام في سورة «هود» و«الحجر» وفي هذه السورة.

قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ «هل» للاستفهام ومعناه التشويق، أو التقرير، أي: ألم يأتك. وقيل: «هل» هنا بمعنى «قد» التي تقتضي التحقيق والتوكيد كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١]، أي: قد أتى على الإنسان. وإنما صدر الكلام بالاستفهام للعناية والاهتمام والتشويق، والتقرير، وتنبيه المخاطب للتدبر والتفكر فيما سيخاطب به لما له من الأهمية، أو لما فيه من الموعظة أو العجب ونحو ذلك كما قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ [طه:٩] وقوله: ﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ [ص:٢١]، وقوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾ [الغاشية:١].

كما أن في تصدير الخطاب له ﷺ بقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ التنبيه على أن إتيان هذا إليه ﷺ علم من أعلام نبوته أي: إن هذا من الغيب الذي لا تعلمه أنت ولا قومك فهل أتاك من غير إعلامنا وإرسالنا وتعريفنا لك؟ أي: إنه لم يأتك إلا من قبلنا، كما قال عز وجل: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ﴾ [هود: ٤٩].

﴿حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: خبر وقصة ونبأ ضيوف نبي الله ورسوله إبراهيم عليه السلام من الملائكة وإبراهيم هو خليل الرحمن، وأبو الأنبياء عليهم السلام، فكل من جاء بعده من الأنبياء من ذريته، أولهم بكره إسماعيل بن إبراهيم من سريته هاجر، وهو أبو العرب، ومن ذريته نبينا محمد ﷺ. ومنهم إسحاق بن إبراهيم من زوجته سارة. وهو أبو بني إسرائيل.

﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ أي ذوي الكرامة عند الله عز وجل كما قال عز وجل: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦].

ويحتمل المكرمين عند إبراهيم عليه السلام. ولا تنافي بين القولين، فضيوفه عليه السلام مكرمون عند الله، ومكرمون عنده، وهذا وذاك يدل على فضله عليه السلام.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ إذ: ظرف بمعنى حين، أي: حين دخلوا عليه. ولم يذكر استئذانهم وطرقهم للأبواب مما يدل على كرم إبراهيم عليه السلام، وأن أبواب بيته مفتوحة للضيفان وليس عليها حراس ولا حجاب.

قال ابن القيم[1]: «قوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ فلم يذكر استئذانهم، ففي هذا دليل على أنه عليه السلام كان قد عرف بإكرام الضيفان واعتياد قِراهم، فبقي منزله مضيفة مطروقًا لمن ورده، ولا يحتاج إلى استئذان، بل استئذان الداخل دخوله، وهذا غاية ما يكون من الكرم».

﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أي: نسلم عليك سلامًا، أو سلمنا عليك سلامًا.

﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ أي: سلام عليكم. ورده عليهم أبلغ وأكمل وأحسن وأفضل من سلامهم عليه، فقوله: (سَلامٌ) بالرفع، والتقدير: سلام عليكم، أي سلام دائم أو ثابت لأن الجملة الاسمية تقتضي الثبوت والدوام واللزوم بينما سلامهم عليه بقولهم: (سَلامًا) أي: نسلم عليك سلامًا، أو سلمنا عليك سلامًا جملة فعلية والجملة الفعلية تقتضي التجدد والحدوث فقط ولا تدل على الثبوت والدوام واللزوم كالجملة الاسمية.

﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ قال ابن كثير[2]: «وذلك أن الملائكة وهم: جبريل وإسرافيل وميكائيل قدموا عليه في صور شباب حسان عليهم مهابة عظيمة».

وذكر ابن القيم أن مما يدل على كرم إبراهيم عليه السلام أنه حذف المبتدأ من قوله: ﴿ قَوْمٌ مُنكَرُونَ﴾ فإنه لما أنكرهم ولم يعرفهم احتشم من مواجهتهم بلفظ ينفر الضيف لو قال: أنتم قوم منكرون، فحذف المبتدأ هنا من ألطف الكلام. وكان رسولنا محمد ﷺ لا يواجه أحدًا بما يكرهه بل يقول «ما بال أقوام يقولون كذا ويفعلون

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٣٧.
(٢) في «تفسيره» ٧/ ٣٩٧.

كذا[١]».

وقال «منكرون» بالبناء للمفعول وحذف الفاعل، ولم يقل إني أنكركم.

قال ابن القيم[٢]: «وهو أحسن في هذا المقام وأبعد من التنفير والمواجهة بالخشونة» وهو الذي أنكرهم كما قال في سورة هود (نكرهم) [الآية: ٧٠].

وعدم مواجهة المخاطبين بما يكرهون تعبير جاء به القرآن والسنة ينبغي للمسلم الأخذ به في مخاطباته، وفرق بين قول القائل:

فاقسم أن لو التقينا وأنتُمُ ... لكان لكم يوم من الشر مظلم[٣]

وبين أن يقول: لكان لكم يوم من الخير نيِّر.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ ذهب وانسل مسرعًا خفية بحيث لا يكاد يشعر به، وهذا من كرم الضيافة أن يذهب المُضيف خفية بحيث لا يشعر به الضيف فيشق عليه ويستحي، فلا يشعر الضيف إلا وقد جاءه رب المنزل بالطعام، بخلاف من ينادي بالإتيان بالطعام وضيفه يسمع أو يستشير الضيف فيما يأتي به من الطعام مما يجعل الضيف يستحي ويخجل ويحتشم وربما تعذر عن الأكل، وأبدى أنه لا حاجة له في الطعام حياءً وقد قالوا في المثل «من شاور ما أعطى».

وقوله: ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ يدل على أنه مستعد متهيء للضيفان فلم يحتج إلى الذهاب إلى السوق أو إلى الجيران أو غيرهم ليشتري أو يستقرض ونحو ذلك.

---

(١) أخرج البخاري في الأيمان والنذور ـ عن أبي حميد الساعدي ـ رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ يقول: «فما بال العامل نستعمله فيأتينا فيقول هذا من عملكم وهذا أهدي إلي....» ٦٦٣٦. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما قال: «قام النبي ﷺ خطيباً فقال: «بلغني أن أقواماً يقولون كذا وكذا....» أخرجه البخاري في الشركة ٢٥٠٦. وعن أنس ـ رضي الله عنه في قصة الذين أرادوا التبتل أنه ﷺ قال «ما بال أقوام يقولون كذا وكذا، لكني أصلي وأنام وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني» أخرجه البخاري في النكاح ٥٠٦٣، ومسلم في النكاح ١٤٠١.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٣٨، ٢٤٢.

(٣) دخل أحد الأساتذة الزوار على الطلاب في إحدى القاعات في كلية الشريعة فكتب هذا البيت على السبورة ليختبر فطنة وذكاء الطلاب، وطلب منهم من يقرؤه قراءة صحيحة، فقام عدد من الطلاب الواحد تلو الآخر كل منهم يقرؤه كما كتب، ويرد عليهم الزائر بعدم صحة القراءة، حتى قام أحد الطلاب الأذكياء فقال:

فاقسم أن لو التقينا وأنتم ... لكان لكم يوم من الخير نيِّر

فشكره الزائر على فطنته وذكائه.

وقوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٖ سَمِينٖ﴾ يدل على خدمته عليه السلام لضيوفه بنفسه فلم يأمر من يأتي بالطعام من خادم أو غيره، وهذا أبلغ في الإكرام.

والعجل: هو ولد البقر، والذي يعد لحمه من ألذ وأنفع اللحوم، ومن كرمه عليه السلام أنه جاءهم بالعجل كاملا لا ببعضه.

واختار لهم العجل السمين الذي هو من خيار ماله، كثير اللحم والشحم، ولذيذ الطعم، ولم يُبْقِ هذا له ويختار لهم الهزيل.

وفي سورة هود: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾ [الآية:٦٩] أي: مشوي على الرضف، وهي الحجارة المحماة بالنار.

﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ أي: أدنى لهم هذا العجل المشوي هو بنفسه ولم يأمر من يقدمه لهم من خادم أو غيره، ولم يأمرهم أن يقوموا ويقربوا إليه وهذا كرم منه وتلطف مع ضيوفه، وهذا لاشك أبلغ في الإكرام.

ونرى المدنية الحديثة عكست الأمر إيثارًا للراحة ونحو ذلك، بل ربما يعد من العيب عند البعض أن يقدم الطعام للضيف في مكان جلوسه، فهذا مجلس للقهوة، وللطعام مكان خاص، بل ربما ترك الضيف يخدم نفسه كما يفعله المنخدعون بالمدنية الزائفة، ويقولون للضيف: اخدم نفسك بنفسك.

﴿قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ عَرْض حسن وتلطف بالقول ليأكلوا ولم يقل لهم «كلوا» تلطفًا معهم في القول، ولم يكن ضيوفه يحتاجون إلى الإذن في الأكل، بل كان إذا قدم لهم الطعام أكلوا، ولما امتنع هؤلاء الضيوف من الأكل لأن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون، لأنهم من صمد ليس لهم أجواف، قال لهم: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾.

واستدل بالآية على مشروعية إكرام الضيف وقد ذهب الإمام أحمد وطائفة من العلماء إلى وجوب الضيافة للنزيل[1]، وعلى ذلك دلت السنة.

قال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»[2].

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير» ٧/ ٣٩٧.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠١٨، ومسلم في الإيمان ٤٧ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ﴾ اي: لما لم ياكلوا أوجس في نفسه منهم خيفة، كما قال عز وجل في سورة هود: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ﴾ [الآية:٧]، أي: أحس وأضمر في نفسه منهم تخوفا، كما هي عادة العرب إذا نزل بهم ضيف وأبى أن يمالح، أي: أبى أن يأكل من طعامهم خافوا أنه إنما جاء لشر، فإذا أكل من طعامهم اطمأنوا إليه وأمنوا من أن يغدر بهم.

قال ابن القيم[1]: «لما رآهم لا يأكلون من طعامه أضمر منهم خوفا أن يكون معهم شر، فإن الضيف إذا أكل من طعام رب المنزل اطمأن إليه وأنس به».

لكن عندما يضعف وازع الدين، ويتجرد البعض من الشيم والعادات والتقاليد والأخلاق الكريمة الطيبة فإنه قد يأكل من طعام القوم ويغدر بهم وهذا في منتهى الخسة والدناءة.

﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ﴾ أي: قال ضيوفه من الملائكة لما عرفوا ما وقع في نفسه من الخوف لما امتنعوا من الأكل ﴿لَا تَخَفۡۖ﴾.

﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ البشارة: الإخبار بما يسر ويفرح مأخوذ من البشرة، لأن الإنسان عندما يسمع بخبر سار تنبسط بشرته ويظهر ذلك على وجهه.

والغلام هو المولود الذكر (عليم) أي: يكون ذا علم بما يمنحه الله من النبوة والمراد به إسحاق عليه السلام، كما صرح به في بشارة زوج إبراهيم عليه السلام سارة عليها السلام؛ لأن هذا الولد منها فكل منهما مبشر به، قال تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ [هود:٧١]، كما بُشر إبراهيم عليه السلام قبل ذلك بإسماعيل عليه السلام من سريته هاجر استجابة لدعائه عليه السلام حين قال: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ قال تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ﴾ [الصافات: ١٠٠، ١٠١].

قال ابن القيم[2]: «وهذا الغلام إسحاق لا إسماعيل؛ لأن امرأته عجبت من ذلك فقالت: عجوز عقيم لا يولد لمثلي، فأنى لي بالولد وأما إسماعيل فإنه من سريته

---

(١) انظر «الرسالة التبوكية» ص٧٩، «بدائع التفسير» ٤/ ٢٤٣.
(٢) انظر «الرسالة التبوكية» ص٨٠، «بدائع التفسير» ٤/ ٢٤٤.

هاجر، وكان بكره وأول ولده».

وقد استدل ابن القيم[1] بهذه الآيات على عظيم كرم إبراهيم عليه السلام من خمسة عشر وجهاً ثم قال: «فقد جمعت هذه الآية آداب الضيافة التي هي أشرف الآداب، وما عداها من التكلفات التي هي تخلف وتكلف إنما هي من أوضاع الناس وعوائدهم وكفى بهذه الآداب شرفًا وفخرًا».

وقال ابن كثير[2]: «وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة، فإنه جاء بطعامه من حيث لا يشعرون بسرعة ولم يمتن عليهم أولاً، فقال: نأتيكم بطعام؟ بل جاء به بسرعة وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجل فتيّ سمين مشوي، فقربه إليهم، لم يضعه وقال: اقتربوا، بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمرًا يشق على سامعه بصيغة الجزم، بل قال: (ألا تأكلون)؟ على سبيل العرض والتلطف، كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق فافعل».

﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ﴾: سارة ﴿فِى صَرَّةٍ﴾ في صرخة عظيمة ورنة شديدة وهي قولها: يا ويلتي.

﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ ضربت وجهها ندبة عند سماع هذا الخبر. ولطمته تعجبًا كما تتعجب النساء من الأمر الغريب.

قال ابن القيم[3]: «فيه بيان ضعف عقل المرأة وعدم ثباتها، إذ بادرت إلى الندبة فصكت الوجه عند هذا الإخبار».

﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي: كيف ألد وأنا الآن عجوز، وقد كنت قبل ذلك في شبابي وفي صباي عقيمًا.

فذكرت لتعجبها من الولادة سببين: الأول أنها عجوز، أي كبيرة السن، بلغت سن الإياس فلا تحبل، والسبب الثاني أنها كانت قبل ذلك عقيما، ومن حسن الأدب اقتصرت في خطابها على ما تدعو الحاجة إليه بقولها: «عجوز عقيم» مع حذف المبتدأ

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٣٧-٢٣٩.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٣٩٧-٣٩٨.

(٣) في «الرسالة التبوكية» ص٨٠، وانظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٤٤.

فلم تقل: أنا عجوز عقيم.

وقال في سورة هود: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ۝ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ۝ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [الآيتان:٧٢، ٧٣].

فذكرت السبب المانع منها ومن إبراهيم وصرحت بالعجب.

﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ أي: قالت لها الملائكة: كذلك قال ربك، بأنه سيولد لكما غلام عليم. وفي هذا إثبات صفة القول لله عز وجل. وفي إضافة «رب» إلى ضميرها في قوله (ربك) تشريف وتكريم لها وعناية بها، لأن المراد بالربوبية هنا الربوبية الخاصة.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ «الحكيم» و«العليم» اسمان من أسماء الله عز وجل، كل منهما على وزن «فعيل» و«الحكيم»: مأخوذ من الحكم بأقسامه الثلاثة: الكوني والشرعي والجزائي، ومن الحكمة بقسميها: الحكمة الغائية والحكمة الصورية، يدل على أنه عز وجل ذو الحكم التام النافذ، والحكمة البالغة.

و«العليم» مأخوذ من العلم وهو إدراك الأشياء على ما هي عليه إدراكًا جازمًا.

يدل على أنه عز وجل ذو العلم الواسع كما قال عز وجل: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه:٩٨] فهو عز وجل ذو الحكم والحكمة والعلم فيما خلق وفيما أمر وشرع.

وقدّم في هذه الآية «الحكيم» على «العليم» مع أن الغالب في القرآن العكس، وذلك ـ والله أعلم ـ للتأمل في حكمة الله ـ عز وجل ـ في عدم ولادة سارة في شبابها، ومن ثم ولادتها بعد أن صارت عجوزاً واعتقدت أنها عقيم.

قال ابن القيم[1]: «والعلم والحكمة متضمنان لجميع صفات الكمال فالعلم يتضمن الحياة ولوازم كمالها من القيومية والقدرة والبقاء والسمع والبصر، وسائر الصفات التي يستلزمها العلم التام، والحكمة تتضمن كمال الإرادة والعدل والرحمة

---

(١) في «الرسالة التبوكية» ص٨٠-٨١، وانظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٤٤.

والإحسان والجود والبر، ووضع الأشياء على أحسن وجوهها، وتتضمن إرسال الرسل وإثبات الثواب والعقاب».

الفوائد والعبر:

١ ـ تصدير الخطاب بالاستفهام للعناية والتنبيه والاهتمام.
٢ ـ تشريف النبي ﷺ وتكريمه بتوجيه الخطاب له.
٣ ـ تحقيق وإثبات مجيء ضيوف إبراهيم عليه السلام من الملائكة وهم جبريل وإسرافيل وميكائيل على صورة شباب حسان من بني آدم، وما جرى بينهم وبين إبراهيم عليه السلام.
٤ ـ عظم منزلة هؤلاء الملائكة، وأنهم مكرمون عند الله ـ عز وجل ـ، ومكرمون عند نبيه إبراهيم عليه السلام.
٥ ـ مشروعية السلام ورده، وأن رد إبراهيم أبلغ من سلام الملائكة.
٦ ـ كرم إبراهيم عليه السلام وأن منزله كان موئلاً للضيفان بلا استئذان.
٧ ـ جواز أن يبين صاحب المنزل للضيف أنه لم يعرفه تدرجاً معه في الكلام وإيناساً له.
٨ ـ شدة كرم إبراهيم عليه السلام، وخدمته لضيوفه بنفسه، وتلطفه معهم في القول.
٩ ـ أن من كرم الضيافة مبادرة الضيف بما يستحقه من الضيافة، والتلطف معه في الحديث وتقريب أجود الطعام له، وخدمته.
١٠ ـ ينبغي للضيف طمأنة المضيف بالأكل مما يقدم له إزالة للوحشة ولئلا يظن أنه إنما جاء لشر.
١١ ـ طمأنة ضيوف إبراهيم عليه السلام له وبيان أنهم ملائكة من عند الله، وبشارتهم له بإسحاق نبيا من الصالحين.
١٢ ـ تعجب امرأة إبراهيم عليه السلام «سارة» من كونها تلد وهي عجوز كبيرة وقد كانت في صباها عقيما.
١٣ ـ ضعف عقل المرأة إذ سارعت إلى الندبة ولطم وجهها.
١٤ ـ إثبات القول لله ـ عز وجل ـ. وإثبات ربوبيته الخاصة لأوليائه.
١٥ ـ إثبات اسمين من أسماء الله ـ عز وجل ـ وهما «الحكيم» و «العليم» وإثبات صفة الحكم النافذ والحكمة البالغة والعلم الواسع له ـ عز وجل ـ.
١٦ ـ إثبات كمال قدرة الله ـ عز وجل ـ على إيجاد مولود على خلاف الأسباب المعتادة.

﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ۝ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝﴾.

قوله: ﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ اي: قال إبراهيم عليه السلام لضيوفه من الملائكة ـ بعد أن طمأنوه وبشروه بغلام عليم ـ وعرف أنهم ملائكة مرسلون من عند الله قال لهم: فما خطبكم أيها المرسلون أي: ما شأنكم، وما الأمر الذي جئتم من أجله؟

وكان من أدبه عليه وعلى نبينا وجميع المرسلين الصلاة والسلام، أنه لم يلاطف ضيوفه ويبادرهم بالسؤال عن شأنهم، وسبب مجيئهم، بل بادرهم بالحفاوة والإكرام، ليأنسوا وتنشرح صدورهم، وهكذا ينبغي أن يفعل مع الضيف.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ اي: بينوا له الهدف الذي جاؤوا من أجله فقالوا: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾، يعنون قوم لوط الذين عصوا نبي الله لوطًا عليه السلام، وارتكبوا الجريمة العظمى والفاحشة الكبرى: اللواط قال عز وجل حكاية عن قول لوط لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦]، وقال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨٠، ٨١].

ولم يصرحوا بالمرسِل لهم ـ وهو الله عز وجل ـ تأدبًا مع الله سبحانه وتعالى، لأنهم مرسلون بالعذاب وهذا كما في قوله ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]. وقوله ﷺ «والشر ليس إليك»[1].

و«مجرمين»: جمع مجرم، وهو مرتكب الجرائم، ووصفوا بذلك لارتكابهم الجريمة العظمى والفاحشة الكبرى وهي إتيان الذكران من العالمين، والتي هي أشد وأعظم من

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٧٧١، وأبو داود في الصلاة ٧٦٠، والنسائي في الافتتاح ٨٩٧ ـ من حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه.

الزنا؛ لأن إتيان الذكر الذكر لا يجوز بأي حال من الأحوال، أما إتيان الذكر الأنثى فيجوز في بعض الأحوال وهي حال كون المرأة زوجة للرجل أو سرية له، كما أن اللواط يصعب التحرز منه؛ لأن وجود الذكر مع الذكر لا يستنكر بخلاف وجوده مع الأنثى.

﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ وهي حجارة السجيل، وهو الطين الذي أوقد عليه حتى تحجر، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢].

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ وقال في الآية الأخرى: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٣] ومعنى ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ معلمة، أي: مكتتبة عنده بأسمائهم، كل حجر عليه اسم صاحبه.

﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ اي: اخرجنا ونجينا من العذاب والعقوبة من كان في قرية قوم لوط من المؤمنين المصدقين، وهم لوط وأهل بيته ما عدا امرأته، وذلك بان امرناهم امراً قدرياً بالخروج فخرجوا ونجوا بإذن الله، كما قال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ [هود: ٨١]، وقال عز وجل: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت:٣٢].

وهذه سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا ينجي أولياءه المؤمنين وحزبه المفلحين وينتقم من أعدائه وأعدائهم المكذبين، ويجعل العاقبة للمتقين، والخزي والندامة والحسرة على الكافرين.

﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ اي: فما وجدنا في هذه القرية سوى بيت واحد من المسلمين، وهم بيت لوط عليه السلام وهم المؤمنون وهم المخرجون الناجون من العقوبة والعذاب، أطلق عليهم مؤمنين ومسلمين لاجتماع هذين الوصفين فيهم: الإيمان وهو صلاح الباطن، والإسلام وهو صلاح الظاهر.

قال ابن كثير[1]: «احتج بهذه الآية من ذهب إلى رأي المعتزلة، ممن لا يفرق بين مسمى الإيمان و الإسلام؛ لأنه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين، وهذا الاستدلال ضعيف؛ لأن هؤلاء كانوا قومًا مؤمنين، وعندنا أن كل مؤمن مسلم ولا ينعكس، فاتفق الاسمان هنا لخصوصية الحال، ولا يلزم ذلك في كل حال».

فقيل للمخرجين منهم الناجين من العذاب مؤمنين مسلمين لاجتماع الوصفين فيهم لأن كل مؤمن مسلم، وقيل للموجودين منهم مسلمين لأن المسلم لا يلزم أن يكون مؤمنًا ولهذا سماهم مسلمين؛ لأن منهم امرأة لوط وهي مسلمة ظاهراً لكنها غير مؤمنة.

قال ابن القيم[2] في كلامه على قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ قال: «ففرق بين الإسلام والإيمان هنا لسر اقتضاه الكلام، فإن الإخراج هنا عبارة عن النجاة، فهو إخراج نجاة من العذاب ولا ريب أن هذا مختص بالمؤمنين المتبعين للرسل ظاهرًا وباطنًا.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ لما كان الموجودون من المخرجين أوقع اسم الإسلام عليهم؛ لأن امرأة لوط كانت من أهل هذا البيت، وهي مسلمة في الظاهر، فكانت في القوم الموجودين، لا في القوم الناجين، وقد أخبر سبحانه عن خيانة امرأة لوط، وخيانتها أنها كانت تدل قومها على أضيافه وقلبها معهم، وليست خيانة فاحشة، فكانت من أهل البيت المسلمين ظاهرًا وليست من المؤمنين الناجين».

قال: «وبهذا خرج الجواب عن السؤال المشهور وهو: أن الإسلام أعم من الإيمان، فكيف استثنى الأعم من الأخص، وقاعدة الاستثناء تقتضي العكس؟ وتبين أن المسلمين المستثنين مما وقع عليه فعل الوجود والمؤمنين غير مستثنين منه، بل هم المخرجون الناجون».

ويؤخذ من قوله: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ عدم الاغترار بما عليه

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٣٩٩.
(٢) في «الرسالة التبوكية» ص ٨٢ ـ ٨٣، وانظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٤٦.

الكثير من الناس فهذا نبي الله لوط عليه السلام لم يؤمن من قومه إلا أهل بيته فقط ما عدا امرأته وقد قال ﷺ فيما أراه الله: «ورأيت النبي ومعه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد» الحديث[١]؛ وذلك لحكمة بالغة قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص:٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبا: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩] وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦].

فالعبرة بالكيف، لا بالكم، وبَعْثُ النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون وواحد إلى الجنة كما جاء في الحديث[٢].

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: « لا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين ولا تستوحش من الحق لقلة السالكين».

وقال ابن دريد[٣]:

والناس ألف منهم كواحد ... وواحد كالألف إن أمر عنى

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾ الضمير «فيها» للعقوبة التي أوقعها الله في قوم لوط، أو لقريتهم (آية) عبرة وعظة، وعلامة على كمال قدرته عز وجل وكماله في ذاته وأسمائه وصفاته، واستحقاقه للعبادة وحده دون من سواه، وعلى صدق رسله، وعقوباته للمكذبين. ومكان قريتهم لا زال موجوداً وهو البحيرة المسماة «البحر الميت» ولهذا قال تعالى مخاطباً هذه الأمة: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ وهم المؤمنون المتقون الذي يرجون رحمة الله

---

(١) أخرجه البخاري في الطب، ٥٧٥٢، ومسلم في الإيمان ٢٢٠، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٤٦ ـ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «عرضت عليّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد...» الحديث.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٧٤١، ومسلم في الإيمان ٢٢٢ ـ من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه.

(٣) انظر: «ديوانه» ص١٣٢.

ويخافون عذابه؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بالآيات كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى:١٠]، وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٥٥].

وأما من لا إيمان عنده فلا تنفعه الآيات والنذر، كما قال عز وجل ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٠].

قال ابن كثير[(١)]: «أي: جعلناها عبرة لما أنزلنا بهم من العذاب والنكال وحجارة السجيل، وجعلنا محلتهم بحيرة منتنة خبيثة[(٢)] ففي ذلك عبرة للمؤمنين الذين: ﴿يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾».

كما قال عز وجل:

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٣، ١٧٤].

وقوله ﴿الْأَلِيمَ﴾ أي: المؤلم الموجع حسا ومعنى، فهو «فعيل» بمعنى «مفعل».

فعاقب الله عز وجل قوم لوط بعقوبة لم يعاقب بمثلها أحدًا من العالمين لعظم جرمهم وهو إتيان الذكران من العالمين بأن جعل أعلى قريتهم سافلها وأمطر عليهم حجارة من سجيل، كما جعل عز وجل عقوبة من يفعل مثل فعلهم من هذه الأمة القتل قال ﷺ «من وجد تموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»[(٣)].

فيقتلان مطلقًا سواء كانا محصنين أو غير محصنين بخلاف الحكم في الزنا، وذلك لأن إتيان الذكر للذكر شذوذ وخروج عن الفطرة السوية وهو لا يحل بحال من

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٣٩٩.

(٢) وهي المعروفة بالبحر الميت ـ قرب نهر الأردن.

(٣) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أبو داود في الحدود ٤٤٦٢، والترمذي في الحدود ١٤٥٦، وقال: «حديث حسن»، وابن ماجه في الحدود ٢٥٦١، والحاكم في المستدرك ٤/ ٣٥٥ ـ وصححه ووافقه الذهبي. قال ابن القيم في «زاد المعاد» ٥/ ٤٠ـ٤١: «وإسناده صحيح»، وأخرجه أيضًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ابن ماجه ٢٥٦٢، والحاكم ٤/ ٣٥٥ وسنده ضعيف، لكنه يصلح في الشواهد.

الأحوال أما إتيان الذكر للأنثي فهو يحل إذا كانت زوجة أو مملوكة له كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٥ - ٧، المعارج: ٢٩ - ٣١] ومع أن الله عز وجل اباح للرجل أن يتمتع من زوجته ومملوكته بما شاء من جسدها إلا أنه حرم أن يأتيها من دبرها، وسمي هذا العمل اللوطية الصغرى وهي إتيان المرأة في دبرها كما جاء في الحديث «أن إتيان المرأة في دبرها اللوطية الصغرى»[1].

الفوائد والعبر:

١ ـ جواز سؤال الضيف عن مقصده وحاجته.

٢ ـ تزامن عهد إبراهيم مع عهد لوط ـ عليهما السلام.

٣ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لنبيه ﷺ.

٤ ـ شدة إسراف قوم لوط، وعظم جرمهم وهو فعل اللواط مع تكذيبهم للوط عليه السلام، ولهذا كانت عقوبتهم أعظم العقوبات حيث أرسل الله عليهم حجارة من طين، وجعل عالي ديارهم سافلها.

٥ ـ إنجاء الله ـ عز وجل ـ من كان في قرية قوم لوط من المؤمنين قبل نزول العذاب عليهم وهم لوط وأهله عدا امرأته.

٦ ـ سنة الله ـ عز وجل ـ في إنجاء أوليائه وحزبه المفلحين، وإهلاك المكذبين ولن تجد لسنة الله تبديلا.

٧ ـ أن الإيمان أخص من الإسلام، فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً.

٨ ـ قلة السالكين لطريق الحق، وكثرة السالكين لطرق الباطل، فلا ينبغي الاغترار بذلك.

٩ ـ في قصة إهلاك قوم لوط، وما أوقع الله بهم وبقريتهم من العقوبة دلالة على عظيم قدرة الله ـ عز وجل ـ وعظة وعبرة لمن بعدهم، ممن يخافون عذاب الله، وأليم عقابه.

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ١٨٢، ٢١٠ من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه وقد ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٤/ ٢٩٨ وقال: «رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط، ورجال أحمد والبزار رجال الصحيح» وذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» ٣/ ٢٠٠، وقال: «رواه أحمد والبزار، ورجالهما رجال الصحيح».

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

قوله: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ وما بعده إلى قوله ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ معطوف على قوله في الآية السابقة في قصة إهلاك قوم لوط ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أي: وتركنا فيها عبرة وعظة ودلالة على قدرة الله تعالى وشدة عقابه ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾وكذا في قصة موسى إذ أرسله الله إلى فرعون بسلطان مبين، وأخذه لما تولى بجنوده وإغراقهم في اليم، وكذا في قصص إهلاك المكذبين من الأمم قبلهم، عاد وثمود وقوم نوح عبرة وعظة ودلالة، وكذا في بناء السماء وفرش الأرض وخلق الأزواج عبرة وعلامة ودلالة على كمال قدرته وكماله في ذاته وأسمائه وصفاته واستحقاقه للعبادة وحده دون من سواه.

قوله: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ الواو: عاطفة ـ هنا ـ وكذا فيما بعده، وقد تكون استئنافية، ويكون قوله ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ وما بعده متعلقاً بفعل محذوف دل عليه المذكور، أي تركنا في ذلك آية.

ومعنى قوله: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ أي: وفي نبي الله موسى بن عمران عليه السلام أفضل أنبياء بني إسرائيل، وثالث أولي العزم بعد محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، آية وعبرة وعظة ﴿إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ «إذ» ظرف بمعنى حين، أي حين أرسلناه إلى فرعون، وفرعون هو ملك مصر آنذاك الذي تعالى على الله وادعى الربوبية والألوهية لنفسه، وصار اسم فرعون بعد ذلك علمًا على كل من حكم مصر من الكفار.

﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجة ظاهرة ودليل بيِّن قاطع، وهي الآيات التي أعطاها الله عز وجل لنبيه موسى عليه السلام وهي تسع آيات كما قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء:١٠١]، منها العصا واليد كما قال عز وجل: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾

إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [النمل: ١٠-١٢]، ومنها ما ذكره الله عز وجل في سورة الأعراف في قوله ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ [الآية:١٣٣] ومنها السنون ونقص الثمرات وانفلاق البحر، وغير ذلك من الآيات كانفجار العيون من الحجر وغير ذلك[1].

﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ أي: أعرض عما جاء به موسى من الحق استكبارًا وعنادًا.

(بركنه) أي: بما يركن إليه من جموع وجنود متعززًا ومغترًا بهم ومغررًا لهم.

﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أي: وقال فرعون عن موسى عليه السلام أنت إما ساحر تلبس على الناس بسحرك، لأن الله أعطاه من الآيات ما يفوق عمل السحرة المنتشر في عهده كانقلاب العصا حية، وإدخال يده في جيبه وخروجها بيضاء من غير سوء.

(أو مجنون) مختل العقل، لأنه قال: إن الله هو الرب الخالق، والإله المعبود، لا فرعون. وهذه طريقة المكذبين للرسل يرمون من دعاهم إلى الله من الرسل وغيرهم بأقبح التهم؛ ليصدوا الناس عن اتّباعهم، وهكذا قيل لسيد الخلق نبينا محمد ﷺ ساحر وشاعر ومجنون وكاهن، وما ثناه ذلك عن دعوته صلوات الله وسلامه عليه.

وينبغي أن يستلهم الدعاة إلى الله والمصلحون والمربون من هذا أعظم الدروس فإن طريق الدعوة وطريق الجنة شاق ليس مفروشًا بالورود والرياحين، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت:١-٣].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حُفت الجنة بالمكاره وحُفت النار بالشهوات»[2].

---

(١) الطوفان: الغرق أو المطر وقيل غير ذلك، والقمّل: السوس الذي يخرج من الحنطة، وقيل دواب سود صغار، وقيل غير ذلك، والدم الرعاف، أو انقلاب مياههم دمًا، وقيل غير ذلك، والجراد هو المعروف، وكذا الضفادع ملأت بيوتهم وآنيتهم وأطعمتهم انظر: «جامع البيان» ١٥/ ١١٤، «تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٥٨-٤٦٣، ٥/ ١٢٢-١٢٣.

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٢٣، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٩.

قال الشاعر:

فدرب الصاعدين كما علمتم   به الأشواك تكثر لا الورود[١]

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾ أي: طرحناهم وألقيناهم ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾، وهو البحر الأحمر الفاصل بين آسيا وأفريقيا، أغرقهم الله فيه ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: ملوم، فهو «فعيل» بمعنى «مفعول» أي: آتٍ بما يلام عليه من الكفر والجحود والفجور والعناد، ودعوى الربوبية والألوهية.

﴿وَفِى عَادٍ﴾ أي: وفي عاد عبرة وعظة وعلامة ودلالة على قدرة الله عز وجل وكماله، في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

و«عاد» هم قوم نبي الله هود عليه السلام، وهم عاد إرم الذين قال الله عنهم في سورة الفجر ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [٦-٨].

ومساكنهم بالأحقاف جنوب الجزيرة في اليمن.

﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ «إذ» ظرف بمعنى حين، أي: حين أرسلنا عليهم الريح العقيم، وهي الريح المفسدة المهلكة المدمرة التي لا تنتج شيئا، العاتية شديدة البرودة، وشديدة الهبوب، كما قال عز وجل: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة:٦-٨].

وهي الريح الغربية «الدبور» كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: «نُصرت بالصَّبا وأهلكت عاد بالدَّبور»[٢].

﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ أي: ما تترك من شيء أتت عليه مما أراد الله إهلاكه إلا جعلته كالرميم، وهو الهشيم الهالك البالي.

﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٤٣ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ

---

(١) البيت لوليد الأعظمي الشاعر العراقي ضمن قصيدة له بعنوان: «شباب الجيل» في كتابه «الزوابع».

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة ١٠٣٥، ومسلم في صلاة الاستسقاء ٩٠٠، والنسائي في الزكاة ٢٥٧٨.

يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ﴾.

﴿وَفِى ثَمُودَ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وفي ثمود عبرة وعظة ودلالة وعلامة.

وثمود هم قوم صالح عليه السلام مساكنهم في الحجر شمال الجزيرة في العلا، وهي المعروفة بمدائن صالح.

﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: حين قيل لهم، والقائل لهم هو الله عز وجل على لسان رسولهم صالح عليه السلام، وذكر بالبناء للمفعول؛ لأنه عز وجل معلوم؛ ولأن الشر لا ينسب إليه مباشرة، كما قال ﷺ: «والشر ليس إليك»[1].

﴿تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: تمتعوا في الحياة. والتمتع: استعمال المتاع من مأكل ومشرب وغير ذلك.

﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى مجيء وقت نزول نقمة الله عليهم، والتي بها حلول آجالهم، وهو ثلاثة أيام كما قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥].

﴿فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ العتو: العصيان والتمرد والعناد والاستكبار ومجاوزة الحد.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ أي: صاح بهم جبريل عليه السلام صيحة صعقوا بسببها فتقطعت قلوبهم في أجوافهم كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت:١٧]، وقال تعالى متوعدًا كفار قريش: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت:١٣].

وهي الصيحة كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٦٦، ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٨٠-٨٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١].

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٧٧١، وأبو داود في الصلاة ٧٦٠، والنسائي في الافتتاح ٨٩٧، والترمذي في الصلاة ٢٦٦، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها ٨٦٤- من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وهي الرجفة، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨].

﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ أي: وهم ينظرون في وضح النهار، وكانوا خُوِّفوا بالعذاب وينتظرونه.

قال ابن كثير[1]: «وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام وجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بُكرَةَ النهار».

فسمى الله عذابهم بالصاعقة والصيحة والرجفة، كما سمى عذاب عاد بالريح بالصاعقة والصيحة، قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ [المؤمنون: ٤١]. والمراد بهم عاد، وقيل ثمود. وسمى عذاب قوم لوط عليه السلام بالصيحة، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۝ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر:٧٣-٧٤]، وسمى عذاب قوم شعيب عليه السلام بالصيحة والرجفة، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ۝ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٤-٩٥]، وقال تعالى عنهم: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٩١، العنكبوت: ٣٧]. وقال تعالى عن السبعين رجلاً الذين اختارهم موسى من قومه ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

فالصاعقة والصيحة والرجفة تطلق على جنس العذاب أيا كان ولهذا قال عن المنافقين ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾

﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ﴾ أي: فما استطاعوا أن يقوموا، أي: ما استطاع القاعد منهم أن يقوم من مكانه.

﴿وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ أي: وما كانوا قادرين على الانتصار لدفع ما حل بهم من العقوبة لا بأنفسهم ولا بانتصارهم بغيرهم.

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٠٠.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ الواو عاطفة، أي: وقوم نوح من قبل هؤلاء أهلكناهم بالغرق بالطوفان، وفي إهلاكهم عبرة وعظة وعلامة وآية ودلالة على قدرة الله عز وجل، وكماله، واستحقاقه للعبادة وحده لا شريك له.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله عز وجل بالكفر والمعاصي.

والفسق في الأصل: الخروج للفساد، ومنه سميت الفأرة فويسقة لخروجها من جحرها للإفساد.

ويؤخذ من إهلاك الله عز وجل لقوم لوط ولفرعون وقومه وعاد وثمود وقوم نوح وغيرهم من المكذبين سنة الله الكونية في إهلاك المكذبين لرسله ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا كما قال عز وجل: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠].

الفوائد والعبر:

١ ـ أن في قصة موسى عليه السلام في إرساله إلى فرعون ـ وما جرى بينهما دلالة على قدرة الله ـ عز وجل ـ وعظة وعبرة لمن يعتبر.

٢ ـ تأييد الله ـ عز وجل ـ لموسى عليه السلام بالحجج والآيات العظيمة، ومع ذلك اعرض فرعون وجنوده عن الحق ورمى موسى بالسحر والجنون.

٣ ـ عقوبة الله ـ عز وجل ـ لفرعون وجنوده بإغراقهم في اليم، فأجسادهم للغرق وأرواحهم للنار والحرق.

٤ ـ إتيان فرعون بأعظم ما يلام عليه من الكفر والفجور والعناد، إذ لا كفر أعظم من دعواه الربوبية والألوهية.

٥ ـ أن في إهلاك المكذبين من عاد وثمود وقوم نوح أيضا دلالة على قدرة الله ـ عز وجل ـ وعظة وعبرة لمن بعدهم.

٦ ـ إهلاك الله ـ عز وجل ـ لعاد بالريح العقيم «الدبور» المفسدة المدمّرة لكل شيء أتت عليه مما أراد الله إهلاكه.

٧ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ العامة لجميع الخلق.

٨ ـ إهلاك الله ـ عز وجل ـ لثمود لما تمردوا وعتوا عن أمر الله ـ عز وجل ـ بالصاعقة التي قطعت قلوبهم في أجوافهم فلم يستطيعوا الفرار ولا الانتصار.

٩ ـ إهلاك قوم نوح ـ عليه السلام ـ بالغرق بسبب فسقهم.

١٠ ـ وجوب أخذ العظة والعبرة مما حل بالمكذبين من العقوبات.

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾.

أي: وفي هذا كله عبرة وآية وعلامة ودلالة على عظيم قدرة الله عز وجل واستحقاقه للعبادة دون ما سواه، وكماله في ذاته وفي ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾ المراد بالسماء السموات السبع، ﴿بَنَيْنَاهَا﴾ أي: خلقناها ورفعناها وجعلناها سقفًا رفيعًا كما قال عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢].

وعن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ﴾ يقول: «بقوة»[1]، كما قال تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢].

وهكذا فسره جمع من السلف وعليه عامة المفسرين.

وتفسير «الأيد» هنا بالقوة ليس فيه منافاة لإثبات اليدين لله عز وجل كما دل على ذلك قوله عز وجل: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥].

﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي: وإنا في بنائنا لها لموسعون لها، جعلناها واسعة الأرجاء رفيعة البناء، وبغير عمد، لأن العمد قد تقلل من سعتها قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد:٢]، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [لقمان:١٠].

﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ أي: بسطناها وجعلناها فراشًا وذلولا للمخلوقات ومهدناها، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ [البقرة:٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح:١٩-٢٠]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك:١٥]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: ٥٣]، [الزخرف:١٠] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ [النبأ:٦].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢١/ ٥٤٥ ، وابن أبي حاتم «في تفسيره»، ١٠/ ٣٣١٣، الأثر ١٨٦٦٦.

﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ ثناء من الله عز وجل وامتداح لنفسه ـ وهو سبحانه أهل الثناء والمجد ـ في مهده الأرض وفرشها وتذليلها وتوسعتها، فلم يجعلها صعبة قاسية لا يمكن الانتفاع بها، ولا لينة رخوة لا يمكن الاستقرار والعيش عليها بل جعلها وسطاً مناسبة على أكمل الحالات لمصالح جميع المخلوقات فوقها.

والمهد بمعنى: البسط والفرش والتوطئة.

﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: ومن جميع المخلوقات خلقنا وأوجدنا زوجين، أي صنفين ونوعين متقابلين، ليلتئم الحال بين الذكر والأنثى من الإنسان والحيوان والنبات وتصلح الحياة، فأرض وسماء، وليل ونهار، وشمس وقمر وبر وبحر، وضياء وظلام، وإيمان وكفر، وحياة وموت وسعادة وشقاء وجنة ونار، وذكر وأنثى وحلو ومر، وحر وبرد إلى غير ذلك من أنواع المخلوقات، من الحيوانات والنباتات والجمادات.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أوجدنا هذه المخلوقات أزواجاً لأجل أن تذكروا، أي: من أجل أن تتعظوا وتتفكروا في عظمة الخالق ووحدانيته عز وجل لا شريك له.

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أمر من الله عز وجل للناس جميعًا بالفرار إليه سبحانه. والفرار هو الهروب من شيء إلى شيء.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «فروا منه إليه واعملوا بطاعته».

وقال سهل بن عبد الله: «فروا مما سوى الله إلى الله».

وقال بعضهم: «اهربوا من عذاب الله إلى رحمته وثوابه بالإيمان والطاعة»[1].

قال ابن القيم[2]: «وهو نوعان فرار السعداء، وفرار الأشقياء، ففرار السعداء: الفرار إلى الله عز وجل، وفرار الأشقياء: الفرار منه لا إليه. قال: وأما الفرار منه إليه ففرار أوليائه».

والمعنى: توجهوا إلى الله في عبادتكم، والجؤوا إليه واستعينوا به في جميع أموركم

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٤٧، وانظر: «جامع البيان» ٢١/ ٥٤٩.

(٢) انظر: «مدارج السالكين» ١/ ٤٦٩، «بدائع التفسير» ٤/ ٢٤٧.

كما قال عز وجل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٤] وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣].

وفي الحديث: «لا ملجأ ولا منجى منك إلاّ إليك»[1].

﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: قل لهم يا محمد إني لكم أيها الناس من الله نذير، أي: مخوف ومحذر من عذاب الله.

«مبين» بيّن النذارة والتخويف لمن كذب وخالف امر الله بما جئتكم به من الدلائل والحجج القاطعة والبراهين الساطعة من عند الله عز وجل بما أوحاه الله إليّ في القرآن والسنة النبوية وغير ذلك من الآيات والمعجزات كما قال ﷺ: «مثلي ومثل ما بعثني الله كمثل رجل أتى قوماً، فقال: رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العُريان، فالنجاء، النجاء، فأطاعته طائفة، فأدلجوا على مهلهم، فنجوا، وكذبته طائفة، فصبحهم الجيش فاجتاحهم»[2].

ومهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام وسيدهم رسولنا ونبينا محمد ﷺ هي البشارة والإنذار كما قال عز وجل: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

واكتفى في هذا الموضع بذكر الإنذار فقط لأن الكلام - والله أعلم - مع المكذبين للرسل عليهم الصلاة والسلام ومنهم كفار قريش المخاطبون بهذه الآيات وما بعدها.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ امر الله عز وجل في الآية السابقة بالفرار إليه سبحانه وذلك باللجوء إليه والاعتماد عليه والتوجه إليه وعبادته وتوحيده، ثم أتبع ذلك بالنهي عن أن يجعل مع الله إلهاً آخر، وأكد الطلبين: الأمر باللجوء والتوجه إليه وعبادته، والنهي عن الإشراك به بقوله ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ إقامة للحجة على الخلق، وأنه مرسل من عند الله عز وجل بالنذارة والتخويف لهم

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء ٢٤٧، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٢٧١٠، وأبو داود في الأدب ٥٠٤٦، والترمذي في الدعوات ٣٣٩٤، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٧٦ - من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق - الانتهاء عن المعاصي ٦٤٨٢ - من حديث أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه.

من عقاب الله إن أشركوا مع الله غيره، وهو بين النذارة بما جاء به من عند الله من الآيات والحجج والمعجزات.

قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ جعل بمعنى صير، أي: لا تصيروا مع الله إلهًا آخر، أي: شريكًا له في العبادة، أو الطاعة، أو المحبة من المناصب والرياسات وحب الظهور، والأولاد والأزواج، والهوى والدنيا، قال تعالى ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ﴾ [الجاثية:٢٣].

وقال ﷺ: «تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش»[١].

الفوائد والعبر:

١ ـ التنبيه على كمال قدرة الله ـ عز وجل ـ وتمام قوته، وعظيم نعمه، في بناء السماء بقوة وتوسيعها وفرش الأرض ومهدها، وخلق الزوجين من كل شيء لأجل أن يتذكر الخلق ويعتبروا.

٢ ـ وجوب الفرار إلى الله ـ عز وجل ـ بعبادته وحده لا شريك له واللجوء إليه والاستعانة به في جميع الأمور وسائر الأحوال.

٣ ـ وجوب الحذر من الشرك قليله وكثيره، كبيره وصغيره، جليه وخفيه.

٤ ـ تأكيد بيان ووضوح ما جاء به ﷺ من الإنذار بالآيات العظيمة والحجج والمعجزات.

٥ ـ أن مهمة الرسول ﷺ هي الإنذار للمكذبين والبشارة للمؤمنين.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٨٧، والترمذي في الزهد ٢٣٧٥ ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

بيّن عز وجل في الآيات السابقة أن في إهلاك المكذبين عظة وعبرة، كما أن في ذلك وفي خلق السموات والأرض والأزواج دلالة على عظيم قدرة الله ـ عز وجل مما يوجب إخلاص العبادة له وحده، ثم أتبع ذلك بتسلية النبي ﷺ ببيان أن ما حصل من قومه من التكذيب له ورميه بالسحر والجنون هو ديدن المكذبين للرسل قبله آمراً له بالإعراض عنهم ومذكراً للمؤمنين، ومبيناً أنه عز وجل إنما خلق الخلق ليعبدوه، وأنه الغني عن خلقه، ومتوعداً المكذبين له ﷺ بالعذاب في الدنيا والآخرة كسابقيهم.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ هذا فيه تسلية للنبي ﷺ وبيان أن ما حصل له من التكذيب والرمي بالسحر والجنون من قومه حصل لغيره من الأنبياء قبله من أممهم.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ما حصل لك من قومك، فمرجع الإشارة إلى ما حصل له من قومه، من رميهم له بالسحر أو الجنون.

﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ أي: ما أتى الذين من قبل قومك من الأمم من رسول من عند الله.

﴿إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أي: إلاّ قالوا عن رسولهم هو ساحر، أو مجنون.

والساحر: هو الذي يعمل السحر ويعقد العقد بالخفاء وينفث فيها ويؤثر في العقول والأبدان والأبصار بإذن الله الكوني، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٠٢].

﴿أَوْ مَجْنُونٌ﴾ «أو» مانعة خلو، أي لا يخلو حاله إما أن يكون ساحرًا، أو يكون مجنوناً وليست مانعة اجتماع، أي: قد يجتمع فيه الوصفان كما يقال: جالس الحسن أو

ابن سيرين أي: لا يخلو حالك من مجالسة أحدهما، ولا يمتنع أن تجالسها معًا، ومانعة الاجتماع مثل قولهم: تزوج هندًا أو أختها، أي: إما هذه وإما هذه، أما أن تتزوجهما معًا فلا.

والمجنون: مختل العقل.

وإنما رموه ﷺ بالسحر لقوة تأثير ما جاء به من الوحي وبلاغته. ورموه بالجنون لدعوته إلى توحيد الله وتقرير البعث ومخالفة ما هم عليه وآباؤهم من الشرك والضلال المبين، وهم في هذا يتخبطون هدفهم تنفير الناس منه ﷺ وإلا ففرق بين الساحر والمجنون، والشاعر والكاهن.

وهكذا قال فرعون لموسى عليه السلام قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٣٩]، وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس:٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]، وقال تعالى: ﴿۞كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ [القمر:٩].

﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ﴾ الاستفهام للإنكار، أي: أوَصّى بعضهم بعضا بهذه المقالة؟.

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ «بل» للإضراب الإبطالي، و(طاغون): جمع طاغٍ، والطغيان هو الزيادة ومجاوزة الحد ومنه قوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١].

ومنه سُمي الطاغوت: وهو ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع في غير طاعة الله ورسوله.

أي: والحقيقة والواقع أنهم لم يوص بعضهم بعضًا بذلك، بل جمعهم على ذلك توافقهم على الطغيان.

قال ابن كثير[1]: «أي: لكنهم قوم طغاة، تشابهت قلوبهم، فقال متأخرهم كما قال متقدمهم».

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ أمر من الله عز وجل لرسوله ﷺ بالإعراض عنهم، وأنه لا لوم عليه ولا تبعة في كفرهم وطغيانهم بعد أن بلغهم رسالة ربه وأدى الأمانة،

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٠١.

ونصح للأمة وجاهد في الله حق جهاده، وهذا فيه تسلية ثانية له ﷺ ببيان أنه لا يُلام على إعراضه عنهم وعدم إيمانهم.

وذلك أن مهمة الرسول ﷺ هي البلاغ فقط، كما قال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ [آل عمران:٢٠]، وقال تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة:٩٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل:٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤، العنكبوت: ١٨] إلى غير ذلك من الآيات في هذا المعنى.

أما هداية القلوب فهي بيد علام الغيوب، كما قال عز وجل: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٧٢].

وفي هذا وذاك تسلية للدعاة إلى الله عز وجل والمصلحين والمرشدين والموجهين من الآباء والأمهات وغيرهم فليس عليهم إلاَّ النصح والإرشاد والتوجيه وأما هداية القلوب فبيد الله عز وجل.

كما أن في قوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ تهديداً ووعيداً وتخويفاً وتحذيراً للمكذبين.

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا فيه أيضًا تسلية وطمأنة له ﷺ وأمر له بالتذكير والوعظ والاستمرار على ذلك، وإعلام له بأن دعوته ﷺ وجهاده في الأمة وتذكيره لن يخيب، بل سيكون له أعظم النتيجة والأثر وينتفع بذلك المؤمنون، وإن أعرض عنه الطغاة المعرضون؛ لأجل أن يستمر في تذكيره ودعوته، ولا يبالي بالطغاة المعاندين، وهكذا ينبغي للدعاة إلى الله والمصلحين والموجهين من الآباء والأمهات وغيرهم أن لا يستبطئوا النتائج ويستعجلوا في جني الثمار، فإن من تعجل شيئا قبل أوانه عوقب بحرمانه، فها هو نبي الله نوح عليه السلام مكث في قومه ألف سنة إلاَّ خمسين عامًا ومع ذلك ما آمن معه إلاَّ قليل، ولكن لابد لكل مجتهد من نصيب، ولابد بإذن الله عز وجل من الثمرة والنتيجة، وأقل الأحوال براءة الذمة.

والذكرى: هي الموعظة بذكر الأحكام مقرونة بالترغيب والترهيب والثواب والعقاب وبيان آيات الله الشرعية والكونية الدالة على عظمته عز وجل وقدرته

واستحقاقه العبادة دون من سواه.

﴿تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ينتفع بها المؤمنون المصدقون بوعد الله ووعيده دون من سواهم، فلا ينتفع بالذكرى إلاَّ المؤمنون كما قال عز وجل:

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [الأعلى:٩-١٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣].

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الواو: استئنافية و«ما» نافية، «خلقت» أي: أوجدت، و(الجن والإنس) هما الثقلان، والإنس ذرية آدم عليه السلام، والجن ذرية إبليس لعنه الله.

خلق الله الإنس من الطين، وخلق الله الجن من مارج من نار.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن:١٤-١٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٦-٢٧].

وفي الحديث: «خلق الله الملائكة من نور، وخلق الجن من مارج من نار، وخلق آدم مما ذكر لكم»[1] يعني من التراب والطين.

﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ «إلاَّ» أداة حصر واللام في قوله: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ لام التعليل، أي: إنما خلقتهم لأجل عبادتي، لا لغير ذلك.

قال ابن تيمية[2]: «﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ قال: إلاَّ لآمرهم بعبادتي».

وقال ابن كثير[3]: «أي: إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي، لا لاحتياجي إليهم».

ورُويَ في الأثر: «خلقتك من أجلي فلا تلعب وخلقت كل شيء من أجلك فلا تتعب».

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقاق ٢٩٩٦ ـ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) في «مجموع الفتاوى» ٨/ ٣٩-٥٧، ١٨٦.

(٣) في «تفسيره» ٧/ ٤٠١.

والعبادة لغة: التذلل والخضوع لله عز وجل، يقال بعير معبد، أي: مذلل بالركوب عليه، وطريق معبد، أي: ذللته الأقدام.

وهي اصطلاحًا: اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

وتطلق العبادة على فعل التعبد، وتطلق على نفس العبادة كالصلاة والزكاة والصوم والحج وغير ذلك.

والعبادة تشمل فعل الواجبات والمستحبات والمباحات مع النية الحسنة، وترك المحرمات والمكروهات، فالموفقون عاداتهم عبادات يؤجرون على أكلهم وشربهم ونومهم ونزهتهم وراحتهم، والمخذولون عباداتهم عادات، وفتش نفسك، وفَرْقٌ بين موفق يأكل ليعيش ويتعبد لله، وبين مخذول يعيش ليأكل أشبه حالاً بالبهيمة.

فالهدف الذي أوجد الخلق من أجله هو عبادة الله عز وجل وتوحيده، وهو الأمانة التي أشفقت من حملها السموات والأرض والجبال كما قال عز وجل: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وكثير من الناس لا يفهم هذه الحقيقة وإن ادعى أنه يفهمها، وكيف فهمها من يعيش ليأكل، لا يأكل ليعيش. وإنَّ كل ما يحصل من تقصير وبرود في القيام بحقوق الله وحقوق الخلق، وضعف في المنافسة والمسارعة إلى الخير هو بسبب عدم فهم هذه الحقيقة تماماً. فوأسفا على أعمار وأوقات وصحة وفراغ تضيع سدى، وتذهب بلا فائدة ولا عمل - والله المستعان.

ولقد أحس القائل:

قد رشحوك لأمر لو فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

وقال الآخر:

الأمر جد وهو غير مزاح ... فاعمل لنفسك صالحًا يا صاح

﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ «ما» نافية في الموضعين، و«من» زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى، والرزق: العطاء.

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ أي: وما أريد منهم أن يطعموني فهو عز وجل الغني ليس بحاجة أن يطعموه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤].

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ (الرزاق): اسم من أسماء الله - عز وجل - على وزن «فعّال» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة يدل على سعة رزقه وكثرته باعتبار كثرة المرزوقين وباعتبار كثرة رزقه لكل فرد منهم. فالرزاق: هو المعطي العطاء الجزيل لجميع خلقه أموالاً وأولاداً وصحة وأمناً وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

وفي الحديث «لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت»[(١)].

اي: أنه عز وجل إنما أراد شرعًا بخلقه أن يعبدوه، ولم يرد منهم كونًا أن ينفعوه.

﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (ذو) بمعنى صاحب، أي: صاحب القوة والقدرة التامة.

«المتين» اسم من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل» أي: الشديد القوة العزيز، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾.

فهو عز وجل لم يخلق الخلق إلا لعبادته فقط لم يخلقهم ليتقوى بهم من ضعف أو يستكثر بهم من قلة، فهو سبحانه القوي المتين، ولا ليرزقوه ويطعموه، فهو - عز وجل - الرزاق المطعم للخلق كلهم، وهو سبحانه الغني عن الطعام والشراب، الغني عما سواه، كما قال عز وجل: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَآءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع شمله وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له»[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى يقول: يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، و إلا تفعل ملأت يديك شغلا ولم أسد فقرك»[(٣)].

قال ابن القيم رحمه الله[(٤)]: «فأخبر أنه لم يخلق الجن والإنس لحاجة منه إليهم، ولا

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٨٤٤، ومسلم في المساجد ٥٩٣، وأبو داود في الصلاة ١٥٠٥، والنسائي في السهو ١٣٤١، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤٦٥.

(٣) أخرجه أحمد ٢/٣٥٨، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٦٦، وابن ماجه في الزهد ٤١٠٧ وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٤) انظر: «طريق الهجرتين» ص١٢٥-١٢٦، ٢٢٢، «بدائع التفسير» ٤/٢٤٧، ٢٤٨.

ليربح عليهم، لكن خلقهم جودًا وإحسانًا ليعبدوه فيربحوا هم عليه كل الأرباح، كقوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء:٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم:٤٤]».

وقال ابن القيم أيضًا: «فأخبر سبحانه أن الغاية المطلوبة من خلقه هي عبادته التي أصلها كمال محبته، وهو سبحانه كما أنه يحب أن يعبد، يحب أن يحمد ويثنى عليه، ويذكر بأوصافه العُلى وأسمائه الحسنى».

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾الظلم: النقص ووضع الشيء في غير موضعه على سبيل التعدي، وأظلم الظلم الكفر والإشراك بالله كما قال عز وجل ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

والمراد بـ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كفار مكة وغيرهم ممن جحدوا رسالته ﷺ وما جاء به من عند الله ـ عز وجل .

﴿ذَنُوبًا﴾ الذنوب: النصيب، أي: نصيبًا من العذاب.

﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ أي: مثل نصيب أصحابهم في الظلم والتكذيب من الظالمين والمكذبين من الأمم قبلهم كما قال عز وجل: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر:٥١].

وعن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]»[1].

﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي: فلا يستعجلون بطلب العذاب والعقوبة فهو واقع بهم لا محالة، كما في قولهم فيما حكى الله عنهم: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص:١٦].

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٦٨٦، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٣، والترمذي في التفسير ٣١١٠، وابن ماجه في الفتن ٤٠١٨.

وقد جاءهم نصيبهم من العذاب الدنيوي في بدر الكبرى التي قتل فيها سبعون من صناديدهم، وفي الغزوات بعدها التي تتابعت عليهم فيها الهزائم وأظهر الله الهدى ودين الحق على الدين كله، وينتظرهم العذاب الأخروي يوم القيامة كما قال عز وجل: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ «ويل» كلمة تهديد ووعيد وعذاب، ويقال: هو اسم واد في جهنم.

«الذين كفروا»: أي: الذين جحدوا ربوبية الله وألوهيته وأسماءه وصفاته وشريعته أو شيئًا من ذلك، وضده الإيمان.

﴿مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ أي: يوم القيامة الذي يوعدون بالبعث فيه والعذاب الأليم في النار لكفرهم وعنادهم واستكبارهم وصدهم عن دين الله عز وجل.

الفوائد والعبر:

١ ـ بيان أن ديدن المكذبين وعادتهم رمي رسل الله عليهم السلام بالسحر والجنون.

٢ ـ تسلية النبي ﷺ وتقوية عزيمته تجاه تكذيب قومه له.

٣ ـ الإنكار والتوبيخ للمكذبين، وأن الذي حملهم على التكذيب ورمي الرسل عليهم السلام بهذه المقالات هو الطغيان.

٤ ـ لا لوم عليه ﷺ بالإعراض عنهم بعد إقامة الحجة عليهم وليس عليه هداهم.

٥ ـ أمره ﷺ بالاستمرار بالتذكير وطمأنته على تحقق المنفعة بإذنه ـ عز وجل ـ، وفيه طمأنة وبشارة للدعاة بعده.

٦ ـ أن الذين يستفيدون من الذكرى وتنفعهم هم المؤمنون دون من عداهم.

٧ ـ أن الهدف من خلق الإنس والجن هو أن يعبدوا الله ـ عز وجل ـ.

٨ ـ استغناء الله ـ عز وجل ـ التام عن الخلق.

٩ ـ إثبات اسمين من أسماء الله ـ عز وجل ـ وهما «الرزاق» و «المتين» وأنه ـ عز وجل الرزاق المطعم للخلق ذو القوة الشديدة والعزة التامة.

١٠ ـ الوعيد والتهديد للظالمين المكذبين للرسول ﷺ بما ينتظرهم من العذاب الدنيوي في بدر الكبرى وغيرها، والعذاب الأخروي في النار.

١١ ـ كما اجتمع المكذبون للرسل على رميهم بالسحر والجنون ونحو ذلك وتكذيبهم جمع الله بينهم بالعقوبات المختلفة في الدنيا، والعذاب في الآخرة بالنار.

تفسير سورة الطور

عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: «سمعت النبي ﷺ ـ يقرأ في المغرب بالطور، فما سمعت أحدًا أحسن صوتًا، أو قراءة منه»[١].

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «شكوت إلى رسول الله ﷺ ـ أني أشتكي، فقال: «طوفي من وراء الناس وأنت راكبة» فطفت ورسول الله ﷺ يصلي إلى جنب البيت يقرأ بالطور وكتاب مسطور»[٢].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ۝٨ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ۝١٠ فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ ۝١٢ يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ۝١٥ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝١٦﴾.

قوله ﴿وَالطُّورِ﴾ الواو حرف قسم وجر، والطور: مقسم به مجرور، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام، بين فلسطين ومصر قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم:٥٥].

وهو طور سيناء، وطور سينين، كما قال تعالى: ﴿وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين:١، ٢].

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٣٠٥٠، ومسلم في الصلاة ـ القراءة في الصبح ٤٦٣، وأبو داود في الصلاة ٨١١، والنسائي في الافتتاح ٩٨٧، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨٣٢.

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة ٤٦٤، ومسلم في الحج ١٢٧٦، وأبو داود في المناسك ١٨٨٢، والنسائي في مناسك الحج ٢٩٢٥، وابن ماجه في المناسك ٢٩٦١.

وهو الجبل الذي رفعه الله عز وجل على بني إسرائيل لتخويفهم من عقاب الله تعالى كما قال عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟﴾ [البقرة: ٩٣]، وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الآية: ١٧١].

وهذا ما عليه جمهور المفسرين من أن المراد بالطور الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام. قال ابن القيم(١): «فالطور هو الجبل الذي كلم الله عليه نبيه وكليمه موسى بن عمران عند جمهور المفسرين من السلف والخلف، وعرفه ههنا باللام، وعرفه في موضع آخر بالإضافة، فقال: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾».

وقال ابن كثير(٢): «فالطور هو الجبل الذي تكون فيه أشجار، مثل الذي كلم الله عليه موسى، وارسل منه عيسى، وما لم يكن فيه شجر لا يسمى طورًا، إنما يقال له جبل».

﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ الواو عاطفة، وقوله: ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ وما بعده إلى قوله ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ معطوف على قوله: (والطور) داخل ضمن المقسم به.

والمراد بالكتاب في قوله: ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ القرآن الكريم، وقيل: المراد به التوراة لاقترانه بذكر «الطور».

وقيل: المراد به عموم الكتب السماوية المنزلة من عند الله تعالى.

وقيل: المراد به اللوح المحفوظ ورد هذا ابن القيم.

وقيل المراد به: الكتاب الذي يتضمن أعمال بني آدم، ويؤيده قوله تعالى ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣].

قال ابن القيم(٣): «وهذا وإن كان أقوى وأصح من القول الأول واختاره جماعة

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٥١.
(٢) في «تفسيره» ٧/ ٤٠٣.
(٣) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٥١ - ٢٥٢.

من المفسرين، ومنهم من لم يذكر غيره فالظاهر أن المراد به الكتاب المنزل من عند الله وأقسم الله به لعظمته وجلالته، وما تضمنه من آيات ربوبيته، وأدلة توحيده وهداية خلقه، ثم قيل هو التوراة التي أنزل الله على موسى، وكان صاحب هذا القول رأى اقتران الكتاب بالطور فقال: هو التوراة ولكن التوراة إنما أنزلت في ألواح لا في رق، إلا أن يقال: هي في رق في السماء وأنزلت في ألواح وقيل: هو القرآن، ولعل هذا أرجح الأقوال؛ لأنه سبحانه وصف القرآن بأنه في صحف مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة، فالصحف هي الرق، وكونه بأيدي سفرة هو كونه منشورًا، وعلى هذا يكون قد أقسم بسيد الجبال وسيد الكتب، ويكون ذلك متضمنًا للنبوتين المعظمتين، نبوة موسى ونبوة محمد، وكثيرًا ما يقرن بينهما وبين محلهما كما في سورة التين والزيتون».

﴿مَّسۡطُورٖ﴾ بمعنى مكتوب مفروغ من كتابته، وهذا يضعف أن يكون المراد به كتب الأعمال التي بأيدي الملائكة.

﴿فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ﴾ الرق: الصحف البيضاء، كما قال عز وجل ﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۝ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ﴾ [عبس: ١٣-١٥].

وأصل «الرق» الجلد الرقيق الذي يكتب فيه، ومن هنا سميت خرازة الجلود: كتابة. قال الشاعر ملغزًا:

وكاتبون وما خطت أناملهم ... حرفًا وما قرؤوا ما خط في الكتب

ومعنى ﴿مَّنشُورٖ﴾ أي: منشور في الصحف، معروض لمن يقرؤه، لم يمنع أحد من قراءته والاطلاع عليه بشرط الطهارة المعنوية من الشرك والطهارة الحسية من الأحداث.

﴿وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ﴾ هو البيت الذي في السماء السابعة حذاء الكعبة المسمى بالضُّراح، وهو سيد البيوت.

﴿ٱلۡمَعۡمُورِ﴾ صفة للبيت، أي: الذي تعمره الملائكة بالعبادة يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه آخر ما عليهم، والذي رفع للنبي ﷺ ليلة الإسراء، كما جاء في حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما في قصة الإسراء، والذي جاء فيه: «فرفع لي البيت المعمور، فسألت جبريل، فقال: هذا البيت المعمور، يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما

عليهم»[١].

قال ابن كثير[٢]: «يعني يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم كذلك البيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة، ولهذا وجد إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، لأنه باني الكعبة الأرضية والجزاء من جنس العمل، وهو بحيال الكعبة، وفي كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها و يصلون إليه، والذي في السماء الدنيا يقال له: بيت العزة».

وقيل إن المراد بالبيت المعمور: البيت الحرام قال ابن القيم[٣]: «ولا ريب أن كلاً منهما معمور: فهذا معمور بالملائكة وعبادتهم، وهذا معمور بالطائفين والقائمين والركع السجود، وعلى كلا القولين فكل منهما سيد البيوت».

﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ﴾ السقف في الأصل: ما يسقف به البناء قال تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النحل:٢٦].

والمراد بالسقف المرفوع: السماء؛ لأنها سقف الأرض، وهي كالقبة عليها، وسقف العالم، قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفًا مَّحۡفُوظًاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

ويحتمل أن المراد به العرش؛ لأنه سقف لجميع المخلوقات قال ابن كثير[٤]: «وله اتجاه وهو يراد مع غيره، كما قاله الجمهور».

﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ البحر في الأصل: هو الشق والمراد به الماء الكثير كمياه البحار والأنهار والغدران، وسمي بذلك؛ لعمقه واتساعه وكونه في شق من الأرض.

والمراد بالبحر بحر الأرض الذي نشاهده، وقيل المراد به: البحر الذي فوق السموات وعليه العرش.

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ـ ذكر الملائكة ٣٢٠٧، ومسلم في الإيمان ـ باب الإسراء ١٦٤، والنسائي في الصلاة ٤٤٨، والترمذي في التفسير ٣٣٤٦، وأحمد ٣/١٤٨-١٤٩.
(٢) في «تفسيره» ٧/٤٠٣-٤٠٤.
(٣) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٥٢.
(٤) في «تفسيره» ٧/ ٤٠٥.

﴿ٱلْمَسْجُورِ﴾ الموجج والموقد والمملوء نارًا يوم القيامة، كما قال عز وجل: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير:٦] أي: أوقدت فصارت نارًا تتأجج.

وقيل ﴿ٱلْمَسْجُورِ﴾: المملوء ماءً.

وقيل المراد بالمسجور: الممنوع المكفوف عن الأرض لئلا يغمرها فيغرق أهلها، مع أنه يغطي أكثر من ثلاثة أرباع الأرض، وقيل المراد بالمسجور: المرسل، وقيل: اليابس الذي نضب ماؤه، وقيل غير ذلك.

قال ابن القيم[1]: «وأقوى الأقوال في المسجور أنه الموقد، وهذا هو المعروف في اللغة من المسجور ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير:٦] قال علي وابن عباس: أوقدت فصارت نارًا، ومن قال: يبست وذهب ماؤها فلا يناقض كونها نارًا موقدة، وكذا من قال ملئت، فإنها تملأ نارًا وإذا اعتبرت أسلوب القرآن ونظمه ومفرداته رأيت اللفظة تدل على ذلك كله، فإن البحر محبوس بقدرة الله، ومملوء ماء، ويذهب ماؤه يوم القيامة، ويصير نارًا، فكل واحد من المفسرين أخذ معنى من هذه المعاني».

وفي كون البحر مملوءً بالماء، محيطًا بالأرض مع أنه ليس في الطبيعة ما يقتضي حبس الماء عن بعض جوانب الأرض، بل إن مقتضى الطبيعة أن يكون الماء غامرًا للأرض؛ لأن كرة الماء عالية على كرة الأرض بالذات في ذلك؛ دلالة على وجود الخالق وكمال قدرته فهو الذي أمسك الماء بقدرته أن يفيض على الأرض فيغرقها، وفي هذا أعظم الرد على أصول الملاحدة والدهرية الذين ينكرون الصانع وينسبون الأمر إلى الطبيعة[2].

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ هذا هو المقسم عليه، أي: جواب القسم، أي: لواقع على الكافرين فأقسم عز وجل بخمسة أشياء من أعظم مظاهر آياته وقدرته وحكمته الدالة على ربوبيته ووحدانيته على أن عذابه واقع على الكافرين والمكذبين.

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٥٥.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٥١-٢٥٥.

﴿مَا لَهُۥ مِن دَافِعٖ﴾ أي: ما له من أحد يدفعه ويمنعه قبل أن يقع، ولا يدفعه ويرفعه إذا وقع، بخلاف عذاب المؤمن العاصي فقد يدفع قبل وقوعه أو بعد وقوعه، إما بعفو الله ـ عز وجل ـ أو بشفاعة صالح المؤمنين، وغير ذلك.

﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا﴾ أي: أن وقوع العذاب بالمكذبين يوم القيامة الذي من علاماته وأهواله أن تمور السماء فيه مورًا، أي: تتحرك وتدور وتموج وتضطرب وتتكفأ قال الجوهري في الصحاح[1]: «مار الشيء يمور مورًا: تَرَهْيَأ، أي: تحرك وجاء وذهب، كما تتكفأ النخلة العَيْدانة».

قال الأعشى[2]:

كأن مشيتها من بيت جارتها ... مور السحابة لا ريث ولا عجل

قال ابن القيم[3]: «والمور قد فسر بالحركة وفسر بالدوران وفسر بالتموج والاضطراب والتحقيق أنه حركة في تموج وتكفؤ وذهاب ومجيء، ولهذا فرق بين حركة السماء وحركة الجبال فقال: ﴿وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا﴾ وقال: ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ﴾ [التكوير: ٣٠] من مكان إلى مكان، وأما السماء فإنها تتكفأ وتموج وتذهب وتجيء».

﴿وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾ [النمل:٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾ [القارعة:٥]، وتنسف نسفًا وتصير هباء، كما قال تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا﴾ [طه:١٠٥-١٠٧].

قال ابن القيم[3]: «ثم ذكر وعيد المكذبين بالمعاد والنبوة، وذكر أعمالهم وعلومهم التي كانوا عليها وهي الخوض الذي هو كلام باطل، واللعب الذي هو سعي ضائع، فلا علم نافع ولا عمل صالح، بل علومهم خوض بالباطل وأعمالهم لعب...»

---

(١) مادة «مور» وانظر «لسان العرب» مادة «مور».

(٢) انظر «ديوانه» ص١٤٤ طبعة بيروت وفيه «مر السحابة» و لا شاهد فيه والبيت في «مجاز القرآن» لأبي عبيدة ٢/ ٢٣١، و«جامع البيان» ٢٧/ ١٣، وانظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٥٦.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٥٦.

﴿فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ ويل كلمة وعيد وتهديد، ويقال: اسم واد في جهنم والمعنى: فويل لهم ذلك اليوم من عذاب الله ونكاله بهم وعقابه لهم.

﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ﴾ اي: يخوضون في الباطل، ويتخذون دينهم هزوًا ولعبا فاعمالهم وأقوالهم وأعمارهم كلها لعب ولهو لا جد فيها، بل هي وبال عليهم، كما قال الله تعالى فيما حكاه عنهم أنهم يقولون: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٥]، وكما قال تعالى عن المنافقين أنهم قالوا ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [التوبة:٦٥]، وقال تعالى عن الكافرين: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٥١].

وإذا كان هذا الوصف للمكذبين، فما حال مجالس المؤمنين المصدقين، وماذا فيها من الخوض فيما لا يعني من القيل والقال والغيبة والنميمة وضياع الأعمار، ولا شك أن من كانت هذه حاله فله نصيب من الوصف المذكور في الآية. وما أكثر هذا الصنف وقد أحسن القائل:

قد رشحوك لأمر لو فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ﴾ يدعون: يساقون ويدفعون في أقفيتهم وأكتافهم (دعا) دفعًا بعد دفع بشدة وعنف.

﴿إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ وهي الدار التي أعدها الله لتعذيب الكفرة والعصاة، وسميت جهنم لجهمتها وظلمتها و بعد قعرها وشدة حرها أعاذنا الله وجميع المسلمين منها.

﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ۝ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي: يقال لهم هذا، وقد يكون القائل هو الله عز وجل، أو ملائكته وزبانية النار، ويقال لهم هذا على وجه التقريع والتوبيخ لهم.

وفي توجيه الخطاب لهم مباشرة بهذا التقريع والتوبيخ من العذاب المعنوي الذي لا يقل شدة ووقعًا على قلوبهم من العذاب الحسي.

قوله: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ يقال لهم هذا عندما يعاينون النار

ويوقفون عليها.

أي: هذه النار التي كنتم بها في الدنيا تكذبون، وتقولون لا حقيقة لها بتكذيبكم للرسل والوحي من عند الله - عز وجل - فها هي النار، وليس الخبر كالعيان؛ ولهذا قال الله عنهم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ، أي: أهذه النار التي أوقفتم عليها، مجرد سحر وتخييل كما كنتم في الدنيا ترمون رسل الله عز وجل وما جاؤوا به من الوحي بالسحر. كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر:٢].

وهكذا قال فرعون وقومه للحق الذي جاءهم به موسى عليه السلام كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [النمل: ١٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ [القصص:٣٦].

وهكذا قال النصارى لعيسى عليه السلام كما قال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠].

وهكذا قال المكذبون من سائر الأمم لرسلهم، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢].

﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ الاستفهام كسابقه للتقريع والتوبيخ، أي: أم على أبصاركم غشاوة فلا تبصرونها كما كان عليها غشاوة في الدنيا فلا تبصرون الحق. والحقيقة أن هذه المزاعم قد زالت، والغشاوة قد انقشعت كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢] أي: حاد جدًا.

﴿ٱصْلَوْهَا﴾ أمر إهانة وتحقير، أي: ادخلوها وانغمروا فيها، وقاسوا حرها وتقلبوا فيها لتصيبكم من جميع جهاتكم وجوانبكم.

﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ﴾ أي: فاصبروا على حرها ولهيبها وحميمها وزقومها والوان عذابها ﴿أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ﴾ «أو» عاطفة.

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾: أي: سواء عليكم أصبرتم على عذابها أو لم تصبروا، فلا الصبر - مع استحالته - يخفف عنكم عذابها، ولا الجزع يعطف عليكم قلوب الخزنة، ولا يستنزل لكم الرحمة، فعذابها ملازم لكم، لا محيد لكم عنها، ولا خلاص لكم منها كما قال عز وجل: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧]، وقال عزل وجل ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة:٣٧]، وقال تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧].

﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ «إنما» كافة ومكفوفة[1]، تفيد الحصر، أي: ما تجزون إلا ما كنتم تعملون و«ما» موصولة أو مصدرية والتقدير: إنما تجزون الذي كنتم تعملون، أو إنما تجزون عملكم. فدفعهم إلى النار وغمرهم فيها جزاء كفرهم. فالله عز وجل لا يظلم أحدًا بل يجازي كلا بما عمل إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، كما قال عز وجل: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وينبغي للإنسان أن يتأمل فيما ذكر الله عز وجل من أهوال يوم القيامة وما توعد الله عز وجل به المكذبين من العذاب والتقريع والتوبيخ فيحذر من سلوك طريقهم فإن السعيد من وعظ بغيره.

الفوائد والعبر:

١ - إقسام الله - عز وجل - بالطور وما بعده على وقوع العذاب على الكافرين فلا مانع يمنعه، ولا رافع يرفعه.

٢ - تعظيم الله - عز وجل - للطور وهو مكان نبوة موسى عليه السلام التي هي من

---

(١) أي: دخلت «ما» على «إن» فكفتها عن العمل.

أعظم النبوات.

٣ ـ تعظيم الله ـ عز وجل ـ للقرآن الكريم الذي هو أعظم كتبه ـ عز وجل ـ، أنزل على فضل رسله محمد ﷺ.

٤ ـ إثبات البيت المعمور وعظمته في السماء السابعة حذاء الكعبة والذي تعمره الملائكة بالعبادة.

٥ ـ الإشارة لعظم قدرة الله ـ عز وجل ـ في رفع السماء وبنائها، وفي خلق البحر وملئه بالماء ثم بالنار.

٦ ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لنبيه ﷺ.

٧ ـ شدة أهوال القيامة ففيه تموج السماء وتضطرب تمهيداً لذوبانها وتبديلها، وتسير الجبال تمهيداً لنسفها وكونها كثيباً مهيلا.

٨ ـ الوعيد الشديد والتهديد الأكيد للمكذبين الخائضين في الباطل.

٩ ـ أنه يجمع للمكذبين العذاب الحسي بدفعهم بشدة إلى النار والعذاب المعنوي بتقريعهم وتوبيخهم على تكذيبهم بها في الدنيا وزعمهم أنما جاءت به الرسل سحر.

١٠ ـ تبكيت المكذبين وتعنيفهم بشدة، وتحديهم بقوة، وبيان أن هذا العذاب جزاء عملهم.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

أقسم الله عز وجل في الآيات السابقة على وقوع العذاب على المكذبين، وذكر أنهم يوم القيامة يدفعون إليها دفعًا ويغمرون فيها جزاء تكذيبهم وخوضهم بالباطل، ثم أتبع ذلك بذكر ما أعده سبحانه للمتقين جزاء تقواهم وعملهم الصالح على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب ليجمع المؤمن في طريقه إلى الله بين الخوف والرجاء، فلا يقنط من رحمة الله ولا يأمن مكر الله.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد»[١].

قوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾: (إن) حرف توكيد ونصب، (المتقين) جمع متقٍ، وهم الذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، فجعلوا بذلك بينهم وبين عذاب الله وقاية.

﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ جنات: جمع جنة، وهي ما أعده الله عز وجل لأوليائه المتقين وحزبه المفلحين، وسميت (جنات)؛ لأنها تجن، أي: تستر من بداخلها لكثرة أشجارها والتفافها ونكّرت للتعظيم.

﴿وَنَعِيمٍ﴾ أي: ونعيم عظيم، والنعيم: ما يتنعمون به ويتلذذون من نعيم البدن ونعيم القلب، من أنواع المآكل والمشارب والمناكح والملابس والمراكب والحبرة والسرور وغير ذلك. نسأل الله تعالى من فضله.

﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ هذا وما بعده تفصيل للنعيم الذي أعده الله للمتقين في الجنات.

﴿فَاكِهِينَ﴾ حال، أي: حال كونهم فاكهين بما آتاهم ربهم من أصناف الملاذ

---

(١) أخرجه مسلم في التوبة ٢٧٥٥، والترمذي في الدعوات ٣٥٤٢.

وأنواع النعيم، والتفكه: التلذذ بالشيء والإعجاب به والسرور وطيب النفس والبال والمرح والفرح كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝٥٥ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس:٥٥-٥٦] والتفكه من أعظم النعيم المعنوي، وهو نعيم القلب.

﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ «ما» موصولة، أي: بالذي آتاهم ربهم.

وأسند الإيتاء إليه عز وجل باسم الربوبية تذكيرًا بأن النعم الدنيوية والأخروية كلها منه سبحانه وأنه المربي المنعم كما قال عز وجل ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣].

﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: نجاهم من عذاب الجحيم، وهي النار التي أعدت للكافرين والعصاة، وسميت بالجحيم لعظمها وشدة توقدها وتأججها وبعد قعرها، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٩٧].

وهذه نعمة مستقلة، فجمع الله لهم بين حصول المطلوب والنجاة من المرهوب، وذلك غاية الفوز والفلاح.

وفي الإظهار في مقام الإضمار في قوله ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ وإضافة «رب» إلى ضميرهم في الموضعين امتنان من الله ـ عز وجل عليهم وإشارة لعنايته بهم وتكريمه وحفظه لهم.

قال ابن القيم[1]: «والمقصود أنه سبحانه جمع لهم بين النعيمين: نعيم القلب بالتفكه، ونعيم البدن بالأكل والشرب والنكاح، ووقاهم عذاب الجحيم، فوقاهم مما يكرهون، وأعطاهم ما يحبون جزاء وفاقًا..»

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤] أي: يقال لهم هذا تكريمًا لهم، وقد يكون القائل لهم هذا هو الله عز وجل أو ملائكته، وأطلقه كأن كل قائل يقول لهم هذا ويهنئهم به.

وإنما أتى الأمر بالأكل والشرب دون سائر أنواع التمتع؛ لأن الأكل والشرب من

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/٢٥٧

أهم وأخص أنواع التمتع، ومما لا غنى للإنسان عنهما وهما كسوة الباطن، بخلاف ما عداهما من أنواع التمتع.

﴿هَنِيٓـًٔا﴾ أي: طيبًا لذيذًا مستساغًا حال الأكل، ونافعًا مفيدًا محمود العاقبة بعد الأكل، مع الأمن من انقطاع هذا النعيم، وهذه الأوصاف الثلاثة لا تتحقق إلا في طعام وشراب أهل الجنة. نسأل الله تعالى من فضله.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الباء سببية و«ما» موصولة أو مصدرية، أي: بسبب الذي كنتم تعملون، أو بسبب عملكم، وهذا يقرر مذهب أهل السنة والجماعة أن العمل الصالح سبب لدخول الجنة، وليس عوضًا عن دخول الجنة كما تقوله المعتزلة، وإنما دخول الجنة برحمة أرحم الراحمين.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لن يُدْخِل أحدًا عملُه الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل، فسددوا وقاربوا، ولا يتمنين أحدكم الموت، إما محسنًا فلعله أن يزداد خيرًا وإما مسيئاً فلعله أن يستعتب»[1].

وكما في قصة الإسرائيلي الذي عبد الله خمسمائة سنة وأخرج الله له الرمانة كل يوم ينزل ويأكل منها، ولما قال الله ـ عز وجل ـ: «أدخلوا عبدي الجنة برحمتي. قال: بل بعملي. فقال الله ـ عز وجل ـ: رد واعبدي فحاسبوه، فوجدوا أن أعماله كلها خلال خمسمائة سنة لا تكافئ نعمة البصر، فقال الله ـ عز وجل ـ: أدخلوا عبدي النار بعدلي. فقال: لا يا رب أدخلني الجنة برحمتك»[2].

قال ابن كثير[3]: «وقوله ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: هذا بذلك تفضلا منه وإحسانًا».

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ الاتكاء: الجلوس.

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١٦، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٣٤، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠١.

(٢) أخرجه الحاكم في التوبة ٤/ ٢٥٠ ـ من حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ وقال: «صحيح الإسناد» وضعفه الذهبي. وقال ابن القيم في «شفاء العليل» ١/ ١١٤: «إسناده صحيح، ومعناه صحيح لا ريب فيه».

(٣) في «تفسيره» ٧/ ٤٠٧.

والسرر: جمع سرير، وهو موضع الجلوس والاضطجاع والاتكاء، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «السرر في الحجال»[1]. قال تعالى: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾ [الزخرف: ٣٤].

وعن الهيثم بن مالك الطائي أن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل ليتكئ المتكأ مقدار أربعين سنة ما يتحول عنه، ولا يمله، يأتيه ما اشتهت نفسه، ولذت عينه»[2].

﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾ أي: وجوه بعضها إلى بعض كما قال عز وجل ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧، الصافات:٤٤]، وقال تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ﴾ [الواقعة: ١٥ ـ ١٦]، ومعنى ﴿مَّوْضُونَةٍ﴾ أي: منسوجة بالذهب بإحكام، وقال تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ [الغاشية:١٣].

﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ كقوله تعالى في سورة الدخان ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الآية:٥٤]، والمعنى: قرناهم، وأنكحناهم إياهن.

والحور: النساء الجميلات اللاتي يحار الطرف في جمالهن وحسنهن، وبياض وجوههن وأجسادهن.

و«العين» حسان الأعين، اللاتي جمعن بين سعة العيون، مع شدة سواد العين وشدة بياضها، قال ابن كثير[3]: «وهي النجلاء العيناء»، كما قال عز وجل ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٢، ٢٣]، وقال عز وجل: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ۝ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٨-٤٩]، وقال عز وجل: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن: ٧٠]

قال ابن القيم[4]: «فالبياض في ألوانهن، والحسن في وجوههن، والملاحة في عيونهن».

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/٤٠٧.
(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/٢٥٨، ٢٦٢، «تفسير ابن كثير» ٧/٤٠٧.
(٣) في «تفسيره» ٧/١١.
(٤) انظر «بدائع التفسير» ٤/٢٥٩.

الفوائد والعبر:

١ ـ جمع القرآن الكريم بين الترغيب والترهيب.

٢ ـ عظم ما أعد الله عز وجل ـ للمتقين من الجنات والنعيم.

٣ ـ تفكه المتقين وتلذذهم بما آتاهم ربهم من ألوان النعيم، ووقايتهم من عذاب الجحيم، فحصلوا على المطلوب، ونجوا من المرهوب.

٤ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة للمتقين.

٥ ـ تهنئة أهل الجنة بما أعد الله لهم من الأكل والشرب جمعاً لهم بين النعيم الحسي والنعيم المعنوي، الذي لا يقل عن النعيم الحسي.

٦ ـ أن طعام أهل الجنة أبلغ ما يكون طيباً ولذة وطعماً ونفعاً وحسن عاقبة بلا انقطاع.

٧ ـ أن الإيمان والعمل الصالح سبب لدخول الجنة والتنعم فيها.

٨ ـ أن من نعيم أهل الجنة جلوسهم على السرر المصفوفة يقابل بعضهم بعضا ولا يتدابرون، وتزويجهم بالحور العين.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ (٢١) وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ (٢٢) يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ (٢٣) ۞وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ (٢٤) وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ (٢٥) قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ (٢٨)﴾.

هذه الآيات في تفصيل أنواع النعيم الذي أعده الله للمتقين في الجنات.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ الواو استئنافية قرأ أبو عمرو (وأتبعناهم ذرياتِهم) فالفاعل ضمير المتكلم و(ذرياتهم) بالألف وكسر التاء مفعول به أي: أن الله أتبعهم ذرياتهم بإيمان، وقرأ ابن عامر (وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّاتُهُم) وقرأ الباقون (وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم).

أي: والذين آمنوا من الوالدين واتبعتهم ذريتهم من أولادهم وأحفادهم بإيمان، أي: فاجتمعوا على الإيمان، لا على النسب والحسب والحرية أو الرق، بل على الإيمان.

﴿أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ أي: اتبعناهم ذريتهم فجمعنا بينهم في المنزلة في الجنة وإن لم تبلغ الذرية مبلغ الآباء في العمل لتقرّ أعين الوالدين بأولادهم وأحفادهم، وليحصل للجميع لذة الاجتماع بعد الفرقة، وهذا من فضل الله عز وجل وكرمه وامتنانه وإحسانه إلى عباده، وهذا من أفضل ألوان النعيم، فإن في اجتماع الوالدين بذريتهم، أولادهم وأحفادهم كمال الأنس والسرور. نسأل الله تعالى من فضله. ولا سرور مع الفرقة، ولهذا فإن الموت قد فضح الدنيا فلم يدع لذي لب فيها فرحًا

﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ قرأ ابن كثير بكسر اللام من (أَلِتناهم) وقرأ الباقون بفتحها.

أي: وما نقصناهم من عملهم من شيء، فلم نحط من درجة الوالدين مقابل رفع ذريتهم معهم قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته، وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه، ثم قرأ هذه الآية»[1].

---

(١) اخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢١/ ٥٧٩ ـ ٥٨٠، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» ٣/ ٣٦-٣٨ـ الآثار ٨٤٧-٨٤٩، والطحاوي في «مشكل الآثار» ٢/ ١٤. وإسناده صحيح.

وقال ابن كثير[١] في كلامه على الآية: « يخبر تعالى عن فضله وكرمه، وامتنانه ولطفه بخلقه وإحسانه أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم في الإيمان يلحقهم بآبائهم في المنزلة وإن لم يبلغوا عملهم، لتقرّ أعين الآباء بالأبناء عندهم في منازلهم، فيجمع الله بينهم على أحسن الوجوه، بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل ولا ينقص ذاك من عمله ومنزلته، للتساوي بينه وبين ذاك، ولهذا قال: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾.

وقد اختلف المفسرون هل هذا الإلحاق يراد به الذرية الصغار، أو الكبار الذين عملوا، أو أنه يشمل الصغار والكبار على أقوال ثلاثة، واختار ابن القيم أنه يختص بالصغار قال: «واختصاص الذرية ههنا بالصغار أظهر لئلا يلزم استواء المتأخرين والسابقين في الدرجات، ولا يلزم هذا في الصغار فإن أطفال كل رجل وذريته معه في درجته»[٢].

قال ابن كثير[٣] بعد كلامه على قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ قال: «**هذا فضله تعالى على الأبناء؛ ببركة عمل الآباء، وأما فضله على الآباء؛ ببركة دعاء الأبناء....**» ثم ذكر ما رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة، فيقول: يا رب، أنى لي هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك**»[٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»[٥].

ودل على الأمرين جميعًا ـ شفاعة الآباء بالذرية، والذرية بالآباء ـ قوله تعالى:

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٠٧-٤٠٨.
(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦.
(٣) في «تفسيره» ٧/ ٤٠٩.
(٤) أخرجه أحمد في «المسند» ٢/ ٥٠٩. قال ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٤٠٩ «إسناده صحيح»، وأخرجه ابن ماجه في الأدب ـ بر الوالدين ٣٦٦٠.
(٥) أخرجه مسلم في الوصية ـ ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ١٦٣١، وأبو داود في الوصايا ٢٨٨٠، والنسائي في الوصايا ٣٦٥١، والترمذي في الأحكام ١٣٧٦.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ [الرعد:٢٣]، وقوله تعالى:﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [غافر:٨]

﴿كُلُّ ٱمْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ قال ابن كثير(١): «لما أخبر عن مقام الفضل، وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل يقتضي ذلك، أخبر عن مقام العدل، وهو أنه لا يؤاخذ أحدًا بذنب أحد».

ومعنى قوله: ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أي: كل إنسان مرتهن بعمله، هذا في مقام العدل فلا يؤاخذ أحد بذنب غيره، كما قال عز وجل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر: ١٨] فلا يؤخذ أحد بجريرة غيره حتى أولاد الكفار لا يلحقون بالعذاب تبعًا لآبائهم ما لم يعملوا أعمال الآباء.

ففي مقام الفضل منه عز وجل والإحسان إلى عباده يشفع بعضهم في بعض، ويزيد في أجور من شاء منهم ويضاعفها لهم أضعافًا كثيرة بلا حد ولا عد ولا حساب تفضلا منه عز وجل وكرمًا وامتنانًا، كما أنه قد يعفو عمن يشاء من أهل المعاصي مما هو دون الشرك كما قال عز وجل : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

أما في مقام العدل فإنه يجازي كلاً بما عمل، فلا يؤاخذ أحدًا بجرم غيره من الناس أبًا كان أو ابنًا أو غيره، ويجازي المسيء على قدر إساءته، ولا يظلم أحدًا من خلقه سبحانه كما قال عز وجل: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٨] وقال عز وجل ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق:٢٩]، وقال عز وجل: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢، الأنفال:٥١، الحج:١٠].

وفي قوله تعالى في سورة المدثر: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾ [الآيات:٣٨-٤٢] ما يشير

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٠٩.

إلى الأمرين جميعًا: مقام العدل، ومقام الفضل، ففي مقام العدل كل نفس مرتهنة بعملها تجازى به من غير زيادة أو نقصان، وفي مقام الفضل يزيد سبحانه من شاء من خلقه ويضاعف لهم أكثر مما عملوه، فلم يجازوا بأعمالهم فقط، بل ضوعف لهم الأجر، وجوزوا بأكثر منها، ولهذا قال ﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي: فلا يجازون بعملهم فقط، بل يزاد لهم الأجر على عملهم، ويضاعف، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وليس في الآية ما ينفي أنهم يجازون بما كسبوا؛ لأن كل إنسان مرتهن ومجازى بعمله إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر كما قال عز وجل: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨].

وإنما فيها الإشارة لما سبق وهو أن أصحاب اليمين لا يكون جزاؤهم بقدر أعمالهم فقط بل يضاعف الله لهم الأجور بفضله ومنّه وكرمه.

﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ﴾ أي: أعطيناهم عطاءً مستمر الأمد إلى الأبد وزودناهم بفاكهة، وهي جنس ما يتفكه به ويحصل به التلذذ والتنعم والسرور وطيب النفس والبال والمرح والفرح من أنواع ما يتفكه به كما قال تعالى: ﴿لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ [يس:٥٧]، وقال تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ﴾ [ص:٥١]، وقال تعالى: ﴿لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ [الدخان:٥٥]، وقال تعالى: ﴿لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٩]، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤١ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكۡرَمُونَ﴾ [الصافات: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ ۝٤١ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ [المرسلات: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴾ [الرحمن:١١]، وقال تعالى في وصف جنتي المقربين﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ﴾ [الرحمن:٥٢]، وقال تعالى في وصف جنتي أصحاب اليمين: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ﴾ [الرحمن:٦٨]، كما قال تعالى: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ [الطور:١٨]. وهذا يدل على أنهم يتفكهون بكل ما آتاهم ربهم من أنواع النعيم، وذلك أن كل ماكول أهل الجنة مما يتفكه به؛ لأنهم لا يجوعون أبدًا.

﴿وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ أي: وأمددناهم بجنس اللحم، أي: بأنواع اللحوم ﴿مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ أي: مما يستطاب ويستلذ وتشتهيه نفوسهم.

وقدم الفاكهة على اللحم كما في قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحۡمِ

طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة:٢٠، ٢١]. مما يدل على أن الفاكهة تؤكل قبل اللحم، وأن ذلك هو الأنفع للجسم، وهذا خلاف ما عليه كثير من الناس اليوم.

﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أي: يتعاطون فيها كأسًا وهي كأس الخمر على سبيل الأنس والانشراح والمداعبة.

﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا﴾ أي: لا يحصل بسبب شربها لغو، وهو الكلام اللغو من الهذيان والباطل؛ لأن خمر الجنة لا يحصل بسببها ذهاب العقل كخمر الدنيا كما قال تعالى: ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ۝ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٦، ٤٧]، وقال تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة:١٩].

فهي بيضاء حسنة المنظر لذيذة الطعم، لا تغتال العقول فتذهبها، ولا يحصل بسببها نزيف بسبب الصداع وألم البطن، بخلاف خمر الدنيا، فإن من شربها حصل له الصداع والنزيف، ووقع منه اللغو والهذيان والباطل لإذهابها للعقول.

﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ أي: لا يأثم شاربها، ولا يقع بسبب شربها في الإثم بخلاف خمر الدنيا فإن من شربها أثم لما فيها من المضار والمفاسد العظيمة، ووقع فيما يؤثم من الموبقات والجرائم بسبب ذهاب العقل.

قال ابن القيم[1]: «فنفى باللغو: التخاصم والهجر والفحش في المقال والعربدة، ونفى بالتأثيم جميع الصفات المذمومة التي أثمت شارب الخمر».

﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ويدور عليهم لقضاء حوائجهم ﴿غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ أي: خدم وحشم لهم أعطاهم الله إياهم في الجنة.

﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ أي:كأنهم في جمالهم وبياضهم وجمال أبدانهم وحسن هيئاتهم، ولباسهم ونظافتهم ونضارتهم (لؤلؤ) وهو من أحسن أنواع الجواهر (مكنون) أي: مصون في أصدافه، لم تدنسه الأيدي، ولم يتغير، ولم يتبدل بسبب الاستعمال أو عوامل البيئة، فهم مع انتصابهم لخدمتهم لم تُذهب الخدمة منهم تلك المحاسن.

وهؤلاء الغلمان باقون على هيئاتهم كما قال عز وجل: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٦٠

(٢٠) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة:١٧، ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان:١٩].

ومع الفرق الشاسع والبون الواسع بين نعيم الدنيا ونعيم الجنة، ترى الفرق بين من سخر الله له أولاده وأهله وأصلحهم فكانوا في طاعته وقضاء حوائجه يرسل أحد أبنائه لشراء حاجة من السوق، فيذهب ويأتي بها، ويرسل الآخر بهدية إلى أحد الأقارب، ويرسل الثالث بمهمة ثالثة وهكذا فما أعظم غبطة هذا الوالد وما ألذ حياته وما أطيب عيشه، بخلاف من سلط عليه أهله وأولاده فخرجوا عن طاعته فهو يخدم نفسه بنفسه، ولا يجد من أهله وولده من يقوم بجانبه ويعينه على قضاء حوائجه فلا تسأل عن حاله ونكد عيشه، وقد يكون هذا أتي من قبل نفسه بسبب تقصيره في حق الله تعالى وفي حق أهله وولده، وقد يكون ذلك ابتلاء من الله له لتكفير سيئاته ورفعة درجاته.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ من تمام نعمة الله عليهم والتحدث بها وسرورهم أنهم يقبل بعضهم على بعض يتساءلون، ويتوجه بعضهم إلى بعض في الحديث والتساؤل عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا.

﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ اي: يقول بعضهم لبعض: إنا كنا قبل، اي في الدار الدنيا في محل الأمن بين أهلنا خائفين من الله عز وجل، ومن عذابه وعقابه كما قال الله عنهم ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المعارج: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك:١٢].

﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ اي: تفضل عز وجل علينا فأجارنا مما كنا نخاف، ووقانا عذاب السموم وهي النار الحامية فهؤلاء كانوا خائفين مع إحسانهم، فأبدلهم الله بذلك أمنا في دار المقامة لا خوف بعده، نسأل الله تعالى من فضله، بخلاف من جمعوا بين الإساءة والأمن والسرور، كما قال عز وجل ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق:١٣].

وقد قال بعض السلف: لأن تصحب أناساً يخوفونك حتى تدرك الأمن خير من أن تصحب أناساً يؤمنونك حتى تدركك المخاوف.

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ قرأ نافع المدني والكسائي (أنا كنا) بفتح الهمزة، وقرأ الباقون بكسرها ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ (ندعوه) اي: نعبده ونتضرع إليه رغبة ورهبة،

والدعاء هو العبادة كما قال عز وجل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠].

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ قال: «الدعاء هو العبادة» وقرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ إلى قوله (داخرين)[١].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: هو البر الرحيم بعباده لهذا استجاب لنا وأعطانا سؤلنا و«البر» و «الرحيم» اسمان من أسماء الله عز وجل و«البر» معناه ذو البر، وسعة الإحسان والجود والكرم، الذي من صفته عز وجل البر بعباده المتقين.

كما يدل الرحيم على إثبات صفة الرحمة لله عز وجل صفة ثابتة له عز وجل، كما قال عز وجل: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف:٥٨]، وصفة فعلية له يوصلها من شاء من عباده، كما قال عز وجل:﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت:٢١]، كما يدل على إثبات صفة الرحمة العامة له عز وجل لجميع المخلوقات، والرحمة الخاصة لأوليائه المتقين وحزبه المفلحين.

وفي قولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ وقولهم ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ ما يفيد أنهم جمعوا بين الخوف والرجاء، فحصلوا على المطلوب وهو دخول الجنة، ونجوا من المرهوب وهو دخول النار، وهذا مما ينبغي أن يسير عليه المؤمن في طريقه إلى الله، بأن يكون بين الخوف والرجاء وأن يكونا له كجناحي الطائر ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في جنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد»[٢].

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت، فقال: «كيف تجدك»؟ قال: والله يا رسول الله، إني لأرجو الله وأخاف ذنوبي. فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجوه وآمنه مما يخاف»[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن ٢٩٦٩، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٢٨ وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».
(٢) أخرجه مسلم في التوبة ٢٧٥٥، والترمذي في الدعوات ٣٥٤٢.
(٣) أخرجه الترمذي في الجنائز٩٨٣، وابن ماجه في الزهد- ذكر الموت والاستعداد له ٤٢٦١.

وفي قولهم: ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ وقولهم: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ دلالة على أن دخولهم الجنة ووقايتهم من النار إنما هو بفضل الله عز وجل وبره ورحمته بعباده كما قال ﷺ: «لن يُدخل أحدًا عملُه الجنة قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[1].

فبسبب خوفهم في الدنيا منه عز وجل ومن عقابه، وبسبب عبادتهم له أدخلهم عز وجل الجنات وآمنهم من المخاوف ووقاهم من النار، وذلك كله برحمته وبره سبحانه وتعالى.

الفوائد والعبر:

١ ـ فضل الله ـ عز وجل ـ وكرمه في إلحاق الذرية بآبائهم من المؤمنين في الآخرة وإن كانوا دونهم في العمل من غير نقص في درجة الآباء لتقرَّ أعين الآباء، ويحصل للجميع لذة الاجتماع والسرور.

٢ ـ أن كل إنسان مرتهن بعمله وسيجازى عليه، وهذا في مقام العدل، أما في مقام الفضل فإن الله يزيد من يشاء ويعفو عن من يشاء.

٣ ـ عظم ما أعده الله ـ عز وجل ـ لأهل الجنة من ألوان النعيم، ففاكهة، ولحم مما يشتهون، وكأس، وغلمان حسان عليهم يطوفون.

٤ ـ الإشارة إلى أن الأحسن تقديم الفاكهة على اللحم في الأكل.

٥ ـ سلامة خمر الجنة من اللغو والتأثيم مما يحصل في خمر الدنيا.

٦ ـ المؤانسة بين أهل الجنة وإقبال بعضهم على بعض وتساؤلهم فيما بينهم متذكرين نعمة الله عليهم وحالهم في الدنيا.

٧ ـ اغتباط أهل الجنة وسرورهم أن وفقهم الله في الدنيا إلى خوفه وعبادته ودعائه ببره ورحمته، فأبدل الله خوفهم أمناً ووقاهم في الآخرة عذاب النار وسمومها.

٨ ـ وجوب الجمع بين خوف الله عز وجل وعبادته ودعائه، ورجائه، وأن ذلك هو السبب بإذن الله ـ للوقاية من الجحيم، ودخول جنات النعيم. والحذر من الجمع بين الأمن والإساءة.

٩ ـ أن الأمن الحقيقي في الدنيا والآخرة للمؤمنين الذين خافوا الله واتقوه.

١٠ ـ إثبات اسمين من أسماء الله ـ عز وجل ـ وهما «البر» و «الرحيم» وإثبات صفة البر والرحمة له ـ عز وجل.

---

(١) سبق تخريجه.

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَـٰمُهُم بِهَـٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

بعد ما ذكر الله عز وجل ما أعده للمكذبين من العذاب الأليم وما أعده للمتقين من النعيم المقيم أمر الرسول ﷺ بالثبات على التذكير وعدم الالتفات لما يرميه به المكذبون من قولهم: كاهن أو مجنون أو شاعر، وقولهم: إنه تقول القرآن من عند نفسه، والرد عليهم في هذه المزاعم الباطلة، التي حملهم عليها الطغيان وعدم الإيمان.

قوله:﴿فَذَكِّرْ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط مقدر،والتقدير: إن وصفك الكافرون بالكهانة والجنون، فذكرهم بالله وبما أنزله عليك من الوحي والذكر العظيم، واستمر في تذكيرهم.

﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ الفاء تعليلية، «وما» نافية، أي: ولا تبال بما يقول عنك المكذبون من قولهم: كاهن أو مجنون فما أنت بحمد الله بما أنعم به عليك ربك من النبوة بكاهن ولا مجنون كما قال عز وجل ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١]، أي: بإنعامه عليك بالنبوة.

والباء في قوله (بكاهن) زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى للنفي.

قال ابن كثير[١]: «والكاهن الذي يأتيه الرَّئِيُّ من الجان بالكلمة يتلقاها من خبر السماء».

والمجنون: هو المعتوه فاقد العقل، الذي يتخبطه الشيطان من المس، أي: لست بإنعام الله عليك بالنعمة الكبرى نعمة النبوة والرسالة بكاهن ولا مجنون، وكيف تكون بهذه النعمة كاهنًا ومجنونًا؟! فدع عنك أقاويلهم الباطلة وافتراءاتهم الكاذبة واستمر على تذكير الناس بالله ولا تبال بهذه القواطع.

وينبغي أن يستلهم هذا المعنى الدعاة إلى الله والمربون والموجهون فلا يثني

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤١١.

عزائمهم نعيق الناعقين ولا تشكيك المبطلين.

فهذه عادة المكذبين للرسل قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢]، وقال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ۝ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ۝ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ۝ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين: ٢٩ - ٣٢].

﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ ام في هذه الآية والآيات بعدها إلي قوله: ﴿أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدًا﴾ هي «أم» المنقطعة التي بمعنى «بل»[1] التي للإضراب الانتقالي وهمزة الاستفهام الإنكاري والتوبيخي، والتقدير: بل أيقولون عنك يا محمد شاعر.

﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ﴾ أي: ننتظر به، ونصبر عليه حتى يحل به ﴿رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ أي: قوارع الدهر وفجائعه، و﴿ٱلۡمَنُونِ﴾ الموت، أي: حتى يأتيه الموت فنستريح منه، ومن شأنه.

فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ﴾ «قل» الأمر للنبي ﷺ ﴿تَرَبَّصُواْ﴾ أمر تهديد وتحدٍ للمكذبين، أي: انتظروا (فإني) الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، أي: انتظروا فإني معكم من المنتظرين لمن تكون العاقبة والنصر في الدنيا والآخرة، فالعاقبة للمتقين.

وقوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ يدل على مكانة الشاعر عندهم وأثر الشعر فيهم وهذا هو الواقع فلقد كان الشعر في أول الإسلام من أعظم وسائل الدعوة.

﴿أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾ الاستفهام كسابقه للتوبيخ والإنكار أي: بل أتأمرهم عقولهم بهذا، أي: بما يقولونه عنك من المزاعم الباطلة.

﴿أَمۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ﴾ أي: بل هم قوم طاغون متجاوزن للحد في الكفر والعناد فهذا هو الذي حملهم على تلك المقالات، التي لا يقولها عاقل وهم يعلمون أنها محض افتراء وكذب وزور.

---

(١) «أم» تسمى متصلة وتسمى منقطعة، والمتصلة تأتي بعد همزة الاستفهام كقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة:٦]، وقوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ [المنافقون:٦]، والمنقطعة بمعنى «بل» التي للإضراب الانتقالي، أو بمعناها مع همزة الاستفهام.

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ أي: بل أيقولون تقوله يعنون القرآن، أي: افتراه من عند نفسه كما قال عنهم ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ [يونس: ٣٨، هود: ١٣، ٣٥، السجدة: ٣، الأحقاف: ٨].

﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ «بل» للإضراب، و«لا» نافية أي: بل الذي حملهم على هذه المقالة الكفر وعدم الإيمان، مع أنهم في حقيقة أنفسهم يعلمون انه لا يمكن أن يأتي بمثله البشر.

﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، أي: إن صدقوا في دعواهم وقولهم: «تقوله» ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾.

وهذه الآية كقوله: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨]، وقوله: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود:١٣]، وقال تعالى ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

الفوائد والعبر:

١ - تقوية قلب النبي ﷺ وأمره بالاستمرار على التذكير ودفاع الله - عز وجل - عنه.

٢ - امتنان الله - عز وجل - على نبيه ﷺ بنعمة النبوة، وإبطال مزاعم المشركين ورميهم له ﷺ بالكهانة والجنون والشعر.

٣- إثبات ربوبية الله - عز وجل - الخاصة لنبيه ﷺ.

٤ - شدة عداوة المشركين للنبي ﷺ ورميهم له بأسوأ الألقاب وانتظارهم موته. وهكذا شأن المكذبين للرسل عليهم السلام، وفي هذا درس للدعاة إلى الله والمصلحين، أن لا يفتّ في عضدهم مثل هذا.

٥ - أن الموت غاية كل مخلوق، وأن النصر والعاقبة للمتقين، والخسران والبوار للمكذبين.

٦ - الإنكار على المشركين فيما يقولون عن النبي ﷺ من المزاعم الباطلة، وأنه تقوّل القرآن من عند نفسه، وبيان أن الذي حملهم على هذا هو الطغيان وعدم الإيمان فهذا لا يقوله عاقل.

٧ - تحدي المشركين المكذبين للقرآن الزاعمين أنه سحراً وشعراً وكهانة أو أن الرسول ﷺ اختلقه من عند نفسه أن يأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين في زعمهم - وهيهات لهم ذلك.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣)﴾.

قال ابن كثير[(١)]: «هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية».

قوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ ام في هذين الموضعين وما بعدهما هي المنقطعة التي بمعنى «بل» وهمزة الاستفهام الذي بمعنى النفي والإنكار والتوبيخ والوعيد، أي: «بل» أوجدوا من غير خالق، «بل» أهم أوجدوا أنفسهم، وكلا الأمرين مستحيل فمستحيل وجودهم بدون خالق، ومستحيل أن يخلق المرء نفسه، وإذا بطل الأمران تعين أن يكون لهم خالق خلقهم وفاطر فطرهم، وهو الله وحده المستحق للعبادة دون ما سواه.

قال ابن كثير[(١)]: «﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ أي: لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلقهم وأنشاهم بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا».

وقال ابن القيم[(٢)]: «تأمل هذا الترديد والحصر المتضمن لإقامة الحجة بأقرب طريق، وأفصح عبارة بقوله تعالى هؤلاء مخلوقون بعد أن لم يكونوا، فهل خُلقوا من غير خالق خلقهم، فهذا من المحال الممتنع عند كل من له فهم وعقل أن يكون مصنوع من غير صانع، ومخلوق من غير خالق... ثم قال: ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ وهذا أيضًا من المستحيل أن يكون العبد موجدًا وخالقًا لنفسه وإذا بطل القسمان تعين أن لهم خالقًا خلقهم، وفاطراً فطرهم، فهو الإله الحق الذي يستحق عليهم العبادة والشكر، فكيف يشركون به إلهًا غيره، وهو وحده الخالق لهم».

﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: «بل» أهم خلقوا السموات والأرض هذه المخلوقات العظيمة، والجواب كذلك بـ«لا» فإنهم لم يخلقوا أنفسهم، ولم يخلقوا

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤١٢.

(٢) في «الصواعق المرسلة» ٢/ ٤٩٣.

السموات والأرض فكيف يشركون بمن خلقهم وخلقها سبحانه لا شريك له.

﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ (بل) للإضراب الانتقالي، و«لا» نافية أي: إنما حملهم على ذلك عدم تصديقهم ويقينهم.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ أي: «بل» أبيدهم مفاتيح خزائن ربك، خزائن السموات والأرض.

﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ أي: «بل» أهم الذين لهم السيطرة والغلبة والسلطان والملك والتدبير كلا! بل كل ذلك لله عز وجل، فلماذا يشركون معه غيره. و«المصيطرون» تقرأ بالصاد والسين والصاد أشهر.

عن جبير بن مطعم قال: «سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ كاد قلبي أن يطير»[1].

﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ أي: «بل» ألهم مرقاة ومصعد إلى الملأ الأعلى (يستمعون فيه) أي: بواسطته خبر السماء، فالفعل «يستمعون» مضمن معنى «يصعدون» ولهذا قال فيه، ولم يقل يستمعون منه.

﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجة بينة واضحة ظاهرة على أن ما هم عليه حق، وأنى لهم ذلك، بل ما هم عليه عين الضلال والباطل.

أي: إن ادعوا أن لهم سلمًا يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين.

﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ أي: «بل» آله البنات ولكم البنون كما تزعمون فتجعلون لله الإناث اللاتي تكرهون ولكم ما تشتهون، وهم الذكور.

كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل:٥٧]، يعني الذكور، وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل:٦٢]، أي: الإناث، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف:١٩]، وقال

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الطور ٤٨٥٤، ومسلم في الصلاة ٤٦٣، وأبو داود في الصلاة ٨١١، والنسائي في الافتتاح ٩٨٧، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨٣٢.

تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ [الزخرف:١٥].

والله عز وجل منزه عن الشريك وعن الصاحبة والولد قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام:١٠١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

وقد أنكر الله عز وجل على العرب كراهتهم للأنثى فقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل:٥٨-٥٩].

وبيّن عز وجل رفعة منزلة المرأة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وقال عز وجل: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر:٤٠]، وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

وقال ﷺ: «إنما النساء شقائق الرجال»[1].

ويكفي النساء فخرًا أن منهن فاطمة بنت محمد ﷺ، ومنهن أمهات المؤمنين، أزواجه ﷺ، ومنهن مريم ابنة عمران، التي أحصنت فرجها وصدّقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين، ومنهن آسية بنت مزاحم امرأة فرعون التي اختارت الجار قبل الدار فقالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى

(١) أخرجه أبو داود في الطهارة ٢٣٦، والترمذي في الطهارة ١١٣، وابن ماجه في الطهارة ٦١٢، وأحمد ٦/٢٥٦، ٣٧٧ من حديث عائشة رضي الله عنها.

مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم:١١].

ومنهن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنه وعنها ذات النطاقين، ومنهن أم سليم، وغيرهن كثير، ولقد كان جل الأنبياء عليهم السلام آباء بنات، منهم نبينا محمد ﷺ، فالذي عاش من أولاده ﷺ هن البنات.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ وهكذا جاء في [سورة القلم:٤٦] أي: «بل» اتسالهم أجرًا على إبلاغك إياهم رسالة الله ودعوتك لهم ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ الفاء عاطفة لربط السبب بالمسبب أي: فهم يتبرمون من ثقل الغرامة ومشقتها عليهم، ويتعللون بذلك في مخالفتهم لك.

أي: لست تسالهم على إبلاغك إياهم ودعوتك لهم أجرًا، لا مما يثقلهم ولا ما دونه، ولو كان أدنى شيء، وأقل القليل، كما قال عز وجل: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص:٨٦]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى:٢٣].

وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٩٠] بل إنه ﷺ يبذل المال الكثير ليؤلف القلوب جاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين فذهب إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر»[1].

وليس في الآية دليل ظاهر لمن قال بعدم جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن، وقد قال ﷺ: «إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله»[2].

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي: «بل» أعندهم علم ما غاب عن الحواس من أخبار السموات والأرض والأخبار السابقة واللاحقة ونحو ذلك فهم يكتبون لأنفسهم ما يريدون.

والمعنى ليس عندهم علم الغيب؛ كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل:٦٥].

(١) اخرجه مسلم في الفضائل ٢٣١٢- من حديث انس - رضي الله عنه.
(٢) اخرجه البخاري في الطب - الشرط في الرقية بقطيع من الغنم ٥٧٣٧ - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

وبهذا يرد على من يتلاعبون بعقائد الناس وعقولهم من المنجمين والرمَّالين والسحرة والكهنة والمنجمين وغيرهم من أدعياء علم الغيب وصدق الله العظيم ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤]، ولقد أحسن القائل:

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى ... ولا زاجرات الطير ما الله صانع

وقال الآخر:

أطلاب النجوم أحلتمونا ... على علم أدق من الهباء

كنوز الأرض لم تصلوا إليها ... فكيف وصلتمو علم السماء

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ﴾ أي: «بل» أيريدون في تكذيبهم الحق ورميهم النبي ﷺ بالكهانة والجنون والشعر، وأنه تقوّل القرآن من عند نفسه كيدًا للحق ولرسول الحق، والكيد هو المكر بخفية، كما قال تعالى عنه: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ أي: أن عاقبه كيدهم ومكرهم ووباله على أنفسهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق:١٥، ١٦]، وأظهر في مقام الإضمار فقال: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ ولم يقل (أم يريدون كيداً فهم المكيدون) للنص على أنهم كفار، وأنهم المكيدون، وأن كل كافر فهو المكيد.

وقال عز وجل: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام:١٢٣].

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي «بل» ألهم معبود غير الله، والاستفهام للإنكار الشديد والنفي الأكيد أن يكون مع الله شريك في العبادة.

أي: ليس لهم معبود غير الله فكيف أشركوا معه غيره من الأصنام والأنداد وغير ذلك

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيه لنفسه عز وجل عما يدعيه المشركون من الشركاء من الأصنام والأنداد التي يعبدونها مع الله.

الفوائد والعبر:

١ ـ الإنكار على المشركين في عبادتهم غير الله والاستدلال على وجوب توحيد الألوهية بتوحيد الربوبية الذي يقرون به.

٢ ـ أن المخلوق يدل على وجود الخالق، ولا احد يخلق نفسه فثبت أن لا خالق إلا الله خلق الناس والسموات والأرض وجميع المخلوقات، ولا معبود بحق سواه.

٣ ـ أن خزائن السموات والأرض وتدبير الكون كله وتصريفه بيد الله ـ عز وجل ـ.

٤ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لنبيه ﷺ.

٥ ـ تحدي المشركين وبيان عدم يقينهم، وضعفهم وفقرهم وانقطاع حجتهم، والحيلولة بينهم وبين خبر السماء.

٦ ـ الإنكار على المشركين في نسبة الولد إلى الله ـ عز وجل ـ، بل نسبوا له البنات واختصوا أنفسهم بالبنين.

٧ ـ أن الرسول ﷺ لم يسال الناس أجراً على تبليغه الرسالة فيدعي المشركون المكذبون ثقل الغرامة عليهم، وليس عندهم علم الغيب فيكتبون لأنفسهم ما يريدون.

٨ ـ إرادة الكفار الكيد للرسول ﷺ ولما جاء به من الحق، وبيان أنهم هم المكيدون، وأن وبال ذلك عليهم.

٩ ـ الإنكار على المشركين في عبادتهم غير الله، ونفي ما ادعوه من الآلهة سواه، وتنزيه نفسه ـ عز وجل ـ عن الشركاء.

﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ۝ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ۝ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ۝﴾.

قوله: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ الواو استئنافية و«الكسف»: القطعة من الشيء. أي: وإن يروا قطعة من السماء ساقطة عليهم لتعذيبهم ﴿يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ أي: يقولون هذا سحاب متراكم بعضه على بعض، أي: أنه شيء عادي، لأنهم يرون أنهم على حق وأنهم غير مستحقين للعذاب، كما قال تعالى عن عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٤ -٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر:١٤-١٥]

فكما أنكروا الآيات الشرعية في القرآن الكريم، وزعموا أن النبي ﷺ تقوّله من عند نفسه أنكروا أيضًا الآيات والنذر الكونية المحسوسة لإغراقهم في الضلال وتماديهم في الكفر.

﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ في هذه الآية والآيات بعدها وعيد شديد للمكذبين وتهديد لهم بما ينتظرهم من العذاب في الدنيا والآخرة، وتسلية للنبي ﷺ.

قوله: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، أي: إذا بلغوا هذا الحد من الكفر والعناد فذرهم أي: اترك هؤلاء المكذبين المعاندين ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ وهو يوم القيامة. قرأ عاصم وابن عامر (يُصعقون) بضم الياء، وقرأ الباقون (يَصعقون) بفتحها، أي: يموتون ويهلكون ويعذبون، حينذاك يعرفون أنهم على الباطل وأن محمداً ﷺ على الحق، ويندمون ولات ساعة مندم.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أي: في ذلك اليوم لا يدفع عنهم ولا ينفعهم مكرهم في الدنيا شيئا، حتى ولو كان شيئًا قليلاً؛ لأن «شيئًا» نكرة في سياق النفي تعم القليل والكثير.

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ اي: ولا احد ينصرهم، فليس عندهم ما يدفع عنهم أو ينفعهم من ذات أنفسهم، ولا من جهة خارجة عنهم، وبهذا يتحقق خسرانهم وهلاكهم.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ الواو استئنافية و«إن» حرف توكيد ونصب، والمراد بالذين ظلموا المشركون. والظلم: وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان، أو على سبيل التعدي، وأظلم الظلم الشرك بالله، كما ذكر الله عز وجل عن لقمان أنه قال لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤] وقال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوٓا إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢] أي: لم يلبسوا إيمانهم بشرك، وإنما كان الشرك أظلم الظلم؛ لأن حق الله عز وجل هو أوضح الحقوق وأبينها، فمن صرفه لغير الله فقد وقع في أعظم الظلم وأشده وأظلمه.

﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ اي: قبل ذلك، أي: لهم عذاب في الدنيا وعذاب في البرزخ قبل عذاب الآخرة، كما قال عز وجل: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة:٢١]

وعذاب الدنيا كما أنه قبل عذاب الآخرة هو أيضًا دون عذاب الآخرة في الشدة، لأن عذاب الدنيا مهما كان وآلامها ومصائبها تنتهي ولا يقاس ذلك بعذاب الآخرة وآلامها ومصائبها كما قال عز وجل ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه:١٢٧]، وقال تعالى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ﴾ [الرعد:٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ﴾ [البقرة:٨٥]

والمراد بالعذاب الدنيوي قتلهم وقتالهم على أيدي المؤمنين، ومن ذلك ما يبتليهم الله به من المصائب والآلام الحسية، وكذا المعنوية من الحيرة والتذبذب والخوف والقلق وضيق الصدر بسبب فقدان الإيمان كما قال عز وجل: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢٥]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الزمر:٢٢]، فإن ما يعانيه فاقد الإيمان من ضيق الصدر أضعاف أضعاف جميع المصائب الحسية لو انصبت عليه، ولهذا جمع الله للكفار والمكذبين في الآخرة بين العذابين العذاب الحسي

والعذاب المعنوي.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون علمًا ينفعهم ويدلهم على ما فيه نجاتهم في الدنيا والآخرة، ولا يعلمون حقيقة ما ينتظرهم من العذاب في الدنيا والآخرة، ولا يعلمون أن ما يصيبهم من ذلك هو من العذاب بسبب ذنوبهم.

قال ابن كثير[1]: «أي: نعذبهم في الدنيا، ونبتليهم فيها بالمصائب لعلهم يرجعون وينيبون، فلا يفهمون ما يراد بهم، بل إذا جُلِّي عنهم مما كانوا فيه عادوا إلى أسوأ ما كانوا عليه، كما روي في الحديث: «إن المنافق إذا مرض ثم عوفي كان كالبعير عقله أهله، ثم أرسلوه، فلم يدر لم عقلوه، ولم يدر لم أرسلوه»[2]».

وروي في الأثر: «كم أعصيك ولا تعاقبني؟ قال الله: يا عبدي كم أعاقبك وأنت لا تدري».

فالمؤمن إذا أصابته مصيبة تذكر واتعظ ورجع وأناب إلى الله عز وجل وعرف أن ما أصابه بسبب ذنوبه كما قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠].

أما الكافر والمنافق فإنه إذا أصابه ما أصابه يقول كما قال قائلهم: أسقط وأقوم وأنا أبو فلان.

ولما قيل لأحدهم وهو مريض: «طهور إن شاء الله»،رد قائلا: تقوله يا أبا فلان ـ يعني ـ ماذا عملت أنا حتى يكون ما أصابني طهورًا. نسأل الله الهداية والسلامة.

﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ الواو: استئنافية، والصبر: حبس النفس عما لا ينبغي فعله، ولا قوله، أي: واصبر لحكم ربك وقضائه الشرعي بإيجابه عليك تبليغ الرسالة، والقيام بأمره، واصبر لحكم ربك الكوني بما يقدره عليك من أذى قومك وغير ذلك مما يصيبك وقد صبر ﷺ على تبليغ الرسالة، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده حتى ترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، وصبر على ما لاقى من أذى قومه في سبيل ذلك فقد وضع سلا

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤١٣.

(٢) أخرجه أبو داود في الجنائز ٣٠٨٩ من حديث عامر الرّام رضي الله عنه.

الجزور على ظهره وهو ساجد [١]، وأغرى به أهل الطائف سفهاءهم يسبونه ويرمونه بالحجارة [٢] وشج وجهه وكسرت رباعيته يوم أحد[٣]، وهو ﷺ صابر محتسب يقول: «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[٤].

﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ الفاء تعليلية، اي: لأنك بمرأى منا وتحت كلاءتنا وحفظنا، كما قال عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧].

ولهذا قال ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه وهما في الغار يوم الهجرة ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ ولما قال أبو بكر رضي الله عنه للنبي ﷺ وهما في الغار: «والله يا رسول الله لو أن احدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا أجابه ﷺ بقوله: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما»[٥].

وإذا كان ﷺ مأمورًا بالصبر على ما يلاقيه في سبيل تبليغ رسالة ربه، فللدعاة والمصلحين والمربين فيه أعظم الأسوة في وجوب الصبر عليهم في طريق دعوتهم إلى الله كي تؤتي الدعوة ثمارها بإذن الله عز وجل قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤].

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: اقرن بين تسبيحه عز وجل وحمده بقولك: «سبحانك ربنا وبحمدك».

﴿حِينَ تَقُومُ﴾ قال بعض أهل العلم: حين تقوم إلى الصلاة فتقول: «سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك»[٦].

---

(١) اخرجه البخاري في الوضوء ٢٤٠، ومسلم في الجهاد ١٧٩٤، والنسائي في الطهارة ٣٠٧ـ من حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه.

(٢) اخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٣١، ومسلم في الجهاد ١٧٩٥ـ من حديث عائشة رضي الله عنها وانظر «السيرة النبوية» لابن هشام ٢/ ٦٠، ٦١.

(٣) اخرجه مسلم في الجهاد والسير ١٧٩١، والترمذي في التفسير ٣٠٠٢، وابن ماجه في الفتن ٤٠٢٧ـ من حديث انس رضي الله عنه.

(٤) احرجه البخاري في الأنبياء ٣٤٧٧، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٩٢، وابن ماجه في الفتن ٤٠٢٥ـ من حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه.

(٥) اخرجه البخاري في المناقب ٣٦٥٣، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٣٨١، والترمذي ٣٠٩٦، واحمد ١/ ٤ ـ من حديث أبي بكر رضي الله عنه.

(٦) انظر «جامع البيان» ٢١/ ٦٠٦.

وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة بالليل كبّر ثم يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك وتعالى جدّك، ولا إله غيرك» ثم يقول: «الله أكبر كبيرًا، ثم يقول: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه»[١].

وهكذا روى الأوزاعي عن عبدة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يجهر بهؤلاء الكلمات يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك، تبارك اسمك وتعالى جدك، ولا إله غيرك»[٢].

قال الإمام أحمد رحمه الله: «فأنا أذهب إلى ما رُويَ عن عمر، ولو أن رجلاً استفتح ببعض ما رُويَ عن النبي ﷺ كان حسنًا».

وذكر ابن القيم في «زاد المعاد»[٣] عدة أوجه لسبب اختيار الإمام أحمد لهذا.

وقال بعض المفسرين ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: حين تقوم من نومك[٤].

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «من تَعَارَّ من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: اللهم اغفر لي، أو دعا ـ استجيب له، فإن توضأ وصلى قبلت صلاته»[٥].

وفي حديث أنس في قصة الأنصاري الذي بشره الرسول ﷺ بالجنة: أنه إذا تعارّ وانقلب على فراشه ذكر الله عز وجل وكبر حتى يقوم إلى صلاة الفجر[٦].

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة ٧٧٥، والنسائي في الافتتاح ـ نوع آخر من الذكر بين افتتاح الصلاة والقراءة ٨٩٩، والترمذي في الصلاة ـ ما يقول عند افتتاح الصلاة ٢٤٢، وابن ماجه في إقامة الصلاة ـ افتتاح الصلاة ٨٠٤، وأحمد ٣/ ٥٠، ٦٩، وأخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها أبو داود ٧٧٦، والترمذي ٢٤٣، وابن ماجه ٨٠٦، والدار قطني ١/ ١١٢، والحاكم ١/ ٢٣٥. ورجاله ثقات.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة ـ حجة من قال لا يجهر بالبسملة ٣٩٩ وأخرجه الطحاوي في «شرح معاني الآثار» ١/ ١١١ من حديث عمرو بن ميمون قال: صلى بنا عمر بذي الحليفة فقال: «الله أكبر سبحانك اللهم وبحمدك....».

(٣) ١/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

(٤) انظر «جامع البيان» ٢١/ ٦٠٥ ـ ٦٠٦.

(٥) أخرجه البخاري في الجمعة ١١٥٤، وأبو داود في الأدب ٥٠٦٠، والترمذي في الدعوات ـ ما جاء في الدعاء إذا انتبه من الليل ٣٤١٤، وابن ماجه في الدعاء ـ ما يدعو به إذا انتبه من الليل ٣٨٧٨، وأحمد ٥/ ٣١٣.

(٦) أخرجه أحمد ٣/ ١٦٦ بتمامه وفيه قصة لعبد الله بن عمرو بن العاص مع الأنصاري المذكور رضي الله عنهما.

وقال بعض أهل العلم ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ من مجلسك تقول سبحانك اللهم وبحمدك[١].

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك**»[٢].

وحيث لا دليل على المراد بالآية فلا مانع من حملها على كل ما ذكر.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ الواو: عاطفة، والفاء زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى، أي: ومن الليل ووقته فسبح ربك بتنزيهه عن النقائص والعيوب وعن مشابهة المخلوقين، وبذكره وعبادته والصلاة له كما قال عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩][٣].

﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ الواو عاطفة، و (إدبار النجوم): جنوحها للمغيب. وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المراد بقوله ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ «الركعتان قبل الفجر»[٤].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «**لم يكن النبي ﷺ على شيء من النوافل أشد منه تعاهدًا على ركعتي الفجر**»[٥].

وقد يحمل على السحر آخر الليل لفضله فيكون قوله ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ من عطف الخاص على العام قال تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:١٧].

وقال تعالى: في صفات المتقين ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٨] وهو الوقت الذي نجى الله فيه آل لوط عليه السلام قال تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤].

وهو وقت النزول الإلهي في الثلث الأخير من الليل كما في الحديث: «ينزل ربنا

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير» ٧/ ٤١٤.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب ـ كفارة المجلس ٤٨٥٨، والترمذي في الدعوات ٣٤٣٣، وقال: «حديث حسن صحيح».

(٣) انظر ما سبق في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق:٤٠]

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣١٧- الأثر ١٨٦٩٢.

(٥) أخرجه البخاري في الجمعة ١١٦٣، ومسلم في صلاة المسافرين ٧٢٤، وأبو داود في الصلاة ١٢٥٤.

كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الأخير»[1].

ويحتمل أن يكون المراد بـ «إدبار النجوم» ما هو أعم من ذلك فيشمل وقت السحر الذي هو آخر وقت النزول الإلهي وهو وقت إجابة الدعاء، ووقت الوتر، كما يشمل ذلك ما بعد طلوع الفجر وهي سنة الفجر، وصلاة الفجر.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها»[2].

الفوائد والعبر:

١ ـ إغراق المشركين بالكفر حتى إنهم أنكروا الآيات والنذر الكونية المحسوسة.

٢ ـ تسلية النبي ﷺ تجاه تكذيب قومه.

٣ ـ الوعيد الشديد والتهديد الأكيد للمكذبين بما ينتظرهم من العذاب الآجل يوم القيامة، مما لا يستطيعون له دفعاً لا بأنفسهم ولا بغيرهم.

٤ ـ أن الله ـ عز وجل ـ يمهل ولا يهمل.

٥ ـ الوعيد للظالمين المكذبين بما ينتظرهم من العذاب العاجل في الدنيا، وفي البرزخ قبل العذاب الأكبر يوم القيامة.

٦ ـ جهل الظالمين المكذبين بحقيقة ما ينفعهم، وبما ينتظرهم من العذاب العاجل والآجل.

٧ ـ تقوية قلب النبي ﷺ بأمره بالصبر لحكم الله الشرعي والكوني ووعد الله ـ عز وجل ـ له بحفظه وكلاءته ورعايته بعينه التي لا تنام، وهذا الأمر والوعد له ﷺ ولمن سلك طريقه واتبع سنته من أمته.

٨ ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لنبيه ﷺ وعنايته به.

٩ ـ مشروعية تسبيح الله وحمده عند القيام إلى الصلاة، وعند القيام من المجلس، وعند القيام من النوم ومشروعية قيام الليل، وتأكيد ركعتي سنة الفجر ـ حيث أمر الله عز وجل نبيه بهذا، وهو أمر له ﷺ ولأمته، وذلك من أعظم العون على الصبر.

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة ١١٤٥، ومسلم في صلاة المسافرين ٧٥٨، وأبو داود في الصلاة ١٣١٥، والترمذي في الصلاة ٤٤٦، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٦٦ ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٧٢٥، والنسائي في قيام الليل وتطوع النهار ١٧٥٩، والترمذي في الصلاة ٤١٦.

تفسير سورة النجم

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «أول سورة أنزلت فيها سجدة (والنجم) قال: فسجد رسول الله ﷺ، وسجد من خلفه إلا رجلاً رأيته أخذ كفًا من تراب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قتل كافرًا، وهو أمية بن خلف»[(١)].

قال ابن كثير[(٢)]: «وقوله في الممتنع: إنه أمية بن خلف في هذه الرواية مشكل، فإنه جاء من غير هذه الطريق أنه عتبة بن ربيعة».

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)﴾.

روي في سبب نزول هذه الآيات وما بعدها أن المشركين زعموا أن رسول الله ﷺ فيما جاءهم به من الحق ضال وغاو، مختلق ينطق عن هواه فأنزل الله هذه الآيات[(٣)].

قوله: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ الواو حرف قسم وجر، ﴿وَالنَّجْمِ﴾ مقسَم به مجرور والمقسِم هو الله عز وجل، وله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، لأن إقسامه بما خلق يدل على عظمته عز وجل، أما المخلوق فلا يجوز أن يقسم بغير الله.

قال ابن كثير[(٤)]: «قال الشعبي وغيره: الخالق يقسم بما شاء من خلقه، والمخلوق لا ينبغي أن يقسم إلا بالخالق. رواه ابن أبي حاتم».

و(النجم) اسم جنس يراد به جميع النجوم.

﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ إذا سقط وغرب مع الفجر وقبله، وعندما ترمى به الشياطين.

وقيل: المراد بـ(النجم إذا هوى) القرآن إذا نزل، وسمي القرآن بـ(النجم)، لأنه

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة «والنجم» ٤٨٦٣، ومسلم في المساجد ٥٧٦، وأبو داود في الصلاة ١٤٠٦، والنسائي في الافتتاح ٩٥٩، وأحمد ١/ ٣٨٨، ٤٣٧. وفي حديث ابن عباس - رضي الله عنهما قال: سجد النبي ﷺ بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس» أخرجه البخاري ٤٨٦٢، وغيره.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٤١٧.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٧٣.

(٤) «في تفسيره» ٧/ ٤١٧.

نزل منجمًا، أي: مفرقًا في ثلاث وعشرين سنة.

والأظهر القول الأول وهو دال على عظمة القرآن وصدق ما جاء به الرسول ﷺ، كما في قوله تعالى: ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٨٠].

واختار ابن القيم رحمه الله أن المراد بقوله ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ النجوم التي ترمى بها الشياطين إذا سقطت عند استراق السمع.

قال ابن القيم[1]: «وهو أظهر الأقوال، ويكون سبحانه قد أقسم بهذه الآية الظاهرة المشاهدة التي نصبها الله سبحانه آية وحفظًا للوحي من استراق الشياطين له، على أن ما أتى به رسوله حق وصدق لا سبيل للشيطان ولا طريق له إليه، بل قد أحرس بالنجم إذا هوى رصدًا بين يدي الوحي وحرسًا له، وعلى هذا: فالارتباط بين المقسم به والمقسم عليه في غاية الظهور وفي المقسم به دليل على المقسم عليه».

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾ هذا هو المقسم عليه، أي: جواب القسم في قوله ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾، و(ما) نافية، والضلال: التيه عن الطريق الحق جهلاً وبغير علم، وضده الهدى، فهو ﷺ لم يضل عن طريق الحق، بل هو هاد مهدي، وهذا دليل على كمال علمه ومعرفته، وأنه على الحق المبين ﷺ.

وقال عز وجل: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾ كما قال عز وجل ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾﴾ ولم يقل ما ضل رسول الله، أو ما ضل محمد ونحو ذلك تأكيدًا لإقامة الحجة عليهم، وليشهدهم على أنفسهم، فهو صاحبهم وهم أعلم الناس به، وبحاله وأقواله وأعماله، ولم يعرفوه بكذب ولا ضلال ولاغي، ومقتضى ذلك أن يصدقوه لا أن يكذبوه لو صدقوا مع أنفسهم، ولكن الهوى يعمي ويصم كما قال عز وجل ﴿أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩].

والغواية: ترك الحق والعدول عنه عمدًا وعناداً عن علم، وضده الرشاد. قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾[البقرة: ٢٥٦].

---

(١) انظر: بدائع التفسير ٤/ ٢٧٤-٢٧٥.

فاقسم عز وجل بالنجم إذا هوى بأنه ﷺ ما ضل وماتاه عن الطريق الحق والمسلك الصحيح عن جهل، وما غوى وترك الطريق الحق والمسلك الصحيح عن عمد وعن علم، بل هو ﷺ على الطريق الحق والمسلك الصحيح وعلى الهدى والرشاد على الهدى في علمه، وعلى الرشاد في عمله كما قال عز وجل ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩] أي: بالعلم النافع والعمل الصالح.

قال ابن القيم[(١)]: «ولا يشتبه الراشد المهدي بالضال الغاوي إلا على أجهل خلق الله، وأعماهم قلباً، وأبعدهم عن حقيقة الإنسانية، ولله در القائل:

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره إذا استوت عنده الأنوار والظلم

فالناس أربعة أقسام: ضال في علمه، غاوٍ في قصده وعمله، وهؤلاء شرار الخلق، وهم مخالفو الرسل، الثاني: مهتد في علمه غاوٍ في قصده وعمله وهؤلاء هم الأمة الغضبية ومن تشبه بهم، وهو حال كل من عرف الحق ولم يعمل به، الثالث: ضال في علمه، ولكن قصده الخير، وهو لا يشعر ، الرابع: مهتد في علمه راشد في قصده، وهؤلاء ورثة الأنبياء، وهم وإن كانوا الأقلين عدداً فهم الأكثر ون عند الله قدراً،وهم صفوة الله من عباده وحزبه من خلقه».

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ أي: وما ينطق ﷺ فيما أتى به من الشرع عن هوى نفسه.

قال ابن القيم[(٢)]: «ولم يقل: وما ينطق بالهوى، لأن نطقه عن الهوى أبلغ فإنه يتضمن أن نطقه لا يصدر عن هوى، وإذا لم يصدر عن هوى فكيف ينطق به، فتضمن نفي الأمرين: نفي الهوى عن مصدر النطق ونفيه عن النطق نفسه، فنطقه بالحق ومصدره الهدى والرشاد، لا الغي والضلال».

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ «إن» حرف نفي، بمعنى «ما»، ومرجع الضمير «هو» إلى مصدر الفعل «ينطق» أي: ما نطقه إلا وحي يوحى، ويشمل هذا نطقه بالقرآن والسنة، وأن كليهما وحي يوحى، وقيل: الضمير يعود إلى القرآن.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٧٥- ٢٧٦، ٢٩٨.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٧٦.

والأول أولى، قال الله عز وجل ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [النساء:١١٣]، والحكمة: السنة عند جمهور المفسرين، فالقرآن والسنة كل منهما من وحي الله عز وجل، ومما أنزله على رسوله ﷺ.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش، فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله، ورسول الله ﷺ - بشر، يتكلم في الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ - فقال: «اكتب فو الذي نفسي بيده ما خرج مني إلا حق»[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إني لا أقول إلا حقًا» فقال بعض أصحابه فإنك تداعبنا يا رسول الله؟ قال: «إني لا أقول إلا حقًا»[(٢)].

وعن يعلي بن أمية أنه كان يقول لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ليتني أرى نبي الله ﷺ حين ينزل عليه الوحي فلما كان ﷺ بالجعرانة وعلى النبي ﷺ ثوب قد أظل به عليه، معه ناس من أصحابه، فيهم عمر، إذ جاءه رجل عليه جبة صوف متضمخ بطيب فقال: يا رسول الله كيف ترى في رجل أحرم بعمرة في جبة بعد ما تضمخ بطيب؟. فنظر إليه النبي ﷺ ساعة، ثم سكت، فجاءه الوحي، فأشار عمر بيده إلى يعلى بن أمية تعال، فأدخل رأسه، فإذا النبي ﷺ محمر الوجه يغط ساعة، ثم سُرِّيَ عنه فقال: «أين السائل آنفًا؟ فجيء به، فقال: انزع عنك الجبة، واغسل أثر الطيب، واصنع في عمرتك ما تصنع في حجك»[(٣)].

وعن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني رضي الله عنهما أنهما قالا: إن رجلاً من الأعراب أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله أنشدك الله إلا قضيت بيننا بكتاب الله، فقال الخصم الآخر، وهو أفقه منه: نعم فاقض بيننا بكتاب الله وائذن لي، فقال رسول الله ﷺ: «قل»قال: إن ابني كان عسيفًا على هذا ، فزنى بامرأته، وإني أخبرت

---

(١) أخرجه أبو داود في العلم- باب في كتاب العلم ٣٦٤٦، وأحمد ٢/ ١٦٢، ١٩٢، والدارمي في المقدمة ٤٨٤.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٣٤٠، والترمذي في أبواب البر - ما جاء في المزاح ١٩٩٠- ورمز له السيوطي في «الجامع الصغير» بالحسن.

(٣) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ٤٩٨٥، ومسلم في الحج - ما يباح لبسه للمحرم بحج أو عمرة ١١٨٠، وأبو داود في المناسك ١٨١٩، والنسائي في مناسك الحج ٢٦٦٨، والترمذي في الحج ٨٣٥، وابن ماجه في الديات ٢٦٥٦.

أن على ابني الرجم فافتديت منه بمائة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم فأخبروني أنما على ابني جلد مائة وتغريب عام، وأن على امرأة هذا الرجم فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله، الوليدة والغنم رد عليك، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام واغد يا أنيس إلى امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها فغدا عليها فاعترفت فأمر بها رسول الله ﷺ فرجمت»[1].

وفي حديث المقدام بن معد يكرب أن رسول الله ﷺ قال: «الا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه»[2].

وجاء بالفعل «يوحى» بالبناء لما لم يسم فاعله، لأن الوحي بالمعنى الشرعي إنما هو من عند الله تعالى وحده، فالموحي معلوم، أي: إن هو إلا وحي من عند الله، أو يوحيه الله عز وجل.

والوحي: هو الإعلام الخفي السريع، ومنه الحديث «الوحا الوحا» أي الإسراع الإسراع[3].

وشرعا: هو كلام الله عز وجل المنزل على نبي من أنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

الفوائد والعبر:

١ ـ إقسام الله ـ عز وجل ـ بالنجم حال سقوطه على أن النبي ﷺ ما ضل وما غوى بل هو على الحق والهدى.

٢ ـ أن لله ـ عز وجل ـ أن يقسم بما شاء من مخلوقاته إظهاراً لعظمته وكمال قدرته.

٣ ـ دفاع الله ـ عز وجل ـ عن نبيه محمد ﷺ وإثبات أنه على الحق والهدى.

٤ ـ إشعار المكذبين بأنهم في قرارة أنفسهم يعرفون صدق النبي ﷺ تأكيداً لإقامة الحجة عليهم من أنفسهم لقوله ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ ولم يقل محمد أو رسول الله.

٥ ـ أن الرسول ﷺ لا ينطق ـ فيما جاء به من الكتاب والسنة ـ عن هوى نفسه بل كل ذلك وحي من عند الله ـ عز وجل.

---

(١) أخرجه البخاري في الحدود ـ الاعتراف بالزنا ٢٧٢٥، ومسلم في الحدود ـ حد الزنا ١٦٩٨، وأبو داود في الحدود ٤٤٤٥، والنسائي في آداب القضاة ٥٤١٠، والترمذي في الحدود ٢٥٤٩.

(٢) أخرجه أبو داود في السنة ـ باب لزوم السنة ٤٦٠٤، والترمذي في العلم ٢٦٦٤، وابن ماجه في المقدمة ١٢.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٩٥.

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

لما ذكر عز وجل أن ما جاء به الرسول ﷺ من الشرع ليس عن هواه وإنما هو وحي يوحيه الله عز وجل إليه ذكر عز وجل طريق وصول هذا الوحي إليه ﷺ وأنه حق وصدق.

قوله ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ أي: علم النبي ﷺ هذا الوحي ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ أي: ملَكٌ شديد القوى، وهو: جبريل عليه السلام، كما قال عز وجل ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩-٢١].

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي: ذو جلالة ومنظر جميل وصورة حسنة، وقوة وشدة وفي الحديث: «لا تحل الصدقة لغني، ولا لذي مرة سوي»[1] أي: ولا لذي قوة سوي الخلقة والجسم، ذي قدرة على العمل.

قال ابن القيم[2]: «والمرة: المنظر البهي الجميل فأعطاه كمال القوة في باطنه، وجمال المنظر في ظاهره».

﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فاستوى: جبريل عليه السلام، أي: فَعَلا، أو كمل.

﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ الواو: حالية، أي: حال كونه عليه السلام في أفق السماء الأعلى، قال المفسرون: وهو الأفق الذي يأتي منه الصبح.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ لم ير جبريل في

---

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة - من يعطى من الصدقة، وحد الغنى ١٦٣٤، والترمذي في الزكاة ٦٥٢ - من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، وأخرجه النسائي في الزكاة - باب إذا لم يكن له دراهم وكان له عدلها ٢٥٩٧، وابن ماجه في الزكاة - من سأل عن ظهر غنى ١٨٣٩ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وأخرجه أحمد ٤/ ٦٢، ٥/ ٣٧٥ عن رجل من بني هلال.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٧٩، ٢٩٠.

صورته[١] إلا مرتين، أما واحدة فإنه سأله أن يراه في صورته فسد الأفق، وأما الثانية فإنه كان معه حيث صعد، فذلك قوله: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾»[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «سأل النبي ﷺ جبريل بأن يراه في صورته، فقال: ادع ربك فدعا ربه عز وجل، فطلع عليه سواد من قبل المشرق، فجعل يرتفع وينتشر، فلما رآه النبي ﷺ صعق فأتاه، فنعشه [أي: رفعه] ومسح البزاق عن شدقه»[٣].

وقد ذكر ابن جرير أن المراد بقوله ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝﴾ هو محمد ﷺ أي: استوى هو وجبريل عليه السلام بالأفق الأعلى، وذلك ليلة الإسراء ووجه ذلك من جهة اللغة[٤].

وقد رد ابن كثير هذا القول، فقال[٥]: «وهذا الذي قاله من جهة العربية متجه، ولكن لا يساعده المعنى على ذلك، فإن هذه الرؤية لجبريل لم تكن ليلة الإسراء، بل قبلها ورسول الله ﷺ في الأرض، فهبط إليه جبريل - عليه السلام - وتدلى إليه، فاقترب منه، وهو على الصورة التي خلقه الله عليها، له ستمائة جناح، ثم رآه بعد ذلك نزلة أخرى عند سدرة المنتهى، يعني ليلة الإسراء، وكانت هذه الرؤية الأولى في أوائل البعثة، بعد ما جاءه جبريل عليه السلام أول مرة، فأوحى الله إليه صدر «سورة اقرأ» ثم فتر الوحي فترة، ذهب النبي - ﷺ - فيها مراراً ليتردى من رؤوس الجبال، فكلما هم بذلك ناداه جبريل من الهواء: يا محمد أنت رسول الله حقًا، وأنا جبريل فيسكن لذلك جاشه، وتقر عينه، وكلما طال عليه الأمر عاد لمثلها، حتى تبدى له جبريل ورسول الله ﷺ في الأبطح في صورته التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح قد سد عظم خلقه الأفق، فاقترب منه وأوحى إليه عن الله - عز وجل - ما أمره به».

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ (دنا): قرب (فتدلى) زاد في القرب والمراد: بذلك جبريل - عليه السلام - قرب من النبي ﷺ، وازداد في القرب منه ﷺ.

---

(١) أما رؤيته على غير صورته فهي التي كان يراه عليها عند مجيئه بالوحي على صورة الرجال، ومن ذلك مجيئه على صورة الصحابي الجليل دحية الكلبي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/٣٣١٨ - الأثر ١٨٦٩٦.

(٣) أخرجه أحمد ١/٣٢٢.

(٤) انظر: «جامع البيان» ٢٢/١١.

(٥) في «تفسيره» ٧/٤٢٠.

عن عائشة رضي الله عنها: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝﴾ قالت: «إنما ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرجل وأنه أتاه في هذه المرة في صورته التي هي صورته، فسد الأفق»[1].

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي: فكان جبريل لشدة قربه من النبي ﷺ على قدر قوسين (أو أدنى) أي: أو أقرب من ذلك قال في «اللسان»[2]: «وقاب الرجل إذا قرب، وقاب قوس، أي: قدر قوس، والقاب ما بين المقبض والسِّيَة، ولكل قوس قابان».

فقوله ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي: او أقرب، و(أو) هنا ليست للشك، وإنما هي لتحقيق قدر المسافة وقربها، وأنها إن لم تنقص عن قدر القوسين لم تزد عليهما، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝﴾ [الصافات: ١٤٧]، والمعنى: أنهم إن لم يزيدوا على مائة ألف لم ينقصوا عنها.

وقيل: أو بمعنى «بل» أي: بل أدنى، والأول أحسن.

واختلف في المراد بذلك ومقداره: فقيل المراد بذلك: بُعْد ما بين وتر القوس إلى كبدها، وقيل: كان بينهما ذراعان وقال بعضهم: القاب نصف الإصبع.

﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ أي: فاوحى الله عز وجل إلى عبده محمد ﷺ.

﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾ أي: الذي أوحاه، بواسطة جبريل عليه السلام، أو فاوحى جبريل عليه السلام إلى عبد الله محمد ﷺ الذي أوحاه.

و(ما) موصولة، تدل على الإبهام لقصد التعظيم والتفخيم، كما في قوله تعالى ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨]، اي: امر عظيم فوق الصفة.

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ﴾ (ما) نافية، (كذب) قرا أبو جعفر بتشديد الذال (كَذَّب) وقرا الباقون بتخفيفها (كَذَبَ) و (الفؤاد) فؤاد النبي ﷺ وقلبه.

﴿مَا رَأَىٰ﴾ «ما» مصدرية، أي: ما كذب فؤاد النبي ﷺ رؤيته، أو موصولة، أي: ما كذب فؤاده الذي رأته عيناه. فلم يكذب فؤاده و قلبه ما رأته وابصرته عيناه، ولم يوهمه فؤاده أنه رأى و لم ير، بل صدَّق فؤاده ما رأته عيناه، وصَدَّقه فؤاده فلم ير إلا

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٣٥، ومسلم في الإيمان ١٧٧، والترمذي في التفسير ٣٠٦٨، وأحمد ٦/ ٢٣٦، ٢٤١.
(٢) مادة «قوب».

ما رآه حقيقة.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «رأى رسول الله ﷺ جبريل له ستمائة جناح»[١].

وفي رواية: «عليه حلتا رفرف قد ملأ ما بين السماء والأرض»[٢].

وقال البخاري[٣]: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «رأى رفرفًا أخضر قد سدّ الأفق».

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ قرأ حمزة (افتَمرونه) بفتح التاء بغير الألف، وقرأ الباقون (أفتمارونه) بضم التاء وألف، والاستفهام للإنكار والتعجب، والمماراة: المجادلة والمحاجة بالباطل والمكابرة، جحدًا منهم وعنادًا، ودفعًا للحق، كما قال عز وجل: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ﴾ [الأنفال:٦].

وعُدي الفعل «أفتمارونه» بـ «على» دون «في» لأنه ضمن معنى المغالبة. وعبر بالمضارع «يرى» دون الماضي إشارة إلى استحضار هذا المرئي، وأنه حين أخبَر به كأنه يراه عيانا.

و«ما» مصدرية، أو موصولة، أي: اتجادلونه على رؤيته، أو على الذي يراه.

﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ﴾ الواو للاستئناف، واللام للقسم، و«قد» للتحقيق، أي: والله لقد رآه نزلة أخرى: والضمير «الهاء» يعود إلى جبريل عليه السلام ﴿نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ﴾ أي: مرة أخرى، والمعنى: والله لقد رأى محمد ﷺ جبريل عليه السلام على صورته الحقيقية مرة أخرى.

فقد رآه مرة دون السماء بالأفق الأعلى، كما قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧﴾ وهذه الرؤية وهو في الأرض، في مكة، في أجياد.

والمرة الثانية فوق السماء ليلة الإسراء عند سدرة المنتهى.

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٣٢، ومسلم في الإيمان ١٧٤، والترمذي في التفسير ٣٢٧٧.
(٢) أخرجها الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٢٥.
(٣) في تفسير سورة النجم ـ باب (لقد رأى من آيات ربه الكبرى). انظر «فتح الباري» ٨/ ٦١١.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في هذه الآية ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل له ستمائة جناح ينتثر من ريشه التهاويل الدر والياقوت»[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه (ولقد رآه نزلة أخرى) قال: «رأى جبريل عليه السلام»[(٢)].

وفي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه الطويل في قصة الإسراء «ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله عز وجل، حتى جاء سدرة المنتهى، ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى».

هكذا جاء في رواية البخاري[(٣)] من طريق شريك بن عبد الله عن أنس رضي الله عنه، وقد أخرجه مسلم[(٤)] من طريق ثابت البناني ولم يذكر هذه الزيادة، وأشار إلى رواية شريك بن عبد الله قال مسلم عن شريك: «وقدم فيه شيئًا وأخر، وزاد ونقص».

وهكذا تعقب جمع من أهل العلم هذه الزيادة من شريك بالتضعيف منهم البيهقي وابن حزم والخطابي وعبد الحق وابن كثير وغيرهم، قال الخطابي: «إن الذي وقع في هذه الرواية من نسبة التدلي للجبار عز وجل مخالف لعامة السلف والعلماء وأهل التفسير من تقدم منهم ومن تأخر».

وقال عبد الحق في الجمع بين الصحيحين: «زاد فيه شريك زيادة مجهولة، وأتى فيه بألفاظ غير معروفة، وقد روى الإسراء جماعة من الحفاظ فلم يأت أحد منهم بما أتى به شريك، وشريك ليس بالحافظ»، وقال ابن حزم: «فيه ألفاظ معجمة، والآفة من شريك»[(٥)].

وقال ابن كثير[(٦)] بعد ذكر مقالة مسلم «وقدم فيه شيئًا وأخر، وزاد ونقص» قال: «وهو كما قال مسلم رحمه الله فإن شريك بن عبد الله بن أبي نمر اضطرب في

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٩٥، ٣٩٨، ٤٠٧، ٤٦٠ قال ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٤٢٧: وهذا إسناد جيد قوي.
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ـ إثبات رؤية الله تعالى ١٧٥.
(٣) في كتاب التوحيد باب قوله (وكلم الله موسى تكليمًا) ٧٥١٧.
(٤) في الإيمان – الإسراء برسول الله ﷺ ١٦٢.
(٥) انظر «فتح الباري» ١٣/ ٤٨٤-٤٨٥.
(٦) في «تفسيره» ٥/ ٥-٦ وانظر ٧/ ٤٢٢.

هذا الحديث وساء حفظه ولم يضبطه» ثم نقل كلام البيهقي في ذكر تفرد شريك بهذه الزيادة.

والصحيح أن الذي (دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى) هو جبريل عليه السلام دنا من النبي ﷺ إذ أن قرب الله عز وجل ودنوه لا يجوز أن يمثل بشيء.

وأيضًا فإنه لو صحت هذه الزيادة وحمل قوله: «ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى» على أن المراد به الرب عز وجل قرب من النبي ﷺ فليس فيه دلالة على إثبات رؤية النبي ﷺ لربه، كما أنه لا يلزم عليه تمثيل صفاته عز وجل بغيره، وإنما هذا من باب بيان قرب المسافة؛ كما في قوله عز وجل: «ومن تقرب إلي شبرًا تقربت منه ذراعًا».[1]

وقد ذهب جماعة إلى أن المراد أن محمدًا ﷺ رأى ربه، منهم من قال رآه بفؤاده، ومنهم من قال: رآه بعينه.

والصحيح أن المراد بالآية أنه رأى جبريل على صورته مرتين كما ثبت في تفسير الآية عن جمع من الصحابة منهم عائشة وابن مسعود وأبو هريرة رضي الله عنهم، ولا مخالف لهم من الصحابة رضي الله عنهم[2] وقد بين ابن القيم هذا من ستة عشر وجهًا[3].

والصحيح الذي دل عليه الكتاب والسنة وأجمعت عليه الأمة أن الرسول ﷺ ما رأى ربه، وأن رؤيته عز وجل في الدنيا غير ممكنة كما قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [الأنعام:١٠٣].

وعن مسروق قال: دخلت على عائشة رضي الله عنها، فقلت: «هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد تكلمت بشيء قفّ له شعري فقلت: رويدًا، ثم قرأت ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ فقالت: أين يُذهب بك؟ إنما هو جبريل، من أخبرك أن محمدًا رأى ربه، أو كتم شيئًا مما أُمر به، أو يعلم الخمس التي قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ [لقمان: ٣٤]، فقد أعظم الفرية، ولكنه رأى جبريل، لم يره

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٥٣٦، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة ٢٦٧٥ ـ من حديث أنس رضي الله عنه، وأخرجه البخاري أيضا في التوحيد ٧٤٠٥ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وانظر «فتح الباري» الموضع السابق.

(٢) انظر «تفسير ابن كثير» ٦/٥.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٩١-٢٩٣.

في صورته إلا مرتين، مرة عند سدرة المنتهى، ومرة في أجياد، وله ستمائة جناح قد سد الأفق»[(١)].

وعن مسروق قال: كنت متكئًا عند عائشة رضي الله عنها فقالت: «ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية، قلت: ما هن؟ قالت: من زعم أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، قال: وكنت متكئًا فجلست، فقلت: يا أم المؤمنين انظريني ولا تعجليني، ألم يقل الله عز وجل ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣] ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خُلق عليها غير هتين المرتين، رأيته منهبطًا من السماء سادًا عظم خلقه ما بين السماء والأرض» فقالت: أو لم تسمع أن الله عز وجل يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، أو لم تسمع أن الله عز وجل يقول: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١]. قالت: ومن زعم أن محمدًا كتم شيئًا من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية والله عز وجل يقول: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧]. قالت: ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية، والله عز وجل يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]. ولو كان محمد كاتمًا شيئًا مما أنزل عليه لكتم هذه الآية ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]».

وفي بعض الروايات عن مسروق قال: سألت عائشة رضي الله عنها: «هل رأى محمد ربه؟ فقالت: سبحان الله لقد قفّ شعري مما قلت»[(٢)].

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة النجم، ٢٣٣٢، وأحمد ٦/ ٤٩-٥٠.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٣٤، ومسلم في الإيمان – باب إثبات رؤية الله سبحانه وتعالى ١٧٧، والترمذي في التفسير ٣٠٦٨.

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال ﷺ: «نور أنى أراه» وفي رواية «رأيت نورًا»[(١)].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».[(٢)]

وقال ﷺ في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه: «لن تروا ربكم حتى تموتوا».[(٣)]

قال ابن القيم[(٤)]: «وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي الإجماع على ما قالته عائشة.... قال الدارمي: «وأجمع المسلمون على ذلك مع قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ يعني أبصار أهل الدنيا».

وأما ما رُويَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أتاني ربي الليلة في أحسن صورة أ حسبه يعني في النوم فقال: يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال: قلت: لا. فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي، أو قال نحري ـ فعلمت ما في السموات وما في الأرض، ثم قال: يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال: قلت: نعم، يختصمون في الكفارات والدرجات. قال: وما الكفارات والدرجات؟ قلت المكث في المساجد بعد الصلوات والمشي على الأقدام إلى الجماعات، وإبلاغ الوضوء على المكارة. من فعل ذلك عاش بخير ومات بخير، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه. وقال: قل يا محمد إذا صليت: اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وإذا أردت بعبادك فتنة أن تقبضني إليك غير مفتون. قال: والدرجات: بذل الطعام، وإفشاء السلام والصلاة بالليل والناس نيام»[(٥)].

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان – باب قوله ﷺ: «نور أنى أراه» ١٧٨، والترمذي في التفسير ٣٢٨٢، وأحمد ٥/ ١٤٧.

(٢) أخرجه البخاري في الوضوء ١٤٤، ومسلم في الإيمان ١٧٩، وابن ماجه في الطهارة ٣١٨.

(٣) أخرجه الترمذي في الفتن ٢٢٣٥، وقال: «حديث حسن صحيح»، وأحمد ٥/ ٣٢٤.

(٤) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٨٥ ـ ٢٨٦.

(٥) أخرجه الترمذي في التفسير ٣٢٣٣، ٣٢٣٤، وقال: «حديث حسن غريب»، وأحمد ١/ ٣٦٨، ورُوي من حديث أبي ذر ومعاذ ـ رضي الله عنهما ـ وفيه: «رأيت ربي البارحة في أحسن صورة» وأخرجه الطبراني في الكبير ٩٣٨. وقال الهيثمي: «فيه عبد الله بن إبراهيم بن الحسين عن أبيه، ولم أر من ترجم له».

فهذا الحديث وما في معناه يدل على أنه إنما رآه رؤية منام، وعلى هذا يحمل ما جاء عن بعض السلف من إطلاقهم الرؤية، أو قولهم: رآه بقلبه - والله أعلم - كما قال ابن عباس - رضي الله عنهما: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ قال: «رآه بفؤاده مرتين»[1].

قال ابن القيم[2]: «وأما قول ابن عباس: «رأى محمد ربه بفوائده مرتين فالظاهر أن مستنده هذه الآية وقد تبين أن المرئي فيها جبريل، فلا دلالة فيها على ما قاله ابن عباس».

وأما ما روي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «لقيني رسول الله ﷺ فقال لي: «يا جابر ما لي أراك منكسرًا؟» قلت: يا رسول الله استشهد أبي قتل يوم أحد، وترك عيالاً ودينًا، قال: «أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟» قال: قلت: بلى يا رسول الله، قال: «ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب، وأحيا أباك فكلمه كفاحًا، فقال: يا عبدي تمنّ عليّ أعطك، قال: يا رب تحييني، فأقتل فيك ثانية، قال الرب عز وجل: إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يُرجعون» قال: وأنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ﴾»[3] فهذا - إن صح - إنما هو بعد الموت، وهذا من خصائص والد جابر رضي الله عنهما. وأما في القيامة فلا يحجب عن رؤيته عز وجل ومخاطبته إلا من مات على الكفر.

﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ سدرة المنتهى في السماء السابعة، وسميت بذلك لأنها ينتهي إليها ما ينزل من عند الله فيقبض منها وما يصعد إليه فيقبض منها.

﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ أي الجنة التي يأوي ويصير إليها الرسل وأتباعهم من الشهداء والصالحين، ويخلدون فيها، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١] يقال: أوى إلى كذا، أي: صار إليه، واستقر فيه.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان - باب قول الله - عز وجل: (ولقد رآه نزلة أخرى) ١٧٦.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤ / ٢٨٥ - ٢٨٨.

(٣) أخرجه الترمذي في التفسير ٣٠١٠، وابن ماجه في المقدمة ١٩٠، وقال الترمذي: (حديث حسن غريب).

﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ «إذ» بمعنى «حين».

و«السدرة» هي سدرة المنتهى و(ما) موصولة بمعنى الذي، تفيد العموم.

ومعنى (يغشى السدرة) أي يلتف حولها ويغطيها أي: حين يلتف حول السدرة ويغطيها الذي يغطيها من الملائكة والنور والألوان وغير ذلك، كما دلت على ذلك الأحاديث.

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما أُسري برسول الله ﷺ - انتهي به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السابعة، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها (إذ يغشى السدرة ما يغشى) قال: فراش من ذهب، قال: وأعطي رسول الله ﷺ ثلاثًا: أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله شيئًا من أمته المقحمات»[(١)].

﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ (ما) نافية، ومعنى (ما زاغ البصر) أي: ما ذهب وما مال يمينًا ولا شمالاً (وما طغى) أي: ما جاوز ما أمر به، والطغيان: الزيادة، وتجاوز الشيء حده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١] أي: لما زاد الماء عن حده.

قال ابن القيم[(٢)]: «وزيغ البصر: التفاته جانبًا، وطغيانه: مده أمامه إلى حيث ينتهي».

فهذا من كمال أدبه ﷺ، فما مال بصره يمينًا ولا شمالاً، ولا جاوز ما أمر به، وهذا من كمال الأدب، ومن كمال إقبال الناظر على المنظور أن يقصر بصره عليه، وأن لا يصرفه عنه يمنة ولا يسرة، ولا يتجاوزه.

قال ابن كثير[(٣)]: «وهذه صفة عظيمة في الثبات والطاعة، فإنه ما فعل إلا ما أمر به، ولا سأل فوق ما أعطي، وما أحسن ما قال الناظم:

رأى جنة المأوى وما فوقها ولو رأى غيره ما قد رآه لتاها»

وهذا يدل على كمال أدبه ﷺ مع ربه، مما فاق به سائر الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، وبه صار أفضل أولي العزم، فإن من عادة النفوس إذا تم لها مقام أن تتطلع إلى ما هو أعلى منه، ولهذا نرى موسى عليه السلام لما أقيم مقام التكليم طلب

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان - باب ذكر سدرة المنتهى ١٧٣، والترمذي في التفسير ٣٢٧٦، وأحمد ١/ ٤٢٢.
(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٨٩، ٢٩٦.
(٣) في تفسيره ٧/ ٤٢٩.

الرؤية فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ أما نبينا ﷺ فإنه من كمال أدبه وخلقه لم يلتفت ببصره، ولا بقلبه إلى غير المقام الذي أقيم فيه، ولهذا كان ﷺ سيد الأولين والآخرين.

ولهذا جاء في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن مالك بن صعصعة رضي الله عنه: «أن موسى عليه السلام لما مر به النبي ﷺ ليلة الإسراء وجاوزه بكى، فقيل له : ما يبكيك؟ قال: أبكي أن غلامًا بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي»[1].

﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ كما قال تعالى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى﴾ [طه: ٢٣] واللام في قوله (لقد) واقعة في جواب قسم مقدر، أي: والله لقد رأى من آيات ربه الكبرى.

و«الكبرى» اسم تفضيل، لأن آيات الله إما كبيرة وإما كبرى، وليس فيها صغرى.

أي: رأى وشاهد (من آيات ربه الكبرى) أي: من آيات ربه الكبيرة العظيمة، وهي العلامات الدالة على كماله عز وجل في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وكمال قدرته وعظمته، والمراد بالآيات هنا الآيات الكونية.

قال ابن كثير[2]: «وبهتين الآيتين ـ يعني: قوله ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ وقوله في سورة طه ﴿لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى﴾ [الآية: ٢٣]، استدل من ذهب من أهل السنة أن الرؤية تلك الليلة لم تقع، لأنه قال: ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك ولقال ذلك للناس».

الفوائد والعبر:

١ ـ وصول القرآن إلى النبي ﷺ بأقوى إسناد وأصحه وآمنه.

٢ ـ قوة جبريل عليه السلام، وعظم خلقه، وجمال منظره.

٣ ـ إثبات رؤية النبي ﷺ لجبريل على هيئته التي خلق عليها وذلك بالأفق الأعلى

---

(١) أخرجه البخاري: في بدء الخلق ٣٢٠٧، ومسلم في الإيمان ١٦٤، والنسائي في الصلاة ٤٤٨ ـ وانظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٩٧ـ ٢٩٨، «تفسير ابن كثير» ٥/ ١٤.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٤٣٠.

وقربه من النبي ﷺ قدر قوسين أو أدنى.

٤ ـ أن الله ـ عز وجل ـ أوحى القرآن إلى عبده محمد ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام، أي: أوحاه إلى جبريل وبلغه جبريل عليه السلام لمحمد ﷺ.

٥ـ تشريف النبي ﷺ بعبوديته لربه لقوله ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾.

٦ ـ تعظيم الله ـ عز وجل ـ لوحيه وكتابه الكريم.

٧ ـ إثبات صدق النبي ﷺ فيما رآه من الآيات العظيمة، ونفي كذبه.

٨ ـ الإنكار على المشركين في مجادلتهم الرسول ﷺ بالباطل عناداً منهم وجحداً لما رآه من الآيات.

٩ ـ إثبات رؤية النبي ﷺ لجبريل على صورته التي خلق عليها مرة أخرى عند سدرة المنتهى في السماء السابعة.

١٠ ـ إثبات سدرة المنتهى التي عندها جنة المأوى والتي ينتهي إليها ما يعرج إلى السماء وما ينزل منها، وعظمة ما يغشاها.

١١ ـ ثبات بصر النبي ﷺ على رؤية ما أمر برؤيته من غير زيغ يميناً أو شمالاً ولا امتداد لرؤية غير ما أمر به.

١٢ ـ رؤيته ﷺ حين أسري به من آيات ربه الكبرى الدالة على كماله ـ عز وجل ـ وكمال قدرته.

١٣ ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لنبيه ﷺ لقوله ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ۝ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ۝ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ۝ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ۝﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

أكد عز وجل في الآيات السابقة صدق الرسول ﷺ فيما جاء به من الوحي وأنه من عند الله حقًا، وصل إلى النبي ﷺ من أسلم طريق وآمنه وأقربه وأصحه، ثم أتبع ذلك بتوبيخ المشركين وتقريعهم في عبادتهم الأصنام والأنداد والأوثان، واتخاذهم الأبنية عليها وتعظيمها من دون الله، وعدولهم عما جاءهم من الحق والهدى من عند الله عز وجل على لسان الرسول ﷺ إلى ما لم ينزل الله به من سلطان اتباعًا للظن والهوى.

قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ الهمزة للاستفهام، ومعناه الإنكار والتوبيخ والتقريع والتحقير، ومعنى (افرايتم): أخبروني.

قال ابن كثير[1]: «وكانت اللات صخرة بيضاء منقوشة، وعليها بيت بالطائف له أستار وسدنة، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش، وقد بعث إليها رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة وأبا سفيان صخر بن حرب، فهدماها وجعلا مكانها مسجد الطائف»

وقد اشتقوا اسمها «اللات» من اسم الله. وقيل: إن «اللات» اسم رجل كان يلت السويق للحجاج فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه.

والعزى: شجرة عليها بناء وأستار بنخلة بين مكة والطائف، كانت قريش وبنو كنانة يعظمونها وقد اشتقوا اسمها من اسم الله «العزيز».

ومن شدة تعظيم قريش لها قول أبي سفيان يوم أحد مفتخراً: لنا العزى، ولا عزى لكم. فقال النبي ﷺ: «أجيبوه» قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا: الله مولانا ولا

---

(١) في تفسيره ٧/ ٤٣٠، وانظر سيرة ابن هشام ١/ ٨٥.

مولى لكم»[(١)].

وقد بعث النبي ﷺ إليها خالد بن الوليد رضي الله عنه فقطعها[(٢)].

ومن شدة تعظيمهم لها أنه بعد قطعها وبعد مرور أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان تجد في تعبيرات بعض الناس وبخاصة العامة كلمات يقولونها من غير قصد تناقلها الناس بعضهم عن بعض كقولهم: «واعزتا لك» يقصدون بها التحسر أو التخويف وقولهم: «واعزي لك» يقصدون بها التخويف، وقولهم «واعزاه» يقصدون بها التحسر والندب والتاوه، وقول بعضهم لبعض: «جاءك أبو العزين» يخوفون بهذا، ونحو ذلك من التعبيرات التي قد توجد في بعض الجهات مما هو في الأصل مشتق من هذه التسمية.

وهذه الألفاظ ـ وإن كانت لا يقصد بها شيء ـ ولله الحمد ـ لأن الشرك قد اجتث من جذوره في هذه البلاد بفضل الله عز وجل ثم بفضل دعوة الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب ومؤازرة محمد بن سعود له رحمهما الله وجزاهما عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء ـ إلا أن الأولى البعد عن هذه الألفاظ.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف فقال في حلفه: واللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله ومن قال لصاحبه: تعال أقامرك فليتصدق»[(٣)].

قال ابن كثير[(٤)] بعد سياقه هذا الحديث: «وهذا محمول على من سبق لسانه في ذلك كما كانت ألسنتهم قد اعتادته في زمن الجاهلية».

ثم ساق ابن كثير عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: كنا نذكر بعض الأمر، وأنا حديث عهد بالجاهلية، فحلفت باللات والعزى فقال لي أصحاب رسول الله ﷺ: بئس ما قلت ائت رسول الله ﷺ فإنا لا نراك إلا قد كفرت فأتيته، فأخبرته، فقال لي: «قل لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠٤٣، وأبو داود في الجهاد ٢٦٦٢ ـ من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٧/ ٤٣١.
(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة النجم ٤٨٦٠، ومسلم في الأيمان ١٦٤٧، وأبو داود في الأيمان والنذور ٣٢٤٧، والنسائي في الأيمان والنذور ٣٧٧٥، والترمذي في النذور والأيمان ١٥٤٥ وابن ماجه في الكفارات ٢٠٩٦.
(٤) في تفسيره ٧/ ٤٣١.

شئ قدير، وانفث عن شمالك ثلاثًا، وتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم لا تعد»[1].

﴿وَمَنَوٰةَ﴾ أي: «ومناة» التي كانت تعبد وتعظم من دون الله، وكانت على ساحل البحر بالمُشَلَّل ـ عند قُدَيد بين مكة والمدينة تعظمها خزاعة والأوس والخزرج ومن دان دينهم من أهل يثرب يُهلُّون منها للحج إلى الكعبة.

بعث إليها رسول الله ﷺ أبا سفيان صخر بن حرب رضي الله عنه فهدمها، ويقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه[2].

﴿ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ بعد الاثنتين قبلها، أي: بعد اللات والعزى أي: التي تعبد كما تعبد اللات والعزى، وفي قوله (الأخرى) إشارة ـ والله أعلم ـ إلى تأخرها في الرتبة عن اللات والعزى عند المشركين. فهذه الأصنام الثلاثة أشهر معبودات العرب التي كانوا يعظمونها في جاهليتهم ولهذا خصها بالذكر.

وهناك معبودات أخرى كثيرة يعظمونها ويهدون لها كما يهدون للكعبة ويطوفون حولها وينحرون عندها.

ومعنى قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ أي: أخبروني عن هذه المعبودات والآلهة التي تعبدونها من دون الله، مما لا ينفع ولا يضر، ومما لا حجة ولا سلطان لكم في عبادته، ولماذا تعبدونها من دون الله، وكيف تعبدون ما لا يملك لكم نفعًا ولا ضرًا، وما تضركم عبادته، فأين دليلكم، وأين عقولكم؟.

وليست عبادة غير الله مقصورة على هذه المعبودات اللات والعزى ومناة بل كل ما عظم من دون الله من الأعيان أو الأشخاص الأحياء أو الأموات، أو المناصب، أو الرياضة، أو الدرهم والدينار وغير ذلك فكل ذلك مما عبد من دون الله قال ﷺ «تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار»[3] وذلك لأن غاية التعظيم والمحبة والطاعة ينبغي أن تكون لله عز وجل وحده.

---

(١) أخرجه النسائي في الأيمان والنذور ـ الحلف باللات والعزى ٣٧٧٦، وابن ماجه في الكفارات ٣٠٩٧.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام ١/ ٨٥-٨٦، «صحيح البخاري» مع الفتح ٦/ ١٧٦-١٧٧، «تفسير ابن كثير» ٧/ ٤٣١-٤٣٢.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٨٧، والترمذي في الزهد ٢٣٧٥، وابن ماجه في الزهد ٤١٣٦ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

فمن أشرك مع الله غيره، أو قدم تعظيم غيره عليه فقد عبد غير الله.

وقد خلق الله الخلق لعبادته كما قال عز وجل ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فلم يخلقهم ليعبدوا غيره، ويعظموا سواه، ولم يخلقهم لحاجته إليهم، فهو الغني عما سواه، كما قال عز وجل ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٧-٥٨].

فليتنبه العاقل اللبيب لهذا، وليعلم أن الشرك في آخر هذه الأمة أعظم من شرك الجاهلية الأولى، وأن الشرك أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، قال بعض السلف: «ما جاهدت نفسي على شيء ما جاهدتها على الإخلاص». وقد يقع الإنسان في الشرك وهو لا يعلم، فعليه أن يقول كما قال النبي ﷺ: «اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئًا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلم»[1].

﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتقريع للمشركين على نسبتهم الولد لله عز وجل وهو منزه عنه، وتخصيصهم أنفسهم بالذكور، وزعمهم أن له الإناث، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ [الطور: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ۝ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ۝ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات: ١٤٩-١٥٤]، وقال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ [الزخرف: ١٦]، وذلك أنهم زعموا أن الملائكة بنات الله تعالى الله عن قولهم قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٢٧].

﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ أي: جائرة باطلة.

قال ابن كثير[2]: «أي: اتجعلون له ولدًا، وتجعلون ولده أنثى، وتختارون لأنفسكم الذكور، فلو اقتسمتم أنتم ومخلوق مثلكم هذه القسمة لكانت (قسمة ضيزى) أي:

---

(١) أخرجه أحمد ٤/٤٠٣ ـ من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) في «تفسيره» ٧/٤٣٣.

جورًا باطلة، فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التي لو كانت بين مخلوقين كانت جورًا وسفهًا».

﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ «إن» نافية بمعنى «ما»، و«إلا» للحصر، أي: ما هذه المعبودات والآلهة التي جعلتموها شريكة لله «اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى» وغيرها إلا مجرد أسماء سميتموها أيها المشركون، أنتم وآباؤكم من قبلكم.

﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: ما أنزل الله بها من حجة ولا دليل ولا برهان.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ «إن» نافية - كسابقتها، و «إلا» كذلك للحصر، أي: ما يتبعون هم وآباؤهم فيما سلكوه من عبادة غير الله إلا الظن والوهم الذي لا دليل عليه، ولا يقين معه ولا حقيقة له كما قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانًا»[(١)].

قال ابن كثير[(٢)]: «(إن يتبعون إلا الظن) أي: ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم».

﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ الواو: عاطفة، وما موصولة أي: والذي تهواه وتميل إليه نفوسهم من الباطل، من الشهوات، وحب الرياسة، وتعظيم آبائهم الأقدمين وغير ذلك.

والهوى مُرْدٍ ومهلك، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُم﴾ [محمد: ١٤].

وقد قيل:

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح ٥١٤٤، ومسلم في النكاح ١٤١٣ وفي البر والصلة ٢٥٦٣، وأبو داود في النكاح ٢٠٨٠، والنسائي في النكاح ٣٢٣٩-٣٢٤١، والترمذي في البر والصلة ١٩٨٨، وابن ماجه في النكاح ١٧٦٧.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٤٣٣.

وآفة العقل الهوى فمن علا   عَلَى هواه عقله فقد نجا[١]

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ الواو: حالية، واللام: للقسم، و«قد» للتحقيق، أي: والله لقد جاءهم من ربهم الهدى، وهو الحق البين الواضح في كتابه - عز وجل - وعلى لسان رسوله ﷺ، كما قال عز وجل ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح:٢٨] أي: بالعلم النافع والعمل الصالح.

لكنهم مع هذا ما انقادوا لما جاءهم من ربهم من الحق والهدى بل اتبعوا الظن وما تهواه أنفسهم.

قال ابن القيم[٢]: «فالظن: الشبهة، وما تهوى الأنفس: الشهوة، والهدى الذي جاءنا من ربنا مخالف لهذا وهذا».

﴿أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ «أم» هي المنقطعة التي بمعنى «بل» وهمزة الاستفهام، أي: «بل» اللإنسان ما تمنى، ومعناه الإنكار والنفي، و«ما» موصولة، أي: ليس يحصل الإنسان كل ما تمنى، ولا كل من ود شيئًا وأحبه حصل له، وليس كل من زعم أنه مهتد يكون كما قال، قال عز وجل: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء:١٢٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تمنى أحدكم فلينظر ما يتمنى، فإنه لا يدري ما يكتب من أمنيته»[٣].

بمعنى: أن عليه أن يتمنى الخير ويعمل على تحقيقه، ولا يعتمد على التمني فإن مجرد التمني لا يحقق شيئاً، كما أن عليه أن يحذر من تمني الشر.

وكم من مدع أمرًا لم يحققه وفي الأثر: «ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال»[٤].

وقد أحسن القائل:

---

(١) البيت لابن دريد انظر «ديوانه» ص١٣٢.

(٢) انظر: بدائع التفسير ٤/ ٢٩٩.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٣٥٧، ٣٨٧.

(٤) روي هذا عن الحسن البصري رحمه الله وقد سبق تخريجه.

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقدام قتّال

وقال الآخر:

وكل يدعي وصلاً بليلى وليلى لا تقر لهم بذاكا

وقد قيل: «التمني رأس مال المفاليس» .

﴿فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ أي: إنما الأمر كله لله، فهو مالك الآخرة والأولى، والأولى هي الدنيا لأنها قبل الآخرة زمنًا وقدّم الآخرة لظهور كمال وتمام ملكه فيها أكثر من الدنيا، ومراعاة للفواصل فهو عز وجل مالك الدارين وخالقهما والمتصرف فيهما، فهو الذي ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن، فلا يمكن مع هذا أن يكون للإنسان ما تمنى مع أن الملك والخلق والأمر كله لله كما قال عز وجل ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال عز وجل: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم:٤].

ولو عرف الإنسان هذا الأمر حقيقة المعرفة، وقدر الله حق قدره ما خالف أمره ولا ارتكب نهيه.

﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الواو: استئنافية، و«كم» هنا خبرية بمعنى «كثير» أي: وكثير من الملائكة في السموات.

﴿لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ أي: لا تنفع شفاعتهم شيئًا، فلا تجلب خيرًا، ولا تدفع ضرًا.

﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ إلا: أداة استثناء، (من بعد) جار ومجرور متعلق بنعت هو المستثنى المقدر، أي: إلا شفاعة من بعد أن يأذن الله.

وقوله (أن يأذن) أن والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بالإضافة، أي: إلا من بعد إذن الله لمن يشاء من عباده بالشفاعة ورضاه عن المشفوع له وهذان هما شرطا الشفاعة كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [يونس:٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ۝١٠٩﴾ [طه: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وإذا كان الملائكة وهم العباد المكرمون عند الله عز وجل، والذين لا يعصون الله

ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون لا تغني شفاعتهم شيئًا، لا نفعًا ولا دفعًا إلا بعد إذن الله عز وجل للشافع ورضاه عن المشفوع له فكيف يقال أو يظن أن للإنسان ما تمنى، أو أن هذه المعبودات تشفع لعابديها من دون الله، إذ لو كان ذلك لأحد من الخلق لكان من أولى الناس بذلك الملائكة الكرام البررة، وفي هذا تيئيس للمشركين من أن يحصل لهم ما تمنوا أو أن تشفع لهم معبوداتهم، ولا يعني هذا أن الملائكة أفضل من الأنبياء والرسل، بل ولا أفضل من المؤمنين كما هو الصحيح من أقوال أهل العلم ومذهب أهل السنة والجماعة.

الفوائد والعبر:

١ ـ الإنكار على المشركين وتوبيخهم وتقريعهم في عبادتهم الأصنام والأوثان من دون الله، ونسبتهم الإناث لله ـ تعالى الله وتقدس.

٢ ـ عظم جهل المشركين وإغراقهم في الضلال حيث عبدوا ما لا ينفع ولا يضر، وعظم افترائهم وجورهم حيث نسبوا لله الولد بل خصوه بالإناث واستأثروا بالذكور تعالى الله عن قولهم علواً كبيرا.

٣ ـ أن اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى من أشهر وأكبر معبودات المشركين العرب وبحكمها في الإنكار والنهي كل ما عبد من دون الله.

٤ ـ وجوب توخي العدل والحذر من الجور في كل شيء.

٥ ـ النعي على المشركين وآبائهم في تسميتهم هذه المعبودات، وجعلها آلهة وما أنزل الله بها من سلطان، وإنما بمجرد اتباع الظن وهوى الأنفس.

٦ ـ أن الله ـ عز وجل ـ قد أقام الحجة على الخلق، وأبان طريق الهدى في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ فلا عذر لمن تنكب الجادة وسلك طريق الردى.

٧ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ العامة لجميع الخلق.

٨ ـ ليس الإيمان بالتمني، ولا من زعم أنه مهتد يكون كذلك، ولا من تمنى شيئاً حصل له.

٩ ـ أن لله ملك الآخرة والدنيا فالخلق خلقه والأمر أمره.

١٠ ـ كثرة الملائكة في السموات وعظم مكانتهم عند الله ـ عز وجل ـ وإن لم تبلغ مكانة الرسل، بل ولا مكانة صالح المؤمنين على الصحيح.

١١ ـ لا أحد يشفع عند الله لا ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا بعد إذن الله للشافع ورضاه عن المشفوع له.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴿٣٠﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

أنكر الله عز وجل في الآيات السابقة على المشركين نسبتهم الولد لله عز وجل، وزعمهم أن لهم الذكور وله الإناث، ثم أتبع ذلك بالإنكار عليهم في تسميتهم الملائكة بالإناث، وزعمهم أن الملائكة بنات الله، والرد عليهم - تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: إن الذين لا يصدقون بالدار الآخرة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال، وهم الكفار.

وسميت الدار الآخرة بهذا الاسم، لأنها متأخرة من حيث الزمن بعد الدار الدنيا، وهي آخر الدور وآخر مراحل الإنسان وهي الدار التي فيها الحياة الحقيقية كما قال عز وجل ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

﴿لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ﴾ الملائكة: جمع ملك، وهم خلق من خلق الله عز وجل خلقهم الله من نور ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠] ﴿عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٧].

﴿تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى﴾ أي: يسمونهم بالإناث، فيقولون: الملائكة بنات الله تعالى الله عن ذلك قال عز وجل: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]، وقال تعالى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ [الصافات: ١٥٠]، وقال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ [الزخرف: ١٦].

﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ﴾ الواو حالية، و«ما» نافية، «به»: أي: بالمذكور، وهو تسميتهم الملائكة إناثًا.

﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ «من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة للنفي من حيث المعنى، أي:

والحال أنهم ليس لهم بما قالوه من هذه التسمية من علم يصدق ما قالوه، لا قليل ولا كثير، فليس لديهم أي علم وإن قل - بما قالوه، بل هو محض كذب وافتراء.

قال ابن كثير[1]: «أي: ليس لهم علم صحيح يصدق ما قالوه، بل هو كذب وزور وافتراء، وكفر شنيع».

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ «إن» نافية بمعنى «ما» أي: ما يتبعون فيما قالوه إلا الظن والوهم الكاذب.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ اي: لا يجدي شيئًا ولا يقوم أبدًا مقام الحق فالحق ثابت وأحق أن يتبع، والظن باطل زائل، ولهذا ذمه الله عز وجل ونهى عنه.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ [الحجرات: ١٢]،

وقال ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»[2].

وفي الحديث: «ثلاث لا ينجو منهن أحد: الحسد والظن والطيرة، وسأحدثكم بما يخرج من ذلك إذا حسدت فلا تبغ، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض»[3].

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ۝﴾.

في هذه الآيات الكريمة تسلية للنبي ﷺ، ووعيد للمكذبين بما جاءهم به من عند الله عز وجل.

قوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، أي: إن كانوا يتبعون الظن وقد جاءهم من ربهم الهدى فأعرض عنهم أي: فأعرض عن الذي تولى وأعرض عن ذكرنا القرآن الكريم كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٣٤.

(٢) أخرجه البخاري في النكاح ٥١٤٤، ومسلم في البر والصلة ٢٥٦٣، والترمذي في البر والصلة ١٩٨٨، وأحمد ٢/ ٢٤٥، ٢٨٧ من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه الأصبهاني في الإيمان عن الحسن البصري مرسلاً انظر: الجامع الصغير ٣٤٦٦، وأخرجه الطبراني فيما ذكره ابن كثير في تفسيره ٧/ ٣٥٧ من حديث حارثة بن النعمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث لازمات لأمتي: الطيرة والحسد، وسوء الظن، فقال رجل: ما يذهبهن يا رسول الله ممن هن فيه؟ قال إذا حسدت فاستغفر الله وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض».

تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

والمعنى: فاعرض عمن تولى وأعرض عن القرآن الكريم، وعن تذكيرنا بعد إقامة الحجة عليه، واتركه واهجره ولا تباله، ولا يثن من عزمك وتصميمك، ولا تبتئس به واستمر في طريق دعوتك، وهكذا ينبغي أن يكون الدعاة إلى الله والموجهون إلى الخير، بحيث لا يثني عزائمهم أو يفت في عضدهم تولي المعرضين.

وفي هذا من الإشارة للوعيد ما فيه كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦].

وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٢٢].

﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: ولم يطلب إلا الحياة الدنيا، وسميت بالدنيا لأنها قبل الآخرة زمنًا، ولدناءة رتبتها وحقارتها، كما وصفها الله عز وجل في القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الأنعام: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمد:٣٦]، وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ﴾ [الحديد:٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران:١٨٥، الحديد: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧]، وقال تعالى فيما حكاه عن مؤمن آل فرعون أنه قال لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ [غافر: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ [آل عمران: ١٩٧، النحل:١١٧].

وكما وصفها رسوله المصطفى الكريم فقال ﷺ فيما رواه سهل بن سعد رضي الله عنه: «لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٢٠، وابن ماجه في الزهد ٤١١٠، وقال الترمذي: «حديث صحيح غريب».

وقال ﷺ: «وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها»[(١)].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام، وقد أثر في جنبه، فقلنا يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاءً، فقال: «مالي وللدنيا إنما أنا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»[(٢)].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي، فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل».

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»[(٣)].

فيالله ما أعظم بركة عمر من وفقه الله ونظر للدنيا هذه النظرة كما وصفها الله في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، وما أقل بركة عمر من غفل عن هذه النظرة فعاش ساهياً لاهياً حتى أتاه الموت وهو على غرة.

ويا لله ما أسعد حياة من عرف حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة، فلم يأس على ما فاته من الدنيا، ولم يبطره ما حصل له منها، وصدق الله العظيم ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

وما أسعد من عرف حقيقة الآخرة فاستعد لها بجزم وعزم وتصميم وقلب منشرح ومعنوية مرتفعة، أداءً لما أوجب الله وانتهاءً عما نهى الله عنه وسرته حسنته وساءته سيئته.

ويا لله ما أحسن حال من عرف حقيقة الدارين، ما أحرصه وأسرعه لأداء الواجبات والبعد عن المنهيات، وما أسرعه إلى العفو عمن ظلمه والصفح عمن أساء إليه، والمسارعة في أعمال البر والخير، قال تعالى ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد ـ فضل رباط يوم في سبيل الله ٢٨٩٢، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٤٨ ـ وابن ماجه في الزهد ٤٣٣٠ ـ من حديث سهل بن سعد الساعدي ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٧٧ ،وابن ماجه في الزهد ٤١٠٩، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤١٦، والترمذي في الزهد ٢٣٣٣، وابن ماجه في الزهد ٤١١٤.

﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: غاية علمهم ونهاية ما وصلوا إليه من العلم إرادة الحياة الدنيا وطلبها والسعي إليها، فهي أكبر همهم ومبلغ علمهم ـ نسأل الله العافية ـ فيا للصفقة الخاسرة لمن آثر ما يفنى على ما يبقى.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له»[1].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له»[2].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قلَّما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: «اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهوّن به علينا مصائب الدنيا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقواتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا ولا تسلط علينا من لا يرحمنا»[3].

وإن التولي عن الحق وإرادة الحياة الدنيا وحدها خروج عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها وعن الهدف الذي خلق الله الخلق من أجله وهو عبادته وحده كما قال عز وجل ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

وفي قوله ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ إشارة إلى قلة علمهم وضآلته، وإلى نظرهم القاصر الذي لا يتجاوز ما تحت أقدامهم حيث قدموا العاجل الفاني على الآجل الباقي، ولو كان عندهم علم وبعد نظر ما آثروا الفاني على الباقي.

فليتأمل هذا من يلهثون وراء جمع المال من أي طريق، ولو كان ذلك بالمعاملات

---

(١) أخرجه أحمد ٦/ ٧١.

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع ٢٤٦٥.

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٠٢ وقال: «حديث حسن غريب» وقال في «تحفه الأحوذي»: «أخرجه النسائي والحاكم، وقال: صحيح على شرط البخاري».

الربوية، والشركات المختلطة، والأسهم المشتبهة، حتى صار أكبر همهم متابعة الأسهم ارتفاعاً وانخفاضاً في ليلهم ونهارهم، ويقظتهم ومنامهم حتى في صلاتهم وانشغلوا بذلك عن أمور دينهم، وعن أهليهم وأولادهم وأعمالهم، وأصيب كثير منهم بسبب ذلك بأنواع من الأمراض النفسية وارتفاع ضغط الدم أو انخفاضه والسكري وغير ذلك.

وأقول لهؤلاء وأمثالهم: على هونكم فقد قال ﷺ «فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم»[1].

وعن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ألا وإن حمى الله محارمه»[2].

اللهم اكفنا بحلالك عن حرامك وبفضلك عمن سواك، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي: إن ربك ـ يا محمد ـ خالقك ومالكك ومتوليك ومدبر أمرك.

(هو أعلم) «أعلم»: على وزن «أفعل» صيغة تفضيل، أي: إن مرد العلم كله إليه عز وجل، وهو العليم الخبير الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، يعلم السر وأخفى، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:٧]، وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [القصص: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

و«من» في الموضعين موصولة، أي: إن ربك هو أعلم بالذي ضل وتاه عن سبيله

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠١٥، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦١، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٦٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٩٧ ـ من حديث عمرو بن عوف رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٢، ومسلم في المساقاة ١٥٩٩، وأبو داود في البيوع ٣٣٢٩، والنسائي في البيوع ٤٤٥٣، والترمذي في البيوع ١٢٠٥، وابن ماجه في الفتن ٣٩٨٤.

سبيل الحق، وتركه (وهو) سبحانه أعلم بالذي اهتدى إلى الحق.

وفي هذا كله ـ كما سبق ـ تسلية للنبي ﷺ، وتقوية له، ووعيد للضالين، ووعد للمهتدين.

وهكذا ينبغي أن يستلهم هذه الدروس الدعاة إلى الله من الآباء والمربين والموجهين وسائر الدعاة إلى الخير والحق، فلا يملوا، أو يقفوا في وسط الطريق.

الفوائد والعبر:

١ ـ الإنكار على المشركين المكذبين بالآخرة في تسميتهم الملائكة بنات الله بلا علم وإنما بمجرد الظن الباطل.

٢ ـ أن الظن لا يجدي ولا يغني من الحق شيئاً، ولا يثبت أمام الحق.

٣ ـ تسلية الرسول ﷺ ووعيد المكذبين من قومه وأمره بالإعراض عنهم، وفي هذا درس للدعاة إلى الله ـ عز وجل ـ فلا يثني عزائمهم إعراض المعرضين ونعيق الجاهلين.

٤ ـ أن مراد المكذبين المعرضين عن ذكر الله مجرد الحياة الدنيا فهي غاية همهم ومبلغ علمهم، نظرة مادية، وحياة بهيمية.

٥ ـ علم الله ـ عز وجل ـ الواسع بمن ضل عن سبيله، وبمن اهتدى إليه، وفي هذا وعد للمهتدين ووعيد للضالين المكذبين.

٦ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لنبيه ﷺ.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ۝٣١ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ۝٣٢﴾.

قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الواو: استئنافية واللام حرف جر، ولفظ الجلالة مجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم لإفادة التخصيص والحصر.

و«ما» موصولة تفيد العموم، أي: كل ما في السموات وما في الأرض لله وحده دون سواه، فهو ـ عز وجل ـ خالق ذلك كله، ومالكه، والمتصرف فيه، مما يوجب الإيمان به والانقياد لشرعه والرضا بقضائه وقدره.

﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ اللام للتعليل، وفي الآية دلالة على أن الجزاء من جنس العمل، أي: لأجل أن يجزي ﴿ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ أي: الذين عملوا الأعمال السيئة، التي تسوء صاحبها في الحال والمآل، وقد تسوء غيره، لأن المعاصي كلها لها أثرها السيء على العباد والبلاد، كما قال عز وجل: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ (ما) موصولة أو مصدرية، أي: بالذي عملوه، أو بعملهم.

وفي قوله (بما علموا) دون أن يقول ليجزي الذين أساؤوا بالإساءة، أو بالعذاب أو بالنار إشارة إلى تمام عدله عز وجل، أي: بما عملوا من غير زيادة ولا نقصان، كما قال عز وجل ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ اي: ويجزى الذين احسنوا قولاً وعملاً واعتقادًا في أفعالهم وأقوالهم واعتقادهم.

﴿بِٱلْحُسْنَى﴾ «الحسنى»: صيغة تفضيل على وزن «فعلى» تأنيث «احسن» أي: التي لا احس منها ولا افضل ولا أكمل.

والمراد بـ(الحسنى): الجنة، كما قال عز وجل ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس: ٢٦] ويحتمل أن يراد بـ (الحسنى): المثوبة الحسنى.

والمعنى واحد فالمثوبة الحسنى: يراد بها الجنة وما فيها من ألوان النعيم. وهذه الآية كقوله: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وقال عز وجل: ﴿وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ ولم يقل (بما عملوا) إشارة لفضله عز وجل، لأن الحسنى «فعلى» من الإحسان.

فهو سبحانه يجزي الحسنة بعشر أمثالها بل يضاعفها إلى سبعمائة ضعف وإلى أضعاف كثيرة، ويزيد من فضله كما قال عز وجل ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل عمل ابن آدم يضاعف له الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، قال الله عز وجل: «إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به»**»[1].

وفي هذا إشارة إلى عظيم فضل الصوم حيث أضافه عز وجل إليه، وأضاف جزاءه إليه أيضًا إضافة تقتضي أن للصوم وجزائه مزية وخصوصية، وإلا فإن جزاء الأعمال كلها إليه عز وجل قال تعالى ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [إبراهيم:٥١].

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ هذا تفسير ووصف للمحسنين وقوله: ﴿يَجْتَنِبُونَ﴾ أي: يبتعدون عن كبائر الإثم ويتركونها جانباً ولا يرتكبونها. والمراد بـ(كبائر الإثم) كبائر الذنوب والموبقات.

(والفواحش) معطوف على (كبائر الإثم) من عطف الخاص على العام لأن الفواحش من أعظم الكبائر، وهي ما فحش من الأعمال والأقوال في الشرع وعرف المسلمين كالزنا واللواط، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨٠-٨١].

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٠٤، ومسلم في الصيام ١١٥١، وأبو داود في الصوم ٢٣٦٣، والنسائي في الصيام ٢٢١٥، والترمذي في الصوم ٧٦٤، وابن ماجه في الصيام ١٦٣٨.

وقد اختلف أهل العلم في تحديد الكبيرة على أقوال عدة، أظهرها: أن الكبيرة ما رتب عليه حد في الدنيا، أو وعيد في الآخرة، من غضب أو لعنة أو نار أو عذاب ونحو ذلك. وهي كثيرة غير محصورة بعدد معين على الصحيح، فهي محدودة لا معدودة[(١)].

عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: «قال النبي ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثًا» قالوا: بلى يا رسول الله قال: «الإشراك بالله وعقوق الوالدين، وكان متكئًا فجلس، فقال: ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور» قال: فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت»[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات» قالوا يا رسول الله وما هن؟، قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»[(٣)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: « لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار»[(٤)].

﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ استثناء منقطع، لأن اللمم ليست من كبائر الذنوب والفواحش، بل المراد باللمم صغائر الذنوب التي قد يلم بها الإنسان، ولا يسلم منها غالبًا قال ﷺ: «إن تغفر اللهم تغفر جمًا وأي عبد لك لا ألمّا»[(٥)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما رأيت شيئًا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تتمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»[(٦)].

---

(١) راجع «تفسير آيات الأحكام في سورة النساء» الكلام على قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [الآية: ٣١] ١/ ٥٢٨-٥٣٣.

(٢) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٥٤، ومسلم في الإيمان ٨٧، والترمذي في التفسير ٣٠١٩.

(٣) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٦٧، ومسلم في الإيمان ٨٩، وأبو داود في الوصايا ٢٨٧٤.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان ٦/ ٦٥١.

(٥) أخرجه الترمذي في تفسير سورة النجم ٣٢٨٤ ـ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وقال: «حسن صحيح غريب».

(٦) أخرجه البخاري في الاستئذان ـ زنا الجوارح دون الفرج ٦٢٤٣، ومسلم في القدر ـ باب قدر على ابن آدم حظه من الزنا ٢٦٥٧، وأبو داود في النكاح ٢١٥٢، وأحمد ٢/ ٢٧٦.

قال ابن كثير[١]: «اللمم صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال».

وليس المعنى أنهم لا يجتنبون اللمم ويتعمدونه، فقد قال ﷺ فيما رواه عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه، وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلاً، كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سوادًا، فأججوا نارًا وأنضجوا ما قذفوا فيها»[٢].

والمعنى: أنهم يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، ولكن قد يقع منهم اللمم، وصغائر الذنوب مما لا يسلم منه أحد غالبًا.

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أي: لمن وقع في شيء من هذه الصغائر، إذا اجتنب الكبائر والفواحش، كما قال عز وجل: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن، ما لم تغش الكبائر»[٣].

وقيل المراد باللمم الذي يلم بالذنب مرة ثم يدعه ويتوب منه. والأظهر القول الأول، وهو قول الجمهور، لأن الذنوب الكبائر والفواحش وما دونها كلها وإن تكررت تقبل التوبة منها إذا كانت التوبة نصوحا حتى الشرك بالله.

قال ابن القيم[٤]: «والصحيح قول الجمهور: أن اللمم صغائر الذنوب كالنظرة والغمزة والقبلة ونحو ذلك هذا قول جمهور الصحابة ومن بعدهم».

---

(١) في تفسيره ٧/ ٤٣٥.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٤٠٢، والطبراني في الكبير ١٠/ ٢٦١ وأخرجه أحمد أيضًا ٥/ ٣٣١، والطبراني في الكبير من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٠/ ١٩٠: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، ورواه الطبراني في الثلاثة من طريقين، ورجال أحدهما رجال الصحيح غير عبد الوهاب بن الحكم وهو ثقة»، وقال ابن حجر في «فتح الباري» ١١/ ٣٢٧: «إسناده حسن».
وأخرجه أحمد أيضا ٦/ ٧٠، ١٥١ من حديث عائشة رضي الله عنها، وكذا ابن ماجه في الزهد ـ باب ذكر الذنوب ٤٢٤٣.

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة ـ فضل الوضوء والصلاة عقبه ٢٣٣، والترمذي في الصلاة ٢١٤، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٠٨٦.

(٤) انظر: بدائع التفسير ٤/ ٣٠٢.

وقد حكي عن أبي إسحاق الاسفراييني قوله: الذنوب كلها كبائر وليس فيها صغائر قال ابن القيم[١]: «فليس مراده أنها مستوية في الإثم، بحيث يكون إثم النظر المحرم كإثم الوطء من الحرام، وإنما المراد أنها بالنسبة إلى عظمة من عُصيَ بها كلها كبائر، ومع هذا فبعضها أكبر من بعض، ومع هذا فالأمر في ذلك لفظي لا يرجع إلى معنى ـ إلى أن قال: ولكن النصوص وإجماع السلف على انقسام الذنوب إلى صغائر وكبائر».

على أنه قد يتناول اللمم الصغائر، ومن ألم بالكبيرة، ثم لم يعد إليها فيتناول اللمم هذا وهذا، لأن من ارتكب الكبيرة مرة واحدة، ولم يصر عليها، ولم يعد إليها فهو حري بالمغفرة، ولهذا اعتبر بعض المفسرين اللمم أن يلم بالذنب مرة ثم لا يعود إليه، وذلك أن الذنوب وفي مقدمتها الكبائر إنما تتغلظ وتعظم في حق من تكررت منه أو أصر عليها قال ابن القيم[٢] بعد أن ذكر نحو هذا:

«فأول ذنب إن لم يكن هذا اللمم فهو من جنسه ونظيره فالقولان متفقان غير مختلفين».

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ المغفرة: ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله عز وجل يدني يوم القيامة المؤمن حتى يضع عليه كنفه ـ أي: ستره ورحمته ـ ويقرره بذنوبه فيقول: يا فلان أتذكر ذنب كذا وكذا؟ فيقول: أي رب نعم فيقول الله عز وجل أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»**[٣].

فهو عز وجل واسع المغفرة، أي: أن مغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها كما قال عز وجل: ﴿۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقال عز وجل ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ﴾ [الكهف: ٥٨].

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٠٠ ـ ٣٠٢.
(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٠٣.
(٣) سبق تخريجه.

ولما قال رجل: والله لا يغفر لفلان متعاظماً ذنوبه. قال الله عز وجل «من ذا الذي يتألى عليّ أن لا اغفر لفلان فإني قد غفرت له وأحبطت عملك»[1].

بل إنه عز وجل من فضله وجوده وكرمه يبدل سيئات من تاب إليه حسنات كما قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٧١].

ومغفرته عز وجل أثر من آثار رحمته فهو عز وجل أكرم الأكرمين وأجود الأجودين وأرحم الراحمين، وخير الغافرين، لا يهلك عليه عز وجل إلا هالك فكيف لا يُطمع بفضله وكرمه، بل كيف يُعصى أمره، ويُفرط في جنبه، وهو عز وجل يغفر الذنوب جميعًا، بل يبدلها حسنات. وإن من ضعف البصيرة ومن الحيرة والخذلان أن يغفل الكثيرون عن هذه المعاني في صفاته عز وجل مما يجعلهم يقعون في معصية الله ويقصرون في طاعته.

ولئلا تجانب الحق والصواب قف أخي الكريم وتأمل عظمة الخالق وفضله وجوده وكرمه، وانظر كيف يتعامل الخلق الضعاف مع بعضهم البعض (ولله المثل الأعلى) ترى الكثير من الناس إذا حصل له من أخيه هفوة يعظم عليه العفو عنها، وإن عفا عنها رأيته يمن بذلك ويكرر ذكره، فتعالى وتقدس الكريم الجواد ـ سبحانه الذي يغفر الذنوب جميعاً، ويعفو عن السيئات، بل ويبدلها حسنات.

وبالمقابل ترى من أحسن إليه أحد الخلق بشيء من الإحسان يكرر ذلك ويقول: يا أبا فلان والله ما أنسى فضلك ومعروفك حتى أوارى في قبري. فيا للعجب أليس الإحسان والفضل والمعروف كله من الله عز وجل، وإنما المخلوق قد يكون سببًا في حصول شيء من ذلك، والمحسن والمتفضل وصاحب المعروف كله هو الله عز وجل فتأمل أخي هذا المعنى قال تعالى ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام:٩١].

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٢١ ـ من حديث جندب ـ رضي الله عنه ـ

ولكن ينبغي أن يعلم أن الله عز وجل وإن كان واسع المغفرة وأن رحمته سبقت غضبه إلا أنه شديد العقاب.

وإنك لترى النصوص من الكتاب والسنة تذود الناس وتحاصرهم بين هذين الأمرين المغفرة والعقاب لكي تستقيم حال المؤمن في طريقه إلى الله بين الخوف والرجاء ولهذا قال ﷺ: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد»[1].

قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ أي: هو سبحانه وتعالى أعلم بكم وبأحوالكم جميعًا وأطوار خلقكم حين أوجدكم وخلقكم من الأرض بخلق أبيكم آدم من التراب، وحين كنتم أجنة في بطون أمهاتكم كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: حدثنا رسول الله ﷺ، وهو الصادق المصدوق، قال: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم علقة مثل ذلك ثم مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فيكتب رزقه وأجله، وشقي أو سعيد»[2].

والأجنة: جمع جنين وسمي الطفل في بطن أمه جنينًا لاستتاره في الظلمات الثلاث، كما قال عز وجل ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: ٦] ظلمة الرحم، وظلمة البطن، وظلمة المشيمة.

وهذه المادة (جنّ) معناها: استتر، ومنه سمي العقل «جنانًا» لاستتاره، وسمي الجن (جنًا)؛ لاستتارهم، ويقال: جن الليل، إذا غطى الكون بظلامه، وسمي (المجن) مجنًا؛ لأنه يستتر به من ضرب السهام ونحو ذلك.

والمعنى: أنه عز وجل أعلم بهم وبما قد يُمكنهم اجتنابه، وبما قد يُلمُّون به مما لا يكاد يُسلم منه غالبًا، لأنه سبحانه العليم بحقيقة أحوالهم وأطوارهم، كما قال عز وجل ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، ولهذا قال هنا:

---

(١) اخرجه مسلم في التوبة ٢٧٥٥، والترمذي في الدعوات ٣٥٤٢ ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) اخرجه البخاري في القدر ٦٥٩٤، ومسلم في القدر ٢٦٤٣، وابو داود في السنة ٤٧٠٨، والترمذي في القدر ٢١٣٧، وابن ماجه في المقدمة ٧٦.

﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ أي: فلا تزكوا أنفسكم بزعم طهارتها، وسلامتها من اللمم، ومدحها بما ليس فيها، والمَن بعملها والمراءاة والسمعة في ذلك، وقد قيل:

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه

وأيضاً لا يزك بعضكم بعضًا ويمدح بعضكم بعضاً بما ليس فيه.

وعلى هذا فيكون قوله ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور:٦١]، أي: ليسلم بعضكم على بعض.

فالنهي في الآية عن تزكية النفس، وعن تزكية الغير، لما يترتب على تزكية النفس من بطلان العمل وحبوطه، لأن معنى العبادة، بل لبها هو الخضوع والذل والافتقار إلى الله، والانكسار بين يديه، رجاء رحمته، وخوف عقابه والمزكي لنفسه بمقام المعجب بعمله، المدلّ على الله فيه، والله عز وجل غني عن مثل هذا العمل.

وقد قال ﷺ يومًا لأصحابه: «لن يُدخل أحدًا عملُه الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[1].

وتزكية النفس إضافة إلى ما سبق صفة مذمومة ممقوتة عند الناس ذوي الفطر السليمة، لا يقبلونها بل يكرهون صاحبها، ولهذا تجدهم ينفرون من المجالس التي يكون فيها من هذه صفته. يتصدر أحدهم المجلس، ويقول: أنا فعلت كذا، وأنا قلت كذا، وأنا، وأنا.

والناس في هذا بين مستقل ومستكثر، وقل من يسلم من ذلك؛ لأن النفوس جبلت على حب الظهور، والانتصار للنفس، ولو كان ذلك بالباطل إلا من رحم الله فوفقه لمعرفة قدر نفسه ومنتهى ضعفه والاستكانة لربه.

ففتش أخي في جوانب نفسك واحذر من غلوائها وكبريائها وتعاظمها، وألزمها طريق الاستقامة بالذل والخضوع والانكسار بين يدي الله عسى أن تسلم من شرها وما إخالك سالمًا.

أما تزكية الآخرين فقد نهى الله عنها لما قد يتسبب عنها من اغترار المزكَّى بعمله،

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١٦، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٣٤، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠١ ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وقد سبق بتمامه.

فيكون ذلك سببًا لهلاكه ولهذا جاء في حديث أبي بكرة رضي الله عنه قال: مدح رجل رجلاً عند النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «ويلك قطعت عنق صاحبك - مرارًا - إذا كان أحدكم مادحًا صاحبه، لا محالة، فليقل: أحسب فلانًا - والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحدًا - أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك منه»(١).

وعن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثي في وجوه المداحين التراب»(٢).

وتعظم حرمة المدح كلما كان في الوجه، وفيه مبالغة وخيفت منه الفتنة على الممدوح، ويهون الأمر ويسهل إذا كان من باب الثناء العام وبحق، لأجل شكره، والدعاء له، أو تشجيعه على الخير، ونحو ذلك، فقد يكون ذلك من عاجل بشرى المؤمن كما جاء في حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه، أو ويحبه الناس عليه؟ قال: «ذلك عاجل بشرى المؤمن»(٣).

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ أي: هو سبحانه أعلم بالذي اتقاه منكم من غيره لأن التقوى محلها القلب وهو العليم بذات الصدور، فهو عز وجل الذي يزكي من يشاء ويعلم المتقي من غيره قال تعالى في سورة النساء: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [الآية: ٤٩]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

وفي حديث زينب بنت أبي سلمة رضي الله عنها أنها سُميت (برة) فقال رسول الله ﷺ: «لا تزكوا أنفسكم، الله أعلم بأهل البر منكم» فقالوا بم نسميها؟ قال: «سموها زينب»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٦٢، ومسلم في الزهد - النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط وخيف منه الفتنة على الممدوح ٣٠٠٠، وأبو داود في الأدب - كراهية التمادح ٤٨٠٥، وابن ماجه في الأدب - باب المدح ٣٧٤٤.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد - النهي عن المدح ٣٠٠٢، وأبو داود في الأدب - كراهية التمادح ٤٨٠٤، وابن ماجه في الأدب ٣٧٤٢، وأحمد ٦/ ٥.

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة ٢٦٤٢، وابن ماجه في الزهد ٤٢٢٥.

(٤) أخرجه مسلم في الأدب - استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسن، وتغيير برة إلى زينب وجويرية ٢١٤٢، وأبو داود في الأدب ٤٩٥٣.

الفوائد والعبر:

١ ـ أن لله ما في السموات والأرض خلقاً وملكاً وتدبيراً.

٢ ـ أن الله ـ عز وجل خلق الخلق ليعبدوه وليجزي المحسن بالحسنى والمسيء بما عمل.

٣ ـ أن الجزاء من جنس العمل، وبقدره، هذا في مقام العدل، أما في مقام الفضل فإن الله ـ عز وجل ـ يزيد ويضاعف لمن يشاء بفضله.

٤ ـ الوعيد لمن أساؤوا بالعقوبة، والوعد لمن أحسنوا بالجنة والمثوبة.

٥ ـ الثناء على الذين يجتنبون كبائر الذنوب والفواحش، وأن هذا من الإحسان.

٦ ـ عفو الله ـ عز وجل ـ عن صغائر الذنوب ومغفرته لها إذا اجتنبت الكبائر والفواحش.

٧ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لنبيه ﷺ.

٨ ـ سعة مغفرة الله ـ عز وجل ـ وعلمه الواسع بأحوال الخلق وأطوارهم وقدراتهم وأن الإنسان لا يسلم غالباً من الوقوع في بعض الصغائر.

٩ ـ النهي عن تزكية النفوس بإطرائها، ومدحها فإن الله ـ عز وجل ـ أعلم بمن اتقى.

١٠ ـ أن تزكية النفس حقيقة إنما تكون بتقوى الله ـ عز وجل.

١١- علم الله ـ عز وجل بأعمال العباد، وبمن اتقى، مما يدل على عدم مشروعية النطق بالنية.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

رُوِيَ عن مجاهد وابن زيد أن هذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة، وكان اتبع رسول الله ﷺ فعيره بعض المشركين وقال: لم تركت دين الأشياخ وضللتهم وزعمت أنهم في النار؟ قال إني خشيت عذاب الله، فضمن له إن هو أعطاه شيئًا من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله، فأعطى الذي عاتبه بعض ما كان ضمن له، ثم بخل ومنعه، فأنزل الله تعالى هذه الآيات. وقيل نزلت في عبد الله بن أبي السرح[1].

قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰٓ﴾ الاستفهام للإنكار المشرب بالتعجب ممن هذه حاله، والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له.

والمعنى: انظر إلى من هذه حاله منكرًا عليه ومتعجبًا منه حامدًا ربك على ما من به عليك من الهداية.

فالواجب على من هداه الله ووفقه أن ينكر على العصاة، وأن يناصحهم ويبين لهم الحق ويأمرهم بالرجوع إليه، وأن يحمد الله عز وجل على ما منّ به عليه من الهداية، وأن لا يتعاظم أو يتعالى بعمله، فقد يهديهم الله ويضله.

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من رأى صاحب بلاء، فقال: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به، وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلاً، إلا عوفي من ذلك البلاء كائنًا ما كان ما عاش»[2].

ولما قال رجل: «والله لا يغفر الله لفلان قال الله عز وجل: «من ذا الذي يتألى عليّ الا أغفر لفلان إني قد غفرت له وأحبطت عملك»[3].

وقد قيل:

---

(١) أخرجه عنهما الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٧٢، وانظر: «أسباب النزول» للواحدي ص٢٦٧.

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٤٣١، وقال «حديث غريب» ورُوِيَ أنه يقول ذلك في نفسه ولا يسمع صاحب البلاء.

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٢١ـ من حديث جندب رضي الله عنه.

احفظ لسانك أن تقول فتبتلى إن البلاء موكل بالمنطق[١]

ومعنى (الذي تولى) أي: الذي أعرض عن الحق وتركه بقلبه وجوارحه.

﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا﴾ أي: أعطى قليلاً من الطاعة والإنفاق.

﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾ أي: ترك وقطع ومنع الخير، يقال: أكدى الرجل، أي: قلّ خيره. قالت الخنساء في أخيها صخر:

فتى الفتيان ما بلغوا مداه ولا يَكدي إذا بلغت كداها[٢]

أي: لا يقطع عطاءه، ولا يمسك عنه إذا قطع غيره وامسك، والكدية في الأصل الأرض المرتفعة الصلبة الغليظة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أطاع قليلاً ثم قطعه»[٣].

﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ الاستفهام للإنكار والنفي. و(علم الغيب): علم ما غاب عن الحواس مما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى.

والمعنى: أعند هذا الذي تولى وأعرض عن الحق وقطع عمل الخير والمعروف والإنفاق علم ما غاب عن الحواس فهو يرى أن توليه وإعراضه وتركه عمل الخير والإنفاق خير له وأصلح، أو أنه سينفد ما عنده ويفتقر لو أنفق، أو أن أحدًا سيتحمل عنه عذاب الله عز وجل، أو أنه سيجازى بسعي غيره، أي: ليس الأمر كذلك وإنما حمله على التولي والإعراض الكبر والعناد، ومنعه من الإنفاق الشح والبخل

وقد قال عز وجل ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

وقال ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال»[٤] وفي رواية «ما نقص مال من صدقة، بل تزده بل تزده»[٥].

---

(١) البيت لصالح بن عبد القدوس انظر «ديوانه» ص ١٤٧.

(٢) انظر «ديوان الخنساء» ص٩٦ شرح وتحقيق عبد السلام الحوفي دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٧٢.

(٤) أخرجه مسلم في البر والصلة ٢٥٨٨، والترمذي في البر والصلة ٢٠٢٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البزار والطبراني في المعجم الكبير، وأبو يعلى انظر: الكنز الثمين لعبد الله بن الصديق حديث ١٢٣٩، «تفسير ابن كثير» ٧/ ٤٣٩.

وقال ﷺ: «أنفق يا ابن آدم ينفق عليك»(١).

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ الاستفهام للإنكار، والتقدير: بل ألم ينبأ بما في صحف موسى، أي: ألم يخبر، والنبأ الخبر العظيم.

﴿بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ «ما» موصولة، أي: بالذي في صحف موسى، وهي التوراة، وقيل غيرها

﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾ أي: وبما في صحف إبراهيم الخليل عليه السلام التي أنزلها الله تعالى عليه كما قال عز وجل ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨-١٩].

وإبراهيم أقدم زمناً من موسى عليهما الصلاة والسلام وأفضل منه، فهو ثاني أولي العزم من الرسل بعد محمد ﷺ، وموسى ثالثهم وإنما قدم موسى في هذه الآيات - والله أعلم - مراعاة للفواصل، ولمناسبة ختم الآيتين بالثناء على إبراهيم بقوله: ﴿الَّذِي وَفَّىٰ﴾ أي: الذي تمم وبلغ جميع ما أمر به، ووفى في طاعة الله عز وجل، كما قال عز وجل ﴿۞ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة:١٢٤]. ووفى بامتثال أمر الله - عز وجل له بذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام.

ولهذا وصفه الله عز وجل بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ۝ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣].

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ هذه الآية وما بعدها مما أوحاه الله عز وجل في صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام.

ومعنى (الا تزر) الا تحمل، وجاء التعبير بقوله (الا تزر) من باب المشاكلة لما بعده - والله أعلم، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، وقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦].

---

(١) اخرجه البخاري في النفقات ٥٣٥٢، ومسلم في الزكاة ٩٩٣، والترمذي في التفسير ٣٠٤٥، وابن ماجه في المقدمة ١٩٧ - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

والمعنى: أن لا تحمل نفس وازرة، أي: مذنبة، (وزر أخرى) أي: ذنب نفس أخرى كما قال عز وجل: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر:١٨]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨].

فمن تمام وكمال عدله عز وجل أن لا يؤخذ ويعاقب أحد بجريرة غيره، حتى مع الكفار ولهذا قال تعالى للمؤمنين ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ [المائدة: ٦]، أي: ولا يحملنكم بغض قوم بسبب صدهم لكم عن المسجد الحرام على الاعتداء على غيرهم.

وهذا يدل على سفه قول الذين كفروا للذين آمنوا: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾ ولهذا رد الله عليهم بقوله:﴿وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾[العنكبوت: ١٢]

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أي: وأن مما جاء في صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام أنه ليس للإنسان إلا ما سعى، و«ما» مصدرية، أو موصولة، أي: إلا سعيه أو إلا الذي سعاه.

فليس يحصل للإنسان إلا ثواب سعيه وعمله في هذه الحياة كما قال عز وجل ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقال تعالى في الحديث القدسي: «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومَنَّ إلا نفسه»[1].

ومن سعي الإنسان وعمله ما كان هو سببًا فيه، فإن ثوابه يصل إليه ولهذا قال ﷺ «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[2].

فهذه الأعمال الثلاثة كلها من عمل الإنسان وكسبه، ولهذا قال ﷺ في الولد: «إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه»[3].

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة ـ باب تحريم الظلم ٢٥٧٧، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٩٥، وابن ماجه في الزهد ٤٢٥٧ ـ من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الوصية ـ ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ١٦٣١، وأبو داود في الوصايا ٢٨٨٠، والنسائي في الوصايا ٣٦٥١، والترمذي في الأحكام ١٣٧٦ ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود في البيوع ٣٥٢٨، والنسائي في البيوع ـ ٤٤٤٩، والترمذي في الأحكام ١٣٥٨، وابن ماجه في التجارات ـ

=

و من ذلك الدعوة إلى الله عز وجل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإصلاح بين الناس، ونحو ذلك قال ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا»[١].

وهكذا كل ما كان الإنسان سبباً فيه فهو داخل ضمن سعيه ويصله ثوابه، فدعاء المؤمنين له يصل إليه ثوابه؛ لأنه بإيمانه سعى في هذه الأخوة بينه وبينهم وانتظم في عدادهم فشمله دعاؤهم، وكذا دعاء من أحسن إليهم بقوله أو فعله أو ماله أو جاهه أو غير ذلك فإنه يصل إليه ثوابه، لأنه بإحسانه إليهم تسبب لنفسه بهذا الدعاء، فصار من سعيه.

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ـ رضي الله عنه ـ أن العاص بن وائل نذر في الجاهلية أن ينحر مائة بدنة ، وأن هشام بن العاص نحر حصته خمسين بدنة وأن عمرًا سأل النبي ﷺ عن ذلك؟ فقال: «أما أبوك فلو كان أقر بالتوحيد فصمت وتصدقت عنه نفعه ذلك»[٢].

فلو أتى بالسبب وهو الإيمان والتوحيد لكان قد سعى في عمل يوصل إليه ثواب الصوم والصدقة عنه.

وهكذا كل ما دل الدليل على وصول ثوابه للغير كالصدقة والصوم والحج ونحو ذلك، مما هو مخصص لعموم الآية.

عن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً قال: يا رسول الله إن أمي افتلتت نفسها[٣] فماتت ولم توص، أفأتصدق عنها؟ قال: «نعم»[٤].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان الفضل بن عباس رديف رسول الله ﷺ فجاءته امرأة من خثعم تستفتيه؛ فجعل الفضل بن عباس ينظر إليها وتنظر إليه،

=

٢١٣٧، وأحمد ٦/ ٣١ ـ من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ وقال الترمذي «حسن صحيح».

(١) أخرجه مسلم في العلم ٢٦٧٤، وأبو داود في السنة ـ لزوم السنة ٤٦٠٩، والترمذي في العلم ٢٦٧٤، وأحمد ٢/ ٣٨٠، ٣٩٧-٥٠٤-٥٠٥.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ١٨٢ وقال في «مجمع الزوائد» ٤/ ١٩٢: «رواه أحمد»، وفيه الحجاج بن أرطاة وهو مدلس».

(٣) افتلتت: ماتت فجأة.

(٤) أخرجه البخاري في الجنائز – موت الفجأة ١٣٨٨، ومسلم في الزكاة – وصول ثواب الصدقة عن الميت إليه ١٠٠٤. وابن ماجه في الوصايا – من مات ولم يوص هل يتصدق عنه ٢٧١٧. وأخرجه أبو داود في الوصايا – ما جاء فيمن مات من غير وصية يتصدق عنه ٢٨٨١ بنحوه إلا أنه قال: «إن امرأة قالت: يا رسول الله» .

فجعل رسول الله ﷺ يصرف وجه العباس إلى الشق الآخر، فقالت: يا رسول الله، إن فريضة الله على عباده بالحج أدركت أبي شيخًا كبيرًا، لا يستطيع أن يثبت على الراحلة، أفأحج عنه؟ قال: «نعم»، وذلك في حجة الوداع»[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي ﷺ، فقالت: إن أمي نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت، أفأحج عنها؟ قال: «نعم، حجي عنها، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته؟ اقضوا الله، فالله أحق بالوفاء»[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً قال يا رسول الله إن أمي توفيت وعليها صيام، قال: «فصم عنها»[٣].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أن سعد بن عبادة استفتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن أمي ماتت وعليها نذر قال: «فاقضه عنها»[٤].

قال ابن القيم[٥]: «فقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وقوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾: «آيتان محكمتان يقتضيهما عدل الرب تعالى وحكمته وكماله المقدس، والعقل والفطرة شاهدان بهما، فالأولى: تقتضي أنه لا يعاقب بجرم غيره، والثانية تقتضي أنه لا يفلح إلا بعمله وسعيه، فالأولى تؤمن العبد من أخذه بجريرة غيره، كما يفعله ملوك الدنيا، والثانية: تقطع طمعه من نجاته بعمل آبائه وسلفه ومشايخه كما عليه أصحاب الطمع الكاذب، فتأمل حسن اجتماع هتين الآيتين ونظيره قوله تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

قال: فحكم سبحانه لأعدائه بأربعة أحكام هي غاية العدل والحكمة، أحدها: أن هدى العبد بالإيمان والعمل الصالح لنفسه لا لغيره. الثاني: أن ضلاله بفوات

---

(١) أخرجه البخاري في الحج – وجوب الحج وفضله ١٥١٣، ومسلم في الحج ـ العاجز لزمانة أو لهرم ونحوه أو للموت ١٣٣٤، وأبو داود في المناسك ١٨٠٩، والنسائي في المناسك ٢٦٣٥، والترمذي في الحج ٩٢٨، وابن ماجه في المناسك ٢٩٠٧.

(٢) أخرجه البخاري في الحج ١٨٥٢، والنسائي في المناسك ٢٦٣٣، والبيهقي في النيابة في الحج – الحج عن المعضوب والميت، وفيه: «أن الحج حج الفريضة» ٥/ ١٧٩.

(٣) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٥٣، ومسلم في الصيام ١١٤٨.

(٤) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٦١، ومسلم في النذور ٣٣٠٧.

(٥) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٠٧ – ٣٠٨.

ذلك وتخلفه على نفسه لا على غيره. الثالث: أن أحداً لا يؤخذ بجريرة غيره. الرابع: أنه لا يعذب أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه برسله. فتأمل ما في ضمن هذه الأحكام الأربعة من حكمته تعالى وعدله وفضله، والرد على أهل الغرور والأطماع الكاذبة وعلى أهل الجهل بالله وأسمائه وصفاته».

﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ أي: سوف يرى في الدنيا والآخرة كما قال عز وجل ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]، وقال عز وجل: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [الزلزلة: ٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ أي: ثم بعد عرض عمله ورؤيته له يجازى عليه الجزاء الأوفى أي: الأوفر والأكمل بحيث لا يزاد فيه ولا ينقص منه كما قال عز وجل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]، وهذا في مقام العدل، أما في مقام الفضل فإن الله عز وجل قد يزيد في حسنات العبد ويعفو عن سيئاته مما هو دون الشرك، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، وقال تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ﴾ [يونس: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وقال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ﴾ [النور: ٣٨].

الفوائد والعبر:

١ ـ الإنكار على من تولى عن الحق، وأعطى قليلاً ثم منع والتعجيب من حاله.
٢ ـ اختصاص الله ـ عز وجل ـ بعلم الغيب دون جميع الخلق.
٣ ـ أن ذنب كل نفس عليها لا يحمله غيرها، وليس للإنسان إلا جزاء سعيه.
٤ ـ أن كل إنسان سيرى عمله يوم القيامة ويجزى عليه الجزاء الأوفى.
٥ ـ إثبات صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام، وتوافقها مع القرآن الكريم في هذه الوصايا.
٦ ـ ثناء الله ـ عز وجل ـ على نبيه وخليله إبراهيم عليه السلام بإتمامه وإكماله ما أمر به.

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ هذا وما بعده معطوف على ما قبله، داخل ضمن ما جاء في صحف إبراهيم وموسى، أي: وأن إلى ربك يا محمد ورب جميع الخلائق منتهى جميع الأمور والأحكام في الدنيا والآخرة، ومصير جميع الخلق، ومرجع جميع الأشياء، كما قال عز وجل: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨، النور: ٤٢، فاطر: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ [ق: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [غافر:٣]، وقال تعالى: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة:٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ [الرعد: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].

فإليه عز وجل المنتهى والمعاد والمصير والمرجع والمآب، وهو عز وجل لجميع الخلق بالمرصاد، وهذا مما يوجب تقوى الله عز وجل، ومراقبته في السر والعلن إذ مصير الخلائق ومرجعهم إليه، وطريقهم عليه، فيجازيهم بأعمالهم، وفي هذا وعد للمحسنين، ووعيد للمسيئين.

قال ابن القيم[١]: «قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾: متضمن لكنز عظيم، وهو أن كل مراد إن لم يرد لأجله ويتصل به فهو مضمحل منقطع فإنه ليس إليه المنتهى، وليس المنتهى إلا إلى الذي انتهت إليه الأمور كلها فانتهت إلى خلقه ومشيئته وحكمته وعلمه فهو غاية كل مطلوب، وكل محبوب لا يحب لأجله فمحبته عناء وعذاب، وكل عمل لا يراد لأجله فهو ضائع وباطل، وكل قلب لا يصل إليه فهو شقي محجوب عن سعادته وفلاحه، فاجتمع ما يراد منه كله في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١]. واجتمع ما يراد له في قوله ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]، فليس وراءه سبحانه غاية تطلب، وليس دونه غاية إليها المنتهى».

فكل حركات الإنسان وسكناته ينبغي أن تكون في ذات الله ولله.

كما أن الأفكار والعقول تقف عنده ـ كما قال عز وجل: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا، من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟، فإذا وجد أحدكم ذلك فليستعذ بالله ولينته»[٢].

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ ضمير الفصل «هو» للتوكيد، وهو كذلك في الجمل الآتية أي: وأنه هو لا غيره خلق المتضادات، وأوجد المختلفات، وأضحك وأبكى، أي: خلق في عباده الضحك وسببه وهو السرور والبكاء وسبّبه وهو الحزن. وقدم الضحك ـ والله أعلم ـ لأنه يدل على السرور وضده البكاء، ولهذا أخره.

وفي الآية تقرير لجواز الضحك والبكاء عند وجود سببهما، وقد كان النبي ﷺ ضحكه التبسم[٣].

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣١٠.
(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ـ صفة إبليس وجنوده ٣٢٧٦، ومسلم في الإيمان ـ بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها ١٣٤، وأبو داود في السنة ٤٧٢١.
(٣) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٦٤٢ من حديث عبد الله بن الحارث بن جزء ـ رضي الله عنه ـ قال: «ما كان ضحك
=

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع والأرض على إصبع والشجر على إصبع والماء والثرى على إصبع وسائر الخلائق على إصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝﴾[1].

وفي حديث أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ أن ابنة للنبي ﷺ أرسلت إليه أن ابنا لها قبض فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تتقعقع، ففاضت عيناه صلوات الله وسلامه عليه، فقال له سعد: يا رسول الله ما هذا؟ فقال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[2].

وقال ﷺ لما توفي ابنه إبراهيم: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»[3].

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ أي: أوجد الموت والحياة، كما قال ـ عز وجل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢]، والموت: عبارة عن خروج الروح من البدن، ومفارقتها له، والحياة سر من أسرار الله ـ عز وجل ـ في خلقه، كلهم عاجزون عن معرفة كنهها، لا يعرف منها إلا أن الحي يأكل ويشرب ويتحرك وينمو، فإذا مات انقطع ذلك كله، وقدم الموت لأنه هو الأصل، فإن الله ـ عز وجل ـ أوجد الإنسان من العدم، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، أي: قد أتى عليه حين من الدهر لا ذكر له.

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ لم يؤكد هذه الجملة بالضمير «هو» لأن الخلق

=

رسول الله ﷺ إلا تبسماً» وقال الترمذي «حديث صحيح غريب».

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨١١، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٧٨٦، والترمذي في التفسير ٣٢٣٨.

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز ١٢٨٤، ومسلم في الجنائز ٩٢٣، وأبو داود في الجنائز ٣١٢٥، والنسائي في الجنائز ١٨٦٨.

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز ١٣٠٣، ومسلم في الفضائل ٢٣١٥، وأبو داود في الجنائز ٣١٢٦ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

كلهم مفطورون على الإقرار بالخالق، كما قال تعالى عن المشركين: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] والمعنى: أنه أوجد الصنفين الذكر والأنثى من بني آدم، وسائر الحيوانات، وفاوت بين الذكر والأنثى، في الخُلُق والخلقة والقدرات والأحكام وغير ذلك، وقدّم الذكر على الأنثى لأن جنس الذكر أفضل من حيث العموم.

﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ النطفة الماء القليل، أي: من مني الرجل والمرأة، كما قال عز وجل: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ [القيامة: ٣٦-٣٩].

وقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق: ٥-٧]، أي: من بين صلب الرجل وترائب المرأة. وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠].

ومعنى: ﴿إِذَا تُمْنَىٰ﴾ أي: إذا تراق وتصب في الأرحام.

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ أي: وان عليه ـ عز وجل ـ إعادة الخلق مرة أخرى بعد موتهم، وذلك يوم القيامة، أوجب ذلك على نفسه لمجازاتهم والمقاصة بينهم، ولئلا تكون الحياة عبثاً. وذلك أهون عليه من خلقهم أول مرة، كما قال عز وجل ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩].

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ﴾ أي: اغنى الخلق وملّكهم المال، ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ أي: جعل لهم من الأموال ما يتخذونه قنية، أي: يدخرونه عندهم يتمتعون به في الحال وفي المستقبل. حتى إن النملة لتدخر قوت الشتاء في أيام الصيف، وصدق الله العظيم ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود:٦] فتبارك الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى وتكفل بأرزاق الخلق وكفى.

وقيل: معنى (أقنى) أفقر، فيكون بمقابلة (أغنى).

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ اي: رب الكوكب المعروف المسمى بالشعرى، قال السعدي[1]: «وهو النجم المعروف العبور، المسماة بالمرزم».

وقد كانت طائفة من العرب يعبدونه، فكيف يعبدون المربوب من دون الرب، أو يشركونه مع الرب الخالق سبحانه وخص «الشعرى» بالذكر مع أنهم يعبدون غيرها من الكواكب لاشتهار أمرها.

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾ اي: اهلك عاداً الأولى وهم عاد إرم، قوم هود ـ عليه السلام ـ منازلهم بالأحقاف جنوب الجزيرة في اليمن. قال ـ عز وجل: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [الفجر: ٦-٨]. وسميت «عاداً الأولى» لتقدمها في الزمن على «عاد الثانية» وهم ثمود قوم صالح عليه السلام.

وقد أهلكهم الله عز وجل بالريح الباردة الشديدة كما قال ـ عز وجل: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ۝﴾ [فصلت: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ۝ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ﴾ [الحاقة: ٦-٨].

﴿وَثَمُودَاْ﴾ ثمود: هم قوم صالح ـ عليه السلام ـ مساكنهم شمال الجزيرة في «العلا»، وهي المعروفة الآن بـ «مدائن صالح».

﴿فَمَآ أَبۡقَىٰ﴾ اي: اهلكهم ودمرهم فلم يبق منهم أحداً بالصيحة والصاعقة قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ۝ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝ وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ۝ وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ۝ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ﴾ [الحجر: ٨٠-٨٣]، وقال عز وجل: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٢٢٠.

ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الذاريات: ٤٣-٤٤]، صاح بهم جبريل عليه السلام صيحة صعقوا منهم فتقطعت قلوبهم في أجوافهم.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي: وقوم نوح ـ عليه السلام ـ أهلكهم الله ولم يبق منهم أحداً من قبل هؤلاء.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ ضمير الفصل «هم» للتوكيد، و«أظلم» و«أطغى» كل منهما اسم تفضيل، أي: إنهم كانوا هم أشد ظلماً وطغياناً.

والظلم: وضع الشيء في غير موضعه على سبيل التعدي، وأظلم الظلم الشرك بالله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

والطغيان: الزيادة وتجاوز الحد ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]، أي: لما علا الماء وارتفع وزاد عن حده.

والمعنى: إنهم كانوا أشد ظلماً وطغياناً من عاد وثمود، حيث أشركوا مع الله غيره، وتجاوزوا حدود الله في أمره ونهيه، وعصوا وتمردوا مع طول المدة التي مكثها نوح عليه السلام في دعوتهم وتنويع أساليب الدعوة لهم، وهي ألف سنة إلا خمسين عاما كما قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

وقد عدد لهم ونوع في طرق الدعوة وأساليبها، ورغبهم ورهبهم كما حكى الله ذلك عنه في سورة نوح، وغيرها، ومع ذلك كله لم ينجع ذلك فيهم: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ٥-١٢].

وقيل: إن الضمير في قوله (إنهم كانوا هم أظلم وأطغى) يعود إلى قوم نوح ومن ذكر قبلهم في الآيات وهما عاد وثمود وعليه يكون المعنى: أن هؤلاء الأقوام

اظلم واطغى من قريش، فيكون فيه تسلية النبي ﷺ.

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾ المؤتفكة قرى قوم لوط ـ عليه السلام ـ، ومكانها غور الأردن، وهي المسماة بالبحر الميت.

﴿أَهْوَىٰ﴾ أي: اسقطها عليهم كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [الحجر: ٧٤].

﴿فَغَشَّىٰهَا﴾ أي: فغطاها ﴿مَا غَشَّىٰ﴾ «ما» موصولة بمعنى «الذي» للتهويل والتعظيم، كقوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾[طه: ٧٨] أي: غشيها وغطاها من العذاب الأليم والعقاب الوخيم ما لا يمكن وصفه من الحجارة التي أرسلها الله ـ عز وجل ـ عليهم وامطرهم بها كما قال عز وجل: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٣، النمل: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، «بأي» اسم استفهام ـ للتوبيخ ﴿ءَالَآءِ رَبِّكَ﴾ أي: نعم ربك. كما قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ في مواضع عدة في سورة الرحمن، ولهذا كانت الجن تقول كلما سمعت هذه الآية من النبي ﷺ: «ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد»[1].

والخطاب لعموم الإنسان، أي: بأي نعم ربك أيها الإنسان وخالقك ومالك أمرك ومدبرك ﴿تَتَمَارَىٰ﴾ أي: تتشكك. فهو الذي خلق المتضادات كالضحك والبكاء، والموت والحياة، والذكر والأنثى من الإنسان والحيوان، وعليه بعث الخلق بعد موتهم وهو الذي أغنى الخلق بالمال والرزق ووفر لهم من ذلك ما يتخذونه قنية يدخرونه، وهو رب الشعرى التي يعبدونها من دون الله، وهو الذي أهلك المكذبين من الأمم السابقة عاد وثمود وقوم لوط.

---

(١) سيأتي تخريجه في تفسير سورة «الرحمن».

الفوائد والعبر:

١ ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لنبيه ﷺ، وأن المرجع والمصير والمنتهى إلى الله ـ عز وجل ـ فيجازي كلاً بما عمل.

٢ ـ عظمة قدرة الله ـ عز وجل ـ في خلقه، وفي إيجاده المتضادات الضحك والبكاء، والموت والحياة والذكر والأنثى وغير ذلك.

٣ ـ جواز الضحك والبكاء عند وجود سببهما.

٤ ـ أن أصل خلق الإنسان من نطفة من مني الرجل والمرأة.

٥ ـ قدرة الله ـ عز وجل ـ التامة على إعادة الخلق وبعثهم نشأة أخرى.

٦ ـ أن الله ـ عز وجل ـ هو المعطي المغني للخلق بالمال والرزق يتخذونه غنية وقنية.

٧ ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ العامة لجميع الخلق بما في ذلك الشعرى، وفي هذا رد على من يعبدونها من دون الرب سبحانه وتعالى.

٨ ـ الوعيد والتهديد للمكذبين وتخويفهم بذكر إهلاك الله ـ عز وجل ـ للمكذبين قبلهم عاد وثمود وقوم نوح وقوم لوط، وما حل بهم من العقوبات العظيمة الدالة على كمال قدرة الله تعالى، وأخذه الشديد للظالمين.

٩ ـ إثبات كمال قدرة الله ـ عز وجل ـ وتمام نعمه على الخلق ـ بما لا يدع مجالاً للشك في ذلك.

﴿هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ ۝٥٦ أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ۝٥٧ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨ أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ ۝٦١ فَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ وَٱعۡبُدُواْ۩ ۝٦٢﴾.

قوله: ﴿هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ﴾ الإشارة في قوله ﴿هَٰذَا نَذِيرٞ﴾ إلى النبي محمد ﷺ والإنذار: الإعلام بتخويف، والنذير: هو المنذر المحذر مما يعاين من الشر، الذي يخشى وقوعه فيمن أنذرهم[1] قال تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾ [سبأ: ٤٦].

وقيل المراد بالنذير القرآن الكريم، ولا مانع من حمله على الرسول ﷺ وما جاء به من الوحي من عند الله ـ عز وجل.

فعن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوماً، فقال: رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان، فالنجاء النجاء، فأطاعته طائفة، فأدلجوا على مهلهم، فنجوا، وكذبته طائفة فصبحهم الجيش فاجتاحهم»[2].

ومعنى «النذير العريان» أي: الذي أعجله شدة ما يعاين من الشر، عن أن يلبس على جسده شيئاً، بل بادر إلى إنذار قومه قبل ذلك، فجاءهم عرياناً مسرعاً.

وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته، واشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيش يقول: صبحكم ومساكم، ويقول: «بعثت أنا والساعة كهاتين، ويقرن بين إصبعيه، السبابة والوسطى»[3].

وعن سهل بن سعد ـ رضي الله ـ عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل الساعة كهاتين» وفرق بين إصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام»[4]، وفي رواية: «مثلي

---

(١) كما قال لقيط الإيادي منذراً وعاذراً قومه غزو كسرى من قصيدة بعنوان «صرخة غيور».

أبلغ إياداً وخلل في سراتهم | إني أرى الرأي إن لم يعص قد نصعا
يا قوم لا تأمنوا إن كنتم غيراً | على نسائكم كسرى وما جمعا
هذا كتابي إليكم والنذير معاً | لمن رأى رأيه منكم ومن سمعا
وقد بذلت لكم نصحي بلا دخل | فاستيقظوا إن خير العلم ما نفعا

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ـ الانتهاء من المعاصي ٦٤٨٢، ومسلم في الفضائل ـ شفقته ﷺ على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم ٢٢٨٣.

(٣) أخرجه مسلم في الجمعة ٨٦٧، وأبو داود في الخراج ٢٩٥٦، والنسائي في العيدين ١٥٧٨، وابن ماجه في المقدمة ٤٥.

(٤) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٣٦، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة ٢٩٥٠.

ومثل الساعة كفرسي رهان. ومثلي ومثل الساعة كمثل رجل بعثه قومه طليعة، فلما خشي أن يُسبق، الاح بثوبه، أُتيتم أُتيتم، ثم يقول رسول الله ﷺ: أنا ذلك»[١].

﴿مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي: من جنسهم، أي: ما هو إلا نذير كغيره من النذر السابقين، كما قال عز وجل: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ﴾ أي: قربت القيامة، وسميت القيامة بالآزفة لقرب وقوعها وتحققه، كما قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، ومعنى (أزف) قرب، كما يقال: أزف الرحيل، أي: قرب الرحيل. فالقيامة آتية وكل آت قريب.

فما أقرب الآتي وأبعد ما مضى وهذا غراب البين في الدار ينعب[٢]

فعمر الإنسان في هذه الدنيا قصير، ومن مات قامت قيامته، وما بقي من الدنيا بالنسبة لما مضى منها وبالنسبة للآخرة قصير.

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي: ليس لها من دون الله نفس تكشف متى وقوعها، أو تمنعه، أو تزيلها إذا وقعت، سوى الله ـ عز وجل، أي: لا يدفع وقوعها ولا يزيله ولا يمنعه من دون الله أحد، ولا يطلع على علمها سواه، كما قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٤٤]، أي: إلى ربك منتهى علم وقوعها، وأمر وقوعها.

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتعجب والتقريع والتوبيخ للمشركين في تعجبهم تعجب إنكار واستبعاد من أن يكون القرآن صحيحاً وتكذيبهم له، وإعراضهم عنه كما قالوا فيما حكى الله عنهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥]، وقال تعالى عنهم: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾[ق: ٢].

ويحتمل أن يكون المراد تعجبهم من بلاغته وفصاحته كما هو الواقع الحاصل

---

(١) أخرجها أحمد ٥/ ٣٣١ – من حديث سهل بن سعد ـ رضي الله عنه وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٤٤٤ وقال: «وله شواهد من وجوه أخر من صحاح وحسان».

(٢) البيت للشاعر محمد بن عثيمين.

منهم، ومع ذلك كذبوا وأعرضوا استكباراً وعناداً.

﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ أي: وتضحكون منه استهزاء وسخرية منه ومن أتباعه، كما قال عز وجل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٢٩].

﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ أي: ولا تبكون عند سماعه، وسماع قوارعه ووعده ووعيده، كما هو حال المؤمنين الموقنين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا۩﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩]، وقال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا۩﴾ [مريم: ٥٨]، وقال عنهم أيضاً: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣].

ونفي بكائهم بعد قوله ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ يدل على أنهم قد بلغوا من الضحك من القرآن والسخرية والاستهزاء به، وقساوة القلوب الغاية في ذلك. وهذا بخلاف من رزقه الله قوة الإيمان واليقين وأنار بصيرته فإنه إذا سمع آيات الله ووعده ووعيده، ورحمته، وعذابه لا يملك نفسه عن البكاء لكن ينبغي خفض الصوت ما استطاع وقد كان - ﷺ - يسمع لجوفه عند القراءة أزيز كأزيز المرجل، أما رفع الصوت بالبكاء أو التباكي وافتعال البكاء فلا يجوز وخاصة في الصلاة كما يفعله كثير من الناس في القنوت وعند ختم القرآن، بينما لا تتحرك مشاعرهم عند سماع القرآن وما فيه من الوعد والوعيد.

﴿وَأَنتُمْ سَـٰمِدُونَ﴾ أي: ساهون لاهون غافلون معرضون مستكبرون أشرون بطرون، منشغلون بما لا فائدة فيه من الغناء ونحوه. كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟﴾ [فصلت: ٢٦].

وهذه حال كثير من الناس هم في لهو وسهو وغفلة إلا من رحم ربك قال تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٥١].

وقد أحسن القائل:

والناس في غفلة عما يراد بهم ... كأنهم غنم في بيت جزار

﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ﴾

بعد ما أنكر على المشركين تعجبهم من القرآن تكذيباً له، وضحكهم سخرية واستهزاءً به، وما هم عليه من الاستكبار والإعراض والغفلة والأشر والبطر والانشغال بما يضرهم ولا ينفعهم أمرهم بالسجود له وحده وعبادته والخضوع والإخلاص له إعذاراً وإنذاراً.

قوله: ﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، أي: إن أردتم الخلاص من العذاب فاسجدوا لله واعبدوا.

والسجود لغة: بمعنى الخضوع والتذلل لله - عز وجل - ويطلق على السجود على الأعضاء السبعة، ويطلق على الصلاة كلها لأنه من أهم أركانها وهو المراد هنا والله أعلم لأنه يشمل ما قبله.

﴿وَٱعْبُدُواْ﴾ الواو عاطفة، أي: واعبدوه بأنواع العبادة كلها وهذا من عطف العام على الخاص لأن السجود من العبادة، بل من أعظمها، ولهذا خصه بالذكر من بين أنواع العبادة كلها لمزيته وفضله وفي الحديث: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء فإنه قَمِنٌ أن يستجاب لكم»[1].

والعبادة لغة: التذلل والخضوع لله - عز وجل - وشرعاً: اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، كالصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد وبر الوالدين والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتوكل على الله وخوفه ورجائه وتعظيمه والذبح والنذر له والإخلاص له في سائر العبادات.

ويشرع سجود التلاوة عند قراءة هذه الآية ﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ﴾ وهي من السجدات المجمع عليها.

وسجود التلاوة يقال فيه ما يقال في سجود الصلاة ومثلهما سجود الشكر فيقال فيه: «سبحان ربي الأعلى» مرة أو مرتين أو ثلاثاً، وهو أفضل ويقال: «اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة ٤٨٢، وأبو داود في الصلاة ٨٧٥، والنسائي في التطبيق ١١٣٧ من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين»[1].

واستحسن بعض السلف أن يقول: «اللهم اكتب لي بها أجرا وضع عني بها وزرا، وارفع لي بها عندك ذكرا، واقبلها مني، كما قبلتها من عبدك ونبيك داود ـ عليه السلام».

وفي الآيات إشارة إلى أن الحياة جد وليست بهزل فلم يخلق الإنسان لأجل اللهو والغفلة ونحو ذلك، ولن يترك سدى، بل خلق لأمر عظيم وهو الخضوع لله عز وجل والسجود له، وعبادته ومجازاته على ذلك، كما قال عز وجل: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

وقد أحسن القائل:

قد رشحوك لأمر لو فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

وقال الآخر:

الأمر جد وهو غير مزاح ... فاعمل لنفسك صالحاً يا صاح

الفوائد والعبر:

١ ـ أن الرسول ـ ﷺ ـ نذير كغيره من النذر قبله، كما أن القرآن نذير كغيره من الكتب قبله.

٢ ـ التحذير من القيامة وأهوالها وإثبات قربها واستئثار الله بها ويعلمها فلا أحد يستطيع معرفة متى وقوعها ولا منعه أو رفعه إلا الله ـ عز وجل ـ.

٣ ـ الإنكار على المشركين في تعجبهم من القرآن الكريم وضحكهم منه سخرية واستهزاء وعدم بكائهم عند سماعه، وسهوهم وغفلتهم وانشغالهم بما لا ينفع، وتكذيبهم له وإعراضهم عنه.

٤ ـ الترغيب في البكاء عند سماع القرآن خشية لله ـ عز وجل ـ دون تكلف أو رفع صوت.

٥ ـ وجوب السجود لله ـ عز وجل ـ وعبادته والخضوع له.

٦ ـ مشروعية السجود للتلاوة عند قراءة قوله: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٧٧١، وأبو داود في الصلاة ٧٦٠، والترمذي في الدعوات ٣٤٢١، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٠٥٤، من حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه.

تفسير سورة القمر

عن عبيد الله بن عبد الله أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي: «ما كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيد؟ قال: بقاف، واقتربت»[(١)].

قال ابن كثير[(٢)]: «وكان يقرأ بهما في المحافل الكبار، لاشتمالهما على ذكر الوعد والوعيد، وبدء الخلق، وإعادته والتوحيد، وإثبات النبوات، وغير ذلك من المقاصد العظيمة».

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۝٢ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ۝٣ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ۝٤ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ۝٧ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ۝٨﴾.

قوله ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: قربت الساعة، قربا شديداً، و(اقتربت) أبلغ من (قربت) لأن زيادة المبنى ـ تدل غالبًا ـ على زيادة المعنى، والساعة هي القيامة قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾» [الحج:١].

وسميت القيامة بالساعة – والله أعلم – لقربها وتحقق وقوعها، وتوقيته وتحديده، كما سميت بالآزفة، والحاقة ونحو ذلك. والمعنى: اقتربت القيامة، وأزفت وازداد قربها، وانقضاء هذه الحياة الدنيا وقدوم الخلق على ربهم للحساب، كما قال عز وجل ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النحل: ١]، وقال تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء: ١]، وقال تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ۝٥٧﴾ [النجم: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ [سبأ: ٣٠].

وهكذا تواترت نصوص الكتاب والسنة على اقتراب القيامة، وتحديد وقت

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة العيدين – ما يقرأ به في صلاة العيدين ٨٩١، وأبو داود في الصلاة ـ ما يقرأ في الأضحى والفطر ١١٥٤، والنسائي في العيدين – القراءة في العيدين بقاف واقتربت ١٥٦٧، والترمذي في الجمعة ٥٣٤، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها – ما جاء في القراءة في صلاة العيدين ١٢٨٢، وأحمد ٥/ ٢١٧-٢١٨.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٤٤٥.

وقوعها وقصر عمر الدنيا بالنسبة للآخرة، وتحقق وقوع القيامة، وأنها آتية لا محالة، وكل آت قريب.

قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾[محمد: ١٨].

وعن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ - خطب أصحابه ذات يوم، وقد كادت الشمس أن تغرب فلم يبق منها إلا شف[١] يسير، فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده، ما بقي من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه، وما نرى من الشمس إلا يسيرًا»[٢].

وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: كنا جلوسًا عند النبي ﷺ والشمس على قعيقعان[٣] بعد العصر، فقال: «أيها الناس إنه لم يبق من دنياكم فيما مضى إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه»[٤].

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بعثت أنا والساعة كهذه من هذه، أو كهتين، وقرن بين السبابة والوسطى»[٥].

وعن وهب السُّوَائي قال: «قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهذه من هذه إن كادت لتسبقها» وجمع الأعمش - يعني أحد رواة الحديث ـ بين السبابة والوسطى»[٦].

وعن أنس رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنتم والساعة كهتين»[٧].

وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لي خمسة أسماء: أنا محمد وأحمد، وأنا الماحي، الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب»[٨].

---

(١) الشف: بقية الشيء، أي: لم يبق من الشمس إلا جزء يسير لم يغب، أي: لم يبق من النهار إلا جزء يسير. انظر «النهاية»، «لسان العرب» مادة «شف».

(٢) أخرجه أبو بكر البزار - فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٤٤٥.

(٣) قعيقعان: جبل بمكة.

(٤) أخرجه أحمد ٢/ ١١٥-١١٦.

(٥) أخرجه البخاري في الرقاق - قول النبي ﷺ «بعثت أنا والساعة كهتين» ٥٣٠١، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة ـ قرب الساعة ٢٩٥٠، وأحمد ٥/ ٣٣٨.

(٦) أخرجه أحمد ٤/ ٣٠٩.

(٧) أخرجه أحمد ٣/ ٢٢٣.

(٨) أخرجه البخاري في المناقب - ما جاء في أسمائه ﷺ ٣٥٣٢، ومسلم في الفضائل ٢٣٥٤، والترمذي في الأدب ٢٨٤٠.

وعن عتبة بن غزوان رضي الله عنه قال: «خطبنا رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد فإن الدنيا قد آذنت بصَرْم، وولت حذاء، ولم يبق منها إلا صبابة كصُبابة الإناء يتصابُها[١] صاحبها، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم، فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يُلقى من شفير جهنم فيهوي فيها سبعين عامًا لا يدرك لها قعرًا، والله لتُملأنَّ، افعجبتم، ولقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام. ولقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله ﷺ، ما لنا طعام إلا ورق الشجر، حتى قَرحت أشداقنا، فالتقطت بردة فشققتها بيني وبين سعد بن مالك، فاتزرت بنصفها، واتزر سعد بنصفها، فما أصبح اليوم منا أحد إلا أصبح أميرًا على مصر من الأمصار، وإني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيمًا وعند الله صغيراً، وإنها لم تكن نبوة قط إلا تناسخت حتى يكون آخر عاقبتها ملكًا، فَسَتَخْبَرون وتجربون الأمراء بعدنا»[٢].

﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾.

سبب النزول:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقين، حتى رأوا حراء بينهما»[٣].

ومعنى قوله ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ أي: انفلق قطعتين، حتى رأوا جبل حراء بينهما واحدة دون الجبل، والأخرى من خلفه، فلقة على جبل أبي قبيس، وفلقة على جبل قعيقعان، أي: فلقة على الصفا وفلقة على المروة، وذلك آية من آيات الله عز وجل، وعلامة على قرب القيامة، ومعجزة للنبي ﷺ، كما جاء في سبب النزول، وكما دلت عليه الأحاديث المتضافرة.

---

(١) بصَرْم أي: بانقطاع. حذاء: مسرعة. صبابة: بقية قليلة. يتصابها: يشربها.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد ٢٩٦٧، والترمذي في صفة جهنم ٢٥٧٥، وابن ماجه في الزهد ٤١٥٦، وأحمد ٤/ ١٧٤، وانظر ٥/ ٦١.

(٣) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار – انشقاق القمر ٣٦٣٧، ومسلم في صفات المنافقين – انشقاق القمر ٢٨٠٢، والترمذي في التفسير ٣٢٨٦، وأحمد ٣/ ١٦٥.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «انشق القمر في زمان رسول الله ﷺ»[١].

و في رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما: «قوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ قال: قد مضى ذلك، كان قبل الهجرة، انشق القمر حتى رأوا شقيه»[٢].

و عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ قال: «وقد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ انشق فلقتين: فلقة من دون الجبل، وفلقة من خلف الجبل، فقال النبي ﷺ «اللهم اشهد»»[٣].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقين حتى نظروا إليه فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا» وفي رواية: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فلقتين، فستر الجبل فلقة، وكانت فلقة فوق الجبل، فقال رسول الله ﷺ «اللهم اشهد».

وفي رواية قال ابن مسعود: «حتى رأيت الجبل من بين فرجتي القمر»[٤].

وفي رواية عنه: «فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة[٥]. انظروا ما يأتيكم به السُّفَّار[٦] فإن محمدًا لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم، قال: فجاء السُّفَّار، فقالوا ذلك»[٧].

وفي رواية عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «انشق القمر بمكة حتى صار فرقتين، فقال: كفار قريش أهل مكة: هذا سحر سحركم به ابن أبي كبشة انظروا السفار، فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق، وإن كانوا لم يروا مثل ما رأيتم فهو سحر سحركم به. قال: فسئل السُّفَّار، قال: وقدموا من كل جهة، فقالوا رأيناه»[٨].

---

(١) أخرجه البخاري في الموضع السابق.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ١٠٩-١١٠.

(٣) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٣٦، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار – انشقاق القمر ٢٨٠١، والترمذي في تفسير سورة القمر ٣٢٨٥.

(٤) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار – انشقاق القمر ٣٦٣٦، ومسلم في صفة القيامة ٢٨٠٠، ٢٨٠١، والترمذي في التفسير ٣٢٨٥، وأحمد ١/ ٣٧٧، ٤١٣.

(٥) يعنون بذلك الرسول ﷺ، وقد كان المشركون ينسبون النبي ﷺ لأبي كبشة، وهو رجل من خزاعة خالف قريشاً في عبادة الأوثان وعبد الشعرى، فلما خالفهم النبي ﷺ في عبادة الأوثان وعبد الله وحده شبهوه بأبي كبشة، وقيل إن أبا كبشة جد النبي ﷺ لأمه فأرادوا أنه نزع في الشبه إليه.

(٦) أي: المسافرون.

(٧) أخرجه الترمذي في التفسير ٣٢٨٩.

(٨) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ١٠٥- ١٠٧.

وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين، فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل، فقالوا: سحرنا محمد. فقالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم»[١].

وعن أبي عبد الرحمن السلمي قال: نزلنا المدائن، فكنا منها على فرسخ، فجاءت الجمعة، فحضر أبي وحضرت معه، فخطبنا حذيفة فقال: «ألا إن الله يقول: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ ألا وإن الساعة قد اقتربت، ألا وإن القمر قد انشق، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق، ألا إن اليوم مضمار وغدًا السباق، ألا إن الغاية النار، والسابق من سبق إلى الجنة»[٢].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «خمس مضين: الدخان والقمر والروم والبطشة[٣] واللزام[٤] ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ۝٧٧﴾»[٥].

قال ابن كثير رحمه الله[٦]: «وقوله ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ قد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ، كما ثبت ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة. وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات».

﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً﴾ أي: وإن ير المشركون آية، أي: علامة ودلالة وحجة وبرهانًا على صدق الرسول ﷺ وصدق ما جاء به من عند الله عز وجل. و «آية» نكرة في سياق الشرط، أي: أيَّ آية.

وآيات الله تنقسم إلى قسمين: آيات شرعية، وهي القرآن الكريم، وآيات كونية وهي ما بثه الله عز وجل وخلقه في هذا الكون من المخلوقات، ومن ذلك انشقاق القمر، ومن ذلك تسبيح الحصى في يده ﷺ، وحنين الجذع إليه ﷺ، وغير ذلك.

والمراد بالآية هنا ما يشمل الآيات الشرعية والكونية؛ لأنهم قالوا عن القرآن إنه سحر، وقالوا عن انشقاق القمر إنه سحر أيضًا.

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٨١-٨٢، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ١٠٩.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ١٠٨.

(٣) وهي أخذهم وقتل صناديدهم يوم بدر قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦].

(٤) فسر اللزام بيوم بدر. انظر «النهاية» مادة «لزم».

(٥) أخرجه البخاري في الجمعة ٩٥٢، وفي التفسير ٤٣٩٥، ومسلم في صفة القيامة ٥٠٠٦، ٥٠٠٨، والترمذي في التفسير ٣١٧٧

(٦) في «تفسيره» ٧/ ٤٤٧.

﴿يُعْرِضُوا﴾ أي: يعرضوا عن التأمل فيها، وعن الطاعة والانقياد، أي: يتولوا بقلوبهم وأبدانهم.

﴿وَيَقُولُوا﴾ بألسنتهم ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي: هذا الذي جاءنا به ﴿سِحْرٌ﴾ سحرنا به، وهو مجرد تخييل لا حقيقة له ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي: ذاهب زائل، باطل مضمحل، لا دوام له، وقيل: شديد محكم.

وقيل إنهم لما رأوا القمر فلقتين، أخذوا يسألون كل من قدم عليهم، فكانوا يخبرونهم بأنهم رأوا ذلك ـ كما جاء في الآثار السابقة، فقالوا ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي: إن محمداً سحرنا كما سحر غيرنا.

وقد يحمل قولهم ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ على أن ما جاءهم به الرسول ﷺ منذ أنزل عليه الوحي وكل ما جاء به بعد ذلك من الآيات والحجج والبراهين الشرعية والكونية كل ذلك استمرار لما جاء به من السحر أي: إن كل ما جاء به من هذا الباب، أي: من باب السحر، كما قال الوليد بن المغيرة فيما ذكر الله عز وجل عنه عن القرآن: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝﴾ [المدثر: ٢٤]، وهكذا قال فرعون لموسى ـ عليه السلام: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٥٧].

وهكذا دأب المكذبين للرسل، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]، فهم لا يقفون عند التكذيب فقط ويكتفون به، بل إنهم يعملون جاهدين لرد الحق وإبطاله بتلفيق التهم والأكاذيب بالحق وبمن جاء به.

وهكذا كل من رد الحق حتى ولو كان دون الكفر، فإن الغالب في الخلق الظلم والغشم وعدم الإنصاف إلا من رحم الله، ولهذا فإن كثيرًا من الناس حتى في الخصومات ومسائل الخلاف لا يرضى أن يكون الحق مع غيره، وربما جادل بالباطل لا لشيء إلا لتكون الغلبة له، وربما نال من خصمه ومخالفه لأجل ذلك.

﴿وَكَذَّبُوا۟﴾ أي: كذبوا بالحق الذي جاءهم من عند الله عز وجل على لسان رسوله ﷺ.

﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي: واتبعوا ما تهواه نفوسهم من الأقوال والأفعال والآراء المردية الصادة عن الحق، كما قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص:٥٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال

تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي: وكل أمر من الأمور كائن وواقع بأهله من خير أو شر، فكل يجني ثمرة ما زرع ويجازى بما عمل، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، في الدنيا والآخرة، وسينتهي الخير بأهله إلى السعادة في الدنيا والآخرة ودخول الجنة، وسينتهي الشر بأهله إلى الشقاء في الدنيا والآخرة ودخول النار.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-١٠].

وقال ﷺ: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»[1].

وسيبلغ كل أمر غايته ومنتهاه، وسيصير كل ذلك إلى الله والدار الآخرة كما قال عز وجل: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣].

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ الواو للاستئناف، واللام للقسم و«قد» للتحقيق، والأنباء: جمع نبأ، والنبأ: هو الخبر العظيم، قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١-٢] أي: والله لقد جاءهم في كتاب الله عز وجل، وعلى لسان رسوله ﷺ من الأخبار العظيمة السابقة واللاحقة.

﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ «ما» موصولة، أي: الذي فيه أعظم زاجر وواعظ ورادع لهم عن الشرك والتكذيب، وعن التمادي في الاستكبار والعناد، ورد الحق، وذلك مما قصه الله عليهم من أخبار المكذبين للرسل، وما حل بهم من المثلات والعقوبات والنكال والعذاب العاجل في الدنيا، كما قال عز وجل: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩].

فماذا كانت عاقبة المكذبين كعاد قوم هود، وثمود قوم صالح، وقوم لوط، وقارون وهامان وفرعون وقومه، كانت عاقبتهم الهلاك والخسار والبوار ومصيرهم إلى

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة ٢٢٣، والترمذي في الدعوات ٣٥١٧، وابن ماجه في الطهارة وسننها ٢٨٠ - من حديث أبي مالك الأشعري - رضي الله عنه.

النار وبئس القرار، قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

كما جاءهم من الأخبار في كتب الله عز وجل وعلى ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام بيان ما ينتظرهم من العذاب الآجل الذي أعده الله لهم في نار جهنم، كما قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩-٧٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ﴾ اي: أن لله عز وجل الحكمة البالغة التامة الواضحة في هدايته من كان أهلاً للهداية، وإضلاله من كان أهلاً للضلال. أو أن الآيات التي جاءتهم حكمة (بالغة) أي: تامة واصلة إلى الغرض المقصود منها لمن وفقه الله قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[النساء: ١١٣].

﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾. [ما] نافية، أي: فما تنفع فيهم النذر وقد كتب الله عليهم الضلال، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

وقد تكون «ما» استفهامية للإنكار، فيكون المعنى: أي شيء تغني النذر من كتب الله عليهم الضلال والشقاء.

ومعنى «تغني»: تنفع وتدفع: و«النذر» جمع نذير، وهو المخوِّف المحذِّر من عذاب الله ـ عز وجل، أي؛ النذر المخوفة من عذاب الله ـ عز وجل، من الرسل عليهم السلام، وما جاؤوا به من أخبار المكذبين وما حل بهم من العقوبات في الدنيا، وما ينتظرهم من الوعيد والعذاب في الآخرة، قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء:١٦٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ﴾ [البقرة:١١٩].

وسواء كانت «ما» نافية أو استفهامية فالمراد أن هؤلاء الكفار لا تنفع فيهم النذر وصدق الله العظيم: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ

فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [البقرة: ٦-٧].

قال ابن كثير[١]: «يعني أي شيء تغني النذر من كتب الله عليه الشقاوة، وختم على قلبه؟ فمن الذي يهديه من بعد الله؟ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝١٤٩﴾ [الأنعام: ١٤٩]، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٍ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]».

فتأمل أخي الكريم وفقك الله هذا المعنى، فلله عز وجل الحكمة البالغة التامة في هدايته من هدى وإضلاله من ضل، ولا يغب هذا المعنى عن ذهنك فتقلق وتذهب نفسك حسرات، وتصاب بخيبة أمل وتنحط معنويتك بسبب ضلال من ضل ممن تدعوهم وتود هدايتهم. فقد قال الله ـ عز وجل ـ للهادي البشير والسراج المنير أعظم وأفضل داع إلى الله عز وجل: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ۝٨﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]، كما قال تعالى له ولغيره ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ﴾ [ص: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنعام:١١٦].

وأمر الله عز وجل آدم بإخراج بعث النار من ذريته من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين[٢].

وقال ﷺ: «الناس كإبل مائة لا يوجد فيها راحلة»[٣].

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٥١.

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٣٤٨، ومسلم في الإيمان ٢٢٢ – من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٩٨، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٥٤٧، والترمذي في الأمثال ٢٨٧٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٩٠، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

وقد قيل:

والناس ألف منهم كواحد   وواحد كالألف إن أمر عنى[1]

فلله الحكمة البالغة في ذلك كله، ولهذا لم يستطع محمد ﷺ أفضل الرسل وسيد ولد آدم هداية عمه أبي طالب مع الأيادي البيضاء التي قدمها للرسول ﷺ، وحرصه ﷺ على هدايته، ولم يستطع نوح عليه السلام هداية ابنه وفلذة كبده، ولا هداية زوجته، ولم يستطع إبراهيم عليه السلام هداية أبيه، ولم يستطع لوط عليه السلام هداية زوجته.

فلا تعجب بعد هذا أن يكون أكثر الخلق أبغض الناس إليه من ينصحه ويدعوه إلى الله عز وجل كما قال نبي الله صالح عليه السلام لقومه ـ فيما حكى الله عنه: ﴿وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[الأعراف: ٧٩].

وانظر كثرة أعداء الرسل عليهم السلام وقلة أتباعهم فما ذاك إلا لأنهم قدموا لأممهم وأقوامهم محض النصح، وهكذا كثرة أعداء الدعاة إلى الله من أتباع الرسل،مما يجعل كثيرًا من ضعاف الإيمان يتخلى عن دعوة و مناصحة من يحتاجون إلى ذلك حتى من أقاربه وجيرانه وإخوانه وزملائه ومن يجالسهم أو يلتقي بهم في العمل، أو في السوق ونحو ذلك خوفًا من عداوتهم له. وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت:١٠].

﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾ الفاء: للسببية، والخطاب للنبي ﷺ، والتقدير: فإن استمروا في الإعراض، ودعوى أن ما جاءهم من الآيات سحر مستمر، وفي التكذيب واتباع أهوائهم فتول عنهم، أي: أعرض عنهم وانتظر عقاب الله عز جل لهم ﴿يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ﴾. و «يوم» متعلق بيخرجون.

ويحتمل أن يكون المعنى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾ اي: اعرض عنهم، مخوفًا لهم بعقاب الله لهم ﴿ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ﴾ الآية.

ومعنى قوله ﴿يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ﴾ اي: يوم ينفخ إسرافيل عليه السلام في الصور النفخة الثانية الرادفة ﴿إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ﴾ اي: إلى شيء منكر فظيع عظيم يشيب من هوله الوليد، وهو القيامة وأهوالها العظام الجسام.

---

(١) البيت لابن دريد انظر «ديوانه» ص١٣٢.

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦-٧]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١-٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ۝ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ۝ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٤-٣٦].

وقال عز وجل: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ۝ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۝ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٣-٣٧]، وقال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة:١]، وقال تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ ۝ مَا الْقَارِعَةُ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ١-٥].

﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ أي: خاشعة ذليلة خائفة أبصارهم من شدة الهول والفزع.

﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي: من القبور.

﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ أي: كأنهم بعد خروجهم، في ذهولهم وتفرقهم ﴿جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ أي متفرق متكاثر في الأرض هنا وهناك لا يدري أين وجهه يذهب يميناً وشمالاً كما قال عز وجل ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤].

﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ أي: مسرعين إلى إجابة الداعي مادي أعناقهم خاضعي رؤوسهم من شدة الهول والفزع بلا تأخر ولا تخلف، استجابة لأمر الله عز وجل الكوني كما قال عز وجل: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٨].

﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ أي: يقول الكافرون، الذين جحدوا ربوبية الله عز وجل وألوهيته وأسماءه وصفاته وشريعته، وجحدوا نعمه: (هذا يوم عسر) أي: هذا

يوم ذو عسر، أي: شديد عسره، والعسر: هو المشقة والتعب، وضده اليسر والمعنى: أنه صعب شديد، لا يُسر فيه بوجه من الوجوه، قال تعالى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٨-١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان:٢٧].

وبالمقابل فهذا اليوم يسير على من يسره الله عليهم، وهم المؤمنون، وذلك بقدر إيمانهم ويقينهم، فهم آمنون وغيرهم خائفون قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

الفوائد والعبر:

١ ـ قرب القيامة وأهوالها وظهور بعض علاماتها.

٢ ـ إثبات انشقاق القمر، وذلك آية من آيات الله ـ عز وجل ـ الدالة على صدق نبينا محمد ﷺ، وعلامة على قرب القيامة.

٣ ـ إعراض المشركين عن آيات الله ـ عز وجل ـ الكونية والشرعية واعتبارها من السحر، وتكذيبهم الحق واتباع أهوائهم.

٤ ـ الوعيد والتهديد للمشركين.

٥ ـ أن لكل أمر نهاية وغاية وعاقبة.

٦ ـ إقامة الحجة على المشركين بما جاءهم من أخبار المكذبين قبلهم من العقوبات العاجلة، وما ينتظرهم من العذاب الآجل، وفي ذلك أعظم زاجر.

٧ ـ حكمة الله ـ عز وجل ـ التامة في هدايته من كان أهلا للهداية وإضلاله من كان أهلاً للضلالة والغواية.

٨ ـ من يضلل الله فلا هادي له.

٩ ـ تسلية النبي ﷺ والوعيد للمكذبين بما ينتظرهم من العذاب يوم القيامة.

١٠ ـ إثبات النفخ في الصور والبعث، وشدة أهوال يوم القيامة

١١ ـ عظم ذل المشركين والمكذبين يوم القيامة وشدة حيرتهم وذهولهم، وسرعتهم إلى إجابة الداعي، وشدة عسر ذلك اليوم عليهم.

﴿۞كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

أمر الله عز وجل رسوله ﷺ في الآيات السابقة بالإعراض عن المشركين المكذبين وذكر ما أعد لهم من العذاب الشديد يوم القيامة، تسلية له ﷺ، ووعيداً وتهديداً للمكذبين من قومه، ثم ذكر الله عز وجل في هذه الآيات وما بعدها تكذيب عدد من الأقوام لأنبيائهم، وما حل بهم من العقوبات العاجلة في الدنيا، وتأييد الله عز وجل لأنبيائه، وإنجاءه لهم ونصرهم على المكذبين من أقوامهم، قوم نوح عليه السلام ومن بعدهم، والغرض من ذلك - أيضاً - تسلية النبي ﷺ وتقوية قلبه ﷺ تجاه تكذيب قومه ووعده بأن العاقبة له، فالعاقبة للمتقين، وتخويف وتحذير المكذبين من قومه.

ويتكرر في القرآن الكريم في عدد من السور ذكر قصص الرسل وأقوامهم، وذكر إنجاء الله عز وجل للمؤمنين منهم، وإهلاكه للمكذبين؛ لأن القرآن العظيم مثاني، تثنّى فيه القصص والمواعظ، والأوامر والنواهي، والأحكام، لأجل ترسيخ منهج الحق وغرسه في النفوس فليس القرآن مجرد كتاب أخبار وقصص روائية بل هو كتاب منهج حياة وسلوك أمة.

قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أي: كذبت قبل قومك يا محمد قوم نوح أول رسل الله عز وجل إلى أهل الأرض[1]، فليس بجديد تكذيب قومك لك، وليس ببدع فهذا دأب المكذبين وديدنهم مع رسلهم من لدن نوح - عليه السلام - ومع جميع الأنبياء.

﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ الفاء: عاطفة، أي: فكذبوا عبدنا نوحاً - عليه السلام. والعبودية هي التذلل والخضوع لله بالطاعة، والمراد بها هنا عبودية خاصة الخاصة وهي عبودية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، تليها عبودية الخاصة، وهي عبودية سائر المؤمنين كما

---

(١) ما قيل إن أول الرسل إدريس عليه السلام ليس بصحيح، وقد ردّ ذلك ابن تيمية رحمه الله وبيّن أن إدريس الذي ذكر في نسب نوح عليه السلام ليس بنبي.

في قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾[الفرقان: ٦٣] ثم العبودية العامة، وهي عبودية جميع الخلق بمعنى انقيادهم لأمر الله الكوني، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾[مريم: ٩٣].

وأطلق على نوح ـ عليه السلام ـ وصف العبودية وهو من أفضل رسل الله وأحد أولي العزم من الرسل لأن العبودية لله أفضل وصف يتصف به البشر، وقد وصف الله بها أفضل الرسل وسيد الخلق نبينا محمداً ﷺ في أعلى المقامات وأفضلها وأقربها من الله عز وجل، وهو مقام العبادة، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن:١٩]، وفي مقام الإسراء، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]، ولم يقل: وأنه لما قام رسول الله أو نبيه، أو سبحان الذي أسرى برسوله أو بنبيه.

﴿وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ﴾ كما قالوا ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٢٥].

أي: اتهموه بأنه معتوه فاقد العقل، قلبًا للحقائق وزعمًا منهم أن ما هم عليه من الشرك والضلال هو الذي يدل عليه العقل، وأن ما جاء به نوح عليه السلام جهل وضلال لا يصدر إلا من المجانين. والعكس هو الصحيح.

﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ أي: وزجر بمعنى: نُهر وتُوعِّد، و«ازدجر» أبلغ من زجر، لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ـ غالبًا ـ أي: زجر زجرًا شديداً بليغًا.

والمعنى: مع كونه مجنونًا – زجر وتُوعِّد، فاستطار جنونًا. والمجنون إذا زُجر ونُهر أو ضُرب أو اعتدى عليه استطار جنونه وزاد شره، كما يقال «مجنون وضرب بعصا» فالمجنون أحسن حاله أن يترك، وأن يهادى، ولا يستثار. ويدل على هذا القول قول مجاهد: «ازدجر» أي: «استطير جنونًا»[1].

ويحتمل أن المراد بالآية أن قومه زجروه ونهروه عن تبليغ رسالة ربه، وتوعدوه، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦].

وهكذا دأب المكذبين للرسل يرمونهم بالجنون، كما ذكر الله عز وجل عن فرعون أنه قال لموسى عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ١٢١.

وهكذا قال المشركون لمحمد ﷺ سيد الرسل وأفضلهم قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٤].

كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢].

كما يهددون ويتوعدون رسلهم بالإخراج والرجم ونحو ذلك كما قال أصحاب القرية لرسلهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يس: ١٨]، وقال آزر لإبراهيم ـ عليه السلام: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦] وقال قوم لوط للوط عليه السلام: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧].

﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ أي: فتوجه نوح عليه السلام إلى ربه عز وجل بالدعاء قائلاً ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ﴾ المغلوب: المقهور الضعيف العاجز عن المقاومة. أي: رب إني ضعيف عاجز عن مقاومة قومي، لأنه لم يؤمن من قومه إلا القليل كما قال تعالى ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

﴿فَانتَصِرْ﴾ أي: فانتصر أنت يا رب لدينك منهم وقال في الآية الأخرى ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

فلجأ عليه السلام إلى من يجيب المضطر إذا دعاه، وإلى من هو نعم المولى ونعم النصير، فاستجاب عز وجل دعاءه.

﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ قرأ ابن عامر وبعضهم بتشديد التاء «ففتّحنا» وقرأ الأكثرون بتخفيفها، أي: ففتحنا أبواب السماء بالمطر. ومعنى ﴿مُّنْهَمِرٍ﴾ أي: منصب ومتتابع بكثرة وغزارة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كثير لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده ولا من السحاب»[1].

﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أي: شققنا الأرض كلها عيونًا ينبع منها الماء، حتى التنور الذي توقد فيه النار، كما قال عز وجل: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ [هود:٤٠] أي: حتى إذا جاء أمرنا الكوني بإغراقهم، وفار التنور، أي: نبع بالماء.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٢٠- الأثر ١٨٧٠٥.

﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٍ قَدۡ قُدِرَ﴾ أي: فالتقى الماء النازل من السماء، والنابع من الأرض على أمر كوني وقدري، قدره الله عز وجل وقضاه أزلاً، وجعل له حدًا ينتهي إليه حتى غطى الماء رؤوس الجبال من غير زيادة ولا نقصان.

﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ ذات بمعنى: صاحبة، والألواح: هي الأخشاب، والدسر: المسامير وما تربط به الأخشاب، أي: وحملنا نوحًا عليه السلام ومن أراد الله ـ عز وجل ـ إنجاءهم معه على سفينة من الخشب والمسامير قال تعالى: ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ﴾ [المؤمنون:٢٧].

﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ أي: تجرى هذه السفينة وسط لجج البحار بأمرنا وبمرأى منا وتحت عنايتنا وحفظنا وكلاءتنا وحراستنا. كما قال عز وجل ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٍ كَٱلۡجِبَالِ﴾ [هود:٤٢].

﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي: مجازاة وعقوبة لقوم نوح على كفرهم بالله وتكذيبهم، وانتصاراً لنوح عليه السلام الذي كفر به قومه، وإجابة لدعائه وقوله ﴿أَنِّي مَغۡلُوبٌ فَٱنتَصِرۡ﴾.

قال تعالى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ [يونس: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ۝ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ﴾ [الشعراء: ١١٩، ١٢٠].

وهكذا سنن الله عز وجل الكونية التي لا تتغير ولا تتبدل ولا تتحول أن العاقبة للتقوى وللمتقين، وأن العدوان والخسران والعقاب على الكافرين.

﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةً﴾ الواو: استئنافية واللام للقسم، و«قد» للتحقيق، أي: والله لقد تركناها آية. و«تركناها» أي: أبقيناها، وضمير الهاء يعود إلى العقوبة التي عاقب الله بها قوم نوح وهي إغراقهم بالطوفان، وإنجاء الله ـ عز وجل نوحاً ومن معه في السفينة، ففي ذلك آية عظيمة، أي: علامة دالة على كمال قدرة الله ـ عز وجل وفيها عظة وعبرة قال تعالى: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةًۖ﴾

[الفرقان:٣٧]، أي: دلالة على قدرة الله عز وجل التامة وعظمته ووحدانيته وكماله في ذاته وأسمائه وصفاته واستحقاقه للعبادة دون من سواه.

كما أن في ذلك أعظم عبرة وعظة لمن يتعظ ويعتبر، فيحذر من تكذيب الرسل والكفر بالله لئلا يحل به ما حل بالمكذبين والكافرين من قوم نوح وغيرهم.

ويحتمل أن المراد بقوله ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾ جنس السفن، وأن كونها تجرى على ظهر الماء وتمخر عباب البحر من أعظم الآيات الدالة على عظمة الله تعالى.

قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٤١-٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١-١٢].

ولا مانع من حمل الآية على الأمرين، ففي إهلاك قوم نوح وإنجاء نوح عليه السلام ومن معه في السفينة آية، وفي جريان السفن على ظهر الماء آية.

وعلى ذلك كله دل القرآن الكريم. فسبحان الخالق البصير العليم الخبير.

وقد قيل: إن المراد بقوله ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾ أن الله عز وجل أبقى سفينة نوح حتى أدركها أول هذه الأمة.

وهذا بعيد من وجوه: منها عدم الدليل الواضح عليه، ومنها طول المدة، إضافة إلى أن عموم الآية ومعناها يأباه فإن الله تركها آية لمن جاء بعد نوح وقومه إلى قيام الساعة هذا ما يدل عليه ظاهر الآية وعمومها فكيف يخص ذلك بأول هذه الأمة؟.

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «قرأت على النبي ﷺ «فهل من مُذَّكر» فقال النبي ﷺ: «فهل من مُدكر»»[1].

الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، والتقدير: إذا كانت قصة إنجاء نوح عليه السلام ومن معه في السفينة وإغراق المكذبين له آية فهل من مدكر.

و«هل» للاستفهام، وفيه معنى التشويق والحث والأمر، و«مدكر» بمعنى: متعظ

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة (اقتربت الساعة) ٤٨٧٤، ومسلم في صلاة المسافرين ٨٢٣، وأبو داود في الحروف والقراءات ٣٩٩٤، والترمذي في القراءات ٢٩٣٧، وأحمد ١/ ٣٩٥.

معتبر متذكر. والمعنى: فهل من متذكر ومعتبر ومتعظ بهذه الآية العظيمة في إهلاك الكفرة والمكذبين من قوم نوح بالغرق، وإنقاذ نوح عليه السـلام ومن معه في السـفينة.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ الفاء: استئنافية و«كيف» أداة استفهام للتعظيم والتفخيم والتعجب، والتقرير (ونذر) أي: وإنذاري الذي لا يبقى لأحد عليّ بعده حجة.

أي ما أعظم عذابي وعقوبتي لقوم نوح الذين كفروا وكذبوا نوحًا عليه السـلام ولغيرهم من المكذبين في الدنيا والآخرة، مما فيه أعظم رادع وزاجر عن فعلهم، وما أعظم إنذاري للمكذبين وتحذيري لهم على ألسـنة الرسل بما لا يبقى بعده لأحد حجة، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ الواو للاستئناف، واللام للقسـم و«قد» للتحقيق، أي: والله لقد يسرنا القرآن للذكر، أي: سهلنا حفظ ألفاظه وفهم معانيه وتطبيق أحكامه، أي: جعلنا ذلك كله سهلاً هينًا ميسرًا لمن أراد أن يتذكر ويتدبر كما قال عز وجل ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ [الإسراء:٤١]، وقال تعالى: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝٢٩﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨﴾ [الدخان: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النسـاء: ٨٢].

وكان ﷺ يتعجل جبريل بالقرآن مخافة أن يفوته منه شيء فقال الله عز وجل: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦-١٩].

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا منه ما تيسر»[1].

فمن فضل الله على هذه الأمة أن اختار لها أفضل الرسل محمداً ﷺ وأنزل عليها أفضل الكتب القرآن الكريم، وجعل لفظه ومعناه وأحكامه سهلة ميسـرة، ووضع عن

---

(١) أخرجه البخاري في الخصومات ٢٤١٩، ومسلم في صلاة المسافرين - بيان أن القرآن أنزل على سبعة أحرف ٨١٨، وأبو داود في الصلاة - الوتر - أنزل القرآن على سبعة أحرف ١٤٧٥، والنسائي في الافتتاح - جامع ما جاء في القرآن ٩٣٦، والترمذي في القراءات ٢٩٤٣. وأخرجه أحمد أيضا من حديث عبادة بن الصامت - رضي الله عنه ٥/ ١١٤، وسليمان بن صرد - رضي الله عنه ٥/ ١٢٤ ولأبي ابن كعب - رضي الله عنه ٥/ ١٢٧-١٢٨، ١٣٢.

هذه الأمة الآصار والأغلال التي كانت على من كان قبلهم فلله الحمد والمنة، ولهذا قال بعد ذلك:

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ والكلام فيه كما سبق، والمعنى: فهل بعد هذا التيسير والتسهيل للقرآن الكريم من متذكر ومتدبر لألفاظه ومعانيه وأحكامه، وما فيه من العلم النافع والحث على العمل الصالح، وعلى امتثال ما فيه من الأوامر، وهل من متعظ ومنزجر بما فيه من التحذير والنواهي. وهذا هو معنى وحقيقة تذكر القرآن وتدبره، أما حفظ ألفاظه فقط دون تدبر لمعانيه وأحكامه وتأدب بآدابه فإنه حجة على من حفظه، وربما كان طريقاً للغرور والرياء والسمعة، ولهذا قال ﷺ: «إن أكثر منافقي أمتي قراؤها»[1] ورُوي عن ابن عباس - رضي الله عنهما أنه لما كثر القراء في زمانه من أحداث الأسنان لم يعجبه ذلك بل كرهه، وخاف عاقبة ذلك، وقد وقع ما خاف منه رضي الله عنه - حيث خرج جملة من هؤلاء القراء مع الخوارج الذين خرجوا على علي رضي الله عنه، وعلى صحابة رسول الله ﷺ رضي الله عنهم.

وهذا مصداق قوله ﷺ: «يقرأ أناس من أمتي القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»[2].

الفوائد والعبر:

١ - تسلية النبي ﷺ وتقوية قلبه، ووعيد وتهديد المكذبين من قومه بذكر تكذيب قوم نوح ومن بعدهم من الأمم لأنبيائهم وما حل بهم من العقوبات، والسعيد من وعظ بغيره.

٢ - أن العبودية لله - عز وجل - أشرف ما يوصف به البشر، ولهذا وصف الله بها نبيه «نوحاً» عليه السلام.

٣ - شدة ما لاقى نوح - عليه السلام - من قومه من التكذيب والرمي بالجنون

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ١٧٥ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - ومن حديث عقبة بن عامر - رضي الله عنه ٤/ ١٥١، ١٥٥.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ٥٠٥٨، ومسلم في الزكاة ١٠٦٤، وأبوداود في السنة ٤٧٦٤، والنسائي في الزكاة ٢٥٧٨ - من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه.

المـــتطير، والزجر.

٤ ـ أن من تحقيق العبودية لله ـ عز وجل وأسباب النصر على الأعداء ـ اللجوء إلى الله ـ عز وجل ـ بدعائه وطلب النصر منه، وإقرار الإنـسان بضعفه وحاجته إلى الله ـ عز وجل، كما فعل نوح ـ عليه الـسلام.

٥ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لنوح ـ عليه السلام.

٦ ـ استجابة الله ـ عز وجل ـ لدعاء نوح ـ عليه الـسلام ـ ونصره له وإغراق قومه وإنجاؤه ومن معه على السفينة.

٧ ـ عظم قدرة الله ـ عز وجل ـــ، وعنايته التامة بأوليائه، وشدة انتقامه ممن كفر به.

٨ ـ في إغراق قوم نوح وإنجائه ومن معه على الـسفينة آية عظيمة دالة على قدرة الله ـ عز وجل ـ وعظة وعبرة لمن يعتبر.

٩ ـ شدة عذاب الله ـ عز وجل ـ وعقابه للمكذبين من قوم نوح ـ عليه الـسلام ـ.

١٠ ـ إقامة الحجة على الخلق وإنذارهم والإعذار منهم.

١١ ـ امتنان الله ـ عز وجل ـ على العباد بتيسير القرآن للذكر ترغيباً وحضاً على التذكر والاتعاظ.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

أخبر عز وجل عن تكذيب وكفر قوم نوح عليه السلام في الآيات السابقة وما جازاهم الله به من إغراقهم بالطوفان وإنجاء نوح عليه السلام ومن كان معه في السفينة، وما في ذلك من الدلالة العظيمة على قدرة الله ـ عز وجل ـ التامة، والعظة والعبرة لمن يتذكر ويعتبر – ثم أتبع ذلك بالإخبار عما أوقعه عز وجل من العقوبات والنكال بالمكذبين بعد قوم نوح منهم عاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون تحذيراً وتخويفاً للمكذبين من هذه الأمة وتسلية للرسول ﷺ تجاه تكذيب قومه له.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ عاد: هم قوم نبي الله هود عليه السلام، وهم عاد إرم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ [الفجر: ٦-٨] وهم عاد الأولى، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٥٠].

ومساكنهم؛ بالأحقاف جنوب الجزيرة في اليمن كما قال تعالى: ﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: ٢١]، والأحقاف: الجبال من الرمل.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي: فكيف كان عذابي وعقوبتي لهم، أي: ما أشد ذلك وما أعظمه، وكيف كان إنذاري لهم، أي: ما أعظم إنذاري وتحذيري لهم على لسان نبيهم هود عليه السلام، مما لا تبقى معه لهم حجة.

وقد كرر هذا هنا وفيما بعد لتوكيد الوعيد والتهديد للمكذبين والكافرين، وتوكيد شدة عذاب الله عز وجل وانتقامه ممن كفر به وكذب رسله، ولتوكيد إقامة الحجة على الخلق بحيث لا يبقى لأحد منهم حجة ولا عذر.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾، أي: إنا أرسلنا عليهم عقوبة لهم لإهلاكهم وتعذيبهم ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي: ريحًا باردة، شديدة البرودة، شديدة الصوت، وهي الريح العقيم التي لا نفع فيها بل هي ضرر محض قال تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ

﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١-٤٢].

وهي الدبور قال ﷺ: «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور»[1].

والصبا: الريح الشرقية، والدبور: الريح الغربية.

﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ أي: في يوم شؤم وشقاء (مستمر) أي: دائم عليهم نحسه و شؤمه، حيث استمر عليهم نحسه وشؤمه من ذلك اليوم وطيلة الأيام الحسوم كما قال عز وجل: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة: ٦-٨]. قيل ابتدأت يوم الأربعاء وانتهت يوم الأربعاء، وذلك مستمر موصول بعذاب البرزخ، وعذاب الآخرة في النار أبد الآباد.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت: ١٥-١٦].

﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي: تقتلع الناس وترفعهم من أماكنهم ثم تلقيهم على الأرض هلكى هامدين ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ أي: كانهم أصول وجذوع نخل بلا رؤوس (منقعر) منقلع من قعره ومغرسه، كما قال عز وجل: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ [الحاقة: ٧].

قال ابن كثير[2]: «وذلك أن الريح كانت تأتي أحدهم فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار ثم تنكسه على أم رأسه، فيسقط إلى الأرض، فتثلغ رأسه، فيبقى جثة بلا رأس».

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف: ٢٤-٢٥]. وقال تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة ١٠٣٥، ومسلم في الاستسقاء ٩٠٠، والنسائي في الزكاة ٢٥٧٨ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٤٥٤.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأعراف: ٧٢].

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ سبق الكلام عليه.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ الكلام فيه كما سبق، وكرر هنا وفيما بعد للامتنان والحث على التذكر والتدبر للقرآن، ألفاظه ومعانيه وأحكامه.

الفوائد والعبر:

١ ـ تكذيب عاد نبيهم هوداً عليه السلام وعقوبة الله لهم بإهلاكهم بالريح الصرصر التي فصلت رؤوسهم عن أبدانهم. وفي هذا تخويف للمكذبين، وتسلية للرسول ﷺ.

٢ ـ شدة عقوبة الله ـ عز وجل ـ لعاد وإنذاره لهم ولغيرهم.

٣ ـ قدرة الله ـ عز وجل ـ التامة حيث أهلك عاداً بالطف الأشياء وأخفها وهي الريح، وقد كانوا أقوى الخلق وأعتاهم.

٤ ـ أن الله ـ عز وجل ـ قد يجعل الشؤم والنحس في بعض الأعيان والأيام.

٥ ـ تأكيد الوعيد والتهديد للمكذبين، وإنذارهم والإعذار منهم.

٦ ـ توكيد نعمة الله ـ عز وجل ـ على العباد بتيسير القرآن للذكر حثاً وحضاً على التذكر والاتعاظ به.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله عز وجل قصة ثمود وتكذيبهم بالنذر بعد ذكره قصة تكذيب عاد، لأن ثمود بعد عاد في الزمن، وكل منهما في جزيرة العرب فـ«عاد» في جنوبها، وثمود في شمالها وبينهما والله أعلم ارتباط من وجوه عدة، ولهذا كانت «ثمود» تسمى عادًا الثانية، أو الأخرى، كما تسمى «عاد»: «عاداً الأولى». والهدف من ذكر هذه القصص كما سبق التحذير والتخويف للمكذبين وتسلية الرسول ﷺ.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ أي: كذبت قبيلة ثمود بالنذر المرسلة إليهم من الله عز وجل، فكذبوا رسولهم صالحاً عليه السلام، وما جاءهم به من النذر والآيات من عند الله عز وجل. وكانت مساكنهم في العلا شمال الجزيرة، وهي المعروفة الآن بمدائن صالح.

﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ أي: فقالوا احتقاراً منهم لصالح عليه السلام «أبشرًا» الاستفهام للتعجب والإنكار والنفي والاحتقار. (منا) أي: لا من غيرنا، ولم يتميز عنا بشيء، وهكذا يزدري الكثيرون من كان منهم ويتكبرون عليه ويتنقصونه ولو كان خيرًا، بل ويُعجبون بمن ليس منهم، وإن كان دونه على حد قولهم: «من عرفك صغيرًا حقرك كبيرًا» وقد قال ﷺ: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»[1].

(واحداً) أي: شخصًا واحدًا ليس معه شخص ثان، أو جماعة تؤيده.

أي: إننا لا يمكن أن نتبع بشرًا منا واحداً، ولا يعقل أن يكون ذلك، وهذا اعتراض منهم ـ كغيرهم من المكذبين ـ على الله عز وجل، يردون به دعوة الرسل عليهم السلام، قال تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٩١، والترمذي في البر والصلة ١٩٩٩ ـ من حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه .

يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم:١٠-١١]، وهكذا قالت قريش لمحمد ﷺ ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، وقالوا: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦]، حتى إنه رُوِيَ أن احد المشركين وقف أمام النبي ﷺ وقال له: «أما وجد ربك من يرسله غيرك». وصدق الله العظيم ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ولهذا قال تعالى لإفحام المشركين: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[الأنعام: ٨ ، ٩] أي: لو أرسلنا ملكاً لجعلناه على صورة رجل من البشر يخالطهم ويتكلم بلسانهم ليفهموا عنه ما يدعوهم إليه، وعلى هذا فلابد من كون الرسل من البشر.

وايضا فإنه لو ارسل إليهم أكثر من واحد لم ينجع ذلك فيهم كما قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ۝ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ۝﴾[يس: ١٣ ـ ١٥]

﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ أي: إنا إذًا إن اتبعناه ﴿لَّفِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: بُعد وتيه عن الحق والهدى (وسعر) جمع سعير، أي: في نار مسعورة مشتعلة متوقدة، وقيل (سعر) أي: جنون، وقيل عناء وعذاب.

فعكسوا ما قاله لهم صالح من أنهم إن اتبعوه اهتدوا ونجوا من السعير فقالوا: إنا إذا إن اتبعناك لفي ضلال وسعر ـ وذلك لشدة عنادهم ومكابرتهم.

قال ابن كثير[1]: «يقولون لقد خبنا وخسرنا إن سلمنا كلنا قيادنا لواحد منا».

﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾.

الاستفهام أيضًا للتعجب والإنكار والنفي والاحتقار.

اي: يقولون أيضًا تعجبًا منهم وحسدًا وإنكارًا واحتقاراً ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ اي: كيف يخص بإلقاء الذكر عليه من بيننا، وأي مزية وأي فضل له علينا حتى

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٥٤.

يخص بذلك من بيننا، وهذا حسد منهم واعتراض على حكم الله عز وجل واحتقار لصالح عليه السلام.

﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ «بل» للإضراب، أي: لم يلق عليه الذكر من دوننا خاصة لكنه كذاب في دعواه و(كذّاب) صيغة مبالغة على وزن «فعّال» أي: إنه كثير الكذب، وليس له صفة إلا الكذب.

(أشر) أي: بطر متكبر متعال متعاظم، متجاوز الحد في الكذب.

وهكذا حملهم الحسد والكبر على أن ردوا دعوة صالح عليه السلام، وكذبوه كما حمل الحسد اليهود على إنكار رسالة محمد ﷺ أفضل الرسل وخاتم النبيين قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ﴾ [البقرة:١٠٩].

ولا عجب في هذا فقد كان الحسد والكبر من أسباب إخراج إبليس من الجنة ولعنه وطرده قال تعالى عنه أنه قال ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الأعراف: ١٢-١٣].

وقد أحسن القائل:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه ... فالقوم أعداء له وخصوم
كضرائر الحسناء قلن لوجهها ... حسداً وبغياً إنه لدميم
وترى اللبيب محسداً لم يجترم ... شتم الرجال وعرضه مشتوم
وكذاك من عظمت عليه نعمة ... حساده سيف عليه صروم[1]

فتأمل أخي الكريم كيف حمل الكبر والحسد هؤلاء الأقوام على رد الحق وتكذيبه. ففتش في جوانب نفسك واحذر من أن يحول الكبر والحسد بينك وبين قبول الحق فقد قيل: «ما خلا جسد من حسد لكن الكريم يخفيه واللئيم يبديه» وقيل

---

(١) الأبيات لأبي الأسود الدؤلي.

للحسن ـ رحمه الله: أيحسد المؤمن؟ فقال: «ما أنساك لإخوة يوسف لا أبا لك»[1].

فاقبل الحق ممن جاء به أياً كان وكن ذا قلب سليم مخلص العبادة لله، سليم على عباد الله، واعلم أن الناس لو ملكوا الدنيا كلها ما ضرك ذلك، ولو افتقروا ما نفعك ذلك، ولو دخلوا بأجمعهم الجنة ما ضرك ذلك، ولو دخلوا النار ما نفعك ذلك. فاحب للمسلمين ما تحب لنفسك تعش بإذن الله ـ سعيدًا، وتمت حميدًا.

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ السين للاستقبال والتحقيق والتقريب. والغد: اليوم الذي بعد يومك، ويحمل على ما يستقبل من الأيام مطلقًا، إشارة إلى تحقق مجيئه، وأن كل آت قريب. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ [الأنعام:١٣٤].

قال الشاعر:

فإن يك بعض هذا اليوم ولى فإن غداً لناظره قريب

والمراد بـ«غداً» يوم وقوع العذاب الدنيوي عليهم وإهلاكهم بالصيحة والصاعقة. ولهذا قال: ﴿فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾.

ويحتمل أن المراد بـ«غداً» يوم القيامة وتعذيبهم بالنار. كما قال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾[الشعراء: ٢٢٧].

ولا مانع من حمل الآية على هذا وهذا.

﴿مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾ أي: من هو الكذاب الأشر، أهو صالح عليه السلام أو أنهم هم الكذّابون الأفّاكون الأشرون. وفي الآية تهديد لهم شديد ووعيد أكيد.

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ﴾ أي: التي سالوها (فتنة لهم) أي: امتحانًا وابتلاءً لهم كما قال عز وجل ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥]. ومن الفتنه والابتلاء تيسير أسباب المعصية.

قال الطبري[2]: «إنا باعثو الناقة التي سألتها ثمود صالحًا من الهضبة التي سألوه بعثتها لهم منها، آية لهم، وحجة لصالح على حقيقة نبوته وصدق قوله».

---

(٢) انظر «تفسير آيات الأحكام في سورة النساء» ١/ ٥٦٠-٥٦٥. وقد ذكرت هناك عشر مفاسد من أسباب تحريم الحسد.

(٢) في «جامع البيان» ٢٢/ ١٤١.

وقال ابن كثير(١): «أخرج الله لهم ناقة عظيمة عشراء من صخرة صماء، طبق ما سألوا، لتكون حجة الله عليهم في تصديق صالح عليه السلام فيما جاءهم به».

﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾ أمر من الله عز وجل لنبيه ورسوله صالح عليه السلام، أي: انتظر ما يؤول إليه أمرهم، وما يعملون، وهل تكون هذه الآية التي سألوها سببًا لهدايتهم، أو تكون سببًا لضلالهم وعذابهم وهو ما حصل فعلاً.

(واصطبر) أي: واصبر على أذاهم، وازدد صبرًا، لأن «اصطبر» أبلغ وآكد من «اصبر» لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى غالبًا.

والمعنى: اصبر على ما تلقاه منهم من الأذى فعلاً كان أو قولاً، ومن التعنت والمكابرة والعناد والتحدي بطلب الآيات والمعجزات كسؤالهم الناقة، واعلم أن الغلبة والنصر لله ورسله وأن العاقبة للمتقين كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ أي: أخبرهم. والأمر لصالح عليه السلام أن الماء مشترك ومقسوم بينهم وبين الناقة، فيوم لها ويوم لهم، كما قال عز وجل: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

وهذا من الابتلاء لهم أن حُرِّم عليهم الماء يوم ورد الناقة، مع أنهم في يوم وردها يشربون من لبنها، لكنهم ملّوا هذه القسمة.

﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ أي: كل نصيب من الماء يحضره صاحبه في نوبته ويُحْظَر على من ليست نوبته، فيوم شربهم يحضرون ويشربون من الماء، ويوم شرب الناقة وورها تحضره الناقة وتشرب.

وقال مجاهد: «إذا غابت يعني الناقة حضروا الماء، وإذا جاءت حضروا اللبن»(٢).

فعلى هذا فهم في يوم وردها لا يشربون من الماء، وإنما يشربون من لبنها.

﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ الفاء: عاطفة أي: فنادى القوم صاحبهم واسمه: قُدار ابن سالف، كما ذكر المفسرون، وكان أشقى ثمود، كما قال تعالى: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٥٤.

(٢) أخرجه الطبري ٢٢/ ١٤٣.

أَشۡقَىٰهَا﴾ [الشمس: ١٢].

﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ الفاء في الموضعين: عاطفة، والمعنى: بذل نفسه ووافق بسرعة وتناول السيف وانقاد لما أمروه به وتقدم فعقر الناقة. قطع أطرافها أولاً ثم نحرها ثانياً.

﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾. أي: فعاقبتهم، فما أعظم عذابي وعقوبتي لهم على كفرهم، وتكذيبهم لرسولي، مما فيه أعظم رادع لهم، وزجر وتخويف لغيرهم، وكيف كان إنذاري لهم أي: ما أشده واوضحه وأبينه بما لا حجة لهم بعده.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أي: إنا ارسلنا عليهم جميعًا لما تمالؤوا على عقر الناقة فعقروها عذابًا أهلكهم جميعًا عن آخرهم، صاح بهم جبريل ـ عليه السلام ـ صيحة قطعت قلوبهم في أجوافهم. فما تواعن آخرهم في اليوم الرابع من عقرها. وهي الرجفة والصاعقة.

﴿فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ أي: فكانوا بعد هذه الصيحة (كهشيم المحتظر).

والهشيم: هو اليابس الهامد المتفتت من الزرع والنبات، وشجر الحظيرة، تنسفه الريح، وتفرقه يمينًا وشمالاً، وهنا وهناك قال تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الكهف:٤٥].

و(المحتظر) صانع الحظيرة لمواشيه من الشجر.

والمعنى: أنهم هلكوا وما توا وبادوا عن آخرهم فلم يبق منهم باقية، وخمدوا وهمدوا، كما يخمد ويهمد يابس الزرع والنبات والشجر.

قال تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٧٧ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧-٧٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ۝٦٦ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٦٦-٦٧]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ﴾[الحجر: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝١٧ وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٧-١٨].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس: ١١-١٥].

وهكذا كان طلب ثمود وسؤالهم الناقة فتنة وابتلاءً لهم، كما كان طلب النصارى وسؤالهم المائدة فتنة وابتلاءً لهم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال خطبنا رسول الله ﷺ، فقال: «يا أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا» فقام رجل فقال: أفي كل عام يا رسول الله؟ فقال: «أما إني لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ثم تركتم لضللتم اسكتوا عني ما سكت عنكم، فإنما أهلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم»(١).

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن من أعظم المسلمين في المسلين جرمًا من سال عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته»(٢).

وعن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدودًا فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها»(٣).

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ توكيد وتذكير وتشويق وحث على تذكر القرآن وتدبر ألفاظه ومعانيه وأحكامه.

الفوائد والعبر:

١ ـ تكذيب ثمود نبيهم صالحاً عليه السلام وما جاءهم به من النذر من عذاب الله ـ عز وجل.

٢ ـ احتقار ثمود لنبيهم صالح عليه السلام وازدراؤهم له لا لشيء إلا لأنه بشر واحد منهم ولذلك لم يتبعوه.

٣ ـ حسد ثمود لنبيهم صالح عليه السلام حيث خص بالرسالة دونهم وتكذيبهم له

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام ٧٢٨٨، ومسلم في الحج ١٣٣٧، والنسائي في مناسك الحج ٢٦١٩، والترمذي في العلم ٢٦٧٩.

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام ٧٢٨٩، ومسلم في الفضائل ٢٣٥٨، وأبو داود في السنة ٤٦١٠، وأحمد ١/١٧٦، ١٧٩.

(٣) أخرجه الدارقطني ٤/٢٩٧-٢٩٨، وصححه ابن كثير في «تفسيره» ٣/٢٥٢.

بسبب ذلك.

٤ ـ وجوب الحذر من الكبر والحسد فإنهما من أعظم أسباب رد الحق.

٥ ـ الوعيد والتهديد لثمود بالعذاب العاجل والآجل.

٦ ـ إرسال الله ـ عز وجل ـ الناقة لثمود إجابة لسؤالهم إياها وتصديقاً لصالح عليه السلام وفتنة لهم.

٧ ـ أمر الله ـ عز وجل ـ لنبيه صالح عليه السلام بالانتظار بقومه والصبر على أذاهم، وإمهالهم.

٨ ـ أن مما ابتلى الله ـ عز وجل ـ به ثمود حين أرسل الناقة فتنة لهم أن جعل الماء قسمة بينهم وبينها لها شرب ولهم شرب يوم معلوم.

٩ ـ جرأة ثمود وإقدامهم على عقر الناقة ومخالفة أمر الله وارتكاب نهيه.

١٠ ـ شدة عذاب الله ـ عز وجل ـ لثمود حيث أرسل عليهم صيحة قطعت قلوبهم في أجوافهم بعد إقامة الحجة عليهم والإعذار منهم.

١١ ـ تأكيد نعمة الله ـ عز وجل ـ على العباد بتيسير القرآن للذكر حضاً على تذكره والاتعاظ به.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

بعد ما أخبر الله عز وجل عن تكذيب قوم نوح، وعاد وثمود وتعذيبهم وإنجاء الله عز وجل لأنبيائه ونصره لهم أخبر عن تكذيب قوم لوط وعقوبته لهم وإنجائه لوطاً ـ عليه السلام، ومن آمن معه من أهله وقومه.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ أي: كذبت قوم لوط رسول الله إليهم لوطاً ـ عليه السلام، وما جاءهم به من النذر من عند الله عز وجل فكذبوه وخالفوه وكفروا بما جاءهم به، وارتكبوا الفاحشة العظمى إتيان الذكران كما قال عز وجل عنهم: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأعراف: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥-١٦٦].

فلم يسبقهم أحد إلى فعل هذه الفاحشة التي هي أعظم الفواحش، ولهذا ذكرها الله عز وجل معرفة بـ «ال» (الفاحشة) بينما ذكر الزنا بأنه فاحشة قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

وإنما كان اللواط أشد فحشًا وجرمًا من الزنا لأن إتيان الذكر للذكر لا يحل بحال من الأحوال بخلاف إتيان الذكر للأنثى فهو يحل بطريق الزواج الشرعي وطريق الملك كما قال عز وجل ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٥-٧، المعارج: ٢٩-٣١].

وأيضًا: فإن اللواط قد يصعب التحرز منه، لأن وجود الذكر مع الذكر لا يستنكر، بخلاف ما إذا وجد رجل وامرأة فإن ذلك يستنكر ما لم تكن من محارمه.

وقد رُويَ أن عبد الملك بن مروان رحمه الله قال: «لولا أن الله ذكر اللواط في القرآن ما صدقت أن ذكرًا يعلو ذكرًا».

ولهذا كله جعل الله عز وجل عقوبة اللواط أشد العقوبات، سواء كان الفاعل والمفعول به محصنين أم لا، قال ﷺ فيما رواه ابن عباس رضي الله عنهما: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»[١].

وعاقب الله عز وجل قوم لوط على هذه الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين بعقوبة لم يعاقب بها أحدًا من العالمين، وهي أشد العقوبات فجعل عالي قريتهم سافلها وأمطرها بحجارة من سجيل منضود.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ أي: أمطر الله عليهم حجارة من سجيل فجعل عالي قريتهم سافلها، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾[هود: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾[الحجر: ٧٤].

قال ابن كثير[٢]: «(إنا أرسلنا عليهم حاصبًا) وهي الحجارة».

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ «إلا» أداة استثناء و«آل لوط» هم لوط وبناته، وقال ابن القيم[٣]: «المراد به أتباعه المؤمنون به، من أقاربه وغيرهم».

(نجيناهم) من العذاب والعقوبة (بسحر) أي: وقت السحر آخر الليل، وقبيل انصداع الفجر، وهو أفضل أوقات الدعاء، ووقت النزول الإلهي إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل، كما صح الحديث بذلك[٤].

قال ابن كثير[٥]: «أي: خرجوا من آخر الليل، فنجوا مما أصاب قومهم، ولم يؤمن بلوط من قومه أحد، ولا رجل واحد، حتى ولا امرأته، أصابها ما أصاب قومها وخرج نبي الله لوط وبنات له من بين أظهرهم سالمًا لم يمسه سوء».

---

(١) أخرجه أبو داود في الحدود ٤٤٦٢، والترمذي في الحدود ١٤٥٦ ـ وقال: «حديث حسن» وابن ماجه في الحدود ٢٥٦١، والحاكم في المستدرك ٤/ ٣٥٥ ـ وصححه ووافقه الذهبي. وقال ابن القيم في «زاد المعاد» ٥/ ٤٠، ٤١ «وإسناده صحيح».

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٤٥٥. وقد ذكر بعض المفسرين: أن الله رفع ديارهم حتى سمع الملائكة صياح الديكة ونباح كلابهم ثم قلبها عليهم ـ وهذا بناء على صحة الحديث الوارد في هذا ولكن هذا الحديث ضعيف عند أهل العلم.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣١٥.

(٤) كما في حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له». أخرجه البخاري في التوحيد ٧٤٩٤، ومسلم في صلاة المسافرين ٧٥٨، وأبو داود في الصلاة ١٣١٥، والترمذي في الصلاة ٤٤٦، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٦٦.

(٥) في «تفسيره» ٧/ ٤٥٥.

﴿نِّعۡمَةً مِّنۡ عِندِنَاۚ﴾ أي: نعمة من عند الله عز وجل ومنة منه على لوط وأهله في إنجائهم من العذاب، وإهلاك عدوهم.

﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ﴾، أي: مثل ذلك الإنجاء والنعمة نجزي من شكر نعمة الله بطاعته ـ عز وجل، وطاعة رسله فننجيه من العذاب وننصره ونجعل العاقبة له، ونهلك عدوه.

وفي قوله ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ﴾ دون أن يقول: لشكرهم تنبيه على أن هذه سنة الله عز وجل مع أوليائه الشاكرين أن ينجيهم ويحفظهم ويؤيدهم بنصره ويمكنهم ويجعل العاقبة لهم كما قال عز وجل: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

﴿وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا﴾ الواو للاستئناف، واللام للقسم أي: والله لقد أنذرهم، أي: خوفهم نبي الله لوط عليه السلام وحذرهم (بطشتنا) أي: أخذتنا الشديدة بالعذاب، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]، وقال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

﴿فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ﴾: الفاء: عاطفة أي: فكذبوا وشككوا فيما أنذرهم به ولم يصغوا إليه ولم يصدقوه.

﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ﴾ الكلام فيه – كما سبق – أي: والله لقد راودوه عن ضيفه أي: حاولوا معه وطلبوا منه أن يمكنهم من فعل الفاحشة بأضيافه من الملائكة.

قال ابن كثير[1]: «وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام، جاؤوا إليه في صورة شباب مرد حسان محنة من الله بهم، فأضافهم لوط، وبعثت امرأته العجوز السوءُ إلى قومها، فأعلمتهم بأضياف لوط فأقبلوا يهرعون إليه من كل مكان، فأغلق لوط دونهم الباب، فجعلوا يحاولون كسر الباب، وذلك عشية، ولوط ـ عليه السلام يدافعهم ويمانعهم دون أضيافه، ويقول لهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ﴾ يعني نساءهم ﴿إِن كُنتُمۡ

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٥٥ ـ ٤٥٦.

فَـٰعِلِينَ﴾ [الحجر: ٧١]، ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ اي ليس لنا فيهن إرب ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩]. فلما اشتد الحال، وأبوا إلا الدخول خرج عليهم جبريل ـ عليه السلام ـ فضرب أعينهم بطرف جناحه فانطمست أعينهم، يقال: إنها غارت من وجوههم، وقيل: إنه لم تبق لهم عيون بالكلية فرجعوا على أدبارهم يتحسسون بالحيطان، ويتوعدون لوطًا عليه السلام إلى الصباح».

﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ اعميناهم.

﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ امر إهانة، أي: فتجرعوا واحسوا، وقاسوا شدة عذابي للمكذبين، وعقوبة تكذيبهم لنذري.

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم﴾ اي: والله لقد صحبهم (بكرة) أول النهار (عذاب مستقر)، أي: مستقر وواقع بهم لا محيد لهم عنه ولا انفاك لهم منه، لا يرحل عنهم متصل فيه عذاب الدنيا بعذاب الآخرة. وهو ما ذكره الله عز وجل من جعل عالي قريتهم أسفلها وإتباعها بالحجارة – كما تقدم قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ۝ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٣-٨٤]، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤].

﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ الكلام فيه كما سبق، وكرر لتأكيد التهديد والوعيد.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ كرر للامتنان والحث على تذكر القرآن وتدبره ـ كما تقدم بيانه.

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾.

أي: والله لقد جاء آل فرعون النذر، والنذر: جمع نذير و(آل فرعون) هم أهله وقومه، و (فرعون) ملك مصر الذي في عهد موسى عليه السلام وهو أشد الفراعنة طغيانًا وكفرًا، وصل به الحال إلى أن ادعى الألوهية والربوبية، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨]، وقال ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

و«فرعون» علم على كل من ملك مصر من الكفرة.

والمعنى: والله لقد جاء فرعون وقومه النذر من عند الله عز وجل فأرسل الله إليهم نبيه موسى عليه السلام كليم الرحمن، وأخاه هارون، وأيدهما بالنذر والمعجزات والآيات العظيمة الشرعية والكونية.

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ أي: كذبوا وكفروا بآيات الله كلها الشرعية والكونية، الدالة على صدق رسالة موسى عليه السلام، ورموه بالسحر والجنون.

﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فأخذناهم بالعذاب والعقوبة، وذلك بإغراق فرعون وجنوده، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾[الذاريات: ٤٠]. فأهلكه الله وجنوده بمثل ما يفتخر به وهو الماء كما في قوله: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾[الزخرف: ٥١].

﴿أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ أي: أخذ قوي قاهر غالب له العزة بأقسامها الثلاثة: عزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة، وعزة القوة.

(مقتدر) أي: له القدرة التامة على كل شيء، كما قال عز وجل:﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٢٠].

الفوائد والعبر:

١ ـ تكذيب قوم لوط له ـ عليه السلام ـ ولما جاءهم به من النذر من عند الله ـ عز وجل.

٢ ـ إهلاك الله ـ عز وجل ـ لقوم لوط بإرسال الحاصب والحجارة عليهم وجعل عالي قريتهم أسفلها، بعد إنجاء لوط وآله وإخراجهم منها.

٣ ـ الإشارة لفضل وقت السحر، لأنه وقت النزول الإلهي.

٤ ـ نعمة الله ـ عز وجل ـ على لوط وآله في إنجائهم من العذاب مجازاة لهم على شكرهم لله ـ عز وجل.

٥ـ وعد الله ـ عز وجل ـ لجميع الشاكرين بالإنعام عليهم وإنجائهم من العذاب.

٦ـ إنذار لوط عليه السلام لقومه وتحذيره من أخذ الله لهم وعقابه وتشكيكهم في ذلك.

٧ ـ طمس أعين قوم لوط عن ضيوفه لما راودوه عنهم دفاعاً عنه عليه السلام وحفظاً له ولضيوفه وعقوبة لقومه المجرمين.

٨ ـ وقوع العذاب بالمكذبين من قوم لوط أول النهار واتصاله بعذاب الآخرة.

٩ ـ شدة عذاب الله ـ عز وجل ـ للمكذبين من قوم لوط وإنذاره لهم ولغيرهم.

١٠ ـ تأكيد الوعيد والتهديد للمكذبين.

١١ ـ تأكيد تيسير القرآن للذكر حضاً على التذكرة والاتعاظ.

١٢ ـ إقامة الحجة على فرعون وقومه بإرسال الرسل والنذر إليهم.

١٣ ـ تكذيب آل فرعون بآيات الله كلها الكونية والشرعية وإهلاك الله لهم بالغرق.

١٤ ـ عزة الله ـ عز وجل ـ التامة وقدرته العظيمة في الانتقام من المكذبين.

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ۝ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ۝﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

بعدما أخبر الله ـ عز وجل ـ عن عذابه وعقوباته للمكذبين من الأمم السابقة؛ قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون، وإنجائه عز وجل لرسله وأنبيائه وأتباعهم وجه الخطاب للمشركين والكفار من هذه الأمة من أهل مكة وغيرهم تحذيرًا وتخويفًا لهم ووعيدًا وتهديدًا بأنه سيحل بهم مثل ما حل بالمكذبين والكافرين قبلهم.

قوله ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ الاستفهام للإنكار والنفي، والخطاب لكفار مكة وغيرهم من كفار هذه الأمة.

والكفر لغة: الستر والتغطية. وشرعًا: إنكار وجود الله وجحود ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشريعته وهو ضد الإيمان.

﴿خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ أي: خير من أولئكم الأقوام الذين عذبهم الله لما كذبوا رسله وكفروا به؛ قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون.

والجواب: ليس كفاركم خيراً من أولئكم الأقوام، بل أنتم وإياهم سواء في الكفر والتكذيب لرسل الله بل قد تكونون شرًا منهم، لأنكم كذبتم أفضل الرسل وسيد الخلق محمداً ﷺ، والذي جاء بأفضل الكتب وأعظم المعجزات القرآن الكريم.

﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ الاستفهام كسابقه، و«أم» هي المنقطعة، بمعنى «بل» التي هي للإضراب الانتقالي وهمزة الاستفهام، أي: بل ألكم براءة في الزبر من عذاب الله وعقابه، والزبر: هي كتب الله عز وجل التي أنزلها على رسله عليهم الصلاة والسلام.

والجواب: ليس لكم براءة في كتب الله المنزلة على رسله أن لا ينالكم عذاب الله وعقابه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ «أم» كسابقتها للإضراب الانتقالي وهمزة الاستفهام، أي: بل أيقولون نحن جميع منتصر فهم يعلمون أنهم ليسوا خيرًا ممن كان قبلهم من المكذبين، وأنه ليس لهم براءة من العذاب في كتب الله، بل حقيقة أمرهم واعتقادهم ولسان حالهم ومقالهم أنهم يقولون ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ أي: نحن جماعة مجتمع أمرنا ﴿مُّنتَصِرٌ﴾ ممتنع لا نغلب.

أي: أننا بجمعنا الكثير ممتنعون، لا نغلب، وسينتصر بعضنا لبعض ويدفع بعضنا عن بعض من أرادنا بسوء، اغترارًا منهم بكثرتهم وقد قال الله عز وجل للمؤمنين

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ﴾ أي: سيغلب هذا الجمع الذي يفتخرون به، ويعتقدون أنهم سينتصرون به.

﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ أي: ويولون موقع المعركة أدبارهم فارين هاربين منهزمين على أعقابهم بعد قتل صناديدهم وكبرائهم، وهذا عذابهم الدنيوي، وقد وقع ذلك في يوم بدر، وفيما بعده من معارك الإسلام الفاصلة.

عن عكرمة قال: لما نزلت ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ قال عمر: «أي جمع يهزم؟ أي جمع يغلب؟ قال عمر: فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ - يثب في الدرع، وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ فعرفت تأويلها يومئذ[1]».

﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ «بل» للإضراب الانتقالي، والساعة: القيامة لأنها آتية لا محالة، ومحددة الوقوع في ساعة من الزمن لا تتأخر عنها ولا تتقدم، أي: بل القيامة موعدهم للعذاب.

﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ أي: والقيامة أعظم داهية ﴿وَأَمَرُّ﴾ أي: أشد مرارة، أي: أن عذاب الآخرة أشد وأعظم من عذاب الدنيا - عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال وهو في قبة له يوم بدر «أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبدًا» فأخذ أبو بكر رضي الله عنه بيده - وقال: حسبك يا رسول الله فقد ألححت على ربك، وهو في الدرع، فخرج وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ۝﴾»[2].

فعذاب الدنيا مهما كان لا يقارن بعذاب الآخرة، كما قال عز وجل: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة:٨٥]، وقال تعالى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ [الرعد: ٣٤]، وقال تعالى ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٢١ - الأثر ١٨٧١٣ وليس فيه ذكر عمر، وانظر «تفسير ابن كثير» ٧/ ٤٥٧.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة «اقتربت الساعة» ٤٨٧٧.

يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۝ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٥ ، ٢٦]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ [الغاشية: ٢٣-٢٤].

وعذاب الدنيا مهما عظم ومهما طال ينتهي بالموت، أما عذاب الآخرة فهو أعظم وأشد وأكبر ولا نهاية له، بل هو عذاب أبدي سرمدي، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧]، أي: دائم، وقال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥]، أي: لا ينقطع عنهم فترة يرتاحون فيها، وهم فيه آيسون من الخروج منه.

وإذا كان عذاب الدنيا وأذاها لا يقارن بعذاب الآخرة بحال من الأحوال، فيجب أن يحذر مرضى القلوب وضعاف الإيمان، ممن يؤثرون السلامة، بل السلبية، فيتخلون عن القيام بأمر الله والدعوة إليه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى مع أخص الناس بهم وأقربهم إليهم من أهل وأولاد وأقارب وجيران وإخوان، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠].

الفوائد والعبر:

١- التحذير والتخويف والوعيد والتهديد للمكذبين من هذه الأمة أن يحل بهم ما حل بالمكذبين من الأمم السابقة.

٢- أن المكذبين من هذه الأمة ليسوا خيراً من المكذبين من قبلهم، بل هم في الكفر والتكذيب سواء، بل قد يكونون شراً ممن قبلهم؛ لأنهم كذبوا أفضل رسل الله محمداً ﷺ وخير كتبه القرآن الكريم.

٣- ليس لدى المكذبين للرسول ﷺ براءة أن لا ينالهم عذاب الله وعقابه.

٤- اغترار المكذبين بكثرتهم وجمعهم وانتصار بعضهم لبعض، فلم يغنهم ذلك؛ بل هزموا شر هزيمة في بدر، وولوا الأدبار.

٥ - الوعيد والتهديد للمكذبين بالعذاب الآجل يوم القيامة والذي هو أشد وأعظم.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

توعد الله عز وجل في الآيات السابقة المشركين بالهزيمة في الدنيا، والعذاب في الآخرة، ثم أتبع ذلك بشيء من التفصيل في عذابهم، ثم أتبع ذلك ببيان مقام المتقين على طريقة القرآن الكريم في الجمع بين الترغيب والترهيب.

قوله ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ «المجرمين» الذين ارتكبوا الجرائم من الكفر بالله وما دون ذلك من المعاصي والذنوب.

﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ الضلال: التيه والبعد عن قصد السبيل وطريق الحق، والضال: من لم يعرف الطريق الموصل إلى الغاية والنجاة، حسيًا كان هذا الطريق أو معنويًا فهذا حال المجرمين في الدنيا فهم تائهون ضائعون عن طريق الحق يتخبطون في ظلمات الجهل والكفر.

﴿وَسُعُرٍ﴾ جمع سعير، وهي النار المستعرة المشتعلة الموقدة وهذه حال المجرمين في الآخرة أنهم يُزَجُّون في النار المستعرة. فحيث تاهوا عن طريق الحق في الدنيا تاهوا عن طريق الجنة في الآخرة فصار مصيرهم إلى النار المستعرة، إذ ليس بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار، كما قيل:

الموت باب وكل الناس داخله	يا ليت شعري بعد الموت ما الدار
الدار جنة عدن إن عملت بما	يرضي الإله وإن فرطت فالنار
هما محلان ما للناس غيرهما	فاختر لنفسك ماذا أنت تختار

وقيل (في سعر) أي: في جنون ونصب وعناء.

قال الطبري[1]: «﴿وَسُعُرٍ﴾ يقول في احتراق من شدة العناء والنصب في الباطل».

---

(١) في «جامع البيان» ٢٢/١٥٩.

وقال ابن كثير[1]: «﴿وَسُعُرٍ﴾ مما هم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق».

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أي: ذلك اليوم يوم القيامة الذي يسحبون فيه في النار أي: تسحبهم الملائكة على وجوههم إهانة لهم وتشديدًا في العذاب عليهم لأن أشد شيء في الإهانة أن تقع على موضع الكرامة من الإنسان وهو الوجه، وهو أشد شيء في العذاب، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[الزمر: ٢٤]

﴿ذُوقُوا۟﴾ أي: يقال لهم تقريعًا وتوبيخًا وتبكيتا وتعنيفًا، ﴿ذُوقُوا۟﴾ أي: ذوقوا وتجرعوا ﴿مَسَّ سَقَرَ﴾ أي: مس النار وإصابتها وآلامها و﴿سَقَرَ﴾ اسم من أسماء النار أعاذنا الله منها.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩].

وهذا من العذاب المعنوي لهم، المنصب على القلوب التي هي أصل مواضع الكفر والفساد منهم، فيجمع لهم بين العذاب الحسي وهو عذاب النار وسحبهم على وجوههم فيها ونحو ذلك، وبين العذاب المعنوي بالتوبيخ والتقريع لهم والتبكيت والتعنيف والإهانة والتحقير، ونحو ذلك.

والعذاب المعنوي لا يقل عن العذاب الحسي إن لم يكن أشد ـ كما يقول أهل العلم، ولهذا لو أن شخصين ارتكبا جرمًا فأحضرهما السلطان، فضرب أحدهما خمسين جلدة وأطلق سراحه، ثم أجلس الثاني عنده وأخذ يعاتبه ويوبخه، ويلحظه بعينيه بين فترة وأخرى، ويقول له: أنت أخطأت، وأنت أسأت، وأنت فعلت كذا وكذا؟ فيا ترى ما حال هذا الثاني؟ وماذا يدور في نفسه؟ لاشك أنه يتمنى أن لو ضرب مائة جلدة وأطلق سراحه مع صاحبه.

ولهذا استحب الفقهاء أن يختن الطفل في الشهور الأولى من ولادته لأن الطفل في هذه المرحلة إنما يشعر فقط بالألم الحسي فإذا سكن الألم نام، ولهذا يشفى سريعًا بإذن الله عز وجل، بخلاف الكبير فإن عنده مع الألم الحسي الألم المعنوي، وهو الخوف من بطء الشفاء، بأي سبب من الأسباب، والتفكير في ذلك، ولهذا يتأخر شفاؤه غالبًا.

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٥٧.

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَهُ بِقَدَرٍ﴾.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «جاء مشركو قريش إلى النبي ﷺ يخاصمونه في القدر، فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾»[1].

قوله ﴿إِنَّا﴾ يتكلم عز وجل عن نفسه بضمير العظمة، وهو العظيم سبحانه وتعالى مبينًا عز وجل أن كل شيء خلقه سبحانه وتعالى وأوجده. ﴿بِقَدَرٍ﴾: أي: بتقدير سابق في الأزل، مقدرًا محكمًا، فكل شيء في هذا الكون العظيم هو من خلق الله عز وجل وإيجاده، وهو بقدر مقدر من عند الله عز وجل كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢-٣]، أي: الذي خلق كل مخلوق وسوى خلقته على أحسن حال والذي قدر مقادير كل شيء وهدى كل مخلوق لما قدر له.

عن زرارة عن النبي ﷺ أنه تلا هذه الآية: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ قال: «نزلت في أناس من أمتي يكونون في آخر الزمان يكذبون بقدر الله»[2].

وهذا إن صح لا ينافي ما سبق أنها نزلت بسبب إنكار المشركين للقدر، فتكون الآية نزلت في هؤلاء وهؤلاء.

وعن عطاء بن أبي رباح رحمه الله قال: «أتيت ابن عباس، وهو ينزع من زمزم، وقد ابتلت أسافل ثيابه، فقلت له: قد تُكُلِّمَ في القدر. فقال: أوفعلوها؟ قلت: نعم قال: فوالله ما نزلت هذه الآية إلا فيهم: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ أولئك شرار هذه الأمة، فلا تعودوا مرضاهم، ولا تصلوا على موتاهم، إن رأيت أحدًا منهم فقأت عينيه بأصبعي هتين»[3].

وفي رواية: «قيل لابن عباس: إن رجلاً قدم علينا يكذب بالقدر، فقال: دلوني عليه -وهو يومئذ قد عَمِيَ- قالوا: وما تصنع به يا ابن عباس؟ قال: والذي نفسي بيده لئن استمكنت منه لأعضّن أنفه حتى أقطعه، ولئن وقعت رقبته في يدي لأدقنها،

---

(١) أخرجه مسلم في القدر - باب كل شيء بقدر ٢٦٥٦، والترمذي في تفسير سورة القمر ٢١٥٧، وابن ماجه في المقدمة - باب في القدر ٨٣، وأحمد ٢/ ٤٤٤، ٤٧٦.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٢١ - الأثر ١٨٧١٤.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٢١ - الأثر ١٨٧١٥.

فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كأني بنساء بني فهر يطفن بالخزرج، تصطك ألياتهن مشركات؛ هذا أول شرك هذه الأمة، والذي نفسي بيده لينتهين بهم سوء رأيهم حتى يخرجوا الله من أن يكون قدر خيرًا، كما أخرجوه من أن يكون قدر شرًا»[١].

قال ابن كثير[٢] في كلامه على هذه الآية ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾: «ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبل كونها، وكتابته لها قبل برئها، وردوا بهذه الآية، وبما شاكلها من الآيات، وبما ورد في معناها من الأحاديث الثابتة على الفرقة القدرية الذين نبغوا في أواخر عهد الصحابة».

والأحاديث في إثبات القدر، وذم نفاته كثيرة، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لكل أمة مجوس، ومجوس هذه الأمة، الذين يقولون: لا قدر، من مات منهم فلا تشهدوا جنازته، ومن مرض منهم فلا تعودوهم، وهم شيعة الدجال، وحق على الله أن يلحقهم بالدجال»[٣].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»[٤].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كل شيء بقدر، حتى العجز والكيس»[٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان»[٦].

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٣٠.
(٢) في «تفسيره» ٧/ ٤٥٧.
(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٨٦، وأبو داود في السنة ٤٦٩٢.
(٤) أخرجه مسلم في القدر - حجاج آدم وموسى عليهما السلام، ٢٦٥٣، والترمذي في القدر ٢١٥٦.
(٥) أخرجه مسلم في القدر - كل شيء بقدر ٢٦٥٥، وأحمد ٢/ ١١٠.
(٦) أخرجه مسلم في القدر - الأمر بالقوة وترك العجز ٢٦٦٤، وابن ماجه في المقدمة - باب في القدر ٧٩.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت رديف النبي ﷺ فقال لي: «ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك، جفت الأقلام وطويت الصحف»[(١)].

وعن الوليد بن عبادة قال: دخلت على عبادة وهو مريض، أتخايل فيه الموت، فقلت يا أبتاه، أوصني واجتهد لي، فقال: أجلسوني. فلما أجلسوه، قال: يا بني إنك لن تطعم طعم الإيمان، ولن تبلغ حقيقة العلم بالله ، حتى تؤمن بالقدر خيره وشره، قلت: يا أبتاه، وكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره؟ قال: تعلم أن ما أخطاك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك يا بني: إني سمعت رسول الله يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، ثم قال له: اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة» يا بني إن متَّ ولست على ذلك دخلت النار»[(٢)].

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع يشهد أن لا إله إلا الله، واني رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالموت، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر خيره وشره»[(٣)].

قال ابن القيم[(٤)]: «والمخاصمون في القدر نوعان: أحدهما من يبطل أمر الله ونهيه بقضائه وقدره كالذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [النحل:٤٨][(٥)]، والثاني: من ينكر قضاءه وقدره السابق[(٦)].

والطائفتان خصماء لله قال عوف: «من كذب بالقدر فقد كذب بالإسلام، إن الله تبارك وتعالى قدر أقدارًا، وخلق الخلق بقدر، وقسم الآجال بقدر، وقسم الأرزاق

(١) اخرجه أحمد ١/ ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٧.
(٢) اخرجه أحمد ٥/ ٣١٧، والترمذي في أبواب القدر ٢١٥٥، وفي التفسير ٣٣١٩ وقال: «حديث حسن صحيح غريب».
(٣) اخرجه الترمذي في أبواب القدر ٢١٤٥، وابن ماجه في المقدمة ـ باب في القدر ٨١.
(٤) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣١٦.
(٥) وهؤلاء هم الجبرية.
(٦) وهؤلاء هم القدرية.

بقدر، وقسم البلاء بقدر، وقسم العافية بقدر، وأمر ونهى» وقال الإمام أحمد: «القدر قدرة الله». قال ابن القيم: فإن إنكار القدر إنكار لقدرة الرب على خلق أعمال العباد وكتابتها وتقديرها، وسلف القدرية ينكرون علمه بها وهم الذين اتفق السلف على تكفيرهم. وفي تفسير على بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨] قال: الذين يقولون إن الله على كل شيء قدير»[١].

فالقدر سر الله في خلقه، لم يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل، فلا يمكن أن يحصل في الكون حركة ولا سكون إلا بتقدير الله ـ عز وجل ـ لذلك أزلاً كما دلت على ذلك هذه الآيات والأحاديث وغيرها من نصوص الكتاب والسنة.

فعن علي رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ في جنازة، فأخذ شيئًا، فجعل ينكت به الأرض فقال: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار، ومقعده من الجنة» فقالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة، فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل]»[٢].

وقد حكى الشاعر هذا المعنى بقوله:

ولو كانت الأخلاق تحوي وراثة ... ولو كانت الآراء لا تتشعب

لأصبح كل الناس قد ضمهم هوى ... كما كان كل الناس قد ضمهم أب

ولكنها الأقدار كل ميسر ... لما هو مخلوق له ومقرب

فمن طلب الخير وبحث عنه وُفق إليه، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:٣١].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ١٣٢- وفيه «الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير».
(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٤٩، ومسلم في القدر ٢٦٤٧، وأبو داود في السنة ٤٦٩٤، والترمذي في القدر ٣٣٤٤، وابن ماجه في المقدمة ٧٨.

فاتبع الرسول الله ﷺ، وكن من المتقين المحسنين المقسطين الصابرين المتوكلين التوابين المتطهرين يحبك الله.

قال عز وجل في الحديث القدسي: «وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه»[(١)].

ومن أحبه الله عز وجل وفقه وهداه إلى كل خير، وحفظه ووقاه من كل شر فادخل أخي الكريم على ربك بكليتك وسلم أمرك له واعبده وتوكل عليه يكفك كل شيء.

ولا يجوز الاحتجاج بالقدر على فعل المعصية، كأن يترك الإنسان فعل الواجب، أو يرتكب المنهي ثم يحتج بالقدر وقد رُوي أن سارقًا سرق في خلافة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه، فأمر عمر رضي الله عنه بقطع يده فقال السارق: يا أمير المؤمنين أنا سرقت بقضاء الله فقال عمر رضي الله: «وأنا أقطع يدك بقضاء الله» يعني: بقضاء الله الشرعي.

وأما ما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «احتج آدم وموسى فقال له موسى: أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك برسالاته وبكلامه، ثم تلومني على أمر قد قدر عليّ قبل أن أخلق. فقال رسول الله ﷺ: «فحج آدم موسى مرتين»[(٢)].

وقد وجه ابن تيمية هذا «بأن ما حصل لآدم من الأكل من الشجرة هو مصيبة له ولذريته والاحتجاج في القدر جائز في المصائب والمعائب»[(٣)].

ووجه ابن القيم الحديث بقوله: «إن الاحتجاج بالقدر بعد فعل الذنب والتوبة منه سائغ لا إشكال فيه. أما الاحتجاج بالقدر حال فعل الذنب وقبل التوبة منه فلا يجوز»[(٤)].

﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ﴾ الواو: عاطفة، و﴿ما﴾ نافية أي: ما أمرنا إذا أردنا شيئًا إلا واحدة، أي: إلا أن نأمر به مرة واحدة، أو بكلمة واحدة، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٠٢ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٤٠٩، ومسلم في القدر ٢٦٥٢، وأبو داود في السنة ٤٧٠١، والترمذي في القدر ٢١٣٤، وابن ماجه في المقدمة ٨٠.

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» ٨/١٠٨.

(٤) انظر: «شفاء العليل» ص ١٣-١٩.

﴿سُبْحَانَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [غافر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ﴾ [الأنعام:٧٣].

﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ اي: أن سرعة أمرنا ونفوذه كلمحة بصر، كما قال عز وجل في سورة النحل: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾ [الآية: ٧٧].

قال ابن كثير[1] في كلامه على الآية ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾: «وهذا إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقه، كما أخبر بنفوذ قدره فيهم، فقال: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ اي: إنما امرنا بالشيء مرة واحدة، لا نحتاج إلى تأكيد ثانية، فيكون ذلك الذي نامر به حاصلاً موجودًا كلمح البصر لا يتاخر طرفة عين».

وفي الآية إشارة إلى قدرة الله عز وجل التامة على البعث وقرب ذلك.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ الواو: للاستئناف، واللام: للقسم، أي: والله لقد اهلكنا اشياعكم، اي: اهلكنا بالعذاب وأنواع العقوبات، أمثالكم واشباهكم في الكفر، وأسلافكم من المكذبين للرسل.

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ اي: فهل من متذكر ومتعظ ومعتبر بما حصل لأولئك الأقوام من العذاب والعقوبات، والاستفهام بمعنى الأمر، أي: اتعظوا واعتبروا بما حصل لهم واحذروا أن يصيبكم ما أصابهم، قال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ﴾ [سبأ: ٥٤].

﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ اي: كل شيء فعلوه، وكذا كل قول قالوه هم ومن سبقهم أيًا كان فكل ذلك مكتوب عليهم ﴿فِى ٱلزُّبُرِ﴾ اي: في اللوح المحفوظ قبل أن يعملوه، وفي الصحف التي بأيدي الملائكة بعد أن عملوه للجزاء عليه.

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ اي: كل صغير وكبير من الأفعال والأقوال وغير ذلك مسطور مكتوب في تلك الصحف قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ﴾ [الكهف : ٤٩].

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٦١.

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لها: «يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب فإن لها من الله طالبًا»[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار»[2].

قال الشاعر:

خل الذنوب صغيرها ... وكبيرها فهو التقى

كن مثل ماش فوق أر ... ض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة ... إن الجبال من الحصى[3]

وقال الآخر:

لا تحقرن من الذنوب صغيرها ... إن الصغير غدًا يعود كبيرا

إن الصغير ولو تقادم عهده ... عند الإله مسطرٌ تسطيرا

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾.

بعدما ذكر الله عز وجل ما أعده للمكذبين الضالين من العذاب الحسي والمعنوي في السعير والنار ذكر ما أعده للمتقين في الجنات من النعيم الحسي والمعنوي.

قوله ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ إخبار من الله عز وجل ووعد منه لا يتخلف أن المتقين الذين اتقوا ربهم بفعل أوامره واجتناب نواهيه في جنات و(جنات): جمع جنة، وهي جنات عدن التي أعدها عز وجل لأوليائه، وسميت جنات لكثرة ما فيها من الأشجار، وأنواع الثمار، فهي تجن، أي: تستر من بداخلها، لكثرة أشجارها وثمارها الملتفة.

﴿وَنَهَرٍ﴾ أي: أنهار، لأن أنهار الجنة متعددة ومتنوعة، قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد:١٥] والمعنى: أنهم يتنعمون بداخل هذه الجنات بألوان النعيم ويشربون من هذه الأنهار ويتمتعون برؤيتها، وغير ذلك.

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي: في مكان ومجلس ومقام ﴿صِدْقٍ﴾، ليس فيه كذب لا في

---

(١) أخرجه أحمد ٦/ ١٥١، وابن ماجه في الزهد ـ ذكر الذنوب ٤٢٤٣.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٦/ ٦٥١، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٣/ ٩٣٤ ـ الأثر ٥٢١٦.

(٣) الأبيات لابن المعتز انظر «ديوانه» ٢/ ٣٧٦ ـ تحقيق محمد بديع شريف ـ دار المعارف بمصر.

الخبر عنه، ولا في وصفه بل كله حق، مقام رضىً وكرامة وسرور، كما قال عز وجل ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس:٢].

لا يسمعون فيه إلا ما يسرهم، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٦] وقال تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ [النبأ: ٣٥].

قال ابن القيم[١]: «فسمى جنته مقعد مصدق لحصول كل ما يراد من المقعد الحسن فيها كما يقال: مودة صادقة، إذا كانت ثابتة تامة، وحلاوة صادقة، وحملة صادقة، ومنه الكلام الصدق، لحصول مقصوده منه، وموضع هذه اللفظة في كلامهم الصحة والكمال، ومنه الصدق في الحديث والصدق في العمل، والصدِّيق الذي يصدق قوله بالعمل، ومنه الصداقة لصفاء المودة والمخالة، ومنه قدم صدق، ولسان صدق[٢]، ومدخل صدق، ومخرج صدق[٣]، وذلك كله للحق الثابت الذي يرغب فيه بخلاف الكذب الباطل الذي لا شيء تحته».

وقال ابن كثير[٤]: «وقوله ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي: في دار كرامة الله ورضوانه وفضله وامتنانه وجوده وإحسانه».

﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أي: عند المليك العظيم المالك لكل شيء الخالق لكل شيء المدبر له، المقتدر على إعطاء أهل الجنة كل ما يريدون، وتحقيق كل ما يطلبون وعلى كل شيء سبحانه وتعالى، كما قال عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ في مواضع كثيرة من القرآن الكريم.

وفي الآية ما يدل على أن المتقين ضيوف عنده عز وجل، وهو المليك العظيم ملك الملوك، الخالق المدبر، المقتدر على كل شيء، الكريم الجواد، من له خزائن السموات والأرض، فأكرم بها من ضيافة. نسأل الله تعالى أن يحشرنا في زمرة عباده المتقين إنه أكرم الأكرمين وأجود الأجودين.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣١٧.

(٢) كما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام، أنه قال: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الشعراء:٨٤]، وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم:٥٠].

(٣) كما قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء:٨٠]، وكما قال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف:١٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ [يونس:٩٣].

(٤) في «تفسيره» ٧/ ٤٦٢.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»[1].

فيجمع لهم بين النعيم الحسي من مأكل ومشرب وملبس ومسكن وأزواج وغير ذلك، وبين النعيم المعنوي، نعيم القلب وأعظم ذلك كله النظر إلى وجهه الكريم كما قال عز وجل: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[يونس: ٢٦] وفسر النبي ﷺ «الحسنى» بالجنة، الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم[2] ـ نسأل الله تعالى من فضله.

الفوائد والعبر:

١ ـ أن المجرمين في ضلال وتيه عن الحق في دنياهم ومآلهم إلى النار في أخراهم يسحبون فيها على وجوههم ويجمع لهم فيها بين العذاب الحسي والعذاب المعنوي.

٢ ـ إثبات قدر الله السابق، وأن الله ـ عز وجل ـ قدر مقادير كل شيء وهدى كل مخلوق لما قدر له.

٣ ـ كمال قدرة الله ـ عز وجل ـ وإرادته، فإذا أراد شيئاً قال له كن فيكون.

٤ ـ الإشارة إلى قدرة الله ـ عز وجل ـ على البعث وقرب ذلك.

٥ ـ التهديد والوعيد للمكذبين بتذكيرهم بإهلاك أمثالهم من المكذبين قبلهم ليتعظوا ولكن هيهات.

٦ ـ أن كل شيء من أفعال وأقوال الخلق وغير ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ قبل أن يعملوه، ومكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة بعد أن عملوه للجزاء عليه.

٧ ـ التحذير من الذنوب كبيرها وصغيرها.

٨ ـ جمع القرآن بين الترغيب والترهيب.

٩ ـ الإشارة إلى عظم ما أعده الله ـ عز وجل ـ للمتقين من النعيم الحسي والمعنوي في الجنات والأنهار ومقعد الصدق جوار المليك المقتدر.

١٠ ـ الترغيب في تقوى الله ـ عز وجل ـ.

١١ ـ إثبات ملك الله ـ عز وجل ـ التام، وقدرته العظيمة.

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة ـ فضل الإمام العادل ١٨٢٧، والنسائي في آداب القضاة ـ فضل الحاكم العادل في حكمه ٥٣٧٩، وأحمد ٢/ ١٦٠.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٢/ ١٥٨، ١٦١، ١٦٢ ـ من حديث أبي موسى، ومن حديث كعب بن عجرة، ومن حديث أبي بن كعب رضي الله عنهم. وانظر «تفسير ابن كثير» ٤/ ١٩٩.

تفسير سورة الرحمن

عن زر بن حبيش أن رجلاً قال لابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «كيف تعرف هذا الحرف ﴿مَّآءٍ غَيْرِ ياسن﴾ أم (آسن)؟ فقال: كل القرآن قد قرأت. قال: إني لأقرأ المفصل أجمع في ركعة واحدة، فقال: أهذّ الشعر، لا أبالك؟ قد علمت قرائن رسول الله ـ ﷺ ـ التي كان يقرن قرينتين قرينتين من أول المفصل، وكان أول مفصّل ابن مسعود (الرحمن)»(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾.

قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ الرحمن: اسم من أسماء الله عز وجل، بل هو ثاني اسم من أسماء الله عز وجل وأفضله قال عز وجل: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحب أسمائكم إلى الله: عبد الله وعبد الرحمن»(٢).

و«الرَّحْمَنُ» على وزن «فعلان» يدل على سعة رحمته عز وجل، وهو أبلغ من «الرحيم»؛ ولهذا قُدّم عليه في البسملة وفي الفاتحة، وفي قوله: ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣، الحشر: ٢٢].

وبين «الرحمن» و«الرحيم» عموم وخصوص فـ«الرحمن» أخص من جهة إطلاقه فلا يطلق إلا على الله عز وجل، و«الرحيم» يطلق على غير الله، كما قال عز وجل في صفة الرسول ﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ

---

(١) اخرجه احمد ١/ ٤١٢.
(٢) اخرجه مسلم في البّر والصّلة والآداب ٢١٣٢، وابو داود في الأدب ٤٩٤٩، والترمذي في الأدب ٢٨٣٣، ٢٨٣٤، وابن ماجه في الأدب ٣٧٢٨.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

و«الرحمن» و«الرحيم» إذا انفرد كل منهما عن الآخر دلَّ كل منهما على إثبات صفة الرحمة لله عز وجل صفة ذاتية ثابتة له سبحانه، وعلى إثبات صفة الرحمة الفعلية التي يوصلها عز وجل من شاء من خلقه كما قال سبحانه وتعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

كما يدل كل منهما في حال انفراده على إثبات صفة الرحمة العامة لله عز وجل بجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم، ناطقهم وبهيمهم في الدنيا والآخرة، وعلى إثبات صفة الرحمة الخاصة بالمؤمنين في الدنيا والآخرة، فرحمة الله لغير المؤمنين من الكفار والبهائم في الدنيا ما هم فيه من النعم، وفي الآخرة العدل في حسابهم حتى إنه ليقتص للشاة الجمّاء من الشاة القرناء(١)، ورحمة الله الخاصة بالمؤمنين في الدنيا هدايتهم للطريق المستقيم مع سائر النعم، وفي الآخرة إدخالهم الجنة دار النعيم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣، الحج: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣].

أما إذا اجتمع «الرحمن» و«الرحيم» كما في البسملة والفاتحة وغير ذلك فإن «الرحمن» يدل على إثبات صفة الرحمة الذاتية الثابتة لله عز وجل، و«الرحيم» يدل على إثبات صفة الرحمة الفعلية لله عز وجل.

كما يدل «الرحمن» في حال اجتماعهما على إثبات صفة الرحمة العامة لجميع الخلق المؤمن والكافر، والناطق والبهيم في الدنيا والآخرة، ويدل: «الرحيم» على إثبات صفة الرحمة الخاصة بالمؤمنين في الدنيا والآخرة كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وقد افتتح الله عز وجل هذه السورة باسمه «الرحمن»؛ لأن كل ما ذكر الله عز وجل فيها هو من نعم الله عز وجل، التي هي من آثار رحمته سبحانه وتعالى، بل كل ما خلق الله من النعم، وكل ما دفع من النقم هو من آثار رحمته عز وجل.

---

(١) كما في حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء» أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٢، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٢٠.

﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ اي: علَّم سبحانه العباد القرآن، الفاظه، ومعانيه، واحكامه، وكيفية العمل به، كما قال عز وجل للرسول ﷺ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦-١٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨].

وصدَّر - عز وجل - نعمه على الخلق بقوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾؛ لأن تعليم القرآن أعظم نعمة أنعم الله بها على الخلق إذ بسبب ذلك يعرف الإنسان الحق ويتبعه بإذن الله عز وجل فيكون ممن أنعم الله عليهم النعمة الكبرى، وهي أعظم رحمة رحم الله عز وجل بها الخلق، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فَعِلْمُ كتاب الله - عز وجل - هو أجل العلوم وأعظمها وأشملها، بل هو أصل العلوم كلها، وبه سعادة الإنسان في دينه ودنياه وآخرته.

ومع أن نعمة الخلق سابقة على نعمة تعليم القرآن، فإن نعمة تعليم القرآن لا يعادلها نعمة، بل هي أعظم وأكبر النعم، وهي النعمة الحقة، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ [النساء: ٦٩]. وقال تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

فالنعمة الكبرى والمنة العظمى على العبد أن يوفق لمعرفة الحق والعمل به؛ للعلم النافع والعمل الصالح، فلا يضيره ما فقد من النعم سوى ذلك، ومن فقد هذه النعمة فلا ينفعه سواها من النعم ولو حيزت له الدنيا بحذافيرها فانتبه لهذا، وفقك الله.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ اي: اوجد الإنسان وانشاه من العدم، كما قال عز وجل: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]. اي: قد اتى عليه ﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾، بل كان عدمًا، وقال تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٧].

واصل الخلق التقدير، ثم الإيجاد والإنشاء والمراد بـ (الإنسان): جنس الإنسان، وذلك بخلق آدم وإيجاده من التراب والطين قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢].

فمن أكبر نعم الله على الإنسان أن الله خلقه وأوجده من العدم، وجعل صورته على أحسن صورة كما قال عز وجل: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين: ٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦-٨].

وقدَّم - عز وجل - ذكر الإنسان، وخصه بالذكر هنا مع أنه عز وجل خلق جميع المخلوقات تذكيرًا له بنعم الله عز وجل عليه، لأنه هو المكلَّف.

﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ أي: علمه الإفصاح والإبانة عما في نفسه وقلبه بواسطة النطق باللسان، أو الكتابة باليد والبنان، وأيضا علمه تَبيُّن وفهم ما يقال له بما أعطاه الله من سمع وعقل وفهم، بخلاف سائر الحيوانات فإنها لا تفصح ولا تبين عما في نفسها؛ ولهذا سميت بهيمة كما قيل:

بهيمة مسكينة تشكو ولا تُبينُ
لسانها مقطوع ولا لها دموع

ولا شك بأن نعمة النطق من أعظم نعم الله عز وجل على الإنسان، ويعرف ذلك حقيقة المعرفة الأبكم الذي فقد هذه النعمة، فتراه يعمل كل وسيلة للتعبير عما في نفسه ولكن هيهات، وكما قيل: «الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى» فلله الحمد والمنة على هذه النعمة وعلى سائر النعم.

وقيل المراد بـ (البيان) في الآية: بيان الخير والشر، أي: بيان طريق الخير والشر، كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

وقد حسَّن ابن كثير[1] القول الأول وقواه، وقال: «لأن السياق في تعليمه تعالى القرآن وهو أداء تلاوته، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق وتسهيل خروج الحروف من مواضعها من الحلق واللسان والشفتين، على اختلاف مخارجها وأنواعها».

وأيضًا فإنه لا تنافي بين القولين؛ لأن تعليم القرآن والإبانة بنطقه فيه بيان الخير والشر.

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٦٤.

قال ابن القيم[1] في كلام له على قوله ـ تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝﴾ قال: «دلت هذه الكلمات على إعطائه سبحانه مراتب الوجود بأسرها، فقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ إخبار عن الإيجاد الخارجي العيني، وقوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ إخبار عن إعطاء الوجود العلمي الذهني، فإنما تعلم الإنسان القرآن بتعليمه، كما أنه صار إنسانًا بخلقه، فهو الذي خلقه وعلمه، ثم قال: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ والبيان هنا يتناول مراتب ثلاثاً كل منها يسمى بيانًا، أحدها: البيان الذهني الذي يميز فيه بين المعلومات. الثاني: البيان اللفظي الذي يعبر به عن تلك المعلومات، ويترجم عنها فيه لغيره. الثالث: البيان الرسمي الخطي، الذي يرسم به تلك الألفاظ، فيتبين للناظر معانيها، كما يتبين للسامع معاني الألفاظ. فهذا بيان للعين، وذاك بيان للسمع، والأول بيان للقلب، وكثيراً ما يجمع سبحانه بين هذه الثلاثة، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝﴾ [النحل: ٧٨]. ويذم من عدم الانتفاع بها في اكتساب الهدى والعلم النافع، كقوله: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٨]، وقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ﴾ [البقرة: ٧]».

﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أي: أن من نعم الله عز وجل على الخلق أن خلق سبحانه الشمس والقمر وجعلهما يجريان متعاقبين ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ أي: بحساب دقيق متقن مقدر مقنن لا يختلف ولا يضطرب، كما قال عز وجل: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، وقال عز وجل: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

وإن المتأمل في بروج الشمس والقمر، وفي مطالعهما وفي مغاربهما وما هي عليه من الدقة العجيبة المتناهية التي تحير العقول والألباب يرجع من ذلك بالاعتراف والإقرار بعظمة الخالق سبحانه وتعالى وعظيم فضله ونعمه على العباد، لما في ذلك من

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٢١ ـ ٣٢٢.

قيام مصالحهم، في أبدانهم ومواشيهم، وزروعهم وحروثهم، ومعرفتهم عدد السنين والحساب، وغير ذلك من المنافع التي لا تُحصى.

﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ الواو: عاطفة و«النجم»: جنس النجوم والكواكب التي في السماء، و«الشجر»: ما قام على ساق من النباتات كالنخيل وغيرها وقد يشمل سائر النباتات، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ١٨]، فذكر النجوم التي هي الكواكب، وعطف عليها الشجر وهذا يقوي أن المراد بالنجم في قوله: «والنجم» الذي في السماء.

وقد روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أن المراد بالنجم: «ما انبسط على وجه الأرض من النبات»[1]، فيكون على هذا المراد بالنجم: ما انبسط على وجه الأرض من النبات مما ليس له ساق، والمراد بالشجر: ما له ساق وبه قال جمع من المفسرين.

والمراد بسجود النجم والشجر: ما يشمل انقيادهما لله عز وجل فيما خُلقا له من مصالح عباده وغير ذلك، ودلالتهما على وجوده وقدرته التامة، وكماله في ذاته وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وسجودهما سجوداً حقيقياً، وتسبيحهما بحمده وإن كنا لا نعقل كيفية ذلك، كما قال عز وجل: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النور: ٤١]، فكل المخلوقات تسجد لله - عز وجل - وتسبحه وتعبده؛ إنسها وجنها، ناطقها وبهيمها حتى الجمادات عدا كثير من الناس، كما قال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ ثم استثنى فقال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨].

أي: وكثير من الناس حق عليه العذاب فلم يسجد لله سجود طاعة وإيمان.

فيا سبحان الله، جميع المخلوقات تسجد لخالقها حتى البهيم منها والجماد - مع أنها لم تكلف ولا عقل لها ولا إدراك ما عدا كثير من الناس، مع ما مَنَّ الله به عليهم

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ١٧٤.

من العقل والإدراك والتفضيل على سائر المخلوقات.

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ اي: والسماء رفعها فجعلها سقف المخلوقات الأرضية، كما قال عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد:٢]، فهي مرفوعة بغير عمد، وقيل: بعمد لا تُرى. وقال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾ [النازعات: ٢٧].

﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ الميزان في الأصل أداة الوزن والعدل الحسي، كما قال أبو طالب(١):

بميزان عدل لا يُخيس شعيرة   له شاهد من نفسه غير عائل

ومعنى قوله: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ اي: أقام العدل وأوجبه بين العباد في الأقوال والأفعال وبسطه وأنزله، كما قال عز وجل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥].

﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾ اي: لئلا تطغوا في الميزان، والطغيان: الزيادة وتجاوز الحد، أي: لئلا تزيدوا وتتجاوزوا الحق والعدل في الوزن.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ اي: اقيموا الوزن بالعدل، أي: اجعلوا الوزن بينكم قائمًا بالعدل بلا اعوجاج في ذلك حسب مقدرتكم وإمكانكم في الأمور الحسية والمعنوية، في الأقوال والأفعال فيما لكم وفيما عليكم.

فهو عز وجل وضع العدل وأنزله، وبه خلق السموات والأرض، وأقام عليه أمر الدنيا والآخرة، وأمر به وأوجب على الناس القيام به، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾ [الأنعام:١٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ [الشعراء: ١٨٢]، وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل:٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا

---

(١) في قصيدته اللامية المشهورة والتي أخبر فيها اشراف قومه وغيرهم انه غير مُسْلِم رسول الله ﷺ، ولا تاركه لشيء ابدًا، حتى يهلك دونه والتي مطلعها:

ولما رأيت القوم لا ود فيهم   وقد قطعوا كل العرى والوسائل

انظر «جامع البيان» ٦/ ٣٧٧ ـ ٣٧٨، «السيرة النبوية» لابن هشام ١/ ٢٩١ ـ ٢٩٩.

تَعۡدِلُواْ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [المائدة: ٨].

﴿وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾ أي: ولا تنقصوا الوزن وتبخسوا الميزان، فتجوروا وتظلموا، بل زنوا بالحق والقسط والعدل كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ۝٨٥﴾ [هود: ٨٥].

وما أصعب العدل والإنصاف من النفس إلا على من وفقه الله عز وجل.

وكم من حقوق ضاعت؛ بسبب الظلم والخروج عن العدل، وبسبب المداهنة في قول الحق والشهادة به، وكم من مدعٍ للدين والتقوى والورع ممن يُهمهم بقوله بلسانه: يا الله التوبة ولكنه لا ينصف الناس من نفسه ولا يرضى بالعدل ولا يقبله على نفسه ولا على أقاربه وذويه ومن تربطه بهم علاقات مادية أو غيرها، وليس الدين بالتحلي، ولا بالتمني، ولا بالهمهمة، ولكنه ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال، كما قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ : «ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل»[1].

ولقد وصل الحال بالكثيرين أن يعتبروا التحايل على الحقوق وترك العدل والإنصاف مهارة وحنكة ودهاء، فإذا ما رأوا إنسانًا يقول الحق وينصف الناس من نفسه انتقدوه ورموه بالمسكنة وخفة العقل.

﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ﴾ أي: أنزلها بالنسبة للسماء، ومهدها وفرشها وبسطها وذللها، وأرساها بالجبال الراسيات؛ لأجل الأنام وهم الخلائق ليعيشوا عليها ويستخرجوا من خيراتها ويسلكوا سبلها، كما قال عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ۝١٥﴾ [الملك: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ۝١٩ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا﴾ [نوح: ١٩-٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨].

وهذا من أعظم نعم الله عز وجل على الخلق أن جعل الأرض بهذه المثابة موطأة

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٨٤.

سهلة للجلوس والبناء والسير عليها وحرثها وزراعتها واستخراج خيراتها ومعادنها.

﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ أي: في الأرض فاكهة، أي جنس الفاكهة على اختلاف أنواعها وأشكالها وألوانها وطعومها وروائحها من العنب والتين والرمان والبرتقال والتفاح وغير ذلك.

والفاكهة: هي كل ما يتفكه به الناس، والتفكه: الإعجاب بالشيء والسرور والتلذذ به، وطيب النفس والبال، وما ينشأ عنه من المرح ونعيم القلب.

﴿وَٱلنَّخْلُ﴾ أي: وفيها شجر النخل التي ثمرها من أطيب وأنفع الثمار، وخصه بالذكر مع أنه مما يتفكه به لكثرة فوائده ونفعه، رطبًا ويابسًا. ولهذا قال ﷺ: «إن من الشجر شجرة مثلها مثل المؤمن النخلة»(١).

﴿ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ الأكمام: جمع «كِمْ»، والمراد بها: أوعية الطلع، وهو ما يسمى بـ(الكفر) أو (الكافور)، يخرج الطلع أول ما يخرج بداخل هذا الوعاء، ثم ينشق هذا الوعاء عن الطلع ويلقح، ثم يأخذ بالنمو شيئًا فشيئًا فيكون بسرًا ثم رطبًا، ثم تمرًا يابسًا.

وقيل المراد (بالأكمام): الليف الذي على عنق النخلة، وحمله بعضهم على ذلك كله.

والتمر غذاء كامل فيه كل ما يحتاجه الجسم، وقد كان ﷺ يمر عليه الشهر والشهران والثلاثة، لا يوقد في بيته نار، فسئلت عائشة رضي الله عنها: ما طعامكم؟ فقالت: «الأسودان التمر والماء»(٢).

وعنها رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «يا عائشة بيت لا تمر فيه جياع أهله، يا عائشة بيت لا تمر فيه جياع أهله، أوجاع أهله، قالها مرتين أو ثلاثا»(٣).

﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾ الحب: جنس الحبوب، من القمح والشعير والذرة والأرز والدخن ونحو ذلك، وقرن الحب بالنخل؛ لأن كلاً من ثمر النخل والحبوب بأنواعها من أهم الأغذية وكل منها غذاء كامل بنفسه وقدَّم النخل ـ والله أعلم ـ لكثرة منافعه ولأن ثمره يؤكل مباشرة بلا كلفة، بخلاف الحب فيحتاج بعد استوائه

---

(١) سبق تخريجه.

(١) أخرجه البخاري في الهبة وفضلها ٢٥٦٧، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٧٢، من حديث عائشة ـ رضي الله عنها.

(٣) أخرجه مسلم في الأشربة ٢٠٤٦، وأبو داود في الأطعمة ٣٨٣١، والترمذي في الأطعمة ١٨١٥، وابن ماجه في الأطعمة ٣٣٢٧.

وحصاده إلى دياس وتطييب وطحن وعجن وخبز ونحو ذلك.

والعصف: التبن الذي يتحصل من ورق الزرع وقشره وسيقانه بعد يبسه وحصاده، وبعد أن تطأه البهائم وتدوسه بأقدامها حتى ينعصف فيصير قطعاً صغيرة، أو بعد أن يعصف بالآلات الحديثة.

﴿وَٱلرَّيۡحَانُ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿والريحانِ﴾ بالجر عطفًا على (العصف) وقرأ الباقون بالضم.

﴿وَٱلرَّيۡحَانُ﴾ أي: النبات ذو الرائحة الطيبة الزكية، وقيل: هو خضر الزرع، وقيل: هو الرزق والطعام.

والذي يظهر من السياق ـ والله أعلم ـ أن المراد بـ (الريحان): هو النبت ذو الرائحة الطيبة، كما قال الحسن: «وهو ريحانكم هذا»[1].

ولما ذكر عز وجل جملة من نعمه التي تشاهد بالأبصار والبصائر، وكان الخطاب للثقلين الجن والإنس قررهما تعالى بنعمه فقال:

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، و«بأي»: استفهام معناه التحدي، و(آلاء) أي: نعم قال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ [النجم: ٥٥].

وقد دلت النصوص من الكتاب والسنة على أن الجن مكلفون كالإنس، كقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وعلى هذا أجمع اهل العلم[2]، لكن قال بعض أهل العلم: لا يلزم أن يكون الجن مكلفين بكل ما كلف به الإنس بالنسبة لفروع الشريعة.

﴿تُكَذِّبَانِ﴾ التكذيب: اعتقاد أن الشيء المذكور أو المقول خلاف الواقع، والتكذيب بالنعم بمعنى كفرها وعدم شكرها، ونسبتها إلى غير مسديها.

والمعنى: فبأي نعمة من نعم ربكما أيها الثقلان تكذبان، أي: لا تستطيعان

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ١٨٧.

(٢) وقد عقد البخاري في كتاب بدء الخلق من صحيحه باباً في ذكر الجن وثوابهم وعقابهم. انظر «فتح الباري» ٦/ ٣٩٥، وانظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٢٢، ٣٢٩ ـ ٣٣٧، «تفسير ابن كثير» ٧/ ٤٧٧.

التكذيب بنعمة من نعمه عز وجل عليكما، بنفي كونها من عنده سبحانه وتعالى، أي: أن نعمه عز وجل ظاهرة عليكم وأنتم مغمورون بها، ولا تستطيعون إنكارها ولا جحودها وصدق الله العظيم: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]. ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨].

وعن عروة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ قال: «ذكرت الطيرة عند النبي ﷺ، فقال: «أحسنها الفال، ولا ترد مسلماً، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك»[(١)].

وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ عليهم سورة «الرحمن» من أولها إلى آخرها فسكتوا فقال: «لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردوداً منكم، كنت كلما أتيت على قوله ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد»[(٢)].

وكان ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يقول: «لا. بأيها يارب»[(٣)] أي: لا نكذب بشيء منها.

قال ابن كثير [(٤)]: «فنحن نقول كما قالت الجن المؤمنون: اللهم ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد».

وقال السعدي [(٥)]: «وهكذا ينبغي للعبد إذا تليت عليه نعم الله وآلاؤه أن يقر بها ويشكر ويحمد الله عليها».

ويذكر ـ عز وجل ـ في هذه السورة العظيمة بالعديد من نعمه على الثقلين في الدنيا والآخرة، مردفاً ذلك بالتحدي بعدم إمكانية التكذيب بشيء من هذه النعم بقوله ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وذلك تذكير للجن والإنس بنعمه عز وجل وامتنان بها عليهما، وحث لهما على شكره ـ عز وجل ـ على هذه النعم بنسبتها إليه وحده واستعمالها في

---

(١) أخرجه أبو داود في الطب ٣٩١٩.

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الرحمن ٣٢٩١، وأخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ١٩٠ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ١٨٩ ـ ١٩١.

(٤) في «تفسيره» ٧/ ٤٦٦.

(٥) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٢٤٨.

طاعته، والاستعانة بها على فعل أوامره وترك نواهيه، وتكريمها وعدم إهانتها.

وفي هذا التذكير من الله عز وجل للثقلين بنعمه ووجوب شكرها أعظم الفائدة لمن أنار الله بصيرته ووفقه في دينه وهدى قلبه فعظَّم ربه، وقدَّر نعمه، فرجع بالإكبار والتعظيم لربه - عز وجل - ولنعمه مردداً عند كل آية من هذه الآيات قوله: ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد.

وقد قال ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها»[1].

الفوائد والعبر:

١ - إثبات اسم الله - عز وجل - «الرحمن» وما تضمنه من إثبات صفة الرحمة الذاتية والفعلية لله - عز وجل - والرحمة العامة والرحمة الخاصة.

٢ - أن كل ما يتمتع به الخلق من النعم هو من آثار رحمة الله عز وجل.

٣ - أن أعظم نعمة أنعم الله بها على الخلق إنزال القرآن وتعليمه.

٤ - أن من أعظم نعم الله على الإنسان خلقه وتعليمه البيان والإفصاح عما في نفسه، وبيان طريق الحق له.

٥ - تمام قدرة الله - عز وجل - وعظيم نعمه على عباده في إيجاد الشمس والقمر، وجريانهما بحساب دقيق، وخلق النجوم والأشجار، ورفع السماء، وانقياد هذه المخلوقات لأمر الله - عز وجل - وما فيها من مصالح العباد.

٦ - وجوب العدل في الأقوال والأعمال، والوزن بالقسط، وتحريم الزيادة في ذلك والنقصان، لأن الله عز وجل أمر به وأقام عليه أمر السموات والأرض وأمر الدنيا والآخرة.

٧ - نعمة الله - عز وجل - على الخلق ببسط الأرض لهم وإخراج خيراتها لهم من الفواكه والنخل والحبوب والريحان وغير ذلك.

٨ - تقرير الثقلين الإنس والجن بنعم الله - عز وجل - العظيمة عليهما التي لا يستطيعان تكذيبها وإنكارها.

٩ - أن الجن مخاطبون بالقرآن كالإنس.

١٠ - إثبات ربوبية الله العامة للثقلين.

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر ٢٧٣٤، والترمذي في الأطعمة ١٨١٦ من حديث أنس رضي الله عنه.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾.

أي: أن من نعمه عز وجل على الثقلين إيجادهما وإنشاؤهما من العدم، وذلك بإيجاد آدم أبي الإنس ﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾ أي: من طين مبلول قد أحكم بله وأتقن حتى جف فصار له صلصلة وصوت ﴿كَٱلْفَخَّارِ﴾ أي: يشبه صوت الفخار وهو الطين المشوي كما قال عز وجل ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١].

وإيجاد إبليس أبي الجن ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ أي: من لهب صاف لا دخان فيه. وفرقٌ ما بين عنصر الآدمي المخلوق من الطين والتراب الذي هو محل الرزانة والثقل والمنافع وبين عنصر الجان، وهو النار التي هي محل الخفة والطيش والشر والفساد.

عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»[(١)].

ونعمة الخلق من أفضل وأعظم النعم، ولهذا قال بعد ذكرها ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: فلا يمكن التكذيب بنعمة الخلق، وأن الخالق هو الله عز وجل وحده، ولا بغيرها من النعم قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور: ٣٥].

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ «رب» بمعنى خالق ومالك ومدبر و (المشرقين والمغربين) هما مشرقا الشمس ومغرباها في الشتاء والصيف، ففي الشتاء تشرق الشمس من أقصى الجنوب وفي الصيف من أقصى الشمال. وأيضا مشرقا القمر والنجوم ومغرباهما.

قال ابن القيم[(٢)]: «وحيث ثنيا كان المراد مشرقي صعودها وهبوطها أو مغربيهما،

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد ـ باب في أحاديث متفرقة ٢٩٩٦، وأحمد ٦/ ١٦٨.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٢٤.

فإنها تبتدئ صاعدة حتى تنتهي إلى غاية أوجها وارتفاعها، فهذا مشرق صعودها، وينشأ منه فصلا الخريف والشتاء. فجعل مشرق صعودها بجملته مشرقاً واحداً ومشرق هبوطها بجملته مشرقاً واحداً ويقابلهما مغرباها».

وجمع المشارق في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠] باعتبار اختلاف مشارق الشمس ومغاربها وتنقلها كل يوم في هذه البروج وهي متعددة لأنها تشرق كل يوم وتغرب من غير المكان الذي أشرقت وغربت منه بالأمس.

وقال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ [المزمل: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾ [البقرة: ١١٥] والمراد هنا جهة وأفق المشرق والمغرب.

وجاء في هذه السورة سورة الرحمن بالتثنية ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾ لأن سياق هذه السورة سياق المثاني المزدوجات في كثير من آياتها كما في قوله ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ﴿١٥﴾﴾ إلى أن قال: ﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ﴿١٩﴾﴾ إلى غير ذلك من ذكر الشيء وما يقابله في كثير من آيات هذه السورة إلى آخرها.

واختلاف المشارق والمغارب من أعظم نعم الله عز وجل وأكبرها لما يترتب على ذلك من اختلاف الفصول من حر إلى برد إلى اعتدال، وما في ذلك من مصالح الخلق الجن والإنس والحيوان والنبات وغير ذلك ولهذا قال بعده ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ أي: أجراهما وأرسلهما في مجاريهما، وهما العذب الحلو كمياه الآبار والأنهار والعيون. والملح المر كمياه البحار والمحيطات، قال عز وجل: ﴿۞وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾ [الفرقان: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ﴾ [فاطر: ١٢].

﴿يَلۡتَقِيَانِ﴾ أي: يلتقي أحدهما بالآخر، وقيل يتجاوران.

﴿بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ﴾ كقوله في سورة الفرقان ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴿٥٣﴾﴾ [الآية: ٥٣].

والبرزخ: الحاجز، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ﴾[النمل: ٦١]، وهو ما يفصل بين الشيئين، ومنه البرزخ بين الدنيا والآخرة.

والمعنى: بين هذين البحرين العذب والملح حاجز من اليابس من الأرض، أو حاجز من قدرة الله عز وجل غير مرئي للبشر، كما يوجد في بعض المواضع اختلاط العذب والملح في مجرى واحد، ولا يمتزج أحدهما بالآخر.

وقد ذكر الشنقيطي رحمه الله أن هذا محقق الوقوع في بعض البلاد، ومن المواضع التي هو واقع فيها محل اختلاط نهر السنغال بالمحيط الأطلسي بجانب مدينة سانلويس، فقد ذكر الشنقيطي أنه زار هذه المدينة سنة ١٣٦٦هـ وأن أحد المرافقين الثقات أخبره أنه جاء إلى محل اختلاطهما، وأنه جلس يغرف بإحدى يديه عذباً فراتاً، وبالأخرى ملحاً أجاجاً، والجميع في مجرى واحد، لا يختلط أحدهما بالآخر[1].

﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ أي: لا يبغي أحدهما على الآخر، ولا يطغى عليه، فيزيل صفته المقصودة منه مع التقائهما، بل يبقى كل منهما على صفته وخاصيته ومنافعه. فالعذب منه يشرب الناس ويسقون أشجارهم وزروعهم وحروثهم، والملح به يطيب الهواء ويتولد الحوت والسمك، واللؤلؤ والمرجان، ويكون مستقراً مسخراً للسفن والمراكب.

فمع كثرة الماء في الأرض، وكون نسبة اليابس إلى الماء أقل من الربع، ومع كثرة المياه المالحة، وهي مياه البحار والمحيطات لا يطغى الماء على اليابس، ولا يطغى الملح على العذب، ولا يختلط العذب بالملح بما جعله الله عز وجل بينهما من هذا الحاجز، سواء كان من اليابس من الأرض، أو من قدرة الله عز وجل، والكل من قدرة الله عز وجل، ولهذا فإننا نشاهد اختلاف مياه الآبار مع استوائها في العمق وتقاربها بحيث لا يبعد بعضها عن بعض إلا بضعة أمتار وبعضها عذب، وبعضها ملح، فسبحان العليم القدير.

وفي إيجاد هذين البحرين العذب والملح، وتسخيرهما لجريان الفلك، وما يستخرج منهما من المياه والحيوان والحلية والمعادن وغير ذلك من المنافع، وعدم اختلاط أحدهما بالآخر، مع التقائهما، ليبقى كل منهما على خاصيته ومنافعه، كل ذلك فيه دلالة على عظم قدرة الله عز وجل، ومن أعظم نعمه عز وجل على الثقلين ولهذا قال بعده: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

---

(١) انظر «أضواء البيان» ٦/ ٣٣٨ – ٣٣٩.

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ قرأ بعض القراء (يُخرَج) بضم الياء وفتح الراء، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الراء.

﴿مِنْهُمَا﴾ أي: من البحرين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: ١٢].

وظاهر قوله ﴿مِنْهُمَا﴾ بالتثنية، وقوله في الآية الثانية ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ يدل على أن اللؤلؤ والمرجان والحلية تستخرج من البحرين العذب والمالح.

وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن الحلية إنما تستخرج من المالح دون العذب.

قال ابن كثير[1]: «وقوله ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ أي من مجموعهما، فإذا وجد ذلك لأحدهما كفى كما قال تعالى ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، والرسل إنما كانوا في الإنس خاصة دون الجن، وقد صح هذا الإطلاق».

وهذا التعبير ـ وإن كان موجوداً في القرآن الكريم وفي لغة العرب ـ فإن الأولى حمل التثنية في الآيتين على ظاهرها وبخاصة إذا تحقق استخراج الحلية من العذب كما ذكر بعض أهل العلم.

قال الشنقيطي[2]: «اعلم أن جماعة من أهل العلم قالوا: إن المراد بقوله في هذه الآية ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ أي: من مجموعهما الصادق بالبحر الملح، وأن الآية من إطلاق المجموع وإرادة بعضه، وأن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من البحر الملح وحده دون العذب وهذا القول الذي قالوه في هذه الآية مع كثرتهم وجلالتهم لاشك في بطلانه لأن الله صرح بنقيضه في سورة فاطر، ولا شك أن كل ما ناقض القرآن فهو باطل، وذلك في قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [الآية: ١٢]، فالتنوين في قوله ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ تنوين عوض، أي: من كل من العذب والملح ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٦٨.

(٢) في «أضواء البيان» ٧/ ٧٤٨، وانظر ٢/ ٢١١.

طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وهي اللؤلؤ والمرجان وهذا مما لا نزاع فيه»[١].

وبهذا نعلم أن الجمهور رحمهم الله حملوا الآية على المعنى الذي اختاروه، لما ثبت عندهم واشتهر وعرف من أن الحلية إنما تستخرج من الملح دون العذب، فقالوا بما علموا، وحملوا الآية على تقدير وارد في القرآن وفي لغة العرب، لكن إن ثبت استخراج الحلية من العذب فإن الأولى حمل التثنية في الآيتين على ظاهرها.

وقد قيل: إن «من» في قوله ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ للسببية، أي: يخرج بسببهما اللؤلؤ والمرجان، وذلك أن الماء العذب كاللقاح للماء الملح في إخراج اللؤلؤ، كما يتولد الولد من الذكر والأنثى، ولهذا يوجد اللؤلؤ حيث مصبات الأنهار في البحار.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إذا أمطرت السماء، فتحت الأصداف في البحر أفواهها، فما وقع فيها من قطر فهو اللؤلؤ»[٢].

واللؤلؤ: الدر، والمرجان: الخرز الأحمر، وقال بعضهم: المرجان: صغار الدر، واللؤلؤ: كباره.

قال ابن كثير[٣]: «ولما كان اتخاذ هذه الحلية نعمة على أهل الأرض امتن الله بها عليهم فقال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿وَلَهُ الْجَوَارِ﴾ أي: وله عز وجل السفن الجارية.

﴿الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ﴾ قرأ حمزة (المنشِآت) بكسر الشين، وقرأ الباقون بفتحها.

والمنشآت: جمع منشأة، وهي المرفوعات الشرع، التي أنشأها صانعوها وأصحابها لركوب البحر، والتي تنشأ وتجري في البحر وتمخر عبابه مقبلة ومدبرة، منتقلة في البحر من جانب إلى آخر ومن ساحل إلى آخر.

---

(١) وقد علق ابن الشنقيطي على كلام والده هنا بما يزيده بما نقله عن دائرة المعارف المصرية في عددها ٧٣ صفحة ٥٣٧ ما نصه: «وأنواع المحار كلها قد تنتج اللؤلؤ، ولكنه يوجد غالباً في أنواع معينة منها، فلقد عثر مثلاً على لآلئ رائعة الجمال في محار المياه العذبة الذي يعيش في بريطانيا، وخاصة أنهار «ويلز»، و«اسكتلندا» وأشهر لؤلؤة منها عثر عليها في نهر «كونواي» في القرن السابع عشر، أهداها أحد نبلاء الإنجليز إلى الملكة «كاترين» زوجة «شارل الثاني». وما زالت محفوظة ضمن مجوهرات التاج البريطاني في برج لندن، ولا يزال الأهالي يقتنون المحار عند مصب هذا النهر..»
انظر «أضواء البيان» ٧/ ٧٤٨ - ٧٤٩ الحاشية.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٢٠٨ - ٢٠٩، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٢٤ الأثران ١٨٧٣٣، ١٨٧٣٤، وقال ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٤٦٩: «إسناده صحيح».

(٣) في «تفسيره» ٧/ ٤٦٩.

﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ الأعلام: جمع علم، وهو الجبل، فالأعلام الجبال، قالت الخنساء في رثاء أخيها صخر:

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار [١]

والمعنى: أن هذه السفن في كبرها وعظمتها كالجبال، وقيل كالقصور.

وهذا أمر يشاهده الناظر من بعد إلى هذه السفن الكبيرة، وهي تجري في البحر مقبلة أو مبحرة، أو راسية.

وفي جريان هذه السفن على ظهر البحر مع عظمها وكبرها، وما تحمله من الناس والحيوان والبضائع، مما فيه صلاح أحوال الناس ومعاشهم من النعم العظيمة ما لا يخفى كما قال تعالى ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ [لقمان: ٣١]، ولهذا قال هنا ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

الفوائد والعبر:

١ ـ تمام قدرة الله ـ عز وجل ـ في خلق الإنس والجن مع اختلاف عنصريهما، وتقريرهما بنعمة الله عليهما في ذلك.

٢ ـ إكرام الله ـ عز وجل ـ للإنس بجعل عنصر خلقهم وأصله من الطين والتراب الذي يفضل مارج النار الذي خلق منه الجن.

٣ ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ للمشرقين والمغربين والإشارة لقدرة الله ـ عز وجل ـ ونعمه فيهما لما في اختلافهما من المنافع، وتقرير الثقلين بذلك.

٤ ـ قدرة الله ـ عز وجل ـ العظيمة في إيجاد البحرين العذب والمالح وتسخيرهما ومنع اختلاطهما، وما فيهما من المنافع وتقرير الثقلين بذلك.

٥ ـ نعمة الله ـ عز وجل ـ في إخراج اللؤلؤ والمرجان من البحار حلية للناس يلبسونها.

٦ ـ عظم قدرة الله ـ عز وجل ـ وتمام نعمته في جعل السفن الكبيرة تجري على ظهر الماء وما في ذلك من المنافع التي لا تحصى، وتقرير الثقلين بذلك.

٧ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ العامة للثقلين.

---

(١) انظر «ديوان الخنساء» ص٤٠.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ «من» اسم موصول، والضمير في «عليها»، يعود إلى الأرض، وقد سبق ذكرها في قوله ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾﴾.

قال ابن القيم[1]: «ولم يقل «فيها» لأن عند الفناء ليس الحال حال القرار والتمكين».

والمعنى: كل الذي على الأرض وعلى وجه هذه البسيطة ﴿فَانٍ﴾ أي: هالك ميت ذاهب زائل من الإنس والجن، وسائر الدواب والمخلوقات، حتى السموات والأرض والجبال، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾[إبراهيم: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾[طه: ١٠٥ ـ ١٠٧].

قال ابن كثير [2]: «يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون، وكذلك أهل السموات إلا من شاء الله».

كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى مخاطباً الرسول ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] وفي الحديث: «أتاني جبريل فقال: يا محمد عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه»[3].

قال لبيد[4]:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل ... وكل نعيم لا محالة زائل

وقال الآخر:

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته ... يبقى الإله ويفنى المال والولد

وقال الآخر:

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٢٤.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٤٦٩.

(٣) أخرجه من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه الشيرازي في «الألقاب»، والحاكم في المستدرك، والبيهقي في «شعب الإيمان» وأخرجه أيضاً البيهقي في الشعب عن جابر رضي الله عنه، وأخرجه أبو نعيم في الحلية عن علي رضي الله عنه. وصححه السيوطي، انظر «الجامع الصغير» ٨٩.

(٤) انظر «ديوانه» ص ٢٥٦.

تعز فلا شيء على الأرض باقيا ... ولا وزر مما قضى الله واقيا [(١)]

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أي: ويبقى وجه ربك يا محمد ورب جميع المخاطبين ورب جميع المخلوقات سبحانه وتعالى وهو الحي الذي لا يموت، كما قال عز وجل: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، وقال عز وجل: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥، آل عمران: ٢]. وفي الدعاء: «ياذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم» [(٢)].

وفي الآية دليل على إثبات الوجه لله عز وجل كما يليق بجلاله وكماله، وعلى أن البقاء له عز وجل وحده، فالمراد ببقاء وجهه عز وجل بقاؤه سبحانه بذاته وجميع صفاته، وإنما يعبر بالوجه لشرفه.

قال الشعبي: «إذا قرأت: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ فلا تسكت حتى تقرأ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾» [(٣)].

﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ «ذو» بمعنى: صاحب، و«الجلال» العظمة والكبرياء.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾: ذو العظمة والكبرياء» [(٤)].

وقد قال عز وجل في الحديث القدسي: «العظمة إزاري والكبرياء ردائي» [(٥)] قال ابن تيمية [(٦)]: «فجعل الكبرياء بمنزلة الرداء، وهو أعلى من الإزار».

﴿وَالْإِكْرَامِ﴾ الفضل التام والجود الواسع، والعطاء الجزيل، الخاص بأوليائه، والعام لجميع الخلق، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ

---

(١) البيت بلا نسبة في «أوضح المسالك» ١/ ٢٨٩، «شرح الأشموني» ١/ ٢٤٧.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٤٩٥، والنسائي في السهو ١٣٠٠، والترمذي في الدعوات ٣٥٤٤، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٥٨ من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) انظر «تفسير ابن كثير» ٧/ ٤٦٩.

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٢٧٨.

(٥) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٢٠، وأبو داود في اللباس ٤٠٩٠، وابن ماجه في الزهد ٤١٧٤ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه وأخرجه مسلم أيضاً من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه.

(٦) في «مجموع الفتاوى» ٥/ ٥٦.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]. وهو عز وجل يُكرم ويجود ويتفضل، ويُكرَم بتعظيمه وطاعته، كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾[المدثر: ٥٦] أي: أهل أن يُتقى وأهل أن يغفر.

قال ابن كثير[1]: «وقد نعت تعالى وجهه الكريم في هذه الآية الكريمة بأنه ﴿ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٢٧﴾ أي: هو أهل أن يجل فلا يعصى، وأن يطاع فلا يخالف، كقوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾ [الكهف: ٢٨]، وكقوله إخباراً عن المتصدقين: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩]».

وفي تساوي أهل الأرض وغيرهم من المخلوقات بالفناء واختصاصه عز وجل بالبقاء والعظمة والكبرياء والجود وواسع العطاء نِعَمٌ من وجوه عدة، منها: المساواة بين الخلق بحيث لا يفلت أحد منهم من هذا الفناء، ولا يتميز أحد عن أحد في هذا، وهذا غاية العدل.

ومنها أن موت الكثيرين وفناءهم راحة لهم من شقاء الحياة وما فيها من المظالم وبخاصة المؤمنين وفي الأثر: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[2].

ومنها: أن في فناء أهل الأرض ومصيرهم إلى الله والدار الآخرة نعمة عظيمة ليحكم فيهم ذو الجلال والإكرام بحكمه العدل ويجازي كلاً بما عمل كما قال عز وجل: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]. حتى إنه في ذلك اليوم ليقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء[3] وهذا من أعظم النعم أن ترد الحقوق إلى أصحابها ويقتص للمظلومين من الظالمين ويجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ولهذا قال هنا ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي: يسأل الله عز وجل من في السموات والأرض من المخلوقات سؤال عبادة وتذلل، وسؤال حاجة وافتقار، وغير ذلك مما يدل على غناه عز وجل عن خلقه وحاجة كل الخلق وافتقارهم إليه سبحانه كما قال عز وجل ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ [النساء: ٣٢].

و«من» في قوله: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ موصولة بمعنى «الذي» تفيد العموم، أي:

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٦٩.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقاق ٢٩٥٦، والترمذي في الزهد ٢٣٢٤، وابن ماجه في الزهد ٤١١٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه.

يسأله عز وجل كل من في السموات والأرض من الملائكة كما قال تعالى عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾[غافر: ٧]، ومن الإنس والجن حتى الكفار، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[لقمان: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[العنكبوت: ٦٥]، ومن الحيوانات وسائر المخلوقات بلسان الحال، أو بلسان المقال، أو بهما جميعاً، كل حسب حاله وحسب ما أعطاه الله عز وجل من القدرة على السؤال وألهمه، كما قال عز وجل: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وقال عز وجل في التسبيح: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾. الشان: الأمر، أي: أنه عز وجل في تدبير ملكه العظيم كل يوم هو في شان وأمر.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ قال: «من شانه: أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً، ويرفع قوماً ويضع آخرين»[1].

فهو سبحانه وتعالى كل يوم هو في شان، ولا يشغله سبحانه شان عن شان يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين ويجيب داعياً ويعطي سائلاً ويشفي مريضاً، ويغيث ملهوفاً ويفك أسيراً، ويطعم جائعاً، ويسقي ظمآن، ويهدي ضالاً، ويرحم ميتاً ويرد غائباً ويقبل تائباً، وينصر مظلوماً ويقهر ظالماً يعز من يشاء، ويذل من يشاء، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة باب فيما أنكرت الجهمية ٢٠٢. وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٢٥، الأثر ١٨٧٣٧، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٢١٤ من حديث عبد الله بن منيب الأزدي عن أبيه. وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٤٧٠ من رواية ابن جرير وابن أبي حاتم، ونسب حديث أبي الدرداء لابن عساكر من طرق متعددة. وقد ذكره البخاري في تفسير سورة الرحمن معلقاً بصيغة الجزم عن أبي الدرداء ورواه البزار مختصراً من حديث ابن عمر. انظر «تفسير ابن كثير» ٧/ ٤٧١، «فتح الباري» ٨/ ٦٢٠.

قال ابن القيم[1]: «يغفر ذنباً ويفرج كرباً، ويكشف غماً، وينصر مظلوماً، ويأخذ ظالماً ويفك عانياً، ويغني فقيراً، ويجبر كسيراً، ويشفي مريضاً، ويقيل عثرة، ويستر عورة، ويعز ذليلاً، ويذل عزيزاً، ويعطي سائلاً، ويذهب بدولة ويأتي بأخرى، ويداول الأيام بين الناس، ويرفع أقواماً ويضع آخرين، يسوق المقادير التي قدرها قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف عام إلى مواقيتها، فلا يتقدم شيء منها عن وقته ولا يتأخر، بل كل منها قد أحصاه كما أحصى كتابه، وجرى به قلمه ونفذ فيه حكمه، وسبق به علمه، فهو المتصرف في الممالك كلها وحده، تصرف ملك قادر قاهر عادل رحيم تام الملك، لا ينازعه في ملكه منازع، ولا يعارضه فيه معارض فتصرفه في المملكة دائر بين العدل والإحسان والحكمة والمصلحة والرحمة فلا يخرج تصرفه عن ذلك».

وقال أيضاً: «يغفر ذنباً ويفرج هماً، ويكشف كرباً، ويجبر كسيراً، ويغني فقيراً، ويعلم جاهلاً، ويهدي ضالاً، ويرشد حيران، ويغيث لهفان، ويفك عانياً، ويشبع جائعاً، ويكسو عارياً، ويشفي مريضاً، ويعافي مُبتلى، ويقبل تائباً، ويجزي محسناً، وينصر مظلوماً، ويقصم جباراً، ويقيل عثرة، ويستر عورة، ويؤمن روعة، ويرفع أقواماً، ويضع آخرين، لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، ويمينه ملأى، لا تغيضها نفقة، سحّاء الليل والنهار، أرأيتم ماذا أنفق منذ خلق الخلق فإنه لم يغض ما في يمينه».

وتكفله - عز وجل - بحاجة جميع المخلوقات وإجابة أسئلتهم وقيامه على شؤونهم من أعظم النعم التي يستحق عليها الشكر والحمد، ولهذا قال بعده: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

الفوائد والعبر:

١ - فناء كل من على وجه الأرض والبسيطة وجميع المخلوقات وبقاء الرب - عز وجل.

٢ - إثبات الوجه والذات لله - عز وجل - على ما يليق بجلاله وعظمته، وربوبيته الخاصة لنبيه ﷺ.

٣ - اتصاف الله - عز وجل - بالعظمة والكبرياء والجود الواسع والفضل التام.

٤ - في المساواة بين الخلائق بالفناء وتفرده عز وجل بالبقاء والعظمة والكبرياء والجود وواسع العطاء نعمة على الثقلين لهذا قررهما فيها.

٥ - توجه جميع الخلق بالسؤال إلى الله - عز وجل - وتكفله بحوائجهم لا يشغله شأن عن شأن وتقرير الثقلين بذلك.

٦ - إثبات ربوبية الله - عز وجل - العامة للثقلين.

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٢٤ - ٣٢٧.

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالياء (سيفرغ لكم) وقرأ الباقون بالنون.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ قال: «وعيد من الله للعباد، وليس بالله شغل، وهو فارغ»[1].

وقال البخاري[2]: «سنحاسبكم، لا يشغله شيء عن شيء، وهو معروف في كلام العرب، يقال: «لأتفرغن لك» وما به شغل، يقول: «لآخذنك على غرتك».

﴿أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾: أي: يا أيها الثقلان.

و«الثقلان»: هما الجن والإنس، كما صرح بهما في قوله بعد ذلك ﴿يَٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾.

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال في عذاب القبر «فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين» وفي رواية: «إلا الإنس والجن»[3] وهما المخاطبان في قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

والمعنى: سنقصد لحسابكم أيها الثقلان، أي: أن حسابكما قد اقترب وسيجازى كل منكما بما عمل وهذا من أكبر النعم أن يجزى كل بما عمل، وينتصف للمظلوم من الظالم وترد الحقوق إلى أهلها، ولهذا قال بعده ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ويؤخذ من الآية أن الجن مأمورون منهيون محاسبون على أعمالهم.

﴿يَٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ «يا» حرف نداء، و«المعشر» بمعنى: الجماعة والقوم والرهط و«الجن» هم نسل إبليس لعنه الله، والإنس: هم نسل آدم عليه السلام.

قوله: ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾ أي: إن كان باستطاعتكم وقدرتكم وإمكانكم ﴿أَن تَنفُذُوا مِنْ

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٢١٦، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٢٥ – الأثر ١٨٧٣٨.

(٢) في صحيحه في تفسير سورة الرحمن انظر «فتح الباري» ٨/ ٦٢١.

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز ـ الميت يسمع خفق النعال، وفي ما جاء في عذاب القبر ١٣٣٨، ومسلم في صفة الجنة ٢٨٧٠، وأبو داود في الجنائز ٣٢٣١، والنسائي في الجنائز ٢٠٥١، وأحمد ٣/ ٤.

أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ النفوذ من الشيء بمعنى اختراقه والخروج منه و ﴿أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ جوانبهما.

والمعنى: يا معشر الجن والإنس إن كان باستطاعتكم الخروج من أقطار السموات والأرض فراراً وهروباً من عذاب الله تعالى يوم القيامة فتعجزوه فلا يقدر على عذابكم فافعلوا، وهيهات لكم ذلك ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ وانى لكم ذلك فما فوق سلطان الله سلطان.

وسياق الآيات ولحاقها يؤيد هذا القول وهو تحديهم أن يهربوا أو يفروا من عذاب الله في الآخرة، فقوله قبله ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ أي: سنفرغ لحسابكم في الآخرة، وقوله بعده ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ فهذا في الآخرة وعموم الخطاب في قوله ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ (٣٣)﴾ يدل على أن هذا إنما يكون إذا جمعهم الله بصعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر.

ويحتمل أن المعنى: إن استطعتم أن تخرجوا عن قهر الله ومحل حكمه وسلطانه ومملكته يعني في الدنيا فافعلوا وهيهات لكم ذلك فالخلق خلقه والملك ملكه والأمر أمره.

أو أن المعنى: إن استطعتم أن تهربوا من الموت فافعلوا وهيهات لكم ذلك فهو مدرككم كما قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

أو أن المعنى: إن استطعتم أن تنفذوا بعلمكم أقطار السموات والأرض فتعلموا ما فيهما فافعلوا وهيهات لكم ذلك.

والمعنى الأول أظهر وعليه يدل سياق الآيات وعليه أكثر المفسرين.

لكن من المعلوم أن المعاني الأخرى كلها ليست باستطاعتهم فهم لا يستطيعون الخروج والهروب عن ملك الله وسلطانه وحكمه الكوني والجزائي في الدنيا والآخرة وقضائه، ومن ذلك الموت، كما لا يستطيعون الاطلاع على ما في السموات والأرض لقصور علمهم.

﴿فَٱنفُذُواْ﴾ أي: إن استطعتم ذلك، وليس ذلك بمقدوركم ولهذا قال: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ «لا» نافية، أي: لا يمكن أن تنفذوا ﴿إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ و«إلا» أداة حصر أي: إلا بسلطان وقوة تمكنكم من ذلك، وأنى لكم ذلك، فالسلطان والقهر والملك والحكم لله

وحده.

قال ابن كثير[1]: «أي: لا تستطيعون هرباً من أمر الله وقدره، بل هو محيط بكم، لا تقدرون على التخلص من حكمه، ولا النفوذ عن حكمه فيكم أينما ذهبتم أحيط بكم، وهذا في مقام الحشر، الملائكة محدقة بالخلائق سبع صفوف من كل جانب فلا يقدر أحد على الذهاب ﴿إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ إلا بأمر الله».

وقال السعدي [2]: «أي: لا تخرجون منه إلا بقوة، وتسلط منكم، وكمال قدرة، وأنى لهم ذلك وهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة، ولا نشوراً».

والمعنى: أنه لا مفر لهم ولا خلاص من عذاب الله تعالى، قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ٧-١٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ﴾ [يونس: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ﴾ [هود: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾ [ق]، وقال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣].

فلا مفر ولا محيد ولا محيص من قدر الله وحكمه وجزائه، ولا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه، فالخلق خلقه، والملك ملكه، والتدبير كله بيده، ومرد الخلق كلهم إليه وكما قيل:

أين المفر والإله الطالب [3] ....

وفي انقياد جميع الخلق لقدره عز وجل وحكمه الكوني والجزائي وهو سبحانه الحكم العدل نعمة من الله عز وجل على الخلق ولهذا قال بعده: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ أي: يرسل عليكما أيها الثقلان،

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٧٢.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٢٥٢.

(٣) هذا صدر بيت لنفيل بن حبيب، وهو بتمامه:

أين المفر والإله الطالب ... والأشرم المغلوب ليس الغالب

انظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٥٠٦.

الإنس والجن ﴿شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾.

قرأ ابن كثير (شِواظ) بكسر الشين، وقرأ الباقون بضمها. والشواظ: لهب النار الذي يتقطع منها لا دخان فيه. ﴿وَنُحَاسٌ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسر السين عطفا على «نار» وقرأ الباقون بضمها عطفاً على ﴿شُوَاظٌ﴾ والنحاس: الصفر المذاب، أو الدخان الذي لا لهب فيه قال النابغة الجعدي:

يضيء كضوء سراج السليـ ... ـط لم يجعل الله فيه نحاسا

أي: لم يجعل الله فيه دخانا[1].

﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ أي: فلا تستطيعان الانتصار بأنفسكما، ولا بغيركما.

قال ابن كثير[2]: «والمعنى: لو ذهبتم هاربين يوم القيامة لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال اللهب من النار والنحاس المذاب عليكم لترجعوا».

وفي هذا الوعيد بإرسال شواظ من نار ونحاس على من هو أهل لذلك من الثقلين، وهم المكذبون الظالمون إحقاق للحق وإبطال للباطل وانتصار للمظلومين من الظالمين، كما أن في ذلك ما يحمل على سلوك الطريق المستقيم لمن وفقه الله والبعد عن طريق أهل الجحيم، وفي هذا وذاك نعمة من الله عز وجل على الثقلين، ولهذا قال بعده ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

الفوائد والعبر:

١ ـ الوعيد والتحذير للإنس والجن من قرب حسابهما ومجازاة كل منهما بما عمل وتقريرهما بذلك.

٢ ـ أن الجن مأمورون منهيون محاسبون على أعمالهم كالإنس.

٣ ـ تحدي الثقلين الجن والإنس أن يهربوا من عذاب الله وقضائه وحكمه الكوني، وضعفهما، وانقياد جميع الخلق لحكمه، وهو الحَكَم العدل.

٤ ـ الوعيد والتهديد للمكذبين من الثقلين بإرسال لهب النار والرصاص المذاب عليهما مما لا يستطيعان له دفعاً لا بأنفسهما ولا بغيرهما، وفي ذلك إحقاق للحق، وحمل على سلوك الطريق المستقيم، وهذا من نعم الله على الخلق لهذا قررهما فيها.

٥ ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ العامة للثقلين.

---

(١) انظر «مجاز القرآن» ٢/ ٢٤٤، «لسان العرب» مادة «نحس».

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٤٧٣.

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ الفاء استئنافية، و«إذا» ظرفية بمعنى «حين» والمراد بالسماء سقف هذا الكون الأرضي الذي كان محفوظاً من ذي قبل كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢] ومعنى انشقاق السماء: انفطارها وتصدعها يوم القيامة بعد أن كانت محبوكة سليمة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ [الذاريات: ٧]، وقال تعالى: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾ أي: من شقوق أو صدوع في السموات.

لكن دوام الحال من المحال فالسموات وهي من أعظم المخلوقات يعتريها من امر الله ـ عز وجل ـ ومن أهوال القيامة ما يعتريها، فتتشقق وتتصدع وتتفطر، قال عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٦]، وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق:١]، وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١].

﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ الفاء عاطفة. أي: فكانت تشبه الوردة في الحمرة ﴿كَٱلدِّهَانِ﴾ كدهن الزيت في الذوبان، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾﴾ والمهل: دردي الزيت، أو الفضة المذابة.

قال ابن كثير [1]: «أي: تذوب كما يذوب الدردي والفضة في السبك، وتلون كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها فتارة حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء، وذلك من شدة الأمر وهول يوم القيامة».

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «يبعث الناس يوم القيامة والسماء تطش عليهم» [2].

وإذا كانت السماء وهي من أعظم المخلوقات يعتريها ما يعتريها من أهوال

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٧٣، ٤٧٤.
(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٢٦٦ – ٢٦٧.

القيامة كغيرها من سائر المخلوقات فإن في هذا ظهور نعمة الله - عز وجل - من وجوه: منها تساوي جميع المخلوقات أمام قدرة الله عز وجل وعدم بقاء شيء منها على حال، وأن دوام الحال من المحال لأي مخلوق كان، كما أن في تذكير الله عز وجل للثقلين بهذا نعمة من الله عز وجل عليهم، ولهذا قال بعده ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فيوم وقوع تلك العلامات والأهوال وهو يوم القيامة ﴿لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ اي لا يسأل عن ذنوبه، فالمراد بذنبه جنس الذنوب، وفي إضافة الذنب إلى الإنس والجن دليل على أن الجن مكلفون كالإنس.

والمعنى: ففي ذلك اليوم وهو يوم القيامة لا يسأل احد من الخلق من الإنس أو الجن سؤال استخبار واستعلام عن ذنوبه، وما ارتكبه من الآثام لعدم الحاجة إلى ذلك، لأن الله عز وجل لا تخفى عليه خافية من أعمال العباد، وكل ذلك عنده مسطر مكتوب، كما قال عز وجل: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٤].

فعلى هذا المعنى وفي هذه الحال لا يُسأل أحد عن ذنبه كما قال عز وجل: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥-٣٦]، وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

لكنهم يسالون في حال أخرى، وبمعنى آخر وهو تقريرهم بذنوبهم، كما قال عز وجل: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٦]، وقال تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣].

فالسؤال المنفي سؤال الاستفهام والاستخبار، والسؤال المثبت هو سؤال التقرير

والتبكيت فهذا في حال وذاك في حال كما أن المجرمين لهم علامات تعرفهم بها ملائكة العذاب فلا تحتاج إلى السؤال عنهم كما قال بعد هذا ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴾.

وفي إحاطة علم الله عز وجل بأعمال الخلق وكتابتها وتسطيرها وعدم الحاجة إلى سؤالهم عن أعمالهم تمهيد لإحقاق الحق والعدل بينهم وإعطاء كل ذي حق حقه ومجازاة كل منهم بما عمل إذ لو وكل ذلك إلى سؤالهم وما يجيبون به لكانوا بين مكذّبٍ أو ناسٍ أو متناسٍ كما قال تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦] ولكون هذا من نعمة الله عز وجلّ اتبعه بقوله ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي: بعلاماتهم القبيحة السيئة كاسوداد الوجوه وظلمتها وزرقة العيون. وذلك أن للمعاصي والذنوب والجرائم آثارها وعلاماتها السيئة على الوجوه والأبدان، كما أن للطاعات آثارها وهو بياض الأبدان والوجوه قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران ١٠٦].

﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ أي: فيؤخذ منهم بالنواصي والأقدام. والنواصي: جمع ناصية، وهي شعر مقدمة الرأس، أي: يجمع للواحد منهم بين ناصيته وقدميه، فتربط ناصيته بقدميه، ويلقى في النار.

وأخذ المجرم ومجازاته بما عمل من إحقاق الحق والعدل، والتذكير بذلك للخلق من نعم الله عز وجل ولهذا قال بعده ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ اظهر في مقام الإضمار فقال (التي يكذب بها المجرمون) لوصفهم بهذا الوصف، وبيان أنه سبب دخولهم جهنم ويشمل هذا كل مجرم، أي: يقال للمجرمين حين يؤخذ بنواصيهم وأقدامهم ويلقون في النار تقريعاً وتوبيخاً لهم، وتبكيتاً وتصغيراً وتحقيراً: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ امثالكم، أي يكذبون بوجودها، ها أنتم تصطلون بنارها، أو تشاهدونها عيانا كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٧] وفي الحديث: «ليس الخبر كالمعاينة»[1].

﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ يطوفون: أي: يدورون بين عذابها وعذاب ﴿حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ أي: تارة يعذبون في جهنم وتارة يسقون من الحميم كما قال تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ

(١) اخرجه أحمد ١/ ٢١٥ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢].

﴿حَمِيمٍ﴾ أي: ماء حار، ﴿ءَانٍ﴾ أي: قد بلغ الغاية في الحرارة، فلا يستطاع ولا يطاق من شدة حرارته كما قال تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٥]، أي شديدة الحرارة، وهو شراب كالنحاس المذاب يقطع الأمعاء والأحشاء.

قال ابن كثير[1]: «ولما كان معاقبة العصاة المجرمين وتنعيم المتقين من فضله ورحمته وعدله ولطفه بخلقه وكان إنذاره لهم عذابه وبأسه مما يزجرهم عما هم فيه من الشرك والمعاصي وغير ذلك قال ممتناً بذلك على بريته ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾».

الفوائد والعبر:

١ ـ أن من أهوال القيامة انشقاق السماء وذوبانها وتبدلها وتغير حالها، وفي هذه دلالة على تساوي جميع المخلوقات أمام قدرة الله ـ عز وجل ـ في تبدلها وتغيرها، وفي هذا وفي التذكير به نعمة من الله على الثقلين لهذا قررهما فيها.

٢ ـ علم الله ـ عز وجل ـ الواسع وخبرته التامة بأعمال الثقلين، فلا أحد منهم يسأل عن ذنبه لأن كل ذلك معلوم لله مسطر مكتوب، وفي هذا تمهيد لإحقاق الحق والعدل وإعطاء كل ذي حق حقه، وهذه نعمة من الله تستوجب الشكر.

٣ ـ أن للمجرمين علامات وهي سواد الوجوه وظلمتها وزرقة العيون، بها تعرفهم الملائكة فتأخذ بنواصيهم وأقدامهم وتلقيهم في النار.

٤ ـ الوعيد والتهديد للمجرمين بجهنم التي كانوا يكذبون بها يدورون بين حر لظاها وبين حميم آن. وفي هذا وما قبله إحقاق للحق وتحذير للخلق فهو من نعم الله لهذا قررهم به.

٥ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ العامة للثقلين.

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٧٥ – ٤٧٦.

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝﴾.

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ الواو استئنافية، و«من» موصولة بمعنى الذي تفيد العموم أي: وللذي خاف من الإنس والجن قيامه بين يدي ربه جنتان، أي: لكل واحد منهم جنتان، وليس معناه لمجموع الخائفين جنتان.

قال ابن القيم [1]: «فإن إحدى الجنتين جزاء أداء الأوامر والثانية جزاء اجتناب المحارم».

والمعنى: وللذي خاف القيام بين يدي ربه، خالقه ومالكه ومدبر أمره، فاتقاه بفعل أوامره واجتناب نواهيه واستقام على أمره وطاعته حتى لقي ربه، وهم المقربون، ومنهم الخليفة الراشد أبو بكر الصديق رضي الله عنه الذي قيل إن الآية نزلت فيه [2]. وهذه الآية كقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١] وكقوله: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٥١].

ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[البقرة: ٢٢٣]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾[الانشقاق: ٦].

وقيل: إن قوله: ﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾، معناه: خاف مقام الله واطلاعه عليه، ولا مانع من حمل الآية على المعنيين.

﴿جَنَّتَانِ﴾ مثنى «جنة» والجنة: مأخوذة من الاجتنان، وهو الستر، لأنها تجن أي: تستر من بداخلها بما فيها من الأشجار الملتفة والقصور وغير ذلك.

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٣٩.

(٢) انظر «جامع البيان» ٢٢/ ٢٣٥ - ٢٤٩.

قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ [الكهف: ٣٢].

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضة، آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»[١].

وروى حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن أبي بكر بن أبي موسى الأشعري عن أبيه رضي الله عنه ـ قال حماد: ولا أعلمه إلا قد رفعه ـ في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ وفي قوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ قال: «جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين»[٢].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قرأ يوماً هذه الآية: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ فقلت: وإن زنى وإن سرق؟ فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ فقلت: وإن زنى وإن سرق؟ فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ فقلت: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال: «وإن رغم أنف أبي ذر»[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»[٤].

قال ابن كثير [٥]: «وهذه الآية عامة في الإنس والجن فهي من أدل دليل على أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا واتقوا».

وفي مجازاة الله عز وجل لمن خاف مقام ربه بالجنتين تفضل من الله عز وجل وإنعام على عباده، إذ أن عمل العبد ليس عوضاً لدخول الجنة، وإنما هو مجرد سبب

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الرحمن ٤٨٧٨، ومسلم في الإيمان ـ إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى ١٨٠، والترمذي في صفة الجنة ـ ما جاء في صفة غرف الجنة ٢٦٤٨، وابن ماجه في المقدمة ـ باب فيما أنكرت الجهمية ١٨٦.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٢٣٨، والبيهقي في «البعث والنشور» ص ٢٤٢.

(٣) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» ٤/ ٢٩٦، ٢٩٧، والنسائي في «السنن الكبرى» ١١٥٦٠، ١١٥٦١ والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٢٣٧ – ٢٣٨ وروي موقوفاً على أبي الدرداء رضي الله عنه أخرجه ابن المبارك في «الزهد» «٩٢٤» والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٢٣٨، وابن حبان في «الثقات» ٤/ ٣٣٥.

(٤) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤٥٠، وقال «حديث حسن غريب».

(٥) في «تفسيره» ٧/ ٤٧٧.

فقط، ودخولها إنما هو برحمة أرحم الراحمين وفضله، كما قال ﷺ: «لن يدخل أحدَكم عملُهُ الجنة قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[1] ولهذا قال بعد هذه الآية ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ نعت ووصف للجنتين، فضمير التثنية في قوله ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ يعود إلى الجنتين، أي: صاحبتا أفنان. والأفنان: هي الأغصان ذات الألوان النضرة الجميلة الحسنة، وذات الثمار المتنوعة والمختلفة اللذيذة، وذات الأوصاف الجميلة والمزايا الحسنة والسعة وغير ذلك ولهذا قال بعد هذه الآية ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وقال السعدي[2]: «﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ أي: فيهما من ألوان النعيم المتنوعة، نعيم الظاهر والباطن، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، أي: فيهما الأشجار الكثيرة الزاهرة ذوات الغصون الناعمة، التي فيها الثمار اليانعة الكثيرة اللذيذة».

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ أي: في هتين الجنتين ﴿عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ أي: سارحتان يشربون منهما ويتمتعون برؤيتهما، وتسقيان ما في هتين الجنتين من الأشجار والأغصان فتثمر من جميع الألوان والثمار قال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦] وهتان الجنتان «إحداهما يقال لها «تسنيم»، والأخرى «سلسبيل» قال تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۞ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٧-٢٨] وقال تعالى: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٨].

وهذا من فضل الله عز وجل ونعمه، ولهذا قال بعده ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ أي: في هتين الجنتين ﴿مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ والفاكهة ما يتفكه به ويستطاب أكله ويبعث على السرور والانبساط. وكل ما في الجنة يؤكل على صفة التفكه لا بسبب الجوع.

﴿زَوْجَانِ﴾ أي: صنفان، والمعنى فيهما من كل نوع من أنواع الفاكهة صنفان من حلو وحامض وأبيض وأحمر وغير ذلك وقيل: معروف وغريب، كل صنف له لذة

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١٦، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٣٤، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٢٥٥.

ولون ليس للنوع الآخر.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ما في الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظلة»[1].

واشتمال هتين الجنتين على صنفين من جميع أنواع الفواكه نعمة من الله على ساكنيهما، ولهذا قال بعده ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ﴾ متكئين: حال والمراد: أهل الجنتين. والاتكاء: الاضطجاع، أو الجلوس على صفة التربع، وجلوس التمكن والاستقرار والراحة.

﴿عَلَىٰ فُرُشٍۭ﴾ الفرش: جمع فراش، وهو ما يفرش للجلوس أو الاضطجاع عليه.

﴿بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ﴾ البطائن: جمع بطانة، وهي داخل الفراش مما يلي الأرض سُميت بذلك لملاصقتها للفراش وعدم ظهورها، ومنه سُميت بطانة الحاكم لملاصقتهم له في مجالسه، وتفرده بالأمر ظاهرًا دونهم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُۚ﴾.

أي: لا تتخذوا المنافقين خاصة لكم تفضون إليهم بأسراركم.

والإستبرق: هو غليظ الديباج، وهذا من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى؛ أي: إذا كانت بطائن هذه الفرش ودواخلها من إستبرق فكيف بظهائرها، أو فما بالك بظهائرها التي يباشرون؟! فهي أفضل بكثير وأعلى وأحسن من بطائنها - كما هي العادة؛ لأن بطائنها للأرض وظهائرها للجمال والزينة والمباشرة والجلوس عليها.

وفي هذا دلالة على نعومة هذه الفرش وحسنها وجمالها وعظمتها، وعلى علوها، وأن لها سمكاً وحشواً بين البطانة والظهارة، وأنه لا يعلم وصفها وحسنها وظهائرها على وجه الحقيقة إلا الله عز وجل.

﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ الجنى: ما يجنى من الأشجار من الثمار «دان»: قريب إليهم، أي: أن ثمر الجنتين قريب إليهم يتناولونه كيف شاؤوا قائمين أو قاعدين أو

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٤٧٨، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» ٦/ ١٤٧. ونسبه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

مضطجعين، أو على أي حال كانوا، ومتى شاؤوا فلا يحتاج تناوله إلى كلفة منهم، ولا ينقطع عنهم في وقت من الأوقات - كما هو الحال في ثمار شجر الدنيا، قال تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤].

قال ابن كثير[1]: «أي: لا تمتنع ممن تناولها، بل تنحط إليه من أغصانها».

وهذا مما فضلت به هتان الجنتان على اللتين بعدهما، إذ لم يذكر هذا فيهما.

وفي كون أهل هتين الجنتين متكئين على هذه الفرش الوثيرة الناعمة مع قرب ثمار الجنة إليهم فضل من الله عز وجل عليهم ونعمة؛ ولهذا قال بعده: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فِيهِنَّ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ أي: في تلك الجنتين وما حوتاه من القصور والغرف والخيام، أو في تلك الفرش المذكورة في قوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾.

﴿قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي: نساء قاصرات الطرف، قصرن طرفهن على أزواجهن، وغضضن الطرف عن غيرهم، والطرف: البصر والنظر، فهن لكمال محبتهن لأزواجهن وإعجابهن بهم لا يرين أحدًا أحسن ولا أجمل منهم فلا ينظرن لغيرهم ولا يبغين بهم بديلاً وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ﴾ [الصافات: ٤٨]، وقوله: ﴿۞ وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ [ص: ٥٢].

قال ابن كثير[1]: «وقد ورد أن الواحدة منهن تقول لبعلها: والله ما أرى في الجنة شيئًا أحسن منك، ولا في الجنة شيء أحب إلي منك، فالحمد لله الذي جعلك لي وجعلني لك».

وبالمقابل فإن أزواجهن قصروا طرفهم عليهن؛ لكمال محبتهم لهن وإعجابهم بهن لا يرون أحدًا أحسن ولا أجمل منهن ولا يريدون غيرهن.

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ قرأ الكسائي هنا وفي الموضع بعده «لم يطمُثهن» بضم الميم، وقرأ الباقون بكسرها أي: لم يطأهن و لم يجامعهن ولم يغشهن ولم يفتض بكارتهن قبلهم أحد من الإنس ولا من الجن، بل هن أبكار لم تفتض بكارتهن بعد.

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٧٩.

قال ابن القيم[١]: «وهذا - والله أعلم - معناه: أنه لم يطمث نساء الإنس إنس قبلهم، ولا نساء الجن جن قبلهم».

ويحتمل أن هذه النساء من الحور العين اللاتي أنشئن في الجنة، أو من نساء الدنيا اللاتي متن أبكاراً، أو اللاتي أنشئن خلقًا آخر أبكاراً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة: ٣٥-٣٧].

قال ابن القيم[٢]: «ظاهر القرآن أن هؤلاء النسوة لسن من نساء الدنيا وإنما هن من الحور العين، أما نساء الدنيا فقد طمثهن الإنس، ونساء الجن قد طمثهن الجن، والآية تدل على ذلك».

قال أرطاة بن المنذر: «سئل حمزة بن حبيب: هل يدخل الجن الجنة؟ قال: نعم، وينكحون، للجن الجنيات وللإنس الإنسيات، وذلك قوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾»[٣].

وفي كون أزواج أهل هتين الجنتين قاصرات طرفهن على أزواجهن، لا ينظرن ولا يطمحن لغيرهم، وكونهن أبكارًا نعمة من الله عليهم، ولهذا قال بعده: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿كَأَنَّهُنَّ﴾ أي: كأن هذه النساء قاصرات الطرف في حسنهن وبياضهن وجمالهن ﴿ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾، وهما من أفضل أنواع الجواهر أي: كأنهن في صفاء ألوانهن الياقوت في صفائه. وكأنهن في بياض أجسامهن المرجان في بياضه، فهن في غاية الجمال، بيض مشربات بالحمرة مع صفاء تام وهذا مما فضلت به هتان الجنتان على اللتين بعدهما.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة حتى يرى مخها، وذلك بأن الله تعالى يقول: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾، فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكًا ثم استصفيته لرأيته من ورائه»[٤].

وروي هذا موقوفًا على ابن مسعود رضي الله عنه قال الترمذي: «وهو أصح».

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٣١.
(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٣٦.
(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٢٤٨.
(٤) أخرجه الترمذي في أبواب صفة الجنة ـ ما جاء في صفة نساء أهل الجنة ٢٥٣٢.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والتي تليها على أضوأ كوكب دُريّ في السماء، لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان، يرى مخ سوقهما من وراء اللحم، وما في الجنة أعزب».

وفي رواية: «للرجل من أهل الجنة زوجتان من الحور العين، على كل واحدة سبعون حلة، يرى مخ ساقها من وراء الثياب»[(١)].

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها، ولقاب قوس أحدكم، أو موضع قيده ـ يعني: سوطه ـ من الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملأت ما بينهما ريحًا، ولطاب ما بينهما، ولنصيفها[(٢)] على رأسها خير من الدنيا وما فيها»[(٣)].

وفي كون أزواج أهل هتين الجنتين على هذا الوصف من الحسن والبياض والجمال نعمة من الله عليهم؛ ولهذا قال بعده: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ «هل»: حرف استفهام فيه معنى النفي، أي: ما جزاء الإحسان إلا الإحسان أي: ما جزاء من أحسن في الدنيا العمل، بالإحسان في عبادة الله عز وجل إخلاصًا لله ومتابعة للرسول ﷺ، والإحسان إلى عباد الله بأداء حقوقهم، إلا الإحسان إليه في الدار الآخرة بالثواب الجزيل والأجر العظيم ورؤية الرب الجليل في الجنة، كما قال تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾، ثم قال: «هل تدرون ما قال ربكم»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «يقول: هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة»[(٤)].

وذكر «الإحسان» في الموضعين بالتعريف يدل على أنهم من أهل الإحسان المطلق الكامل، وأن جزاءهم بالإحسان الكامل، وهذا مما فضلت به هتان الجنتان على اللتين

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ـ ما جاء في صفة الجنة، وأنها مخلوقة ٣٢٤٥، ومسلم في الجنة، وصفة نعيمها ـ أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر وصفاتهم وأزواجهم ٢٨٣٤، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٣٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٣٣، وأحمد ٢/ ٣٤٥.

(٢) أي: خمارها.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٧٩٢، ومسلم في الإمارة ١٨٨٠، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٥١، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٥٧، وأحمد ٣/ ١٤١.

(٤) أخرجه البغوي في «معالم التنزيل» ٤/ ٢٧٦.

بعدهما. وفرق ما بين الإحسانين أن الإحسان من جهة العبد واجب، أما الإحسان من الله عز وجل على العبد، فهو تفضل منه سبحانه وتعالى أوجبه سبحانه على نفسه كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، والإحسان أثر من آثار رحمته عز وجل، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

قال ابن كثير[1]: «ولما كان في الذي ذكر نعم عظيمة لا يقاومها عمل، بل مجرد تفضل وامتنان قال بعد ذلك: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾».

الفوائد والعبر:

١ ـ الحث على الخوف من الله والقيام بين يديه، وعلى مراقبته بذكر ما أعده للخائفين من الثواب العظيم.

٢ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لمن خاف مقامه.

٣ ـ أن الله ـ عز وجل ـ أعد لكل من خاف مقام ربه جنتين فيهما من ألوان وأنواع النعيم أفضلها وأكملها فضلاً منه عز وجل وامتنانا.

٤ ـ عظم ما أعده الله ـ عز وجل ـ لمن خاف مقامه؛ فأفنان نضرة وثمار يانعة، وعيون جارية، وفواكه مختلفة متنوعة وفرش للجلوس وثيرة ناعمة جميلة، وثمار دانية، ونساء قصرن طرفهن عليهم لم تفتض بكارتهن، كأنهن الياقوت صفاء، والمرجان بياضاً ـ مع الثناء عليهم وتكريمهم معنوياً بوصفهم بالإحسان ـ وهذا وذاك من أعظم نعم الله عليهم ولهذا قرر الثقلين بذلك.

٥ ـ العدل في حساب الخلائق ومجازاتهم، وأن الجزاء من جنس العمل؛ فليس لمن أحسن إلا الإحسان.

٦ ـ وجوب الإحسان في عبادة الله بإخلاص العمل لله ومتابعة الرسول ﷺ، والإحسان إلى عباد الله بأداء حقوقهم.

٧ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ العامة للثقلين.

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٨٠.

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ أي: ومن دون الجنتين المذكورتين في قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ ومعنى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا﴾ أي: أقل منهما في المرتبة والفضيلة والمنزلة والدرجة ونوع النعيم، كما جاء في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»[1].

وفي رواية عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أبي بكر بن أبي موسى عن أبيه ـ قال حماد: ولا أعلمه إلا قد رفعه ـ في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾، وفي قوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ جنتان من ذهب للمقربين، أو قال: للسابقين، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين»[2].

قال ابن القيم[3]: «ولما كان الخائفون على نوعين: مقربين وأصحاب يمين ذكر جنتي المقربين ثم ذكر جنتي أصحاب اليمين».

وفي جعل أهل هذه الجنان ونعيمهم على مرتبتين ودرجتين في الفضيلة والمنزلة ونوع النعيم فضل من الله ونعمة حيث لم يساو الأعلى بمن هو دونه، ولم يحرم الأدنى؛ ولهذا قال بعده ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ أي: سوداوان من شدة الخضرة والري.

وفي كون هتين الجنتين على هذا الوصف من شدة الخضرة نعمة من الله على أهل هتين الجنتين؛ لذا قال بعده: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٣٩.

لكن يظهر الفرق واضحًا بينهما وبين الجنتين السابقتين اللتين وصفهما بقوله: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾، وهي الأغصان النضرة والثمار اللذيذة والسعة والحسن والجمال.

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ أي: في هتين الجنتين عينان فوارتان فياضتان بالماء لا تنقطعان، لكنهما لا تجريان كالأوليين قال ابن عباس: «فياضتان»[(١)]، والجري أقوى من النضخ. ووجود هتين العينين الفياضتين بالماء بلا انقطاع في هتين الجنتين نعمة من الله؛ ولهذا قال بعده: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ أي: في هتين الجنتين ﴿فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾.

قال ابن كثير[(٢)]: «فاكهة: نكرة في سياق الإثبات لا تعم، ولهذا فسَّر قوله: ﴿وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ من باب عطف الخاص على العام، كما قرره البخاري وغيره، وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشرفهما على غيرهما».

وقال السعدي[(٣)]: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ﴾ من جميع أصناف الفاكهة، وأخصها النخل والرمان اللذان فيهما من المنافع ما فيهما».

وشتان ما بين فاكهة الجنة ونخلها ورمانها مما لا يعلم حقيقة صفته إلا الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] وبين ما في الدنيا قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما: «ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء فقط»[(٤)].

ويلحظ فرق ما بين الجنتين بمقارنة هذا بقوله: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾، فهذا يعم جميع أنواع الفاكهة وأن فيهما من كل نوع منها على كثرتها وتنوعها صنفان بخلاف قوله: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ﴾ فإن هذا وإن حمل على جميع أنواع الفواكه، كما قال السعدي ـ وليس ببعيد ـ لكنه لا يدل على أن من كل نوع صنفين كما دل على ذلك قوله: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: جاء أناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ ـ فقالوا: يا محمد، أفي الجنة فاكهة؟ قال: «نعم فيها فاكهة ونخل ورمان» قالوا:

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٢٥٩، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٢٧ـ الأثر ١٨٧٥٤.
(٢) في «تفسيره» ٧/ ٤٨٢، وانظر: «جامع البيان» ٢٢/ ٢٦٠-٢٦١.
(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٢٥٨.
(٤) أخرجه أبو نعيم في صفة الجنة ـ رقم ١٢٤، وانظر مجموع الفتاوى، ٥/ ٢٥٧، ١١/ ٤٨٢.

أفيأكلون كما يأكلون في الدنيا؟ قال: «نعم، وأضعاف» قالوا: فيقضون الحوائج؟ قال: «لا، ولكنهم يعرقون ويرشحون، فيذهب الله ما في بطونهم من أذى»[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «نخل الجنة سعفها كسوة لأهل الجنة، منها مقطعاتهم ومنها حللهم، وكَرَبها ذهب احمر، وجذوعها زمرد أخضر، وثمرها أحلى من العسل، وألين من الزبد، وليس له عجم»[٢].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «نظرت إلى الجنة فإذا الرمانة من رمانها كمثل البعير المقتب»[٣].

ووجود الفاكهة والنخل والرمان بهتين الجنتين من نعم الله عز وجل على أهلهما؛ ولهذا قال بعده: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ أي: في الجنتين، وعبَّر بضمير الجمع وهما اثنتان؛ لأن أقل الجمع اثنان كما في قوله تعالى عن داود وسليمان: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨]، وقوله: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤]، وأيضًا فإن هتين الجنتين بما فيهما من ألوان الأشجار والثمار والمنازل المختلفة بمثابة جنان.

(خيرات) جمع «خيرة» مخففة من «خيِّرة» بالتشديد أي: نساء خيرات الصفات والأخلاق والشيم وقرأ بعضهم «خيِّرات» بتشديد الياء.

(حسان) أي: جميلات الوجوه والأبدان، جمع الله لهن بين جمال الخَلق والخُلق، وجمال الظاهر والباطن، ورُويَ أن الحور العين يغنين:

نحن الخيرات الحسان خلقنا لأزواج كرام

وقيل المراد بـ«خيرات» أي: خيرات كثيرة حسان في الجنة، أي: فيهن من أنواع الخير الشيء الكثير الحسن كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧].

وقال ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[٤].

---

(١) أخرجه عبد بن حميد فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٤٨٢.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٢٨، الأثر ١٨٧٥٨.

(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٤٨٢.

(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٤، ومسلم في الجنة ٢٨٢٤، والترمذي في التفسير ٣١٩٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٢٨.

ومع أن هذا المعنى صحيح، وهو أيضًا أعم من الأول، لكن الأظهر والذي يدل عليه السياق وبخاصة ما بعد هذا وهو قوله: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ يرجح أن المراد بقوله: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ النساء الصالحات حسان الأخلاق والوجوه والأبدان، وذلك من نعم الله عز وجل على أهل هذه الجنان؛ ولهذا قال بعده: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ حور: جمع حوراء، والحَوَر: سعة العين مع شدة بياضها وسوادها، وهو غاية جمالها، أي: نساء بيض واسعات الأعين.

﴿مَّقْصُورَٰتٌ﴾ أي: مخدرات مخفرات ﴿فِى ٱلْخِيَامِ﴾ الخيام: جمع خيمة، والخيمة في الأصل بيت من بيوت العرب مستدير يبنى من عيدان الشجر، والمراد بالخيام، في الآية خيام اللؤلؤ، فهن مصونات مكنونات في هذه الخيام، كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ۝ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٨-٤٩].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة، عرضها ستون ميلاً، في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمنون، جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ قال: خيام اللؤلؤ، وفي الجنة خيمة واحدة من لؤلؤة، أربعة فراسخ في أربعة فراسخ، عليها أربعة آلاف مصراع من الذهب»[٢].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «إن لكل مسلم خيرة ولكل خيرة خيمة، ولكل خيمة أربعة أبواب يدخل عليها في كل يوم من كل باب تحفة وهدية وكرامة لم تكن قبل ذلك، لا مراحات ولا طماحات، ولا بخرات، ولا ذفرات، حور عين كأنهن بيض مكنون»[٣].

ورُوِيَ عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «الخيمة لؤلؤة واحدة فيها سبعون

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/٣٣٢٨ـ الأثر ١٨٧٥٩ـ مختصرًا.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/٣٣٢٨ـ الأثر ١٨٧٦٣ـ والطبرى مختصرًا، في «جامع البيان» ٢٢/٢٦٢، ٢٦٨.

بابًا من در»[١].

وعن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أدنى أهل الجنة منزلة الذي له ثمانون ألف خادم واثنتان وسبعون زوجة، وتنصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت، كما بين الجابية وصنعاء»[٢].

ويظهر فرق ما بين الجنتين الأوليين وهتين الجنتين في هذا فهناك قال: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ بينما قال هنا: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ فمن قصرن طرفهن على أزواجهن باختيارهن لا ينظرن لغيرهم ولا يبتغين بهم بدلاً أفضل وأكمل ممن قُصِرن بغيرهن وإن كن جميعًا فاضلات.

ومن نعم الله عز وجل على أهل هتين الجنتين ما لهم فيهما من هذه النساء الجميلات المصونات المخدرات؛ ولهذا قال بعده: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ الطمث: الجماع والمعنى: لم يجامعهن ولم يطأهن قبلهم أحد من الإنس أو الجن فيزيل بكارتهن. قال الطبري[٣]: «لم يمسهن إنس قبلهم بنكاح فيدميهن ولا جان».

وهذا الوصف تشترك فيه نساء أهل هتين الجنتين، مع نساء أهل الجنتين قبلهما لكنه زاد في وصف نساء الجنتين الأوليين بقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ ولما كان من نعم الله على أهل هذه الجنان أن أزواجهم أبكار قال بعده: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾: حال، أي: مضطجعين، أو جالسين على هيئة التربع والاتكاء.

﴿عَلَىٰ رَفْرَفٍ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الرفرف: المحابس»[٤] وهي جمع محبس وهو ما يبسط على وجه الفرش العالية للاضطجاع والجلوس عليه براحة، أو غير ذلك من الوسائد والمساند وغيرها مما يتخذ للجلوس والاضطجاع.

﴿خُضْرٍ﴾ لونها أخضر، وهو أنسب ما يكون من الألوان للنظر، وأبهجها للقلب.

﴿وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ﴾ العبقري في الأصل الجيد القوي من كل شيء حتى من الناس، كما في قوله ﷺ: «أُريت كأني أنزع بدلو بكرة على قليب، فجاء أبو بكر فنزع ذنوباً أو ذنوبين، فنزع

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٤٨٣.

(٢) أخرجه الترمذي في أبواب صفة الجنة ـ ما جاء ما لأدنى أهل الجنة من الكرامة ٢٥٦٢.

(٣) في «جامع البيان» ٢٢/ ٢٧٢.

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٢٧٤.

نزعاً ضعيفاً، والله تبارك وتعالى يغفر له، ثم جاء عمر فاستقى، فاستحالت غرباً، فلم أرعبقريا من الناس يفري فريه، حتى روي الناس، وضربوا العطن»[١] ومعنى «يفري فريه» أي: ينزع مثل نزعه من قوته ـ رضي الله عنه.

والمراد بقوله (وعبقري حسان): البسط والزرابي الجياد المخملة، والديباج الرقيق وغير ذلك مما يرتفق به ويتكأ عليه.

وقال السعدى[٢]: «العبقرية نسبة لكل منسوج نسجًا حسنًا فاخرًا؛ ولهذا وصفها بالحسن الشامل لحسن الصفة والمنظر، ونعومة الملمس».

قال ابن كثير[٣]: «وعلى كل تقدير فصفة مرافق أهل الجنتين الأولين أرفع وأعلى من هذه الصفة فإنه قد قال هناك: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ فنعت بطائن فرشهم وسكت عن ظهائرها، اكتفاء بما مدح به البطائن بطريق الأولى والأحرى».

وقد استنبط ابن القيم من الآيات تفضيل الجنتين الأوليين على الجنتين الأخريين من عشرة أوجه[٤] قال في التاسع منها: «أنه بدأ بوصف الجنتين الأوليين وجعلهما جزاء لمن خاف مقامه، وهذا يدل على أنهما أعلى جزاء الخائف لمقامه فرتب الجزاء المذكور على الخوف ترتيب المسبب على سببه، ولما كان الخائفون على نوعين مقربين، وأصحاب يمين، ذكر جنتي المقربين ثم ذكر جنتي أصحاب اليمين».

وقال ابن كثير[٥] بعد كلامه المتقدم: «وتمام الخاتمة أنه قال بعد الصفات المتقدمة: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾ فوصف أهلها بالإحسان، وهو أعلى المراتب والنهايات فهذه وجوه عديدة في تفضيل الجنتين الأوليين على هتين الأخريين، ونسأل الله الكريم الوهاب أن يجعلنا من أهل الأوليين».

أقول: اللهم اجعل ابن كثير منهم واجزه عن الإسلام والمسلمين وعن خدمة كتابك خير الجزاء، واجعلنا منهم ووالدينا ووالديهم وأقاربنا وجيراننا وعلماءنا وجميع إخواننا المسلمين ـ اللهم آمين.

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٣٣، ومسلم في فضائل الصحابة ـ فضائل عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ٢٣٩٣، والترمذي في الرؤيا ٢٢٨٩ ـ من حديث عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٢٥٩.

(٣) في «تفسيره» ٧/ ٤٨٥.

(٤) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٣٧-٣٣٩.

(٥) في «تفسيره» ٧/ ٤٨٥.

﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ تبارك أي: تعالى وتعاظم، وكثر خيره وإحسانه وإنعامه.

قال ابن كثير[1]: «أي: هو أهل أن يجل فلا يُعصى، وأن يكرم فيعبد، ويشكر فلا يكفر، وأن يذكر فلا ينسى».

﴿ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ قرأ ابن عامر (ذو الجلال) بالواو بعد الذال، وقرأ الباقون بالياء ﴿ذِي ٱلۡجَلَٰلِ﴾ و «ذي»: بمعنى صاحب. والجلال: العظمة والكبرياء، والإكرام: الفضل التام. أي: الذي يجب أن يُجلَّ ويُعظَّم ويُكرَم والذي يُكرم عباده.

عن ربيعة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ألِظّوا[2] بيا ذا الجلال والإكرام»[3].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا سلم لا يقعد إلا مقدار ما يقول: «اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام»[4].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط»[5]. وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أجلوا الله يغفر لكم»[6].

الفوائد والعبر:

١ ـ أن من دون الجنتين الموصوفتين في الآيات السابقة جنتان أعدهما الله لمن كان دون أصحاب تلك الجنتين فالأوليان للسابقين المقربين وهتان لأصحاب اليمين.

٢ ـ أن الخائفين ينقسمون إلى قسمين سابقون مقربون وأصحاب يمين.

٣ ـ فضل الله ـ عز وجل ـ وعدله حيث لم يساو الأعلى بمن هو دونه ولم يحرم الأدنى وهذا من نعم الله ـ عز وجل ـ، ولهذا قرر بها الثقلين.

٤ ـ عظم ما أعده الله ـ عز وجل ـ لأصحاب هتين الجنتين ـ وإن كانتا دون الأوليين ـ

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٨٥.

(٢) ألظّوا: أي: الزموا، يقال: ألظ بفلان، أي: لزمه.

(٣) أخرجه أحمد ٤/ ١٧٧، والحاكم في مستدركه ١/ ٤٩٨-٤٩٩ وصححه، ووافقه الذهبي، وأخرجه الترمذي من حديث أنس عن النبي ﷺ في الدعوات ٣٥٢٤، وقال: «هذا حديث غريب، وقد رُوِيَ هذا الحديث عن أنس من غير هذا الوجه».

(٤) أخرجه مسلم في المساجد ـ استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته ٥٩٢، وأبو داود في الوتر ـ ما يقول الرجل إذا سلّم ١٥١٢، والنسائي في السهو ـ الذكر بعد الاستغفار ١٣٣٨، والترمذي في الصلاة ـ ما يقول الرجل إذا سلّم ٢٩٨، وابن ماجه في إقامة الصلاة ـ ما يقال بعد التسليم ٩٢٤.

(٥) أخرجه أبو داود في الأدب ـ في تنزيل الناس منازلهم ٤٨٤٣.

(٦) أخرجه أحمد ٥/ ١٩٩.

فخضرة شديدة، وعينان فياضتان بالماء، وفاكهة ونخل ورمان، وخيرات حسان، وحور مقصورات في الخيام لم يفتض بكارتهن قبلهم إنس ولا جان، وبسط للجلوس والاتكاء رقاق حسان. وهذا من أعظم النعم والنعيم، ولهذا قرر الثقلين به.

٥ ـ ثناء الله ـ عز وجل ـ على نفسه بالعلو والعظمة وكثرة الخير والإحسان والإنعام. وإثبات ربوبيته الخاصة لنبيه ﷺ.

٦ ـ امتنان الله عز وجل على الثقلين بربوبيته العامة لهم، ونعمه الكثيرة عليهم وفضله العظيم وتذكيرهم بذلك في ثنايا ذكر هذه النعم في آيات هذه السورة بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ ولهذا يشرع أن يقال بعد هذه الآية: «ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد»[1]. وصدق الله العظيم ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨].

وقد كررت هذه الآية: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ في هذه السورة إحدى وثلاثين مرة، ثمان منها ذكرت عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله وعظيم نعمه وبدائع صنعه، ثم سبع عقب آيات فيها الوعيد للمكذبين والتحدي لهم وتخويفهم بالأهوال والعذاب، ثم ثماني آيات في وصف الجنتين الأوليين، وثمان أخرى في وصف الجنتين دون الأوليين.

٧ ـ تفاوت درجات نعيم أهل الجنة وصفات ما هم فيه من الجنان فلكل واحد من المقربين جنتان وصفهما وما فيهما من ألوان النعيم في غاية التمام والكمال والحسن والجمال والفضل والإحسان، ولكل واحد من أصحاب اليمين جنتان فيهما من ألوان النعيم كذلك لكنهما دون الأوليين في ذلك كله.

ومن أعظم النعيم أن أهل الجنة على تفاوت منازلهم واختلاف درجاتهم كل منهم في غاية الرضا والراحة والسرور والطمأنينة، لا يرى أن أحدًا أحسن حالاً منه. ولا أعلى نعيمًا مما هو فيه، وذلك أن الله عز وجل بفضله وكرمه أذهب عن أهلها الحزن كما قال عز وجل: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]؛ ولهذا جاء الامتنان على أهل الجنتين الأوليين، واللتين دونهما جميعًا بتكرار قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مع كل منهما ثماني مرات توكيدًا وتذكيرًا.

---

(١) سبق تخريجه.

تفسير سورة الواقعة

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال أبو بكر: يا رسول الله، قد شبت؟ قال: «شيبتني هود والواقعة والمرسلات، وعَمَّ يَتَسَاءلُونَ، وإذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ»[١].

وعن أبي ظبية قال: مرض عبد الله ـ يعني عبد الله بن مسعود ـ مرضه الذي توفي فيه، فعاده عثمان بن عفان فقال: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي. قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي قال: ألا آمر لك بطبيب؟قال: الطبيب أمرضني قال: ألا آمر لك بعطاء؟ قال: لا حاجة لي فيه قال: يكون لبناتك من بعدك. قال: أتخشى على بناتي الفقر؟ إني أمرت بناتي يقرأن كل ليلة سورة الواقعة، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدًا»[٢].

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يصلي الصلوات نحواً من صلاتكم، وكان يؤخر العتمة بعد صلاتكم شيئًا، وكان يخفف الصلاة»[٣].

وفي رواية: «وكان يقرأ في الفجر (الواقعة) ونحوها من السور»[٤].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝﴾.

قوله ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ إذا: ظرف متعلق بقوله: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا﴾ وقيل: بغير ذلك.

والواقعة: اسم من أسماء القيامة، كالحاقة والقارعة ونحو ذلك، أي: إذا قامت القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٥] أي: قامت القيامة، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾[الحاقة: ١ ، ٢].

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الواقعة ٣٢٩٧ وقال: «هذا حديث حسن غريب»

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٤٨٧ نقلا عن ابن عساكر، وأبي يعلى وذكره ابن الأثير في «أسد الغابة» ٣/ ٣٨٩-٣٩٠.

(٣) أخرجه مسلم في المساجد ٦٤٣، والنسائي في المواقيت ٥٣٣، وأحمد ٥/ ١٠٤.

(٤) جاء هذا في رواية أحمد.

وحُذف جواب الشرط ليذهب الذهن في تقديره كل مذهب، أي: إذا قامت القيامة يحصل من الأهوال العظيمة والأحوال الفظيعة ما لا يخطر على البال، وانقسم الناس إلى أصناف ثلاثة حسب أعمالهم وجزائهم.

وسميت القيامة بالواقعة لتحقق كونها ووقوعها ومجيئها.

﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي: ليس لوقعتها كذب، بل لابد أن تكون وأن تقع لا محالة، إذا أراد الله كونها كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ [الشورى: ٢٩].

وعند وقوعها لا صارف يصرفها ولا دافع يدفعها ولا مانع يمنعها، كما قال عز وجل: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾ [الشورى: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾﴾ [المعارج: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنعام: ٧٣].

وليس لها نفس تكذب في وقوعها آنذاك؛ لأنه ليس الخبر كالعيان كما قال عز وجل: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٧]، وقال ﷺ: «ليس الخبر كالمعاينة»[١].

﴿خَافِضَةٌ﴾. أي: خافضة واضعة لأقوام: خفضاً حسياً بخفض منازلهم في أسفل سافلين، وفي سجين في دركات الجحيم كما قال عز وجل: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾﴾ [التين: ٥]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾﴾ [المطففين: ٧].

وخفضًا معنويًا يذهب بعزهم ويذلهم، كما قال عز وجل: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان: ٤٩]، وقال تعالى:﴿ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج:١٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء: ٥١].

وفي الحديث: «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال»[٢].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) اخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤٩٢، واحمد ٢/ ١٧٩ ـ من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ـ رضي الله عنه وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح»

﴿رَّافِعَةٌ﴾ أي: رافعة لأقوام؛ رفعًا حسياً برفع منازلهم في أعلى عليين، وفي الفردوس الأعلى في جنات النعيم كما قال عز وجل: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝﴾ [المطففين: ١٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝﴾ [المؤمنون: ١١].

ورفعًا معنويًا فيه عزهم وكرامتهم ورفع قدرهم وشأنهم. كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[المجادلة: ١١].

ففي وقوع القيامة خفض لأعداء الله حسًا ومعنى، ورفعة لأولياء الله عز وجل حسًا ومعنى، وذلك أن النعيم حسي ومعنوي، كما أن العذاب حسي ومعنوي.

﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝﴾.

هذه الآيات في ذكر بعض ما يحدث في القيامة من الأهوال.

قوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾ أي: إذا حركت واضطربت تحريكاً واضطرابًا شديدًا، وزلزلت زلزالاً عظيمًا. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝﴾ [الحج: ١]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ [المزمل: ١٤]، وقال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝﴾ [الزلزلة: ١]، أي: حركت تحريكها الشديد.

﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ أي: فتتت الجبال تفتيتًا، بأن صارت وتحولت إلى أكوام من الرمل بعد أن كانت صخرًا صلدًا كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝﴾ [المزمل: ١٤].

﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ الهباء، ما لا يمسك منه شيء مما يتطاير في الجو وتذروه الرياح من الغبار والأتربة وشرر النار ويابس الشجر، وغير ذلك، ومنه ما يرى في شعاع الشمس عندما يدخل في الكوة.

(منبثاً) أي: متفرقاً منتشراً، بسبب خفته وضآلته وضحالته، كما قال عز وجل: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝﴾ [القارعة: ٥]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝﴾ [المعارج: ٩]، وقال عز وجل: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝﴾ [الطور: ٩، ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝﴾ [النبأ: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝﴾ [التكوير: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا

﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾﴾ [المرسلات:١٠].

وإذا كانت الجبال وهي هذه المخلوقات العظيمة يعتريها ما يعتريها من التغيّر والتبدل والخفة والحركة والتسيير والنسف والتفتت فكيف بابن آدم المخلوق الضعيف الذي يريد دوام الحال ودوام الحال من المحال.

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ أي: وكنتم عندما تقع الواقعة وتقوم القيامة أصنافًا ثلاثة.

﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ اي: أصحاب اليمين الذين يؤخذ بهم ذات اليمين، ويكونون عن ميمنة العرش أي: عن يمين العرش، ويأخذون كتبهم بأيمانهم، كما قال عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾﴾ [الحاقة: ١٩]، وقال عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الانشقاق: ٧، ٨].

﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ تعظيم لحالهم وشأنهم، أي: ما أعظم حال وشأن أصحاب الميمنة.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ اي: أصحاب الشؤم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال، ويكونون عن يسار العرش، ويأخذون كتبهم بشمائلهم، كما قال عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾﴾ [الحاقة: ٢٥، ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الانشقاق: ١٠-١٢].

﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ تحقير لحالهم وشأنهم، وتهويل لعقابهم وعذابهم.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ اي: والمسارعون المبادرون إلى فعل الواجبات وترك المنهيات، وفعل أنواع الخيرات وإلى مرضاة الله عز وجل ومغفرته وجنته.

﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ تأكيد، أي: والسابقون السابقون حقًا، أو والسابقون هم السابقون حقا، أوهم هم لا من عداهم. وفي هذا التعبير ما فيه من الثناء عليهم والإشارة والتنبيه لاتصافهم بأفضل الصفات، وما لهم عند الله من عظيم المنازل وأعلى الدرجات، وأيضا السابقون في الدنيا بالأعمال الصالحات والخيرات هم السابقون في الآخرة إلى المغفرة والجنات، كما قال عز وجل: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة:١٤٨]، وقال عز وجل: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ

﴿ٱلْعَظِيمِ ۝٢١﴾ [الحديد: ٢١]، وقال عز وجل ﴿۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٣٥ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝١٣٦﴾ [آل عمران: ١٣٣ـ ١٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦﴾ [المطففين: ٢٦].

وقد ذكر الله عز وجل في آخر هذه السورة حالة هؤلاء الأصناف الثلاثة، عند احتضارهم، كما ذكرهم في قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [فاطر:٣٢].

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧﴾ قال: «هي التي في سورة فاطر ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [الآية: ٣٢]»[(١)].

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون من السابقون إلى ظل الله عز وجل يوم القيامة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: الذين إذا أعطوا الحق قبلوه، وإذا سئلوه بذلوه وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم»[(٢)].

قال ابن كثير[(٣)] في كلامه على الآية ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧﴾: «أي: ينقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف: قوم عن يمين العرش، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيمن، ويؤتون كتبهم بأيمانهم ويؤخذ بهم ذات اليمين. قال السدي: وهم جمهور أهل الجنة، وآخرون عن يسار العرش، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيسر ويؤتون كتبهم بشمائلهم، ويؤخذ بهم ذات الشمال، وهم عامة أهل النار ـ عياذًا بالله من صنيعهم ـ وطائفة سابقون بين يديه وهم أخص وأحظى وأقرب من أصحاب اليمين الذين هم سادتهم فيهم الرسل والأنبياء والصديقون والشهداء، وهم أقل عددًا من أصحاب اليمين».

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٢٩ ـ الأثر ١٨٧٧٢.
(٢) أخرجه أحمد ٦/ ٦٧، ٦٩.
(٣) في «تفسيره» ٧/ ٤٨٩.

الفوائد والعبر:

١ ـ إثبات القيامة وتحقق وقوعها وشدة أهوالها.

٢ ـ لا أحد يكذب بالقيامة بعد وقوعها لأنه ليس الخبر كالعيان.

٣ ـ انخفاض منازل أقوام في ذلك اليوم إلى دركات الجحيم وهم الكفرة والمكذبون، وارتفاع منازل أقوام إلى أعلى عليين وهم المؤمنون المتقون.

٤ ـ اضطراب الأرض وارتجاجها وتفتت الجبال وكونها هباء متفرقاً يتطاير في الهواء لشدة أهوال القيامة.

٥ ـ انقسام الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف: أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، والسابقون المقربون.

٦ ـ عظم شأن أصحاب اليمين، وعظم حقارة أصحاب الشمال.

٧ ـ علو مكانة السابقين المقربين والثناء عليهم، وأنهم هم السابقون حقاً والمقربون.

٨ ـ الحث على المسابقة والمسارعة في طاعة الله تعالى، وأن أهل السبق في الدنيا هم أهل السبق في الآخرة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝١٤ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝١٦ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢٤ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ۝٢٦﴾.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ الإشارة للسابقين، وأشار إليهم بإشارة البعيد تنبيهًا على فضلهم وعلو مكانتهم، أي: المقربون من الله عز وجل، منهم الرسل والأنبياء والصديقون والشهداء. وذكر منزلتهم قبل ذكر منزلهم لأن قربهم من الله ـ عز وجل ـ أفضل من كل شيء، ولهذا قالت آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ـ رحمها الله ـ: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾[التحريم: ١١] فاختارت الجار قبل الدار.

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ متعلق بقوله (المقربون) أي: المقربون عند الله وبين يديه في «جنات النعيم» في الفردوس الأعلى من الجنة الذي فوقه عرش الرحمن.

والجنات: جمع جنة وهي لغة البساتين، كما قال تعالى: ﴿۞وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۝٣٢﴾ [الكهف: ٣٢].

والمراد بـ«جنات النعيم» تلك المنازل الرفيعة، والدور العالية ذات الأشجار الملتفة الكثيرة والثمار اليانعة القريبة مما لا يُقدَّر قدر صفته إلا الله عز وجل كما قال عز وجل ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾ [السجدة: ١٧].

وقال ﷺ: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[1].

وعن سهل بن سعد الساعدى رضي الله عنه قال: شهدت مع رسول الله ﷺ مجلسًا وصف فيه الجنة حتى انتهى، ثم قال ﷺ في آخر حديثه: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ثم اقترأ هذه الآية ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝١٦ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٤، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٢٤، والترمذي في التفسير ٣١٩٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٢٨ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٢٥.

و«النعيم»: ما فيها من ألوان التنعم والنعم الحسية والمعنوية ونعيم البدن والقلب، ولهذا أضافها إليه فقال: (في جنات النعيم).

فهؤلاء السابقون في الدنيا إلى الخيرات السابقون في الآخرة لدخول الجنات المقربون عند رب الأرض والسموات.

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ (ثلة) أي: جماعة كثيرة ﴿مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: من صدر هذه الأمة، كما قال ﷺ: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته»[1].

﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ أي: من آخر هذه الأمة.

فالمعنى على هذا: أن السابقين المقربين كثير منهم من أول هذه الأمة وقليل منهم من آخرها.

وهذا يدل على فضل صدر هذه الأمة على متأخريها، كما قال ﷺ «لا تسبوا أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»[2].

وعن الزبير بن عدي قال: شكونا إلى أنس بن مالك ما نلقى من الحجاج، فقال: «اصبروا، فإنه لا يأتي عليكم عام أو يوم إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم عز وجل سمعته من نبيكم ﷺ»[3].

وقيل: المراد بالأولين الأمم الماضية، والمراد بالآخرين هذه الأمة، فيكون المعنى على هذا أن السابقين المقربين كثير منهم من الأمم الماضية، وقليل منهم من هذه الأمة وذلك باعتبار مجموع المقربين من الأمم السابقة إلى المقربين من هذه الأمة، وليس المعنى أن المقربين من كل أمة من الأمم السابقة أكثر من المقربين من هذه الأمة.

وهذا المعنى خلاف ما دلت عليه النصوص من الكتاب والسنة.

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٥٢، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٥٣٣، والترمذي في المناقب ٣٨٥٩، وابن ماجه في الأحكام ـ كراهية الشهادة لمن لم يستشهد ٢٣٦٢، وأحمد ١/ ٣٧٨ ـ من حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة ـ قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلًا» ٣٦٧٣، ومسلم في فضائل الصحابة ـ تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم ٢٥٤١، وأبو داود في السنة ـ النهي عن سب أصحاب رسول الله ﷺ ٤٦٥٨، والترمذي في المناقب ـ من سب أصحاب النبي ﷺ ٣٨٦١، وأحمد ٣/ ١١، ٥٤ من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الفتن ٧٠٦٨، والترمذي في الفتن ٢٢٠٦.

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠]، وقال تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم اختلفوا فيه، فهدانا الله فيه، فالناس لنافيه تبع، اليهود غدًا والنصارى بعد غد»[(١)].

وفي حديث الإسراء: «أن موسى عليه السلام بكى فقيل: ما يبكيك؟ فقال: أبكي لأن غلامًا يبعث بعدي، يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي»[(٢)].

فالظاهر الذي تدل عليه نصوص الكتاب والسنة هو القول الأول وهو أن المعنى: جماعة كثيرة من المقربين من صدر هذه الأمة وقليل منهم من آخرها.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لما نزلت: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ۝﴾ شق ذلك على المسلمين فنزلت ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ۝﴾ فقال النبي ﷺ: «إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، ثلث أهل الجنة، بل أنتم نصف أهل الجنة، أو شطر أهل الجنة، وتقاسمونهم النصف الثاني»[(٣)].

وفي حديث أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ قال ﷺ: «وإني أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، فكبرنا، ثم قال: ثلث أهل الجنة، فكبرنا، ثم قال: شطر أهل الجنة، فكبرنا»[(٤)].

وفي حديث بريدة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة عشرون ومائة صف ثمانون منها من هذه الأمة وأربعون من سائر الأمم»[(٥)].

قال ابن كثير[(٦)] بعدما ذكر اختيار ابن جرير للقول بأن المراد بالأولين الأمم

---

(١) اخرجه البخاري في الجمعة ٨٧٦، ومسلم في الجمعة ٨٥٥، والنسائي في الجمعة ١٣٦٧.

(٢) اخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٠٧، ومسلم في الإيمان ١٦٤، والنسائي في الصلاة ٤٤٨ ـ من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما.

(٣) اخرجه أحمد ٢/ ٣٩١، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٣٠ – الأثر ١٨٧٧٥، وانظر «تفسير ابن كثير» ٧/ ٤٩٢.

(٤) اخرجه البخاري في التفسير ٤٧٤١، ومسلم في الإيمان ٢٢٢.

(٥) اخرجه الترمذي في صفة الجنة ٢٥٤٦، وابن ماجه في الزهد ٤٢٨٩ ـ وقال الترمذي «حديث حسن».

(٦) في «تفسيره» ٧/ ٤٩٢.

الماضية وبالآخرين هذه الأمة: «وهذا الذي اختاره ابن جرير ههنا فيه نظر، بل هو قول ضعيف؛ لأن هذه الأمة هي خير الأمم بنص القرآن فيبعد أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها، اللهم إلا أن يقابل مجموع الأمم بهذه الأمة، والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم، فيكون المراد بقوله: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: من صدر هذه الأمة ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ أي: من هذه الأمة».

وقال ابن كثير أيضًا[١]: «ولاشك أن أول كل أمة خير من آخرها، فيحتمل أن يعم الأمر جميع الأمم كل أمة بحسبها».

ثم ذكر ابن كثير رحمه الله حديث عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل أمتي مثل المطر، لا يدرى أوله خير أم آخره»[٢]، ثم قال: «فهذا الحديث بعد الحكم بصحة إسناده محمول على أن الدين كما هو محتاج إلى أول الأمة في إبلاغه إلى من بعدهم، كذلك هو محتاج إلى القائمين به في أواخرها، وتثبيت الناس على السنة وروايتها وإظهارها، والفضل للمتقدم وكذلك الزرع الذي يحتاج إلى المطر الأول وإلى المطر الثاني، ولهذا قال عليه السلام: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى قيام الساعة» وفي لفظ: «حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»[٣].

والغرض أن هذه الأمة أشرف من سائر الأمم، والمقربون فيها أكثر من غيرها وأعلى منزلة، لشرف دينها وعظيم قدر نبيها، ولهذا ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ أنه أخبر «أن في هذه الأمة سبعين ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب» وفي لفظ: «مع كل ألف سبعون ألفًا» وفي آخر: «مع كل واحد سبعون ألفًا»[٤]، ثم ذكر ابن كثير حديث

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٩٣.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ٣١٩. وأخرجه الترمذي في الأمثال ٢٨٦٩ - من حديث أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره». وقال الترمذي: «حسن غريب من هذا الوجه».

(٣) أخرجه البخاري في الاعتصام - قول النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي» ٧٣١١، ومسلم في الإمارة ١٩٢١ - من حديث المغيرة بن شعبة - رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الطب ٥٧٥٢، ومسلم في الإيمان ٢٢٠، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٤٦، من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال: «عرضت عليّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان،، والنبي وليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر، فإذا سواد عظيم، فقيل لي هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب».

أبي مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أما والذي نفسي بيده ليبعثن منكم يوم القيامة مثل الليل الأسود زمرة جميعها يحيطون الأرض، تقول الملائكة: لَمَاجاء مع محمد ﷺ أكثر مما جاء مع الأنبياء عليهم السلام»[١].

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ السرر: جمع سرير وهو موضع الاتكاء والجلوس والاضطجاع ﴿مَّوْضُونَةٍ﴾ أي: منسوجة بالذهب مصفوف بعضها إلى جانب بعض، ليس بعضها خلف بعض ولا بعيدًا من بعض.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا﴾ جالسين عليها معتمدين على أيديهم وظهورهم، جلوس المتكئ المرتاح المنبسط المطمئن المستقر.

﴿مُتَقَـٰبِلِينَ﴾ أي: يقابل بعضهم بعضًا بقلوبهم ووجوههم، لسعة المكان ولسلامة قلوبهم وصفاء مودتهم وحسن أدبهم، ليس أحد منهم وراء الآخر، ولا أحد منهم يدير قفاه إلى الآخر، بل يقبل بعضهم على بعض بوجهه وكليته والاستماع إلى كلامه، وهذا مما يزيد في الأنس والسرور والمحبة نسأل الله عز وجل من فضله لأن الله عز وجل أذهب عن أهل الجنة الغل. قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾[الحجر: ٤٧].

وهكذا ينبغي أن يتأدب بهذا الأدب المؤمنون بعضهم مع بعض ماداموا في دار العمل.

ولك أخي الكريم أن تتصور مدى كراهة من يدير قفاه إلى إخوانه غير مكترث بالآداب الشرعية والأحكام المرعية مما يولد الكراهية والغل والحقد والضغينة في نفوس الآخرين. ولهذا نهى ﷺ عن التدابر فقال ﷺ: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا»[٢].

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: يدور عليهم لقضاء حوائجهم ﴿وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ (ولدان) جمع ولد، أو جمع وليد، وهم صغار الأسنان، قال تعالى ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ [النساء:٧٥] وهم في غاية الحسن والبهاء، كما قال عز وجل: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الطور: ٢٤].

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» ٢/ ١٢٦. وانظر «تفسير ابن كثير» ٧/ ٤٩٣.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠٦٥، ومسلم في البر والصلة ٢٥٥٩، وأبو داود في الأدب ٤٩١٠، والترمذي في البر والصلة ١٩٣٥ ـ من حديث أنس ـ رضي الله عنه.

﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: باقون على هيئتهم لا يكبرون ولا يشيبون ولا يتغيرون.

﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ متعلق بقوله ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يطوف عليهم هؤلاء الولدان بآنية شرابهم، والأكواب: جمع كوب، وهي: الكيزان والأقداح التي لا عرى لها ولا خراطيم.

والأباريق: جمع إبريق، وهي ما لها عرى وخراطيم.

(وكأس) الكأس: هو القدح والمراد به، كأس الخمر.

﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ أي: من خمر معين، والمعين: هو الذي لا ينضب، كما قال عز وجل ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ۝﴾ [الملك: ٣٠].

والمعنى: وكأس من عين جارية من خمر لا تنضب أبدًا، في غاية اللذة والنشوة والطرب، كما قال عز وجل ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ [محمد: ١٥].

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وعاصم (ولا يُنزِفون) بكسر الزاي، وقرأ الباقون بفتحها أي: لا يحصل لهم صداع في رؤوسهم عند شربها، ولا نزيف في بطونهم، ولا في عقولهم يجعلهم يهذون بما لا يدرون، ويقولون ويفعلون ما لا يعقلون، كما هو الحال بالنسبة لخمر الدنيا.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «في الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقيء، والبول، فذكر الله عز وجل خمر الجنة، ونزهها عن هذه الخصال»[١].

﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ معطوف على ما قبله أي: ويطوف عليهم الولدان بفاكهة مما يتخيرون من أنواع الفواكه والثمار. للذتها وطيب طعمها ومذاقها، وزكاء رائحتها وحسن منظرها وغير ذلك.

قال ابن كثير[٢]: «وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخير لها - ثم استدل بحديث عكراش بن ذؤيب، وفيه: أن رسول الله ﷺ أخذ بيده، قال: «فانطلقنا إلى منزل أم سلمة، فقال: هل من طعام؟ قال: فأتينا بجفنة كثيرة الثريد والوذر[٣]، فجعل يأكل منها، فأقبلت بيدي في جوانبها، فقبض رسول الله ﷺ بيده

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره» ٧/ ٤٩٥-٤٩٦.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٤٩٦.

(٣) الوذر: قطع من اللحم لا عظم فيها، واحدها وذرة. انظر «لسان العرب» مادة «وذر».

اليسرى على يدي اليمني، فقال: يا عكراش كل من موضع واحد، فإنه طعام واحد، ثم أتينا بطبق فيه تمر ـ أو رطب، فجعلت آكل من بين يدَيّ، وجالت يد رسول الله ﷺ في الطبق، وقال: يا عكراش، كل من حيث شئت، فإنه غير لون واحد...»[1].

فإذا كان الطعام متنوعًا ومختلفًا فللإنسان أن يمد يده إلى ما شاء منه، أما إذا كان الطعام واحدًا فينبغي أن يأكل مما يليه كما جاء في حديث عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه قال: «كنت غلاماً في حجر النبي ﷺ، وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال لي رسول الله ﷺ: يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك»[2].

على أن الآية (وفاكهة مما يتخيرون) قد تحمل أيضًا على أن المراد بها مما يتخيرون من أنواع الأشجار وصنوف الثمار فيقطفونها من شجرها.

﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ معطوف على قوله ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ مما يدل على أن اللحم يؤكل بعد الفاكهة ـ خلاف ما عليه حال كثير من الناس اليوم. وقد دل الطب على أن تقديم الفاكهة أفضل وأنفع للجسم.

وقد قيل:

وقَدِّ مَنْ فاكهة في الأكل   قبل الطعام لحصول النفع

والمعنى: ولحم طير من الذي تشتهيه نفوسهم.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن طير الجنة كأمثال البخت يرعى في شجر الجنة» فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن هذه لطير ناعمة. فقال: «أَكَلَتُها أنعم منها قالها ثلاثًا ـ وإني لأرجو أن تكون ممن يأكل منها يا أبا بكر»[3].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ذكرت عند النبي ﷺ طوبى، فقال رسول الله ﷺ: «هل بلغك ما طوبى؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: طوبى شجرة في الجنة، ما يعلم طولها إلا الله، يسير الراكب تحت غصن من أغصانها سبعين خريفًا، ورقها

---

(١) أخرجه الترمذي في الأطعمة ـ ما جاء في التسمية على الطعام ١٨٤٨، وابن ماجه في الأطعمة ـ الأكل مما يليك ٣٢٧٤، وقال الترمذي «غريب».

(٢) أخرجه البخاري في الأطعمة ٥٣٧٦، ومسلم في الأشربة ٢٠٢٢، وأبو داود في الأطعمة ٣٧٧٧، وابن ماجه في الأطعمة ٣٢٦٧.

(٣) أخرجه أحمد ٣/ ٢٢١.

الحلل يقع عليها الطير كأمثال البخت. فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن هناك لطيرًا ناعمًا؟ قال: أنعم منه من يأكله، وأنت منهم إن شاء الله»[1].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سُئل رسول الله ﷺ ما الكوثر؟ قال: «ذاك نهر أعطانيه الله ـ يعني في الجنة ـ أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل فيه طير أعناقها كأعناق الجزر قال عمر: إن هذه لناعمة، قال رسول الله ﷺ: أكلتها أحسن منها»[2].

﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ قرأ أبو جعفر وحمزة والكسائي ﴿وحورٍ عينٍ﴾ بالجر، وقرأ الباقون بالرفع.

فمن قرأ بالجر عطفه على ما قبله، أي: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝ وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝ وحورٍ عينٍ ۝﴾ أي: ويطوفون عليهم بحور عين.

ويحتمل أن يكون (وحور) على قراءة الجر مجروراً على المجاورة والإتباع لما قبله، كما في قوله: ﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ [المائدة:٦] على قراءة جر (وأرجلِكم) وكما في قوله ﴿عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خضرٍ﴾ [الإنسان: ٢١] على قراءة جر (خضرٍ).

والأظهر القول الأول إذ لا إشكال في عطفها على ما قبلها، وكون الحور العين مما يطوف به عليهم خدمهم في الجنة، ولا حاجة للإعراب على الإتباع والمجاورة.

وعلى قراءة الرفع يكون قوله: (وحور) مرفوع على الابتداء، أو على أنه خبر والتقدير وحور عين لهم، أو ولهم حور عين.

ومعنى ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ أي: ونساء جميلات واسعات الأعين مع شدة سواد العين وشدة بياضها وحسنها.

﴿كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُوِ﴾ أي: كأشباه اللؤلؤ، أي: كأنهن اللؤلؤ الرطب الذي هو من أحسن الجواهر وأطيبها وأنفسها.

﴿ٱلْمَكْنُونِ﴾ أي: المصون، في أصدافه في بياضه وصفائه، الذي لم تمسه الأيدى، كما قال

---

(١) أخرجه الحافظ الموصلي في كتابه «صفة الجنة» فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٤٩٧.

(٢) أخرجه الترمذي في صفة الجنة ـ ما جاء في صفة طير الجنة ٢٥٤٢، وقال الترمذي «حديث حسن غريب».

تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ۝﴾ [الصافات: ٤٩]، وقال تعالى:﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝﴾ [الرحمن: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ۝﴾ [الرحمن: ٧٢].

﴿جَزَآءً﴾ أي: مجازاة لهم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (ما) موصولة أو مصدرية أي: مجازاة لهم بالذي كانوا يعملونه، أو بعملهم، أي: هذا الجزاء العظيم والثواب الجزيل الذي أعده الله للسابقين المقربين مجازاة لهم بسبب عملهم الذي كانوا فيه من السابقين المبادرين المسارعين إلى الخير والمتنافسين فيه.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أي: لا يسمعون في تلك الجنات جنات النعيم لغوًا من القول، أي: لا يسمعون كلامًا لاغيًا ساقطًا غثاءً خاليًا من المعنى عديم الفائدة، حقيرًا وضيعًا كما قال عز وجل:﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ۝﴾ [النبأ: ٣٥]، وقال عز وجل ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ۝﴾ [الغاشية: ١١] أي: لا تسمع فيها كلمة لاغية.

﴿وَلَا تَأْثِيمًا﴾ أي: ولا يسمعون فيها كلامًا قبيحًا محرمًا، يوجب الإثم على قائله، وسامعه، من كلمات الشرك والكفر والزندقة، والغيبة والنميمة والباطل والكذب وغير ذلك، كما قال عز وجل في سورة النبأ ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ۝﴾ [النبأ: ٣٥] وقال تعالى في خمر الجنة: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ۝﴾ [الطور: ٢٣].

﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ إلا: أداة استثناء، بمعنى «لكن» فالاستثناء منقطع أي: لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما لكنهم يسمعون فيها السلام. والمعنى: أنهم لا يسمعون إلا السلام الذي هو ضد اللغو والتأثيم، فنفى سماعهم اللغو والتأثيم، وأثبت لهم سماع ضده وهو السلام.

وقوله ﴿سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ أي: لا يسمعون إلا السلام المتكرر، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ [مريم: ٦٢] أي: لا يسمعون إلا السلام من ربهم ومن الملائكة، ومن بعضهم على بعض ـ نسأل الله تعالى من فضله ـ قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝﴾ [يس: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب:٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ۝﴾ [الزمر: ٧٣] وقال تعالى:﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [يونس: ١٠]، وقال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۝﴾ [إبراهيم: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ

طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ [النحل: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ۝﴾ [الفرقان: ٧٥].

وهذا من النعيم المعنوي الذي لا يقل عن النعيم الحسي مما يشرح الصدور ويؤنس القلوب.

الفوائد والعبر:

١ ـ أن السابقين هم المقربون عند الله تعالى في جنات النعيم.

٢ ـ أن السابقين المقربين أكثرهم من صدر هذه الأمة وقليل منهم من آخرها.

٣ ـ علو مرتبة السابقين المقربين عند الله، وعظم ما أعده الله ـ عز وجل ـ لهم من النعيم كيفية وكمية فسرر مصفوفة منسوجة بالذهب، ومجالس متقابلة، وغلمان مخلدون يدورون عليهم بشرابهم وطعامهم وحوائجهم، وأقداح وأباريق، وكأس خمر من معين لا ينضب، لا صداع فيه ولا نزيف، وفواكه مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون ونساء حسان جميلات كاللؤلؤ المصون بياضاً وصفاء.

٤ ـ أن من أعظم نعيم السابقين المعنوي سلامة قلوبهم من الغل والحقد والحسد، وتنزيه أسماعهم في الجنة من سماع اللغو والتأثيم، وسماعهم السلام من ربهم ومن الملائكة ومن بعضهم البعض.

٥ ـ بيان أن ما أعده الله للسابقين المقربين من الفضل العظيم والثواب الجسيم بسبب سبقهم بالخيرات والأعمال الصالحة، وفي هذا ترغيب للمنافسة والمسابقة في ذلك. وأن العمل سبب لدخول الجنة والنعيم، وليس بعوض عن ذلك.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة حال ومآل السابقين المقربين وفصّل ما أعده لهم من ألوان وأنواع النعيم، ثم عطف عليهم بذكر حال ومآل أصحاب اليمين وتفصيل ما أعده لهم من ألوان وأنواع النعيم.

قوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ أصحاب اليمين: هم مَنْ منزلتهم دون المقربين.

قال ابن كثير[1]: «يكونون على يمين العرش، ويؤتون كتبهم بأيمانهم ويؤخذ بهم ذات اليمين، وهم الأبرار».

﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ تعظيم لشأنهم، وحالهم ومآلهم.

﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ السدر هو شجر النبق ظله بارد ومنشط (مخضود) موقر منضود بالثمر من أسفله إلى أعلاه قد قطع ونزع شوكه، بخلاف سدر الدنيا فهو كثير الشوك قليل الثمر.

عن سليم بن عامر ـ رضي الله عنه ـ قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ ـ يقولون: إن الله لينفعنا بالأعراب ومسائلهم، قال: أقبل أعرابي يومًا فقال: يا رسول الله، ذكر الله في الجنة شجرة تؤذي صاحبها؟ فقال رسول الله ﷺ: وما هي؟ قال: السدر، فإن له شوكًا مؤذيًا فقال رسول الله ﷺ: «أليس الله يقول: (في سدر مخضود) خضد الله شوكه، فجعل مكان كل شوكة ثمرة، فإنها لتنبت ثمرًا تفتق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لونًا من طعام، ما فيها لون يشبه الآخر»[2].

ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء»[3].

﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ الطلح شجر عظيم كثير الشوك معروف، ويطلق الطلح عند أهل اليمن

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٨٩، ٨/ ٣.

(٢) أخرجه ابن المبارك في «زيادات الزهد» ص ٧٤-٧٥، والحاكم ٢/ ٤٧٦ ـ من حديث سليم بن عامر عن أبي أمامة وصححه ووافقه الذهبي، وأخرجه البيهقي في «البعث والنشور» ص ١٨٧.

(٣) سبق تخريجه.

على شجر الموز، وهو المراد بالطلح في الآية عند كثير من المفسرين من الصحابة والتابعين منهم: ابن عباس وأبو هريرة ومجاهد وقتادة وعكرمة والحسن وابن زيد وهو اختيار الطبري[١].

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «يشبه طلح الدنيا ولكن له ثمر أحلى من العسل»[٢].

قال ابن القيم[٣]: بعد أن ذكر قول أكثر المفسرين أنه الموز، وما قيل من أنه شجر ذو شوك نضيد مكان كل شوكة ثمرة، فثمره قد نضد بعضه إلى بعض فهو مثل الموز. قال ابن القيم: «وهذا القول أصح، ويكون من ذكر الموز من السلف أراد التمثيل لا التخصيص، والله أعلم».

وُروي عن علي رضي الله عنه قال: «هذا الحرف (طلح منضود) قال: طلع منضود»[٤]، وهكذا قال الجوهري في الصحاح[٥]: «والطلح: لغة في الطلع».

قال ابن كثير[٦]: «فعلى هذا يكون هذا من صفة السدر فكأنه وصفه بأنه مخضود، وهو الذي لا شوك له، وأن طلعه منضود، وهو كثرة ثمره والله أعلم».

وقوله (منضود) أي: متراكم الثمر مصفوفه، كما قال عز وجل: ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ۝١٠﴾ [ق: ١٠] أي: منضود متراكم بعضه فوق بعض.

(وظل ممدود) أي: ظل ممتد دائم ليس فيه شمس ولا حر، كما قال تعالى: ﴿لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ۝٥٧﴾ [النساء: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ﴾ [الرعد:٣٥]، وقال تعالى: ﴿هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝٥٦﴾ [يس: ٥٦]، وقال تعالى:﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ ۝٤١﴾ [المرسلات: ٤١]، وقال تعالى: ﴿لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ۝١٣﴾ [الإنسان: ١٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، اقرؤوا إن شئتم (وظل ممدود)»[٧]. وفي رواية

---

(١) انظر: «جامع البيان» ٢٢/ ٣١٠-٣١١، «تفسير ابن أبي حاتم» ١٠/ ٣٣٣٠.
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٨/ ٤.
(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٤٨.
(٤) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤.
(٥) مادة «طلح» وانظر «لسان العرب» نفس المادة.
(٦) في «تفسيره» ٨/ ٤.
(٧) أخرجه البخاري في بدء الخلق ـ ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة ٣٢٥٣، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ـ باب: إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ٢٨٢٦، والترمذي في فضائل الجهاد ٢٥٢٢، وابن ماجه في الزهد ٤٣٣٥، وأحمد ٢/ ٤٥٢، ٤٨٢، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٣١٤-٣١٦.

«إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين أو مائة سنة، هي شجرة الخلد»[١].

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها»[٢].

وعن أبي سعيد وسهل بن سعد رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام ما يقطعها».[٣]

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «الجنة سَجْسَج[٤]، كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس»[٥].

﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ أي: وماء مصبوب يجري في غير أخدود. كما قال ابن القيم رحمه الله في صفة أنهار الجنة :[٦]

أنهارها في غير أخدود جرت   سبحان ممسكها عن الفيضان

﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ أي: وعندهم فاكهة كثيرة من أنواع الفواكه المختلفة والمتنوعة في الطعوم والألوان كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥] أي: يشبه بعضها بعضًا في الشكل مع اختلاف الطعم.

وقال ﷺ في حديث أنس رضي الله عنه: «انتهيت إلى السدرة ـ يعني سدرة المنتهى ـ فإذا نبقها مثل الجرار، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تحولت ياقوتًا وزمردًا» [٧]، وفي رواية: «فإذا نبقها كأنه قلال هجر»[٨] وفي رواية «وإذا ثمرها كالقلال»[٩].

---

(١) أخرجها احمد ٢/ ٤٤٥.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٥١.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق ـ صفة الجنه والنار ٦٥٥٣ ، ومسلم في صفة الجنه – إن في الجنة شجرة يسير الراكب، في ظلها مائة عام لا يقطعها ٢٨٥٢.

(٤) أي : ظلها معتدل لا حر ولا برد.

(٥) ذكره ابن كثير في (تفسيره) ٨/ ٧.

(٦) في النونية ص ٢٢٩.

(٧) أخرجه أحمد٣/ ١٢٨، ١٦٤.

(٨) أخرجه البخاري في بدء الخلق ـ باب ذكر الملائكة ٣٢٠٧، وأحمد ٤/ ٢٠٧، ٢٠٨ ـ من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما.

(٩) أخرجها مسلم في الإيمان ـ الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات ١٦٢ ـ من حديث أنس =

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خسفت الشمس فصلى رسول الله ﷺ - والناس معه، فذكر الصلاة وفيه: قالوا: يا رسول الله رأيناك تناولت شيئًا في مقامك هذا ثم رأيناك تكعكعت. قال: «إني رأيت الجنة، فتناولت منها عنقودًا، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا»[١].

وعن جابر رضي الله عنه قال: بينا نحن في صلاة الظهر، إذ تقدم رسول الله ﷺ فتقدمنا معه، ثم تناول شيئًا ليأخذه ثم تأخر، فلما قضى الصلاة قال له أبي بن كعب: يا رسول الله صنعت اليوم في الصلاة شيئًا ما كنت تصنعه؟ قال: «إنه عُرِضَتْ علي الجنة، وما فيها من الزهرة والنضرة، فتناولت منها قطفًا من عنب لآتيكم به، فحيل بيني وبينه، ولو أتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا ينقصونه شيئًا»[٢].

﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ أي: لا تنقطع عنهم في وقت من الأوقات كما هو الحال في ثمار الدنيا منها ما ينقطع في الصيف ومنها ما ينقطع في الشتاء.

﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ أي: لا تمنع عنهم أبدًا، ولا يحال بينهم وبين تناولها، بل هي سهلة المأخذ، قريبة المنال.

والمعنى: لا هي تنقطع، ولا مانع يمنعها عنهم، بل هي دائمة مستمرة، كما قال عز وجل ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ﴾ [الرعد: ٣٥].

﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ أي: وفرش مرتفعة عالية عن الأرض على الأسرة، ومرتفعة في سمكها مما يجعلها وطيئة لينة ناعمة.

﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ أي: نساء أهل الجنة، وأعاد الضمير في قوله: ﴿أَنشَأْنَٰهُنَّ﴾ على غير مذكور، لأنه سبق ما يدل عليهن وهي الفرش.

ومعنى قوله ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ أي: انه عز وجل انشأهن، اي أوجدهن وخلقهن ﴿إِنشَآءً﴾، اي: خلقًا جديدًا.

﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾ أي: في النشأة الآخرة جعلناهن أبكارًا بعد أن كن ثيبات.

=

رضي الله عنه.

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٧٤٨، ومسلم في الكسوف ٩٠٧، والنسائي في الكسوف ١٤٩٣.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٣٥٢-٣٥٣، ٥/ ١٣٧، وأبو يعلى فيما ذكر ابن كثير انظر: «تفسير ابن كثير» ٨/ ٧.

وقد يراد بذلك الحور العين فهن أبكار، أو الأبكار من نساء الدنيا اللاتي لم يتزوجن في الدنيا.

والبكر هي التي لم تفتض بكارتها بعد، كما قال تعالى:﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٧٤﴾ [الرحمن: ٥٦، ٧٤]. ونساء الجنة مهما جامعها زوجها عادت بكراً.

عن الحسن ـ رحمه الله ـ قال: أتت عجوز، فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يدخلني الجنة فقال: «يا أم فلان إن الجنة لا تدخلها عجوز» فولت تبكي، قال: أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز، إن الله تعالى يقول:﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦﴾»[1].

﴿عُرُبًا﴾ قرأ حمزة وعاصم في رواية شعبة (عُرْبًا) بتسكين الراء، وقرأ الباقون بضمها، و (عربًا) جمع عروب، وهن المطيعات لأزواجهن المتعشقات لهم، والمتحببات إليهم بحسن العشرة، وحسن التبعل من اللطافة والرشاقة والظرافة والحلاوة والملاحة والتجمل والتغنج والتكسر والدلال والأدب وحسن الكلام ورقة الخطاب فجمع الله لهن بين حسن الصورة وحسن العشرة، بين حسن الخَلق، وحسن الخُلُق.

(أترابًا) أي: مستويات متماثلات في السن وهو ثلاث وثلاثون سنة، وفي الحسن، متواخيات بينهن مؤتلفات، لا تباغض بينهن ولا تحاسد.

عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله أخبرني عن قول الله ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ قال: «حور: بيض، عين: ضخام العيون، شُفْر[2] الحوراء بمنزلة جناح النسر» قلت: أخبرني عن قوله: ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ قال: «صفاؤهن صفاء الدر الذي في الأصداف، الذي لم تمسه الأيدي» قلت: أخبرني عن قوله: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ قال: «خيرات الأخلاق حسان الوجوه» قلت: أخبرني عن قوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ قال: «رقتهن كرقة الجلد الذي رأيت في داخل البيضة مما يلي القشر، وهو الغِرْقِئُ» قلت: يا رسول الله أخبرني عن قوله: ﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ قال: «هن اللواتي

---

(١) أخرجه الترمذي في الشمائل، وأخرجه البيهقي في «البعث والنشور» ٣٤٦، والبغوي في «معالم التنزيل» ٧/ ١٩ من طريق الترمذي. وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٩، وقد أخرجه من حديث عائشة بمعناه ـ البيهقي في البعث والنشور ص٢١٦، وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» ٢/ ١٠٧، وفي «صفة الجنة» ٣/ ٢٣١، ونسبه الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٠/ ٤١٩، للطبراني في الأوسط.

(٢) الشفر: جفن العين الذي ينبت عليه الشعر، انظر: «لسان العرب» مادة «شفر».

قبضن في دار الدنيا عجائز رمصًا شمطًا، خلقهن الله بعد الكبر، فجعلهن عذارى عربًا متعشقات متحببات، أترابًا: على ميلاد واحد» قلت: يا رسول الله، نساء الدنيا أفضل أم الحور العين؟ قال: «بل نساء الدنيا أفضل من الحور العين، كفضل الظهارة على البطانة» قلت: يا رسول الله وبم ذاك؟ قال:« بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن الله عز وجل، ألبس الله وجوههن النور، وأجسادهن الحرير، بيض الألوان، خضر الثياب، صفر الحلي، مجامرهن الدر، وأمشاطهن الذهب، يقلن نحن الخالدات فلا نموت أبدًا، ونحن الناعمات فلا نباس أبدًا، ونحن المقيمات فلا نظعن أبدًا، ألا ونحن الراضيات فلا نسخط أبدًا، طوبى لمن كنا له وكان لنا» قلت: يا رسول الله المرأة منا تتزوج زوجين والثلاثة والأربعة، ثم تموت فتدخل الجنة ويدخلون معها، من يكون زوجها؟ قال: «يا أم سلمة إنها تُخَيَّر فتختار أحسنهم خلقًا، فتقول: يا رب، إن هذا كان أحسن خلقًا معي فزوجنيه، يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة»[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ: أنطأ في الجنة؟ قال: «نعم، والذي نفسي بيده دَحْماً دَحْمًا، فإذا قام عنها رجعت مطهرة بكرًا»[(٢)].

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عدن أبكارًا»[(٣)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا في النساء. قلت: يا رسول الله، ويطيق ذلك؟ قال: يعطى قوة مائة»[(٤)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله هل نصل إلى نسائنا في الجنة؟ قال: «إن الرجل ليصل في اليوم إلى مائة عذراء»[(٥)].

﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ «لأصحاب»: جار ومجرور، و«اليمين»: مضاف إليه، وهو

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» ١/ ١١٠، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٠.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١١.

(٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» ١/ ٩١، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١١.

(٤) أخرجه الترمذي في صفة الجنة - ما جاء في صفة جماع أهل الجنة ٢٥٣٦ وقال: «صحيح غريب».

(٥) أخرجه الطبراني - فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١١، وقال الحافظ أبو عبد الله المقدسي: «هذا الحديث عندي على شرط الصحيح».

متعلق بقوله: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ٣٥ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ٣٦ عُرُبًا أَتۡرَابٗا﴾ فكأنه قيل: لمن؟ فقال: ﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾.

أو متعلق بمحذوف تقديره: خلقنا أو أعددنا، أو ادخرنا ﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ ما ذكر من النعيم النفسي والبدني، من قوله: ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ٢٨﴾ إلى قوله: ﴿عُرُبًا أَتۡرَابٗا ٣٧﴾.

والأظهر الأول لقرب المتعلق، ولأن أصحاب اليمين أيضًا ذكروا أول الآيات في قوله: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ٢٧ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ٢٨﴾ الآيات.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها، ولا يمتخطون، ولا يتغوطون، آنيتهم فيها الذهب، أمشاطهم من الذهب والفضة، ومجامرهم الألُوة، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يرى مخ ساقهما من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم، ولا تباغض، قلوبهم قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشيًا»[1].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يدخل أهل الجنة الجنة جردًا مردًا بيضًا جعادًا مكحلين، أبناء ثلاث وثلاثين، وهم على خلق آدم ستون ذراعًا في عرض سبعة أذرع»[2].

﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٩ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ أي: جماعة كثيرة من أصحاب اليمين من أول هذه الأمة، وجماعة كثيرة من أصحاب اليمين من آخر هذه الأمة، أو جماعة كثيرة من أول كل أمة، وجماعة كثيرة من آخر كل أمة، وقيل جماعة كثيرة من الأمم السابقة، وجماعة كثيرة من هذه الأمة.

وفي حديث عمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة. فكبرنا. ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة. قال: فكبرنا، قال: إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة. قال: فكبرنا. ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٩ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾»[3].

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٥، ومسلم في الهبات ١٦٢٥، وفي الجنة وصفة نعيمها ٢٨٣٤، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٣٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٣٣.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٢٩٥، ٣٤٣، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٤٥ قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٠/ ٣٩٩: «رواه الطبراني في الصغير والأوسط وإسناده حسن».

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٣٣١-٣٣٢، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٣٢-٣٣٣٣، الأثر

=

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالى: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك، فيقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون، فعنده يشيب الصغير ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝﴾ [الحج: ٢] قالوا: يا رسول اله وأينا ذلك الواحد؟ قال: أبشروا فإن منكم رجلاً ومن يأجوج ومأجوج ألفاً، ثم قال: والذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة. فكبرنا، فقال: أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة، فكبرنا، فقال: أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبرنا، فقال: ما أنتم في الناس إلا كالشعرة السوداء في جلد ثور أبيض، أو كشعرة بيضاء في جلد ثور أسود»(١).

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ فقبض بيده قبضتين، فقال: «هذه للجنة ولا أبالي، وهذه للنار ولا أبالي»(٢).

الفوائد والعبر:

١ ـ عظم شأن أصحاب اليمين.

٢ ـ عظم ما أعده الله من النعيم لأصحاب اليمين فسدر مخضود شوكه، وطلح منضود ثمره، وظل ممتد، وماء مصبوب يجري بغير أخدود، وفواكه كثيرة متنوعة مختلفة الطعوم، لا تنقطع ولا تمنع عنهم، وفرش سميكة مرتفعة، عليها نساء أبكار متحببات إلى أزواجهن متماثلات في سن ثلاث وثلاثين.

٣ ـ قدرة الله تعالى ونعمته في إنشاء نساء أهل الجنة وجعلهن أبكاراً حتى ولو كن من الثيبات في الدنيا، وجعلهن متحببات لأزواجهن متعشقات لهم على سن واحدة.

٤ ـ أن أصحاب اليمين منهم جماعة كثيرة من صدر هذه الأمة وجماعة كثيرة من آخرها.

=

١٨٧٩٤. قال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٤: «وهذا الحديث له طرق كثيرة من غير هذا الوجه في الصحاح وغيرها» وأخرجه أحمد ٢/ ١٣٩١، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٣٠- الأثر ١٨٧٧٥ مختصرًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٣٤٨، ومسلم في الإيمان ٢٢٢ وأخرجه مسلم أيضًا من حديث عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه ٢٢١.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ٢٣٩.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ﴿٤٢﴾ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة السابقين المقربين، وأصحاب اليمين الذين يؤتون كتبهم باليمين، وتفصيل حالهم ومآلهم، وما أعد لهم من النعيم المقيم ثم عطف عليهم بذكر الصنف الثالث، وهم أصحاب الشمال الذي يؤتون كتبهم بالشمال، وفصل حالهم ومآلهم وما أعد لهم من العذاب المقيم في الجحيم.

قوله ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ أصحاب الشمال: هم الذين يُعطون كتبهم بشمائلهم بعد أن تلوى خلف ظهورهم، كما قال عز وجل ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴿٢٥﴾ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ﴿٢٦﴾﴾ [الحاقة: ٢٥، ٢٦]، وقال تعالى:﴿ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ﴿١١﴾ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الانشقاق: ١٠- ١٢].

﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ أي: أيُّ شيء هم أصحاب الشمال، تحقيرًا لشأنهم وإشارة وتنبيها لسوء حالهم ومآلهم وما أعد لهم من صنوف العذاب في نار الجحيم، ثم فصّل ذلك بقوله ﴿فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ﴾ إلى قوله: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾.

قوله ﴿فِي سَمُومٖ﴾ أي: في ريح شديدة الحرارة، ﴿وَحَمِيمٖ﴾ ماء بالغ غاية الحرارة.

﴿وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ﴾ أي: ظل الدخان الأسود، كما قال عز وجل:﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾﴾ [المرسلات: ٣٠، ٣١].

﴿لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ﴾ لا: نافية، وقوله ﴿لَّا بَارِدٖ﴾ لإثبات شدة حرارته؛ لأن الصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها كما في قوله تعالى:﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٩٨] فقوله ﴿ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ لإثبات كمال حياته عز وجل.

ومعنى (لا بارد) أي: ليس بارداً يقيهم الحر ويستريحون فيه، كما هو الشأن في الظل، بل هو ظل حار محض خالص الحرارة.

(ولا كريم) أي: ولا حسن المنظر ينعمون به، فليس فيه شيء من الخير البتة، بل هو شر خالص محض، دخان كريه منظره، قبيح مظهره، حار داخله ومخبره، لا نفع فيه، ولا دفع من أذى الحر، ولا غيره.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ .

ذكر الله عز وجل في هذه الآيات الأسباب التي أدت بهؤلاء إلى كونهم من أصحاب الشمال وفي صنوف هذا العذاب.

قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ أي: من الأسباب التي أدت بهم إلى هذه الحال والمآل السيء (إنهم كانوا قبل ذلك) أي: في دار الدنيا التي هي محل العمل (مترفين) المترف: هو المتنعم المائل إلى الترف والنعيم ودَعة العيش وحظوظ النفس وشهواتها.

فالمترفون: هم المتنعمون المقبلون على الترف ولذات أنفسهم وأهوائهم الذين نظرتهم إلى الحياة نظرة بهيمية مادية فقط، تاركين الهدف الذي خلقوا من أجله وهو عبادة الله عز وجل وراءهم ظهريًا، وأنى لمن كانت هذه نظرته إلى الحياة السعادة، فما أتعس عيشه، وما أعظم خسارته.

﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾ الإصرار على الشيء بمعنى الاستمرار والتصميم عليه من غير توبة، ﴿الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾ الذنب العظيم، وهو الشرك أعظم الذنوب. قال تعالى فيما حكاه عن لقمان عليه السلام أنه قال لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢]، أي: بشرك.

وإنما كان الشرك أعظم الذنوب؛ لأن حق الله عز وجل هو أعظم الحقوق وأبينها وهو عبادته عز وجل وحده، فمن أشرك معه غيره فقد صرف حقه عز وجل لغيره.

فمعنى الآية ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾ أي: وكانوا يصممون ويستمرون على الشرك ولا ينوون التوبة والرجوع عنه.

﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ﴾ مستبعدين للبعث والحساب والجزاء على الأعمال بل مكذبين بذلك ومنكرين له ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ أي: ائذا متنا وصارت أجسامنا في القبور ترابًا وعظامًا رميمة بالية ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أي: كيف نبعث، أو كيف يقال إنكم ستبعثون وقد صرنا إلى هذه الحال، ﴿أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ الذين ماتوا قبلنا كيف

يبعثون وقد صارت أجسادهم ترابًا وعظامًا رميمية بالية، والاستفهام للإنكار، أي: لا يمكن أن نبعث ولا آباؤنا.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾.

هذا رد من الله عز وجل عليهم في استبعادهم وتكذيبهم للبعث وإنكارهم له.

(قل) أي: قل لهم يا محمد ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ من آبائكم وغيرهم، ﴿وَٱلْآخِرِينَ﴾ منكم ومن غيركم ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ اللام للتوكيد، أي: لمجموعون إلى وقت يوم محدد معلوم عند الله لا يتقدم ولا يتأخر ولا يزيد ولا ينقص وهو يوم القيامة، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [هود: ١٠٣، ١٠٤]، وقال تعالى:﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [سبأ: ٣٠] وقال تعالى:﴿ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾﴾ [المرسلات: ١١- ١٤]، وقال تعالى:﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الدخان: ٤٠]، وقال تعالى:﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [النبأ: ١٧، ١٨]، وقال تعالى:﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن:٩]، وقال تعالى:﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران:٢٥]، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾[الأعراف: ١٨٧]، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[الأحزاب: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾[النازعات: ٤٢ ـ ٤٤].

قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

بعد ما ذكر الله عز وجل حقارة أصحاب الشمال، وما هم فيه من العذاب الشديد من السموم والحميم والظل الحار، وسبب كونهم من أصحاب الشمال واستحقاقهم العذاب، وهو ترفهم وشركهم وإنكارهم للبعث، ورد عليهم في ذلك،

ذكر ما أعد لهم من النزل من الزقوم والماء الحار وبئس النزل.

قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ وجه الخطاب إليهم مباشرة بعد أن كان الكلام قبله مع الغائب بقصد تشديد الوعيد والتهديد لهم، أي: ثم اعلموا أنكم أيها ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾ التائهون عن طريق الحق والصواب، البعيدون عنه كل البعد، ﴿ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ للرسل وللبعث والحساب ﴿لَآكِلُونَ﴾ اللام للتوكيد. ﴿مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ هو شجر يخرج في أصل الجحيم من أقبح الأشجار وأخبثها وأنتنها ريحًا، وأبشعها منظرًا، قال تعالى:﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۝ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ۝﴾ [الصافات: ٦٤ ـ ٦٨]، وقال تعالى:﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ۝ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ۝﴾ [الدخان: ٤٣ ـ ٤٦]، وقال تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ۝﴾ [الصافات: ٦٢، ٦٣].

وسمي الزقوم لأن الآكل منه يتزقمه تزقماً لخبثه وشدة بلعه كما قال تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾[إبراهيم: ١٧].

﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ وذلك لشدة جوعهم واضطرارهم إليه، وإلزام الملائكة لهم بذلك.

﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ أي: فشاربون على هذا المأكل والمطعم الأثيم من الماء الحار شديد الحرارة.

﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ قرأ عاصم ونافع وأبو جعفر وحمزة بضم الشين، «شُرْبَ» وقرأ الباقون بفتحها، والهيم: هي الإبل العطاش التي أصابها الهيام فلا تكاد تروى من شدة العطش والهيام، أي: أنهم لشدة عطشهم لا يكادون يروون.

﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ أي: هذا العذاب وهو طعام الأثيم وهذا الشراب الحميم الحار هو ما أعد لنزولهم ولضيافتهم ولمجازاتهم يوم الدين، وهذا ما قدموه واختاروه لأنفسهم من الضيافة.

والنزل: ما يعد للضيف عند نزوله.

فبئس النزل نزلهم ريح سموم شديدة الحرارة، وظل حار من دخان النار الأسود، وطعام من الزقوم وشراب من الحميم في غاية الحرارة ـ نسأل الله السلامة والعافية ـ وشتان بين هؤلاء وبين من قال الله فيهم:﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ

فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ [فصلت: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ [الزخرف: ٧١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف: ١٠٧، ١٠٨].

نسأل الله ـ تعالى ـ من فضله.

الفوائد والعبر:

١ ـ تحقير شأن أصحاب الشمال، وسوء حالهم ومآلهم.

٢ ـ شدة عذاب أصحاب الشمال في النار؛ فريح سموم، وماء حميم في غاية الحرارة، وظل من دخان النار الأسود لا برودة فيه، ولا خير فيه البتة.

٣ ـ أن سبب تعذيب أصحاب الشمال بما ذكر من ألوان العذاب ترفهم في الدنيا وإصرارهم على الشرك العظيم وإنكارهم البعث، مما يوجب الحذر من ذلك.

٤ ـ إثبات البعث والمعاد وأن الأولين والآخرين مجموعون إلى وقت يوم معلوم، وهو يوم القيامة.

٥ ـ خبث وقبح ما أعد للمكذبين من النزل والضيافة فمأكلهم الزقوم وشرابهم الحميم.

٦ ـ مجازاة كل بما عمل يوم القيامة، وأن الجزاء من جنس العمل.

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله عز وجل فيما سبق قول المكذبين بالبعث والحساب:﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ ورد عليهم بعد ذلك بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٥٠﴾ ثم أتبع ذلك بذكر الأدلة على أحقية البعث والمعاد وقدرته عز وجل التامة على ذلك بذكر الخلق الأول والنشأة الأولى.

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ أي: نحن أوجدناكم وابتدأنا خلقكم من العدم بعد أن لم تكونوا شيئًا مذكورًا كما قال عز وجل:﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩﴾ [مريم: ٩]، وقال عز وجل:﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان: ١]، أي: قد أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا بل كان عدمًا محضًا، ثم أوجده الله وخلقه وقال تعالى:﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ۝٦٧﴾ [مريم: ٦٧].

﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ الفاء عاطفة، و(لولا) للتحضيض، أي: فهلا تصدقون بالبعث، وان من قدر على إيجادكم من العدم قادر على إعادتكم وبعثكم بعد الموت من باب أولى واحرى، قال تعالى:﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان:٢٨]، وقال تعالى:﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٥﴾ [ق: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧].

ومعنى قوله: (فلولا تصدقون) أي: صدقوا.

(افرايتم ما تمنون) الهمزة للاستفهام الإنكاري و(ما) موصولة، أي: أفرايتم الذي تمنون، اي: اخبروني عنه، والمني: هو الماء المهين الذي يصب ويقذف في الأرحام، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠﴾ [المرسلات: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾ [الطارق: ٥- ١٠].

﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ الاستفهام للإنكار والنفي، اي: أأنتم تخلقون وتوجدون هذا

المني وتجعلونه ينتقل من طور إلى طور حتى يكون إنسانًا سويًا، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ۝﴾ [الطور: ٣٥].

والجواب: لا، أي: لستم أنتم الذين تخلقونه.

﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾ (أم) هي المنقطعة التي بمعني (بل)، أي: بل نحن الخالقون حقيقة، لا أنتم، والاستفهام للتقرير.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝﴾ [يونس: ٣٤].

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ قرأ ابن كثير بتخفيف الدال (قَدَرنا) وقرأ الباقون بتشديدها.

والمتكلم بضمير العظمة (نحن) هو الله عز وجل لأنه العظيم سبحانه والمعنى: نحن كتبنا عليكم الموت، كما قال عز وجل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ٨٥، الأنبياء:٣٥، العنكبوت:٥٧]، وقال تعالى:﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

قال الشاعر:

كتب الموت على الخلق فكم ... فلّ من جمع وأفنى من دول[1]

وقال الآخر:

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته ... يبقى الإله ويفنى المال والولد

وقال الآخر:

تعزّ فلا شيء على الأرض باقيا ... ولا وزر مما قضى الله واقيا

وأيضًا (قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ) أي: صرفناه بينكم، فمنكم من يموت في بطن أمه، ومنكم من يموت طفلاً صغيرًا، ومنكم من يموت كهلاً، ومنكم من يموت شيخًا كبيرًا، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ

---

(١) البيت لابن دريد.

عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [النحل: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [الحج: ٥].

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ اي: وما نحن بعاجزين ومغلوبين ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ اي: على أن نبدل أشباهكم وخلقكم بأن نخلقكم على غير هذه الصور التي أنتم عليها، ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الصور والصفات والأشكال والأحوال فلم نعجز عن خلقكم ابتداء على هذه الصور، ولم نعجز عن إماتتكم، ولن نعجز عن تبديل صوركم وأمثالكم، وإنشائكم فيما لا تعلمون من الصور والصفات والأشكال والأحوال كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥]، وقال تعالى: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الإنسان: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ [النجم: ٤٥ ـ ٤٧].

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ الواو استئنافية، واللام للقسم، وقد للتحقيق، اي: والله لقد علمتم النشأة الأولى اي: عرفتموها، وعلمتم وعرفتم أن الله أنشأكم النشأة الأولى من العدم، بعد أن لم تكونوا شيئًا مذكورًا.

﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الفاء: عاطفة، و(لولا) للتحضيض، اي: فهلا تتذكرون وتتعظون وتعرفون أن الذي قدر على هذه النشأة ـ وهي البداءة ـ قادر على النشأة الأخرى، وهي إعادتكم وبعثكم بعد الموت من باب أولى وأحرى، كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس: ٧٧ـ ٨٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق: ١٥]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ

بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ القيامة: ٣٦ ـ ٤٠].

قال ابن القيم[1]: «وهذا في القرآن كثير جدًا يقرن بين النشأتين مذكرًا للفطر والعقول بإحداهما على الأخرى».

الفوائد والعبر:

١ ـ أن الله ـ عز وجل ـ هو الخالق العظيم.

٢ ـ وجوب التصديق بالبعث وبما جاء به الرسول ﷺ.

٣ ـ الاستدلال بالخلق الأول على الخلق الثاني.

٤ ـ قدرة الله ـ عز وجل ـ التامة على إيجاد أصل خلق الإنسان وأطوار خلقه حتى استوائه.

٥ ـ تقدير الله ـ عز وجل ـ الموت وكتابته على الخلق كلهم.

٦ ـ أن الله ـ عز وجل ـ قادر على تبديل الخلق بغيرهم، وعلى إنشائهم على ما شاء من الصور لأنه لا يعجزه شيء، وفي هذا تهديد للمكذبين.

٧ ـ الحث على التذكر والاتعاظ والاستدلال بالنشأة الأولى على البعث والنشأة الثانية.

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/٣٥٦.

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة في معرض الرد على منكري البعث الدليل الأول على أحقية وقوع البعث، وهو الخلق الأول والنشأة الأولى بخلق آدم من التراب وتناسل ذريته من ماء الرجل والمرأة، ثم إماتتهم وإفنائهم، وهذا أقوى الأدلة وأظهرها على أن البعث بعد الموت حق، لأن من قدر على الخلق الأول فهو أقدر على الخلق الثاني من باب أولى وأحرى.

ثم أتبع عز وجل ذلك بذكر الدليل الثاني وهو إحياء النبات، ثم الدليل الثالث وهو إنزال المطر، ثم الدليل الرابع وهو إشعال النار وإيجادها[1].

قوله ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، وهي كذلك في قوله ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾﴾ وفي قوله ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾﴾ و(ما) موصولة أي: أخبروني عن الحب والنبات الذي تحرثون، أي: تحرثون الأرض وتشقونها وتبذرونه وتلقونه فيها.

﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾ الاستفهام للإنكار والنفي، أي: أأنتم تنبتونه وتوجدون فيه الحياة النباتية، والجواب: لا، أي: لستم أنتم الذين تزرعونه.

﴿أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ (أم) في هذا الموضع والمواضع التي بعده هي المنقطعة التي بمعنى (بل) أي: بل نحن الزارعون الذين أوجدنا فيه الحياة والنمو فنبت ونما وأثمر.

---

(١) ومن أعظم الأدلة التي يذكرها الله عز وجل على أحقية البعث خلق السموات والأرض قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر:٥٧]، وقال تعالى: ﴿۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [الإسراء:٩٩]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس:٨١]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف:٣٣].

والاستفهام للتقرير.

وقد روي أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقولن زرعتُ، ولكن قل حرثت» قال أبو هريرة: «ألم تسمع إلى قول الله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝﴾»[1].

قال الشاعر:

انظـــر لتلـــك الشــجرة	ذات الغصـــون النضــرة
مـــن ذا الـــذي أنبتهـــا	وشـــق منهـــا الثمـــرة
ذاك هـــو الله الـــذي	أنعمـــه منهمـــرة
ذو حكمـــة بالغـــة	وقـــدرة مقتـــدرة

﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ (لو) شرطية، وهي حرف امتناع لامتناع، أي امتناع الجواب لامتناع الشرط، أي: امتناع كون هذا الحرث حطامًا، لأن الله لم يشأ ذلك.

واقترن جواب (لو) باللام لأن هذا هو الأكثر في جوابها إذا كان مثبتًا أن يقترن باللام، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ [محمد: ٣٠]، وقد لا يقترن كما في قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾.

أما إذا كان جوابها منفيًا بـ«ما» فالأكثر، بل الأفصح ألا يقترن جوابها باللام تقول: لو جاء زيد ما كلمتك، وقد يقترن باللام أحيانًا فتقول لو جاء زيد لما كلمتك، ومنه قول الشاعر:

ولو نعطى الخيار لما افترقنا ولكن لا خيار مع الليالي[2]

ومعنى قوله (لو نشاء لجعلناه حطامًا) أي: لو نشاء لجعلنا هذا الحرث حطامًا، أي: هشيما يابسًا متكسرًا بعد إخراجه زرعاً وتعلق النفوس به، وهذا أشد حسرة من إهلاكه قبل نباته.

وفي هذا إشارة إلى قدرة الله عز وجل التامة على جعل هذا الحرث حطامًا، كما

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٣٤٨، والبزار في «مسنده» ١٢٨٩، وابن حبان في صحيحه ٥٧٢٣، والطبراني في الأوسط ٨٠٢٤، وأبو نعيم في الحلية ٨/ ٢٦٧، والبيهقي في «شعب الإيمان». ٥٢١٧، ٥٢١٨.

(٢) انظر «أوضح المسالك» ٤/ ٢٣١، «شرح شواهد المغني» ٢/ ٦٦٥ «مغني اللبيب» ١/ ٢٧١، والبيت فيها بلا نسبة.

أن فيه تخويفًا للمخاطبين بعقوبتهم بإهلاك حروثهم.

﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ أي: فتظلون بعد ذلك ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ التفكه في الأصل من الأضداد فهو يأتي بمعنى التنعم ومنه سميت الفاكهة، ويأتي بمعنى الحزن والندم والعجب وتنويع المقال أي: فتظلون بعد كون حرثكم حطامًا تفكهون في المقالة، أي: تنوعون الكلام فيما حصل لحرثكم وسبب ذلك وتعجبون من سوء حاله ومصيره، وتتلاومون وتندمون قائلين تارة ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ أي: حملنا غرامة هذا الحرث وقيمته، وقيل لملقون في الشر، أو مولع بنا، أو معذبون ومهلكون. وتارة تقولون ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ «بل» للإضراب الانتقالي، أي: بل حرمنا الرزق وثمرة هذا الحرث.

فبسبب هلاك حرثهم تحملوا غرامة ذلك، وحرموا من ثمرة ذلك الحرث

وهذا كما ذكر الله عز وجل عن أصحاب الجنة من بني إسرائيل في سورة القلم أنهم قالوا لما رأوها قد احترقت: ﴿إِنَّا لَضَالُّونَ ۝٢٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٢٧﴾ [القلم: ٢٦، ٢٧].

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾: الاستفهام كسابقه للإنكار، أي: أخبروني عن الماء الذي تشربون منه أنتم ومواشيكم وحروثكم.

﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ الاستفهام للإنكار والنفي، كقوله ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥ﴾ أي: أأنتم أنزلتم هذا الماء العذب ﴿مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ وهو السحاب.

والجواب: لا، أي: لستم أنتم الذين أنزلتموه من المزن.

﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ «أم» بمعنى «بل»، أي: بل نحن المنزلون كما قال عز وجل: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ۝٤٨ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ۝٤٩﴾ [الفرقان: ٤٨، ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠﴾ [ق: ٩، ١٠]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠﴾ [النحل: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم: ٢٤].

﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ أي: لو نشاء جعلناه مرًا ملحًا زعاقًا، لا يصلح للشرب، لا للإنسان، ولا للحيوان، ولا للحروث والزروع. ولم يقل «لو نشاء لم ننزله» ونحو ذلك لأن وجوده مع كونهم لا يستطيعون الانتفاع به أشد حسرة.

﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ الفاء: عاطفة و (لولا) بمعنى «هلا» للتحضيض، أي: فهلا تشكرون

الله عز وجل على ما أنعم به عليكم من هذا الماء العذب الزلال وغيره من النعم.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ الاستفهام للإنكار، أي: أخبروني عن النار التي تقدحونها من الزناد وتشعلونها، أي تقدحون الزناد لاستخراجها.

﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ﴾ الاستفهام للإنكار والنفي، أي: لستم أنتم الذين ﴿أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ﴾.

﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ أي: بل نحن المنشئون لشجرتها ومادتها والاستفهام للتقرير.

قال ابن كثير[1]: «وللعرب شجرتان، إحداهما: المرخ، والأخرى: العفار، إذا أخذ منهما غصنان أخضران، فحك أحدهما بالآخر تناثر بينهما شرر النار».

﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾ (جعل) هنا بمعنى (صير) تنصب مفعولين الأول الضمير (ها) والثاني «تذكرة» وهو من الجعل الكوني.

ومعنى «تذكرة» أي: مذكرة بالنار الكبرى في الآخرة، لأنها جزء منها كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم فقالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية فقال: إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزء كلهن مثل حرها»[2].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم، ولو لا أنها أطفئت بالماء مرتين ما انتفعتم بها، وإنها لتدعو الله عز وجل أن لا يعيدها فيها»[3].

﴿وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ أي: يتمتعون بها فيطبخون عليها طعامهم، ويستدفئون بها من البرد ويستضيئون بنورها في منازلهم ومقامهم ويوقدونها على مرتفع ليهتدي بها الضال كما قالت الخنساء في أخيها صخر:

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

إلى غير ذلك من منافعها.

---

(١) في «تفسيره»٨/ ١٨.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ـ صفة النار وعذابها ٣٢٦٥، ومسلم في صفة الجنة والنار ـ باب في شدة حر نار جهنم ٢٨٤٣، والترمذي في صفة جهنم ٢٥٨٩، وأحمد ٢/ ٢٤٤.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الزهد ٤٣١٨.

و«المقوين» المسافرين وسمى المسافرون بهذا الاسم، لأن القَواء هو القفر الخالي البعيد من العمران، ومنه قولهم: «أقوت الدار إذا رحل أهلها» وقول عنترة بن شداد[1].

حُيِّيْتَ من طلل تقادم عهده   أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

والمراد بالآية عموم المتمتعين بالنار من المقيمين والمسافرين، وإنما خص المسافرون بالذكر ـ والله أعلم ـ لأن المقيمين قد يشعل أحدهم النار من جمر نار سابقة، أو من نار جاره، ونحو ذلك، ولهذا قال ﷺ: «الناس شركاء في ثلاث في الماء والنار والكلأ»[2].

واشتراك الناس في النار إنما يتحقق غالبًا في حال الإقامة.

وهذا كله نعمة من الله عز وجل، لكن تظهر نعمة الله عز وجل أكثر على المسافر الذي لا يجد أحدًا يأخذ من ناره في كونه يستطيع أن يحمل في متاعه بلا مشقة زندًا أوعودين من هتين الشجرتين يوري منهما النار عند الحاجة، ولعل هذا من حكمة تخصيص المسافرين بالتمتع بها في الآية.

وقال ابن القيم[3]: «وخص المقوين بالذكر وإن كانت منفعتها عامة للمسافرين والمقيمين تنبيهًا لعباده ـ والله أعلم بمراده من كلامه ـ أنهم كلهم مسافرون، وأنهم في هذه الدار على جناح سفر ليسوا هم مقيمين، ولا مستوطنين، وأنهم عابرو سبيل وأبناء سفر».

أقول: رحمك الله يا ابن القيم وجزاك الله خيرًا على هذا الاستنباط، فالخلق كلهم مسافرون، والنار متعة لهم في هذه الدار الفانية.

وقال ابن كثير[4] بعد أن ذكر القول بأن المراد بالمقوين: المسافرون والحاضرون، قال: «وهذا التفسير أعم من غيره فإن الحاضر والبادي من غني وفقير الكل محتاجون للطبخ والاصطلاء والإضاءة، وغير ذلك من المنافع، ثم من لطف الله تعالى أن

---

(١) انظر: «ديوانه» ص١٨٥.

(٢) أخرجه أبو داود في البيوع ـ باب في منع الماء ٣٤٧٣، وابن ماجه في الرهون ـ المسلمون شركاء في ثلاث ٢٤٧٣ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه، وأخرجه أبو داود ٣٤٧٧، وأحمد ٥/ ٣٦٤ ـ من حديث رجل من المهاجرين من أصحاب النبي ﷺ.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٥٦.

(٤) في «تفسيره» ٨/ ٢٠.

أودعها في الأحجار، وخالص الحديد بحيث يتمكن المسافر من حمل ذلك في متاعه، وبين ثيابه فإذا احتاج إلى ذلك أخرج زنده وأورى، وأوقد ناره، فاطبخ واصطلى، واشتوى واستأنس بها، وانتفع بها سائر الانتفاعات، فلهذا أفرد المسافرون، وإن كان ذلك عامًا في حق الناس كلهم».

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾: التسبيح: تنزيه الله عن النقائص والعيوب وعن مشابهة المخلوقين. والرب: هو الخالق المالك المدبر و «العظيم» صاحب العظمة التامة الذي لا أعظم منه ولا أكبر، كامل الأسماء والصفات، كثير الإحسان والخيرات والمعنى: قل سبحان ربي العظيم، منزهًا ربك العظيم عن النقائص والعيوب، وعن مشابهة المخلوقين، ومعلنًا أن كل كمال فالله أولى به، وأن له عز وجل القدرة التامة على البعث والمعاد، كما أوجد الخلق من العدم وبعث فيهم الحياة، وأحيا الحرث والنبات، وأنزل الماء من السحاب وأوجد مادة النار مع ما في هذه المخلوقات العظيمة وغيرها من الاختلاف والتضاد، فسبحان الرب الخالق العظيم.

الفوائد والعبر:

١ ـ أن الله ـ عز وجل ـ هو الزارع المنبت للنبات المحيي للأرض بعد موتها وفي ذلك دليل على قدرته التامة على إحياء الموتى.

٢ ـ بيان قدرة الله التامة على جعل الزرع هشيماً يابساً متكسراً قبل استوائه وفي هذا تخويف للعباد.

٣ ـ ضعف الخلق وضعف حولهم وقوتهم أمام قدرة الله ـ عز وجل ـ وحوله.

٤ ـ أن نظرة كثير من الخلق للمصائب في حروثهم وزروعهم وغيرها نظرة مادية فقط؛ يحزنون على ما أصابهم ويتعجبون، ويقرون بالغرامة والحرمان، لكنهم لا يتفكرون في سبب ذلك وهو المعاصي.

٥ ـ امتنان الله ـ عز وجل ـ على الخلق بإنزال الماء من السحاب لشرب الناس ودوابهم وحروثهم ولو شاء لجعله ـ بقدرته مراً مالحاً لا يصلح لا للإنسان ولا للحيوان، ولا للنبات وفي هذا تقرير لنعمته ـ عز وجل ـ عليهم بذلك ليشكروه وتخويف لهم.

٦ ـ قدرة الله ـ عز وجل ـ التامة ونعمته على الخلق بإيجاد عنصر النار يتمتعون بها وتذكرهم بنار الآخرة.

٧ ـ وجوب التسبيح باسم الرب العظيم ـ وبخاصة في الصلاة، وإثبات اسم الله العظيم، وربوبيته ـ عز وجل ـ الخاصة لنبيه ﷺ ولأتباعه.

﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

بعد ما ذكر الله عز وجل الدلائل الكونية على أحقية البعث والمعاد من الخلق الأول وإحياء الحرث وإنزال الماء من السحاب وإيجاده مادة النار في الشجر ذكر الدليل الشرعي على ذلك وهو القرآن الكريم، وأقسم على أنه تنزيل من عنده عز وجل.

قوله ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ الفاء استئنافية و«لا» يؤتى بها في أول القسم إذا كان مقسمًا به على منفي، للتنبيه وتوكيد النفي، كقول عائشة رضي الله عنها: «لا والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط» كما جاء في بعض روايات حديث مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة رضي الله عنهما[1].

وهكذا ههنا تقدير الكلام: لا أقسم بمواقع النجوم، أي: ليس الأمر كما زعمتم في القرآن أنه سحر أو كهانة، بل هو قرآن كريم، أو ليس الأمر كما تقولون، ثم استأنف القسم بعد فقال: أقسم.

وقيل إن «لا» صلة، والتقدير: أقسم بمواقع النجوم، وعلى هذه التقديرات فقوله (فلا أقسم بمواقع النجوم) قسم من الله عز وجل بمواقع النجوم، ولله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، لأن إقسامه بها دليل على عظمته هو، فكأنه يقول: أقسم بما خلقت.

وقيل معنى (فلا أقسم) نفي للقسم، أي: لا يحتاج الأمر إلى قسم، لكن هذا يرده قوله (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) ففي هذا إثبات للقسم.

قرأ حمزة والكسائي وخلف «بموقع» على الإفراد، وقرأ الباقون بالجمع (بمواقع).

وقوله (بمواقع النجوم) هذا هو المقسم به والنجوم: هي النجوم والأفلاك التي في السماء، ومواقعها: منازلها، ومشارقها ومغاربها، وانكدارها وانتثارها وسقوطها كما قال تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾﴾ [النجم: ١]، وقال تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ

---

(١) أخرجه البخاري في الشروط ٢٧١٣، وأبو داود في المناسك ١٧٥٤، والنسائي في مناسك الحج ٢٧٧١، وابن ماجه في الجهاد ٢٨٧٥.

وَٱلْمَغَرِبِ﴾ [المعارج: ١٠]، وقال تعالى:﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝﴾ [الطارق: ١ـ ٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝﴾ [التكوير: ١٥، ١٦]، وقال تعالى:﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝﴾ [الذاريات: ٤٩].

وإنما أقسم الله عز وجل بالنجوم ومواقعها لما فيها من الآيات العظيمة الدالة على ربوبية الله ـ عز وجل ـ وانفراده بالخلق والإبداع، مما يوجب صرف العبادة له وحده. ويحتمل أن المراد بـ(النجوم) نجوم تنزيل القرآن الكريم، أي: مواضع وأوقات نزوله المتفرقة خلال ثلاث وعشرين سنة.

﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ اعترض بهذه الجملة بين القسم وجوابه، كما اعترض بين الصفة والموصوف في هذه الجملة بقوله (لو تعلمون) فجاء هذا الاعتراض في ضمن هذا الاعتراض، وذلك كله بغرض التوكيد وتعظيم المقسم به والمقسم عليه.

والضمير في قوله ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يرجع إلى القسم في قوله ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾.

قوله ﴿لَقَسَمٌ﴾ اللام للتوكيد، ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ أي: وإن هذا القسم الذي أقسمت به لقسم عظيم، لو تعلمون عظمته لعظمتم المقسم عليه.

﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ هذا هو جواب القسم، والضمير في قوله (إنه) يعود إلى ما أنزل الله ـ عز وجل ـ على رسوله ﷺ من وحيه عز وجل وكلامه القرآن العظيم.

وذكره بضمير الغائب «الهاء» ولم يقل إن هذا القرآن الكريم تعظيمًا وتفخيمًا لشأن القرآن الكريم، وإشارة إلى رفعة مكانته وعلو منزلته، كأنه قال: إنه القرآن الذي من شأنه كذا وكذا، ويشتمل على كذا وكذا ويهدي ويدل إلى كذا.. إلخ.

وعود الضمير على أمر لم يتقدم ذكره، وإنما لشهرته ووضوح المعنى عليه وارد في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ۝﴾ [ص: ٣٢]، أي: الشمس ولم يسبق لها ذكر.

والقرآن: هو كلام الله عز وجل المنزل على رسوله ﷺ المتعبد بتلاوته والعمل به المعجز بأقصر سورة منه.

ومعنى (كريم) أي: عظيم كثير الخير جمّ النفع لما اشتمل عليه من بيان الحق من الباطل والهدى من الضلال، والعلم والحكمة، والهداية لكل خير لمن تدبر ألفاظه ومعانيه وأحكامه، كما قال عز وجل:﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩].

وهو أيضًا كريم على الله عز وجل كرمه عز وجل وعظمه لأنه كلامه، وهو كريم في ثوابه، الحرف منه بحسنة والحسنة بعشر أمثالها كما قال ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول «الم» حرف، لكن ألف حرف ولام حرف، وميم حرف»[١].

ووجه الارتباط بين المقسم به والمقسم عليه واضح على القول بأن المراد بمواقع النجوم: مواقع نزول القرآن منجمًا في ثلاث وعشرين سنة فلعظمة القرآن وما فيه من الهداية والخير الكثير جاء تنجيمه طوال هذه الفترة.

أما على القول بأن المراد بالنجوم الأفلاك فوجه المناسبة بينهما ما ذكره ابن القيم[٢] بقوله: «المناسبة بين ذكر النجوم في القسم، وبين المقسم عليه، وهو القرآن الكريم من وجوه: أحدها: أن النجوم جعلها الله يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وآيات القرآن يهتدى بها في ظلمات الجهل والغي، فتلك هداية في الظلمات الحسية، وآيات القرآن في الظلمات المعنوية، فجمع بين الهدايتين، مع ما في النجوم من الرجوم للشياطين، وفي آيات القرآن من رجوم شياطين الإنس والجن، والنجوم آياته المشهودة المعاينة، والقرآن آياته المتلوة السمعية، مع ما في مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية، ومواقعها عند النزول».

﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ﴾ اي: في كتاب مصون، معظم موقر، محفوظ بحفظ الله عز وجل كما قال عز وجل عن القرآن: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر:٩].

واختلف في المراد بالكتاب المكنون في الآية، فذهب جمهور المفسرين إلى أن المراد بالكتاب المكنون: اللوح المحفوظ، واختاره ابن تيمية وقال: «هو اللوح المحفوظ لا يمسه إلا المطهرون من الملائكة»[٣].

وقيل المراد به المصحف لا يمسه إلا المطهرون من الأحداث أو من الشرك.

وقيل المراد به الصحف التي بأيدي الملائكة، كما في قوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ

(١) اخرجه الترمذي في فضائل القرآن ٢٩١٠، والدارمي في فضائل القرآن ٣٣٠٨، ٣٣١٥ ـ من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح غريب».

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٥٩.

(٣) انظر: «شرح العمدة» ص٣٨١-٣٨٥، «مجموع الفتاوى» ٢١/ ٢٦٥-٢٦٧.

﴿مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۝ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ۝ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ۝﴾ [عبس: ١٣-١٦].

وقد اختار هذا القول ابن القيم، وقال[1]: «ويدل على أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ فهذا يدل على أنه في أيديهم يمسونه وهذا هو الصحيح في معنى الآية».

وقال السعدي[2]: «(في كتاب مكنون) أي: مستور عن أعين الخلق، وهذا الكتاب المكنون هو اللوح المحفوظ أي: إن هذا القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ، معظم عند الله، وعند ملائكته في الملأ الأعلى. ويحتمل أن المراد بالكتاب المكنون، هو الكتاب الذي بأيدي الملائكة، الذين ينزلهم الله لوحيه ورسالته، وأن المراد بذلك، أنه مستور عن الشياطين، لا قدرة لهم على تغييره، ولا الزيادة والنقص منه واستراقه».

﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ (لا) نافية أي: لا يمس هذا الكتاب المكنون إلا المطهرون وهم الملائكة، الذين طهرهم الله من الأرجاس والأنجاس الحسية والمعنوية كما قال تعالى: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝﴾ [التحريم: ٦].

واكتفى بذكر الصفة، وهي (المطهرون) عن ذكر الموصوف وهم الملائكة إشارة إلى كمال طهارتهم وسلامتهم من النجاسات كلها.

وقد رجح ابن القيم[3] رحمه الله القول بأن المراد بالكتاب المكنون الصحف التي بأيدي الملائكة من عشرة وجوه، منها: أن الآية سيقت تنزيها للقرآن أن تنزل به الشياطين، وأن محله لا يصل إليه فيمسه إلا المطهرون، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ۝﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١].

ومنها: أن السورة مكية والاعتناء في السور المكية إنما هو بأصول الدين من تقرير التوحيد والمعادو النبوة، وأما تقرير الأحكام والشرائع فمظنة السور المدنية.

ومنها: أن القرآن لم يكن في مصحف عند نزول هذه الآية، ولا في حياة رسول الله ﷺ، وإنما جمع المصحف في خلافة أبي بكر. وهذا ـ وإن جاز أن يكون باعتبار ما يأتي

---

(١) انظر: «التبيان في أقسام القرآن» ص١٤٠-١٤٣.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٢٧٥-٢٧٦.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٦٣-٣٦٥، ٣٧٦-٣٧٧.

ـ فالظاهر أنه إخبار بالواقع حال الإخبار يوضحه.

الوجه الرابع، وهو قوله: ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾ والمكنون: المصون المستور عن الأعين الذي لا تناله أيدي البشر.

ومنها: أن وصفه بكونه مكنونًا نظير وصفه بكونه محفوظًا فقوله ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝﴾ كقوله:﴿ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ۝﴾ [البروج: ٢١، ٢٢] يوضحه:

الوجه السادس: أن هذا أبلغ في الرد على المكذبين، وأبلغ في تعظيم القرآن من كون المصحف لا يمسه محدث.

الوجه السابع: قوله (لا يمسه إلا المطهرون) بالرفع فهذا خبر لفظًا ومعنى، ولو كان نهيًا لكان مفتوحًا، ومن حمل الآية على النهي احتاج إلى صرف الخبر عن ظاهره، إلى معنى النهي والأصل في الخبر والنهي حمل كل منهما على حقيقته وليس ههنا موجب يوجب صرف الكلام عن الخبر إلى النهي.

الوجه الثامن: أنه قال: (إلا المطهرون) ولم يقل إلا المتطهرون، ولو أراد به منع المحدث من مسه لقال: إلا المتطهرون كما قال تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ۝﴾ [البقرة: ٢٢٢] وفي الحديث: «اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين»[١] فالمتطهر فاعل التطهير، والمطهر الذي طهره غيره، فالمتوضئ متطهر، والملائكة مطهرون.

أما من قال: إن المراد بالكتاب في الآية المصحف الذي بأيدينا فقالوا إن قوله ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ وإن كان جملة خبرية، فمعناه الطلب والنهي، أي: لا ينبغي أن يمس المصحف إلا المطهرون.

ومما استدل به على وجوب الطهارة لمس المصحف، ويعد من أقوى الأدلة ما جاء في كتاب الرسول ﷺ لعمرو بن حزم لما بعثه إلى اليمن: «وأن لا يمس القرآن إلا طاهرًا»[٢].

---

(١) أخرجه الترمذي في الطهارة ـ ما بعد الوضوء ٥٥ ـ من حديث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه، وقال «في إسناده اضطراب».

(٢) أخرجه مالك في الموطا ـ الأمر بالوضوء لمن مس القرآن «تنوير الحوالك» ١/ ١٥٧، «الموطا» ١/ ١٩٩، وعبد الرزاق في «المصنف» ١/ ٣٤١، وأبو داود في «مراسيله» ١٢١ والحاكم في المستدرك ١/ ٣٩٥، وصححه، ووافقه الذهبي. وأخرجه ابن حبان في صحيحه رقم ٨٩٣. قال الإمام أحمد: «أرجو أن يكون صحيحًا» وقال: «لا أشك أن النبي ﷺ كتبه» انظر:

=

قال ابن كثير[١]: «وروى أبو داود في المراسيل من حديث الزهري، قال: قرأت في صحيفة عند أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن رسول الله ﷺ قال: «ولا يمس القرآن إلا طاهر».

قال ابن كثير: «وهذه وجادة جيدة قد قرأها الزهري وغيره، ومثل هذا ينبغي الأخذ به، وقد أسنده الدارقطني عن عمرو بن حزم، وعبد الله بن عمر، وعثمان بن أبي العاصي، وفي إسناد كل منها نظر».

قال ابن عبد البر في «الاستذكار»[٢]: «وكتاب عمرو بن حزم هذا تلقاه العلماء بالقبول والعمل، وهو عندهم أشهر وأظهر من الإسناد الواحد المتصل، وأجمع فقهاء الأمصار، الذين تدور عليهم الفتوى وعلى أصحابهم بأن المصحف لا يمسه إلا طاهر».

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو»[٣].

فمس المصحف لا يجوز إلا لمن كان طاهرًا طهارة معنوية من الشرك والكفر بأن يكون مسلمًا، وطهارة حسية من النجاسات والحدث الأكبر والأصغر، وهو قول الأئمة الأربعة، والفقهاء السبعة، وجمهور أهل العلم.

بل قد استدل بعض أهل العلم بقوله ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ وإن كان المراد به الصحف التي في السماء، استدل به على عدم جواز مس المصحف الذي بأيدينا إلا على طهارة.

قال ابن القيم[٤]: «وسمعت شيخ الإسلام يقرر الاستدلال بالآية على أن المصحف لا يمسه المحدث بوجه آخر، فقال: هذا من باب التنبيه والإشارة، إذا كانت الصحف التي في السماء لا يمسها إلا المطهرون، فكذلك الصحف التي بأيدينا من القرآن لا ينبغي أن يمسها إلا طاهر، والحديث مشتق من هذه الآية» يعني حديث «وأن

=

«تلخيص الحبير» ١/ ١٤١، «بدائع التفسير» ٤/ ٣٦٥-٣٦٦، «إرواء الغليل» ١/ ١٥٨.

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٢.

(٢) ٨/ ١١.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد ٢٩٩٠، ومسلم في الإمارة ١٨٦٩، وأبو داود في الجهاد ٢٦١٠، وابن ماجه في الجهاد ٢٨٧٩.

(٤) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٦٥، ٣٧٧.

لا يمس القرآن إلا طاهرًا».

وقال ابن تيمية[1] أيضًا: «مذاهب الأئمة الأربعة أنه لا يمس القرآن إلا طاهر».

وهكذا قال ابن القيم[2]: «الآية دالة بأحسن الدلالة على أنه لا يمس المصحف إلا طاهر».

وأما قراءة القرآن من غير المصحف، فلا يمنع منها إلا الجنب لما رُوي: «أنه ﷺ لم يكن يمنعه شيء من قراءة القرآن إلا الجنابة»[3].

فللحائض قراءة القرآن من غير المصحف، وبخاصة إذا احتاجت إلى ذلك كأن تخاف ضياع حفظها ونحو ذلك كما أن لها عند الحاجة أن تقرأ بالمصحف وتمسكه من وراء حائل كأن تكون تدرس القرآن الكريم ونحو ذلك.

قال ابن القيم في كلامه على الآية ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾: «ودلت الآية بإشارتها وإيمائها على أنه لا يدرك معانيه ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة وحرام على القلب المتلوث بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه، وأن يفهمه كما ينبغي. قال البخاري في صحيحه[4] في هذه الآية: لا يجد طعمه إلا من آمن به».

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: إن هذا القرآن الكريم منزل من رب العالمين، فهو كلام الله عز وجل منزل غير مخلوق، وليس بسحر ولا شعر، ولا كهانة، ولا تقوله الرسول ﷺ، كما يقول المبطلون، بل هو الحق الذي لا ريب فيه.

ويؤخذ من الآية أيضًا علو الله عز وجل على خلقه، لأن النزول والتنزيل هو نزول الشيء ووصوله من أعلى إلى أسفل.

ورب العالمين: خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم، ومن ربوبيته لهم ألا يتركهم هملاً بل أرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب بالأمر والنهي ليثيب المطيع منهم ويعاقب العاصي.

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتقريع.

والمراد بـ(الحديث) القرآن الكريم .

---

(١) في «الفتاوى الكبرى» ١/ ٥٦.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٧٥.

(٣) أخرجه أبو داود في الطهارة ٢٢٩، والنسائي في الطهارة ٢٦٥، والترمذي في الطهارة ١٤٦، وابن ماجه في الطهارة ٥٩٤ ـ من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٤) في كتاب التوحيد ـ باب قول الله تعالى ﴿فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ﴾ فتح الباري ١٣/ ٥١٧.

ومعنى (مدهنون) أي: متهاونون مكذبون، أو تريدون المداهنة والمداراة والملاينة في ذلك مع أنكم مكذبون له وغير مصدقين به.

قال الطبري[١]: «أفبهذا القرآن أنتم تلينون القول للمكذبين به، ممالأة منكم لهم على التكذيب به والكفر».

وقال ابن القيم[٢]: «والمداهنة إنما تكون في باطل قوي لا يمكن إزالته، أو في حق ضعيف لا يمكن إقامته فيحتاج المداهن إلى أنه يترك بعض الحق ويلتزم بعض الباطل، فأما الحق الذي قام به كل حق فكيف يداهن به».

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «مطر الناس على عهد النبي ﷺ فقال النبي ﷺ «أصبح من الناس شاكر، ومنهم كافر» قالوا: هذه رحمة، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا. فنزلت هذه الآية (فلا أقسم بمواقع النجوم) حتى بلغ (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون)»[٣].

و«تجعلون» هنا من جعل بمعنى «صيّر» تنصب مفعولين الأول قوله (رزقكم) والثاني المصدر المؤول من قوله (أنكم تكذبون) أي: وتجعلون رزقكم تكذيبكم أي: حظكم منه التكذيب به.

و(الرزق) هو العطاء من المطر وغيره.

والمعنى هنا: وتجعلون سبب رزقكم أنكم تكذبون أي: تنسبون الرزق من المطر وغيره إلى غير الله مسبب الأسباب سبحانه، وذلك بنسبتكم المطر إلى الأنواء، وقولكم: «مطرنا بنوء كذا وكذا».

أو تجعلون شكركم لله على هذا الرزق أنكم تكذبون فتنسبون النعمة والرزق من المطر وغيره إلى غير مسديها وهو الله عز وجل، فتُكذّبون بدل الشكر وقد رُوِيَ عن علي رضي الله عنه أنه قرأها: «وتجعلون شكركم أنكم تكذبون»[٤].

فهم نسبوا النعمة إلى غير مسديها، فنسوا مسبب الأسباب سبحانه وتعالى، وبدل أن يشكروا هذه النعمة كفروها.

---

(١) في «جامع البيان» ٢٢/٣٦٧.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/٣٦٩.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان ٧٣، والواحدي في «أسباب النزول» ٢٧٠.

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/٣٧١.

عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ـ صلاة الصبح بالحديبية في أثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب. وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أنزل الله من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين، ينزل الغيث، فيقولون: بكوكب كذا وكذا»[2].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما مُطر قوم من ليلة إلا أصبح قوم بها كافرين، ثم قال ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ فيقول قائل: مطرنا بنجم كذا وكذا»[3].

ورُوِيَ عن الحسن قال في معنى قوله ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾: «بئس ما أخذ قوم لأنفسهم، لم يرزقوا من كتاب الله إلا التكذيب به»[3].

أي: وتجعلون حظكم ونصيبكم من كتاب الله أنكم تكذبون به[4].

وهذا القول لا ينافي القول الأول، فإن الرزق نوعان: رزق به حياة القلوب وهو الإيمان، ورزق به حياة الأبدان وهو الطعام والشراب ولا شك أن نصيب كثير من الخلق مما جاءت به الرسل من الدعوة إلى الإيمان هو التكذيب كما قال عز وجل: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦]، وقال تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣].

كما أن كثيرًا من الناس ينسبون الرزق إلى الأسباب المادية فقط وينسون مسبب الأسباب ومسدي هذه الأرزاق وهو الله عز وجل. فالأولون إذا أصابهم المطر قالوا: مطرنا بنوء كذا وكذا بدل أن يقولوا: مطرنا بفضل الله ورحمته، والآخرون اليوم ينسبون المطر إلى المنخفضات الجوية.

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٨٤٦، ومسلم في الإيمان ـ باب كفر من قال: مطرنا بالنوء ٧١، وأبو داود في الطب ـ باب في النجوم ٣٩٠٦، والنسائي في الاستسقاء ـ كراهية الاستمطار بالنجوم ١٥٢٥.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ٧٢، والنسائي في الاستسقاء ١٥٢٤.

(٣) أخرجهما الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٣٧٢

(٤) انظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٢٤.

وهكذا إذا حصل لكثير منهم شيء من الخير، من مال أو تيسير عمل، أو شفاء من مرض ونحو ذلك ينسب هذا الفضل والخير للأسباب المادية فقط.

و لا شك أن هذا من كفر النعم وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨].

ولهذا ترى كثيراً من الناس عندما تكون له حاجة، كأن يتعسر عليه سبب الرزق والعمل، أو يصاب بمرض ونحو ذلك تراه يتجه رأسًا للأسباب المادية، ويغفل عن التوجه إلى مسبب الأسباب وهو الله عز وجل وقد قال الله عز وجل: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢].

فالجأ أخي الكريم في كل حاجاتك الدينية والدنيوية إلى من بيده الخير والفضل كله وإلى مسدي جميع النعم ودافع النقم، وموجد الأسباب ومسبباتها، واسأله من فضله، وافعل الأسباب، وأبشر بالخير إن شاء الله.

الفوائد والعبر:

١ ـ إقسام الله ـ عز وجل ـ بمواقع النجوم على عظمة القرآن، وأنه قرآن كريم فيه الهداية والخير كل الخير.

٢ ـ تعظيم الله ـ عز وجل ـ لمواقع غروب الكواكب وسقوطها ومواضع تنزلات القرآن وأوقاته لأنه ـ عز وجل ـ أقسم بها ـ وفي ذلك تعظيم لنفسه ـ عز وجل ـ.

٣ ـ عظم هذا القسم والمقسم به لأنه قسم من العظيم سبحانه وتعالى بآياته الكونية ومواضع وأوقات تنزلات آياته الشرعية على عظمة وحيه القرآن الكريم وكثرة خيره ونفعه ورفعة مكانته وعلو منزلته.

٤ ـ أن القرآن الكريم محفوظ بحفظ الله ـ عز وجل ـ باللوح المحفوظ وبالصحف التي بأيدي الملائكة، كما أن المصحف محفوظ بحفظه ـ عز وجل ـ.

٥ ـ أن هذا الكتاب المكنون لا يمسه في الملأ الأعلى إلا المطهرون وهم الملائكة الذين طهرهم الله حسياً ومعنوياً.

٦ ـ أن المصحف لا يجوز أن يمسه إلا من كان مسلماً متطهراً من الحدث الأكبر والأصغر.

٧ ـ أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق.

٨ ـ إثبات علو الله ـ عز وجل ـ على خلقه وربوبيته العامة لهم جميعاً.

٩ ـ الإنكار على المشركين والمكذبين للقرآن الكريم في تكذيبهم بالقرآن ومداهنتهم به.

١٠ ـ إثبات أن المطر والرزق من الله عز وجل والإنكار على المشركين وغيرهم ممن ينسبون الرزق إلى غير الله ويكفرون بنعم الله ـ عز وجل.

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله عز وجل في أول السورة انقسام الناس إلى ثلاثة أقسام السابقون المقربون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال وأحوالهم وما أعده لكل منهم من الجزاء، ثم ختم السورة بذكر احتضار كل منهم وأحوالهم في ذلك.

قوله ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ الفاء: استئنافية و(لولا) حرف تحضيض، أي: فهلا إذا بلغت الحلقوم،

والمراد: إذا بلغت الروح الحلقوم، أي: صاعدة حال الانقطاع من الدنيا والإقبال على الآخرة، وذلك ساعة الاحتضار، والحلقوم: مجرى النفس، وذكر دون «المريء» مجرى الطعام، لأن بانقطاع النفس يموت الإنسان. كما قال عز وجل ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ [القيامة:٢٦-٣٠].

﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ الواو حالية، أي: وأنتم في هذه الحال تنظرون إلى المحتضر، وما يكابده من سكرات الموت ولا تملكون من الأمر شيئاً.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ اي: إنه عز وجل أقرب إلى هذا المحتضر بملائكته وجنده.

وقوله (منكم) خطاب لأهل المحتضر، فهو عز وجل أقرب إليه بملائكته من أهله الذين هم أمامه وعن يمينه وشماله، قال تعالى:﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام: ٦١].

﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ اي: ولكن لا ترون ملائكتنا.

قال الطبري[1]: «يقول: رسلنا الذين يقبضون روحه أقرب إليه منكم، ولكن لا تبصرونهم».

---

(١) في «جامع البيان» ٢٢/ ٣٧٣.

وقال ابن تيمية [(١)] : «فالمراد قربه إليه بالملائكة، وهذا هو المعروف عن المفسرين المتقدمين من السلف، قالوا: ملك الموت أدنى إليه من أهله، ولكن لا تبصرون الملائكة».

وقال ابن القيم[(٢)]: «ملائكة الرب تعالى أقرب إلى المحتضر من حاضريه من الإنس، ولكنهم لا يبصرون بهم»

وقال ابن كثير[(٣)]: «ونحن أقرب إليه منكم بملائكتنا (ولكن لا تبصرون) أي: لا ترونهم».

﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ الفاء: استئنافية و(لولا) كسابقتها حرف تحضيض.

وقال السعدي [(٤)] : «﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ بعلمنا وملائكتنا».

(غير مدنيين) أي: غير محاسبين ومجزيين بأعمالكم كما تزعمون، والدين: هو الجزاء على الأعمال ولهذا سمي يوم القيامة يوم الدين، قال تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝﴾ [الفاتحة: ٤]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝﴾ [الانفطار: ٩]، أي: بالجزاء على الأعمال، وقال تعالى: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝﴾ [الانفطار: ١٥ - ١٩].

﴿تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ هذا هو جواب (لولا) الأولى والثانية. أي: ترجعون وتردون هذه الروح التي بلغت الحلقوم وخرجت أو كادت أن تخرج إلى مقرها من الجسد ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم في إنكار البعث، وأنكم لن تبعثوا، ولن تدانوا بأعمالكم.

وأنى لهم ذلك، وهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

وفي هذا إلزام لهم بالإقرار والاعتراف بالعجز عن رد الروح إلى جسدها، وبالتالي إلزام لهم بالإقرار والاعتراف بأنهم مدينون بأعمالهم مربوبون مملوكون لرب قادر متصرف فيهم قاهر آمرناهٍ، وهذا يوجب عليهم القيام بحقه سبحانه وشكره وتعظيمه وإجلاله، وأن لا يشركوا معه أحدًا في عبادته، فليس بعد هذا الاستدلال إلا الإذعان والانقياد أو الكفر والعناد وهذا هو الحاصل منهم.

---

(١) في «شرح حديث النزول» ص١٢١.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٧١.

(٣) في «تفسيره». ٨/ ٢٥.

(٤) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٢٧٨.

قال ابن القيم(١): «فتضمنت الآيتان تقريرًا وتوبيخًا، واستدلالاً على أصول الإيمان من وجود الخالق سبحانه، وكمال قدرته، ونفوذ مشيئته، وربوبيته، وتصرفه في أرواح عباده، حيث لا يقدرون على التصرف فيها بشيء، وأن أرواحهم بيده، يذهب بها إذا شاء، ويردها إليهم إذا شاء وإثبات المعاد، وصدق رسوله فيما أخبر به عنه، وإثبات ملائكته وتقرير عبودية الخلق».

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ الفاء: عاطفة، و«أما» حرف شرط وتفصيل.

أي: «فأما» إن كان المحتضر من المقربين الذين وصفهم الله في أول السورة بقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝﴾ [الآيتان: ١٠، ١١].

قال ابن كثير(٢): «وهم الذين فعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات وبعض المباحات» أي: فضول المباحات.

﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، أي: فلهم (روح وريحان وجنة نعيم) تبشرهم بذلك ملائكة الرحمة تقول عند قبض روح المؤمن: «أبشري بروح وريحان ورب غير غضبان»(٣).

قرأ يعقوب (فرُوح) بضم الراء وقرأ الباقون بفتحها، أي: ففرح وسرور وابتهاج ورحمة، وراحة ومستراح في الجنة من الدنيا وعنائها ونكدها وكبدها ونصبها، لأن الدنيا كما جاء في الحديث «سجن المؤمن وجنة الكافر»(٤)، ولهذا تقول النفس الصالحة إذا حملها الرجال على أعناقهم: «قدموني قدموني»(٥).

ومرت برسول الله ﷺ جنازة فقال: «مستريح ومستراح منه» فقالوا: يا رسول الله، ما المستريح والمستراح منه؟ قال: «العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب»(٦).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «أسرعوا بالجنازة فإن تك

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٧٢.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٦.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الزهد ٤٢٦٢. من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٥٦، والترمذي في الزهد ٢٣٢٤، وابن ماجه في الزهد ٤١١٣- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البخاري في الجنائز ١٣١٤، والنسائي في الجنائز ١٩٠٩ - من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه.

(٦) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥١٢، ومسلم في الجنائز ٩٥٠، والنسائي في الجنائز ١٩٣٠ - من حديث أبي قتادة - رضي الله عنه.

صالحة فخير تقدمونها إليه، وإن تك سوى ذلك فشر تضعونه عن رقابكم»[1].

(وريحان) رزق وعطاء ورخاء من المأكل والمشرب والملبس والفرش والأزواج وغير ذلك، ومنه ريحان عَرْف الجنة وطيبها الذي يوجد من مسيرة ألف عام.

(وجنة نعيم) أي: ومسكنهم جنة فيها جميع ألوان النعيم، وأصنافه مع السلامة من جميع المنغصات، وقد يكون هذا من عطف العام على الخاص. فجمع الله لهم بين «الروح» وهو النعيم المعنوي نعيم القلب، وبين «الريحان» وهو الرزق والعطاء، وهو النعيم الحسي نعيم البدن والمسكن الواسع الفسيح الذي فيه ألوان النعيم وهي الجنة.

قال ابن القيم[2]: «فالروح: الفرح والسرور، والابتهاج ولذة الروح، فهي كلمة جامعة لنعيم الروح ولذتها، وذلك قوتها وغذاؤها، والريحان: الرزق، وهو الأكل والشرب، والجنة: المسكن الجامع لذلك كله، فيعطون هذه الثلاث في البرزخ وفي المعاد الثاني».

وقال ابن كثير[3] بعدما ذكر هذه الأقوال في معنى قوله (فروح وريحان): «وكل هذه الأقوال متقاربة صحيحة، فإن من مات مقربًا حصل له جميع ذلك من الرحمة والراحة والاستراحة والفرح والسرور والرزق الحسن (وجنة نعيم)».

عن أم هانئ رضي الله عنها: أنها سألت رسول الله ﷺ أنتزاور إذا متنا، ويرى بعضنا بعضًا، فقال رسول الله ﷺ «تكون النَّسَم[4] طيرًا يعلق بالشجر، حتى إذا كان يوم القيامة دخلت كل نفس في جسدها»[5].

وعن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إنما نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة، حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه»[6].

وعن عبد الله بن مُرَّة عن مسروق قال: سألنا عبد الله عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩] قال: «أما إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «أرواحهم في جوف طير خضر لها

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز ١٤١٥، ومسلم في الجنائز ٩٤٤، وأبو داود في الجنائز ٣١٨١، والنسائي في الجنائز ١٩١٠، والترمذي في الجنائز ١٠١٥، وابن ماجه في الجنائز ١٤٧٧.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٧٣.

(٣) في «تفسيره» ٨/ ٢٦.

(٤) النسم: الروح.

(٥) أخرجه أحمد ٦/ ٤٢٤-٤٢٥.

(٦) أخرجه أحمد ٣/ ٤٥٥.

قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة، فقال: هل تشتهون شيئًا؟ قالوا: أي شئ نشتهي، ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا، قالوا: يا رب، نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا، حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا»[1].

وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى عمن سمع النبي ﷺ يقول: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» قال: فأكب الناس يبكون، فقال: ما يبكيكم؟ فقالوا: إنا نكره الموت. قال: ليس ذاك، ولكنه إذا حضر ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ وإذا بشر بذلك أحب لقاء الله عز وجل، والله عز وجل للقائه أحب ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾﴾ فإذا بشر بذلك كره لقاء الله والله للقائه أكره»[2]. ويشهد لهذا حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله، كره الله لقاءه» فقلت: يا نبي الله، أكراهية الموت؟ فكلنا نكره الموت فقال «ليس كذلك، ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله، فأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله، وكره الله لقاءه»[3].

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ الواو استئنافية، أي: وأما إن كان المحتضر ﴿مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ الذين قال الله عنهم في أول السورة ﴿وَأَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾.

قال السعدي[4]: «وهم الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات، وإن حصل منهم بعض التقصير في بعض الحقوق التي لا تخل بإيمانهم وتوحيدهم»

﴿فَسَلَـٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: فلك السلامة من عذاب الله ومن الشرور والآفات.

قال ابن القيم[5]: «ولما كانوا دون المقربين في المرتبة جعل تحيتهم عند القدوم عليه

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة ١٨٨٧، والترمذي في التفسير ٣٠١١، وابن ماجه في الجهاد ٢٨٠١.
(٢) أخرجه أحمد ٤/ ٢٥٩-٢٦٠
(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة ٢٦٨. وأخرجه من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه البخاري في الرقاق ٦٥٠٧، ومسلم في الذكر ـ من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ٢٦٨٣، والنسائي في الجنائز ١٨٣٦، ١٨٣٧، والترمذي في الجنائز ١٠٦٦. وأخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ٢٦٨٥، ومن حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ٢٦٨٦.
(٤) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٢٨٠.
(٥) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٧٣.

السلامة من الآفات والشرور التي تحصل للمكذبين الضالين».

وقال أيضًا[1]: «فليس هذا سلام تحية، ولو كان تحية لقال: فسلام عليه كما قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الصافات: ١٠٩]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾ [الصافات:٧٩]. ولكن الآية تضمنت ذكر مراتب الناس، وأقسامهم عند القيامة الصغرى، حال القدوم على الله، فذكر أنهم ثلاثة أقسام: مقرب له الروح والريحان وجنة النعيم، ومقتصد من أصحاب اليمين له السلامة فوعده بالسلامة، ووعد المقرب بالغنيمة والفوز، وإن كان كل منهما سالمًا غانمًا، وظالم بتكذيبه وضلاله فأوعده بنُزل من حميم وتصلية جحيم، فلما لم يكن المقام مقام تحية وإنما هو مقام إخبار ذكر ما يحصل له من السلامة».

وقال ابن كثير[2]: «﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: تبشرهم الملائكة بذلك تقول لأحدهم: سلام لك، أي: لا بأس عليك، أنت إلى سلامة أنت من أصحاب اليمين».

وقيل (فسلام لك) أي: فمسلم لك أنك من أصحاب اليمين.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: وأما إن كان المحتضر من المكذبين للحق، الضالين عن الهدى،وعن الطريق المستقيم، وهم أصحاب الشمال الذين قال الله عنهم في أول السورة: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾﴾ [الواقعة: ٤١].

﴿فَنُزُلٌ﴾ أي: فلهم نزل، أي: قِرى وضيافة، والنزل في الأصل: ما يعد للضيف لتكريمه، ولكن هؤلاء ليس لهم عند الله إلا الإهانة.

﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أي: من مذاب في غاية الحرارة كما قال تعالى: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾﴾ [الحج: ٢٠].

﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ أي: وإدخاله في مستقره وسط الجحيم تصلاه وتغمره من جميع جهاته. والجحيم: اسم من أسماء النار سميت به لبعد قعرها وظلمتها وشدة تأججها وتوقدها وحرها.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: إن هذا الخبر وهو بعث الناس ومجازاة كل منهم بما عمل ﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ اللام للتوكيد، أي: لهو الحق المتيقن الذي لا مرية فيه كأنه رأي عين، ولا محيد عنه.

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، والباء للمصاحبة، أي: سبح الله تسبيحاً مصحوباً باسمه. وقيل: إن الباء صلة، والمعنى: سبح اسم ربك أي:

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٧٩.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٧.

قائلاً سبحان ربي العظيم، كما في قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾[الأعلى: ١]

عن عقبة بن عامر الجهني قال: «لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ قال: اجعلوها في ركوعكم، ولما نزلت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ قال: رسول الله ﷺ: اجعلوها في سجودكم»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»[2].

الفوائد والعبر:

١ ـ أن الله ـ عز وجل ـ أقرب إلى المحتضر من أهله بعلمه وإحاطته وقدرته وملائكته ونفوذ مشيته فيه.

٢ ـ تحدي الخلق وبخاصة المشركين المكذبين بالبعث بإرجاع الروح إلى البدن إن كانوا صادقين في زعمهم أن لا بعث ولا حساب ولا جزاء.

٣ ـ عظم ما أعده الله ـ عز وجل ـ من التكريم لمن كان من المقربين من الرزق والريحان، والنعيم الحسي والمعنوي والمسكن الفسيح.

٤ ـ البشارة لأصحاب اليمين بسلامتهم من العذاب، والسلام عليهم من الملائكة ومن بعضهم على بعض.

٥ ـ خبث وسوء ما أعد للمكذبين الضالين من النزل فشراب من الحميم، وتصلية جحيم.

٦ ـ أن بعث الناس ومجازاة كل منهم بما عمل حق يقيني وصدق لا مرية فيه.

٧ ـ مشروعية تسبيح الله ـ عز وجل ـ ووجوب ذلك في الصلاة.

٨ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لنبيه ﷺ ولأتباعه، واسمه «العظيم» والعظمة التامة له ـ عز وجل.

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ١٥٥، وأبو داود في الصلاة ـ ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده ٨٦٩، وابن ماجه في إقامة الصلاة ـ التسبيح في الركوع والسجود ٨٨٧.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٤٠٦، ومسلم في الذكر ـ فضل التهليل والتسبيح والدعاء ٢٦٩٤، والترمذي في الدعوات ٣٤٦٧، وابن ماجه في الأدب ـ فضل التسبيح ٣٨٠٦.

تفسير سورة الحديد

هذه السورة هي أول المسبحات، أي: السور التي ابتدأت بقوله (سبح لله) (أو يسبح لله) وهي خمس سور: الحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن.

عن خالد بن معدان عن ابن أبي بلال عن العرباض بن سارية رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد، وقال: «إن فيهن آية أفضل من ألف آية»[1].

قال ابن كثير[2]: «والآية المشار إليها في الحديث، هي والله أعلم قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾».

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾.

قوله: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ التسبيح هو: تنزيه الله عن النقائص والعيوب، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[ق: ١٨]، وعن مشابهة المخلوقين، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى:١١]. وتمجيده وتعظيمه، وأن كل كمال فهو أولى به.

وهو التعبد لله والصلاة له، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ [ق: ٤٠، الطور. ٤٩] أي: صل له، وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠] أي: صل صلاة الفجر وصلاة العصر، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ۝١٣٠﴾ [طه: ١٣٠]، أي: صل له في هذه الأوقات.

وهو الانقياد لله ـ عز وجل ـ والدلالة على وجوده، وكما له في ذاته وربوبيته والوهيته وأسمائه وصفاته.

وتسبيحه أيضاً بتسبيح لا نفقهه، كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن

---

(١) اخرجه احمد ٤/ ١٢٨، وابو داود في الأدب ـ ما يقال عند النوم ٥٠٥٧، والترمذي في الدعوات ٣٤٠٦ وقال: «حسن غريب»، قال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣٠: «ورواه النسائي- عن خالد بن معدان قال: كان رسول الله ﷺ- فذكره مرسلاً، لم يذكر عبد الله بن ابي بلال، ولا العرباض بن سارية».

(٢) في: «تفسيره» ٨/ ٣٠.

فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤].

فجميع ما في السموات والأرض وكل شيء يسبحه عز وجل بلسان الحال والمقال إلا الكافر، فإنه يسبح الله بلسان الحال فقط لا بلسان المقال كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾[الحج: ١٨].

قال الطبري[1] «يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أن كل ما دونه من خلقه يسبحه تعظيماً له وإقراراً بربوبيته وإذعاناً لطاعته».

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ «العزيز» اسم من أسماء الله عز وجل مشتق من العزة يدل على أن له عز وجل كمال العزة بأنواعها الثلاثة: عزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة، وعزة القوة، يقال: عزَّ يَعَزُّ بفتح العين إذا قوي وصلب، وعَزَّ يَعِزُّ بكسر العين إذا امتنع، وعَزَّ يَعُزُّ بضمها إذا قهر وغلب، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء: ١٣٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الصافات: ١٨٠] وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٩١].

فهو عز وجل عزيز الامتناع فلا يمكن أن ينال جنابه سوء أو مكروه من الخلق، ولو اجتمعوا على ذلك، وهو ممتنع عن كل عيب ونقص.

وهو عزيز القهر والغلبة، الغالب، الذي خضع له كل شيء، الذي لا يدافع ، ولا يمانع، ولا يغالب ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ [الزمر: ٤]، فلا يعجزه شيء، ولا يفوته هارب.

وهو عزيز القوة، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: ٤٠]،

---

(١) في «جامع البيان» ٢٢/ ٣٨٤

وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

قال ابن القيم[1]:

وهو العزيز فلن يرام جنابه	أنى يرام جناب ذي السلطان
وهو العزيز القاهر الغلاب لم	يغلبه شيء هذه صفتان
وهو العزيز بقوة هي وصفه	فالعز حينئذ ثلاث معان
وهي التي كملت له سبحانه	من كل وجه عادم النقصان

ولهذا لا ينبغي أن تلتمس العزة وتطلب إلا منه سبحانه، فمن التجأ إليه وتعلق به واعتصم بحبله أعزه، ومن طلب العزة من غيره أذله قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]. اللهم أعزنا بطاعتك ولا تذلنا بمعصيتك.

(الحكيم) اسم من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل» مشتق من الحكم والحكمة يدل على أن له عز وجل الحكم التام بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي في الآخرة، وأن له الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية، وهي الغاية من أحكامه كلها بأنواعها الثلاثة.

والحكمة الصورية، وهي الحكمة من مجيء كل حكم من أحكامه بأنواعها الثلاثة على صورة معينة، كالحكمة من مجيء الصلوات الخمس على هذه الصورة، الفجر ركعتان، والمغرب ثلاث ركعات، وبقية الصلوات أربع ركعات، والحكمة من مجيء أنصبة الزكاة على هذه الكيفية، وهكذا بقية الأحكام الشرعية.

والحكمة من مجيء كسوف الشمس على كيفية معينة ككسوف نصفها أو كلها، وحصول الزلازل في مكان بعينه وعلى صورة ودرجة معينة، وكذا غير ذلك من الأحكام الكونية كسقوط طائرة، وانقلاب قطار، واصطدام سيارتين وكون ذلك على صور وهيئات معينة إلى غير ذلك من الأحكام الكونية وحِكَمها.

وكذا الحكمة الصورية من مجيء مجازاة المطيعين لله الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وكذا مجازاة العاصين السيئة بمثلها وغير ذلك من أحكام الله تعالى الجزائية في الآخرة.

فهو عز وجل حاكم له الحكم التام النافذ حكماً كونياً وحكماً شرعياً وحكماً جزائياً، وهو

---

(١) في النونية، ص ١٤٧.

محكم متقن له الحكمة التامة البالغة في خلقه وأمره وشرعه، حكمة غائية وحكمة صورية [1].

وبالتأمل في هذا يدرك الموفق أن هذا الخلق وهذا الكون يسير بنظام دقيق متقن منضبط؛ لأنه من صنع الحكيم العليم.

ويدرك أيضا أن وراء ذلك حكمة وهدفاً وغاية أعظم وأهم، وهي عبادته سبحانه وتعالى والذل والخضوع له سبحانه.

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ «له»: جار ومجرور خبر مقدم و «ملك» مبتدأ مؤخر، وقدم الخبر لإفادة الحصر، أي: أن ملك السموات السبع والأرضين السبع وما فيهن لله وحده بلا شريك. يتصرف فيه كيف يشاء كما قال عز وجل: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾[سبأ: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧].

(يحيي) أي: يوجد الحياة في الإنسان والحيوان والنبات كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

والحياة والموت سر الله في خلقه لم يعرف الخلق كنه ذلك وحقيقته، إلا أن الحي يأكل ويشرب ويتحرك وينمو ويتنفس، فإذا مات انقطعت هذه الأشياء فسبحان الخالق البصير.

(ويميت) أي: يسلب الحياة من جميع الأحياء

فهو الذي يوجد الحياة ويسلبها وهذا من تمام ملكه، وخصه بالذكر لأن الإحياء والإماتة من أعظم الدلائل على قدرته عز وجل وكماله في ذاته وفي ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وعلى قدرته على البعث.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: فلا يخرج شيء عن قدرته أياً كان صغيراً كان أو كبيراً قليلاً كان أو كثيراً، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

و«قدير» على وزن «فعيل» يدل على سعة قدرته وعظمتها وأنه لا يقف أمام قدرته شيء، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن

---

(١) انظر «تفسير آيات الأحكام في سورة النساء» ١/ ٢٠٩-٢١٢.

تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٤].

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ أي: هو سبحانه الأول فليس قبله شيء، وهو الآخر فليس بعده شيء، وهو الظاهر فليس فوقه شيء، وهو الباطن فليس دونه شيء.

كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يدعو عند النوم. «اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيء، منزل التوراة والإنجيل والفرقان، فالق الحب والنوى، لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، أنت الأول ليس قبلك شيء، وأنت الآخر ليس بعدك شيء، وأنت الظاهر ليس فوقك شيء، وأنت الباطن ليس دونك شيء اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر»[1]

فهو عز وجل الأول السابق على جميع الموجودات بلا بداية، والآخر بعد فنائها بلا نهاية، والظاهر فوق كل شيء، والباطن ليس دونه شيء، المطلع على كل شيء سبحانه وتعالى. فاشتمل الأول والآخر على عموم الزمان، واشتمل الظاهر والباطن على عموم المكان.

قال ابن القيم[2]:

هو أول هو آخر هو ظاهر ... هو باطن هي أربع بوزان

ما قبله شيء كذا ما بعده ... شيء تعالى الله ذو السلطان

عن أبي زميل قال: سألت ابن عباس، فقلت: ما شيء أجده في صدري؟ قال: ما هو؟ قلت: والله ما أتكلم به قال: فقال لي: أشيء من شك؟ قال- وضحك- قال: ما نجا من ذلك أحد قال: حتى أنزل الله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس:٩٤]، قال: فقال لي: إذا وجدت في نفسك شيئاً فقل: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[3].

قال ابن القيم في كلامه على هذه الآية[4]: «فأرشدهم بهذه الآية إلى بطلان التسلسل

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء- ما يقول عند النوم، وأخذ المضجع ٢٧١٣، وأحمد ٢/ ٤٠٤ وقد رُوِيَ أيضا من حديث عائشة رضي الله عنها أخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣١.

(٢) في «النونية» ص ١٤٦.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب ـ رد الوسوسة ٥١١٠.

(٤) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٨٣-٣٨٤.

الباطل ببديهة العقل، وأن سلسلة المخلوقات في ابتدائها تنتهي إلى أول ليس قبله شيء، كما تنتهي في آخرها إلى آخر ليس بعده شيء، كما أن ظهوره هو العلو الذي ليس فوقه شيء، وبطونه هو الإحاطة التي لا يكون دونه فيها شيء، ولو كان قبله شيء يكون مؤثراً فيه لكان ذلك هو الرب الخلاق، ولابد أن ينتهي الأمر إلى خالق غير مخلوق وغني عن غيره، وكل شيء فقير إليه، قائم بنفسه، وكل شيء قائم به، موجود بذاته، وكل شيء موجود به، قديم لا أول له، وكل ما سواه فوجوده بعد عدمه، باق لذاته، وبقاء كل شيء به، فهو الأول الذي ليس قبله شيء والآخر الذي ليس بعده شيء، الظاهر الذي ليس فوقه شيء، الباطن الذي ليس دونه شيء».

الفوائد والعبر:

١ ـ أن كل ما في السموات والأرض يسبح الله ـ عز وجل ـ.

٢ ـ إثبات اسم الله «العزيز» وما يدل عليه من إثبات صفة العزة له ـ عز وجل، عزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة، وعزة القوة.

٣ ـ إثبات اسم الله «الحكيم» وما يدل عليه من إثبات الحكم التام لله عز وجل بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، والحكمة الغائية والحكمة الصورية.

٤ ـ أن لله ـ عز وجل ـ ملك السموات والأرض وبيده الحياة والموت، وهو على كل شيء قدير.

٥ ـ إثبات أسماء الله عز وجل. «الأول، والآخر، والظاهر، والباطن» وأنه ـ عز وجل ـ هو الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية والظاهر فلا شيء فوقه والباطن فلا شيء دونه.

٦ ـ سعة علم الله ـ عز وجل ـ وإحاطته بكل شيء علماً.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٥ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦﴾.

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ كقوله في سورة الأعراف ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الآية: ٥٤].

أي: هو الذي أوجد هذه المخلوقات العظيمة، السموات السبع وما فيهن، والأرضين السبع وما فيهن وقدم ذكر السموات لأنها أشرف من الأرض وأعلى.

﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من أيام الدنيا لأن الله خاطب العرب بما يعرفون، وأول هذه الأيام يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة.

وهو ـ عز وجل ـ قادر على خلقها في لمحة بصر أو أقل من ذلك كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾ [القمر: ٥٠].

ومما قيل من الحكمة في خلقها في ستة أيام: أن هذه المخلوقات يترتب بعضها على بعض فرتب عز وجل بعضها على بعض حتى أكملها. وفيه أيضا تعليم عباده التؤدة والتأني في الأمور وأن الأهم إحكام الشيء وإتقانه لا الفراغ منه.

وقيل ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ كل يوم منها كألف سنة. والظاهر المتبادر للذهن القول بأنها من أيام الدنيا.

وهذه الأيام الستة هي: الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة، وفيه اجتمع الخلق كله، قال ابن كثير:[1] «فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق؛ لأنه اليوم السابع ومنه سمي السبت، وهو القطع».

قال ابن كثير[1]: «وأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد- ثم ذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر فيها يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق

---

(١) في «تفسيره» ٣/ ٤٢٢.

النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق، في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر والليل»[١].

قال ابن كثير- بعد ذكر هذا الحديث من رواية أحمد قال: «فقد رواه مسلم بن الحجاج في صحيحه والنسائي من غير وجه عن حجاج- وهو ابن محمد الأعور- عن ابن جريج به، وفيه استيعاب الأيام السبعة، والله تعالى قد قال: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ولهذا تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث، وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار، ليس مرفوعاً، والله أعلم».

وقد خلق الله عز وجل الأرض في يومين، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في تتمة أربعة أيام، وخلق السموات في يومين، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت: ٩- ١٢]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [البقرة:٢٩].

وقال تعالى في سورة النازعات: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [الآيات: ٢٧- ٣٣].

وعن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عباس: إني أجد في القرآن أشياء تختلف علي قال: ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾، ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾، ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ فقد كتموا في هذه الآية، وقال: ﴿أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾﴾ إلى قوله ﴿دَحَاهَا﴾ فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض، ثم قال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إلى قوله (طائعين) فذكر في هذه خلق الأرض قبل خلق السماء؟ وقال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ فكأنه كان ثم مضى.

---

(١) أخرجه مسلم في صفة القيامة ٢٧٨٩.

فقال ابن عباس: «﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ في النفخة الأولى ثم ينفخ في الصور ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون، ثم في النفخة الآخرة ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾.

إلى أن قال: وخلق الأرض في يومين، ثم خلق السماء، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ فسواهن في يومين آخرين، ثم دحا الأرض، ودحوها: أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والجمال والآكام وما بينهما في يومين آخرين، فذلك قوله (دحاها)، وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ فجعلت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام، وخلقت السموات في يومين». الحديث[1].

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ «ثم» للعطف أي: بعد خلق السموات والأرض استوى على العرش.

والعرش في اللغة عبارة عن سرير الملك، كما قال تعالى عن بلقيس ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۝﴾ [النمل: ٢٣]، وهو أكبر المخلوقات فعن أبي ذر ـ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض»[2]، وقد قال الله عز وجل في الكرسي: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ومعنى (استوى) أي علا وارتفع[3].

قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه:

شهدت بأن وعد الله حق ... وأن النار مثوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طاف ... وفوق العرش رب العالمينا
وتحمله ملائكة شداد ... ملائكة الإله مسومينا[4]،

والمعنى: استوى على العرش استواء يليق بجلاله وعظمته من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، كما قال مالك رضي الله عنه: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول،

---

(١) ذكره البخاري معلقاً في تفسيره سورة «حم السجدة» انظر فتح الباري» ٨/ ٥٥٥-٥٥٦.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٤/ ٥٣٩، وقال ابن كثير في «البداية والنهاية» ١/ ١١ «أول الحديث مرسل، وعن أبي ذر منقطع وقد رُوِيَ عنه من طريق أخرى موصولاً» وانظر «فتح المجيد» ص ٦١٦.

(٣) انظر: صحيح البخاري مع الفتح ١٣/ ٤٠٣، «جامع البيان» ١٦/ ١٣٨، «شرح أصول الاعتقاد» للالكائي رقم ٦٦٢، «الرد على الجهمية» للدارمي ص ٢٣، «خلق أفعال العباد» للبخاري ص٨، «الرسالة الحموية» لابن تيمية ص٤١.

(٤) انظر «الرد على الجهمية» ص٢٧، «شرح الطحاوية» تحقيق أحمد شاكر ص ٢٥٦، «سير أعلام النبلاء» ١/ ٢٣٨.

والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»[١].

وقال ابن كثير[٢]: «وإنما يسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح: مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وغيرهم، من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً، وهو إمرارها، كما جاءت من غير تكييف، ولا تشبيه ولا تعطيل. والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١] بل الأمر كما قال الأئمة - منهم نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري: «من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر». وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة، على الوجه الذي يليق بجلال الله تعالى، ونفى عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى».

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

بعد ما أخبر عز وجل بسعة وعظم خلقه، وأنه خلق السموات والأرض، واستوائه بعد ذلك على عرشه أخبر بسعة علمه فقال ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ كقوله في سورة سبأ: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [الآية: ٢].

و «ما» في قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ موصولة بمعنى «الذي» و «يلج» بمعنى: يدخل أي: يعلم سبحانه الذي يدخل في الأرض كنهه وكمه وكيفه من حب وقطر وحيوان وغير ذلك.

﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ اي: ويعلم الذي يخرج منها من زروع ونبات وثمار ومياه، وحيوان وغير ذلك.

كما قال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ

(١) انظر «الأسماء والصفات» للبيهقي ص ٥١٦. «مجموع الفتاوى» ١٧/ ٣٧٣.
(٢) في «تفسيره» ٣/ ٤٢٢.

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝﴾، [الأنعام: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿۞مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ۝﴾ [طه: ٥٥].

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: ويعلم الذي ينزل من السماء من الأمطار والأرزاق والبرد والثلوج والصواعق والأقدار والأحكام والملائكة وغير ذلك.

﴿وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ﴾ أي: وما يصعد إليها، وجاء التعبير بـ «فيها» لأن الفعل «يعرج» ضمن معنى «يدخل» أي: ويعلم الذي يصعد إليها ويدخل فيها من الملائكة والأرواح والأدعية والأعمال وغير ذلك قال تعالى: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ۝﴾ [المعارج: ٤]، وقال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝﴾ [السجدة: ٥]، وقال تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ [فاطر: ١٠].

وقال ﷺ «يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل»[(١)].

﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ أي: وهو سبحانه معكم أيها الخلق جميعكم في أي مكان كنتم من بر أو بحر أو جو، في ظاهر الأرض أو في باطنها. وهذه هي المعية العامة التي بمعنى العلم والإحاطة، فهو سبحانه مع الخلق كلهم في علمه وإحاطته بهم في أي مكان كانوا، لا تخفى عليه خافية من أحوالهم وأعمالهم وأقوالهم، كما قال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ﴾ [المجادلة: ٧]. ولهذا قال في نهاية الآية هنا: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾. وفي الحديث: «اللهم أنت الصاحب في السفر»[(٢)]

وهناك القسم الثاني من أقسام المعية، وهي المعية الخاصة، وهي معية الله لأوليائه المتقين وحزبه المفلحين بالعون والنصر والتأييد والحفظ والتسديد كما في قوله ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: ٤٠].

والعجب ممن لم يستفيدوا من مثل هذه النصوص إلا الابتداع والقول بالحلول والاتحاد، بدلاً من التأمل في سعة علم الله عز وجل وإحاطته بكل شيء مما يوجب مراقبته

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء ١٤٤، ومسلم في الإيمان ١٧٩، وابن ماجه في الطهارة وسننها ٣١٨- من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الحج ـ ما يقول إذا ركب ١٣٤٢، وأبو داود في الجهاد ٢٥٩٩، والترمذي في الدعوات ٣٤٤٧ ـ من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما.

والخوف منه، والثقة بوعده ونصره وعونه وتأييده وصدق الله العظيم ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦].

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: والله بالذي تعملونه بصير، أو: والله بعملكم بصير، و«بصير» على وزن «فعيل»، و«البصير» من أسمائه ـ عز وجل. أي: أنه عالم ومطلع وشاهد ورقيب على أعمالكم كلها دقيقها وجليلها، خفيها وجليها، سرها وعلانيتها، كما قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾ [هود: ٥].

وقال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرعد: ١٠].

وقال ﷺ: «حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره»(١)

وسأل جبريل النبي ﷺ عن الإحسان فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(٢).

ولهذا كان الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله كثيراً ما يتمثل بهذين البيتين(٣):

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل ... خلوت ولكن قل عليَّ رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا أن ما يُخفى لديه يغيب

﴿لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾. أي: له وحده بلا شريك (ملك السموات والأرض)

وفي الآية الثانية من السورة قال: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾﴾ فبين في هذه الآية أن من تمام ملكه أن بيده الإحياء والإماتة وأن قدرته نافذة في كل شيء.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ـ إثبات رؤية الله ـ سبحانه وتعالى ١٧٩ ـ من حديث أبي موسى ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه مسلم في الإيمان ٨، وأبو داود في السنة ٤٦٩٥، والنسائي في الإيمان ٤٩٩٠، والترمذي في الإيمان: ٢٦١٠ وأخرجه البخاري في الإيمان ٤٨، ومسلم في الإيمان ١٠، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٠٥، وابن ماجه في المقدمة ٦٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٣٥، وانظر ٦/ ٢٢٩.

وبيّن في قوله هنا ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أن مرجع الأمور كلها الدينية والدنيوية والأخروية ومصيرها إليه في الحال والمآل من الأحكام والجزاء الأعمال والعمال وغير ذلك، وهذا من تمام ملكه فمنه البداية، كما أفادت الآية الأولى، وإليه النهاية والمرجع والمصير والمآب وإلى حكمه في الدنيا والآخرة كما أفادت هذه الآية، وكما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾ [الرعد: ٣٦].

وإذا كان عز وجل إليه مرجع الأمور ومصير الخلائق فسيحكم فيهم بعدله ويجازي كلاً منهم بما عمل، وفي هذا وعد لمن اتقى الله ووعيد لمن عصاه، كما قال عز وجل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

فأفادت الآيتان أن له عز وجل ملك الدنيا والآخرة كما قال عز وجل: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الليل: ١٣].

وهو المحمود على ذلك كله، كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ﴾ [القصص: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾﴾ [سبأ: ١].

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ أي: يدخل الليل في النهار تدريجياً فيطول الليل ويقصر النهار، ويدخل النهار في الليل تدريجياً فيطول النهار ويقصر الليل، وتارة يجعلهما متساويين معتدلين، وذلك لمصالح العباد.

قال تعالى ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾ [الحج: ٦١]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [لقمان: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ [فاطر: ١٣]

قال ابن كثير[١] «أي: هو المتصرف في الخلق يقلب الليل والنهار ويقدرهما بحكمته، كما يشاء، فتارة يطول الليل ويقصر النهار، وتارة بالعكس، وتارة يتركهما معتدلين، وتارة يكون

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٣٦.

الفصل شتاء ثم ربيعاً ثم قيظاً ثم خريفاً، وكل ذلك بحكمته وتقديره، لما يريده بخلقه».

وفي ذلك مراعاة مصالح الخلق ومواشيهم وحروثهم وأمور دينهم ودنياهم فإن في تعاقب الليل والنهار طولاً وقصراً واعتدالاً وفى تعاقب الفصول من حر إلى برد إلى اعتدال مصالح عظيمة للخلق، إذ لو كان الحال على وتيرة واحدة من حيث الطول والقصر ومن حيث الحر والبرد والاعتدال لفاتت كثير من المصالح، ولحصل عند الإنسان الملل والسأم فإن كل طويل مملول.

ولهذا امتن الله عز وجل على عباده في اكثر من آية في هذا التقليب والتصريف للأيام والليالى والفصول.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران: ٢٧]. وقال تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾ [النور: ٤٤].

﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ «عليم» على وزن «فعيل» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة يدل على سعة علمه عز وجل و «العليم» اسم من أسمائه سبحانه وتعالى مشتق من العلم وهو إدراك الأشياء على ما هي عليه إدراكاً جازماً

و(ذات الصدور) أي: صاحبة الصدور، وهي القلوب، كما قال عز وجل: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦]، وقال عز وجل: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [العنكبوت: ١٠].

والمعنى: وهو سبحانه وتعالى محيط علماً بالقلوب التي في الصدور وما تنطوي عليه من دقائق المضمرات وخفيات الأسرار من المعتقدات وغيرها.

وهذا مما يوجب على العبد مراقبة الله - عز وجل - في سره وعلانيته، في أقواله وأفعاله، والتفتيش في خبايا نفسه، وعما ينطوي عليه قلبه، مبتعداً عن الرياء والسمعة والشرك ومحبطات الأعمال، وعن الغل والحقد والحسد والعداوة والبغضاء متأملاً قول الله عز وجل: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨]. سليم مخلص العبادة لله عز وجل، وسليم على عباد الله.

الفوائد والعبر:

١ ـ التنبيه إلى تمام قدرة الله ـ عز وجل ـ في خلق السموات والأرض هذه المخلوقات العظيمة في ستة أيام، ولو شاء لخلقها بلمحة بصر.

٢ ـ إثبات استواء الله ـ عز وجل ـ على العرش، وأنه ـ عز وجل ـ عالٍ على خلقه بائن منهم.

٣ ـ علم الله ـ عز وجل ـ الواسع المحيط بكل شيء مما يدخل في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يصعد إليها وغير ذلك.

٤ ـ معية الله ـ عز وجل ـ العامة لجميع الخلق بإحاطته وعلمه ونفوذ قدره ومشيئته فيهم أينما كانوا.

٥ ـ إثبات اسم الله ـ عز وجل ـ «البصير» واطلاعه ـ عز وجل ـ وعلمه بجميع أعمال العباد، وفي هذا وعد لمن أحسن ووعيد لمن أساء.

٦ ـ أن لله ـ عز وجل ـ ملك السموات والأرض وإليه مرد الأمور ومصير جميع الخلائق وسيجازي كلاً بما عمل.

٧ ـ قدرة الله ـ عز وجل ـ التامة، ونعمته العظيمة على الخلق في تعاقب الليل والنهار طولاً وقصراً واعتدالاً وفي تعاقب الفصول من حر إلى برد إلى اعتدال.

٨ ـ علم الله ـ عز وجل ـ بما تنطوي عليه القلوب من الاعتقادات والمضمرات، وإذا كان كذلك فعلمه بما يظهر من باب أولى وأحرى مما يوجب مراقبة الله ـ تعالى ـ في السر والعلن، فهو العليم الخبير.

﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله ـ عز وجل ـ في الآيات السابقة تسبيح جميع المخلوقات له، وعزته وحكمه وحكمته، وسعة ملكه، وكمال قدرته، وإحاطة علمه بكل شيء، واستواءه على عرشه ومعيته لخلقه، وبصره بما يعملون، ومرد الأمور إليه، وإدخاله الليل في النهار والعكس وعلمه بما تنطوي عليه القلوب، وكل ذلك يدل على كمال عظمته، ثم أتبع ذلك بالأمر بالإيمان به وبرسوله والإنفاق في سبيله.

قوله: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ هذا أمر من الله للمؤمنين بالإيمان به وبرسوله كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦].

وليس هذا من تحصيل الحاصل، كما قد يفهمه من قصر علمه ومعرفته، وذلك أن المؤمن في حاجة في كل لحظة وفي كل حال إلى الإيمان وتجديده والثبات والاستمرار عليه والزيادة منه وتكميله؛ ولهذا يقول المؤمن وهو قائم يصلي بين يدي الله عز وجل في كل ركعة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝﴾ [الفاتحة: ٦]. أي: وفقنا له وثبتنا عليه وزدنا هداية.

والإيمان لغة: التصديق، كما قال تعالى عن إخوة يوسف أنهم قالوا: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧]، أي: بمصدق.

وهو شرعاً: قول باللسان واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان[1].

---

(١) راجع الكلام على قوله تعالى في مطلع سورة الحجرات {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} [الآية:١].

والإيمان بالله: الإيمان بوجوده وبربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وهو معنى شهادة أن لا إله إلا الله.

والإيمان بالرسول: هو طاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع، وهو معنى شهادة أن محمداً رسول الله.

﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ الواو: عاطفة، وهذا يدل على أن الإيمان قول واعتقاد، وعمل، لأن الإنفاق مما استخلفوا فيه عمل، وإنما خص ذلك- والله أعلم- لما للإنفاق والعبادات المالية من النفع العام والإحسان المتعدي إلى الخلق، وأحب الناس إلى الله عز وجل أنفعهم للناس، ولأن المال شريك الحياة فبذله من أعظم الشواهد والعلامات على قوة الإيمان.

وقوله: «مما» أي: من الذي و «من» للتبعيض أي: بعض الذي جعلكم مستخلفين فيه. وقد تكون للبيان فيجوز للإنسان أن ينفق أكثر ماله أو كله حسب الحاجة والمصلحة وحال المنفِق فقد تصدق أبو بكر الصديق بكل ماله، وتصدق عمر بنصف ماله ـ رضي الله عنهما[1].

﴿جَعَلَكُم﴾ بمعنى: صيركم، تنصب مفعولين الأول: كاف الخطاب، والثاني قوله ﴿مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾. والأمر بالإنفاق هنا يشمل النفقات الواجبة والمستحبة.

والمعنى: وانفقوا من المال الذي جعلكم الله مستخلفين فيه، أي: خلفتم فيه من قبلكم، وسيخلفكم فيه من بعدكم، وهو بمنزلة الأمانة، أو العارية في أيديكم.

فالمال مال الله منّ به علينا واستخلفنا فيه، ومنّ علينا بشرعه لنا الإنفاق منه ليثيبنا على ذلك بالأجر الكبير المضاعف.

عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: «أتيت النبي ﷺ، وهو يقرأ ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝﴾ [التكاثر: ١]. قال: «يقول ابن آدم: مالي مالي. قال: وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس»[2].

---

(١) اخرجه أبو داود في الزكاة ١٦٧٨، والترمذي في المناقب ٣٦٧٥ ـ من حديث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه.

(٢) اخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٥٢٥٨، والنسائي في الوصايا ٣٦١٣، والترمذي في الزهد ٢٣٤٢، وأحمد ٢٤/٤.

قال ابن كثير[1]: «وقوله ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ فيه إشارة إلى أنه سيكون مخلفاً عنك فلعل وارثك أن يطيع الله فيه، فيكون أسعد بما أنعم الله به عليك منك. أو يعصي الله فيه، فتكون قد سعيت في معاونته على الإثم والعدوان».

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أمر الله عز وجل في أول هذه الآية بالإيمان به وبرسوله والإنفاق مما جعلهم مستخلفين فيه، ثم رغبهم في الإيمان والإنفاق بذكر ما رتب عليه من الثواب فقال: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي: فالذين آمنوا منكم بالله ورسوله وانفقوا مما استخلفهم الله فيه ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي: لهم جزاء وثواب كبير وعظيم من حيث كنهه وكيفيته وكميته، وهو ما أعده الله من السعادة في الدنيا والآخرة والنعيم المقيم في جنات النعيم والخلف العظيم للمنفقين قال تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة ٢٤٥]، وقال تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [التغابن: ١٧].

وسُمي ثواب إيمانهم وإنفاقهم أجراً تحقيقا للوفاء لهم بذلك؛ لأن الله عز وجل لا يخلف الميعاد، وقد أوجب الله عز وجل على نفسه إثابة المطيعين ورحمة عباده المؤمنين، قال عز وجل: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦].

ولهذا سمى عز وجل ثواب المؤمنين المنفقين أجراً لأنه سبحانه تكفل به وأوجبه على نفسه تفضلاً منه وكرما، فكان أشبه بأجر الأجير الذي قال فيه الرسول ﷺ: «أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه»[2].

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

الواو استئنافية و «ما» اسم استفهام يفيد التحضيض في محل رفع مبتدأ، «لكم» متعلق بمحذوف خبر المبتدأ. و«لا» نافية.

أي: أي شيء يمنعكم من الإيمان بالله؟

---

(١) في «تفسيره» ٨/٣٦
(٢) أخرجه ابن ماجه في الأحكام ٢٤٤٣ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾ الواو: للحال، أي: والحال أن الرسول بين أظهركم يدعوكم لتؤمنوا بربكم، ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به، أي: أنه لا عذر لكم إن لم تؤمنوا بالله.

عن أبي جمعة الأنصاري رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ، ومعنا معاذ ابن جبل عاشر عشرة، فقلنا يا رسول الله، هل من قوم أعظم أجراً منا؟ آمنا بك واتبعناك . قال: «ما يمنعكم من ذلك ورسول الله بين أظهركم يأتيكم بالوحي من السماء، بل قوم من بعدكم يأتيهم كتاب بين لوحين، يؤمنون به ويعملون بما فيه، أولئك أعظم أجراً منكم مرتين»[1].

قال ابن كثير[2] بعد سياقه لهذا الحديث: «مدحهم على ذلك، وذكر أنهم أعظم من هذه الحيثية لا مطلقاً».

ومع أن أول من يدخل في الخطاب في الآية الصحابة الذين كان الرسول ﷺ بين أظهرهم إلا أن غيرهم من المؤمنين مخاطبون فيها، فهم وإن لم يكن الرسول ﷺ بين أظهرهم فسنته باقية بين أظهرهم إلى قيام الساعة فيها دعوتهم إلى الإيمان بالله.

﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَـٰقَكُمْ﴾ قرأ أبو عمرو بضم الهمزة وكسر الخاء (أُخِذ) و (ميثاقُكم) بالرفع، وقرأ الباقون بفتح الهمزة والخاء (أَخَذ) ونصب (ميثاقَكم) والواو: واو الحال، و«قد» حرف تحقيق والميثاق: هو العهد المؤكد، أي: والحال أن الله قد أخذ ميثاقكم، أي: عهدكم، بدخولكم في الإيمان، أو والحال أن الرسول ﷺ قد أخذ ميثاقكم، وذلك بمبايعتهم له على السمع والطاعة، كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة: ٧].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا وعلى ألا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله عليه برهان، وأن نقول الحق أينما كنا وحيثما كنا لا

---

(١) أخرجه ابن مردويه، ورُوِيَ نحوه من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، ومن حديث عمر، ومن حديث أنس، انظر تفسير ابن كثير ١/ ٦٤.
(٢) في «تفسيره» ١/ ٦٤.

تخاف في الله لومة لائم»[١].

وعلى هذا المعنى فإن كل من دخل في دين الله وآمن به وبرسوله ﷺ سواء كان ذلك بالمبايعة له ﷺ في حياته أو بالدخول في دينه، سواء كان ذلك في حياته، أو بعد وفاته ﷺ، فهذا عهد وميثاق منه بالإيمان بالله ورسوله ﷺ، يوجب عليه القيام بحق هذا الإيمان.

وقد ذهب بعض المفسرين منهم مجاهد إلى أن المراد بالميثاق في قوله ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ هو الذي أخذه الله على بني آدم لما أخرجهم من صلب أبيهم آدم. كما في قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢ـ ١٧٣][٢].

والصحيح القول الأول.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ «إن» شرطية (كنتم) فعل الشرط (مؤمنين) أي: إن كنتم صادقين في إيمانكم فآمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه، أي: إن من شرط صحة وصدق إيمانكم الإيمان بالله ورسوله وتجديد ذلك والثبات والاستمرار عليه والزيادة منه، والإنفاق مما استخلفتم فيه من المال والرزق، والوفاء بالميثاق الذي أخذتموه على أنفسكم لله ورسوله، فكل ذلك من شرط صحة الإيمان.

فعلامة صدق الإيمان وصحته وقوته وكماله الإقبال على الله عز وجل بفعل كل ما يقوي الإيمان ويجدده ويثبته من ترك للمنهيات وفعل للمأمورات، ومن ذلك الإنفاق من المال في وجوه البر والخير، الواجب منها والمندوب.

والإنفاق من أعظم العلامات على الإيمان وهو محزّ عظيم فإن من الناس من تظهر عليه آثار الصلاح والتقى والزهد، وتراه يهمهم ويحوقل، فتحسبه من أعظم الزهاد والأتقياء ولكن إذا سبرت أحواله في الإنفاق والتعامل بالدرهم والدينار تمنيت أنك لم تطلع على حاله في هذا الجانب.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ١٨، ومسلم في الإمارة ١٧٠٩، والنسائي في البيعة ٤١٤٩، وابن ماجه في الحدود ٢٨٦٦.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٣٩٠.

ورضي الله عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حين سأل عن رجل فقال: «من يعرف فلاناً فقام رجل فقال: أنا أعرفه يا أمير المؤمنين. فقال له عمر رضي الله عنه: «هل عاملته بالدرهم والدينار؟ قال: لا. قال: هل سافرت معه؟ قال: لا. قال: هل جاورته؟ قال: لا. فقال عمر رضي الله عنه: إذاً أنت لا تعرفه». رضي الله عنك يا عمر لقد عرفت الحزّ حقاً.

وقد قيل:

والدعاوى إذا لم يقيموا عليها بيّنات أصحابها أدعياء

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾

(هو) أي: الله عز وجل الذي أمركم بالإيمان به وبرسوله والإنفاق مما استخلفكم فيه من المال، والذي أخذ عليكم الميثاق.

(هو الذي ينزل على عبده) محمد ﷺ آيات بيّنات وهذا من لطفه عز وجل بكم لم يكتف بمجرد دعوة الرسول والذي هو أشرف الخلق، بل أيده بالمعجزة الكبرى وهي الآيات البينات، وفي هذا تنبيه لعظيم فضله عليهم، وتنويه بأعظم نعمة أنعم بها عليهم.

والآيات هي العلامات وهي تنقسم إلى قسمين آيات شرعية، وهي آيات القرآن الكريم وآيات كونية، وهي كل آياته المنتشرة في الكون وفي خلقه.

والمراد بالآيات هنا: الآيات الشرعية، آيات القرآن الكريم، المشتملة على الهدى والنور، كما قال عز وجل :﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة: ١٥].

وسميت الآيات الشرعية بالآيات لما فيها من الدلالة على صدق من جاء بها وأنها من عند الله، ولما فيها من التشريع الصالح لكل زمان ولكل مكان ولكل أمة، ولما فيها من الدلالة على كماله عز وجل في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

(بيّنات) أي: بينات واضحات مفصلات؛ لأن الله عز وجل بينهن وفصلهن، كما قال عز وجل: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [البقرة: ١١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: ١٧-١٩]، وقال تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام: ٩٧]، وفي الآية: (٩٨) ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ وفي الآية: (١٢٦) ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾.

أي: آيات بينات مفصلات فيهن بيان للواجب وغيره، وللحلال والحرام، ولكل ما

تحتاجه الأمة في أمور دينها ودنياها، كما قال عز وجل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [يونس: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء: ١٢] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤].

ويؤخذ من قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ علو الله على خلقه، لأن الإنزال يكون من علو إلى أسفل. وأن القرآن منزل غير مخلوق، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ اللام لام التعليل، أي: لأجل أن يخرجكم من ظلمات الجهل والكفر والضلال إلى نور العلم والإيمان والهدى. والضمير في قوله (ليخرجكم) يعود إلى الله - عز وجل وقد يعود إلى الرسول ﷺ لأنه سبب الإخراج كما قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[إبراهيم: ١].

وجمع الظلمات ووحد النور، لأن سبل الشر كثيرة متفرقة وسبيل الخير واحد كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ويا لها من ظلمات ومسالك وعرة ومفاوز ومهالك، وصدق الله العظيم: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٤٠]، وقال عز وجل: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر: ٢٢].

فما أعظمها من منة، وما أكبرها من نعمة، وعنه ﷺ قال: **«كيف أصبحت يا حارثة؟ قال: أصبحت مؤمناً حقاً قال انظر ما تقول فإن لكل قول حقيقة. قال أصبحت كأني انظر إلى عرش الرحمن بارزًا وإلى أهل الجنة في الجنة ينعمون وإلى أهل النار في النار يتعاوون. قال: عبد نوّر الله قلبه فالزم»**[1].

(١) سيأتي تخريجه في الكلام على قوله تعالى ((ويجعل لكم نوراً تمشون به) [الآية: ٢٨] من هذه السورة.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ الواو: عاطفة، و الخطاب للمؤمنين و«الرؤوف» اسم من أسماء الله عز وجل على وزن «فعول» يدل على سعة رأفته عز وجل بخلقه، وبخاصة المؤمنين.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣، الحج ٦٥] وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧، آل عمران: ٣٠].

و«الرحيم» كذلك اسم من أسماء الله عز وجل على وزن « فعيل» يدل على إثبات صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل رحمة ذاتية ثابتة لله عز وجل كما قال تعالى: ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ [الأنعام: ١٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف:٥٨]، ورحمة فعلية يوصلها من شاء من عباده، كما قال عز وجل: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

ورحمة عامة لجميع الخلق كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣، الحج: ٦٥]. ورحمة خاصة بالمؤمنين كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝﴾ [الأحزاب: ٤٣] فهو عز وجل أرحم بعباده من الوالدة بولدها.

والرافة: ارق واخص من الرحمة.

وهذان الاسمان « الرؤوف، والرحيم» يجوز تسمية غير الله بهما؛ ولهذا وصف الله نبيه ﷺ بهما فقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝﴾ [التوبة: ١٢٨].

ومن عظيم رافته عز وجل ورحمته بالخلق إنزال القرآن الكريم وما فيه من الآيات البينات على رسوله محمد ﷺ لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، كما قال تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝﴾ [إبراهيم: ١].

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كقوله ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، الواو: استئنافية، و «ما» اسم استفهام فيه معنى التحضيض ﴿أَلَّا تُنفِقُوا۟﴾ «الا» ان حرف مصدري و « لا» نافية، أي: وما لكم لا تنفقون في سبيل الله، أي: أي شيء يمنعكم من الإنفاق في سبيل الله؟ أي: أنفقوا.

وقوله ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: لإعلاء كلمة الله في الجهاد وقتال الكفار.

والجهاد بالمال من أعظم أنواع الجهاد، وذلك لأن المجاهد بنفسه لا يستطيع الجهاد إلا

بوجود المال ليتزود به في جهاده، ويحصل به على المركب الذي يركبه والسلاح الذي يقاتل به وغير ذلك، ولهذا فإن أهمية الجهاد بالمال لا تقل عن أهمية الجهاد بالنفس إن لم تزد عليها، بل إن الجهاد بالنفس لا يمكن أن يتحقق دون الجهاد بالمال، ولهذا قدم الله عز وجل الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس في أكثر المواضع في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [الصف: ١١]، وقال تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١]، إلى غير ذلك من الآيات.

ولهذا قال ﷺ: «من جهز غازياً فقد غزا»[١].

كما يدخل في الإنفاق في سبيل الله عموم الإنفاق ابتغاء وجه الله من النفقات الواجبة والمستحبة من الزكاة والنفقات على الأهل والأولاد والصدقات والبذل في وجوه البر كلها كالحج وبناء المساجد وتعليم القرآن الكريم ومساعدة المحتاجين والإنفاق في تهيئة الخدمات العامة كبناء المدارس والمستشفيات وفتح الطرق وتعبيدها وحفر الآبار وغير ذلك. قال ﷺ لسعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه: «واعلم أنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها»[٢].

﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الواو: حالية أي: أي شيء يمنعكم من الإنفاق في سبيل الله والحال أنه ليس لكم شيء، بل لله عز وجل ملك السموات والأرض فهو سبحانه المالك الوارث لذلك كله خلقاً وابتداء وتصرفاً وانتهاء.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [المائدة: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [المائدة: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران: ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم: ٤٠].

وفي قوله ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بعد قوله ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٤٣، ومسلم في الإمارة ١٨٩٥، وأبو داود في الجهاد ٢٥٠٩، والنسائي في الجهاد ٣١٨٠، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٢٨، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٥٩ - من حديث زيد بن خالد - رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز - رثاء النبي ﷺ سعد بن خولة ١٢٩٥، ومسلم في الوصية - الوصية بالثلث ١٦٢٨.

ﱡﭐﭐﭐاللَّهِﱠ إشارة وتنبيه إلى أن للمنفق في سبيل الله الخلف العظيم العاجل من الله عز وجل مع الأجر الكريم الآجل، كما قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سبأ: ٣٩].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال»[(١)].

وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل: أنفق أنفق عليك»[(٢)].

وقال ﷺ لأسماء رضي الله عنها: «أنفقي، ولا تحصي فيحصي الله عليك، ولا توعي، فيوعي الله عليك»[(٣)].

وقال ﷺ: « ما من يوم، يصبح العباد فيه، إلا وملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً»[(٤)].

فعلى المؤمن أن ينفق مما استخلفه الله فيه من المال ويثق بالخلف من الله عز وجل ويتوكل على الله ويعتمد عليه، ويكون أوثق بما عند الله مما في يده قال عز وجل: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

كما أن في الآية إشارة وتنبيهاً إلى أن المال كله لله عز وجل، وما في أيدي الناس إنما هو مجرد عارية ووديعة في أيديهم، سترد إلى الله عز وجل، كما سيردون هم بأنفسهم إليه عز وجل، قال تعالى: ﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٣]، وقال تعالى. ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [التوبة: ١٠٥] .

وقد قيل:

وما المال والأهلون إلا ودائع ... ولابد يوماً أن ترد الودائع

وقال الآخر:

المال كالماء إن تحبس سواقيه ... يأسن وإن يجر يعذب منه سلسال

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٨، والترمذي في البر والصلة ٢٠٢٩.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة هود ٤٦٨٤، ومسلم في الزكاة ٩٩٣.

(٣) أخرجه البخاري في الهبة ٢٥٩١، ومسلم في الزكاة ١٠٢٩، وأبو داود في الزكاة ١٦٩٩، والنسائي في الزكاة ٢٥٥١، والترمذي في البر والصلة ١٩٦٠ من حديث أسماء رضي الله عنها.

(٤) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٤٢، ومسلم في الزكاة ١٠١٠ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

فـالله أعطـاك فابـذل مـن عطيتـه فالمـال عاريـة والعمـر رحـال

وقال الآخر:

أصـون عرضـي بمـالي لا أدنسـه لا بـارك الله بعـد العـرض بالمـال

احتـال للمـال إن أودى فاجمعـه ولست للعـرض إن أودى بمحتـال

فما أحرى من كان المال عارية ووديعة عنده ألا يبخل بشيء منه، وألا يمنع حقاً من حقوق صاحب هذا المال ومالكه وهو الله عز وجل، الذي له ملك السموات والأرض.

﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ أي: لا يستوي منكم أيها المؤمنون من أنفق من قبل فتح مكة وقاتل، ومن لم ينفق ولم يقاتل قبل هذا الفتح.

وذلك أنه قبل الفتح كانت الحاجة إلى الإنفاق والقتال شديدة، وذلك لضعف المسلمين وقلتهم، أما بعد فتح مكة فقد قويت شوكة الإسلام، وكثر المسلمون، ودخل الناس في دين الله أفواجا، كما قال عز وجل: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝﴾ [النصر: ١ ـ ٣].

فالإنفاق قبل الفتح الحاجة إليه أشد وأعظم، وكذا القتال قبل الفتح، ولهذا يتحمل المنفق والمقاتل في هذه الحال أشد مما يتحمله من أنفق من بعد الفتح وقاتل وذلك لكثرة المنفقين والمقاتلين وفي الحديث: «سبق درهم مائة ألف درهم»[(١)].

والجمهور على أن المراد بالفتح «فتح مكة» كما تقدم، واختاره الواحدي وابن الجوزي وابن كثير وغيرهم[(٢)].

وقد ذهب الشعبي وغيره إلى أن المراد بالفتح هنا: «صلح الحديبية»[(٣)] واختاره الطبري والنحاس، والكيا الهراسي، وابن تيمية، والسعدي وغيرهم[(٤)].

---

(١) أخرجه النسائي في الزكاة- باب جهد المقل ٢٥٢٧.

(٢) انظر: «جامع البيان» ٢٢/ ٣٩٢-٣٩٣، «الوسيط» ٤/ ٣٤٥، «زاد المسير» ٧/ ٣٠١.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٣٩٣-٣٩٤.

(٤) انظر: «جامع البيان» ٢٢/ ٣٩٥، «الناسخ والمنسوخ» للنحاس ٣/ ١٨، «أحكام القرآن» للهراسي ٤/ ٤٠١، «مجموع الفتاوى» ١١/ ٥٦، ٢٢٢، ٣٥/ ٦٠، «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٢٨٧.

وذكر ابن كثير[١] أنه قد يستدل لهذا القول بما رواه الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه في المشاجرة التي جرت بين خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما حيث قال خالد لعبد الرحمن: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها؟ فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «دعوا لي أصحابي فو الذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد- أو مثل الجبال ذهباً ما بلغتم أعمالهم»[٢].

وكان إسلام خالد بن الوليد بين صلح الحديبية وفتح مكة. وكان سبب المشاجرة بينهما أن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد بعد الفتح إلى بني جذيمة فجعلوا يقولون: «صبأنا، صبأنا» فلم يحسنوا أن يقولوا: «أسلمنا» فأمر خالد بقتلهم وقتل من أسر منهم، فخالفه عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمر وغيرهما، فاختصم خالد وعبد الرحمن بسبب ذلك[٣].

كما ذكر ابن كثير في معرض ذكر ما قد يستدل به لهذا القول ما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول لله ﷺ عام الحديبية حتى إذا كنا بعسفان قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن يأتي قوم تحقرون أعمالكم مع أعمالهم» فقلنا من هم يا رسول الله؟ أقريش؟ قال: «لا، ولكن أهل اليمن، هم أرق أفئدة وألين قلوباً» فقلنا هم خير منا يا رسول الله؟ قال: «لو كان لأحدهم جبل من ذهب فأنفقه، ما أدرك مدّ أحدكم ولا نصيفه، إلا أن هذا فضل ما بيننا وبين الناس، ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝﴾»[٤].

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٣٧-٣٨.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٢٦٦.

(٣) أخرجه البخاري في المغازي ٤٣٣٩، والنسائي في آداب القضاة ٥٤٠٥- من حديث ابن عمر رضي الله عنهما- وليس فيه ذكر عبد الرحمن بن عوف وانظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٣٨.

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٣٩٤-٣٩٥ وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٣٦- الأثر ١٨٨١٦ وقال ابن كثير بعد سياقه من رواية ابن جرير وابن أبي حاتم: «وهذا الحديث غريب بهذا السياق. والذي في الصحيحين من رواية جماعة عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد- ذكر الخوارج- تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية» الحديث أخرجه البخاري في المناقب ٣٦١٠، ومسلم في الزكاة - باب ذكر الخوارج ١٠٦٤، وأبو داود في السنة ٤٧٦٤، والنسائي في الزكاة ٢٥٧٨.

ومما يؤيد أن المراد بالفتح هنا صلح الحديبية وأنه هو المراد بقوله في سورة الفتح ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝﴾ [الفتح: ١]. على القول الصحيح ما حصل بعد هذا الصلح من دخول الناس في دين الله أفواجاً فكان أعظم عز ونصر للإسلام والمسلمين.

﴿أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ الإشارة لقوله ﴿مَنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ أي: إلى الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا، أي: أولئك الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا أعظم درجة عند الله في الجنة من الذين أنفقوا من بعد الفتح وقاتلوا وذلك لأن الحاجة إلى الإنفاق والقتال قبل الفتح كانت أشد منها بعد الفتح كما سبق بيانه، والأجر على قدر الإيمان والإخلاص والمشقة، ولهذا قال ﷺ لأصحابه: «يأتي على الناس زمان القابض على دينه كالقابض على الجمر، للعامل فيه أجر خمسين منكم»[١].

﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ الواو: عاطفة قرأ ابن عامر برفع اللام «وكلٌّ» على الابتداء وقرأ الباقون بنصبها «وكلاً» مفعول به أول لـ«وعد» و«الحسنى» مفعول به ثان.

أي: وكلا من الفريقين المنفق والمقاتل قبل الفتح، والمنفق والمقاتل بعد الفتح، وعدهم الله الحسنى أي: المثوبة الحسنة والجنة كما قال تعالى ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] وقال تعالى: ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ۝﴾ [النجم: ٣١].

وفي قوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ احتراز، لأنه لما بين أنه لا يستوى المنفق والمقاتل قبل الفتح مع المنفق والمقاتل بعده، وأن المنفقين والمقاتلين قبل الفتح أعظم درجة احترز فقال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ لئلا يظن أنه ليس للمنفق والمقاتل بعد الفتح أجر، كما في قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝﴾ [النساء: ٩٥]، وكما في قوله

=

ثم ذكر ابن كثير رواية ابن جرير، لهذا الحديث من وجه آخر ليس فيه ذكر الحديبية- وعلى هذا فلا دلالة فيه على أن المراد بالفتح صلح الحديبية. قال ابن كثير: «فإن كان ذلك محفوظاً- يعني الرواية الأولى- فيحتمل أنه أنزل قبل الفتح إخباراً عما بعده» انظر: «تفسير ابن كثير» ٨/ ٣٨-٣٩.

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم ٤٣٤١، والترمذي في التفسير ٣٠٥٨، وابن ماجه في الفتن ٤٠١٤ - من حديث أبي ثعلبة الخشني - رضي الله عنه.

ﷺ «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير»[1].

ومن فضله عز وجل العظيم الواسع أنه لما ضاعف الأجر لمن كان عمله أفضل لم يحرم من كان عمله دونه، ولهذا قسّم عز وجل أهل الجنة إلى سابقين مقربين، وإلى أهل يمين دونهم، وجعل ثوابهم على درجتين، فقال تعالى ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦]، ثم ذكر صفاتهما في أعلى الصفات، ثم قال ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ [الرحمن: ٦٢] وذكر صفاتهما دون اللتين قبلهما

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ «ما» موصولة أو مصدرية، أي: والله بالذي تعملونه خبير، أو والله بعملكم خبير.

و«الخبير» اسم من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل»، يدل على سعة خبرته عز وجل.

ومعنى «الخبير» المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها، وإذا كان عز وجل مطلعاً على بواطنها ودقائقها وخفياتها فاطلاعه على ظواهرها وجلائلها وجلياتها من باب أولى وأحرى.

وفي هذا وعد للمنفقين المتقين، ووعيد للممسكين المخالفين.

ومن عظيم خبرته عز وجل أن علم مدى الفرق بين من أنفق وقاتل قبل الفتح ومن أنفق وقاتل بعده، ومدى ما تحمله كل منهما من المشقة، ومدى الحاجة إلى الإنفاق والقتال في الحالين، ولهذا فاوت عز وجل بين ثواب كل منهما.

قال ابن كثير[2] «ولا شك عند أهل الإيمان أن الصديق أبا بكر رضي الله عنه، له الحظ الأوفر من هذه الآية، فإنه سيد من عمل بها من سائر أمم الأنبياء فإنه أنفق ماله كله، ابتغاء وجه الله عز وجل، ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها».

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.

توكيد وحث على الإنفاق في سبيل الله، والذي من أعظم وجوهه الجهاد في سبيل الله، لأن الجهاد متوقف على الإنفاق وبذل المال وهذه الآية كقوله في البقرة ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى

---

(١) أخرجه مسلم في القدر- الأمر بالقوة وترك العجز ٢٦٦٤، وابن ماجه في المقدمة ٧٩، وأحمد ٢/ ٣٦٦-٣٦٧- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٣٩.

يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وقوله ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المزمل: ٢٠].

قوله ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ .

«من» اسم استفهام وهو متضمن للطلب بالطف أنواع الخطاب، وهو أبلغ من الطلب بصيغة الأمر.

و«ذا» اسم إشارة و«الذي» اسم موصول يعم كل مقرض في أي وجه من وجوه القرض.

و«يقرض» بمعنى: يسلف. والقرض لغة: القطع. واصطلاحاً: دفع مال لمن ينتفع به ويرد بدله.

والمراد به هنا ما يعطيه الإنسان ليجازيه الله ـ تعالى ـ عليه أي: من ذا الذي يقرض الله بالإنفاق في سبيله في وجوه البر كلها، من الزكوات والصدقات، والإنفاق على الأهل والأولاد، وعلى المحتاجين من الأقارب واليتامى، والمساكين وغيرهم، وفي الجهاد في سبيل الله، وبناء المساجد، وتعليم القرآن، وغير ذلك من مصالح المسلمين.

قال ابن كثير[1]: « فكل من أنفق في سبيل الله بنية خالصة وعزيمة صادقة دخل في عموم هذه الآية».

(قرضاً حسناً) أي: قرضا طيبا جميلا، من طيب ماله، وبطيب نفس منه، ابتغاء مرضاة الله عز وجل، وهذا بينه وبين الله عز وجل، وبلا منٍّ على المقرض ولا أذية له.

كما قال عز وجل: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان: ٨، ٩].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٢ـ ٢٦٤].

وسُمي الإنفاق قرضاً حسناً لله عز وجل- مع أن المال ماله، والملك ملكه، والخلق عبيده- حثاً عليه وترغيباً فيه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾[التوبة: ١٠٤]

---

(١) في « تفسيره» ٨/ ٤٠.

قال ابن القيم[1]: «وحيث جاء هذا القرض في القرآن قيده بكونه حسناً، وذلك يجمع أموراً ثلاثة: أحدها: أن يكون من طيب ماله، لا من رديئه وخبيثه. الثاني: أن يخرجه طيبة به نفسه ثابتة عند بذله ابتغاء مرضاة الله. الثالث: أن لا يمن به ولا يؤذي. فالأول يتعلق بالمال، والثاني يتعلق بالمنفق بينه وبين الله، والثالث بينه وبين الآخذ».

فإن كان القرض لهدف مادي دنيوي- كما هو حال الكثيرين، أو من رديء المال، أو لم تطب فيه النفس، وإنما مجاملة فقط فليس هذا من القرض الحسن الذي رتب الله عليه المضاعفة والأجر.

﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ اي: فيضاعفه له خلفاً في الدنيا، كما قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٣٩﴾ [سبأ: ٣٩].

ويضاعفه له في الجازاة، بمضاعفة الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١﴾ [البقرة: ٢٦١]، وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٦٥﴾ [البقرة: ٢٦٥].

﴿وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ اي: وله ثواب ثابت عظيم كثير خيره، وهو الجنة، وما فيها من ألوان النعيم- نسأل الله عز وجل من فضله- كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٤﴾ [البقرة: ٢٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾ [المائدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧﴾ [التغابن: ١٧].

وسُمي ثواب القرض أجراً مع أن الله لا يجب عليه شيء لخلقه- لأن الله عز وجل تكفل

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٨٤-٣٨٥.

بهذا الأجر وأوجبه على نفسه، تفضلاً منه وكرماً، كما قال عز وجل: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول الله، وإن الله ليريد منا القرض؟ قال: «نعم، يا أبا الدحداح» قال: أرني يدك يا رسول الله، قال: فناوله يده، قال: فإني أقرضت ربي حائطي- وله حائط فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها- قال فجاء أبو الدحداح، فناداها: يا أم الدحداح. قالت: لبيك فقال: اخرجي، فقد أقرضته ربي- عز وجل- وفي رواية أنها قالت له: ربح بيعك يا أبا الدحداح. ونقلت منه متاعها وصبيانها، وأن رسول الله ﷺ قال: «كم من عذق رداح[١] في الجنة لأبي الدحداح» وفي لفظ « رب نخلة مدلاة، عروقها در وياقوت لأبي الدحداح في الجنة»[٢].

قال ابن القيم رحمه الله[٣] في كلامه على هذه الآية: «فصدر سبحانه الآية بألطف أنواع الخطاب، وهو الاستفهام المتضمن لمعنى الطلب، وهو أبلغ في الطلب من صيغة الأمر، والمعنى: هل أحد يبذل هذا القرض الحسن فيجازى عليه أضعافاً مضاعفة؟ وسمى ذلك الإنفاق قرضاً حسناً، حثاً للنفوس وبعثاً لها على البذل، لأن الباذل متى علم أن المستقرض مليء وفيّ محسن كان أبلغ في طيب قلبه وسماحة نفسه، فإن علم أن عين ماله يعود إليه ولابد طوعت له نفسه بذله، وسهل عليه إخراجه، فإن علم أن المستقرض يتجر له بما اقترضه وينميه له ويثمره حتى يصير أضعاف ما بذله كان بالقرض أسمح وأسمح، فإن علم أنه مع ذلك كله يزيده من فضله وعطائه أجراً آخر من غير جنس القرض، وأن ذلك الأجر حظ عظيم وعطاء كريم فإنه لا يتخلف عن قرضه إلا لآفة في نفسه من البخل والشح أو عدم الثقة بالضمان وذلك من ضعف إيمانه ولهذا كانت الصدقة برهاناً لصاحبها، وهذه الأمور كلها تحت هذه الألفاظ التي تضمنتها الآية. فإنه سماه قرضاً وأخبر أنه هو المقترض، لا قرض حاجة، ولكن قرض إحسان إلى المقترض واستدعاء لمعاملته، وليعرف مقدار الربح فهو الذي أعطاه ماله، واستدعى منه معاملته به، ثم أخبر عما يرجع إليه بالقرض، وهو الأضعاف المضاعفة، ثم أخبر عما يعطيه فوق ذلك من الزيادة وهو الأجر الكريم».

---

(١) العذق الرداح: هو العذق العظيم الثقيل.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في « تفسيره» ١٠/ ٣٣٣٨-٣٣٣٩- الأثر ١٨٨٢٨، وأخرجه مسلم مختصراً من حديث جابر بن سمرة ـ رضي الله عنه ـ في الجنائز ٩٦٥.

(٣) انظر: « بدائع التفسير» ٤/ ٣٨٤.

وقد ذُكر أن رجلاً جاء إلى العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله فسأله أيهما أفضل الصدقة- حال الحياة- أو الوصية؟ فقال له: أيهما أفضل أن يكون أمامك سراج واحد، أو أن يكون خلفك سراجان.

فقال الرجل: بل الأفضل أن يكون أمامي سراج واحد. فقال إذن فتصدق وأنت حي.

ومراد العلامة السعدي رحمه الله في هذا المثل إيضاح الفرق الواسع والبون الشاسع في الفضل بين الصدقة والوصية، وأن الصدقة حال الحياة والصحة أفضل، كما أن السراج الذي أمام الإنسان أقوى نوراً وأنفع للإنسان من سراجين خلفه أو أكثر.

وذُكر أيضا أن سماحة الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد ـ رحمه الله ـ جاءه رجل فسأله أيهما أفضل الوقف والصدقة أو الوصية. فقال له رحمه الله: أيهما أفضل إذا أردت أن تسافر أن تحمل زادك معك، أو تقول لأولادك اتبعوني بالزاد؟ قال: بل الأفضل أن أحمله معي. فقال: إذن فالوقف والصدقة في الحياة أفضل.

ومراد سماحة الشيخ عبد الله رحمه الله إيضاح أفضلية الوقف والصدقة حال حياة الإنسان على الوصية، وأن مقدم الصدقة والوقف يطمئن ويثق من أخذ صدقته مجراها حال حياته بخلاف الوصية فما يدري هل تنفذ أو لا تنفذ؟.

وفي تمثيل الشيخين رحمهما الله إشارة إلى قوله ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أي: الصدقة أعظم أجراً؟ قال: «أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان»[1].

الفوائد والعبر:

١ ـ وجوب الإيمان بالله ورسوله وتجديده والثبات عليه والزيادة منه وتكميله.

٢ ـ أن الإيمان بالله يستلزم الإيمان بالرسول ﷺ، كما أن الإيمان بالرسول يستلزم الإيمان بالله.

٣ ـ مشروعية الإنفاق وإخراج ما في المال من حقوق واجبة أو مستحبة.

٤ ـ أن الإنسان مستخلف في المال انتقل إليه من غيره بفضل الله. وسينقل عنه إلى غيره والكل ملك لله ـ عز وجل.

٥ ـ وعد الله ـ عز وجل ـ للمؤمنين المنفقين بالأجر الكبير والجزاء العظيم والتزامه لهم بذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤١٩، ومسلم في الزكاة ١٠٣٢، وأبو داود في الوصايا ٢٨٦٥، والنسائي في الزكاة ٢٥٤٢.

٦ ـ التحضيض على الإيمان بالله وتجديده وتكميله والثبات عليه لانقطاع العذر وقيام الحجة بوجود الرسول ﷺ بين أظهر المؤمنين يدعوهم إلى الإيمان بالله وأخذه الميثاق عليهم وأن ذلك شرط لصحة الإيمان.
٧ ـ أن الإيمان بالله عهد وعقد بين المؤمنين وربهم يوجب عليهم القيام بحقوق هذا الإيمان.
٨ ـ امتنان الله ـ عز وجل ـ على العباد بإنزال القرآن الكريم على محمد ﷺ، وهو النعمة الكبرى.
٩ ـ إثبات علو الله ـ عز وجل ـ على خلقه وربوبيته لهم.
١٠ ـ أن القرآن الكريم منزل غير مخلوق.
١١ ـ أن العبودية لله أفضل وأشرف ما يوصف به البشر ولهذا وصف الله ـ عز وجل ـ بها نبيه محمداً ﷺ في حال إنزال الآيات عليه.
١٢ ـ بيان آيات القرآن الكريم، وتبيينها لما تحتاجه الأمة في دينها ودنياها.
١٣ ـ أن الحكمة من إرسال الرسل وإنزال الكتب إخراج الناس من ظلمات الجهل والكفر والضلال إلى نور العلم والإيمان والهدى.
١٤ ـ أن طرق الباطل متعددة متشعبة وطريق الحق واحد، ولهذا جمع الظلمات وأفرد النور.
١٥ ـ رأفة الله ـ عز وجل ـ ورحمته بالعباد، لهذا أرسل محمداً ﷺ وأنزل عليه القرآن.
١٦ ـ إثبات اسمين من أسمائه ـ عز وجل ـ وهما «الرؤوف» و «الرحيم» وصفتي الرأفة والرحمة ـ التامتين له ـ عز وجل.
١٧ ـ الحض على الإنفاق في سبيل الله ما دام المال في اليد لأنه عارية سترد إلى الله ـ عز وجل ـ وعنده الخلف العاجل والآجل.
١٨ ـ أن لله ـ عز وجل ـ ملك وميراث السموات والأرض.
١٩ ـ أن من أنفق وقاتل قبل الفتح أعظم درجة ممن أنفق وقاتل بعد الفتح.
٢٠ ـ أن الأجر والثواب على قدر الإيمان والإخلاص والمشقة.
٢١ ـ وعد الله ـ عز وجل ـ لكل من أنفق وقاتل قبل الفتح أو بعده بالمثوبة الحسنة والجنة، وإن كانا لا يستويان فمن أنفق وقاتل قبل الفتح أعظم درجة.
٢٢ ـ إثبات اسم الله ـ عز وجل ـ «الخبير»، وعلم الله ـ عز وجل ـ وخبرته التامة بأعمال العباد، وفي هذا وعد لمن أحسن العمل، ووعيد لمن أساء.
٢٣ ـ تأكيد الحث والتحضيض على الإنفاق في سبيل الله وتسميته قرضا لله ـ ترغيباً فيه والوعد عليه بالمضاعفة والأجر الكريم.
٢٤ ـ في تسمية الإنفاق قرضاً لله ـ عز وجل ـ وتسمية جزائه أجراً إشارة لتكفل الله ـ عز وجل ـ وضمانه رد هذا القرض ومضاعفته والمجازاة عليه بالثواب العظيم.
٢٥ ـ ينبغي أن يكون الإنفاق في سبيل الله خالصاً لله، ومن مال طيب، وبطيب نفس، وبلا من على المنفَق عليه ولا أذية له.

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة ما أعده للمؤمنين المنفقين من الأجر الكريم، ثم ذكر مالهم في عرصات القيامة من النور والبشرى بالجنات والفوز العظيم.

ثم قارن ذلك بحال المنافقين وما ينتظرهم في تلك العرصات من الظلمات والتبكيت والنار وبئس المصير.

قوله ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ كما قال تعالى في سورة التحريم: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [الآية: ٨].

(يوم) ظرف زمان منصوب على الظرفية، أو مفعول لفعل محذوف، تقديره: اذكر.

(ترى) الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

وعطف عز وجل «المؤمنات» على المؤمنين، وأفردهن بالذكر، ولم يغلب الذكور على الإناث ـ كما هو الأكثر في القرآن الكريم ـ إشارة إلى مكانة المرأة المؤمنة، وما أعده الله لها وأنها تجازى على عملها الصالح كما يجازى الرجل، كما قال عز وجل: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾. [آل عمران: ١٩٥].

فتضاعف الحسنات دون السيئات للرجال والنساء، ولكل منهم ثواب عمله، كما قال عز وجل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾

أي: يسير نورهم أمامهم يقتدون به ويضيء لهم الطريق، وعن أيمانهم، تكريماً لها في عرصات القيامة، وعلى الصراط حسب قوة إيمانهم، وعلى قدر أعمالهم.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في قوله ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ قال: «على قدر

أعمالهم يمرون على الصراط، منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم، وأدناهم نورًا من نوره في إبهامه يتقد مرة ويطفأ مرة»[1].

وفي قوله: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ تنويه وتعظيم لشأن المؤمنين والمؤمنات، وحالهم وقالهم، ومالهم في عرصات القيامة من النور، وحض على الإيمان وترغيب فيه.

﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ﴾.

أي: يقال لهم: ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ﴾ اي: يوم القيامة ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ والبشرى والبشارة: الإعلام برجاء، والخبر السار مأخوذ من البشرة، لأن الإنسان إذا أخبر بما يسر اتسعت وامتدت بشرته، وظهرت عليه آثار السرور، وبالعكس إذا حزن فإن بشرته تنقبض وتظهر عليه آثار الحزن، ويسودّ وجهه، اي: انهم يُبشرون في ذلك اليوم بالجنات، يبشرهم ربهم كما قال عز وجل ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ۝﴾ [التوبة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الشوري: ٢٣].

ويبشرهم النبي ﷺ قال تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝﴾ [الكهف: ٢، ٣].

وتلك والله أعظم البشارة وأغلاها وأحلاها على القلوب، وألذها على النفوس.

وفي قوله ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ﴾ ولم يقل: (بشراكم اليوم بجنات) مع حذف الفاعل ما يدل على قرب حصول المبشر به، بل ما يدل على حصول البشارة والمبشربه في آن واحد.

و«جنات» جمع جنة، والجنة في الأصل: البستان، وسمى البستان جنة لأنه يجن من بداخله، اي: يستره لكثرة أشجاره والتفافها. قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝﴾ [ق: ٩، ١٠].

والمراد بالجنات في قوله ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ﴾ ما اعده الله لأوليائه المؤمنين وحزبه المفلحين من المساكن في دار كرامته في جنات عدن، وما فيها من ألوان النعيم.

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ اي: تجري من تحت أشجارها وغرفها الأنهار بلا أخدود،

(١) اخرجه الطبري في « جامع البيان» ٢٢/ ٣٩٨.

قال ابن القيم رحمه الله[1]:

أنهارها في غير أخدود جرت ... سبحان ممسكها عن الفيضان

وأنهارها أنواع، كما قال الله عز وجل: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

فيشربون من هذه الأنهار ويتمتعون برؤية جريانها تحت تلك الجنان.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ «خالدين» حال، أي: حال كونهم خالدين فيها، أي: مقيمين في هذه الجنات إقامة أبدية لا تحول ولا تزول، كما قال تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩، البينة: ٨].

﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الإشارة إلى ما للمؤمنين من النور في تلك العرصات ودخول الجنات والخلود فيها والتمتع بما فيها من الخيرات والأنهار وألوان النعيم- نسأل الله تعالى من فضله.

وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيماً له، وتنويهاً بشأنه.

و«الفوز» هو النجاة من المرهوب وحصول المطلوب، النجاة من النار ودخول الجنة دار الأبرار، ويا له من فوز، كما قال عز وجل: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨].

﴿الْعَظِيمُ﴾ أي: الذي لا فوز أعظم منه، وإذا كان الله وصف هذا الفوز بأنه عظيم، فلا يقدر قدر عظمته إلا العظيم سبحانه وتعالى.

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ الآيات.

لما ذكر أن المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم أمامهم وبأيمانهم، أتبع ذلك بذكر حال المنافقين والمنافقات وهم يتخبطون في الظلمات ويطلبون الاقتباس من نور المؤمنين وهيهات أن يحصل لهم ذلك.

قوله ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ .

«يوم» بدل من «يوم» في قوله ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾

و﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ﴾ هم الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وسُمي المنافق منافقاً أخذاً من نافقاء اليربوع، وذلك لأن اليربوع ـ وهو دابة صغيرة أكبر من الفارة ـ يحفر

---

(١) انظر: «النونية» ص ٢٢٩.

في الأرض جحراً، ويجعل له باباً، ويجعل في آخره نافقاء، أي: مخرجاً: للطوارئ، لكنه لا يجعله ظاهراً بل يترك فوقه قشرة رقيقة من الأرض، فإذا داهمه عدو من باب جحره ضرب هذه النافقاء برأسه وخرج.

وهكذا حال المنافق يظهر الإيمان ويبطن الكفر، يأتي إلى المؤمنين بوجه وإلى الكفار بوجه آخر كما قال الله عز وجل عن المنافقين. ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة: ١٤].

وذكر المنافقات هنا مع المنافقين ولم يغلب الذكور على الإناث كما هو الغالب في القرآن الكريم لمزيد البسط والإيضاح، وأن كلاً من الذكور والإناث يجازى بعمله.

﴿ٱنظُرُونَا﴾ قرأ حمزة بقطع الهمزة مفتوحة وكسر الظاء (أَنظِرونا) بمعنى: أمهلونا، وقرأ الباقون بوصل الهمزة ، وضم الظاء (انظُرونا) أي: انتظرونا.

﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ أي: نستضيء به

﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ اي: يقال لهم: تبكيتا وتوبيخاً وتقريعاً (ارجعوا وراءكم) أي: خلفكم (فالتمسوا نورا) أي: اطلبوا نوراً، وهذا القول لا يقل وقعه على قلوبهم عن العذاب الحسي لما فيه من الإهانة لهم والتقريع والتوبيخ والتبكيت

والمعنى: أنه عندما يرى المنافقون والمنافقات المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم يطلبون منهم الانتظار لهم ليستضيئوا من نورهم فيقال ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ أي: ارجعوا من حيث جئتم فاطلبوا لأنفسكم نوراً. وفيه إشارة إلى أن محل أخذ النور إنما هو في الحياة الدنيا بالإيمان والعمل الصالح وهيهات ذلك.

وابهم القائل لهم ذلك إشارة إلى افتضاح أمرهم وحيرتهم بين الخلق، فكأن كلا يقول لهم هذا القول. وفي هذا توبيخ وتقريع وتبكيت لهم، ومخادعة لهم واستهزاء بهم كما كانوا في الدنيا يخادعون ويستهزئون قال تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [البقرة: ٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة: ١٤، ١٥].

وأنى لهم النور ولم يسلكوا طريقه في الدنيا قال تعالى عن أعمالهم وحالهم ومآلهم ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ

بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور: ٤٠].

ولا أشد ظلمة من ظهور النور ثم انطفائه، ولا أشد حسرة من وجود بصيص أمل في النجاة ثم انقطاعه.

قال ابن القيم[1]: « وهذا أشد ما يكون من الحسرة والبلاء أن يفتح للعبد طريق النجاة والفلاح حتى إذا ظن أنه ناج، ورأى منازل السعداء اقتطع عنهم وضربت عليه الشقوة، ونعوذ بالله من غضبه وعقابه».

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ﴾

أي: فضرب بين المنافقين وبين المؤمنين، وحيل بينهم (بسور) أي: حاجز بين الجنة والنار، (له باب)، فلم يمكنهم اللحاق بالمؤمنين والاقتباس من نورهم، ولا الرجوع والتماس النور، بل بقوا في الظلمات وهو المذكور في قوله ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ [الأعراف: ٤٦].

﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ أي: باطنه من جهة المؤمنين (فيه الرحمة) وهي الجنة وما فيها من النعيم، كما قال تعالى في الحديث القدسي للجنة: « أنت الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء»[1].

﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: وظاهره من جهة المنافقين الكافرين (من قبله) أي من جهته (العذاب) وهو النار وما فيها من الجحيم، كما قال تعالى في الحديث القدسي للنار: « إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي»[2].

قال ابن كثير[3]: «المراد بذلك سور يضرب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه، فإذا استكملوا دخولهم أغلق الباب وبقي المنافقون من ورائه في الحيرة والظلمة والعذاب كما كانوا في الدار الدنيا في كفر وجهل وشك وحيرة».

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ أي: ينادي المنافقون المؤمنين قائلين لهم: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾، الهمزة للاستفهام ومعناه التقرير والتعجب.

أي: ألم نكن معكم في دار الدنيا نصلي ونزكي ونصوم ونحج ونجاهد؟ ، ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ «بلى» حرف جواب لإثبات الإيجاب، أي: قال المؤمنون بلى لقد كنتم معنا في دار الدنيا في الظاهر، وذلك أن المنافقين يعيشون بين ظهراني المؤمنين، لأنهم يتظاهرون بالإسلام

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٨٥.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٥٠، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٤٦ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٣) في « تفسيره» ٨/ ٤٤.

ويبطنون الكفر، ولهذا كانوا أشد خطراً على المسلمين، وأشد جرماً وأشد عقوبة من جميع طوائف الكفر.

﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾.

الواو: عاطفة، و «لكن» حرف استدراك(فتنتم أنفسكم) بالكفر والنفاق والمعاصي واتباع الشهوات والملذات.

﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ أي: انتظرتم واستمررتم على الكفر والنفاق، وأخرتم التوبة، وانتظرتم الشر بالحق وأهله.

﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ أي: شككتم بما جاءكم من الحق، وبمن جاء كم به، وهو الرسول ﷺ، وبالبعث بعد الموت والجزاء على الأعمال.

﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ أي: وخدعتكم الأماني الباطلة من حب الدنيا والشهوات والملذات، وتمني حظوظ الدنيا الفانية، وتمني أنكم ستكونون أحسن الناس، وأنه سيغفر لكم، وغير ذلك من الأماني الخادعة الباطلة التي لا يصحبها صدق وعمل فيما ينفع المرء في دينه ودنياه، والتي هي مدعاة للكسل، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢].

وفي الحديث: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني»[1].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وتزينوا للعرض الأكبر، وإنما يخف الحساب يوم القيامة على من حاسب نفسه في الدنيا»[2].

﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: حتى جاءكم الموت، وأنتم على هذه الحال، كما قال عز وجل ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝﴾ [التكاثر: ١، ٢].

﴿وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ أي: خدعكم بالله وعظمته وعظيم حقه عليكم، وعظيم عقابه. «الغرور» أي: الخدوع وهو الشيطان.

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع ٢٤٥٩، وابن ماجه في الزهد ٤٢٦٠- من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه. وقال الترمذي «حديث حسن».

(٢) ذكره الترمذي في الموضع السابق.

قال قتادة: «كانوا على خدعة من الشيطان، والله مازالوا عليها حتى قذفهم الله في النار»[1].

ولهذا تجد الكفرة من المنافقين وغيرهم في موقف آخر يقرون بسبب ما آلوا إليه كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٣٨ـ ٤٨].

ولا تنافي بين قول المؤمنين لهم هنا ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية وبين سؤالهم لهم في قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ لأن السؤال هنا ليس لقصد الاستعلام والاستفهام الحقيقي، وإنما لقصد التقريع والتوبيخ لهم والتبكيت.

﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر ويعقوب (لا تؤخذ) بالتاء، وقرأ الباقون بالياء.

أي: فاليوم، أي يوم القيامة (لا يؤخذ منكم فدية) أي: لا يقبل منكم فدية.

والفدية: مال أو عرض يدفع نظير ومقابل الخلاص، كما قال تعالى: ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾ [آل عمران: ٩١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [المائدة: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ [يونس: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ [الرعد: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ [الزمر: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾﴾ [المعارج: ١١ـ ١٤].

﴿وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ولا يؤخذ فدية من الذين كفروا، فلا فدية تقبل من المنافقين ولا من الذين كفروا، كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨].

﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ أي: مصيركم الذي ستنتهون وتصيرون إليه وتستقرون فيه النار،

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/٤٠٦.

فهي منزلكم الذي لا مصير ولا منزل لكم سواه.

﴿هِيَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي: هي التي تتولاكم وتضمكم إليها وهي أولى المنازل بكم، تتولاكم بحرها وعذابها، كما توليتموها بعملكم عمل أهلها، بنفاقكم وكفركم. كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾ [القارعة: ٨ ـ ١١].

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ «بئس» بمعنى: قبح وساء، وهي من أفعال الذم والمخصوص بالذم محذوف تقديره: وبئس المصير هي، أي: النار. أو وبئس المصير مصير من صار إلى النار و«المصير» المرجع والمآل والمنقلب.

الفوائد والعبر:

١ ـ تعظيم شأن المؤمنين والمؤمنات وحالهم وقالهم وما لهم في عرصات القيامة من النور والبشارة بالجنات وما فيها من الأنهار، والخلود فيها والفوز العظيم.

٢ ـ عظم مكانة المرأة في الإسلام وما أعده الله لها، وأنها تجازى على عملها الصالح كما يجازى الرجل.

٣ ـ أن الجزاء من جنس العمل فكما استنار المؤمنون في الدنيا بنور الله وهديه منحهم النور والهدى في عرصات القيامة.

٤ ـ تخبط المنافقين في الظلمات في عرصات القيامة وطلبهم الاقتباس من نور المؤمنين ولكن هيهات، فكما تخبطوا في دينهم وتذبذبوا وشكوا جوزوا بالتخبط في الظلمات في تلك العرصات جزاءً وفاقاً.

٥ ـ الاستهزاء والسخرية بالمنافقين في ذلك اليوم كما استهزؤوا وسخروا بالإيمان وأهله في الدنيا، وهذا من عذابهم المعنوي.

٦ ـ الفصل بين المنافقين وبين المؤمنين بحاجز بين الجنة والنار بحيث لا يمكنهم اللحاق بالمؤمنين، فيه الرحمة من جهة المؤمنين والعذاب من جهة المنافقين.

٧ ـ نداء المنافقين للمؤمنين للدخول معهم كما كانوا معهم في الدنيا في الظاهر وتوبيخ المؤمنين لهم بأنهم فتنوا أنفسهم بالكفر باطنا وانتظروا الشر بالمؤمنين وشكوا وغرتهم الأماني الباطلة والشيطان الرجيم، وهذا عذاب معنوي لهم، ويوجب العبد عن صفاتهم.

٨ ـ الوعيد الشديد للمنافقين والكافرين بالنار، وأنه لا سبيل لهم للخلاص من النار لا بفدية ولا بغيرها هي مولاهم ومصيرهم وبئس المصير.

﴿۞أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

صلة الآيتين بما قبلهما:

لما ذكر عز وجل حال المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات في الدار الآخرة، وذلك مما يدعو القلوب إلى الخشوع لله عز وجل والخضوع لعظمته، عاتب المؤمنين على عدم المبادرة إلى ذلك، فقال: ﴿۞أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «إن الله استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن، فقال: ﴿۞أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾»[1].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: ﴿۞أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ إلا أربع سنين»[2].

قوله: ﴿۞أَلَمۡ يَأۡنِ﴾ الاستفهام للتوبيخ والعتاب، أي: ألم يحن بعد ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ألم يأت الوقت الذي فيه تخشع قلوبهم. وأن والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع فاعل، أي: أما آن خشوع قلوبهم.

﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ قرأ نافع وحفص عن عاصم بالتخفيف في قوله (وما نزل) وقرأ الباقون، بالتشديد (وما نزّل).

ومعنى ﴿أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: أن تلين وترق وتخضع قلوبهم لذكر الله والمراد عموم ذكر الله عز وجل، ولهذا عطف عليه قوله ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ من عطف الخاص على العام، أي: والذي نزل من الحق، وهو القرآن الكريم، وهو أشرف الذكر.

قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء: ٤٦].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٣٨-الأثر ١٨٨٢٥.

(٢) أخرجه مسلم في التفسير- باب قول الله تعالى: (ألم يأن للذين آمنوا) الآية الحديث ٣٠٢٧.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨]، وهذا في ذكر الله عموماً كما قال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٩]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون: ٩].

وإذا كان هذا العتاب لصحابة رسول الله ﷺ وهم أبر الناس قلوباً وأصدقهم ألسناً وأقواهم إيماناً وأعظمهم تقوى، وأشدهم إخلاصاً واتباعاً، وأكثرهم ذكراً وعبادة وخشوعاً ومجاهدة، فكيف بحال من بعدهم بأربعة عشر قرناً، ومن هو أقل منهم بذلك كله. اللهم غفراً.

وهذا مما يوجب على المسلم أن يتأمل حاله، ويتدبر في أمره، فأين نحن من حال المعاتبين بهذا الخطاب، على العبد أن يراجع نفسه وحاله من الخشوع لذكر الله وآياته ومدى خضوعه وانقياده لأحكام الله تعالى، ولا يغتر، فإن الناقد بصير والحساب عسير إلا على من يسره الله عليه.

﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

عاتب الله عز وجل المؤمنين واستبطأ خضوع قلوبهم للإيمان في أول هذه الآية ثم نهاهم في آخرها عن التشبه بأهل الكتاب بقسوة قلوبهم وفسقهم.

قوله ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ الواو: عاطفة، و «لا» نافية، والفعل (يكونوا) منصوب عطفًا على «تخشع»، أو «لا» ناهية، والفعل مجزوم بها، أي: ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبلهم، وهم اليهود والنصارى.

﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ أي: فطال عليهم الأجل والزمان، وبعد العهد بينهم وبين عهد الرسالات وامتد بهم الوقت.

﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: غلظت قلوبهم واشتدت فلم تلن لذكر الله، وما أنزله عليهم في كتبه فهي غلف لا تقبل موعظة، ولا يؤثر فيها وعد ولا وعيد، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ

قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة:٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

وكان من غلظة قلوبهم وشدة قسوتها أن كذبوا بآيات الله ونبذوها وراء ظهورهم، وحرّفوها وبدلوها واشتروا بها ثمناً قليلاً، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وقال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ٣٤].

وهذا مما يدل على أن القلوب تحتاج دائماً إلى مراقبة وتذكير بما أنزل الله عز وجل لأنها تغفل وتقسو وتصدأ، وأعظم ما يلينها ويزيل صدأها ذكر الله عز وجل.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ الفسق: هو الخروج عن طاعة الله وما حده، أي: وكثير منهم خارجون عن طاعة الله تعالى مخالفون لأمره مرتكبون لنهيه، فقلوبهم قاسية وأعمالهم باطلة.

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

عاتب الله عز وجل المؤمنين في الآية السابقة واستبطأ خشوع قلوبهم لذكر الله ووحيه ونهاهم عن مشابهة أهل الكتاب الذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم وخرج كثير منهم

عن طاعة الله. ثم أتبع عز وجل هذا العتاب وهذا النهي بما يبشر بالخير، وبما يشبه الفأل الحسن، وبما يذهب القنوط واليأس عن القلوب وأن الله عز وجل القادر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على تليين القلوب بعد قسوتها ويا له من تشبيه عجيب، فما أشبه القلب القاسي بالأرض الميتة، وما أهون تليين القلب القاسي على من قدر على إحياء الأرض بعد موتها.

قال ابن كثير[1] رحمه الله: «فيه إشارة إلى أنه تعالى يلين القلوب بعد قسوتها ويهدي الحيارى بعد ضلتها، ويفرج الكروب بعد شدتها، فكما يحيي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتّان، كذلك يهدى القلوب القاسية ببراهين القرآن، والدلائل، ويولج إليها النور بعد ما كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل، فسبحان الهادي لمن شاء بعد الإضلال، والمضل لمن أراد بعد الكمال، الذي هو لما يشاء فعّال وهو الحكم العدل في جميع الفعال، اللطيف الخبير الكبير المتعال».

قوله: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾ الأمر للمؤمنين المخاطبين بقوله ﴿۞أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ولجميع الناس.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ وذلك بإنزال المطر عليها، كما قال عز وجل ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ۝٣٣﴾ [يس: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ﴾ [فصلت: ٣٩].

وكما أن في الآية إشارة إلى أن الله يلين القلوب بعد قسوتها ففيها دلالة أيضا على أن الله يحيى الخلق بعد موتهم وبعثهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٣٩﴾ [فصلت: ٣٩].

﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ «قد» للتحقيق، و«بينا» وضحنا وفصلنا، و(الآيات) جمع آية، والآية هي العلامة الدالة على وجود الله عز وجل ووحدانيته وكما له في ذاته وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته

وتنقسم إلى قسمين: آيات شرعية، وهي آيات القرآن الكريم، وقد بينها الله عز وجل أعظم بيان قال تعالى ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ۝٨٢﴾ [النساء: ٨٢].

---

(١) في «تفسيره» ٨/٤٧.

والقسم الثاني: آيات كونية منتشرة في هذا الكون، فكل مخلوق في هذا الكون هو آية يدل بخلقه ووجوده وأحواله، على وجود الخالق العظيم، وكماله في ذاته وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝﴾ [يس: ٣٧ـ ٤٠].

وقد أحسن القائل:

فوا عجبا كيف يعصي الإله ... أم كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

وقال الآخر:

تأمل سطور الكائنات فإنها ... من الملك الأعلى إليك رسائل

وقد خط فيها ـ لو تأملت خطها ـ ... الا كل شيء ما خلا الله باطل

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ اي: لأجل، أو رجاء أن تعقلوا عن الله عز وجل أمره ونهيه، وتستعملوا عقولكم فيما خلقتم له وفيما يفيدكم في أمر دينكم ودنياكم.

فإن العقل الحقيقي هو الذي يهدي صاحبه إلى ما فيه سعادته في الدنيا والآخرة ويستنير بنور الله عز وجل، وهذا العقل هو مناط المدح والذم.

أما العقل الذي هو مناط التكليف فهو ما يميز به العاقل من المجنون المعتوه، وهذا العقل وإن كان موجوداً عند الكثيرين فإنه لم ينفعهم لأنهم لم يستفيدوا منه في معرفة الحق والعمل به، ولهذا قال الله عز وجل عن الكفار ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ۝﴾ [الأعراف: ١٧٩].

بل قالوا عن أنفسهم فيما حكى الله عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝﴾ [الملك: ١٠، ١١].

فبين الله عز وجل الآيات الشرعية والآيات الكونية ووضحها وفصلها أتم تفصيل؛ لأجل أن يتأملها الناس بعقولهم، ويهتدوا بها إلى معرفة الخالق العظيم، وإلى

معرفة الحق، ولهذا أرسل عز وجل الرسل، وأنزل الكتب، وبذلك أقام الحجة على الخلق، كما قال عز وجل ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وفي الآية دلالة على أنه لا عقل لمن لم يهتد بآيات الله ولم ينقد لشرع الله.

الفوائد والعبر:

١ ـ عتاب الله ـ عز وجل ـ للمؤمنين واستبطاؤه خشوع قلوبهم لذكره وما نزل من الحق.

٢ـ إثبات علو الله ـ عز وجل ـ بذاته وصفاته، وأن القرآن الكريم منزل من عنده ـ عز وجل ـ.

٣ ـ نهي المؤمنين وتحذيرهم أن يكونوا مثل اليهود والنصارى في قسوة قلوبهم وفسق كثير منهم.

٤ ـ في عتاب الله ـ عز وجل ـ للصحابة ونهيهم عن مشابهة أهل الكتاب بقسوة القلوب والفسق عتاب ونهي لكل من جاء بعدهم من باب أولى، مما يوجب تعاهد القلوب بذكر الله.

٥ـ أن أول الأمة خير من آخرها، وأنه كلما بعد عهد الرسالة كلما كثر الشر وقل الخير.

٦ ـ عدم الاغترار بما عليه الكثرة من الخلق.

٧ ـ بعث الأمل والرجاء بتليين قلوب المؤمنين، لأن الله ـ عز وجل ـ هو القادر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على تليين القلوب بعد قساوتها وبعث الأجساد بعد موتها.

٨ ـ ضرب الأمثال في القرآن الكريم لتقريب الأمور المعنوية.

٩ ـ تبيين الله ـ عز وجل ـ للآيات الشرعية والكونية للناس ليعقلوا عن الله ـ عز وجل ـ أمره ونهيه، وينقادوا لشرعه.

١٠ ـ أن العاقل حقاً من هداه عقله إلى الاستنارة بنور الله عز وجل فسعد في دنياه وأخراه.

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾.

صلة الآيتين بما قبلهما:

أمر الله عز وجل فيما سبق من السورة بالإيمان بالله ورسوله والإنفاق في سبيله وحض على ذلك ووعد عليه بالأجر العظيم، وفي هتين الآيتين شيء من تفصيل ذلك الأجر.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم بتخفيف الصاد وتشديد الدال في (المصَدّقين والمصَدّقات) وقرأ الباقون (المصَّدّقين والمصَّدّقات) بتشديد الصاد والدال، أي: المكثرين من الصدقات.

وأصل المصَّدّقين والمصَّدّقات المتصدقين والمتصدقات، فادغمت التاء في الصاد، أي: إن المتصدقين والمتصدقات بأموالهم على ذوي الحاجة من اليتامى والفقراء والمساكين وفي غير ذلك من وجوه البر كبناء المساجد وتعليم كتاب الله والجهاد في سبيله وغير ذلك.

وقدم عز وجل المتصدقين والمتصدقات في الذكر على الصديقين والشهداء- والله أعلم- لظهور أثر الصدقة والبر والإحسان وتعديه إلى الخلق.

﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ الواو: عاطفة، وعطف هذه الجملة على قوله (إن المصدقين والمصدقات) ترغيبا في الصدقة وأنها إقراض لله عز وجل تكفل سبحانه وتعالى بوفائه والإثابة عليه، ومضاعفة أجره، كما قال عز وجل: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.

والآية تشمل القرض بمعناه الخاص، وما هو أعم منه، وهو الصدقة والنفقة عموماً في سبيل الله.

وقد جعل الله عز وجل الصدقة كالقرض الذي يجب على المقترض رده وهو سبحانه الغني عن خلقه، ولا يجب عليه شيء لخلقه، وإنما أوجب سبحانه وتعالى على نفسه الرحمة وإثابة المطيع تفضلاً منه وكرماً، كما قال عز وجل: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

ومعنى (قرضاً حسناً) أي: جميلاً طيباً، وذلك بكون الصدقة من مال طيب، وبطيب نفس، وبنية خالصة ابتغاء وجه الله عز وجل، لا يريدون بذلك جزاء

ولا شكوراً ممن تصدقوا عليه، ولا يتبعها مَنّ ولا أذى.

﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾ أي: يضاعف الله لهم هذا القرض وثوابه فيجازيهم على ذلك الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي: ولهم على هذه الصدقة والقرض جزاء وثواب (كريم) وسُمي جزاؤهم أجراً إشارة إلى أن الله عز وجل قد تكفل به لهم.

ومعنى (كريم) أي: حسن طيب كثير خيره كمية، وعظيم خيره كيفية، وهو الجنة وما فيها من ألوان النعيم.

ففي هذه الآية أثنى الله عز وجل على المتصدقين والمتصدقات وسمى عز وجل الصدقة إقراضاً له وهو الغني الحميد سبحانه وتعالى، وذلك ترغيباً في الصدقة، ووعد على ذلك بالمضاعفة والأجر الكريم. حضاً على المتاجرة الرابحة مع الله عز وجل، والتي لا تتطرق إليها الخسارة بحال، بل أرباحها مضمونة ومضاعفة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ **«ينزل الله إلى السماء الدنيا لشطر الليل أو لثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، أو يسألني فأعطيه، ثم يقول: من يقرض غير معدم ولا ظلوم»**.

وفي رواية: « ثم يبسط يديه تبارك وتعالى، يقول: من يقرض غير عدوم ولا ظلوم»[1].

فيا خسارة من حرم المتاجرة مع الله عز وجل قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨].

ومن العجيب أن كثيراً من الناس يتبارون في المتاجرة مع الغني من الخلق، ولو طلب منهم قرضاً لتسابقوا إلى إقراضه، ولسان حال كل منهم يقول: كم تريد يا أبا فلان، وكل منهم يريد أن يكون هو السابق إلى إقراضه.

بينما إذا طُلب منهم التصدق والإنفاق في سبيل الله، وهو إقراض للغني الحميد، أكرم الأكرمين وأجود الأجودين، ومن بيده خزائن السموات والأرض - رأيت الكثير منهم يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، ورأيت منهم بروداً وتباطؤاً، في المسابقة في هذا المضمار فأين المتأمل المنصف والعاقل اللبيب فشتان ما بين المتاجرتين

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين – الترغيب في الدعاء والذكر ٧٥٨.

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعاً فما الضدان يجتمعان[١].

فتأمل هذا يا أخي بارك الله فيك، وتفهم الحكمة من تسميته عز وجل الصدقة والإنفاق في سبيله عز وجل قرضاً، يعظم في نفسك من تقرض، ويهن عليك ما تقرض.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾ أي: والذين صدقوا بالله ورسله بقلوبهم وألسنتهم وانقادوا بجوارحهم إلى ما جاءهم عن الله عز وجل، وعلى ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ الإشارة للذين آمنوا بالله ورسله وصفهم الله بأنهم هم الصديقون، وأكد اتصافهم بهذا الوصف بضمير الفصل «هم» وكون الجملة اسمية معرفة الطرفين.

و «الصِّدِّيقون» جمع صدِّيق على وزن «فِعِّيل» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، أي: الذين بلغوا منزلة عظيمة ودرجة رفيعة في تصديق ما جاءهم عن الله عز وجل وعلى ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام وفي الإيمان بذلك، وفي الصدق بأقوالهم وأفعالهم.

فجمعوا بين صدق النية وصدق القول والعمل، بين العلم النافع والعمل الصالح واليقين الصادق.

قال الحسن: « ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما وقر في القلب، وصدقه العمل»[٢].

ومن هؤلاء الصديقين مريم عليها السلام، كما قال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة:٧٥]. ومنهم الخليفة الراشد أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ الواو: استئنافية، فهذا ابتداء كلام فيكون الكلام مكوناً من جملتين الأولى قوله ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ والجملة الثانية ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾.

وقيل: الكلام جملة واحدة، فقوله ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾ مبتدأ، وخبره ما بعده إلى قوله (لهم أجرهم ونورهم).

والراجح: أن الكلام جملتان، ويرجح هذا أنه ليس كل مؤمن صديق يكون شهيداً؛

---

(١) البيت لابن القيم انظر «النونية» ص ١١.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٨٤.

لأن الشهيد من قتل في سبيل الله، اللهم إلا أن يراد بـ« الشهداء» في الآية الذين يشهدون على الناس يوم القيامة- كما قال بعضهم- وهذا مرجوح- والراجح أن المراد بـ (الشهداء) الذين قتلوا في سبيل الله، فقوله (والشهداء) مبتدأ وخبره قوله (لهم أجرهم ونورهم).

وعلى اعتبار أن الكلام جملة واحدة فالصديقون صنف، والشهداء صنف آخر فذكر الله عز وجل هنا صنفين من أصناف السعداء الأربعة المذكورين في سورة النساء قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩]. فالصديقون، والشهداء صنفان.

قال ابن القيم[1]: «ومرتبة الصديقين فوق مرتبة الشهداء، ولهذا قدمهم عليهم في الآيتين هنا، وفي سورة النساء، وهكذا جاء ذكرهم مقدماً على الشهداء في كلام النبي ﷺ في قوله: « اثبت أحد فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان»[2] ولهذا كان نعت الصديقية وصفاً لأفضل الخلق بعد الأنبياء والمرسلين أبي بكر الصديق، ولو كان بعد النبوة درجة أفضل من الصديقية لكانت نعتاً له رضي الله عنه».

وقال ابن كثير[3]: «ولا شك أن الصديق أعلى مقاماً من الشهيد» ثم استدل بما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم» قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»[4].

(عند ربهم) أي: في جواره في جنات النعيم، وقدم قوله (عند ربهم)، على قوله (لهم اجرهم ونورهم) لأن جواره عز وجل ورؤيته أعظم النعيم كما قال عز وجل: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] أي: لهم (الحسنى)، وهي الجنة (وزيادة) وهي النظر إلى وجهه الكريم سبحانه.

ومثل هذا في تقديم قربه عز وجل وجواره قول آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ﴿رَبِّ

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٨٥-٣٨٨.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٧٥، وأبو داود في السنة ٤٦٥١، والترمذي في المناقب ٣٦٩٧ من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) في « تفسيره» ٨/ ٤٨.

(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٥٦، ومسلم في صفة الجنة ٢٨٣٠.

ﭐبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١] فاختارت الجار قبل الدار رضي الله عنها.

وأضاف العندية إلى الرب سبحانه إشارة إلى عظم مالهم عنده من الكرامة لأن معنى الرب الخالق المالك المدبر المربي للخلق بسائر نعمه سبحانه وتعالى، فكأنه يقول (والشهداء عند ربهم) فلا تسأل عن حالهم، ثم فصل شيئاً من ذلك فقال (لهم أجرهم ونورهم). أي: لهم ثوابهم ونورهم المتميز عن غيرهم كماً وكيفاً ونوعاً.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩: ١٧١].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [آل عمران: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٧٤﴾﴾ [النساء: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٤﴾ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ﴿٥﴾ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ﴿٦﴾﴾ [محمد: ٤ـ ٦].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل فاطلع عليهم ربهم اطلاعة، فقال: ماذا تريدون؟ فقالوا: نحب أن تردنا إلى الدار الدنيا، فنقاتل فيك، فنقتل، كما قتلنا أول مرة فقال: إني قضيت أنهم إليها لا يرجعون»[(١)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من عبد يموت له عند الله خير يسره أن يرجع إلى الدنيا وأن له الدنيا وما فيها إلا الشهيد، لما يرى من فضل

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة- بيان أن أرواح الشهداء في الجنة ١٨٨٧، والترمذي في التفسير ٣٠١١، وابن ماجه في الجهاد ٢٨٠١.

الشهادة، وفي رواية: «لما يرى من الكرامة»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض»[٢].

قال ابن كثير[٣]: « وهم في ذلك – يعني الشهداء- يتفاوتون بحسب ما كانوا في الدار الدنيا من الأعمال. ثم ذكر ما رواه الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال سمعت النبي ﷺ يقول: «الشهداء أربعة، رجل مؤمن جيد الإيمان لقي العدو فصدق الله فقتل، فذلك الذي ينظر الناس إليه هكذا- ورفع رأسه حتى سقطت قلنسوة رسول الله ﷺ، أو قلنسوة عمر- والثاني مؤمن لقي العدو فكأنما يضرب ظهره بشوك الطلح جاءه سهم غرب[٤] فقتله، فذاك في الدرجة الثانية، والثالث رجل مؤمن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً حتى لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذاك في الدرجة الثالثة. والرابع رجل مؤمن أسرف على نفسه إسرافاً كثيراً لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذاك في الدرجة الرابعة»[٥].

قال ابن القيم[٦]: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ فهؤلاء، أصحاب الأجر والثواب، ثم قال ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ فهؤلاء أصحاب المرتبة والمنزلة والقرب فالعمّال عملوا على الأجور والعارفون عملوا على المراتب والمنزلة والزلفى عند الله، وأعمال هؤلاء القلبية أكثر من أعمال أولئك، وأعمال أولئك البدنية قد تكون أكثر من أعمال هؤلاء».

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾

ذكر الله عز وجل المؤمنين ومراتبهم وهم المتصدقون، والصديقون، والشهداء[٧]،

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد ٢٧٩٥، ومسلم في الإمارة، ١٨٧٧، والنسائي في الجهاد ٣١٦٠، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٦١.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٧٩٠.

(٣) في « تفسيره» ٨/ ٤٩.

(٤) أي: لا يعرف راميه.

(٥) أخرجه أحمد ١/ ٢٣، والترمذي في فضائل الجهاد- ما جاء في فضل الشهداء عند الله ١٦٤٤، وقال: «حديث حسن غريب».

(٦) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٨٧-٣٨٨.

(٧) وهناك قسم رابع وهم المقتصدون، الذين فعلوا الواجبات وتركوا المحرمات مع بعض التخليط والتقصير في شيء من حقوق الله وحقوق الخلق انظر: « بدائع التفسير» ٤/ ٣٨٧/ ٣٨٨.

وما أعده لهم من عظيم الأجر والثواب، ثم أتبع ذلك بذكر الكافرين المكذبين وما أعد لهم من العذاب الأليم والجحيم، على طريقة القرآن في الجمع بين الرجاء والخوف والترغيب والترهيب.

وعطف التكذيب على الكفر وهو منه، من عطف الخاص على العام إشارة لشدة كفرهم.

والمعنى: والذين جحدوا آياتنا وكذبوا بها وأنكروها، من الآيات الشرعية المنزلة من عند الله عز وجل والتي فيها الأوامر والنواهي والأحكام والأخبار والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك.

ومن الآيات الكونية المنتشرة في الكون الدالة على وجود الله وعظمته في ربوبيته والوهيته وأسمائه وصفاته، وأنه المستحق للعبادة وحده دون ما سواه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي: ساكنوها وملازموها ملازمة الصاحب لصاحبه.

وشتان بين من هو في أعلى عليين في جنات النعيم نسأل الله تعالى من فضله، وبين من هو في أسفل سافلين في دركات الجحيم. نسأل الله العافية والسلامة.

الفوائد والعبر:

١ ـ وعد الله ـ عز وجل ـ للمتصدقين والمتصدقات المقرضين الله قرضاً حسنا بالمضاعفة والأجر الكريم والجزاء الكثير.

٢ ـ في تسمية الصدقة والإنفاق في سبيل الله قرضاً لله ـ عز وجل ـ ترغيب في ذلك.

٣ ـ ينبغي أن تكون الصدقة والقرض خالصاً لله ـ عز وجل ـ من مال طيب، وبنفس طيبة، بلا من ولا أذى.

٤ ـ أن من لازم الإيمان بالله: الإيمان برسله، كما أن من لازم الإيمان بالرسل الإيمان بالله ـ عز وجل.

٥ ـ الثناء على الذين آمنوا بالله ورسله وأنهم هم الصديقون الذين جمعوا بين العلم النافع والعمل الصالح واليقين الصادق، وأنهم أفضل من الشهداء.

٦ ـ فضل الشهداء وقربهم عند ربهم في الجنة وما لهم عنده من الأجر العظيم والنور التام وربوبيته ـ عز وجل ـ الخاصة لهم.

٧ ـ الوعيد والتهديد للكفرة المكذبين بآيات الله بدخول النار وملازمة الجحيم.

٨ ـ جمع القرآن الكريم بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد.

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾.

صلة الآية بما قبلها:

لما بين عز وجل في الآيتين السابقتين ما أعده للمتصدقين وللمؤمنين الصديقين وللشهداء عنده في الجنة من الأجر العظيم، وأن الكفرة المكذبين هم أصحاب الجحيم، أتبع ذلك ببيان حقارة الدنيا وأنها متاع غرور، والتأكيد على الاستعداد للآخرة للنجاة من عذابها الشديد، والفوز بمغفرة الله ـ عز وجل ـ ورضوانه.

قوله: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ الأمر في قوله (اعلموا) يحتمل أن يكون للمؤمنين، وأن يكون لعموم الناس، أي: اعلموا أيها المؤمنون، أو أيها الناس.

(أنما) كافة ومكفوفة، وهي أداة حصر، أي: ما الحياة الدنيا إلا مجرد لعب ولهو وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد، أي: ما هي إلا هذا الشيء لا غيره.

و«الحياة الدنيا» هي هذه الدار التي نحن فيها، وسميت دنيا لأنها قبل الآخرة في الزمن، ولأنها دنيئة حقيرة لا قيمة لها بالنسبة للآخرة قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧].

وقال ﷺ: «ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»[1].

﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾.

حصر الله عز وجل الدنيا بهذه الأوصاف وهي كونها مجرد لعب ولهو وزينة وتفاخر بين الناس وتكاثر في الأموال والأولاد وهذا هو سبب دناءتها وحقارتها.

قوله ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ لعب بالأبدان والجوارح، ولهو وغفلة بالقلوب، وهذا أشد، وكل ذلك مما لا فائدة فيه تعود على الإنسان.

﴿وَزِينَةٌ﴾ أي: تزيُّن في اللباس والطعام والشراب والمراكب والدور والقصور والجاه

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٢٠، وابن ماجه في الزهد ٤١١٠ من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وقال الترمذي «صحيح غريب».

وغير ذلك، تأخذ بالعيون وتعجب النفوس بزينتها الظاهرة كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤].

﴿وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ﴾ بالأحساب والأنساب والعلم والجاه والمناصب وغير ذلك

قال ابن القيم[١]: «فأخبر سبحانه عن حقيقة الدنيا بما جعله مشاهداً لأولي البصائر وأنها لعب ولهو تلهو بها النفوس، وتلعب بها الأبدان واللعب واللهو لا حقيقة لهما، وأنهما مشغلة للنفس مضيعة للوقت يقطع بها الجاهلون العمر، فيذهب ضائعاً في غير شيء، ثم أخبر أنها زينة زينت للعيون وللنفوس فأخذت بالعيون والنفوس استحساناً ومحبة، ولو باشرت القلوب معرفة حقيقتها ومآلها ومصيرها لأبغضتها ولآثرت عليها الآخرة، ولما آثرتها على الآجل الدائم الذي هو خير وأبقى».

﴿وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ﴾ أي: مكاثرة بينكم في الأموال والأولاد ومباهاة بالعدد والعُدد، فيتعالى البعض على الآخرين بكثرة ماله، ويسعى جاهداً حثيثاً بأن يكون الأكثر مالاً حتى ولو سلك طرقاً ملتوية وغير مشروعة في جمع المال.

كما يتعالى البعض على الآخرين بكثرة أولاده، ويسعى بأن يكون الأكثر أولاداً.

ورضي الله عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حين قال: «إذا رأيت الرجل ينافسك في الدنيا فنافسه في الآخرة».

وإذا كان المولى عز وجل نعى الدنيا وبين حقارتها وهوانها، لأنها مجرد لعب ولهو وزينة وتفاخر، وتكاثر في الأموال والأولاد فإن على العاقل اللبيب والحصيف الأريب أن يعبرها ولا يعمرها عمارة مقيم، وأن يستعد للسفر الطويل، وأن يجعلها مطية للآخرة بالعلم النافع والعمل الصالح والإخلاص لله عز وجل ومتابعة رسوله ﷺ، جاعلاً نصب عينيه الهدف الذي خلق من أجله، والذي خلقت الدنيا والكون كله من أجله وهو عبادة الله عز وجل، وأن يعلم أن سوق المتاجرة والمرابحة مع الله عز وجل إنما هو في الدنيا فهي فرصة العمر، لياليها وأيامها خزائن للأعمال الصالحة، والكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني[٢].

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٨٨.

(٢) كما جاء في الحديث وقد سبق تخريجه.

وإنما وصف الله عز وجل الدنيا بهذه الصفات الذميمة ـ مع أنها محل للأعمال الصالحة لمن وفقه الله عز وجل لأن هذا واقع كثير من الناس.

فكم من أناس همهم في هذه الحياة اللعب واللهو والغفلات وتزجية الأوقات في الأسفار والنزه والملاهي والمقاهي ومجالس القيل والقال، والتفنن في المأكولات والمشروبات وما هذه حال من عرف ما خلق لأجله، ولا حال من عرف الهدف من الحياة.

وكم من أناس همهم في هذه الحياة التزين بالمساكن، والمراكب والملابس وغير ذلك متناسين هادم اللذات وما أمامهم من الأهوال والعقبات.

وكم من أناس همهم التفاخر بالأحساب والأنساب والمناصب والجاه وغير ذلك متناسين أن أكرم الخلق عند الله أتقاهم لله.

وكم من أناس همهم التكاثر بالأموال يلهثون وراء جمع المال، وربما لجأ بعضهم بسبب الحرص على ذلك إلى الكسب من الطرق المحرمة، ومنع حقوق الله في المال. فهؤلاء يصدق عليهم قوله ﷺ: «تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش»[(١)].

وكم من أناس همهم أن يكونوا أكثر من غيرهم أولاداً وقبيلاً يتزوج الواحد منهم العديد من الزوجات ويطلق هذه ويتزوج هذه، بقصد أن يكون من أكثر الناس أولاداً.

فما أشقى من قصر طرفه عند هذه النظرة الضيقة القاصرة وفاتته المعاني السامية للنكاح، وتعدد الزوجات، فربما صار هؤلاء الأولاد والزوجات وبالاً عليه في دينه ودنياه.

ولا شك أن هناك أناساً ممن وفقهم الله عز وجل عرفوا قدر هذه الحياة وشغلوها بما يقربهم إلى الله عز وجل، وبما ينفعهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم.

فأخذوا من اللهو المباح ما لا يشغلهم عما خلقوا له، وتوسطوا في المأكل والمشرب والملبس والمركب وعلموا أن الفخر بتقوى الله عز وجل، وطلبوا المال من الطرق الحلال لإعفاف أنفسهم وأهليهم من مذلة السؤال، مع أداء ما لله عليهم من حقوق هذا المال، ولم يشغلهم عن طاعة الله تعالى، قال ﷺ لعمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ: «نعم المال الصالح للمرء الصالح»[(٢)].

وقال الشاعر:

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا ... وأقبح الكفر والإفلاس في الرجل

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٨٧، والترمذي في الزهد ٢٣٧٥، وابن ماجه في الزهد ٤١٣٦ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه

(٢) أخرجه أحمد ٤/١٩٧، ٢٠٢.

وهناك من تزوجوا، بل وعددوا الزوجات وأكثروا الأولاد إعفافاً لأنفسهم وزوجاتهم، وتكثيراً لسواد الأمة مع العناية بحقوق زوجاتهم وأولادهم وتوجيههم وتربيتهم التربية الإسلامية الصحيحة لينفعوا انفسهم ووالديهم وأمتهم، ومثل هؤلاء - وهم قليل - أنعم وأكرم بتعدادهم الزوجات وتكثيرهم الأولاد، وهم الذين استجابوا لقوله ﷺ: «تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة»[1].

﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ اي: إنما الحياة الدنيا وعمر الإنسان فيها (كمثل غيث أعجب الكفار نباته) والغيث: هو المطر الذي يأتي بعد قنوط الناس، كما قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ [لقمان: ٣٤]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ [الشورى: ٢٨].

﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ اي: أعجب الزراع وراقهم نباته. وسمي الزارع كافراً؛ لأنه يستر البذر ويغطيه في الأرض، أخذاً من معنى الكفر لغة: وهو الستر والتغطية.

وقيل: المراد الكفار بالله، لأنهم هم الذين يعجبون بالدنيا، لأن قلوبهم متعلقة بها.

قال ابن كثير[2]: «أي كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار، فإنهم أحرص الناس عليها وأميل الناس إليها».

﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ اي: ذلك الزرع إلى غايته ومنتهاه وييبس ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ بعد ما كان خضراً نضراً تراه مصفراً وذلك علامة موته ويبسه.

﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ اي: يابساً متحطماً متكسراً فتاتاً تذوره الرياح يمنة ويسرة.

وهكذا الحياة الدنيا تكون أولا شابة، ثم تكتهل، ثم تكون عجوزاً شوهاء، والإنسان كذلك يكون في أول عمره وعنفوان شبابه غضاً طرياً لين الأطراف، بهي المنظر، ثم إنه يشرع في الكهولة فتتغير طباعه، وتضعف بعض قواه، ثم يكبر فيصير شيخاً كبيراً ضعيف القوى قليل الحركة، يعجزه الشيء اليسير، كما قال تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا

---

(١) أخرجه أبو داود في النكاح ٢٠٥٤، والنسائي في النكاح ٣٢٢٧، - من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه، وأخرجه أحمد ٣/ ١٥٨، ٢٤٥- من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وابن حبان في صحيحه ١٢٢٨، والبيهقي في سننه ٧/ ٨١. قال الحافظ ابن حجر في الفتح: «هذه الأحاديث، وإن كان الكثير منها ضعيفاً، فمجموعها يدل على أن لما يحصل به المقصود من الترغيب أصلاً، لكن في حق من يتأتى منه النسل».

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٥٠.

وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم: ٥٤]».

ثم ينتهي به الأمر إلى الفناء والموت، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[الرحمن: ٢٦ ، ٢٧]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥، الأنبياء: ٣٥].

وقد أحسن القائل:

لا طيب للعيش ما دامت منغصة لذاته بادكار الموت والهرم[١]

﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾.

لما بين أن الحياة الدنيا إنما هي مجرد لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر في الأموال والأولاد، وأنها في سرعة زوالها واضمحلالها كالنبات الذي سقاه الغيث فنما واخضر وأعجب الزراع ثم استوى واصفر، ثم يبس وتحطم وتكسر وذرته الرياح هنا وهناك، وفي هذا دلالة واضحة على هوان الدنيا وحقارتها. أتبع ذلك ببيان قيمة الآخرة، وأنها هي الدار حقاً، مما يوجب العمل للآخرة، وعدم الاغترار بالدنيا.

وبين في هذه الآية أن الناس في تلك الدار: إما متقلب في العذاب الشديد نسأل الله السلامة، أو منعم بالمغفرة والرضوان نسأل الله تعالى من فضله وكرمه.

وهذا على طريقة القرآن في جمعه بين الترغيب والترهيب ليجمع المؤمن في طريقه إلى الله عز وجل بين الخوف والرجاء.

قوله ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: وفي الدار الآخرة للكفار والعصاة في مواقف القيامة وعرصاتها، وفي النار (عذاب شديد) وسميت الآخرة لأنها متأخرة من حيث الزمن عن الدنيا وإلا فهي الدار حقاً وهي الحيوان، كما قال عز وجل ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤].

﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: عذاب شديد، حسياً تعذب به الأبدان، ومعنوياً تعذب به القلوب من التبكيت والتوبيخ والتقريع.

﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ أي: لأهل الإيمان، وأضاف المغفرة والرضوان إلى الله عز وجل بينما لم يضف العذاب الشديد إليه. وإن كان الكل بتقديره عز وجل على

---

(١) البيت من شواهد ابن عقيل في باب «كان وأخواتها» ولا يعرف له قائل.

معنى قوله ﷺ «والشر ليس إليك»(١).

والمغفرة: هي ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة، كما جاء في حديث ابن عمر في المناجاة قوله عز وجل: «أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»(١).

﴿وَرِضْوَانٌ﴾ أي: رضاه عز وجل عنهم كما قال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩، المجادلة: ٢٢، البينة: ٨].

ورضوان الله غاية مطلب أهل الجنة، كما قال تعالى: ﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥]، وقال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ۝٢١﴾ [التوبة: ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٧٢﴾ [التوبة: ٧٢].

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ هذا كقوله: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ۝١٨٥﴾ [آل عمران: ١٨٥].

الواو: استئنافية، و «ما» نافية «إلا» أداة حصر، أي: ما الحياة الدنيا إلا هذا الشيء فقط، وهو متاع الغرور، أي: ما هي إلا مجرد متاع يغتر به أصحاب العقول الضعيفة الذين غرهم بالله الغرور، فتعجبهم الدنيا ويركنون إليها مع أنها ظل زائل، لا قيمة لها قال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣، فاطر: ٥] وقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٣٨﴾ [التوبة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ۝٢٦﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ۝٣٩﴾ [غافر: ٣٩].

قال ابن كثير(٢): «أي: هي متاع فان غارٌ لمن ركن إليه، فإنه يغتر بها وتعجبه حتى يعتقد أنه لا دار سواها ولامعاد وراءها، وهي حقيرة قليلة بالنسبة للدار الآخرة».

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٥٠.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له»(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لروحة في سبيل الله أو غدوة خير من الدنيا وما فيها، ولقاب قوس أحدكم أو موضع يده في الجنة، خير من الدنيا وما فيها، ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بينهما، ولملأت ما بينهما ريحا، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها»(٢).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاءً فقال: «ما لي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»(٣).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل». وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك» الحديث(٤).

وقد قيل:

وإيــاك والــدنيا الدنيــة إنهــا ... هــي الســحر في تخيلــه وافترائــه
متــاع غــرور لا يــدوم ســرورها ... وأضــغاث حلــم خــادع ببهائــه
فمــن أكرمــت يومــاً أهانــت لــه غــداً ... ومــن أضــحكت قــد آذنــت ببكائــه
الا إنهــا للمــرء مــن أكــبر العــدا ... ويحســبها المغــرور مــن أصــدقائه
وكــم في كتــاب الله مــن ذكــر ذمهــا ... وكــم ذمهــا الأخيــار مــن أصــفيائه
فــدعها فــإن الزهــد فيهــا محــتم ... وإن لم يقــم جــل الــورى بأدائــه
ومــن لم يــدعها زاهــداً في حياتــه ... ســتزهد فيــه النــاس بعــد فنائــه
وتســكنه بعــد الشــواهق حفــرة ... تضــيق بــه بعــد اتســاع فضــائه

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) اخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٧٩٢، ومسلم في الإمارة ١٨٨٠، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٥١، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٥٧.

(٣) اخرجه الترمذي في الزهد ٢٢٩٩، وابن ماجه في الزهد ٤٠٩٩. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٤) اخرجه البخاري في الرقاق ٦٤١٦، والترمذي في الزهد ٢٣٣٣، وابن ماجه في الزهد ٤١١٤.

وينساه أهلوه المفدى لديهم ... وتكسوه ثوب الرخص بعد غلائه
وينتهب الورّاث أمواله التي ... على جمعها قاسى عظيم شقائه[1]

وقال الآخر:

قد نادت الدنيا على نفسها ... لو كان في العالم من يسمع
كم واثق في العمر أفنيته ... وجامع بددت ما يجمع

وقال الآخر:

هي الدنيا تقول بملء فيها ... حذارِ حذارِ من بطشي وفتكي
فلا يغرركم مني ابتسام ... فقولي مضحك والفعل مبكِي

وقال الآخر:

هي الحياة فلا يغررك ما فيها ... من الزخارف واحذر من دواهيها
واجنب سلوكك فيها كل شائنة ... إن كنت حراً فإن النذل يدنوها

وقال الآخر:

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض ... على الماء خانته فروج الأصابع

الفوائد والعبر:

١ ـ حقارة الحياة الدنيا، وأنها مجرد لعب ولهو وزينة وتفاخر بين الناس وتكاثر في الأموال والأولاد.

٢ ـ أن مثل الحياة الدنيا في سرعة فنائها، وعمر الإنسان فيها كالنبات يسقيه الغيث فينمو ويخضر ويعجب الزارع، ثم يستوي ويصفر وييبس ويتحطم.

٣ ـ عظم مكانة الآخرة لأن فيها مجازاة الخلق بأعمالهم إما بالمغفرة والرضوان نسأل الله تعالى من فضله، وإما بالعذاب الشديد ـ نسأل الله تعالى ـ السلامة.

٤ ـ تأكيد حقارة الدنيا وأنها متاع غرور يجب الحذر من الاغترار بها.

---

(١) هذه الأبيات من قصيدة للشاعر ابن مشرّف انظر «ديوانه» ص٣٧.

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢١﴾.

صلة الآية بما قبلها:

بعدما بين الله ـ عز وجل ـ حقارة الدنيا ومكانة الآخرة أتبع ذلك بالأمر بالمسابقة إلى مغفرة الله ـ عز وجل ـ وجنته وفضله.

قوله ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾.

المسابقة شدة العدو والسير، والمعنى: بادروا وسارعوا إلى مغفرة من ربكم، كما قال عز وجل: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۝١٣٣﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال عز وجل: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ [البقرة: ١٤٨، المائدة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾ [الواقعة: ١٠، ١١] ، وقال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦﴾ [المطففين: ٢٦].

وقد أحسن القائل:

إذا غامرت في شرف مروم ... فلا تقنع بما دون النجوم[1]

أي: سابقوا إلى فعل أسباب المغفرة من التوبة النصوح والاستغفار، والبعد عما نهى الله عنه، والمبادرة والمسارعة إلى فعل الخيرات والأعمال الصالحات، والمنافسة فيها كما قال تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ [الحج: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وقال ﷺ: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر»[2].

والمغفرة: هي ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة، كما في حديث ابن عمر في المناجاة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل يدني المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه

---

(١) البيت للمتنبي.

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة ٢٣٣، والترمذي في الصلاة ٢١٤، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٠٨٦ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

كنفه - أي: ستره ورحمته- فيقرره بذنوبه، فيقول: أتذكر ذنب كذا وكذا؟ فيقول: نعم، يا رب. فيقول الله عز وجل: أنا سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»[١].

ومنه سُمي «المغفر» وهو البيضة التي توضع على الرأس تستره وتقيه السهام.

وأضاف - عز وجل - المغفرة إليه باسم الربوبية الذي معناه المالك الخالق المدبر المربي للخلق المنعم عليهم بسائر النعم الدينية والدنيوية والأخروية.

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الواو: عاطفة، أي: وسارعوا إلى جنة عرضها كعرض السماء والأرض. والجنة: هي الدار التي أعدها الله لأوليائه، لا يقدر عظم نعيمها إلا العظيم سبحانه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ قال الله: «أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رات، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فاقرؤوا إن شئتم» ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾»[٢].

وقوله: ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كقوله عز وجل: في سورة آل عمران: ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [الآية: ١٣٣].

وإذا كان عرضها السموات والأرض فما بالك بطولها، وما مدى مقدار سعتها مما يدل على سعة منازل أهلها نسأل الله العظيم من فضله.

وقد روي أن أحد الزنادقة جاء إلى الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى فقال له: الله يقول: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ او ﴿ كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فاين تكون النار، فأجابه أبو حنيفة على الفور: تكون النار إن شاء الله في عينك»

وذلك أن أحوال الآخرة لا تقاس بأحوال الدنيا، ولهذا فالمعذب في قبره يصيح صيحة يسمعه كل شيء إلا الثقلين وفي رواية إلا الإنس والجن[٣] مع أن صوت

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٤، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٢٤، والترمذي في تفسير القرآن ٣١٩٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٢٨.

(٣) أخرجه أحمد ٤/ ٢٩٦- من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه. وأخرجه من حديث أنس رضي الله عنه البخاري في الجنائز- الميت يسمع خفق النعال، وفي ما جاء في عذاب القبر ١٣٣٨، ومسلم في صفة الجنة ٢٨٧٠، وأبو داود في الجنائز ٣١ ٣٢، والنسائي في الجنائز ٢٠٥١، وأحمد ٣/ ٤.

الإنسان لو جمعت له أعظم مكبرات الصوت لا يسمع إلا من مسافة قريبة محدودة.

وكذلك المعذب في النار قال الله عنه ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الأعلى: ١٣] مع أن النار تذيب الجبال، فسبحان الخالق البصير العليم القدير الحكيم الخبير.

﴿أُعِدَّتْ﴾: بمعنى هيئت وجهزت، فهي الآن مخلوقة موجودة فيها ألوان النعيم، وهي في السماء السابعة، وسقفها عرش الرحمن، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي: للذين صدقوا بقلوبهم وألسنتهم بوجود الله وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وصدقوا رسله وما جاؤوا به من عند الله، وبأنهم رسل الله حقاً، وانقادوا بجوارحهم لما جاءهم عن الله عز وجل وعلى ألسنة رسله، وهم المتقون، كما قال عز وجل: في الآية الثانية: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: الذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وهم الذين آمنوا بالله ورسله.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة ترجع إلى ما أعده الله عز وجل لمن آمن بالله ورسله من المغفرة والجنة التي عرضها السماء والأرض.

ويحتمل أن يعود إلى هذا وإلى سببه وهو الإيمان بالله ورسله، أي: التوفيق للإيمان بالله ورسله، وما أعده الله للمؤمنين بالله ورسله.

وأشار إليه بإشارة البعيد « ذلك» تعظيماً لشأنه.

﴿فَضْلُ اللَّهِ﴾ الفضل: بمعنى الزيادة، أي: أن هذا كله تفضل من الله عز وجل وزيادة منه، إذ لا يجب عليه عز وجل شيء لخلقه أصلاً، وإنما هذا فضل منه عز وجل عليهم خلقهم ورزقهم ووفق من شاء منهم فهداهم للإيمان وجازاهم على ذلك بالمغفرة والجنة، والتزم لهم بذلك كرماً منه سبحانه فقال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦].

﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي: يعطي هذا الفضل الذي يشاء من عباده تكرماً منه وامتناناً عليهم، وإحساناً إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم. فقال: وما ذاك؟ قالوا: يصلون كما

نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق فقال رسول الله ﷺ: «أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: «تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين مرة» فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله، فقال رسول الله ﷺ: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»[1].

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ «ذو» بمعنى صاحب، أي: والله صاحب الفضل العظيم، الذي لا يحصي أحد ثناءً عليه، بل هو سبحانه كما أثنى على نفسه.

فهو سبحانه العظيم الذي لا أعظم منه، والكبير الذي لا أكبر منه، الذي منه الفضل كله، وبيده الخير كله، ومنه النعم كلها، كما قال عز وجل ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال عز وجل ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨].

ومن الغريب والعجيب أن نرى بعض الناس إذا أسدى إليه أحد الخلق معروفاً ولو قليلاً تراه يذكره ولا ينساه بلسان حاله ومقاله، وربما قال له: يا فلان والله ما أنسى معروفك حتى أوارى في قبري، وربما تمنى أن يكون لصاحبه حاجة إليه فيرد هذا المعروف، وهذا لا شك من رد الجميل وقد قال ﷺ فيما رواه ابن عمر رضي الله عنهما: «من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سألكم بالله فأعطوه، ومن استجار بكم فأجيروه، ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه»[2].

لكن ينبغي أن يعلم أن صاحب المعروف الأول، بل صاحب المعروف كله هو الله عز وجل حتى ما حصل على يد بعض المخلوقين هو من الله عز وجل، ومن هنا كان الواجب الأعظم على الخلق شكر الخالق سبحانه وتعالى بطاعته وأداء حقوقه والبعد عن نواهيه، ولا شك أن من طاعته عز وجل شكر صاحب المعروف من الناس وفي الحديث: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله»[3].

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ـ الذكر بعد الصلاة ٨٤٣، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة ـ استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته ٥٩٥، وأبو داود في الصلاة ١٥٠٤.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٤٤٥، والنسائي في الزكاة ٢٥٢٠.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٨١١، والترمذي في البر والصلة ١٩٥٤- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

وبالمقارنة بين هذه الآية والآيات في سورة آل عمران نجد أن الله عز وجل قال هنا ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد: ٢١] وقال تعالى في سورة آل عمران: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الآيات: ١٣٣ ـ ١٣٦].

ففي هذه الآيات في سورة آل عمران شيء من التفسير لقوله في سورة الحديد ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ الآية، والتفصيل لأعمال وصفات هؤلاء المؤمنين وجزائهم، فمن أعمالهم وصفاتهم تقوى الله لقوله ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

و«المتقون»: الذين جعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية، بفعل أوامره واجتناب نواهيه، فاتقوا الله بقلوبهم وألسنتهم وسمعهم وأبصارهم وفروجهم وأيديهم وأرجلهم وجميع جوارحهم.

ومن أعمالهم وصفاتهم الإنفاق في السراء والضراء لقوله ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ وفرق ما بين الإنفاقين كما قال عز وجل ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠].

وبعض الناس يهون عليه الإنفاق في السراء لكنه يمسك في الضراء. وإنما تعظم النفقة وتظهر الرحمة بأعظم صورها في حالة الضراء والحاجة، «وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[(١)] «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[(٢)].

ومن صفاتهم كظم الغيظ لقوله ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ أي: الذين إذا غضبوا حبسوا الغضب وأمسكوا زمام النفس عن قول أو فعل ما لا يجوز.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس الشديد بالصرعة إنما

(١) أخرجه البخاري في الجنائز ١٢٠٤، ومسلم في الجنائز ١٥٣١، وأبو داود في الجنائز ٢٧١٨، والنسائي في الجنائز ١٨٤٥ من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٢٩٠، والترمذي في البر والصلة ١٨٤٧ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وقال «حديث حسن صحيح».

الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[١].

وعن سليمان بن صرد رضي الله عنه قال: استب رجلان عند النبي ﷺ فجعل أحدهما تحمرّ عَيناه، وتنتفخ أوداجه فقال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فقيل للرجل، فقال: لست بمجنون»[٢].

ومما يعين على كظم الغيظ، وإذهاب حدة الغضب الوضوء والجلوس إن كان قائماً والاضطجاع إن كان جالساً. فكم أدى الغضب إلى إزهاق أرواح، وطلاق وتشتيت أُسر، وعداوة وبغضاء. وكم عض صاحبه على أصبع الندم ولكن هيهات، وكم أودع أناس السجون وسيقوا إلى القصاص بسببه، وكم أصيب أناس بارتفاع ضغط الدم والسكري والجلطات بسببه.

ومن صفاتهم العفو عن الناس لقوله: ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ أي: يعفون عمّن أساء إليهم وعمّالهم من حقوق لدى غيرهم من قريب وبعيد ومؤمن وكافر، فترقّوا من كظم الغيظ، وحبس الغضب إلى العفو عمن أساء إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ۝٣٧﴾ [الشورى: ٣٧] فما أجمل هذا، نسأل الله تعالى التوفيق ـ قال تعالى: ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ۝١٢٦﴾ [النحل: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ٤٠] وقال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ۝٤٣﴾ [الشورى: ٤٣].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزا»[٣].

وفي الأثر: «العلم بالتعلم والحلم بالتحلم»[٤] قال الشافعي[٥]:

لما عفوت ولم أحقد على أحد ... أرحت نفسي من هم العداوات

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٦١١٤، ومسلم في البر والصلة ٢٦٠٩.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٨٢، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٦١٠، وأبو داود في الأدب ٤٧٨١.

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٨، والترمذي في البر والصلة ٢٠٢٩.

(٤) أخرج البخاري معلقاً، قال: قال النبي ﷺ «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما العلم بالتعلم» كتاب العلم ـ باب العلم قبل القول والعمل. انظر «فتح الباري» ١/ ١٥٩.

(٥) انظر «ديوانه» ص٣٧.

وقال الآخر:

لا يحمل الحقد من تعلوبه الرتب ولا ينال الرضا من طبعه الغضب[١]

ونعوذ بالله من الخذلان والحرمان ومن نزغات الشيطان: فبون شاسع وفرق واسع، بين إنسان عفو متسامح، وبين إنسان حرج دائماً، فالأول سعيد مطمئن، والثاني قلق مضطرب، هذا في الحياة أما في الآخرة وعند لقاء الله عز وجل فلا تسأل عن الفرق بينهما، وهل يقدر الفرق بين من يرد ليتقاضى من الخلق المساكين، وبين من يرد على الجواد الكريم:

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعاً فما الضدان يجتمعان[٢]

فما أحسن العفو، وما أجمل الخلق الطيب عموماً، فهو أثقل شيء في ميزان العبد يوم القيامة، وأقرب الناس مجلساً من النبي ﷺ أحاسنهم أخلاقاً كما جاء في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء»[٣].

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقاً»[٤].

فالخلق الطيب الحسن معين لا ينضب، وليس فيه كلفة ولا غرامة، ولا تعب ولا مشقة، والموفق من وفقه الله عز وجل.

ومن صفاتهم الإحسان لوصف الله لهم بذلك بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الذين أحسنوا في عبادة الله عز وجل، وأحسنوا إلى عباد الله، أحسنوا في عبادة الله؛ إخلاصاً لله عز وجل، ومتابعة للرسول ﷺ وأحسنوا إلى عباد الله بأداء حقوقهم والتفضل عليهم، من الوالدين والأزواج والأولاد والأقارب والجيران وغيرهم، وبالقيام بما عليهم من مسؤوليات للمسلمين. وكفى المحسنين أن الله عز وجل يحبهم دون من سواهم.

وفي قوله ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بعد قوله ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ

---

(١) البيت لعنترة بن شداد، انظر ديوانه ص٨٤.

(٢) البيت لابن القيم انظر: «النونية» ص ١١.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب ٤١٦٦، والترمذي في البر والصلة ١٩٢٥، وقال: «حديث حسن صحيح».

(٤) أخرجه الترمذي في البر والصلة ١٩٤١، وقال: «حديث حسن غريب».

﴿ٱلنَّاسِ﴾ إشارة إلى أنهم- نسأل الله التوفيق- ترقوا في مدارج الكمال فانتقلوا من كظم الغيظ إلى العفو عمن ظلمهم ثم إلى الإحسان إليه وتلك أعظم المنازل قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

ومن صفاتهم أنهم إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ الفاحشة: ما يستفحش في الشرع وعرف المسلمين كالزنا ونحوه.

﴿أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بفعل شيء من المعاصي، التي هي أعظم الظلم للنفس توردها موارد الهلاك والبوار. والنفس وديعة عند الإنسان يجب عليه أن ينأى بها عن كل ما فيه ضررها في دينها ودنياها.

﴿ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: أنهم بعد ملابستهم شيئاً مما ذكر يتذكرون عظمة الله عز وجل، ويرجعون إلى ذكره عز وجل وسؤاله المغفرة لما وقع منهم من الذنوب، مبادرين بالتوبة من ذلك من غير إصرار على المعصية، وهم يعلمون أنها معصية ويعلمون سوء عاقبتها وشؤمها مما يجعلهم محلاً للمغفرة والتوبة.

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار»[1].

ثم ختم الآيات بوعدهم بتحقيق ما سارعوا إليه من المغفرة والجنة تأكيداً لذلك فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾.

أي: أولئك المسارعون إلى المغفرة والجنة، جزاؤهم تحقيق المغفرة لهم من ربهم، ودخولهم جنات تجرى من تحت أشجارها ومساكنها وغرفها الأنهار قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مقيمين فيها إقامة أبدية لا تحول ولا تزول نسأل الله تعالى من

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٦/ ٦٥١.

فضله ﴿وَنِعْمَ﴾ أي: ونعم هذا الجزاء من الله لهم بالمغفرة والخلود في الجنة ﴿أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ بطاعة الله ـ عز وجل ـ وهم الموصوفون بهذه الصفات في الآية، وهم الذين آمنوا بالله ورسله كما ذكرهم في سورة الحديد.

فتأمل أخي الكريم ـ وفقك الله ـ أوصاف المسارعين المسابقين وما أعد الله لهم من المغفرة والجنة، وخذ من المسارعة والمسابقة ومن صفات المسارعين والمسابقين أعظم نصيب لتنال ما وعدهم الله به ما دامت الفرصة متاحة والسوق رابحة وخذ نصيبك من ربك- كما قال ابن القيم رحمه الله، إذ لا عذر لمتخلف، فإن الله قد فتح أبوابه للطالبين وخزائنه ملأى ويده سحاء الليل والنهار. فالكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني[1].

قال الشاعر:

من فاته الزرع في وقت البذار فما ... تراه يحصد إلا الهم والندما

وقال الآخر:

ولم أجد الإنسان إلا ابن سعيه ... فمن كان أسعى كان بالمجد أجدرا

فلم يتأخر من أراد تقدما ... ولم يتقدم من أراد تأخرا[2]

واعلم أخي أن الأمر جد، وقد أحسن القائل:

قد رشحوك لأمر لو فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

وقال الآخر

الأمر جد وهو غير مزاح ... فاعمل لنفسك صالحاً يا صاح

وقال الآخر:

سوف ترى إذا انجلى الغبار ... أفرس تحتك أم حمار

إذا حضر واجب لله وحق من حقوقه من صلاة أو زكاة أو صيام أو حج أو بر والدين

---

(١) كما جاء في حديث شداد بن أوس ـ رضي الله عنه ـ أخرجه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع ٢٤٥٩، وابن ماجه في الزهد ٤٢٦٠ ـ وقال الترمذي «حديث حسن».

(٢) البيتان لابن هانئ انظر: «ديوانه» ص ١٤٠.

أو صلة رحم، أو أمر بالمعروف، أو نهي عن المنكر، فانهض على قدمك الطولى مسرعاً مسابقاً منافساً وافرح بذلك واستبشر، وقل بلسان حالك ومقالك إذا سمعت حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح: نادى منادي العظيم نادى منادي المنعم، وقل: هيا يا أولادي ويا أهلي إلى إجابة داعي الله، هيا إلى إجابة داعي المنعم العظيم، هيا إلى الصلاة، واحذر من البرود والتبلد في هذا واحذر كل الحذر من القواطع، التي تحول بينك وبين ذلك، أو تؤخرك عنه، من مشاغل الدنيا من بيع أو شراء، أو شرب قهوة، أو إصلاح حاجة، أو تكليم شخص في جلسة أو في طريق، مقابلة أو مهاتفة، وإذا حضر حق الله فلا تلتفت إلى غيره، واعلم أن الظبي أشد وأسرع من الكلب، ولكنه إذا أحس به التفت إليه فيضعف سعيه فيدركه الكلب فيأخذه وهكذا فإن الشيطان يدرك الإنسان إذا التفت إلى هذه القواطع.

الفوائد والعبر:

١ ـ الأمر والترغيب في المسابقة إلى مغفرة الله ـ عز وجل ـ وجنته بالمسابقة والمسارعة والمنافسة بالأعمال الصالحة.

٢ ـ رحمة الله ـ عز وجل ـ بالعباد وشفقته عليهم حيث حثهم ورغبهم في المسابقة إلى مغفرته وجنته.

٣ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ لخلقه، ربوبية خاصة، وعامة.

٤ ـ عظم سعة الجنة ومساكنها وغرفها وبساتينها لأنه إذا كان عرضها كعرض السماء والأرض فما بالك في طولها.

٥ ـ وعد الله ـ عز وجل ـ للذين آمنوا بالله ورسله بهذه الجنة الواسعة، وأنها موجودة الآن مهياة لأهلها.

٦ـ تلازم الإيمان بالله والإيمان بالرسل.

٧ ـ الإشارة لعظم فضل الله ـ عز وجل ـ على الذين آمنوا به وبرسله بمغفرته لهم وإدخالهم فسيح جناته وما فيها من ألوان النعيم.

٨ ـ إثبات المشيئة لله ـ عز وجل ـ، وأنه عز وجل ـ يؤتي الفضل من يشاء بفضله ويمنعه عمّن يشاء بعدله.

٩ ـ أن الله ـ عز وجل ـ صاحب الفضل العظيم والخير العميم على جميع خلقه وهو الجواد الكريم.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝﴾.

في هذه الآيات يبين الله عز وجل أن جميع ما يحصل في هذا الكون من مصائب، إنما هو بقدر الله السابق قبل خلق الخليقة.

قوله ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ «ما» نافية أي: ما أصاب من مصيبة في الأرض من قحط وجدب وزلازل وبراكين وغير ذلك.

﴿وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ من مرض وجراح وقتل وموت وفقر وغير ذلك.

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ أي: إلا مقدر مكتوب عند الله عز وجل في اللوح المحفوظ الذي فيه مقادير كل شيء قال السعدي[1]: «وهذا شامل لعموم المصائب التي تصيب الخلق من خير وشر، فكلها قد كتب في اللوح المحفوظ صغيرها وكبيرها».

﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ أي: من قبل أن نخلق الخليقة ونبرأ النسمة ومن قبل خلق السموات والأرض، ومن قبل خلق هذا الكون كما في حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»[2].

قال الحسن البصري: «كل مصيبة بين السماء والأرض ففي كتاب الله من قبل أن تبرأ النسمة»[3].

وقال ابن كثير[4]: « وهذه الآية الكريمة من أدل دليل على القدرية نفاة العلم السابق ـ قبحهم الله».

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ الإشارة ترجع إلى معنى ومضمون قوله ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ أي: أن علمه عز وجل بالأشياء قبل كونها وتقديره وكتابته لمقادير كل شيء، مما يحصل في الأرض وفي

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٢٩٩.
(٢) أخرجه مسلم في القدر- باب حجاج آدم وموسى ٢٦٥٣، والترمذي في القدر ٢١٥٦، وأحمد ٢/ ١٦٩.
(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤١٩.
(٤) في «تفسيره» ٨/ ٥٢.

الأنفس، وفي هذا الكون كله من أحداث ومصائب وغير ذلك، وحدوث ذلك كما قدره الله، كل ذلك يسير سهل على الله عز وجل، لأن الخلق خلقه والأمر أمره كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

فهو سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، وكل ما في هذا الكون جار بتقديره عز وجل كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩].

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ .

اللام للتعليل، والمصدر المؤول «كيلا تأسوا..» في محل جر باللام متعلق بفعل محذوف تقديره: قدرنا مقادير كل شيء وأخبرناكم بذلك وبيناه لكم ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ و «لا» في المواضع الثلاثة: نافية.

(تأسوا) الأسى بمعنى: الأسف والحزن على أمر فات ومضى، ولهذا قال هنا ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾. أي: مما فات ومضى ولا يمكن استدراكه، من أمور الدنيا من مال أو ولد أو صحة، أو منصب أو جاه، أو غير ذلك. وذلك لأن الله يختار لعبده ما يختار، وما اختاره الله لعبده خير مما يختاره العبد لنفسه وفي الحديث: «من عبادي من لا يصلح له إلا الفقر فلو أغنيته لأفسدت عليه دينه، ومن عبادي من لا يصلح له إلا الغنى فلو أفقرته لأفسدت عليه دينه ومن عبادي من لا يصلح له إلا الصحة فلو أسقمته لأفسدت عليه دينه»[1].

وهذا مما يوجب على العبد الرضا والقناعة بما آتاه الله فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه»[2].

وقد قيل: « القناعة كنز لا يفنى».

والله عز وجل يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، وقد يمنعها عمن يحب وعمن لا يحب.

---

(١) رواه الطبراني وغيره ـ فيما ذكره ابن رجب في "جامع العلوم والحكم" ٢/ ٣٣٣. وضعفه ابن رجب، وذكره القرطبي عند تفسير قوله تعالى في سورة الشورى ((وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ) [الشورى: ٢٧] ١٦/ ٢٨، وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية في "تفسيره" ٧/ ١٩٤ وقال سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله في تعليقه على تفسير ابن كثير في هذا الموضع: «هذا من الآثار التي لا يعلم لها سند، ومعناه صحيح».

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة ١٧٤٦، والترمذي في الزهد ٢٢٧١، وابن ماجه في الزهد ٤١٢٨.

ويبتلي بالسراء كما يبتلي بالضراء، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر: ١٥، ١٦].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»[1].

وقد قيل:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ قرأ ابو عمرو بقصر الهمزة (أتاكم) بلا مد، بمعنى: جاءكم وقرأ الباقون (آتاكم) بالمد، بمعنى: أعطاكم، وهما متلازمتان أي: ولا تفرحوا بالذي جاءكم والذي أعطاكم الله من نعم الدنيا فرح بطر واختيال وتكبر وافتخار على من دونكم، كأنكم حصلتم على ذلك بحولكم وقوتكم وسعيكم أو باستحقاقكم لذلك، كما ذكر الله عن قارون قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص: ٧٦ ـ ٨١].

أما الفرح الطبيعي الذي ليس فيه أشر ولا بطر ولا تكبر ولا اختيال مع الاعتراف بنعمة الله وشكره فلا بأس به.

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٩٦، وابن ماجه في الفتن ٤٠٣١.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ليس أحد إلا يحزن ويفرح، ولكن من أصابته مصيبة فجعلها صبراً ومن أصابه خير، فجعله شكراً»[1]

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ المختال: المتكبر في مشيته وهيئته، والفخور: المفتخر المتعالي على الناس بقوله: أنا كذا، وأنا كذا، كما قال أحدهم:

وإنـــي وإن كنـــت الأخـــير زمانـــه لآتٍ بمـــا لم تـــستطعه الأوائـــل[2]

وإذا كان الله عز وجل لا يحب من هذه صفته فهو يبغضه ويحب من كان متواضعاً في مشيته وهيئته ومقاله.

قال ابن كثير[3] في كلامه على الآية ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

«أي: أعلمناكم بتقدم علمنا وسبق كتابتنا للأشياء قبل كونها، وتقديرنا للكائنات قبل وجودها، لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم، وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم، فلا تأسوا على ما فاتكم، فإنه لو قدر شيء لكان (ولا تفرحوا بما آتاكم)».

وقال ابن القيم:[4] «ولما كانت المصيبة تتضمن فوات محبوب أو خوف فواته أو حصول مكروه أو خوف حصوله نبه بالأسى على الفائت على مفارقة المحبوب بعد حصوله وعلى فوته حيث لم يحصل ونبه بعدم الفرح به إذا وجد على توطين النفس لمفارقته قبل وقوعها، وعلى الصبر على مراراتها بعد الوقوع، وهذه هي أنواع المصائب فإذا تيقن العبد أنها مكتوبة مقدرة، وأن ما أصابه منها لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه هانت عليه وخف حملها، وأنزلها منزلة الحر والبرد».

فحمداً لك اللهم على أن جعلت للمسلم هذا السياج، فلا يأسى ويقنط ويحزن عند المصيبة على ما فاته، ولا يبطر ويتكبر ويغتر عند النعمة وصدق المصطفى ﷺ حيث قال: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٢١.
(٢) البيت لأبي العلاء المعري.
(٣) في «تفسيره» ٨/ ٥٢.
(٤) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٨٩-٣٩٠.

فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»[(١)] فلك الحمد ربنا. اللهم ثبتنا على القول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

قال ابن القيم[(٢)]: «وحكمته البالغة التي منها أن لا يحزن عباده على ما فاتهم إذا علموا أن المصيبة فيه بقدره وكتابته ولابد، قد كتبت قبل خلقهم هان عليهم الفائت، فلم ياسوا عليه، ولم يفرحوا بالحاصل لعلمهم أن المصيبة مقدرة على كل ما على الأرض، فكيف يفرح بشيء قد قدرت المصيبة فيه قبل خلقه».

وإن المتأمل في أحوال الناس يجد أنه ينطبق على الكثير منهم قول الشاعر:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما ... والماء فوق ظهورها محمول

فاجعل أخي الكريم وفقني الله وإياك وجميع المسلمين من الإيمان بالله عز وجل وقدره والرضا بما قدره الله سياجاً منيعًا ووقاية تقيك بإذن الله عز وجل من هذه الوساوس والخواطر السيئة وحصن قلبك من هذه الواردات بالاستقامة على طاعة الله وتعظيمه عز وجل وتعظيم أمره وذكره وشكره والاعتصام به وحده تجد بإذن الله عز وجل حلاوة الإيمان، وتشعر بالسعادة وانشراح الصدر، وتستغن بذلك بإذن الله عن كل فائت وتشكر الله عند كل نعمة.

﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ﴾ كقوله في سورة النساء ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾ [الآية: ٣٧].

والبخل في الأصل: منع الحقوق الواجبة في المال، وهو ضد الكرم قال تعالى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [آل عمران: ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ﴾ [محمد:٣٨].

والمراد بالبخل في الآية هنا- والله أعلم- ما يشمل منع الحقوق الواجبة مطلقا في المال وغيره، كقوله ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ٨ ـ ١٠].

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٩٩ ـ من حديث صهيب ـ رضي الله عنه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٨٩.

وكما جاء في الحديث: «أبخل الناس الذي يبخل بالسلام»[1] وقال ﷺ: «البخيل من إذا ذكرت عنده لم يصل علي»[2].

فهم يبخلون بإخراج الحق وقوله وفعله من مال وجاه وعلم وعمل، ويأمرون الناس بالبخل بذلك، يفعلون المنكر، ويأمرون الناس بفعله.

فجمعوا بين خصلتين ذميمتين البخل في أداء الحقوق، وأمر الناس بذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ٣٤]، لأنه إذا كان لا يحث على طعام المسكين، فهو من باب أولى لا يطعم المسكين.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: ومن يعرض عن أمر الله وطاعته وعن الإنفاق في سبيله.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ قرا نافع وأبو جعفر وابن عامر بغير «هو»، وقرأ الباقون بإثباتها. وقوله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ كقول موسى عليه السلام ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨] وكقوله تعالى: ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الحج: ٦٤] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: ٣٨].

أي: ومن يعرض عن أمر الله وطاعته وعن الإنفاق في سبيله فإن الله هو الغني الذي غناه من لوازم ذاته، الذي له ملك السموات والأرض وخزائن السموات والأرض كلها بيده، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [المنافقون: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط ٦/ ٤٠ حديث ٥٥٩١، والبيهقي في الشعب ٦/ ٤٢٩- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وأخرجه ابن حبان في صحيحه ١٠/ ٣٤٩- حديث ٤٤٩٨ موقوفاً على أبي هريرة رضي الله عنه. وصحح الحافظ ابن حجر سند الموقوف عند شرحه حديث ٥٥٤١ في «فتح الباري»، وأخرجه أحمد ٣/ ٣٢٨ من حديث جابر رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: إن لفلان في حائطي عذقاً، وإنه قد آذاني وشق عليّ مكان عذقه، فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: «بعني عذقك الذي في حائط فلان»، قال: لا. قال: «فهبه لي» قال: لا. قال: «فبعنيه بعذق في الجنة» قال: لا. فقال النبي ﷺ «ما رأيت الذي هو أبخل منك إلا الذي يبخل بالسلام».

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٣٤٦- من حديث علي بن أبي طالب - رضي الله عنه. وقال: «حديث حسن صحيح غريب».

فخزائنه عز وجل ملأى، لا تغيضها كثرة الإنفاق، وليس بحاجة إلى خلقه، لا تنفعه طاعة المطيعين، ولا تضره معصية العاصين، كما قال عز وجل ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر:٧] وكما قال عز وجل في الحديث القدسي: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد منهم مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر»[1].

(الحميد) اسم من أسماء الله عز وجل، مشتق من الحمد على وزن «فعيل» يدل على أن له عز وجل الحمد كله، وهو وصف المحمود بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم. قال عز وجل ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ [الفاتحة: ٢]، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف:١]، وقال تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾ [القصص:٧٠]، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ [سبأ:١].

فهو عز وجل الغني المحمود على غناه لواسع عطائه وجوده فله عز وجل الحمد على غناه، وعلى خلق السموات والأرض، وعلى ملك السموات والأرض، وعلى إنزال الكتاب وله الحمد في الدنيا والآخرة، وهو المحمود على كل حال سبحانه. وهو عز وجل الحميد لمن يستحق الحمد.

وهو الشكور سبحانه كما قال عز وجل: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝﴾ [فاطر: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ۝﴾ [التغابن: ١٧].

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٧٧، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٩٥، وابن ماجه في الزهد ٤٢٥٧- من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

الفوائد والعبر:

١ ـ إثبات قدر الله ـ عز وجل ـ السابق، وأن ما يقع من مصائب في الأرض والأنفس، وما يجري في الكون من حركة أو سكون كل ذلك بتقدير سابق في الأزل قبل خلق الخليقة.

٢ ـ قدرة الله ـ عز وجل ـ التامة حيث قدر مقادير كل شيء وجاءت وفق ما قدر، وذلك عليه يسير لأنه لا يعجزه شيء.

٣ ـ أن الله ـ عز وجل ـ قدر مقادير كل شيء وأخبرنا بذلك لئلا يحزن الإنسان على ما فاته ولا يفرح فرح بطر واختيال بما أعطي، وليعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

٤ ـ سمو مبادئ الدين الإسلامي وحفظه أتباعه من الأسى والفرح المفرطين حفاظاً على الاعتدال النفسي.

٥ ـ نفي محبة الله لمن كان مختالاً فخوراً وإثبات محبته لمن كان مؤمناً متواضعاً.

٦ ـ ذم البخل وأهله الذين يمنعون الحقوق الواجبة عليهم في المال وغيره ويحضون الناس على ذلك.

٧ ـ التعريض بذم من تولى عن طاعة الله والإنفاق في سبيله والوعيد له.

٨ ـ إثبات اسم الله ـ عز وجل ـ «الغني» وأنه عز وجل غني عمن أعرض عن عبادته وطاعته وعن جميع خلقه.

٩ ـ إثبات اسم الله ـ عز وجل ـ «الحميد» وصفة الحمد والكمال له عز وجل وأنه المحمود في كل حال وعلى كل حال.

١٠ ـ في اقتران اسمه عز وجل «الغني» و«الحميد» زيادة كماله عز وجل إلى كمال، لأن «الغني» ذو الغنى التام، المحمود على غناه لجوده وكرمه وعظيم فضله وواسع إحسانه.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾.

صلة الآية بما قبلها:

ذكر الله عز وجل في الآية السابقة أنه الغني الحميد عمن تولى وأعرض، ثم ذكر في هذه الآية أنه عز وجل أقام الحجة على الخلق بإرسال الرسل بالبينات وإنزال الكتاب والميزان.

قوله ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ اللام: للقسم و« قد» حرف تحقيق أي: والله لقد أرسلنا رسلنا بالبينات، وفي إضافة الرسل إلى نفسه ـ عز وجل ـ بقوله (رسلنا) تشريف وتكريم لهم.

والإرسال بعث الشخص برسالة إلى آخرين و (رسلنا) جمع رسول والرسول من عند الله عز وجل هو من أوحى الله إليه بشرع وأمره بتبليغه. وعدد الرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر جماً غفيراً، ذكر في القرآن الكريم منهم خمسة وعشرون رسولا، منهم ثمانية عشر رسولاً ذكروا في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام: ٨٣ ـ ٨٦].

ومنهم إدريس وذو الكفل عليهما السلام قال تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنبياء: ٨٥] وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾﴾ [مريم: ٥٦].

ومنهم هود عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٥٠] ومنهم صالح عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٦١]

ومنهم شعيب عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٨٤].

ومنهم وأولهم آدم عليه السلام،

ومنهم آخرهم وخاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ

﴿مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

قال الناظم:

في تلك حجتنا منهم ثمانية	من بعد عشر ويبقى سبعة وهمو
إدريس هود شعيب صالح وكذا	ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

عن أبي ذر رضي الله عنه قال قلت يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا. قلت: يا رسول الله كم الرسل منهم؟ قال ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير. قلت: يا رسول الله من كان أولهم؟ قال: آدم. قلت: يا رسول الله نبي مرسل؟ قال: نعم خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، ثم سواه قبلاً ثم قال: يا أبا ذر، أربعة سريانيون: آدم وشيث، ونوح، وخنوخ، وهو إدريس، وهو أول من خط بقلم، وأربعة من العرب: هود، وصالح وشعيب، ونبيك يا أبا ذر، وأول نبي من أنبياء بني إسرائيل موسى وآخرهم عيسى، وأول النبيين آدم وآخرهم نبيك»[1].

(بالبينات) أي: بالآيات الكونية الواضحات، والمعجزات والحجج الباهرات والدلائل القاطعات.

كما قال تعالى فيما حكاه عن موسى وفرعون ﴿قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝ قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ۝ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ۝﴾ [الأعراف: ١٠٥ ـ ١٠٨].

﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ كقوله في سورة الشورى ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ﴾ [الشورى: ١٧].

وقوله (وأنزلنا) يدل على علو الله عز وجل على خلقه، لأن الإنزال يكون من أعلى إلى أسفل. كما يدل على أن كتب الله عز وجل منزلة و «ال» – في «الكتاب» للجنس، أي: جنس الكتب، والكتاب مصدر على وزن « فعال» بمعنى « مفعول» أي: مكتوب. والمراد بذلك الكتب السماوية وما فيها من البينات والآيات الشرعية.

(والميزان) أي: والعدل والحق كقوله تعالى: ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝﴾ [الرحمن: ٧]

أي: وأنزلنا معهم العدل والحق الذي أمر الله به كما قال عز وجل ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠] والذي قامت به السموات والأرض، العدل في الأقوال

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٢/ ٤٢٢-٤٢٦- من رواية ابن مردويه، ومن رواية الآجري، وأخرجه أحمد ٥/ ٢٦٥-٢٦٦- نحوه من حديث طويل عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ، وفيه: عدد الرسل ثلاثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً.

والأفعال والمنهج والسلوك، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الانعام: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

قال ابن كثير[١]: (والميزان) وهو العدل قاله مجاهد وقتادة وغيرهما، وهو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود: ١٧]، وقال تعالى: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]».

وقال السعدي[٢]: «(والميزان) وهو العدل في الأقوال والأفعال. والدين الذي جاءت به الرسل كله عدل وقسط في الأوامر والنواهي، وفي معاملات الخلق، وفي الجنايات والقصاص والحدود والمواريث وغير ذلك».

﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ اللام لام التعليل، أي: أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان لأجل أن يقوم الناس بالقسط، أي: بالحق والعدل في الأقوال والأفعال والمنهج والسلوك وذلك مضمون ما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب. قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أي: صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأحكام، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣].

القسط والعدل في حق الله، كما قال ﷺ لمعاذ: «أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله؟ قال الله ورسوله أعلم. قال: حق الله على العباد أن لا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً»[٣].

ولهذا قال ابن القيم[٤]: «ومن أعظم القسط التوحيد، وهو رأس العدل وقوامه، وإن الشرك لظلم عظيم، فالشرك أظلم الظلم، والتوحيد أعدل العدل فما كان أشد منافاة لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر، وتفاوتها في درجاتها بحسب منافاتها له، وما كان

---

(١) في: «تفسيره» ٨/ ٥٣.
(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٠١.
(٣) أخرجه البخاري في التوحيد ـ ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى التوحيد ٧٣٧٣، ومسلم في الإيمان ـ الدليل على أن من مات على الإيمان دخل الجنة قطعاً ٣٠، والترمذي في الإيمان ٢٦٤٣، وابن ماجه في الزهد ٤٢٩٦ ـ من حديث معاذ ـ رضي الله عنه.
(٤) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٩٠.

أشد موافقة لهذا المقصود فهو أوجب الواجبات وأفرض الطاعات».

والقسط في حق العباد كما قال ﷺ: «من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه»(١).

قوله ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾. أي: وأوجدنا الحديد وأودعنا مادته في الأرض.

﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ البأس: الشدة والقوة قال تعالى: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الفتح: ١٦]، أي: أولي شدة وقوة. وقال تعالى: ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ [البقرة: ١٧٧] أي: وحين الشدة. فالحديد فيه شدة وقوة شديدة حيث يصنع منه السلاح بشتى أشكاله وأنواعه كالسيوف والبنادق والسنان والنصال والدروع، وغير ذلك من وسائل الحرب، وأدوات القتال، كالطائرات والسفن الحربية والمدرعات وحاملات الجنود، والصواريخ والقنابل وغير ذلك.

﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ أي: وفيه منافع للناس دينية إذا استغل لنصرة الحق وردع من خالفه وعانده وضاده قال ﷺ: «بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم»(٢).

أما إذا استغل الحديد وما فيه من البأس الشديد ضد الحق فإنه من أعظم وسائل الهدم والتخريب وما شقيت الإنسانية إلا حين استغل الحديد وما فيه من البأس لتدمير الإنسانية فصنعت منه الأسلحة الفتاكة التي تقضي على الأخضر واليابس وتهلك الحرث والنسل وتدع الديار بلاقع في غيبة من دين السلام والرحمة دين الإسلام الحنيف، بل وفي غيبة من الضمير الإنساني فأصبحت الدول تتبارى وتفتخر بامتلاك وسائل التدمير ـ والله المستعان.

وفيه منافع دنيوية كثيرة للناس، فمنه القدور التي يطبخون بها والأواني التي يشربون بها والأدوات التي يستعملونها في منازلهم وحراثاتهم من الفأس والقدوم

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة ـ وجوب الوفاء ببيعة الأول فالأول ١٨٤٤، وأبو داود في الفتن والملاحم ٤٢٤٨، والنسائي في البيعة ٤١٩١، وابن ماجه في الفتن ٣٩٥٦ـ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٥٠، ٩٢، وذكره البخاري مختصراً في الجهاد والسير ـ باب ما قيل في الرماح قال: ويذكر عن ابن عمر عن النبي ﷺ: «وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري». انظر «فتح الباري» ٦/ ٩٨.

والمنشار والإزميل وغيرها وآلات التبريد والتدفئة والآلات التي يركبونها ويسافرون عليها وينقلون عليها بضائعهم جواً وبراً وبحراً من الطائرات والسيارات والبواخر وغير ذلك.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ الواو: عاطفة واللام: للتعليل والجملة متعلقة بـ (أنزلنا) أو بما قبله و «من» موصولة بمعنى الذي أي: وليعلم الله الذي ينصره ورسله بالغيب. علم ظهور يترتب عليه الثواب والعقاب، أما علم كونه فهو معلوم له - عز وجل - قبل خلق السموات والأرض، وعطف (رسله) على ضميره - عز وجل - وأضافهم إليه تشريفاً وتكريماً لهم.

وقوله (بالغيب) جار ومجرور متعلق بقوله (ينصره) أي: أنه عز وجل أرسل الرسل بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان، وأنزل الحديد فيه بأس شديد ليعلم الذي ينصره ورسله بالغيب، أي: الذي في نيته في عمله وقتاله وحمله للسلاح إرادة نصرة دين الله ورسله - حتى وإن غاب عن أعين الناس - ممن لم يكن كذلك كما في حديث أبي موسى رضي الله عنه أن أعرابيا جاء إلى النبي ﷺ فسأله عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل ليرى مكانه، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[1].

فهو عز وجل لا تخفى عليه خافية، والسر عنده علانية، كما قال عز وجل ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [هود: ١٢٣].

وأيضاً: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: وإن لم يره، كما قال تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤] وفي الحديث: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

ذكر الله عز وجل أنه أنزل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وأنه عز وجل يعلم

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨١٠، وفي التوحيد ٧٤٥٨، ومسلم في الإمارة ١٩٠٤، وأبو داود في الجهاد ٢٥١٧، والنسائي في الجهاد ٣١٣٦، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٦، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٨٣.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٠، ومسلم في الإيمان ٩، ١٠، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٩١، وابن ماجه في المقدمة ٦٤- من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -، وأخرجه مسلم ٨، وأبو داود في السنة ٤٦٩٥، والنسائي ٤٩٩٠، وابن ماجه في المقدمة ٦٣ من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

من ينصره ورسله بالغيب، ثم ختم الآية ببيان أنه عز وجل هو القوى العزيز فلا قوة فوق قوته، ولا عزة فوق عزته. وإنما شرع الجهاد لنصرة دينه للابتلاء، كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

فالحديد وما فيه من بأس شديد وقوة ليس بشيء عند قوته وعزته عز وجل، فإن سُخر هذا الحديد لنصرة الله ورسله فصاحبه هو المنصور بقوة الله عز وجل وعزته، وإن سُخر هذا الحديد للحرب على الله ورسله فصاحبه المهزوم المغلوب بقوة القوي العزيز سبحانه.

ومن حمل السلاح وقاتل بنية صالحة لتكون كلمة الله هي العليا فهو المنصور بقوة القوي العزيز سبحانه، ومن حمل السلاح وقاتل لغير ذلك فالله غني عنه وعن قتاله لأنه عز وجل القوى العزيز.

و«القوي» و«العزيز» من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل»، «القوي» مشتق من القوة يدل على كمال قوته عز وجل، وأنه ذو القوة الشديدة كما قال ـ عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝﴾ [الذاريات: ٥٨] أي: ذو القوة والقهر والغلبة الذي لايغالب، و « المتين» شديد القوة.

و«العزيز» مشتق من العزة يدل على كمال عزته ـ عز وجل، وأن له عز وجل كمال العزة بأنواعها الثلاثة: عزة الامتناع، وعزة القهر، وعزة القوة[١].

وحيث قرن ـ عز وجل ـ بين اسميه « القوي»، و«العزيز» فالأولى أن يحمل معنى «العزيز» هنا على المعنيين الأوليين، وهما: عزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة ويؤخذ معنى القوة من اسمه «القوي» لئلا يقال بالترادف أو التكرار.

فله ـ عز وجل ـ القوة والعزة بكمالهما، ومن قوته وعزته أنه أنزل الحديد الذي فيه البأس الشديد، وأنه قادر على الانتصار من أعدائه، لكنه يبتلي أولياءه بأعدائه ليعلم من ينصره بالغيب.

وقرن ـ عز وجل ـ بين الكتاب والحديد لأن بهذين الأمرين ينصر الله دينه ويعلي كلمته وبهما يقوم القسط والعدل، ففي الكتاب القوة المعنوية والحجة والبرهان، وفي الحديد القوة المادية قوة السيف والسنان.

---

(١) راجع الكلام على قوله في أول السورة: (وهو العزيز الحكيم).

الفوئد والعبر:

١ ـ إقامة الحجة على الناس بإرسال الرسل بالآيات البينات الكونية وإنزال الكتب والآيات الشرعية والعدل والإقسام على ذلك وتأكيده والامتنان به على الخلق.

٢ ـ تشريف الله ـ عز وجل ـ رسله بإضافتهم إلى نفسه بقوله (رسلنا) وبقوله (ورسله).

٣ ـ إثبات علو الله ـ عز وجل ـ على خلقه لقوله (وأنزلنا) والإنزال إنما يكون من علو إلى أسفل وتعظيمه ـ عز وجل لنفسه.

٤ ـ أن القرآن الكريم منزل من عند الله ـ عز وجل ـ وليس بمخلوق كما تقول المعتزلة، وكذا غيره من كتب الله ـ عز جل.

٥ ـ وجوب القيام بالعدل والقسط في الأقوال والأعمال والأحكام لأن الله ـ عز وجل ـ أنزله وأمر به وأقام عليه الدين وأمر السموات والأرض.

٦ ـ قدرة الله ـ عز وجل ـ التامة ونعمته على الخلق في إيجاد مادة الحديد في الأرض لما فيه من قوة في الحرب ومنافع للناس لا تحصى.

٧ لابد لإقامة الدين والعدل والقسط من قوة معنوية من الإيمان والحجة والبرهان، وقوة مادية من الحديد والسيف والسنان.

٨ ـ الإشارة إلى أن الحديد قد يكون مصدر قلق وخوف وتخريب وإفساد إذا لم يحسن استخدامه لما فيه من البأس الشديد.

٩ ـ علم الله ـ عز وجل ـ بمن ينصره ورسله بالغيب وإن لم يره، وإن غاب عن أعين الناس.

١٠ ـ إثبات اسمين من أسماء الله ـ عز وجل ـ وهما «القوي» و «العزيز» وأنه عز وجل القوي الذي لا يغالب له عزة الامتناع، وعزة القهر، وعزة القوة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ۝ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة أنه أرسل رسله بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان، ثم ذكر هنا أن ممن أرسلهم نوحاً وإبراهيم وأنه جعل في ذريتهما النبوة والكتاب وأنه قفى على آثارهم برسله، وقفى على آثار رسله بعيسى بن مريم عليه وعليهم الصلاة والسلام.

قوله ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ الواو للاستئناف، واللام للقسم و«قد» للتحقيق، أي: والله لقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم.

و«نوح» هو أول الرسل وهو نوح بن لامَكَ بن مَتُوشلخَ بن خنوخَ - وهو إدريس[1].

و«إبراهيم» هو خليل الرحمن أبو الأنبياء عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام وهو إبراهيمُ بنُ تارخَ بن ناحورَ بن ساروغَ - ينتهي نسبه إلى سام بن نوح - عليهما السلام[2].

﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ الواو: عاطفة، و « جعلنا» بمعنى: «صيرنا فتنصب مفعولين، الأول هنا قوله (النبوة)»، والثاني: قوله «في ذريتهما» و«الكتاب» معطوف على النبوة و«ال» في الكتاب للجنس، أي: جنس الكتب السماوية أي: جعلنا كوناً وشرعاً في ذريتهما الأنبياء والكتب السماوية، فكل من جاء بعد نوح من الأنبياء والرسل هم من ذرية نوح عليه السلام بما فيهم إبراهيم عليه السلام، وكل من جاء بعد إبراهيم من الأنبياء والرسل فهم من ذريته وآخرهم وخاتمهم نبينا محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام، كما قال

---

(١) انظر «البداية والنهاية» ١/ ٢٣٧. وإدريس المذكور في نسب نوح ليس بنبي كما بين ذلك ابن تيمية - رحمه الله - وعلى هذا فأول الرسل نوح - عليه السلام.

(٢) انظر «البداية والنهاية» ١/ ٣٢٤

تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]».

﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ﴾ أي: فمن ذريتهما وقومهما وممن أرسلنا إليهم الرسل وأنزلنا عليهم الكتب من هو (مهتد) إلى الصراط المستقيم، عرف الحق واتبعه.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي: وكثير منهم خارجون عن طاعة الله عز وجل.

فالكثرة الكاثرة من الخلق ليسوا على الحق، بل خارجون عن الحق وعن طاعة الله عز وجل لهذا يجب عدم الاغترار بما عليه الأكثرون قال الله عز وجل: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣].

وقد أمر الله عز وجل آدم بإخراج بعث النار من ذريته من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار وواحداً إلى الجنة[(١)].

وقد روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «لا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين ولا تستوحش من الحق لقلة السالكين».

وقال الشاعر:

والناس ألف منهم كواحد ... وواحد كالألف إن أمر عنا[(٢)]

فالعبرة بالكيف، لا بالكم، وإن أكثر أهل النار الإمَّعة الذي يقول: رأيت الناس يقولون شيئاً فقلته.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾. الضمير في قوله ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ يعود إلى نوح وإبراهيم والأنبياء من ذريتهما أو يعود على نوح وإبراهيم، وجمع الضمير العائد إليهما لأن أقل الجمع اثنان، ومثل هذا قوله تعالى بعد أن ذكر حكم داود وسليمان: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأنبياء: ٧٨].

والمعنى: ثم أتبعناهم برسلنا وجعلناهم يقفون آثارهم مأخوذ من القفا، أي:

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٣٧٢، ومسلم في الإيمان ٣٢٧- من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) البيت لابن دريد ضمن مقصورته.

يأتون بعدهم.

﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ أي: وقفينا على رسل بني إسرائيل بعيسى بن مريم وجعلناه يقفوهم ويتبعهم ويأتي بعدهم، ويكون آخرهم، وهو الذي بشر بمحمد ﷺ بعده، كما قال تعالى عنه أنه قال: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

قال السعدي[1] «خص الله عيسى عليه السلام، لأن السياق مع النصارى الذين يزعمون اتباع عيسى عليه السلام».

ونسب عيسى عليه السلام لأمه لأنه ليس له أب، وإنما نفخ الله عز وجل فيها من روحه، ولبيان كمال قدرة الله عز وجل حيث خلقه من أنثى بلا ذكر، ولهذا نجد في القرآن الكريم التصريح باسم عيسى منسوباً إلى أمه، بينما لم ينسب غيره من الأنبياء ولا لآبائهم.

﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ أي: وأعطيناه الإنجيل، وهو الكتاب الذي أنزله الله على عيسى بن مريم وأوحاه إليه.

﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ وهم الحواريون، كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٤].

﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ أي: رقة وخشية ولينا وشفقة والرأفة أرق والطف واخص من الرحمة، كما قال تعالى: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [المائدة: ٨٢].

قال السعدي[1]: «ولهذا كان النصارى ألين من غيرهم قلوباً، حين كانوا على شريعة عيسى عليه السلام».

أما الآن فلا ينبغي ان نخدع بأخلاقهم، فإنهم وإن ظهر منهم شيء من اللين وحسن الخلق، فهو كما يقال أخلاق تجارية، يريدون بذلك الدعوة للنصرانية وتحبيبها للناس ببذل الخُلق والمال وغير ذلك، وحملاتهم وحروبهم الصليبية وتمالؤهم مع اليهود ضد الإسلام والمسلمين منذ القدم إلى يومنا هذا تبين حقيقة عداوتهم للإسلام والمسلمين.

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٠٣.

ومما يؤسف له أنه في حين نجد من بعض النصارى اللين والخلق الحسن - ولو تصنعاً وتكلفاً - لكسب قلوب الناس نجد من كثير من المسلمين الغلظة والجفاء والفظاظة مما ينفر الآخرين، بل وصل الحال ببعض المتسبين إلى الإسلام إلى الخروج عن حكم الإسلام بالتكفير والتفجير واستحلال دماء المعصومين من المسلمين وغيرهم وأموالهم فشوهوا صورة الإسلام. وليس أحد أولى من المسلمين باللين والرحمة وحسن الخلق قال تعالى لنبيه ﷺ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وقال تعالى له: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ «رهبانية» منصوب على الاشتغال بفعل محذوف يفسره «ابتدعوها» أي: استحدثوها من تلقاء أنفسهم، وهي الانقطاع للعبادة والانفراد في الأديرة والسياحة في الأرض، والمبالغة في التقشف.

﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: ما فرضناها وما أوجبناها عليهم، وما شرعناها لهم، وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم.

﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ «إلا» للحصر أي: إنما كتبنا وفرضنا عليهم وشرعنا لهم أن يبتغوا بأعمالهم رضوان الله عز وجل، لا أن يشددوا على أنفسهم بما لم يشرعه الله عز وجل.

ويحتمل أن معنى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ أنهم إنما ابتدعوا هذه الرهبانية التي لم يفرضها الله عليهم ولم يشرعها لهم قاصدين بذلك ابتغاء رضوان الله، وما كل مريد للحق يوفق إليه: كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. وقد قال ابن القيم رحمه الله [١] «إن الشيطان قد يأمر بسبعين باباً من أبواب الخير، إما ليتوصل بها إلى باب واحد من الشر، وإما ليفوت بها خيراً أعظم من تلك السبعين باباً وأجل وأفضل».

وعلى هذا يكون قوله ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ منصوباً على الاستثناء المنقطع، وصوب هذا ابن القيم وقال[٢]: «أي: لم يفعلوها ولم يبتدعوها إلا لطلب رضوان الله، ودل

---

(١) انظر: «التفسير القيم» ص ٦١٣.
(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٩١ - ٣٩٢.

على هذا قوله (ابتدعوها) ثم ذكر الحامل لهم والباعث على ابتداع هذه الرهبانية وأنه هو طلب رضوان الله».

﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي: فما قاموا بما التزموه حق القيام، ولم يعطوه حقه من الرعاية والاهتمام والعناية. وهكذا فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى.

قال ابن القيم[1]: «ثم ذمهم بترك رعايتها إذ من التزم لله شيئاً لم يلزمه الله إياه من أنواع القرب لزمه رعايته وإتمامه حتى ألزم كثير من الفقهاء من شرع في طاعة مستحبة بإتمامها وجعلوا التزامها بالشروع فيها كالتزامها بالنذر، كما قال أبو حنيفة ومالك وأحمد في إحدى الروايتين عنه، وهو إجماع- أو كالإجماع- في أحد النسكين. قالوا الالتزام بالشروع أقوى من الالتزام بالقول، فكما يجب عليه رعاية ما التزمه بالنذر وفاءً، يجب عليه رعاية ما التزمه بالفعل إتماماً.. والقصد أن الله سبحانه وتعالى ذم من لم يرع قربة ابتدعها لله تعالى حق رعايتها. فكيف بمن لم يرع قربة شرعها الله لعباده وأذن بها وحث عليها».

وقال ابن كثير[2]: «وهذا ذم لهم من وجهين، أحدهما: في الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله.

والثاني: في عدم قيامهم بما التزموه، مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله عز وجل»

ويؤخذ من هذا تحريم الابتداع في الدين، وأن الزيادة في الدين كالنقص منه، بل أشد، وحرمة التشديد على النفس، بما لم يأمر به الله، وأن النصارى في هذا سلكوا مسلك اليهود، الذين شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم، ووضعت عليهم الآصار والأغلال، كما في قصة القتيل في سورة البقرة، وكما في تحريمهم الحلال، وغير ذلك.

وقد سلك أناس من هذه الأمة مسلك التشديد على أنفسهم مصداقاً لقوله ﷺ «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟»[3] يعني هم اليهود والنصارى حتى إن هذا الأمر وجد في عهد النبوة ـ وما بالعهد من قدم- فحرم أناس على أنفسهم

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٩٢.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٥٤.

(٣) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة ٧٣٢٠، ومسلم في العلم ٢٦٦٩- من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

النوم والإفطار وتزوج النساءِ فجاء إليهم النبي ﷺ: فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا، وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة»(٢).

وقال ﷺ: « هلك المتنطعون، قالها ثلاثاً»(٣).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: كنت أصوم الدهر، وأقرأ القرآن كل ليلة، فإما ذكرت للنبي ﷺ، وإما أرسل إليّ، فأتيته فقال لي: «ألم أخبر أنك تصوم الدهر وتقرأ القرآن كل ليلة؟» فقلت: بلى يا نبي الله، ولم أرد بذلك إلا الخير. قال: «فإن بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام» قلت: يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك. قال: «فإن لزوجك عليك حقاً، ولزورك عليك حقاً، ولجسدك عليك حقاً. قال: فصم صوم داود نبي الله ﷺ، فإنه كان أعبد الناس» قال: قلت، يا نبي الله وما صوم داود؟ قال: «كان يصوم يوماً ويفطر يوماً. قال: واقرأ القرآن في كل شهر» قال: قلت، يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك: قال: « فاقرأه في كل عشرين» قال: قلت، يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك قال: « فاقرأه في كل عشر» قال: قلت يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك. قال: «فاقرأه في كل سبع ولا تزد على ذلك، فإن لزوجك عليك حقاً، ولزورك عليك حقاً، ولجسدك عليك حقاً، قال: فشدّدت فشدّد عليَّ. قال: وقال لي النبي ﷺ: «إنك لا تدري لعلك يطول بك عمر» قال: فصرت إلى الذي قال لي النبي ﷺ، فلما كبرت وددت أني كنت قبلت رخصة نبي الله ﷺ»(٤).

ورُوِيَ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل المسجد فإذا شباب جالسون فيه،

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح ٥٠٦٣، ومسلم في النكاح ١٤٠١، والنسائي في النكاح ٣٢١٧- من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ٣٩، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١٦، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٣٤، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠١.

(٣) أخرجه مسلم في العلم ٢٦٧٠، وأبو داود في السنة ٤٦٠٨- من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الجمعة ١١٣١، ومسلم في الصيام ١١٥٩، وأبو داود في الصلاة ١٣٨٩، والنسائي في قيام الليل وتطوع النهار ١٦٣٠، والترمذي في الصوم ٧٧٠، وابن ماجه في الصيام ١٧١٢.

فقال: «من ينفق عليكم؟ فقالوا جيراننا أو نحو ذلك فقال: انتظروا حتى آتيكم، فجاء بالدرة رضي الله عنه وأخرجهم من المسجد، وقال: اخرجوا فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة».

فالدين الإسلامي دين ودنيا، عبادة وعمل، لا رهبانية فيه ولا تصوف، ولا مكان فيه للتنطع والتكلف، وفي الأثر «لا رهبانية في الإسلام».

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً جاءه فقال: أوصني: فقال: «سألت عما سألت عنه رسول الله ﷺ من قبلك أوصيك بتقوى الله، فإنه رأس كل شيء، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله، وتلاوة القرآن، فإنه روحك في السماء، وذكرك في الأرض»[1].

﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ﴾ أي: من أتباع عيسى بن مريم عليه السلام من النصارى وهم الحواريون.

﴿أَجْرَهُمْ﴾ أي: ثواب عملهم على إيمانهم واتّباعهم لعيسى بن مريم عليه السلام، وما فيهم من الرأفة والرحمة.

وآتينا الذين آمنوا منهم أيضًا بمحمد ﷺ ممن أدركوا بعثه ﷺ أجرهم على ذلك قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝١٩٩﴾ [آل عمران: ١٩٩].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي فله أجران، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه، فله أجران، ورجل أدب أمته فأحسن تأديبها، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران»[2].

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ أي: خارجون عن طاعة الله عز وجل مكذبون بعيسى وبمحمد عليهما الصلاة والسلام. وهذا يدل على شؤم الابتداع في الدين، وأنه سبب

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٨٢.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٣٠١١، ومسلم في الإيمان ١٥٤، وأبو داود في النكاح ٢٠٥٣، والنسائي في النكاح ٣٣٤٤، والترمذي في النكاح ١١١٦، وابن ماجه في النكاح ٢٩٥٦.

للخروج عن الطاعة والضلال.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ «يا» حرف نداء، و « أي» منادى مبني على الضم في محل نصب و «ها» للتنبيه و « الذين» صفة لـ «أي» أو بدل و «آمنوا» صلة الموصول، أي: يا أيها الذين صدقوا بقلوبهم وألسنتهم.

﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بجوارحكم، أي: اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

وأصل «تقوى»: «وقوى» فقلبت الواو تاء لعلة تصريفية، وهي مأخوذة من الوقاية، ومن ذلك أخذ الوقاية من البرد ومن الحر ومن الشوك، وأهمها وأعظمها ورأسها أخذ الوقاية من عذاب الله عز وجل.

قال الشاعر:

خل الذنوب كبيرها وصغيرها ذاك التقى

كن مثل ماش فوق أر ض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

﴿وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ﴾ أي: وصدقوا برسوله محمد ﷺ وذلك بشهادة أن محمداً رسول الله وطاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر واجتناب ما نهى عنه وزجر وأن لا يعبد الله إلا بما شرع.

فامر أولاً بتقوى الله بشهادة أن لا إله إلا الله وأداء مقتضياتها بفعل ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه، ثم عطف على ذلك الأمر بالإيمان بالرسول ﷺ وذلك بشهادة أن محمداً رسول الله ﷺ وأداء مقتضاها.

﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ الكفل النصيب، أي: يعطكم نصيبين من رحمته، ويضاعف أجركم.

وقد حمل بعض أهل العلم الآية على مؤمني أهل الكتاب منهم ابن عباس رضي الله عنهما[١] واختار هذا ابن جرير الطبري وكثير من المفسرين[٢].

---

(١) أخرجه النسائي في آداب القضاة- تأويل قول الله عز وجل: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هو الكافرون) ٨/ ٢٣١-٢٣٣، والطبري في « جامع البيان» ٢٢/ ٤٣٥

(٢) انظر: «جامع البيان» ٢٢/ ٤٣٥-٤٤١ « الوسيط» ٤/ ٢٥٦، « زاد المسير» ٧/ ٣١٢، « الجامع لأحكام القرآن» ١٧/ ١٧٢.

ويؤيد هذا قوله تعالى في سورة القصص: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الآيات: ٥٢-٥٤]

وحديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يؤتون اجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي فله أجران» الحديث[١].

وقال بعض أهل العلم إن الآية في المؤمنين من هذه الأمة.

قال سعيد بن جبير رحمه الله: «لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين أنزل الله هذه الآية في حق هذه الأمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾» أي: ضعفين، وزادهم ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ يعني: هدى يتبصر به من العمى والجهالة، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾، ففضلهم بالنور والمغفرة»[٢].

وهكذا رُوِيَ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن الآية في المؤمنين من هذه الأمة[٣].

قال ابن كثير[٤]: «وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝﴾ [الأنفال: ٢٩].

وقال أيضاً: «ومما يؤيد هذا القول ـ حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالاً، فقال: من يعمل لي من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟ الا فعملت اليهود. ثم قال: من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط؟ الا فعملت النصارى. ثم قال: من يعمل لي من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين؟ الا فانتم الذين عملتم. فغضبت النصارى واليهود، وقالوا: نحن أكثر عملاً واقل عطاء، قال: هل ظلمتم من اجركم شيئاً؟ قالوا: لا . قال: فإنما هو فضلي أوتيه من

---

(١) سبق ذكر الحديث بتمامه وتخريجه قريباً.
(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/٤٣٦.
(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/٤٣٨.
(٤) في «تفسيره» ٨/٥٨.

أشاء »[1].

ومثل هذا ما جاء في حديث أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له عملا إلى الليل فعملوا إلى نصف النهار، فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك، فاستأجر آخرين، فقال: أكملوا بقية يومكم، ولكم الذي شرطت، فعملوا حتى حين صلاة العصر، قالوا: لك ما عملنا فاستأجر قوماً، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس، واستكملوا أجر الفريقين»[2].

ولا شك أن ظاهر الآية أنها في المؤمنين من هذه الأمة وعلى هذا يدل قوله في الآية بعدها ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ الآية.

ومن آمن من أهل الكتاب بمحمد ﷺ وما بعثه الله به من الوحي فهو داخل ضمن مؤمني هذه الأمة فعمله مضاعف لكونه من مؤمني هذه الأمة، ولكونه آمن برسوله وآمن بمحمد ﷺ كما دل على ذلك حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

أما ما جاء في حديث ابن عمر، وما في معناه[3] فالمراد باليهود والنصارى فيه من مات منهم على دينه قبل أن ينسخ أو قبل بعثة محمد ﷺ إذ لا خلاف في أن من أدرك منهم الإسلام ودخل فيه فهو من المؤمنين من هذه الأمة، بل إن من أهل الكتاب من كان له قدم راسخ في الإسلام كعبد الله بن سلام رضي الله عنه وغيره. وعلى هذا فيدخل تحت الأمر في الآية من آمن بمحمد ﷺ من أهل الكتاب وغيرهم.

﴿مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ المراد هنا من رحمته المخلوقة التي منها الجنة والمطر كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «وأنت الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء»[4].

وقال تعالى عن المطر: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم: ٥٠].

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ أي: ويجعل لكم نوراً معنوياً وحسياً (تمشون به) مشياً معنوياً وحسياً في الدنيا والآخرة في الحياة، وبعد الممات في البرزخ وفي عرصات القيامة نوراً في قلوبهم وعلماً وهدى يهتدون به إلى معرفة الحق والعمل به، وإلى ما

---

(١) أخرجه البخاري في الإجارة- الإجارة إلى نصف النهار، ٢٢٦٩، والترمذي في الأمثال ٢٨٧١، وأحمد ٢/٦، ١١.

(٢) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٥٨.

(٣) كحديث أبي موسى المذكور بعده.

(٤) سبق تخريجه.

فيه خير دينهم ودنياهم وآخرتهم، ويسلمون به من الجهل والشك والحيرة والتذبذب، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

نور يقوى عند من وفقه الله حتى يكون كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشى عليها، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه»[1].

فما بالك بمن كان الله سمعه وبصره ويده ورجله وأعطاه ما سأل وأعاذه مما استعاذ منه، هل يضيره شيء هل يخاف من أحد؟! كلا والله- نسأل الله التوفيق.

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «كيف أصبحت يا حارثة؟» قال: أصبحت مؤمناً حقاً. قال: «فما حقيقه إيمانك؟ فإن لكل قول حقيقة» قال: عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلى، وأظمأت نهاري، وكأني أرى عرش الرحمن بارزاً، وكأني أرى أهل الجنة في الجنة يُنعمون، وأهل النار فيها يتعاوون. فقال النبي ﷺ: «عبد نور الله قلبه فالزم»[2].

وقد أحسن القائل:

سأعيش رغم الداء والأعداء ... كالنسر فوق القمة الشماء
النور في جنبي وبين جوانحي ... فعلام أخشى السير في الظلماء

وأيضاً ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ بعد الممات، يكون معكم في قبوركم في البرزخ يؤنسكم فيها وتهتدون به في الإجابة على أسئلة الملكين. ونوراً بعد البعث من

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٠٢- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ١٠/ ٢٠٢، وعبد بن حميد في مسنده ١/ ١٦٥، وابن أبي شيبة في المصنف ٦/ ١٧٠. وأخرجه عبد الرازق في «المصنف» وفي «التفسير» وابن المبارك في الزهد، وابن منده، والبيهقي في الشعب، وغيرهم انظر «الإصابة» ١/ ٥٩٧ ترجمة الحارث بن مالك الأنصاري.

القبور في عرصات القيامة ومواقفها الشديدة عند الصراط والميزان وعند تطاير الصحف وغير ذلك من المواقف التي يشيب من هولها الوليد قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الحديد: ١٢].

وقال تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [التحريم: ٨].

قال ابن القيم[1]: وفي قوله: (تمشون به) نكتة بديعة، وهي أنهم يمشون على الصراط بأنوارهم، كما يمشون بها بين الناس في الدنيا ومن لا نور له فإنه لا يستطيع أن ينقل قدماً عن قدم على الصراط، فلا يستطيع المشي أحوج ما يكون إليه».

وشتان بين من يمشي بنور الله وبين من يتخبط فى الظلمات فى الدارين قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي: ويغفر لكم ذنوبكم بأن يتجاوز عن عقوبتها، ويسترها عن الخلق، لأن معنى المغفرة ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة عليه كما جاء في حديث ابن عمر في المناجاة.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ «الغفور» و«الرحيم» اسمان من أسماء الله عز وجل «الغفور» على وزن «فعول» و « الرحيم» على وزن «فعيل» يدل « الغفور» على أن من صفته عز وجل المغفرة الواسعة، كما قال عز وجل ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢].

ويدل «الرحيم» على أن من صفته عز وجل الرحمة الواسعة التي عمت كل شيء وشملت كل حي كما قال عز وجل ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأنعام: ١٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]

ورحمته عز وجل قسمان رحمة هي صفة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه، كما قال عز وجل ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٩٢.

وهي قسمان رحمة عامة لجميع الخلق كما قال عز وجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣ ، الحج: ٦٥].

ورحمة خاصة بالمؤمنين كما قال عز وجل ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣]

ولمغفرته عز وجل ورحمته الواسعتين وعد من اتقاه وآمن برسوله بمضاعفة الأجر والثواب وإعطائهم نوراً يمشون به في الدنيا والآخرة.

﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أي: بينا لكم فضلنا وإحساننا لمن اتقى الله وآمن برسوله وأن الله يعطيهم كفلين من رحمته ويجعل لهم نوراً يمشون به ويغفر لهم لأجل أن (يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله)، أي: لا يقدرون على حجز شيء من فضل الله ورده ممن أعطاه الله إياه، ولا على إعطائه لمن منعه الله عنه كما قال عز وجل عنهم ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١١، ١١٢].

قال السعدي[1]: «فأخبر الله تعالى المؤمنين برسوله محمد ﷺ المتقين لله أن لهم كفلين من رحمته، ونوراً ومغفرة، رغماً على أنوف أهل الكتاب».

وقد سبقت الإشارة إلى أن هذه الآية تقوي قول من قال إن الوعد بقوله ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ للمؤمنين من هذه الأمة. فإن في الآية هنا ما يشعر بالتوبيخ لأهل الكتاب مما يفهم منه أنهم كانوا يفتخرون على المؤمنين قبل نزول الآية بأنهم يؤتون أجرهم مرتين دون المؤمنين من هذه الأمة.

﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي: وأن الفضل والزيادة والعطاء والخير كله بيد الله عز وجل يعطيه من يشاء من عباده بفضله، ويمنعه عمن يشاء بعدله.

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: والله صاحب الزيادة والإنعام العظيم وهو الجواد الكريم.

الفوائد والعبر:

١- إثبات رسالة نوح وإبراهيم عليهما السلام وأنهما من أفضل الرسل وجعل

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/٣٠٦.

النبوة والكتاب في ذريتهما والامتنان عليهما وعلى الخلق بذلك.

٢- أن من ذرية نوح وإبراهيم وقومهما وأقوام الرسل بعدهما عيسى بن مريم ومن قبله من هو مهتد وكثير منهم فاسقون.

٣- لا ينبغي الاغترار بما عليه الأكثرون.

٤- تتابع الرسل عليهم السلام بعد نوح وإبراهيم - عليهما السلام -.

٥- ختم رسل بني إسرائيل والرسل قبل محمد ﷺ بعيسى بن مريم عليه السلام وكتابه الإنجيل.

٦- رقة قلوب الحواريين أتباع عيسى عليه السلام ولينها.

٧- ابتداع أتباع عيسى الرهبانية وإلزامهم أنفسهم بما لم يفرضه الله عليهم طلباً منهم لرضوان الله، ومع ذلك لم يقوموا بما التزموا به حق القيام.

٨- أن من أحدث في دين الله وابتدع وشدد على نفسه فمصيره الانقطاع والترك، بل والخروج عن الحق والضلال، وفي الاتباع الخير والبركة واليسر.

٩- أن الله - عز وجل - لم يكتب على النصارى ولا غيرهم إلا ما يطيقون مما يبتغى به وجه الله - عز وجل -.

١٠- إيتاء الله - عز وجل - الذين آمنوا من أتباع عيسى عليه السلام أجرهم.

١١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام.

١٢-نداء المؤمنين بوصف الإيمان تشريف وتكريم لهم وحث على الاتصاف بهذا الوصف وترغيب في امتثال ما ذكر بعده وأن امتثاله من مقتضيات الإيمان وعدمه يعد نقصاً في الإيمان.

١٣-وجوب تقوى الله والإيمان برسوله محمد ﷺ.

١٤-وعد الله - عز وجل - لمن اتقوه وآمنوا برسوله بإعطائهم نصيبين من رحمته ومضاعفة أجورهم ومنحهم نوراً معنوياً وحسيا يمشون به في الدنيا والآخرة ومغفرة ذنوبهم.

١٥- إثبات اسمين من أسماء الله - عز وجل -، وهما «الغفور» و«الرحيم» وصفة المغفرة الواسعة، والرحمة التامة له - عز وجل - الذاتية والفعلية الخاصة والعامة.

١٦-فضل الله - عز وجل - على المتقين المؤمنين من هذه الأمة بمضاعفة أجورهم ومنحهم النور ومغفرة ذنوبهم رغم أنوف الحاسدين من أهل الكتاب.

١٧-أن الفضل كله بيد الله يعطيه من يشاء وهو سبحانه ذو الفضل العظيم والجود والخير العميم.

فهرس موضوعات المجلد الأول

تفسير سورة الحجرات إلى نهاية تفسير سورة الحديد

الموضـــــوع الصفحة

تنوير العقول والأذهان

في

تفسير مفصل القرآن

إعداد

أ.د سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

الأستاذ بقسم القرآن وعلومه

بكلية الشريعة وأصول الدين - جامعة القصيم

المجلد الثاني

من سورة المجادلة إلى آخر سورة المرسلات

دار العاصمة

للنشر والتوزيع

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله

تنوير العقول والأذهان في تفسير مفصل القرآن. /

سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم - الرياض ، ١٤٢٨هـ

٣مج

ردمك ٨-٣٨-٦٩٢-٩٩٦٠ (مجموعة)

x-٤٠-٦٩٢-٩٩٦٠ (ج٢)

١- القرآن - تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧،٦ ١٤٢٨/٤٢٣٢

رقم الإيداع: ١٤٢٨/٤٢٣٢

ردمك: ٨-٣٨-٦٩٢-٩٩٦٠ (مجموعة)

x-٤٠-٦٩٢-٩٩٦٠ (ج٢)

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

دار العاصمة

المملكة العربية السعودية

الرياض - ص ب ٤٢٥٠٧ - الرمز البريدي ١١٥٥١

هاتف ٤٩١٥١٥٤ - ٤٩٣٢٢١٨ - فاكس ٤٩١٥١٥٤

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة المجادلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

سبب النزول:

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت، ما أسمع ما تقول، فأنزل الله ـ عز وجل ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ إلى آخر الآية»[(١)].

وفي رواية عنها أنها قالت: «تبارك الذي أوعى سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى عليّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ ـ وهي تقول: يا رسول الله أكل شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني، وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، قالت فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ وزوجها أوس بن الصامت»[(٢)].

وعن خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها قالت: «فيَّ ـ والله ـ وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة، قالت: كنت عنده وكان شيخًا كبيرًا قد ساء خلقه، قالت:

---

(١) أخرجه البخاري ـ معلقًا ـ في كتاب التوحيد ـ باب (وكان الله سميعًا بصيرًا) «فتح الباري» ١٣/ ٣٧٢، وأخرجه موصولاً النسائي في الطلاق ٣٤٦٠، وابن ماجه في المقدمة ـ باب فيما أنكرت الجهمية ١٨٨، وأحمد ٦/ ٤٦، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٥٤-٤٥٥، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٢، والواحدي في «أسباب النزول» ص٢٧٣.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٥٤، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٢، والواحدي في «أسباب النزول» ص٢٧٣.

فدخل عليّ يومًا فراجعته بشيء فغضب فقال: أنتِ عليَّ كظهر أمي، قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل عليَّ فإذا هو يريدني عن نفسي، قالت: قلت: كلا، والذي نفس خويلة بيده لا تخلص إليّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه قالت: فواثبني وامتنعت منه، فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف، فألقيته عني، قالت: ثم خرجت إلى بعض جاراتي فاستعرت منها ثوبًا، ثم خرجت حتى جئت رسول الله ﷺ فجلست بين يديه، فذكرت له ما لقيت منه، وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه قالت: فجعل رسول الله ﷺ يقول: «يا خويلة، ابن عمك شيخ كبير، فاتقي الله فيه». قالت: فوالله ما برحت حتى نزل فيَّ القرآن فتغشى رسول الله - ﷺ - ما كان يتغشاه، ثم سُرِّي عنه، فقال لي: «يا خويلة، قد أنزل الله فيك وفي صاحبك، ثم قرأ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ إلى قوله ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾». قالت: فقال رسول الله - ﷺ - «مريه فليعتق رقبه». قالت: فقلت يا رسول الله ما عنده ما يعتق، قال: «فليصم شهرين متتابعين» فقلت: والله إنه شيخ كبير، ما به من صيام قال: «فليطعم ستين مسكينًا، وسقًا من تمر» قالت: قلت: يا رسول الله، ما ذاك عنده. قالت: فقال رسول الله - ﷺ - «فإنا سنعينه بعَرَقٍ[1] من تمر» قالت: فقلت: يا رسول الله، وأنا ساعينه بِعَرَقٍ آخر، قال: «قد أصبت وأحسنت، فاذهبي فتصدقي به عنه، ثم استوصي بابن عمك خيرًا» قالت: ففعلت»[2].

قال ابن كثير[3]: «هذا هو الصحيح في سبب نزول صدر هذه السورة فأما حديث سلمة بن صخر، فليس فيه أنه كان سبب النزول، ولكن أمر بما أنزل الله في هذه السورة، من العتق أو الصيام، أو الإطعام».

ثم ذكر حديث سلمة بن صخر رضي الله عنه - من رواية الإمام أحمد[4]، وفيه: أنه ظاهر

---

(١) العَرَق: بفتح العين والراء: الزنبيل أو المكتل المنسوج من الخوص انظر: «النهاية»، «لسان العرب» مادة «عرق».

(٢) أخرجه أبو داود في الطلاق - باب في الظهار ٢٢١٤، وأحمد ٦/ ٤١٠-٤١١، والواحدي في «أسباب النزول» ص ٢٧٤.

(٣) في «تفسيره» ٨/ ٦٢.

(٤) أخرجه أحمد ٤/ ٣٧، وأبو داود في الطلاق - باب في الظهار ٢٢١٣، والترمذي في التفسير ٣٢٩٩، وابن ماجه في الطلاق - باب الظهار ٢٠٦٢.

وقال الترمذي: «حديث حسن، محمد بن يسار - يعني راوي الحديث عن سلمة بن صخر - قال: لم يسمع عندي من سلمة بن صخر».

من زوجته لما دخل رمضان حتى ينسلخ خوفًا أن يقع عليها في نهار رمضان فوقع عليها ذات ليلة فأخبر النبي ﷺ بذلك وأمره بالتكفير عن ذلك بما ذكر الله عز وجل في هذه السورة.

وأيضًا فإن الثابت في الصحيحين وغيرهما في قصة سلمة بن صخر كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه ـ قال: «بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ جاءه رجل، فقال: يا رسول الله هلكت قال: «مالك»؟ قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم. فقال رسول الله ﷺ: «هل تجد رقبة تعتقها»؟ قال: لا. قال: «فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين»؟ قال: لا. قال: «فهل تجد إطعام ستين مسكينًا»؟ قال: لا. قال: فمكث النبي ﷺ فبينا نحن على ذلك أُتي النبي ﷺ بعَرَق فيه تمر ـ والعَرَق: المكتل ـ قال: «أين السائل»؟. فقال: أنا. قال: «خذ هذا فتصدق به». فقال الرجل: أعلى أفقر مني يا رسول الله، فوالله ما بين لابتيها ـ يريد الحرتين ـ أهل بيت أفقر من أهل بيتي، فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه، ثم قال: «أطعمه أهلك»[1].

فهذا هو الثابت المتفق عليه في قصة سلمة بن صخر، وهو أنه جامع في نهار رمضان، وليس فيه شيء عن سبب نزول الآيات في الظهار ـ وإن كان قد أعطي حكم الجامع في نهار رمضان حكم المظاهر من زوجته.

قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾.

(قد) حرف تحقيق، تفيد تحقيق سماعه عز وجل قولها وشكواها كما قال عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

﴿الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ أي: تحاجك وتخاصمك، وهي خولة[2] بنت ثعلبة، أو بنت مالك بن ثعلبة رضي الله عنها (في زوجها) أوس بن الصامت ـ رضي الله عنه، كما جاء في سبب النزول.

وقد رُوِيَ: «أن امرأة لقيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو يسير مع الناس، فاستوقفته، فوقف لها، ودنا منها، وأصغى لها، ووضع يديه على منكبيها حتى قضت حاجتها وانصرفت، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين حبست رجالات قريش على هذه

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٣٦، ومسلم في الصيام ١١١١، وأبو داود في الصوم ٢٣٩٠، والترمذي في الصوم ٧٢٤، وابن ماجه في الصيام ١٦٧١.

(٢) يقال: خولة، ويقال خويلة: انظر «جامع البيان» ٢٢/٤٤٦.

العجوز؟! قال: ويحك! وتدري من هذه؟ قال: لا، قال: هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات هذه خولة بنت ثعلبة، والله لو لم تنصرف عني إلى الليل ما انصرفت حتى تقضي حاجتها إلا أن تحضر صلاة فأصليها، ثم أرجع إليها حتى تقضي حاجتها»[١].

والمعنى: قد سمع الله قول خولة بنت ثعلبة التي جاءتك تحاجك وتخاصمك في شأن زوجها، وما حصل منه معها.

والمراد: أنها جاءت تطلب حكم الله ورسوله فيما حصل من زوجها كما قالت في قصة سبب النزول: «والذي نفس خويلة بيده لا تخلص إليَّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه».

﴿وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: وترفع إلى الله ضراعتها وفاقتها وحالها وحال صبيتها، وتسأله الفرج، كما في قولها: «يا رسول الله أكل شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني، وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك»[٢].

وفي رواية أنها قالت: «أشكو إلى الله فاقتي»[٣].

ورُوي أنها قالت: «إن لي صبية صغارًا إن ضمهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليَّ جاعوا»[٤].

فجادلت الرسول الله ﷺ وحاجَّته وخاصمته ليبين لها حكم الله ورسوله فيما حصل من زوجها. ويؤخذ من هذا وجوب التحاكم إلى الله ورسوله ﷺ.

وشكت إلى الله عز وجل وحده الذي إليه الشكوى فلم تشك حالها إلى النبي ﷺ لعلمها أنه ﷺ بشر لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا كما قال فيما حكاه الله عز وجل عنه: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وشكت حالها إلى الله عز وجل مع فعل السبب وهو البحث عن مخرج لها ولزوجها مما حصل منه، وذلك بمجيئها إلى رسول الله ﷺ لبيان الحكم في ذلك، ولهذا سارعت ـ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٢ ـ عن ابن زيد.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الطلاق ـ باب الظهار ٢٠٦٣، والحاكم ٢/ ٤٨١، ومعنى «نثرت له بطني» أي: أنها ولدت له أولادًا كثيرين، وهي شابة.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٤٧ ـ عن أبي العالية.

(٤) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٩٦.

رضي الله عنها - إلى مساعدة زوجها بعرق من تمر للتكفير عما حصل منه.

ويؤخذ من الآية وجوب رفع الشكوى إلى المولى عز وجل الذي يكشف الضر ويرفع البلوى م‍ع بذل الأسباب، كما هو مقتضى الإيمان بالله عز وجل أن يعتمد المسلم على الله عز وجل ويأخذ بالأسباب، كما قال عز وجل ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣].

وقال عز وجل: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء:٣٢]

وقال ﷺ: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز»[(١)].

فهو عز وجل مالك الملك وإليه المشتكى كما قيل:

.... لمن يشتكي المملوك إلا لمولاه[(٢)]

ولقد كان من أعظم أسباب ضعف الأمة على مستوى الأفراد والجماعات والدول ضعف الاعتماد على الله، والتقصير في الأخذ بالأسباب، أو الاعتماد عليها فقط، فكم نشكو أحوالنا إلى الناس، وكم نقصر في الأخذ بالأسباب الكونية، وكم نعتمد في طلب جلب النفع ودفع الضر على الأسباب المادية فقط.

فإذا كان للإنسان حاجة كان يريد تحقيق أمر من الأمور، أو أصابته مصيبة من فقر أو مرض أو تسلط عدو، ونحو ذلك أنزل حاجته ومصيبته بالآخرين، مع الغفلة عن مسبب الأسباب وهو الله عز وجل الذي بيده حقًا جلب النفع ودفع الضر كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن أنزلها بالله أوشك الله له بالغنى، إما بموت عاجل، أو غنى عاجل»[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم في القدر ٢٦٦٤، وابن ماجه في المقدمة ٧٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) هذا شطر بيت من قصيدة تنسب للأديب أبي بكر محمد بن محمد بن رشد البغدادي في دعاء عرفة والبيت بتمامه:

إليّ فإني ربهم ومليكهم لمن يشتكي المملوك إلا لمولاه

(٣) أخرجه أبو داود في الزكاة ١٦٤٥، والترمذي في الزهد ٢٣٢٦، وقال: «حديث حسن صحيح غريب» ومن العجيب والواقع فعلا أن بعضًا من الإخوة كانوا في مراجعة لإحدى الوزارات فمروا على أحد الموظفين ليساعدهم لإنهاء معاملتهم في الوزارة، وكان رجلاً صالحًا، فقال لهم: هذا المسجد صلوا فيه ركعتين واسألوا الله التيسير وسوف يتيسر =

ولقد أحسن القائل:

وإذا شكوت إلى الأنام فإنما ... تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

وقال الآخر:

لا تشكونَّ لمخلوق فتورثه ... شكوى الجريح إلى الغربان والرخم

ولكن ينبغي عدم الخلط بين شكوى الحال إلى الغير، وبين ما كان من باب المشورة والاستئناس برأي صديق محب، وناصح عاقل لبيب فيما قد يعرض للإنسان في حياته من أمور يحتاج فيها إلى ذلك، فإن المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه، فهذا ليس من الشكوى المنهي عنها، ومن هذا قول الشافعي رحمه الله.

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي

وقال اعلم بأن العلم نور ... ونور الله لا يؤتاه عاصي

ولهذا قال الآخر:

ولابد من شكوى إلى ذي مروءة ... يواسيك أو يسليك أو يتوجع

وكلنا يعرف قصة سلمان الفارسي مع أخيه أبي الدرداء رضي الله عنهما وزوجته رضي الله عنها كما في حديث أبي جحيفة عن أبيه رضي الله عنه قال: «آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا. فجاء أبو الدرداء فصنع له طعامًا، فقال: كل قال: فإني صائم قال: ما أنا بآكل حتى تأكل قال: فأكل فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم قال: نم، فنام ثم ذهب يقوم، فقال: نم، فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن. فصليا فقال له سلمان: «إن لربك عليك حقًا، ولنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، فأعط كل ذي حق حقه. فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال النبي ﷺ: «صدق سلمان»[1].

=

امركم بإذن الله عز وجل؟ ولك ان تتصور ماذا كان جوابهم لقد كان جوابهم أن قالوا: موضوعنا صعب، ما هي المسألة مسألة ركعتين ـ وهذه القصة واقعة فعلاً. وهذا لسان حال كثير من المسلمين اليوم، إن لم يكن لسان المقال عند بعضهم واترك لك أخي القارئ تفسير هذا !!.

(١) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٦٨، والترمذي في الزهد ٢٤١٣.

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: دخلت عليّ خويلة بنت حكيم بن أمية بن حارثة بن الأوقص السلمية، وكانت عند عثمان بن مظعون، قالت: فرأى رسول الله ﷺ ـ بذاذة هيئتها، فقال لي: يا عائشة ما أبذ هيئة خويلة. قالت: فقلت يا رسول الله امرأة لا زوج لها، يصوم النهار ويقوم الليل، فهي كمن لا زوج لها، فتركت نفسها وأضاعتها. قالت: فبعث رسول الله ﷺ إلى عثمان بن مظعون، فجاءه. فقال: يا عثمان أرغبت عن سنتي؟ فقال: لا والله يا رسول الله، ولكن سنتك أطلب. قال: فإني أنام وأصلي، وأصوم، وأفطر، وأنكح النساء، فاتق الله يا عثمان فإن لأهلك عليك حقا، وإن لضيفك عليك حقا، وإن لنفسك عليك حقا، فصم وأفطر، وصل ونم»[(١)].

وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «دخل رسول الله ﷺ ذات يوم المسجد فإذا هو برجل من الأنصار يقال له أبو أمامة فقال: يا أبا أمامة ما لي أراك جالسًا في المسجد في غير وقت الصلاة؟ قال: هموم لزمتني وديون يا رسول الله قال: أفلا أعلمك كلامًا إذا أنت قلته أذهب الله عز وجل همك وقضى عنك دينك قال: قلت: بلى يا رسول الله قال: «قل إذا أصبحت، وإذا أمسيت: اللهم أني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال» قال: ففعلت ذلك فأذهب الله عز وجل همي وقضى عني ديني»[(٢)].

والإنسان في هذه الحياة معرض لأنواع من المصائب والابتلاء في نفسه وأهله وولده وماله وغير ذلك، وقد تحيط به ظروف نفسية أو مرضية أو مالية أو اجتماعية ونحو ذلك يضيق بها ذرعًا وربما لو أحسن التعامل معها بتوفيق الله ثم بمشورة من يثق به من إخوانه لوجد بإذن الله عز وجل وعونه منها مخرجًا بدلاً من أن ينغلق المرء على نفسه وتحيط به الوساوس والهموم، وتحتوشه الشياطين، فمن ألمت به ملمة فلا بأس بعد اللجوء إلى الله عز وجل وسؤاله المخرج منها أن يستعين بمن يثق بهم من إخوانه من أهل الخبرة والتجربة والرأي السديد والنصح، وقد يكون الكثير منهم مر عليه مثل هذه المشكلة أو على غيره ممن يعرفهم وعرف أحوال الناس في هذا فيهوّن على أخيه مصابه ويقوي ثقته بربه، وأن الله سيجعل له فرجًا ومخرجًا مما هو فيه، كما قال عز وجل ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥-٦]، ويوجهه إلى فعل السبب المناسب بعد التوكل على الله عز وجل.

---

(١) أخرجه أحمد ٦/٢٦٨.
(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٥٥٥.

ولقد أحسن من قال:

إذا بلـغ الـرأي المشـورة فاسـتعن   بـراي نصـيح أو نصـيحة حـازم
ولا تجعـل الشـورى عليـك غضاضـة   فـإن الخـوافي قـوة للقـوادم

ولقد ابتليت في أول عملي في التدريس ـ وقبل أن أجرب الناس ـ بزميل حصل منه بعض الأذى لي ـ عفا الله عني وعنه ـ فضقت ذرعًا بذلك، لأني لا أرى سببًا لذلك، وفكرت في الانتقال من ذلك العمل لأجل ذلك، فشرحت لأحد الإخوة من ذوي التجربة السبب الذي دعاني للتفكير في موضوع النقل، فقال لي هوّن عليك هذا من تنافس الأقران فعرفت من حينها أن هذا الأمر ـ وإن كان لا يجوز ـ قد مر على غيري، وعرفت أن كل ذي نعمة محسود، فصبرت على ذلك وحمدت العاقبة بفضل الله وتوفيقه.

وذكر أحد الثقات أن أحد الإخوة تنكرت له زوجته بعد عشرة طيبة طويلة فشق ذلك عليه، واستشار أحد الإخوة المحبين من ذوي الخبرة والتجربة، فقال له هذا الأخ الخبير المجرب كيف أنت معها في أمر النساء «يعني الجماع»؟ فقال: لقد ركبتني ديون وهموم حتى أصبحت لا اهنأ بنوم، فكيف بأمر النساء، أي: ليس لي فيه عهد منذ زمن طويل، فقال له هذا الأخ المجرب: هذا هو السبب فيما حصل من زوجتك، فعاد الزوج معها في هذا الأمر بما تيسر له من أسباب فعادت العشرة الطيبة بينهما وكما قيل:

فـإن تسـألونى بالنسـاء فـإننى   خـبير بـأدواء النسـاء طبيـب
إذا شـاب رأس المـرء أو قـل مالـه   فلـيس لـه مـن ودهـن نصـيب
يـردن ثـراء المـال حيـث وجدنـه   وشـرخ الشـبابُ عنـدهن عجيـب

وهذا أمر جبلت عليه المرأة، وكذا الرجل هو الآخر يريد منها مثل ما تريد منه، فكل منهما مطالب بأداء حق الآخر، وكل فتور من أحدهما في حق الآخر، بل وفي الظهور أمامه بالمظهر الحسن هو سبب لبرود العلاقة بينهما، ولهذا قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما: «إني أحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي، لأن الله تعالى ذكره قال: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾»[1].

والأخبار في مثل هذا كثيرة مستفيضة، فكم من إنسان انغلق أمامه ـ بحسب تصوره ـ باب الرزق، أو الزواج أو زوال ما يعانيه من مشكلات مرضية أو نفسية أو اجتماعية، أو غير

---

(١) اخرجه الطبري في «جامع البيان» ٤/ ١٢٠، وابن ابي حاتم في «تفسيره» ٢/ ٤١٧.

ذلك، فزال ذلك بتوفيق الله عز وجل وتيسيره بعد استشارة من يثق بهم من إخوانه من أهل النصح والمعرفة والتجربة وبالمقابل فكم من زوجين افترقا، وكم من والد وأولاده وإخوة وأقارب وجيران وأصحاب ساءت علاقاتهم وتنغصت حياتهم وتفاقم الخلاف بينهم وربما وصل الأمر بينهم إلى الهجران والتقاطع بسبب اختلاف لا يكاد يذكر وما أكثر هذا[1].

﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾ أي: والله يسمع ما جرى بينكما من حوار وضمير المثنى يعود إلى النبي ﷺ وإلى خولة بنت ثعلبة ـ رضي الله عنها ـ وفي هذا إثبات سماع الله عز وجل ـ لكلامهما معًا، كما أن في أول الآية إثبات سماع الله لكلامها هي.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ «إن» حرف توكيد ونصب، و«السميع» و «البصير» اسمان من أسماء الله عز وجل، كل منهما على وزن «فعيل» يدل «السميع» على إثبات صفة السمع لله عز وجل على ما يليق بجلاله وعظمته، وأنه عز وجل يسمع جميع الأقوال والأصوات، السر، والجهر عنده سواء كما قال عز وجل: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ [طه:٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الملك:١٣]، وقال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ﴾ [الأنعام:٣]، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ [الأعلى:٧].

قال ابن القيم[2] في كلامه عن قوله تعالى: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾: «فلا يشك صحيح الفهم البته في هذا الخطاب أنه نص صريح لا يحتمل التأويل بوجه في إثبات صفة السمع للرب ـ تعالى حقيقية، وأنه بنفسه سمع».

وقال أيضًا في «النونية» [3]:

---

(١) والسبب في هذا كله أن كثيراً من المسلمين ـ وإن ولدوا في الإسلام وشبوا فيه وربما شابوا لم يربوا على ما جاء في القرآن الكريم من التوجيهات الإلهية، ولا على ما جاء في السنة المطهرة من التعاليم النبوية تجاه مشاكل الحياة وكيفية التعامل معها، فاصبح كل صاحب يريد الكمال من صاحبه والكمال في البشر نادر عزيز.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٩٥.

(٣) ص١٤٦.

وهو السميع يرى ويسمع كل ما ... في الكون من سر ومن إعلان
ولكل صوت منه سمع حاضر ... فالسر والإعلان مستويان
والسمع منه واسع الأصوات لا ... يخفى عليه بعيدها والداني

ويدل «البصير» على إثبات صفة البصر لله عز وجل على ما يليق بجلاله وعظمته، وأنه عز وجل يبصر ويرى جميع المخلوقات لا تخفى عليه خافية منها ومن أعمال الخلق وأحوالهم وأقوالهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] فهو عز وجل - يسمع ويرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء.

قال ابن القيم[1]:

وهو البصير يرى دبيب النملة السوداء ... تحت الصخر والصوان
ويرى مجاري القوت في أعضائها ... ويرى بياض عروقها بعيان
ويرى خيانات العيون بلحظها ... ويرى كذاك تقلب الأجفان

فهو - سبحانه وتعالى يسمع جميع الأقوال والأصوات، ويبصر ويرى جميع الكائنات والمخلوقات.

قال الشاعر:

يا من يرى مدَّ البعوض جناحها ... في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى مناط عروقها في نحرها ... والمخ من بين العظام النُّحَّل
امنن عليَّ بتوبة تمحو بها ... ما كان مني في الزمان الأول

قال السعدي[2] في كلامه على الآية: «وهذا إخبار عن كمال سمعه وبصره، وإحاطتهما بالأمور الدقيقة والجليلة، وفي ضمن ذلك الإشارة بأن الله سيزيل شكواها وبلواها».

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ «الذين» اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ، و «يظاهرون» صلة الموصول، وخبره (ما هن أمهاتهم).

قرأ عاصم (يُظاهرون) بضم الياء وتخفيف الظاء والهاء وألف بينهما في الموضعين،

---

(١) في «النونية»، ص١٤٦

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٠٨.

وقرأ أبو جعفر وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف بفتح الياء وتشديد الظاء وألف بعدها وتخفيف الهاء وفتحها «يَظَّاهرون» وقرأ الباقون كذلك إلا أنه بتشديد الهاء من غير ألف قبلها «يَظَّهَّرون».

ومعنى (يظاهرون من نسائهم) أي: يقول أحدهم لزوجته: أنت عليّ كظهر أمي، أي: كما أنه يحرم عليَّ أن اركب ظهر أمي، وأن أطأها فكذلك أنت أيتها الزوجة يحرم عليَّ أن أركبك وأن أطأك. وسُمي ظهارًا اشتقاقًا من الظهر، وقد كان هذا في الجاهلية يعد طلاقًا يحرم المرأة مطلقًا.

عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان الرجل إذا قال لامرأته في الجاهلية أنت عليَّ كظهر أمي حرمت عليه، فكان أول من ظاهر في الإسلام أوس، وكانت تحته ابنة عم له يقال لها «خويلة» بنت ثعلبة فظاهر منها، فأسقط في يديه، وقال: ما أراك إلا قد حرمتِ عليَّ وقالت له مثل ذلك، قال: فانطلقي إلى رسول الله ﷺ فأتت رسول الله ﷺ فوجدت عنده ما شطة تمشط رأسه ـ فقال: «يا خويلة ما أمرنا في أمرك بشيء» فأنزل الله على رسوله ـ ﷺ ـ فقال: «يا خويلة أبشري» قالت: خيرًا فقرأ عليها: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ إلى قوله ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ قالت: وأي رقبة لنا؟ والله ما يجد رقبة غيري قال: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ قالت: والله لولا أنه يشرب في اليوم ثلاث مرات لذهب بصره! قال: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ قالت: من أين؟ ما هي إلا أكلة إلى مثلها! قال: «فدعا بشطر وسق» ـ ثلاثين صاعًا، والوسق: ستون صاعًا ـ فقال: «ليطعم ستين مسكينًا وليراجعك»[1].

وفي رواية عن مجاهد عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «أول من ظاهر من امرأته أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت، وامرأته خولة بنت ثعلبة بن مالك، فلما ظاهر منها حسبت أن يكون ذلك طلاقًا فأتت رسول الله ﷺ ـ فقالت: يا رسول الله، إن أوسًا ظاهر مني، إن افترقنا هلكنا، وقد نثرت بطني منه، وقدمت صحبته، وهي تشكو ذلك وتبكي، ولم يكن جاء في ذلك شيء، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٤٨-٤٤٩. وقال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٦٤: «إسناد جيد قوي، وسياق غريب».

زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى قوله ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فدعاه رسول الله ﷺ ـ فقال: «أتقدر على رقبة تعتقها»؟ قال: لا والله يا رسول الله ما أقدر عليها. قال: فجمع له رسول الله ﷺ حتى أعتق عنه، ثم راجع أهله» [١].

والخطاب في قوله (منكم) للمؤمنين أمة الإجابة.

والمراد بـ (نسائهم) زوجاتهم.

﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ﴾ «ما» نافية عاملة عمل «ليس»، و «هن» اسمها مبني على الفتح في محل رفع، و «أمهات» خبرها منصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم، وضمير «هم» مضاف إليه، أي: ليست أزواجهم أمهاتهم، ولا يمكن أن تكون أزواجهم أمهاتهم بمجرد هذا القول ونحوه، فنفى ما أثبتوه، وهذا تكذيب لهم. والأمهات: جمع أم، أو جمع أمهة، وهي التي ولدت، ويدخل فيها الجدات وإن علون، من أي جهة كن، كما تدخل فيها الأمهات من الرضاع لقوله تعالى ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ [النساء:٢٣]، ولقوله ﷺ «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب» [٢].

﴿إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ «إن» حرف نفي بمعنى «ما» أي: ما أمهاتهم.

﴿إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ﴾ إلا أداة حصر، أي: ما أمهاتهم حقيقة إلا اللائي ولدنهم، أو إنما أمهاتهم حقيقة اللائي ولدنهم.

فأبطل الله عز وجل أن تكون الزوجة أمًا بمجرد الظهار، وبيَّن أن أم الشخص حقيقة هي التي ولدته، ثم بين نكارة هذا القول وكذبه وشده حرمته فقال:

﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ﴾ الواو عاطفة، و «إن» حرف توكيد ونصب والضمير «هم» اسمها مبني على السكون في محل نصب، وجملة (ليقولون) خبرها في محل رفع، واللام فيه للتوكيد.

(منكرًا) صفة لمصدر محذوف، أي: ليقولون قولاً منكرًا، أو مفعول ليقولون.

والمنكر: ما أنكره الشرع، وعُرْفُ المسلمين قولاً كان أو فعلاً.

وقدّم وصف القول بكونه منكرًا على الموصوف وهو القول إشارة إلى عظم نكارته وشدتها.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٥٥. وأخرجه الواحدي في «أسباب النزول» ص٢٧٤، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٤٥، ومسلم في الرضاع ١٤٤٧، والنسائي في النكاح ٣٣٠٥، وابن ماجه في النكاح ١٩٣٨ ـ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما.

(وزورا) أي: وكذبا باطلاً، مزوّرا مخالفًا للحق، والزور من أكبر الكبائر، ولهذا قال ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، ثم قال: ألا وشهادة الزور، ألا وقول الزور، قال الصحابة ـ رضي لله عنهم ـ فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت»[(١)].

فبين الله ـ عز وجل ـ أن الظهار كذب في ثلاثة مواضع الأول: في قوله ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡ﴾ فنفى ما أثبتوه وهذا حقيقة التكذيب.

الثاني: في قوله ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ والمنكر ما خالف الشرع والحق.

الثالث: في قوله ﴿وَزُورٗاۚ﴾ والزور الكذب.

وإذا كان الظهار منكراً من القول وزوراً وكذباً، فهو محرم غاية التحريم ومرتكبه آثم إثما عظيماً.

قال ابن القيم[(٢)]: «الظهار حرام لا يجوز الإقدام عليه، لأنه كما أخبر الله عنه منكر من القول وزور، وكلاهما حرام، والفرق بين جهة كونه منكرًا وجهة كونه زورًا أن قوله: أنت عليَّ كظهر أمي يتضمن إخباره عنها بذلك، وإنشاءه تحريمها، فهو يتضمن إخبارًا وإنشاءً، فهو خبّر زورٌ وإنشاءٌ منكرٌ، فإن الزور هو الباطل خلاف الحق الثابت».

وقال أيضًا[(٣)] بعد ما ذكر الاختلاف في قول المظاهر: أنت عليَّ كظهر أمي، هل هو إنشاء أو إخبار قال: «وفصل الخطاب أن قوله : أنت عليَّ كظهر أمي يتضمن إنشاءً وإخبارًا، فهو إنشاء من حيث قصد التحريم، وإخبار من حيث تشبيهها بظهر أمه، ولهذا جعله الله منكرًا من القول وزورًا، فهو منكر باعتبار الإنشاء، وزور باعتبار الإخبار».

وإنما كان الظهار قولاً منكرًا، فاحشًا شرعًا وعرفًا، وزوراً وكذبًا وباطلاً ومحرمًا غاية التحريم؛ لأن الزوجة لا تكون أمًا بمجرد الظهار، ولا تطلق بمجرد الظهار، ولا تحرم على زوجها بمجرد ذلك، ولأن أمر التحليل والتحريم إلى الله عز وجل ولا يجوز للمسلم أن يحرم على نفسه شيئًا مما أباحه الله له، ولو حرم ذلك لم يكن حرامًا.

فقد قال عز وجل لنبيه ـ ﷺ ـ لما حرم على نفسه ﷺ العسل أو مارية القبطية[(٤)]

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٥٤، ومسلم في الإيمان ٨٧، والترمذي في البر والصلة ١٩٠١ـ من حديث أبي بكرة ـ رضي الله عنه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٩٩.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٤١٨-٤١٩.

(٤) كما جاء في سبب نزول الآيات، مطلع سورة التحريم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾ إلى قوله: ﴿ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾ [التحريم: ١، ٢].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾

الواو: عاطفة و «إن» حرف توكيد ونصب، ولفظ الجلالة اسمها، (عفو) خبرها، واللام للتوكيد، و(غفور) خبر ثان لـ «إن».

و «العفو» اسم من أسماء الله ـ عز وجل ـ على وزن «فعول» يدل على إثبات صفة العفو الواسع لله عز وجل ومعنى «العفو» المتجاوز عن ذنوب عباده، فيمحوها، ولا يعاقبهم عليها.

قال ابن القيم[1]:

وهو العفو بعفوه وسع الورى ... لولاه غار الأرض بالسكان

بل إنه عز وجل يبدل سيئات التائبين حسنات إذا صدقت توبتهم كما قال عز وجل: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الفرقان: ٧٠].

وعفوه عز وجل عفو كامل مع القدرة على العقوبة، بخلاف عفو المخلوق فقد يكون عن ضعف وعدم قدرة ولهذا قرن الله ـ عز وجل ـ عفوه بالقدرة، فقال عز وجل: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٩].

و«الغفور» اسم من أسماء الله ـ عز وجل على وزن «فعول» يدل على إثبات صفة المغفرة الواسعة لله ـ عز وجل.

وهو مأخوذ من المغفرة، وهي: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة ـ كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما ـ في المناجاة[2]. ومنه سمي «المغفر» البيضة التي توضع على الرأس في القتال، تستره وتقيه السهام.

وحيث اجتمع في هذه الآية «العفو» و «الغفور» فالأولى حمل «الغفور» هنا على معنى الستر، أو يحمل «العفو» على العفو عن ترك الواجب، و«الغفور» عن ارتكاب المحرم ـ لئلا يقال بالترادف، ولأن التأسيس أولى من التوكيد.

---

(١) في «النونية» ص ١٤٨.

(٢) سبق تخريجه.

وفي ختم الآية بقوله ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ إشعار بأن المظاهر قد عرَّض نفسه للإثم والعقوبة لولا عفو الله - عز وجل - ومغفرته، وبيان أن الله - عز وجل - عفوٌّ غفور لمن تاب إليه من هذا القول المنكر والزور وغيره، وعما خرج عن سبق اللسان من غير قصد ونحو ذلك.

قال ابن كثير[1]: «﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ أي: عما كان منكم في حال الجاهلية وهكذا أيضًا عما خرج من سبق اللسان، ولم يقصد إليه المتكلم كما روى أبو داود أن رسول الله - ﷺ - سمع رجلاً يقول لامرأته: يا أختي فقال: «أختك هي»؟ قال ابن كثير: فهذا إنكار، ولكن لم يحرمها عليه بمجرد ذلك، لأنه لم يقصده، ولو قصده لحرمت عليه، لأنه لا فرق على الصحيح بين الأم وبين غيرها من سائر المحارم من أخت وعمة وخالة، وما أشبه ذلك».

﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ﴾

بعد أن نفى الله - عز وجل - أن تكون الزوجات المظاهَر منهن أمهات لمن ظاهروا منهن، وبيَّن أن أمهاتهم حقيقة هن اللاتي ولدنهم، وأن الظهار منكر من القول وزور وباطل بيَّن ما يلزم على الظهار من الكفارة لمن أراد العود إلى جماع زوجته.

قوله ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟﴾ أي: ثم يعودون ويرجعون للذي قالوه، أي: يعودون لجماع زوجاتهم، أو يعزمون على ذلك، وهذا يدل على أن الظهار لا يحرم الزوجة على زوجها، ولا يكون طلاقًا، إنما يحرم جماعها حتى يكفِّر.

عن سعيد بن جبير - رضي الله عنه قال: «كان الإيلاء والظهار طلاق الجاهلية، فوقَّت الله الإيلاء في أربعة أشهر، وجعل في الظهار الكفارة»[2].

وقيل: ثم يعودون إلى الظهار بعد تحريمه.

والصحيح القول الأول، وعليه جمهور السلف وأهل العلم، فالكفارة لا تجب بنفس الظهار وإنما تجب بالعود إلى الجماع، والعزم عليه.

﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ خبر المبتدأ «والذين» ودخلت عليه الفاء لمشابهة المبتدأ للشرط، أي: فعليهم تحرير رقبة.

وتحرير الرقبة: تخليصها من الرق، بحيث تكون منافع الشخص الرقيق مملوكة له بعد

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٦٥.
(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٦٤.

أن كانت مملوكة لسيده، قال تعالى عن مريم عليها السلام أنها قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران: ٣٥] أي: مخلصاً لعبادة الله ولخدمة بيت المقدس.

والمراد بالرقبة النفس المملوكة، ذكرًا كانت أو أنثى، ويشترط أن تكون الرقبة في كفارة الظهار مؤمنة لقوله تعالى في كفارة القتل: ﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء:٩٢].

ولحديث معاوية بن الحكم السلمي ـ رضي الله عنه ـ لما جاء إلى النبي ﷺ بتلك الجارية السوداء فسألها ﷺ ـ «أين الله»؟ قالت: في السماء. قال: «من أنا؟» قالت: أنت رسول الله. قال ﷺ: «أعتقها فإنها مؤمنة»(١).

كما يشترط في الرقبة أن تكون سليمة من العيوب التي تجعلها معدومة المنافع، لأن التحرير معناه تمليك الرقيق منافع نفسه.

﴿مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ المس: يطلق في القرآن الكريم على الجماع قال تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦].

وقال تعالى: ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩].

فقوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ أي: من قبل الجماع.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رجلاً قال: «يا رسول الله، إني ظاهرت من امرأتي فوقعت عليها قبل أن أكفر فقال: «ما حملك على ذلك يرحمك الله»؟ قال: رأيت خلخالها في ضوء القمر قال: « فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله عز وجل»(٢).

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «أتى رسول الله ﷺ رجل، فقال: إني تظاهرت من امرأتي ثم وقعت عليها قبل أن أكفر فقال رسول الله ـ ﷺ ـ «ألم يقل الله

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد ٥٣٧، وأبو داود في الصلاة ٩٣٠، والنسائي في السهو ١٢١٨، وأحمد ٥/٤٤٧.

(٢) أخرجه أبو داود في الطلاق ٢٢٢١، والنسائي في الطلاق ٣٤٥٧، والترمذي في الطلاق واللعان ١١٩٩ وقال: «حديث حسن غريب صحيح».

(من قبل أن يتماسا)» قال: أعجبتني، قال: «أمسك حتى تكفِّر»[1].

﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ الإشارة إلى ما سبق من أحكام الظهار، والتشديد فيه والميم للجماعة، والموعظة: هي ذكر الأحكام مقرونة بالترغيب والترهيب، والحث على فعل الطاعات، والزجر عن المعاصي[2].

وهنا ذكر الله عز وجل حكم الظهار، وأنه منكر وزور، وفي هذا تحذير وترهيب، ودلالة على شدة تحريمه، كما ذكر ما يلزم المظاهر من زوجته من الكفارة إذا أراد العود إلى جماعها، وفي هذا وما قبله دلالة على أن الظهار لا يحرم الزوجة، وإنما يحرم جماعها حتى يكفِّر.

وختم الله عز وجل ـ الآية السابقة بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ وفي هذا بعد ذكر الأحكام فيها في الظهار ترغيب لمن امتثل أمر الله وتاب وأناب إليه مما وقع منه من الظهار وغيره من الذنوب فإن الله عز وجل ـ يتجاوز عن عقوبتها ويسترها عن الخلق.

وقد دلت الآيات على تحريم الظهار، بل على شدة تحريمه من وجوه خمسة **الأول:** وصفه بالمنكر، **والثاني:** وصفه بالزور، **والثالث:** إيجاب الكفارة فيه، **الرابع:** الوعظ من الوقوع فيه **الخامس:** قوله ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ وهذا إنما يكون عن الذنب.

كما ختم الله عز وجل هذه الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وفي هذا وعد ووعيد وترغيب وترهيب.

و «ما» في قوله ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ موصولة أو مصدرية، أي: والله بالذي تعملون، أو بعملكم خبير.

والخبير اسم من أسماء الله ـ عز وجل ـ على وزن «فعيل»، يدل على سعة خبرته ـ عز وجل.

ومعنى «الخبير» المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها، وإذا كان ـ عز وجل ـ مطلعًا على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها فاطلاعه على ظواهر الأمور وجلائلها

(١) أخرجه البزار وقال: «لا يروى عن ابن عباس بأحسن من هذا» هكذا ذكره ابن كثير عنه في «تفسيره» ٨/ ٦٦.

(٢) من عجيب ما مرّ عليّ أني لما أرسلت بحوث الترقية لدرجة أستاذ، وكانت تفسيرًا لبعض السور على غرار هذا المنهج، كتب أحد الفاحصين ضمن ملحوظاته ـ عفا الله عني وعنه «أن هذه البحوث مجرد تفسير وعظي» فيا سبحان الله، ما أدري ما هو التفسير، وما قيمته إذا لم نلحظ فيه الوعظ، والله عز وجل يقول: (ذلكم توعظون به) ويقول سبحانه وتعالى: (إن الله نعمّا يعظكم به) [النساء: ٥٨]، وكان التفسير في نظر البعض حشو من الأقوال التي لا دليل عليها، ومن القراءات والأعاريب الشاذة، والتي تحول دون فهم القرآن فهمًا صحيحًا، وأخذ العظة والعبرة منه ـ اللهم غفرًا.

وجلياتها من باب أولى.

وفي هذا وعد ووعيد، وعد لمن اتقى الله وامتثل أمره، ووعيد لمن عصى الله وخالف أمره، لأن مقتضى خبرته بأعمال عباده أن يحاسبهم ويجازيهم عليها، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ولا يظلم ربك أحدًا.

كما أن فيه إشارة إلى خبرته عز وجل التامة بأحوال العباد وما يصلحهم، ولهذا شرع لهم ما شرع من الأحكام التي فيها صلاحهم في الحال والمآل.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ الفاء: استئنافية، و «من» اسم شرط جازم و «لم» حرف نفي وجزم وقلب و «يجد» فعل الشرط، أي: فمن لم يجد الرقبة، أو قيمتها.

(فصيام) الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فعليه صيام شهرين متتابعين، والجملة في محل جزم جواب الشرط، واقترن بالفاء لأنه جملة اسمية.

(شهرين) مثنى «شهر» والسنة اثنا عشر شهرًا، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [التوبة: ٣٦].

والشهر ثلاثون يومًا، أو تسعة وعشرون يومًا، كما قال ﷺ في حديث ابن عمر رضي الله عنهما ـ أنه سمع رجلاً يقول: الليلة ليلة النصف فقال له: ما يدريك أن الليلة النصف سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الشهر هكذا وهكذا، وأشار بأصابعه العشر مرتين، وهكذا في الثالثة، وأشار بأصابعه كلها، وحبس، أو خنسَ إبهامه»[١].

وفي حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ «فاعتزل النبي ﷺ نساءه شهرًا، تسعة وعشرين يومًا»[٢].

(متتابعين) أي: متصلين لم يفصل بينهما إفطار يوم أو أكثر لغير عذر من مرض أو سفر أو أيام يحرم صومها كيومي العيدين وأيام التشريق وأيام الحيض والنفاس عند المرأة، وكذا لو فصل بينهما بصيام رمضان ـ فهذا كله لا يقطع التتابع.

فإن ابتدأ الصيام من أول الشهر كفاه إكمال شهرين حسب رؤية هلال كل واحد منهما، سواء كمل كل منهما، أو كان كل منهما تسعة وعشرين يومًا، أو كمل أحدهما ونقص الآخر. فالمعتبر كمال الشهرين دخولاً وخروجًا ولا يلزم كون ذلك ستين يومًا.

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٠٨، ومسلم في الصيام ١٠٨٠، وأبو داود في الصوم ٢٣١٩، والنسائي في الصيام ٢١٤٠

(٢) أخرجه مسلم في الصيام ١٠٨٤.

وإن ابتدأ الصيام في أثناء الشهر لزمه إكمال ستين يومًا.

﴿مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ أي: من قبل الجماع، وكرر هذا لتوكيد وجوب التكفير عن الظهار قبل العودة إلى جماع الزوجة المظاهر منها ودواعيه من المباشرة ونحو ذلك، وذلك أدعى لإخراج الكفارة، بل وإلى المبادرة في إخراجها.

فإن عجز عن العتق وانتقل إلى الصيام حرم عليه وطؤها طيلة الشهرين، فإن وطئها فيهما انقطع التتابع، وقيل: لا ينقطع. والصحيح الأول.

﴿فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ﴾ أي: فمن لم يستطع صيام شهرين متتابعين فعليه إطعام ستين مسكينًا لكل مسكين نصف صاع من الطعام لقوله ﷺ لكعب بن عجرة في كفارة فدية الأذى: «هل عندك نسك؟» قال: ما أقدر عليه فأمره أن يصوم ثلاثة أيام، أو يطعم ستة مساكين، لكل مسكينين صاع»[1].

واستحسن بعض أهل العلم أن يكون مع الطعام إدام، ولو غداهم أو عشاهم كفى.

والمسكين: هو الذي لا يجد كفايته أو لا يجد شيئًا، مأخوذ من السكون، وهو عدم الحركة لأن الفقر أسكنه وأذله - نسأل الله العافية - ولا بد من استيفاء عدد «ستين مسكينًا» فإن لم يجد الستين أطعم من وجد بقدر إطعام ستين مسكينًا.

ولم يقل هنا ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ كما ذكره مع العتق والصيام، اكتفاء بذلك، وعلى هذا فلا يجوز الجماع قبل التكفير مطلقًا. وقيل: إذا كان التكفير بالإطعام جاز الجماع قبله لأنه لم يقل مع الإطعام ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ والصحيح الأول.

واختلف أهل العلم فيما إذا عجز عن الكفارة هل تسقط عنه أولا على قولين: فمن أهل العلم من قال: لا تسقط بالعجز عنها، بل تبقى في ذمته، واستدلوا على هذا بأن النبي ﷺ أعان أوس بن الصامت بعَرَق من تمر، وأعانته زوجته بمثله حتى كفَّر، كما استدلوا بأن النبي ﷺ أعطى سلمة بن صخر لما جامع في نهار رمضان وعجز عن الكفارة عرَقاً من التمر من الصدقة، فلو كانت الكفارة تسقط بالعجز عنها لما تصدق عليهما ليخرجاها من الصدقة.

وذهب طائفة من أهل العلم إلى أن الكفارة تسقط بالعجز عنها، كما تسقط الواجبات بالعجز عنها وعن أبدالها، واستدلوا على هذا بأن النبي ﷺ لما أمر سلمة بن صخر -

---

(1) أخرجه البخاري في الحج ١٨١٤، ومسلم في الحج ١٢٠١، وأبو داود في المناسك ١٨٥٦، والنسائي في مناسك الحج ٢٨٥١، والترمذي في الحج ٩٥٣، وابن ماجه في المناسك ٣٠٧٩ من حديث كعب بن عجرة - رضي الله عنه.

رضي الله عنه ـ بالتصدق ـ بعَرَق التمر، قال له: «أعلى أفقر مني؟ والله ما بين لابتيها أهل بيت أفقر من أهل بيتي » فقال له النبي ﷺ «أطعمه أهلك»[١] .

قالوا: فهذا يدل على سقوطها بالعجز، ولو لم تسقط عنه لما أمره بإطعامها لأهله، لأن الرجل لا يكون مصرفًا لكفارته، كما لا يكون مصرفًا لزكاته.

وأجاب بعض أهل العلم عن هذا بأنه إذا عجز عن الكفارة وكفر عنه غيره جاز أن يأكل منها هو وأهله لقصة سلمة بن صخر وغيره.

وذهب بعض أهل العلم إلى أن سقوط الكفارة بالعجز خاص بكفارة الجماع في نهار رمضان لقصة سلمة بن صخر رضي الله عنه أما غيرها من الكفارات فلا تسقط بالعجز واختاره أبو البركات ابن تيمية رحمه الله[٢].

﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الإشارة لما شرع الله عز وجل من أحكام الظهار في الآيات السابقة، وما شرع فيها من الكفارة، واللام في قوله (لتؤمنوا) لام التعليل، أي: لأجل أن تؤمنوا بالله ورسوله.

والإيمان بالله هو الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشرعه، وضده الكفر.

والإيمان بالرسول ﷺ شهادة أنه محمد رسول الله، وذلك بطاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع.

وعطف وصف الرسول ﷺ على اسم الله ـ عز وجل ـ بقوله ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بالواو التي تقتضي التشريك في الحكم لأن الإيمان بالرسول ﷺ من الإيمان بالله وطاعته، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] بخلاف باب المشيئة فلا يجوز فيه ذلك لإنكاره ﷺ على من قال: «ما شاء الله وشئت» بقوله ﷺ: «أجعلتني والله عدلاً، بل ما شاء الله وحده»[٣].

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ الإشارة إلى ما ذكر الله عز وجل ـ من أحكام الظهار في الآيات السابقة وإلى غير ذلك مما أنزل الله عز وجل من أحكام.

و«حدود» جمع حد، والحد: هو الشيء الفاصل بين شيئين، ومنه حدود الأرض وهي

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: « بدائع التفسير» ٤/ ٤٠٧-٤٠٨.

(٣) أخرجه أحمد ١/ ٢١٤، ٢٢٤، وابن ماجه في الكفارات ٢١١٧ - من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما.

مراسيمها التي تفصل بعضها عن بعض.

وحدود الله تنقسم إلى قسمين: حدود أوامر وواجبات يجب فعلها فلا يجوز تركها ولا تعديها، كما قال عز وجل: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة:٢٢٩].

والقسم الثاني: حدود نواهٍ ومحرمات يجب تركها وعدم الاقتراب منها، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة:١٨٧].

والمشار إليه في قوله ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ القسمان، ففيه النهي عن الظهار، والأمر بالكفارة قبل المسيس.

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الواو: عاطفة، (للكافرين) جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم و(عذاب) مبتدأ مؤخر و(أليم) صفة له وفي تقديم الخبر إفادة قصر العذاب الأليم على الكافرين وحصره فيهم لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

و«الكافرين»: الذين كفروا بالله فجحدوا وجوده وربوبيته وألوهيته، وأسماءه وصفاته وشرعه، أو شيئاً من ذلك. والكفر: ضد الإيمان، و«العذاب» هو النكال والعقوبة.

و«أليم» على وزن «فعيل» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، يدل على شدة ألم عذابهم، وهو «فعيل» بمعنى «مفعل» أي مؤلم موجع حسًا ومعنى مؤلم حسًا للأجساد، ومؤلم معنى للقلوب.

الفوائد والعبر:

١ ـ إثبات صفة السمع الواسع لله ـ عز وجل ـ وأنه عز وجل سمع قول المجادلة في زوجها وتحاورهما هي والرسول ﷺ ويسمع ـ عز وجل ـ جميع الأصوات والأقوال.

٢ ـ أن المشتكى إلى الله ـ عز وجل ـ في جميع الأحوال فهو الذي ترفع إليه الشكوى ويكشف الضر ويرفع البلوى.

٣ ـ ينبغي لمن أشكل عليه شيء من أمر دينه أن يسأل أهل العلم.

٤ ـ إثبات اسم الله ـ عز وجل ـ «السميع» وما يدل عليه من إثبات صفة السمع الواسع لله ـ عز وجل.

٥ ـ إثبات اسم الله ـ عز وجل ـ «البصير» وما يدل عليه من بصره ـ عز وجل ـ ورؤيته واطلاعه على كل شيء.

٦ ـ أن الظهار من الزوجات لا يحرمهن ولا يجعلهن بحكم أمهات الأزواج وإنما أمهاتهم اللاتي ولدنهم.

٧ ـ أن الظهار منكر شديد من القول وزور من أكبر الكبائر، ومحرم غاية التحريم.

٨ ـ إثبات اسمين من أسماء الله ـ عز وجل ـ وهما «العفو» و «الغفور» وصفة العفو التام والمغفرة الواسعة له ـ عز وجل.

٩ ـ يلزم من عاد إلى جماع زوجته التي ظاهر منها وعزم على ذلك إخراج كفارة الظهار قبل الجماع، وهي عتق رقبة، فإن لم يجد الرقبة أو ثمنها فعليه صيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع الصيام أطعم ستين

مسكيناً لكل مسكين نصف صاع من الطعام.

١٠ ـ يشترط في تحرير الرقبة أن تكون الرقبة سليمة من العيوب المؤثرة على منافعها، لأن معنى تحريرها تمليكها منافعها كما يشترط أن تكون مؤمنة قياساً على كفارة قتل الخطأ.

١١ ـ حرص الإسلام على تحرير الرقيق وتخليصه من الرق، لهذا أوجب تحرير رقبة في كفارة الظهار، كما أوجبها في كفارة القتل، والجماع في نهار رمضان، وخيرّ بينها وبين الإطعام والكسوة في كفارة اليمين.

١٢ ـ وعظ الله ـ عز وجل ـ للمؤمنين بما أنزل من أحكام الظهار والتشديد فيه.

١٣ ـ إثبات اسم الله ـ عز وجل ـ «الخبير» وما يدل عليه من إثبات سعة علمه ـ عز وجل ـ وخبرته واطلاعه على أعمال العباد وفي هذا وعد لمن أحسن، ووعيد لمن أساء.

١٤ ـ من لم يجد الرقبة أو لم يجد قيمتها فعليه صيام شهرين متصلين لا يفصل بينهما إفطار يوم أو أكثر لغير عذر من مرض أو سفر أو أيام يحرم صومها كيومي العيدين وأيام التشريق وأيام الحيض والنفاس عند المرأة، وكذا لو تخللها صيام شهر رمضان فلا يقطع التتابع.

١٥ ـ إذا لم يستطع المظاهر صيام شهرين متتابعين فعليه إطعام ستين مسكيناً لكل مسكين نصف صاع من الطعام.

١٦ ـ عناية الإسلام بالمساكين وحرصه على سد حاجتهم، لهذا أوجب في كفارة الظهار إطعام ستين مسكيناً على من لم يستطع التحرير والصيام.

١٧ ـ يسر الإسلام وسماحة أحكامه حيث تدرج بمن لم يستطع التحرير إلى الصيام، وبمن لم يستطعهما إلى الإطعام.

١٨ ـ أن الله ـ عز وجل ـ شرع أحكام الظهار، وما يترتب عليه من الكفارة وغير ذلك لأجل الإيمان به ورسوله واتباع شرعه والوقوف عند حدوده فعلاً للواجبات واجتنابا للمنهيات.

١٩ ـ جواز عطف وصف الرسول ﷺ على لفظ الجلالة بالواو في باب الإيمان والطاعة بخلاف باب المشيئة.

٢٠ ـ الوعيد والتهديد للكافرين بالعذاب الأليم عذاب حسي للأبدان، وعذاب معنوي للقلوب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٦ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾.

قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ في هذه الآية والتي بعدها وعيد شديد وتهديد أكيد لمن حادّ الله ورسوله وكفر بآياته.

والمحادة: المشاقة والمخالفة والمعاندة، مأخوذة من الحد لأن المشاق والمخالف المعاند يأخذ حدًا غير حد الآخر ويكون بالحد المقابل والمخالف.

فمعنى ﴿يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: يشاقون ويخالفون ويعاندون الله ورسوله، وذلك بمخالفة أمر الله ورسوله، وارتكاب ما نهى الله عنه ورسوله.

وعطف وصف الرسول ﷺ على اسمه عز وجل «الله» بالواو لأن محادة الرسول ﷺ من محادة الله عز وجل، كما أن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

﴿كُبِتُوا۟﴾ خبر «إن» في محل رفع، أي: أهينوا وأذلوا وأخزوا وأغيظوا وأهلكوا.

﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الكاف بمعنى «مثل» وهي صفة لمصدر محذوف، أي: كبتًا مثل كبت الذين من قبلهم، أي: كما أهين وأذل وأهلك الذين من قبلهم من أشباههم من المحادين لله ورسله، وفي هذا توكيد لقوله (كبتوا) وبيان أن هذه سنة الله ـ عز وجل ـ في المحادين له ولرسله، وإشارة إلى كمال قدرته عز وجل على ذلك فالذي أهان وأذل المحادين السابقين هو أقدر على إهانة المحادين اللاحقين من باب أولى، كما قال عز وجل في البعث ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧]، وقال عز وجل: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]،

وهذه الآية كقوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ [سبأ: ٥٤]، وقوله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: ١٠].

فقد أكد الله ـ عز وجل ـ هذا الوعيد والتهديد للمحادين له ولرسوله بمؤكدات ثلاثة الأول: «إن»، والثاني: كون الجملة اسمية ـ وهذان لفظيان، والثالث: قوله ﴿كَمَا كُبِتَ

ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ وهذا مؤكد معنوي.

﴿وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ﴾ توعد الله عز وجل المحادين له ولرسوله ﷺ بالكبت والإهانة والإذلال ثم بين في قوله ﴿وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ﴾ بأنه عز وجل قد أقام الحجة عليهم بإنزال الآيات، فلا حجة ولا عذر لهم في محادة الله ورسوله، والمخالفة والاستكبار والعناد.

والواو في قوله (وقد) حالية، و(قد) للتحقيق أي: والحال أنا قد أنزلنا آيات بينات.

و «آيات» جمع آية، والآية لغة: العلامة والدلالة.

وآيات الله تنقسم إلى قسمين: آيات كونية، وآيات شرعية، والمراد بها هنا الآيات الشرعية وهي القرآن الكريم.

ويؤخذ من قوله (وقد أنزلنا آيات) إثبات علو الله عز وجل على خلقه لأن الإنزال يكون من علو إلى أسفل، فله عز وجل كمال العلو علو الذات، وعلو الصفات، كما يؤخذ من ذلك أن القرآن الكريم منزل من عند الله عز وجل غير مخلوق.

﴿بَيِّنَٰتٖۚ﴾ صفة لـ(آيات) أي: آيات واضحات مفصلات، كما قال عز وجل: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:٩٧].

﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ﴾ سبق الكلام عليه.

وقوله ﴿مُّهِينٞ﴾ صفة لـ«عذاب» ومعنى «مهين» أي: يهينهم ويخزيهم ويذلهم لاستكبارهم عن الإيمان بالله واتباع شرعه والانقياد والخضوع له وهوان أمر الله عليهم، فجوزوا بالعذاب المهين لهوانهم على الله، والجزاء من جنس العمل.

فيجمع للكافرين بين العذاب الحسي والعذاب المعنوي، العذاب الحسي كما قال الله تعالى في الآية السابقة ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهو ما يقاسونه من آلام العذاب في أجسامهم بإدخالهم النار وإصلائهم فيها، كما قال تعالى: ﴿جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [المجادلة:٨].

والعذاب المعنوي القلبي النفسي ما يلاقونه من الهوان والخزي والذل وتحطم المعنويات، كما قال تعالى: ﴿كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾ [الهمزة: ٤-٧].

فهي تحطم كل شيء فيها تحطيمًا حسيًا، وتحطم القلوب تحطيمًا معنويًا، وتطلع عليها فتذلها وتهينها وصدق الله العظيم ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ﴾ [الحج: ١٨].

﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا﴾ «يوم» ظرف زمان منصوب، متعلق بـ «مهين».

أي: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ فكأنه قيل متى ذلك، فقال: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا﴾.

وذلك يوم القيامة يوم يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، كما قال عز وجل ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩].

﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ الإنباء: الإخبار بأمر عظيم، وما أعظم هذا الخبر، الذي يترتب عليه الشقاء الأبدي في نار جهنم ـ نسأل الله السلامة.

و «ما» موصولة أو مصدرية، أي:، فيخبرهم بالذي عملوه، أو بعملهم من خير وشر قولاً كان أو فعلاً.

﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ﴾ أي: عده وكتبه، وضبطه وحفظه عليهم، وأحاط به كماً وكيفا، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩)﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ [النبأ: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

﴿وَنَسُوهُ﴾ الواو: عاطفة، أي: وهم قد نسوا ما عملوه في غمرة اللهو والسهو والغفلة، أشبه بحال من يستدين فما درى حتى أثقلته الديون وعجز عن الوفاء. وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الكهف: ٥٧].

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ قدم المتعلّق وهو قوله (على كل شيء) على المتعلّق به وهو قوله (شهيد) لتأكيد شهادته عز وجل على كل شيء.

أي: والله على كل شيء من الأشياء كبيراً كان أو صغيراً خفياً كان أو جليًا، دقيقًا كان أو جليلاً.

(شهيد) أي: مطلع شاهد رقيب حاضر، لا يغيب عنه شيء، ولا يخفى عليه شيء ولا ينسى شيئاً كما قال عز وجل: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

و«الشهيد» اسم من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل» يدل على سعة اطلاعه

عز وجل ورقابته.

وفي قوله ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ توكيد لقوله قبله ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ أي: فينبئهم بأعمالهم التي أحصاها عليهم لأنه عز وجل على كل شيء شهيد مطلع رقيب.

ثم أكد عز وجل اطلاعه وشهادته على كل شيء بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ الآية.

والاستفهام في قوله ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ للتقرير، أي: قد رأيت، والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له. والرؤية هنا رؤية علمية أي: ألم تعلم بما أوحى الله إليك.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ «ما» موصولة تفيد العموم، أي: أن الله يعلم كل الذي في السموات والذي في الأرض وكرر «ما» في قوله ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ دون أن يقول «يعلم ما في السموات والأرض» لتأكيد شمول علمه عز وجل كل ما في السموات وما في الأرض.

﴿مَا يَكُونُ﴾ «ما» نافية. قرأ أبو جعفر بالتاء على التأنيث (ما تكون) وقرأ الباقون بالياء على التذكير (ما يكون).

﴿مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ النجوى: السر والتناجي بينهم، أي: ما يكون من سر وتناج بين ثلاثة ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾.

ويحتمل أن المراد بقوله (نجوى) نفس المتناجين، فتكون (نجوى) صفة لموصوف محذوف تقديره: أناس نجوى و «إلا» في المواضع الثلاثة للحصر.

﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ﴾ قرأ يعقوب «أكثرُ» بالرفع، وقرأ الباقون بالنصب «أكثرَ» أي: ولا أقل من ذلك العدد ولا أكثر منه ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ بعلمه وإحاطته ﴿أَيْنَ مَا كَانُواْ﴾ أي: في أي مكان كانوا فهو معهم يرى مكانهم ويعلم أحوالهم ويسمع سرهم ونجواهم، كما قال عز وجل: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨].

وأيضا فإن رسله الكرام الكاتبين يكتبون عليهم ذلك، كما قال عز وجل: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

قال ابن كثير[1]: « حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علم الله تعالى، ولا شك في إرادة ذلك، ولكن سمعه أيضا مع علمه محيط بهم وبصره نافذ فيهم، فهو سبحانه مطلع على خلقه، لا يغيب عنه من أمورهم شيء».

وهذا مما يوجب على العباد مراقبة الله ـ عز وجل ـ في السر والعلن؛ لأنه ـ عز وجل ـ معهم بعلمه وسمعه وبصره، يرى مكانهم، ويبصر أفعالهم، ويسمع أقوالهم، والمصيبة أن أهل الضلال والابتداع نصيبهم من هذا: هو القول بالحلول والاتحاد ـ تعالى الله عن ذلك.

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ثم «عاطفة، أي: ثم يخبرهم الله بالذي عملوه، أو بعملهم، من المناجاة بينهم وغير ذلك يوم القيامة، ويحاسبهم ويجازيهم على ذلك.

وسُمي يوم القيامة بهذا الاسم لقيام الناس فيه من قبورهم، كما قال عز وجل: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]، ولقيام الأشهاد فيه من الرسل والمؤمنين وغيرهم، كما قال عز وجل ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]، ولقيام الروح والملائكة فيه صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨] ولقيام الحساب والعدل الحقيقي في ذلك اليوم، كما قال عز وجل: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: إن الله عز وجل محيط علماً بجميع الأشياء كبيرها وصغيرها، دقيقها وجليلها، خفيها وجليها، وقد أكد عز وجل شمول علمه وإحاطته بكل شيء في هذه الآية بثلاثة مؤكدات هي: « إن»، وتقديم المتعلقين، وهو قوله (بكل شيء)، وكون الجملة اسمية.

و«عليم» اسم من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل»، يدل على إثبات العلم التام الواسع لله عز وجل المحيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة: قبل الوجود وبعد الوجود وبعد العدم، يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون قال موسى عليه السلام ـ لما سئل عن القرون الأولى ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

(١) في « تفسيره» ٨/ ٦٧.

أي: لا يعتري علمه جهل سابق، ولا نسيان لاحق، بخلاف علم المخلوق الضعيف.
وقد افتتح الله ـ عز وجل ـ هذه الآية بالعلم بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ ثم ختمها بالعلم بقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ وفي هذا توكيد سعة علم الله عز وجل وشموله وعمومه.

الفوائد والعبر:

١ ـ إذلال الله ـ عز وجل ـ وإهانته للمحادين له ولرسوله المخالفين لشرعه، كما أذل وأهان المكذبين قبلهم، سنة الله في المكذبين ولن تجد لسنة الله تبديلا.
٢ ـ أن المحادة لله محادة لرسوله، كما أن محادة الرسول ﷺ محادة لله ـ عز وجل . وأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.
٣ ـ إقامة الله ـ عز وجل ـ الحجة على الخلق بما أنزل من الآيات الشرعية البينة الواضحة.
٤ ـ إثبات علو الله على خلقه، فله ـ عز وجل ـ علو الذات وعلو الصفات.
٥ ـ إثبات أن القرآن منزل من عند الله ـ عز وجل ـ غير مخلوق.
٦ ـ الوعيد الشديد والتهديد الأكيد للكافرين بالعذاب الذي يهينهم ويذلهم يوم القيامة، عذاب حسي ينصب على الأجساد، وعذاب معنوي ينصب على القلوب.
٧ ـ إثبات المعاد، وبعث الله للخلائق جميعاً يوم القيامة.
٨ ـ إخبار الله ـ عز وجل ـ الكافرين، يوم القيامة بأعمالهم ومحاسبتهم ومجازاتهم عليها.
٩ ـ إحصاء الله ـ عز وجل ـ لجميع أعمال العباد وضبطه لها وإن نسوها.
١٠ ـ إثبات اسم الله ـ عز وجل ـ «الشهيد» وشهادته عز وجل واطلاعه على كل شيء، مما يوجب مراقبته ـ عز وجل.
١١ ـ إثبات علم الله ـ عز وجل ـ التام وإحاطته بما في السموات وما في الأرض، وأنه عز وجل مع الخلق كلهم بعلمه وإحاطته وسمعه وبصره أينما كانوا. وهذه هي المعية العامة.
١٢ ـ إثبات اسم الله ـ عز وجل ـ «العليم» وشمول علمه لكل شيء.
١٣ ـ إثبات الحساب والجزاء على الأعمال والوعد لمن أحسن العمل، والوعيد لمن أساء.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾.

رُويَ عن مجاهد[1] وغيره أن هذه الآية ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى﴾ نزلت في اليهود نُهوا عن النجوى فلم ينتهوا وعادوا إليها.

وقال الواحدي:[2] «قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى﴾ قال ابن عباس ومجاهد: نزلت في اليهود والمنافقين؛ وذلك أنهم كانوا يتناجون فيما بينهم دون المؤمنين وينظرون إلى المؤمنين ويتغامزون بأعينهم، فإذا رأى المؤمنون نجواهم قالوا: ما نراهم إلا قد بلغهم عن أقربائنا وإخواننا الذين خرجوا في السرايا قتل أو موت أو مصيبة أو هزيمة، فيقع ذلك في قلوبهم ويحزنهم، فلا يزالون كذلك، حتى يقدم أصحابهم وأقرباؤهم، فلما طال ذلك وكثر شكوا إلى رسول الله ﷺ فنهاهم أن يتناجوا دون المسلمين فلم ينتهوا عن ذلك وعادوا إلى مناجاتهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية».

قوله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى﴾ الاستفهام في قوله (ألم تر) للتقرير، بمعنى: قد رأيت، وفيه معنى التعجب. والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

والمعنى: ألم تشاهد وتنظر إلى الذين نهوا عن النجوى. أي: إلى الذين نهاهم الله ورسوله عن النجوى، وتعلم حالهم، من اليهود والمنافقين وغيرهم.

وقال: «نهوا» ولم يقل: «نهاهم الله، أو نهاهم الله ورسوله» لتعظيم هذا النهي فكأن كلاً نهاهم عن ذلك.

و«النجوى» هي المسارَّة بين اثنين فأكثر، وهي مصدر بمنزلة المناجاة، قال تعالى ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾ [النساء: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ [المجادلة: ٩].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٦٩-٤٧٠.

(٢) في «أسباب النزول» ص٢٧٥.

وقال ﷺ: «إذا كانوا ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث»[1].

أي: لا يتسار اثنان دون الثالث.

وتطلق النجوى على جماعة المتناجين، فتكون مصدرا بمعنى الجمع، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ﴾ [الإسراء: ٤٧] أي: وإذ هم جماعة نجوى، أو متناجون، وكقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧].

أي: ما يكون من متناجين ثلاثة إلا وهو رابعهم.

﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي: ثم يعودون ويرجعون للذي نهوا عنه وهو النجوى.

﴿وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ الواو: عاطفة قرأ حمزة (وينتجون) بنون ساكنة بعد الياء وضم الجيم من غير ألف، وقرأ الباقون بتاء ونون مفتوحتين وبعدهما ألف وفتح الجيم (ويتناجون). أي: ويتحدثون إما سرًا فيما بينهم، وإما جهراً، حسب الأحوال والمناسبات والظروف.

(بالإثم) أي: بالذنب، وما يوجب تأثمهم بأنفسهم.

(والعدوان) أي: والعدوان على الآخرين والإضرار بهم والتعدي عليهم.

(ومعصية الرسول) أي: ومخالفة الرسول ﷺ في أمره ونهيه. و «ال» في الرسول للعهد الذهني، أي الرسول المعهود في الأذهان محمد ﷺ، ومعصية الرسول ﷺ من الإثم والعدوان، كما أن الإثم والعدوان من معصية الرسول ﷺ وفي هذا التفصيل بيان أنهم أضروا بأنفسهم حيث أوقعوها في الإثم، وأضروا بالآخرين واعتدوا عليهم، وعصوا الرسول ﷺ وخالفوا أمره في ذلك كله، ولم ينتهوا عما نهوا عنه بل أصروا على ذلك.

﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾.

عن عائشة رضي الله عنها ـ قالت: دخل على رسول الله ﷺ ـ يهود، فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم فقالت عائشة: وعليكم السام. قالت: فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة، إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش» قلت: الا تسمعهم يقولون: السام عليك؟ فقال رسول الله ﷺ: «الا تريني قلت: وعليكم»؟ فأنزل الله: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾. وفي رواية أنها قالت: عليكم السام والذام واللعنة، وأن رسول الله ﷺ

---

(١) سيأتي تخريجه.

قال: «إنه يستجاب لنا فيهم، ولا يستجاب لهم فينا»[1].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ سام عليك، ثم يقولون في أنفسهم: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾»[2].

فاليهود عليهم غضب الله إذا جاؤوا إلى الرسول ﷺ حيّوه بما لم يحيه به الله. فبدل أن يحيوه بتحية الإسلام: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يحيونه بقولهم: السام عليك، أو السام عليكم. ويقصدون بالسام الموت، فهم يدعون عليه ﷺ بالموت. بدل أن يدعوا له بالبقاء والسلامة الذي هو المعنى الحقيقي للتحية في الإسلام.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ «أن المنافقين كانوا يقولون لرسول الله ﷺ إذا حيوه: سام عليك فنزلت» يعني الآية[3].

﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

أي: معتقدين هذا القول في قلوبهم، وداخل أنفسهم.

﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾

«لولا» حرف تحضيض، والباء في قوله (بما) للسببية و «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: بالذي نقول، أو بقولنا

أي: لو كان هذا نبياً حقاً (لعذبنا الله) أي: لعاجلنا الله بالعذاب والعقوبة في الدنيا (بما نقول) أي: بسبب الذي نقوله له في الباطن من التحية بما لم يحيه به الله، بقولنا: السام عليك، بدل السلام عليكم، لأن الله يعلم ما نسره، فرد الله عليهم بقوله:

﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

وفي فحوى هذا الرد من الله عز وجل عليهم إرغام أنوفهم من جهتين:

---

(١) اخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٣٥، وفي الأدب ٦٠٢٤، ومسلم في السلام- النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم ٢١٦٥، والترمذي في الاستئذان ٢٧٠١، وابن ماجه في الأدب ٣٦٩٨، وأحمد ٦/ ٣٧، ٢٢٩، والواحدي في «أسباب النزول» ص ٢٧٥.

(٢) اخرجه أحمد ٢/ ١٧٠. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: «إسناده جيد» وقال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٦٩: «إسناد حسن ولم يخرجوه».

(٣) اخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٣.

الأولى: الإشارة إلى حقيقة نبوته ﷺ، لأن الله ـ عز وجل ـ تولى الدفاع عنه.

والثانية: الوعيد والتهديد لهم، وأن الله يمهل ولا يهمل، فالعذاب ينتظرهم يوم القيامة، وهو أكبر وأشد وأبقى من عذاب الدنيا.

ومعنى (حسبهم جهنم) تكفيهم جهنم، فهي مردهم ومآلهم وفيها أعظم العذاب لهم وأشده. و «جهنم» اسم من أسماء النار سميت به لجهمتها وظلمتها وبُعد قعرها وشدة حرها أعاذنا الله وجميع المسلمين منها.

(يصلونها) أي: يغمرون فيها ويقاسون حرها (فبئس المصير) «بئس» بمعنى: ساء وقبح، و «المصير» المرجع والمآل والمنقلب. والمخصوص بالذم محذوف، والتقدير: فبئس المصير النار.

والمعنى: تكفيهم جهنم عذاباً يدخلون فيها، ويغمرون في دركاتها ويقاسون حرها، فبئس المرجع والمآل النار.

ثم حذر الله ـ عز وجل ـ المؤمنين ونهاهم عن مسلك اليهود والمنافقين ومن شابههم فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَـٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَـٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٩﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ سبق الكلام عليه، وقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعت الله يقول (يا أيها الذين آمنوا) فارعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه»[١].

﴿إِذَا تَنَـٰجَيۡتُمۡ﴾ أي: إذا حصل بينكم مناجاة أو أردتم التناجي بينكم سراً، أو جهراً.

﴿فَلَا تَتَنَـٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: فلا تتناجوا بالإثم وهو الذنب الذي يؤثمكم بأنفسكم و (العدوان) على غيركم (ومعصية الرسول) أي: ومخالفة الرسول ﷺ في أمره ونهيه. قال ابن كثير[٢] : «كما يتناجى به الجهلة من كفرة أهل الكتاب، ومن مالأهم على ضلالهم من المنافقين».

﴿وَتَنَـٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ أي: وتحدثوا فيما بينكم سواء كان ذلك سراً أو جهراً بالبر والتقوى.

و «البر» في الأصل كلمة جامعة لكل خصال الخير الظاهرة والباطنة قال تعالى: ﴿۞لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾

---

(١) سبق تخريجه في مطلع سورة الحجرات.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٦٩.

الآية [البقرة: ١٧٧].

وقال ﷺ « البر حُسن الخلق»[١]، « البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب»[٢].

والتقوى أن يجعل الإنسان بينه وبين عذاب الله وقاية بفعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه.

والمراد بالبر في هذه الآية فعل ما أمر الله به من الواجبات والمستحبات من أنواع الطاعات، والمراد بالتقوى: ترك واجتناب ما نهى الله عنه من أنواع المعاصي.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «البر ما أُمرتَ به، والتقوى: ما نُهيتَ عنه»[٣].

وذلك لأن البر والتقوى من الكلمات التي إذا اجتمعت افترقت وإذا افترقت اجتمعت كالإسلام والإيمان، والفقير والمسكين، ونحو ذلك، فإذا جاءت كلمة « البر» وحدها حملت على فعل المأمورات وترك المنهيات.

وكذلك إذا جاءت كلمة « التقوى» وحدها حملت على فعل المأمورات وترك المنهيات كما في قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ [الحشر: ٨].

ويؤيد التداخل بين البر والتقوى قول الله عز وجل في سورة البقرة ﴿وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾ [الآية: ١٨٩].

فنهى الله ـ عز وجل ـ المؤمنين عن التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وحرم ذلك عليهم، وأمرهم بالتناجي بالبر والتقوى، وما ينفعهم في دينهم ودنياهم.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ هذا أشبه بعطف العام على الخاص، أي: واتقوا الله في جميع أموركم من المناجاة وغيرها بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

﴿ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ أي: الذي إليه حشركم وجمعكم، فيحاسبكم على أعمالكم وأقوالكم ويجازيكم عليها.

وفي الأمر بتقوى الله ـ عز وجل ـ مع قرن ذلك بتذكير العباد بأنهم إليه يحشرون ما يوجب المسارعة إلى تقوى الله ـ عز وجل ـ حيث إليه المرد والحشر والمآل، وهو للجميع بالمرصاد.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة ٢٥٥٣، والترمذي في الزهد ٢٣٨٩- من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ١٩٤، والدارمي في الأضاحي ٢٥٣٣- من حديث أبي ثعلبة الخشني- رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان»٨/ ٥٢-٥٣. وانظر « جامع العلوم والحكم» صـ ٣٠٦.

ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾

نهى الله عز وجل في الآية السابقة المؤمنين عن التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، وأمرهم بالتناجي بالبر والتقوى، ثم بين عز وجل أن النجوى المنهي عنها من الشيطان ليحزن الذين آمنوا، وبيَّن أن ذلك ليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله عز وجل، وأمرهم بالتوكل عليه سبحانه.

قوله ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ﴾ «إنما» أداة حصر، وهي كافة ومكفوفة والمراد بـ (النجوى) المسارة.

﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: من عمله وتسويله ووساوسه وهمزاته وتزيينه ذلك للمتناجين من المنافقين وغيرهم.

﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يحزن الذين آمنوا، أو لكي يحزن الذين آمنوا، أي: يصيبهم بالحزن ويسوءهم حيث يتوهم من يرى المتناجين أنهم يقصدونه بسوء، ففيها أذية للآخرين لحزنهم بذلك، وحملهم على سوء الظن بالمتناجين، ووضع المتناجين أنفسهم موضع الريبة والاتهام.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه، فإن ذلك يحزنه» وفي رواية « دون صاحبهما، فإن ذلك يحزنه»(١).

﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا﴾ أي: وليس بضارهم التناجي شيئاً، و«شيئاً» نكرة في سياق النفي فتعم نفي كل شيء كبيراً كان أو صغيراً، كثيراً كان أو قليلاً.

﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ « إلا» أداة استثناء.

و«إذن الله» ينقسم إلى قسمين: إذن كوني، وهو المراد هنا ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٦]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥].

وإذن شرعي، ومنه قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ [الحج: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

أي: وليس بضارهم التناجي بين المنافقين وغيرهم (شيئاً) مهما كان إلا بإذن الله -

---

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان ٦٢٨٨، ومسلم في السلام ٢١٨٣، وأبو داود في الأدب ٤٨٥١، وابن ماجه في الأدب ٣٧٧٦

عز وجل ـ وتقديره الكوني، كما قال عز وجل: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١]، وقال عز وجل: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

وهذا مما يقوي قلب المؤمن وثقته بربه ـ عز وجل ـ، ولهذا قال بعده:

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

والتوكل على الله: هو صدق الاعتماد على الله عز وجل في جلب النفع ودفع الضر ـ مع تمام الثقة بالله، وسكون القلب إليه وحده دون غيره.

وقدم المتعلق وهو قوله (على الله) لبيان أن التوكل والاعتماد يجب أن يكون على الله وحده دون سواه.

فتأمل أخي الكريم سمو مبادئ الإسلام ورفعتها واحذر من مسلك النجوى والمسارة في الكلام أمام الآخرين، واعلم أنه من عمل الشيطان لما يسببه ذلك من إدخال الحزن في قلوبهم، ووقوعهم في إساءة الظن فيك، ووضعك نفسك موضع الشك والريبة والاتهام، وفي الأثر «رحم الله امرأ كف الغيبة عن نفسه»، أي: فلم يضعها موضع الاتهام، فما أحلى وأحرى أن يبتعد المرء عن كل ما من شأنه أن يجعله موضع الريبة والشك، وهذا من حق نفسه وواجبها عليه، وقد قيل:

يهون علينا أن تصاب جسومنا ... وتسلم أعراض لنا وعقول

وإن رأيت أخي الكريم من يسلك هذا المسلك فذكره بأن هذا من عمل الشيطان، ولا يحزنك ذلك في نفسك، واعلم أنه لن يصيبك إلا ما كتب الله عليك وفوّض أمرك إلى الله واعتمد عليه يكفك من كل سوء.

الفوائد والعبر:

١ ـ النهي عن النجوى والمسارة بين اثنين أو بين فريقين دون الثالث مما يجعل الثالث يسيء الظن بالمتناجين ويظن أنه المقصود.

٢ ـ التعجب من حال الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون إليها من اليهود والمنافقين وغيرهم.

٣ ـ تناجي اليهود والمنافقين وغيرهم من الكفار بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﷺ كيداً منهم للرسول ﷺ ولدعوته وللمؤمنين.

٤ ـ مخادعة المنافقين واليهود ـ لعنهم الله ـ للرسول ﷺ وتحيتهم له بما لم يحيه به الله، بل بالدعاء عليه بالموت.

٥ ـ انخداع اليهود ـ المغضوب عليهم والمنافقين ـ بعدم معاجلتهم بالعقوبة بسبب تحيتهم للرسول ﷺ بالدعاء عليه في الباطن.

٦ ـ دفاع الله ـ عز وجل ـ عن نبيه ﷺ، والوعيد الشديد لليهود والمنافقين بأن في جهنم كفاية لهم في العذاب وبئس المصير لهم، وأن الله عز وجل يمهل ولا يهمل.

٧ ـ تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام.

٨ ـ نداء المؤمنين بوصف الإيمان تكريماً وتشريفاً لهم وحضاً على الاتصاف بهذا الوصف وأن امتثال ما بعده يعد من مقتضيات الإيمان وعدم امتثاله يعد نقصاً في الإيمان.

٩ ـ نهي المؤمنين عن التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، وأمرهم بالتناجي بالبر والتقوى.

١٠ ـ وجوب تقوى الله ـ عز وجل ـ والحذر من التشبه باليهود والمنافقين.

١١ ـ إثبات المعاد وحشر العباد إلى الله والحساب والجزاء.

١٢ ـ التحذير من النجوى وأنها من عمل الشيطان وتزيينه لأجل أن يحزن الذين آمنوا.

١٣ ـ ينبغي للمؤمنين عدم الاكتراث بالمتناجين من المنافقين واليهود وغيرهم فإنه لن يصيبهم إلا ما أذن الله به كونا وقدره عليهم.

١٤ ـ وجوب الاعتماد على الله والثقة به والتوكل عليه، وأن ذلك من شرط الإيمان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

رُوي عن قتادة وابن زيد ومقاتل وغيرهم أن الصحابة رضي الله عنهم - إذا كانوا عند رسول الله ﷺ ضنوا بمجالسهم عنده ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأمرهم أن يفسح بعضهم لبعض[1].

قوله ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾.

«إذا» ظرفية شرطية غير عاملة «قيل» فعل الشرط (فافسحوا) جواب الشرط، وقرن بالفاء لأنه جملة طلبية.

(تفسحوا) أي: توسعوا.

(في المجالس) قرأ عاصم (في المجالس) على الجمع وقرأ الباقون (في المجلس) على الإفراد.

(فافسحوا) أي: فتوسعوا.

والمعنى: إذا قيل لكم توسعوا في المجالس فتوسعوا فيها ليجد القادم مكاناً للجلوس، وهو شامل لمجلس الرسول ﷺ وغيره من مجالس العلم والقتال وغيرها.

وهو أدب رفيع من آداب الإسلام يؤلف بين القلوب ويجلب المحبة ويحقق معنى الأخوة.

ولك أن تتصور مدى غبطة من فسح له إخوانه للجلوس بينهم ومدى محبته لهم يود أن يفتح لهم صدره. وفي المقابل لك أن تتصور من جاء ليجلس فقوبل بالأنانية وحب الذات ولم يفسح له، ما مدى كراهته لهم.

وفي قوله (إذا قيل لكم) بهذه الصيغة دلالة على أنه ينبغي امتثال ما جاء في الآية من الأمر بالتفسح أياً كان القائل، فلا يلزم أن يكون القائل ذا مكانة، بل يجب التفسح لكل من طلب ذلك، ولكل من يريد الجلوس، ما أمكن ذلك.

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه فيجلس فيه، ولكن تفسحوا وتوسعوا»[2].

---

(١) أخرجه عن قتادة وابن زيد الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٧٧-٤٧٨، وأخرجه عن مقاتل ابن أبي حاتم مطولاً في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٣ - ٣٣٤٤.

(٢) أخرجه مسلم في السلام - تحريم إقامة المسلم من موضعه المباح الذي سبق إليه ٢١٧٧.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه، ثم يجلس فيه، ولكن افسحوا يفسح الله لكم»(١).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقيمن أحدكم أخاه يوم الجمعة، ولكن ليقل: افسحوا»(٢).

وعن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما»(٣).

﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: يوسع الله لكم، وهذا يدل على أن الجزاء من جنس العمل، كما قال ـ عز وجل ـ ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠] ولم يقل: «يفسح الله لكم في المجالس» ليشمل هذا الوعد من الله ـ عز وجل ـ الفسحة والتوسعة في كل شيء من أمور دينهم ودنياهم وآخرتهم، في أعمالهم وأعمارهم وأولادهم وأهليهم وأرزاقهم وأموالهم وصدورهم، وفي منازلهم في الجنة؛ وفي كل شيء، فلله الفضل والمنة ـ يعطي الجزيل على القليل.

﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾ قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر وحفص عن عاصم بضم الشين في الموضعين. وقرأ الباقون بكسرها.

والنشوز لغة الارتفاع، ومنه يقال للأرض المرتفعة: نشز، ونشاز، ومنه يقال للمرأة المرتفعة على زوجها المتعالية عليه: «ناشز» وكذلك يقال للرجل إذا تعالى وارتفع على زوجته، قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ [النساء: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ [النساء: ١٢٨].

والمعنى: وإذا قيل ارتفعوا وانهضوا من مجالسكم فارتفعوا وانهضوا منها سواء كان النهوض لقتال عدو، أو لصلاة، أو لأي عمل خيري ، أو لانتهاء المجلس، أو ليجلس من جاءت نوبته في المجلس إذ قد يكون المجلس صغيراً، والمصلحة تستدعي جلوس القادمين ونهوض الجالسين وارتفاعهم فيكون الجلوس فيه بالتناوب ليحصل كل على نوبته ويأخذ حاجته، بل إن هذا التناوب ينبغي أن يكون في المسجد إذا كان صغيراً لا يتسع أن يصلي فيه

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٣٣٨، ٤٣٨، ٥٢٣.
(٢) أخرجه الشافعي في «الأم» ١/ ١٨١، ، وفي مسنده انظر: مسند الشافعي على الأم ٦/ ١٠٣.
(٣) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٨٤٥، والترمذي في الأدب ٢٧٥٢.

الناس جماعة واحدة، بحيث يصلي فيه جماعة، ثم يخرجون ثم يصلي من بعدهم وهكذا.

وليس معنى ذلك أن يقام الإنسان من مجلسه ويجلس فيه، فهذا لا يجوز قال ﷺ: «لا يقيمن الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه»(١). بل قال ﷺ: «إذا قام أحدكم من المجلس ثم رجع إليه فهو أحق به»(٢).

وكان ابن عمر رضي الله عنهما لا يجلس في المكان الذي يقوم له صاحبه عنه(٣).

قال ابن كثير(٤): «وفي الحديث المروي في السنن: أن رسول الله ﷺ ـ كان يجلس حيث انتهى به المجلس. ولكن حيث يجلس يكون صدر ذلك المجلس، وكان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ يجلسون منه على مراتبهم، فالصديق يجلسه عن يمينه، وعمر عن يساره، وبين يديه ـ غالباً ـ عثمان وعلي، لأنهما كانا ممن يكتب الوحي، وكان يأمرهم بذلك. كما في حديث أبي مسعود ـ رضي الله عنه أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يقول: «ليلني منكم أولو الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم ـ ثلاثاً، وإياكم وهيشات الأسواق»(٥).

وما ذاك إلا ليعقلوا عنه ما يقوله ـ صلوات الله وسلامه عليه. وإذا كان هذا أمره لهم في الصلاة أن يليه العقلاء ثم العلماء، فبطريق الأولى أن يكون ذلك في غير الصلاة».

أما القيام للقادم فقد اختلف فيه أهل العلم، فمنهم من أجازه محتجاً بقوله ﷺ للمسلمين لما أقبل سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه في قصة حكمه في بني قريظة: «قوموا إلى سيدكم»(٦).

ومن أهل العلم من قال لا يجوز ذلك لقوله ﷺ: «من احب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار»(٧).

ومن أهل العلم من فصَّل في ذلك فقال: يجوز عند القدوم من سفر، وللحاكم في محل ولايته، كما دلت عليه قصة سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ فإنه لما استقدمه النبي ﷺ حاكماً في بني قريظة، فرآه مقبلاً أمر المسلمين بالقيام له، ليكون أنفذ لحكمه ـ والله أعلم.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في السلام ـ إذا قام من مجلسه ثم عاد ٢١٧٩ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٣) انظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٧٣.

(٤) في «تفسيره» ٨/ ٧٢ ـ ٧٣.

(٥) أخرجه مسلم في الصلاة ـ تسوية الصفوف وإقامتها ٤٣٢، وأبو داود في الصلاة ٦٧٤، والترمذي في الصلاة ٢٢٨.

(٦) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٣٠٤٣، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٦٨، وأبو داود في الأدب ٥٢١٥ ـ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٧) أخرجه أبو داود في الأدب ٥٢٢٩، والترمذي في الأدب ٢٧٥٥ ـ من حديث معاوية رضي الله عنه.

قالوا: وأما اتخاذ ذلك ديدناً فإنه من شعار العجم. وقد جاء في السنن: «أنه لم يكن شخص أحب إليهم - يعني الصحابة - رضي الله عنهم - من رسول الله ﷺ - وكانوا إذا جاء لا يقومون له، لما يعلمون من كراهيته لذلك»[١].

ويظهر - والله أعلم - أن المنع من ذلك إذا اتخذ ذلك عادة على سبيل التعظيم - أما إذا كان القيام لأجل الترحيب بالقادم والسلام عليه ومصافحته ومعانقته، فلا إشكال في هذا؛ لأن هذا مما يدخل المحبة والسرور والألفة بين المسلمين، وهذا أمر مطلوب شرعاً، إذ لا يجوز البرود والتبلد حينما يلتقي المسلمون بعضهم ببعض، بل ينبغي إشعار كل منهما الآخر بحرارة اللقاء وبخالص الود والمحبة، وقطع الطريق أمام منافذ الشيطان الذي يسعى جاهداً لبث أسباب الفرقة والجفاء بين المسلمين، ولهذا شرع الإسلام السلام تحية الإسلام، وشرع المصافحة، وأمر بالهدية، والإحسان ونحو ذلك كل ذلك لترسيخ مبادئ الأخوة الإيمانية بين المسلمين.

﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾. كسرت العين من الفعل «يرفع» لالتقاء الساكنين.

أي: يرفع الله ويعلي مكانة الذين آمنوا منكم وأهل العلم درجات، أي: منازل ومراتب حسب قوة إيمانهم، وحسب علمهم وعملهم بما علموا.

والمناسبة واضحة بين مكانة أهل الإيمان والعلم، وبين الأمر بالتفسح في المجالس والارتفاع منها وآداب المجالس من وجوه عدة:

الأول: الإشارة والتنبيه إلى أن من أهم المجالس إن لم يكن أهمها مجالس الإيمان والعلم، كما كان الصحابة - رضي الله عنهم - يقول أحدهم للآخر: «اجلس بنا نؤمن ساعة».

وهي رياض الجنة، كما قال - ﷺ -: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا» قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «حِلَق الذكر»[٢].

وقال ﷺ: «ما جلس قوم قط في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم إلا أنزل الله عليهم السكينة، وحفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده»[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي في الأدب ٢٧٥٤ - من حديث أنس - رضي الله عنه - وقال: «حديث حسن صحيح».
(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٠٩ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٦٩٩، وأبو داود وفي الصلاة ١٤٥٥، والترمذي في القراءات ٢٩٤٥، وابن ماجه في المقدمة ٢٢٥ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومر ثلاثة نفر بمجلس النبي ﷺ فوجد أحدهم فرجة فجلس، وجلس أحدهم خلف المجلس، وأعرض الثالث: فقال النبي ﷺ: «ألا أخبركم بخبر النفر الثلاثة، أما أحدهم فأوى فآواه الله، وأما الثاني فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه»[1].

الوجه الثاني من أوجه المناسبة بين أول الآية وآخرها أن التادب بآداب المجالس من التفسح والارتفاع عند الحاجة، وغير ذلك إنما هو من صفات أهل الإيمان والعلم الذين وفقهم الله للعلم النافع والعمل الصالح، والذين يعلمون فضل هذه الآداب، وأنهم يؤجرون عليها.

الوجه الثالث: الإشارة إلى تقديم أهل الإيمان والعلم في المجالس لفضلهم ومكانتهم بحيث تطيب أنفس الجالسين بالتفسح لهم وتقديمهم لإيمانهم وعلمهم وقد قال ﷺ: «أنزلوا الناس منازلهم»[2].

لكن لا ينبغي أن يقام من سبق من مجلسه ليجلس فيه غيره.

قوله: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ الخطاب للمؤمنين، أي: يرفع الله الذين صدّقوا بقلوبهم وألسنتهم وانقادوا بجوارحهم ظاهرًا وباطنًا.

والمعنى: أن الله عز وجل يعلي منازلهم، ويرفع قدرهم في الدنيا بين الناس، وفي الآخرة بالجنة، فهم أكرم الناس وأعزهم عند الله عز وجل ـ وعند خلقه، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك:٢٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ [الرعد:١٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وفي قوله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ دلالة على أن المؤمن في حاجة دائماً وفي كل حال إلى

---

(١) أخرجه البخاري في العلم ٦٦، ومسلم في السلام ٢١٧٦، والترمذي في الاستئذان ٢٧٢٤ ـ من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٨٤٢ – من حديث عائشة رضي الله عنها

الإيمان؛ توفيقاً من الله له، وزيادة منه، وثباتاً عليه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦]، وكما في قول المؤمنين المصلين: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ معطوف على قوله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: ويرفع الله الذين جمعوا بين الإيمان والعلم، فيعلي منازلهم، ويرفع قدرهم، ويعلي شأنهم في الدنيا بين الناس، وفي الآخرة بالجنات و﴿دَرَجَٰتٍ﴾ أي: منازل ومراتب، ونكرت للتعظيم والتفخيم، أي: منازل ومراتب عظيمة لا يقدر قدرها ولا يعلمها إلا الله عز وجل الذي منحها لهم.

قال ابن القيم [(١)]: «واللام في العلم ليست للاستغراق، وإنما هي للعهد، أي: العلم الذي بعث الله به نبيه ﷺ، وإذا كانوا قد أوتوا هذا العلم كان اتباعهم واجباً».

عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ أنه قال: «تفسير هذه الآية: يرفع الله الذين آمنوا منكم وأوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم درجات» [(٢)].

فيرفع الله عز وجل الذين آمنوا منازل ومراتب عالية، ويرفع الذين جمعوا بين الإيمان والعلم منازل ومراتب أعلى من ذلك قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقال ﷺ: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله له به طريقاً من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورّثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر» [(٣)].

وعن أبي الطفيل عامر بن واثلة: أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بن الخطاب بعسفان، وكان عمر استعمله على مكة، فقال له عمر: من استخلفت على أهل الوادي؟

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٢٠.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٤.
(٣) أخرجه أبو داود في العلم ٣٦٤١، والترمذي في العلم ٢٦٨٢، وابن ماجه في المقدمة ٢٢٣- من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

قال: استخلفت عليهم ابن أبزى. قال: وما ابن أبزى؟ فقال: رجل من موالينا، فقال عمر: استخلفت عليهم مولى؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنه قارئ لكتاب الله، عالم بالفرائض، قاض، فقال عمر رضي الله عنه: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين»[١].

وعن مطرف بن عبد الله قال: « إنك لتلقى الرجلين: أحدهما أكثر صوماً وصلاة وصدقة، والآخر أفضل منه بوناً بعيداً. قيل له: وكيف ذاك؟ فقال: هو أشدهما ورعاً لله عن محارمه»[٢].

قال علي - رضي الله عنه:

ما الفضل إلا لأهل العلم إنهُمُ ... على الهدى لمن استهدى أدلاء
فعش بعلم ولا تطلب به بدلاً ... فالناس موتى وأهل العلم أحياء

وقال الآخر:

العلم يرفع بيتاً لا عماد له ... والجهل يهدم بيت العز والشرف

وقال الشافعي[٣] رحمه الله:

تعلم فليس المرء يولد عالماً ... وليس أخو علم كمن هو جاهل
وإن كبير القوم لاعلم عنده ... صغير إذا التفت عليه الجحافل
وإن صغير القوم إن كان عالماً ... كبير إذا ردت إليه المحافل

وقال الشافعي أيضاً[٤]:

رأيت العلم صاحبه كريم ... ولو ولدته آباء لئام
وليس يزال يرفعه إلى أن ... يُعظّم أمره القوم الكرام
ويتّبعونه في كل حال ... كراعي الضأن تتبعه السَّوام
فلولا العلم ما سعدت رجال ... ولا عرف الحلال ولا الحرام

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين - فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه ٨١٧، وابن ماجه في المقدمة ٢١٨، وأحمد ١/ ٣٥.
(٢) أخرجه أحمد في الزهد ص ٢٤٠.
(٣) انظر «ديوانه» ص٩٩.
(٤) انظر «ديوانه» ص١٠٥.

وقال أيضاً (١) :

ومن لم يذق ذل التعلم ساعة	تجرع ذل الجهل طول حياته
ومن فاته التعليم وقت شبابه	فكبر عليه أربعاً لو فاته
وذات الفتى والله بالعلم والتقى	إذا لم يكونا لا اعتبار لذاته

قال ابن تيمية(٢) في كلامه على قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ﴾: «خص سبحانه رفعه بالأقدار والدرجات الذين أوتوا العلم والإيمان، وهم الذين استشهد الله بهم في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ﴾ [آل عمران: ١٨].

واخبر أنهم هم الذين يرون ما أنزل إلى الرسول هو الحق بقوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦].

فدل على أن تعلم الحجة والقيام بها يرفع درجات من يرفعها، كما قال تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [يوسف: ٧٦] قال زيد بن أسلم: «بالعلم».

قال ابن تيمية: فرفع الدرجات والأقدار على قدر معاملة القلوب بالعلم والإيمان، فكم ممن يختم القرآن في اليوم مرة أو مرتين، وآخر لا يفطر، وغيرهم أقل عبادة منهم، وارفع قدراً في قلوب الأمة، فهذا كرز بن وبرة، وكهمس، وابن طارق، يختمون القرآن في الشهر تسعين مرة، وحال ابن المسيب وابن سيرين والحسن وغيرهم في القلوب أرفع، وكذلك ترى كثيراً ممن يلبس الصوف ويهجر الشهوات، ويتقشف، وغيره ممن لا يدانيه في ذلك من أهل العلم والإيمان أعظم في القلوب، وأحلى عند النفوس.. وإنما نالوا ذلك بقوة يقينهم بما جاء به الرسول ﷺ، وكمال تصديقه في قلوبهم ووده ومحبته، وأن يكون الدين كله لله، فإن أرفع درجات القلوب فرحها التام بما جاء به الرسول ﷺ وابتهاجها وسرورها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨] ففضل الله ورحمته القرآن والإيمان، من فرح به فرح بأعظم مفروح به، ومن فرح بغيره فقد ظلم

---

(١) انظر «ديوانه» ص٣٨.

(٢) انظر: «دقائق التفسير» ٥/ ٥-٧.

نفسه، ووضع الفرح في غير موضعه، فإذا استقر في القلب، وتمكن فيه العلم بكفايته لعبده ورحمته له وحلمه عنده، وبره به، وإحسانه إليه على الدوام، أوجب له الفرح والسرور أعظم من فرح كل محب بكل محبوب سواه، فلا يزال ـ مترقياً في درجات العلو والارتفاع بحسب رقيه في هذه المعارف ـ هذا في باب معرفة الأسماء والصفات.

وأما في «باب فهم القرآن» فهو دائم التفكير في معانيه، والتدبر لألفاظه، واستغنائه بمعاني القرآن وحكمه عن غيره من كلام الناس، وإذا سمع شيئاً من كلام الناس وعلومهم عرضه على القرآن، فإن شهد له بالتزكية قبله وإلا رده، وإن لم يشهد له بقبول ولا رد وقفه، وهمته عاكفة على مراد ربه من كلامه، ولا يجعل همته فيما حجب به أكثر الناس من العلوم عن حقائق القرآن، إما بالوسوسة في خروج حروفه، وترقيقها، وتفخيمها، وإمالتها، والنطق بالمد الطويل، والقصير، والمتوسط، وغير ذلك فإن هذا حائل للقلوب قاطع لها عن فهم مراد الرب من كلامه، وكذلك شغل بـ « أأنذرتهم» وضم الميم من « عليهم» ووصلها بالواو، وكسر الهاء أو ضمها ونحو ذلك، وكذلك مراعاة النغم، وتحسين الصوت. وكذلك تتبع وجوه الإعراب، واستخراج التأويلات المستكرهة التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالبيان.

وكذلك صرف الذهن إلى حكاية أقوال الناس، ونتائج أفكارهم. وكذلك تأويل القرآن على قول من قلد دينه أو مذهبه، فهو يتعسف بكل طريق، حتى يجعل القرآن تبعاً لمذهبه وتقوية لقول إمامه، وكل هؤلاء محجوبون بما لديهم عن فهم مراد الله من كلامه في كثير من ذلك أو أكثره، وكذلك يظن من لم يقدر القرآن حق قدره أنه غير كاف في معرفة التوحيد والأسماء والصفات، وما يجب لله وينزه عنه، بل الكافي في ذلك عقول الحيارى والمتهوكين الذين كل منهم قد خالف صريح القرآن مخالفة ظاهرة، وهؤلاء أغلظ الناس حجاباً عن فهم كتاب الله تعالى».

قوله ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ أي: والله ـ عز وجل ـ بعملكم، أو بالذي تعملونه ذو خبرة تامة واطلاع وعلم، لا تخفى عليه خافية وسيجازي كلاً بعمله.

الفوائد والعبر:

١- تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداؤهم بوصف الإيمان لتكريمهم وتشريفهم والحث على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما

ذكر بعد هذا النداء من مقتضيات الإيمان وعدم امتثاله نقص في الإيمان.

٢- الحث على التفسح والتوسع في المجالس، ويتأكد أو يجب إذا طلب ذلك من الجالسين.

٣- أن الجزاء من جنس العمل، فمن تفسحوا وتوسعوا ليجلس إخوانهم القادمون فسح الله لهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم، في أعمالهم وأعمارهم وأرزاقهم وصدروهم ومنازلهم في الجنة وغير ذلك.

٤- الحث على الارتفاع والقيام من المجالس إذا طلب ذلك، ويتأكد ذلك أو يجب حسب الحاجة.

٥- سمو آداب الإسلام وحرصه على ما يؤلف القلوب ويحفظها من الضغائن والأنانية.

٦- علو منازل المؤمنين ورفعة درجاتهم وقدرهم في الدنيا والآخرة.

٧- فضل أهل العلم وعلو مراتبهم وقدرهم على غيرهم في الدنيا والآخرة.

٨- إثبات اسم الله - عز وجل - «الخبير» وخبرته واطلاعه وعلمه بأعمال العباد وغيرها، وفيه وعد للمحسنين ووعيد للمسيئين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣)﴾.

توقيراً واحتراماً وتعظيماً للرسول ﷺ وتخفيفا عليه، وحفاظاً على وقته وتوفيراً له الذي هو للأمة كلها أمر الله عز وجل بتقديم الصدقة بين يدي مناجاته ـ ﷺ ـ

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾: «وذلك أن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيه عليه السلام..»[1].

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ﴾.

أي: إذا أراد أحدكم أن يناجي الرسول ﷺ، أي: يسارَّه فيما بينه وبينه.

﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ أي: فادفعوا أمام وقبيل نجواكم صدقة تتصدقون بها على المساكين والفقراء، فمعنى بين يدي الشيء: أمامه وقُبيله وقدامه.

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ الإشارة للمصدر المأخوذ من قوله (فقدموا) أي: تقديم الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ (خير لكم وأطهر) من عدمه.

ومعنى ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أي: أن فيه الخير لكم في الدنيا والآخرة، والطهارة والتزكية لقلوبكم وأعمالكم من الإثم، ومن ذلك أن تكون المناجاة عند الحاجة.

قال ابن كثير[2]: «أن يقدم بين يدي ذلك صدقة تطهره وتزكيه وتؤهله لأن يصلح لهذا المقام».

عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: «لما نزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ قال لي النبي ﷺ: «ما ترى دينار»؟ قلت: لا يطيقونه. قال: «نصف دينار»؟ قلت: لا يطيقونه. قال: «ما ترى»؟ قلت: شعيرة. فقال النبي ﷺ: «إنك زهيد» قال علي: في خفف عن هذه الأمة»[3].

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٧٥.

(٣) أخرجه الترمذي في تفسير سورة المجادلة ٣٣٠٠، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٨٢-٤٨٤-، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» ٣/ ٥٤- الأثر ٨٦٤، وابن الجوزي في «نواسخ القرآن» ص ٤٧٨. وقال الترمذي: «حسن غريب».

قال الترمذي: « قوله: شعيرة» يعني وزن شعيرة من ذهب».

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟﴾ أي: فإن لم تجدوا ما تتصدقون به وعجزتم عن ذلك.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ «الغفور» و «الرحيم» من أسماء الله عز وجل ـ يدل «الغفور» على إثبات صفة المغفرة الواسعة لله عز وجل، وهي ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة. ويدل «الرحيم» على إثبات صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل، رحمة ذاتية ثابتة لله عز وجل، ورحمة فعلية، رحمة عامة، ورحمة خاصة.

والمعنى: فإن الله غفور رحيم لمن لم يجد الصدقة فيغفر له ويتجاوز عنه برحمته بحيث يجوز له مناجاة الرسول بدون الصدقة، لأن الله عز وجل ـ لا يكلف نفساً إلا وسعها.

﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾.

الهمزة للاستفهام التقريري، أي: أخفتم وخشيتم الفاقة والفقر من تقديم الصدقة بين يدي المناجاة، وثقل عليكم ذلك، وخفتم من استمرار هذا الحكم عليكم من وجوب تقديم الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ.

﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ الفاء: استئنافية، أي: فإذ لم تفعلوا ما أمركم الله به من تقديم الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ ـ وامتنعتم من المناجاة خوف الصدقة، أو ناجيتموه ولم تقدموا الصدقة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: « قوله ﴿فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ وذلك أن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ـ ﷺ ـ حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيه ـ عليه السلام ـ فلما قال ذلك صبر كثير من الناس وكفوا عن المسألة، فأنزل الله بعد هذا ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فوسع الله عليهم»[(1)].

وعن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: « آية في كتاب الله ـ عز وجل ـ لم يعمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي، كان عندي دينار فصرفته بعشرة دراهم، فكنت إذا ناجيت رسول الله ـ ﷺ ـ تصدقت بدرهم، فنسخت ولم يعمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي، ثم تلا هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ

---

(١) أخرجه الطبري في « جامع البيان» ٢٢/ ٤٨٤، وابن أبي حاتم في « تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٤.

﴿يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ الآية»[١].

وعن مجاهد قال: «نهوا عن مناجاة النبي - ﷺ - حتى يتصدقوا، فلم يناجه إلا علي ابن أبي طالب، قدم ديناراً صدقة تصدق به، ثم ناجى النبي ﷺ، فسأله عن عشر خصال، ثم أنزلت الرخصة»[٢].

وعن سلمة بن كُهيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ قال: « أول من عمل بها علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ثم نسخت»[٣].

﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ التوبة من الله - عز وجل - على عباده معناها: توفيقهم للتوبة، وقبولها منهم، كما قال عز وجل: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة: ١١٨] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

ومعنى قوله ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: وتاب الله عليكم في عدم تقديمكم الصدقة بين يدي مناجاته ﷺ - وإشفاقكم من ذلك فتاب عليكم وعفا عنكم ونسخ ذلك ورفعه عنكم.

فنسخ الله عز وجل وجوب تقديم الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ لما أشفقوا منها، ولم يفعلوها برفع وجوب ذلك، فأباح لهم مناجاته - ﷺ - بدون تقديم الصدقة توبة من الله عز وجل - عليهم.

وتعد هذه الواقعة من أوضح وقائع النسخ في القرآن الكريم وأصحها. والنسخ فيها إلى غير بدل.

﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، أي: فأقيموا الصلاة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها، لتكون صلاة تامة كاملة، وهذا هو السر في التعبير بالأمر بإقامة الصلاة، دون أن يقول: « صلوا» والصلاة: لغة الدعاء، وشرعاً: التعبد لله عز وجل بأقوال وأفعال معلومة مفتتحة بالتكبير مختمة بالتسليم، والمراد بالصلاة هنا الصلوات الخمس وغيرها من النوافل.

(وآتوا الزكاة) معطوف على ما قبله، أي: وأعطوا الزكاة وادفعوها لمستحقيها.

وقدم الصلاة لأنها عمود الإسلام وأعظم العبادات البدنية بعد الشهادتين، وعطف عليها الزكاة لأنها أعظم العبادات المالية، وهما القرينتان في القرآن الكريم في نحو اثنين

---

(١) أخرجه الطبري في « جامع البيان» ٢٢/ ٤٨٣.
(٢) أخرجه الطبري في « جامع البيان» ٢٢/ ٤٨٢-٤٨٣.
(٣) أخرجه النحاس في « الناسخ والمنسوخ» ٣/ ٥٤- الأثر ٨٦٣.

وثمانين موضعاً، فخصهما بالذكر لعظم مكانتهما في الإسلام.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ هذا من عطف العام على الخاص، فأمر أولاً بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ثم عطف عليهما بالأمر بطاعة الله ورسوله، وذلك لبيان عظم منزلة الصلاة والزكاة، وهما من طاعة الله ورسوله.

والطاعة: فعل المأمور واجتناب المحظور، أي: أطيعوا الله ورسوله في فعل ما أمر الله به ورسوله، واجتناب ما نهى الله عنه ورسوله.

وعطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم الله عز وجل ـ بالواو التي تقتضي التشريك، لأن طاعة الرسول ـ ﷺ ـ من طاعة الله، كما قال عز وجل ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وفي الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله بعد توبة الله عليهم في إحجامهم عن تقديم الصدقة بين يدي المناجاة إشعار بوجوب الإكثار من العمل الصالح بعد التوبة عليهم شكراً لله على ذلك التخفيف، وأن المطلوب من العبد الاستمرار على طاعة الله عز وجل حتى يلقى الله تعالى ، كما قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ «الخبير» اسم من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل»، يدل على سعة خبرته عز وجل و «الخبير» هو المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها فاطلاعه على ظواهرها وجلائلها وجلياتها من باب أولى.

(بما تعملون) أي: بالذي تعملون، أو بعملكم، وفي هذا وعد ووعيد، وعد لمن أقام الصلاة وآتى الزكاة وأطاع الله ورسوله، ووعيد لمن خالف ذلك لأن مقتضى خبرته عز وجل أن يحاسب الخلائق، ويجازي كلاً بعمله.

الفوائد والعبر:

١ ـ تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام وتشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان، والحث على الاتصاف به، وعلى امتثال ما ذكر بعد النداء بهذا الوصف.

٢ ـ إيجاب تقديم الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ ومسارته تخفيفاً عليه ﷺ وحفاظاً على وقته ومشاغله في الدعوة وفي الأمة. وهكذا ينبغي تقدير أوقات ذوي

المسؤوليات الكبيرة في الأمة.

٣ ـ في إيجاب الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ خير للمؤمنين وتزكية لقلوبهم وأعمالهم بحيث تكون مناجاتهم عند الحاجة.

٤ ـ أن إيجاب الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ على الواجد أما من لم يجد فلا شيء عليه ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، ولهذا قال ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٥ ـ إثبات اسمين من أسماء الله عز وجل، وهما «الغفور» و «الرحيم» وصفة المغفرة والرحمة الواسعتين، لهذا رحم وغفر لمن لم يجد الصدقة وأباح له مناجاة الرسول ﷺ بدونها.

٦ ـ إشفاق المؤمنين وخشيتهم من تقديم الصدقة بين يدي المناجاة وثقلها عليهم.

٧ ـ توبة الله ـ عز وجل ـ على المؤمنين ومغفرته ورحمته لهم ونسخ وجوب تقديم الصدقة عليهم بين يدي مناجاة الرسول ﷺ لما شق عليهم ذلك ولم يناجوه خشية تقديم الصدقة.

٨ ـ وجوب إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله ففي ذلك تكفير السيئات، ورفعة الدرجات.

٩ ـ عظم مكانة الصلاة والزكاة بين الطاعات لهذا خصهما بالذكر.

١٠ ـ إثبات اسم الله ـ عز وجل «الخبير» وخبرته ـ عز وجل ـ التامة، وعلمه الواسع، وإحاطته بأعمال العباد، وفي هذا وعد للمؤمنين ووعيد للمكذبين.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي - ﷺ - كان في ظل حجرة من حجره، وعنده نفر من المسلمين قد كاد يقلص عنهم الظل، قال: «إنه سيأتيكم إنسان ينظر بعيني شيطان، فإذا أتاكم فلا تكلموه» فجاء رجل أزرق، فدعاه رسول الله - ﷺ - فكلمه، فقال: «علام تشتمني أنت وفلان وفلان»؟ نفر دعاهم بأسمائهم - قال: فانطلق الرجل فدعاهم، فحلفوا له واعتذروا إليه، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ وفي رواية له: «فنزلت هذه الآية التي في المجادلة ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾»(١).

هذه الآيات في فضح المنافقين والإنكار عليهم في موالاتهم اليهود والمشركين في الباطن، وهم في حقيقة الأمر لا معهم ولا مع المؤمنين.

قوله ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ الاستفهام للإنكار والتعجب والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

﴿الَّذِينَ تَوَلَّوْا﴾ يعني المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر.

﴿قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ يعني اليهود، فهم المغضوب عليهم كما قال تعالى ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١]، [آل عمران: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢٤٠، ٢٦٧، ٣٥٠، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٨٩ والواحدي في «أسباب النزول» ص٢٧٧، والحاكم ٢/ ٤٨٢- وقال: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» وقال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٧٨: «إسناد جيد ولم يخرجوه».

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ [الممتحنة: ١٣].

ومعنى: ﴿تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ أي: جعلوهم أولياء يوالونهم ويمالئونهم في الباطن قال الطبري[1]: «ألم تنظر بعين قلبك يا محمد، فترى إلى القوم الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم، وهم المنافقون، تولوا اليهود وناصحوهم».

﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ أي: ان هؤلاء المنافقين في الحقيقة ليسوا منكم أيها المؤمنون، ولا منهم، أي: ولا من اليهود والمشركين، بل هم كما قال الله عنهم: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ﴾ أي: ويحلف هؤلاء المنافقون، (على الكذب) أي: كذباً، وعلى أمور كاذبة.

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أنهم يعلمون أنهم كاذبون في حلفهم.

قال ابن كثير[2]: «يعني المنافقين يحلفون على الكذب وهم عالمون بأنهم كاذبون فيما حلفوا، وهي اليمين الغموس، ولاسيما في مثل حالهم اللعين، عياذًا بالله منه، فإنهم كانوا إذا لقوا الذين آمنوا، وإذا جاءوا الرسول حلفوا بالله أنهم مؤمنون، وهم في ذلك يعلمون أنهم يكذبون فيما حلفوا به، لأنهم لا يعتقدون صدق ما قالوه، وإن كان في نفس الأمر مطابقاً، ولهذا شهد الله بكذبهم في أيمانهم وشهادتهم لذلك».

وهذا ديدن المنافقين الحلف وهم كاذبون، كما قال عز وجل في سورة المنافقين ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الآية: ١].

وقال تعالى ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [التوبة: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ

---

(١) في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٨٧.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٧٧.

﴿...﴾ [التوبة: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ [النور: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٣].

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

(أَعَدَّ): هيأ وجهز وأرصد (لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا) أي: عذاباً شديداً من حيث كيفيته وكميته حسيا ومعنوياً، لا يعلم مدى شدته إلا من وصفه بهذا، وهو الله عز وجل شديد العقاب، وذلك بسبب نفاقهم وموالاتهم الكافرين، عذاباً عاجلاً في الدنيا من القلق والحيرة والتذبذب والشقاء النفسي، كما قال عز وجل: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤].

فهم دائماً في خوف وقلق بسبب نفاقهم وكونهم لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، مع ما يصيبهم من المصائب في الأنفس والأموال وغير ذلك.

وأعد لهم عذابا شديداً في الآخرة في النار فهم أشد أهل النار عذاباً كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ هذه الجملة كالتعليل لما قبلها، و « ساء» بمعنى قبح، و«ما» مصدرية أو موصولة، أي: ساء عملهم، أو ساء الذي كانوا يعملون.

والمعنى: أن الله عز وجل ـ أعد لهم العذاب الشديد لسوء أعمالهم وقبحها، أو بسبب أعمالهم السيئة القبيحة وهي نفاقهم وموالاتهم اليهود والمشركين ونصحهم لهم، ومعاداتهم المؤمنين وغشهم لهم، فليس هناك عمل وضيع أسوأ من عمل المنافقين وصنيعهم ـ عياذا بالله من ذلك.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هذا كقوله في سورة المنافقين ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الآية: ٢]

أي: جعلوا حلفهم وقاية وستراً لأنفسهم وأموالهم وذراريهم،فأظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر،وأقسموا الأيمان المغلظة الكاذبة أنهم مع المؤمنين، وكلما افتضح شيء من أمرهم اتقوا بالأيمان الكاذبة، كما قال عز وجل عنهم ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ٩٥]، وقال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦].

﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: أعرضوا عن سبيل الله وطريقه وهو الإيمان بالله ظاهراً وباطناً، واكتفوا بدعوى الإيمان ظاهراً، وتوكيد ذلك بالأيمان الكاذبة.

وصدوا غيرهم عن سبيل الله حيث اغتر بهم من لا يعرف حقيقتهم، فصدقهم وقلدهم واطمأن إليهم فصدوه عن الحق.

﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: فلهم بسبب جعلهم الأيمان الكاذبة وقاية لهم وصدهم عن سبيل الله بأنفسهم ولغيرهم (عذاب مهين) أي: يهينهم ويذلهم، فهو عذاب شديد للأجسام، وعذاب مهين للقلوب بالذل والهوان والتبكيت والتوبيخ، كما قال عز وجل ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، وقال تعالى مخاطباً أهل النار: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

فالعذابان الحسي والمعنوي متلازمان، والعذاب المعنوي لا يقل عن العذاب الحسي.

﴿لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم﴾ أي: لن تنفعهم ولن تدفع عنهم أموالهم ولو كثرت فيفتدوا بها، ولا أولادهم وإن كثروا لينتصروا بهم (من الله شيئاً) أي: من عذاب الله عز وجل ـ وعقابه شيئاً إذا نزل بهم.

و«شيئاً» نكرة في سياق النفي تعم أي: لن تنفعهم ولن تدفع عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، مهما قل أو صغر.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ أي: أولئك المنافقون الذين يتولون اليهود ويحلفون الأيمان الكاذبة ويصدون بها عن سبيل الله وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيراً لهم ولمصيرهم.

﴿أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: أهل النار وملازموها ملازمة الصاحب لصاحبه والغريم لغريمه.

﴿هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ أي: هم في النار مقيمون فيها إقامة أبدية لا تحول ولا تزول، ولهذا أكد خلودهم فيها بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وذلك لكفرهم، ولأن النار لا تفنى، ولا يفنى عذابها وأهلها، كما دل الكتاب والسنة على ذلك.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ «يوم» ظرف زمان بمعنى « حين» متعلق بفعل مقدر، أي: اذكر يوم، أي: يوم القيامة حين يبعثهم الله جميعاً، أي: يخرجهم من قبورهم جميعاً، بعد أن يعيد الحياة فيهم، ويحشرهم جميعاً في موقف الحساب.

﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ﴾ أي: فيحلفون ويقسمون له أنهم على الحق والإيمان والاستقامة.

﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ أي: كما كانوا في الدنيا يحلفون لكم أيها المؤمنون أنهم معكم، وتُجرون عليهم الأحكام الظاهرة.

فحيث اتخذوا الأيمان الكاذبة مطية لهم في الدنيا ووقاية لدمائهم وأموالهم وأعراضهم صار هذا سجية لهم وديدنا وعادة حتى بعد بعثهم بعد الموت أمام من لا تخفى عليه خافية. قال ابن كثير[1]: «لأن من عاش على شيء مات وبعث عليه».

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أي: يظنون أنهم بهذا الحلف له عز وجل على شيء من الأمر، وأن هذا الحلف سينفعهم أمام من لا تخفى عليه خافية، كما كانوا في الدنيا يتخذون الأيمان وقاية لهم، ولا شك أن هذا من عمى البصائر وإلا فكيف يحلفون للخالق سبحانه العليم بذات الصدور، الذي يعلم السر وأخفى، وهم كاذبون ويظنون أن ذلك ينفعهم.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ «الا» أداة تنبيه، أي: الا إنهم هم الكاذبون في حسبانهم وظنهم أنهم على شيء، وهم الكاذبون في أيمانهم.

وقد أكد كذبهم في حسبانهم وأيمانهم بعدة مؤكدات وهي: « ألا» التي هي للتنبيه و«إنّ»، وضمير الفصل « هم»، وكون الجملة اسمية معرفة الطرفين

أي: ألا إنهم هم الذين بلغوا الغاية في الكذب.

وحال هؤلاء، كما أخبر تعالى عن المشركين في قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ۝ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٣ ، ٢٤].

﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ استحوذ: غلب وسيطر واستولى على قلوبهم وأعمالهم.

والشيطان: إبليس لعنه الله وجنوده، مشتق من « شطن» بمعنى بعد عن رحمة الله وعن كل خير. وكل متمرد عات خارج عن طاعة الله تعالى فهو شيطان، من الجن والإنس والحيوان قال تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقال ﷺ «الكلب الأسود شيطان»[2].

﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: جعلهم بسبب استحواذه عليهم ينسون ذكر الله - عز وجل - الذي فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة من الإيمان بالله عز وجل - حقاً إخلاصاً له عز وجل، ومتابعة لرسوله ﷺ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت

---

(١) في «تفسيره» ٨/٧٨.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة ٥١٠، وأبو داود في الصلاة ٧٠٢، والنسائي في القبلة ٧٥٠، والترمذي في الصلاة ٣٣٨، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٩٥٢- من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

الحرام، وقراءة القرآن والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير ودعاء الله إلى غير ذلك.

عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من ثلاثة في قرية ولا بدو، لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان فعليك بالجماعة فإنما يأكل الذئب القاصية»[1].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ أي: أنصاره وأتباعه وجنده وأعوانه على الشر.

﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ «ألا» أداة تنبيه و«الخاسرون» جمع خاسر، والخسر، والخسران: ضياع رأس المال مع الربح، وقد أكد عز وجل خسرانهم في هذه الجملة بعدة مؤكدات وهي «ألا» التي للتنبيه، و«إنّ» وضمير الفصل «هم» وكون الجملة اسمية معرفة الطرفين.

أي: المغبونون في صفقتهم، الذين بلغوا الغاية في الخسران، فخسروا أغلى ما لديهم، خسروا أنفسهم وأهليهم، خسروا الدنيا والآخرة.

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

الفوائد والعبر:

١ ـ الإنكار على المنافقين والتعجيب منهم في موالاتهم اليهود المغضوب عليهم.

٢ ـ تذبذب المنافقين فليسوا من المؤمنين ولا من اليهود، وحلفهم على الكذب وهم يعلمون كذبهم.

٣ ـ اتخاذ المنافقين أيمانهم الكاذبة وقاية لأنفسهم وأموالهم وصدهم عن سبيل الله بأنفسهم ولغيرهم.

٤ ـ الوعيد الشديد للمنافقين بالعذاب الشديد، عذاباً حسياً في الدرك الأسفل من النار وملازمتها والخلود فيها، وعذاباً معنوياً يهينهم ويذلهم لسوء عملهم وشدة كفرهم، وأن أموالهم وأولادهم لن تنفعهم ولن تدفع عنهم من عذاب الله شيئاً.

٥ ـ بعث الله ـ عز وجل ـ الناس جميعاً من قبورهم للحساب والجزاء.

٦ ـ عمى بصائر المنافقين وأن من مات على شيء بعث عليه فحيث كانوا في الدنيا يتخذون أيمانهم الكاذبة وقاية لهم ولأموالهم صار ذلك سجية لهم ففي عرصات القيامة يحلفون لله كما كانوا يحلفون في الدنيا ظناً منهم أن ذلك ينفعهم أمام من لا تخفى عليه خافية، وتأكيد كذبهم في حلفهم وحسبانهم.

٧ ـ غلبة الشيطان على المنافقين وإنساؤه لهم ذكر الله وكونهم من أنصاره وجنده الخاسرين المغبونين.

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة ـ التشديد في ترك الجماعة ٥٤٧، والنسائي في الإمامة ٨٤٧.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ ۝٢٠ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٢١ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٢٢﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة حال المنافقين في موالاتهم اليهود والمشركين واتخاذهم الأيمان وقاية لهم، وغلبة الشيطان عليهم، وما أعد لهم من العذاب الشديد المهين، وما ينتهون إليه من الخسران المبين، ثم أتبع ذلك بالوعيد بالإذلال لجميع الكافرين المحادين لله ورسوله من المنافقين واليهود والمشركين وغيرهم، وفي هذا توكيد لوعيدهم في أول السورة.

قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ﴾.

أي: إن الذين يكونون في حد وجانب وشق مناوئ ومضاد ومخالف لله ورسوله ويشاقون ويعادون الله ورسوله.

قال ابن كثير[1]: «يعني الذين هم في حد والشرع في حد، أي: مجانبون للحق مشاقون له، هم في ناحية والهدى في ناحية».

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ﴾ أي: أولئك المحادون لله ورسوله (في الأذلين) أي: في عداد المهانين الأشقياء المغلوبين المبعدين الذين قضي عليهم بالذل والهوان في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى في أول السورة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ [الآية: ٥].

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ أي: قضى الله ـ عز وجل ـ وحكم وكتب في كتابه الأول في الأزل في اللوح المحفوظ فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله يقول: «أول ما خلق الله القلم فقال اكتب. فقال: ما أكتب؟ قال اكتب القدر، ما كان وما هو كائن إلى الأبد»[2].

﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ أي: لتكونن الغلبة لي أنا ورسلي، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٧٩.

(٢) أخرجه الترمذي في القدر ٢١٥٥. وقال «حديث غريب».

وقال ﷺ: «وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري»[1] قال الحسن: «أبى الله إلا أن تكون الذلة والصغار على من خالف أمره».

قال ابن كثير[2]: «أي: قد حكم وكتب في كتابه الأول وقدره الذي لا يخالف ولا يمانع، ولا يبدل بأن النصرة له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة، وأن العاقبة للمتقين... وهذا قدر محكم وأمر مبرم أن العاقبة والنصرة للمؤمنين في الدنيا والآخرة».

وقال ابن القيم[3]: « وقوله ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ عقيب قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ دليل على أن المحادة مغالبة ومعاداة حتى يكون أحد المحادين غالبًا ـ وذلك ـ إنما يكون بين أهل الحرب لا أهل السلم، فعلم أن المحاد ليس بمسالم فلا يكون له أمان مع المحادة».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر «أن» بفتح الهمزة، وقرأ الباقون بكسرها، وهذا كالتعليل لما قبله، أي: إن الله كتب الغلبة له ولرسله لأنه القوي العزيز.

و«القوي» اسم من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل» يدل على أنه سبحانه ذو القوة التامة، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٥٢].

و«العزيز» اسم من أسماء الله ـ عز وجل ـ على وزن «فعيل»، مشتق من العزة، يدل على أن الله ـ عز وجل ـ ذو العزة التامة بجميع معانيها، كما قال عز وجل ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠] ، فله ـ عز وجل ـ العزة بمعانيها الثلاثة: عزة الامتناع فهو ـ عز وجل ـ ممتنع عن كل نقص وعيب، ومن ذلك يقال للأرض الصلبة «عزاز» لقوتها وامتناعها ممن أراد حفرها إلا بمشقة. والثاني: عزة القهر والغلبة، كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨، ٦١]، وقال عز وجل ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١]،

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، ما قيل في الرماح بلفظ: ويذكر عن ابن عمر عن النبي ﷺ: «جعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري» انظر «فتح الباري» ٦/ ٩٨. وأخرجه أحمد عن ابن عمر موصولا ٢/ ٥٠، ٩٢.

(٢) في « تفسيره» ٨/ ٧٩.

(٣) انظر: « بدائع التفسير» ٤/ ٤١٩.

وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ [المجادلة: ٢١].

الثالث: عزة القوة.

قال ابن القيم[١]:

وهـو العزيـز فـلا يـرام جنابـه	أنـى يـرام جنـاب ذي السـلطان
وهـو العزيـز القـاهر الغـلاب لم	يغلبـه شـيء هـذه صـفتان
وهـو العزيـز بقـوة هـي وصـفه	فـالعز حينئـذ ثـلاث معـان
وهـي الـتي كملـت لـه سـبحانه	مـن كـل وجـه عـادم النقصـان

ويحسن في مثل هذا الموضع أن يحمل العزيز على عزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة، لذكر اسمه - عز وجل - «القوي» قبله.

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

صلة الآية بما قبلها:

بعد ما ذكر الله عز وجل موالاة المنافقين لليهود، وما أعد لهم من العذاب الشديد والمهين والخسران المبين، وأنه عز وجل قضى بالذل والهوان على الذين يحادونه ورسوله، وكتب الغلبة له ولرسله - عليهم الصلاة والسلام - أتبع ذلك ببيان أنه لا يجتمع الإيمان بالله واليوم الآخر مع موادة من حاد الله ورسوله من اليهود والمشركين وغيرهم، ولا يتصور وجود هذا، لأن الإنسان إما مواد لله ورسوله ومعاد لمن حاد الله ورسوله، وهذا هو المؤمن، وإما مواد لمن حاد الله ورسوله معاد لله رسوله والمؤمنين وهذا هو الكافر والمنافق.

سبب النزول: رُوي عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: «أنزلت هذه الآية: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ﴾ إلى آخرها في أبي عبيدة عامر ابن عبد الله بن الجراح حين قتل أباه يوم بدر».

---

(١) انظر «النونية» ص ١٤٧.

وقيل: نزل قوله (ولو كانوا آباءهم) في أبي عبيدة قتل أباه يوم بدر، ونزل قوله (أو أبناءهم) في الصديق همَّ يومئذٍ بقتل ابنه عبد الرحمن، ونزل قوله (أو إخوانهم) في مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ ونزل (أو عشيرتهم) في عمر قتل قريباً له يومئذ أيضا، وفي حمزة بن الحارث وعلي وعبيدة بن الحارث قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة[١].

قال ابن كثير[٢]: «وقلت: ومن هذا القبيل حين استشار رسول الله ﷺ المسلمين في أسارى بدر، فأشار الصديق بأن يفادوا، فيكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين، وهو بنو العم والعشيرة، ولعل الله أن يهديهم. وقال عمر: لا أرى ما رأى يا رسول الله، هل تمكنني من فلان ـ قريب لعمر ـ فأقتله، وتمكن علياً من عقيل، وتمكن فلاناً من فلان، ليعلم الله أنه ليست في قلوبنا هوادة للمشركين.. القصة بكمالها».

قوله ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾.

«لا» نافية والقوم: الجماعة من الناس رجالاً ونساء، (يؤمنون بالله) أي: يصدقون بوجود الله عز وجل ـ وربوبيته، وألوهيته وأسمائه وصفاته، وينقادون لشرعه ظاهراً و باطناً.

(واليوم الآخر) أي: ويؤمنون باليوم الآخر، وهو يوم القيامة، وسُمي باليوم الآخر لأنه آخر الأيام فآخر ليلة من الدنيا صبيحتها يوم القيامة وهو آخر مراحل الإنسان الأربع فمرحلة في بطن أمه، ثم مرحلة في الدنيا، ثم مرحلة في البرزخ، ثم مرحلة يوم القيامة.

وكثيراً ما يقرن ـ عز وجل ـ الإيمان باليوم الآخر بالإيمان به عز وجل، لأن الإيمان باليوم الآخر أعظم حافز على العمل، لأن في هذا اليوم يكون الحساب والجزاء على الأعمال وفيه الأهوال العظام، ولهذا رُويَ أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: «لولا الإيمان باليوم الآخر لرأيت من الناس غير ما ترى»

يعني لتكالب الناس على المعاصي والشرور وربما أكل بعضهم بعضًا.

﴿يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ المودة: المحبة، أي: يحبون من حاد الله ورسوله.

أي: من عادى الله ورسوله وشاقهما وخالف أمر الله ورسوله من اليهود والمشركين.

والمعنى: لا يمكن أن يوجد ولا يتصور اجتماع الإيمان بالله واليوم الآخر مع موادة من حاد الله ورسوله، فهذان أمران متناقضان متنافيان، فالجمع بينهما ضرب من

---

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» صـ ٢٧٨، وانظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٧٩.
(٢) في «تفسيره» ٨/ ٨٠.

المستحيل، كما قال ابن القيم[١] في كلامه على قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ [الآية: ٤]: «فأنت تجد في هذه اللفظة أن القلب ليس له إلا وجهة واحدة إذا مال بها إلى جهة لم يمل إلى غيرها، وليس للعبد قلبان، يطيع ويتبع أمره ويتوكل عليه بأحدهما والآخر لغيره، بل ليس له إلا قلب واحد، فإن لم يفرد بالتوكل والمحبة والتقوى لربه، وإلا انصرف ذلك إلى غيره».

فلا يمكن أن يوجد قوم يؤمنون بالله واليوم الآخر - حقاً - ومع ذلك يوادون من حاد الله ورسوله لأن موادة من حاد الله ورسوله تنفي صدق الإيمان بالله واليوم الآخر.

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعاً فما الضدان يجتمعان[٢]

فالإيمان بالله واليوم الآخر يمنع صاحبه من موادة الكافرين، لأن من مقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر محبة الله ورسوله والمؤمنين، وبغض من حاد الله ورسوله من المنافقين واليهود والكافرين ونحوهم.

قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ﴾ [النساء: ١٤٤].

وقال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ﴾ [المائدة: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٨١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١].

﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ﴾ أي: ولو كان أولئك المحادون لله ورسوله ﴿ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ فإنهم لا

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤١٩.
(٢) البيت لابن القيم انظر «النونية» ص ١١.

يوادونهم لمحادتهم الله ورسوله وكفرهم، كما قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

والآباء هم الأب القريب والأجداد وإن علوا من أي جهة كانوا والأبناء: هم أبناء الرجل وأبناء أولاده وإن نزلوا، والإخوان: إخوة الرجل أشقاء أو لأب أو لأم، و«العشيرة» القبيلة من العصبة من الأعمام وأبنائهم وأبناء أبناءهم، وإن نزلوا، ونحوهم.

وهذا محك عظيم فكم من مدع الإيمان بالله واليوم الآخر، وكم من مدع محبة الله ـ عز وجل ـ ورسوله ـ لكنه إذا جاء شأن القرابة والعشيرة ترك العدل والإنصاف محاباة للقريب وانتصاراً له، حتى ولو كان ظالماً عاصياً محاداً لله ورسوله. وقد قال ﷺ «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قيل: يا رسول الله أنصره مظلوماً فكيف إذا كان ظالماً؟ قال: «تمنعه من الظلم، فإن ذلك نصره»[1].

فالواجب على المؤمن حقاً بغض من حاد الله ورسوله ومعاداتهم، ولو كانوا أقرب الأقربين إليه، ومحبة الله ورسوله والمؤمنين وموالاتهم. وهذه حقيقة الإيمان بالله واليوم الآخر، وهنا يجد المرء حلاوة الإيمان، قال ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»[2].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك. وقد كانت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئاً»[3].

وقال عز وجل: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

---

(١) أخرجه البخاري في الإكراه ٦٩٢٥، والترمذي في الفتن ٢٢٥٥- من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ١٦، ومسلم في الإيمان ٤٣، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٨٧، والترمذي في الإيمان ٢٦٢٤، وابن ماجه في الفتن ٤٠٣٣- من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) ذكره شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد ونسبه لابن جرير انظر: «تيسير العزيز الحميد» ص٤٧٩.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾.

الإشارة (أولئك) للذين آمنوا بالله واليوم الآخر الذين لا يوادون من حاد الله ورسوله ولو كان من أقرب الناس إليهم.

وأشار إليهم بإشارة البعيد (أولئك) تعظيما ورفعة لشأنهم.

﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي: أدخله في قلوبهم وثبته فيها.

﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ أي: وأمدهم وقواهم بروح منه، أي: بوحيه ونوره ومدده.

قال الطبري[1]: «وقواهم ببرهان منه ونور وهدى».

وقال السعدي[2]: «وهم الذين قواهم الله بروح منه، أي: بوحيه ومعرفته ومدده الإلهي وإحسانه الرباني».

فاستمروا على الإيمان باطنا، وظهرت آثاره على جوارحهم وأعمالهم الظاهرة لأن الله أمدهم بروح منه، فهم يسيرون في هذه الحياة على نور من الله عز وجل قال عز وجل: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ﴾ [الأنعام: ١٢٢]. وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الزمر: ٢٢].

ولهذا كان ﷺ يقول: «اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي سمعي نوراً وفي بصري نورًا ومن فوقي نورًا، ومن تحتي نوراً وعن يميني نوراً وعن شمالي نوراً واجعل لي نوراً»[3].

فمن وفقه الله عز وجل وجعل الإيمان في قلبه وثبته عليه وأمده وقواه بروح منه، ونوَّر بصيرته فهو محفوظ بحفظ الله عز وجل عن موادة من حاد الله ورسوله ومن أنواع الشرور كلها ـ بإذن الله عز وجل.

﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾.

وصف الله ـ عز وجل ـ الذين آمنوا بالله واليوم الآخر بأنهم لا يوادون من حاد الله ورسوله، وأنه عز وجل جعل الإيمان في قلوبهم وثبته فيها وأمدهم وقواهم بروح منه

---

(١) في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٩٤.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٢٢.

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٣١٦، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٧٦٣، وأبو داود في الصلاة ١٣٥٣، والنسائي في التطبيق ١١٢١، والترمذي في الصلاة ٢٣٢ ـ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما.

فسعدوا في حياتهم بالاستقامة على طاعة الله -عز وجل- ثم ذكر ما أعد لهم في الآخرة في الجنة من ألوان النعيم.

قوله ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ جنات: جمع جنة، وهي ما أعده الله - عز وجل - لسكنى أوليائه المتقين وحزبه المفلحين في دار كرامته دار السلام، التي فيها من ألوان النعيم ما لا يعلمه إلا الله - عز وجل - كما قال عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وقال ﷺ: «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[1].

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ صفة لجنات، أي: تجري من تحت أشجار هذه الجنات ومساكنها وغرفها الأنهار، يشربون منها ويصرفونها حيث شاؤوا ويتمتعون برؤيتها، وهي كما قال الله عز وجل ﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مقيمين فيها إقامة أبدية لا تحول ولا تزول، لأن الجنة لا تفنى ولا يفنى نعيمها وأهلها بإجماع المسلمين.

﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ رضي الله عنهم لإيمانهم وعملهم الصالح فوفقهم للحق والثبات عليه، وأثابهم على ذلك بالجنات وما فيها من النعيم.

﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بما هيأ لهم من أسباب الهداية والتوفيق والسعادة في الدنيا والآخرة، والأجر العظيم في الجنة، كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩].

وقال تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨].

قال ابن كثير[2]: «وفي قوله ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾: سر بديع، وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله عوضهم الله بالرضا عنهم، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم والفوز العظيم، والفضل العميم».

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٤، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٢٤، والترمذي في التفسير ٣١٩٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٢٨ - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٨٠.

كما قال ﷺ فيما روته عائشة رضي الله عنها: «من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس»[(١)].

ورضى الله عنهم من أعظم النعيم المعنوي الذي تقر به عيونهم فهم ضيوف على أكرم الأكرمين وقد رضي ـ عز وجل ـ عنهم ورضوا عنه، فأعظم بها من كرامة.

والرضا من المضيف من أعظم ما تقربه عين الضيف ويسعد به.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ﴾ أشار إليهم مرة ثانية بإشارة البعيد (أُوْلَٰٓئِكَ) تعظيماً ورفعة لشأنهم وتوكيداً لذلك.

﴿حِزْبُ ٱللَّهِۚ﴾ أي: أهل عبوديته الخاصة وأنصاره وأهل كرامته وإفضاله.

﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ﴾ «ألا» أداة تنبيه أي: ألا إن حزب الله وعباده المؤمنين (هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ) الفائزون بالمطلوب الناجون من المرهوب، الفائزون بالجنة والثواب، الناجون من النار والعذاب.

وقد أكد الفلاح في الآية بـ « ألا» أداة التنبيه و « إن» المؤكدة، وضمير الفصل «هم» وكون الجملة اسمية، وتعريف الخبر « المفلحون» أي: أولئك المفلحون الفلاح العظيم الذي لا يشبهه فلاح.

وفي هذا تنويه بما أعد الله لهم من الفوز والكرامة والسعادة في الدنيا والآخرة، في مقابل ما أعده لحزب الشيطان من الكفار والمنافقين من العذاب الشديد المهين والخسران المبين.

الفوائد والعبر:

١ ـ أن محادة الله ـ عز وجل ـ محادة لرسوله ﷺ، كما أن محادة الرسول ﷺ محادة لله ـ عز وجل.

٢ ـ قضاء الله وحكمه على المحادين له ولرسله بالذلة والهوان والشقاء في الدنيا والآخرة وقضاؤه بالغلبة والعزة له ولرسله وأتباعهم.

٣ ـ إثبات اسمين من أسماء الله ـ عز وجل، وهما «القوي» و «العزيز» وما يؤخذ منهما من إثبات صفة القوة وعزة القهر والغلبة وعزة الامتناع له تعالى.

٤ ـ لا يجتمع الإيمان بالله واليوم الآخر وموادة من حاد الله ورسوله مهما كان هذا المحاد من الآباء أو الأبناء أو الإخوان أو العشيرة.

٥ ـ الثناء على الذين آمنوا بالله واليوم الآخر ولم يوادوا من حاد الله ورسوله مهما كانت قرابته والامتنان عليهم بأن الله ثبت الإيمان في قلوبهم، وأمدهم بوحيه ونوره ومعرفته.

٦ ـ الوعد من الله ـ عز وجل ـ بالثواب العظيم للمؤمنين به واليوم الآخر بإدخالهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها مع رضا الله عنهم ورضاهم عنه وكونهم حزبه المفلحين دون غيرهم.

٧ ـ أن الجنة لا تفنى ولا يفنى نعيمها وأهلها.

---

(١) سيأتي تخريجه ص١٣٠.

تفسير سورة الحشر

عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر، قال: «نزلت في بني النضير»[1]، وفي رواية عنه أن ابن عباس قال له: «قل سورة النضير»[2] ولهذا تسمى هذه السورة: سورة بني النضير.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥)﴾.

قوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

سبق الكلام عليه مفصلاً في مطلع سورة الحديد وهو إخبار من الله عز وجل أن كل ما في السموات وما في الأرض يسبحه ويعظمه ويعبده ويصلي له ويوحده وينقاد له وينزهه عما لا يليق بجلاله، ويدل على وجوده وعظمته وكمال ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته. كما قال عز وجل: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقد أخبر الله عز وجل عن تسبيح جميع المخلوقات له في مواضع كثيرة من القرآن وفي مطلع خمس سور، تسمى المسبحات وهي: الحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن. لتأكيد ذلك والدلالة على عظمته سبحانه وتعالى وخضوع جميع المخلوقات لأمره، وتعظيمها له سبحانه وتعالى.

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

أي: هو وحده الذي أخرج الذين كفروا به وجحدوا شريعته وما جاء به نبيه محمد ﷺ.

﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وهم يهود بني النضير، إحدى قبائل اليهود الثلاث التي كانت في

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحشر ٤٨٨٢، ومسلم في التفسير ٣٠٣١.

(٢) أخرجها البخاري في المغازي ٤٠٢٩.

المدينة وهم: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، عاهدهم النبي - ﷺ - كلهم، لما قدم المدينة، فنقضوا العهد، وأول من نقض العهد منهم بنو قينقاع، وذلك في السنة الثانية من الهجرة في شوال بعد وقعة بدر، فغزاهم الرسول ﷺ، وحاصرهم في حصونهم أشد الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فنزلوا على حكم الله ورسوله، ثم منَّ عليهم، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة، ولا يجاوروه بها، فخرجوا إلى أذرعات الشام، وهلك أكثرهم.

ثم تلاهم بنو النضير فنقضوا العهد، فغزاهم رسول الله - ﷺ - بعد بدر بستة أشهر، وقبل أحد - كما روي عن عائشة - رضي الله عنها[1] وعروة بن الزبير[2]، وقيل كانت غزوة بني النضير بعد وقعة أحد. وقد أنزل الله فيهم سورة الحشر.

ثم تبعهم بنو قريظة، فنقضوا العهد لما خرج الرسول ﷺ لغزوة الخندق «غزوة الأحزاب»، فحاصرهم النبي - ﷺ - بعد غزوة الأحزاب، وحكَّم فيهم سعد بن معاذ - رضي الله عنه - فحكم فيهم بحكم الله - عز وجل - أن يقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم، وتقسم أموالهم، فقال له النبي - ﷺ - «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات» وقد ذكر الله قصتهم في سورة الأحزاب.

وكان من أمر بني النضير في نقضهم العهد غدرهم بالنبي - ﷺ - حيث هموا بقتله بإلقاء صخرة عليه، لما جاء يستعينهم في دية القتيلين من بني عامر فجاءه الوحي من ربه، فخرج من بينهم، ثم بعث إليهم، أن اخرجوا من المدينة، ولا تساكنوني بها، وقد أجلتكم كذا، فمن وجدت بعد ذلك ضربت عنقه[3].

﴿مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ أي: من دورهم ومنازلهم وحصونهم في ناحية المدينة، بعد حصارهم ست ليال، وقيل غير ذلك.

﴿لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ﴾ أي: لأول محشرهم إلى أرض المحشَر والمنْشَر الشام.

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «من شك في أن أول المحشر ههنا - يعني الشام - فليتل هذه الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ﴾ قال

---

(١) سيأتي تخريجه قريباً.

(٢) ذكره البخاري عن الزهري عن عروة في المغازي - حديث بني النضير - انظر «فتح الباري» ٧/ ٣٢٩، وأخرجه ابن أبي حاتم مسنداً في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٥. وانظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٨٩، «البداية والنهاية» ٥/ ٢٠، ٥٣٣.

(٣) انظر «السيرة النبوية» لابن هشام ٢/ ٤٧ - ٥٠، ١٩٠ - ١٩٤، ٢٣٣ - ٢٤٨، «دلائل النبوة» للبيهقي ٣/ ٣٥٤، «زاد المعاد» ٥/ ٦٥، ١٢٧، «البداية والنهاية» ٥/ ٣١٨، ٣٣٥ - ٣٣٦، ٥٣٣، ٦/ ٧٠، «تفسير ابن كثير» ٨/ ٣٨، «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٢٤ - ٣٢٥.

لهم رسول الله - ﷺ -: «اخرجوا» قالوا: إلى أين؟ قال: «إلى أرض المحشر»(١).

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كانت غزوة بني النضير، وهم طائفة من اليهود على رأس ستة أشهر من غزوة بدر، وكان منزلهم ونخلهم بناحية المدينة فحاصرهم رسول الله - ﷺ - حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من الأمتعة والأموال إلا الحلقة - يعني السلاح - فأنزل الله فيهم: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا﴾ فقاتلهم النبي - ﷺ - حتى صالحهم على الجلاء، فأجلاهم إلى الشام، وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء فيما خلا، وكان الله قد كتب عليهم ذلك، ولولا ذلك لعذبهم في الدنيا بالقتل والسبي وأما قوله: ﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ فكان ذلك أول حشر في الدنيا إلى الشام»(٢).

قال الطبري(٣): «وذلك خروجهم من منازلهم ودورهم حين صالحوا رسول الله - ﷺ - على أن يؤمنهم على دمائهم ونسائهم وذراريهم، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من أموالهم، ويخلوا له دورهم وسائر أموالهم، فأجابهم رسول الله - ﷺ - إلى ذلك. فخرجوا من ديارهم، فمنهم من خرج إلى الشام، ومنهم من خرج إلى خيبر».

وقال السعدي(٤): «وكان إخراجهم منها أول حشر وجلاء كتبه الله عليهم، على يد رسوله محمد - ﷺ - إلى خيبر، ودلت الآية على أن لهم حشراً وجلاءً غير هذا، فقد وقع حين أجلاهم النبي - ﷺ - من خيبر، ثم عمر - رضي الله عنه - أخرج بقيتهم منها».

وهناك حشر آخر وهو حشرهم وجميع الخلق يوم القيامة في أرض الشام كما جاء في الحديث: «تخرج نار من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر»(٥).

﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا﴾ «ما» نافية، ومعنى ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا﴾ اي: ما حسبتم وما توقعتم أيها المسلمون أن يخرجوا من ديارهم لحصانتها ومنعتها وعزهم فيها وشدة بأسهم، وكثرة عددهم وعدتهم، ونحو ذلك.

﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾.

أي: وحسبوا لجهلهم وغرورهم وإعجابهم بحصونهم أنها ستمنعهم من الله إذا أراد

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، ١٠/ ٣٣٤٥ - الأثر ١٨٨٥٠.

(٢) أخرجه الحاكم ٢/ ٤٨٣ وصححه، وأقره الذهبي. وأخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» ٢/ ٤٤٤.

(٣) في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٩٦ - ٤٩٧.

(٤) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٢٧.

(٥) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة ٢٩٠١، وأبو داود في الملاحم ١/ ٤٣، والترمذي في الفتن ٢١٨٣، وابن ماجه في الفتن ٤٠٤١، ٤٠٥٥ من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري - رضي الله عنه.

بهم أمراً من الإخراج أو القتل أو غير ذلك.

قال الزمخشري[1]: «وفي تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم، وفي تصيير ضميرهم اسماً لأن وإسناد الجملة إليه دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يبالى معها بأحد يتعرض لهم أو يطمع في معازتهم، وليس ذلك في قولك: وظنوا أن حصونهم تمنعهم».

﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ﴾ أي: جاءهم الله - عز وجل - وأمره من حيث لم يظنوا، ولم يخطر ببالهم أن يؤتوا منه.

كما قال عز وجل: ﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦] وقال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧].

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ﴾ أي: ألقى في قلوبهم الخوف والهلع والهزيمة من داخلهم وهذا - فيما يظهر - تفسير لقوله: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ﴾ إذ كانوا يفتخرون بقوتهم ومنعتهم وحصونهم، فأتاهم الله من حيث لم يخطر لهم على بال، أي من باب وطريق لم يظنوا أنهم سيؤتون منه، فألقى الله في قلوبهم الرعب والخوف، وكان من أسباب ذلك قتل كعب بن الأشرف سيدهم، فانهزموا من داخلهم بعد أن نزل بهم رسول الله - ﷺ - في أصحابه وحاصرهم وفي الحديث قال ﷺ -: «نصرت بالرعب مسيرة شهر»[2].

قال السعدي [3]: «﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ﴾ وهو الخوف الشديد، الذي هو جند الله الأكبر، الذي لا ينفع معه عدد ولا عدة ولا قوة، ولا شدة. فالأمر الذي يحتسبونه، ويظنون أن الخلل يدخل عليهم منه إن دخل، هو الحصون التي تحصنوا بها، واطمأنت نفوسهم إليها، ومن وثق بغير الله فهو مخذول، ومن ركن إلى غير الله كان وبالاً عليه، فأتاهم أمر سماوي نزل على قلوبهم..»

ولهذا سألوا رسول الله - ﷺ - أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح ففعل فحملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل.

﴿يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ﴾ قرأ أبو عمرو: (يُخَرِّبون بيوتهم) بفتح الخاء وتشديد الراء،

---

(١) في «الكشاف» ٤/ ٧٩.

(٢) أخرجه البخاري في التيمم ٣٣٥، ومسلم في المساجد ٥٢١، والنسائي في الغسل والتيمم ٤٣٢ - من حديث جابر - رضي الله عنه.

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٢٨.

وقرأ الباقون بإسكان الخاء وتخفيف الراء.

أي: يهدمون بيوتهم ويفسدونها بأيديهم أنفسهم، حيث كان الواحد منهم يهدم بيته بيده بنفسه ليحمل ما يمكنه من المنقولات، من أخشاب وغيرها، حتى عتبات الأبواب على ظهر بعيره، فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام، وتركوا ديارهم وأموالهم وأسلحتهم لرسول الله – ﷺ – فحازها رسول الله – ﷺ – وكان فيها خمسون درعاً، وخمسمائة بيضة، وثلثمائة وأربعون سيفاً.

﴿وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ويهدمون بيوتهم ويفسدونها بأيدي المؤمنين، وذلك لإجبار المؤمنين لهم على ذلك حيث حاصروهم، وعاهدهم الرسول ﷺ على الكف عن دمائهم مقابل خروجهم ولهم ما تمكنوا من حمله من أثاث وغيره ما عدا السلاح.

﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ أي: خذوا العبرة والعظة يا أصحاب البصائر والعقول المستنيرة من حال هؤلاء اليهود الذين حل بهم من أمر الله ما لم يخطر لهم على بال من الذل والخوف من داخل نفوسهم فأخذوا يخربون ويهدمون بيوتهم بأنفسهم ويخرجون من ديارهم بسبب كفرهم ونقضهم العهود والمواثيق.

ووجه الخطاب بالاعتبار لأولي الأبصار والعقول – السليمة – لأنهم هم الذين تهديهم بصائرهم وعقولهم – إلى التأمل والنظر والبحث عن الحق والسماع له واتباعه.

﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾ الواو: استئنافية و«لولا» شرطية غير جازمة وهي: حرف امتناع لوجود، و«كتب» بمعنى: قدّر، و«الجلاء»: النفي والخروج من ديارهم وأموالهم، أي: ولولا أن قدر الله عليهم الجلاء واقتضته حكمته.

﴿لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ جواب «لولا» واللام واقعة في جواب «لولا»، أي: لعذبهم في الدنيا عذاباً آخر بالقتل والسبي ونحو ذلك كما فعل بإخوانهم بني قريظة بعد ذلك لما نقضوا العهد.

أي: لولا أن الله – عز وجل – قدر عليهم الجلاء والنفي والإخراج من ديارهم وأموالهم – وهو بلا شك عذاب لهم وعقوبة ـ لعذبهم في الدنيا عذاباً أشد من ذلك بالقتل والسبي ونحو ذلك.

ففي الآية إشارة إلى استحقاقهم عذاباً أشد من الجلاء، لكن الله عز وجل قدر عليهم واختار لهم ما هو أخف وهو الجلاء.

﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ أي: ولهم مع عذاب الدنيا سواء أُجْلُوا أو قتلوا عذاب النار، وهو العذاب الأكبر كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ﴾ [الزمر: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [القلم: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ﴾ [البقرة: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ﴾ الإشارة لما سبق من إخراج أهل الكتاب من ديارهم إلى أرض المحشر الشام، وقذف الرعب في قلوبهم، وحملهم على تخريب بيوتهم، وما أعد لهم في الآخرة من عذاب النار ﴿بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ﴾ أي: بسبب أنهم شاقوا الله ورسوله، أي: عادوا الله ورسوله، وخالفوا أمر الله ورسوله.

والمشاقة: أن يتخذ المشاق شقاً وجانباً غير شق الآخر وجانبه.

والمعنى: أنهم خالفوا وعصوا وحادوا الله ورسوله وكذبوا ما جاءهم من الحق على السنة رسل الله، ومنهم خاتمهم محمد عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام، كما قال عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وعطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسمه – عز وجل – بالواو التي تقتضي التشريك في الحكم لأن مشاقة الرسول ﷺ مشاقة لله – عز وجل .

﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾

لما كان المقام مقام ذكر العقاب، لم يقل: ومن يشاق الله ورسوله – وإن كان المعنى هكذا – لأن أمر الثواب والعقاب إلى الله وحده، أي: ومن يخالف الله – عز وجل – ويعص أمره ويرتكب نهيه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ أي: فإن الله شديد العقاب لمن شاقه وخالف أمره وارتكب نهيه، كما قال عز وجل ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦].

﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

سبب النزول:

عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أن رسول الله – ﷺ – حرق نخل بني النضير وقطع، وهي البويرة – فأنزل الله – عز وجل: ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً

عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾»[١].

وفي رواية عن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال: «حاربت النضير وقريظة، فأجلى بني النضير وأقر قريظة ومنّ عليهم حتى حاربت قريظة فقتل رجالهم وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين، إلا بعضهم لحقوا بالنبي – ﷺ – فأمنهم وأسلموا، وأجلى يهود المدينة كلهم بني قينقاع، وهم رهط عبد الله بن سلام، ويهود بني حارثة، وكل يهود بالمدينة»[٢].

وفي رواية عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ حرق نخل بني النضير، قال: ولها يقول حسان بن ثابت – رضي الله عنه:

وهان على سراة بني لُؤيّ[٣] حريـق بالبويرة مُسْتطير

قال: فأجابه أبو سفيان بن الحارث:

أدام الله ذلك من صنيـع وحرّق في نواحيها السعير
ستعلم أينـا منهـا بنُزْهٍ[٤] وتعلم أي أرضينا تضير»[٥]

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ قال: «يستنزلونهم من حصونهم وأمروا بقطع النخل، فحاك في صدورهم، فقال المسلمون: قطعنا بعضاً وتركنا بعضا، فلنسألن رسول الله – ﷺ -: هل لنا فيما قطعنا من أجر؟ وهل لنا فيما تركنا من وزر، فأنزل الله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾»[٦].

وعن جابر – رضي الله عنه – قال: «رخص لهم في قطع النخل، ثم شدد عليهم، فأتوا النبي – ﷺ – فقالوا: يا رسول الله علينا إثم فيما قطعنا، أو علينا وزر فيما تركنا؟ فأنزل الله – عز وجل -: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾»[٧].

وعن يزيد بن رُومان قال: «لما نزل رسول الله – ﷺ بهم – يعني بني النضير – تحصنوا منه في الحصون، فأمر رسول الله – ﷺ – بقطع النخل والتحريق فيها، فنادوه: يا محمد قد كنت

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي – حديث بني النضير ٤٠٣١، ومسلم في الجهاد – جواز قطع أشجار الكفار وتحريقها ١٧٤٦، وأبو داود في الجهاد ٢٦١٥، والترمذي في السير ١٥٥٢، وابن ماجه في الجهاد ٢٨٤٤، وأحمد ٢/٨٠٧.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠٢٨ ومسلم في الجهاد والسير ١٧٤٦، وأبو داود في الخراج والإمارة والفيء ٣٠٠٥.

(٣) السراة الرؤساء، وبنو لؤي: هم قريش، فهم الذين أغروا بني النضير بنقض العهد ووعدوهم أن ينصروهم.

(٤) النزه: البعد. وهذا إنما قاله أبو سفيان قبل إسلامه – رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠٣٢ وانظر «ديوان حسان» ص١١٠ طبعة بيروت، و«سيرة ابن هشام» ٢/ ٢٧٢.

(٦) أخرجه الترمذي في التفسير ٣٣٠٣، وقال: «حديث حسن غريب».

(٧) أخرجه الحافظ أبو يعلى في مسنده فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٨٦ وانظر «جامع البيان» ٢٢/ ٥١١.

تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها فأنزل الله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾»[1].

قوله ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ (ما) اسم شرط جازم في محل نصب لـ (قطعتم) و«قطعتم» فعل شرط، وجوابه (فبإذن الله) واللينة: النخلة، واللين: النخل والتمر.

﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ أي: فلم تقطعوها ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، أي: كل ذلك القطع أو تركه ﴿بإذن الله﴾ أي: بأمره الكوني والشرعي، كما أحل - عز وجل - لنبيه ﷺ القتال بمكة ساعة من نهار.

﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: وليذل الفاسقين الخارجين عن طاعة الله ورسوله من اليهود وأوليائهم من المنافقين وغيرهم. وفي هذا إشارة إلى أن في قطع النخل إذلالاً للفاسقين، وكان من أسباب إلقاء الرعب في قلوبهم.

ولقد سجل هذا النصر للمسلمين في إجلاء بني النضير، وقتل كعب بن الأشرف عدد من شعراء المسلمين - قال كعب بن مالك - رضي الله عنه:

لقد خزيت بغدرتها الحبور[2] كذاك الدهر ذو صرف يدور
وذلك أنهم كفروا برب عظيم أمره أمر كبير
وقد أوتوا معاً فهماً وعلماً وجاءهُمُ من الله النذير
نذير صادق أدى كتاباً وآيات مبينة تنير
فقالوا ما أتيت بأمر صدق وأنت بمنكر منا جدير
فقال: بلى لقد أديت حقاً يصدقني به الفَهِم الخبير
فمن يتبعه يهد لكل رشد ومن يكفر به يجز الكفور
فلما أُشربوا غدراً وكفراً وجدّبهم عن الحق النفور
أرى الله النبي برأي صدق وكان الله يحكم لا يجور
فأيده وسلطه عليهم وكان نصيره نعم النصير
فغودر منهم كعب صريعاً فذلت بعد مصرعه النضير

إلى أن قال:

فذاقوا غب أمرهم وبالاً لكل ثلاثة منهم بعير[3]

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥١٠، وانظر ٥١١.
(٢) الحبور: جمع حبر، أراد بها علماء اليهود.
(٣) أي: يتعاقبون عليه في خروجهم.

وأجلوا عامدين لقينقاع   وغودر منهُمُ نخل ودور [(١)]

الفوائد والعبر:

١ ـ أن كل ما في السموات وما في الأرض يسبح الله عز وجل.

٢ ـ إثبات اسمين من أسماء الله عز وجل وهما «العزيز» و «الحكيم» وأنه ذو العزة التامة، وذو الحكم النافذ والحكمة البالغة.

٣ ـ قدرة الله عز وجل ـ وقوته وشدة بأسه، وعظيم نعمته على المؤمنين في إخراجه يهود بني النضير من المدينة إلى أرض المحشر الشام مع استبعاد المؤمنين خروجهم، واغترار بني النضير بقوتهم ومنعة حصونهم.

٤ ـ الإشارة إلى أن أرض المحشر هي الشام.

٥ ـ لا عاصم من أمر الله وإذا أراد الله بقوم سوءً فلا دافع له ولا مانع.

٦ ـ هزيمة الله ـ عز وجل ـ لبني النضير من داخل أنفسهم مما لم يخطر ببالهم، وإلقاؤه الرعب في قلوبهم، مما جعلهم يخربون بيوتهم ويخرجون من ديارهم بعد حصارهم.

٧ ـ وجوب أخذ العبرة والعظة مما حل ببني النضير مما لم يخطر لهم على بال من الذل والخوف من داخل نفوسهم ومن ثم تخريبهم بيوتهم وإخراجهم صاغرين ـ بسبب كفرهم ونقضهم العهود والمواثيق.

٨ ـ إنما يتذكر ويعتبر أصحاب العقول والبصائر.

٩ ـ أن ما أحله الله ببني النضير من الجلاء هو ما كتبه الله عليهم وهو أخف العقوبتين، أي: أخف من القتل والسبي ونحو ذلك.

١٠ ـ الوعيد الشديد لليهود بعذاب النار في الآخرة لكفرهم وصدهم عن سبيل الله ونقضهم العهود.

١١ ـ ذم يهود بني النضير بمشاقة الله والرسول ومخالفتهم أمر الله ورسوله وأن ما حلّ بهم من الجلاء والوعيد في النار هو بسبب ذلك.

١٢ ـ جواز عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم الله في باب المخالفة والطاعة بالواو التي تقتضي التشريك في الحكم، لأن معصية الرسول ﷺ معصية لله وطاعته طاعة لله ـ عز وجل.

١٣ ـ شدة عقاب الله ـ عز وجل ـ وانتقامه ممن خالف أمره وعصاه.

١٤ ـ أن ما حصل من المؤمنين من قطع لبعض نخيل بني النضير وترك لبعضها هو بإذن الله وأمره الكوني والشرعي.

١٥ ـ أن إذن الله ـ عز وجل ـ للمؤمنين بقطع نخيل بني النضير هو لإذلالهم وإلقاء الرعب في قلوبهم.

١٦ ـ بلوغ يهود بني النضير غاية الفسق والخروج عن طاعة الله ـ عز وجل.

---

(١) انظر «السيرة النبوية» لابن هشام ٢/ ١٩٩ - ٢٠٠، «تفسير ابن كثير» ٨/ ٨٧ - ٨٨، «البداية والنهاية» ٥/ ٥٤١.

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٧﴾.

صلة الآيتين بما قبلهما:

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة أنه هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم وكتب عليهم الجلاء منها، بياناً لقدرة الله ـ عز وجل ـ وقوته وامتنانا على عباده المؤمنين ثم ذكر منته على رسوله ﷺ بما أرجع إليه من أموال بني النضير من غير قتال وحكم هذه الأموال ثم ذكر حكم أموال الفيء عموماً.

قوله: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ﴾ أي: وما رده الله على رسوله منهم، أي: من أموال بني النضير. و«أفاء» بمعنى: رد وأرجع، ومنه سمي الفيء وهو ظل الزوال، من فاء أي: رجع.

والفيء: هو ما أُخذ من أموال الكفار بحق من غير قتال.

والمعنى: وما رده الله وأرجعه على رسوله من أموال بني النضير.

وفي هذا إشارة إلى أن المال لا يستحقه إلا الرسل وأتباعهم المؤمنون فقوله: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: وما رده ممن لا يستحقه إلى من يستحقه، كما قال عز وجل: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ﴾ [الأعراف: ١٢٨] وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [النور: ٥٥].

﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، و«ما» نافية، والإيجاف: الإسراع، والركاب: الإبل.

أي: فما أسرعتم عليه من خيل ولا إبل ولا سيرتموها ولا قاتلتم ولا بارزتم للحصول عليه، أي: لم تتعبوا بتحصيلها لا بأنفسكم ولا بخيلكم وإبلكم.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ﴾ الواو: عاطفة، أي: ولكن الله يسلط رسله على من يشاء، كما سلط رسوله محمداً ﷺ على بني النضير فحاصرهم، وأوقع الله في قلوبهم الرعب، فخرجوا وتركوا ديارهم وأموالهم، فصارت أموالهم فيئاً رده الله إلى رسوله ﷺ يضعها كيف يشاء.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم

يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت لرسول الله - ﷺ - خاصة، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته، وقال مرة: قوت سنته، وما بقي جعله على الكراع والسلاح في سبيل الله عز وجل»[١].

وقد روي أن رسول الله ﷺ قسمها بين المهاجرين، ولم يعط الأنصار شيئاً إلا رجلين هما سهل بن حنيف، وأبو دجانة سماك بن خرشة، ذكرا فقرا فأعطاهما[٢].

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: والله عز وجل على كل شيء قدير أيًّا كان ذلك الشيء صغيراً كان أو كبيراً، قليلاً كان أو كثيراً ولهذا قدم المتعلق وهو قوله ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ على قوله ﴿قَدِيرٌ﴾ فهو عز وجل ذو القدرة التامة على كل شيء، ومن قدرته عز وجل أن أنزل الذين كفروا من أهل الكتاب من حصونهم وأخرجهم وأجلاهم من ديارهم، بلا قتال، بل بهزيمتهم من داخلهم بإلقاء الرعب والخوف في قلوبهم.

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: ما رد الله على رسوله من أموال أهل القرى التي تفتح بدون قتال.

﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ .

أي: فسهم منه لله - عز وجل، وسهم منه للرسول ﷺ يضعه مع سهم الله - عز وجل - في مصالح المسلمين، وسهم منه (لذي القربى) أي: لقرابة الرسول - ﷺ - وهم بنو هاشم وبنو المطلب يسوى بين ذكورهم وإناثهم، وسهم منه لليتامى، وهم الذين فقدوا آباءهم وهم دون البلوغ، قال ﷺ: «لا يتم بعد احتلام»[٣].

وسهم منه للمساكين، وهم من لا يجدون كفايتهم، أو لا يجدون شيئا، سموا مساكين من السكون، وهو عدم الحركة لأن الفقر أسكنهم وأذلهم، وسهم منه لابن السبيل، وهو المسافر المنقطع في سفره ولو كان غنيا في بلده، سمي بابن السبيل لملازمته السبيل وهو الطريق للسفر.

وهذه المصارف المذكورة للفيء في هذه الآية هي مصارف خمس الغنيمة المذكورة في سورة الأنفال في قوله - عز وجل -: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الآية: ٤١].

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٠٤، ومسلم في الجهاد ١٧٥٧، وأبو داود في الخراج ٢٩٦٥، والنسائي في قسم الفيء ٤١٤٠، والترمذي في الجهاد ١٧١٩، وأحمد ١/ ٢٥، ٤٨، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥١٩. وانظر «زاد المعاد» ٥/ ١٢٨.

(٢) انظر «السيرة النبوية» ٢/ ١٩٠ - ١٩٢، «سنن أبي داود»، ـ كتاب الخراج ٢٩٧١ «جامع البيان» ٢٢/ ٥٠٠ - ٥٠٢، ٥١٣، ٥١٨ - ٥٢٠، ٥٢٦، «سنن البيهقي» ٦/ ٢٩٦ «تفسير ابن كثير» ٨/ ٨٣ - ٨٤، ٩٠، «البداية والنهاية» ٥/ ٥٣٧.

(٣) أخرجه أبو داود في الوصايا ٢٨٧٣ ـ من حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه.

وهذه هي المصارف الخاصة للفيء، وهم أهل الخمس، ومصارفه العامة هم المهاجرون والأنصار والتابعون لهم إلى يوم الدين، لقوله تعالى بعد هذا: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ الآية، وبهذا عمل ﷺ وخلفاؤه الراشدون.

قال ابن القيم[1] : «ومن تأمل النصوص وعمل رسول الله ﷺ ـ وخلفائه وجده يدل على قول أهل المدينة ـ يعني هذا القول ـ فإن الله سبحانه جعل أهل الخمس هم أهل الفيء، وعينهم اهتماماً بشأنهم وتقديماً لهم، ولما كانت الغنائم خاصة بأهلها، لا يشركهم فيها سواهم نص على خمسها لأهل الخمس، ولما كان الفيء لا يختص بأحد دون أحد جعل جملته لهم وللمهاجرين والأنصار وتابعيهم، فسوى بين الخمس وبين الفيء في المصرف، وكان رسول الله ﷺ يصرف سهم الله وسهمه في مصالح الإسلام، وأربعة أخماس الخمس في أهلها مقدماً للأهم فالأهم، والأحوج فالأحوج، فيزوج منه عزابهم، ويقضي منه ديونهم، ويعين ذا الحاجة منهم، ويعطي عزبهم حظاً ومتزوجهم حظين، ولم يكن هو ولا أحد من خلفائه يجمعون اليتامى والمساكين وأبناء السبيل وذوي القربى ويقسمون أربعة أخماس الفيء بينهم على السوية، ولا على التفضيل، كما لم يكونوا يفعلون ذلك في الزكاة، فهذا هديه وسيرته، وهو فصل الخطاب ومحض الصواب».

﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ قرأ أبو جعفر (تكون) بالتأنيث، و(دولةٌ) بالرفع، وقرأ الباقون ﴿ يكون ﴾ بالتذكير ونصب ﴿ دولةً ﴾.

﴿كَيْ﴾ حرف مصدري ونصب، و«لا» حرف نفي. أي: جعلنا هذه المصارف لمال الفيء لئلا يكون متداولاً بين الأغنياء فقط يستأثرون به دون الفقراء.

ويؤخذ من هذا تعليل أحكام الله – عز وجل – وأن ما شرعه لحكمة، كما أن ما قدره وقضاه كوناً لحكمة أيضا.

كما يؤخذ من هذا وجوب مراعاة حقوق اليتامى والمساكين وابن السبيل وذوي الحاجات في المجتمع المسلم، وأن الإسلام وسط بين الشيوعية والرأسمالية.

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ الواو: عاطفة، و«ما» اسم شرط جازم في الموضعين.

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤٢٣ ـ ٤٢٥، «زاد المعاد» ٥/ ٨٤ ـ ٨٧.

والمعنى: وما أعطاكم الرسول من الفيء وغيره ﴿فَخُذُوهُ﴾ وما أمركم به من الأوامر فافعلوه.

﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ أي: وما نهاكم عنه من الفيء وغيره من النواهي فانتهوا عنه واتركوه.

قال ابن كثير [(١)]: «أي: مهما أمركم به فافعلوه ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر».

و«ما» في الموضعين تفيد العموم في المأمورات والمنهيات ويدخل فيها كل ما أمر به الشرع وكل ما نهى عنه، فقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ قاعدة أصولية وأصل عام يشمل جميع أصول الدين وفروعه وأن ما جاء به الرسول ﷺ يجب الأخذ به واتباعه، سواء كان مما جاء في القرآن الكريم، أو مما جاء في السنة النبوية، لا فرق في ذلك، فكل ذلك وحي من عند الله - عز وجل - كما قال - عز وجل -: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحُسْن، المغيرات خلق الله - عز وجل - قال: فبلغ امرأة في البيت يقال لها أم يعقوب، فجاءت إليه، فقالت: بلغني أنك قلت كيت وكيت. قال: ما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وفي كتاب الله. فقالت: إني لأقرأ ما بين لوحيه فما وجدته. فقال: إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه. أما قرأت: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ قالت: بلى. قال: فإن النبي ﷺ نهى عنه» [(٢)].

وعن سعيد بن جبير أنه سمع ابن عمر وابن عباس أنهما شهدا على رسول الله - ﷺ - أنه نهى عن الدُّبَّاء والحنتم والمزفت والنقير، ثم تلا رسول الله - ﷺ - هذه الآية ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [(٣)].

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٩٢.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحشر ٤٨٨٦، ومسلم في اللباس - تحريم فعل الواصلة ٢١٢٥، وأبو داود في الترجل ٤١٦٩، والنسائي في الزينة ٥٠٩٩، والترمذي في الأدب ٢٧٨٢، وابن ماجه في النكاح ١٩٨٩، وأحمد ١/ ٤٣٣ - ٤٣٤.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ النسائي في الأشربة ٥٦٤٣. وأخرجه من غير ذكر الآية البخاري في الإيمان ٥٣، ومسلم في الأشربة ١٩٩٧، وأبو داود في الأشربة ٣٦٩٠، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٣١، والترمذي في الأشربة ١٨٦٨، وابن ماجه في الأشربة ٣٤٠٢ من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

وفعل الأوامر مقيد بالاستطاعة، لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

أما ترك النواهي فهو بمقدور كل أحد، ولهذا قال ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه»(١).

لكن الضرورات في الإسلام تقدر بقدرها، فمن ألجاته الضرورة، أو أكره على فعل أو قول منهي عنه فهو معذور قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦].

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن خالف أمره أو ارتكب نهيه، فعقابه شديد من حيث كمه وكيفه ووقته ونوعه.

الفوائد والعبر:

١ - بيان أن أموال بني النضير التي ردها الله - عز وجل - على رسوله بلا قتال هي له ﷺ خاصة يضعها كيف يشاء، والإشارة إلى أن الغنم على قدر الغرم.

٢ - إثبات المشيئة لله - عز وجل - وإثبات قوته وقدرته على كل شيء.

٣ - بيان مصرف الفيء الذي يأخذه المسلمون من الكفار بغير قتال، وأنه يجعل ستة أسهم سهم لله وسهم للرسول ﷺ يوضعان في مصالح المسلمين وسهم لقرابة الرسول ﷺ، بني هاشم وبني المطلب، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين وسهم لابن السبيل، وهي مصارف خمس الغنيمة المذكورة في سورة الأنفال في قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الآية: ٤١].

٤ - أن الله عز وجل جعل الفيء في هذه المصارف الستة لئلا يبقى متداولاً بين الأغنياء يستأثرون به دون الفقراء.

٥ - عناية الإسلام بقرابة النبي ﷺ واليتامى والمساكين وابن السبيل، ومصالح المسلمين.

٦ - وجوب الأخذ بما جاء به الرسول ﷺ والانتهاء عما نهى عنه، وتقوى الله - عز وجل.

٧ - شدة عقاب الله لمن خالف أمره وعصاه.

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام - الاقتداء برسول الله ﷺ ٧٢٨٨، ومسلم في الفضائل - توقيره ﷺ ١٣٣٧، والنسائي في مناسك الحج ٢٦١٩، وابن ماجه في المقدمة ١.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله ـ عز وجل ـ في الآية السابقة مصارف الفيء الخاصة، ثم أتبع ذلك بذكر مصارفه العامة، وهم المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين ـ مردفاً ذلك بالثناء عليهم حسب فضلهم ومنزلتهم، المهاجرون، ثم الأنصار، ثم التابعون لهم.

قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ «للفقراء» بدل من قوله «ولذي القربى» وما عطف عليه، أو خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: ما أفاء الله على رسوله للفقراء المهاجرين ـ إلى آخر ما عطف عليه، أو معطوف على ما قبله مع حذف حرف العطف والتقدير: وللفقراء المهاجرين. وقيل غير ذلك.

أي: أن مصارف الفيء العامة هم الفقراء المهاجرون، والذين تبوؤوا الدار والإيمان والذين جاؤوا من بعدهم.

والفقير والمسكين إذا انفرد كل منهما شمل الآخر وصارا صنفاً واحداً أما إذا ذكرا جميعاً كما في قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] فهما صنفان. وقد اختلف أهل العلم أيهما أحسن حالاً المسكين أو الفقير.

وقد يستدل بهذه الآية على ما ذهب إليه أكثر أهل العلم من أن الفقير أسوأ حالاً لأنه لا يملك شيئاً ولهذا سمى الله المهاجرين فقراء، لأنهم لا شيء عندهم البتة هاجروا وتركوا ديارهم وأموالهم.

وأيضا فإن الفقير مأخوذ من انفصام فقار الظهر، المؤدي إلى الهلكة وقد استعاذ ﷺ من الفقر، فقال ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر وعذاب القبر»[1]. بينما سأل ـ ﷺ

(١) أخرجه النسائي في السهو ١٣٤٧ ـ من حديث أبي بكرة ـ رضي الله عنه.

- المسكنة، فقال: «اللهم أحيني مسكينا، وأمتني مسكينا، واحشرني في زمرة المساكين»[١].

وقد أوصل بعضهم الأقوال في الفرق بين الفقير والمسكين إلى أحد عشر قولاً[٢].

و﴿ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ جمع مهاجر، مأخوذ من الهجرة، وهي لغة: الترك، وشرعاً: الخروج من بلد الشرك إلى بلد الإسلام.

والمراد: الذين هاجروا من مكة إلى المدينة من الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم، يوم أن كانت مكة - شرفها الله - دار كفر، فلما فتحها ﷺ وصارت دار إسلام فلا هجرة منها قال ﷺ في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا»[٣]، أي: لا هجرة من مكة بعد فتحها.

والهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام باقية إلى قيام الساعة، قال ﷺ: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»[٤].

﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ اي: الذين اخرجهم كفار مكة من ديارهم وأموالهم، وذلك بالتضيق عليهم وأذيتهم لهم في أبدانهم وعدم تمكينهم من أداء شعائر دينهم، واضطرارهم إلى الخروج من مكة وترك ديارهم وأموالهم وأهليهم وعشائرهم، حتى إن الواحد منهم يربط الحجر على بطنه من شدة الجوع ويتخذ الحفرة دثاراً له في الشتاء من شدة الحاجة.

وفي نسبة الديار إلى المهاجرين دليل على جواز تملك رباع مكة وبيعها وتأجيرها.

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الجملة حالية. أي: حال كونهم يطلبون ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ اي: زيادة في دينهم ودنياهم وأجراً في آخرتهم.

كما قال عز وجل: ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠] أي: سعة في دينه ودنياه.

﴿وَرِضْوَٰنًا﴾ اي: ورضوان الله - عز وجل - عنهم.

---

(١) اخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٥٢، من حديث انس رضي الله عنه. وقال هذا حديث غريب» واخرجه ابن ماجه في الزهد ٤١٢٦ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) انظر «الناسخ والمنسوخ» للنحاس ٢/ ٤٤٢ - ٤٤٦، «شرح الطحاوية» ٢/ ٤٥٢، «تفسير آيات الأحكام في سورة النساء» ١/ ١٦٠.

(٣) اخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٧٨٣، ومسلم في الحج ١٣٥٣، وأبو داود في الجهاد ٢٤٨٠، والنسائي في البيعة ٤١٧٠، والترمذي في السير ١٥٩٠.

(٤) اخرجه أبو داود في الجهاد ٢٤٧٩، والدارمي في السير ٢٥١٣ - من حديث معاوية - رضي الله عنه.

فهجرتهم خالصة لله عز وجل طلباً للزيادة والفضل منه – سبحانه وتعالى، وطلباً لرضاه.

﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ الواو: عاطفة، والجملة في محل نصب معطوفة على ﴿يَبْتَغُونَ﴾ أي: فخروجهم وهجرتهم لابتغاء الفضل والرضوان من الله ـ عز وجل ـ ولأجل نصرة دين الله ورسوله. فنصرة الله ـ عز وجل ـ بنصرة دينه، ونصرة رسوله ـ ﷺ ـ بنصرته نفسه ودينه في حياته، ونصرة دينه بعد وفاته.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ أي: الصادقون في إيمانهم ظاهراً وباطناً، وفي هجرتهم، الذين صدَّقوا إيمانهم وأقوالهم بفعالهم، فخرجوا وتركوا ديارهم وأموالهم، طلباً للفضل من الله والرضوان ونصرة الله ورسوله، كما قال ﷺ: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله» بخلاف من قال فيهم: «ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»(١).

والهجرة في سبيل الله وترك المحبوبات والمألوفات من الديار والأهل والأولاد والأموال والعشيرة ونحو ذلك من أعظم الدلائل على صدق الإيمان.

عن عبد الله بن عدي رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ واقفاً على الحزْوَرَة(٢)، فقال: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»(٣).

وقد قيل:

كم منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه دوماً لأول منزل

وقال الآخر:

بلادي وإن جارت عليّ عزيزة ... وأهلي وإن ضنوا علي كرام

ولهذا لما أراد بعض الصحابة - رضوان الله عليهم - الهجرة منعهم أولادهم فأنزل الله – عز وجل – قوله: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤](٤).

فليس من السهل على النفوس ترك هذه المحبوبات والمألوفات إلا على من تركها إيثاراً لما هو أحب إليه منها، وهو طلب مرضاة الله عز وجل، وما عنده من الثواب

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٤، ومسلم في الإمارة ١٩٠٧، وأبو داود في الطلاق ٢٢٠١، والنسائي في الطهارة ٧٥، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٤٧، وابن ماجه في الزهد ٤٢٢٧ – من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) الحزْوَرَة على وزن قسورة موضع في مكة عند باب الحناطين.

(٣) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٩٢٥، وابن ماجه في المناسك ٣١٠٨ – وقال الترمذي: «حديث حسن غريب صحيح».

(٤) انظر سبب نزول هذه الآية في الكلام عليها في تفسير سورة التغابن.

العظيم في جنات النعيم.

وهذا يدل على فضل المهاجرين الأولين، وقدمهم في السبق في الإيمان - رضي الله عنهم وأرضاهم -، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

قال ابن كثير[١]: «وهؤلاء هم الذين صدقوا قولهم بفعلهم، وهؤلاء هم سادات المهاجرين».

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

أثنى الله - عز وجل - على المهاجرين، ثم أتبع ذلك بالثناء على الأنصار - رضي الله عنهم وأرضاهم - مبينا فضلهم وشرفهم وكرمهم وسلامة صدورهم، وإيثارهم - مع حاجتهم - لإخوانهم المهاجرين، وأن لهم نصيباً من الفيء.

عن يزيد بن الأصم - رضي الله عنه -: «أن الأنصار قالوا: يا رسول الله، اقسم بيننا وبين إخواننا المهاجرين الأرض نصفين، قال: «ولكنهم يكفونكم المؤونة وتقاسمونهم الثمرة، والأرض أرضكم». قالوا: رضينا، فأنزل الله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾»[٢].

قوله ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الواو: استئنافية[٣]. أي: والذين سكنوا دار الهجرة المدينة من قبل المهاجرين، وسبقوا إلى الإيمان قبل كثير منهم.

وذلك أن الأنصار أسلم منهم من أسلم قبل الهجرة، وقدم منهم من قدم في العقبة الأولى والعقبة الثانية، وبايعوا النبي ﷺ على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأولادهم.

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: يحبون محبة صادقة في الله ولله من هاجر إليهم من إخوانهم المهاجرين.

قال ابن كثير[٤]: «أي: من كرمهم وشرف أنفسهم يحبون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم».

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ أي: ولا يحسون في صدورهم لسلامتها ﴿حَاجَةً﴾ من حسد أو ضغينة أو حرج على إخوانهم المهاجرين ﴿مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ أي: مما

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٩٤.
(٢) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ص٢٨٠.
(٣) وقيل عاطفة، فيكون قوله ﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان ﴾ معطوفاً على قوله ﴿ للمهاجرين ﴾ انظر «الكشاف» ٤/ ٨٢.
(٤) في «تفسيره» ٨/ ٩٤.

أعطاهم الله من الفضل والشرف، والتقديم في الذكر، والرتبة والمنزلة الرفيعة.

وفي هذا دلالة على أن المهاجرين أفضل من الأنصار، لأن الله قدمهم في الذكر، وذكر أن الأنصار لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، فدل على أن الله آتاهم ما لم يؤت الأنصار ولا غيرهم، ولأنهم جمعوا بين النصرة والهجرة.

وقيل: ﴿مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ من الفيء وغيره، يعني أن نفوسهم لا تتبع ما أعطي إخوانهم المهاجرون من الفيء وغيره.

والسلامة من الحسد وأمراض القلوب مقام رفيع ومطلب عزيز لا يرتقي إليه إلا من رزقه الله قلباً سليما، كما قال عز وجل: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: «كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ فقال: يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة، فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه، قد تعلق نعليه بيده الشمال، فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث، قال رسول الله ﷺ مثل مقالته أيضا، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى فلما قام رسول الله ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو ابن العاص، فقال: إني لاحيت [(١)] أبي، فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثاً، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت. قال: نعم. قال أنس: فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الثلاث الليالي، فلم يره يقوم من الليل شيئا، غير أنه إذا تعارَّ وتقلب على فراشه ذكر الله وكبر، حتى يقوم لصلاة الفجر. قال عبد الله: غير أني لم أسمعه يقول إلا خيراً، فلما مضت الثلاث ليال، وكدت أن أحتقر عمله، قلت: يا عبد الله، لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجر، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرات: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة». فطلعت أنت الثلاث المرار، فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك فأقتدي به، فلم أرك تعمل كثير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟ قال: ما هو إلا ما رأيت. فلما وليت دعاني، فقال: ما هو إلا ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه. قال عبد الله: هذه التي بلغت بك وهي التي لا تطاق»[(٢)].

---

(١) اي: نازعت.

(٢) اخرجه احمد ٣/ ١٦٦، والطبراني بإسناد حسن. قال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٩٦: «ورواه النسائي في اليوم والليلة =

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ .

سبب النزول:

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: أتى رجل رسول الله – ﷺ – فقال: يا رسول الله، أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه، فلم يجد عندهن شيئا، فقال النبي ﷺ: «ألا رجل يضيف هذا الليلة، رحمه الله،؟» فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله، فذهب إلى أهله فقال لامرأته: ضيف رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئاً. فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية. قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم، وتعالي، فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة. ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله – ﷺ – فقال: «لقد عجب الله – عز وجل – أو ضحك من صنيعكما البارحة» وأنزل الله عز وجل: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ وفي رواية لمسلم تسمية هذا الأنصاري بأبي طلحة – رضي الله عنه»[١].

قوله ﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾ أي: ويقدمون، والإيثار أن يقدم الإنسان غيره على نفسه بمحاب النفس من المال والطعام والشراب والمتاع ونحو ذلك، مع حاجته إلى ذلك أو ضرورته إليه، وهو أكمل أنواع الجود والكرم، وهو ضد الأثرة والجشع والطمع والشح والأنانيّة.

﴿خَصَاصَةٌ﴾: حاجة وفاقة وفقر.

والمعنى: أنهم رضي الله عنهم يقدمون على أنفسهم المحتاجين من إخوانهم المهاجرين ولو كان بهم حاجة وفاقة، فيبدؤون بحاجة غيرهم قبل حاجتهم. وقد قال ﷺ: «أفضل الصدقة جهد المقل»[٢].

عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: قال المهاجرون: يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم

=

عن سويد بن نصر عن ابن المبارك عن معمر، به. وهذا إسناد صحيح على شرط الصحيحين، لكن رواه عقيل وغيره عن الزهري، عن رجل، عن أنس فالله أعلم. وانظر «العلل» للدارقطني (٤/ ٢٦/ب) و«مرويات الإمام الزهري المعللة» للدكتور عبد الله دمفو ٣/ ١٣١١ حديث ٧٩، «مجموع الفتاوى» ١٠/ ١١٨ – ١١٩.

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحشر ٤٨٨٩، ومسلم في الأشربة – إكرام الضيف ٢٠٥٤، والترمذي في تفسير سورة الحشر ٣٣١٤، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٢٨.

(٢) أخرجه أبو داود في الوتر ـ فضل التطوع في البيت ١٤٤٩، والنسائي في الزكاة ـ جهد المقل ٢٥٢٦، وأحمد ٣/ ٤١١ – ٤١٢ من حديث عبد الله بن حبشي رضي الله عنه. وأخرجه أيضا ٢/ ٣٥٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. ومن حديث أبي ذر – رضي الله عنه – ٥/ ١٧٨، ١٧٩، ٢٦٥.

قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلاً في كثير لقد كفونا المؤونة، وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله. قال: «لا، ما أثنيتم عليهم، ودعوتم الله لهم»[(١)].

وعن أنس - رضي الله عنه - قال: دعا النبي - ﷺ - الأنصار أن يُقطع لهم البحرين، قالوا: لا، إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها. قال: «إما لا، فاصبروا حتى تلقوني فإنه سيصيبكم بعدي أثرة» [(٢)].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: «قالت الأنصار: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: «لا» فقالوا: تكفونا المؤونة ونشرككم في الثمرة؟ قالوا: سمعنا وأطعنا»[(٣)].

والإيثار منزلة عظيمة ودرجة رفيعة من أعلى مراتب الكرم، إن لم تكن أعلاها، ولقد ضرب الأنصار رضي الله عنهم وغيرهم من صحابة رسول الله ﷺ في هذا أروع الأمثال.

قال ابن كثير [(٤)] في كلامه على قوله ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾: «وهذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله بقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان: ٨]، وقوله: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١٧٧] فإن هؤلاء يتصدقون وهم يحبون ما تصدقوا به، وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورة به، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه ومن هذا المقام تصدق الصديق رضي الله عنه بجميع ماله، فقال له رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك»؟ فقال: أبقيت لهم الله ورسوله» [(٥)].

وهذا الماء الذي عرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك، فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه، وهو جريح مثقل أحوج ما يكون إلى الماء، فرده الآخر إلى الثالث، فما وصل الثالث حتى ماتوا عن آخرهم، ولم يشربه أحد منهم رضي الله عنهم وأرضاهم».

فكفى الأنصار رضي الله عنهم شرفاً وفخراً آووا رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام، وأحبوهم، وواسوهم بكل ما يملكون مع سلامة صدورهم عليهم وإيثارهم لهم على أنفسهم.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ الواو: اعتراضية، و«من» شرطية، و«يوق» فعل الشرط

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٢٠٠ - ٢٠١، ٢٠٤، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٨٧.

(٢) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار - قول النبي ﷺ للأنصار: «اصبروا حتى تلقوني على الحوض» ٣٧٩٤.

(٣) أخرجه البخاري في المزارعة ـ إذا قال: اكفني مؤونة النخل أو غيره وتشركني في الثمرة ٢٣٢٥.

(٤) في «تفسيره» ٨/ ٩٦ - ٩٧.

(٥) أخرجه أبو داود في الزكاة ١٦٧٨، والترمذي في المناقب ٣٦٧٥ والدارمي في الزكاة ١٦٦٠ - من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وجوابه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾. ومعنى ﴿يُوقَ﴾ يكف، ويسلم من شح نفسه، وهو من رزق الإيثار.

والشح يقال بضم الشين وكسرها وفتحها وهو أشد من البخل، وقيل البخل مع حرص.

قال الشاعر:

بكيت على الأطلال إن لم أقف بها وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه

قال الزمخشري[1]: «الشح بالضم والكسر: اللؤم، وأن تكون نفس الرجل كزة حريصة على المنع، كما قال:

يمارس نفساً بين جنبيه كزة إذا هم بالمعروف قالت له مهلاً

وقد أضيف إلى النفس لأنه غريزة فيها، وأما البخل فهو المنع بنفسه».

والشح أعم من البخل، لأن البخل يطلق ـ غالباً ـ على منع المال فقط، وضرره غالباً على صاحبه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [محمد: ٣٨] وقد يطلق البخل على منع غير المال، وفي الحديث: «أبخل الناس من بخل بالسلام»[2].

أما الشح فهو يتعلق بمنع الحق الواجب من المال، وبغير ذلك من أوجه الخير والإحسان، والمعروف، بل ويحمل على الاعتداء على حقوق الناس وأموالهم. قال تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨] وفي قصة هند زوجة أبي سفيان أنها قالت: إن أبا سفيان رجل شحيح، لا يعطيني ما يكفيني وولدي. فقال ﷺ: «خذي من ماله ما يكفيك وولدك بالمعروف»[3].

وعن الأسود بن هلال قال: «جاء رجل إلى عبد الله فقال: يا أبا عبد الرحمن، إني أخاف أن أكون قد هلكت! فقال له عبد الله: وما ذاك؟ قال: سمعت الله يقول: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ وأنا رجل شحيح، لا أكاد أخرج من يدي شيئا، فقال عبد الله: ليس ذلك بالشح الذي ذكر الله في القرآن، إنما الشح الذي ذكر الله في

---

(١) في «الكشاف» ٤/ ٨٢.

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» ٦/ ٤٠، والبيهقي في «شعب الإيمان»، ٦/ ٤٢٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في البيوع ٢٢١١، ومسلم في الأقضية ١٧١٤، وأبو داود في البيوع ٣٥٣٢، والنسائي في آداب القضاة ٥٤٢٠، وابن ماجه في التجارات ٢٢٩٣ – من حديث عائشة رضي الله عنها.

القرآن أن تأكل مال أخيك ظلماً، ولكن ذلك البخل وبئس الشيء البخل»[1].

وعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – عن رسول الله – ﷺ – قال: «بريء من الشح من أدى الزكاة، وقرى الضيف، وأعطى في النائبة»[2].

وعن أبي الهياج الأسدي قال: «كنت أطوف بالبيت فرأيت رجلاً يقول: «اللهم قني شح نفسي» لا يزيد على ذلك، فقلت له: فقال: «إني إذا وقيت شح نفسي لم أسرق ولم أزن، ولم أفعل» وإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه»[3].

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الفاء واقعة في جواب الشرط، لأنه جملة اسمية، والفلاح: الفوز والظفر والنجاح، الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، الفوز بالسعادة في الدنيا والآخرة، الفوز بالجنة والنجاة من النار.

وأكد الفلاح لمن وقي شح نفسه بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم».

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم»[4].

وعن عبد الله بن عمرو – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الفحش، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش، وإياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالفجور ففجروا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»[5].

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: «لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبدا، ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبدا»[6].

ومن هذه الأحاديث والآثار يتبين أن الشح أشد وأعظم من البخل لأن الشح يحمل على

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ٩/ ٩٨، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٢٩ – ٥٣٠، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٦_٣٣٤٧.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٣٠ – ٥٣٢.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٣٠.

(٤) أخرجه مسلم في البر – تحريم الظلم ٢٥٧٨، وأحمد ٣/ ٣٢٣.

(٥) أخرجه أبو داود في الزكاة – صلة الرحم ١٦٩٨، وأحمد ٢/ ١٥٩ – ١٦٠.

(٦) أخرجه النسائي في الجهاد – فضل من عمل في سبيل الله على قدمه ٣١١٠، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٣٣، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٧٤، وأحمد ٣/ ٢٥٦، ٣٤٠، ٣٤٢، ٤٤١، ٥٠٥.

منع الواجب وتركه وعلى ارتكاب المحرم والظلم. والشحيح يقصر في أداء الواجب، ويمنع الحق الذي عليه، ولا يتنازل عن شيء من حقه، ولو كان عند أقرب الناس إليه كوالده وولده وزوجه، يُحرِّج الآخرين، ولا يُحلل أحدا عن مظلمة، بل قد يشح بالدعاء لغيره من المسلمين، حاله وهو غير جاهل كحال ذلك الأعرابي الجاهل الذي قال: اللهم ارحمني ومحمداً، ولا ترحم معنا أحداً. فالتفت إليه النبي ﷺ فقال: «لقد حجرت واسعاً»[1].

وما أشبه من هذه حاله بالحاسد الذي يكره الخير للغير.

فمن وقي شح نفسه سمحت نفسه بأداء حقوق الله، وحقوق الخلق، والبعد عما نهى الله عنه، وعن ظلم الخلق، وسمحت نفسه ببذل المال والخير والمعروف والخلق الطيب في سبيل الله وذاق طعم الحياة وسعد في دينه ودنياه وأخراه - نسأل الله التوفيق.

وليس من الشح المذموم الشح بالوقت أن يضيع ويذهب سدى، بل هو من الشح المحمود، لأن الوقت أغلى ما أعطي للإنسان، وقد أقسم الله به في مواضع كثيرة من كتابه العزيز كما قال عز وجل ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

قال ابن القيم[2]: «فإن الفلاح كل الفلاح في الشح به، فمن لم يكن شحيحاً بوقته تركه الناس على الأرض عياناً مفلساً، فالشح بالوقت هو عمارة القلب وحفظ رأس ماله، ومما يدل على هذا أنه سبحانه أمر بالمسابقة في أعمال البر والتنافس فيها، والمبادرة إليها، وهذا ضد الإيثار بها».

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ .

أثنى الله عز وجل على المهاجرين، ثم أتبع ذلك بالثناء على الأنصار، ثم ثلث بالثناء على من جاء بعدهم من التابعين ومن تبعهم إلى يوم الدين كما قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٠]. مبيناً أن لهم نصيبهم من الفيء.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ﴾ أي: والذين جاءوا من بعد المهاجرين

---

(١) أخرجه أبو داود في الطهارة ٣٨٠، والترمذي في الطهارة ١٤٧، وابن ماجه في الطهارة وسننها ٥٢٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٢٥.

والأنصار أي: بعد الصحابة رضي الله عنهم وهم التابعون لهم بإحسان وتابعوهم إلى يوم القيامة. «يقولون» خبر للاسم الموصول «الذين».

﴿رَبَّنَا﴾ أي: يا ربنا، والرب: هو الخالق المالك المدبر.

﴿ٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ أي: اغفر لنا ذنوبنا، والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة عليه.

﴿وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ أي: واغفر لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان من المهاجرين والأنصار وسائر الصحابة أجمعين. وكذا كل من سبق بالإيمان فمن جاء بعده من إخوانه المؤمنين إلى قيام الساعة يدعون له بالمغفرة فيدعو المتأخر منهم للمتقدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولهذا قال ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[1].

وهذا يدل على فضل السابق على اللاحق من حيث العموم ولهذا قال ﷺ: «خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يأتي بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون ويظهر فيهم السمن»[2].

وعن الزبير بن عدي قال: «أتينا أنس بن مالك، فشكونا إليه ما نلقى من الحجاج، فقال: اصبروا، فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم سمعته من نبيكم ﷺ»[3].

وفي حديث حذيفة – رضي الله عنه – قال: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر، قال: نعم، وفيه دخن، قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها، قلت: يا رسول الله، صفهم لنا. فقال: هم من

---

(١) أخرجه مسلم في الوصية ١٦٣١، وأبو داود في الوصايا ٢٨٨٠، والنسائي في الوصايا ٣٦٥١، والترمذي في الأحكام ١٣٧٦ – من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٥٠، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٥٣٥، وأبو داود في السنة ٤٦٥٧، والنسائي في الأيمان والنذور ٣٨٠٩، والترمذي في الفتن ٢٢٢١ – من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الفتن ٧٠٦٨، والترمذي في الفتن ٢٢٠٦.

جلدتنا ويتكلمون بالسنتنا، قلت: فما تامرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»[(١)].

﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ اي: ولا تجعل في قلوبنا حقداً وبغضاً وحسداً للذين آمنوا ممن سبقونا، ولا ممن هم بين أيدينا ومعنا. أي: لا تجعل في قلوبنا غلاً لأحد من أهل الإيمان.

﴿رَبَّنَآ﴾ أي: يا ربنا استجب دعاءنا ﴿إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ و«الرءوف» و«الرحيم» اسمان من أسماء الله عز وجل الأول على وزن «فعول» والثاني على وزن «فعيل» يدلان على أنه عز وجل ذو الرأفة العظيمة، والرحمة الواسعة، والرأفة أرق من الرحمة وأخص منها.

وسلامة القلوب من الضغينة والحقد والحسد أمر عزيز المنال، وبعيد المرام إلا على من وفقه الله ورزقه قلباً سليماً، ولهذا امتن الله عز وجل على أهل الجنة بنزع الغل من قلوبهم، قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

وقال أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤].

فكم من مصلٍ قائمٍ صائمٍ، قلبه يغلي حقداً وحسداً على كثير من إخوانه المسلمين، وكم من إنسان يستطيع صيام النهار، وقيام الليل، وبذل المال لكنه لا يستطيع علاج قلبه من هذا المرض.

فمن كان في قلبه غل وحقد وحسد وضغينة على إخوانه المسلمين فنصيبه من هذا الثناء من الله في الآية الكريمة يقل ويضعف بقدر ما عنده من هذا المرض العضال – إن كان له نصيب – نسأل الله السلامة والعافية. إذ الواجب أن يحب المسلم لأخيه ما يحب لنفسه، كما قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[(٢)].

ففتش نفسك أخي الكريم فإنه قل من يسلم من هذا الداء، فإن وجدت عندها شيئاً

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٠٦، ومسلم في الإمارة ١٨٤٧، وأبو داود في الفتن والملاحم ٤٢٤٤، وابن ماجه في الفتن ٣٩٧٩.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ١٣، ومسلم في الإيمان ٤٥، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠١٦، والترمذي في صفة القيامة ٢٥١٥، وابن ماجه في المقدمة ٦٦ – من حديث أنس – رضي الله عنه.

من هذا فالزمها تقوى الله، واعلمها بأن فضل الله واسع قد شمل البر والفاجر وإن الجنة وعدت ملأها، وإن النار وعدت ملأها. وإن الناس لو كانوا كلهم في الجنة ما ضرك ذلك، ولو كانوا كلهم في النار ما نفعك ذلك فعالج قلبك واحب للمسلمين ما تحب لنفسك وادع لهم، وأبشر بالخير إن شاء الله تعالى.

ولا شك أن في مقدمة من لا يستحقون الوصف المذكور في الآية أولئك الذين يقعون في صحابة رسول الله ﷺ ويسبونهم ويبغضونهم وهم الرافضة، ومن سلك مسلكهم الذين جعلوا سب الصحابة وتنقصهم ديدناً لهم - عليهم من الله ما يستحقون - إذ كيف يبيحون لأنفسهم الكلام فيمن شهد الله لهم بالسبق ورضي عنهم، وهم خير القرون، ولكن كما قال الله - عز وجل - ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «أمروا أن يستغفروا لهم، فسبوهم، ثم قرأت هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ الآية»[1].

وعنها قالت: أمرتم بالاستغفار لأصحاب محمد - ﷺ - فسببتموهم، سمعت نبيكم - ﷺ - يقول: «لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها أولها»[2].

قال ابن كثير[3]: «وما أحسن ما استنبط الإمام مالك من هذه الآية الكريمة: أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء في قوله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾».

وهكذا روي عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم[4].

وعن مالك بن أوس بن الحدثان، قال: «قرأ عمر بن الخطاب: ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ حتى بلغ ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ثم قال: هذه لهؤلاء، ثم قرأ: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ الآية، ثم قال: هذه

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٧.
(٢) أخرجه البغوي في «معالم التنزيل» ٤/ ٣٢١.
(٣) في «تفسيره» ٨/ ٩٩.
(٤) انظر «زاد المعاد» ٥/ ٨٤ - ٨٧، «بدائع التفسير» ٤/ ٤٢٤.

لهؤلاء، ثم قرأ ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ حتى بلغ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ ثم قال: استوعبت هذه الآية المسلمين عامة، وليس أحد إلا له فيها حق ثم قال: لئن عشت ليأتين الراعي، وهو بِسَرْوِ حِمْيَرَ[١] نصيبه منها، لم يعرق جبينه»[٢].

وفي رواية عن مالك بن أوس بن الحدثان قال: «كان عمر يحلف على أيمان ثلاث: يقول: والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد، وما أنا بأحق به من أحد، والله ما من المسلمين أحد إلا وله في هذا المال نصيب إلا عبداً مملوكاً، ولكنا على منازلنا من كتاب الله تعالى وقَسْمنا من رسول الله - ﷺ - فالرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل وقدمه في الإسلام، والرجل وغناؤه في الإسلام، والرجل وحاجته، والله لئن بقيت لهم ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى مكانه»[٣].

قال السعدي[٤]: «فهؤلاء الأصناف الثلاثة ـ يعني المذكورين في الآيات: المهاجرين، والأنصار، والتابعين لهم بإحسان ـ هم أصناف هذه الأمة، وهم المستحقون للفيء، الذي مصرفه راجع إلى مصالح المسلمين».

ويؤخذ من الآيات، الثناء من الله ـ عز وجل ـ على المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم القيامة، وأنهم في الأفضلية هكذا: المهاجرون، ثم الأنصار، ثم التابعون لهم بإحسان. فالمهاجرون ضحوا بديارهم وأموالهم ابتغاء الفضل من الله - عز وجل - والرضوان، ونصرة لله ورسوله فأثبتوا صدق إيمانهم وأقوالهم بفعالهم رضي الله عنهم.

والأنصار الذين سكنوا دار الهجرة قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم، أحبوا إخوانهم المهاجرين وواسوهم بأموالهم، ولم يجدوا في صدورهم أدنى حاجة من حسد على إخوانهم المهاجرين على ما آتاهم الله من الفضل والرضوان والمنزلة الرفيعة وآثروهم على أنفسهم بالمال والطعام وغير ذلك وسلموا من شح النفوس فأفلحوا وفازوا.

والذين جاءوا من بعد المهاجرين والأنصار واتبعوهم بإحسان يدعون الله بالمغفرة

---

(١) قال في «النهاية» مادة «سرى» السَّرْو: ما انحدر من الجبل وارتفع عن الوادي في الأصل. والسَّرْو أيضاً: محلة حِمْير.

(٢) أخرجه: الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥١٦، والبيهقي في «سننه» ٦/ ٣٥٢. وأخرج أبو داود في الخراج - صفايا الرسول ﷺ من الأموال - آخره بنحوه ـ عن الزهري قال: قال عمر رضي الله عنه: ﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم ﴾ .. الخ. قال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٩٩: «وفيه انقطاع».

(٣) أخرجه أحمد ١/ ٤٢.

(٤) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٣٧.

للذين سبقوهم بالإيمان من المهاجرين والأنصار وغيرهم وأن يرزقهم سلامة القلوب على إخوانهم المؤمنين.

الفوائد والعبر:

١ ـ أن من أحق المسلمين بأن يعطوا من مال الفيء الفقراء المهاجرين ـ رضي الله عنهم الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم.

٢ ـ الثناء على المهاجرين الذين هاجروا وتركوا ديارهم وأموالهم ابتغاء الفضل من الله والرضوان ونصرة لله ورسوله وأنهم هم الصادقون في إيمانهم وهجرتهم. وتفضيلهم على الأنصار.

٣ ـ جواز تملك رباع مكة وبيعها وتأجيرها لأن الله أضاف الديار إليهم إضافة تمليك، وقد منع من هذا بعض أهل العلم والأظهر ـ والله أعلم ـ جواز ذلك.

٤ ـ الثناء على الأنصار الذين سكنوا دار الهجرة «المدينة» قبل المهاجرين وسبقوا إلى الإيمان قبل كثير منهم بمحبتهم لإخوانهم المهاجرين وسلامة قلوبهم عليهم وإيثارهم لهم على أنفسهم مع فاقتهم وفقرهم وشدة حاجتهم.

٥ ـ أن للأنصار ـ رضي الله عنهم ـ نصيباً في الفيء.

٦ ـ أن من وقي شح نفسه فهو المفلح حقاً.

٧ ـ في الثناء على المهاجرين بهجرتهم طلباً للفضل من الله ورضوانه ونصرة له ولرسوله وأنهم هم الصادقون ترغيب في الهجرة في سبيل الله وبيان لفضلها بل ووجوبها إذا لم يستطع المسلم إظهار شعائر دينه. كما أن في الثناء على الأنصار ترغيباً في السبق إلى الإيمان وسلامة القلوب من الحسد والضغائن، وفي الإيثار، والبعد عن الشح.

٨ ـ الثناء على التابعين الذين يدعون ربهم بالمغفرة لهم ولإخوانهم السابقين بالإيمان وأن لا يجعل في قلوبهم غلاً للذين آمنوا، وبيان أن لهم نصيباً في الفيء.

٩ ـ مشروعية دعاء المؤمنين لإخوانهم الذين سبقوهم في الإيمان، ودعاء بعضهم لبعض.

١٠ ـ فضل المؤمنين السابقين على من جاؤوا بعدهم.

١١ ـ وجوب سلامة القلوب بين المؤمنين، من الغل والحقد والحسد وسؤال الله السلامة من ذلك.

١٢ ـ إثبات اسمين من أسماء الله ـ عز وجل ـ وهما «الرؤوف» و «الرحيم» وصفة الرأفة التامة والرحمة الواسعة له ـ عز وجل.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله – عز وجل – إخراجه بني النضير من ديارهم، وذكر حكم أموالهم التي ردت إلى المسلمين بدون قتال ثم ذكر موقف المنافقين ووعدهم ليهود بني النضير بمناصرتهم وربط مصيرهم بمصيرهم، وتكذيب الله لهم في ذلك مبيناً رهبة اليهود وجبنهم، وأن مثل المنافقين في وعدهم لليهود بمناصرتهم كمثل الشيطان حين زينّ للإنسان الكفر ثم تبرأ منه.

قوله: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ الآية.

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قوله: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ «يعني عبد الله بن أبي وأصحابه، ومن كان منهم على مثل أمرهم»[(١)].

وعن يزيد بن رومان: «أن رهطاً من بني عوف بن الخزرج منهم عبد الله بن وديعة، ومالك بن أبي قوقل، وسويد، وداعس، بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا وتمنعوا، فإنا لن نسلمكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم، فتربصوا ذلك من نصرهم، فلم يفعلوا، وكانوا قد تحصنوا في الحصون من رسول الله ﷺ حين نزل بهم»[(٢)].

﴿۞ أَلَمْ تَرَ﴾ الهمزة للاستفهام، ومعناه التعجب، أي: انظر لهؤلاء المنافقين وتعجب من قولهم وحالهم.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٣٥. وانظر «السيرة النبوية» ٢/ ١٩٢.
(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٠٠، وانظر «السيرة النبوية» ٢/ ١٩١.

﴿إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ أي: إلى المنافقين الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر كعبد الله ابن أبي وأمثاله وسمي من يظهر الإيمان ويبطن الكفر بالمنافق أخذاً من نافقاء الجربوع التي يجعلها في نهاية جحره عليها قشرة رقيقة من الأرض فإذا داهمه عدو من باب جحره ضرب هذه النافقاء برأسه وخرج، والمنافق له وجهان يأتي المؤمنين بوجه ويأتي غيرهم بوجه آخر، كما قال عز وجل: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]. وقال تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣].

﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: يقول هؤلاء المنافقون لإخوانهم بالكفر يهود بني النضير وسموا إخوانهم لأن الكفر يجمعهم، فالمنافقون وإن كانوا بين ظهراني المؤمنين ويحسبون منهم في الظاهر فهم أشد كفراً وعذاباً من جميع طوائف الكفار لأنهم غصة في حلوق المؤمنين ويصعب التحرز منهم وينطلي أمرهم على الكثيرين كما قال تعالى ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]. بخلاف الكافر الظاهر البين، ولهذا قال تعالى في عذابهم ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ اللام في قوله ﴿لَئِنْ﴾ موطئة للقسم، أي: والله لئن أخرجتم من المدينة وأجليتم منها لنخرجن معكم، واللام في قوله (لنخرجن) واقعة في جواب القسم. أي: إن مصيرنا مرتبط بمصيركم حتى في الخروج معكم إن أخرجتم.

﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ أي: لا نطيع في التخلي عنكم وعدم نصرتكم وعن كون مصيرنا مصيركم، ولا في الكلام فيكم أحداً أبداً أياً كان حتى ولو كان من المؤمنين الذين نحن معهم في الظاهر، أي: لا نطيع فيكم قول عاذل أو مخوف.

﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ اللام في قوله ﴿لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ واقعة في جواب القسم، أي: والله إن قوتلتم لننصرنكم. أي: وإن قاتلكم محمد ومن معه لننصرنكم معشر بني النضير عليهم بالقتال معكم.

﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: والله يشهد إنهم في دعواهم الخروج معهم إن أخرجوا وارتباط مصيرهم بمصيرهم وعدم التخلي عنهم لقول أحد أبدا ومناصرتهم إن قوتلوا لكاذبون. فكل هذا كذب منهم شهد الله بكذبهم فيه، وليس هناك قول أكذب من قول

شهد الله بكذبه وهو خير الشاهدين، كما في قوله تعالى عنهم في مطلع سورة المنافقين ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الآية: ١].

قال ابن كثير[1]: «والله يشهد إنهم لكاذبون فيما وعدوهم به إما أنهم قالوا قولاً ومن نيتهم ألا يفوا لهم به، وإما أنهم لا يقع منهم الذي قالوه».

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ اللام في قوله ﴿لَئِنْ﴾ في الموضعين موطئة للقسم، أي: والله لئن أخرجوا لا يخرجون معهم لتمسكهم بالتراب والطين ونظرتهم المادية.

﴿وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ أي: والله لئن قوتلوا لا ينصرونهم لجبنهم وخوفهم.

وهذا قسم من الله عز وجل يؤكد كذبهم في دعوى الخروج معهم إن أخرجوا وعدم نصرتهم لهم إن قوتلوا بعد شهادته – عز وجل – بكذبهم وفي هذا دليل على صدق نبوته ﷺ. وهذا الذي حصل فإن عبد الله بن أبي رأس المنافقين أرسل إلى بني النضير – بعدما قاموا يتجهزون للخروج – أن لا تخرجوا فإن معي ألفين، يدخلون معكم حصونكم فيموتون دونكم، وتنصركم قريظة، وحلفاؤكم غطفان فطمع رئيسهم حيي بن أخطب فيما قال له وبعث إلى رسول الله ﷺ يقول: إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك. فكبر رسول الله ﷺ وأصحابه، ونهضوا إليهم، وعلي بن أبي طالب – رضي الله عنه – يحمل اللواء، فأقاموا على حصونهم يرمون بالنبال والحجارة، واعتزلتهم قريظة، وخانهم ابن أبي، وحلفاؤهم من غطفان، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على أن يخرجوا من المدينة – كما سبق بيانه[2].

﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ الواو: عاطفة، واللام موطئة للقسم. والتقدير: والله لئن نصروهم ليولن الأدبار.

والمعنى: ولو فرض أنهم أرادوا نصرهم وقاتلوا معهم مع أن هذا لا يمكن أن يقع منهم لأن الله شهد على كذبهم في ذلك وأقسم على عدم نصرتهم لهم. وأمر شهد الله بكذبه وأقسم على عدم وقوعه لا يمكن أن يكون ولكن الآية على سبيل الفرض والتنزل معهم، أي: لو فرض أنهم نصروهم.

﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ اللام واقعة في جواب القسم. والجملة جواب القسم في قوله

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٠٠.
(٢) انظر الكلام على قوله ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم ﴾ الآية.

﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ أي: ليولن المعركة أدبارهم وظهورهم فارين هاربين خوفاً من الموت، كما هي حالهم إذا خرجوا للقتال مع رسول الله ﷺ والمؤمنين يرجعون من عرض الطريق ويبطئون ويثبطون ويفرون من الزحف كما قال تعالى عنهم في سورة النساء ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ [الآية: ٧٢].

وقال تعالى في سورة التوبة: ﴿وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [الآية: ٨١].

وقال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: ٤٧].

وقوله هنا ﴿لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ﴾ يحتمل أيضا أن يراد به الطائفتان معاً المنافقون واليهود بمعنى أن يكون نصر المنافقين لبني النضير سبباً في هزيمتهم جميعاً وفرارهم من المعركة مولين الأدبار.

﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي: ثم تكون النتيجة عدم نصرهم فتكون مناصرة المنافقين لهم سببا لهزيمتهم وعدم نصرهم وفرارهم من المعركة، وتولية الأدبار.

وهكذا شأن المنافقين في كل زمان ومكان في وعودهم سواء لإخوانهم الكافرين، أو للمؤمنين يكذبون، ويثبطون ويبطئون، ويفرون إن حضروا المعركة، يريدون المشاركة في الغنم دون الغرم كما قال الله تعالى عنهم ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ۝ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٢، ٧٣].

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾ اللام لام الابتداء. أي: لأنتم أيها المؤمنون ﴿أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ أي: خوفاً ﴿فِي صُدُورِهِم﴾ أي: في صدور المنافقين واليهود ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: أنهم يخافون منكم أيها المؤمنون أكثر من خوفهم من الله، كما قال تعالى ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧].

وماذا يؤمل في قوم يخافون من الناس أشد من خوفهم من الله، وما أكثر من هذه حاله من ضعاف الإيمان ومرضى القلوب.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة للمعنى المأخوذ من الجملة السابقة، أي: خوفهم منكم أشد من خوفهم من الله ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ الباء للسببية، أي: بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا علم عندهم ولا معرفة ولا فقه في الدين. وإلا كيف يخافون من المخلوق الضعيف أشد من

خوفهم من الخالق العظيم سبحانه.

﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو (جدار) على الإفراد، وقرأ الباقون ﴿ جُدُرٍ ﴾ على الجمع. أي: لا يقاتلكم اليهود ﴿جَمِيعًا﴾ حال من ضمير المخاطبين، أي: إذا كنتم مجتمعين جيشاً واحداً. ﴿إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ أي: إلا وهم في قرى محصنة، أي: في داخل الحصون لا يبرزون لكم ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ أي: أو من خلف حيطان وأسوار، فاعتمادهم في القتال على حصونهم وأسوارهم، ولا شجاعة لديهم، وفي هذا أعظم الذم لهم.

قال ابن كثير [١]: «يعني أنهم من جبنهم وهلعهم لا يقدرون على مواجهة جيش الإسلام بالمبارزة والمقابلة، بل إما في حصون، أو من وراء جدر محاصرين فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة».

ويحتمل أن تكون ﴿جَمِيعًا﴾ حال من ضمير الواو، أي: لا يقاتلكم اليهود حتى في حال اجتماعهم ﴿إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾.

﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي: عداوتهم بينهم شديدة، والبأس: العداوة والتقاتل، قال تعالى: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]. فاليهود أعداء فيما بينهم وهم نحل وطوائف متنافرة متناحرة، وهم والمنافقون أعداء أيضا، وإن أظهروا المودة فيما بينهم.

﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ الخطاب في قوله ﴿تَحْسَبُهُمْ﴾ للرسول - ﷺ - ولكل من يصلح له ممن يشاهد ظواهر اليهود والمنافقين، أي: تظنهم أيها الناظر إليهم أنهم مجتمعون على رأي واحد وقلب واحد.

﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أن قلوبهم ﴿شَتَّىٰ﴾ أي: متفرقة جدا، وليسو على قلب رجل واحد ولا على رأي واحد.

قال ابن كثير [١]: «أي تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين، وهم مختلفون غاية الاختلاف».

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة لجبن المنافقين واليهود وعداوتهم فيما بينهم وتفرق قلوبهم.

﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ أي: بسبب أنهم قوم لا يعقلون، أي: لم يستفيدوا من عقولهم بمعرفة الحق والعمل به، ولهذا صاروا كمن لا يعقل، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٠٠.

لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾ الكاف: للتشبيه، و«مثل» صفة وشبه، أي: مثل يهود بني النضير في نقضهم العهد، وما حل بهم من الجلاء والنهاية المؤلمة ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾ وهم يهود بني قينقاع الذين أجلاهم الرسول - ﷺ - قبل هذا أو كمثل كفار قريش الذين أصابهم ما أصابهم يوم بدر، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي: ذاقوا ونالوا وتجرعوا عقوبة كفرهم وبغيهم، هذا في الدنيا.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: ولهم في الآخرة عذاب مؤلم موجع حساً ومعنى في النار، مع عذاب الدنيا.

﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ﴾ الكاف: للتشبيه، والمثل: الشبه. والشيطان: كل متمرد عات خارج عن طاعة الله - عز وجل - من الإنس والجن والحيوان. قال تبارك وتعالى: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] وقال ﷺ: «الكلب الأسود شيطان»[(١)] والمراد به هنا إبليس وأعوانه.

والمعنى: مثل المنافقين في وعدهم لليهود بالخروج معهم ونصرهم، وكذبهم وتخليهم عنهم كمثل الشيطان حين قال للإنسان اكفر، فأمره بالكفر بالله وإنكاره وجحد شريعته وزين له ذلك.

﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ﴾ أي: فلما كفر الإنسان قال الشيطان إني بريء منك، أي: تبرأ من الإنسان بعد أن أوقعه في الكفر وزينه له، وهذا فعله مع عامة الناس. كما قال الله عنه ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة - باب قدر ما يستر المصلي ٥١٠، وأبو داود في الصلاة - ما يقطع الصلاة ٧٠٢ من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

قال ابن كثير [١] في كلامه على الآية ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ الآية. «يعني مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين ثم لما حقت الحقائق وجدّ بهم الحصار والقتال تخلوا عنهم وأسلموهم للهلكة مثالهم في ذلك كمثل الشيطان إذ سول للإنسان – والعياذ بالله – الكفر، فإذا دخل فيما سوله تبرأ منه وتنصل، وقال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾».

قوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في هذه الآية: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال: كانت امرأة ترعى الغنم، وكان لها أربعة إخوة، وكانت تأوي بالليل إلى صومعة راهب – قال: فنزل الراهب ففجر بها فحملت فأتاه الشيطان فقال له: اقتلها ثم ادفنها، فإنك رجل مصدق يسمع قولك، فقتلها ثم دفنها قال: فأتى الشيطان إخوتها في المنام فقال لهم: إن الراهب صاحب الصومعة فجر بأختكم، فلما أحبلها قتلها ثم دفنها في مكان كذا وكذا.. فانطلقوا فاستعدوا ملكهم على ذلك الراهب فأتوه فأنزلوه، ثم انطلقوا به فلقيه الشيطان، فقال: إني أنا الذي أوقعتك في هذا، ولن ينجيك منه غيري، فاسجد لي سجدة واحدة وأنجيك مما أوقعتك فيه. قال: فسجد له، فلما أتوا به ملكهم تبرأ منه، وأخذ فقتل»[٢].

والله أعلم بصحة هذه القصة وما جاء في معناها. والآية أعم من ذلك كله، فالشيطان لا يترك أحداً من الإنس، بل ولا من الجن إلا زين له الكفر، فإن عجز عنه نقله إلى البدعة، فإن عجز عنه نقله إلى ترك الواجب، فإن عجز عنه نقله إلى فعل المحرم، فإن عجز عنه شغله بالمفضول عن الفاضل، فإن عجز عنه شغله بالمباحات، فإن عجز وأيس منه سلط عليه من يؤذيه من شياطين الجن والإنس، لكن ذلك لا يضره، حيث سلم له دينه، بل هو زيادة أجر له.

والشيطان في هذه المقالة ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كاذب غير صادق إذ لو كان يخاف الله حقاً ما خالف أمره، واستكبر عن طاعته قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٠١.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٤٢، وأخرجه بمعناه عن علي رضي الله عنه ٢٢/ ٥٤١. وقد ذكرهما ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٠١ – ١٠٢ – نقلاً عن الطبري وقال بعد ذكر قصة ابن مسعود رضي الله عنه «وكذا روي عن ابن عباس وطاوس ومقاتل بن حيان نحو ذلك. واشتهر عند كثير من الناس أن هذا العابد هو برصيص. والله أعلم».

لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

وقد أقسم أنه سيعمل جاهداً في إغواء بني آدم كما قال تعالى عنه: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣].

﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ﴾ أي: فكانت نهاية الشيطان الآمر بالكفر، والإنسان الفاعل له، ومصيرهما أنهما في النار خالدين فيها وكذلك عاقبة ونهاية المنافقين واليهود الهزيمة والبوار في الدنيا، وفي الآخرة نهايتهم النار وبئس القرار.

﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الخلود في النار جزاء وعقوبة الظالمين، الذين وضعوا العبادة في غير موضعها فعبدوا غير الله، وهذا جزاء كل ظالم.

والظلم: النقص ووضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان، وأظلم الظلم الشرك بالله عز وجل كما قال لقمان ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣].

الفوائد والعبر:

١ ـ وعد المنافقين وحلفهم لإخوانهم الكفرة من أهل الكتاب بوحدة مصيرهم وأنهم إن أخرجوا ليخرجون معهم وإن قوتلوا لينصرونهم، وتكذيب الله عز وجل ـ لهم والتعجيب من حالهم ومقالهم.

٢ ـ إثبات أخوة المنافقين للكفرة من أهل الكتاب لأن الكفر يجمعهم، بل المنافقون أشد كفراً من جميع الكفار.

٣ ـ أن من صفات المنافقين الحلف الكاذب وإخلاف الوعود والجبن والفرار من الزحف.

٤ ـ هزيمة أهل الكتاب وعدم نصرهم لمحاربتهم الله ورسوله واعتمادهم على المنافقين ووعودهم الكاذبة لهم بنصرهم.

٥ ـ خوف المنافقين واليهود من المؤمنين أشد من خوفهم من الله لعدم علمهم وفقههم في الدين وعدم معرفتهم بعظمة الله ـ عز وجل.

٦ ـ شدة جبن اليهود وعدم قدرتهم على مبارزة المؤمنين ومقاتلتهم إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر.

٧ ـ شدة عداوة اليهود فيما بينهم وشدة العداوة بينهم وبين المنافقين، يظنهم الناظر إليهم مجتمعين وقلوبهم متفرقة متعادية متنافرة لأنهم لم يعقلوا ما ينفعهم في دينهم وآخرتهم.

٨ ـ لا ينبغي الاغترار بالمظاهر وإنما المعوّل عليه ما في المخبر.

٩ ـ أن مثل يهود بني النضير في نقضهم العهد وما حل بهم من الجلاء والعقوبة والنهاية المؤلمة كمثل الذين من قبلهم قريبا وهم يهود بني قينقاع الذين أجلاهم الرسول ﷺ قبل هذا وكفار قريش الذين أصابهم ما أصابهم يوم بدر، وما أعد لهم من العذاب الأليم في النار.

١٠ ـ أن مثل المنافقين في وعدهم اليهود بالخروج معهم ونصرهم وكذبهم وتخليهم عنهم كمثل الشيطان في أمره الإنسان بالكفر وتبريه منه زعماً منه أنه يخاف الله ـ وهو كاذب.

١١ ـ أن مصير الشيطان والإنسان المتبع له على الكفر الخلود في النار، وهو مصير المنافقين واليهود مجازاة لهم على ظلمهم وهو مصير كل ظالم وبئس المصير.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ .

عن جرير بن عبد الله – رضي الله عنه – قال: «كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، قال: فجاءه قوم حفاة عراة مجتابي النمار أو العباء، متقلدي السيوف، عامتهم من مضر، بل كلهم من مضر، فتغير وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة قال: فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً فأذن وأقام الصلاة، فصلى ثم خطب، فقال: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ إلى آخر الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] وقرأ الآية التي في الحشر: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الآية: ١٨] تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره، حتى قال: ولو بشق تمرة» قال: فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، ثم تتابع الناس، حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت رسول الله ﷺ يتهلل وجهه كأنه مذهبة. فقال رسول الله ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[1].

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

صدَّر – عز وجل – خطابه للمؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، وناداهم بوصف الإيمان تشريفاً وتكريماً لهم وحثاً على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما بعده من الأوامر واجتناب ما بعده من النواهي يعد من مقتضيات الإيمان – كما قال عبد الله ابن مسعود – رضي الله عنه –: «إذا سمعت الله يقول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فارعها سمعك فهو خير يأمر به أو شر ينهى عنه»[2] .

وقد اجتمع في هذه الآيات أمر، بل عدة أوامر تأمر بخير، ونهي عن شر.

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة ١٠١٧، والنسائي في الزكاة ٢٥٥٤، والترمذي في العلم ٢٦٧٥، وابن ماجه في المقدمة ٢٠٣.
(٢) سبق تخريجه.

وتقوى الله – عز وجل – امتثال أوامره واجتناب نواهيه [(١)].

﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ «الغد» في الأصل اليوم الذي بعد يومك والأيام ثلاثة: يوم أمس، وقد مضى، واليوم الحاضر، ويوم غد لا يدري الإنسان أيدركه أم لا.

والمراد بـ«غد» يوم القيامة، وسمي بـ«غد» لتحقق وقرب وقوعه لأنه آت وكل آت قريب، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] قال قتادة: «ما زال ربكم يقرب الساعة حتى جعلها كغد وغد يوم القيامة»[(٢)].

والمعنى: ولتنظر ولتتأمل كل نفس الذي قدمته ليوم القيامة من الأعمال، وهل يصلح أن تلقى الله – عز وجل – به يوم العرض الأكبر على الله أو لا يصلح ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠]، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠] قبل ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝٥٦ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٥٧ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٦ – ٥٨]. وقبل أن يقول الإنسان: ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر: ٢٤].

قال ابن القيم[(٣)]: «فأمر سبحانه العبد أن ينظر ما قدم لغد، وذلك يتضمن محاسبة نفسه على ذلك، والنظر: هل يصلح ما قدمه أن يلقى الله به أو لا يصلح؟ والمقصود من هذا النظر: ما يوجبه ويقتضيه من كمال الاستعداد ليوم المعاد، وتقديم ما ينجيه من عذاب الله ويبيض وجهه عند الله. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]» [(٤)].

فوا أسفا على أعمار وأوقات تتصرم وتنقضي باللهو والغفلات، والانشغال بجمع حطام الدنيا الفاني، والاستمتاع بالملذات، دون الاستعداد لذلك اليوم وما فيه من الغبن والندامة والحسرات.

---

(١) راجع ما سبق في الكلام على قوله تعالى في سورة الحجرات ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله ﴾ [الآية: ١].

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٤٧.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٢٦.

(٤) انظر «الحلية» لأبي نعيم ١/ ٥٢.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ تأكيد للأمر الأول بتقوى الله، يدل على أهمية تقوى الله وعظم شأنها فهي وصية الله للأولين والآخرين قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١] وبها الفلاح والنجاح والسعادة في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ «الخبير» اسم من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل»، يدل على سعة خبرته عز وجل، ومعنى «الخبير» المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها. واطلاعه عز وجل على ظواهر الأمور وجلائلها وجلياتها من باب أولى و«ما» موصولة أو مصدرية، أي: خبير بالذي تعملون، أو بعملكم أي: ذو خبرة وعلم بأعمالكم خيرها وشرها ولا يخفى عليه منها شيء.

وفي هذا وعد ووعيد، وعد لمن أطاع الله، ووعيد لمن خالفه، لأن مقتضى كونه – عز وجل – مطلعاً على أعمال العباد أن يحاسبهم ويجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، ولا يظلم ربك أحداً.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: ولا تكونوا أيها المؤمنون، كالذين نسوا الله وذكره والعمل بطاعته من أهل الكفر والمعاصي، ﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: فأنساهم العمل الصالح لأنفسهم مجازاة لهم على نسيانهم له عز وجل ولذكره وطاعته، والجزاء من جنس العمل قال تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف: ٥١]، وقال تعالى: ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾ [طه: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [السجدة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الجاثية: ٣٤].

قال ابن القيم [1]: «فلما نسوا ربهم نسيهم وأنساهم أنفسهم، فعاقب من نسيه عقوبتين: إحداهما: أنه سبحانه نسيه، والثانية: أنه أنساه نفسه.

قال: ونسيانه سبحانه للعبد إهماله وتركه وتخليه عنه وإضاعته، فالهلاك أدنى إليه من اليد للفم. وأما إنساؤه نفسه، فهو إنساؤه لحظوظها العالية وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها، وما تكمل به، بنسيه ذلك جميعه، فلا يخطر بباله، ولا يجعله على ذكره، ولا

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٢٦ – ٤٢٧.

يصرف إليه همته فيرغب فيه، فإنه لا يمر بباله حتى يقصده ويؤثره، وأيضا: فينسيه عيوب نفسه ونقصها وآفاتها، فلا يخطر بباله إزالتها. وأيضا ينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها، فلا يخطر بقلبه مداواتها، ولا السعي في إزالة عللها وأمراضها التي تؤول به إلى الفساد والهلاك فهو مريض مثخن بالمرض، ومرضه مترام به إلى التلف، ولا يشعر بمرضه، ولا يخطر بباله مداواته، وهذا من أعظم العقوبة العامة والخاصة، فأي عقوبة أعظم من عقوبة من أهمل نفسه وضيعها ونسي مصالحها وداءها ودواءها، وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها، وحياتها الأبدية في النعيم المقيم».

ويؤخذ من مفهوم الآية الأمر بذكر الله عز وجل وعدم نسيانه، قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

قال ابن القيم [١] بعد ما ذكر ما يترتب على نسيان العبد نفسه من كون أمره فرطاً وضياع مصالحه وتعرضه للهلاك والخيبة والخسران قال: «ولا سبيل إلى الأمان من ذلك إلا بدوام ذكر الله تعالى، واللهج به، وأن لا يزال اللسان رطباً به، وأن يتولى منزلة حياته التي لا غنى عنها، ومنزلة غذائه الذي إذا فقده فسد جسمه وهلك، وبمنزلة الماء عند شدة العطش، وبمنزلة اللباس في الحر والبرد، وبمنزلة الكن في شدة الشتاء والسموم. فحقيق بالعبد أن ينزل ذكر الله منه بهذه المنزلة وأعظم، فأين هلاك الروح والقلب وفسادهما من هلاك البدن وفساده، هذا هلاك لابد منه، وقد يعقبه صلاح لا بد، وأما هلاك القلب والروح فهلاك لا يرجى معه صلاح ولا فلاح ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. لو لم يكن في فوائد الذكر وإدامته إلا هذه الفائدة وحدها لكفى بها، فمن نسي الله تعالى أنساه نفسه، ونسيه في العذاب يوم القيامة».

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

﴿أُولَئِكَ﴾ أي: الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم. وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيراً لشانهم ﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: هم الخارجون عن طاعة الله - عز وجل - المخالفون لأمره المرتكبون لنهيه.

وأكد الفسق فيهم بثلاثة مؤكدات: كون الجملة اسمية، معرفة الطرفين، مع ضمير

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٢٨ - ٤٢٩.

الفصل «هم».

وبقدر ما يغفل الإنسان عن ذكر الله - عز وجل - يكون نصيبه من هذا الوصف المشين.

﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ «لا» نافية أي: لا يستوي أصحاب النار وساكنوها وملازموها وهم الكافرون والفاسقون، وأصحاب الجنة وهم ساكنوها وملازموها من المؤمنين المتقين، أي: لا يستوي هؤلاء وهؤلاء عند الله وفي حكمه، وفيما أعده لكل منهم، وفي حال كل منهم من حيث السعادة والشقاوة والربح والخسران ولهذا قال:

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ أي: هم الفائزون بالأجر والثواب والناجون من العقوبة والعذاب. وأكد الفوز فيهم بكون الجملة اسمية معرّفة الطرفين مع ضمير الفصل «هم».

فتامل - اخي الكريم - في قوله ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ فمن الذي نفى التساوي بين هؤلاء وهؤلاء؟ هو العليم الحكيم العلي العظيم سبحانه.

قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ۝ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ١٨ - ٢١].

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ [غافر: ٥٨].

فشتان ما بين الفريقين:

شتان بين الحالتين فإن ترد   جمعاً فما الضدان يجتمعان[١].

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾

«لو» شرطية غير عاملة و«أنزلنا» فعل الشرط، وجوابه ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ وهي: حرف امتناع لامتناع، أي: امتنع رؤيتك خشوع الجبل خشوع عبادة وتكليف وتصدعه من خشية الله لعدم إنزال القرآن عليه، وإلا فجميع المخلوقات من الجمادات والحيوانات ناطقها وبهيمها كلها خاضعة منقادة لله – عز وجل – كما قال عز وجل: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

والإنزال يكون من أعلى إلى أسفل، فيدل قوله ﴿أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ على علو الله عز وجل على خلقه، كما يدل على أن القرآن الكريم منزل غير مخلوق – كما هو معتقد أهل السنة والجماعة، خلافاً للمعتزلة القائلين بخلق القرآن.

وقد امتحن بسبب هذا القول إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رحمه الله وغيره من العلماء فصبر رحمه الله وتصدى لهذه الفتنة وفندها، ولهذا قال علي بن المديني: «أعز الله الإسلام برجلين أبو بكر يوم الردة، وابن حنبل يوم المحنة» أي: يوم المحنة بالقول بخلق القرآن.

﴿لَّرَأَيْتَهُۥ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له ﴿خَٰشِعًا﴾ أي: ذليلاً خاضعاً ﴿مُّتَصَدِّعًا﴾ أي: متشققاً، ﴿مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: من الخوف الشديد من الله – عز وجل – كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

والخشية: أشد الخوف، فهي أخص منه، ولهذا قالوا: الخشية لا تكون إلا مع عظم المخشي، وعلم الخاشي، لقوله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

والمراد: بيان أن الجبل على ما هو عليه من الشدة والصلابة والقساوة وعظم الخلقة لو أنزل القرآن عليه وسمعه وفهم ما فيه من دلائل عظمة الله ـ عز وجل ـ والأحكام العظيمة، والمواعظ البليغة، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب والثواب والعقاب وغير ذلك؛ لخشع

---

(١) البيت لابن القيم ضمن القصيدة النونية انظر ص١١.

الله وخوفه، فكيف لا تخشع ولا تلين ولا تتصدع قلوب كثير من الناس وقد أنزل القرآن عليهم وسمعوه وفهموه فصارت قلوب كثير من الناس أقسى من الجبال قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: ٣١] أي: لكان هذا القرآن. ولهذا أبت السموات والأرض والجبال مع عظمها حمل الأمانة كما قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فسبحان من جعل الجبال لو أنزل عليها القرآن تخشع وتخضع وتلين وهي من الحجارة مع شدتها وصلابتها [١] بينما تقسو قلوب كثير من الناس فلا تتأثر بالقرآن ولا تخضع، ولا تلين، كما قال عز وجل: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

الإشارة للأمثال التي يضربها الله عز وجل في القرآن كما في قوله تعالى قبل هذا ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ٢١].

والأمثال: جمع مَثَل، وهو تشبيه الشيء المعنوي بالشيء الحسي لإيضاح الأمر المعنوي وتقريبه في الأذهان، وهذا كثير في القرآن الكريم كما في قوله تعالى في تشبيه الإيمان في قلب المؤمن ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ

---

(١) ومن هذا حنين الجذع إليه ﷺ كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كان النبي ﷺ يخطب إلى جذع، فلما اتخذ المنبر تحوّل إليه، فحنّ الجذع، فأتاه فمسح يده عليه» أخرجه البخاري في المناقب ٣٥٨٣، وأخرجه بمعناه من حديث جابر رضي الله عنه ٣٥٨٤، ٣٥٨٥.

سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١].

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ «لعل» للتعليل، أي: لأجل أن يتفكروا. والتفكر: استعمال الفكر والعقل الذي منحه الله للإنسان وميزه به عن الحيوان، والتأمل في آيات الله - عز وجل - الكونية والشرعية، وفيما فيه سعادة الإنسان في دينه ودنياه وآخرته.

الفوائد والعبر:

١ ـ تصدير خطاب المؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداؤهم بوصف الإيمان تكريماً وتشريفاً لهم وحثاً على الاتصاف بهذا الوصف وامتثال ما بعده من أمر، والكف عما بعده من نهي وأن ذلك من مقتضيات الإيمان.

٢ ـ وجوب تقوى الله، والاستعداد ليوم القيامة، وتأكيد وجوب ذلك.

٣ ـ إثبات اسم الله ـ عز وجل ـ «الخبير» وكمال خبرته ـ عز وجل ـ وعلمه بأعمال العباد، وفي هذا وعد ووعيد.

٤ ـ تحذير المؤمنين ونهيهم أن يكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم والعمل لخلاصها وسعادتها وأولئك هم الفاسقون الخارجون عن طاعة الله ـ تعالى ـ.

٥ ـ إثبات الفرق الشاسع والبون الواسع بين أصحاب النار، وأصحاب الجنة فهؤلاء هم الفائزون بالنعيم والخير العميم، وأولئك في دركات الجحيم.

٦ ـ إثبات علو الله ـ عز وجل على خلقه ـ بذاته وصفاته.

٧ ـ أن القرآن الكريم منزل من عند الله ـ عز وجل ـ غير مخلوق ـ كما هو مذهب أهل السنة والجماعة. وفي هذا رد على المعتزلة ونحوهم.

٨ ـ الإشارة لقساوة قلوب الفاسقين الكافرين التي لم تلن ولم تخشع لذكر الله ـ عز وجل ـ وكلامه وأنها أشد قسوة من الجبال التي لو أنزل عليها هذا القرآن لخشعت وتصدعت من خشية الله.

٩ ـ وجوب الخشوع لله ـ عز وجل ـ والذل والخضوع له والخوف منه.

١٠ ـ ضرب الأمثال للناس لأجل أن يتفكروا في آيات الله ـ عز وجل ـ ويتعظوا بها.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝﴾

قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ تكلم عز وجل عن نفسه بضمير الغيبة تعظيماً لنفسه لأنه هو العظيم.

﴿ٱللَّهُ﴾ أي: المألوه المعبود بحق محبة وتعظيماً، وهو علم على ذات الرب - عز وجل - وهو أصل الأعلام، وتأتي أسماء الله عز وجل تابعة له، وقد يأتي تابعاً كما في قوله ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١، ٢]. فـ«الله» تابع للاسم الذي قبله، لكنه هنا لا يعرب صفة، وإنما يعرب بدلاً، أو عطف بيان.

﴿ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: الذي لا معبود بحق سواه، ولا رب غيره، فقوله ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ نفي للعبادة عما سواه، وقوله: ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إثبات العبادة له وحده عز وجل، وهذا معنى كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» نفي وإثبات، نفي العبادة عما سواه سبحانه، وإثبات العبادة له وحده. فلا رب غيره، ولا إله للوجود سواه، وكل ما يعبد من دونه فباطل.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ الغيب: السر وما غاب عن الخلق، والشهادة: العلانية وما يشاهده الخلق.

قال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقدّم الغيب على الشهادة في قوله ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ إشارة أن الغيب والشهادة عنده سواء كما قال عز وجل ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠].

﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ «الرحمن» و«الرحيم» اسمان من أسماء الله عز وجل الأول على وزن «فعلان» والثاني على وزن «فعيل»، و«فعلان» أبلغ من «فعيل» ولهذا قدم «الرحمن» على «الرحيم» هنا، وفي البسملة والفاتحة.

ويدل كل من «الرحمن» و«الرحيم» في حال انفراد كل منهما عن الآخر على إثبات صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل رحمة ذاتية ثابتة له - عز وجل - ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه، كما قال عز وجل: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

رحمة عامة لجميع الخلق ورحمة خاصة بالمؤمنين. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]، [الحج: ٦٥] والناس عام للمؤمنين وغيرهم.

قال ابن كثير [١] في كلامه على قوله ﴿هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾: «والمراد أنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات، فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما».

وفي حال اجتماع «الرحمن» مع «الرحيم» كما في هذه الآية يؤخذ من «الرحمن» إثبات صفة الرحمة الذاتية الثابتة لله – عز وجل – ويؤخذ من «الرحيم» إثبات صفة الرحمة الفعلية التي يوصلها – سبحانه – إلى من شاء من خلقه، كما يؤخذ من «الرحمن» إثبات صفة الرحمة العامة لجميع الخلق، ويؤخذ من «الرحيم» إثبات صفة الرحمة الخاصة بالمؤمنين – كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

و«الرحمن» لا يسمى به غير الله، وهو ثاني اسم من أسماء الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١].

أما «الرحيم» فيجوز أن يسمى ويوصف به غير الله، كما قال تعالى في وصف نبيه محمد ﷺ: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨].

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تأكيد لما سبق، وتوطئة وتمهيد لما بعده.

﴿ٱلۡمَلِكُ﴾ أي: مالك الكون كله المتصرف فيه، قال تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّ﴾ [طه: ١١٤، المؤمنون: ١١٦]، وقال عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿ٱلۡقُدُّوسُ﴾ المطهر، المعظم الممجد. كما قال عز وجل في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري» [٢].

﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ كما في الحديث «اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام» [٣]. فهو السلام: الذي لا يعتريه نقص ولا عيب، الكامل في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، ومنه عز وجل السلام، فهو عز وجل المسلم عباده من الآفات والشرور، والذي يَسْلَمُ

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٠٥.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٢٠، وأبو داود في اللباس ٤٠٩٠، وابن ماجه في الزهد ٤١٧٤، وأحمد ٢/ ٣٧٦.

(٣) أخرجه مسلم في المساجد ٥٩١، وأبو داود في الصلاة ١٥١٢، والترمذي في الصلاة ٣٠٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٩٢٨ – من حديث ثوبان – رضي الله عنه.

خلقه من أن يظلمهم كما قال عز وجل: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ روى الضحاك عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: «أمَّن خلقه من أن يظلمهم[١]» واختاره الطبري[٢].

وقال ابن زيد: «صدَّق عباده المؤمنين في إيمانهم به»[٣].

وقال السعدي[٤]: «المصدق لأنبيائه ورسله بما جاؤوا به بالآيات البينات والبراهين القاطعات، والحجج الواضحات».

﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة «المهيمن: الشهيد»[٥]. فيكون كقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٩]، وقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣].

وقيل ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾: الأمين، وقيل: المصدق، وقيل: الرقيب والحفيظ.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي له العزة التامة كما قال عز وجل: ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ [الصافات: ١٨٠] فهو - عز وجل - صاحب العزة التامة، بأنواعها: عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع[٦].

﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ الذي جبر وقهر خلقه على ما يشاء، وأذعن له سائر الخلق، والذي يجبر الكسير والمصاب ويغني الفقير.

﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ ذو الكبرياء والعظمة كما قال تعالى في الحديث القدسي: «العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منها عذبته»[٧].

﴿سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزه الله ـ عز وجل ـ وتقدس وتعالى عما يشركون معه من الشركاء.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ﴾

أي: الذي خلق الخلق، وأصل الخلق: الإبداع والتقدير، فالخالق المبدع المقدر لما يوجده.

قال ابن تيمية[٨]: «الخلق هو الإبداع بتقدير، فتضمن تقديرها في العلم قبل تكوينها».

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٠٥.
(٢) انظر «جامع البيان» ٢٢/ ٥٥٢.
(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٥٢.
(٤) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٤٥.
(٥) أخرجه عنهم الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٥٣.
(٦) راجع الكلام على قوله ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ [الآية: ١ من سورة الحديد].
(٧) سبق تخريجه.
(٨) في «مجموع الفتاوى» ١٦/ ٦٠.

وقال حافظ الحكمي [(١)]: «الخالق: المقدر والمقلب للشيء بالتدبير إلى غيره».

﴿ٱلۡبَارِئُ﴾ أي: الذي برأ الخلق. ﴿ٱلۡمُصَوِّرُۖ﴾ الممثل والمشكل للصور على ما يريد.

قال الزمخشري [(٢)]: «(الخالق): المقدر لما يوجده (البارئ) المميز بعضه من بعض بالأشكال المختلفة ﴿ٱلۡمُصَوِّرُۖ﴾ الممثل».

وقال القرطبي[(٣)]: «البارئ»: المنشئ المخترع، و«المصور» مصور الصور ومركبها على هيئات مختلفة، فالتصوير مرتب على الخلق والبراية وتابع لهما، ومعنى التصوير: التخطيط والتشكيل وخلق الله الإنسان في أرحام الأمهات ثلاث خِلَق: جعله علقة، ثم مضغة، ثم جعله صورة وهو التشكيل الذي يكون به صورة وهيئة يعرف بها ويتميز عن غيره بسمتها».

فخلق، أي: قدر، ثم برأ، أي: أنشأ واخترع، ثم صور، أي: جعل التخطيط والشكل المناسب.

قال ابن كثير [(٤)]: «الخلق: التقدير، والبراء: هو الفري، وهو: التنفيذ وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود، وليس كل من قدّر شيئاً ورتبه يقدر على تنفيذه وإيجاده سوى الله عز وجل. قال الشاعر يمدح آخر:

ولأنت تفري ما خلقت وبعـ ... ـض القوم يخلق ثم لا يفري[(٥)]

أي: أنت تنفذ ما خلقت، أي: ما قدّرت، بخلاف غيرك فإنه لا يستطيع ما يريد. فالخلق: التقدير، والفري: التنفيذ. ومنه يقال: قدّر الجلاّد ثم فَرَى، أي: قطع على ما قدره بحسب ما يريده.

وقوله: ﴿ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ﴾ أي: الذي إذا أراد شيئا قال له: كن فيكون على الصفة التي يريد، والصورة التي يختار، كقوله: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨] ولهذا قال «المصور» أي الذي ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التي يريدها».

﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ أي: له عز وجل – الأسماء الحسنى من كل وجه ألفاظها ومعانيها ودلالاتها وآثارها وحقائقها وغير ذلك، التي لا يحصيها ولا يعلمها أحد إلا هو.

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن رسول الله ﷺ قال: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر»[(٦)]. متفق عليه.

---

(١) في «معارج القبول» ١/ ١٣١.

(٢) في «الكشاف» ٤/ ٨٥.

(٣) في «الجامع لأحكام القرآن» ١٨/ ٤٨.

(٤) في «تفسيره» ٨/ ١٠٦.

(٥) هذا البيت لزهير بن أبي سلمى. انظر «ديوانه» ص٩٤.

(٦) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٤١٠، ومسلم في الذكر والدعاء ٢٦٧٧، والترمذي في الدعوات ٣٥٠٦، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٦٠.

وزاد الترمذي وابن ماجه: «هو الله الذي لا إله إلا هو، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الشهيد، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور» هذا لفظ الترمذي [(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية [(٢)]: «تعيينها ليس من كلام الرسول ﷺ باتفاق أهل العلم بحديثه».

وقال ابن كثير [(٣)]: «والذي عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعاني، عن زهير بن محمد: أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك، أي: أنهم جمعوها من القرآن، كما ورد عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبي زيد اللغوي، والله أعلم».

ثم قال ابن كثير: «ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى ليست منحصرة في التسعة والتسعين بدليل ما رواه أحمد ... عن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – عن رسول الله ﷺ – أنه قال: «ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك ماضٍ فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أعلمته أحداً من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرحاً، فقيل: يا رسول الله، أفلا نتعلمها؟ فقال: بلى، ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها» [(٤)].

قال ابن كثير: «وذكر الفقيه الإمام أبو بكر بن العربي أحد أئمة المالكية في كتابه «عارضة الأحوذي

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٠٧، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٦١، وقال الترمذي: «هذا حديث غريب.. وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة، ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث».

(٢) في «مجموع الفتاوى» ٦/ ٣٨٢.

(٣) في «تفسيره» ٥/ ٥١٦ ـ ٥١٧.

(٤) أخرجه أحمد ١/ ٣٩١، والحاكم ١/ ٥٠٩ – ٥١٠، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٠/ ١٣٦ وقال: «رواه أحمد وأبو يعلى والبزار ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح، غير أبي سلمة الجهني، وقد وثقه ابن حبان».

في شرح الترمذي» أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم - فالله أعلم».

وقد ذكر شيخنا الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله في كتابه «القواعد المثلى» أنه جمع تسعة وتسعين اسماً مما ظهر له من كتاب الله - تعالى - وسنة رسوله - ﷺ. قال: «فمن كتاب الله: الله، الأحد، الأعلى، الأكرم، الإله، الأول، الآخر، والظاهر، والباطن، البارئ، البر، البصير، التواب، الجبار، الحافظ الحسيب، الحفيظ، الحفي، الحق، المبين، الحكيم، الحليم، الحميد، الحي، القيوم، الخبير، الخالق، الخلاق، الرؤوف، الرحمن، الرحيم، الرزاق، الرقيب، السلام، السميع، الشاكر، الشكور، الشهيد، الصمد، العالم، العزيز، العظيم، العفو، العليم، العلي، الغفار، الغفور، الغني، الفتاح، القادر، القاهر، القدوس، القدير، القريب، القوي، القهار، الكبير، الكريم، اللطيف، المؤمن، المتعالي، المتكبر، المتين، المجيب، المجيد، المحيط، المصور، المقتدر، المقيت، الملك، المليك، المولى، المهيمن، النصير، الواحد، الوارث، الواسع، الودود، الوكيل، الولي، الوهاب.

ومن سنة رسول الله ﷺ: الجميل، الجواد، الحكم، الحيي، الرب، الرفيق، السبوح، السيد، الشافي، الطيب، القابض، الباسط، المقدم، المؤخر، المحسن، المعطي، المنان، الوتر».

قال الشيخ: هذا ما اخترناه بالتتبع واحد وثمانون اسماً في كتاب الله تعالى وثمانية عشر اسماً في سنة رسول الله - ﷺ - وإن كان عندنا تردد في إدخال «الحفي» لأنه إنما ورد مقيداً في قوله - تعالى - عن إبراهيم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧]، وكذلك «المحسن» لأننا لم نطلع على رواته في الطبراني، وقد ذكره شيخ الإسلام من الأسماء.

قال: ومن أسماء الله تعالى ما يكون مضافاً مثل: مالك الملك، ذي الجلال والإكرام»(١).

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: يسبح له جميع الذي في السموات والأرض، من المخلوقات، من الملائكة والإنس والجن والحيوانات والنبات والجماد، وسائر المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] (٢).

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وهو عز وجل ذو العزة التامة، والحكم النافذ والحكمة البالغة. والحكيم مشتق من الحكم ومن الحكمة، فله عز وجل الحكم بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وله الحكمة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية (٣).

عن معقل بن يسار - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: « من قال حين يصبح ثلاث مرات: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قرأ ثلاث آيات من آخر سورة

---

(١) انظر «القواعد المثلى» ص١٥ - ١٦.

(٢) انظر ما سبق في الكلام على مطلع سورة الحديد.

(٣) انظر ما سبق في الكلام على قوله ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ [الآية ١ من سورة الحديد].

الحشر وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي، وإن مات في ذلك اليوم مات شهيداً، ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة»[1].

الفوائد والعبر:

١ ـ تعظيم الله ـ عز وجل ـ لنفسه بذكر أسمائه الحسنى الدالة على صفاته العليا.

٢ ـ إثبات اسمه ـ عز وجل ـ الأعظم «الله» وأنه عز وجل المعبود الذي لا معبود بحق سواه.

٣ ـ علم الله الواسع المحيط بكل شيء مما يُسر ويظهر، ومما غاب عن الخلق ومما يشاهد.

٤ ـ إثبات اسميه عز وجل «الرحمن» و «الرحيم» وما يدلان عليه من صفة الرحمة الواسعة له ـ عز وجل ـ رحمة ذاتية ورحمة فعلية، رحمة عامة ورحمة خاصة.

٥ ـ أن «الرحمن» أبلغ وأخص من «الرحيم» لهذا قدم عليه.

٦ ـ تأكيد ألوهيته عز وجل ـ وأنه لا معبود بحق سواه.

٧ ـ إثبات اسميه ـ عز وجل ـ «الملك» و «القدوس» وسعة ملكه وتمام تصرفه وعظمته.

٨ ـ إثبات اسميه ـ عز وجل ـ «السلام» و «المؤمن» وما يدلان عليه من الصفة، فهو السلام الذي لا يعتريه نقص ولا عيب والمسلم عباده من الآفات والمؤمن الذي لا يظلم أحد عنده، المصدق لأنبيائه ورسله وعباده في إيمانهم.

٩ ـ إثبات أسمائه ـ عز وجل ـ «المهيمن» و «العزيز» و «الجبار» و «المتكبر»، وما يؤخذ منها من إثبات هيمنته عز وجل وشهادته على الخلق ورقابته عليهم وحفظه لهم، وأنه عز وجل ذو العزة التامة بأنواعها عزة القوة، وعزة القهر والغلبة وعزة الامتناع، والجبار الذي أذعن له سائر الخلق والذي يجبر المصاب ذو الكبرياء والعظمة.

١٠ ـ تنزيه الله ـ عز وجل ـ لنفسه عن الشريك، وأمره العباد بذلك.

١١ ـ إثبات أسمائه ـ عز وجل ـ «الخالق» و «البارئ» و «المصور» وما يؤخذ منها من إثبات صفة الخلق والتقدير والبرء، والتصوير ـ له عز وجل لجميع المخلوقات على أحسن الخلق وأجمل الصفات.

١٢ ـ إثبات أن لله ـ عز وجل ـ الأسماء الحسنى كلها بلا حصر.

١٣ ـ تسبيح جميع ما في السموات والأرض لله ـ عز وجل.

١٤ ـ تأكيد تسميته عز وجل ـ بالعزيز وتأكيد عزته وقوته وقهره وامتناعه.

١٥ ـ إثبات اسم الله «الحكيم» وما يؤخذ منه من إثبات صفة الحكم التام له عز وجل بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني والشرعي والجزائي والحكمة بقسميها: الحكمة الغائية والحكمة الصورية.

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٢٦، والترمذي في «فضائل القرآن» ٢٩٢٢. وقال الترمذي: «حديث غريب».

تفسير سورة الممتحنة

سبب النزول

لما نقض أهل مكة العهد الذي بينهم وبين الرسول ﷺ أمر النبي ﷺ بالتجهز لغزوهم، وسأل الله - عز وجل - أن يعمي عليهم خبره، لكن حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه كتب إليهم كتاباً يخبرهم فيه بعزم رسول الله - ﷺ - على غزوهم ليتخذ بذلك عندهم يداً يحمون بها قرابته، فأنزل الله هذه السورة [(١)].

فعن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: «بعثني رسول الله - ﷺ - أنا والزبير والمقداد، فقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ[(٢)] فإن بها ظعينة[(٣)] معها كتاب فخذوه منها»، فانطلقنا تعادى[(٤)] بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة قلنا: أخرجي الكتاب. قالت: ما معي كتاب، قلنا لتُخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب. قال: فأخرجت الكتاب من عقاصها[(٥)] فأخذنا الكتاب، فأتينا به رسول الله - ﷺ - فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين بمكة، يخبرهم ببعض أمر رسول الله - ﷺ - فقال رسول الله - ﷺ -: «يا حاطب، ما هذا؟». قال: لا تعجل عليّ، إني كنت امرأ ملصقاً في قريش، ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن اتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني، ولا رضى بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله - ﷺ -: «إنه صدقكم» فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال: «إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم» ونزلت فيه السورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾»[(٦)].

---

(١) انظر «جامع البيان» ٢٢/ ٥٥٩، «السيرة النبوية» لابن هشام ٤/ ٣٩، «البداية والنهاية» ٦/ ٥١٠، «تفسير ابن كثير» ٨/ ١٠٨.

(٢) روضة خاخ على اثني عشر ميلا من المدينة.

(٣) أي: امرأة.

(٤) أي: تسابق.

(٥) أي: من ذوائبها المضفورة.

(٦) أخرجه البخاري في المغازي - فضل من شهد بدراً ٤٢٧٤، ومسلم في فضائل الصحابة - فضائل أهل بدر رضي الله عنهم، وقصة حاطب بن أبي بلتعة ٢٤٩٤، وأبو داود في الجهاد ٢٦٥٠، والترمذي في تفسير سورة الممتحنة ٣٣٠٥، وأحمد ١/ ٧٩ - ٨٠.

وفي رواية عن علي رضي الله عنه قال: «بعثني رسول الله - ﷺ - وأبا مرثد والزبير ابن العوام، وكلنا فارس. وقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب إلى المشركين» فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله - ﷺ - فقلنا: الكتاب؟ فقالت: ما معي كتاب. فأنخناها فالتمسنا، فلم نر كتاباً، فقلنا: ما كذب رسول الله - ﷺ - لتخرجن الكتاب أو لنجردنك. فلما رأت الجد أهوت إلى حجزتها [١] وهي محتجزة بكساء فأخرجته. فانطلقنا به إلى رسول الله - ﷺ - فقال عمر: يا رسول الله قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني فلأضرب عنقه. فقال: «ما حملك على ما صنعت؟» قال: والله ما بي إلا أن أكون مؤمنا بالله ورسوله أردت أن تكون لي يد يدفع الله بها عن أهلي ومالي، وليس أحد من أصحابك إلا له هنالك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله، فقال: «صدق لا تقولوا له إلا خيراً» فقال عمر: إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني، فلأضرب عنقه، فقال: «أليس من أهل بدر؟، فقال: لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة، أو قد غفرت لكم». فدمعت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم»[٢].

وفي رواية: «فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ الآية»[٣].

وفي رواية: «فأنزل الله - عز وجل - في حاطب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ إلى آخر القصة»[٤].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ

---

(١) الحجزة: معقد الإزار.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي - فضل من شهد بدراً ٣٩٨٣.

(٣) أخرجها الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٦٠ - ٥٦١.

(٤) انظر «السيرة النبوية» ٢/ ٣٩٨ - ٣٩٩، «جامع البيان» ٢٢/ ٥٦٢ - ٥٦٣.

مَرْضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ۝ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝﴾

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ صدر الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، ونادى المؤمنين بوصف الإيمان تشريفاً وتكريماً لهم وحثا على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال الطلب بعده وهو عدم موالاة الكافرين يعد من مقتضيات الإيمان، وأن عدم امتثاله يعد نقصاً في الإيمان.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فارعها سمعك فهو خير يامر به، أو شر ينهى عنه»[1].

﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ «لا» ناهية، والنهي هنا يفيد التحريم، أي: لا تجعلوا ﴿عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ﴾ وهم الكفار ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ أي: أولياء لكم وأنصاراً.

ويؤخذ من الآية أن الكفار كما هم أعداء الله - عز وجل - هم أيضاً أعداء للمؤمنين فلا يمكن لمن كان عدواً لله - عز وجل - أن يكون وليا حقاً للمؤمنين صادقاً في موالاته لهم - وإن زعم ذلك - فعدو الله عدو لأولياء الله، وولي الله ولي لأولياء الله.

قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةًۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤]، وقال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧].

وفي هذه الآيات اشد التهديد والوعيد وأعظم الزجر عن موالاة الكافرين.

وعن ربعي بن خراش قال: سمعت حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - يقول: «ضرب لنا رسول الله - ﷺ - امثالاً: واحداً، وثلاثة، وخمسة، وسبعة، وتسعة، وأحد

---

(١) اخرجه ابن ابي حاتم في «تفسيره» ٣/ ٩٠٢ - الأثر ٥٠٢٧.

عشر. قال: فضرب لنا مثلاً منها وترك سائرها، قال: «إن قوماً كانوا أهل ضعف ومسكنة قاتلهم أهل تجبر وعداء فاظهر الله أهل الضعف عليهم، فعمدوا إلى عدوهم فاستعملوهم وسلطوهم، فأسخطوا الله عليهم إلى يوم القيامة»[1].

﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ أي: توادونهم، وتفعلون معهم وتقولون لهم ما يوحي بمودتكم لهم، وهذا كقوله بعد ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ .

﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ الواو: للحال، و«قد» للتحقيق. أي: والحال أنهم قد كفروا بالذي جاءكم من الحق من عند الله على لسان رسوله - ﷺ - من القرآن والسنة، أي: جحدوه وأنكروه، ولم يؤمنوا به.

﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ الجملة مستأنفة كالتفسير لكفرهم، أو حال من كفروا، أي: أنهم أخرجوا الرسول - ﷺ - وإياكم أيها المؤمنون فاضطروكم إلى الخروج والهجرة من مكة إلى المدينة، وما زالوا يخرجون من آمن ولهذا قال ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ ولم يقل: أخرجوا الرسول وإياكم، إشارة إلى استمرارهم على أذية من آمن واضطراره إلى الخروج والهجرة.

﴿أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ أي: بسبب إيمانكم بالله ربكم، أي: لا سبب لإخراجكم سوى إيمانكم بالله رب العالمين، كقوله عز وجل: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البروج: ٨، ٩]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠].

قال ابن كثير[2]: «وقوله: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾: هذا مع ما قبله من التهييج على عداوتهم وعدم موالاتهم لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم، كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده».

﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى﴾ ﴿جِهَٰدًا﴾ مفعول لأجله.

أي: إن كنتم خرجتم وهاجرتم لأجل الجهاد في سبيلي. والجهاد: بذل الجهد والطاقة والوسع في قتال الكفار، وفي طاعة الله - عز وجل -.

﴿فِى سَبِيلِى﴾ أي: لإعلاء كلمتي ونصر ديني. كما قال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله

---

(١) اخرجه احمد ٥/ ٤٠٧.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ١١٢.

هي العليا فهو في سبيل الله - عز وجل -»[1].

﴿وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾ أي: طلباً لمرضاتي عنكم.

والمعنى: إن كنتم خرجتم من مكة لأجل الجهاد في سبيلي وطلباً لرضائي، صادقين في ذلك فلا تتخذوهم أولياء.

﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ أي: فكيف تسرون إليهم بالمودة؟ أو فلم تسرون إليهم بالمودة.

﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ الواو: حالية و«ما» في الموضعين موصولة، أو مصدرية، أي: والحال أني أنا أعلم بالذي أخفيتم والذي أعلنتم، أو بإخفائكم وإعلانكم، أي: أعلم بالذي تسرون به وتضمرونه، والذي تجهرون به وتعلنونه، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النحل: ١٩]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣]، وقال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ [الأعلى: ٧].

ومن علمه - عز وجل - بما أخفي وما أعلن - علمه بما فعل حاطب - رضي الله عنه.

﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ الواو: استئنافية و«من» شرطية و«يفعله» فعل الشرط وجوابه قوله ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وقرن بالفاء لاتصاله بـ«قد».

والضمير في قوله ﴿يَفْعَلْهُ﴾ يعود إلى المفهوم من النهي السابق من اتخاذ الكافرين أولياء والإلقاء إليهم بالمودة والإسرار لهم بها.

﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: فقد تاه وبعد عن وسط الطريق، أي: عن الطريق العدل، والطريق السوي، وأخطأ طريق الحق والصواب. قال تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ١٣٥].

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ أي: إن قدروا عليكم وتمكنوا منكم وظفروا بكم ﴿يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾ أي: تظهر لكم عداوتهم الشديدة.

﴿وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم﴾ أي: ويمدوا إليكم أيديهم بالبطش، وألسنتهم بالقول.

---

(١) أخرجه البخاري في العلم ١٢٣، ومسلم في الإمارة ١٩٠٤، وأبو داود في الجهاد ٢٥١٧، والنسائي في الجهاد ٣١٣٦، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٤٦، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٨٣ - من حديث أبي موسى - رضي الله عنه.

﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي: بما يسوؤكم ويؤذيكم وينال منكم من الفعل السيء والقول السيء. أي: فلو أتيحت لهم فرصة لما ادخروا وسعاً في أذيتكم بالفعل والقول.

﴿وَوَدُّواْ﴾ أي: تمنوا وأحبوا ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: ودوا وتمنوا وأحبوا كفركم، أو أن تكفروا، فهم لا يحبون أن يحصل المؤمنون على أي خير. ويؤخذ من الآية أن الشيطان وجنده وأعوانه من شياطين الإنس والجن لا يرضيهم ولا يقنعهم ولا يكفيهم إلا أن يردوا المسلمين عن دينهم – كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨]، وقال تعالى في أهل الكتاب: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقال تعالى في أتباع الشهوات: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

﴿لَن تَنفَعَكُمْ﴾ أي: لن تغني عنكم ولن تدفع عنكم ﴿أَرْحَامُكُمْ﴾ أي: قراباتكم عموماً ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ خصوصاً – فهو من عطف الخاص على العام.

والأرحام: جمع رحم، وهي في الأصل موضع تكوّن الجنين، والمراد بهم هنا القرابة، وسمي القرابة أرحاماً لأنهم خرجوا من رحم واحد، أو لأنهم يتراحمون فيما بينهم.

والأولاد: جمع ولد، يشمل الذكر والأنثى من أولاد الإنسان وأولاد بنيه وإن نزلوا بمحض الذكور، وهم ذريته.

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ قرأ عاصم ويعقوب بفتح الياء وكسر الصاد مخففة، (يَفْصِلُ) وقرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الياء وفتح الفاء وكسر الصاد مشددة (يُفَصِّلُ) وقرأ الباقون بضم الياء وإسكان الفاء وفتح الصاد مخففة (يُفْصَلُ). وسمي يوم القيامة بهذا الاسم لقيام الناس فيه من قبورهم كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]، ولقيام الأشهاد فيه لقوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، ولقيام الروح والملائكة فيه صفاً كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾[النبأ: ٣٨]، ولقيام الحساب والعدل الحقيقي فيه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١)، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

ومعنى ﴿يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ أي: يمايز ويفرّق بينكم، فلا أحد ينفع أو يغني عن أحد، ولا

أحد ينتصر أو يدفع عن أحد عذاب الله - عز وجل - كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ [الدخان: ٤١، ٤٢]، وقال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

ففي ذلك اليوم لا أحد ينفع أحداً ولا أحد ينتصر لأحد بخلاف ما كان عليه الحال في الدنيا حيث يقول قائلهم:

أخاك أخاك إن من لا أخا له ... كساع إلى الهيجا بدون سلاح[1]

وقد يحتمل أن معنى قوله: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ أي: يحكم بينكم بإعطاء كل منكم حقه من الآخر، ولو كان أقرب الناس إليه كأمه وأبيه وصاحبته وبنيه. ولا مانع من حمل الآية على المعنيين.

ويؤخذ من ذلك أنه لا يجوز أن يواد الإنسان أو يوالي الكفار لأجل كونهم من قرابته، أو أولاده، فإنهم لا ينفعونه يوم القيامة، بل تعود عليه موالاتهم بالضرر يوم القيامة. وفي حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه، وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس»[2].

ولو كان أحد يملك لقرابته في ذلك اليوم نفعاً أو دفعاً لكان أولى الناس بذلك سيد الخلق نبينا محمد ﷺ فأمه وأبوه في النار.

فعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ، قال: يا رسول الله، أين أبي؟ قال: «في النار» فلما مضى دعاه، فقال: «إن أبي وأباك في النار»[3].

ولم يستطع - ﷺ - هداية عمه أبي طالب الذي كانت له الأيادي البيضاء في الدفاع

---

(١) البيت للربيع بن ضبع الفزاري.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه - انظر «تيسير العزيز الحميد» ص٤٩٣. وقد أخرجه الترمذي في الزهد ٣٤١٤ عنها بلفظ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس».

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان - بيان أن من مات على الكفر فهو في النار ٢٠٣. وأبو داود في السنة - باب في ذراري المشركين ٤٧١٨، وأحمد ٣/ ١١٩.

عن النبي ﷺ.

ولما توفي أبو طالب عم النبي ﷺ على الشرك، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. قال رسول الله ﷺ: «أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» فأنزل الله تعالى فيه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣][1].

وروي أنه قال: «لا أزال أستغفر لك ربي حتى يردني» فاستغفر له بعدما مات. فقال المسلمون ما يمنعنا أن نستغفر لآبائنا ولذوي قراباتنا قد استغفر إبراهيم لأبيه، وهذا محمد - ﷺ - يستغفر لعمه، فاستغفروا للمشركين حتى نزل ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١]».

ورُوِيَ: «أنه ﷺ استأذن ربه في الاستغفار لأمه، فلم يأذن له فيه، ونزل ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ حتى ختم الآية ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤] [2].

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: والله بالذي تعملون، أو بعملكم ﴿بَصِيرٌ﴾ أي: عالم به، مطلع عليه، ذو علم وبصر به، لا تخفى عليه منه خافية، وسيحاسبكم ويجازيكم عليه إن خيراً فخير وإن شراً فشر - ففي هذا وعد لمن اتقى الله وأطاعه، ووعيد لمن خالف أمره وعصاه.

الفوائد والعبر:

١- تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداؤهم بوصف الإيمان تشريفاً وتكريماً لهم وحثاً على الاتصاف بهذا الوصف وامتثال ما بعده من الطلب، وأن ذلك من مقتضيات الإيمان، وعدمه نقص في الإيمان.

٢- نهي المؤمنين عن موالاة أعداء الله وأعدائهم الكفار ومودتهم وتأكيد ذلك وتأكيد حرمة ذلك، وتهييج المؤمنين على عداوتهم لكفرهم بما جاءهم من الحق، وإخراجهم الرسول والمؤمنين من مكة بلا ذنب إلا أنهم آمنوا بربهم.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٦٧٥، ومسلم في الإيمان ٢٤، والنسائي في الجنائز ٢٠٣٥ - من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه رضي الله عنه.

(٢) انظر «أسباب النزول» للواحدي ص١٧٨، «لباب النقول» ص١٢٦، ١٢٧، «تفسير ابن كثير» ٤/ ١٥٨ - ١٦١، ٨/١١٣.

٣ ـ أن من عادى الله فهو عدو للمؤمنين ومن عادى المؤمنين فهو عدو لله.

٤ـ تقرير أن ما جاء المؤمنين من عند الله ـ عز وجل ـ هو الحق، وتقرير صدق رسالته ﷺ.

٥ـ إثبات ربوبية الله الخاصة للمؤمنين، وتشريفهم بها.

٦ ـ أن على المؤمنين الصادقين في هجرتهم وجهادهم وفي إيمانهم البعد عن موالاة ومودة الكافرين فإن موالاتهم تنافي الإخلاص لله في هذه الأعمال ولا تجتمع معها، والتحذير لمن فعل ذلك وأنه عين الضلال عن سواء السبيل.

٧ ـ علم الله عز وجل المحيط بما يخفيه العباد في قلوبهم وما يعلنونه.

٨ ـ تربص الكافرين الدوائر بالمؤمنين وظهور شدة عداوتهم لهم لو تمكنوا منهم وتطاولهم عليهم بأيديهم وألسنتهم بالسوء ومودتهم لو يكفرون.

٩ ـ لا أحد من الأقارب والأولاد وغيرهم ينفع أو يغني عن أحد يوم القيامة أو ينتصر له ويدفع عنه عذاب الله، بل يفصل بينهم، بل ويؤخذ لكل منهم حقه من الآخر.

١٠ ـ لا يجوز موالاة وموادة الكفار لقرابتهم.

١١ ـ علم الله ـ عز وجل ـ واطلاعه وبصره بجميع أعمال العباد فيجازي كلاً بما عمل، وفي هذا وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦)﴾

صلة الآيات بما قبلها:

نهى الله عز وجل في الآيات السابقة عن اتخاذ الكافرين أولياء، بعد ما حصل من حاطب بن أبي بلتعة ـ رضي الله عنه ـ من الكتابة لهم، والإلقاء إليهم بالمودة والإسرار لهم بها، وذكر – عز وجل ما يهيج على عداوتهم من كفرهم، وإخراجهم للرسول – ﷺ – والمؤمنين، وتربصهم بالمؤمنين وغير ذلك، ثم أتبع ذلك بذكر من ينبغي أن يقتدى به في هذا وهو إبراهيم الخليل عليه السلام والذين معه من المؤمنين في براءتهم من قومهم المشركين ومعبوداتهم، وإظهار العداوة لهم حتى يؤمنوا بالله وحده لا شريك له.

قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ «قد» حرف تحقيق، والخطاب للمؤمنين، والأسوة: القدوة، أي: قد كانت لكم أيها المؤمنون قدوة حسنة طيبة، ومثل يحتذى في الخير والأمور الحسنة، لأن القدوة نوعان: قدوة حسنة طيبة، وقدوة سيئة خبيثة.

﴿فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ أي: في نبي الله إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام والذين معه من الأنبياء والمؤمنين في براءتهم من قومهم الكافرين وعدم موالاتهم ومحبتهم لهم.

﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ﴾ «إذ» ظرف زمان بمعنى «حين»، أي: حين قالوا لقومهم المشركين.

﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ﴾ برآء: جمع بريء، يقال في جمعه: برآء، وأبرياء، وبريئون، جمع مذكر سالم. أي: إنا تبرأنا منكم فلسنا منكم ولستم منا.

﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: وتبرأنا من عبادتكم ومن الذي تعبدونه من دون الله من المعبودات، فلا نعبد شيئاً منها، بل نعبد الله وحده.

﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي: أنكرناكم، وأنكرنا دينكم وطريقتكم.

﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ﴾ أي: وظهر بيننا وبينكم العداوة والبغضاء لكم، ووجب علينا إظهار ذلك لكم ﴿أَبَدًا﴾ من الآن وعلى الدوام ما دمتم على الكفر.

﴿حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ حتى للغاية، أي: إلى أن تؤمنوا بالله وحده لا شريك له، بالإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشرعه، وتعبدوه وحده.

﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ «إلا» أداة استثناء، و«قول» مستثنى منصوب من قوله ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

أي: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ آزر ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ فليس لكم فيه أسوة، أو لا تتاسوا به في ذلك.

قال الطبري[1]: «إلا في قول إبراهيم لأبيه ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ فإنه لا أسوة لكم فيه في ذلك، لأن ذلك كان من إبراهيم لأبيه عن موعدة وعدها إياه قبل أن يتبين له أنه عدو لله، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه».

كما قال عز وجل ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: «ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه[2] حتى مات، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه»[3].

وفي هذا دلالة على فضل نبينا محمد – ﷺ – على إبراهيم وعلى سائر الأنبياء عليهم السلام – لأن الله أمرنا بالاقتداء به – ﷺ – مطلقا فقال تعالى: ﴿وَمَا ءَاتَىٰكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] بينما استثنى بعض فعل إبراهيم لما أمرنا بالاقتداء به – عليه السلام.

﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ الواو: حاليه و«ما» نافية أي: والحال أني لا أملك لك من الله من شيء.

و«من» في قوله ﴿مِن شَيْءٍ﴾ زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى و«شيء» نكرة في سياق النفي، فتعم أي شيء، أي: ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ﴾ شيئاً من الأشياء مهما كان صغيراً أو كبيراً، قليلاً أو كثيراً، لا هداية ولا غير ذلك، ولا أقدر على شيء من ذلك، وإنما المالك لذلك كله والقادر عليه هو الله عز وجل، كما قال عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فأين من هذا الذين يتوسلون بالأنبياء والأولياء يطلبون منهم جلب النفع ودفع الضر، وإبراهيم خليل الرحمن يعلنها صريحة لأبيه وأقرب الناس إليه ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾.

---

(١) في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٦٧.
(٢) كما قال تعالى عنه أنه قال: (واغفر لأبي إنه كان من الضالين) [الشعراء: ٨٦].
(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٢/ ٣٠، ٣٢، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٦/ ١٨٩٤، ١٨٩٥.

كما قال عز وجل لنبينا محمد ﷺ سيد ولد آدم ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا ۝ قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا﴾ [الجن: ٢٠، ٢١].

نسألك اللهم الهداية للحق والثبات عليه إلى أن نلقاك.

﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ هذا إلى قوله ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ من تتمة كلام إبراهيم عليه السلام والذين معه بعد أن أعلنوا البراءة من قومهم ومن معبوداتهم وإظهار العداوة والبغضاء لهم ما داموا على الشرك.

﴿رَّبَّنَا﴾ أي: يا ربنا، خالقنا ومالكنا، والمتصرف فينا.

﴿عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا﴾ أي: عليك اعتمدنا، وإليك فوضنا أمورنا في جلب النفع لنا ودفع الضر عنا مع تمام الثقة بك والبراءة من حولنا وقوتنا.

﴿وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا﴾ أي: وإليك تبنا ورجعنا.

﴿وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي: وإليك وحدك المرجع والمآل والمنقلب والمعاد في الدار الآخرة وفي جميع الأمور.

﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: يا ربنا لا تصيرنا ﴿فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ والفتنة: الابتلاء والامتحان، وتكون في الخير والشر كما قال عز وجل: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

والمعنى: يا ربنا لا تصيرنا فتنة للذين كفروا بأن تسلطهم علينا بالقتل والأذى، أو بأن نواليهم ونوادهم، فيكونوا سبباً في فتنتنا عن ديننا أو بظهورهم علينا فيظنوا أنهم على حق ونكون فتنة لهم.

﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ﴾ أي: واغفر لنا يا ربنا، بستر ذنوبنا عن الخلق والتجاوز عن عقوبتها - كما جاء في تقرير الله عز وجل للعبد المؤمن بذنوبه وقوله - عز وجل -: «أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»[1].

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ «العزيز» و«الحكيم» من أسماء الله - عز وجل - كل منهما على وزن «فعيل»، يدل «العزيز» على أن له عز وجل العزة بأنواعها الثلاثة: عزة القهر، وعزة القوة، وعزة الامتناع.

---

(١) سبق تخريجه.

ويدل «الحكيم» على أن له – عز وجل – الحكم بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وأن له الحكمة، بقسميها: الحكمة الغائية والحكمة الصورية.

وقد أكد عز وجل كمال عزته وحكمه وحكمته – إضافة إلى كون هذين الاسمين جاءا على صيغة المبالغة بـ «أن» المؤكدة، ويكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «أنت».

وناسب ختم الآية بقوله ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ مع أنه يلي قوله ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ﴾ – والله أعلم – ليناسب قوله قبل ذلك: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾

هذا تأكيد لما سبق في قوله ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ الآية.

واللام في قوله ﴿لَقَدۡ كَانَ﴾ للقسم، و«قد» للتحقيق، أي: والله ﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ فتكرار هذه الجملة تأكيد، وتصديرها بالقسم تأكيد آخر، وقال هنا: «كان» وفي الآية الأولى «كانت»، وذلك – والله أعلم – للتنصيص في الآية الأولى على أن لهم بإبراهيم والذين معه أسوة حسنة في البراءة من الكافرين، وأما قوله في الآية الثانية ﴿كَانَ﴾ ففيه إشارة إلى أن لهم فيهم أسوة عامة في طاعة الله تعالى وترك معصيته.

﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ﴾ «لمن» جار ومجرور بدل من قوله «لكم» و«من» اسم موصول، أي: للذي يرجو ثواب الله، ويخاف عقابه. قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾ [نوح: ١٣] أي: لا تخافون لله عظمة.

﴿وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ﴾ أي: ويرجو الثواب في اليوم الآخر، ويخاف العقاب.

واليوم الآخر: يوم القيامة، لأنه لا يوم بعده، فآخر ليلة من الدنيا صبيحتها يوم القيامة.

وفي قوله: ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ﴾ تأكيد وتهييج أيضا لأخذ القدوة من إبراهيم والذين معه في البراءة من الكافرين، وأن من كان يرجو الله واليوم الآخر لا بد أن يكون كذلك.

وقرن – عز وجل – بين رجائه واليوم الآخر – كما يقرن عز وجل كثيراً بين الإيمان به واليوم الآخر، لأن اليوم الآخر يوم الحساب والجزاء على الأعمال وهو من أعظم ما يحمل الإنسان على العمل ومحاسبة النفس، كما رُويَ عن عمر رضي الله عنه قوله: «لولا الإيمان باليوم الآخر لرأيت من الناس غير ما ترى» أي: لتنكر الناس بعضهم لبعض، ولتهالكوا في الشهوات والمعاصي إذ لا وازع ولا رادع.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: ومن يعرض عن طاعة الله - عز وجل - وأمره ونهيه بقلبه وجوارحه، وقوله وفعله، وذلك بموالاة الكافرين وغير ذلك.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ «الغني» و«الحميد» كل منهما من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل»، يدل «الغني» على كمال وسعة غناه، وأنه غني عن خلقه، كما قال عز وجل: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣] وقال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠] وقال تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦]، وقال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

وقال عز وجل في الحديث القدسي: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر..»[1].

و«الحميد» يدل على أنه - عز وجل - المحمود على كرمه وجوده، وفي جميع أقواله وأفعاله، المستحق للحمد وحده كما قال عز وجل ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والحمد: وصف المحمود بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم[2].

وقد قرن عز وجل بين اسميه «الغني» و«الحميد» في مواضع عدة من القرآن الكريم. إشارة إلى أنه عز وجل المحمود على غناه لكرمه العميم وجوده العظيم.

قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣١]، وقال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الحج: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٧٧، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٩٥، وابن ماجه في الزهد ٤٢٥٧ - من حديث أبي ذر - رضي الله عنه.

(٢) انظر «اللباب في تفسير الاستعاذة والبسملة وفاتحة الكتاب» ص٢١٣.

ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [لقمان: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الحديد: ٢٤، الممتحنة: ٦]، وقال تعالى: ﴿فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦].

الفوائد والعبر:

١ ـ ينبغي أن يكون للمؤمنين قدوة حسنة في إبراهيم عليه السلام والذين معه في إخلاصهم العبادة لله ـ عز وجل ـ وبراءتهم من قومهم المشركين ومن معبوداتهم وكفرهم بهم وإظهار عداوتهم وبغضهم أبداً حتى يؤمنوا بالله ويوحدوه.

٢ ـ لا يتأسى ولا يقتدى في إبراهيم عليه السلام في استغفاره لأبيه وهو مشرك لأن الاستغفار للمشركين لا يجوز وإنما استغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه عن وعد له بذلك فلما تبين له عداوته لله واستمراره على الشرك تبرأ منه.

٣ ـ أن الهداية بيد الله فهو يهدي من يشاء بفضله ويضل من يشاء بعدله ولهذا قال إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن لأبيه «وما أملك لك من الله من شيء».

٤ ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لأوليائه المؤمنين ـ وتشريفهم بها.

٥ ـ وجوب إخلاص العبادة لله وحده والتوكل عليه والإنابة إليه أسوة بإبراهيم عليه السلام والذين معه.

٦ ـ أن المصير والمرجع والمآب والمآل إلى الله ـ عز وجل ـ فيجازي كلاً بعمله.

٧ ـ مشروعية سؤال الله ـ عز وجل ـ السلامة من فتنة الذين كفروا في الدين أو القتل أو غير ذلك، وسؤال الله ـ المغفرة.

٨ ـ إثبات اسمين من أسماء الله وهما «العزيز» و «الحكيم» وأن له عز وجل العزة التامة، والحكم النافذ، والحكمة البالغة.

٩ ـ تأكيد وجوب أخذ القدوة من إبراهيم عليه السلام ومن آمن معه في براءتهم من قومهم المشركين ومعبوداتهم لمن كان يرجو الله والثواب يوم القيامة، وذلك تعظيما لخطر الشرك، وتحذيرا منه

١٠ ـ التهديد لمن تولى وأعرض عن طاعة الله وخالف أمره ووالى أعداءه وبيان غنى الله ـ عز وجل ـ عنه وأنه سبحانه الغني عن خلقه.

١١ ـ إثبات اسمين من أسمائه ـ عز وجل ـ وهما «الغني» و «الحميد» وأنه سبحانه الغني عن جميع الخلق المغني لهم، المحمود على كرمه وجوده، وفي جميع أقواله وأفعاله، المستحق للحمد وحده.

١٢ – أن الغنى إذا لم يصاحبه جود وكرم وبذل منه يحمد عليه صاحبه فلا قيمة له، بل هو نقمة ووبال على صاحبه.

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾

صلة الآيات بما قبلها:

نهى الله – عز وجل – في الآيات السابقة عن موالاة الكافرين وموادتهم – مطلقا – وحيث إن ترك موالاة الكافرين إذا كانوا من الأقربين أمر ليس بالسهل على النفوس لم يقنط – عز وجل – المؤمنين، بل فتح لهم باب الرجاء في إيمان هؤلاء الكافرين فتعود المودة بينهم وبينهم، فقال عز وجل ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ثم بين عز وجل من لم يتناولهم النهي ممن يجوز الإقساط إليهم وبرهم من الكافرين ومن لا تجوز موالاتهم مطلقا في الآيتين بعد ذلك.

قال ابن القيم [(١)]: «لما نهى الله سبحانه في أول السورة عن اتخاذ المسلمين الكفار أولياء، وقطع المودة بينهم وبينهم، توهم بعضهم أن برهم والإحسان إليهم من الموالاة والمودة، فبين الله – سبحانه – أن ذلك ليس من الموالاة المنهي عنها، وأنه لم ينه عن ذلك، بل هو الإحسان الذي يحبه ويرضاه وكتبه على كل شيء، وإنما المنهي عنه تولي الكفار والإلقاء إليهم بالمودة».

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ «عسى» للترجي بالنسبة للمخلوق – كما قال الشاعر:

عسى الكرب الذي أمسيت فيه ... يكون وراءه فرج قريب[(٢)]

وقال الآخر:

عسى فرج يأتي به الله إنه ... له كل يوم في خليقته أمر[(٣)]

فيكون المراد بالرجاء هنا ما يقوم في قلوب المخاطبين: أي: يرجى أن الله يجعل بينكم

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٣٣.

(٢) البيت لهدبة بن خشرم، وهو في «ديوانه» ص٥٤.

(٣) البيت لمحمد بن إسماعيل، كما في حاشية «شذور الذهب» ص ٣٥١.

وبين الذين عاديتم منهم مودة. أو ترجون أن الله يجعل بينكم وبينهم مودة ويحتمل أن هذا وعد من الله عز وجل أن يجعل بينهم وبين هؤلاء الكفار مودة بأن يسلم هؤلاء الكفار. وتكون «عسى» هنا بمعنى الوعد من الله عز وجل بذلك.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «عسى من الله واجبة»[(١)].

والمعنى: عسى الله أن يجعل بينكم أيها المؤمنون وبين كفار مكة الذين نهيتم عن موالاتهم وموادتهم وأمرتم بعداوتهم مودة، وذلك بأن يسلموا، وهكذا حصل فآمن كثير من أهل مكة يوم الفتح وقبله وبعده، منهم أبو سفيان وغيره.

﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾ أي: ذو قدرة تامة على كل شيء، ومن ذلك تقليب القلوب، بإدخال الإيمان في قلوب كثير من الكفار، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، والتاليف بين القلوب المتنافرة والمتناحرة، كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

ولهذا قال - ﷺ -: «ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فالفكم الله بي»[(٢)]. وقد أحسن القائل:

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما ... يظنان كل الظن أن لا تلاقيا[(٣)]

ولهذا فإن من الحكمة بل من المأمور به شرعاً أن لا يفرط الإنسان بالعداوة ولا بالمحبة، وفي الحديث: «أحب حبيبك هوناً ما، فعسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما، فعسى أن يكون حبيبك يوماً ما»[(٤)].

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ «الغفور» و«الرحيم» من أسماء الله عز وجل يدلان على أنه عز وجل

---

(١) أخرجه البيهقي في سننه ٩/ ١٣.
(٢) أخرجه البخاري في المغازي - غزوة الطائف ٤٣٣٠، ومسلم في الزكاة - إعطاء المؤلفة قلوبهم ١٠٦١، وأحمد ٤/ ٤٢ - من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم - رضي الله عنه.
(٣) البيت لقيس بن الملوح «مجنون ليلى» انظر «ديوانه» ص٣١٥.
(٤) أخرجه الترمذي في البر - الاقتصاد في الحب والبغض ١٩٩٧ - من حديث علي بن أبي طالب - رضي الله عنه. وقال: «حديث غريب. وصحح وقفه على علي رضي الله عنه».

ذو المغفرة التامة، والرحمة الواسعة، ومن مغفرته عز وجل ورحمته أن يغفر لمن تاب من المؤمنين ويرحمهم، وأن يهدي من يشاء من كفار مكة وغيرهم للإيمان، ويغفر لهم ما قد سلف، كما قال عز وجل: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ «لا» نافية، ومعنى ﴿لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ أي: لم يقاتلوكم لأجل دينكم وبسببه ﴿وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ أي: ولم يضطروكم إلى الخروج من دياركم لأجل دينكم أيضا. ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ أي: تحسنوا إليهم وتصلوهم ﴿وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: تعدلوا إليهم ومعهم من «أقسط» الرباعي، بمعنى: عدل وأنصف.

و«أن» والفعل بعدها في قوله ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ في تأويل مصدر في محل جر بدل من قوله ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾

والتقدير: لا ينهاكم الله عن بر الذين لم يقاتلوكم في الدين من الكفار ولم يخرجوكم من دياركم ولا عن الإقساط إليهم، كالنساء والضعفة وغيرهم، أي: لا ينهاكم الله عن الإحسان إليهم وصلتهم. قال تعالى في الوالدين المشركين: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ [لقمان: ١٥].

وعن أسماء بنت أبي بكر – رضي الله عنهما – قالت: قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا، فأتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، إن أمي قدمت، وهي راغبة[(١)]، أفأصلها؟ قال: «نعم صلي أمك»[(٢)].

وفي رواية عن عبد الله بن الزبير – رضي الله عنه – قال: «قدمت قتيلة على ابنتها أسماء ابنة أبي بكر بهدايا: صناب[(٣)] وأقط وسمن، وهي مشركة، فأبت أسماء أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها. فسألت عائشة النبي ﷺ، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾، فأمرها أن تقبل هديتها، وأن تدخلها بيتها»[(٤)].

وأيضا لا ينهاكم الله عن العدل معهم وفيهم، بل ذلك واجب عليكم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ﴾ [المائدة: ٢]،

---

(١) أي مشركة.

(٢) أخرجه البخاري في الهبة ـ الهدية للمشركين ٢٦٢٠، ومسلم في الزكاة – فضل النفقة والصدقة على الأقربين ١٠٠٣، وأبو داود في الزكاة ١٦٦٨، وأحمد ٦/ ٣٤٤، ٣٤٧.

(٣) الصناب – بالصاد المهملة والنون: الخردل المعمول بالزيت وهو صباغ يؤتدم به.

(٤) أخرجها أحمد ٤/ ٤، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٧٢، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٩.

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ [المائدة: ٨].

فالعدل واجب مع كل أحد. والإحسان مشروع لكل ذي كبد رطبة حتى للكلاب فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال: «بينا رجل بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً، فنزل فيها فشرب، ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر، فملأ خفه ماء، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له، قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم لأجراً؟ فقال: «في كل ذات كبد رطبة أجر»[(١)].

ويؤخذ من الآية الرد على الغلاة من الخوارج وغيرهم الذين يستبيحون دماء وأموال مخالفيهم من المسلمين. وقد قال ﷺ: «إياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين»[(٢)] وقيل له ﷺ: ادع على المشركين؟ قال: «إني لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة»[(٣)].

ولما استأذنه ملك الجبال أن يطبق على أهل مكة الأخشبين ـ جبلين بمكة ـ قال: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً»[(٤)].

ودعا ﷺ لقومه وهم يوقعون به وبأصحابه صنوف الأذى فقال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[(٥)].

ولهذا اعتذر نوح عليه السلام عن الشفاعة بسبب أنه دعا على قومه فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

ولما دخل ﷺ مكة فاتحاً منتصراً أمن أهلها وقال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[(٦)] مع ما لقيه منهم ﷺ من المحادة والعناد.

وزار ﷺ الغلام اليهودي الذي كان يخدمه لما مرض وقعد عند رأسه وقال له أسلم فنظر إلى أبيه، فقال له أبوه أطع أبا القاسم ﷺ، فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه من النار»[(٧)].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ أي: إن الله يحب المقسطين الذين يعدلون فيما لهم وعليهم

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٦٦، ومسلم في السلام ٢٢٤٤، وأبو داود في الجهاد ٢٥٥٠.
(٢) أخرجه النسائي في مناسك الحج ٣٠٥٧ ـ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما.
(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٩٩ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.
(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٣١، ومسلم في الجهاد والبر ١٧٩٥ ـ من حديث عائشة ـ رضي الله عنها.
(٥) أخرجه البخاري في الأنبياء ٤٣٧٧، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٩٢، وابن ماجه في الفتن ٤٠٢٥ ـ من حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه.
(٦) أخرجه البيهقي في «سننه» ٩/ ١١٨ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه. وانظر «السيرة النبوية» ٤/ ٥٥.
(٧) أخرجه البخاري في الجنائز ١٣٥٦، وأبو داود في الجنائز ٣٠٩٥ ـ من حديث أنس ـ رضي الله عنه.

وفي حكمهم بين الناس، كما قال ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»[١].

وفي الآية إثبات المحبة لله - عز وجل - على ما يليق بجلاله وعظمته لقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

ويفهم من الآية أنه - عز وجل - لا يحب القاسطين الظالمين، بل يبغضهم.

كما يؤخذ منها سماحة الدين الإسلامي في معاملة الآخرين حتى غير المسلمين، وهذا هو الذي جعل الخليفة الراشد علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ يتحاكم مع اليهودي الذي وجد درعه عنده إلى القاضي شريح ولم يكن لدى علي ـ رضي الله عنه ـ بينة، فقيل له يحلف اليهودي ويأخذ الدرع، فقال: هو وذاك فلما رأى اليهودي أن خليفة المسلمين تحاكم معه إلى القضاء اعترف بأن الدرع لعلي ـ رضي الله عنه ـ وأعلن إسلامه[٢] وبهذا الخلق وهذا العدل فتح السلف قلوب الناس للإسلام.

﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾

في هذه الآية تصريح بما فهم من الآية قبلها وهي قوله: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ الآية، وتأكيد للنهي في قوله في مطلع السورة ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ وحصر للنهي فيها في النهي عن موالاة الذين قاتلوهم في الدين وأخرجوهم من ديارهم وظاهروا على إخراجهم.

قوله: ﴿وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾ المظاهرة: المعاونة، أي: عاونوا وساعدوا على إخراجكم، قال تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ [التحريم: ٤] أي: وإن تعاونا عليه.

﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بدل من قوله ﴿ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ﴾ أي: عن توليهم، أو عن موالاتهم ومناصرتهم، وعن أن تكونوا لهم أولياء ونصراء.

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الواو: استئنافية و«من» شرطية، «يتولهم» فعل الشرط، وجوابه جملة ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ واقترن الجواب بالفاء لأنه جملة اسمية.

والإشارة في قوله ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ للذين يتولون الكافرين من المؤمنين، وأشار

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة ١٨٢٧، والنسائي في آداب القضاة ٥٣٧٩ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.
(٢) انظر «تاريخ الخلفاء» للسيوطي ص١٨٤ ـ ١٨٥.

إليهم بإشارة البعيد تحقيراً لأمرهم، ويحتمل أن يراد بالإشارة نفس الكفار. ويحتمل أن يراد بها الطائفتين معاً الكفار ومن يتولاهم من المؤمنين فالكفار ظالمون، كما قال عز وجل: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] ومن والاهم فهو منهم، كما قال عز وجل: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

وقد أكد وصفهم بالظلم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين وبضمير الفصل «هم».

والظلم: النقص قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣] وهو وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان وهؤلاء المذكورون، وضعوا الولاية في غير موضعها وخالفوا أمر الله.

وأظلم الظلم الشرك بالله قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] وإنما كان الشرك أظلم الظلم لأن حق الله – عز وجل – أوضح الحقوق وأبينها خلق ورزق وأنعم علينا بسائر النعم، فمن صرف حق الله وهو العبادة لغير الله فهو من أظلم الظالمين.

الفوائد والعبر:

١ ـ ترجية الله ـ عز وجل للمؤمنين ووعده لهم بأن يجعل بينهم وبين من عادوهم من أهل مكة بسبب كفرهم مودة وذلك بأن يؤمن هؤلاء الكفار أو بعضهم فتعود الموالاة بينهم وهكذا حصل.

٢ ـ تأكيد عدم جواز موالاة ومودة الكافرين.

٣ ـ قدرة الله ـ عز وجل ـ التامة على كل شيء ومن ذلك تقليب القلوب وإدخال الإيمان في قلوب كثير من الكفار.

٤ ـ إثبات اسمين من أسمائه ـ عز وجل ـ وهما «الغفور» و «الرحيم» ومغفرته ـ عز وجل ـ التامة ورحمته الواسعة، ولهذا هدى كثيراً من المشركين إلى الإسلام بمغفرته ورحمته.

٥ ـ وجوب الإقساط والعدل مع الكفار غير المحاربين ممن لم يقاتلوا المؤمنين ولم يخرجوهم من ديارهم، وجواز الإحسان إليهم وبرهم بل ذلك مما يؤجر عليه.

٦ ـ إثبات المحبة لله ـ عز وجل ـ وأنه يحب المقسطين العادلين، ونفي محبته عن الظالمين الجائرين.

٧ ـ تأكيد وحصر النهي في الموالاة في النهي عن موالاة المقاتلين للمؤمنين في الدين المخرجين لهم من ديارهم المظاهرين على إخراجهم.

٨ ـ التحذير من موالاة الكافرين الظالمين للمؤمنين في قتالهم لهم وإخراجهم من ديارهم وأن من والاهم فهو ظالم مثلهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۖ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

سبب النزول:

عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة ـ رضي الله عنهما قالا: «لما كاتب رسول الله ﷺ سهيل بن عمرو يوم الحديبية على قضية المدة، وكان فيما اشترط سهيل بن عمرو أنه قال: لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، وخليت بيننا وبينه، فرد رسول الله ﷺ أبا جندل بن سهيل يومئذ إلى أبيه سهيل بن عمرو، ولم يأت رسول الله ﷺ أحد من الرجال إلا رده في تلك المدة وإن كان مسلماً، وجاءت المؤمنات مها جرات، أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ونسوة أخر فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ﴾ حتى بلغ ﴿بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾»[1].

قوله: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ﴾ أي: إذا جاءكم النساء المؤمنات مهاجرات، والهجرة هي الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام. وهي واجبة إذا كان الإنسان لا يستطيع إظهار شعائر دينه في بلاد الكفر.

ومما يؤسف له أنه قد انعكس الحال فأصبح المسلم في بعض البلاد الإسلامية لا يستطيع أن يظهر شعائر دينه بينما يستطيع ذلك في كثير من بلاد الكفر ـ والله المستعان.

والهجرة من مكة كانت واجبة قبل فتحها أما بعده فقد صارت دار إسلام قال ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية» [2] أي: لا هجرة من مكة بعد فتحها، لأنها صارت دار إسلام ولله الحمد والمنة.

﴿فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ﴾ أي: اختبروهن، وذلك بسؤالهن عن سبب خروجهن، وهجرتهن

---

(١) اخرجه مطولاً ـ من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ـ البخاري في الجهاد ـ المصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط ٢٧٣١، ٢٧٣٢، وابن إسحاق في السيرة انظر «السيرة النبوية» لابن هشام ٣/ ٣٢١، والبيهقي في الجزية ٩/ ٢١٨، واخرجه مختصراً ابو داود في الجهاد ٢٧٦٥، ٢٧٦٦، وأحمد ٤/ ٣٢.

(٢) سبق تخريجه.

وتحليفهن إن احتيج إلى ذلك ليتبين صدق إيمانهن، ولهذا قال بعده ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾.

فعن أبي نصر الأسدي قال: سئل ابن عباس: كيف امتحان رسول الله - ﷺ - النساء؟ قال: «كان يمتحنهن: بالله ما خرجت - من بغض زوج؟ وبالله ما خرجت - رغبة عن أرض إلى أرض؟ وبالله ما خرجت - التماس دنيا؟ وبالله ما خرجت - إلا حباً لله ورسوله»[(١)].

ورُويَ أن الذي كان يحلفهن عن أمر رسول الله - ﷺ - له عمر بن الخطاب رضي الله عنه [(٢)].

﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ أي: فإن علمتموهن صادقات في إيمانهن، وفي هجرتهن، خرجن حباً لله ورسوله وفراراً بدينهن - حسب ما يظهر لكم - إذ لا يطلع على البواطن إلا الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم﴾ [النساء: ٢٥]. فليس لنا إلا الظاهر، وأمر السرائر إلى من يعلم السر وأخفى.

وفي الحديث «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[(٣)].

لكن قد يستدل بما يظهر من الأقوال والأفعال على ما في الباطن.

ولهذا قال الحافظ ابن كثير في كلامه على الآية ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ قال[(٤)]: «وفيه دلالة على أن الإيمان يمكن الاطلاع عليه يقيناً».

﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ أي: فلا تردوهن إلى أزواجهن الكفار. وإذا كانت المتزوجة لا ترد إلى زوجها فمن باب أولى أن لا ترد غير المتزوجة.

فهذه الآية مخصصة لما جاء في صلح الحديبية من الشرط: «على أن لا يأتيك منا أحد، وإن كان على دينك إلا رددته إلينا». ولهذا لما جاءت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط - رضي الله عنها - مهاجرة بعد هذا الصلح وبعد نزول هذه الآية لم يرجعها رسول الله ﷺ وكذا غيرها من النساء اللاتي هاجرن في تلك المدة.

---

(١) اخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٧٥ - ٥٧٦.
(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١١٨.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) في «تفسيره» ٨/ ١١٨.

﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ أي: لا هن يحللن لهم وقد آمنَّ وهم كفار.

﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ أي: ولا هم يحلون لهن وهم كفار وهن مؤمنات. فلا تحل مؤمنة لكافر، ولا يحل كافر لمؤمنة، كما قال عز وجل: ﴿ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٢١]. فحرم الله عز وجل بهذه الآية المؤمنات على المشركين، وكان جائزاً في أول الإسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة. وكانت زينب - ابنة النبي ﷺ - تحت أبي العاص بن الربيع، وكان مشركاً، فأمره الرسول ﷺ بعد نزول هذه الآية أن يبعث بها إليه، فأقامت في المدينة بعد وقعة بدر إلى أن أسلم زوجها أبو العاص بن الربيع فردها إليه رسول الله ﷺ.

عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «ولما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت زينب في فداء أبي العاص بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت عند خديجة أدخلتها بها على أبي العاص. قالت: فلما رآها رسول الله - ﷺ - رق لها رقة شديدة، وقال: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذي لها»؟ فقالوا: نعم. وكان رسول الله - ﷺ - أخذ عليه أو وعده أن يُخلي سبيل زينب إليه. وبعث رسول الله - ﷺ - زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار، فقال: «كونا ببطن يأجج حتى تمر بكما زينب فتصحبانها حتى تأتيا بها» [(١)].

فلما قدم أبو العاص مكة، وفَى له بذلك وصدّقه فيما وعده، فبعثها إلى رسول الله - ﷺ - مع زيد بن حارثة - رضي الله عنه -، فأقامت في المدينة من بعد وقعة بدر وكانت سنة اثنتين إلى أن أسلم زوجها أبو العاص بن الربيع زمن الحديبية [(٢)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رسول الله - ﷺ - رد ابنته زينب على أبي العاص بن الربيع بالنكاح الأول، ولم يحدث شيئاً».

وفي رواية: «وكان إسلامها قبل إسلامه بست سنين»، وفي رواية «بسنتين، ولم يحدث شهادة ولا صداقاً» [(٣)].

وعن الحجاج بن أرطأة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: «أن رسول الله -

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد ٢٦٩٢، وأحمد ٦/ ٢٧٦.

(٢) انظر «سير أعلام النبلاء» ١/ ٣٣٠ - ٣٣٤، «زاد المعاد» ٥/ ١٣٦- ١٣٧ «تفسير ابن كثير» ٨/ ١١٨ - ١١٩.

(٣) أخرجه أبو داود في الطلاق - إلى متى ترد إليه امرأته إذا أسلم بعدها ٢٢٤٠، والترمذي في النكاح - ما جاء في الزوجين يسلم أحدهما ١١٤٣، وابن ماجه في الطلاق - الزوجين يسلم أحدهما قبل الآخر ٢٠٠٩، وأحمد ١/ ٢٦١. وصححه، وقال الترمذي: «ليس بإسناده بأس».

ﷺ - رد ابنته زينب على أبي العاص بن الربيع بمهر جديد ونكاح جديد»[١].

قال الخطابي[٢]: «قال محمد بن إسماعيل: حديث ابن عباس أصح في هذا الباب من حديث عمرو بن شعيب».

وقال الإمام أحمد بعد روايته لحديث عمرو بن شعيب: «هذا حديث ضعيف، أو واهٍ، ولم يسمعه الحجاج من عمرو بن شعيب، إنما سمعه من محمد بن عبيد العزرمي، والعزرمي حديثه لا يساوي شيئاً. والحديث الصحيح الذي روي أن النبي ﷺ أقرهما على النكاح الأول».

وقد اختلف أهل العلم في بقاء حكم النكاح إذا أسلم أحد الزوجين دون الآخر. فذهب جمهور أهل العلم إلى أن النكاح ينفسخ، منهم من قال بمجرد إسلام أحدهما. وهو رواية عن أحمد، وبه قال أبو حنيفة إن كان أحدهما في دار الإسلام والآخر في دار الحرب. ومنهم من قال لا ينفسخ النكاح إلا بانقضاء العدة، منهم مالك والشافعي وأحمد في رواية عنه. وبه قال أبو حنيفة إذا كان الزوجان في دار الإسلام أو في دار الحرب[٣].

وذهب بعض أهل العلم إلى أن النكاح لا ينفسخ بمجرد إسلام أحد الزوجين، سواء فرقت بينهما الهجرة أو لم تفرق. واختار هذا شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم مستدلين بحديث ابن عباس في رده ﷺ ابنته زينب على أبي العاص، وقد أسلمت قبله بسنين، وما في معناه من الآثار.

قال ابن تيمية: «وأما القول بأنه بمجرد إسلام أحد الزوجين المشركين تحصل الفرقة، قبل الدخول أو بعده فهذا في غاية الضعف، فإنه خلاف المعلوم المتواتر من شريعة الإسلام، فإنه قد علم أن المسلمين الذين دخلوا في الإسلام كان يسبق بعضهم بعضا بالتكلم بالشهادتين، فتارة يسلم الرجل وتبقى المرأة مدة ثم تسلم، كما أسلم كثير من

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٢٠٧ - ٢٠٨ - وضعفه، وابن ماجه في النكاح ٢٠١٠.

(٢) انظر «سنن أبي داود» ٢/ ٦٧٦.

(٣) انظر «المدونة» ٢/ ٢٩٨، ٣٠٢ - ٣٠٣، «الأم» ٤/ ١٩٣، ٢٧٠ - ٢٧١، ٥/ ٤٤ - ٤٥ «أحكام القرآن» للشافعي ٢/ ٦٩، «مسائل الإمام أحمد» رواية ابنه عبد الله ص٣٣٠ - ٣٣١، رواية النيسابوري ١/ ٢١٧ «الإشراف على مذاهب العلماء» ٤/ ٢١٠، «الناسخ والمنسوخ» للنحاس ٣/ ١١٤ «المحلى» ٧/ ٣١٤، «المسائل الفقهية» ٢/ ١٠٥، «أحكام القرآن» لابن العربي ٣/ ١٧٨٧، «زاد المسير» ٨/ ٢٤٤، «المغني» ٦/ ٦١٤ - ٦١٦، «فتح القدير» لابن الهمام ٣/ ٤٢٢، «تبيين الحقائق» ٢/ ١٧٥، «زاد المعاد» ٥/ ١٣٦ - ١٤٠، «أحكام أهل الذمة» ١/ ٢٣٥ - ٢٥١، «حاشية ابن عابدين» ٣/ ١٩١ - ١٩٢، «تفسير ابن كثير» ٨/ ١١٩، «بدائع التفسير» ٤/ ٤٣٤ - ٤٣٦.

نساء قريش وغيرهم قبل الرجال...»[١].

وقال ابن القيم[٢]: «فإنه لا يعرف أن رسول الله - ﷺ - جدد نكاح زوجين سبق أحدهما الآخر بإسلامه وقد رد النبي - ﷺ - ابنته زينب على أبي العاص بن الربيع، وهو إنما أسلم زمن الحديبية، وهي أسلمت من أول البعثة، فبين إسلامهما أكثر من ثماني عشرة سنة. وأما قوله في الحديث: «كان بين إسلامها وإسلامه ست سنين» فوهم إنما أراد بين هجرتها وإسلامه.

قال: وأما مراعاة زمن العدة فلا دليل عليه من نص ولا إجماع، ولا يعرف اعتبار العدة في شيء من الأحاديث، ولا كان النبي ﷺ يسأل المرأة هل انقضت عدتها أم لا، ولا ريب أن الإسلام لو كان بمجرده فرقة، لم تكن فرقة رجعية، بل بائنة، فلا أثر للعدة في بقاء النكاح، وإنما أثرها في منع نكاحها للغير، فلو كان الإسلام قد نجز الفرقة بينهما لم يكن أحق بها في العدة، ولكن الذي دل عليه حكمه - ﷺ - أن النكاح موقوف، فإن أسلم قبل انقضاء عدتها فهي زوجته، وإن انقضت عدتها، فلها أن تنكح من شاءت، وإن أحبت انتظرته، فإن أسلم كانت زوجته من غير حاجة إلى تجديد نكاح».

واستدل ابن القيم على هذا أيضاً بما رُويَ عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال في الزوجين الكافرين يسلم أحدهما: «هو أملك ببضعها ما دامت في دار هجرتها» وفي رواية: «هو أحق بها ما لم يخرج من مصرها».

قال ابن القيم: «ولو لا إقراره - ﷺ - الزوجين على نكاحهما، وإن تأخر إسلام أحدهما عن الآخر بعد صلح الحديبية، وزمن الفتح لقلنا بتعجيل الفرقة بالإسلام من غير اعتبار عدة، لقوله ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ وقوله ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وأن الإسلام سبب الفرقة، وكل ما كان سبب الفرقة تعقبه الفرقة كالرضاع والخلع والطلاق - وبعد أن ذكر من قال به من السلف وغيرهم، وأنه إحدى الروايتين عن أحمد قال: «ولكن الذي أنزل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ وقوله: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ لم يحكم بتعجيل الفرقة».

ثم استدل ابن القيم بإسلام امرأة صفوان بن أمية قبل إسلامه بنحو شهر ولم يفرق

---

(١) انظر «أحكام أهل الذمة» ١/ ٢٥١.
(٢) انظر «زاد المعاد» ٥/ ١٣٦ - ١٤٠.

النبي - ﷺ - بينهما [١]، وبإسلام أم حكيم قبل زوجها عكرمة بن أبي جهل، وإسلام أبي سفيان قبل امرأته هند، وإسلام حكيم بن حزام قبل امرأته وغيرهم - رضي الله عنهم - ولم يفرق النبي - ﷺ - بين أحد منهم وزوجته. كما استدل بإسلام نصرانية قبل زوجها في عهد عمر - رضي الله عنه - ولم يفرق بينهما [٢].

﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟﴾ الضمير يعود إلى أزواجهن من الكفار، و«ما» موصولة، أي: وأعطوهم الذي أنفقوه، وغرموه من المهور، وذلك للعهد الذي بينهم وبين المسلمين فلا يجمع لهم بين فسخ أزواجهم منهم وتغريمهم ما دفعوا لهن من المهور.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لا حرج ولا إثم عليكم ﴿أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر، أي: ولا حرج عليكم في نكاحهن والنكاح: لغة الضم والجمع، وشرعاً: عقد الزوجية الصحيح. ويطلق على العقد، وعلى الوطء. والمراد به هنا: العقد، أي: ولا حرج ولا إثم عليكم في الزواج بهن.

﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: إذا أعطيتموهن مهورهن فهن كغيرهن من النساء، لا يجوز الاستهانة بمهورهن وحقوقهن وسُمي المهر أجراً لتأكيد وجوبه لأنه في مقابلة الانتفاع بالبضع. وجواز نكاحهن مشروط بانقضاء عدتهن، وتوفر بقية شروط النكاح من الولي والشاهدين وغير ذلك.

﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب بتشديد السين، وقرأ الباقون بتخفيفها.

و(الكوافر): جمع كافرة.

والمعنى: لا تتزوجوا الكافرات، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وأيضاً لا تبقوا على نكاح من كان عندكم منهن بل فارقوهن وقد جاء في حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهما في صلح الحديبية: «أنه لما أنزل الله هذه الآية ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ طلق عمر بن الخطاب رضي الله عنه يومئذ امرأتين فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، وتزوج الأخرى صفوان ابن أمية» [٣].

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٥٤٣ - ٥٤٤.

(٢) انظر «زاد المعاد» ٥/ ١٣٧ - ١٤٠ وانظر أيضاً ١٣٤ - ١٣٥.

(٣) سبق تخريجه. وانظر «جامع البيان» ٢٢/ ٥٨٣ - ٥٨٤. «السيرة النبوية» ٢/ ٣٢٧.

كما طلق طلحة بن عبيد الله زوجته أروى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، فتزوجها خالد بن سعيد بن العاص[١].

﴿وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ قرأ ابن كثير والكسائي وخلف: (وسلوا) وقرأ الباقون: (واسألوا).

أي: واطلبوا الذي أنفقتموه من المهور على أزواجكم اللاتي يذهبن إلى الكفار إن ذهبن، وليطلبوا هم الذي أنفقوه على أزواجهم اللاتي هاجرن إليكم أيها المسلمون، فلهم حق المطالبة في ذلك ويجب عليكم إعطاؤهم ذلك لقوله ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟﴾، فالسؤال مشروع في حق هؤلاء وهؤلاء لما أنفقوه على أزواجهم لكن الأمر بإيتاء ذلك خص به المؤمنون في قوله: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟﴾ لأنهم هم الذين يمتثلون أوامر الله عز وجل.

قال السعدي[٢]: «وفي هذا دليل على أن خروج البضع من الزوج متقوم فإذا أفسد مفسد نكاح امرأة رجل برضاع أو غيره كان عليه ضمان المهر».

﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ الإشارة لما سبق في الآية من عدم رد النساء المهاجرات إلى أزواجهن إذا علمنا إيمانهن ووجوب إعطائهم ما غرموه عليهن من المهور، وجواز نكاحهن بشروطه وتحريم الكافرات على المؤمنين، وجواز مطالبة الذين ذهبت أزواجهم من الفريقين للفريق الآخر بما أنفقوا عليهن. وأشار إلى هذه الأحكام بإشارة البعيد تعظيماً لهذه الأحكام وتأكيداً لوجوب امتثالها.

وحكم الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام: حكم كوني وحكم شرعي، وحكم جزائي، والمراد بـ«حكم الله» في هذه الآية الحكم الشرعي. ومن الحكم الكوني قول ولد يعقوب عليه السلام ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ [يوسف: ٨٠]. والحكم الجزائي في الآخرة.

والمعنى: هذه الأحكام الشرعية في الآية هي حكم الله – عز وجل – الذي حكم به ويحكم به بينكم وبين الكفار، مما يتعلق بهذا الصلح صلح الحديبية مما سبق نزول الآية ووقت نزولها، وفيما يستقبل، ولهذا جاء التعبير بالمضارع ﴿يَحْكُمُ﴾.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ «العليم» و«الحكيم» من أسماء الله – عز وجل – يدلان على أنه عز وجل ذو العلم الواسع، والحكم النافذ والحكمة البالغة، ومن علمه عز وجل وحكمه وحكمته شرع هذه الأحكام العظيمة بين خلقه.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٨٤ – ٥٨٥.
(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٥٩.

﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا﴾

سبب النزول:

عن عائشة ـ رضي الله عنها: «أن رسول الله ﷺ كان يمتحنهن، وبلغنا أنه لما أنزل الله تعالى: أن يردوا إلى المشركين ما أنفقوا على من هاجر من أزواجهم، وحكم على المسلمين أن لا يمسكوا بعصم الكوافر، أن عمر طلق امرأتين، قريبة بنت أبي أمية، وابنة جرول الخزاعي فتزوج قريبة معاوية، وتزوج الأخرى أبو جهم، فلما أبى الكفار أن يقروا بأداء ما أنفق المسلمون على أزواجهم أنزل الله تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ﴾ والعَقَبُ ما يؤدي المسلمون إلى من هاجرت امرأته من الكفار، فأمر أن يعطى من ذهب له زوج من المسلمين ما أنفق من صداق نساء الكفار اللاتي هاجرن، وما نعلم أحداً من المهاجرات ارتدت بعد إيمانها»[1]

قوله: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ أي: وإن ذهبت بعض زوجاتكم إلى الكفار، ولم يردوا إليكم ما انفقتموه عليهن، ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ أي: أصبتم غنيمة في قتالكم الكفار الذين لا عهد بينكم وبينهم، ﴿فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا﴾ أي: أعطوا الذين ذهبت أزواجهم من المؤمنين دون عوض من الكفار، أي: أعطوهم من الغنيمة مثل الذي أنفقوا من المهور عليهن.

و«عاقبتم» على هذا تكون من المعاقبة للكفار المقاتلين بقتلهم وسلب أموالهم، وهذا قول عامة المفسرين، وهو الأظهر.

وذهب بعض أهل العلم منهم عائشة ـ رضي الله عنها والزهري إلى أن المعنى: أن يرد المؤمنون إلى من ذهبت زوجته من المؤمنين من العقب الذي بأيديهم الذي أمروا أن يردوه على المشركين من نفقاتهم التي أنفقوا على أزواجهم اللاتي آمن وهاجرن، ثم ردوا إلى المشركين فضلاً إن كان بقي لهم. والعقب: ما كان بأيدي المؤمنين من صداق نساء الكفار حين آمنَّ وهاجرن[2].

---

(١) اخرجه البخاري في الشروط ـ الشروط في الجهاد ٢٥٨٢.

(٢) سبق تخريجه عن عائشة ـ رضي الله عنها، وأخرجه عن الزهري الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٩٠. وانظر «السيرة النبوية» لابن هشام ٢/ ٣٢٦.

قال ابن كثير[1] بعد ما ذكر القولين: «وهذا - يعني القول بأنه يعطى من الغنيمة - لا ينافي الأول، لأنه إن أمكن الأول فهو أولى - يعني قول الزهري - وإلا فمن الغنائم اللاتي تؤخذ من أيدي الكفار، وهذا أوسع».

الفوائد والعبر:

١ - تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداؤهم بوصف الإيمان تشريفاً وتكريماً لهم، وحضاً على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما بعده من أوامر واجتناب ما بعده من نواه يعد من مقتضيات الإيمان وعدم ذلك يعد نقصاً في الإيمان.

٢ - أمر الله - عز وجل - للمؤمنين بامتحان المؤمنات المهاجرات للتأكد من إيمانهن حسب الظاهر، وأما الباطن فلا يعلمه إلا الله - عز وجل.

٣ - عدم جواز إرجاع المؤمنات المهاجرات إلى الكفار بعد معرفة إيمانهن لأنهن لا يحللن لهم ولا هم يحلون لهن.

٤ - وجوب إيتاء الأزواج الكفار ما أنفقوا على زوجاتهم اللاتي آمنَّ وهاجرن.

٥ - لا حرج ولا إثم في نكاح المؤمنات المهاجرات بعد انقضاء عدتهن من أزواجهن الكفار بعد إعطائهن مهورهن.

٦ - تحريم الإمساك بعصم الكوافر، وتزوج الكافرات.

٧ - أن للأزواج من المؤمنين مطالبة الكفار بما أنفقوه على زوجاتهم اللاتي ذهبن للكفار، كما أن للأزواج الكفار مطالبة المؤمنين بما أنفقوه على زوجاتهم اللاتي آمنَّ وهاجرن.

٨ - أن هذه الأحكام المذكورة في الآيات من أحكام الله الشرعية التي حكم الله بها بين عباده.

٩ - إثبات اسمين من أسماء الله عز وجل، وهما «العليم» و «الحكيم» وصفة العلم الواسع لله - عز وجل - والحكم التام النافذ والحكمة البالغة.

١٠ - يجب إعطاء من فاتتهم زوجاتهم إلى الكفار من الغنيمة إذا لم يعطهم الكفار عوضاً عما أنفقوه عليهن.

١١ - وجوب تقوى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه وأن ذلك من مقتضيات الإيمان.

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٢١.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ «يا» حرف نداء، و«أي» منادى مبني على الضم في محل نصب، لأن المنادى مفعول به منصوب، و«ها» للتنبيه. و«النبي» هو نبينا محمد ﷺ و«ال» فيه للعهد الذهني، أي النبي المعهود المعروف. و«النبي» مشتق من النبأ، لأنه مُنبأ، أي: مُخبَر من الله – عز وجل –، ومُنبِئ، أي: مُخبِر لقومه. ومشتق أيضاً من النبوة، وهو المكان المرتفع، لأن الأنبياء ذوو مكانة عالية عند الله وعند المؤمنين.

وتصدير الخطاب للنبي ﷺ بالنداء يدل على التنبيه والعناية والاهتمام. وقد خص الله – عز وجل – نبينا محمداً ﷺ بندائه بوصف النبوة تشريفاً وتكريماً له – ﷺ – وتذكيراً له بنعمة الله – عز وجل – عليه بالنبوة والرسالة، بينما ينادي – عز وجل – سائر الأنبياء بأسمائهم يا نوح، يا إبراهيم، يا موسى، يا داود، يا عيسى بن مريم، ونحو ذلك.

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ «إذا» ظرفية شرطية غير عاملة، أي: إذا جاءك النساء المؤمنات بالله ورسوله وبما جاء عن الله ورسوله.

﴿يُبَايِعْنَكَ﴾ أي: يعاهدنك على هذه الأمور المذكورة، وهذه الشروط.

والمبايعة للرسول – ﷺ – مبايعة لله تعالى كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

وذلك أن المجازي على الوفاء بهذا العهد والعقد هو الله عز وجل كما قال عز وجل: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

وإنما أضيفت المبايعة للرسول ﷺ لأنه هو المباشر لأخذ البيعة منهم، وإلا فمبايعته – ﷺ – ومعاهدته على الدخول في الإيمان، أو على الجهاد وغير ذلك هي مبايعة ومعاهدة لله عز وجل.

عن عبادة بن الصامت – رضي الله عنه قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله إلا أن

تروا كفراً بواحاً عندكم من الله عليه برهان، وأن نقول الحق أينما كنا وحيثما كنا لا نخاف في الله لومة لائم»[١].

كما أن دخول الإنسان في الإيمان عهد بينه وبين ربه يوجب عليه القيام بحقوقه – عز وجل – وجزاؤه على الله – عز وجل – قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

﴿عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: على أن لا يشركن بالله شيئاً من الشرك، أو شيئاً من الأشياء.

والشرك: هو اتخاذ شريك مع الله وصرف شيء من حقوق الله لغيره، وتسويته بالله كما ذكر الله عن المشركين أنهم يقولون يوم القيامة ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨].

و«شيئا» نكرة في سياق النفي فتعم كل شرك صغيراً كان أو كبيرا، خفياً كان أو جليا، وتعم كل شيء أشرك به مع الله، أياً كان ذلك الشيء، ومهما كان صغيراً أو كبيراً قليلاً أو كثيراً.

أي: يبايعنك ويعاهدنك على أن لا يشركن بالله شيئاً من الأشياء، ولا شيئاً من الشرك أياً كان ومهما كان، بل يخلصن العبادة لله وحده.

وبدأ بأخذ العهد عليهن بالبراءة من الشرك، لأن الشرك أعظم الذنوب ولا يقبل معه أي عمل، ولا يغفر لمن مات مصراً عليه.

﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ السرقة: أخذ الشيء خفية، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ [الحجر: ١٨] أي: إلا من استمع خفية، ومنه قولهم: سارقه النظر ـ إذا نظر إليه بخفية.

والسرقة شرعاً: أخذ مبلغ مخصوص من المال المحترم من مالكه أو نائبه، خفية من حرز معلوم، من غير حق ولا شبهة.

ولهذا فإن للزوجة أن تأخذ من مال زوجها إن كان مقصراً في نفقتها قدر كفايتها لأن لها

---

(١) أخرجه البخاري في الأحكام ٧١٩٩، ومسلم في الإمارة ١٧٠٩، والنسائي في البيعة ٤١٤٩، وابن ماجه في الجهاد ٢٨٦٦.

حقاً في مال زوجها. وفي حديث هند بنت عتبة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بني، فهل عليّ من جناح إن أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال رسول الله ﷺ: «خذي من ماله ما يكفيك وولدك بالمعروف»[1].

﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ أي: ولا يطاهن غير أزواجهن، لأن الله عز وجل حرم على المؤمنين الزنا، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: «جاءت فاطمة بنت عتبة تبايع النبي ﷺ فأخذ عليها ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ الآية. قالت: فوضعت يدها على رأسها حياء، فأعجبه ما رأى منها، فقالت عائشة: أقري أيتها المرأة، فوالله ما بايعنا إلا على هذا: قالت: فنعم إذاً، فبايعها بالآية»[2].

﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ أي: ولا يقتلن أولادهن من بنين وبنات سواء بعد ولادتهم خشية الفقر أو العار أو غير ذلك – كما كان يفعله أهل الجاهلية قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١].

أو بقتلهم وهم أجنة في بطونهن بأن تلقي الواحدة منهن نفسها من مكان مرتفع أو تتعمد حمل شيء يقتل ونحو ذلك لأجل إسقاط حملها، أو بإجراء عملية لإجهاض حملها سواء كان ذلك مخافة الفقر أو العار، أو لإراحة نفسها منه، أو لغير ذلك من الأغراض الفاسدة المحرمة. فهذا كله من قتل النفس المعصومة التي حرم الله قتلها إلا بالحق، وهو من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله.

﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ﴾ البهتان في الأصل: الكذب، وسمي الكذب بهتاناً لأنه يبهت ويحير من رُمي به، كما أنه يبهت الكذاب نفسه في النهاية.

---

(١) أخرجه البخاري في الأحكام ـ القضاء على الغائب ٧١٨٠، ومسلم في الأقضية ـ قضية هند ١٧١٤، وأبو داود في البيوع ٣٥٣٢، والنسائي في آداب القضاة ٥٤٢٠، وابن ماجه في التجارات ٢٢٩٣ – من حديث عائشة – رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أحمد ٦/ ١٥١.

﴿يَفْتَرِينَهُۥ﴾ أي: يختلقنه كذبا.

﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ أي: يحملنه بين أيديهن في بطونهن، ويلدنه بين أرجلهن مع فروجهن. والبطن والفرج كل منهما بين اليدين والرجلين. والمراد: ولا يأتين بحمل يلدنه وينسبنه كذباً إلى أزواجهن.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول حين نزلت آية الملاعنة: «أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم، فليست من الله في شيء، ولا يدخلها الله جنته، وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله منه، وفضحه الله على رؤوس الأولين والآخرين يوم القيامة»[(١)].

﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ أي: ولا يعصينك في فعل معروف تأمرهن به. والمعروف: ما تعارف الناس على حسنه وأمر به الشرع، ومن ذلك ترك النياحة على الميت - كما سيأتي في الحديث في مبايعته ﷺ. وقد قال ﷺ: «ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية»[(٢)].

﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾ أي: فعاهدهن على الإسلام، وما أعده الله لمن أسلم منهن من الحياة السعيدة والجزاء الحسن في الجنة. كما قال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله»[(٣)].

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: اطلب لهن المغفرة من الله لما قد يحصل منهن من سهو وخطأ وتقصير - مما لا يسلم منه البشر غالباً.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: إن الله عز وجل ذو المغفرة التامة، والرحمة الواسعة لمن شاء من عباده، كما قال عز وجل: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨].

وهكذا بايع رسول الله - ﷺ - المؤمنات، كما أمره الله - عز وجل - فعن عروة بن

---

(١) أخرجه أبو داود في الطلاق - إذا شك في الولد ٢٢٦٣، والنسائي في الطلاق ٣٤٨١.

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز - ليس منا من ضرب الخدود ١٢٩٧، ومسلم في الإيمان - تحريم ضرب الخدود ١٠٣، والنسائي في الجنائز ١٨٦٠، والترمذي في الجنائز ٩٩٩، وابن ماجه في الجنائز ١٥٨٤ - من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان ٢٢ - من حديث عبد الله بن عمر - رضي الله عنه.

الزبير أن عائشة – رضي الله عنها – أخبرته أن رسول الله – ﷺ – كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قال عروة: قالت عائشة: فمن أقرت بهذا الشرط من المؤمنات، قال لها رسول الله – ﷺ –: «قد بايعتك»، كلاماً، ولا والله ما مست يده يد امرأة قط في المبايعة، ما يبايعهن إلا بقوله: «قد بايعتك على ذلك» (١).

وعن أميمة بنت رقيقة، قالت: «أتيت رسول الله – ﷺ – في نساء لنبايعه، فأخذ علينا ما في القرآن: ﴿لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ الآية، وقال: «فيما استطعتن وأطقتن» قلنا: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، قلنا: يا رسول الله، ألا تصافحنا؟ قال: «إني لا أصافح النساء، إنما قولي لامرأة واحدة كقولي لمائة امرأة» ولم يصافح منا امرأة» (٢).

وفي حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: جاءت أميمة بنت رقيقة إلى رسول الله ﷺ تبايعه على الإسلام، فقال: «أبايعك على أن لا تشركي بالله شيئاً، ولا تسرقي، ولا تزني، ولا تقتلي ولدك، ولا تأتي ببهتان تفترينه بين يديك ورجليك، ولا تنوحي، ولا تبرجي تبرج الجاهلية الأولى» (٣).

وفي رواية عن أميمة أنها دخلت على رسول الله – ﷺ – في نسوة، فقلن: «يا رسول الله ابسط يدك نصافحك. فقال: «إني لا أصافح النساء، ولكن سآخذ عليكن» فأخذ علينا حتى بلغ: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾: «فيما أطقتن واستطعتن» فقلن: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا» (٤).

وعن سلمى بنت قيس، وكانت إحدى خالات رسول الله – ﷺ – قد صلت معه القبلتين، وكانت إحدى نساء بني عدي بن النجار، قالت: «جئت رسول الله – ﷺ – فبايعته في نسوة من الأنصار، فلما شرط علينا ألا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف – قال: «ولا تغششن أزواجكن». قالت: فبايعناه، ثم انصرفنا، فقلت لامرأة منهن: ارجعي فسلي رسول الله – ﷺ – ما غش أزواجنا؟ فسألته، فقال: «تأخذ ماله، فتحابي به غيره» (٥).

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الممتحنة ٤٨٩١، ومسلم في الإمارة ١٨٦٦، والترمذي في تفسير سورة الممتحنة ٣٣٠٦، وابن ماجه في الجهاد ٢٨٧٥، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٧٦.

(٢) أخرجه الترمذي في السير – ما جاء في بيعة النساء ١٥٩٧، وابن ماجه في الجهاد – بيعة النساء ٢٨٧٤، وأحمد ٦/ ٣٥٦. وقال الترمذي «حديث حسن صحيح» وقال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٢٢ عن إسناد أحمد «هذا إسناد صحيح».

(٣) أخرجه أحمد ١/ ١٩٦، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٩٧.

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٩٨ – ٥٩٩.

(٥) أخرجه أحمد ٦/ ٣٧٩ – ٣٨٠، ٦/ ٤٢٢ – ٤٢٣، وانظر «أسد الغابة» ٧/ ١٤٩ ترجمة سلمى بنت قيس.

وعن عائشة بنت قدامة بن مظعون، قالت: «أنا مع أمي رائطة بنت سفيان الخزاعية، والنبي - ﷺ - يبايع النسوة، ويقول: «أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئاً، ولا تسرقن، ولا تزنين، ولا تقتلن أولادكن ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن، ولا تعصينني في معروف» قالت: فأطرقن، فقال لهن النبي ﷺ: «قلن نعم فيما استطعتن» فكن يقلن وأقول معهن، وأمي تلقنني قولي أيْ بنية: نعم، فيما استطعت، فكنت أقول كما يقلن»[١].

وعن أم عطية قالت: «بايعنا رسول الله - ﷺ - فقرأ علينا ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ ونهانا عن النياحة فما وفت منا امرأة غير خمس نسوة: أم سليم، وأم العلاء، وابنة أبي سبرة امرأة معاذ، وامرأتان - أو ابنة أبي سبرة، وامرأة معاذ، وامرأة أخرى»[٢].

وكان - ﷺ - يتعاهد النساء بهذه البيعة يوم العيد[٣] تأكيداً لذلك.

فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان، فكلهم يصليها قبل الخطبة، ثم يخطب بعد، فنزل نبي الله ﷺ فكأني أنظر إليه حين يجلس الرجال بين يديه، ثم أقبل يشقهم حتى أتى النساء مع بلال، فقرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ حتى فرغ من الآية كلها، ثم قال حين فرغ: «أنتن على ذلك؟» فقالت امرأة واحدة، لم يجبه غيرها: نعم يا رسول الله - قال: «فتصدقن» قال: فبسط بلال ثوبه، فجعلن يلقين الفتخ والخواتيم في ثوب بلال»[٤].

وعن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - قال: كنا مع رسول الله ﷺ فقال: «تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم» - وقرأ الآية التي أخذت على النساء: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله عليه، فهو إلى الله، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه»[٥].

---

(١) أخرجه أحمد ٦/ ٣٦٥، وانظر «أسد الغابة» ٧/ ١٩٤ ترجمة عائشة بنت قدامة.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الممتحنة ٤٨٩٢، ومسلم في الجنائز - التشديد في النياحة ٩٣٦، وأبو داود في الجنائز ٣١٢٧، والنسائي في البيعة ٤١٧٩، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٩٨ - ٦٠١.

(٣) انظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ١٢٣.

(٤) أخرجه البخاري في الجمعة ٩٧٩، ومسلم في العيدين ٨٨٥، وأبو داود في الصلاة ١١٤١، والنسائي في صلاة العيدين ١٥٧٥.

(٥) أخرجه البخاري في الأحكام ٧٢١٣، ومسلم في الحدود - الحدود كفارات لأهلها ١٧٠٩، والنسائي في البيعة ٤١٦١، والترمذي في الحدود ١٤٣٩.

وفي رواية لابن إسحاق عن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - قال: «كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله - ﷺ - على بيعة النساء، وذلك قبل أن يفرض الحرب، على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف. وقال «فإن وفيتم فلكم الجنة»[1].

قال القرطبي[2]: «قال المهدوي: أجمع المسلمون على أنه ليس للإمام أن يشترط عليهن هذا، والأمر بذلك ندب لا إلزام. وقال بعض أهل النظر: إذا احتيج إلى المحنة من أجل تباعد الدار كان على إمام المسلمين إقامة المحنة».

الفوائد والعبر:

١ ـ تصدير الخطاب للنبي ﷺ بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام.

٢ ـ نداؤه ﷺ بوصف النبوة تشريفاً وتكريماً له، وتذكيراً له بنعمة الله ـ عز وجل ـ عليه بالنبوة وإشارة لفضله ﷺ على سائر الأنبياء.

٣ ـ مشروعية مبايعة النساء المؤمنات على الشروط المذكورة في الآية.

٤ ـ أمر الله ـ عز وجل ـ لنبيه ﷺ بالاستغفار للمؤمنات بعد مبايعتهن لما قد يحصل منهن من تقصير وترغيباً لهن وتثبيتاً.

٥ ـ في الشروط المذكورة في مبايعة المؤمنات في هذه الآية دلالة على شمول البيعة لفعل كل ما أمر الله به واجتناب كل ما نهى الله عنه، لأن الله أخذ عليهن فيها الإيمان بالله وحده لا شريك له، واجتناب السرقة والزنا وقتل أولادهن، وألا يأتين بولد من الزنا ينسبنه كذبا لأزواجهن، وألا يعصين الرسول ﷺ فيما يأمرهن به من معروف وهذا شامل لكل ما جاء به الدين.

٦ ـ أن الشرك أعظم الذنوب لهذا جعل البعد عنه أول الشروط في البيعة، وأن الزنا والسرقة وقتل الولد والإتيان بولد من الزنا ونسبته للزوج ـ هذه من أكبر الكبائر لهذا خصها بالذكر.

٧ ـ أن الطاعة بالمعروف لقوله «ولا يعصينك في معروف».

٨ ـ إثبات اسمين من أسماء الله ـ عز وجل ـ وهما «الغفور» و«الرحيم» وإثبات صفة المغفرة التامة له عز وجل، والرحمة الواسعة.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٥١ - الأثر ١٨٨٧١.

(٢) في «الجامع لأحكام القرآن» ١٨/ ٧٦.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ﴿١٣﴾ ﴾

ختم الله – عز وجل – هذه السورة بما بدأها به وهو نهي المؤمنين عن موالاة الكافرين تأكيداً لذلك وتحريضاً للمؤمنين على عداوة الكافرين.

قوله ﴿لَا تَتَوَلَّوۡاْ﴾ اي: لا تتخذوهم أولياء توادونهم وتناصرونهم وتركنون إليهم.

﴿قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ يعني: اليهود قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ [الأعراف: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: ٦١]، وقال تعالى ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ وقد قال رسول الله ﷺ: «المغضوب عليهم اليهود»[(١)].

والغضب ـ وإن كان من أخص أوصاف اليهود الذين عرفوا الحق وتركوه، لكن كل من كفر وجحد شريعة الله فله نصيب من غضب الله عز وجل بقدر منزلته وهكذا كل عاص لله – عز وجل – له نصيب من ذلك بقدر معصيته.

﴿قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ «قد» للتحقيق، اي: قد تحقق يأسهم من ثواب الآخرة ونعيمها في حكم الله – عز وجل – فلاحظ لهم فيها ولا نصيب.

﴿كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾ الكاف: للتشبيه، و«ما» مصدرية، أو موصولة، والتقدير يأساً كيأس الكفار، اي مثل يأس الكفار، أو كاليأس الذي يئسه الكفار.

ومعنى ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾ اي: كما يئس الكفار الذين ماتوا على الكفر ودفنوا في القبور من ثواب الآخرة، ومن كل خير، بعدما عاينوا في القبور أعمالهم السيئة ومصيرهم السيء، إذ ليس بعد الموت من مستعتب. وليس بعد الدنيا من دار إلا الجنة للأبرار، والنار للكفار، وبئس القرار.

ويحتمل أن المعنى: كما يئس الكفار الأحياء من بعث أصحاب القبور، لأنهم ينكرون البعث بعد الموت. ولا مانع من حمل الآية على المعنيين. وفي ذلك إيذان بكفرهم وشدة يأسهم من الآخرة.

---

(١) كما في حديث عدي بن حاتم – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ – «المغضوب عليهم» اليهود، و«الضالين» النصارى». اخرجه الترمذي في تفسير سورة الفاتحة ٢٩٥٣، ٢٩٥٤، وأحمد ٤/ ٣٧٨ – ٣٧٩. وإسناده صحيح.

الفوائد والعبر:

١ ـ تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام ونداؤهم بوصف الإيمان تشريفاً وتكريماً لهم وحثاً على الاتصاف بهذا الوصف وترك المنهي عنه بعده.

٢ ـ نهي المؤمنين عن موالاة المغضوب عليهم وهم اليهود.

٣ ـ تأكيد حرمة موالاة غير المؤمنين فقد بدئت السورة بالنهي عن موالاة المشركين وختمت بالنهي عن موالاة اليهود المغضوب عليهم.

٤ ـ غضب الله ـ عز وجل ـ على اليهود ـ لتركهم الحق بعد معرفته.

٥ ـ كفر اليهود ويأسهم من ثواب الآخرة فلاحظ لهم فيها ولا نصيب.

تفسير سورة الصف

عن عبد الله بن سلام - رضي الله عنه - قال: «قعدنا نفر من أصحاب رسول الله - ﷺ - فتذاكرنا، فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله تعالى لعملناها، فأنزل الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا﴾ حتى ختمها. قال عبد الله: فقرأها علينا رسول الله - ﷺ - حتى ختمها»[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ۝﴾

قوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ سبق الكلام على هذا في مطلع سورة الحديد وسورة الحشر.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «في قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ قال: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد، يقولون: لوددنا أن الله - عز وجل - دلنا على أحب الأعمال إليه، فنعمل به، فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمان به لا شك فيه، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به، فلما نزل الجهاد كره ذلك أناس من المؤمنين، وشق عليهم أمره، فقال الله سبحانه: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾»[2].

«لم» اللام حرف جر، و«ما» استفهامية حذفت الفها للتخفيف، أي: لماذا ﴿تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ و«ما» موصولة، أو نكرة موصوفة بمعنى شيء، أي: لم تقولون الذي لا تفعلونه، أو لم تقولون شيئاً لا تفعلونه. وهذا إنكار من الله عز وجل على من يقول من المؤمنين قولاً لا يتبعه بالفعل أو يعد وعداً ولا يفي به.

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٤٥٢، والترمذي في تفسير سورة الصف ٣٣٠٩، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٥٣ - الأثر ١٨٨٨٠، والحاكم ٢/ ٦٩، ٢٢٩، ٤٨٧. وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وقال ابن حجر في «فتح الباري» ١٠/ ٢٦٥، «إسناده صحيح».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٦٠٦ - ٦٠٧.

قال القرطبي [١]: «قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ استفهام على جهة الإنكار والتوبيخ على أن يقول الإنسان عن نفسه من الخير ما لا يفعله. أما في الماضي فيكون كذباً، وأما في المستقبل فيكون خلفاً وكلاهما مذموم».

وفي قوله: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ تعريض بأن العافية لا يعد لها شيء، وأن السلامة غنيمة وأن الأولى أن لا يسأل الإنسان أو يتمنى أمراً قد لا يفي بفعله، أو يلزم نفسه بما لم يلزمه الله به كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [محمد: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ٧٧].

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ هذا تأكيد للإنكار عليهم و«كبر» بمعنى «عظم» و«مقتاً» منصوب على التمييز والتفسير، كقول القائل: كبر قولاً هذا القول ومعنى ﴿مَقْتًا﴾ اي: بغضاً.

﴿عِندَ اللَّهِ﴾ اي: في حكم الله.

﴿أَن تَقُولُوا﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع فاعل «كبر»، و«ما» موصولة، أي: كبر مقتا عند الله قولكم الذي لا تفعلونه.

والمعنى: عظم بغضاً في حكم الله قولكم قولاً لا تفعلونه ولا تفون به.

والمقت: البغض الشديد، ولهذا قال عز وجل عن نكاح زوجات الآباء ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠].

عن عبد الله بن عامر بن ربيعة، قال: أتانا رسول الله - ﷺ - في بيتنا، وأنا صبي، قال: فذهبت لأخرج لألعب، فقالت أمي: يا عبد الله تعال أعطك. فقال لها رسول الله ﷺ: «وما أردت أن تعطيه؟» قالت: تمراً. فقال: «أما إنك لو لم تفعلي كتبت عليك

---

(١) في «الجامع لأحكام القرآن» ١٨/ ٨٠.

كذبة»[١].

ويكفي في شناعة القول بلا فعل والوعد بلا وفاء أنه مبغض عند الله، ومن أخص صفات المنافقين، كما قال ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»[٢].

وعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنه -: أن النبي ﷺ قال: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[٣].

فالقول بلا فعل، والوعد بلا وفاء أمر محرم لا يجوز، وليس من صفات المؤمنين بل من صفات المنافقين إذ الواجب الوفاء بالعهد والوعد، وإتباع القول بالفعل، وأن لا يقول الإنسان ما لا يفعل، فإن الله عز وجل أنكر على المؤمنين القول بلا فعل أشد الإنكار.

قال القرطبي[٤]: «وهذه الآية توجب على كل من ألزم نفسه عملاً فيه طاعة أن يفي بها».

وفي حديث أبي موسى - رضي الله عنه -: «وكنا نقرأ سورة كنا نشبهها بإحدى المسبحات، فأنسيتها، غير أني حفظت منها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ فتكتب شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة»[٥].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾

هذا ظاهر العلاقة في سبب النزول حيث سألوا عن أحب الأعمال إلى الله، فهو أشبه بالجواب على سؤالهم.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ أي: الذين يقاتلون لإعلاء كلمة الله عز وجل. كما في حديث أبي موسى - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ سئل عن الرجل يقاتل حمية، والرجل يقاتل شجاعة، والرجل يقاتل ليرى مكانه، أي ذلك في سبيل

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب - باب في الكذب ٤٩٩١، وأحمد ٣/ ٤٤٧.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ٣٣، ومسلم في الإيمان ٥٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٢١، والترمذي في الإيمان ٢٦٣١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان - علامة المنافق ٣٤، ومسلم في الإيمان - بيان خصال المنافق ٥٨، وأبو داود في السنة ٤٦٨٨، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٢٠، والترمذي في الإيمان ٢٦٣٢.

(٤) في «الجامع لأحكام القرآن» ١٨/ ٧٨.

(٥) أخرجه مسلم في الزكاة ١٠٥٠.

الله؟ فقال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[(١)].

﴿صَفًّا﴾ أي: مصطفين في مواجهة العدو.

﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ أي: كأنهم في اصطفافهم للقتال تجاه العدو ﴿بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ أي: مثبت ملتصق بعضه ببعض، أي: ليس بينهم في صفوفهم ثغرات أو منافذ يدخل منها العدو، وقلوبهم مجتمعة على الحق ليس بينهم اختلاف.

ويؤخذ من هذا فضل الجهاد والمجاهدين، وأن الجهاد من أحب الأعمال إلى الله عز وجل، وأن من أحب عباده إليه الذين يقاتلون في سبيله راصين صفوفهم كالبنيان المرصوص. قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٥، ٩٦].

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: سئل النبي – ﷺ – أي الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان بالله ورسوله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «جهاد في سبيل الله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور»[(٢)].

وعن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يضحك الله إليهم: الرجل يقوم من الليل، والقوم إذا اصطفوا للصلاة، والقوم إذا صفوا للقتال»[(٣)].

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ –: «إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيله»[(٤)].

وعنه – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «تكفل الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي، وإيمان بي، وتصديق برسلي، فهو ضامن علي أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة»[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري في العلم ١٢٣، ومسلم في الإمارة ١٩٠٤، وأبو داود في الجهاد ٢٥١٧، والنسائي في الجهاد ٣١٣٦، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٤٦، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٨٣.

(٢) أخرجه البخاري في الحج ١٥١٩، ومسلم الإيمان ٨٣، والنسائي في مناسك الحج ٢٦٢٤، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٥٨.

(٣) أخرجه أحمد ٣/ ٨٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٢٠٠.

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان ٦، ومسلم في الإمارة ١٨٧٦، والنسائي في الجهاد ٣١٢٢، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٥٣.

(٥) أخرجه البخاري في الإيمان ٣٦، ومسلم في الإمارة ١٨٧٦.

الفوائد والعبر:

١ - تسبيح جميع ما في السموات وما في الأرض لله - عز وجل - بلسان المقال أو الحال أو بهما جميعاً.

٢ - إثبات اسمين من أسماء الله - عز وجل -، وهما «العزيز» و «الحكيم» وأن له عز وجل العزة التامة: عزة القوة، وعزة القهر، وعزة الامتناع، وله الحكم التام النافذ بأقسامه: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وله الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية والحكمة الصورية.

٣ - تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء لتنبيههم لأهمية الخطاب ونداؤهم بوصف الإيمان تشريفاً وتكريماً لهم وحثا على الاتصاف بهذا الوصف والانتهاء عما نُهي عنه بعد هذا النداء.

٤ - الإنكار والتوبيخ لمن يقول من المؤمنين قولاً لا يتبعه بالفعل وتأكيد حرمة ذلك وشدة بغض الله له.

٥ - وجوب إتباع القول بالعمل والحذر من صفات المنافقين الذين يقولون ما لا يفعلون.

٦ - محبة الله - عز وجل - للمجاهدين في سبيله متراصة صفوفهم كالبنيان المرصوص مجتمعة قلوبهم على الحق، وفي هذا إثبات المحبة لله - عز وجل على ما يليق بجلاله وعظمته، وتحريض المؤمنين وحثهم على القتال في سبيله.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾.

صلة الآيتين بما قبلهما:

عاتب الله عز وجل المؤمنين، وأنكر عليهم أن يقولوا ما لا يفعلون، ثم أتبع ذلك بذكر شيء مما جرى لموسى وعيسى عليهما السلام من قومهما من الأذى والمخالفة، تسلية للرسول - ﷺ - تجاه تكذيب قومه وأذاهم له، وترغيباً له بالصبر.

عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: لما قسم النبي - ﷺ - قسمة حنين قال رجل من الأنصار: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، فأتيت النبي - ﷺ - فأخبرته فتغير وجهه، ثم قال: «رحمة الله على موسى لقد أوذي أكثر من هذا فصبر»[1].

كما أن في ذلك تحذيراً للمكذبين من قومه ﷺ والسعيد من وعظ بغيره.

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ الواو: استئنافية، و«إذ» ظرف زمان بمعنى «حين»، أي: واذكر حين قال نبي الله وكليمه موسى بن عمران - عليه السلام - لقومه بني إسرائيل.

﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى﴾ صدر الخطاب لهم بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام. والقوم هم الجماعة من الناس. ﴿لِمَ﴾ اللام حرف جر، و«ما» للاستفهام حذفت الفها للتخفيف، أي: لماذا ﴿تُؤْذُونَنِى﴾ وفي هذا شيء من التلطف معهم. والأذى: ما يتأذى به الإنسان من قول أو فعل ومن ذلك قولهم عنه عليه السلام بأنه آدر، أي: منتفخ الخصيتين[2]: ولهذا قال تعالى محذراً المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

ومن أذاهم له عليه السلام الصد عن دينه والمخالفة له ولدعوته ولهذا قال: ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ الواو: حالية، و«قد» للتحقيق، أي: والحال أنكم قد تعلمون أني رسول الله إليكم علماً يقينياً، حقاً وصدقاً، أي: تعلمون صدقي فيما جئتكم

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٣٣٥، ومسلم في الزكاة ١٠٦٢.
(٢) كما جاء في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٤٠٤، ومسلم في الفضائل ٣٣٩، والترمذي في التفسير ٣٢٢١، وأحمد ٢/ ٥١٤ - ٥١٥.

به من الآيات الشرعية والكونية من عند الله - عز وجل - الدالة على صدق رسالتي إليكم. ولهذا استحق اليهود غضب الله لأنهم عرفوا الحق وتركوه.

والرسول: هو من أوحي إليه بوحي وأمر بتبليغه.

وفي إضافة «رسول» إلى الله - عز وجل - تعظيم لشأن الرسول «موسى عليه السلام» فإن الرسول يعظم بعظم المرسِل له وفي قوله ﴿إِلَيْكُمْ﴾ تذكير لقومه بني إسرائيل بعناية الله بهدايتهم، والتشديد في إقامة الحجة عليهم.

وفي قوله: ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ نوع من التلطف معهم واستعطاف قلوبهم ولكن ذلك لم ينجع فيهم لقساوة قلوبهم.

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ﴾ أي: فلما عدلوا ومالوا عن اتباع الحق. والزيغ: الميل والعدول عن الحق مع معرفته والعلم به.

﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: أمالها وصدها عن الحق والهدى وجعلها محلا للشك والشرك والنفاق والحيرة والخذلان، ترى المنكر معروفاً والمعروف منكراً. وذلك أن الجزاء من جنس العمل، والسيئة تجر للسيئة بعدها كما قال تعالى ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٨ - ١٠]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

فالسيئات والمعاصي يجر بعضها بعضاً، وبعضها إلى بعض أسرع من السيل إلى منحدره، مما يوجب البعد عنها والحذر منها.

وخص القلوب بالزيغ لأنها محل الصلاح والفساد من الجسد كما قال ﷺ: «الا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله الا وهي القلب»[1].

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ هداية الله تنقسم إلى قسمين: هداية دلالة وإرشاد،

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٢، ومسلم في المساقاة ١٥٩٩، وابن ماجه في الفتن ٣٩٨٤، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

وهذه عامة للفاسقين وغيرهم. لأن الله أرشد إلى الحق ودل عليه بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وبما وهب البشر من الأفئدة والأبصار والأسماع التي بها تقوم عليهم الحجة.

والقسم الثاني: هداية التوفيق والقبول، وهذه خاصة بالله عز وجل وهي المنفية عن الفاسقين في قوله ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

و«الفاسقين» جمع فاسق، والفسق: هو الخروج عن طاعة الله وعن الصلاح إلى الفساد. ولهذا تسمى الفواسق الخمس بالفواسق، لأنها تخرج وتسعى للإفساد.

فجمع الله – عز وجل – لمن آذوا رسوله موسى عليه السلام وزاغوا عن الحق عقوبتين الأولى: إزاغة وإمالة قلوبهم عن الحق، والثانية: عدم هدايتهم له. وهتان العقوبتان لكل من زاغ ومال عن الحق من أمة محمد – ﷺ – من باب أولى – لوضوح الحق الذي جاء به – ﷺ – وفضل دينه على سائر الأديان، وفضله ﷺ على سائر الرسل عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام.

﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾

ذكر الله – عز وجل – ما جرى لموسى – عليه السلام ـ مع قومه، ثم أتبع ذلك بذكر ما جرى لعيسى – عليه السلام – مع قومه.

قوله: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ أي: واذكر حين قال عيسى بن مريم عليه السلام لقومه ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم﴾ وعيسى هو آخر أنبياء بني إسرائيل.

ويذكر عيسى بن مريم – غالباً – في القرآن الكريم منسوباً لأمه بينما يذكر بقية الأنبياء بلا نسبة ولا لآبائهم، وذلك للتذكير بعظيم قدرة الله – تعالى – في خلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وذلك آية من آيات الله عز وجل.

وهو معدود في القرآن من ذرية إبراهيم عليه السلام ـ وإن كان ابن بنته ـ لأنه لا أب له، وذلك في قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الآيات: ٨٣ – ٨٥].

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ صدر الخطاب لهم بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام.

و(بنو إسرائيل) هم بنو يعقوب عليه السلام وذريته وإسرائيل: هو يعقوب عليه السلام.

﴿ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم ﴾ إخبار وإعلام من عيسى ـ عليه السلام ـ لبني إسرائيل أنه مرسل من عند الله إليهم، وفي قوله: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ بإضافة «رسول» إلى الله – عز وجل – تعظيم لشأن عيسى عليه السلام. وفي قوله: ﴿إِلَيْكُم﴾ توكيد لعناية الله بهدايتهم والتشديد في إقامة الحجة عليهم.

﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ «مصدقاً» حال، أي: حال كوني ﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي: لما سبقني من التوراة، التي بشّرت بي، وأنا مصداق ما أخبرت به.

فرسالة عيسى عليه السلام تصديق لما جاء في التوراة من البشارة به، وتصديق لها بأنها حق، وهو وكتابه الإنجيل متمم للتوراة ولرسالة موسى عليهما السلام. وهكذا جميع الكتب السماوية يصدق بعضها بعضا ويشهد بعضها لبعض.

﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وحال كوني (مبشراً برسول) ونكر «رسول» للتعظيم. والمبشّر: المخبر بما يَسُر، والبشارة: الخبر السار. سميت بذلك أخذاً من البشرة، لأن الإنسان إذا أخبر بما يسر استنارت بشرته وظهر ذلك على أسارير وجهه.

﴿يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ وهو نبينا محمد ﷺ أفضل الرسل وخاتم الأنبياء، اسمه أحمد ومحمد قال ﷺ: «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب»[1].

وعن أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه – قال: سمى لنا رسول الله – ﷺ – نفسه أسماء، منها ما حفظنا، فقال: «أنا محمد وأحمد والمقفي والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة» [2]. وفي ورواية «ونبي الملحمة»[3].

ويؤخذ من قوله ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ بشارة عيسى عليه السلام بمحمد ﷺ، والشهادة له بالرسالة وأن عيسى عليه السلام هو آخر أنبياء بني إسرائيل وبعده محمد ﷺ أفضل الرسل وخاتمهم.

وعن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك، قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي كأنه

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٥٣٢، ومسلم في الفضائل – باب في أسمائه ﷺ ٢٣٥٤، والترمذي في الأدب ٢٨٤٠، من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الفضائل ٢٣٥٥. وأخرجه أحمد ٥/ ٤٠٥ من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٣) أخرجها أحمد ٤/ ٣٩٥، ٤٠٤ – من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام»[١].

وعن العرباض بن سارية – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك: دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين يرين»[٢].

وعن أبي أمامة – رضي الله عنه – قال: قلت: يا نبي الله، ما كان بدء أمرك؟ قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه يخرج منها نور، أضاءت له قصور الشام»[٣].

والمراد بدعوة إبراهيم حين قال: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وهكذا شهد النجاشي برسالته ﷺ كما في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في قصة هجرتهم إلى الحبشة حيث قال النجاشي: «أشهد أنه رسول الله، فإنه الذي نجد في الإنجيل، وإنه الرسول الذي بشّر به عيسى بن مريم..»[٤].

وكما بشر عيسى عليه السلام في الإنجيل بمحمد – ﷺ – فقد بشر به موسى عليه السلام في التوراة، وأخذ الله العهد على النبيين بالإيمان به قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

قال ابن عباس – رضي الله عنهما – «ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه العهد لئن بعث محمد وهو حي ليتبعنه، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته: لئن بعث محمد وهم أحياء ليتبعنه وينصرنه»[٥].

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ اي: فلما جاءهم الرسول المبشّر به محمد ﷺ «بالبينات» أي: بالآيات البينات والحجج الواضحات، والبراهين القاطعات من الأدلة الكونية والشرعية قال الكافرون من قومه من المشركين ومن أهل الكتاب ﴿هَٰذَا سِحْرٌ

---

(١) أخرجه ابن إسحاق، انظر «السيرة النبوية» لابن هشام ١/ ١٦٦ – قال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٣٦: «هذا إسناد جيد».
(٢) أخرجه أحمد ٤/ ١٢٧، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٦١٣.
(٣) أخرجه أحمد ٥/ ٢٦٢.
(٤) أخرجه أحمد ١/ ٤٦١.
(٥) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٣٦.

مُّبِينٌ﴾ أي: إن ما جاء به من الوحي ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: سحر بين ظاهر في نفسه أنه سحر، ومبين أمر الذي جاء به أنه ساحر.

والسحر: عقد تعقد وينفث فيها، تؤثر في العقول والأبدان والأبصار بإذن الله الكوني - كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وهكذا دأب المكذبين للحق، ولدعاته من الرسل وأتباعهم عندما تعيى بهم الحيل أمام الحق الواضح الصريح، ولا يستطيعون له دفعا فإنهم يلجؤون إلى مثل هذه التهم الباطلة من الرمي بالسحر ونحو ذلك[1]، فليتنبه لهذا الدعاة والمصلحون والموجهون، وليأخذوا منه العظة والعبرة فإن طريق الدعوة ليس مفروشاً بالورود والرياحين، بل هو طريق شاق يحتاج إلى تحمل وصبر ومرابطة قال ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»[2].

ولقد أحسن القائل:

ودرب الصاعدين كما علمتم ... به الأشواك تكثر لا الورود[3]

الفوائد والعبر:

١ - تسلية النبي ﷺ وتقوية قلبه وترغيبه في الصبر على أذى قومه بذكر ما حصل لموسى وعيسى عليهما السلام من قومهما من الأذى والتكذيب.
٢ - تحذير المكذبين له ﷺ من سلوك طريق اليهود والنصارى في تكذيبهم لأنبيائهم وأذيتهم لهم.
٣ - أن اليهود عرفوا الحق وتركوه ولهذا استحقوا غضب الله عليهم لتمام قيام الحجة عليهم.
٤ - تلطف موسى عليه السلام مع قومه في الخطاب ولكن ذلك لم ينجع فيهم لقساوة قلوبهم.
٥ - إثبات رسالة موسى وعيسى عليهما السلام وتشريفهما وجميع الرسل بإضافتهم إلى الله - عز وجل.
٦ - أن المعصية والسيئة تجر إلى ما هو أعظم وأكبر منها، وأن الجزاء من جنس العمل لقوله ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾.
٧ - عدم توفيق الله للفاسقين الخارجين عن طاعته.
٨ - أن عيسى عليه السلام جاء مكملاً، ومصدقاً لرسالة موسى عليه السلام وللتوراة.
٩ - شهادة عيسى عليه السلام وغيره من الأنبياء بصدق رسالة محمد ﷺ والبشارة به.
١٠ - أن من أسمائه ﷺ «أحمد».
١١ - تكذيب المشركين لرسول الله ﷺ ولما جاءهم به من الآيات البينات الشرعية والكونية ووصفهم لما جاءهم به بأنه سحر مبين وهكذا دأب المكذبين للحق.

---

(١) كما جعل كثير من شياطين الإنس والجن الاتهام للأبرياء بالعين وسيلة للتفريق بين المسلمين من الأقارب وغيرهم، فإذا أرادوا التحريش بين اثنين وإيقاع العداوة بينهما، قالوا: إن فلاناً قد أصابك بعينه، أو أنه عيّان، فاحذر منه، ومع ضعف الإيمان وضعف التوكل على الله، وخوف الكثيرين من الناس ما لا يخافون من الله - صار هذا من أعظم مداخل الشيطان في هذا الزمان للتفريق بين المسلمين من الأقارب وغيرهم، فاحذر أخي الكريم من هذه الوسوسة، وتوكل على الله، ومن توكل عليه كفاه.

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٢٣، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٩ - من حديث أنس - رضي الله عنه.

(٣) هذا البيت لوليد الأعظمي شاعر عراقي ضمن قصيدة بعنوان شباب الجيل انظر ديوانه «الزوابع» ص٦٩.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٧ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝٨ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾.

قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ﴾ هذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ [العنكبوت: ٦٨].

الواو: استئنافية. و«أظلم» على وزن «أفعل» التفضيل، أي: لا أحد أشد ظلماً.

﴿مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ أي: من الذي اختلق على الله الكذب فجعل له الأنداد والشركاء، والصاحبة والولد، وكذب رسله، ورماهم بالسحر كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ [الرعد: ٤٣].

قال الطبري[1]: «ومن أشد ظلماً وعُدواناً ممن اختلق على الله الكذب، وهو قول قائلهم للنبي ﷺ: هو ساحر وما جاء به سحر»

و«أفعل» التفضيل هنا على بابه، لأن أظلم الظلم وأشده الشرك بالله عز وجل، لأن حقه عز وجل أوضح الحقوق وأبينها وأعظمها فمن صرفه لغير الله أو أشرك معه غيره فليس هناك من هو أظلم منه، ولهذا قال لقمان فيما حكى الله عنه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

والظلم: النقص، قال تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: ٣٣] أي: ولم تنقص منه شيئا.

وهو أيضاً: وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان.

وهو قسمان: ظلم للنفس بالكفر والمعاصي، وظلم للغير بالتعدي عليهم - وهذا داخل في ظلم النفس.

﴿وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ﴾ الواو: للحال، أي: في الحال التي يدعى فيها ﴿إِلَى الْإِسْلَامِ﴾ أي: إلى الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك. أي: وقد أقيمت الحجة عليه بدعوته إلى الإسلام بالآيات البينات والحجج الواضحات، والبراهين القاطعات فلا حجة له ولا عذر.

---

(١) انظر «جامع البيان» ٢٢/ ٦١٤.

يُدعى إلى أصل الخير ورأسه وأعظمه الإيمان، فيختار أصل الشر ورأسه وأعظمه الشرك، أمره عجيب وحاله مريب ومنقلبه كئيب.

إذ الواجب البحث عن الحق وطريقه لو لم يدع إليه، فكيف يتركه وقد دعي إليه، ويختار طريق الباطل هذا في غاية الظلم والسفه والجهل.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكلام فيه كما سبق في الكلام على قوله ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: إن الله عز وجل لا يوفق القوم الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي، وظلموا غيرهم بالاعتداء على حقوقهم. وهذا مجازاة لهم حجب الله هدايته عن قلوبهم بسبب ظلمهم، ولهذا قال الله - تعالى - فيهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [النحل: ١١٦، ١١٧].

﴿يُرِيدُونَ﴾ أي يقصدون ويحاولون بظلمهم.

﴿لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ اللام للتعليل وهي بمعنى «أن» كما في قوله تعالى في سورة التوبة ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الآية: ٣٢].

اي: يريدون ليطفئوا ويخمدوا ﴿نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾.

ونور الله: هو نور وحيه، نور القرآن - كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨].

ومنه النور الذي يلقيه في قلوب عباده المؤمنين كما قال عز وجل في سورة النور ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ إلى قوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الآية: ٣٥] وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: بافترائهم الكذب على الله والباطل بقولهم بأفواههم، بجعل الأنداد والشركاء له والصاحبة والولد، وردهم الحق، وقولهم لما جاءهم به الرسول ﷺ من الحق ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وغير ذلك.

وإنما خص الأفواه بالذكر - مع أنهم لم ولن يدخروا وسيلة لرد الحق بقول أو بفعل إلا عملوها ـ إشارة لضعفهم ووهنهم، فهم في هذا أشد ضعفاً ووهناً ممن يريدون إطفاء

نور الشمس بالنفخ بأفواههم.

قال ابن كثير[1]: «أي: يحاولون أن يردوا الحق بالباطل، ومثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس بفيه، وكما أن هذا مستحيل كذاك ذاك مستحيل».

﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف وحفص (مُتِمُّ) بغير تنوين و(نُورِهِۦ) بالخفض، وقرأ الباقون بالتنوين والنصب.

أي: والله مكمل نوره ومظهره على الأديان كلها كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: ولو كره الكافرون إتمام نوره وإكماله.

والكافرون: جمع كافر، وهو من جحد وجود الله وربوبيته وألوهيته أو أسماءه وصفاته، وشريعته، أو شيئاً من ذلك.

قال الطبري[2]: «والله معلنٌ الحق، ومظهر دينه، وناصر محمداً - ﷺ - على من عاداه، فذلك إتمام نوره وعني بالنور في هذا الموضع الإسلام».

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ هذا كقوله تعالى في سورة التوبة: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الآية: ٣٣]. وقال تعالى في سورة الفتح: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الآية: ٢٨].

أي: هو الله ﴿ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ أي: بعث رسوله محمداً - ﷺ - أفضل الرسل وخاتمهم.

﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ بالوحي والعلم النافع. ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: والدين الحق وهو العمل الصالح.

وهما رأس مال الإنسان في هذه الحياة: علم نافع وعمل صالح - نسأل الله التوفيق، ولهذا قال ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «قل اللهم إني أسألك الهدى والسداد»[3].

فالهدى: العلم النافع، والسداد: العمل الصالح.

﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يجعله ظاهراً عالياً.

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٣٨.

(٢) في «جامع البيان» ٢٢/ ٦١٤.

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٧٢٥، وأبو داود في الخاتم ٤٢٢٥، والنسائي في الزينة ٥٢١٠ - من حديث علي بن أبي طالب - رضي الله عنه.

﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ (الدين) اسم جنس، أي ليجعله ظاهراً عالياً على الأديان كلها السماوية والأرضية مهيمناً عليها ناسخاً لها.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ أي: ولو كره المشركون ذلك، أي: ولو كره المشركون ظهور الإسلام على الأديان كلها من الشرك وغيره. فهذا الدين هو الظاهر على الأديان كلها، وأتباعه هم الظاهرون على غيرهم الغالبون لمن سواهم ما إن تمسكوا به، فإن تخلوا عنه واكتفوا بالانتساب إليه فقط، فلا غلبة لهم ولا ظهور، وواقع المسلمين اليوم أكبر شاهد على هذا.

عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «إن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى» فقلت: يا رسول الله، إن كنت لأظن حين أنزل الله ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ أن ذلك سيكون تاماً. قال: «إنه سيكون من ذلك ما شاء الله، ثم يبعث الله ريحاً طيبة، فيتوفى من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، فيبقى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم»[1].

الفوائد والعبر:

١ ـ لا أحد أظلم ممن اختلق على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام فأشرك مع الله غيره وكذب رسله ورماهم وما جاؤوا به من الحق بالسحر.

٢ ـ عدم توفيق الله للظالمين بسبب ظلمهم لأنفسهم ولغيرهم بالشرك والمعاصي ـ بعد إقامة الحجة عليهم.

٣ ـ إرادة المكذبين الظالمين إطفاء نور الله «نور الحق» بافترائهم الكذب بأفواههم وأقوالهم الباطلة وأنى لهم ذلك فالله متم نوره ولو كره الكافرون ذلك ورغم أنوفهم.

٤ ـ الإشارة لعظمة الحق وظهوره وثباته، وأن مثل من يريد إطفاء نوره وإبطاله كمن يحاول عبثاً إطفاء نور الشمس.

٥ ـ الامتنان على العباد بإرساله ـ عز وجل ـ محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق أي: بالعلم النافع والعمل الصالح وإظهاره على جميع الأديان ولو كره المشركون ذلك.

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة ٢٩٠٧، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/٦١٦، والحاكم ٤/٤٤٦، ٤٤٩.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

جاء في سبب نزول هذه السورة أن الصحابة سألوا عن أحب الأعمال إلى الله عز وجل فذكر الله عز وجل في هذه الآيات ما يدل على أن من أهم ذلك الإيمان به والجهاد في سبيله، فذلك التجارة الرابحة.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

«هل» حرف استفهام، وفيه معنى التشويق والترغيب.

و«التجارة» تطلق على عقود المعاوضات التي يطلب بها الأرباح كالبيع والشراء والإجارة ونحو ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

كما تطلق التجارة على جزاء الأعمال والمتاجرة مع الله - عز وجل - بالإيمان والأعمال الصالحة للفوز بالجنة والنجاة من النار، وهي المرادة بالتجارة هنا في قوله ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ﴾؟ وهي التجارة حقاً.

ولهذا أتبعها بقوله ﴿تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وفسرها بقوله ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

ونكرت تجارة هنا للتعظيم. قال ﷺ: «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن

سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة»[1].

قال ابن القيم رحمه الله[2]:

يا سلعة الرحمن لست رخيصة ... بل أنت غالية على الكسلان

يا سلعة الرحمن ليس ينالها ... في الألف إلا واحد لا اثنان

﴿تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: تكون سبباً في نجاتكم وسلامتكم ﴿مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وهو عذاب النار، لأن الإيمان والعمل الصالح إنما هو سبب لدخول الجنة والنجاة من النار، وليس بعوض عن دخول الجنة كما يقوله المعتزلة. ودخول الجنة والنجاة من النار إنما هو برحمة أرحم الراحمين، ولهذا قال ﷺ: «لن يدخل أحداً عمله الجنة قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل، فسددوا وقاربوا ولا يتمنين أحدكم الموت، إما محسناً فلعله أن يزداد خيراً، وإما مسيئاً فلعله أن يستعتب»[3].

و«أليم» «فعيل» بمعنى «مفعل» أي: موجع حساً ومعنى، وهو عذاب النار، العذاب الأكبر والأشد مع ما يسبقه من العذاب الدنيوي بالأنفس والأموال وفقدان السعادة لمن خالف أمر الله.

وقدم قوله: ﴿تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ على تفسير وبيان التجارة تشويقاً للتجارة وقدم النجاة من النار على دخول الجنات لأن التخلية قبل التحلية وإشارة إلى أن من نجا من النار دخل الجنة إذ ليس هناك سوى هتين المنزلتين، إما الجنة وإما النار كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠].

قال الشاعر:

الموت باب وكل الناس داخله ... يا ليت شعري بعد الموت ما الدار

الدار جنة عدن إن عملت بما ... يرضي الإله وإن فرطت فالنار

هما محلان ما للناس غيرهما ... فاختر لنفسك ماذا أنت تختار

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤٥٠ - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - وقال: «حديث حسن غريب».

(٢) في «النونية» ص٢٤٨.

(٣) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١٦، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠١ - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ لما تشوقت النفوس وتطلعت إلى معرفة ما هي هذه التجارة، التي فيها النجاة من العذاب الأليم وذلك بقوله ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فسرها وبيّنها بقوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْۚ﴾.

فالتجارة الرابحة حقاً هي التجارة مع الله – عز وجل – بالإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله بالأموال والأنفس.

وفي قوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بعد ندائهم باسم الإيمان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ دليل على حاجة الإنسان إلى الإيمان كل لحظة والزيادة منه والثبات عليه. كما قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦].

فإن العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلى الله في هدايته للإيمان وتثبيته عليه وزيادته منه.

ومعنى الإيمان بالله: الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشرعه. وضده الكفر.

ومعنى الإيمان بالرسول ﷺ: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع، وهو معنى شهادة أن محمداً رسول الله.

وفي عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم الله عز وجل بالواو في قوله ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ تعظيم له ﷺ، وأن من لازم الإيمان: الإيمان بالله ورسوله. فمن آمن بالله ولم يؤمن بالرسول ﷺ فليس بمؤمن، كما أن من آمن بالرسول ﷺ ولم يؤمن بالله ـ عز وجل ـ فليس بمؤمن، فالإيمان بالله والرسول متلازمان.

كما أن فيه جواز عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم الله عز وجل بالواو التي تقتضي التشريك في الحكم في باب الإيمان والطاعة، لأن الإيمان بالرسول ﷺ من الإيمان بالله.

فالإيمان بالله ورسوله درجة عظيمة ومنزلة رفيعة، به الفوز والفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة – نسأل الله التوفيق والثبات على الإيمان حتى الممات.

﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ المجاهدة بذل الجهد والطاقة والوسع ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: لإعلاء كلمة الله – كما قال ﷺ –: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[1].

---

(١) سبق تخريجه.

والمعنى: وتبذلون جهدكم وطاقتكم ووسعكم في قتال الكفار لإعلاء كلمة الله.

﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ قدم الجهاد بالأموال هنا وفى جميع المواضع في القرآن عدا قوله في سورة التوبة ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [الآية: ١١١]. وذلك لأهمية الجهاد بالمال، فالجهاد بالنفس لا يمكن أن يقوم إلا بالجهاد بالمال والعدة والعتاد والسلاح والزاد والمراكب وغير ذلك.

وجملة ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ وإن كانت خبراً فمعناها الطلب والأمر، أي: آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم.

ولهذا جاء جوابه مجزوماً في قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ﴾ وقد قرأها عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «آمنوا بالله ورسوله»[١].

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الإشارة للإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس، والذي هو التجارة الرابحة مع الله عز وجل.

﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: خير لكم خيرية مطلقة من تجارة الدنيا، ومن الدنيا بحذافيرها، وغير ذلك. فالخير كل الخير بالإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله

و«خير» وإن كان اسم تفضيل، فإنه لا يدل على أن في عدم الإيمان وترك الجهاد شيئاً مفضولاً من الخير، لأن اسم التفضيل قد يستعمل في المفاضلة بين شيئين ليس في أحدهما شيء من الفضل البتة بل هو شر محض، كما في قوله عز وجل ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤] فلا يؤخذ من هذا أن أهل النار عندهم شيء من خير المستقر وحسن المقيل إذ لا خير في النار البتة ولا حسن فيها بل كل ما فيها شر وسوء.

وقد سئل ﷺ عن أفضل الأعمال فقال: «إيمان بالله ورسوله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «جهاد في سبيل الله»، قيل: ثم ماذا؟ ، قال: «حج مبرور»[٢].

وعن عبد الله بن حبشي الخثعمي – رضي الله عنه -: أن النبي ﷺ سئل أي الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان لا شك فيه، وجهاد لا غلول فيه، وحجة مبرورة»[٣].

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إن كنتم ذوي علم، تعلمون به ما ينفعكم، وتهتدون

---

(١) انظر «معاني القرآن» للفراء ٣/ ١٥٤، «جامع البيان» ٢٢/ ٦١٧.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه النسائي في الزكاة ٢٥٢٦، والدارمي في الصلاة ١٤٢٤.

به لما فيه خيركم وسعادتكم في دينكم ودنياكم، أي: اعلموا أن في المتاجرة مع الله في الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم الخير كل الخير لكم.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾

هذا هو جواب الأمر المفهوم من جملة الخبر ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾، أي: آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا في سبيله بأموالكم وأنفسكم ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ﴾ وهو تفسير للخيرية في قوله ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ المغفرة: ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة عليه - كما جاء في حديث ابن عمر في المناجاة أن الله عز وجل يقرر عبده المؤمن بذنوبه، فيقول - عز وجل -: «أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»[1].

﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾

جنات: جمع جنة، والجنة في الأصل البستان، وسمي البستان جنة لأنه يجن، أي: يستر من بداخله بأشجاره الملتفة وثماره الكثيرة.

والمراد بقوله: «جنات»: ما أعده الله عز وجل لأوليائه في دار كرامته مما لا تقاس به جنات الدنيا وبساتينها، كما قال عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] وقال ﷺ: «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[2].

ونكر «جنات» تعظيماً لشأنها - جنات، وأي جنات، جنات ونعم الجنات.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ صفة لـ«جنات» لأن الجمل بعد النكرات صفات وبعد المعارف أحوال.

والمعنى: تجري من تحت أشجارها ومساكنها وغرفها الأنهار كما قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الزمر: ٢٠] يشربون منها ويغتسلون فيها ويتمتعون برؤيتها، ويصرفونها كيف شاؤوا بلا جداول ولا أخدود.

عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: «لعلكم تظنون أن أنهار الجنة تجري في

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٤، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٢٤، والترمذي في التفسير ٣١٩٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٢٨ من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

أخدود في الأرض، والله إنها لتجري سائحة على وجه الأرض، حافتاها قباب اللؤلؤ، وطينها المسك الأذفر»[1].

قال ابن القيم [2]:

أنهارها في غير أخدود جرت سبحان ممسكها عن الفيضان

وهي أنواع - كما ذكر الله عز وجل في سورة محمد: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [الآية: ١٥].

وتتفجر من الفردوس - كما قال ﷺ: «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، ومنه تُفجَّر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن»[3].

﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ أي: ويدخلكم مساكن ومنازل ﴿طَيِّبَةً﴾ طيبة السكن يطيب فيها حال الساكن ويرتاح ويسر ويطمئن ويأمن كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الزمر: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٨].

﴿فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ «عدن» بمعنى إقامة دائمة أبدية. أي: في جنات إقامة أبدية لا يتحولون عنها كما قال عز وجل في سورة التوبة: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الآية: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الإشارة لما سبق من مغفرة ذنوبهم وإدخالهم الجنات والمساكن الطيبة في جنات عدن.

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير» ٧/ ٢٩٦.

(٢) في «النونية» ص٢٢٩.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير - درجات المجاهدين في سبيل الله ٢٧٩٠، وأحمد ٢/ ٣٣٥ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

و﴿ٱلْفَوْزُ﴾ الفلاح والنجاح، الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، الفوز بالجنة، والنجاة من النار.

﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ كمية وكيفية الذي لا يقدر كنه عظمته إلا من وصفه بأنه «عظيم» وهو العظيم سبحانه وتعالى.

وفي جعل قوله ﴿تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وقوله ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الآية مكتنفين لتفسير التجارة إشارة إلى أن التجارة هي مجموع الأمرين الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله، وما أعد الله لهم من الجزاء عليه من النجاة من النار والمغفرة ودخول الجنات.

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ الواو: عاطفة و«أخرى» مفعول به لفعل محذوف تقديره «يؤتكم» مجزوم عطفاً على «يغفر». أي: ويؤتكم نعمة وزيادة وثمرة أخرى عاجلة في الدنيا «تحبونها».

﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لكم على عدوكم.

﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أي: وفتح من الله قريب لكم لبلاد الكفر كمكة وغيرها من المدن والأمصار. وذلك إذا آمنتم بالله ورسوله وجاهدتم في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، كما قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]. وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وهكذا نصر الله – عز وجل – النبي ﷺ والمؤمنين على أعدائهم، وفتح لهم مكة وغيرها من البلاد وفاءً بما وعدهم، وهو الذي لا يخلف الميعاد سبحانه وتعالى.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ سبق بيان معنى البشارة واشتقاقها والخطاب للنبي – ﷺ – ولكل من يصلح له. أي: وأخبر المؤمنين بالخبر السار لهم في دنياهم وآخرتهم وهو السعادة في الدنيا والآخرة، ومغفرة الذنوب ودخول الجنات والفوز العظيم والنصر على الأعداء والفتح القريب.

ويؤخذ من هذا التعبير القرآني المحبب للنفوس ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنه ينبغي أن نكون مبشرين كما قال ﷺ لمعاذ وأبي موسى لما بعثهما إلى اليمن «يسرا ولا تعسرا،

وبشرا ولا تنفرا»[1].

وهذا التعبير القرآني العظيم والتوجيه النبوي الكريم يذكرني بكلمة أحب أن أسجلها لسماحة الشيخ الوالد عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله تلك العبارة الرقيقة التي تدخل إلى شغاف القلوب عندما يسأله سائل كثيراً ما يختم إجابته له بقوله: «وأبشر بالخير» فرحمك الله يا شيخنا وبشرك بكل خير، وجزاك عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، فقد كنت مثالاً يحتذى في الدعوة إلى الله، وفي فعل الخير، وقوله وفي تحبيب الناس إليه، وفي محبته لهم.

الفوائد والعبر:

١ ـ تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء لتنبيههم لأهميته، ونداؤهم بوصف الإيمان تشريفاً وتكريماً لهم وحثاً على الاتصاف بهذا الوصف وعلى امتثال ما بعد هذا النداء من الأوامر.

٢ ـ الحض والترغيب على الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس.

٣ ـ أن التجارة الرابحة بالإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس ففيها النجاة من العذاب الأليم، وفيها الخير كل الخير ومغفرة الذنوب والفوز بجنات النعيم، والنصر في الدنيا والفتح القريب.

٤ ـ أن الإيمان بالله ورسوله متلازمان وأنهما شرطان لقبول الأعمال.

٥ ـ أن الجهاد المشروع في الإسلام هو ما كان في سبيل الله، أي لإعلاء كلمة الله ووفق ما شرع الله.

٦ ـ أهمية الجهاد بالمال ولهذا قدم على الجهاد بالنفس وكل منهما مهم في وقته وعند الحاجة إليه.

٧ ـ عظم ما أعده الله للمؤمنين المجاهدين في سبيله من الجنات التي تجرى من تحتها الأنهار والمساكين الطيبة مع الإقامة الأبدية فيها وذلك الفوز العظيم.

٨ ـ وعد الله ـ عز وجل ـ للمؤمنين المجاهدين في سبيله بأموالهم وأنفسهم بالنصر على أعدائهم وفتح بلاد الكفر، وهكذا حصل بفضل الله عز وجل.

٩ ـ البشارة المطلقة للمؤمنين بالسعادة والنصر والفوز والفلاح في الدنيا والآخرة. فلله الحمد.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٣٠٣٨، ومسلم في الأشربة ١٧٣٣ ـ من حديث أبي موسى ـ رضي الله عنه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤)﴾

صلة الآية بما قبلها:

رغب عز وجل بالإيمان به وبرسوله والجهاد في سبيله، ثم أتبع ذلك بأمر المؤمنين بمناصرة دين الله؛ كما فعل الحواريون من أتباع عيسى عليه السلام.

قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ النداء للمؤمنين من هذه الأمة.

﴿كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ﴾ قرأ ابن عامر ويعقوب وحمزة والكسائي وعاصم (أنصارَ) بغير تنوين، مضافاً إلى لفظ الجلالة، وقرأ الباقون بالتنوين ولام الجر (أنصاراً لله). أي: كونوا أنصار دينه - كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ﴾

﴿الْحَوَارِيِّينَ﴾: جمع حواري، والحواري: صفي الرجل وخاصته. والمراد: أتباع عيسى وأنصاره وأعوانه.

﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ «من» للاستفهام، وفيه معنى التحضيض أي: من أنصاري وأعواني منكم يا قوم في دعوتي وطريقي إلى الله.

﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ أي: قال الحواريون، وهم أصفياء عيسى وأتباعه ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ أي: أنصار دينه.

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا كونوا في الاستجابة لله ولرسوله، ونصرة دينه كالحواريين في الاستجابة لعيسى عليه السلام ونصرته فيما جاء به من عند الله، وليس في هذا ما يستلزم، بل ولا ما يدل على فضل الحواريين على صحابة رسول الله ﷺ والمؤمنين من هذه الأمة. إذ لا أفضل من صحابة رسول الله ﷺ والمؤمنين من هذه الأمة كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

قال ابن كثير(١): «وهكذا كان رسول الله ﷺ يقول في أيام الحج: «من رجل يؤويني

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٣٩.

حتى أبلغ رسالة ربي فإن قريشاً منعوني أن أبلغ رسالة ربي»[1] حتى قيض الله له الأوس والخزرج من أهل المدينة فبايعوه وآزروه وشارطوه أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم، فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وفوا له بما عاهدوا الله عليه، ولهذا سماهم الله ورسوله الأنصار، وصار ذلك علماً عليهم رضي الله عنهم وأرضاهم».

﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي: فصدقت طائفة وجماعة من بني إسرائيل بعيسى عليه السلام ورسالته وانقادوا له.

﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ أي: جحدت طائفة وجماعة رسالته وهم اليهود.

قال ابن كثير[2]: «اهتدت طائفة من بني إسرائيل بما جاءهم به، وضلت طائفة فخرجت عما جاءهم به، وجحدوا نبوته، ورموه وأمه بالعظائم - وهم اليهود - عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة وغلت فيه طائفة ممن اتبعه، حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة، وافترقوا فرقاً وشيعاً، فمن قائل إنه ابن الله. وقائل: إنه ثالث ثلاثة: الآب، والابن، وروح القدس. ومن قائل: إنه الله».

﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ﴾ أي: نصرنا الذين آمنوا مع عيسى من الحواريين وقويناهم على من عاداهم من اليهود وفرق النصارى الكافرة.

﴿فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ أي: فاصبحوا ظاهرين على عدوهم بتأييد الله ونصره لهم لأنهم على الحق.

ولهذا فإن من تأييد الله لهم - كما قال بعض المفسرين - بعثة محمد ﷺ.

فعن سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «لما أراد الله - عز وجل - أن يرفع عيسى إلى السماء خرج إلى أصحابه وهم في بيت، اثنا عشر رجلاً من عين في البيت، ورأسه يقطر ماء، فقال: إن منكم من سيكفر بي اثنتي عشر مرة، بعد أن آمن بي. قال: ثم قال: أيكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني، ويكون معي في درجتي؟ قال: فقام شاب من أحدثهم سناً، فقال: أنا. فقال له: اجلس، ثم أعاد عليهم، فقام الشاب، فقال: أنا. فقال له: اجلس، ثم أعاد عليهم، فقام الشاب قال: أنا. قال: نعم، أنت ذاك. قال: فألقي عليه شبه عيسى، ورفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء قال: وجاء

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٣٢٢، ٣٣٩ - من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ١٣٩ وانظر ٢/ ٤٠١.

الطلب من اليهود، وأخذوا شبهه فقتلوه وصلبوه، وكفر به بعضهم، اثنتي عشرة مرة، بعد أن آمن به، فتفرقوا ثلاث فرق. فقالت فرقة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء، وهؤلاء اليعقوبية. وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء الله، ثم رفعه إليه، وهؤلاء النسطورية. وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله، ثم رفعه إليه، وهؤلاء المسلمون. فتظاهرت الطائفتان الكافرتان على المسلمة فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً - ﷺ -: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ يعني الطائفة التي كفرت من بني إسرائيل في زمن عيسى، والطائفة التي آمنت في زمن عيسى ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾، في إظهار محمد دينهم على دين الكفار ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾»[1].

قال ابن كثير[2] بعد سياقه عن ابن عباس: «فأمة محمد ﷺ لا يزالون ظاهرين على الحق، حتى يأتي أمر الله، وهم كذلك، وحتى يقاتل آخرهم الدجال مع المسيح - عيسى ابن مريم - عليه السلام - كما وردت الأحاديث الصحاح والله أعلم».

الفوائد والعبر:

١ ـ تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام ونداء المؤمنين بوصف الإيمان تشريفاً وتكريماً لهم وحثاً على الاتصاف بهذا الوصف وامتثال ما ذكر بعد هذا النداء من أمر.

٢ ـ تحضيض المؤمنين على الاستجابة للرسول ﷺ ونصرة دين الله كما فعل الحواريون أتباع عيسى عليه السلام، وأخذ القدوة من المؤمنين قبلهم.

٣ـ التذكير بقدرة الله ـ عز وجل ـ في خلق عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ من أنثى بلا ذكر.

٤ ـ الثناء على الحواريين أصحاب عيسى عليه السلام ـ بنصرتهم دين الله.

٥ ـ تأييد الله ـ عز وجل ـ وتقويته ونصره للمؤمنين من أتباع عيسى ـ عليه السلام ـ على أعدائهم الكافرين وإظهاره لهم. وهكذا فإنه عز وجل ينصر أولياءه في كل زمان ومكان والعاقبة للمتقين.

---

(١) أخرجه الطبري «جامع البيان» ٢٢/ ٦٢٢ - ٦٢٣.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ١٤٠.

تفسير سورة الجمعة

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: «إن النبي ﷺ كان يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة الم تنزيل السجدة، وهل أتى على الإنسان حين من الدهر، وأن النبي ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة سورة الجمعة والمنافقين»[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝﴾.

قوله: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ سبق الكلام على هذا في مطلع سورة الحديد، وفي آخر سورة الحشر.

﴿الْمَلِكِ﴾ أي: الملك للسموات والأرض وما فيهما وما بينهما الخالق لذلك كله المتصرف فيه بأمره وحكمه.

والملك أعم من المالك، وأبلغ، لأن كل ملِك مالك وليس كل مالك ملكاً.

﴿الْقُدُّوسِ﴾: المعظم المنزه عن النقائص، الموصوف بصفات الكمال.

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

في هذه الآية إجابة دعوة إبراهيم الخليل عليه السلام حين دعا لأهل مكة بقوله ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

قوله ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ أي: هو الله سبحانه ﴿الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ وفي هذا تذكير بعظمته عز وجل، وعظيم نعمته عليهم.

و«بعث» بمعنى أرسل، و«الأميين» جمع أمي، وهو من لا يقرأ ولا يكتب، والمراد بهم العرب، قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا﴾

---

(١) أخرجه مسلم في الجمعة – ما يقرأ في صلاة الجمعة ٨٧٩، والنسائي في الجمعة ١٤٢١.

[آل عمران: ٢٠].

﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ هو نبينا محمد ﷺ أفضل الرسل وسيد الخلق فهو عربي من ذرية إسماعيل ابن إبراهيم – عليهما السلام، فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب القرشي الهاشمي.

وهو أمي أيضاً قال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وتخصيص الأميين، وهم العرب بالذكر لتذكيرهم بعظيم نعمة الله عليهم، فالمنة عليهم أبلغ وآكد، كما أن المسؤولية عليهم في تبليغ الدعوة أعظم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤] لأنه بلسانهم كما قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ﴾ [إبراهيم: ٤٠] وإلا فهو مبعوث فيهم وفي غيرهم، وذكر لهم ولغيرهم كما قال تعالى ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الحج: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] أي: لأنذركم به وأنذر به كل من بلغه القرآن.

﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ أي: يقرأ عليهم آيات الله – عز وجل – القرآن الكريم.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي: ويطهرهم بما يتلو عليهم من آيات الله – عز وجل – وما فيها من المعاني والأحكام والآداب والمواعظ التي فيها طهارة النفوس والقلوب والأبدان.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: ويعملهم القرآن والسنة، وما فيهما من الأحكام والحكم كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ٩٦] أي: القرآن والسنة.

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ﴾ الواو: حالية. أي: والحال أنهم كانوا من قبل في ضلال مبين. والمعنى: وإن كانوا من قبل بعثه ﷺ ﴿لَفِى ضَلَـٰلٍ﴾ أي: بُعد وتيه عن الحق ﴿مُّبِينٍ﴾ أي: بين واضح في نفسه، ﴿مُّبِينٍ﴾ أمر من كان عليه أنه ضائع تائه. وأي: ضلال أبين من الشرك بالله – عز وجل.

قال ابن كثير[1]: «فبعثه الله – سبحانه وتعالى ولله الحمد والمنة – على حين فترة من

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٤٢.

الرسل، وطموس من السبل، وقد اشتدت الحاجة إليه... وذلك أن العرب كانوا متمسكين بدين إبراهيم - عليه السلام - فبدلوه وغيروه وقلبوه وخالفوه، واستبدلوا بالتوحيد شركاً، وباليقين شكاً، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله، وكذلك أهل الكتابين قد بدلوا كتبهم وحرفوها وغيروها، وأولوها، فبعث الله محمداً - صلوات الله وسلامه عليه - بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق، فيه هدايتهم، والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم... وجمع له تعالى - ولله الحمد والمنة - جميع المحاسن ممن كان قبله، وأعطاه ما لم يعط أحداً من الأولين، ولا يعطيه أحداً من الآخرين، فصلوات الله وسلامه عليه إلى يوم القيامة».

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ اي: وآخرين ممن بعث فيهم الرسول ﷺ وأنزل فيهم القرآن ﴿لَمَّا يَلْحَقُوا۟﴾ لم يحن وقت لحوقهم بهم، اي: انهم يأتون بعدهم ويدخل فيهم من يأتي بعدهم من العرب والعجم إلى يوم القيامة، وهذا يدل على عموم رسالته ﷺ. فالمعنى (لما يلحقوا بهم) في الزمن، اي: انهم يأتون بعدهم، او ﴿لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ في الفضل. والآية تحتمل الأمرين معاً.

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: كنا جلوساً عند النبي - ﷺ - فأنزلت عليه سورة الجمعة: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ قالوا: من هم يا رسول الله؟ فلم يراجعهم، حتى سئل ثلاثاً، وفينا سلمان الفارسي، فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان، ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال - أو رجل من هؤلاء»[(١)].

وعن سهل بن سعد الساعدي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إن في أصلاب أصلاب رجال من أصحابي رجالاً ونساءً من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب، ثم قرأ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ يعني بقية من بقي من أمة محمد - ﷺ»[(٢)].

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ سبق الكلام عليه.

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الإشارة إلى ما أعطاه الله - عز وجل - لمحمد ﷺ - وخصه به من الرسالة والنبوة العظيمة، وما خص به أمته من بعثه إليهم وإنزال القرآن الكريم عليه ليزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة.

فأكرم بهذا وأنعم به من فضل كما قال عز وجل ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ

---

(١) اخرجه البخاري في تفسير سورة الجمعة ٤٨٩٨، ومسلم في فضائل الصحابة - فضل فارس ٢٥٤٦، والترمذي ٣٢٦١.
(٢) اخرجه ابن ابي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٥٥ - ٣٣٥٥ - الأثر ١٨٨٩١.

﴿فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

والفضل: الزيادة منه - عز وجل - بلا استحقاق من المتفضل عليه.

﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي: يعطيه الذي يشاء من عباده، فتفضل على محمد - ﷺ - بالرسالة، وتفضل على أمته ببعثته فيهم.

وفي هذا إثبات المشيئة لله عز وجل - كما يليق بجلاله فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي: والله صاحب الزيادة والإفضال والإنعام والجود العظيم، لا راد لفضله ولا مانع لعطائه كما قال عز وجل: ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٩].

اللهم إنا نسألك من فضلك العظيم ما لا نحتاج معه إلى أحد سواك.

الفوائد والعبر:

١ - تسبيح جميع ما في السموات وما في الأرض من المخلوقات لله - عز وجل.

٢ - إثبات أسماء الله - عز وجل: «الملك»، «القدوس»، «العزيز»، «الحكيم» وما تدل عليه من كمال ملكه وتدبيره وتصرفه، وتمام عظمته، وعزته عزة القوة والقهر والامتناع، ونفوذ أحكامه الكونية والشرعية والجزائية، وحكمته البالغة التامة في شرعه وقدره وأمره ونهيه.

٣ - نعمة الله - عز وجل - على العرب وامتنانه عليهم وعلى العالم أجمع ببعثه محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه.

٤ - أن العرب كانوا قبل الإسلام أميين لا يقرؤون ولا يكتبون وهكذا كان النبي ﷺ.

٥ - أن من نعمة الله - عز وجل - وفضله على العرب خاصة جعل النبي منهم وبلسانهم يتلو عليهم القرآن ويطهرهم معنوياً من الشرك والمعاصي وحسياً من النجاسات والأحداث ويعلمهم القرآن والسنة.

٦ - أن المسؤولية في تبليغ الرسالة على العرب أعظم وآكد، لأن الرسول ﷺ منهم والقرآن بلغتهم.

٧ - أن القرآن والسنة كل منهما من وحي الله - وهما مصدرا التشريع.

٨ - ضلال العرب البين الواضح وبعدهم عن الحق قبل بعثة محمد ﷺ فيهم ونزول القرآن.

٩ - عموم رسالة النبي محمد ﷺ لجميع الناس السابق منهم واللاحق.

١٠ - تأكيد عزته - عز وجل - وكمال حكمه وتمام حكمته ومن كمال عزته وحكمه وحكمته أن بعث محمداً ﷺ رسولاً إلى الناس كافة وأنزل عليه القرآن الكريم.

١١ - الإشارة لعظم فضل الله - عز وجل - على محمد ﷺ في تخصيصه بهذه الرسالة العظيمة وعلى العرب في اختياره منهم وعلى الأمة المحمدية كلها ببعثة محمد ﷺ فيهم وإنزال القرآن عليه.

١٢ - إثبات المشيئة لله - عز وجل - وعظم فضله وإفضاله وإنعامه على الخلق.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٥ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٧ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

بعد ما ذكر الله عز وجل فضله على الأمة المحمدية ببعثة محمد ﷺ فيهم وإنزال القرآن عليه، أتبع ذلك بذم اليهود الذين أنزل الله عليهم التوراة فلم يعملوا بها وكذبوا بآيات الله.

وذلك بياناً لما هم عليه من سيء الصفات، وتحذيراً للأمة المحمدية من مسالك اليهود المغضوب عليهم.

قوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ «مثل» أي: شبه ﴿ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ يعني اليهود الذين أنزلت عليهم التوراة وكلفوا علمها والعمل بما فيها.

والتوراة: هي الكتاب الذي أنزله – عز وجل – على نبيه وكليمه موسى بن عمران – عليه السلام – كتبها الله عز وجل بيده، قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وفي الحديث: «قال آدم: أنت موسى اصطفاك الله بكلامه، وكتب لك التوراة بيده»(١).

وفي الحديث الآخر: «أن الله غرس جنة عدن بيده، وخلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده»(٢).

أنزلها الله عز وجل جملة واحدة على موسى عليه السلام مكتوبة بألواح، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤].

﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ أي: ثم لم يعملوا بها، بل خالفوها وحرفوها وبدلوها وكذبوا بمحمد – ﷺ – وقد أمروا بالإيمان به فيها واتباعه وتصديقه.

﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ﴾ أي: مثلهم في عدم العمل بالتوراة وعدم الانتفاع بها والاستفادة

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة طه ٤٧٣٦، ومسلم في القدر ٢٦٥٢، والترمذي في القدر ٢١٣٥، وابن ماجه في المقدمة ٨٠، وأحمد ٢/ ٢٦٨، ٣٩٢، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر «مجموع الفتاوى» ٥/ ٩٧، «الصواعق المرسلة» ١/ ٢٧٤.

منها ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ كمثل وشبه الحمار الحيوان المعروف الذي يضرب به المثل في البلادة.

﴿يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ الأسفار: جمع «سِفْر» وهي كتب العلم الكبار، أي: يحمل كتباً على ظهره، لكنه لا يدري ماذا عليه، وماذا فيها، ولا تلحقه فضيلة بسبب حملها، ولا ينتفع بها ولا يستفيد منها بوجه، ولو حملت عليه كتب الدنيا كلها، وإنما حظه منها النصب والتعب والثقل. كما قيل:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

قال الزمخشري[1]: «شبه اليهود في أنهم حملة التوراة وقراؤها وحفاظ ما فيها، ثم أنهم غير عاملين بها، ولا منتفعين بآياتها، وذلك أن فيها نعت رسول الله ﷺ والبشارة به، ولم يؤمنوا به بالحمار حمل أسفاراً، أي: كتباً كباراً من كتب العلم، فهو يمشي بها، ولا يدري منها إلا ما يمر بجنبيه وظهره من الكد والتعب، وكل من علم ولم يعمل بعلمه فهذا مثله، وبئس المثل».

وقال ابن كثير[2]: «أي كمثل الحمار إذا حمل كتباً لا يدري ما فيها، فهو يحملها حملاً حسياً ولا يدري ما عليه، وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه حفظوه لفظاً ولم يفهموه، ولا عملوا بمقتضاه، بل أولوه وحرفوه وبدلوه، فهم أسوأ حالاً من الحمير، لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها، ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]».

كما قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب فهو كمثل الحمار يحمل أسفارا، والذي يقول له: أنصت، ليس له جمعة»[3].

---

(١) في «الكشاف» ٤/ ٩٦.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ١٤٣.

(٣) أخرجه أحمد ١/ ٢٣٠. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٢/ ١٨٤: «رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير، وفيه مجالد ابن سعيد وقد ضعفه الناس ووثقه النسائي في رواية».

﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ بئس: فعل ذم، أي: قبح وساء شبه اليهود الذين كذبوا بآيات الله. فقد شبهوا في هذا المثل بالحمار أبلد الحيوانات، حال كونه يحمل كتباً في العلم لا يستفيد منها لعدم فهمه، وفقدانه ما أعطاهم الله من فهم، إذ لو كان هذا الحمار يحمل طعاماً لأحس وشعر به بخلاف الأسفار.

والمراد بآيات الله ما يشمل الآيات الشرعية التي أنزلت في التوراة، والآيات الكونية، ومنها الآيات التسع التي أيد الله بها موسى كالعصا والحية والطوفان وغيرها.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: والله لا يوفق القوم الظالمين ولا يقبل أعمالهم الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي وظلموا غيرهم بالتعدي على حقوقهم وقد سبق الكلام على هذه الآية مفصلاً في سورة الصف.

وفي قوله: ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أن هذا المثل كما هو مثل لليهود هو مثل لكل من كذب بآيات الله، وكان من الظالمين من اليهود وغيرهم من هذه الأمة.

وقال ابن القيم[1]: «قاس من حمّله - سبحانه - كتابه، ليؤمن به، ويعمل به ويدعو إليه، ثم خالف ذلك، ولم يحمله، إلا على ظهر قلب، فقراءته بغير تدبر، ولا تفهم، ولا اتباع له، ولا تحكيم له، ولا عمل بموجبه كحمار على ظهره زاملة أسفار لا يدري ما فيها فحظه منها حملها على ظهره، ليس إلا، فحظ هذا من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره، فهذا المثل، وإن كان قد ضرب لليهود فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن، فترك العمل به، ولم يؤد حقه، ولم يرعه حق رعايته».

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟﴾ الأمر للنبي ﷺ، أي: قل يا محمد ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟﴾ أي: نادهم منبهاً لهم بهذا الوصف، ومعنى ﴿ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟﴾ أي: الذين رجعوا وتابوا من الكفر والشرك وعبادة العجل، واتبعوا دين يهودا، أحد أنبياء بني إسرائيل واحد أولاد يعقوب - عليه السلام.

﴿إِن زَعَمْتُمْ﴾ أي: إن ادعيتم. والزعم يطلق غالباً على زعم الأمر الباطل.

﴿أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: احبابه، والذين يوالونه ويوادونه ويواليهم

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/٤٤٨ - ٤٤٩.

ويحبهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ١٨] ، وكما قال قائلهم: نحن شعب الله المختار فهم يزعمون أنهم أولى الناس بالله وأنهم هم الذين على الهدى، وأن محمداً ﷺ وأصحابه وغيرهم على ضلالة.

﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: فاطلبوا الموت أو ادعوا على أنفسكم بالموت ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في زعمكم أنكم أولياء الله وأحباؤه، لتنالوا أجر ولايتكم، لأن المحب يحب القرب من حبيبه، ولتستريحوا من كرب الدنيا وهمومها وغمومها بالموت، ولتنتقلوا سريعاً إلى دار كرامته التي أعدها لأوليائه.

قال ابن كثير[1]: «أي: إن كنتم تزعمون أنكم على هدى، وأن محمداً وأصحابه على ضلالة، فادعوا بالموت على الضال من الفئتين ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تزعمونه».

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا﴾ الواو: عاطفة و«لا» نافية، أي: ولا يمكن أن يتمنوه أبداً.

﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ الباء للسببية، و«ما» موصولة أو مصدرية، أي: ولا يتمنونه أبدا بسبب الذي قدمته أيديهم من الكفر والمعاصي والظلم والفجور، أو بسبب تقديم أيديهم ذلك لأنهم يعرفون أنهم لم يقدموا خيراً، بل لم يقدموا إلا الكفر والمعاصي، وليس أمامهم بعد الموت إلا النار. كما قال تعالى لهم: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٩٤ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٩٥ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٤ - ٩٦].

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال أبو جهل - لعنه الله -: إن رأيت محمداً عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه. قال: فقال رسول الله ﷺ: «لو فعل لأخذته الملائكة عياناً، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا، ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ رجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً»[2].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ «عليم» على وزن «فعيل» صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، أي: أنه عز وجل ذو العلم التام الواسع بالظالمين وأعمالهم وأحوالهم لا تخفى عليه منهم خافية

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٤٤.
(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة العلق ٤٩٥٨، والترمذي في تفسير سورة اقرأ ٣٣٤٨، وأحمد ١/ ٢٤٨.

وسيحاسبهم ويجازيهم عليها وهو عز وجل عليم بالظالمين وغيرهم وبجميع خلقه وسيجازي كلا بعمله وإنما خص الظالمين هنا تهديداً لهم ووعيداً، لأن السياق معهم، بل مع أظلم الظالمين، وهم اليهود المغضوب عليهم.

﴿قُلْ﴾ أي: قل يا محمد ﴿إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ أي: الذي تهربون منه وتخافونه أيها اليهود ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ أي: لا محالة، فلا بد أن تموتوا. قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥، الأنبياء: ٣٥، العنكبوت: ٥٧]. وقال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

قال زهير[1]:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنـــه وإن يرق أسبـاب السماء بسلـم

وقال الآخر:

فهـن المنايـا أي واد سلكتـــه عليها طريقي أو علـي طريقهـا

وقال الآخر:

هو الموت ما منه ملاذ ومهـــرب متى حط ذا عن نعشه ذاك يركب[2]

وقال الآخر:

الموت باب وكل الناس داخله يا ليت شعري بعد الموت ما الدار

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: ثم بعد الموت تبعثون وترجعون إلى عالم السر والعلانية، وهو الله الذي لا تخفى عليه خافية من أعمالكم.

وقدّم عز وجل الغيب على الشهادة لتأكيد كمال علمه وأن السر عنده كالشهادة، كما قال عز وجل ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠].

﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: فيخبركم بالذي كنتم تعملون، أو فيخبركم بعملكم، ويحاسبكم ويجازيكم على ذلك.

الفوائد والعبر:

١ ـ تشبيه اليهود في كونهم حملة التوراة ولم يعملوا بها بأقبح مثل وأحقره وهو مثل الحمار يحمل كتباً في العلم ولا ينتفع بها وبئس المثل مثلهم لتكذيبهم بآيات الله ومثل

---

(١) انظر «ديوان زهير» ص٢٩.

(٢) البيت للشاعر محمد بن عثيمين.

ذلك من سلك طريقهم في معرفة الحق وعدم العمل به.

٢ ـ عدم توفيق الله وهدايته للظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي وظلموا غيرهم بالتعدي على حقوقهم.

٣ ـ تحدي اليهود بتمني الموت إن كانوا صادقين في زعمهم أنهم أولياء لله من دون الناس، لأن من كان ولياً لله حقاً يحب لقاءه.

٤ ـ نفي الله ـ عز وجل ـ تمني اليهود الموت أبداً لعلمهم أنهم لم يقدموا لما أمامهم سوى الكفر والمعاصي وما يستوجبون به النار.

٥ ـ تهديد الله ـ عز وجل ـ للظالمين من اليهود وغيرهم بعلم الله عز وجل بما هم عليه من الظلم وأنه سيجازيهم بأعمالهم.

٦ ـ أنه لا مفر ولا محيد من الموت ولابد لجميع الخلق من لقائه.

٧ ـ إثبات البعث والمعاد بعد الموت وإخبار العباد بأعمالهم ومجازاتهم عليها.

٨ ـ علم الله ـ عز وجل ـ الواسع المحيط بالشاهد والغائب والسر والعلانية والوعيد للظالمين والوعد للمؤمنين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾

قوله: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾ أي: إذا أذن لصلاة الجمعة، وهذا يدل على مشروعية النداء لها.

ويوم الجمعة: هو سابع أيام الأسبوع، وهو أفضلها.

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها وفيه تقوم الساعة وفيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يسأل الله شيئاً إلا أعطاه الله إياه»[1].

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع، اليهود غداً، والنصارى بعد غد»[2].

﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: امضوا واقصدوا وسيروا إلى ذكر الله – أي: إلى صلاة الجمعة وخطبتها – وفي التعبير بقوله ﴿فَٱسۡعَوۡاْ﴾ إشارة إلى أنه ينبغي المبادرة بعد النداء بالذهاب إليها والاهتمام بها والتفرغ لها، والإقبال بالقلب على السعي إليها. وليس المراد بذلك الركض والمشي السريع إليها.

قال ﷺ: «إذا أتيتم الصلاة فامشوا وعليكم السكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا»[3].

ويؤخذ من قوله ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾ ان الجمعة فريضة يجب السعي إليها وأن الخطبتين لها فريضة يجب حضورهما لأن المراد بالذكر الخطبتان والصلاة.

﴿وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾ أي: واتركوا البيع والأمر للوجوب، وهو أمر للبائع والمشتري، لأن

---

(١) أخرجه الترمذي في الجمعة ٤٩١ – بنحوه، وأخرجه مختصراً البخاري في الجمعة – الساعة التي في يوم الجمعة ٩٣٥، ومسلم في الجمعة – الساعة التي في يوم الجمعة ٨٥٤، وأبو داود في الصلاة ١٠٤٦، والنسائي في الجمعة ١٤٣٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها ١١٣٧.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة ٨٧٦، ومسلم في الجمعة – هداية هذه الأمة ليوم الجمعة ٨٥٥، والنسائي في الجمعة ١٣٦٧.

(٣) أخرجه البخاري في الأذان – لا يسعى إلى الصلاة، وليأت بالسكينة والوقار ٦٣٦، ومسلم في المساجد – استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة والنهي عن إتيانها سعياً ٦٠٢، وأبو داود في الصلاة ٥٧٢، والنسائي في الإمامة ٨٦١، والترمذي في الصلاة ٣٢٧، وابن ماجه في المساجد والجماعات ٧٧٥ – من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وأخرجه البخاري أيضاً ٦٣٥، ومسلم ٦٠٣ – من حديث أبي قتادة – رضي الله عنه.

البيع يطلق على الأمرين ولهذا قال ﷺ «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا»[١].

والمراد بالنداء في الآية النداء الثاني الذي بين يدي خروج النبي ﷺ وجلوسه على المنبر، وكذا الأئمة من بعده.

لأن النداء الأول إنما أمر به الخليفة الراشد - عثمان بن عفان - رضي الله عنه - ليجتمع الناس لما كثروا، كما في حديث السائب بن يزيد - رضي الله عنه - قال: «كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر، فلما كان عثمان بعد زمن، وكثر الناس زاد النداء الثاني على الزوراء[٢]»[٣].

وقد قال ﷺ «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ»[٤].

فيجب السعي إلى الصلاة وسماع الخطبة، ويحرم البيع بعد النداء الثاني باتفاق أهل العلم.

قال ابن كثير[٥]: «ولهذا اتفق العلماء على تحريم البيع بعد النداء الثاني. واختلفوا هل يصح إذا تعاطاه متعاط أم لا؟ على قولين، وظاهر الآية عدم الصحة».

وقد ذهب كثير من أهل العلم إلى صحة البيع، وإن كان البيع في هذا الوقت محرماً بالإجماع.

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الإشارة إلى مصدر الأمر السابق في قوله ﴿فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ أي: السعي إلى ذكر الله وترك البيع خير لكم، خيرية مطلقة من كل وجه في الدنيا والآخرة، إذ لا مقارنة بين إجابة أمر الله وطاعته، وما فيه السعادة في الدنيا والآخرة، وبين الانشغال بالدنيا الفانية وما فيه الشقاء في الدنيا والآخرة.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إن كنتم ذوي علم تهتدون به إلى ما ينفعكم.

ومن أهم أسباب الحصول على هذا الخير الموعود به التبكير إلى الجمعة ما أمكن ذلك والغسل والسواك والطيب ولبس أحسن ثيابه، والقرب والدنو من الإمام للأحاديث الكثيرة الواردة في فضل ذلك.

فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «من اغتسل غسل الجمعة

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع ٢٠٧٩، ومسلم في البيوع ١٥٣٢، وابو داود في البيوع ٣٤٥٩، والنسائي في البيوع ٤٤٥٧، والترمذي في البيوع ١٢٤٦ من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه.

(٢) الزوراء: هي دار بالمدينة قرب المسجد فكان يؤذن عليها.

(٣) أخرجه البخاري في الجمعة - الأذان يوم الجمعة ٩١٢، وابو داود في الصلاة ١٠٨٧، والنسائي في الجمعة ١٣٩٢، والترمذي في الجمعة ٥١٦.

(٤) أخرجه أبو داود في السنة ٤٦٠٧، والترمذي في العلم ٢٦٧٦، وابن ماجه في المقدمة ٤٢ - من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

(٥) في «تفسيره» ٨/ ١٤٩.

ثم راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر»[١].

وعن أوس بن أوس الثقفي ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من غسّل واغتسل يوم الجمعة، وبكر وابتكر، ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام واستمع ولم يَلْغُ كان له بكل خطوة أجر سنة، أجر صيامها وقيامها»[٢].

كما يستحب لها الغسل، كما دل عليه حديث أبي هريرة وحديث أوس وغيرهما، وعن ابن عمر – رضي الله عنهما – أن رسول الله ﷺ قال: «إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل»[٣].

وعن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم»[٤].

وعن جابر – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «على كل رجل مسلم في كل سبعة أيام غسل يوم، وهو يوم الجمعة»[٥].

كما يستحب لها السواك والطيب، وأن يلبس لها أحسن ثيابه ففي بعض روايات حديث أبي سعيد ـ رضي الله عنه: «غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم، والسواك، وأن يمس من طيب أهله»[٦].

وعن أبي أيوب الأنصاري ـ رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب أهله – إن كان عنده – ولبس من أحسن ثيابه، ثم

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة فضل الجمعة ٨٨١، ومسلم في الجمعة – الطيب والسواك يوم الجمعة ٨٥٠، وأبو داود في الطهارة ٣٥١، والنسائي في الجمعة ١٣٨٨، والترمذي في الجمعة ٤٩٩، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٠٩٢.

(٢) أخرجه أبو داود في الطهارة – الغسل يوم الجمعة ٣٤٥، والنسائي في الجمعة ـ فضل غسل يوم الجمعة ١٣٨١، والترمذي في الجمعة – فضل الغسل يوم الجمعة ٤٩٤ وابن ماجه في إقامة الصلاة ـ الغسل يوم الجمعة ١٠٨٧، وأحمد ٤/ ١٠٤. وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٣) أخرجه البخاري في الجمعة – فضل الغسل يوم الجمعة ٨٧٧، والنسائي في الجمعة ١٣٧٦، والترمذي في الجمعة ٤٩٢، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٠٨٨.

(٤) أخرجه البخاري في الأذان ٨٥٨، ومسلم في الجمعة ٨٤٦، وأبو داود في الطهارة ٣٤١، والنسائي في الجمعة ١٣٧٥، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٠٨٩.

(٥) أخرجه النسائي في الجمعة ـ إيجاب الغسل يوم الجمعة ١٣٧٨، وأحمد ٣/ ٣٠٤ وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حق لله على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام يغسل رأسه وجسده». أخرجه البخاري ٨٩٨، ومسلم في الجمعة – الطيب والسواك يوم الجمعة ٨٤٩.

(٦) أخرجه البخاري في الجمعة ٨٨٠، ومسلم في الجمعة ٨٤٦، والنسائي في الجمعة ١٣٧٥.

خرج حتى يأتي المسجد فيركع – إن بدا له – ولم يؤذ أحداً ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يصلي – كانت كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى»[١].

وعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبي مهنته»[٢].

وعن عائشة – رضي الله عنها – أن رسول الله ﷺ – خطب الناس يوم الجمعة، فرأى عليهم ثياب النمار[٣]، فقال: «ما على أحدكم إن وجد سعة أن يتخذ ثوبين لجمعته سوى ثوبي مهنته»[٤].

كما يستحب القرب والدنو من الإمام – كما في حديث أوس بن أوس – رضي الله عنه، وغيره.

والعجيب أن كثيراً من الناس إذا جاهد النفس والشيطان، وجاء قبل خروج الإمام إلى الصلاة، ولو بوقت يسير، أدركه الشيطان في اللحظات الأخيرة بحيث تجده إذا دخل المسجد بدل أن يتجه إلى روضة المسجد خلف الإمام ويمينه تجده يبحث عن مكان يستند فيه على سارية من سواري المسجد أو على حائط من حيطانه ولو كان في مؤخرة المسجد، أو يقبع في زاوية من زواياه، أو يتجه إلى جهة اليسار مع خلو جهة اليمين، أو يتجه إلى نهاية الصف مع خلو وسطه، ونحو ذلك، ولا شك أن هذا من تقديم الأدنى على ما هو خير، ومن انتهاز الشيطان الفرصة لحرمان الإنسان من الأجر أو تقليله ما أمكن. وقد قال عز وجل: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١].

فالمؤمن إذا دخل المسجد ضيف على أكرم الأكرمين وأجود الأجودين في بيت من بيوت الله – عز وجل – ينبغي أن يحرص على أن يكون في أحب بقعة إلى الله – عز وجل – في المسجد، وهي روضة المسجد خلف الإمام، إن أمكنه ذلك، وإن لم يمكنه ذلك فعن يمين الإمام، فإن لم يمكن فعن يساره، فإن لم يجد مكاناً في الصف الأول ففي الصف الثاني على نحو ما تقدم، وإلا ففي الصف الثالث وهكذا.

وإن من العجيب والغريب عدم مراعاة كثير من الناس لهذه المعاني، وزهدهم في القرب من الله وابتغاء مرضاته ومحابه، لأن هذه المعاني من تعظيم الله عز وجل وتعظيم الصلاة ومن كمال الصلاة، وتمام أجرها. ولاشك أن هذا من الجفاء وينقص من أجورهم

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٤٢٠.
(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة – اللبس للجمعة ١٠٧٨، وابن ماجه في إقامة الصلاة – الزينة يوم الجمعة ١٠٩٥.
(٣) ثياب النمار: ثياب يلبسها الأعراب.
(٤) أخرجه ابن ماجه في إقامة الصلاة ـ الزينة يوم الجمعة ١٠٩٦.

بقدر جفوتهم وجفائهم.

ولله المثل الأعلى – لو أن إنساناً استضاف مجموعة من الناس، فلما دخلوا عليه جلسوا عند الباب، أو في مؤخرة المجلس، وأبوا القرب إلى مقدمة المجلس، لعُدَّ هذا من الجفاء في دنيا الناس فكيف لا يعد جافياً من يجلس في مؤخرة المسجد وفي الصفوف المتأخرة، وأطراف الصفوف تاركاً المنافسة والمسارعة والمسابقة إلى فضل الله، وزيادة الأجر في روضة المسجد وأوائل الصفوف وميامنها وقد قال ﷺ: «لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا»[1].

وفي المقابل تجد بعضاً من الناس يأتي متأخراً فيتخطى رقاب الناس وهم جلوس أثناء الخطبة وقبلها، ويخترق الصفوف بسرعة عند إقامة الصلاة مفرقاً بين الناس ليصل إلى ما أمكنه من الصفوف الأُوَل غير مراع آداب الصلاة والمساجد، وشعور إخوانه المصلين، يريد ـ بزعمه ـ فضل الصفوف الأول، فيرتكب منهياً بأذاه للمصلين وقد قال ﷺ وهو يخطب للذي جاء متأخراً وأخذ يتخطى رقاب الناس: «اجلس فقد آذيت وآنيت»[2].

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ أي: انتهت الصلاة وفرغ منها.

﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: تفرقوا فيها.

﴿وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أي: اطلبوا من فضل الله، وفضل الله: ما عنده عز وجل من الزيادة والإفضال، والمراد به هنا فضل الرزق الدنيوي بالبيع والشراء ونحو ذلك.

فأمرهم عز وجل أولاً بالسعي للاجتماع للصلاة، وترك البيع، ثم أمرهم بعد قضاء الصلاة بالتفرق في الأرض وطلب الرزق من الله.

وفي الأمر بطلب الرزق – مع أنه أمر جبل عليه الإنسان – إشارة إلى أن التحريم للبيع في وقت الصلاة لا يمثل حرجاً، فصلوا ثم انتشروا وبيعوا واشتروا. وإشارة إلى أن الشرع إذا منع من شيء أباح أشياء، وأن الأصل في الأشياء الحل.

قال ابن كثير[3]: «لما حجر عليهم في التصرف بعد النداء وأمرهم بالاجتماع، أذن لهم بعد الفراغ بالانتشار في الأرض والابتغاء من فضل الله، فنهاهم أولاً عن البيع بعد النداء،

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٦١٥، ومسلم في الصلاة ٤٣٧، والنسائي في المواقيت ٥٤٠، والترمذي في الصلاة ٢٢٥ – من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن ماجه في إقامة الصلاة ١١١٥ – من حديث جابر بن عبد الله – رضي الله عنه.

(٣) في «تفسيره» ٨/١٤٩.

ثم أمرهم بعد قضاء الصلاة بالانتشار في الأرض والابتغاء من فضله على سبيل الإباحة والرخصة لأن الأمر بعد الحظر يفيد الإباحة والرخصة والله عز وجل يحب أن تؤتى رخصه كما جاء في الحديث»[1].

وكان طائفة من السلف يعمد إلى البيع والشراء في هذا الوقت اتباعاً لأمر الله عز وجل وطلبا لبركة هذا الوقت.

عن عراك بن مالك – رضي الله عنه – أنه إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد، فقال: «اللهم أجبت دعوتك وصليت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين»[2].

وروي عن بعض السلف أنه قال: «من باع واشترى في يوم الجمعة بعد الصلاة بارك الله له سبعين مرة لقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾»[3].

﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي: واذكروا الله ذكراً كثيراً بتسبيحه وتحميده وتهليله وتكبيره وغير ذلك حال انتشاركم في الأرض وابتغائكم الرزق من الله وحال بيعكم وشرائكم وفي جميع أحوالكم وتقلباتكم، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣].

أي: إنكم وإن كنتم خرجتم من ذكر الله عز وجل في خطبة الجمعة وصلاتها فاستمروا على ذكر الله ولا تنقطعوا عن ذكر الله حتى في حال طلبكم الرزق، ولا تشغلكم الدنيا عن ذكر الله – عز وجل.

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «من دخل سوقاً من الأسواق، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير كتب له ألف ألف حسنة، ومحي عنه ألف ألف سيئة»[4].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

---

(١) أخرجه أحمد ٢/١٠٨ – من حديث ابن عمر – رضي الله عنهما – أن النبي ﷺ قال: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته».

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/٣٣٥٦.

(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/١٤٩.

(٤) أخرجه الترمذي في الدعوات – ما يقول إذا دخل السوق ٣٤٢٨، وابن ماجه في التجارات والأسواق ودخولها ٢٢٣٥، وأحمد ١/٤٧ – من حديث عمر بن الخطاب – رضي الله عنه.

سبب النزول:

عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: «قدمت عير المدينة ورسول الله ﷺ يخطب، فخرج الناس، وبقي اثنا عشر رجلاً، فنزلت: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾»[1].

وفي رواية عن جابر - رضي الله عنه - قال: «بينا رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة، فقدمت عير إلى المدينة، فابتدرها أصحاب رسول الله ﷺ حتى لم يبق مع رسول الله ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو تتابعتم، حتى لم يبق منكم أحد لسال بكم الوادي ناراً» ونزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾. وقال: كان في الاثني عشر الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ أبو بكر وعمر رضي الله عنهما»[2].

وعن جابر - رضي الله عنه - أنهم كانوا إذا نكحوا تضرب الجواري بالمزامير، فيشتد الناس إليهم ويدعون رسول الله ﷺ قائماً، فنزلت هذه الآية»[3].

وقد قيل إن هذه القصة وقعت لما كان الرسول ﷺ يقدم الصلاة على الخطبة روى ذلك أبو داود في مراسيله[4].

قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾.

الواو: استئنافية. والضمير «الواو» يرجع إلى الصحابة الذين كانوا أمامه ﷺ وهو يخطب، وفي الآية شيء من المعاتبة لهم - رضي الله عنهم.

والتجارة: اسم يقع على عقود المعاوضات التي يطلب بها الأرباح كالبيع والشراء ونحو ذلك.

والمراد بها هنا: العير التي قدمت المدينة تحمل البضائع.

﴿أَوْ لَهْوًا﴾ قيل: إنهم كانوا يستقبلون التجارة بالطبل والتصفيق، وقيل مع هذه التجارة طبل.

﴿انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ أي: خرجوا إليها. والضمير يعود إلى التجارة، لأنها هي المقصودة بالخروج، واللهو تبع لها. والمعنى انفضوا إلى ذلك ﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ أي: وتركوك قائماً تخطب، أو قائماً في الخطبة.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الجمعة ٩٣٦، ومسلم في الجمعة قول الله تعالى: ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً ﴾ ٨٦٣، والترمذي في التفسير ٣٣١١، وأحمد ٣/ ٣١٣.

(٢) أخرجه أبو يعلى فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٥٠.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٦٤٨ - بإسناد صحيح، وأخرجه أبو عوانة في صحيحه فيما ذكره الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» ٣/ ٧٦.

(٤) انظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ١٥٠.

ويؤخذ من هذا أن الخطيب يكون قائماً، كما في الحديث: «كانت للنبي - ﷺ - خطبتان يجلس بينهما يقرأ القرآن ويذكر الناس»(١).

﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾ أي: قل لهم يا محمد الذي عند الله من الأجر والثواب العظيم في الجنة خير وأفضل من اللهو والتجارة.

﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي: انه عز وجل هو الرازق والرزاق وحده، والرزق كله بيده، فاعبدوه، واطلبوا الرزق منه في وقته، وتوكلوا عليه كما قال عز وجل ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] وليس معنى ذلك أن هناك رازقاً غير الله، بل هو الرازق والرزاق وحده كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الحج: ٥٨].

وإنما قد يكون بعض المخلوقين سبباً للرزق فقط أما الرازق والرزاق حقاً فهو الله عز وجل مسبب الأسباب وهذا مثل قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]. فالخالق حقاً هو الله عز وجل، كما قال عز وجل ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

الفوائد والعبر:

١ ـ تنبيه المؤمنين بأهمية الخطاب الموجه إليهم بتصديره بالنداء، وتشريفهم وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان حثاً على الاتصاف بهذا الوصف وامتثال ما بعد هذا النداء من أمر ونهي.

٢ ـ وجوب السعي إلى صلاة الجمعة وخطبتها بعد النداء الثاني لها وترك البيع بعد ذلك وأن في ذلك الخير كل الخير لمن لديه علم ينتفع به.

٣ ـ مشروعية الانتشار والتفرق في الأرض بعد قضاء صلاة الجمعة وطلب الرزق من الله وذكر الله بتسبيحه وتحميده وتكبيره وتهليله وغير ذلك في جميع الأوقات، والوعد بالمجازاة على ذلك بالفلاح والسعادة في الدارين.

٤ ـ العتاب اللطيف للمؤمنين الذين خرجوا وتركوا الرسول ﷺ قائماً يخطب لما رأوا التجارة واللهو.

٥ ـ أن المشروع في الخطبة أن يكون الخطيب قائماً.

٦ ـ أن ما عند الله من الأجر والثواب العظيم في الجنة خير وأفضل من اللهو ومن التجارة، ومن الدنيا بحذافيرها.

٧ ـ أن الأرزاق كلها بيد الله ـ عز وجل ـ وهو خير الرازقين.

---

(١) أخرجه مسلم في الجمعة – ذكر الخطبتين قبل الصلاة وما فيهما من الجلسة ٨٦٢، وأبو داود في الصلاة ١٠٩٤، والنسائي في الجمعة ١٤١٨ من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه.

تفسير سورة المنافقون

سبب النزول

عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فأصاب الناس شدة، فقال عبد الله بن أبي لأصحابه: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله. وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. فأتيت النبي ﷺ فأخبرته بذلك. فأرسل إلى عبد الله بن أبي فسأله فاجتهد يمينه ما فعل فقالوا: كذب زيد يا رسول الله. فوقع في نفسي مما قالوا حتى أنزل الله تصديقي في ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾. قال: ودعاهم رسول الله ﷺ ليستغفر لهم، فلووا رؤوسهم. وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ قال: كانوا أجمل شيء»[1].

وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة، فكسع[2] رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين. فقال رسول الله ﷺ: «ما بال دعوى الجاهلية؟ دعوها فإنها منتنة» وقال عبد الله بن أبي بن سلول - وقد فعلوها - والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. قال جابر: وكان الأنصار بالمدينة أكثر من المهاجرين حين قدم رسول الله ﷺ ثم كثر المهاجرون بعد ذلك، فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال النبي ﷺ: «دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»[3].

وروى ابن إسحاق في قصة بني المصطلق في غزوة المريسيع - قال: «فبينا رسول الله ﷺ مقيم هناك، اقتتل على الماء جهجاه بن سعيد الغفاري، وكان أجيراً لعمر بن الخطاب، وسنان بن وَبْر. قال: ازدحما على الماء فاقتتلا، فقال سنان: يا معشر الأنصار. وقال الجهجاه: يا معشر المهاجرين - وزيد بن أرقم ونفر من الأنصار عند عبد الله بن أبي فلما سمعها قال: قد ثاورونا في بلادنا. والله ما مثلنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل: «سمن كلبك يأكلك» والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم أقبل على

---

(1) أخرجه البخاري في تفسير سورة المنافقون ٤٩٠٣. ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم ٢٧٧٢، والترمذي في تفسير سورة المنافقون ٣٣١٢، وأحمد ٤/ ٣٦٨ - ٣٦٩، ٣٧٣، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٦٥٥ - ٦٥٧.

(2) أي: ضربه.

(3) أخرجه البخاري في تفسير سورة المنافقون ٤٩٠٥، ومسلم في البر - نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً ٢٥٨٤، والترمذي في التفسير ٣٣١٥، وأحمد ٢/ ٣٩٢ - ٣٩٣، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٦٦١ - ٦٦٢.

من عنده من قومه وقال: هذا ما صنعتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو كففتم عنهم لتحولوا عنكم من بلادكم إلى غيرها. فسمعها زيد بن أرقم، فذهب بها إلى رسول الله ﷺ وهو - غُلَيِّمٌ - وعنده عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فأخبره الخبر، فقال عمر - رضي الله عنه -: يا رسول الله، مر عبّاد بن بشر فليضرب عنقه. فقال ﷺ: «فكيف إذا تحدث الناس - يا عمر - أن محمداً يقتل أصحابه؟ لا، ولكن ناد يا عمر في الرحيل».

فلما بلغ عبد الله بن أبي أن ذلك قد بلغ رسول الله ﷺ أتاه فاعتذر إليه، وحلف بالله ما قال ما قال عليه زيد بن أرقم - وكان عند قومه بمكان - فقالوا: يا رسول الله، عسى أن يكون هذا الغلام أوهم، ولم يثبت ما قال الرجل.

وراح رسول الله ﷺ مهجراً في ساعة كان لا يروح فيها، فلقيه أسيد بن الحضير فسلم عليه بتحية النبوة، ثم قال: والله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح فيها، فقال رسول الله ﷺ: «أما بلغك ما قال صاحبك ابن أبي؟ زعم أنه إذا قدم المدينة أنه سيخرج الأعز منها الأذل». قال: فأنت يا رسول الله العزيز وهو الذليل. ثم قال: يا رسول الله ارفق به، فوالله لقد جاء الله بك، وإنا لننظم له الخرز لِنُتَوِّجه، فإنه ليرى أن قد استلبته ملكاً.

فسار رسول الله ﷺ بالناس حتى أمسوا، وليلته حتى أصبحوا، وصدر يومه حتى اشتد الضحى، ثم نزل بالناس ليشغلهم عما كان من الحديث، فلم يأمن الناس أن وجدوا مس الأرض فناموا، ونزلت سورة المنافقين»[(١)].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾

قوله: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ «إذا» ظرفية شرطية. والخطاب في «جاءك» للنبي ﷺ، وفيه تشريف وتكريم له ﷺ.

---

(١) انظر «السيرة النبوية» لابن هشام ٣/ ٣٠٣ - ٣٠٥، «تفسير ابن كثير» ٨/ ١٤٥ - ١٥٥.

و﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ جمع منافق، وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، سموا بذلك أخذاً من نافقاء «اليربوع» وهو دويبة صغيرة أكبر من الفأرة، يتخذ جحراً في الأرض، ويجعل في آخره النافقاء ليس بينها وبين سطح الأرض سوى قشرة رقيقة جداً، فإذا داهمه عدو من باب جحره ضرب هذه النافقاء برأسه وخرج. فأخذ النفاق والمنافقون من هذا المعنى. وذلك أن المنافق يظهر الإيمان ويبطن الكفر، وإذا لقي المؤمنين قال: إنه مؤمن، وإذا لقي غير المؤمنين من المنافقين وغيرهم قال: أنا معكم، وقولي للمؤمنين أنا مؤمن مجرد استهزاء بهم، فيتخلص بهذا من ملامة هؤلاء وهؤلاء قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٤، ١٥]. كما قال تعالى عنهم هنا ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾.

وقوله ﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ اي: قالوا قولاً ظاهراً بألسنتهم ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ على وجه الكذب والنفاق منهم، زاعمين مواطأة قلوبهم لما نطقت به ألسنتهم.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ فلا حاجة إلى شهادتهم هذه الشهادة الظاهرة ووسط هذه الجملة بين قولهم ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ وبين الرد عليهم بقوله ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ للدلالة على عدم الحاجة لشهادتهم وأن قولهم ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ في حد ذاته حق وصدق، وإن كانوا لا يعتقدون ذلك.

﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ اللام للتوكيد، أي: والله يشهد إن المنافقين لكاذبون في قولهم ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ لأنهم لا يعتقدون صحة ما يقولون، بل يُكذّبون برسالته وبما جاء به من عند الله ولا يشهدون أن محمداً رسول الله كما أنهم لا يشهدون أن لا إله إلا الله على الحقيقة.

فقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ مع ان هذا امر معلوم للرسول ﷺ ذكر – والله أعلم – من باب المقابلة لقوله ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ فرد الله عليهم بأمرين: علمه عز وجل بأن محمداً ﷺ رسوله، وشهادته عز وجل بكذب المنافقين في زعمهم أنهم يشهدون أنه رسول الله.

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾

اي: جعلوا (ايمانهم) وهي: جمع يمين، اي: حلفهم – ﴿جُنَّةً﴾ اي: ستراً ووقاية لدمائهم وأموالهم وأعراضهم، لتسلم من القتل والسلب والاستحلال، كما حصل من عبد الله بن أبي وغيره، لأن من دخل في الإيمان عُصم دمه وماله وعرضه، فهم كما قال

تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة: ٥٦] «جنة» من الاجتنان، وهو الاستتار، ومنه سمي «الجنان» وهو القلب لأنه مستتر، وسمي «الجن» لأنهم مستترون، وسمي «المجن» لأنه يستتر به، وتتقى به السهام، ويقال: جَن الليل. أي: ستر الكون بظلامه وهكذا.

﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: فاعرضوا بأنفسهم عن سبيل الله، أي: عن طريقه ومنهجه ودينه، وصدوا غيرهم فاغتر بهم من لا يعرف حقيقة أمرهم، فصدقهم فيما يقولون واقتدى بهم فيما يفعلون، مع ما هم عليه من خبث القول والعمل، ولهذا قال:

﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: إنهم ساء وقبح الذي كانوا يعملون، أو عملهم، من الكفر والشهادة بالكذب، والاتقاء بالأيمان الكاذبة والصد عن سبيل الله، فمن قلدهم فيما يقولون ويفعلون صدوه عن الإيمان بالله وطريقه، لأنهم لا يعملون إلا سيئاً.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ الإشارة لما حصل منهم من أعمال سيئة، أي: إنهم إنما حصل لهم ما حصل من النفاق والشهادة بالكذب واتخاذ الأيمان وقاية وسوء العمل، بسبب تذبذبهم، وأنهم آمنوا وصدقوا ظاهراً بألسنتهم وجوارحهم الظاهرة، وكفروا وجحدوا باطناً في قلوبهم، أو أنهم نطقوا بالشهادة وقاموا بالأعمال الظاهرة ثم كفروا بأن ظهر منهم من الأقوال والأفعال ما يدل على كفرهم، كما قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤] أي: وظهر كفرهم بعد إسلامهم، وكقوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦].

وأيضاً آمنوا، أي: نطقوا بالإيمان عند المؤمنين، ثم كفروا، أي: نطقوا بالكفر عند شياطينهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

فهم أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر. وقيل آمنوا ثم ارتدوا.

﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: فختم على قلوبهم بسبب كفرهم ونفاقهم بعد إيمانهم.

﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: فهم بسبب ذلك الطبع على قلوبهم ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا فقه لديهم، ولا علم ولا فهم ولا معرفة يهتدون بها إلى طريق الحق والخير.

قال ابن كثير[1]: «أي: فلا يصل إلى قلوبهم هدى، ولا يخلص إليها خير، فلا تعي ولا تهتدي».

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٥١.

﴿۞وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾، الواو: عاطفة، و«إذا» ظرفية شرطية. والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له أي: وإذا شاهدتهم يا نبي الله، وإذا شاهدتهم أيها المشاهد ﴿تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ أي: تعجبك أجسامهم لطولها وضخامتها، واستواء خلقها، وجمالها ونضارتها وحسن أشكالها وصورها.

﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ أي: وإن يتكلموا تصغ أنت ومن يسمعهم لكلامهم لبلاغتهم وفصاحة ألسنتهم ظانا صدقهم لأنهم ذوو فصاحة ولسن كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٩].

﴿كَأَنَّهُمْ﴾ أي: كأنهم في أجسامهم التي تعجب الناظر لها ﴿خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾. «خشب» جمع خشبة، وهي ما يقتطع من سيقان بعض الأشجار الكبيرة كأشجار الأثل وغيرها.

﴿مُّسَنَّدَةٌ﴾ أي: مسندة على جدار أو على شجر أو غير ذلك، أو: إلى شيء يسندها، لأنه لا يمكن أن تعتمد على نفسها، وهي في هذه الحال لا ينتفع بها بل هي ثقل على ما أسندت إليه، فهم كذلك مع كون أجسامهم تعجب الناظر إليها بشكلها ونضارتها لا يستطيعون الاعتماد على أنفسهم، ولا نفع فيهم ولا شفع أشبه بالأخشاب المسندة على الجدران، وخضراء الدمن، والطبول الجوفاء، صور بلا حقائق.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان عبد الله بن أبي وسيماً جسيماً صحيحاً صبيحاً ذلق اللسان، فإذا قال: سمع النبي ﷺ مقالته»[1].

قال الطبري[2]: «لا خير عندهم، ولا فقه لهم، ولا علم، وإنما هم صور بلا أحلام، وأشباح بلا عقول».

وقال ابن كثير[3]: «فهم جهامات وصور بلا معاني».

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ يظنون كل هيعة، وكل واقعة كائنة أنها نازلة بهم، وأنهم المقصودون بها، لريبهم ونفاقهم وخبثهم وسوء ظنهم وضعف يقينهم وجبنهم وخورهم وشدة خوفهم كما يقال: «كاد المريب أن يقول خذوني» فإذا صاح صائح، أو نادى مناد في العسكر أو في المدينة أو هنا أو هناك لأي أمر ظنوه إيقاعاً بهم، وخافوا من افتضاح

---

(١) انظر «الجامع لأحكام القرآن» ١٨/ ١٢٤ – ١٢٥.
(٢) في «جامع البيان» ٢٢/ ٦٥٣.
(٣) في «تفسيره» ٨/ ١٥٢.

نفاقهم، أو أن ينزل بهم ما يبيح دماءهم وأموالهم، فهم دائماً في خوف وقلق كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩]. ففقدوا الأمن والطمأنينة وأحاطت بهم المخاوف من كل جانب بسبب نفاقهم وعدم إيمانهم، وصدق الله العظيم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن للمنافقين علامات يعرفون بها: تحيتهم اللعنة، وطعامهم نُهبة، وغنيمتهم غلول، ولا يقربون المساجد إلا هُجْراً، ولا يأتون الصلاة إلا دُبْراً، مستكبرين، لا يألفون، ولا يؤلفون، خُشُبٌ بالليل، صُخُبٌ أو سُخُبٌ بالنهار»(١).

﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ أي: هم العدو الحقيقي، الكاملون في العداوة لك وللمؤمنين لأن العدو البارز أهون من العدو الذي لا يشعر به، وهو مخادع ماكر، يزعم أنه ولي وهو العدو المبين كما قال تعالى عن الشيطان: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨، ٢٠٨، الأنعام: ١٤٢].

﴿فَٱحْذَرْهُمْ﴾ أي: كن منهم على حذر ويقظة، واحتراز واحتياط، ولا تغتر بظاهرهم وزعمهم الإيمان والأخوة للمؤمنين فهم أشد عداوة للرسول ﷺ وللمؤمنين من جميع الكفار، وضررهم على المؤمنين أشد من الكفار الظاهرين لأن الكفار الظاهرين يُعرفون ويُحترز منهم أما المنافقون فهم بين ظهراني المؤمنين، ويصعب الاحتراز منهم. ولشدة عداوتهم وخطرهم على المؤمنين كان عذابهم أشد من جميع الكفار كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٥].

ولهذا يقدم ذكرهم في باب الوعيد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠] وقال تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٧٣].

قال ابن القيم (٢): «هذا من إثبات الأولوية والأحقية لهم في هذا الوصف، وأنه لا يتوهم بانتسابهم إلى المسلمين ظاهراً وموالاتهم لهم ومخالطتهم إياهم أنهم ليسوا

---

(١) أخرجه أحمد ٢/٢٩٣: قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٩/٢٢٣: «رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني، ورجالهم رجال الصحيح». ومعنى «هجراً» أي: إعراضاً وتركاً، و«دبراً» أي: في آخرها وآخر وقتها. خشب بالليل: أي: كأنهم خشب ملقاة على الأرض، وهو كناية عن أنهم لا يُصلون في الليل، صُخُبٌ أو سُخُب بالنهار: أي: يكثر صخبهم وصياحهم بالنهار على الدنيا شحاً وحرصاً.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/٤٥٣.

بأعدائهم، بل هم أحق بالعداوة ممن باينهم في الدار، ونصب لهم العداوة، وجاهرهم بها، فإن ضرر هؤلاء المخالطين لهم المعاشرين لهم، وهم في الباطن على خلاف دينهم أشد عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة والزم وأدوم، لأن الحرب مع أولئك ساعة، أو أياماً، ثم ينقضي ويعقبه النصر والظفر، وهؤلاء معهم في الديار والمنازل، صباحاً ومساءً، يدلون العدو على عوراتهم، ويتربصون بهم الدوائر، ولا يمكن مناجزتهم فهم أحق بالعداوة من المباين المجاهر، فلهذا قيل: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ لا على معنى أنه لا عدو لكم سواهم، بل على معنى أنهم أحق بأن يكونوا لكم عدواً من الكفار المجاهرين».

﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ اي: اهلكهم ولعنهم الله واخزاهم كيف يُصرفون عن الحق وإلى أي وجه يُصرفون عن الحق مع البيان وقيام البرهان وهو حكم من الله عليهم بالهلكة، وتعليم لعباده وأمر لهم أن يدعوا عليهم بذلك.

الفوائد والعبر:

١ ـ تشريف الله ـ عز وجل ـ لرسوله ﷺ وتكريمه له وعنايته به ودفاعه عنه.

٢ـ إثبات علم الله ـ عز وجل ـ أن محمداً رسوله، فلا حاجة لشهادة المنافقين الكاذبة.

٣ ـ فضح سرائر المنافقين وشهادة الله ـ عز وجل ـ وهو خير الشاهدين ـ بكذبهم في زعمهم أنهم يشهدون أن محمداً رسول الله.

٤ ـ تستر المنافقين بأيمانهم الكاذبة وقاية لأنفسهم وأموالهم وصدهم عن سبيل الله وبئس الصنيع صنيعهم.

٥ ـ تذبذب المنافقين بإظهارهم الإيمان وقيامهم بالأعمال الظاهرة وكفرهم وجحودهم في الباطن.

٦ ـ معاقبة المنافقين بسبب نفاقهم وتذبذبهم بالختم على قلوبهم فلا يفقهون ولا يعلمون ما ينفعهم.

٧ ـ حسن مظهر المنافقين وكلامهم مما يعجب المشاهد ويبهر السامع مع سوء مخبرهم فهم أشبه بالخشب المسندة والطبول المجوفة.

٨ ـ قلق المنافقين وشدة خوفهم وريبتهم، وظنهم أن كل صيحة عليهم.

٩ ـ أن المنافقين هم العدو الحقيقي للرسول ﷺ وللمؤمنين وللإسلام لأنهم بين ظهراني المؤمنين فهم اشد وأخطر من الكفار الظاهرين فيجب الحذر كل الحذر منهم.

١٠ ـ لعن المنافقين وإهلاكهم لعظيم خطرهم وشرهم والتعجب من انصرافهم عن الحق مع البيان وقيام البرهان.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝﴾

قوله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ﴾ الواو: عاطفة و«إذا» ظرفية شرطية غير عاملة، و«قيل» فعل الشرط، وجوابه «لووا».

وقوله: ﴿قِيلَ لَهُمْ﴾ بالبناء للمجهول، ولم يقل: وإذا قال الله لهم، أو قال لهم رسوله، أو قال لهم المؤمنون ليشمل أي قائل لهم.

﴿لَهُمْ﴾ أي: للمنافقين، وعلى رأسهم زعيمهم عبد الله بن أبي رأس المنافقين.

﴿تَعَالَوْاْ﴾ أي: هلموا وأقبلوا.

﴿يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي: يطلب لكم رسول الله من الله مغفرة ذنوبكم، بسترها عن الخلق والتجاوز عن عقوبتها.

﴿لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ﴾ قرأ نافع وروح بتخفيف الواو الأولى، وقرأ الباقون بتشديدها. وقراءة التخفيف على أنهم فعلوا ذلك مرة واحدة، وقراءة الباقين تدل على تكرارهم ذلك.

ومعنى ﴿لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ﴾ أي: أمالوا رؤوسهم وأعناقهم، وهزوا رؤوسهم استهزاء برسول الله ﷺ.

﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ أي: وشاهدتهم يعرضون بأبدانهم وقلوبهم ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ الواو: حالية. أي: حال كونهم مستكبرين، أي: أن صدودهم وإعراضهم عما قيل لهم إنما سببه استكبارهم وأنفتهم واحتقارهم لما قيل لهم ولمن قاله.

وهكذا يحمل الكبر صاحبه ـ عياذاً بالله ـ على رد الحق والصد والإعراض عنه – كما قال ﷺ: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»[1] أي: رد الحق وازدراء الناس وتنقصهم.

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي: سواء على هؤلاء المنافقين الذين لووا رؤوسهم استكباراً وعناداً واستهزاء سألت الله أن يغفر لهم ذنوبهم، أم لم

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٩١، والترمذي في البر والصلة ١٩٩٩ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. وانظر «جامع البيان» ٢٢/ ٦٥٨.

تساله ذلك ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ أي: لن يستر ذنوبهم ويتجاوز عن عقوبتهم عليها، بل سيفضحهم بها ويعاقبهم عليها كما قال تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠].

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: إن الله لا يوفق القوم الخارجين عن طاعته عز وجل.

فالهداية المنفية عنهم هي الهداية الخاصة بالله – عز وجل – هداية التوفيق والقبول، لا الهداية العامة فقد دلهم الله عز وجل وأرشدهم، هم وغيرهم بكتابه وعلى لسان رسوله ﷺ إلى ما فيه خيرهم، ومن ذلك قوله عز وجل ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ فهذا من إرشادهم لكنهم كما ذكر الله عنهم ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ و﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾.

فبسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله – عز وجل – حرموا هداية التوفيق من الله عز وجل كما قال عز وجل ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٥، ١٥٦].

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ هم، أي المنافقون ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ لإخوانهم من المنافقين، وغيرهم ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ يعني من المهاجرين رضي الله عنهم الذين هاجروا وتركوا ديارهم وأهليهم وأولادهم وأموالهم ابتغاء وجه الله ﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ أي: حتى يخرجوا من المدينة، ويتفرقوا عن رسول الله ﷺ كما قال عبد الله بن أبي – لعنه الله – «لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله» وقال لقومه: «هكذا صنعتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو كففتم عنهم لتحولوا عنكم من بلادكم إلى غيرها»[1].

وكأنهم بهذا القول من أكرم الناس، وهم أبخلهم، وكأنهم المتكفلون بنفقة المؤمنين، ولهذا رد الله عليهم بقوله:

﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ «لله» جار ومجرور خبر مقدم لإفادة القصر والحصر، أي: إن خزائن ملك السموات والأرض وما فيهما من الأموال والأرزاق وغير ذلك له وحده دون سواه، فيؤتي الرزق من يشاء ويمنعه من يشاء، وييسر أسبابه لمن يشاء

---

(١) سبق تخريجه في ذكر سبب نزول السورة.

ويعسرها على من يشاء وهو المتكفل بأرزاق جميع الخلق كما قال عز وجل ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨] ورزق الله لا يجره حرص حريص ولا يرده كراهية كاره، ولو كان أحد يستطيع أن يمنع رزق أحد لمات جل الناس جوعاً، ولما عاش العصفور مع الصقر.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا فقه لهم على الحقيقة إذ كيف يقولون هذه المقالة، التي فحواها أن نفقة من عند رسول الله ﷺ عليهم، وأن خزائن الأرزاق في أيديهم وتحت مشيئتهم.

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ كما قال كبيرهم عبد الله بن أبي: «والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل».

فيقسمون لئن رجعنا وعدنا، يعني من السفر وكان ذلك في غزوة المريسيع ﴿إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ يعني المدينة النبوية مدينة رسول الله ﷺ ﴿لَيُخْرِجَنَّ﴾ اللام واقعة في جواب القسم، أي: والله لئن رجعنا إلى المدينة ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾.

و﴿ٱلْأَعَزُّ﴾ أي: الفريق الذي هو أعز، و«أعز» على وزن «أفعل» اسم تفضيل، أي: الفريق الذي بلغ أعلى درجات العز، ويعنون به أنفسهم. وهم أذل وأخس وأحقر خلق الله وأهونهم على الله وعلى خلقه في الدنيا والآخرة، فحياتهم في الدنيا حياة مادية بهيمية كحياة الحمار، مع الشقاء والتذبذب وفقدان السعادة، ومصيرهم في الآخرة الدرك الأسفل من النار.

﴿مِنْهَا﴾ أي: من المدينة.

﴿ٱلْأَذَلَّ﴾ أي: الفريق الذي هو أذل، و«أذل» على وزن «أفعل» اسم تفضيل، أي: الفريق الذي بلغ أدنى درجات الذل ويقصدون بذلك - أخزاهم الله - الرسول ﷺ وأصحابه. وكما يقال: اعكس تصب، فإن الذي بلغ غاية الذل والمهانة والحقارة هو عبد الله بن أبي وأشياعه من المنافقين، وهل هناك أذل وأحقر ممن كفر بالله، بل وأظهر الإيمان خوفاً من الخلق، فأذله الله. والذي بلغ غاية العز وأفضله ومنتهاه بعد الله - عز وجل - هو رسول الله ﷺ والمؤمنون، ولهذا قال عز وجل:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾

أي: ولله - عز وجل - العزة التامة بجميع معانيها وأنواعها: عزة الامتناع فهو - عز وجل - ممتنع عن كل عيب ونقص، وعزة القهر والغلبة، كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨، ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف:

٢١]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١].

وعزة القوة كما قال – عز وجل -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

فهو – عز وجل – ذو العزة التامة – كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠] وهو عز وجل صاحب العزة كما قال عز وجل ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠][1].

وكل عزة مستمدة من عزته – عز وجل – ولهذا قال هنا ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فعزة الرسول – ﷺ – والمؤمنين من عزة الله عز وجل، لأن العز كل العز بطاعة الله – عز وجل – قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

كما أن الذل كل الذل بمعصية الله – عز وجل – ولهذا لا أذل بعد إبليس من المنافقين، لأنهم بلغوا من المعصية والكفر بالله منتهاه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ولكن المنافقين لا يعلمون حقيقة أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

فنفى عنهم الفقه أولاً، ثم نفى عنهم العلم ثانياً، وهو تدرج في الذم لهم من سيء إلى أسوأ منه، فالذي لا يعقل هو الذي لا يستطيع الفهم والإدراك والاستنباط بعقله، وأسوأ منه الذي لا يعلم فهو مع كونه لا يستطيع الإدراك بعقله لا يستطيع أيضا أن يعلم ويعرف ما أدركه غيره واستنبطه وهذا غاية الغباء والجهل. وأسوأ من هذا الذي لا يشعر فلا يدرك ولا يحس ولا بما تدركه الحواس الظاهرة فهو معدوم الإحساس، كما وصفهم بهذا في سورة البقرة في قوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾[البقرة: ١٢].

وقد روي: «أن عبد الله بن عبد الله بن أبي وقف على باب المدينة واستل سيفه، فجعل الناس يمرون عليه، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبي قال له ابنه: وراءك، فقال: مالك؟ ويلك. فقال: والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ فإنه العزيز وأنت الذليل، فلما جاء رسول الله ﷺ وكان إنما يسير ساقة، فشكا إليه عبد الله بن أبي ابنه، فقال ابنه عبد الله، والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له، فأذن له رسول الله

---

(١) انظر الكلام على قوله ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ في مطلع سورة الحديد.

ﷺ فقال: أما إذ أذن لك رسول الله ﷺ فجز الآن»[١].

وروى ابن إسحاق وغيره: أن عبد الله بن عبد الله بن أبي لما بلغه أمر أبيه أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي، فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي بين الناس، فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر، فأدخل النار فقال رسول الله ﷺ: «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا»[٢].

الفوائد والعبر:

١ ـ تكبر المنافقين وليهم رؤوسهم، وصدودهم وأنفتهم من المجيء إلى الرسول ﷺ ليستغفر لهم وعن قبول الحق والانقياد له.

٢ ـ تيئيس المنافقين من مغفرة الله لهم سواء استغفر لهم الرسول ﷺ أو لم يستغفر لهم.

٣ ـ عدم توفيق الله للمنافقين ولغيرهم من الفاسقين الخارجين عن طاعة الله ـ عز وجل.

٤ ـ محاولة المنافقين الإضرار بالمؤمنين اقتصادياً بمنع الانفاق عليهم ليضطروهم للخروج من المدينة، وكأنهم المتكفلون بأرزاق العباد.

٥ ـ بيان أن خزائن السموات والأرض كلها لله والأرزاق كلها بيده يرزق من يشاء ويحرم من يشاء لكن المنافقين لا يفقهون هذه الحقيقة.

٦ ـ فضح عبد الله بن أبي في مقالته الشائنة «ليخرجن الأعز منها الأذل» وتبنيه مع أتباعه من المنافقين إخراج الرسول ﷺ والمؤمنين من المدينة، وإذلال الله ـ عز وجل له، وتخييب أمله، وإبطال كيده.

٧ـ إثبات أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وأن الذل لمن خالف أمر الله ورسوله من المنافقين وغيرهم، ولكن المنافقين لا يعلمون هذه الحقيقة.

٨ـ أن العز كل العز في طاعة الله تعالى ورسوله، وأن الذل كل الذل في معصية الله ورسوله.

---

(١) انظر «جامع البيان» ٢٢/ ٦٦٢ – ٦٦٣، «تفسير ابن كثير» ٨/ ١٥٩.
(٢) انظر «السيرة النبوية» لابن هشام ٢/ ٢٩٢ – ٢٩٣، «جامع البيان» ٢٢/ ٦٦٩ – ٦٧٠، «تفسير ابن كثير» ٨/ ١٥٩.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝﴾

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله عز وجل فيما سبق من السورة أحوال المنافقين ومواقفهم ومقالاتهم المخزية ثم ختم الله عز وجل السورة بنهي المؤمنين عن الانشغال بالأموال والأولاد عن ذكر الله وأمرهم بالإنفاق مما رزقهم الله قبل حلول الأجل وانقطاع العمل وفي هذا تحذير من مسلك المنافقين وصفاتهم الذميمة وهي الانشغال بالأموال والأولاد، ومنع الإنفاق من رزق الله، لأنهم ينظرون للحياة نظرة مادية فقط.

وفي هذا إشارة إلى عدم الأمن من النفاق قال عبد الله بن أبي مليكة: «أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخشى على نفسه من النفاق»، وقال بعض السلف: «ما أمن النفاق إلا منافق» ولهذا روي أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه سأل حذيفة بن اليمان ـ صاحب سر رسول الله ﷺ ـ قائلاً له «هل عدني لك رسول الله من المنافقين»؟

قوله: ﴿لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ﴾ أي: لا تشغلكم أموالكم، وهي كل ما يتمول من دراهم وعقار وأثاث وغير ذلك ﴿وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ﴾ أي: ولا تشغلكم أولادكم. والأولاد يشمل أولاد الإنسان وأولاد بنيه، وإن نزلوا بمحض الذكور.

﴿عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ عام في جميع أنواع ذكر الله من الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد وقراءة القرآن والتسبيح والتحميد والثناء على الله عز وجل، والتهليل والتكبير، ودعاء الله واستغفاره والتضرع إليه، وسائر أعمال البر والخير كلها من الواجبات والمستحبات، من أذكار القلب واللسان والجوارح، والأذكار القولية والفعلية وغيرها. لأن بالذكر حياة القلوب، فهو لها كالماء للزرع، وكالماء للسمك لا حياة له إلا به.

قال ابن القيم[1]: «المقصود: أن دوام الذكر لما كان سبباً لدوام المحبة وكان الله سبحانه أحق بكمال الحب والعبودية والتعظيم والإجلال كان كثرة ذكره من أنفع ما للعبد، وكان عدوه حقاً هو الصاد له عن ذكر ربه وعبوديته».

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/٤٥٣ – ٤٥٥.

وقدم الأموال على الأولاد – والله أعلم – لأنها تشغل أكثر إذا كثرت عند الإنسان ـ والناس يختلفون في هذا ـ لكن المنشغلين بالأموال أكثر من المنشغلين في الأولاد، ولأن الأموال كثيراً ما تشغل عن ذكر الله وعن الأولاد أيضاً أي: عن تربيتهم وتعليمهم وتوجيههم، فكم من والد انشغل عن أولاده بسبب أمواله وأعماله.

وأيضاً فإن الانشغال بالأولاد قد ينتهي بكبر الأولاد، لكن الانشغال بالمال يزداد مع كثرته وازدياد الحرص عليه مع الكبر وحتى القبر.

فالمال فتنة وأي فتنة، لأن زيادته تكون غالباً على حساب نقصان الدين، ونقصان نصيب الإنسان من ربه، هذا إذا كان من طرق حلال فكيف إذا كان من طرق محرمة أو مشتبهة في الأسهم وغيرها مما يجعل الإنسان قلقاً طول حياته ـ وما خلقنا لهذا، اللهم غفراً.

وقد أحسن القائل:

زيــادة المرء في دنياه نقصــان ... وربحه غير محض الخير خسران
وكل وجدان حظ لا ثبات له ... فإن معناه في التحقيق فقــدان
يا عامراً لخراب الدهر مجتهداً ... تالله هل لخراب الدهر عمران
ويا حريصاً على الأموال يجمعها ... أنسيت أن سرور المال أحزان
زع الفؤاد عن الدنيا وزخرفها ... فصفوها كدر والوصل هجران[1]

وخص الأموال والأولاد في قوله ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ لأنهما من أعظم ما يلهي عن ذكر الله. كما قال عز وجل: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]. ولهذا قال تعالى: ﴿لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٠، ١١٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ [التوبة: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ﴾ [الإسراء: ٦٤].

وقد يلتهي الإنسان بغير الأموال والأولاد من حب الرياسة والشهرة والمناصب والرياضة وغير ذلك مما ينتظمه قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١] أي: ألهاكم التكاثر في الأموال والأولاد وغير ذلك.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الواو: استئنافية، و«من» شرطية و«يفعل» فعل الشرط، وجوابه جملة ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ وارتبط الجواب بالفاء لأنه جملة اسمية.

---

(١) الأبيات لأبي الفتح البستي.

والإشارة في ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى المصدر المفهوم من قوله ﴿لا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾. أي: ومن يلته وينشغل بالأموال والأولاد عن ذكر الله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

أي: فأولئك الذين يلتهون بالأموال والأولاد عن ذكر الله ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ و«الخاسرون» جمع خاسر والخسر والخسران: ضد الربح، وقد أكد الجملة هنا بكونها اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم» أي: فأولئك هم الخاسرون حقاً، الذين غُبنوا حظوظهم من كرامة الله عز وجل ورحمته وفضله، والذين بلغوا الغاية العظمى في الخسارة، وهي الخسارة في الدين التي لا تشبهها خسارة فخسروا السعادة في الدنيا والآخرة، وخسروا الجنة والنعيم المقيم في الآخرة، لأنهم آثروا ما يفنى على ما يبقى.

قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

فالخسارة العظمى، والمصيبة الكبرى، والكسر الذي لا ينجبر أن يصاب الإنسان في دينه نسأل الله السلامة. وقد أحسن القائل:

وكل كسر فإن الله يجبره ... وما لكسر قناة الدين جبران

وأي خسارة كخسارة من ألهته الأموال والأولاد عن ذكر الله الذي أمر الله عز وجل بالإكثار منه كما قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، والذي به يذكر الله العبد كما قال عز وجل ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، والذي هو سبب الفلاح والمغفرة، والأجر العظيم، كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥، الجمعة: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

والذي يحوز صاحبه قصب السبق قال ﷺ: «سبق المفردون» قالوا: يا رسول الله، وما المفردون؟، قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات»[1].

والذي هو خير الأعمال وأزكاها – كما في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ذكر الله تعالى»[2].

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ـ الحث على ذكر الله تعالى ٢٦٧٦، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات ـ فضل الذكر ٣٣٧٧، وابن ماجه في الأداب ـ فضل الذكر ٣٧٩٠، والحاكم ١/ ٤٩٦
=

﴿وَأَنفِقُواْ﴾ أي: وأنفقوا أيها المؤمنون في سبل الخير كلها من النفقات الواجبة والمستحبة، من الزكاة والنفقة على الأهل والأولاد وفي الحج، والصدقة على الفقراء والمساكين والمحتاجين، وفي أعمال البر والخير من بناء المساجد، وتعليم كتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ وغير ذلك من العلوم النافعة، وفي بناء المدارس ومراكز الخدمات الصحية والاجتماعية وفتح الطرق وتعبيدها وحفر الآبار، وغير ذلك من وجوه البر والخير وما أكثرها.

﴿مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ «من» للتبعيض و«ما» موصولة، أو مصدرية أي: من الذي زرقناكم، أو من رزقنا إياكم – والرزق هو العطاء. أي: مما أعطيناكم من الأموال.

وفي هذا حث لهم على الإنفاق والبذل والعطاء والسخاء في ذلك، لأن الرزق من الله – عز وجل – والمال ماله – عز وجل – وهو عارية بيد الإنسان فلِمَ البخل به ومنعه وهو عز وجل الرزاق الذي يخلف على من أنفق، كما قال عز وجل ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

وفي الحديث: «اللهم أعط منفقاً خلفاً وأعط ممسكاً تلفا»[1]

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: من قبل حضور الموت، بحضور علاماته وأماراته، وحلول سكراته كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨].

والموت: هو عبارة عن خروج الروح من البدن ومفارقتها له.

﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ﴾ أي: هلا اجلتني فيكون استفهاماً، وقيل «لا» صلة، فيكون الكلام بمعنى التمني.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ جواب «لولا» أي: إلى زمان قريب، أي: قليل.

والمعنى: فيقول يا رب هلا اجلتني وأخرت موتي إلى أجل ووقت قريب، أي: هلا زدت في عمري شيئاً يسيراً، لأستدرك ما فات.

﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ اصله (فأتصدق) ادغمت التاء في الصاد، أي: فأتصدق من مالي.

﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ قرأ ابو عمرو ﴿ واكونَ ﴾ بالواو ونصب النون، وقرأ الباقون

=

وصححه ووافقه الذهبي.

(١) سبق تخريجه.

بجزم النون من غير واو.

والمعنى: فأتصدق وأنفق من مالي، وأعمل أعمالاً صالحة، واستعتب واستدرك ما ضاع من عمري بلا عمل، في هذه المدة اليسيرة. وهيهات، ولات ساعة مندم، ما بعد حضور الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار كما قال عز وجل عن الكفار ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

فكل مفرط يود إعطاءه مهلة ليتدارك ما فات ويستعتب من الخطأ والتقصير حتى أهل النار يودون الرجوع إلى الدنيا مع أنهم لو رجعوا لعادوا لما نهوا عنه كما قال عز وجل ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨].

وحتى الذين يتمنون عند الموت المهلة لو أعطيت لهم ما أجابوا الدعوة ولا اتبعوا الرسل ولا أنفقوا ولا عملوا صالحاً لأن الله لو علم فيهم صدقاً فيما يقولون لوفقهم إلى التدارك قبل حضور الموت.

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ أي: ولن يؤجل الله نفساً وينظرها إذا حضر أجلها، لأن الآجال محدودة، والأنفاس معدودة، كما قال عز وجل ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤، النحل: ٦١]، وقال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ [الحجر: ٥، المؤمنون: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٤]. وهذا لا ينافي ما جاء في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه»[1].

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لها: «إنه من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة، وصلة الرحم وحسن الجوار يعمران الديار، ويزيدان في الأعمار»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع ٢٠٦٧، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٥٧، وأبو داود في الزكاة ١٦٩٣.

(٢) أخرجه أحمد ٦/١٥٩.

وكذا ما جاء في معنى هذين الحديثين لأنه ليس معنى ذلك أن يزاد في العمر أو ينقص منه، بعد ما كتب وقدر ولكن معنى ذلك أن الله كتب أن هذا يبسط له في رزقه ويطول عمره بسبب صلته لرحمه، وأنه أيضاً يبارك الله لمن فعل ذلك في رزقه وعمره، وفي عقبه وذريته كما في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: ذكرنا عند رسول الله ﷺ الزيادة في العمر، فقال: «إن الله لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها، وإنما الزيادة في العمر أن يرزقه الله ذرية صالحة، يدعون له، فيلحقه دعاؤهم في قبره»(1)

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم ﴿ بما يعملون ﴾ بالياء، وقرأ الباقون بالتاء ﴿ بما تعملون ﴾ و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: والله خبير بالذي تعملون، أو بعملكم و«الخبير» المطلع على بواطن الأمور، فهو أخص من العليم، وإذا كان مطلعاً على البواطن فاطلاعه على الظواهر من باب أولى. فهو عز وجل عليم بأعمال العباد باطنها وظاهرها خفيها وجليها دقيقها وجليلها، لا تخفى عليه خافية، وسيجازي كلاً بعمله، المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

الفوائد والعبر:

١ ـ تصدير خطاب المؤمنين بالنداء للتنبيه لهم والعناية بخطابهم والاهتمام به.

٢ ـ نداء المؤمنين بوصف الإيمان تشريفاً وتكريماً لهم وحثاً على الاتصاف بهذا الوصف، ووجوب امتثال ما بعد هذا النداء من أمر واجتناب ما بعده من نهي.

٣ ـ التحذير من الانشغال بالأموال والأولاد عن ذكر الله وما يقرب إلى الله.

٤ ـ أن الخاسرين حقاً من انشغلوا عن ذكر الله ـ عز وجل ـ وطاعته بالأموال والأولاد وغير ذلك.

٥ ـ الأمر بالإنفاق في سبيل الله بإخراج النفقات الواجبة من الزكاة والنفقة على الأهل والأولاد وغير ذلك، وبالنفقات المستحبة والصدقات المندوبة في وجوه البر كلها.

٦ ـ الحث والترغيب في المبادرة إلى الإنفاق في سبيل الله ووجوه البر قبل حضور الموت وعلاماته.

٧ ـ تذكير الإنسان بأن ما عنده من مال هو من رزق الله وأن المال مال الله ـ عز وجل ـ وهو وديعة عند الإنسان فلا ينبغي أن يبخل بالإنفاق منه.

٨ ـ سؤال كل مفرط بالإنفاق والعمل الصالح وتمنيه عند حضور الموت لو أمهل إلى أجل قريب ليستعتب ويتدارك ما فات بالصدقة والعمل الصالح ولكن هيهات ذلك.

٩ ـ إثبات ربوبية الله العامة لجميع الخلق، وأن لكل أجل كتاباً ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها.

١٠ ـ سعة خبرة الله ـ عز وجل ـ وعلمه واطلاعه على أعمال العباد، ومجازاته كلاً منهم بما عمل، وفي هذا وعد لمن أحسن، ووعيد لمن أساء.

---

(1) أخرجه ابن أبي حاتم فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٦٠.

تفسير سورة التغابن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤)﴾.

قوله: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ سبق الكلام على هذا.

وقد ختم الله - عز وجل - السور المسبحات بهذه السورة، وهن خمس سور: الحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن.

وأشبهها بمطلع هذه السورة سورة الجمعة ففيها قوله ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وفي سورة الحديد ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وفي سورة الحشر والصف ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ قدّم الخبر وهو الجار والمجرور للدلالة على اختصاصه عز وجل وحده دون غيره بالملك حقيقة، لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الاختصاص والحصر. أي: له - عز وجل - الملك، ملك السموات والأرض وما بينهما، الخلق خلقه والأمر أمره، وهو مالك الملك وحده، له ملك الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقال تعالى ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١].

ويظهر ويتبين كمال ملكه وتمامه يوم القيامة يوم تخضع الأملاك والملوك وما ملكوا له - عز وجل - ولهذا قال تعالى: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [الحج: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٢٦].

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع والأرضين على إصبع والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]»[1].

لا شريك له في ذلك كله كما قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ [الإسراء: ١١١] وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ [الفرقان: ٢].

﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ قدم الخبر وهو الجار والمجرور لإفادة الحصر والاختصاص أي: وله عز وجل وحده الحمد التام، كما قال عز وجل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١، غافر: ٦٥].

والحمد: وصف المحمود بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم، فله ـ عز وجل ـ الحمد في الدنيا والآخرة – كما قال عز وجل – ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]. وله الحمد في السموات والأرض وفي جميع الأوقات كما قال عز وجل: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٨] وله حمد جميع ما في السموات والأرض من جميع المخلوقات.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: وهو سبحانه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء صغيراً كان أو كبيراً، قليلاً كان أو كثيراً، خفياً كان أو جلياً، أو أياً كان هذا الشيء، وقدم هذا على الخبر ﴿قَدِيرٌ﴾ وهو متعلق به لتأكيد قدرته على كل شيء.

و«قدير» على وزن «فعيل» يدل على أنه – عز وجل – ذو القدرة التامة، فلا يعجزه شيء. كما قال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

و «القدير» من أسمائه ـ عز وجل.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ أي: هو الذي أوجدكم وأنشأكم من العدم وعلى غير مثال سابق، وحده دون سواه. وأصل الخلق: التقدير، ثم التنفيذ والإيجاد[2].

﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ قدم الكافر على المؤمن ـ والله أعلم ـ لأن الكفار هم الكثرة الكاثرة كما في قوله تعالى ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦]، وذلك ـ والله أعلم إشارة وتنبيه على وجوب الحذر من مسلكهم.

أي: فمنكم أيها الناس كافر قدراً وكونا. والكفر هو جحود وجود الله وربوبيته

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨١١، ومسلم في صفة القيامة ٢٧٨٦، والترمذي في التفسير ٣٢٣٨.

(٢) انظر الكلام على قوله تعالى في سورة الحشر ﴿ هو الله الخالق البارئ المصور ﴾ [الآية: ٢٤].

والوهيته وأسمائه وصفاته وشريعته أو شيء من ذلك، ضد الإيمان.

﴿وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ أي: ومنكم أيها الناس ﴿مُّؤْمِنٌ﴾ قدراً وشرعاً، والإيمان هو الإيمان بالله، بوجوده وربوبيته والوهيته وأسمائه وصفاته وشريعته وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وبكل ما يجب الإيمان به مما جاء في الكتاب والسنة.

وفي الآية دلالة على أن الله عز وجل قدر مقادير كل شيء قبل خلق الخلق ومن ذلك الكفر والإيمان كما جاء في الحديث «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة»[1].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع أو باع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع أو باع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»[2].

وليس في تقدير الكفر على الكافرين، والإيمان للمؤمنين حجة لمن كفر أو عصى، لأن الله عز وجل أقام الحجة على الخلق بإرسال الرسل وإنزال الكتب وبيان الحق من الباطل والهدى من الضلال، والإنسان لا يعلم ما قدر له، فمن بحث عن الهدى والإيمان وتحراه وفق له، ومن أعرض عن ذلك وبحث عن الكفر والشر يسر له كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ١٠].

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: والله بالذي تعملون أو بعملكم ﴿بَصِيرٌ﴾ أي: مطلع عليه لا تخفى عليه منه خافية وفي هذا وعد ووعيد، وعد لمن آمن ووعيد لمن كفر.

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: أوجد السموات والأرض بالحق والعدل والحكمة فقامت السموات والأرض وقام الكون كله على الحق والعدل والحكمة والغاية المقصودة له عز وجل قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥].

﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾ أي: صور أشكالكم وخالف بينها.

---

(١) أخرجه مسلم في القدر ٢٦٥٣، والترمذي في القدر ٢١٥٦ - من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في القدر ٦٥٩٤، ومسلم في القدر ٢٦٤٣، وأبو داود في السنة ٤٧٠٨، والترمذي في القدر ٢١٣٧، وابن ماجه في المقدمة ٧٦.

﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ جعلها أحسن المخلوقات صورة وأجملها وأبهاها منظراً، فلم يجعلها على صور قبيحة سيئة كصورة القرد أو الحمار، أو غير ذلك، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦ - ٨]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: وإليه وحده - عز وجل - المرجع والمآل والمآب في الدنيا والآخرة - كما قال عز وجل ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾ [الرعد: ٣٦].

﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يعلم جميع الذي في السموات والأرض من الكائنات والمخلوقات فعلمه محيط بكل شيء - كما قال عز وجل - ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أي: ويعلم الذي تسرون وتخفون والذي تعلنون وتظهرون، أو يعلم إسراركم وإعلانكم، أي: إخفاءكم وإظهاركم.

وقدم عز وجل علمه بما يسرون على علمه بما يعلنون، تأكيداً لشمول علمه وعدم خفاء شيء عليه سبحانه، فالسر عنده كالعلانية كما قال عز وجل ﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ [الممتحنة: ١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ [الأعلى: ٧]، وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ [إبراهيم: ٣٨].

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: والله عليم بصاحبة الصدور، وهي القلوب التي في الصدور قال عز وجل: ﴿وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

أي إنه - عز وجل - ذو علم تام بالقلوب وما تنطوي عليه من المكنونات والأسرار كما قال عز وجل: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠] وقد أكد عز وجل في هذه الآية كمال علمه وشموله لكل شيء متدرجاً من العام إلى الخاص إلى ما هو أخص منه فذكر أولا علمه بما في السموات والأرض، ثم عطف عليه علمه بما يسرون وما يعلنون، ثم عطف عليه علمه بذات الصدور فبدأ بذكر علمه العام، ثم عطف عليه بذكر علمه الخاص، ثم عطف عليه بذكر علمه بأخص الخاص وهو العلم بذات الصدور وفي هذا بيان لإحاطة علمه - عز وجل - بكل شيء، ووجوب مراقبته في السر والعلن.

الفوائد والعبر:

١ ـ تسبيح جميع ما في السموات وما في الأرض لله ـ عز وجل.

٢ ـ اختصاص الله ـ عز وجل ـ بالملك وحده دون غيره فله عز وجل الملك والأمر والتدبير.

٣ ـ أن الحمد التام لله عز وجل هو المستحق له وحده دون سواه.

٤ ـ إثبات كمال قدرة الله ـ عز وجل ـ وأنه سبحانه ذو القدرة التامة على كل شيء.

٥ ـ امتنان الله ـ عز وجل ـ على الخلق وبيان تمام قدرته في خلقهم ونفوذ قدره الكوني فيهم فمنهم كافر ومنهم مؤمن.

٦ ـ إثبات اسم الله ـ عز وجل ـ «البصير» وإحاطة علمه ـ عز وجل ـ واطلاعه وبصره بجميع أعمال العباد ومجازاتهم عليها.

٧ ـ خلق الله عز وجل السموات والأرض بالحق، وإقامته هذا الكون على العدل.

٨ ـ نعمة الله ـ عز وجل ـ على بني آدم بجعل صورهم أحسن الصور وأبهاها منظراً، وأعدلها خلقة.

٩ ـ أن المرجع والمصير والمآب إلى الله ـ عز وجل ـ منه البداية وإليه النهاية.

١٠ ـ سعة علم الله ـ عز وجل ـ وإحاطته بما في السموات والأرض وبما يخفي الخلائق وبما يعلنون وبما تنطوي عليه القلوب والضمائر، وفي هذا وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝﴾.

في هتين الآيتين تهديد وتحذير للمكذبين الكافرين من هذه الأمة بذكر أخبار المكذبين قبلهم وعقوباتهم وعذابهم.

قوله ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ الهمزة للاستفهام، أي: ألم يأتكم خبر الذين كفروا من قبل من الأمم الماضية كقوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وغيرهم والخطاب لعموم الناس الذين بعث فيهم نبينا محمد ﷺ، والنبأ: الخبر الهام كما في قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١، ٢].

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: الذين كفروا بالله وكذبوا رسله ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبلكم ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي: فتجرعوا ومسهم عقوبة كفرهم وتكذيبهم الوخيمة وما حل بهم من العذاب والنكال والخزي الدنيوي.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: ولهم مع هذا العقاب الدنيوي ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة بالنار، و«أليم» «فعيل» بمعنى «مفعل» أي: مؤلم موجع حسياً للأبدان، ومؤلم موجع معنوياً ونفسياً للقلوب.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ﴾ أي: ذلك العقاب الدنيوي الذي حل بالذين كفروا من قبلهم والعذاب الأخروي الذي توعدوا به بسبب أنه ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالحجج والبراهين والدلائل القاطعات، لإقامة الحجة عليهم.

﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ الاستفهام للإنكار والاستكبار، أي: فقالوا استكباراً وإنكاراً أن يكون المرسل إليهم ومن يدلهم على طريق الهداية بشراً مثلهم، ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ أي: ليس لهم فضل علينا، فلماذا خصهم الله دوننا، كما قال قوم صالح عليه السلام ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ۝ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٤، ٢٥].

وهذا منهم على سبيل العناد والاستكبار، وإلا فكون الرسول بشراً من جنسهم هو الأقرب لهدايتهم، وبه إقامة الحجة عليهم، إذ لو كان ملكاً لادعوا أنه ليس منهم، بل للزم أن يكون على هيئة رجل ليفهموا منه خطابه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

فمقتضى الحال أن يكون الرسول منهم إقامة للحجة عليهم، ولهذا قال الرسل لأقوامهم ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم:

١١] وقال تعالى ممتناً على العباد: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ [إبراهيم: ٤].

﴿فَكَفَرُواْ﴾ جحدوا وكذّبوا بما جاءتهم به رسلهم من البينات ﴿وَّتَوَلَّواْۚ﴾ أعرضوا عن الحق بقلوبهم وأبدانهم ﴿وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ﴾ أي: اظهر غناه عنهم، وعن إيمانهم به وبرسله لأنه لا تنفعه طاعة المطيع، ولا تضره معصية العاصي كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً»[١].

﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾ أي: غني عن جميع خلقه، له الغنى التام المطلق من جميع الوجوه، الذي غناه من لوازم ذاته سبحانه الذي له ملك السموات والأرض وخزائنهما بيده.

﴿حَمِيدٌ﴾ في أقواله وأفعاله وأوصافه، محمود عند جميع خلقه على غناه وإفضاله وجوده وكرمه وإنعامه عليهم.

الفوائد والعبر:

١ ـ الوعيد والتهديد والتحذير للمكذبين والكافرين من هذه الأمة بذكر أخبار المكذبين الكافرين من الأمم قبلهم وعقوبات الله لهم وما أعد لهم من العذاب الأليم في الآخرة والسعيد من وعظ بغيره.

٢ ـ أن الكبر والعناد من أعظم أسباب رد عوة الرسل والكفر بما جاؤوا به من الآيات البينات والتولي عن الحق.

٣ ـ غنى الله ـ عز وجل ـ عن من تولى وأعرض عن طاعته لأنه ـ عز وجل ـ لا تنفعه طاعة المطيع كما لا تضره معصية العاصي.

٤ ـ إثبات اسمين من أسماء الله ـ عز وجل ـ وهما «الغني» و «الحميد» وما يدلان عليه من إثبات صفة الغنى الكامل له عز وجل وأنه ـ عز وجل ـ الحميد في أقواله وأفعاله وأوصافه المحمود عند جميع خلقه على غناه وإفضاله وكرمه وجوده وإنعامه عليهم.

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٧٧، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٩٥، وابن ماجه في الزهد ٤٢٥٧ من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلْنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحٗا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾

قوله: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ﴾ «زعم» أي: ادعى وأكثر ما يستعمل الزعم بالادعاء الكاذب. قال ابن عمر رضي الله عنهما: «زعم: كنية الكذب» (١).

وفي الحديث: «بئس مطية الرجل زعموا» (٢).

أي: زعم وادعى الذين كفروا وجحدوا ما جاءتهم به رسل الله من المشركين والملحدين وغيرهم أنهم لن يبعثوا من قبورهم أحياءً بعد موتهم كما قال عز وجل عنهم: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدٗا﴾ [الكهف: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ كقوله تعالى في سورة يونس ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ﴾ [الآية: ٥٣]، وقوله تعالى في سورة سبأ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [الآية: ٣٠].

فهذه ثلاثة مواضع في القرآن الكريم أمر الله بها رسوله ﷺ أن يقسم على أن البعث حق.

ومعنى قوله ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ أي: قل لهم يا محمد مقسماً لهم بربك، و«بلى» بمعنى: نعم.

والواو في قوله ﴿وَرَبِّي﴾ واو القسم، والمقسم به هو «الرب» عز وجل والياء للمتكلم.

﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾ اللام واقعة في جواب القسم، أي: والله لتبعثن، أي: لتخرجن من قبوركم أحياء بعد موتكم.

﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ «ثم» حرف عطف، «لتنبئون» معطوف على «لتبعثن» فاللام فيه للقسم، أي: ثم والله ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ أي: لتخبرن بالذي عملتم أو بعملكم من خير

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/٩.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب ـ باب في قول الرجل: «زعموا» ٤٩٧٢، وأحمد ١١٩/٤، ٤٠١/٥ من حديث أبي مسعود الأنصاري وحذيفة رضي الله عنهما.

وشر، وتحاسبون وتجازون على ذلك.

﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ الإشارة تعود إلى مصدر الفعلين ﴿لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ أي: بعثكم وإخباركم بأعمالكم ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: هين سهل، لأن الله لا يعجزه شيء، ولا عسير عليه سبحانه وتعالى. فالذي خلق وأوجد من العدم قادر على إعادة الخلق من باب أولى، بل ذلك عليه أهون كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥].

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر وجملة ﴿فَـَٔامِنُوا۟﴾ في محل جزم جواب الشرط المقدر، أي: إن كان الأمر كذلك في أن البعث والإنباء بالأعمال حق ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾.

والخطاب للمشركين المكذبين بالبعث، والأمر للوجوب فيجب الإيمان بالله وبرسوله محمد ﷺ والنور الذي أنزله الله وهو القرآن الكريم.

والإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته والإيمان بالرسول شهادة أنه محمد رسول الله، وذلك بطاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع.

﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ وهو القرآن الكريم كما قال عز وجل ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

وقوله: ﴿أَنزَلْنَا﴾ فيه إثبات علو الله على خلقه، لأن الإنزال يكون من أعلى إلى أسفل، كما أن فيه إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله عز وجل غير مخلوق، خلافاً للمعتزلة ومن سلك مسلكهم.

فمن آمن بالله ورسوله والنور الذي أنزله الله عز وجل سار في هذه الحياة على هدى ونور من الله في أقواله وأفعاله وجميع تصرفاته، وسلم من الحيرة والقلق والتذبذب، وأحس بطعم الإيمان وطعم الحياة على منهج الله - عز وجل - وسعد في دنياه وأخراه، هدوء وطمأنينة، حزم في أداء الواجبات من حقوق الله وحقوق الخلق، وفي البعد عن المنهيات، شكر في حال السراء، وصبر في حال الضراء «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته

ضراء صبر فكان خيراً له»[١].

وصدق الله العظيم حيث يقول في الحديث القدسي: «وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»[٢].

فما بالك يا أخي بمن كان الله له بهذه المثابة هذا منتهى العز وغاية السعادة والشرف والسؤدد والحياة الكريمة في الدنيا والآخرة. نسأل الله الهداية والتوفيق.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: والله بعملكم أو بالذي تعملون ﴿خَبِيرٌ﴾ أي: ذو خبرة واطلاع على عملكم، باطنه وظاهره، دقيقه وجليله، خفيه وجليه، لا تخفى عليه منه خافية وسيحاسبكم ويجازيكم عليه.

وقدّم هنا المتعلق ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ لتاكيد علمه عز وجل بجميع أعمالهم ما بطن منها وما ظهر.

وفي الأمر بالإيمان بالله ورسوله والنور الذي أنزله وتأكيد علمه عز وجل باعمالهم توكيد لما سبق في الآية قبله من تقرير البعث والحساب، أي: فانقطعت حجة منكري البعث فلم يبق من سبيل للنجاة إلا الإيمان بالله ورسوله والنور الذي أنزله الله.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ قرأ يعقوب «نجمعكم» بالنون، وقرأ الباقون بالياء.

وهذا من تأكيد البعث والحساب، فأمر عز وجل رسوله ﷺ بأن يقسم للذين كفروا بأن البعث والحساب حق ثم أمر عز وجل بالإيمان به وبرسوله والنور الذي أنزله لأهمية ذلك لأنه السبب للنجاة في ذلك اليوم ثم أكد أحقية البعث فقال: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾.

﴿يَوْمَ﴾ مفعول به لفعل محذوف، تقديره: اذكر، ويوم الجمع هو يوم القيامة، وسمي يوم الجمع لأن الله يجمع فيه الخلائق كلهم أولهم وآخرهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٢٥]، وقال تعالى:

---

(١) اخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٩٩، والدارمي في الرقاق ٢٧٧٧ من حديث صهيب رضي الله عنه.

(٢) اخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٠٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ٧]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الجاثية: ٢٦]. وقال ﷺ في حديث أبي هريرة الطويل: «يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد يُسْمعهم الداعي وينفذهم البصر»[1].

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة ليوم الجمع يوم القيامة، وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيماً له.

﴿يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ أي: اليوم الذي يظهر فيه التغابن الحقيقي بين الخلق و«التغابن» تفاعل من «الغبن» بمعنى النقص والخسارة وفي الحديث: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ»[2].

فالغبن الحقيقي بين الناس يظهر ذلك اليوم، فمن مستظل تحت ظل الرحمن، ومن ملجم بالعرق إلجاما، ومن معطى كتابه بيمينه، ومن معطى كتابه بشماله، ومن مار على الصراط كالبرق أو الريح أو كأجاود الخيل، ومن حاب عليه حبواً، ومن مكردس في النار. ومن شارب من الكوثر والتسنيم، ومن شارب من الحميم.

يظهر الغبن الحقيقي عندما يُخلَّد أناس في الجنان والنعيم، ويُخلَّد آخرون في النيران والجحيم، يظهر الغبن عندما يرى المؤمن مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً، ويرى الكافر مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة[3].

يظهر الغبن عندما يأخذ أناس حسنات أناس آخرين ويضعون عليهم من سيئاتهم

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء: ٣٣٤٠، ومسلم في الإيمان ـ باب أدنى أهل الجنة منزلة ١٩٤، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٣٤.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤١٢، والترمذي في الزهد ٢٣٠٤، وابن ماجه في الزهد ٤١٧٠ ـ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل النار يرى مقعده من الجنة، فيقول: لو أن الله هداني ليكون عليهم حسرة، قال: وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار، فيقول لولا أن الله هداني، قال: فيكون له شكراً»، أخرجه أحمد ٢/٥١٢، ٥٤١، وفي حديث علي رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة، فقال: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة، ومقعده من النار... » الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٤٥، ومسلم في القدر ٢٦٤٧، وأبو داود في السنة ٤٦٩٤، والترمذي في القدر ٢١٣٦، وابن ماجه في المقدمة ٧٨.

بسبب المظالم، ويظهر الغبن عندما يرفع أقوام إلى أعلى عليين، ويرد أناس إلى أسفل سافلين.

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعاً فما الضدان يجتمعان[1]

فليس الغبن والخسارة خسارة مال، أو أهل، أو ولد، أو جاه أو منصب، أو صحة أو حياة بل الغبن أعظم وأشد من ذلك، بل هو غبن لا يتصور، فكم من شخص لا يذوق غمضاً إذا غبن في صفقة، أو خسر في تجارة، أو نزلت قيمة الأسهم لكنه لسوء حظه وعدم توفيقه تفوته صلاة الجماعة أو بعضها فلا يتأثر لذلك بل الأمر عنده سواء، أدركها أو لم يدركها، وهكذا غيرها من الواجبات، والحقوق لأنه لا يحسب للغبن الحقيقي (يوم التغابن) أيّ حساب.

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝١٠﴾

صلة الآيتين بما قبلهما:

في هتين الآيتين تفسير الغبن وتصويره في أعظم صورة إذ لا غبن أعظم على الكافرين من إدخالهم النار وتخليدهم في العذاب، بينما يدخل المؤمنون الجنة ويخلدون في النعيم.

قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ الواو: استئنافية و«من» شرطية، و«يؤمن» فعل الشرط، وجوابه ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾.

ومعنى ﴿يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ يؤمن بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وآياته وشرعه

﴿وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ أي: ويعمل عملاً صالحاً، وحذف الموصوف، واكتفى بذكر الصفة «صالحاً» لأن المهم في العمل كونه صالحاً.

ويكون العمل صالحاً إذا توفر فيه شرطان: الإخلاص لله عز وجل ومتابعة الرسول ﷺ كما قال عز وجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥] أي: أخلص لله، وهو متبع ما جاء به الرسول ﷺ.

فإن كان العمل فيه شرك لغير الله فهو باطل، قال تعالى في الحديث القدسي: «من

---

(١) البيت لابن القيم ضمن القصيدة النونية ص١١.

عمل عملا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»[١].

وإن كان العمل على غير ما جاء به الرسول ﷺ فهو مردود قال ﷺ «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[٢].

وفي رواية «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[٣].

﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِۦ﴾ أي: يمحو ويزيل عنه سيئاته ويتجاوز عن عقوبته عليها و«سيئات» جمع سيئة، وهي الذنوب والمعاصي، وسميت بذلك لأنها تسوء صاحبها في الحال والمآل، كما تسوء غيره في الحال إما مباشرة إن كانت متعدية، وإما بآثارها السيئة إن كانت غير متعدية قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

﴿وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ﴾ معطوف على قوله ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِۦ﴾.

وذكر تكفير سيئاته أولاً، ثم عطف عليه إدخاله الجنة، لأن التخلية قبل التحلية.

و«جنات» جمع جنة، فللمؤمن أكثر من جنة، كما قال عز وجل ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وذكر صفاتهما، ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢] وذكر صفاتهما.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أم الربيع بنت البراء، وهي أم حارثة بن سراقة أتت النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله الا تحدثني عن حارثة وكان قتل يوم بدر، أصابه سهم غرب[٤]، فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء، قال: «يا أم حارثة إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى»[٥].

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ صفة لـ«جنات» أي: تجري من تحت أشجارها ومساكنها وغرفها الأنهار المختلفة، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ «خالدين» حال، وجمع باعتبار معنى «من» أي: مقيمين فيها

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٨٥، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠٢ ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الأقضية ١٧١٨ ـ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري في الصلح ٢٦٩٧، ومسلم في الأقضية ١٧١٨، وأبو داود في السنة ٤٦٠٦، وابن ماجه في المقدمة ١٤ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) أي: سهم طائش لا يدرى من اين أتى.

(٥) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٧٠٩، والترمذي في التفسير ٣١٧٤.

إقامة أبدية لا تحول ولا تزول، فلا هم يفنون، ولا يخرجون منها، ولا هي تفنى. وهذا باتفاق المسلمين - نسأل الله من فضله.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ﴾ الإشارة لتكفير سيئات من آمن بالله وعمل صالحاً وإدخاله الجنات وخلوده الأبدي فيها وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيماً له.

و«الفوز» هو الفلاح والنجاح والظفر بالمطلوب والنجاة من المرهوب.

﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ كماً وكيفاً، والذي لا يقدر قدر عظمته إلا الذي وصفه بأنه عظيم وهو العظيم سبحانه وتعالى.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: جحدوا وأنكروا آياتنا الكونية والشرعية وكذبوا بها.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أشار إليهم بإشارة البعيد تحقيراً لهم.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أهلها وساكنوها وملازموها.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مقيمين فيها إقامة أبدية لا يتحولون عنها ولا يخرجون منها كما قال عز وجل ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧] وقال عز وجل: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧]. وقال تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥].

إلى غير ذلك من الآيات فالنار لا تفنى، ولا يفنى عذابها ولا أهلها على الصحيح من أقوال أهل العلم وهو قول الجمهور(١).

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: وبئس المرجع والمنقلب النار. وإذا كان الله عز وجل وصف هذا المصير بهذا الوصف فلا يعلم مدى بؤس وقبح هذاالمصير إلا من وصفه بذلك وهو العليم الخبير.

الفوائد والعبر:

١ - تكذيب الكفار بالبعث والمعاد، وزعمهم أنهم لن يبعثوا.

٢ - أمر الله - عز وجل - لنبيه ﷺ بالإقسام لهم بربه على أحقية بعثهم وإخبارهم بأعمالهم ومجازاتهم عليها وأن ذلك على الله يسير.

٣- إثبات ربوبية الله - عز وجل - الخاصة لنبيه ﷺ.

---

(١) سيأتي إن شاء الله تعالى ذكر بقية الأدلة على هذا في الكلام على قوله تعالى في سورة الجن: ﴿ ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا ﴾ [الآية: ٢٣].

٤ ـ وجوب الإيمان بالله ورسوله والقرآن وما فيه من الهدى والنور.

٥ ـ إثبات سعة علم الله ـ عز وجل ـ وخبرته واطلاعه على جميع أعمال العباد والوعد للمؤمنين والوعيد للكافرين.

٦ ـ تأكيد البعث وجمع الخلائق للحساب والجزاء، وذلك يوم الجمع يوم التغابن يوم يظهر حقيقة الربح والخسران.

٧ ـ أن من شرط صحة الإيمان العمل الصالح الذي يتوفر فيه الإخلاص لله ومتابعة الرسول ﷺ، وفي هذا رد على المرجئة.

٨ـ وعد الله ـ عز وجل ـ الذي لا يخلف الميعاد لمن آمن بالله وعمل صالحاً بتكفير سيئاته، وإدخاله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً.

٩ـ عظم ما أعد الله ـ عز وجل ـ لعباده المؤمنين من الثواب والفوز العظيم مما لا يقدر قدره إلا العظيم سبحانه وتعالى.

١٠ ـ الوعيد الشديد والتهديد الأكيد للكفرة المكذبين بآيات الله بالنار وملازمتهم لها وخلودهم فيها، وبئس المصير النار.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝١١ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝١٢ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١٣﴾

قوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ «ما» نافية، ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ «إلا» أداة حصر، ومعنى ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بأمره وإرادته وقدره وقضائه الكوني، لأن الإذن ينقسم إلى قسمين: إذن شرعي، وإذن كوني. والإذن الكوني لا بد من وقوعه وهو بمعنى الإرادة الكونية، ولا يلزم أن يكون محبوباً لله، والإذن الشرعي لا يلزم وقوعه، وهو بمعنى الإرادة الشرعية ولا بد أن يكون محبوباً لله عز وجل، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١] أي: ما لم يشرعه الله.

وهذه الآية كقوله عز وجل في سورة الحديد: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الآية: ٢٢].

فكل ما يقع ويحصل من المصائب في الأرض من جدب وقحط وغرق وحرق وتلف محاصيل وغير ذلك وكل ما يقع من المصائب في الأنفس من أمراض وموت وغير ذلك، كل ذلك وغيره بإذن الله وأمره وقدره الكوني.

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ الواو: عاطفة و«من» شرطية و«يؤمن» فعل الشرط، وجوابه ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾.

قال علقمة: «هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم»[1].

أي: ومن يؤمن بالله عز وجل وقضائه وقدره، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطاه لم يكن ليصيبه، فيرضى ويسلم ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ أي: يوفق قلبه للصبر واليقين والتسليم لأمره، والرضا بقضائه وقدره، والاحتساب، ويعينه على تحمل ما أصابه ويعوضه خيراً في دينه ودنياه وآخرته.

و يهد قلبه أيضاً لزيادة الإيمان والاطمئنان ويوفقه للثبات أمام المصائب والفتن، قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه: أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أي العمل أفضل؟ قال: «إيمان بالله وتصديق به، وجهاد في سبيله». قال: أريد أهون من

---

(١) أخرجه عبد الرازق في «تفسيره» ٢/ ٢٩٥، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ١٢.

هذا يا رسول الله. قال: «السماحة والصبر». قال: أريد أهون من ذلك يا رسول الله. قال: «لا تتهم الله في شيء قضى لك به»(١).

فمن آمن بالله عز وجل وقضائه وقدره خيره وشره انشرح صدره، وسعد واطمأن في حال السراء والضراء، كما قال ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»(٢).

وهذه الدرجة لا يصل إليها إلا من صدق في إيمانه بالله عز وجل، ظاهراً وباطناً، فعلاً للمأمورات واجتناباً للمحظورات، وعلم أن ما يجري في الكون من حركة أو سكون، من مصائب وغيرها إنما ذلك بقدر الله عز وجل، وسأل الله عز وجل على الدوام الهداية والتوفيق للشكر عند السراء، والصبر والتسليم والرضا عند الضراء، وسأل الله الثبات على الحق واللطف في قضائه وقدره، وحسن الختام، فإن الإنسان قد يضعف عندما تتتابه بعض المصائب والمشكلات وقد يضيق بها ذرعاً ويعز عليه الصبر ما لم يتداركه الله بعونه وعنايته وتوفيقه فلا ينبغي أن يغتر أحد بنفسه، أو يثق بعمله، وإنما يثق برحمة أرحم الراحمين، ولطفه سبحانه وتعالى.

فاشدد يديك بحبل الله معتصماً   فإنه الركن إن خانتك أركان

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: أنه عز وجل ذو علم تام بكل شيء أيا كان من المصائب، وأحوال القلوب وغير ذلك كما قال عز وجل ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ الطاعة: الامتثال بفعل أوامر الله عز وجل وترك نواهيه.

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ «ال» في «الرسول» للعهد الذهني، أي: الرسول المعهود محمداً ﷺ وطاعته بفعل ما أمر به ﷺ وترك ما نهى عنه.

وأعاد الفعل ﴿وَأَطِيعُوا۟﴾ ولم يقل: «وأطيعوا الله والرسول» إشارة إلى أن طاعة الرسول ﷺ تجب استقلالا بمعنى أن طاعته تجب فيما أمر به مما لم يأت في القرآن الكريم.

وفي هذا رد على الذين يدعون إلى الأخذ بالقرآن وحده واطراح السنة مصداق ما أخبر به الرسول ﷺ كما جاء في حديث المقدام بن معد يكرب: «رب رجل جالس على

(١) أخرجه أحمد ٥/٣١٨ - ٣١٩.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٩٩ من حديث صهيب رضي الله عنه.

أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا إنما حرم رسول الله ﷺ مثل ما حرم الله»[١].

﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ أي: فإن أعرضتم عن طاعة الله وطاعة الرسول ﷺ والتولي يكون بالإعراض بالقلب والبدن.

﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط و«إنما» أداة حصر، وهي كافة ومكفوفة، والبلاغ: الوصول إلى الغاية، يقال: بلغ إلى كذا، بمعنى وصل إليه وفي قصة الثلاثة الأبرص والأقرع والأعمى: «فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك»[٢].

والمعنى: وما على رسولنا إلا تبليغ رسالة الله عز وجل إلى الناس والحصر هنا إضافي، أي: ليس عليه فيما يتعلق بهم إلا تبليغهم الرسالة أما هدايتهم فأمرها إلى الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿۞ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] لكن عليه ﷺ الطاعة والامتثال بنفسه.

و«المبين» اسم فاعل، من أبان الشيء، بمعنى أظهره وأوضحه، أي: البلاغ المظهر الموضح لما دعا إليه وبلغه، ومن لازم ذلك أن يكون بيناً في نفسه، فهو بيِّن بنفسه مبيِّن لغيره.

أي: فاعلموا أنما مهمة الرسول ﷺ محصورة ومقصورة في تبليغ الرسالة والدعوة والبلاغ البين الواضح. وقد بلغ ﷺ البلاغ المبين، فبلغ ﷺ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ في هذا إثبات الألوهية والعبودية لله عز وجل وحده، ونفيها عما عداه كما في كلمة وشهادة التوحيد: «لا إله إلا الله» أي: لا معبود بحق إلا الله.

قال ابن كثير[٣]: «خبر عن التوحيد ومعناه معنى الطلب، أي: وحدوا الإلهية له،

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة ـ باب لزوم السنة ٤٦٠٤، ٤٦٠٥، والترمذي في العلم ٢٦٦٣، وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه في المقدمة ١٢، ١٣، وأحمد ٤/ ١٣٠، ١٣٤، وابن حبان في «موارد الظمآن» ٩٧، والحاكم في المستدرك ١/ ١٠٨.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٤٦٤، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦٤ – من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) في «تفسيره» ٨/ ١٦٤.

وأخلصوها لديه».

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ اللام في قوله ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ لام الأمر، وهو للوجوب، وأكد ذلك بتقديم المتعلق، وهو قوله ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: وعلى الله وحده فليعتمد المؤمنون ويفوضوا أمورهم.

والتوكل على الله: التفويض والاعتماد على الله في جلب النفع ودفع الضر، مع تمام الثقة به عز وجل.

﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: المؤمنون كاملو الإيمان، فكلما قوي إيمان العبد وكمل كان توكله أقوى وأكمل، وكلما ضعف إيمانه ضعف توكله، فضعف الإيمان سبب لضعف التوكل، وضعف التوكل دليل على ضعف الإيمان، ولهذا يجمع الله عز وجل بين التوكل والعبادة، وبين التوكل والإيمان وما في معناه، قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

الفوائد والعبر:

١ ـ إثبات قدر الله السابق وأن ما يقع في الكون من مصائب هو بأمر الله ـ عز وجل ـ وتقديره.

٢ ـ أن من آمن بالله ـ عز وجل ـ وقضائه وقدره هدى قلبه وشرح صدره للتسليم والرضا بقضاء الله فاطمأن وسعد في حياته.

٣ ـ علم الله ـ عز وجل ـ بكل شيء.

٤ ـ وجوب طاعة الله ورسوله والتهديد لمن تولى وأعرض عن طاعة الله ورسوله.

٥ ـ أن طاعة الرسول ﷺ تجب استقلالاً بحيث تجب طاعته فيما أمر به أو نهى عنه وإن لم يرد ذلك في القرآن الكريم، وفي هذا رد على من يرون الاكتفاء بالقرآن.

٦ ـ أن مهمة الرسول ﷺ هي تبليغ الرسالة للناس بلاغاً بيناً وقد بلغ ﷺ البلاغ المبين، وهداية القلوب بيد علام الغيوب.

٧ ـ إثبات وحدانية الله ـ عز وجل ـ وتفرده بالألوهية واستحقاق العبودية.

٨ ـ وجوب التوكل والاعتماد على الله ـ عز وجل ـ وأن ذلك شرط لصحة الإيمان.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ قال: فهؤلاء رجال أسلموا من مكة، فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين، فهمّوا أن يعاقبوهم فأنزل الله هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

قوله: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ «إن» للتوكيد و«من» للتبعيض، أي: إن بعض أزواجكم وأولادكم عدواً لكم. ويفهم من هذا أن بعض الأزواج والأولاد ليسوا بأعداء، بل منهم من يكون عوناً على الخير وطاعة الله تعالى.

والأزواج: جمع زوج وهو يطلق على المرأة وزوجها في لغة القرآن الكريم اللغة الفصحى، فيقال: زوج فلانة، وزوج فلان، والمراد هنا الزوجات، أي: إن بعض زوجاتكم وأولادكم عدوا لكم.

والعدو من يريد لك الشر، أو يحملك عليه، أو يكون سببا في منع الخير عنك عن قصد منه أو عن غير قصد فبعض الأزواج أعداء لأزواجهم، وبعض الأولاد أعداء لوالديهم، وذلك من وجوه عدة من أهمها أنهم قد يلتهون بهم عن طاعة الله عز وجل والعمل الصالح كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة التغابن ٣٣٧٣، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ١٤، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٥٨، والحاكم ٢/ ٤٩٠. وقال الترمذي: «حسن صحيح» وقال الحاكم «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي

ومنها أنهم قد يحملونهم على معصية الله ويثبطونهم عن طاعة الله تعالى فقد يتساهل الأزواج والوالدان في ترك بعض الواجبات كترك الهجرة والجهاد وغير ذلك، أو في ارتكاب بعض المنهيات مجاراة لأزواجهم وأولادهم ونزولاً عند رغباتهم فتحملهم العاطفة، أو طلب رضاهم على تقديم محبتهم ورضاهم على محبة الله ورضاه.

وقد يقصر الأزواج أو الوالدان في توجيه أزواجهم وأولادهم وفي حملهم على أداء الواجبات والبعد عن المنهيات، ونحو ذلك فيأثمون بسبب ذلك.

قال ابن القيم[1]: «ليس المراد من هذه العداوة ما يفهمه كثير من الناس أنها عداوة البغضاء والمحادة، بل إنما هي عداوة المحبة الصادة للآباء عن الهجرة والجهاد وتعلم العلم والصدقة وغير ذلك من أمور الدين وأعمال البر... وما أكثر ما فات العبد من الكمال والفلاح بسبب زوجته وولده».

﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ أي: كونوا منهم على حذر. والحذر: الاحتراز والحيطة من الشيء المخيف.

والمعنى: فاحذروهم على دينكم، أو فاحذروهم أن يضروكم في دينكم، أو أن توافقوهم على رغباتهم فيما لا يرضى الله.

قال مجاهد: ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوًّا لَّكُمۡ﴾ قال: «يحمل الرجل على قطيعة الرحم، أو معصية ربه، فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه»[2].

أقول – والله المستعان – كم حمل الأزواج والأولاد أزواجهم ووالديهم ـ كما قال مجاهد رحمه الله ـ على قطيعة الرحم مع الإخوة والأخوات وغيرهم من الأقارب، بل ومع الآباء والأمهات، وكم حملوهم على المعصية، بإدخال آلات اللهو والفساد في البيوت، والسفر إلى بلاد الكفر والإباحية، وأماكن الفساد إرضاء لهم، وكم تهاون الأزواج والوالدان في حمل أزواجهم وأولادهم على الحق وقصرهم وأطرهم عليه، من أداء الواجبات وترك المنهيات، ومن شكر النعم وعدم الإسراف فيها وغير ذلك مجاملة مع أزواجهم وأولادهم، وإرضاء لهم.

﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ العفو: التجاوز عما حصل من الذنب والخطأ، والصفح: تناسي ذلك الذنب والخطأ وترك اللوم والتثريب

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٥٩ – ٤٦٠.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ١٥ – ١٦.

عليه، وهو أعلى من العفو، كما قال يوسف لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]. والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة، لكن حيث قرنت بالعفو والصفح هنا فمعناها: الستر.

والمعنى: وإن تتجاوزوا أيها المؤمنون عما حصل من أزواجكم وأولادكم مما فيه ضرر عليكم في دينكم من حملكم على ترك الهجرة أو الجهاد ونحو ذلك وتتركوا اللوم والتثريب على ذلك، وتستروه.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: فإن الله عز وجل ذو الستر لذنوب عباده والتجاوز عن عقوبتهم عليها، والرحمة الواسعة بهم وبغيرهم.

﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ «إنما» أداة حصر، أي: ما أموالكم وأولادكم إلا فتنة، أي: ابتلاء واختبار لكم.

عن بريدة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يخطب، فجاء الحسن والحسين - رضي الله عنهما - عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه، ثم قال: «صدق الله ورسوله ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما»(١).

والفتنة والابتلاء تكون في الخير والشر كما قال عز وجل: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «لا يقولن أحدكم: اللهم إني أعوذ بك من الفتنة، فإنه ما منكم أحد إلا وهو مشتمل على فتنة، لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، فأيكم استعاذ فليستعذ بالله تعالى من مضلات الفتن»(٢).

فالأموال والأولاد قد تكون شراً وضرراً على الإنسان في دينه ودنياه وآخرته، وقد تكون خيراً.

فالأموال قد تشغل الإنسان وتلهيه عن دينه وطاعة ربه، وهذا كثير في أصحاب الأموال، قال تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١، ٢].

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة ـ الإمام يقطع الخطبة لأمر يحدث ١١٠٩، والنسائي في الجمعة ـ نزول الإمام عن المنبر قبل فراغه من الخطبة وقطعه كلامه ١٤١٣، والترمذي في المناقب ـ مناقب الحسن والحسين ٣٧٧٤، وابن ماجه في اللباس ـ لبس الأحمر للرجال ٣٦٠٠، وأحمد ٥/ ٣٥. وقال الترمذي: «حسن غريب».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١١/ ١١٥ - ١١٦.

فكم فُرّط في الصلاة والزكاة وغيرهما من الواجبات بسبب الانشغال بالأموال وحبها، وكم صلى الإنسان صلاة لا يدري ماذا قال فيها بسبب ذلك، وكم انتهكت المحرمات من الربا والغش والرشوة وأكلت أموال الناس بالباطل من أجل الأموال وحبها، وكم نسي كثير من الناس حقوق الله وحقوق خلقه، ونسوا الموت والحساب والجنة والنار بسببها قال ﷺ «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش»[١].

وكم حمل الأولاد والديهم على التساهل في فعل الواجبات وارتكاب المنهيات كما سبق ذكره.

وفي حديث الأشعث بن قيس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في الأولاد: «فإن فيهم قرة عين وأجرا إذا قبضوا وإنهم لمجبنة محزنة، إنهم لمجبنة محزنة»[٢].

وعن أبي يعلى العامري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الولد ثمرة القلوب، وإنهم لمجبنة مبخلة محزنة»[٣].

قال الزجاج[٤] في كلامه على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾: «وهذا عام في جميع الأولاد، فإن الإنسان مفتون بولده، لأنه ربما عصى الله تعالى بسببه، وتناول الحرام لأجله، ووقع في العظائم إلا من عصمه الله تعالى».

وينبغي أن يتأمل هذا من ابتلي بالفقر والعقم فلا يأسى على ما فاته، ويرضى بما قدّر الله له، ويعلم أن الخيرة فيما اختاره الله، ويحسن الظن بربه ويجزم بأن ما اختاره الله له هو عين الخيرة، فكم من أناس كان سبب شقائهم في الدنيا والآخرة وهلاكهم أموالهم وعلى أيدي أولادهم.

وقد يكون المال مطية للخير إذا وفق صاحبه لاكتسابه من حلال، وصرفه في حلال، وأداء حقوق الله عز وجل فيه، والإنفاق منه في سبل الخير وكما قال ﷺ: «نعم المال الصالح للرجل الصالح»[٥].

---

(١) اخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٨٧، والترمذي في الزهد ٢٣٧٥، وابن ماجه في الزهد ٤١٣٦ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) اخرجه أحمد ٥/ ٢١١.

(٣) اخرجه ابن ماجه في الأدب ٣٦٦٦. وصححه البوصيري، وأخرجه عبد الرزاق في «المصنف» ١١/ ١٤٠، ٢٠١٤٣، والبزار ٢/ ٣٧٨. والحاكم ٢/ ١٦٤ وصححه. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٨/ ١٥٥ «رجاله ثقات».

(٤) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٦١.

(٥) اخرجه أحمد ٤/ ١٩٧، ٢٠٢ ـ من حديث عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه.

كما قد يكون الأولاد عونا على الخير إذا أصلحهم الله وهداهم فيكونون عوناً لوالديهم على أمر الدين والدنيا إلا أن الغالب والمشاهد - وكما هو الظاهر من النصوص - أن الأموال والأولاد كثيراً ما يلحق أهليهم الضرر منهم - إلا من رحم الله - مما يوجب على المرء الاحتراز من أخطار المال وضرره وتبعاته بحيث يجعل المال في يده لا في قلبه وأن يعرف من اين يكتسبه وفيم ينفقه ويؤدي حقوق الله - عز وجل - فيه ويبذل منه هاء وهاء في سبل الخير.

وان يعمل على توجيه أولاده وتربيتهم التربية الصالحة منذ نعومة أظفارهم مع المتابعة في ذلك حتى يبلغوا ويرشدوا مع الدعاء لهم دائماً. وأن يحترز من أن تحمله مجاملتهم أو طلب رضاهم في الوقوع فيما لا يرضي الله، فإن من التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، ومن التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس كما جاء في الحديث(١).

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ اي: والله عنده ثواب عظيم في الدنيا والآخرة فلا ينبغي أن يكون المال والولد سببا لمعصية الله، فإن الله عز وجل عنده ثواب عظيم وفضل كبير لمن أطاعه واتقى الله في ماله وولده في الدنيا والآخرة وأعظم ذلك الجنة، وما فيها من الوان النعيم، فلا ينبغي للمسلم أن يحمله المال على معصية الله عز وجل فإن سلوك الطرق المشروعة في كسب المال وإنفاقه في وجوهه وأداء الحقوق الواجبة فيه والمستحبة سبب لنمائه، والبركة فيه والزيادة من الله عز وجل في الدنيا مع الثواب العظيم في الآخرة.

كما لا ينبغي للمسلم أن تحمله المجاملة مع أولاده والتماس رضاهم فيما يسخط الله، أملا في نفعهم أو دفع شرهم والسلامة من أذاهم، فإن في توجيههم إلى الحق وحملهم عليه والصبر على مجاهدتهم من الثواب العظيم وحسن العاقبة له ولهم في الدنيا والآخرة، وصلاح أحوالهم ما يتضاءل أمامه ذلك المأمول العاجل على حساب رضى الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

---

(٢) اخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها انظر «تيسير العزيز الحميد» ص٤٩٣ واخرجه الترمذي في الزهد ٢٤١٤ بلفظ «من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس».

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أي: فاتقوا الله بفعل ما أمركم به وترك ما نهاكم عنه بقدر جهدكم وطاقتكم واستطاعتكم، كما قال عز وجل ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال عز وجل ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧]. وقال ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه»[(١)].

وعن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: «كنا إذا بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة يقول لنا: فيما استطعتم»[(٢)].

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «سددوا وقاربوا وأبشروا، واعلموا أنه لن يدخل أحَدَكم عملهُ الجنة، وأن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»[(٣)].

فالحمد لله الذي جعل التكليف قدر الوسع والطاقة والاستطاعة فلم يكلف الإنسان ما لا يستطيع، ووضع عن هذه الأمة الأصار والأغلال التي كانت على من قبلهم كما قال عز وجل ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ومن قواعد الشريعة الإسلامية: أن المشقة تجلب التيسير وأن الضرورات تبيح المحظورات، وأن الضرر ممنوع كما قال تعالى: ﴿غَيْرَ مُضَارٍّ﴾ [النساء: ١٢]، وفي الحديث: «لا ضرر ولا ضرار»[(٤)].

وليس في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ما ينافي كون التكليف حسب الوسع والطاقة، لأن معنى ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ أي: قدر استطاعتكم فهو مقيد ومفسر بالآيات والأحاديث التي فيها الأمر بالتقوى قدر الاستطاعة، وليس منسوخاً بها لأن الله لا يأمر بما لا يستطاع.

بل نهى الشرع الحكيم عن الانقطاع للعبادة والتبتل ونحو ذلك، وجعل ذلك ليس من

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام ٧٢٨٨، ومسلم في الحج ١٣٣٧، والنسائي في مناسك الحج ٢٦١٩، والترمذي في العلم ٢٦٧٩، وابن ماجه في المقدمة ٢- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الأحكام ٧٢٠٢، ومسلم في الإمارة ١٨٦٧، وأبو داود في الخراج والإمارة والفيء ٢٩٤٠، والنسائي في البيعة ٤١٨٧، والترمذي في السير ١٥٩٣.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٦٤، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١٨ - من حديث عائشة رضي الله عنها وفي رواية عنها «استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن» أخرجه ابن ماجه في الطهارة وسننها ٢٧٧.

(٤) أخرجه ابن ماجه في الأحكام ٢٣٤٠ من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

الدين في شيء ولهذا رد رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون والنفر الذين معه التبتل وترك الزواج والانقطاع للعبادة بقيام الليل وصيام النهار.

وقال ﷺ: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني»[1].

﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾ أي: واسمعوا لأمر الله ورسوله بآذانكم وقلوبكم.

﴿وَأَطِيعُواْ﴾ أي: انقادوا لذلك بجوارحكم ظاهراً وباطناً كما قال الله عز وجل عن المؤمنين: ﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

وقد عاب الله عز وجل على الذين يسمعون ولا يطيعون قال تعالى عن اليهود: ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾ [النساء: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١] أي: لا يسمعون سماع انتفاع كما قال الله عز وجل ﴿وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿وَأَنفِقُواْ﴾ أي: أنفقوا النفقات الواجبة والمستحبة من الزكوات والنفقة على الأهل والأولاد وعلى المحتاجين من الأقارب وغيرهم، وفي طرق الخير المختلفة.

﴿خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ﴾ أي: خيراً تدخرونه لأنفسكم تجدون أثره الطيب على أنفسكم وأموالكم في حياتكم، وتجدون ثوابه عند الله عز وجل أوفر ما يكون بعد مماتكم كما قال تعالى بعد هذا ﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ﴾ [التغابن: ١٧]، وقال عز وجل: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ﴾ [المزمل: ٢٠].

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ﴾ الشح: الحرص الشديد الذي قد يحمل على منع الواجب مما في يده والتطلع والحرص على ما ليس بيده، فإذا حصل بيده شيء شح به، وبخل بإخراجه فالبخل ثمرة الشح، والشح يأمر بالبخل كما قال ﷺ: «إياكم والشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»[2].

---

(١) سبق تخريجه. وانظر الكلام على قوله تعالى في سورة الحديد ﴿ ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم ﴾ [الآية: ٢٧].

(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة ـ باب في الشح ١٦٩٨، والحاكم ١/ ٤١٥ وصححه ووافقه الذهبي ـ من حديث عبد الله =

ومعنى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: ومن يكف بخل نفسه الشديد الذي قد يحمل على منع الواجب فأولئك هم المفلحون الفائزون، الذين بلغوا غاية الفوز والفلاح والظفر والنجاح، فازوا بالمطلوب ونجوا من المرهوب وقد تقدم الكلام على هذه الآية بأوسع من هذا في سورة الحشر.

قال ابن القيم [1]: «فالإيثار ضد الشح، فإن المؤثر على نفسه تارك لما هو محتاج إليه والشحيح حريص على ما ليس بيده، فإذا حصل بيده شيء شح عليه وبخل بإخراجه فالبخل ثمرة الشح، والشح يأمر بالبخل، فالبخيل من أجاب داعي الشح، والمؤثر من أجاب داعي الجود، كذلك السخاء عما في أيدي الناس هو السخاء، وهو أفضل من سخاء البذل، قال عبد الله بن المبارك: «سخاء النفس عما في أيدي الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل».

والشح أعم من كونه بالمال، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «قوله ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ يقول: هوى نفسه حيث يتبع هواه ولم يقبل الإيمان» [2].

وترتيب الفلاح الذي هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، الفوز بالجنة والنجاة من النار على الوقاية من الشح يدل على عموم الشح وأنه ما حمل الإنسان على التقصير في الواجب أو تركه، أو على ارتكاب المنهي فمن وقي شح نفسه كان ذا نفس سمحة مطمئنة، وصدر منشرح لشرع الله عز وجل منقاد لفعل أوامره وترك نواهيه، ومن ذلك الإنفاق في وجوه البر، وحب الخير للغير، ومن لم يوق شح نفسه كان ذا نفس قلقة، وصدر ضيق حرج، غير منقاد لفعل أوامر الله وترك نواهيه إلا بمشقة وكره، يريد الاستئثار بكل شيء لنفسه لا يحب الخير لغيره. يشح بالنفقات الواجبة فضلا عن المستحبة، بل يشح بالسلام والدعاء والعفو والتسامح وبشاشة الوجه حتى مع أهله ووالديه وأولاده وإخوانه وأقاربه وجيرانه وأصدقائه وسائر من لهم به علاقة، لا يحب الخير إلا لنفسه، نظرته إلى الناس والحياة نظرة سوداوية، فهو دائماً في هم وقلق وحرج، وما علم أن الأمر أيسر من ذلك، يقدم سوء الظن دائماً وكأنه سوف يؤكل، يحتاط لنفسه

=

ابن عمرو رضي الله عنهما.

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٦١.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٢٠.

احتياطات لا حاجة لها بسبب أوهامه وتخوفاته[١] كما قال الشاعر:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم

وعادى محبيه بقول عداته وأصبح في شك من الليل مظلم

﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: إن تقرضوا الله في الإنفاق في سبل الخير كلها استجابة لأمره لكم في قوله ﴿وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ وغير ذلك.

﴿قَرْضًا﴾ أي: انفاقاً وبذلاً وتصدقاً في وجوه البر.

﴿حَسَنًا﴾ أي: خالصاً لوجه الله ـ عز وجل، ومن كسب طيب وبنفس طيبة لا منّ فيه ولا اذى للمتصدَّق عليه، كما قال عز وجل ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٢، ٢٦٣].

وسمى الله عز وجل الإنفاق في الخير والصدقة قرضاً ترغيباً فيه، وإشارة إلى أن الله عز وجل تكفل بجزائه وأجره، وإذا كان عدم رد القرض يكون بسبب ظلم المقترض أو إعدامه، فإن الله عز وجل يقول عن نفسه في الحديث القدسي: «من يقرض غير عديم ولا ظلوم»[٢].

﴿يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ أي: يزده لكم، وضعف الشيء كثره مرتين، والله عز وجل يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة [٣] كما قال عز وجل: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي: يستر ذنوبكم عن الخلق، ويتجاوز عن العقوبة عليها، لأن معنى المغفرة: الستر والتجاوز، ومنه سمي المغفر وهو البيضة التي توضع على الرأس تستره وتقيه السهام.

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما في المناجاة في تقرير الله عز وجل للعبد المؤمن بذنوبه وتذكيره بها ثم يقول عز وجل: «أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»[٤].

﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ﴾ يعطي الكثير على القليل، ويجزي من أحسن بالحسنى والزيادة، كما

---

(١) انظر ما سبق في الكلام على قوله تعالى في سورة الحشر ﴿ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون﴾ [الآية: ٩].

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٧٥٨ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «ينزل الله في السماء الدنيا لشطر الليل أو لثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فاستجيب له؟ او يسألني فاعطيه؟، ثم يقول: من يقرض غير عديم ولا ظلوم».

(٣) انظر الكلام على قوله تعالى في سورة الحديد ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له﴾ [الآية: ١١].

(٤) سبق تخريجه.

قال عز وجل: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

قال الطبري[1]: «والله ذو شكر لأهل الإنفاق في سبيله بحسن الجزاء لهم على ما أنفقوا في الدنيا في سبيله».

﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يمهل ولا يهمل كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨].

قال ابن القيم[2]:

وهو الحليم فلا يعاجل عبده ... بعقوبة ليتوب من عصيان

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: عالم السر والعلانية والخفاء والجهر.

﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، ذو العزة التامة عزة القهر، وعزة القوة وعزة الامتناع، وذو الحكم التام، الحكم الكوني والحكم الشرعي والحكم الجزائي، والحكمة البالغة، الحكمة الغائية والحكمة الصورية. وقد سبق الكلام على هذا مفصلا في آخر سورة الحشر.

الفوائد والعبر:

١ ـ تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء تنبيها لهم وعناية واهتماماً بخطابهم.

٢ ـ نداء المؤمنين بوصف الإيمان تشريفاً وتكريماً لهم وحثاً على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما بعد هذا النداء من أوامر من مقتضيات الإيمان وعدمه يعد نقصاً في الإيمان.

٣ ـ أن من الأزواج والأولاد من يكونون أعداء لأزواجهم ووالديهم يحملونهم على معصية الله ـ عز وجل ـ ومخالفته.

٤ ـ وجوب الحذر من أن تكون محبة الأزواج والأولاد وطلب رضاهم وتلبية رغباتهم سبباً في التقصير في طاعة الله ورسوله.

٥ ـ الترغيب في التجاوز وترك التثريب وستر ما حصل وما يحصل من الأزواج والأولاد من خطأ.

٦ ـ إثبات اسمين من أسماء الله ـ عز وجل ـ وهما «الغفور» و «الرحيم» وأنه عز وجل ذو المغفرة التامة والرحمة الواسعة.

٧ ـ التحذير من فتنة الأموال والأولاد.

---

(١) في «جامع البيان» ٢٣/ ٢١.

(٢) انظر «النونية» ص١٤٨.

٨ ـ أن ما عند الله ـ عز وجل ـ من الأجر العظيم الباقي أهم وأعظم من الدنيا وزينتها الفانية من الأزواج والأولاد والأموال.

٩ ـ وجوب تقوى الله ـ عز وجل ـ قدر الاستطاعة والسمع والطاعة لأمره ونهيه.

١٠ ـ مشروعية الإنفاق وجوباً بأداء الزكاة والنفقات الواجبة واستحباباً في غير ذلك من وجوه البر، والترغيب في ذلك؛ فهو خير يدخره المرء لنفسه.

١١ ـ التحذير من الشح والبخل الذي يحمل على منع الحق وترك الواجب وارتكاب المحرم.

١٢ ـ أن من وفقهم الله ـ عز وجل ـ فوقاهم من الشح هم المفلحون حقاً.

١٣ ـ الترغيب في الصدقة والإنفاق في طرق الخير بتسمية ذلك قرضاً لله عز وجل والوعد بمضاعفته، والمغفرة.

١٤ ـ ينبغي أن يكون التصدق والإنفاق خالصاً لله عز وجل، من مال طيب، وبنفس طيبة، بلا منّ ولا أذى.

١٥ ـ إثبات اسمين من أسماء الله عز وجل وهما «الشكور» و «الحليم» وإثبات صفة الشكر له عز وجل للمخلصين له المنفقين في سبيله بمجازاتهم بأحسن الجزاء، وإثبات صفة الحلم له عز وجل وعدم معاجلته من عصاه بالعقوبة.

١٦ ـ علم الله ـ عز وجل ـ بالسر والعلانية والغيب والشهادة.

١٧ ـ إثبات اسمين من أسماء الله ـ عز وجل ـ وهما «العزيز» و«الحكيم» وأن له عز وجل العزة التامة والحكم النافذ والحكمة البالغة.

تفسير سورة الطلاق

هذه السورة تسمى سورة الطلاق، وتسمى سورة النساء القصرى كما سيأتي في سبب نزول الآية ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾.

وكما قال ابن مسعود رضي الله عنه: «نزلت سورة النساء القصرى، بعد الطولى ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾»[1] أي: أن سورة النساء القصرى يعني سورة الطلاق نزلت بعد سورة النساء الطولى يعني سورة البقرة.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ۝١ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝٣﴾

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ «يا» حرف نداء، و«أي» منادى مبني على الضم في محل نصب، لأن المنادى في الأصل مفعول به، معناه: «أدعوك» و«ها» للتنبيه. فتصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، «النبي» «ال» فيه للعهد، أي: النبي المعهود في الأذهان محمد ﷺ الذي أنزل الله عليه القرآن.

و«النبي» مشتق من النبأ، وهو الخبر، ومن النبوة وهي المكان المرتفع، لأن النبي منبأ ومُخبَر من عند الله عز وجل ومنبئ ومُخبر لقومه بما نبئ به، ولأن الأنبياء ذوو مكانة عالية رفيعة عند الله عز وجل، والمراد بالنبي هنا النبي الرسول وهو الذي أوحي إليه بوحي وأمر بتبليغه.

وفي ندائه ﷺ بوصف النبوة، وتخصيصه بذلك من بين الأنبياء تشريف وتكريم له ﷺ وإشارة إلى فضله على سائر الأنبياء عليهم السلام حيث ينادون في القرآن الكريم بأسمائهم لا بوصف النبوة.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الطلاق ٤٩١٠.

﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ «إذا» ظرفية شرطية، و«طلقتم» فعل الشرط وجوابه ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾.

وقد خاطب الله عز وجل النبي ﷺ أولاً تشريفاً وتكريماً له فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ ثم خاطب أمته تبعاً فقال: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ وهذا يدل على أن الخطاب له ﷺ خطاب للأمة ما لم يدل دليل على تخصيصه بذلك ومعنى ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ أي: إذا أردتم طلاقهن والطلاق: حل عقد الزوجية. وهو جائز في الإسلام، وقد تدعو إليه الحاجة والضرورة عندما يصعب الوفاق بين الزوجين وتصبح الحياة بينهما جحيماً لا يطاق، ويكون بقاء الزوجية بينهما سببا لمعصية كل منهما ربه في حق الآخر ففي الطلاق في مثل هذه الحال مخرج وفرج، وفضل الله واسع كما قال عز وجل ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٣٠].

ومع أن الطلاق جائز فهو أمر يبغضه الله كما في الحديث: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»[(١)].

وهذا الحديث وإن كان فيه كلام لأهل العلم من حيث سنده فإن معناه صحيح يؤيده الحديث في بعث الشيطان سراياه للإفساد كما في حديث جابر رضي الله عنه وغيره أنه سمع النبي ﷺ يقول: «يبعث الشيطان سراياه فيفتنون الناس، فأعظمهم عنده منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئاً. قال: ثم يجيء أحدهم، فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته. قال: فيدنيه، ويقول: نِعْم أنت»[(٢)].

﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي: فطلقوهن مستقبلات لعدتهن بأن يكون طلاق المرأة في طهر لم يجامعها فيه، لا في حال حيضها، ولا في طهر جامعها فيه.

عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه طلق امرأته وهي حائض، فذكر عمر ذلك لرسول الله ﷺ فتغيظ رسول الله ﷺ ثم قال: «ليراجعها، ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض فتطهر، فإن بدا له أن يطلقها، فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها، فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء»[(٣)].

---

(١) أخرجه أبو داود في الطلاق ٢١٧٨، وابن ماجه في الطلاق ٢٠١٨ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وقد ضعفه كثير من أهل العلم، وحسنه بعضهم.

(٢) أخرجه مسلم في صفة القيامة ٢٨١٣.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة الطلاق – ٥٢٥١، ومسلم في الطلاق ـ تحريم طلاق الحائض بغير رضاها ١٤٧١، وأبو داود في الطلاق ـ طلاق السنة ٢١٧٩، والنسائي في الطلاق ـ ما يفعل إذا طلق تطليقة وهي حائض ٣٣٩٠، =

وفي بعض الروايات قال ابن عمر: «وقرأ النبي ﷺ (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن في قبل عدتهن)»[(١)].

وأيضا فلا يطلقها ثلاثاً أو يتبع الطلقة الطلقة، لأن ما بعد الطلقة الأولى من الطلقات لم تكن في استقبال عدتها، بل هي في نفس العدة، لأن العدة ابتدأت منذ الطلقة الأولى.

قال ابن القيم[(٢)]: «ولهذا قال كل من قال بتحريم جمع الثلاث: إنه لا يجوز له أن يردف الطلقة بأخرى في ذلك الطهر، لأنه غير مطلق للعدة، فإن العدة قد استقبلت من حين الطلقة الأولى فلا تكون الثانية للعدة».

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾.

قال: «لا يطلقها وهي حائض، ولا في طهر قد جامعها فيه، ولكن يتركها حتى إذا حاضت وطهرت طلقها تطليقة»[(٣)].

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال في قوله ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ قال: «الطهر من غير جماع»[(٤)].

وهكذا قال جمهور العلماء من السلف ومن بعدهم.

وعن عكرمة: «﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ العدة: الطهر، والقرء: الحيضة، أن يطلقها حبلى مستبيناً حملها، ولا يطلقها وقد طاف عليها، ولا يدري حبلى هي أم لا»[(٥)].

قال ابن كثير[(٦)]: «ومن ههنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق، وقسموه إلى طلاق سنة، وطلاق بدعة، فطلاق السنة: أن يطلقها طاهراً من غير جماع، أو حاملاً قد استبان حملها. والبدعي: هو أن يطلقها في حال الحيض، أو في طهر قد جامعها فيه، ولا يدري أحملت أم لا؟ وطلاق ثالث لا سنة فيه ولا بدعة، وهو طلاق الصغيرة والآيسة، وغير المدخول بها».

﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ أي: احفظوها واضبطوها واعرفوا بدايتها، ونهايتها بالأقراء، وهي

=

والترمذي في الطلاق ـ ما جاء في طلاق السنة ١١٨٥، ١١٨٦، وأحمد ٢/ ٢٦، ٤٣.

(١) جاء هذا في رواية مسلم.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٦٥.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٢٩.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» ٥/ ١، ٣، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٢٠، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٢٢، ٢٣، والبيهقي في «سننه» ٧/ ٣٢٥.

(٥) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٦٩.

(٦) في «تفسيره» ٨/ ١٦٩.

الحيض أو الأطهار، أو بالأشهر، أو بوضع الحمل، لئلا تطول العدة على المرأة، ولئلا تختلط المياه، ولكي يتمكن من مراجعتها إذا أرادها.

وذلك لما يترتب على إحصائها وضبطها من حق لله عز وجل، وحق للزوج المطلق، وحق لها في النفقة وغيرها، وحق لمن يتزوجها بعد.

والأمر في قوله ﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ متوجه للزوجين.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ بفعل ما أمركم الله به وترك ما نهاكم عنه، ومن ذلك أن يكون طلاق النساء في استقبال عدتهن، وإحصاء العدة وضبطها، وعدم مضارة المرأة في إطالة العدة عليها.

﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ أي: لا تخرجوا أيها الأزواج المطلقات ما دمن في العدة من بيوتهن، لأن لهن عليكم حق السكنى، ولا يجوز لهن أن يخرجن ما دمن في العدة، لأن من حقكم عليهن بقاءهن حتى انتهاء عدتهن.

فإخراجهن قبل انتهاء العدة اعتداء على حقهن في السكن حتى انتهاء العدة وخروجهن بأنفسهن فيه إضاعة حق الزوج، وفي هذا وذاك اعتداء على حرمات الله عز وجل.

﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ «إلا» أداة استثناء أي: لا يُخرجن من بيوتهن إلا في حال إتيانهن بفاحشة مبينة.

والفاحشة: ما يستفحش شرعاً وفي عرف المسلمين كالزنا والنشوز وبذاءة اللسان وأذية أهل الزوج في القول والفعل ونحو ذلك.

﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ أي: بينة واضحة.

ففي هذه الحال يجوز إخراجها من بيت الزوج وإن كانت في العدة، لأنها هي التي تسببت لإخراج نفسها، وهذا في المعتدة الرجعية. وأما البائن فليس لها سكنى واجبة، لأن السكن تبع للنفقة، والنفقة تجب للرجعية دون البائن.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ الإشارة ﴿ تلك ﴾ إلى ما سبق من أحكام الطلاق والعدة، المتضمنة أوامر ونواهي وأشار إليها بإشارة البعيد إشارة لعظمها وأهميتها، أي: أن هذه الأحكام والشرائع هي حدود الله التي حدها وأوجب العمل بها والحد في الأصل: الفاصل بين شيئين، وسميت حدوداً لأنه لا يجوز تجاوزها ولا تعديها كما أن الحدود الأرضية بين الجيران والمالكين تمنع من تجاوز أحدهم وتعديه إلى أرض الآخر.

﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ أي: من يتجاوز أحكام الله وشرائعه تركاً لما

امر الله به، أو ارتكاباً لما نهى الله عنه ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ بتعدي حدود الله، بمخالفة أمره أو ارتكاب نهيه، حيث نقص نفسه حظها، وبخسها حقها، لأن النفس وديعة عند الإنسان يجب أن يحملها على ما فيه سعادتها ونجاتها في الدنيا والآخرة، لا أن يوردها موارد الهلاك في الدنيا والآخرة، ولا ظلم أعظم للنفس من حملها على تعدي حدود الله، ومعصيته بمخالفة أمره ونهيه، وتعريضها لعذاب النار.

﴿لَا تَدْرِى﴾ أي: لا تدري أيها المطلق ولا تعلم.

﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ «لعل» للترجي، أي: نُهينا عن إخراج المطلقات أو خروجهن من بيوتهن رجاء أن تتبدل الأحوال ويذهب ما في الأنفس ويندم الزوج على طلاق زوجته، وقد تتبعها نفسه حيث يراها أمامه فيراجعها بجماع أو غيره، ومن أعظم أسباب حصول هذا بقاؤها في بيت زوجها، فهو أقرب وأرجى لصلاح الحال، أما لو خرجت بعد الطلاق مباشرة فهذا أعظم للشقة والخلاف وتنافر القلوب وتباعدها.

وهكذا فسر أكثر السلف ومن بعدهم قوله تعالى ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ بالرجعة.

فجعل الله عز وجل السكنى للمطلقة إذا كانت رجعية، رجاء أن يحدث الله أمراً وهو رجعتها.

فأما إن كانت المطلقة مبتوتة لا رجعية، أو متوفى عنها فليس لها نفقة ولا سكنى لحديث فاطمة بنت قيس الفهرية حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص آخر ثلاث تطليقات، وكان غائباً عنها باليمن، فأرسل إليها بذلك، فأرسل إليها وكيله بشعير نفقة فتسخطته، فقال: والله ليس لك علينا شيء. فأتت رسول الله ﷺ فقال: «ليس لك عليه نفقة ولا سكنى» وأمرها أن تعتد في بيت أم شريك، ثم قال: «تلك امرأة يغشاها أصحابي، اعتدي عند ابن أم مكتوم، فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك ولا يراك»[1].

وفي بعض رواياته: أن رسول الله ﷺ قال لها: «انظري يا ابنة آل قيس، إنما النفقة والسكنى للمرأة على زوجها ما كانت له عليها رجعة، فإذا لم يكن له عليها رجعة، فلا نفقة ولا سكنى، اخرجي فانزلي على فلانة»، ثم قال: «إنه يُتحدث إليها انزلي على ابن

---

(١) أخرجه مسلم في الطلاق ـ المطلقة ثلاثا ١٤٨٠، وأبو داود في الطلاق ـ نفقة المبتوتة ٢٢٨٤، والنسائي في النكاح ٣٢٢٢، والترمذي في النكاح ١١٣٥، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٣٦، وأحمد ٦/ ٣٧٣، ٤١٢.

أم مكتوم، فإنه أعمى لا يراك ... »[١].

وهذا ما عليه جمهور أهل العلم أنه لا نفقة ولا سكنى للمبتوتة ولا للمتوفى عنها، لكن المتوفى عنها زوجها تعتد في البيت الذي توفي وهي فيه إن كان لها، وكذا إن أجاز الورثة ذلك إذا لم يكن لها فإن طلبوا خروجها خرجت[٢].

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: فإذا قاربن، أي: المطلقات انتهاء عدتهن وشارفن على ذلك ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ بمراجعتهن والعزم على إبقائهن في عصمتكم.

﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ بما هو معروف بين الزوجين المسلمَين من حسن الصحبة وأداء الحقوق والعشرة الطيبة، كما قال تعالى ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩] ومن ذلك الصفح ونسيان أخطاء الماضي وفتح صفحة جديدة من الحياة بين الزوجين.

﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ بتسريحهن بإحسان بعد انقضاء عدتهن من غير مغاضبة ولا مضارة، ولا أذى لا بفعل ولا بقول، مع أداء ما لهن من حقوق عليكم كما قال عز وجل ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. وكما قال عز وجل لنبيه ﷺ في أمره بتخيير نسائه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٨].

وقدم عز وجل الأمر بالإمساك لأنه ـ والله أعلم ـ أحب إليه ولأن الطلاق أبغض الحلال إلى الله، لما في الطلاق من تشتت شمل الأسرة والآثار السيئة المترتبة على ذلك غالباً.

﴿وَأَشْهِدُوا۟﴾ أي: وأشهدوا على الطلاق والرجعة.

والأصل في الأمر الوجوب، فالإشهاد واجب، وقيل مستحب، وقيل واجب على الرجعة ومستحب على الطلاق.

﴿ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي: صاحبي عدل منكم أيها المسلمون أي: شاهدين عدلين منكم، فلا يكفي شهادة رجل واحد ولا بد من كون الشاهدين «عدلين» ولا بد من كونهما من المسلمين.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إن أراد مراجعتها قبل أن تنقضي عدتها أشهد رجلين كما قال الله: ﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ عند الطلاق وعند المراجعة، فإن راجعها

---

(١) جاء هذا في رواية لأحمد والنسائي في الطلاق ـ باب الرخصة في ذلك وصحح إسناده ابن القيم في «زاد المعاد» ٥/٥٢٦.

(٢) انظر «زاد المعاد» ٥/٦٨٧ – ٦٨٨.

فهي عنده على تطليقتين، وإن لم يراجعها فإذا انقضت عدتها فقد بانت منه بواحدة، وهي أملك بنفسها، ثم تتزوج من شاءت هو أو غيره»[١].

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه أنه سئل عن الرجل يطلق امرأته ثم يقع بها، ولم يشهد على طلاقها، ولا على رجعتها، فقال: «طلقت لغير سنة، ورجعت لغير سنة، أشهد على طلاقها وعلى رجعتها ولا تعُد»[٢].

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ﴾ أي: أقيموا الشهادة خالصة لله عز وجل، إذا استشهدتم وادوها كما تحملتم من غير زيادة ولا نقصان.

﴿ذَٰلِكُمۡ﴾

الإشارة لما أمر الله عز وجل به في الآية من إمساك النساء إذا بلغن أجلهن بمعروف، أو مفارقتهن بمعروف مع الإشهاد على ذلك وأداء الشهادة خالصة لوجه الله عز وجل.

﴿يُوعَظُ بِهِۦ﴾ الموعظة هي ذكر الأحكام مقرونة بالترغيب والترهيب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ﴾ [النساء: ٥٨] أي: نعم الموعظة يعظكم بها.

﴿مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾ أي: الذي كان منكم يؤمن بالله، أي: يؤمن بوجود الله وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشرعه.

﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ أي: ويؤمن باليوم الآخر يوم القيامة وما فيه من الحساب والجزاء.

وسمي اليوم الآخر لأنه آخر الأيام فآخر ليلة من الدنيا صبيحتها يوم القيامة. وكثيراً ما يقرن الله عز وجل بين الإيمان به والإيمان باليوم الآخر، لأن الإيمان باليوم الآخر أعظم دافع وباعث على العمل، لأن فيه الحساب والجزاء على الأعمال.

أي: أن هذه الأحكام والمواعظ إنما يتعظ بها ويستفيد منها وينتفع بها من كان يؤمن بالله وبشرعه، ويرجو ثوابه ويخاف عقابه في الدار الآخرة كما قال عز وجل ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ۝ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ۝ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠ - ١٢].

وقد قال بعض أهل العلم بوجوب الإشهاد على الرجعة بمعنى أنها لا بد أن تكون بالقول وأن يشهد عليها، قالوا: لأن الله ذكر أنه إنما يوعظ بهذه الأحكام من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فكأنهم جعلوا من شرط الإيمان بالله واليوم الآخر وصحته أن يشهد

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤١.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الطلاق ـ الرجعة ٢٠٢٥.

على الرجعة إذا حصل الطلاق وأراد الرجعة.

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي: ومن يتق الله بفعل أوامره وترك نواهيه في أحكام الطلاق والرجعة وغير ذلك.

﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ أي: يجعل له كونا وقدراً مخرجاً وفرجاً من كل كرب، ومن أي ضائقة تصيبه وتلم به، مالية، أو اجتماعية، أو نفسية أو غير ذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة»[1].

فعلى الزوجين كما على غيرهما تقوى الله عز وجل ليوفقهم ويأخذ بأيديهم لما هو أصلح لهم وأسعد في دينهم ودنياهم. كما قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إن أجمع آية في القرآن: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩]، وإن أكثر آية في القرآن فرجاً: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾»[2].

﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ الرزق هو العطاء، أي: يعطيه العطاء الكثير.

﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي: ييسر له أسباب الرزق من حيث لا يشعر ولا يعلم أي: من حيث لا يخطر بباله، يظن أنه سيأتيه الرزق من هذا الوجه، فيرزقه الله من وجه آخر، بلا كلفة ولا مشقة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩١].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: «جعل رسول الله ﷺ يتلو عليَّ هذه الآية ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ حتى فرغ من الآية ثم قال: «يا أبا ذر لو أن الناس كلهم أخذوا بها كفتهم» قال: فجعل يتلوها ويرددها علي حتى نعست، ثم قال: «يا أبا ذر كيف تصنع إن أخرجت من المدينة؟» قلت: إلى السعة والدعة أنطلق، فأكون حمامة من حمام مكة. قال: «كيف تصنع إن أخرجت من مكة؟» قال: قلت: إلى السعة والدعة، إلى الشام والأرض المقدسة، قال: «وكيف تصنع إن أخرجت من الشام؟» قال: قلت: والذي بعثك بالحق أضع سيفي على عاتقي، قال: «أو خير من ذلك؟» قلت:

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٣، ٨/ ١٧٢.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٨.

أو خير من ذلك؟ قال: «تسمع وتطيع، وإن كان عبداً حبشياً»[١].

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر»[٢].

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»[٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب»[٤].

وقد قال بعضهم: «ما افتقر تقي قط، قالوا: لم؟ قال: لأن الله يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾»[٥].

وفي المقابل فإن من لم يتق الله بفعل ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه في أمر الطلاق والرجعة وغير ذلك من أموره فإنه يصير إلى ضيق وشدة لا مخرج له منها، وتتعسر عليه أبواب الرزق وهذا أمر مشاهد فمثلا من لم يراع السنة في الطلاق بل أوقعه على الوجه المحرم كالثلاث مثلاً فإنه لا بد أن يندم ندامة لا يتمكن من استدراكها والخروج منها، وهكذا من لم يتق الله في جميع أموره تراه ينتقل من ضائقة إلى أخرى، وتتعسر عليه أسباب الرزق والحياة، ولهذا جاء في الأثر «بشّر القاتل بالقتل والزاني بالفقر، ولو بعد حين» وهذا أمر يشهد له الواقع.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾

أي: ومن يعتمد على الله ويفوض جميع أموره إلى الله مع تمام الثقة بالله عز وجل في جلب النفع ودفع الضر، مع فعل الأسباب.

﴿فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ أي: فهو كافيه كل ما أهمه في أمر دينه ودنياه، قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كنت رديف النبي ﷺ فقال لي: «يا

---

(١) أخرجه أحمد ٥/١٧٨ - ١٧٩.

(٢) أخرجه أحمد ٥/٢٧٧، ٢٨٠، ٢٨٢، وابن ماجه في الفتن - باب العقوبات ٤٠٢٢.

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٤٤، وابن ماجه في الزهد ٤١٦٤، وأحمد ١/٣٠، ٥٢ من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه - وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٤) أخرجه أحمد ١/٢٤٨.

(٥) انظر «دقائق التفسير» ٥/٨.

غلام إني معلمك كلمات احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف»[١].

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤونة، ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها»[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ، قال: «من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله»[٢].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس كان قمناً أن لا تسد حاجته، ومن أنزلها بالله عز وجل أتاه الله برزق عاجل، أو موت عاجل»[٣].

قال ابن القيم[٤]: «وكلما كان العبد حسن الظن بالله، حسن الرجاء له، صادق التوكل عليه، فإن الله لا يخيب أمله فيه البتة، فإنه سبحانه لا يُخيِّب أمل آمل، ولا يُضيع عمل عامل، فإنه لا أشرح للصدر، ولا أوسع له بعد الإيمان من ثقته بالله ورجائه له وحسن ظنه به»

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ جمع بين الأمر بفعل الأسباب والتوكل على الله، ومن جمع بين ذلك جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب، وكفاه كل ما أهمه في أمر دينه ودنياه.

ومن فرط في أحد الأمرين كأن يتوكل على الله ويترك فعل الأسباب أو يفعل الأسباب ويعتمد عليها فهذا ليس على شيء.

قال ابن القيم[٥]: «فإن الله إنما يكون حسب المتوكل عليه إذا اتقاه، وتقواه فعل

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢٩٣، ٣٠٣، والترمذي في صفة القيامة ٢٦٣٥. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».
(٢) أخرجهما ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٦٠.
(٣) أخرجه أحمد ١/ ٤٤٢.
(٤) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٦٨.
(٥) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٦٩ – ٤٧٠.

الأسباب المأمور بها لا إضاعتها».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ﴾ قرأ حفص عن عاصم ﴿ بالغُ ﴾ بغير تنوين، و﴿ امرِه ﴾ بالخفض، وقرأ الباقون بالتنوين والنصب (بالغٌ أمرَه).

والمعنى: أن الله منفذ أمره وقضائه وحكمه الكوني في خلقه فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٤٠]، وقال عز وجل: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ أي: قد جعل الله كونا. ﴿لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ أي: لكل شيء تقديراً وتوقيتاً، تقديراً من حيث كنهه وكمه وكيفه، لا يزيد عليه ولا ينقص منه، وتوقيتاً من حيث وقته وزمنه، لا يتقدم ولا يتأخر عنه أي: قد جعل الله لكل شيء تقديراً علمياً وهو تقديره عز وجل لمقادير الخلائق في علمه وكتابه قبل تكوينها، ثم كونها على ذلك القدر الذي علمه وكتبه، كما قال عز وجل: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

الفوائد والعبر:

١ ـ تنبيه النبي ﷺ بتصدير خطابه بالنداء، ونداءه بوصف النبوة تشريفاً له وتكريماً وإشارة لفضله على سائر الأنبياء ـ عليه وعليهم الصلاة والسلام.

٢ ـ أن الخطاب للنبي ﷺ خطاب للأمة ما لم يدل دليل على تخصيصه بذلك لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾.

٣ ـ إباحة الطلاق.

٤ ـ يجب أن يكون طلاق النساء في استقبال عدتهن بأن يكون طلاقهن في طهر لم يجامعن فيه، لا في حال حيضهن، ولا في طهرتم جماعهن فيه، ولا يطلقن ثلاثاً، ولا يردف المطلق الطلقة بأخرى.

٥ ـ وجوب إحصاء العدة وضبطها لما يترتب على ذلك من حق لله ـ عز وجل، وحق للزوج المطلق، وحق للمطلقة، وحق لمن يتزوجها بعد، ولئلا تطول العدة على المرأة، ولكي يتمكن المطلق من رجعتها إذا أرادها، ولئلا تختلط المياه.

٦ ـ وجوب تقوى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه في أحكام الطلاق والعدة وغير ذلك.

٧ ـ التذكير بعظمة الله وعبوديته وربوبيته وعظيم نعمه بقوله ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ﴾.

٨ ـ لا يجوز إخراج المطلقات الرجعيات من بيوتهن ولا يجوز لهن أن يخرجن مادمن في العدة حفاظاً على حقوقهن وحقوق أزواجهن.

٩ ـ إذا أتت المرأة بفاحشة بينة من زنا أو نشوز أوبذاءة لسان جاز للزوج إخراجها من بيته وهي في عدة طلاقها الرجعي.

١٠ ـ أن ما أمر الله به من أوامر وما نهى الله عنه من نواه في أحكام الطلاق والعدة وغير ذلك كل ذلك من حدود الله التي يجب الوقوف عندها ولا يجوز تجاوزها ولا تعديها ومن فعل ذلك فقد ظلم نفسه.

١١ ـ أن من الحكمة في تحريم إخراج المطلقة الرجعية من بيتها، وإيجاب السكنى لها رجاء أن يكون ذلك سبباً في صلاح الحال ومراجعتها.

١٢ ـ أن الإنسان لا يدري ولا يعلم ما تؤول إليه عواقب الأمور.

١٣ ـ قدرة الله ـ عز وجل ـ التامة على تغيير الأحوال وتبديلها إلى ما هو أصلح فينبغي التعلق به ورجاؤه.

١٤ ـ إذا قاربت المعتدة الرجعية انقضاء عدتها وجب إما مراجعتها بالمعروف، وإما مفارقتها بالمعروف من غير مضارة.

١٥ ـ مشروعية إشهاد رجلين عدلين من المسلمين على الطلاق وعلى الرجعة وهو على الرجعة آكد وأوجب.

١٦ ـ وجوب إقامة الشهادة خالصة لله، وأدائها كما تحملها الشاهد من غير زيادة ولا نقصان.

١٧ ـ أن ما أمر الله به من إمساك النساء إذا بلغن أجلهن أو مفارقتهن بالمعروف والإشهاد على ذلك وإقامة الشهادة لله وغير ذلك مما يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر.

١٨ ـ وجوب الإيمان بالله واليوم الآخر، وعظم مكانة الإيمان باليوم الآخر، لأنه أعظم دافع للعمل الصالح لهذا يقرن كثيراً في القرآن الكريم بالإيمان بالله.

١٩ ـ أن من اتقى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه في أحكام الطلاق والرجعة وغير ذلك جعل الله له من كل ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يخطر بباله.

٢٠ ـ وجوب التوكل على الله وأن من توكل على الله كفاه.

٢١ ـ أن الله منفذ أمره وقضاءه الكوني في خلقه.

٢٢ ـ تقدير الله ـ عز وجل ـ مقادير كل شيء وعلمه بها وكتابته لها قبل كونها ثم تكوينها وإيجادها وفق ذلك التقدير.

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ۝٤ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ۝٥ أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ ۝٦ لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ۝٧﴾

قوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾.

ذكر الله عز وجل في سورة البقرة أن المطلقة تعتد ثلاثة قروء، قال تعالى: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ﴾ [البقرة: ٢٢٨] والمراد بالقروء الحيض، وقيل الأطهار، وقال عز وجل في مطلع هذه السورة ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي: مستقبلات لعدتهن، بأن تطلق المرأة في طهر لم تجامع فيه، لا في طهر جامعها فيه، ولا في حال الحيض.

وهذا إنما ينطبق على ذوات الأقراء، أي: اللاتي يحضن، ثم أتبع ذلك بذكر عدة الآيسات واللاتي لم يحضن وأولات الأحمال، فقال: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾.

سبب النزول:

عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: «قلت لرسول الله ﷺ إن ناساً من أهل المدينة لما أنزلت هذه الآية التي في البقرة في عدة النساء قالوا: لقد بقي من عدة النساء عِددٌ لم يُذكرنَ في القرآن: الصغار، والكبار واللائى قد انقطع عنهن الحيض، وذوات الحمل، قال: فأنزلت التي في النساء القصرى ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾»[1].

قوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾ أي: اللائي كبرن وبلغن سن الإياس من المحيض من نسائكم.

وقد اختلف في حد الإياس فقيل خمسون سنة وقيل ستون سنة، وقيل لا حد له ويعرف بيأس أقاربها.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٥١، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٦٠.

واختار شيخ الإسلام ابن تيمية أنه يختلف باختلاف النساء، وليس له حد يتفق فيه النساء، والمراد بالآية: أن يأس كل امرأة من نفسها، قد ينقطع حيضها وتأيس منه ولها أربعون ونحوها، وغيرها لا تأيس منه وإن كان لها خمسون[1]

﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ أي: إن شككتم في حكم عدتهن، وبماذا يعتددن ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ﴾ ويؤيد هذا ما جاء في سبب نزول الآية. وهو الأظهر في المعنى، والأصح.

وقال بعض المفسرين ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ أي: إن رأين دماً وشككن في كونه حيضاً أو استحاضة وارتبتم فيه رُويَ هذا عن مجاهد والزهري وابن زيد[2].

﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ﴾ الجملة جواب الشرط، والفاء رابطة لجواب الشرط، أي: فعدتهن إذا طلقن ثلاثة أشهر.

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾ لصغرهن ونحو ذلك فعدتهن كذلك ثلاثة أشهر وحذف هذا لدلالة المذكور عليه.

﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ أي: وصاحبات الأحمال أي: الحوامل ﴿أَجَلُهُنَّ﴾ أي: نهاية عدتهن من طلاق أو وفاة ﴿أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأول مصدر في محل رفع خبر قوله ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ﴾ أي: نهاية عدتهن وضع حملهن كله، واحداً، أو توامين أو أكثر، حياً كان أو ميتاً، تام الخلقة، أو ناقصها، نفخ فيه الروح أو لم ينفخ، سواء طالت مدة الحمل أو قصرت، زادت على أربعة أشهر وعشر، أو نقصت، حتى ولو وضعت بعد الطلاق أو الموت بلحظة انتهت عدتها.

عن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه لما نزلت هذه الآية قال لرسول ﷺ: لا أدري أمشتركة أم مبهمة قال رسول الله ﷺ: «أية آية» ؟ قال: ﴿أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾، المتوفى عنها والمطلقة؟ قال: «نعم»[3].

وعن سبيعة الأسلمية رضي الله عنها: «أنها كانت تحت سعد بن خولة – وكان ممن شهد بدراً وتوفي عنها في حجة الوداع وهي حامل، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته، فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك، فقال لها: ما لي أراك متجملة؟ لعلك ترجين النكاح، إنك والله ما أنت بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشر.

---

(١) انظر «الاختيارات الفقهية» ص٢٨، «بدائع التفسير» ٤/ ٤٧٥ – ٤٨٢.

(٢) أخرجه عنهم الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٩ – ٥٠.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٦٠.

قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك جمعت عليّ ثيابي حين أمسيت فأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك، فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي، وأمرني بالتزوج إن بدا لي»[(١)].

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «قتل زوج سبيعة الأسلمية، وهي حبلى فوضعت بعد موته بأربعين ليلة، فخطبت، فأنكحها رسول الله ﷺ وكان أبو السنابل فيمن خطبها»[(٢)].

وعن المسور بن مَخْرَمَةَ رضي الله عنه: «أن سبيعة الأسلمية توفي عنها زوجها وهي حامل، فلم تمكث إلا ليالي حتى وضعت، فلما تعلت من نفاسها خطبت، فاستأذنت رسول الله ﷺ في النكاح فأذن لها أن تُنكح فنُكحت»[(٣)].

فانتهاء عدة المطلقة بائناً كانت أو رجعية والمتوفى عنها زوجها إذا كانت حاملاً بمجرد وضع الحمل، ولو كان ذلك عقب الطلاق أو الوفاة بلحظات لقوله ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ ولقصة سبيعة الأسلمية رضي الله عنها، وغيرها وبهذا قال جمهور السلف وأهل العلم بعدهم.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «من شاء لاعنته ما نزلت ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ إلا بعد آية المتوفى عنها زوجها، قال: وإذا وضعت المتوفى عنها زوجها فقد حلت، يريد بآية المتوفى عنها زوجها ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]»[(٤)].

وعنه قال: «أتجعلون عليها التغليظ، ولا تجعلون عليها الرخصة؟ نزلت سورة النساء القصرى بعد الطولى ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾»[(٥)].

يعني بسورة النساء القصرى سورة الطلاق، ويعني بالطولى سورة البقرة.

وقد قيل إن الآية ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ خاصة بالمطلقات، أما المتوفى عنها زوجها فعدتها أربعة أشهر وعشر كما في آية البقرة.

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٣٩٩١، ومسلم في الطلاق ـ انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها أو غيرها بوضع الحمل ١٤٨٤ وأبو داود في الطلاق ـ عدة الحامل ٢٣٠٦، والنسائي في الطلاق ـ عدة المتوفى عنها زوجها ٣٥١٨، وابن ماجه في الطلاق ـ الحامل المتوفى عنها زوجها إذا وضعت حلت للأزواج ٢٠٢٧، ٢٠٢٨.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الطلاق ٤٩٠٩، وفي الطلاق ٥٣١٨ ومسلم في الطلاق ١٤٨٥، والنسائي في الطلاق ٣٥١١ والترمذي في الطلاق ١١٩٤.

(٣) أخرجه البخاري في الطلاق ٥٣٢٠، والنسائي في الطلاق ٣٥٠٦، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٢٩، وأحمد ٤/ ٣٢٧.

(٤) أخرجه أبو داود في الطلاق ٢٣٠٧، والنسائي في الطلاق ـ عدة المتوفى عنها زوجها ٣٥٢٢، وابن ماجه في الطلاق ـ الحامل المتوفى عنها ٢٠٣٠، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٥٤ ـ ٥٥، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٦١.

(٥) أخرجه البخاري في تفسير سورة الطلاق ٤٥٣٢، والنسائي في الطلاق ـ عدة المتوفى عنها زوجها ٣٥٢١، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٥٥.

وقيل تعتد المتوفى عنها زوجها وهي حامل آخر الأجلين فإن كان أطولهما وضع الحمل كأن تكون توفى عنها زوجها وهي في أول الحمل اعتدت بوضع الحمل وإن كان أطولهما أربعة أشهر وعشراً اعتدت به بمعنى أنها لا تقل عدتها عن أربعة أشهر وعشر، وقد تزيد إلى تسعة أشهر، أو إلى أكثر من ذلك حتى تضع حملها وهذا لأجل العمل بالآيتين آية البقرة، وآية سورة الطلاق.

رُوِيَ هذا عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه[1] وعن ابن عباس رضي الله عنهما.

فعن أبي سلمة رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى ابن عباس وأبو هريرة جالس عنده فقال: أفتني في امرأة ولدت بعد موت زوجها بأربعين ليلة، فقال ابن عباس: آخر الأجلين. قلت أنا: ﴿وَأُولَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ قال أبو هريرة: أنا مع ابن أخي يعني: أبا سلمة، فأرسل ابن عباس غلامه كريباً إلى أم سلمة يسألها، فقالت: قتل زوج سبيعة الأسلمية وهي حبلى، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة، فخطبت فأنكحها رسول الله ﷺ وكان أبو السنابل فيمن خطبها»[2].

والصحيح القول الأول كما دلت عليه الآية ﴿وَأُولَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ والأحاديث في قصة سبيعة وغير ذلك وهو قول الجمهور من الصحابة والفقهاء بعدهم.

وقد استدل له ابن القيم بعموم الآية ﴿وَأُولَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ من ثلاث جهات: عموم الخبر عنه وهو أولات الأحمال، فإنه يتناول جميعهن. الثاني: عموم الأجل فإنه أضافه إليهن، واسم الجمع إذا أضيف إلى معرفة يعم، فجعل وضع الحمل جميع أجلهن. الثالث: أن المبتدأ والخبر معرفتان إذ التقدير: وأولات الأحمال أجلهن وضع حملهن، وإذا كان المبتدأ والخبر معرفتين اقتضى ذلك حصر الثاني في الأول[3].

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ تأكيد وحض على تقوى الله عز وجل بفعل أوامره واجتناب نواهيه، فقد قال قبل هذا ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢﴾ أي: يجعل له فرجاً من كل كرب ومن كل ضائقة بعد حصولها، وقال ههنا ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ أي: ييسر له أموره من حيث البداية، فيسلم بإذن الله عز وجل من الكروب والضائقات.

---

(١) أخرجه عن علي رضي الله عنه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٥٦، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٦١.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٠٩، ومسلم في الطلاق ١٤٨٥، والنسائي في الطلاق ٣٥١١، والترمذي في الطلاق واللعان ١١٩٤، وأحمد ٤/ ٣٢٧.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٧١.

والمراد بالجعل في قوله ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ الجعل الكوني القدري.

والضمير في قوله ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ يحتمل أن يعود إلى الله، أي: يجعل الله له من أمره الكوني يسرا، ويحتمل عود الضمير إلى من اتقى الله، أي: ومن يتق الله يسهل له أمره والمعنى على التقديرين واحد وهو: ومن يتق الله ييسر ويسهل له أمور دينه ودنياه، فمهما توجه لأمر من الأمور كان الله معه يسدده ويعينه وييسر أموره ويحفظه كما قال ﷺ: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله» الحديث [1].

وقد أحسن القائل:

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة لما ذكر في الآية السابقة من أحكام الطلاق والرجعة والعدة وغيرها، أو لما ذكر فيها وفيما قبلها، أو لكل ما شرعه الله من أحكام وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيماً له.

﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: أمر الله وحكمه الشرعي.

﴿أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾ أي: أنزله إليكم بما أوحاه إلى رسوله محمد ﷺ من القرآن الكريم المنزل من عند الله عز وجل، ومن السنة النبوية التي هي من وحي الله عز وجل قال عز وجل ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣] أي: القرآن والسنة، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ هذا تأكيد ثالث لتقوى الله عز وجل - وحضٌ عليها، رتب عليه الجزاء الأخروي وهو تكفير السيئات والأجر العظيم.

ومعنى ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ أي: يمحو ويزيل عنه سيئاته، ويسترها عن الخلق ويتجاوز عن عقوبتها.

والسيئات: جمع سيئة، وهي الذنوب والمعاصي سميت بذلك لأنها تسوء صاحبها في الحال والمآل وقد تسوء غيره.

﴿وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ أي: يجعل اجره وثوابه عظيما، كماً وكيفاً عنده – عز وجل – بإدخاله الجنات وما فيها من النعيم ورؤية الرب الرحيم.

وقدم تكفير السيئات على ذكر عظم الأجر لأن التخلية قبل التحلية.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ نهى الله عز وجل في الآيات السابقة عن إخراج المعتدات من بيوتهن، وأنه لا ينبغي أن يخرجن، وفي هذا بيان وجوب السكنى لهن.

---

(١) سبق تخريجه قريباً.

ثم أكد ذلك في قوله ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ الآية. وبين قدر إسكانهن، وأنه من حيث يسكنون ومن وجدهم.

والأمر في قوله: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ لمن يطلقون زوجاتهم طلاقاً رجعياً، أي: اسكنوا زوجاتكم اللاتي طلقتموهن طلاقاً رجعياً ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ «من» تبعيضية أي: من بعض سكنكم وعندكم، وفي بيوتكم اللاتي تسكنونها ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ عطف بيان لقوله ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ وتفسير له، أي: من قدر سعتكم وطاقتكم.

﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ أي: ولا تضاروهن عند إسكانكم لهن بالقول أو بالفعل لأجل التضييق عليهن ليخرجن من بيوتكم قبل تمام عدتهن، أو ليفتدين أنفسهن منكم بما لهن، وقيل بأن يطلقها فإذا قاربت انتهاء عدتها راجعها مضارة لها.

﴿وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ﴾ أي: وإن كن - يعني: المطلقات صاحبات حمل، أي: حوامل.

﴿فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ الأمر للوجوب فتجب النفقة على المطلقة الحامل لها وللحمل حتى تضع، وإن طالت مدة الحمل وهذا بالإجماع إذا كان الطلاق رجعياً. واختلف أهل العلم بالنسبة للمطلقة البائن فذهب كثير من السلف منهم ابن عباس [1] وغيره [2] وكثير من الفقهاء إلى وجوب النفقة عليها، لأجل الحمل وحملوا الآية على البائن، قالوا لأن الرجعية نفقتها واجبة مطلقا سواء كانت حاملاً أو حائلاً.

وقال بعض أهل العلم لا نفقة لها وإن كانت حاملاً، لأن السياق كله في الرجعيات وإنما نص على الإنفاق على الحامل وإن كانت رجعية، لأن الحمل تطول مدته غالباً، لئلا يتوهم أنه إنما تجب النفقة بمقدار مدة العدة.

وظاهر الآية وجوب النفقة عليها لأجل الحمل.

قال الطبري [3]: «والصواب من القول في ذلك عندنا أن لا نفقة للمبتوتة إلا أن تكون حاملاً، لأن الله جلّ ثناؤه جعل النفقة بقوله: ﴿وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ للحوامل دون غيرهن من البائنات من أزواجهن، ولو كان البوائن من الحوامل وغير الحوامل في الواجب لهن من النفقة على أزواجهن سواء لم يكن لخصوص أولات الأحمال بالذكر في هذا الموضع وجه مفهوم، إذ هن وغيرهن في ذلك سواء، وفي خصوصهن

---

(١) اخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٦٢.

(٢) روي عن عمر وابن مسعود رضي الله عنهما: انهما يجعلان للمطلقة ثلاثا السكنى والنفقة» اخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٦٣.

(٣) في «جامع البيان» ٢٣/ ٦٤.

بالذكر دون غيرهن أدل الدليل على أن لا نفقة لبائن إلا أن تكون حاملاً» ثم استدل بحديث فاطمة بنت قيس. وقد سبق.

واختلف أهل العلم هل النفقة لها بواسطة الحمل أو للحمل وحده على قولين.

﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ أي: فإن أرضعن لكم المولود بعد انقضاء عدتهن وبينونتهن منكم، ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: اعطوهن أجور إرضاعهن لأولادكم وذلك أجرة المثل، أو ما يتفقان عليه وهن أحق بإرضاعهم من غيرهن ما لم تزد أجرة إرضاعهن عن أجرة المثل.

وفي هذا دلالة على أنه لا يجب عليهن إرضاعهم، وقد بن بانقضاء عدتهن.

قال ابن كثير(١): «أي: إذا وضعن حملهن وهن طوالق فقد بِنَّ بانقضاء عدتهن ولها حينئذ أن ترضع الولد، ولها أن تمتنع منه، ولكن بعد أن تغذيه باللِّبأ وهو باكورة اللبن، الذي لا قوام للولد غالباً إلا به، فإن أرضعت استحقت أجرة مثلها، ولها أن تعاقد أباه أو وليه على ما يتفقان عليه من أجرة».

﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ الائتمار: التشاور والتفاهم والاتفاق، أي: تشاوروا وتوافقوا ﴿بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: بما هو معروف شرعاً وعرفاً في أمر إرضاع المولود وأجرة ذلك، وفي جميع أموركم، من غير مضارة، كما قال عز وجل: ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

﴿وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ﴾ أي: وإن تعسر الأمر بينكم في إرضاع الولد وأجرة ذلك بأن امتنعت أمه من إرضاعه مطلقا، أو طلبت أجرة لم يوافق عليها الزوج، أو بذل الزوج أجرة لم توافق عليها هي، ونحو ذلك.

والتعاسر: تفاعل من العسر، أي: عسر على كل منكما قبول رأي الآخر في مقدار أجرة الرضاع.

﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى﴾ أي: يطلب له مرضعة أخرى غير أمه لكن إن رضيت الأم بالأجرة التي استؤجرت بها الأجنبية فهي أحق به.

وإن لم يقبل إلا ثدي أمه تعين عليها إرضاعه، ولها أجرة المثل إن لم يتفقا على مسمى.

﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ﴾ أي: لينفق صاحب السعة والغنى أي: الذي وسع الله عليه في رزقه.

﴿مِنْ سَعَتِهِ﴾ أي: بقدر وسعه وغناه، بحيث يوسع على من ينفق عليهم ومن ذلك التوسيع في النفقة على المطلقة الرجعية، وعلى البائن إذا كانت حاملاً وعلى المولود،

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٧٩.

سواء كان المنفق هو أبوه، أو وليه من بعده، ومن ذلك التوسيع على المرضعة بالأجرة وبخاصة إذا كانت أم المولود.

ويؤخذ من هذه الآية وجوب نفقة الولد على الأب دون الأم.

﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ أي: ومن ضيق عليه رزقه.

﴿فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ أي: فلينفق من الذي آتاه الله، أي: بقدر الذي آتاه الله من الرزق.

عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة نفر، كان لأحدهم عشرة دنانير، فتصدق منها بدينار. وكان لآخر عشر أواق فتصدق منها بأوقية. وكان لآخر مائة أوقية، فتصدق منها بعشر أواق. فقال رسول الله ﷺ: «هم في الأجر سواء كل تصدق بعشر ماله. قال الله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾»[1].

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ أي: لا يُحمّل الله نفساً إلا قدر الذي آتاها من الوسع والطاقة، وبما هو من مقدورها، فجعل عز وجل كلا بحسبه وخفف عن المعسر.

وهذه الآية كقوله تعالى في سورة البقرة ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الآية: ٢٨٦].

فحمداً لك اللهم على جعل التكليف وفق الوسع والطاقة.

رُوِيَ: «أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل عن أبي عبيدة رضي الله عنه فقيل: إنه يلبس الغليظ من الثياب، ويأكل أخشن الطعام. فبعث إليه بألف دينار، وقال للرسول: انظر ما يصنع بها، إذا هو أخذها. فما لبث أن لبس اللين من الثياب، وأكل أطيب الطعام، فجاء الرسول فأخبره، فقال: رحمه الله تأول هذه الآية ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾»[2].

﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾

أمر الله عز وجل من قدر عليه رزقه بالإنفاق بقدر ما آتاه الله، ثم وعد عز وجل بأنه سيجعل بعد عسر يسرا وذلك تسلية لمن لم يقدر إلا على القليل، وحثاً وتشجيعاً له لئلا يشح بهذا القليل.

﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ﴾ أي: جعلاً كونياً قدرياً ﴿بَعْدَ عُسْرٍ﴾ أي: بعد ضيق وشدة وفقر ﴿يُسْرًا﴾ سعة ورخاء وغنى.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٨٠، وقال ابن كثير «هذا حديث غريب من هذا الوجه».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٦٩ – ٧٠.

وهذا وعد منه عز وجل وهو الذي لا يخلف الميعاد بأنه سيجعل ويقدر بعد الضيق والشدة سعة ورخاء وفرجاً ومخرجاً، فالعسر يعقبه بإذن الله عز وجل اليسر.

عن أنس رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ جالساً وحياله جحر، فقال: «لو جاء العسر فدخل هذا الجحر لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه» فأنزل الله عز وجل ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الانشراح: ٥، ٦]»[1].

بل إنه عز وجل يتبع العسر بيسرين كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الانشراح: ٥، ٦] فذكر العسر معرفاً في الموضعين فدل على أن الثاني هو الأول، وذكر اليسر منكراً فدل على أن الثاني غير الأول.

ولهذا رُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «لن يغلب عسر يسرين»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «دخل رجل على أهله، فلما رأى ما بهم من الحاجة خرج إلى البرية، فلما رأت امرأته قامت إلى الرحى فوضعتها، وإلى التنور فسجرته، ثم قالت: اللهم ارزقنا. فنظرت، فإذا الجفنة قد امتلأت، قال: وذهبت إلى التنور فوجدته ممتلئاً، قال: فرجع الزوج قال: أصبتم بعدي شيئاً؟ قالت امرأته: نعم، من ربنا»[3].

الفوائد والعبر:

١ ـ أن عدة المطلقات الآيسات من المحيض واللاتي لم يحضن ثلاثة أشهر، وأولات الأحمال نهاية عدتهن وضع حملهن سواء كن مطلقات أو متوفى عنهن.

٢ ـ الترغيب في تقوى الله والوعد لمن اتقى الله بتيسير أموره في الدنيا وتكفير سيئاته وتعظيم أجره في الآخرة.

٣ ـ أن ما ذكر فيما سبق من أحكام الطلاق والرجعة والعدة وغير ذلك من أحكام جاءت في القرآن الكريم كل ذلك مما أمر الله به شرعاً وأنزله في كتابه.

٤ ـ وجوب إسكان المطلقات طلاقاً رجعياً من حيث يسكن أزواجهن ومن وجدهم وتحريم مضارتهن للتضييق عليهن ليخرجن قبل تمام العدة أو ليفتدين أنفسهن من

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٤٦ وروي موقوفاً من كلام ابن مسعود رضي الله عنه. انظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٤٥٣.

(٢) أخرجه مالك في الجهاد ـ الترغيب في الجهاد، انظر «تنوير الحوالك» ١/ ٢٩٦. وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٤٦ عن الحسن البصري، وأخرجه عنه مرفوعاً إلى النبي ﷺ مرسلاً، عبد الرزاق في «تفسيره» ٢/ ٣٨٠، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٤٩٦، والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٢٨.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٥١٣، وأخرجه بأطول من هذا ٢/ ٤٢١.

أزواجهن بمالهن، أو بتطليقهن ثم مراجعتهن إذا قاربن انتهاء العدة مضارة لهن.

٥ ـ وجوب النفقة للمطلقة الحامل لها وللحمل إذا كان الطلاق رجعياً ووجوب النفقة عليها لأجل الحمل إذا كان الطلاق بائناً، وقيل لا تجب لها النفقة في هذه الحال وظاهر الآية وجوب النفقة لها لأجل الحمل حتى تضع.

٦ ـ يجب إعطاء المطلقات البائنات أجرة المثل إذا هن أرضعن أولاد من طلقوهن.

٧ ـ وجوب الائتمار والتشاور والتوافق بالمعروف في أمر إرضاع المولود وأجرة ذلك، وفي جميع الأمور.

٨ ـ إذا تعاسر الزوجان في إرضاع الولد وفي أجرة ذلك ترضعه امرأة أخرى غير أمه.

٩ ـ أن نفقة الولد على الأب دون الأم.

١٠ ـ الترغيب لمن وسع الله عليه في الغنى أن يوسع في النفقة على المنفق عليهم من الأهل والأولاد، ومن ذلك التوسيع في الإنفاق على المطلقة الرجعية، وعلى البائن إذا كانت حاملاً وعلى المولود وعلى المرضعة بالأجرة وبخاصة إذا كانت الأم.

١١ ـ لا حرج على من ضيق عليه رزقه أن ينفق بقدر ما آتاه الله.

١٢ ـ أن التكليف على قدر الوسع والطاقة.

١٣ ـ وعد الله ـ عز وجل ـ بأنه سيجعل بعد عسر يسراً وهو الذي لا يخلف الميعاد، بل إن كل عسر معه من الله يسران.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾

صلة الآيات بما قبلها:

أمر الله عز وجل من مطلع السورة إلى هنا بامتثال جملة من أحكام الطلاق والعدة والرجعة وسكنى المعتدة والنفقة عليها وعلى حملها ورضاعه.

ثم أخبر عما حل بمن خالف أمر الله ورسله من الأمم السالفة من العذاب والعقوبات الدنيوية وما أعد لهم من العذاب الشديد في الآخرة، تأكيداً لوجوب امتثال ما أمر الله به ورسوله من أحكام، وتحذيراً من المخالفة لأوامر الله ـ عز وجل ورسوله.

قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي: وكثير من القرى.

﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ أي: عصت وتمردت وتجبرت وطغت واستكبرت عن أمر ربها الشرعي ورسله، أي: عن أوامر الله الشرعية وأوامر رسله.

والقرية: مأخوذة من القري، وهو مكان التجمع، ومنه سمي القرو وهو مكان تجمع الماء، وسمي القرآن: لأنه مجموع حروف وكلمات وآيات وسور.

والمراد بالقرية: مكان اجتماع طائفة من الناس يقال لها مدينة ويقال لها قرية، فهي المصر الجامع، قال عز وجل: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد: ١٣].

والمراد: وكثير من أهل القرى.

قال الطبري[(١)]: «وكم من أهل قرية طغوا عن أمر ربهم وخالفوه، وعن أمر رسل ربهم فتمادوا في طغيانهم وعتوهم، ولجوا في كفرهم».

وفي إضافة ضمير «قرية» إلى اسم «الرب» عز وجل في قوله ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ تأكيد لوجوب طاعة الله عز وجل وعدم مخالفته، وتذكير بنعمة ربوبيته فهو عز وجل الخالق المالك المدبر سبحانه وتعالى.

---

(١) في «جامع البيان» ٢٣/ ٧٠.

﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ أي: حاسبناها على تمردها وعتوها حسابا صعباً عسيراً، وناقشناها نقاشاً دقيقاً استقصينا فيه عليهم، ولم نتجاوز فيه عن شيء، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [الرعد: ١٨] وقد قال ﷺ: «من نوقش الحساب هلك»[1]. ولهذا قال بعده:

﴿وَعَذَّبْنَٰهَا﴾ أي: وعذبناها في الدنيا.

﴿عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي: عذاباً منكرا فظيعاً بأنواع العذاب والعقوبات، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النساء: ٨٤].

﴿فَذَاقَتْ﴾ أي: فأحست وتجرعت ومسها.

﴿وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أي: غب وعاقبة وعقوبة أمرها لما خالفت أمر الله ورسوله.

﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ وكان نهاية أمرها خسراً، أي: غبناً ونقصاً، وخسراناً لا ربح فيه بوجه من الوجوه.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي: هيأ الله لهم في الآخرة عذاباً شديداً وهو عذاب النار، العذاب الأشد والأكبر كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ [الزمر: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ [الغاشية: ٢٤].

والمعنى: أن الله عز وجل عذب أولئك الذين تمردوا عن أمره عذاباً منكراً وعقوبة عاجلة تجرعوها في الدنيا مع ما أعد الله لهم من العذاب الشديد في الآخرة، وكانت نهاية أمرهم الخسار والبوار في الدنيا والآخرة.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: فاتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه يا أصحاب العقول والبصائر السليمة، التي تفقه، وتهدي أصحابها إلى ما ينفعها وإلى ما فيه سعادتها في دينها ودنياها وأخراها. وفيه تحذير لهم من مسلك ومصير من تمردوا على أوامر الله ممن لديهم العقول التي هي مناط التكليف لكنها لم تنفعهم كما قال عز وجل

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٣٩، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٧٦، والترمذي في الرقائق ٢٤٢٦ - من حديث عائشة رضي الله عنها.

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ «الذين» اسم موصول مبني في محل نصب عطف بيان على «أولي» أو بدل منه، أي: الذين صدقوا وانقادوا ظاهراً وباطناً.

﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ «قد» للتحقيق، أي: قد أنزل الله إليكم ذكرا، وهو القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، [الحجر:٩]، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٠].

ويؤخذ من قوله ﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ علو الله ـ عز وجل ـ على خلقه ـ لأن الإنزال يكون من أعلى إلى أسفل، وأن القرآن الكريم منزل من عند الله عز وجل ـ غير مخلوق كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافاً للمعتزلة.

﴿رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ هذا كالتفسير لقوله ﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾.

قال بعضهم (رسولا) منصوب على أنه بدل اشتمال وملابسة لأن الرسول هو الذي بلغ الذكر، وقال بعضهم «رسولا» مفعول لفعل محذوف تقديره: أرسل رسولا، والمراد بقوله (رسولا) هو محمد ﷺ، ونكره لأنه معهود ومعروف.

﴿يَتْلُو﴾ يقرأ ويقص.

﴿آيَاتِ اللَّهِ﴾ الشرعية وهي آيات الذكر، القرآن الكريم، المنزل من عند الله، لأن القرآن الكريم بما اشتمل عليه من إعجاز في لفظه ومعناه وأحكامه وأخباره وصلاحيته لكل زمان ولكل مكان ولكل أمة، وما دل عليه من صدق من جاء به كل ذلك علامة على أنه من عند الله عز وجل كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

﴿مُبَيِّنَاتٍ﴾ حال، أي: يتلو عليكم آيات الله حال كونها مبينات.

قرأ بعض السبعة (مبيَّنات) بفتح الياء مع التشديد، بمعنى: أوضحهن الله عز وجل وبينهن. وقرأ بعضهم (مبيِّنات) بكسر الياء وتشديدها «اسم فاعل» أي: أنهن مبينات للحق من الباطل والهدى من الضلال والحلال من الحرام.

﴿لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يخرج الرسول ﷺ بما يتلو من الآيات البينات ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: الذين صدقوا بقلوبهم وألسنتهم بالله ورسوله ﷺ وبالآيات المنزلة عليه من عند الله عز وجل.

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: أي: وانقادوا بجوارحهم وعملوا الأعمال الصالحات. وحذف الموصوف دون الصفة للدلالة على أن المهم كون العمل صالحاً، أي: وعملوا الأعمال الصالحات التي يتوفر فيها: الإخلاص لله عز وجل، ومتابعة الرسول ﷺ. وهذا يدل على أنه لا بد مع الإيمان من عمل الصالحات لا كما يقول أهل الإرجاء: إنه يكفي مجرد الإيمان. فالإيمان قول وعمل واعتقاد.

﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: من ظلمات الكفر والشك والجهل إلى نور الإيمان واليقين والعلم، نور القرآن الذي به الهداية وحياة القلوب والذي سماه الله عز وجل نوراً في مواضع عدة من القرآن الكريم، كما سماه روحاً، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

وجمع الظلمات ووحد النور، لأن طرق الباطل كثيرة متشعبة، وطريق الحق واحد كما قال عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وهذه الآية كقوله في سورة إبراهيم ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الآية: ١]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وفي قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ امتنان من الله عز وجل على عباده المؤمنين بإنزال القرآن العظيم وإرسال الرسول الكريم ﷺ، وحث وترغيب وإغراء بالتذكر والاهتداء بالقرآن واتباع الرسول ﷺ.

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ .

ذكر الله عز وجل قبل هذا عذابه الدنيوي لمن عصى وتمرد عن أمر الله ورسله، وما أعد لهم من العذاب الشديد في الآخرة، ثم ذكر ما أعده لمن آمن وعمل صالحاً من الجنات وما فيها من الأنهار والرزق الحسن.

قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ ﴾ الواو: استئنافية و«من» شرطية، و«يؤمن» فعل الشرط، و«يعمل صالحاً» معطوف عليه، وجواب الشرط «يدخله جنات».

فمن آمن بالله ورسوله وكل ما أوجب الله الإيمان به وعمل عملاً صالحاً خالصاً لله عز وجل ووفق شرعه استحق هذا الجزاء وهو دخول الجنات.

والجنات: ما أعده الله عز وجل لإقامة أوليائه فيها من ألوان النعيم ما لا يعلمه إلا الله كما قال عز وجل ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧].

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ صفة لـ «جنات» أي: أن أنهارها المختلفة تجري من تحت أشجارها ومساكنها وغرفها كما قال عز وجل: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [العنكبوت: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الزمر: ٢٠].

وهي كما وصفها الله عز وجل بقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي: مقيمين فيها إقامة أبدية لا يتحولون عنها. وجمع «خالدين» نظراً لمعنى «من» في قوله ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾.

﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ «قد» للتحقيق، أي: قد أحسن الله لمن آمن بالله وعمل صالحاً ﴿رِزْقًا﴾، وأفرد الضمير مراعاة للفظ «من»، و﴿رِزْقًا﴾: عطاءً، وأي رزق وأي عطاء أحسن من دخول الجنات والخلود فيها والتمتع بما فيها من ألوان النعيم ورؤية العزيز الحكيم - نسأل الله عز وجل من فضله.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾

ذكر الله عز وجل في هذه السورة جملة من الأحكام آمراً بها، وحذر من مخالفة أمر الله ورسوله بذكر ما حل بمن عصى وخالف من الأمم الماضية من العذاب الدنيوي وما أعد لهم من العذاب الأخروي ممتناً على عباده المؤمنين بإرسال الرسول الكريم وإنزال الآيات الشرعية، وما أعد لهم من الجنات والرزق، ثم أتبع ذلك بذكر عظم آياته الكونية، وكمال قدرته وسلطانه العظيم وعلمه المحيط بكل شيء.

قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ أي: الذي أوجد وأنشأ سبع سموات كما قال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥]، وقال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي: وخلق من الأرض مثلهن أي: سبع أرضين، كما قال ﷺ: «من ظلم قيد شبر طوقه من سبع أرضين يوم القيامة»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم - إثم من ظلم شيئا من الأرض ٢٤٥٣، ومسلم في البيوع - تحريم الظلم وغصب الأرض =

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «من أخذ من الأرض شيئاً بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين»[١].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «خلق الله سبع سموات غلظ كل واحدة مسيرة خمسمائة عام، وبين كل واحدة منهن خمسمائة عام، وفوق السموات السبع الماء، والله جل ثناؤه فوق الماء لا يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم، والأرض سبع بين كل أرضين خمسمائة عام وغلظ كل أرض خمسمائة عام»[٢].

﴿يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ﴾ أي: يتنزل أمر الله الكوني بينهن.

أي: أن الله عز وجل خلقهن وأوجدهن، وأمره وتدبيره نافذ فيهن وفيما بينهن، لأنه عز وجل هو الرب الخالق المالك المدبر.

﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ اللام للتعليل، أي: أنه عز وجل خلق سبع سموات وسبع أرضين وأنفذ أمره فيهن وفيما بينهن لأجل أن تعلموا عموم قدرته وعظمتها، وسعة علمه وإحاطته بكل شيء.

والخطاب للمؤمنين لقوله قبل هذا ﴿قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا﴾.

وقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ هتان الجملتان كل منهما في تأويل مصدر في محل نصب مفعول ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ﴾ أي: لتعلموا قدرة الله على كل شيء، وإحاطة علمه بكل شيء.

وقدم المتعلق وهو قوله ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾، لتأكيد عموم قدرته على كل شيء أي: على كل شيء من الأشياء صغيراً كان أو كبيراً، قليلاً أو كثيراً، خفياً أو جلياً، دقيقاً أو جليلاً، أيا كان نوعه وكيفه وكمه.

﴿قَدِيرٞ﴾ أي: ذو قدرة عظيمة تامة نافذة، فلا يعجزه شيء سبحانه كما قال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [فاطر: ٤٤].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ معطوفة على الجملة قبلها، وقدم قوله ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾ لتأكيد شمول علمه وإحاطته بكل شيء، أي: لتعلموا كمال علم الله عز وجل، وإحاطة علمه بكل شيء وسعته كل شيء كما قال عز وجل: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا﴾ [طه: ٩٨].

=

وغيرها ١٦١٢ - من حديث عائشة رضي الله عنها.

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٥٤.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٧٨، والدارمي في «الرد على الجهمية» ص٢١، وابن خزيمة في التوحيد ص٧٠.

ففي خلقه عز وجل السموات السبع والأرضين السبع، وتدبيرهن وما بينهن دليل على عظيم قدرته عز وجل وشمولها لكل شيء، وعلى إحاطة علمه وسعته لكل شيء وأن الذي يخلق، ويستحق اسم الخالق حقا هو سبحانه، إذ من لازم ذلك تمام القدرة على كل شيء، وتمام العلم وسعته لكل شيء، وليس هذا لأحد سواه سبحانه وتعالى ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

الفوائد والعبر:

١ ـ التحذير من مخالفة وتكذيب أمر الله ـ عز وجل ـ ورسوله ﷺ بذكر ما حل بالمكذبين لأمر الله ورسله من الأمم السابقة من العقوبات الدنيوية وما ينتظرهم من العقوبات الأخروية.
٢ ـ مرارة وشدة مخالفة أمر الله ورسله فحساب شديد، وعذاب منكر، وتجرع لعقوبة المخالفة، وعاقبة خيبة وخسران، وعذاب شديد في الآخرة.
٣ ـ وجوب تقوى الله ـ عز وجل ـ بفعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه.
٤ ـ تميز وفضل أصحاب العقول التي تدلهم عقولهم على معرفة الله عز وجل ومعرفة الحق والعمل به لهذا خصهم بالأمر بتقوى الله.
٥ ـ التعريض بذم من لم يستفيدوا من عقولهم بل هم أشباه البهائم كما ذكر الله عز وجل.
٦ ـ الامتنان من الله ـ عز وجل ـ على المؤمنين بإنزال القرآن العظيم وبعثة الرسول الكريم ﷺ والترغيب والإغراء بتذكر القرآن واتباع الرسول ﷺ.
٧ ـ إثبات علو الله ـ عز وجل ـ على خلقه علواً مطلقاً.
٨ ـ أن القرآن الكريم ذكر وعظة لأولي الألباب، منزل من عند الله عز وجل غير مخلوق.
٩ ـ إثبات رسالة محمد ﷺ وتشريفه وتكريمه ﷺ.
١٠ ـ إقامة الحجة على الخلق بتبيين الآيات وتفصيلها.
١١ ـ أن الهدف من إرسال الرسل ومنهم محمد ﷺ ومن إنزال الكتب ومنها القرآن الكريم هو إخراج الناس وبخاصة الذين آمنوا وعملوا الصالحات من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم.
١٢ ـ أن الإيمان اعتقاد بالقلب وقول باللسان وعمل الصالحات بالجوارح.
١٣ ـ لابد لقبول العمل من كونه صالحاً، أي: خالصاً لله ـ عز وجل ـ وعلى سنة رسوله ﷺ.
١٤ ـ أن طريق الحق واحد وطرق الباطل كثيرة ومتشعبة.
١٥ ـ عظم ما أعد الله ـ عز وجل ـ لمن آمن بالله وعمل صالحاً من الجنات وما فيها من النعيم والأنهار والخلود الأبدي فيها والرزق الحسن.
١٦ ـ بيان كمال قدرة الله ـ عز وجل ـ وقوته وسعة علمه وإحاطته بكل شيء في خلق السموات السبع والأرضين السبع، ونفوذ أمره الكوني فيهن، وفيما بينهن وأنه عز وجل وحده الخالق المالك المدبر.

تفسير سورة التحريم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ۝٥﴾

سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قلت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «من المرأتان اللتان قال الله فيهما: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾؟ قال: عائشة وحفصة، وكان بدء الحديث في شأن أم إبراهيم القبطية أصابها النبي ﷺ في بيت حفصة في يومها، فوجدته حفصة، فقالت: يا نبي الله لقد جئت إليّ شيئاً فريا، ما جئت إلى أحد من أزواجك في يومي وفي دوري، وعلى فراشي، قال: «ألا ترضين أن أحرمها عليّ فلا أقربها؟» قالت: بلى. فحرمها، وقال: «لا تذكري ذلك لأحد» فذكرته لعائشة فأظهره الله عز وجل عليه، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾ الآيات كلها فبلغنا أن النبي ﷺ كفر يمينه، وأصاب جاريته»[1].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «قال النبي ﷺ لحفصة: «لا تخبري أحداً، وإن أم إبراهيم عليّ حرام» فقالت: أتحرم ما أحل الله لك؟، قال: «فوالله لا أقربها». قال: فلم يقربها حتى أخبرت عائشة. قال: فأنزل الله: ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾»[2].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٨٨، ٩٥، ٩٦، وقد أخرج أوله من حديث مطول البخاري في تفسير سورة التحريم ٤٩١٣ – ٤٩١٦، ومسلم في الطلاق – في الإيلاء ١٤٧٩، والترمذي في تفسير سورة التحريم ٣٣٧٤، وأحمد ١/ ٣٣ – ٣٤.

(٢) أخرجه الهيثم بن كليب في مسنده فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٨٦ وقال ابن كثير: «وهذا إسناد صحيح، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة، وقد اختاره الحافظ الضياء المقدسي في كتابه «المستخرج».

وعن أنس رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها على نفسه، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ إلى آخر الآية»[١].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، ويمكث عندها، فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له أكلت مغافير[٢]؟، إني أجد منك ريح مغافير فدخل على إحداهما النبي ﷺ، فقالت ذلك له، فقال: «لا، بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش، ولن أعود له» فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ إلى ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ لعائشة وحفصة ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ﴾ لقوله: «بل شربت عسلاً، ولن أعود له، وقد حلفت، فلا تخبري بذلك أحداً»[٣].

وفي رواية عن عائشة أيضاً أن التي أسقته العسل هي حفصة، وأن اللاتي تواطأن على تلك المقالة هن عائشة وسودة وصفية[٤].

قال ابن كثير[٥] بعد سياق هذه الرواية والتي قبلها: «والغرض أن هذا السياق فيه أن حفصة هي الساقية للعسل، وهو من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن خالته عائشة رضي الله عنها، وفي طريق ابن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمير عن عائشة أن زينب بنت جحش هي التي سقت العسل، وأن عائشة وحفصة تواطأتا وتظاهرتا عليه فالله أعلم، وقد يقال: إنهما واقعتان ولا بُعْدَ في ذلك إلا أن كونهما سبب نزول الآية فيه نظر. ومما يدل على أن عائشة وحفصة رضي الله عنهما هما المتظاهرتان حديث ابن عباس: «لم أزل حريصا على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله فيهما: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾»[٦].

وقد رجح بعض المفسرين في سبب النزول قصة مارية، لأن الغيرة هي التي تحمل

---

(١) أخرجه النسائي في عشرة النساء ٣٩٥٩ والحاكم ٢/ ٤٩٣ وقال: «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي.

(٢) المغافير: شيء شبيه بالصمغ يكون في شجر الرمث فيه حلاوة. انظر مادة «غفر» في «الصحاح» للجوهري، «لسان العرب» وانظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ١٨٨.

(٣) أخرجه البخاري في الطلاق ٥٢٦٧، ومسلم في الطلاق ـ وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق ١٤٧٤، وأبو داود في الأشربة ٣٧١٤، والنسائي في الطلاق ٣٤٢١.

(٤) أخرجها أيضا البخاري في الطلاق ـ باب ﴿لم تحرم ما أحل الله لك﴾ ٥٢٦٨، ومسلم في الموضع السابق.

(٥) في «تفسيره» ٨/ ١٨٩.

(٦) سبق تخريجه.

النساء على مثل هذه المواقف وبهذا قال جمع من مفسري السلف[١].

ورجح بعضهم قصة شرب العسل منهم ابن العربي والقرطبي [٢] وهكذا قال ابن كثير [٣]: «والصحيح أن ذلك كان في تحريمه العسل» ثم ذكر ما رواه البخاري وغيره لكن يعكر هذا قوله قبل هذا: «إلا أن كونهما سبب نزول الآية فيه نظر».

ولا شك أن قصة مارية أقوى من حيث المعنى إلا أن الأولى اعتبار القصتين في سبب النزول، نظراً لصحة إسناد كل منهما.

قال الطبري[٤]: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: كان الذي حرمه رسول الله ﷺ على نفسه شيئاً كان الله قد أحله له، فجائز أن يكون ذلك كان جاريته، وجائز أن يكون شراباً من الأشربة، وجائز أن يكون غير ذلك، غير أنه أي ذلك كان، فإنه تحريم شيء كان له حلالاً فعاتبه الله تعالى ذكره على تحريمه على نفسه ما كان قد أحله، وبيّن تحلة يمينه».

وقال ابن حجر[٥]: «يحتمل أن تكون الآية نزلت في السببين معاً».

وقال الشوكاني[٦]: «فهذان سببان صحيحان لنزول الآية، والجمع ممكن بوقوع القصتين قصة العسل وقصة مارية، وأن القرآن نزل فيهما جميعاً، وفي كل واحد منهما أنه أسر الحديث إلى بعض أزواجه».

قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ «يا» حرف نداء، و«أي» منادى مبني على الضم في محل نصب و«ها» للتنبيه و«النبي» صفة لأي، أو بدل منها. و«ال» فيه للعهد الذهني، أي: النبي المعهود المعلوم المعروف، محمد ﷺ.

والنبي مشتق من النبأ وهو الخبر، لأنه مُخبَر من عند الله، ومُخبِر لقومه، ومشتق من النبوة وهو المكان المرتفع لعظم ورفعة منزلة الأنبياء عليهم السلام.

﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ الاستفهام للتنبيه والعتاب أي: لماذا تحرم الذي أحله الله لك من العسل، أو مارية القبطية، أو غير ذلك.

---

(١) انظر «جامع البيان» ٢٣/ ٨٣ – ٨٨.

(٢) انظر «أحكام القرآن» لابن العربي ٤/ ١٨٤٤ – ١٨٤٦، «الجامع لأحكام القرآن» ١٨/ ١٧٩.

(٣) في «تفسيره» ٨/ ١٨٧.

(٤) في «جامع البيان» ٢٣/ ٨٩.

(٥) في «فتح الباري» ١٠/ ٢٨٣.

(٦) في «فتح القدير» ٥/ ٢٥٢.

﴿تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾ أي: تطلب وتريد رضا أزواجك عائشة وحفصة، أو غيرهما، كما جاء في سبب النزول وهذا يقوي أن الذي حرمه على نفسه هو مارية القبطية، وأياً كان الذي حرم على نفسه ﷺ ـ فإن في هذا دليلاً على عدم عصمته ﷺ عن الصغائر وكذا سائر الأنبياء ـ عليهم السلام ـ من باب أولى لكنهم يوفقون للتوبة منها والرجوع عنها.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ «الغفور» و«الرحيم» من أسماء الله عز وجل، فهو عز وجل ذو المغفرة التامة، والرحمة الواسعة، ومن مغفرته عز وجل ورحمته أن غفر لرسوله ﷺ ما حصل منه من تحريم الحلال على نفسه ورحمه ورحم أمته بفرض الكفارة.

﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ «قد» للتحقيق، و«فرض» بمعنى أوجب، أي: قد أوجب الله لكم تحليل أيمانكم، أو التحلل من أيمانكم والخروج من تبعتها بالكفارة، وهذا إذا كانت على تحريم الحلال ونحو ذلك كتحليل الحرام فيجب التكفير عنها والحنث. أما ما عدا ذلك فيجب الوفاء بها. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ إلى قوله: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ [المائدة: ٨٧ ـ ٨٩].

قال ابن عباس: «﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] يعني أن النبي ﷺ حرم جاريته، فقال الله جل ثناؤه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ فكفر يمينه، فصير الحرام يميناً»[1].

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «في الحرام يمين تكفر وقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]»[2].

ففرض الله عز وجل وأوجب على من حلف على تحريم الحلال أن يتحلل من يمينه بالكفارة أيا كان هذا الحلال الذي حلف على تحريمه سواء جاريته أو طعاماً أو شراباً، أو ملبساً، أو أي شيء من المباحات وهذا هو ظاهر قوله عز وجل ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ وقال ﷺ: «إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها»[3].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٨٧.

(٢) أخرجها البخاري في تفسير سورة التحريم ٤٩١١، ومسلم في الطلاق ـ وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق ١٤٧٣، والنسائي في الطلاق ٣٤٢٠، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٧٣.

(٣) أخرجه البخاري في الذبائح والصيد ٥٥١٨، ومسلم في الأيمان ١٦٤٩، والنسائي في الصيد والذبائح ٤٣٤٦، وابن =

وعن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فكفر عن يمينك وائت الذي هو خير»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها، فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه»[٢].

وعن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر رضي الله عنه لم يكن يحنث في يمينه قط حتى أنزل الله كفارة اليمين، وقال: «لا أحلف على يمين، فرأيت غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وكفرت عن يميني»[٣].

﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي: والله متولي أموركم، وناصركم ومعينكم.

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ «العليم» و«الحكيم» من أسماء الله عز وجل كل منهما على وزن «فعيل» يدل «العليم» علىإثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل كما قال عز وجل: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

ويدل «الحكيم» على أنه عز وجل ذو الحكم التام بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة التامة: الحكمة الغائية والحكمة الصورية.

﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ أي: واذكر حين أسر النبي إلى بعض أزواجه، وهي حفصة رضي الله عنها في قول أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم ﴿حَدِيثًا﴾ هو قوله لحفصة ـ رضي الله عنها ـ كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما في سبب النزول في شأن مارية «ألا ترضين أن أحرمها فلا أقربها، قالت: بلى فحرمها. وقال: لا تذكري ذلك لأحد».

أو هو قوله ﷺ «بل شربت عسلاً ولن أعود، وقد حلفت، فلا تخبري بذلك أحداً» كما جاء هذا في حديث عائشة رضي الله عنها في سبب النزول.

﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ أي: فلما أخبرت حفصة بما أسر به النبي ﷺ إليها عائشة رضي الله عنهما.

﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي: وأطلعه الله عز وجل على أن حفصة أخبرت عائشة.

=

ماجه في الكفارات ٢١٠٧ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور ٦٦١٢، ومسلم في الأيمان ١٦٥٢، وأبو داود في الأيمان والنذور ٣٢٧٨، والنسائي في آداب القضاة ٥٣٨٤.

(٢) أخرجه مسلم في الأيمان ١٦٥٠، والترمذي في النذور والأيمان ١٥٣٠.

(٣) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور ٦٦٢١.

﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ قرأ الكسائي ﴿ عَرَف ﴾ بتخفيف الراء، وقرأ الباقون بتشديدها.

أي: عرّف حفصة بعض ما أفشت من حديثه ﷺ ﴿وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ أي: تركه فلم يعرفها به، ولم يعرض له كرماً منه ﷺ وحلماً.

وهكذا ينبغي لمن يعاتب أخاً له أن لا يكثر عليه وأن يعرض عن كثير مما حصل منه.

﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ﴾ أي: فلما أخبرها به، أي أخبر حفصة بعلمه أنها أخبرت بما أسر به إليها وأفشت سره لعائشة رضي الله عنهما.

﴿قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾ أي: قالت حفصة رضي الله عنها من أخبرك ﴿هَٰذَا﴾ أي: هذا الخبر وهو أني افشيت ما أسررتَ به إليَّ، والذي لم يخرج منا، وكأنها ظنت أن عائشة رضي الله عنها أخبرته بذلك.

﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ أي: قال ﷺ أخبرني العليم الخبير، و«العليم» ذو العلم المحيط بكل شيء كما قال عز وجل: ﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام: ٨٠].

و«الخبير» اسم من أسماء الله ـ عز وجل ـ على وزن «فعيل» أي: المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها، وعلى هذا فهو مطلع على ظواهرها وجلائلها وجلياتها من باب أولى. لكن في حال اجتماع هذين الاسمين معاً يحمل «العليم» على العلم بالظواهر، ويحمل «الخبير» على العلم بالبواطن.

والمعنى: قال أخبرني العليم الخبير بكل شيء، المطلع على الظواهر والبواطن، والذي يعلم السر وأخفى، والذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾.

هذا عتاب من الله عز وجل لحفصة وعائشة رضي الله عنهما وعرض للتوبة عليهما، وتذكير لهما بأنهما حصل منهما ما لا ينبغي.

والتوبة معناها: الرجوع والإنابة إلى الله ـ عز وجل ـ بشروطها المعلومة، والمعنى: إن ترجعا إلى الله وتنيبا إليه ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أي: فقد مالت قلوبكما إلى ما فيه مشقة عليه ﷺ، مما كان سبباً في تحريمه على نفسه ما يحبه.

وجمع القلوب مع أنهما قلبان للتخفيف وكراهة الجمع بين تثنيتين متواليتين وهذا كقوله ﴿فَٱقْطَعُوٓا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨].

﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ أي: وإن تتظاهرا عليه، فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً، أي: وإن

تعاونا عليه بما يشق عليه ﷺ ويستمر هذا منكن.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه من المرأتان اللتان قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾؟ قال: «عائشة وحفصة»[1].

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ﴾ أي: متوليه وناصره ومعينه.

﴿وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ جبريل: هو ملك الوحي عليه السلام.

﴿وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ أي: ومن صلح من المؤمنين، أو والمؤمنون الصالحون، الذين جمعوا بين الإيمان وإصلاح العمل بالإخلاص لله عز وجل ومتابعة الرسول ﷺ كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم وغيرهم من المؤمنين رضي الله عنهم.

والمعنى: فإن الله هو متوليه وناصره ومعينه، وجبريل وصالح المؤمنين أولياؤه وأنصاره وأعوانه ـ بعد الله ـ عز وجل، وفي هذا أعظم تشريف وتكريم له ﷺ، ودفاع عنه، وحفظ له، كما أن فيه من التحذير لحفصة وعائشة رضي الله عنهما ما لا يخفى.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «حدثني عمر بن الخطاب قال: «لما اعتزل نبي الله ﷺ نساءه دخلت المسجد، فإذا الناس ينكتون بالحصى، ويقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه، وذلك قبل أن يؤمر بالحجاب. فقلت: لأعلمن ذلك اليوم» وذكر الحديث في دخوله على عائشة وحفصة، ووعظه إياهما، وفي استئذانه على رسول الله ﷺ ثم قال: «فقلت: يا رسول الله ما يشق عليك من أمر النساء، فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك، وقلما تكلمت، ـ وأحمد الله ـ بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولي، ونزلت هذه الآية آية التخيير: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ﴾، ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾، فقلت: أطلقتهن؟ قال: لا. فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق نساءه. ونزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٌ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [النساء: ٨٣] فكنت استنبطت ذلك الأمر»[2].

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ

---

(١) اخرجه البخاري في تفسير سورة التحريم ٤٩١٣، ٤٩١٤، ٤٩١٥، ومسلم في الطلاق – باب في الإيلاء ١٤٧٩ – وقد سبق تخريجه في سبب النزول.

(٢) اخرجه مسلم في الطلاق ـ باب الإيلاء ١٤٧٩، واخرجه البخاري بمعناه في تفسير سورة التحريم ٤٩١٣، ٤٩١٤، ٤٩١٥.

سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾

صلة الآية بما قبلها:

ذكر الله عز وجل في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ﴾ الآية أنه متول رسوله ﷺ وناصره، وجبريل وصالح المؤمنين أيضاً أنصاره وأعوانه. وفي هذا من التخويف لأزواجه ما لا يخفى، ثم خوفهن بأمر يشق على النساء كثيراً وهو الطلاق فقال: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ﴾.

سبب النزول:

عن أنس ـ رضي الله عنه، قال: قال عمر ـ رضي الله عنه: «اجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه، فقلت لهن: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن، فنزلت هذه الآية»[1]

وفي حديث ابن عباس المذكور آنفاً:

«قال عمر: فقلت: يا رسول الله ما يشق عليك من أمر النساء، فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنين معك ... ونزلت هذه الآية آية التخيير: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ﴾».

وفي حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ قال عمر ـ رضي الله عنه: «وافقت الله في ثلاث، أووافقني ربي في ثلاث، قلت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، وقلت يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب، قال: وبلغني معاتبة النبي ﷺ بعض نسائه فدخلت عليهن، قلت إن انتهيتن أو ليبدلن الله رسوله خيراً منكن، حتى أتيت إحدى نسائه، قالت: يا عمر أما في رسول الله ﷺ ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت؟ فأنزل الله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾»[2].

«عسى» للترجي بالنسبة للمخلوق، وهي من الله واجبة كما قال ابن عباس رضي الله عنهما[3] أي: وعد محقق منه عز وجل.

وفي التعبير بلفظ الربوبية، وإضافة «رب» إلى ضميره ﷺ في قوله ﴿رَبُّهُۥٓ﴾ إضافة إلى تشريفه ﷺ وتكريمه إشارة أيضا إلى أنه ﷺ يلوذ بملاذ عظيم، ويأوي إلى ركن شديد هو

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة التحريم ٤٩١٦، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٩٩ ــ ١٠٠.

(٢) أخرجه البخاري في «تفسير سورة البقرة ـ قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗى﴾ ٤٤٨٣.

(٣) أخرجه البيهقي في سننه فيما ذكره الزركشي في «البرهان» ٤/ ٢٨٨. وانظر «تفسير آيات الأحكام في سورة النساء» ٢/ ٨٩٣ ـ ٨٩٤.

ربه الذي بيده الخلق والملك والتدبير.

﴿إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ أي: إن حصل منه تطليق وفراق لكن. وهذا فيه تخويف لهن كما سبق.

﴿أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ الإبدال والتبديل جعل شيء مكان شيء، والمعنى: أن يرزقه بدلكن ومكانكن ويعوضه عنكن ﴿أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ أي: أزواجاً خيراً وأفضل منكن مطلقا ديناً ودنيا وهذا لو طلقهن، لكنه لم يطلقهن فبقين هن أمهات المؤمنين وأفضل نساء الأمة ـ رضي الله عنهن.

قال السعدي[1]: «وهذا من باب التعليق الذي لم يوجد، ولا يلزم وجوده، فإنه ﷺ ما طلقهن ولو طلقهن لكان ما ذكره الله عز وجل من هذه الأزواج الفاضلات».

﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾ الإسلام: هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك، فمعنى ﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾ مستسلمات منقادات ظاهراً بجوارحهن بفعل الأعمال الظاهرة ﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ أي: مصدقات منقادات باطناً بقلوبهن. أي: أنهن منقادات ظاهراً وباطناً.

ويؤخذ من ذكر «مسلمات»، «مؤمنات»، ومن تقديم «مسلمات» على «مؤمنات» أن الإيمان غير الإسلام، وأن الإسلام أعم، وأن الإيمان أخص، وقد سبق الكلام على هذا في سورة الحجرات، وفي سورة الذاريات.

﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ القنوت دوام الطاعة، أي: مطيعات مديمات لطاعة الله عز وجل، وطاعة أزواجهن.

﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ أي: راجعات إلى الله ومنيبات إليه.

﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾ أي: مخلصات العبودية لله عز وجل متذللات خاضعات له سبحانه، قائمات بما يحب سبحانه.

والعبادة لغة: التذلل والخضوع، وشرعاً: اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ أي: صائمات. بهذا فسرها جمهور السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وهو أقرب.

وقال بعضهم: معنى ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ أي: مهاجرات.

﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ الثيب: التي سبق أن تزوجت، والبكر: التي لم تتزوج بعد، أي: لم تفتض بكارتها. وقد وسط الواو بين ﴿ثَيِّبَٰتٍ﴾ ﴿وَأَبْكَارًا﴾ دون بقية الصفات، لأنهما صفتان متنافيتان، لا يمكن اجتماعهما بخلاف بقية الصفات فقد تجتمع.

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٤٢١.

وقدم الثيبات على الأبكار ـ والله أعلم ـ لأن الثيبات عندهن من التجربة في أمور الحياة والرزانة ما ليس عند الأبكار. ولا تخفى تلك المواقف العظيمة لخديجة رضي الله عنها معه ﷺ وكذا أم سلمة رضي الله عنها، وغيرهما.

ولم يعطف هذه الصفات بعضها على بعض بالواو لأجل التنصيص على ثبوت جميع هذه الصفات لكل واحدة منهن. ولو عطفت بالواو لاحتمل أن بعضهن يتصف بكذا وبعضهن يتصف بكذا، ولهذا لما أريد هذا المعنى في الثيبات والأبكار وسط الواو بينهن لتنافي هتين الصفتين وعدم اجتماعهما أما بقية الصفات فيمكن اجتماعها في الواحدة منهن.

قال السعدي[1]: «فلما سمعن رضي الله عنهن هذا التخويف والتأديب بادرن إلى رضا رسول الله ﷺ فكان هذا الوصف منطبقاً عليهن، فصرن أفضل نساء المؤمنين».

الفوائد والعبر:

١ ـ تصدير الخطاب للنبي ﷺ بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام.

٢ ـ نداؤه ﷺ بوصف النبوة تشريفاً وتكريماً له.

٣ ـ معاتبة الله ـ عز وجل ـ لنبيه ﷺ في تحريمه ما أحل الله له سواء جاريته أو العسل أو غير ذلك.

٤ ـ أنه ﷺ ليس معصوماً عن الوقوع في الصغائر، وكذلك سائر الأنبياء من باب أولى لكنهم يرجعون عنها ويتوبون.

٥ ـ لا يجوز تحريم ما أحل الله من الطيبات كما لا يجوز تحليل ما حرم الله من الخبائث.

٦ ـ الحذر من إرضاء الأزواج، أو الأولاد أو غيرهم فيما يسخط الله.

٧ ـ إثبات اسمين من أسماء الله ـ عز وجل ـ وهما «الغفور» و «الرحيم» وما يؤخذ منهما من إثبات المغفرة التامة لله ـ عز وجل ـ والرحمة الواسعة.

٨ ـ وجوب التحلل من الأيمان والتكفير عنها إذا كانت على تحريم حلال أو تحليل حرام، ووجوب التكفير عنها مطلقاً إذا حصل الحنث فيها.

٩ ـ إثبات ولاية الله ـ عز وجل ـ للمؤمنين ونصره وتأييده وحفظه وتسديده لهم.

١٠ ـ إثبات اسم «العليم» و «الحكيم» من أسمائه عز وجل وأنه عز وجل ذو العلم

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٤٢٢.

التام الواسع والحكم النافذ والحكمة البالغة.

١١ ـ إطلاع الله ـ عز وجل ـ لنبيه ﷺ على شيء مما غاب عنه تأييداً له ﷺ ومن ذلك إظهاره له على إفشاء إحدى زوجاته ما أسر به إليها.

١٢ ـ كرم خلقه ﷺ إذ لم يعاتب من أفشت سره ﷺ إلا على بعض ما حصل منها وأعرض عن بعض.

١٣ ـ إثبات اسم الله ـ عز وجل ـ «الخبير» وما يدل عليه من سعة خبرته عز وجل واطلاعه على بواطن الأمور وخفاياها.

١٤ ـ عتاب الله ـ عز وجل ـ لحفصة وعائشة ـ رضي الله عنهما ـ وحثهما على التوبة مما حصل منهما مما فيه مشقة عليه ﷺ وتحذير هما من التعاون عليه ﷺ.

١٥ ـ تولي الله ـ عز وجل ـ لنبيه ﷺ وتكريمه له وعنايته به وحفظه له ودفاعه عنه بنفسه بجبريل وصالح المؤمنين وملائكته.

١٦ ـ إثبات ربوبية الله الخاصة لنبيه ﷺ ـ لقوله (عسى ربه) وتشريفه ﷺ وتكريمه بها.

١٧ ـ التهديد لأزواج النبي ﷺ بطلاقه لهن واستبدالهن بأزواج خير منهن فيهن أجمل الصفات وأكملها.

١٨ ـ إباحة الطلاق، وأنه جائز له ﷺ أن يطلق من شاء من أزواجه أو يطلقهن كلهن.

١٩ ـ أن الإسلام أعم من الإيمان فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً.

٢٠ ـ الترغيب لأزواج النبي ﷺ ولغيرهن من نساء المسلمين بل وللمسلمين عامة بالاتصاف بالصفات المذكورة، الإسلام والإيمان والقنوت والتوبة والعبادة والسياحة وهي الصيام.

٢١ ـ في تقديم الثيبات على الأبكار في الآية إشارة لمكانتهن لما لهن من التجربة والرزانة والله أعلم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٨﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ أي: اجعلوا لأنفسكم وأهليكم من أزواج وأولاد وغيرهم وقاية من النار بتقوى الله عز وجل بأنفسكم بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وبتعليم أهليكم من أزواج وأولاد وغيرهم وإرشادهم، وحملهم على تقوى الله عز وجل كما قال ﷺ: «مروا أبناءكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم في المضاجع»[1].

وقدّم الأنفس لأن أول ما يجب أن يبدأ به المرء نفسه، فهي أمانة عنده يجب أن يحملها على ما فيه صلاحها واستقامتها وسلامتها ونجاتها، ولهذا جاء في النفقة قوله ﷺ «ابدأ بنفسك ثم بمن تعول»[2].

وقرن الأهل بالأنفس إشارة إلى عظم مسؤولية الإنسان عن أهله كما قال ﷺ: «فالرجل راع ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها» الحديث[3].

وقوله ﴿نَارٗا﴾ بالتنكير، أي: ناراً شديدة عظيمة ليست كناركم المعروفة.

﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ وقودها: ما توقد به أي: أنها توقد بالناس، أي: بجثث بني آدم، وبالحجارة، وليست توقد بالحطب والخشب كنار الدنيا، والمراد بالحجارة حجارة

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة ـ متى يؤمر الغلام بالصلاة ٤٩٥، والترمذي في المواقيت ـ متى يؤمر الصبي بالصلاة ٤٠٥، وأحمد ٣/ ٤٠٤ من حديث سبرة بن معبد الجهني رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح» وأخرجه أبو داود أيضاً من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة ٩٩٧، من حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ابدأ بنفسك تصدق عليها، فإن فضل شيء فلأهلك، فإن فضل شيء فلذي قرابتك... الخ»، والنسائي في البيوع ٤٦٥٢، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال قال النبي ﷺ: «أفضل الصدقة ما ترك غنى واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول.. » أخرجه البخاري في النفقات ٥٣٥٥، وأبو داود في الزكاة ١٦٧٦ والنسائي في الزكاة ٢٥٣٤.

(٣) أخرجه البخاري في الجمعة ٨٩٣، ومسلم في الإمارة ١٨٢٩، وأبو داود في الخراج والإمارة والفيء ٢٩٢٨، والترمذي في الجهاد ١٧٠٥ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الكبريت شديدة الاشتعال، وشديدة الحرارة، شديدة النتن، ومن ذلك الأصنام التي تعبد من دون الله من الأحجار وغيرها كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

وهذه الآية كقوله تعالى في سورة البقرة ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [الآية: ٢٤].

﴿عَلَيْهَا﴾ أي: قد أوكل على هذه النار ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ﴾ وهم خزنة النار وزبانيتها كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨]، وقال تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠].

ومن هؤلاء الملائكة «مالك» خازن النار كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

﴿غِلَاظٌ﴾ أي: غلاظ القلوب والطباع، قد نزعت الرحمة من قلوبهم بالكافرين.

﴿شِدَادٌ﴾ أقوياء الأجسام تركيبهم في غاية الشدة والضخامة والمنظر المزعج.

﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ «لا» نافية، ومعصية الله مخالفته بترك أمره أو ارتكاب نهيه، وقوله ﴿مَآ أَمَرَهُمْ﴾ في محل نصب بدل من لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ أي: لا يعصون الله ما أمر، أي: أمره.

و«ما» في الموضعين موصولة تفيد العموم، أي: لا يخالفون أمر الله الذي يأمرهم به في أي أمر أمرهم به.

والصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها كما في قوله عز وجل ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

والمعنى هنا إثبات كمال طاعتهم لله عز وجل ومبادرتهم لتنفيذ أمره، وكمال قدرتهم على ذلك وهو ما صرح به في قوله: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي: ويفعلون كل ما يأمرهم الله عز وجل به من غير توان ولا عجز.

وقوله ﴿مَا يُؤْمَرُونَ﴾ دون أن يقول: ما يأمرهم الله به. لأنه معلوم أنه عز وجل هو الذي يأمرهم، ولقوله قبله ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ «يا» حرف نداء، وأي: منادى مبني على الضم في محل نصب، و«الذين» صفة لـ «أي» أو بدل منها «كفروا» صلة الموصول «الذين» أي: الذين جحدوا وأنكروا وجود الله وربوبيته وألوهيته وأسماءه وصفاته وشرعه أو شيئاً من ذلك.

وصدر الخطاب بالنداء للتعظيم والاهتمام والتنبيه لهم. ونودوا بوصف الكفر إهانة وتحقيراً لهم وبياناً أن هذا الوصف وهو الكفر هو الذي أوقعهم فيما هم فيه من العذاب والمصير السيء.

﴿لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ﴾ «لا» ناهية، والاعتذار: تقديم العذر، وطلب المعذرة والمسامحة، والمراد باليوم يوم القيامة المعلوم المعهود الثقيل الشديد.

والمعنى: لا تعتذروا فإنه لا يقبل منكم. وقد يكون النهي هنا بمعنى النفي: أي: لا عذر لكم يوم القيامة.

﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ «إنما» أداة حصر و«ما» موصولة، أو مصدرية، والمعنى: لا تجزون وتحاسبون وتعاقبون إلا بعلمكم أو بالذي كنتم تعملون.

وقال ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ دون أن يقول: بما كنتم تعملون، فكأن الجزاء هو نفس العمل للإشارة والتنبيه إلى أن الجزاء من جنس العمل تماماً، وأن الإنسان كما يدين يدان كما قال تعالى: ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦] أي: موافقاً لأعمالهم.

والمعنى: لا تعتذروا فلن يقبل منكم، أو لا عذر لكم، ولن تظلموا إنما تجازون بالذي كنتم تعملون من غير زيادة ولا نقص، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٨].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ سبق الكلام عليه في مواضع عدة.

﴿تُوبُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: ارجعوا إلى الله وأنيبوا إليه، كما قال عز وجل ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ [الزمر: ٥٤].

﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم بضم النون (نُصوحا) وقرأ الباقون بفتحها. و«توبة» مصدر، و«نصوحا» صفة لها، أي: رجعة وأوبة وإنابة صادقة، هي محض الصدق والنصح والإخلاص، لا غش فيها ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩٢].

قال ابن القيم[1]: «النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء: الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنباً إلا تناولته، والثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها بحيث لا يبقى عنده تردد ولا تلوم ولا انتظار، بل يجمع عليها كل إراداته وعزيمته مبادراً بها، الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته والرغبة فيما لديه، والرهبة مما عنده، لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته،

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٨٦ – ٤٨٧.

ومنصبه ورياسته، ولحفظ حاله أو لحفظ قوته وماله، أو استدعاء حمد الناس أو الهرب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء أو لقضاء نهمته من الدنيا أو لإفلاسه وعجزه، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله عز وجل. فالأول يتعلق بما يتوب منه، والثالث يتعلق بما يتوب إليه، والأوسط يتعلق بذات التائب ونفسه. فنصح التوبة: الصدق فيها والإخلاص، وتعميم الذنوب بها، ولا ريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمنه وتمحو جميع الذنوب، وهي أكمل ما يكون من التوبة».

أي: توبة صادقة يتوفر فيها شروط التوبة الخمسة، الأول: الإخلاص لله تعالى، فلا تكون خوفاً أو رجاء من غيره ونحو ذلك.

الشرط الثاني: الإقلاع عن المعصية ومن ذلك رد حقوق الآدميين إليهم، فإنه لا يعتبر مقلعاً عن المعصية من لم تزل حقوق الآدميين في ذمته.

الشرط الثالث: الندم على فعل المعصية، وقد قال ﷺ: «الندم توبة»[(١)].

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن التوبة النصوح، فقال: «الندم على الذنب حين يفرط منك، فتستغفر الله بندامتك منه عند الحاضر، ثم لا تعود إليه أبداً»[(٢)].

الشرط الرابع: العزم على عدم العودة إليها مرة ثانية، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «التوبة النصوح أن يتوب من الذنب ثم لا يعود فيه»[(٣)]. وروي نحوه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه[(٤)].

الشرط الخامس: أن تكون التوبة في وقتها المناسب، قبل بلوغ الروح الحلقوم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١٧ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٧، ١٨][(٥)].

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٧٦، وابن ماجه في الزهد - ذكر التوبة ٤٢٥٢ - من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٦٢.
(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ١٠٦ - ١٠٧، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٦٢.
(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ١٠٧.
(٥) انظر تفصيل شروط التوبة وأحكامها في «تفسير آيات الأحكام في سورة النساء» ١/ ٣٣٠ - ٣٣٣.

وقال ﷺ: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[(١)].

وأن تكون التوبة قبل غلق بابها بطلوع الشمس من مغربها، وفي الحديث «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»[(٢)].

وقال ﷺ: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها»[(٣)].

وتقبل التوبة من العبد وإن كان مقيما على غيره على الصحيح من أقوال أهل العلم خلافاً للمعتزلة الذين يقولون: لا يعتبر تائباً من أقام على ذنب، لأن من تاب من ذنب يقال له تائب مطلق توبة. ومن عدل الله عز وجل أن يجازيه على توبته من ذلك الذنب، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] لكن لا يستحق الوصف بالتوبة المطلقة إلا من تاب من جميع الذنوب فهذا هو التائب التوبة المطلقة.

وليس من لازم قبول التوبة ولا من شرط صحتها أن لا يقع الإنسان في الذنب مرة أخرى، فمن توفرت فيه شروط التوبة السابقة فتوبته صحيحة، وهي مقبولة بإذن الله عز وجل، فإن عاد للذنب فعليه أن يتوب مرة أخرى، وهكذا ما لم يضمر في نفسه أنه سيعود إلى الذنب فهذا لا تصح توبته لأنه لم يعزم على عدم العودة إلى الذنب، بل أضمر أنه سيعود إليه أو عزم على ذلك فلا معنى لتوبته.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ «عسى» للترجي إذا كانت من المخلوق كما قيل:

عسى الكرب الذي أمسيت فيه ... يكون وراءه فرج قريب[(٤)]

وقال الآخر:

عسى فرج يأتي به الله إنه ... له كل يوم في خليقته أمر[(٥)]

وهي من الله واجبة كما قال ابن عباس رضي الله عنهما[(٦)].

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٣٧، وابن ماجه في الزهد ٤٢٥٣، وأحمد ٢/ ١٣٢ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وقال الترمذي: «حسن غريب» وصححه الحاكم ٢/ ٢٤٩، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد ٢٤٧٩، والدارمي في السير ٢٥١٣ من حديث معاوية رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في التوبة ٢٧٥٩ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٤) البيت لهدبة بن خشرم وهو في «ديوانه» ص٥٤.

(٥) البيت لمحمد بن إسماعيل كما في «حاشية شذور الذهب» ص٣٥١.

(٦) أخرجه البيهقي في سننه فيما ذكره الزركشي في «البرهان» ٤/ ٢٨٨.

والمعنى: أنها وعد من الله سيتحقق لأنه عز وجل لا يخلف الميعاد ولهذا أضافها إلى اسم الرب، لأنه الذي بيده الخلق والملك والتدبير.

﴿أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ اي: أن يمحو عنكم سيئاتكم ويزيلها، ويسترها عن الخلق، ويتجاوز عن عقوبتها.

والسيئات: جمع سيئة، وهي الذنوب والمعاصي، سميت بذلك لأنها تسوء صاحبها في الحال والمآل، كما قد تسوء غيره بأثرها المباشر إذا كانت متعدية، أو بأثرها العام على البلاد والعباد إذا كانت غير متعدية.

﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ أي: ويدخلكم جنات تجري من تحت أشجارها وغرفها الأنهار المختلفة من أنهار الماء واللبن والخمر والعسل.

فمن تاب إلى الله عز وجل توبة نصوحاً صادقة، فإن الله عز وجل يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار، بل ويبدل سيئاته حسنات كما قال عز وجل ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠].

﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ ﴿يَوْمَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿لَا يُخْزِى ٱللَّهُ﴾ أي: لا يذل ولا يهين ﴿ٱلنَّبِىَّ﴾ «ال» للعهد الذهني، أي: النبي المعهود، محمداً ﷺ، وقد رُويَ أنه ﷺ قال في صلاته يوم الفتح «اللهم لا تخزني يوم القيامة»[1].

وهكذا قال الخليل عليه السلام: ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٧]، وامتن الله عز وجل على نبيه صالح عليه السلام والذين آمنوا معه بقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَـٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦].

والمعنى: يوم القيامة لا يذل الله النبي والذين آمنوا معه، ولا يهينهم، بل يعزهم ويكرمهم غاية الإكرام وأكمله، لأنهم أكرم الخلق عنده، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

والصفة هنا منفية، والصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها كما في قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨] فقوله ﴿ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ صفة منفية جيء بها لإثبات كمال ضدها، وهي الحياة.

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢٣٤، من حديث يحيى بن حسان عن رجل من بني كنانة قال: صليت خلف النبي ﷺ عام الفتح، فسمعته يقول: «اللهم لا تخزني يوم القيامة».

﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ أي: نور النبي ﷺ والمؤمنين معه يسير أمامهم يستضيؤن به، وعن أيمانهم لفضل اليمن ـ في عرصات القيامة على قدر أعمالهم [(١)].

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ الجملة حالية، أي: حال كونهم يقولون: يا ربنا، خالقنا ومالكنا ومدبر أمورنا اجعل نورنا تاماً كاملاً مستمراً معنا، وذلك عندما يرون نور المنافقين قد انطفأ.

﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ أي: استر ذنوبنا عن الخلق وتجاوز عن عقوبتنا عليها.

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: إنك ذو قدرة تامة على كل شيء، لا يعجزك شيء مهما كان. وقدم المتعلق، وهو قوله ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ لتأكيد عموم قدرته ونفوذها في كل شيء.

عن أبي ذر وأبي الدرداء رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول من يؤذن له في السجود يوم القيامة، وأول من يؤذن له برفع رأسه، فأنظر بين يدي فأعرف أمتي من بين الأمم، وأنظر عن يميني فأعرف أمتي من بين الأمم، وأنظر عن شمالي فأعرف أمتي من بين الأمم» فقال رجل: يا رسول كيف تعرف أمتك من بين الأمم؟ قال: «غر محجلون من آثار الطهور، ولا يكون أحد من الأمم كذلك غيرهم، وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم بسيماهم في وجوههم من أثر السجود، وأعرفهم بنورهم بين أيديهم» [(٢)].

الفوائد والعبر:

١ ـ تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء تنبيها لعظم الأمر وأهميته.

٢ ـ نداء المؤمنين بوصف الإيمان تشريفاً وتكريماً لهم وحثا على الاتصاف بهذا الوصف، وعلى امتثال ما بعد هذا النداء من أوامر.

٣ ـ وجوب السعي في تخليص الأنفس والأهل من الأزواج والأولاد والوالدين والأقارب وغيرهم من النار بحملهم على طاعة الله تعالى وتقواه.

٤ ـ شدة النار وعظمها وأن وقودها الكفرة من الناس وحجارة الكبريت التي هي في غاية الحرارة.

---

(١) انظر الكلام على قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ﴾ [الآية: ١٢].

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ١٩٩.

٥ ـ غلظة زبانية جهنم وشدتهم وعدم معصيتهم لله، وفعلهم ما يؤمرون به من تعذيب الكفرة المجرمين والعصاة وغير ذلك وفي هذا أشد التحذير منهم.

٦ ـ الإيمان بوجود الملائكة وطاعتهم المطلقة لله عز وجل بلا معصية.

٧ ـ الوعيد والتهديد للكافرين وأنه لا يقبل منهم الاعتذار يوم القيامة.

٨ ـ أن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان وما ربك بظلام للعبيد.

٩ ـ وجوب التوبة إلى الله توبة صادقة نصوحا.

١٠ ـ وعد الله ـ عز وجل ـ الذي لا يتخلف لمن تابوا وأنابوا إليه بتكفير سيئاتهم وإدخالهم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم إكرامه عز وجل لنبيه ﷺ والمؤمنين غاية الإكرام وأكمله.

١١ ـ كما استنار النبي ﷺ والمؤمنون بنور الله بالإيمان والعمل الصالح في الدنيا كان ذلك لهم نوراً في عرصات القيامة يسعى أمامهم وعن أيمانهم مغتبطين به يسألون الله إتمام نورهم ومغفرته.

١٢ ـ إثبات ربوبية الله الخاصة للمؤمنين، وتكريمهم بها.

١٣ ـ إثبات قدرة الله ـ عز وجل ـ التامة، وأنه على كل شيء قدير.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ سبق الكلام عليه في مطلع السورة.

﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ أي: ابذل الجهد في قتال الكفار الذين أظهروا الكفر بالله ورسوله بالسيف والسنان وجاهد المنافقين الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر بالحجة والبرهان ودحض شبههم وفضح نفاقهم.

﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: شدد الغلظة عليهم، ولا تلن معهم، وهو أمر له ﷺ وللمؤمنين كما قال تعالى في وصفهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ أي: ومأواهم الذي يأوون إليه ومصيرهم في الآخرة ﴿جَهَنَّمُ﴾ أي: النار، وسميت بجهنم لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدة حرها أعاذنا الله وجميع المسلمين منها.

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: وبئس المرجع والمآل جهنم، وبئس المصير مصيرهم.

ولا يُقدر شدة قبح هذا المصير وسوئه، إلا الذي وصفه بهذا الوصف وهو العليم الخبير.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ضرب المثل: هو تقريب الأمر والشيء المعنوي المعقول بتشبيهه بالشيء المحسوس لزيادة الإيضاح والبيان، والمثل: الشبه.

قال السعدي [1]: «هذان المثلان اللذان ضربهما الله للمؤمنين والكافرين، ليبين لهم أن اتصال الكافر بالمؤمن، وقربه منه، لا يفيده شيئا، وأن اتصال المؤمن بالكافر، لا يضره، مع قيامه بالواجب عليه، فكان في ذلك إشارة وتحذيراً لزوجات النبي ﷺ عن المعصية،

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٤٢٥.

وأن اتصالهن به ﷺ لا ينفعهن شيئا مع الإساءة».

قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: في عدم انتفاعهم من صلتهم بالمؤمنين ومعاشرتهم لهم وقربهم منهم.

﴿ٱمْرَأَتَ نُوحٍ﴾ أي: امرأة نبي الله ورسوله «نوح» عليه السلام، الذي هو أول رسل الله عز وجل وأحد أولي العزم من الرسل.

﴿وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ أي: وامرأة نبي الله عز وجل ورسوله لوط عليه السلام.

﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ﴾ أي: في عصمتهما والمراد بالعبودية هنا العبودية الخاصة، ولم يقل تحت نبيين أو رسولين، وإنما وصفهما بالعبودية لأن العبودية لله هي أشرف ما يتصف به البشر، ولهذا وصف الله بها أفضل رسله محمداً صلى الله عليه في أعلى المقامات وهو مقام العبادة فقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، وفي مقام الإسراء فقال: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١].

﴿صَـٰلِحَيْنِ﴾ أي: مخلصين العبادة لله عز وجل، متبعين ما جاء عنه سبحانه وتعالى.

﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ بعدم اتباعهما، وكفرتا بالله، وليس المراد بالخيانة فعل الفاحشة فإن نساء الأنبياء عليهم السلام معصومات عن الوقوع في الفاحشة، لحرمة الأنبياء عليهم السلام.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾: «ما زنتا، أما امرأة نوح فكانت تقول للناس: إنه مجنون، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه»[(١)].

﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: فلم يغن نوح ولوط عليهما السلام مع مكانتهما عند الله وكونهما من رسله ﴿عَنْهُمَا﴾ أي: عن زوجتيهما ﴿مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: فلم يستطيعا هدايتهما، ولم يدفعا أو يمنعا عنهما عذاب الله، لأنهما كفرتا بالله ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ أي: وقيل لهما، أي: للزوجتين ﴿ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ أي: مع جملة الداخلين فيها، وفي عدادهم.

قال ابن القيم[(٢)]: «قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ كان الكون كله نطق بذلك وقاله لهما».

وقال أيضاً[(٣)]: «فتضمن مثل الكفار: أن الكافر يعاقب على كفره وعداوته لله

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ١١١ - ١١٢.
(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٩٠.
(٣) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٨٧ - ٤٨٨.

ورسوله وأوليائه، ولا ينفعه مع كفره ما كان بينه وبين المؤمنين من لحمة نسب أو صلة صهر أو سبب من أسباب الاتصال، فإن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة إلا ما كان منها متصلا بالله وحده على أيدي رسله، فلو نفعت وصلة القرابة والمصاهرة أو النكاح مع عدم الإيمان، لنفعت الوصلة التي كانت بين نوح ولوط وامرأتيهما فلما لم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين قطعت الآية حينئذ طمع من ركب معصية الله وخالف أمره ورجا أن ينفعه صلاح غيره من قريب أو أجنبي، ولو كان بينهما في الدنيا أشد الاتصال فلا اتصال فوق اتصال البنوة والأبوة والزوجية، ولم يغن نوح عن ابنه، ولا إبراهيم عن أبيه ولا نوح ولا لوط عن امرأتيهما قال تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [الانفطار: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [الروم: ٣٣]».

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

هذا المثل في مقابلة المثل الأول: فضرب الله أولاً مثلاً للذين كفروا لا تنفعهم صلتهم بالمؤمنين الصالحين وقربهم منهم، ثم ضرب مثلاً للذين آمنوا لا تضرهم صلتهم وقرابتهم للكافرين مع قيامهم بالواجب عليهم تجاههم كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: ٢٨].

قال قتادة: «كان فرعون أعتى أهل الأرض وأبعدهم، فوالله ما ضر امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها لتعلموا أن الله حكم عدل، لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه»[١].

وفرعون هو ملك مصر في عهد موسى عليه السلام وهو الذي ادعى الربوبية وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] كما ادعى الألوهية فقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] أهلكه الله ومن معه بالغرق، وامرأته هي: آسية بنت مزاحم ـ رضي الله عنها.

﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: حين ﴿قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى﴾ أي: يارب ابن لي، ونادته سبحانه باسم الربوبية الذي معناه: الخالق المالك المدبر، ليكون أنجع في طلبها، فكأنها تقول: يا من له الخلق والملك والتدبير ﴿ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ١١٥ – ١١٦.

وقدمت ﴿عِندَكَ﴾ على ﴿بَيْتًا﴾ فاختارت الجار قبل الدار ـ رضي الله عنها ويؤخذ من هذا فضل جوار الله عز وجل وأنه نعم الجوار، والترغيب في طلب جواره عز وجل بالعمل الصالح والدعاء.

كما يؤخذ منه درس لاختيار الجار حتى في هذه الدار، وهذا أمر يغفل عنه الكثيرون، يأخذون في الحسبان عرض الشوارع المحيطة بالأرض وكونها جنوبية أو شرقية، لا غربية ولا شمالية وينسون اختيار الجار، وهو أهم من ذلك.

لأن الجار إما أن يكون تقيا محسناً فتسعد به وإما أن يكون جار سوء فينغص عليك عيشك، إما بكونه لا يصلي، أو بفسقه، أو بكونه يلتقط على جاره الزلات، ويتتبع العورات، ولا تؤمن بوائقه.

فالأول كجار ذلك الذي ألمت به الحاجة وركبته الديون فاضطر إلى بيع بيته فاشتُري منه بثلاثمائة ألف درهم، ولما جاء المشتري ليستلم البيت قال له صاحبه أعطني أيضاً ثلاثمائة درهم أخرى، فقال له المشتري مقابل ماذا؟ فقال له: مقابل جوار فلان فقال له: أنا لم أشتر منك جوار فلان أنا اشتريت منك الدار فقال البائع: إذاً أنا لا أبيعك الدار، فعلم جاره ـ ذلك الجار الذي لا يباع جواره بالنقود ـ علم حاله وأنه إنما باع داره اضطراراً لديون ركبته وحاجة فأعطاه ثلاثمائة ألف درهم وقال له اجلس في بيتك وأوف ديونك.

وهكذا رُويَ أن عبد الله بن المبارك العالم الزاهد وقد كان جاراً في خراسان ليهودي، وكان رحمه الله كلما كسا أولاده أو اشترى لهم شيئاً من الفواكه أو الحلوى أو اللحم أو غير ذلك يفعل ذلك مع أولاد جاره اليهودي فيكسوهم ويطعمهم مع أولاده فاضطر اليهودي لبيع داره فأعطي فيها ألف دينار فطلب ألف دينار آخر مقابل جوار عبد الله بن المبارك رضي الله عنه وأسلم. وقال: أشهد والله أن دينا أخرجك دين حق.

ولسنا نطالب الجيران بكل هذا ولا ببعضه، إنما نطالبهم بحسن الجوار، والألفة والسلام، والصلاة مع جماعة المسجد، والتعاون على البر والتقوى.

وأما النوع الثاني من الجيران وهو جار السوء المؤذي لجيرانه بقوله وفعله، والذي لا يسلم جيرانه من تبعاته لتخلفه عن الصلاة وارتكابه المنهيات وتتبعه الزلات والعورات، ونحو ذلك فهو الذي أمر النبي ﷺ بالاستعاذة منه فقال: «تعوذوا بالله من جار السوء في دار المقام»[١].

وهذا ينطبق عليه قول القائل:

---

(١) أخرجه النسائي في الاستعاذة، ٥٥٠٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذا عوى وصـوّت إنسـان فكدت أطير

فالكلاب أحسن جواراً منه، لأنها قد تحرس المنزل، وتأكل بقايا الطعام أما الجار الذي هذه صفته وبخاصة إذا كان لا يصلي أو يظهر فسقه فإنه أشبه بالنار المحرقة يخشى أن تلتهم بيت الجار فانتبه أخي الكريم لهذا وارغب في جوار الله عز وجل بالعمل الصالح مع دعاء الله وسؤاله واختر من الجيران في الدنيا من يكون عوناً لك على أمر دينك ودنياك أو من تسلم من شره على الأقل، ولا إخالك سالماً.

قوله: ﴿وَنَجِّنِى مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ أي: خلصني وأنقذني من فرعون وتعذيبه ومن عمله السيء وكفره وهي في هذا تعلن براءتها منه ومن عمله.

عن سلمان رضي الله عنه قال: «كانت امرأة فرعون تعذب في الشمس فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة»[(١)].

﴿وَنَجِّنِى مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: وخلصني وانقذني من فرعون وقومه الظالمين، الذين ارتكبوا أعظم الظلم وهو الكفر والشرك بالله والظلم لمن آمن من عباد الله كآسية رضي الله عنها.

فالتجأت رضي الله عنها إلى من إليه الملتجأ كما كان دعاء أنبياء الله عز وجل والمؤمنين، قال نوح عليه السلام: ﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٨]، وقال لوط عليه السلام: ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهۡلِى مِمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٩]، وقال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢١]، وقال قوم موسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةً لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٥ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [يونس: ٨٦].

قال ابن القيم[(٢)]: «ووجه المثل: أن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئا إذا فارقه في كفره وعمله، فمعصية الغير لا تضر المؤمن المطيع شيئاً في الآخرة وإن تضرر بها في الدنيا بسبب العقوبة التي تحل بأهل الأرض إذا أضاعوا أمر الله، فتأتي عامة فلم يضر امرأة فرعون اتصالها به وهو من أكفر الكافرين ولم ينفع امرأة نوح ولوط اتصالهما بهما، وهما رسولا رب العالمين».

قوله: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ كقوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحۡصَنَتۡ

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ١١٥.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٨٨.

فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الآية: ٩١].

ومعنى ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي: التي حفظت فرجها من الحرام وصانته بالعفاف.

﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ أي: فنفخنا في فرجها روحاً ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ أي: من أرواحنا التي ننفخها في المخلوقات، فتدب فيها الحياة كما قال تعالى عن آدم: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩، ص: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ [السجدة: ٩].

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في خلق الإنسان: «ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح»[1].

فارسل الله عز وجل جبريل عليه السلام والذي هو الروح كما قال عز وجل ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، وقال تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]، وقال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ [النبأ: ٣٨] والمراد بالروح في هذه الآيات جبريل عليه السلام.

وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٧ - ١٩]. فنفخ عليه السلام بفيه بفرجها فخلق عيسى عليه السلام بأمر الله عز وجل كما قال عز وجل ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] أي: أن الله عز وجل خلق عيسى عليه السلام من أم بلا أب بقوله: «كن» كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

قال الطبري[2]: «يقول: فنفخنا فيه، في جيب درعها، وذلك فرجها ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ من جبريل، وهو الروح».

وقال ابن كثير[3]: «أي: بواسطة الملك، وهو جبريل، فإن الله بعثه إليها، فتمثل لها في صورة بشر سوي، وأمره الله تعالى أن ينفخ بفيه في جيب درعها، فنزلت النفخة فولجت في فرجها، فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام».

﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب وحفص عن عاصم بضم

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ـ خلق آدم ٣٣٢٢، ومسلم في القدر ٢٦٤٣، وأبو داود في السنة ٤٧٠٨، والترمذي في القدر ٢١٣٨، وابن ماجه في المقدمة ٧٦، وأحمد ١/ ٣٨٢، ٤٣٠.

(٢) في «جامع البيان» ٢٣/ ١١٦.

(٣) في «تفسيره» ٨/ ٢٠٠.

الكاف والتاء من غير ألف على الجمع، وقرأ الباقون بكسر الكاف وفتح التاء وألف بعدها على الإفراد.

أي: وصدقت بكلمات ربها الشرعية والقدرية، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

وقال عن عيسى عليه السلام: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١].

﴿وَكُتُبِهِ﴾ أي: وكتبه التي أنزلها على أنبيائه ورسله.

قال الطبري [(١)]: «وآمنت بعيسى، وهو كلمة الله ﴿وَكُتُبِهِ﴾ التوراة والإنجيل».

﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ أي: من المطيعين الصديقين، المداومين على طاعة الله عز وجل بخشية وخشوع كما قال تعالى ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «خط رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط، وقال: «أتدرون ما هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. فقال رسول الله ﷺ: «أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم ابنة عمران، وآسية ابنة مزاحم امرأة فرعون» [(٢)].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» [(٣)].

وفي ختم هذه السورة بهذه الأمثال الثلاثة ما يناسب ما بدئت به السورة، وهو ذكر أزواج النبي ﷺ، وما حصل منهن، كما جاء في سبب النزول، ففي ضرب المثل الأول تحذيرهن من التظاهر عليه ﷺ، وتخويفهن وغيرهن من معصية الله ورسوله، وتذكيرهن وغيرهن بأنه لم ينفع امرأة نوح وامرأة لوط كونهما تحت نبيين من أنبياء الله عز وجل.

وفي ضرب المثل الثاني حث لأزواج النبي ﷺ وغيرهن على التمسك بطاعة الله ورسوله.

وفي ضرب المثل بمريم إشارة إلى أنه لم يضرها قذف أعداء الله اليهود ونسبتهم إياها وابنها إلى ما برأهما الله منه، وهي الصديقة الكبرى المصطفاة على نساء العالمين. فلا يضر في الرجل الصالح قدح الفجار والفساق فيه. وفي هذا تسلية لعائشة رضي الله عنها أم المؤمنين إن كانت السورة نزلت بعد قصة الإفك.

---

(١) في «جامع البيان» ٢٣/ ١١٧.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٢٩٣.

(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء ـ باب قول الله تعالى: ﴿ وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون ﴾ ٣٤١١، ومسلم في الفضائل ـ فضائل خديجة أم المؤمنين ٢٤٣١، والنسائي في عشرة النساء ٣٩٤٧، والترمذي في الأطعمة ١٨٣٤، وابن ماجه في الأطعمة ٣٢٨٠.

فتضمنت هذه الأمثال الثلاثة التخويف والتحذير لأزواج النبي ﷺ ولغيرهن من معصية الله ورسوله، والحث لهن ولغيرهن على الطاعة، والتسلية وتوطين النفس لمن أوذي منهن أو من غيرهن.

الفوائد والعبر:

١ ـ تصدير الخطاب للنبي ﷺ بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداؤه بوصف النبوة تشريفاً له وتكريماً.

٢ ـ وجوب مجاهدة الكافرين الصادين عن دين الله بالسيف والسنان، ومجاهدة المنافقين بالحجة والدليل والبرهان والغلظة عليهم.

٣ ـ أن مآل الكافرين والمنافقين ومأواهم ومصيرهم نار جهنم وبئس المصير.

٤ ـ ضرب الأمثال للناس في القرآن لتقريب المعاني وهداية الخلق وإقامة الحجة عليهم.

٥ ـ أن اتصال الكافرين بالمؤمنين وقربهم منهم لا ينفعهم ولا يدفع عنهم عذاب الله ولهذا لم ينفع امرأة نوح وامرأة لوط كونهما تحت نبيين من أنبياء الله ـ عز وجل.

٦ ـ شرف العبودية لله عز وجل لهذا وصف الله بها نبيه نوحاً ولوطاً عليهما السلام، كما وصف بها غيرهما من رسله وبخاصة سيد الرسل محمد ﷺ.

٧ ـ خيانة امرأة نوح عليه السلام له بمخالفته وتكذيبه ورميه بالجنون مع قومها ولهذا استحقت دخول النار والخلود فيها.

٨ ـ خيانة امرأة لوط عليه السلام له بمخالفته وتكذيبه ودلالة قومه على ضيوفه لهذا استحقت دخول النار والخلود فيها.

٩ ـ أن اتصال المؤمنين بالكافرين وقرابتهم لهم لا تضرهم إذا قاموا بالواجب عليهم تجاههم لهذا لم يضر امرأة فرعون كونها تحت فرعون لما آمنت بالله ـ عز وجل.

١٠ ـ ثناء الله ـ عز وجل ـ على آسية امرأة فرعون في إيمانها وطلبها جوار ربها والنجاة من فرعون وعمله ومن القوم الظالمين.

١١ ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة بأوليائه.

١٢ ـ أهمية اختيار الجار قبل الدار لقول آسية رضي الله عنها ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ ولم تقل (بيتاً عندك) بل اختارت الجار قبل الدار فقالت (عندك بيتاً).

١٣ ـ ثناء الله ـ عز وجل ـ على مريم ابنة عمران عليها السلام بإحصانها لفرجها وحفظها له وتصديقها بكلمات ربها الشرعية والقدرية وكتبه ومداومتها على الطاعة ولهذا طهرها الله واصطفاها على نساء العالمين.

١٤ ـ إيجاد عيسى بن مريم عليه السلام من أنثى بلا ذكر حيث أرسل الله ـ عز وجل «الروح الأمين» جبريل عليه السلام إلى مريم عليها السلام فنفخ فيها من روحه بأمره عز وجل.

تفسير سورة الملك

فضلها:

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن رسول الله ﷺ قال: «إن سورة في القرآن ثلاثين آية شفعت لصاحبها حتى غفر له: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾»[١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سورة في القرآن خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾»[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ضرب بعض أصحاب النبي ﷺ خباءه على قبر، وهو لا يحسب أنه قبر، فإذا فيه إنسان يقرأ سورة تبارك الذي بيده الملك حتى ختمها، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني ضربت خبائي على قبر، وأنا لا أحسب أنه قبر، فإذا إنسان يقرأ سورة تبارك الملك حتى ختمها، فقال رسول الله ﷺ: «هي المانعة، هي المنجية، تنجيه من عذاب القبر»[٣].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ (ألم تنزيل)، و (تبارك الذي بيده الملك)»[٤].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾.

قوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾. ﴿تَبَارَكَ﴾: أي: تعاظم وتعالى وكثر خيره وإنعامه وعم إحسانه، وهذا ثناء وتمجيد من الله عز وجل لنفسه الكريمة، لأنه سبحانه أهل الثناء والمجد

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٤٠٠، والترمذي في فضائل القرآن ٢٨٩١، وابن ماجه في الأدب ٣٧٨٦، وأحمد ٢/٢٩٩، ٣٢١، وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٢) رواه الطبراني والحافظ المقدسي – فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/٢٠١.

(٣) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن – ماجاء في سورة الملك ٢٨٩٠، وابن ماجه في الأدب – ثواب القرآن ٣٧٨٦. وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٤) أخرجه الترمذي في الموضع السابق ٢٨٩٢.

والتعظيم، ولهذا كان ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع: «ربنا لك الحمد ملء السموات والأرض وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»[١].

وقال عز وجل في الحديث القدسي: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار»[٢].

﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ أي: الذي من عظمته أن بيده الملك كله، علويه وسفليه، السموات والأرض ومن فيهن، وما بينهن، مالكه وخالقه والمتصرف فيه كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقال عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [المائدة: ١٧]، وقال تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يس: ٨٣].

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: وهو - سبحانه - ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أياً كان هذا الشيء صغيراً أو كبيراً خفياً أو جلياً، دقيقاً أو جليلاً، أو غير ذلك ﴿قَدِيرٌ﴾ أي: ذو قدرة تامة نافذة لأنه عز وجل لا يعجزه شيء كما قال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر: ٤٤].

وقدم المتعلق وهو قوله (على كل شيء) لتأكيد كمال قدرته عز وجل وشمولها لكل شيء، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، لحكمته وعدله وقهره، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾ [آل عمران: ١٨٩]، وقال تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾﴾ [الحديد: ٢].

وقد أثنى المولى عز وجل على نفسه هنا بقوله ﴿تَبَٰرَكَ﴾ مقروناً بذكر كمال ملكه وقدرته وعظيم آياته في الكون من خلق الموت والحياة وابتلاء الناس أيهم أحسن عملاً وخلق السموات وغير ذلك كما قال تعالى: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الزخرف: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة ٤٧٧، وأبو داود في الصلاة ٨٤٧، والنسائي في التطبيق ١٠٦٨ من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.
(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٢٠، وأبو داود في اللباس ٤٠٩٠، وابن ماجه في الزهد ٤١٧٤ - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: ٦١، ٦٢].

وأثنى على نفسه عز وجل بقوله ﴿تَبَارَكَ﴾ مقروناً بذكر انفراده بالخلق والأمر وربوبيته للعالمين كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤]. وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [غافر: ٦٤].

ومقروناً بذكر أطوار خلق الإنسان كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

وأثنى على نفسه - سبحانه - بقوله ﴿تَبَارَكَ﴾ مقروناً بذكر امتنانه بإنزال القرآن الكريم وملكه السموات والأرض ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان: ١، ٢].

وأثنى على نفسه بذلك مقروناً بوعده عز وجل لنبيه ﷺ بعظم الثواب كما في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾ [الفرقان: ١٠].

ومقروناً باسمه عز وجل وربوبيته لنبيه ﷺ، ووصفه عز وجل بالعظمة والإكرام في قوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرحمن: ٧٨].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ هذا وما بعده إلى قوله ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ تفصيل واستدلال على كمال ملكه عز وجل وتمام قدرته على كل شيء، بدأه عز وجل بذكر خلق الموت والحياة والحكمة من ذلك، ثم بذكر خلق السموات السبع الطباق بلا تفاوت ولا فطور وتزيين السماء الدنيا بمصابيح وجعلها رجوماً للشياطين.

ومعنى قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ أي: الذي قدر الموت والحياة أزلاً وأوجدهما في الحيوان والنبات، كما قال عز وجل: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾ [النجم: ٤٤].

فأوجد عز وجل عنصر الحياة بنفخ الروح في البدن، وعنصر الموت بمفارقة الروح للبدن، والتي لا يعلم حقيقتها إلا الله عز وجل كما قال عز وجل: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥].

وأوجد الخلائق من العدم وأحياهم بعد أن كانوا أمواتاً ثم يميتهم ثم يحييهم، كما قال عز وجل: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الحج: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١]، وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الجاثية: ٢٦].

فسمى ما قبل الخلق - وهو العدم - موتاً - ولهذا قدم ذكر الموت على الحياة في قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ لأن الموت سابق للحياة.

فسبحان من أوجد الإنسان في هذه الحياة، فأصبح بها يؤمل الآمال العظيمة ليعمر هذا الكون بأمر الله عز وجل حتى إن الساعة لتقوم ورجل يحمل فسيلة نخل ليغرسها[1]، فالله أكبر.

وسبحان من فضح الدنيا بالموت فلم يدع لذي لب فيها فرحاً، أذل الجبابرة، وقصر الأقاصرة، وفي هذا وذاك نعمة من الله عز وجل على الخلائق إذ في إحيائهم نعمة من الله - عز وجل - عليهم ليعملوا صالحاً يسعدوا به في دنياهم وأخراهم، وفي إماتتهم جميعاً عدل بينهم ليبعثهم جميعاً ويجازيهم بأعمالهم وينتصر لمظلومهم من ظالمه.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يبلوكم، ويختبركم ويمتحنكم والخطاب للناس عامة. وهذه الآية كقوله ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝﴾ [الكهف: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

والابتلاء: الاختبار والامتحان، ويكون بالخير والشر كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

---

(١) قال ﷺ: «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليفعل»، أخرجه أحمد ٣/ ١٨٤، ١٩١ - من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

قال الشاعر:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

أي: إن الله عز وجل أحياكم وأوجدكم لأجل أن يبلوكم ويختبركم ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ كما قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

قال الفضيل بن عياض: «﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: أخلصه وأصوبه، لأن العمل إن كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل وإن كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، فلابد من كون العمل خالصاً صواباً.

قال ابن كثير[1]: «أي: ليختبركم ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ولم يقل: أكثر عملاً، بل أحسن عملاً، ولا يكون العمل حسناً، حتى يكون خالصاً لله عز وجل على شريعة رسول الله ﷺ، فمتى فقد العمل واحداً من هذين الشرطين بطل وحبط».

فالمهم في العمل أن يكون خالصاً لله عز وجل، صواباً على سنة رسول الله ﷺ.

ولهذا قال أبو بكر المزني رحمه الله: «ما سبق أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام، ولكن بشيء وقر في قلبه»[2].

فالعبرة بالكيف لا بالكم، ولهذا قال ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس»[3].

وقال ﷺ: «أفضل الصدقة جهد المقل»[4].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «سبق درهم مائة ألف درهم»[5].

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ أي: وهو - سبحانه - العزيز، ذو العزة التامة: عزة الامتناع، وعزة القوة، وعزة القهر والغلبة[6].

وهو - سبحانه - «الغفور» ذو المغفرة الواسعة، وهي: ستر ذنوب عباده عن الخلق،

---

(١) في «تفسيره» ٤/ ٢٤١ وانظر ٢/ ٣٧٤.

(٢) ذكره في «المقاصد الحسنة» ص٣٦٩ حديث ٩٧٠، وانظر «التفسير الكبير» ١١/ ٩.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٤٦، ومسلم في الزكاة ١٠٥١، والترمذي في الزهد ٢٣٧٣، وابن ماجه في الزهد ٤١٣٧ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) كما في حديث عبد الله بن حبشي الخثعمي - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ سئل أي الصدقة أفضل؟ قال: «جهد المقل» أخرجه أبو داود في الصلاة ١٤٤٩، والنسائي في الزكاة ٢٥٢٦.

(٥) أخرجه النسائي في الزكاة - باب جهد المقل ٢٥٢٧، وأخرجه أحمد ٢/ ٣٧٩ بلفظ «سبق درهم درهمين».

(٦) راجع ما سبق في الكلام على قوله ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ في مطلع سورة الحديد.

والتجاوز عن العقوبة عليها، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال عز وجل: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾ [الرعد: ٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [فصلت: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾ [المدثر: ٥٦].

ومن المهم هنا أن نلمح المعنى العظيم، وهو كمال الصفة باقتران اسميه عز وجل «العزيز» و«الغفور» فله العزة التامة، والمغفرة الواسعة، وله كمال الاتصاف بهتين الصفتين مقترنتين بكون مغفرته مع عزة، وعزته مع مغفرة، فهو كمال إلى كمال.

وهذا بخلاف المخلوق الضعيف - ولله المثل الأعلى - فإن اعتز فقد تحمله عزته على عدم الستر والتجاوز، بل قد يغتر بها فتحمله على الظلم والغشم، وإن غفر وستر وتجاوز فقد يكون بسبب ضعفه لا عن عزة.

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ أي: أوجد سبع سموات (طباقا) أي كل واحدة فوق الأخرى، طبقة فوق طبقة، وكل سماء مقبية على الأخرى وكل واحدة منهن أوسع من التي تحتها سعة عظيمة فأصغرهن السماء الدنيا وأعظمهن وأوسعهن السماء السابعة، وليس معنى ذلك أن كل واحدة منهن ملتصقة بالأخرى، وقد دل على هذا حديث الإسراء كما في رواية أنس بن مالك رضي الله عنه وغيره: «أنه يعرج به ﷺ من سماء إلى سماء حتى انتهى إلى السماء السابعة»[(١)].

وفي حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون كم بين السماء والأرض؟»، قلنا الله ورسوله أعلم، قال: بينهما مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة، وبين السماء السابعة والعرش بحر، بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله تعالى فوق ذلك، وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم»[(٢)].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماء خمسمائة عام وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء والله فوق العرش لا يخفى عليه شيء من أعمالكم»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة ٣٤٩، ١٦٣، ومسلم في الإيمان ـ الإسراء برسول الله ﷺ.

(٢) أخرجه أبو داود في السنة ٤٧٢٣، والترمذي في تفسير القرآن ٣٣٢٠، وابن ماجه في المقدمة ١٩٣.

(٣) أخرجه ابن مهدي فيما ذكره شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد انظر: «تيسير العزيز الحميد» ص٧٣٥. وأخرجه بمعناه الدارمي في «الرد على الجهمية» ص٢١ وابن خزيمة في التوحيد ص٧٠، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/٧٨.

﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ «ما» نافية، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له الخطاب، أي: ما تشاهد أيها الناظر والمتأمل في خلق الرحمن من تفاوت، ولم يقل ما ترى فيهن من تفاوت تعظيماً لخالقهن وتنبيها على سبب سلامتهن من التفاوت وهو كونهن خلق الرحمن - سبحانه - و(الرحمن) هو الله - عز وجل - كما قال عز وجل ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وكما قال عز وجل في الفاتحة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝﴾ [الآيتان: ٢، ٣].

وقال عز وجل: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢]. وكما في البسملة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

﴿مِن تَفَاوُتٍ﴾ قرأ حمزة والكسائي (تفوُّت) بضم الواو مشددة من غير ألف، وقرأ الباقون (تفاوت) بالألف والتخفيف.

و«من» في قوله ﴿مِن تَفَاوُتٍ﴾: زائدة من حيث الإعراب مؤكدة للنفي من حيث المعنى أي: ما ترى وتشاهد أيها الناظر المتأمل في خلق الرحمن تفاوتاً أيَّ تفاوت مهما قل.

والتفاوت: الاختلاف والتنافر والخلل والنقص والعيب والاضطراب وعدم التناسب.

﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي: انظر إلى السماء ببصرك وتأمل فيها جيدا هل ترى وتشاهد فيها ﴿مِن فُطُورٍ﴾ أي: من شقوق وصدوع وفتوق أو خلل ونقص وعيب، و«من» كسابقتها زائدة من حيث الإعراب مؤكدة للنفي.

﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي: مرتين.

﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ أي: يرجع إليك البصر ذليلاً صاغراً.

﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ الواو: حالية، أي: حال كونه حسيراً، أي: كليل منقطع نظره من الإعياء من كثرة التكرار وعدم وجود النقص.

والمعنى: فارجع البصر وكرره مرة بعد أخرى، فمهما كررت سيرجع إليك البصر ذليلاً صاغراً وهو كليل منقطع من الإعياء من كثرة التكرار عاجزاً أن يرى فطوراً وشقوقاً أو عيباً وخللاً في خلق السموات.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾.

بيَّن عز وجل في الآيتين السابقتين إحكام خلقه السموات السبع الطباق وكماله، وخلوُّه من التفاوت والنقص، ثم أتبع ذلك ببيان أنه زين السماء الدنيا بمصابيح وجعلها رجوماً للشياطين، وهذه الآية كقوله: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا﴾ [فصلت: ١٢].

قوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ الواو: للاستئناف، واللام للقسم، و«قد» للتحقيق، أي: والله لقد جملنا السماء الدنيا.

و«السماء الدنيا» هي التي تلي الأرض والتي نشاهدها.

والمصابيح هي الكواكب النيرة التي تنير الكون الثابتة والسيارة، كالشمس والقمر والنجوم.

قال السعدي[1]: «﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا﴾ أي: ولقد جملنا ﴿ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ التي ترونها وتليكم ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ وهي النجوم على اختلافها في النور والضياء. فإنه لولا ما فيها من النجوم لكانت سقفاً مظلماً لا حسن فيه ولا جمال ولكن جعل الله هذه النجوم زينة وجمالاً ونوراً وهداية يهتدى بها في ظلمات البر والبحر ولا ينافي إخباره أنه زين السماء الدنيا بمصابيح أن يكون كثير من النجوم فوق السموات السبع، فإن السموات شفافة وبذلك تحصل الزينة للسماء الدنيا وإن لم تكن الكواكب فيها».

﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وجعلناها جعلاً كونيا ﴿رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ أي: يرجم بها الشياطين عند محاولتهم استراق السمع من السماء.

و«الشياطين» جمع شيطان، وهو كل متمرد عات خارج عن طاعة الله ـ عز وجل.

قال ابن كثير[2]: «عاد الضمير في ﴿وَجَعَلْنَٰهَا﴾ على جنس المصابيح لا على عينها، لأنه لا يرمى بالكواكب التي في السماء، بل بشهب من دونها، وقد تكون مستمدة منها».

﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ أي: وأعددنا وهيأنا وجهزنا ﴿لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: عذاب النار المستعرة المتوقدة المشتعلة فـ «السعير» «فعيل» بمعنى «مفعول» فهي «سعير» بمعنى مسعورة، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩]، وهي نزلهم وضيافتهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الكهف: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾ [الواقعة: ٥٦].

والضمير في قوله (لهم) للشياطين.

أي: جعلنا المصابيح رجوماً للشياطين خزياً وعذاباً لهم في الدنيا، وأعددنا وهيأنا لهم في الآخرة ﴿عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٤٣٠ – ٤٣١.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٠٤.

﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝﴾ [الصافات: ٦ - ١٠].

عن قتادة قال: «إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال: خلقها زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها فمن تأول فيها غير ذلك، فقد قال برأيه وأخطأ حظه، واضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به»[1].

الفوائد والعبر:

١- بركة المولى عز وجل وعلوه وكثرة خيره واختصاصه بالملك وقدرته التامة على كل شيء.

٢- الاستدلال على كمال ملكه وتمام قدرته عز وجل بخلق الموت والحياة وخلق السموات السبع وإحكام خلقها وتزيين السماء الدنيا بالمصابيح وجعلها رجوماً للشياطين.

٣- أن الحكمة من إيجاد الموت والحياة، وخلق الخلق من العدم وإماتتهم ومن ثم بعثهم هي ابتلاؤهم وامتحانهم أيهم أخلص عملا وأصوبه ليجازوا على أعمالهم.

٤- الحث والترغيب في المنافسة في تحسين العمل إخلاصاً لله عز وجل ومتابعة للرسول ﷺ لقوله ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

٥- إثبات أن من أسماء الله عز وجل «العزيز» و«الغفور»، و«الرحمن» وما يؤخذ من ذلك من إثبات صفة العزة التامة، والمغفرة الواسعة والرحمة له - عز وجل.

٦- عظم خلق السموات السبع الطباق، وإحكامها وحبكها بلا فطور ولا شقوق. وتمام خلقه عز وجل وشدته بلا اختلاف ولا تفاوت.

٧- تزيين السماء الدنيا بالمصابيح وجعلها رجوماً للشياطين، كما أنها علامات يهتدى بها في ظلمات البر والبحر كما قال تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝﴾ [النحل: ١٦].

٨- الوعيد الشديد للشياطين بعذاب السعير في الآخرة.

٩- أن النار موجودة الآن مهيأة لأهلها لقوله ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ١٢٣.

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۝ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله عز وجل في الآية السابقة أنه أعتد للشياطين عذاب السعير، ثم ذكر ما أعتده لأتباعهم الذين كفروا بربهم من عذاب جهنم الحسي والمعنوي وأن مآل الفريقين المتبوع والتابع عذاب جهنم وعذاب السعير.

قوله ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ الواو: استئنافية. والكفر لغة: الستر والتغطية.

و﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هم الذين جحدوا وجود الله، وربوبيته وألوهيته وأسماءه وصفاته وشريعته أو شيئاً من ذلك.

وتقديم الخبر وهو قوله ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يفيد قصر جزائهم وحصره على عذاب جهنم، وأنه ليس لهم إلا عذاب جهنم.

و«جهنم» اسم من أسماء النار، سميت به لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها، وشدة حرها، والجزاء من جنس العمل فحيث كان الكفار يتخبطون في الدنيا بظلمات الكفر والشك والجهل كان عذابهم جهنم التي هذا وصفها.

﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: وساء وقبح المنقلب والمآل والمأوى والمرجع جهنم.

ولا يستطيع أحد أن يقدر عظم سوئها وقبحها - إلا من وصفها بذلك، وهو العظيم سبحانه وتعالى.

﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا﴾ «إذا» ظرفية شرطية غير عاملة أي: إذا سيقوا ودفعوا إليها وأدخلوا فيها، كما قال تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [ق: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ۝﴾ [ق: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝﴾ [الفرقان: ١٣]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝﴾ [الملك: ٨].

وعبر عن سوقهم إليها وإدخالهم فيها بإلقائهم فيها تحقيراً وإهانة لهم، فهم يلقون فيها كما يلقى الحجر في اليم لا يؤبه بهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ۝﴾ [الإسراء: ٣٩].

ولأنهم أيضاً يساقون إليها سوقاً بشدة، ويدفعون إليها دفعا بعنف، كما قال تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم: ٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ [ق: ٢١]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾﴾ [الطور: ١٣]، وقال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾﴾ [الدخان: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾ [الحاقة: ٣٠، ٣١].

﴿سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا﴾ أي: صوتاً عالياً فظيعاً قال في اللسان[1] «الشهيق أقبح الأصوات».

والشهيق في الأصل ما يسمع من صوت الهواء الداخل إلى الرئة، ويقابله الزفير صوت الهواء الخارج من الرئة. قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [هود: ١٠٦].

وفي الأثر: «أن الرجل يجر إلى النار فتشهق إليه كما تشهق البغلة إلى الشعير»[2].

وسماعهم شهيقها من مقدمات عذابهم، فهي في شغف إليهم، بل وتناديهم، كما قال عز وجل ﴿تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾﴾ [المعارج: ١٧].

وهذا من عذاب الأسماع التي صمت عن الحق واستمعت للباطل، كما قال عز وجل: ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ الواو: حالية، أي: حال كونها تفور، أي: تغلي وتتقلب من شدة حرارتها يقال: فار القدر أو فار الماء في القدر إذا غلى وأخذ يتقلب من شدة الحرارة.

كما يقال فار القدر أو الإناء إذا امتلأ ماءً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود: ٤٠، المؤمنون: ٢٧].

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ تكاد: تقارب، و«كاد» كغيرها من الأفعال على الصحيح نفيها نفي، وإثباتها إثبات، فقوله ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾ أي: تقارب.

﴿تَمَيَّزُ﴾ أصلها تتميز فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً أي: تتفرق وتتقطع، وينفصل بعضها عن بعض، كما قال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٣٧].

﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ أي: من شدة الغيظ والحنق عليهم، لشدة غضب الجبار عليهم.

---

(١) مادة «شهق».

(٢) أخرجه عبد بن حميد عن يحيى فيما ذكره السيوطي في «الدر المنثور» ٦/ ٢٤٨.

﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ﴾ أي: كلما القي وادخل ﴿فِيهَا﴾ أي: في جهنم ﴿فَوۡجٌ﴾ أي: جماعة كثيرة منهم ﴿سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾ إنكاراً عليهم وتوبيخاً وتبكيتاً لهم وتعذيباً لقلوبهم. و«خزنتها»: هم الملائكة الموكلون عليها وعلى تعذيب أهلها.

﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ﴾ اي: الم يأتكم ويبعث إليكم ﴿نَذِيرٌ﴾ ينذركم ويحذركم جهنم وعذابها، وهم رسل الله عز وجل وأنبياؤه كما قال عز وجل ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥].

وهذا من العذاب المعنوي المنصب على قلوبهم، لأن العذاب نوعان: عذاب جسمي حسي يؤلم الأبدان، وهو إصلاؤها بالنار، وعذاب معنوي يؤلم القلوب، وهو التوبيخ والتقريع لهم.

والاستفهام فيه ايضاً معنى التقرير، ولهذا اعترفوا وأجابوا بقولهم: ﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ وأقروا بما قابلوا به نذر الله عز وجل ورسله فقالوا: ﴿فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ وذلك لافتضاحهم بظهور الحقائق ومعاينتها، فليس المقام مقام إنكار، وليس الخبر كالعيان[1].

والاستفهام إذا كان مقترناً بالنفي كما في قوله هنا ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ﴾ ؟، وكما في قوله: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝١﴾ [الانشراح: ١] وقوله تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ۝٤٠﴾ [الإنسان: ٤٠]، وقوله: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ [التين: ٨] ونحو ذلك فجوابه بـ «بلى».

والمعنى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ انذرنا وحذرنا عذاب جهنم ﴿فَكَذَّبۡنَا﴾ ذلك النذير، ﴿وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ﴾ اي: نفينا وانكرنا أن يكون الله نزل اي شيء من الكتب، وقلنا للنذر الذين جاؤونا مكذبين لهم ﴿إِنۡ أَنتُمۡ﴾ «إن» نافية، اي: ما انتم ايها النذر ﴿إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾. اي: إلا في بُعْد وتيه عن الحق كبير.

فجمعوا بين أمور ثلاثة كل واحد منها أسوأ مما قبله فاولاً: كذبوا رسولهم، وثانياً نفوا ان يكون الله نزل شيئاً من الوحي على الرسل لهداية الخلق، وبهذا كذبوا جميع الرسل والكتب، وثالثاً: رموا الرسل الهداة المهتدين المبعوثين لهداية الخلق بالضلال الكبير.

---

(١) كما جاء في حديث ابن عباس – رضي الله عنهما – ان رسول الله ﷺ قال: «ليس الخبر كالمعاينة» أخرجه احمد ١/ ٢١٥.

وهذه عادة المكذبين للرسل يرمونهم بأبشع الصفات لينفروا الناس منهم ومن دعوتهم، وفي هذا درس عظيم للدعاة إلى الله والمصلحين والمربين ليعلموا أن طريق الجنة شاق، وليس مفروشاً بالورود والرياحين، كما قال عز وجل ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [الروم: ٢، ٣].

وقال ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»[(١)].

وقد أحسن القائل:

ودرب الصاعين كما علمتم   به الأشواك تكثر لا الورود[(٢)]

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾ ندموا على تكذيبهم نذر الله وما نزله عليهم، وودوا وتمنوا أنهم سمعوا وتعقلوا ما جاءتهم به النذر فقالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ أي: سماع انتفاع لما جاءت به النذر ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ أيضاً تعقل انتفاع لذلك، فنفوا عن أنفسهم أعظم طرق الهداية وهما السمع والعقل لعدم انتفاعهم بهما.

﴿مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: ما كنا في عداد أصحاب السعير وساكنيها وملازميها فندموا حين لا ينفع الندم، ولات ساعة مندم، كما قال تعالى ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزمر: ٥٦-٥٨].

قال ابن كثير[(٣)]: «وهكذا عادوا على أنفسهم بالملامة وندموا حيث لا تنفعهم الندامة فقالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ أي: لو كانت لنا عقول ننتفع بها أو نسمع ما أنزل الله من الحق لما كنا على ما كنا عليه من الكفر بالله والاغترار به، ولكن لم يكن لنا فهم نعي به ما جاءت به الرسل، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم».

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٢٢، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٩ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
(٢) البيت لوليد الأعظمي انظر «ديوانه الزوابع» ص٦٩.
(٣) في «تفسيره» ٨/ ٢٠٥.

﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ﴾ اي: فاعترفوا على أنفسهم بذنبهم بتكذيبهم نذر الله وما نزل عليهم ورميهم إياهم بالضلال الكبير، وأنهم ما سمعوا ما جاءتهم به النذر ولا تعقلوه.

﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ هذا حكم من الله عز وجل عليهم بالبعد والهلاك، أي: فبعداً وهلاكاً لأصحاب السعير وساكنيها وملازميها، فما أشقاهم وأرداهم وأي بعد وهلاك كبعد وهلاك من حكم الله عليهم بذلك فما لهم من سلامة ولا قرب.

وفي هذا الاعتراف من المكذبين دلالة على عدله عز وجل في خلقه وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليهم بإرسال الرسل، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥].

وهذه الآية كقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الزمر: ٧١].

وقد روى أبو البختري الطائي عمن سمع رسول الله ﷺ أنه قال: «لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم»[1].

الفوائد والعبر:

١- الوعيد الشديد للذين كفروا بربهم بعذاب جهنم وأنها بئس المآل والمنقلب.

٢- إثبات ربوبية الله العامة لجميع الخلق.

٣- فظاعة جهنم وقبح صوتها وشدة غليانها وغيظها على من يلقى فيها.

٤- تبكيت وتوبيخ وتقريع خزنة النار لمن يلقون فيها بقولهم لهم ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾، وهذا عذاب معنوي ينصب على القلوب لا يقل عن العذاب الحسي.

٥- إقرار المكذبين واعترافهم في ذلك اليوم بما جاءهم من النذر، وأنهم كذبوهم وكذبوا ما جاؤوا به من الوحي من عند الله ورموهم بالضلال الكبير، لكن هذا الإقرار لا ينفعهم في ذلك اليوم كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

٦- شدة مكابرة المكذبين للرسل واجترائهم على رميهم بأقبح الصفات تنفيراً للناس عنهم.

٧- شدة حسرة المكذبين للرسل وندمهم واعترافهم بذنبهم، وأنهم لم يستفيدوا من سمعهم ولا من عقولهم بل كانت وبالاً عليهم.

٨- حكم الله ـ عز وجل ـ على المكذبين بالبعد والهلاك لقوله ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢٦٠، وانظر أيضاً ٥/ ٢٩٣.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة ما أعده للشياطين وأتباعهم الكافرين من عذاب جهنم والسعير وحالهم فيها ومقالهم واعترافهم على أنفسهم وندمهم حيث لا ينفع الندم، ثم أتبع ذلك بذكر ما أعده لمن خشي ربه بالغيب من المغفرة والأجر الكبير وهذا على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب.

ثم أتبع ذلك بما يدل على كمال عدله عز وجل بين الخلائق وهو سعة علمه - سبحانه - بخلقه وأحوالهم وأقوالهم. ممتناً عليهم بتذليل الأرض وتسخير خيراتها لهم، ومنبهاً أن إليه مردهم.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [يس: ١١].

والخشية: أشد الخوف، لأنها أخص منه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] ولهذا قال بعض أهل العلم: من شرط الخشية عظم المخشي، وعلم الخاشي استدلالاً بهذه الآية.

﴿رَبَّهُم﴾ أي: خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم، وأضافهم إلى الرب تكريماً وتشريفاً لهم، لأن الربوبية قسمان: ربوبية خاصة، وربوبية عامة، والمراد بها هنا الربوبية الخاصة، ربوبية التكريم والتشريف والهداية والتوفيق والحفظ.

والمعنى: أنهم يخشون ربهم ويخافونه فيمتثلون أوامره ويجتنبون نواهيه.

﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: وهو سبحانه غيب لم يروه، كما قال تعالى: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [ق: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [النساء: ٩٤].

والغيب ما غاب عن الحواس، قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٣].

ولما سأل جبريل عليه السلام النبي ﷺ عن الإحسان قال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[١].

وسأل أبو ذر رضي الله عنه رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: «نور أنى أراه»[٢].

وقالت عائشة رضي الله عنها: «من زعم أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية»[٣].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم، قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال: فيسألهم ربهم وهو أعلم منهم، ما يقول عبادي؟ قالوا: يقولون: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك، قال: فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا والله ما رأوك، قال: فكيف لو رأوني...» الحديث[٤].

وأيضاً: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: وهم غائبون عن أعين الناس لا يراهم أحد من الناس كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله» – إلى أن قال: «ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» الحديث[٥].

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ الجملة في محل رفع خبر «إن» في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ وقوله ﴿لَهُم﴾ جار ومجرور خبر قدم لإفادة الحصر والتخصيص، أي: لهم خاصة مغفرة وأجر عظيم دون غيرهم.

و«المغفرة» هي ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن عقوبته، أي لهم مغفرة لذنوبهم بسترها والتجاوز عنها.

﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي: وثواب عظيم في جنات النعيم، وإذا كان المولى العظيم وصف أجرهم بأنه عظيم فلا يقدر قدر عظمته إلا العظيم سبحانه.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٠، ومسلم في الإيمان ٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٩١، وابن ماجه في المقدمة ٦٤ – من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ١٧٨، والترمذي في التفسير ٣٢٨٢ – من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان ١٧٧، والترمذي في تفسير القرآن ٣٠٦٨.

(٤) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٤٠٨، ومسلم في الذكر والدعاء ٢٦٨٩، والترمذي في الدعوات ٣٦٠٠، وأحمد ٢/ ٢٥١.

(٥) أخرجه البخاري في الأذان ٦٦٠، ومسلم في الزكاة ١٠٣١، والنسائي في آداب القضاة ٥٣٨٠، والترمذي في الزهد ٢٣٩١.

وسمى عز وجل ثوابهم أجراً مع أنه لا يجب عليه - سبحانه - شيء لخلقه، تكرماً منه - سبحانه - وامتناناً عليهم لأنه هو الذي تكفل به وأوجبه على نفسه كما قال عز وجل: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال عز وجل: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦].

قال ابن القيم[1]:

ما للعباد عليه حق واجب	هو أوجب الأجر العظيم الشان
كلا ولا عمل لديه ضائع	إن كان بالإخلاص والإحسان
إن عذبوا فبعدله أو نعموا	فبفضله والفضل للمنان

فجمع لهم عز وجل بين مغفرة ذنوبهم بسترها والتجاوز عنها، وبذلك يزول المرهوب وبين إثابتهم بالأجر العظيم وبذلك يحصل المطلوب.

وقدم مغفرة الذنوب، لأن التخلية قبل التحلية.

﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

في ذكر هذا بعد ذكره عذاب من كفروا بربهم، وثواب الذين يخشون ربهم بالغيب إشارة إلى أن هذا الجزاء عن علم تام منه عز وجل بخلقه وأحوالهم وأقوالهم.

وقوله: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾ أي: إن شئتم فأسروا قولكم وإن شئتم فاجهروا به، فالسر والعلانية عنده - سبحانه - سواء.

كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾ [طه: ٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الأعلى: ٧].

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: إنه عز وجل ذو علم تام بصاحبة الصدور وهي القلوب، أي: بما تخفيه وتنطوي عليه القلوب من المكنونات والخواطر، والاعتقادات والإرادات والحب والبغض مما لم تنطق به الألسن لا سراً ولا جهراً، وإذا كان عالماً بما في القلوب فعلمه بما عدا ذلك من الأقوال والأفعال الظاهرة من باب أولى وأحرى.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ «ألا» استفهام إنكار على من أنكروا علمه ـ عز وجل .

---

(١) في «النونية» ص١٤٩ - ١٥٠.

و«من» موصولة في محل رفع فاعل، والتقدير: الا يعلم الخالق الذي خلق الخلق وأتقنه وأحسنه مخلوقه ومصنوعه، وقد تكون «من» في محل نصب مفعول، أي: ألا يعلم الرب مخلوقه.

وفي هذا أبلغ التقرير لكمال علمه عز وجل بالدليل العقلي، وفيه أعظم الإفحام لمنكري علمه عز وجل، فحيث كانوا يقرون بأنه خالقهم وخالق صدورهم وما تضمنته فكيف تخفى عليه وهي خلقه، فإن الخالق لا بد أن يعلم مخلوقه والصانع لا بد أن يعلم مصنوعه.

﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ الواو: حالية، و«اللطيف الخبير» اسمان من أسمائه - عز وجل - كل منهما على وزن «فعيل» يدل «اللطيف» على دقة لطفه - عز وجل، ويدل «الخبير» على دقة خبرته وسعة علمه - سبحانه - فـ «اللطيف» الذي يدرك الدقيق، و«الخبير» الذي يدرك الخفي، أي: المحيط علماً بالدقائق والخفيات والسرائر والمضمرات.

قال ابن تيمية[1]: «قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ دلت على علمه بالأشياء من وجوه تضمنت البراهين المذكورة لأهل النظر العقلي:

أحدها: أنه خالق لها، والخلق هو الإبداع بتقدير، فتضمن تقديرها في العلم قبل تكوينها.

الثاني: أنه مستلزم للإرادة والمشيئة فيلزم تصور المراد، وهذه الطريقة المشهورة عند أهل الكلام.

الثالث: أنها صادرة عنه وهو سببها التام والعلم بالأصل يوجب العلم بالفرع، فعلمه بنفسه يستلزم العلم بكل ما يصدر عنه.

الرابع: أنه «لطيف» يدرك الدقيق «خبير» يدرك الخفي. وهذا هو المقتضي للعلم بالأشياء فيجب وجود المقتضى لوجود السبب التام».

وقال ابن القيم[2]: «الذي لطف صنعه وحكمته ودق حتى عجزت عنه الأفهام، والخبير: الذي انتهى علمه إلى الإحاطة ببواطن الأمور وخفاياها كما أحاط بظواهرها، فكيف يخفى على اللطيف الخبير ما تحتويه الضمائر وتخفيه الصدور».

وقد أحسن القائل[3]:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل ... خلوت ولكن قل علي رقيب

---

(١) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ١٣.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٤٩٤.

(٣) البيتان لصالح عبد القدوس، انظر «ديوانه» ص١٣٣.

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما يُخفى لديه يغيب

ويأتي «اللطيف» بمعنى المحسن قال ابن القيم في النونية[1]:

وهو اللطيف بعبده ولعبده واللطف في أوصافه نوعان

إدراك أسرار الأمور بحكمة واللطف عند مواقع الإحسان

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾.

في هذا امتنان من الله عز وجل على عباده، أي: هو سبحانه الذي امتن عليكم بأن جعل الأرض كوناً وقدراً مذللة منقادة للسير عليها والبناء عليها وحفرها وشقها واستخراج الماء منها واستخراج خيراتها، ولهذا قال:

﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ اي: سيروا وسافروا حيث شئتم في طرقها وفجاجها وأرجائها ونواحيها وأطرافها في جبالها وأوديتها وسهولها.

﴿وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ اي: وكلوا مما أودعه فيها، وأخرجه لكم منها من رزقه وعطائه مما يستخرج منها من الحبوب والثمار والفواكه وغير ذلك.

والتعبير بالأكل لأنه الأهم فهو كسوة الباطن – لا يستطيع الإنسان الحياة بدونه وسائر الانتفاعات من الأرض وخيراتها – تبع لذلك.

قال ابن كثير[2] في الكلام على هذه الآية: «ثم ذكر نعمته على خلقه في تسخيره لهم الأرض، وتذليله إياها لهم، بأن جعلها قارة ساكنة لا تمتد ولا تضطرب، بما جعل فيها من الجبال، وأنبع فيها من العيون، وسلك فيها من السبل، وهيأ فيها من المنافع ومواضع الزروع والثمار فسافروا حيث شئتم من أقطارها وترددوا في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات».

وفي قوله ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ إشارة إلى أنه ينبغي الجمع بين السعي وفعل الأسباب مع الاعتماد والتوكل على الله عز وجل، كما قال ﷺ فيما رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»[3].

---

(١) ص١٤٩.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٠٦.

(٣)أخرجه الترمذي في الزهد – ما جاء في الزهادة في الدنيا ٢٣٤٤، وابن ماجه في الزهد – التوكل واليقين ٤١٦٤، وأحمد =

﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أي: وإليه وحده عز وجل نشر الخلائق من قبورهم وعليه حسابهم كما قال عز وجل ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

وفي ذكر هذا بعد الامتنان بتذليل الأرض لهم يمشون عليها ويبنون ويسكنون ويأكلون من خيراتها تنبيه وتذكير إلى أن هذه الدار ليست دار بقاء، وأن الناس فيها غير مستوطنين ولا مقيمين بل هم عابرو سبيل يتزودون فيها للدار الباقية دار القرار، فهي دار عبور ومرور، لا دار استقرار وحبور والجاهل المغبون من ركن إليها، والكيس الفطن العاقل الحازم اللبيب من لم يطمئن إليها.

كما جاء في الحديث: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني»(١).

الفوائد والعبر:

١ ـ التنويه بما أعده الله من المغفرة والأجر الكبير لمن يخشونه ويخافونه وهو غيب لم يروه، وإن غابوا عن أعين الناس.

٢ ـ إثبات ربوبية الله الخاصة لأهل خشيته، وتكريمهم بها.

٣ ـ أن التخلية قبل التحلية، لأن بالتخلية زوال المرهوب بمغفرة الذنوب، وبالتحلية حصول المطلوب بالأجر الكبير كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

٤ ـ امتنان الله عز وجل على عباده المؤمنين بتسمية ثوابهم أجراً، وإيجابه عز وجل على نفسه ذلك لهم.

٥ ـ علم الله عز وجل واطلاعه التام على ما أسر به الخلق أو جهروا به وما تكنه ضمائرهم وقلوبهم.

٦ ـ تأكيد علمه عز وجل بالخلق، وأنه أعلم بهم وأدرى، لأنه خالقهم وهم خلقه.

٧ ـ إثبات اسمين من أسماء الله عز وجل وهما «اللطيف» و«الخبير» وما يؤخذ منهما من إثبات تمام لطفه عز وجل وكمال خبرته.

٨ ـ نعمة الله عز وجل العظيمة على الخلق بتذليل الأرض لهم للسير عليها واستخراج خيراتها والأكل من رزقه الواسع فيها.

٩ ـ إثبات نشر الخلائق وبعثهم من قبورهم وحسابهم.

١٠ ـ الإشارة إلى أن الدنيا مزرعة للآخرة.

=

١/ ٣٠، ٥٢، وقال الترمذي «حديث حسن صحيح».

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع ٢٤٥٩، وابن ماجه في الزهد ٤٢٦٠ ـ من حديث شداد بن أوس ـ رضي الله عنه . وقال الترمذي: «حديث حسن».

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ۝١٧ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ۝١٨ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ۝١٩﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

لما ذكر ـ عز وجل ـ الخلق بنعمته عليهم بتذليل الأرض لهم خوّف المكذبين وهددهم وتوعدهم بسلب هذه الصفة عنها بخسفها بهم وجعلها تمور، ثم خوفهم بإرسال الريح الحاصب عليهم، وبما حل بالمكذبين من قبلهم، ووجههم إلى رؤية عظيم قدرة الله عز وجل في الطير حال كونهن صافات ويقبض ما يمسكهن إلا الرحمن سبحانه وتعالى.

قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ الهمزة للاستفهام، ومعناه التهديد والوعيد والخطاب للكفار المكذبين.

و«من» اسم موصول بمعنى «الذي» أي: ءأمنتم الذي في السماء أي: في العلو وهو الله عز وجل الذي هو عال على خلقه بائن منهم مستو على عرشه.

﴿أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: يُغوِّر بكم الأرض، ويغيبكم فيها.

﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ أي: تموج وترتج وتتكفأ وتذهب وتجيء وتضطرب وتتزلزل، فلا يمكن العيش والحياة عليها، بعد أن كانت ذلولاً ثابتة مستقرة مهيأة للاستقرار والحياة. وفيما يقع ويشاهد من الزلازل المهلكة المدمرة التي تحصد أرواح مئات الآلاف من الناس وتقضي على الأخضر واليابس وتذر الديار بلاقع أعظم عبرة لمن يعتبر.

﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ «أم» هي المنقطعة التي بمعنى «بل» وهمزة الاستفهام، أي: بل ءأمنتم الذي في السماء، وهو الله ـ عز وجل.

﴿أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ﴾ أي: أن يرسل عليكم ريحاً شديدة ترميكم بالحصباء وهي الحجارة فتهلككم كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ۝٦٨﴾ [الإسراء: ٦٨].

﴿فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾ أي: فستعلمون بعد حلول العقوبة فيكم من خسف الأرض بكم أو إرسال الريح الحاصب عليكم ﴿كَيۡفَ نَذِيرِ﴾ كيف كان إنذاري لكم وعقوبة تكذيبكم للنذر ومخالفتكم لهم، وكيف حل بكم ما أنذرتكم به الرسل والكتب.

وفي هتين الآيتين تخويف وتحذير من الأمن من مكر الله وعقوبته في الدنيا لمن كفر به

وخالف أمره بخسف الأرض بهم، أو بإرسال الريح الحاصب عليهم، وغير ذلك، وتنبيه لهم على قدرته التامة على ذلك، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ [الإسراء: ٦٨، ٦٩].

وقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل: ٤٥ - ٤٧].

وقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٧ - ٩٩].

لكنه عز وجل يمهل ولا يهمل، كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ٤٥].

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الواو للاستئناف، واللام للقسم، و«قد» للتحقيق أي: والله لقد كذب الذين من قبلهم، أي: من قبل قومك يا محمد من الأمم السابقة، كذبوا نذر الله ورسله وأنبياءه.

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: فكيف كان إنكاري عليهم وعقابي لهم، أي: ما أشد إنكاري عليهم وعقابي لهم بالإهلاك، أي: ان ذلك كان عظيماً شديداً فليأخذ قومك مما حل بأولئك الأقوام العظة والعبرة، فإن السعيد من وعظ بغيره.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ ۚ﴾.

بعد ما خوفهم عذاب الله عز وجل وعقابه أنكر عليهم ووبخهم على عدم النظر والتأمل في عظيم آيات الله عز وجل وقدرته في جعل الطير تطير فوقهم صافات ويقبضن وإمساكها في الجو.

قوله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي: أعموا ولم يروا، والاستفهام للإنكار والتوبيخ.

أي: أولم ينظروا إلى الطير فوقهم في السماء ﴿صَٰٓفَّٰتٖ﴾ أي: حال كونهن باسطات ناشرات لأجنحتهن في الجو والهواء عند الطيران، ﴿وَيَقۡبِضۡنَۚ﴾ أي: ويضممن أجنحتهن إذا ضربن بها جنوبهن، وعند وقوعهن.

﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ﴾ «ما» نافية، أي: ما يمسكهن في الجو والهواء عن السقوط ﴿إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾ سبحانه وتعالى برحمته ولطفه وقدرته بما سخر لهن من الهواء وبما جعل لهن من الأجنحة والزعانف والخلقة المناسبة لذلك.

﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾ أي: إنه عز وجل ذو بصر وخبرة وعلم في كل شيء من مخلوقاته، خلقاً لها وملكاً وتدبيراً وغير ذلك.

وقدم المتعلق وهو قوله ﴿بِكُلِّ شَيۡءِۭ﴾ لتأكيد شمول بصره وخبرته وعلمه بكل شيء أياً كان ذلك الشيء.

والمراد: أولم ينظروا إلى الطير حال طيرانها وعند وقوعها فيتأملوا في عظيم قدرة الله عز وجل وبصره في مخلوقاته حيث جعل الطير تطير على هذه الكيفية، وأمسكها في الجو والهواء، كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٧٩﴾ [النحل: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾ [النور: ٤١].

الفوائد والعبر:

١- إثبات علو الله على خلقه لقوله ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

٢- تخويف الكافرين والمكذبين بالعقوبات الكونية الدنيوية من خسف الأرض بهم أو إرسال الريح الحاصب عليهم، والوعيد والتهديد لهم بذلك، وتذكيرهم بما حل بالمكذبين قبلهم من العقوبات كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٠﴾ [العنكبوت: ٤٠].

٣- التذكير بنعمة الله ـ عز وجل ـ بجعل الأرض مستقرة، وبعظيم قدرة الله عز وجل في إمساك الطير حال طيرانها بين السماء والأرض.

٤- إثبات اسم الله ـ عز وجل ـ «الرحمن» وصفة الرحمة الواسعة له ـ عز وجل ـ وإثبات أنه ـ عز وجل ـ بكل شيء بصير، وعلى كل شيء مطلع وبه خبير.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾.

بعدما أنكر عز وجل على المكذبين، وخوَّفهم عقابه الدنيوي وأن يحل بهم ما حل بالمكذبين قبلهم منكراً عليهم عدم التأمل والنظر في عظيم قدرة الله عز وجل في الطير تطير في الجو فوقهم، أتبع ذلك بإنكار ما يعتقدونه في معبوداتهم ويبتغونه منها من النصر والرزق غروراً منهم وعتواً.

قوله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، أي: من هذا الذي هو جند لكم وعون لكم أيها الكافرون يملك نصركم ويقدر عليه ﴿مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أهي هذه المعبودات التي تعبدونها من دون الله، كما تعتقدون ذلك؟ فليس الأمر كما تعتقدون ولن يحصل لكم ما تؤملون.

﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ «إن» نافية بمعنى «ما». أي ما الكافرون إلا في غرور من الشيطان كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣، فاطر: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾ [الحديد: ١٤].

وقال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ [الإسراء: ٦٤].

فهم في غرور من الشيطان حيث زين لهم عبادة غير الله، واعتقادهم فيها النصر، وهي لا تملك نصر أنفسها فكيف تنصر غيرها - كما قال عز وجل -: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ [الأعراف: ١٩١، ١٩٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الأعراف: ١٩٧].

فلا ولي لهم من دون الرحمن ولا ناصر، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ

اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٠٧، التوبة: ١١٦، العنكبوت: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾ [الشورى: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [هود: ١١٣].

﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ الاستفهام كسابقه للإنكار، أي: من هذا الذي يرزقكم غير الله إن أمسك الله رزقه وقطعه عنكم، أهي معبوداتكم التي تعبدونها من دون الله. والجواب: لا أحد يرزقكم سوى الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت: ١٧].

﴿بَل لَّجُّوا﴾ «بل» للإضراب. ﴿لَّجُّوا﴾ أي: استمروا وتمادوا في طغيانهم، كما قال عز وجل: ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المؤمنون: ٧٥].

﴿فِي عُتُوٍّ﴾ في قسوة وعدم لين للحق، وعناد واستكبار، ومخالفة لأمر الله ونهيه، كما قال تعالى: ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ [الطلاق: ٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: ١٦٦]، وقال تعالى: ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفرقان: ٢١].

﴿وَنُفُورٍ﴾ أي: شرود وبعد عن الحق بقلوبهم وأبدانهم لا يستمعون إليه ولا يفقهونه ولا يتبعونه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٠]، وقال تعالى: فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ [فاطر: ٤٢].

وكما قال نوح عليه السلام فيما حكى الله عنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾ [نوح: ٥ – ٧].

﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

ذكر الله عز وجل فيما تقدم ما أعده لمن خشيه من المغفرة والثواب، وما أعده لمن كفر به من العقوبة والعذاب، ثم ضرب مثلاً فيه بيان الفرق الواسع والبون الشاسع بين حال المؤمن والكافر فقال: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

قوله: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ الهمزة للاستفهام، أي: أفمن يسير منكساً على وجهه واقعاً عليه، لا يبصر ما بين يديه وما عن يمينه وشماله ﴿أَهْدَىٰٓ﴾ أي: أشد استقامة على الطريق ﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: أمّن يسير سوياً منتصباً على طريق مستقيم لا اعوجاج فيه، يبصر ما بين يديه وما عن يمينه وشماله، كما قال تعالى في سورة الفرقان في وصف نور الإيمان في قلب المؤمن: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [الآية: ٣٥]، لا شك أن هذا أهدى وهذا مثل ضربه الله عز وجل للكافر والمؤمن كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٧٦﴾ [النحل: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٢٤﴾ [هود: ٢٤].

فمثّل الله عز وجل الكافر بمن يمشي مكباً على وجهه لأنه ليس على هدى، بل يتخبط في ظلمات الكفر والشك والجهل مخالفاً لفطرة الله التي فطر الناس عليها، كما قال تعالى في سورة النور: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [الآيتين: ٣٩، ٤٠]

ومثّل عز وجل المؤمن بمن يمشي مستوي القامة منتصباً على رجليه على فطرة الله لأنه يمشي على طريق معتدل وهدى ونور من الله وعلى صراطه المستقيم، كما قال عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨﴾ [غافر: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٢٢﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ [الرعد: ١٦]. وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝٢١ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ۝٢٢﴾ [فاطر: ١٩ - ٢٢].

وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر: ٢٩].

أي: ضرب الله مثلاً لمن يشرك مع الله غيره ويعبد أكثر من معبود، ومن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً.

فشتان بين من يمشي مكباً على وجهه منكوس الفطرة يشرك مع الله غيره، وبين من يمشي سوياً على الفطرة التي فطر الله الناس عليها يؤمن بربه ويوحده، فما بينهما أبعد مما بين الثرى والثريا، وما بين المشرق والمغرب.

شتان بين الحالتين فإن ترد ... جمعاً فما الضدان يجتمعان

قال ابن كثير[1]: «وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشي مكباً على وجهه، أي: من يمشي منحنياً لا مستوياً على وجهه، أي: لا يدري أين يسلك ولا كيف يذهب؟ بل هو تائه حائر ضال، أهذا أهدى ﴿أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا﴾ أي: منتصب القامة ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ على طريق واضح بيّن، وهو في نفسه مستقيم، وطريقه مستقيمة، هذا مثلهم في الدنيا، وكذلك يكونون في الآخرة فالمؤمن يحشر سوياً على صراط مستقيم، مفض به إلى الجنة الفيحاء، وأما الكافر فإنه يحشر يمشي على وجهه إلى نار جهنم».

كما قال تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الصافات: ٢٢ - ٢٦].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟، قال: «أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة»[2].

وليس في قوله ﴿أَهْدَىٰٓ﴾ ما يدل على أن من يمشي مكباً على وجهه وهو الكافر عنده شيء من الهداية، لأن اسم التفضيل قد يستعمل بين أمرين ليس في أحدهما شيء من الفضل، كما في قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٠٨.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الفرقان ٤٧٦٠، ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم ٢٨٠٦، وأحمد ٣/ ١٦٧.

[الفرقان: ٢٤]. إذ ليس في النار شيء من الخيرية أو حسن المقيل البتة، فهي شر محض.

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ «قل» الأمر للنبي ﷺ، أي: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بالبعث من قومك، هو الذي ابتدأ خلقكم وأوجدكم من العدم.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾. أي: كمل خلقكم بهذه الجوارح السمع والأبصار، والأفئدة، وهي العقول.

وخص هذه الجوارح بالذكر لفضلها فالسمع والأبصار أدوات وطرق وصول الحق إلى القلوب، والقلوب هي محل الإدراك ومناط التكليف وعليها مدار صلاح الأعمال وفسادها كما قال ﷺ: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[1].

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ «ما» موصولة أو مصدرية، أي: قليلاً الذي تشكرون، أو قليلاً شكركم، أي: قليل منكم الشاكر، وقليل منكم الشكر.

والآية خبر، وفيها معنى الأمر، أي: اشكروا.

والشكر: باستعمال هذه الجوارح، وغيرها من نعم الله التي لا تحصى في طاعة الله عز وجل بفعل أوامره وترك نواهيه.

وهذه الآية كقوله ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ۝﴾ [سبأ: ١٣]، وقوله: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص:٢٤]، وقوله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝﴾ [الأنعام: ١١٦][2].

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: قل لهم يا محمد هو الله الذي بثكم ونشركم وفرقكم في أقطار الأرض وأرجائها على اختلاف صوركم وأشكالكم وألوانكم ولغاتكم.

﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: إليه تجمعون يوم القيامة، كما قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ۝ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝﴾ [الواقعة: ٤٩ - ٥٠]، وقال عز وجل:

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٢، ومسلم في المساقاة ١٥٩٩، وابن ماجه في الفتن ٣٩٨٤ - من حديث النعمان بن بشير - رضي الله عنه.

(٢) انظر ما سبق في الكلام على قوله تعالى في سورة القمر ﴿حِكْمَةٌۢ بَـٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [الآية: ٥]، وقوله في سورة الحديد ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ [الآية: ٢٦].

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩][1].

قال ابن كثير[2]: «أي: تجمعون بعد هذا التفرق والشتات، يجمعكم كما فرقكم ويعيدكم كما بدأكم».

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي: ويقول الكفار إنكاراً للبعث واستبعاداً لوقوعه: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي: متى وقوع هذا الذي تعدنا به من البعث والحشر والجمع بعد التفرق والموت.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تعدوننا وتخبروننا به، وجمعوا الضمير باعتبار الخبر عن الله ورسوله ﷺ، أو بضميمة المؤمنين إليهم، أو أن دأب المكذبين قول هذا لرسلهم.

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أمر الله عز وجل رسوله ﷺ أن يرد علم البعث والحشر إليه - سبحانه - أي: قل لهم يا محمد ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ «إنما» أداة حصر، أي: إنما علم وقت الحشر وقيام الساعة عند الله عز وجل لا يعلمه غيره، كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٤٤].

﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ﴾ الواو: عاطفة و«إنما» أداة حصر، أي: ما أنا إلا نذير، أنذركم وقوع ذلك الوعد وأخبركم أنه واقع لا محالة، وأحذركم عذاب الله.

﴿مُّبِينٌ﴾ أي: بيّن واضح، و«مبين» ما أمرت بإبانته لكم من النذارة والتحذير والتخويف من عذاب الله وقد أنذرتكم وبلغتكم وقد أعذر من أنذر.

والحصر هنا إضافي، أي: ما أنا بالنسبة لأمر الحشر والبعث إلا نذير أنذركم بتحتم وقوعه، ولا أدري متى وقوعه، لكنه ﷺ مع ذلك بشير، مكلف بالعمل كغيره قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة: ١١٩].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١].

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أي: فلما رأوا ما وعدوا به من العذاب في الآخرة، وقيل عذاب يوم بدر ﴿زُلْفَةً﴾ أي: قريباً.

---

(١) انظر الكلام على هذه الآية في سورة التغابن.

(٢) في «تفسيره» ٨/٢٠٨.

﴿سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: ظهر على وجوه الذين كفروا بالله وأنكروا البعث والحشر الاستياء والكآبة والحزن وخابت ظنونهم، وأيقنوا بالخيبة والخسران المبين والمصير إلى النار، وبئس القرار، قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ۝ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝﴾ [الزمر: ٤٧، ٤٨].

﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ قرأ يعقوب بإسكان الدال مخففة، وقرأ الباقون بفتحها مشددة.

أي: وقيل لهم على وجه التقريع والتوبيخ ﴿هَٰذَا﴾ أي: البعث والحشر والحساب والعذاب ﴿ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ أي: الذي كنتم في دار الدنيا تستعجلون وقوعه، وتطلبونه، إنكاراً له واستبعاداً لوقوعه قد رأيتموه عياناً كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ۝﴾ [التكاثر: ٧].

وفي الحديث: «ليس الخبر كالعيان»[1] وهذا ما كانوا يستعجلونه كما قال تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿۞ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡ﴾ [يونس: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ۝﴾ [ص: ١٦]، أي: عجل لنا نصيبنا من الحساب. وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۝﴾ [الأنفال: ٣٢].

الفوائد والعبر:

١- تسفيه عقول المشركين والإنكار عليهم في عبادتهم من دون الله ما لا يملك لهم نصرا ولا رزقاً وغرورهم ومكابرتهم في ذلك وعتوهم ونفورهم عن الحق.

٢- إثبات اسم الله عز وجل «الرحمن» وصفة الرحمة الواسعة له - عز وجل، وأنه سبحانه هو الرب الذي بيده النصر ومنه الرزق.

٣- شتان بين المؤمن والكافر والبر والفاجر، فالكافر الفاجر كمن يمشي مكباً على وجهه، والمؤمن البر كمن يمشي سوياً معتدلاً على طريق مستقيم، فالمؤمن أهدى وأقوم سبيلا، والكافر أعوج وأضل سبيلا.

٤- أن اسم التفضيل قد يستعمل بين شيئين ليس في أحدهما شيء من الفضل.

---

(١) سبق تخريجه.

٥- بلاغة القرآن الكريم وبلوغه الغاية فيما يدعو إليه وفيما ينفر منه لقوله ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. ولك أخي الكريم أن تتخيل حالة كل من هذين الصنفين، والبون الشاسع بينهما.

٦- امتنان الله على الناس بإنشائهم وجعل السمع والأبصار والأفئدة لهم وتذكيرهم بذلك ليشكروه.

٧- قلة شكر الناس للنعم وقلة الشاكر منهم لقوله ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣].

٨- تذكير الخلق بأن الله عز وجل هو الذي خلقهم ونشرهم وفرقهم في الأرض وأن إليه حشرهم وجمعهم وعليه حسابهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

٩- استبعاد الكافرين للبعث والحساب والجزاء على الأعمال، تكذيباً لذلك، وإنكاراً له، وتكذيباً له ﷺ ولما جاء به.

١٠- أن علم المعاد وبعث العباد عند الله عز وجل لا يعلمه سواه، ومهمة الرسول ﷺ هي الإنذار والتخويف من عذاب الله.

١١- تغير وجوه الكفار ومساءتها واسودادها عند معاينة العذاب قريباً منهم وتبكيتهم، وتعذيب قلوبهم بأن يقال لهم ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٨ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢٩ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ۝٣٠﴾.

أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين من قومك الذين يتربصون بهلاكك كما قال الله عز وجل عنهم ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠﴾ [الطور: ٣٠] قل لهم: اخبروني ﴿إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ﴾ أي: إن عذبني الله ومن معي من المؤمنين فأهلكنا كما تتمنون ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ فأثابنا ونعّمنا.

﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: فمن يجيركم من عذاب الله أيها الكافرون، فأنتم معذبون لا محالة ولا مجير لكم من عذاب الله سواء أهلكنا أو رحمنا، فاعملوا على خلاص أنفسكم بالتوبة والإيمان والعمل الصالح.

ولم يقل: فمن يجيركم من عذاب أليم ـ والله أعلم ـ للتنصيص على كفرهم، وربط العقوبة بالعذاب بسببها وهو الكفر، وليشمل هذا الوعيد كل كافر.

﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: قل هو الرحمن صدقنا به رباً ومعبوداً وانقدنا له ظاهراً وباطناً.

﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي: وعليه – وحده – اعتمدنا وفوضنا جميع أمورنا مع تمام الثقة به سبحانه.

وكثيراً ما يقرن عز وجل بين الإيمان به، وعبادته وبين التوكل عليه، كما في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣][(١)].

والتوكل داخل في الإيمان ومن جملة لوازمه لكنه خص بالذكر من بين سائر الأعمال لعظم مكانته من الإيمان، وكون الأعمال صحتها وكمالها متوقفين عليه. كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٣﴾ [المائدة: ٢٣].

﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ قرأ الكسائي بالغيب (فسيعلمون) وقرأ الباقون بالخطاب (فستعلمون)، أي: فستعلمون من هو في بعد وتيه عن الحق، أهو نحن أم أنتم،

---

(١) انظر ما سبق في الكلام على قوله تعالى في سورة التغابن: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [الآية: ١٣].

ولمن تكون العاقبة في الدنيا والآخرة أهي لنا، أم لكم؟.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾.

أي: قل يا محمد: أخبروني إن أصبح ماؤكم غائراً ذاهباً في الأرض لا تستطيعون الوصول إليه بأي وسيلة.

﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ أي: فمن الذي ﴿يأتيكم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ أي: بماء نابع سائح جار ظاهر على وجه الأرض تراه العيون، لا ينضب، تشربون منه وتسقون أنعامكم وأشجاركم وزروعكم. أي: لا أحد يستطيع أن يأتيكم بذلك إلا الله عز وجل.

وفي هذا تخويف لهم من سلب نعمة الماء، وتذكيرهم بإنعامه وإفضاله عليهم بها، كما قال عز وجل: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة: ٦٨ ـ ٧٠].

الفوائد والعبر:

١- تربص الكافرين هلاك الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين.

٢- التهديد للكافرين، وأنه لا مجير لهم من العذاب الأليم في النار يوم القيامة.

٣- التنزل مع الكفار والمكذبين لتقريرهم ليتبين لهم أنهم ليسوا على شيء لقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا﴾ وإلا فلا شك أنه ﷺ يعلم أنه ومن معه من المرحومين بإذن الله ـ عز وجل.

٤- أن عذاب الكافرين المكذبين مؤلم موجع حساً للأجساد، ومؤلم موجع معنى للقلوب.

٥- إثبات اسم الله «الرحمن» وهو ثاني اسم من أسماء الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ وإثبات صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل.

٦- لا يقوم الإيمان بالله إلا على دعامتين: الإيمان بالله عز وجل، والتوكل عليه، ولهذا كثيراً ما يقرن الله عز وجل بينهما في القرآن الكريم.

٧- وعيد الكفار المكذبين بأنهم سيعلمون حقاً أنهم هم الذين كانوا في ضلال مبين، وليس ذلك هو الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين، كما زعموا، وذلك بوقوع العذاب عليهم.

٨- امتنان الله عز وجل على الناس بالماء الذي يشربون، وتخويفهم من سلبه منهم وتغويره عنهم فلا أحد غيره – سبحانه – يستطيع أن يأتيهم بماء معين لا ينضب. وبهذا جمع الله لهم بين التخويف بالعقاب الدنيوي والعذاب الأخروي.

تفسير سورة القلم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ۝٤ فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ۝٧﴾.

قوله: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ «ن» أحد حروف الهجاء، وأحد الحروف المقطعة التي تكون أوائل السور نحو «ص» و«ق» وقد سبق الكلام على هذه الحروف، وذكر أقوال أهل العلم في معناها والمراد بها في مطلع سورة «ق»، وأن أظهر الأقوال في معناها أنها ذكرت في مطلع بعض السور للتحدي والإعجاز، وأن العرب الذين هم أرباب الفصاحة والبلاغة والبيان، والذين نزل القرآن بلغتهم عاجزون عن الإتيان بمثله، بل بعشر سور مثله، بل بسورة من مثله، مع أنه بهذه الحروف التي ينطقون بها.

قال ابن القيم[1]: «الصحيح أن «ن» و«ق» و«ص» من حروف الهجاء التي يفتتح بها الرب سبحانه بعض السور، وهي أحادية وثنائية وثلاثية ورباعية وخماسية، ولم تجاوز الخمسة، ولم تذكر قط في أول سورة إلا وعقبها بذكر القرآن إما مقسماً به، وإما مخبراً عنه ما خلا سورتين سورة «كهيعص» و«ن» ففي هذا تنبيه على شرف هذه الحروف وعظم قدرها وجلالتها إذ هي مباني كلامه وكتبه التي تكلم سبحانه بها، وأنزلها على رسله، وهدى بها عباده وعرفهم بواسطتها نفسه وأسماءه وصفاته وأفعاله وأمره ونهيه ووعيده ووعده، وعرفهم بها الخير والشر والحسن والقبيح، وأقدرهم على التكلم بها... وهذا من أعظم نعمه عليهم، كما هو من أعظم آياته».

﴿وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ الواو: للقسم، و«القلم» مقسم به، والقلم هو أداة الكتابة المعروفة، فبه كتب القدر، كما في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: يا رب ما أكتب؟، قال: اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد»[2].

---

(١) انظر: بدائع التفسير» ٤/ ٤٩٩، وانظر الكلام على هذه الحروف بأوسع من هذا في مطلع سورة «ق».

(٢) أخرجه أبو داود في السنة – باب في القدر ٤٧٠٠، والترمذي في القدر ٢١٥٥، وأحمد ٥/ ٣١٧، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ١٤٥.

وبه يكتب الملائكة أعمال بني آدم، وبه يكتب الذكر، وبه يكتب العلم.

﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ الواو: عاطفة و«ما» موصولة، أي: والذي يكتبون، وقد تكون «ما» مصدرية، أي: وسطرهم، أي: كتبهم كما قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾ [العلق: ٣ ـ ٥].

فأقسم عز وجل بأداة الكتابة وهو القلم، وبالذي يكتبون، وهو العلم.

قال ابن تيمية[1]: «أقسم سبحانه بالقلم وما يسطرون: فإن القلم يكون به الكتاب الساطر للكلام المتضمن للأمر والنهي والإرادة والعلم المحيط بكل شيء، فالإقسام وقع بقلم التقدير ومسطوره، فتضمن أمرين عظيمين تناسب المقسم عليه. أحدهما: الإحاطة بالحوادث قبل كونها، وأن من علم بالشيء قبل كونه أبلغ ممن علمه بعد كونه، فإخباره عنه أحكم وأصدق.

الثاني: أن حصوله في الكتابة والتقدير يتضمن حصوله في الكلام والقول والعلم من غير عكس، فإقسامه بآخر المراتب العلمية يتضمن أولها من غير عكس، وذلك غاية المعرفة واستقرار العلم إذا صار مكتوباً، فليس كل معلوم مقولاً، ولا كل مقول مكتوباً، وهذا يبين لك حكمة الإخبار عن القدر السابق بالكتابة دون الكلام فقط، أو دون العلم فقط».

ويؤخذ من افتتاح السورة بقوله ﴿نٓ﴾ ومن الإقسام بالقلم وبالمكتوب فضل العلم وأهله.

وقد أكد القرآن الكريم هذا في مواضع عدة، بل إن أول آية وأول سورة نزلت من القرآن الكريم على النبي ﷺ بالأمر بذلك، قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

وقال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، قال البخاري «فبدأ بالعلم قبل القول والعمل»[2].

وقال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» ٥/ ١٤ ـ ١٥.

(٢) انظر «فتح الباري» ١/ ١٥٩ـ كتاب العلم ـ باب العلم قبل القول والعمل.

وقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُولُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ﴾ [آل عمران: ٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ﴾ [فاطر: ٢٨].

وامتن عز وجل على عباده بالعلم بقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤].

وقال ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»(١).

وقد سجل هذا الشاعر بقوله:

هل العلم في الإسلام إلا فريضة ... وهل أمة سادت بغير التعلم

لقد أيقظ الإسلام للمجد والعلا ... بصائر أقوام عن المجد نوَّم

فأشرق نور العلم من حجراته ... على وجه عصر بالجهالة مظلم

ودك حصون الجاهلية بالهدى ... وقوَّض أطناب الضلال المخيم(٢)

وعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يفعل، وإن العالم ليستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا مالاً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده»(٤).

وعن معاوية ـ رضي الله عنه قال: «سمعت النبي ﷺ يقول من يرد الله به خيراً يفقهه

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة ٢٢٤ ـ من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه.

(٢) الأبيات لمعروف الرصافي.

(٣) أخرجه أبو داود في العلم ٣٦٤١، والترمذي في العلم ٢٦٨٢، وابن ماجه في المقدمة ٢٢٣، وأحمد ٥/ ١٩٦.

(٤) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٢٦٩٩، وأبو داود في الصلاة ١٤٥٥، والترمذي في القراءات ٢٩٤٥، وابن ماجه في المقدمة ٢٢٥.

في الدين»[١].

وعن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها»[٢].

وقال ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[٣].

وقال ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً»[٤].

وقال ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»[٥].

وقد قال بعض السلف: «من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم».

وبالعلم ارتفع كلب الصيد على غيره من الكلاب فجاز اقتناؤه وحل صيده.

قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤].

ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لكل شيء قيمة وقيمة المرء ما يحسنه»[٦].

وقال رضي الله عنه:

ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم ... على الهدى لمن استهدى أدلاء

---

(١) أخرجه البخاري في العلم ٧١، ومسلم في الزكاة ١٠٣٧، وابن ماجه في المقدمة ٢٢١.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٠٩، ومسلم في صلاة المسافرين ٨١٦، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠٨.

(٣) أخرجه مسلم في الوصية ١٦٣١، وأبو داود في الوصايا ٢٨٨٠، والنسائي في الوصايا ٣٦٥١ ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم في العلم ٢٦٧٤، وأبو داود في السنة ٤٦٠٩، والترمذي في العلم ٢٦٧٤ – من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٤٢، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٤٠٦، وأبو داود في العلم ٣٦٦١ – من حديث سهل بن سعد – رضي الله عنه.

(٦) انظر «الجامع لأحكام القرآن» ٦/ ٧٤.

فعش بعلم ولا تطلب به بدلاً ... فالناس موتى وأهل العلم أحياء

وقال الشافعي:

العلم يرفع بيتاً لا عماد له ... والجهل يهدم بيت العز والشرف

وقال الآخر:

فصاحة حسان وخط ابن مقلة ... وحكمة لقمان وزهد بن أدهم

لو اجتمعت في المرء والمرء جاهل ... ينادى عليه لا يسام بدرهم

قوله: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾.

هذا هو المقسم عليه، وهو نفي الجنون عنه ﷺ، وإثبات الأجر غير الممنون له، وأنه على خلق عظيم.

وقوله: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ «ما» نافية عاملة عمل ليس، والباء للسببية، أي: لست يا محمد بسبب نعمة ربك عليك بالنبوة والرسالة ﴿بِمَجۡنُونٖ﴾ أي: بمعتوه فاقد العقل، كما يقوله الجهلة المكذبون المعاندون من قومك، كما هي عادة المكذبين للرسل، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

فأقسم عز وجل على تبرئة نبيه ورسوله ﷺ عما يقوله المشركون.

وفي توسيط قوله ﴿بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ﴾ بين اسم «ما» وخبرها، إشارة إلى عظيم نعمة الله عليه ﷺ وأنه بهذه النبوة والرسالة منعم عليه مصطفى من بين العالمين، وتأكيد لنفي ما رموه به إذ كيف تجعل النعمة العظيمة سبباً للجنون، وكيف تجعل النعمة نقمة، فهم أولى بوصف الجنون.

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ﴾ نكّر «اجراً» للتعظيم، أي: وإن لك لأجراً عظيماً وثواباً جزيلاً غير منقطع، على تبليغك رسالة ربك، وأدائك الأمانة، ونصحك للأمة، وجهادك في الله حق جهاده، كما قال تعالى: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ۝١٠٨﴾ [هود: ١٠٨]،

وقال تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾ [التين: ٦]، اي: غير مقطوع.

وأيضاً غير ممنون به عليك كما يمن الخلق بإتباعهم ما يُعطون بالمن والأذى من تكبرهم على من يعطونه واحتقارهم له ونحو ذلك.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ هذا قسم منه عز وجل وهو أصدق القائلين، وشهادة منه عز وجل وهو خير الشاهدين لرسوله ﷺ أنه على خلق عظيم فأعظم به من قسم وأكرم بها من شهادة.

والمعنى: وإنك لعلى دين عظيم، لأنه ﷺ تخلق بأخلاق القرآن، وتأدب بآدابه امتثالاً لأوامره، واجتناباً لنواهيه حتى صار ذلك له سجية وطبعاً مع ما جبله الله عليه من كريم السجايا وعظيم الصفات أدباً وحياء، وشجاعة وكرماً، صفحاً وحلماً، شفقة ورحمة، صدقاً ومحبة.

وقد رُوي أنه ﷺ قال: «أدبني ربي فأحسن تأديبي».

ولما سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه ﷺ قالت: «كان خلقه القرآن»[1]. وذلك نحو قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي «أف» قط، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته؟، ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلته؟، وكان ﷺ أحسن الناس خلقاً، ولا مسست خزاً ولا حريراً، ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله ﷺ ولا شممت مسكاً ولا عطراً كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ»[2].

فكان له ﷺ من كل خصلة من مكارم الأخلاق أعلاها وأكملها وأجلها في حق ربه، وفي تعامله مع أهله وأزواجه وأصحابه وسائر الناس.

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً،

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين - جامع صلاة الليل ٧٤٦، وأبو داود في التطوع - صلاة الليل ١٣٤٢، والنسائي في قيام الليل ١٦٠١، وأحمد ٦/ ٥٣، ١١١، ١١٦، ١٨٨، ٢١٦، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ١٥٠، ١٥١.

(٢) أخرجه الترمذي في البر والصلة ٢٠١٥، وأخرجه مختصراً البخاري في الوصايا ٢٧٦٨، ومسلم في الفضائل - كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً ٢٣٠٩، وأحمد ٣/ ١٠٧، ٢٠٠، ٢٢٢.

واحسن الناس خلقاً، ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً له قط، ولا امرأة، ولا ضرب بيده شيئاً قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا خُيِّر بين شيئين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى يكون إثماً، فإذا كان إثماً كان أبعد الناس من الإثم، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه إلا أن تنتهك حرمات الله، فيكون هو ينتقم لله عز وجل»(٢).

وقال ﷺ: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»(٣).

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: «ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسم في وجهي»(٤).

وعن أبي مسعود البدري ـ رضي الله عنه ـ قال: أتى النبي ﷺ رجل فكلمه، فجعل ترعد فرائصه، فقال له: «هوّن عليك فإني لست بملك إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد»(٥) وهذا تواضع منه ﷺ.

فلنا به ﷺ الأسوة والقدوة، كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ۝﴾ [الأحزاب: ٢١].

وكان ﷺ مع ما وهبه الله من خلق كريم يسأل ربه بقوله: «واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت»(٦).

واوصى ﷺ سلمان رضي الله عنه أن يقول: «اللهم إني أسالك صحة في إيمان وإيماناً في حسن خلق»(٧).

وقال ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله الخلق الحسن»(٨).

---

(١) اخرجه البخاري في المناقب – صفة النبي - ﷺ ٣٥٤٩، ومسلم في الفضائل ٢٣٣٧، والترمذي في اللباس ١٧٢٤.

(٢) اخرجه احمد ٦/ ٢٣٢.

(٣) اخرجه احمد ٢/ ٣٨١ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه وفي حديث ابن عباس – رضي الله عنهما فيما رواه ابو ذر ـ رضي الله عنه عن أخيه حين بعثه إلى النبي ﷺ فرجع فقال له: «رايته يامر بمكارم الأخلاق» أخرجه البخاري في المناقب ٣٨٦١، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٤٧٤.

(٤) اخرجه البخاري في الجهاد والسير ٣٠٣٦، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٤٧٥، والترمذي في المناقب ٣٨٢٠، وابن ماجه في المقدمة ١٥٩.

(٥) اخرجه ابن ماجه في الأطعمة ٣٣١٢.

(٦) اخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٧٧١، وابو داود في الصلاة ٧٦٠، والنسائي في الافتتاح ٨٩٧، والترمذي في الدعوات ٣٤٢١ – من حديث طويل – عن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه.

(٧) اخرجه احمد ٢/ ٣٢١ – من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٨) اخرجه الطبراني.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من شيء أثقل في ميزان العبد يوم القيامة من حسن الخلق»(١).

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً»(٢).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أخيركم أحسنكم خلقاً» وفي رواية: «إن خياركم أحاسنكم أخلاقاً»(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم خلقاً»(٤).

وعن أسامة بن شريك رضي الله عنه، قال: جاءت الأعراب فسألوا رسول الله ﷺ وقالوا: ما خير ما أعطي الناس يا رسول الله؟، قال: «خلق حسن» وفي رواية عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الناس خير؟ قال: «أحسنهم خلقاً»(٥).

وعن عمرو بن عبسة ـ رضي الله عنه، قال: أتيت رسول الله ﷺ وقلت: أي الإيمان أفضل؟ قال: «خلق حسن»(٦).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»(٧).

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «إن المؤمن ليدرك بحسن الخلق درجة الصائم القائم»(٨).

وعنها رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «إنه من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة، وصلة الرحم وحسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار،

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٧٩٩، والترمذي في البر والصلة ٢٠٠٢، وقال: «حديث حسن صحيح» وأحمد ٦/ ٤٥١ - ٤٥٢.

(٢) أخرجه الترمذي في البر والصلة ٢٠١٨ وقال: «حديث حسن غريب».

(٣) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠٢٩، ٦٠٣٥، ومسلم في الفضائل ٢٣٢١، والترمذي في البر والصلة ١٩٧٥، وأحمد ٢/ ١٨٥.

(٤) أخرجه الترمذي في الرضاع ١١٦٢، والدارمي في الرقاق ٢٧٩٢، وأحمد ٢/ ٢٥٠.

(٥) أخرجه أحمد ٤/ ٢٧٨.

(٦) أخرجه أحمد ٤/ ٣٨٥.

(٧) أخرجه الترمذي في البر والصلة ـ ما جاء في معاشرة النساء ١٩٨٧، وقال «حديث حسن صحيح».

(٨) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٧٩٨.

ويزيدان في الأعمار»[١].

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه»[٢].

وعن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ قال: «يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة»[٣].

وقد أحسن القائل:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا[٤]

فما أجمل الخلق الحسن وأفضله، ويا فوز من منحه الله ذلك، فوفقه للإحسان والندى، قولاً وفعلاً وبذلاً، وكف الأذى، والصبر عليه، وطلاقة الوجه وبشاشته وابتسامته، وينبغي أن يعلم أن العلم بالتعلم والحلم بالتحلم. وقد أحسن القائل:

بعلم وحلم ساد في قومه الفتى وكونك إياه عليك يسير[٥]

وقد رُويَ أن رجلاً قال للمأمون استمع فإنني ساشدد عليك في القول، فقال: والله لا استمع منك ولا كرامة، فإن الله قد بعث من هو خير منك إلى من هو شر مني فقال له: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤].

وقد روي في العفو وحسن الخلق: «أن رجلاً أهدى لرجل هدية، فقال له: مقابل ماذا؟، قال: مقابل أنك أهديت إلي حسناتك في استطالتك في عرضي».

وكان ضمام بن حمزة إذا أصبح قال: «اللهم إني لا شيء عندي أتصدق به، لكني اتصدق بأن أجعل كل من وقع في عرضي في حل مني».

وشتم رجل رجلاً، فلم يرد عليه حتى دخل البيت وصلى ركعتين ثم خرج، فقال له الرجل عجباً لك اشتمك، ثم تصنع هكذا، فقال: نعم دخلت فصليت ركعتين واستغفرت

---

(١) أخرجه أحمد ٦/ ١٥٩، ٤٥١.
(٢) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٨٠٠، والترمذي في البر والصلة ١٩٩٣، وابن ماجه في المقدمة ٥١.
(٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» ١/ ١١٠.
(٤) البيت لأحمد شوقي.
(٥) البيت من شواهد ابن عقيل في باب «كان وأخواتها» ولم ينسب لقائل.

الله من الذنب الذي سلطك عليّ بسببه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله إن فلانة يذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها قال: «هي في النار». قال: يا رسول الله فإن فلانة يذكر من قلة صيامها وصدقتها وصلاتها، وأنها تصدق بالأثوار من الأقط، ولا تؤذي جيرانها بلسانها قال: «هي في الجنة»[1].

فتأمل أخي الكريم وأختي الكريمة في خلقه ﷺ، ولنا فيه أسوة، وتأمل فيما ذكرت لك من النصوص العظيمة والله الله بالخلق الطيب الحسن تبلغ به بإذن الله أعلى الدرجات، وتسعد به في دنياك وأخراك، ويحبك الله ويحبك الناس، وتدرك من الخير والفضل من الله ـ عز وجل ـ بلاكد ولا تعب ـ ما لا يدركه غيرك بالصيام والقيام وبذل المال وغير ذلك، وإياك والكبر والغلظة والفضاضة والجفاء والحقد والحسد وسوء الظن وسوء الخلق فإنها من أسباب الشقاء في الدنيا والأخرة.

قوله: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ أي: فسترى وتعلم يا محمد، وسيرى ويعلم المكذبون لك الزاعمون أنك مجنون، من المفتون منكم عن الحق الضال عنه أأنت أم هم، وفي هذا وعد له ﷺ ولأتباعه، ووعيد للمكذبين له.

وأدخلت الباء في قوله ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ لتدل على تضمين الفعل في قوله ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ معنى العلم والإخبار وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ۝﴾ [القمر: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝﴾ [سبأ: ٢٤].

قال ابن القيم[2]: «و«ستبصر» مضمن معنى تشعر وتعلم، فعدي بالباء، كما تقول: ستشعر بكذا وتعلم به، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝﴾ [العلق: ١٤]، وإذا دعاك اللفظ إلى المعنى من مكان قريب فلا تجب من دعاك إليه من مكان بعيد».

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: إن ربك يا محمد هو أعلم بالذي تاه وبعد عن طريقه عز وجل ـ الطريق المستقيم ـ وهم المكذبون لك وفي هذا تهديد ووعيد لهم.

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي: وهو اعلم بالمهتدين من العباد، ومنهم أنت وأصحابك

---

(١) اخرجه أحمد ٢/ ٤٤٠.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٥١١.

وأتباعك، وفيه وعد لهم، كما أن في هذا بيان لحكمته عز وجل في هداية من يصلح للهداية دون غيره قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧)﴾ [الأنعام: ١١٦ ، ١١٧]، وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥)﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ (٣٠)﴾ [النجم: ٢٩ ، ٣٠].

والمعنى: إن ربك هو أعلم بأنهم هم وأتباعهم الضالون عن سبيله، وهو أعلم بأنك وأصحابك وأتباعك أنتم المهتدون.

الفوائد والعبر:

١- تحدي العرب بالقرآن وقد نزل بلغتهم.

٢- إقسام المولى عز وجل بالقلم والكتابة على أنه ﷺ ليس بما أنعم الله به عليه بمجنون، وأن له أجراً غير ممنون، وأنه على خلق عظيم.

٣- أن لله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، لأن إقسامه بها يدل على عظمته هو، أما المخلوق فلا يقسم إلا بالله.

٤- إثبات رسالة النبي ﷺ ونعمة الله عليه بالنبوة، ونفي ما رماه به المكذبون من الجنون.

٥- عظم اجتراء المكذبين للرسل وللدعاة إلى الله برميهم لهم بأقبح الأوصاف كالجنون والسحر والكهانة ونحو ذلك.

٦- إثبات ربوبية الله - عز وجل - الخاصة لنبيه ﷺ وتشريفه له بذلك وتكريمه.

٧- وعد الله عز وجل لنبيه ﷺ بالأجر العظيم غير المقطوع وغير الممنون به عليه، كما يمن الخلق بما يُعطون.

٨- ثناء الله عز وجل على رسوله ﷺ وشهادته له بالخلق العظيم فأعظم بها من شهادة من خير الشاهدين.

٩- وعد الرسول ﷺ والمؤمنين معه ووعيد المكذبين له بظهور حقيقة كل منهم وطمأنة الرسول ﷺ وأن العاقبة له وللمتقين لقوله ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾.

١٠- علم الله عز وجل التام بالضالين عن سبيله وبالمهتدين إليه، وفي هذا أيضاً وعد للمهتدين ووعيد للضالين.

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

أقسم الله عز وجل في مطلع هذه السورة على نفى ما رمى به المكذبون رسوله ﷺ من الجنون، وعلى وعده ﷺ بالأجر غير المنقطع، والشهادة له بالخلق العظيم، والوعد له والوعيد لهم بأن الله سيبين لكل منهم حقيقة حاله، فهو عز وجل الأعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ثم حذر النبي ﷺ من طاعتهم والتنازل معهم فيما يطلبون من المداهنة، ومن الاغترار بحلفهم الكاذب.

قوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر أي: فلا تطع يا محمد المكذبين من قومك وغيرهم فيما يطلبون منك من المداهنة وغير ذلك مما فيه مخالفة الشرع وهم غالباً لا يأمرون بخير.

وقد نهى الله عز وجل نبيه ﷺ عن طاعة الكافرين والمنافقين في مواضع عدة من كتابه، كما قال تعالى في مطلع سورة الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الآية: ١]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ [الأحزاب: ٤٨].

ونهيه ﷺ عن طاعة المكذبين والكافرين والمنافقين نهي له ولأمته، وليس في نهيه ﷺ عن طاعة المكذبين دلالة أو إشارة إلى أنه قد يطيعهم.

وقد ذكر ابن تيمية[1] رحمه الله أن قوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ الآيات تتضمن أصلين:

«أحدهما: أنه نهاه عن طاعة هذين الضربين، فكان فيه فوائد:

منها أن النهي عن طاعة المرء نهي عن التشبه به بالأولى فلا يطاع المكذب والحلاف ولا يعمل بمثل عملهما.. فإن النهي عن قول من يأمر بالخلق الناقص أبلغ في الزجر من النهي عن التخلق به لوجوه، منها: أن ذلك أبلغ في الإكرام والاحترام فإن قوله (لا

---

(١) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ١٥ - ١٦.

تكذب، ولا تحلف، ولا تشتم، ولا تهمز) ليس هو مثل قوله: لا تطع من يكون متلبساً بهذه الأخلاق لما فيه من تشريفه وبراءته، ومنها: أن الأخلاق مكتسبة بالمعاشرة، ففيه تحذير عن اكتساب شيء من أخلاقهم بالمخالطة لهم فليأخذ حذره فإنه محتاج إلى مخالطتهم لأجل دعوتهم إلى الله تعالى.

ومنها أنهم يبدون مصالح فيما يأمرون به، فلا تطع من كان هكذا، ولو أبداها فإن الباعث لهم على ما يأمرون به هو ما في نفوسهم من الجهل والظلم، وإذا كان الأصل المقتضي للأمر فاسداً لم يقبل الأمر فإن الأمر مداره على العلم بالمصلحة وإرادتها، فإذا كان جاهلاً لم يعلم المصلحة، وإذا كان الخلق فاسداً لم يردها، وهذا معنى بليغ.

والأصل الثاني أنه ذكر قسمين، المكذبين، وذوي الأخلاق الفاسدة، وذلك لوجوه: أحدها: أن المأمور به هو الإيمان والعمل الصالح، فضده التكذيب والعمل الفاسد، والثاني: أن المؤمنين مأمورون بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر منهيون عن قبول ضده وهو التكذيب بالحق والترك للصبر».

﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ أي: أحب المكذبون وتمنوا ﴿لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ أي: لو ترخص لهم وتلين - على حساب دينك - فيلينون، وذلك بأن تطيعهم في بعض ما يأمرونك به، أو تتنازل عن شيء من دينك، فيطيعونك في بعض ما لا يعارض أهواءهم.

أي: أحبوا ملاينته لهم بالتنازل عن بعض ما هو عليه من الحق وقبول بعض ما هم عليه من الباطل، كما قال بعضهم: اعبد إلهنا سنة ونعبد إلهك سنة.

ولهذا امتن الله عز وجل على نبيه ﷺ بتثبيته له أمام هذه الدعوات فقال: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝٧٥﴾ [الإسراء: ٧٤، ٧٥].

وما نداءات القائلين بالتقارب بين الأديان، والتقريب بين أهل السنة والرافضة كما ينادي بذلك بعض المفتونين والمخدوعين ممن لا يميزون بين الحق والباطل إلا من هذا المنبع الآسن فإن الإيمان لا يجتمع مع الكفر، وإن السنة لا تجتمع مع البدعة.

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥﴾.

نهى عز وجل عن طاعة المكذبين عموماً، ثم أكد النهي، وخص من بينهم الموصوفين بهذه الصفات القبيحة في الآيات.

قوله﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ أي: ولا تطع كل إنسان حلاف، و«حلاف» على وزن «فعّال» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، أي: حلاف في أقواله، كثير الحلف والأيمان الفاجرة الكاذبة.

كما تدل على الاجتراء على الله والاستهانة بأسمائه وصفاته، ولهذا قال ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: أشيمط زان وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته لا يشتري إلا بيمينه ولا يبيع إلا بيمينه»[1].

﴿مَّهِينٍ﴾ في أفعاله، حقير ضعيف الرأي والتدبير، و«مهين» على وزن «فعيل» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة تدل على أنه بلغ الغاية في المهانة والحقارة، وذلك أن كثرة الحلف تدل غالباً على ضعف الحالف وكذبه وتستره بالأيمان الكثيرة الكاذبة، كما ذكر الله عز وجل عن المنافقين ﴿اتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٢]. ولا أذل ولا أحقر ولا أهون ممن عصى الله وخالفه، وآثر شهوات نفسه.

﴿هَمَّازٍ﴾ على وزن «فعّال» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، أي: كثير الهمز، وهو الاغتياب والعيب للناس والاستهزاء بهم بقوله ولسانه، وقد يكون بالفعل والإشارة[2].

قال ابن تيمية[3]: «فالهمز أقوى من اللمز وأشد، سواء كان همز صوت أو همز حركة، والهماز المبالغ في العيب نوعاً وقدراً».

وقد عظم الإسلام أمر الغيبة فقال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢].

وقال ﷺ: «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكرك أخاك بما يكره»، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟، قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته»[4].

---

(١) أخرجه الطبراني بسند صحيح فيما ذكره شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد انظر «فتح المجيد» ص٤١٦ – ٤١٨.

(٢) انظر الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾.

(٣) انظر «دقائق التفسير» ٥/١٧.

(٤) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٩، وأبو داود في الأدب ٤٨٧٤، والترمذي في البر والصلة ١٩٣٤- من =

﴿مَشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾ أي: كثير المشي بالنميمة، والنميمة: نقل الحديث بين الناس للإفساد والتحريش بينهم.

قال ابن تيمية[1]: «والمشاء بنميم هو من العيب، ولكنه عيب في القفا، فهو عيب الضعيف العاجز، فذكر العياب بالقوة والعياب بالضعف، والعياب في مشهد والعياب في مغيب».

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مر رسول الله ﷺ بقبرين، فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة»[2].

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قتات».

وفي بعض الروايات «لا يدخل الجنة نمام»[3].

وعن أسماء بنت يزيد بن السكن رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بخياركم؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «الذين إذا رُؤوا ذكر الله عز وجل»[4]. ثم قال: «ألا أخبركم بشراركم؟ المشاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبراء العنت[5]»[6].

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ «مناع» كحلاف، و«مشاء» على وزن «فعال» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة أي: أنه بلغ الغاية في منع الخير، فلا يمكن أن يعمل أو يقول أو يقدم خيراً، بل يمنع ما عليه من حقوق من الأعمال والنفقات الواجبة والزكوات والكفارات ولا يبذل شيئاً مما لديه.

﴿مُعْتَدٍ﴾ أي: معتد على عباد الله، متجاوز العدل إلى الظلم، والحق إلى الباطل في حقوق الخلق.

=

حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(١) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ١٧.

(٢) أخرجه البخاري في الوضوء ـ من الكبائر ان لا يستتر من بوله ٢١٦، ومسلم في الطهارة ـ الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه ٢٩٢، وأبو داود في الطهارة ٢٠، والنسائي في الطهارة ٣١، والترمذي في الطهارة ٧٠، وابن ماجه في الطهارة وسننها ٣٤٧.

(٣) اخرجه البخاري في الأدب – ما يكره من النميمة ٦٠٥٦، ومسلم في الإيمان- بيان غلظ تحريم النميمة ١٠٥، وأبو داود في الأدب – باب القتات ٤٨٧١، والترمذي في أبواب البر ـ ما جاء في النمام ٢٠٢٦، وأحمد ٥/ ٣٨٢، ٣٨٩، ٣٩١.

(٤) أي: أنهم يذكرون بالله عز وجل بكثرة ذكرهم لله عز وجل وشدة خوفهم وخشيتهم وتقاهم وورعهم.

(٥) أي: الذين يطلبون للبريء المشقة، بحيث يرمونه بما ليس فيه.

(٦) أخرجه ابن ماجه في الزهد ـ من لا يؤبه به ٤١١٩، وأحمد ٦/ ٤٥٩، وأخرجه أيضاً ٤/ ٢٢٧ ـ من حديث عبدالرحمن ابن غنم يبلغ به النبي ﷺ.

﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الإثم لمنعه الحقوق الواجبة لله وارتكابه المحرمات، قال تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

قال ابن تيمية(١): «وأما ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ فإن الظلم نوعان: ترك الواجب، وهو منع الخير، وتعد على الغير وهو المعتدي».

وقال السعدي(٢): «﴿مُعْتَدٍ﴾ على الخلق بظلمهم في دمائهم وأموالهم وأعراضهم ﴿أَثِيمٍ﴾ أي: كثير الإثم والذنوب المتعلقة في حق الله».

﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ العتل: هو الفظ الغليظ الجافي شرس الخُلُق الذي لا ينقاد للحق.

عن حارثة بن وهب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الا اخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف مُتَضَعَّف لو أقسم على الله لأبره، ثم قال: الا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر، وفي رواية «كل جواظ جعظري(٣) مستكبر» وفي رواية: «كل جَّواظ زنيم متكبِّر»(٤).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال عند ذكر أهل النار «كل جعظري جواظ مستكبر جماع مناع»(٥).

وقد وردت عدة أحاديث مرسلة وعدة آثار عن السلف أن العتل أيضاً هو الشديد الخلق صحيح الجسم الأكول الشروب الظلوم للناس(٦). وهو بمعنى ما سبق.

﴿زَنِيمٍ﴾ الزنيم: ولد الزنا، الملحق بالقوم الملصق بهم وليس منهم، اللئيم المريب، المشهور بالشر والظلم من شدة تجبره وغلظته.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿زَنِيمٍ﴾ قال: «الدعيّ، الفاحش اللئيم»(٧).

قال الشاعر:

---

(١) انظر «دقائق التفسير» ٥/١٧.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/٤٤٦ – ٤٤٧.

(٣) الجواظ: الجموع المنوع، وقيل الكثير اللحم المختال في مشيه، وقيل القصير البطين. الجعظري: الفظ الغليظ، وقيل هو الذي يتنفخ بما ليس عنده، وفيه قصر انظر «لسان العرب» مادة «جعظر» ومادة «جوظ».

(٤) أخرجه البخاري في تفسير سورة القلم ٤٩١٨، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها – النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء ٢٨٥٣، والترمذي في صفة الجنة ٢٦٠٥، وابن ماجه في الزهد ٤١١٦، وأحمد ٤/٣٠٦.

(٥) أخرجه أحمد ٢/١٦٩، ٢١٤.

(٦) انظر «جامع البيان» ٢٣/١٦١ – ١٦٤، «تفسير ابن أبي حاتم» ١٠/ ٣٣٦٥.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/٣٣٦٥.

زنيم تداعاه الرجال زيادة ... كما زيد في عرض الأديم الأكارع[1]

وقال حسان[2] في ذم بعض المشركين:

وأنت زنيم نيط في آل هاشم ... كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

وقال الآخر:

زنيم ليس يعرف من أبوه ... بغيّ الأم ذو حسب لئيم[3]

وقد أخرج البخاري[4] عن ابن عباس رضي الله عنهما: «عتل بعد ذلك زنيم» قال: رجل من قريش له زنمة مثل زنمة الشاة»[5].

قال ابن كثير بعد أن ذكر قول ابن عباس السابق[6]: «ومعنى هذا أنه كان مشهوراً بالشر كشهرة الشاة ذات الزنمة من بين أخواتها».

وقال أيضاً[7] بعد سياق كثير من الأقوال: «والأقوال في هذا كثيرة، وترجع إلى ما قلناه، وهو أن الزنيم هو المشهور بالشر، الذي يعرف به بين الناس، وغالباً يكون دعياً ولد زنا، فإنه في الغالب يتسلط الشيطان عليه ما لا يتسلط على غيره، كما جاء في الحديث «لا يدخل الجنة ولد زنا»[8] وفي الحديث الآخر «ولد الزنا شر الثلاثة»[9] وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «هو أشر الثلاثة، إذا عمل بعمل أبويه يعني ولد الزنا»[10].

قال ابن تيمية[11]: «ويشبه ـ والله أعلم ـ أن يكون الحلاف المهين الهماز المشاء بنميم من جنس واحد، وهو في الأقوال وما يتبعها من الأفعال، والمناع المعتدي الأثيم العتل الزنيم من جنس واحد، وهو في الأفعال وما يتبعها من الأقوال، فالأول الغالب على

---

(١) البيت ذكره ابن فارس في مقاييس اللغة، وابن منظور في «اللسان» مادة «زنم» ونسبه إلى الخطيم التميمي الجاهلي.
(٢) انظر «ديوانه» ص١١٨.
(٣) انظر «جامع البيان» ٢٣/ ١٦٤.
(٤) في تفسير سورة «ن والقلم»
(٥)زنمة الشاة: شيء يقطع من أذن الشاة، ويترك معلقاً بها. انظر «النهاية»، «لسان العرب» مادة «زنم».
(٦) في «تفسيره» ٨/ ٢١٩.
(٧) في «تفسيره» ٨/ ٢٢١.
(٨)أخرجه أحمد ٢/ ٢٠٣ – من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.
(٩)أخرجه أبو داود في العتق – عتق ولد الزنا ٣٩٦٣، وأحمد ٢/ ٣١١ – من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(١٠) أخرجه أحمد ٦/ ١٠٩.
(١١) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ١٧.

جانب الأعراض، والثاني الغالب على جانب الحقوق في الأحوال والمنافع ونحو ذلك».

فجمع الله عز وجل في وصف هذا الذي نهى نبيه ﷺ عن طاعته أقبح الصفات، فهو كثير الحلف، حقير مغتاب للناس، ساع بنقل الكلام بينهم بقصد الإفساد والتحريش بينهم، مناع لما عليه من حقوق لا يعمل ولا يقدم شيئاً من الخير، متجاوز الحلال إلى الحرام، والعدل والحق إلى الظلم والباطل، كثير الإثم، تارك للواجبات، مرتكب للمحرمات فظ غليظ جاف جموع منوع، زنيم ملحق ملصق في قوم وليس منهم.

فهذه تسع صفات تدل على إغراقه في الشر وبعده عن كل خير، وأنه وصل إلى الغاية العظمى في ذلك، لأن الذي وصفه بهذه الصفات ونعته بها هو العليم الخبير سبحانه وتعالى الذي يعلم السر وأخفى، فبعداً لمن هذه صفاته وسحقاً.

وإذا سبرت أحوال المسلمين وجدت كثيراً منهم لا يخلو من بعض هذه الصفات، مما يوجب علينا جميعاً محاسبة النفس في استعمال ما منحنا الله عز وجل من الجوارح الظاهرة والباطنة في طاعة الله وفيما خلقت له، والبعد بها عما يسخط الله، ومحاسبة النفس في أداء الحقوق، وبذل الخير، والبعد عن الحرام والظلم والإثم، والغلظة والفظاظة والله المستعان.

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة وأبو جعفر ويعقوب وأبو بكر عن عاصم: (أأن كان) بهمزتين على الاستفهام للتوبيخ والتقريع، وقرأ الباقون «أن كان» بهمزة واحدة على الخبر، أي: بسبب أن كان ذا مال وبنين، أي: بسبب إنعامنا عليه بالمال والبنين.

وقوله: ﴿ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ أي: صاحب مال وبنين. فاغتر بماله وبنيه قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

والمعنى: مقابل إنعامنا عليه بالمال والبنين اتصف بهذه الصفات المذمومة السابقة.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا﴾ أي: إذا قرئت عليه آياتنا الشرعية القرآن الكريم قال عنها ﴿أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: كذب بها وكفر، وقال: هي مما سطره الأولون من الحكايات والخرافات التي لا تكاد تَصْدُق، كما قال تعالى عنه في سورة المدثر ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَـٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ [المدثر: ١١ ـ ٢٦].

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾ أي: سنذله غاية الإذلال، وسنجعل له وسماً يعرف به، حتى يتبين أمره ويفتضح، والوسم: ما يوضع على الشيء من علامة تميزه عن غيره، ومنه وسم بهيمة الأنعام: الإبل والبقر، والضأن والمعز بعلامة يعرفها بها صاحبها وغيره.

﴿عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾ أي: على الأنف، لأنه أبين وأرفع الوجه.

والمعنى: سنجعل فيه علامة سيئة على أنفه يشهّر به فيها، ونسود وجهه ونبين أمره بياناً واضحاً ونفضحه على رؤوس الخلائق كما قال تعالى في المنافقين ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ﴾ الآية [محمد: ٣٠]».

قال ابن تيمية[1]: «قوله ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾، فيه إطلاق يتضمن الوسم في الآخرة وفي الدنيا أيضاً فإن الله جعل للصالحين سيما وجعل للفاجرين سيما قال تعالى: ﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ [الفتح: ٢٩]».

وهذه الآيات وإن كانت نزلت في بعض المشركين كالوليد بن المغيرة أو غيره فإنها عامة في كل من اتصف بهذه الصفات لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

الفوائد والعبر:

١- نهي الله عز وجل لنبيه ﷺ عن طاعة المكذبين، وهو نهي له ﷺ ولأمته.

٢- تمني المكذبين ومحبتهم ملاينة الرسول ﷺ لهم وملاينتهم له.

٣- نهي الله عز وجل لنبيه ﷺ عن طاعة كل من كان كثير الحلف حقيراً ضعيف الرأي ينتقص الناس بقوله وفعله ويمشي بينهم بالنميمة، مناعاً للخير، معتدياً على الخلق تاركاً للواجبات مرتكباً للمحرمات كثير الإثم، فظاً غليظاً جافياً كثير الشر، مغتراً بماله وبنيه راداً للحق.

٤- وجوب الحذر من الاتصاف بالصفات الذميمة المذكورة في الآية.

٥- ينبغي عدم الاغترار بالمال والبنين لقوله ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ﴾.

٦- الوعيد للموصوف بتلك الصفات الذميمة سواء كان هو الوليد بن المغيرة أو غيره بوضع وسم وعلامة على أنفه تشهيراً به بين الخلائق يوم القيامة.

---

(١) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ١٧.

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

قال ابن كثير[1]: «هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة وأعطاهم من النعم الجسيمة، وهو بعثه محمداً ﷺ إليهم، فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة، ولهذا قال: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾».

قوله ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ تكلم عز وجل عن نفسه بضمير العظمة في قوله ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ لأنه العظيم ـ سبحانه وتعالى.

وضمير الغيبة في قوله ﴿بَلَوْنَٰهُمْ﴾ يعود إلى المكذبين للرسول ﷺ من قومه.

والابتلاء: الامتحان، و يكون بالخير والشر كما قال عز وجل: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقد أحسن القائل:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

أي: امتحناهم فيما أنعمنا عليهم من الخير من بعثة محمد ﷺ وبما أوجبنا عليهم من التكاليف ليثابوا عليها كما امتحناهم بما أغدقنا عليهم من النعم وبما أمددناهم به من الأموال والأولاد والإمهال استدراجاً لهم.

﴿كَمَا بَلَوْنَآ﴾ أي: كما امتحنا ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: أصحاب البستان. وسمي البستان جنة، لأنه يُجن، أي: يستر من بداخله بأشجاره الملتفة الكثيرة وثماره كما قال تعالى: ﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الكهف: ٣٢، ٣٣].

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٢٢.

وأصحاب الجنة هؤلاء هم نفر من بني إسرائيل امتحنهم الله عز وجل بأن ملكهم هذه الجنة التي ورثوها عن والدهم.

قال الإمام أحمد: «هذه مدينة ضروان قد مررت بها، وهي قريبة من عبد الرزاق، رأيتها سوداء حمراء، أثر النار تبين منها، ليس فيها أثر ولا زرع ولا خضرة»[١].

﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ «إذ» ظرف بمعنى «حين» أي: حين حلفوا ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ اللام واقعة في جواب القسم، والصرم: الجذاذ والقطع، أي: ليقطعنها ويجذّن ثمرها ﴿مُصْبِحِينَ﴾ حال، أي: حال كونهم مصبحين، أي: داخلين في الصباح، وذلك اغتراراً منهم.

قال ابن كثير[٢]: «أي: حلفوا فيما بينهم ليجُذُّنّ ثمرها ليلا لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل، ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء».

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ نهى عن الجذاذ بالليل، والحصاد في الليل»[٣].

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ حصة المساكين، أو، ولا يستثنون في حلفهم، أي: لم يقولوا: إن شاء الله ولهذا حنّثهم الله في أيمانهم، فأهلكها، قال تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ أي: فنزل بها بلاء محيط، وطرقها طارق ليلاً من أمر الله تعالى وعذابه.

﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ الواو: حالية، أي: أصابتها آفة سماوية فأحرقتها حال كونهم نائمين.

فالمصائب والبليات والرزايا أكثر ما تصيب الناس وهم على غرة غافلون قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأعراف: ٩٧، ٩٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل: ٤٥ ـ ٤٧].

وقد قيل:

يا راقد الليل مسروراً بأوله ... إن الحوادث قد يطرقن أسحارا

---

(١) انظر: «بدائع الفوائد» ٣/ ١٠٩.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٢٢.

(٣) أخرجه البيهقي فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٢٣.

لا تفـــرحن بليــــل طـــاب أولـــه ... فـــرب آخـــر ليـــل أجـــج النـــارا[1]

وقال الآخر:

هـــي الليـــالي وقـــاك الله صـــولتها ... تصـــول حتـــى علـــى الآســـاد في الأجـــم

كنـــا ملوكـــاً لنـــا في أرضـــنا دول ... نمـــا بهـــا تحـــت أفنـــان مـــن الـــنعم

فايقظتنـــا ســـهام للـــردى صـــبب ... يُرمـــى بـــافجع مـــن بهـــن رُمـــي

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ أي: فاصبحت كالليل الأسود البهيم من شدة الاحتراق، أو كالهشيم اليابس وبقية الثمر المصروم، والزرع المحصود.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والمعاصي إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقاً قد كان هيء له» ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝١٩ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ۝٢٠﴾ قد حُرموا خير جنتهم»[2].

﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾ أي: فتنادوا وقت الصباح، قائلاً بعضهم لبعض: ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ أي: هيا اذهبوا إلى حرثكم، قال مجاهد: «كان حرثهم عنباً»[3].

﴿إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾ أي: إن كنتم عازمين على الصرام والجذاذ، ولم يعلموا ما طاف بجنتهم وما حل بها من العذاب.

﴿فَانطَلَقُوا﴾ أي: فانطلقوا قاصدين جنتهم، ﴿وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ الواو: حالية. والمخافتة: المسارة بالكلام، أي: فانطلقوا قاصدين جنتهم لجذاذها حال كونهم يتناجون سراً فيما بينهم ـ خوفاً أن يسمعهم أحد ـ بمنع حق الله تعالى فيها قائلاً بعضهم لبعض:

﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ أي: ينبغي أن لا يدخلن جنتكم اليوم، أي: يوم صرمها ﴿عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ أي: فقير محتاج يطلب منكم الصدقة والإحسان إليه منها، أو يلتقط ما يتساقط من ثمرها. ومن شدة حرصهم وبخلهم مخافتتهم بهذا الكلام خوفاً أن يسمعهم المساكين أو من يخبرهم.

﴿وَغَدَوْا﴾ ساروا غدوة إلى حرثهم قبل انتشار الناس حتى لا يراهم أحد.

---

(١) البيتان لمحمد بن حازم الباهلي.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» ٥/ ٢٥٣ ونسبه لابن أبي حاتم وابن المنذر.

(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٢٢. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» ٥/ ٢٥٤ ونسبه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

﴿عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ أي: على إمساك ومنع لحق الله وحق المساكين وانفراد عنهم.

﴿قَٰدِرِينَ﴾ جازمين بقدرتهم على ذلك حسب زعمهم واعتقادهم.

فظنوا أنهم بما أضمروه من جذاذها ليلا ومنع المساكين من دخولها قادرون على الحفاظ عليها وحيازتها فأحاط بها من أمر الله ما لم يخطر لهم على بال بسبب سوء نيتهم، بل وتصميمهم وعزمهم على منع حق الله تعالى فيها.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ أي: فلما وصلوا إليها، وشاهدوها على الوصف الذي ذكر الله ﴿كَٱلصَّرِيمِ﴾ قد تبدلت خضرتها ونضارتها بالسواد.

﴿قَالُوٓاْ﴾ من شدة الحيرة والانزعاج والذهول ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ أي: تائهون عنها أخطأنا طريقها، فليست هذه بجنتنا وذلك لما شاهدوا من البون الشاسع بين حالتها بالأمس وحالها اليوم.

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ قالوا: هذا بعد أن تيقنوا أن هذه هي جنتهم استحالت هكذا، أي: بل هذه هي، حرمنا خيرها وثمرتها عقوبة لنا على سوء قصدنا. وفي الحديث «وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»[1].

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أي: أعدلهم وخيرهم وأصوبهم رأيا وأحسنهم طريقة ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ الهمزة للاستفهام ومعناه التوبيخ ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ «لولا» للتحضيض، أي: ألم أقل لكم هلا تسبحون.

ومعنى ﴿تُسَبِّحُونَ﴾ أي: تنزهون الله عما لا يليق به بقولكم: «سبحان ربنا، سبحان الله»، ومن ذلك أيضاً أن تستثنوا في يمينكم فتقولوا: والله لنصرمنها مصبحين إن شاء الله، فهذا من تعظيم الله عز وجل وتنزيهه أن يقع ما لا يريده، أو هلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم بأداء حق الله تعالى فيه، ومنه حق المساكين لأن النعم إذا شكرت قرت وإذا كفرت فرت، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم: ٧].

﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ سبحوا الرب ونزهوه وندموا حيث لا ينفع الندم، وبعد أن وقع على جنتهم العذاب الذي لا يرفع.

﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي: أقروا بظلمهم، أي: إنا كنا ظالمين لأنفسنا بترك تسبيح الله

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الفتن ٤٠٢٢ – من حديث ثوبان رضي الله عنه.

والاستثناء في اليمين، وبسوء نياتنا في حرمان المساكين، وظالمين للمساكين بمنع حقهم
﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ أي: اخذ بعضهم يلوم بعضاً على ما حصل منهم، قائلاً بعضهم لبعض تخويفاً: ﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾ الويل: كلمة تهديد ووعيد، أي: يا شدة عذابنا، أو ما أشد عذابنا، فلام بعضهم بعضاً على فعلهم، وتوقعوا عقوبة أشد مما وقع بهم وأعظم.

﴿إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ أي: إنا كنا متجاوزين الحق والعدل إلى الباطل والظلم، فأقروا واعترفوا بذنبهم وخطئهم، وأن ما أصابهم بسبب طغيانهم واعتدائهم وبغيهم، وظلمهم للمساكين.

﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ﴾ «عسى» للترجي، أي: نرجو ربنا خالقنا ومالكنا والمتصرف فينا أن يبدلنا ويعوضنا خيراً من جنتنا التي صارت كالصريم.

﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ أي: إنا راغبون في التقرب إلى ربنا، وطاعته وترك مخالفته تائبون إليه، وراغبون فيما عنده من الخير الدنيوي والأخروي، وبأن يعوضنا عن جنتنا خيراً منها في الدنيا، ويثيبنا على خسارتنا فيها وما فاتنا من ثمرتها، ويحتمل أنهم أرادوا خيراً منها في الآخرة، ويحتمل الأمران.

قال السعدي[1]: «فإن كانوا كما قالوا، فالظاهر أن الله أبدلهم في الدنيا خيراً منها، لأن من دعا الله صادقاً ورغب إليه ورجاه أعطاه سُؤْله».

ولعل من أسباب توفيق الله لهم إلى التوبة صلاح أبيهم الذي كان يأكل ثلث الثمرة ويتصدق بثلثها ويرد فيها ثلثاً، فإن صلاح الآباء قد ينفع الأولاد، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢].

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ الكاف صفة لمصدر محذوف، أي: مثل ذلك العذاب الدنيوي الذي أهلك الله به حرثهم يعذب من عصى الله وخالف أمره ولم يشكره، ومنع حق الله فيما آتاه، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة: ١٥٥].

قال ابن تيمية[2]: «وقوله ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ إلخ فيه بيان حال البخلاء، وما يعاقبون به في الدنيا قبل الآخرة من تلف الأموال، إما إغراقاً، وإما إحراقاً، وإما نهباً، وإما مصادرة،

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٤٥١.
(٢) انظر: «دقائق التفسير» ٥/ ١٨.

وإما في شهوات الغي، وإما في غير ذلك مما يعاقب به البخلاء، الذين يمنعون الحق، وليس لهم إقدام في صنايع المعروف، وهو قوله: ﴿مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ وهو أحد نوعي الظلم كما أخبروا به عن نفوسهم في قوله: ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ وكما قال ﷺ: «مطل الغني ظلم»(١). فإنه سبحانه إذا أنعم على عبد بباب من الخير وأمره بالإنفاق فيه فبخل عاقبه بباب من الشر يذهب فيه أضعاف ما بخل به، وعقوبته في الآخرة مدخرة».

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ الواو: عاطفة، و«اللام» لام الابتداء والتوكيد، أي: ولعذاب الآخرة أكبر من عذاب الدنيا، مهما كان عذاب الدنيا شديداً كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ [الزمر: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾ [الغاشية: ٢٣ ، ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ﴾ [الرعد: ٢٤].

﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ «لو» شرطية. أي: لو كانوا يعلمون علماً ينفعهم أن عذاب الآخرة اشد من عذاب الدنيا، فيعملون على اتقائه والخلاص منه ولكنهم بذلك جهال لا يعلمون.

وفي هذا وعيد للمكذبين للرسول ﷺ من قومه الذين لم يشكروا نعمة الله عليهم في بعثه ﷺ ووعيد لكل من كفر بالله، أو بنعمه ولم يؤد شكرها وحق الله فيها.

وقد ذكر المفسرون – رحمهم الله – أن أصحاب هذه الجنة كانوا من أهل الكتاب، وكانوا ورثوها من ابيهم، وكان ابوهم يسير فيها سيرة حسنة، فكان يقسم ما يخرج منها أثلاثاً، يأكل منها ثلثاً، ويتصدق بثلث، ويرد فيها ثلثا، فلما مات وورثها عنه بنوه فخالفوا هذه السيرة الحسنة، وعزموا على منع المساكين من دخولها وأكل حقهم فيها، وحيازة ثمرها كله لهم، واتهموا أباهم بالحمق وسوء التصرف، فعوقبوا بنقيض قصدهم، فأحاط بها كلها من أمر الله ما أحاط بها، فخسروا رأس المال والربح والصدقة، ولم يبق لهم شيء.

وهكذا عاقبة من منع حق الله الذي شرعه في المال من حق الفقراء والمساكين وغيرهم

---

(١) أخرجه البخاري في الحوالات ٢٢٨٧، ومسلم في المساقاة ١٥٦٤، وأبو داود في البيوع ٣٣٤٥، والنسائي في البيوع ٤٦٨٨، والترمذي في البيوع ١٣٠٨، وابن ماجه في الأحكام ٢٤٠٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

من الصدقات والنفقات وغير ذلك، لأن حق الله الذي جعله في المال قليل من كثير، فمن منعه وشح به فقد عرض نفسه لمحق البركة وتلف القليل والكثير، مع العذاب الأخروي.

ولهذا جاء في الأثر: «ما هلك مال في بر ولا بحر إلا بسبب منع الزكاة»[1].

والشواهد على هذا من الواقع كثيرة فإن من أخذ المال من طرق حلال، وأنفقه في الحلال، وأدى حق الله فيه للفقراء والمساكين وغيرهم بارك الله له في ماله وسعد به في دنياه وأخراه، بخلاف من منع حق الله في ماله، فإن ذلك يكون سبباً لمحق بركته، بل سبباً لتسلط الآفات السماوية والأرضية عليه، وتسلط أهل السطو والسرقات عليه.

وقد ذكر أن هناك صاحبي دكانين متجاورين كان أحدهما يتساهل في إخراج الزكاة وربما منعها، فتعرض دكانه للسرقة ثلاث مرات، بينما سلم دكان جاره وقد نسي فيه مبلغاً كبيراً من المال على طاولة الجلوس في نفس الأيام التي حصلت فيها تلك السرقات.

فالحقوق الواجبة في المال من الزكاة والنفقات والصدقات وغيرها إذا أخرجت من المال زكته وزادته نماءً وبركة، وإن تركت فيه كانت سبباً لمحق بركته وتلفه، مع العقوبة الشديدة في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

وقال ﷺ: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فأحمي عليها في نار جهنم فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة، وإما إلى النار..»[2].

الفوائد والعبر:

١- ابتلاء الله للكفار والمكذبين بما آتاهم من الأموال والأولاد مما حملهم على التكذيب والكفر والعناد.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» ١/ ٢٤ ـ من حديث عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه. وانظر: «كنز العمال» ٦/ ٥٢٥.
(٢) أخرجه مسلم في الزكاة ٩٨٧، وأبو داود في الزكاة ١٦٥٨ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

٢- أن الابتلاء يكون بالخير والشر.

٣- أن كفر النعم وعدم شكرها سبب لزوالها، وهكذا حصل لأصحاب الجنة المذكورة لما عزموا على منع حق المساكين فيها، وأقسموا على ذلك أهلك الله حرثهم، وقد حفظها الله عز وجل لأبيهم في حياته لشكره وأدائه حق الله فيها.

٤- وجوب الحذر من فتنة المال مما يحمل على منع حق الله فيه وغير ذلك.

٥- مشروعية الاستثناء باليمين حتى لا يقع الحالف في الحنث فيأثم.

٦- وجوب الاعتماد على الله وحوله وقوته والبراءة من اعتماد الإنسان على حوله وقوته.

٧- إثبات ربوبية الله - عز وجل - الخاصة لنبيه ﷺ وتشريفه وتكريمه بها.

٨- أن المصائب والرزايا أكثر ما تقع على الناس في ساعة الغفلة والاغترار.

٩- حرمان الإنسان الرزق بسبب الذنب يصيبه.

١٠- الحذر من سوء النية والقصد وخطورة ذلك.

١١- في قصص المبتلين وعقوبات العاصين عظة وعبرة لمن يعتبر.

١٢- توفيق الله عز وجل لأصحاب الجنة بعد هلاك جنتهم إلى الندم وتسبيح الله عز وجل والاعتراف بظلمهم وإقبال بعض على بعض يتلاومون والإقرار بطغيانهم وسؤالهم الله عز وجل أن يبدلهم خيراً منها ورغبتهم إليه سبحانه.

١٣- وجوب التوبة إلى الله عز وجل وإثبات ربوبية الله الخاصة لمن تاب وأناب إليه.

١٤- الوعيد والتهديد بالعذاب الدنيوي والأخروي لكل من كفر نعم الله من أهل مكة وغيرهم.

١٥- أن عذاب الآخرة لمن كفر نعم الله وعصاه ولم يشكره أشد من عذاب الدنيا وعقوباتها.

١٦- الحض والحث على العلم الذي ينفع صاحبه في الآخرة وهو العلم بالله عز وجل وما يجب له.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

نهى الله عز وجل عن طاعة المكذبين وبين أنه ابتلاهم بما أنعم به عليهم من النعم وأعظمها نعمة بعثة محمد ﷺ، كما ابتلى أصحاب البستان الذين منعوا حق الله فيه، فأحاط به من أمر الله ما أحاط به، عقوبة عاجلة وعذاباً في الدنيا، ولعذاب الآخرة أكبر لمن عصى الله وكفر نعمه، ولم يؤد حق الله فيها، ثم أتبع ذلك ببيان ما أعده للمتقين من جنات النعيم التي لا تفنى ولا تعتريها الآفات، وأنهم لا يستوون مع المجرمين المكذبين والرد على من زعم ذلك، أو طمع فيه، وهذا على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد.

قوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: إن للمتقين الذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ومن ذلك أداء ما عليهم من حقوق وواجبات بدنية أو مالية.

﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أضاف «رب» إلى الضمير العائد إلى المتقين تشريفاً وتكريماً لهم، وإشارة لضمان ذلك لهم، لأن الرب هو الخالق المالك المتصرف.

﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ بساتين النعيم الدائم، وهي المنازل التي أعدها الله لهم، وسماها ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ لما فيها من ألوان النعيم والنعم، ولما فيها من أنواع التنعم، مما لا يعلمه إلا الله عز وجل كما قال عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧]، وقال عز وجل في الحديث القدسي: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[1].

﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتقريع، والنفي.

أي: أفنساوي بين المسلمين والمجرمين في الجزاء الدنيوي والأخروي، أي: لا يمكن أن نساوي بينهم، لأن حكمة الله عز وجل تأبى ذلك وكذا عدله سبحانه، فللمسلمين النعيم

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ٤٧٨٠، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٢٤، والترمذي في التفسير ٣١٩٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٢٨ - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

والثواب، وللمجرمين العذاب والعقاب.

والمراد بالجعل هنا الجعل الشرعي الجزائي و«المسلمين» هم الذين استسلموا لله عز وجل وانقادوا له بجوارحهم الظاهرة والباطنة وهم المتقون.

و«المجرمين» هم الذين ارتكبوا الجرائم وخالفوا أمر الله ونهيه، وكذبوا رسله.

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ «ما» استفهامية أي: كيف تحكمون بهذا الحكم، وتظنونه، فشتان بين من اتقى الله واستسلم له، وانقاد ظاهراً وباطناً، وبين من عصى الله وخالف أمره وارتكب نهيه في الجزاء الدنيوي والأخروي، قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ۝﴾ [السجدة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ۝﴾ [الحشر: ٢٠].

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ «أم» هي المنقطعة التي بمعنى «بل» وهمزة الاستفهام المفيدة للتوبيخ والتقريع، أي: بل ألكم كتاب منزل من عند الله فيه تقرؤون، فأخذتم منه هذا الحكم الجائر.

﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ أي: إن لكم في هذا الكتاب للذي تختارون لأنفسكم وتشتهونه. والجواب: ليس لكم ولا عندكم كتاب أخذتم منه ذلك، فليس لكم ما تخيرون.

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ «أم» كالتي قبلها، ومثلهما التي بعدها أي: بل ألكم علينا ﴿أَيْمَانٌ﴾ أي: عهود ومواثيق ﴿بَالِغَةٌ﴾ أي مؤكدة مستمرة ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ تضمن وتتكفل ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ أي: للذي تحكمون به لأنفسكم وتختارونه وتريدونه لها. أي: ليس لكم علينا عهود ومواثيق بذلك، فليس لكم ما تحكمون.

﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ «الزعيم» الكفيل الضامن، أي: سلهم يا محمد أيهم المتكفل الضامن أن المسلمين كالمجرمين في الجزاء، وأن للمجرمين ما يتخيرون وما يحكمون حتى يتبين ضعف هذا الادعاء وهذا الظن إذ لا أحد يتكفل لهم بهذا ويضمنه لهم.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي: بل ألهم شركاء من الأصنام والأنداد أشركوهم مع الله، فتكفلوا لهم بذلك وضمنوه لهم.

﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ﴾ أي: فليأتوا بهؤلاء الشركاء ويحضروهم ليعطوهم ما تكفلوا به لهم.

﴿إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ أي: إن كانوا صادقين في زعمهم ودعواهم أن لهم ما يتخيرون وما يحكمون به لأنفسهم، أو إن كان هؤلاء الشركاء صادقين.

وكل ما ذكر منتف عنهم فليس لهم كتاب، ولا لهم عهد عند الله، ولا لهم شركاء يستطيعون تحقيق ذلك لهم فدعواهم فاسدة وحكمهم باطل.

الفوائد والعبر:

١- وعد الله للمتقين وبشارتهم بما أُعد لهم عند ربهم من جنات النعيم وفي هذا ترغيب بتقوى الله عز وجل.

٢ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة للمؤمنين ـ وتشريفهم بها.

٣- شتان بين المسلمين وبين المجرمين فيما أعد الله لكل منهم فالمسلمون لهم السعادة وجنات النعيم، والمجرمون لهم الشقاء وعذاب الجحيم.

٤- اتصاف الله عز وجل بالعدل بأكمل صوره وأسمى معانيه كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقاً في الإخبار وعدلاً في الأحكام وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠].

٥- خطأ المكذبين والمجرمين وضعف رأيهم وبطلان معتقدهم في التسوية بين المسلمين والمجرمين، وأن لهم ما يتخيرون وما يحكمون، فليس لهم ما يحكمون وما يتخيرون، ولا حجة لهم على ذلك ولا دليل

٦- تحدي المكذبين بأن يأتوا بمن يضمن لهم ما ادعوه وحكموا به لأنفسهم من زعيم أو شريك وأنى لهم ذلك.

٧- أن دعاة الضلال ومن أشركوا مع الله وعلى رأسهم الشيطان يتبرؤون من تابعيهم في أضيق الظروف وأشد المقامات يوم القيامة.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

لما ذكر الله عز وجل أن للمتقين عند ربهم جنات النعيم، وأنه لا يمكن أن يَجعل المسلمين كالمجرمين في الجزاء، بل لكل جزاؤه، فللمسلمين الثواب، وللمجرمين العقاب، أتبع ذلك ببيان متى يكون ذلك فقال ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ الآيات.

قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ «يوم» ظرف زمان متعلق بما قبله، أي أن جزاء المتقين بجنات النعيم، وجزاء غيرهم بما يستحقون يكون ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طبقاً واحداً»[١].

وهذا الحديث أولى ما تفسر به الآية فيكون معناها: يوم يكشف الله عز وجل عن ساقه.

ويؤخذ منها ومن الحديث إثبات الساق لله عز وجل وكشفه ذلك اليوم، كما يليق بجلال الله وعظمته كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

ولا ينافي هذا ما جاء عن بعض السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم أن معنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ أي: يوم يكشف عن ساق الجد، أي: يوم الكرب الشديد، والهول الفظيع، والأمر الشديد[٢] كما يقال: كشفت الحرب عن ساقيها قال حاتم الطائي[٣]:

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها ... وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج: ١، ٢].

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة القلم ٤٩١٩، ومسلم في الإيمان ١٨٢.
(٢) انظر «جامع البيان» ٢٣/ ١٨٦ ـ ١٩٦.
(٣) انظر «ديوانه» ص ٥٠.

فالآية تحمل على هذا وهذا ولا تنافي بينهما وكل ما ذكر يحصل يوم القيامة وأشد منه.وقد مال ابن تيمية وابن القيم[1] ـ رحمهما الله ـ إلى أن ظاهر القرآن لايدل على إثبات صفة الساق لله ـ عز وجل، لأن قوله (يوم يكشف عن ساق) نكرة في الإثبات لم يضفها إلى الله ولم يقل: عن ساقه، وإنما الذي يدل على ذلك حديث أبي سعيد. والذي يظهر ـ والله أعلم ـ من سياق الآية والحديث أن الحديث شرح وتفسير للآيه، وبهذا تجتمع الآيه مع الحديث، في الدلالة على هذه الصفة.

﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي: ويطلب من المجرمين تبكيتاً لهم أن يسجدوا كالمؤمنين فلا يقدرون عليه ولا يستطيعون الانحناء – لتصلب ظهورهم – كما دل على ذلك حديث أبي سعيد رضي الله عنه وذلك لأنهم امتنعوا عن السجود لله عز وجل وتوحيده في الدنيا يوم أن كان ذلك باستطاعتهم وينفعهم فعوقبوا بهذا، والجزاء من جنس العمل.

والسجود في الأصل يطلق على الانقياد والخضوع مطلقاً، ويطلق على الصلاة كلها كما في قوله ﴿فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، أي: إذا صلت الطائفة الأولى فليكونوا من ورائكم يحرسون ويطلق على السجود على الأعضاء السبعة كما هو المشهور وهو المراد في الآية هنا.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي: ذليلة منكسرة خاضعة أبصار المكذبين والمجرمين يوم القيامة.

﴿تَرْهَقُهُمْ﴾ أي: تغشاهم ﴿ذِلَّةٌ﴾ أي: ذل وخوف وهوان وصغار.

﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ الواو: حالية و«قد» للتحقيق.

﴿وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ الواو أيضاً حالية، أي: والحال أنهم قد كانوا يطلب منهم السجود حال كونهم سالمي الأعضاء فلا يسجدون، فعوقبوا بعدم قدرتهم على السجود في الآخرة.

قال ابن كثير[2]: «ولما دعوا إلى السجود في الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم، كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه في الآخرة إذا تجلى الرب عز وجل فسجد له المؤمنون، لا يستطيع أحد من الكافرين ولا المنافقين أن يسجد، بل يعود ظهر أحدهم طبقاً واحداً، كلما أراد أحدهم أن يسجد خر لقفاه، عكس السجود، كما كانوا في الدنيا، بخلاف ما عليه المؤمنون».

---

(١) انظر «مجموع الفتاوى» ٦/ ٣٩٤ ، «الصواعق المرسلة» ١/ ٢٥٢.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٢٥ – ٢٢٦.

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ و«من» موصولة، والمراد بالحديث: القرآن أي: فدعني يا محمد واتركني والذي يكذب بهذا القرآن ولا تستعجل له، فأمره إليّ في حياته وبعد مماته، وفي هذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن كذب بالقرآن.

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ هذا مما توعدهم الله به في قوله ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ وذلك باستدراجهم والكيد بهم ليتمادوا في غيهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

ومعنى ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: نأخذهم شيئاً فشيئاً من حيث لا يعلمون وذلك بتمتيعهم في الدنيا بالأموال والأولاد والأرزاق والأعمال والأعمار ليتمادوا في طغيانهم ثم نأخذهم بغتة وهم لا يشعرون.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي: أمهلهم وأنظرهم وأمدهم لكي يتمادوا في غيهم.

﴿إِنَّ كَيْدِي﴾ الكيد: المكر بخفية، أي: إن مكري الخفي ﴿مَتِينٌ﴾ أي: عظيم لمن كذب رسلي وكتبي، فكيف بمن كذب أفضل رسلي محمداً ﷺ وأعظم كتبي القرآن الكريم.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ۝﴾ [الطارق: ١٥ ـ ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۝﴾ [الأنفال: ٣٠].

والمعنى: أني أمهلهم وأنظرهم بل وأمدهم لكي يتمادوا في غيهم، ولا أهملهم، بل أكيد لهم في الخفاء وأمكر بهم ثم آخذهم أخذ عزيز مقتدر.

كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝﴾ [المؤمنون: ٥٥ ، ٥٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝﴾ [الأنعام: ٤٤].

وعن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝﴾ [الأنعام: ١٠٢]»[1].

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ «أم» كسابقتها، أي: بل أتسألهم أجراً يعني على

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ٤٦٨٦، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٣، والترمذي في التفسير ٣١١٠، وابن ماجه في الفتن ٤٠١٨.

تبليغك الرسالة لهم.

﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ﴾ أي: فهم من هذا الغرم وهو الأجر الذي طلب منهم ﴿مُّثْقَلُونَ﴾ أي: أثقلهم هذا الغرم وعجزوا عن حمله، وحال ذلك بينهم وبين الاستجابة لدعوتك. والجواب: أنك لم تسألهم على ذلك أجراً فلماذا لا يستجيبون.

﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ﴾ أي: بل أعندهم الغيب، أي: أعندهم علم ما غاب عن الحواس من الغيبيات الموجودة، والسابقة واللاحقة من أحوال وأمور الدنيا والآخرة وعلم اللوح المحفوظ.

﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي: فهم يكتبون لأنفسهم ما يريدون وأنهم على كفرهم أفضل منزلة عند الله من أهل الإيمان وأنهم على حق، وأن لهم الثواب عند الله.

والجواب: أنه ليس عندهم علم الغيب فيكتبوا لأنفسهم ما يريدون، بل الغيب لا يعلمه إلا الله، كما قال عز وجل: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل: ٦٥].

وإذا لم يكن عندهم علم الغيب، فلماذا يكذّبون رسل الله وكتبه، وهو عالم الغيب والشهادة وهو العليم الخبير.

الفوائد والعبر:

١- إثبات الساق لله عز وجل على ما يليق بجلاله كما دل على ذلك حديث أبي سعيد رضي الله عنه المتفق على صحته: «يكشف ربنا عن ساقه».

٢- شدة أهوال يوم القيامة وكربه.

٣- عقوبة المجرمين الكافرين بعدم قدرتهم على السجود في الآخرة لأنهم لم يسجدوا لله في الدنيا وفي هذا فضيحة وتوبيخ لهم. والجزاء من جنس العمل.

٤- انكسار وذل أبصار المجرمين يوم القيامة وهوانهم وصغارهم.

٥- الوعيد والتهديد للمكذبين بالقرآن.

٦- استدراج المكذبين وإمهالهم ثم أخذهم بشدة على غفلة منهم وغِرّة.

٧- أن الله عز وجل يكيد لمن كاد لدينه ولأوليائه، كما قال عز وجل ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: ١٥، ١٦].

٨- انقطاع حجج المكذبين وأعذارهم فلم يسألهم النبي ﷺ أجراً مقابل تصديقهم به وبما جاء به فيحتجون بثقل هذه الغرامة، ولم يكن لديهم علم الغيب فيكتبون لأنفسهم ما يريدون ويختارون لها ما يشتهون.

﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ﴿٤٩﴾ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

أمر الله عز وجل نبيه ﷺ في الآيات السابقة أن يترك أمر المكذبين إليه سبحانه فقال: ﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ﴾ الآيات وفي هذا من التهديد والوعيد ما فيه، ثم أمره بالصبر لحكم الله، ومن ذلك الصبر على أذاهم.

قوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ الأمر والخطاب للنبي ﷺ، والصبر لغة: الحبس أي: حبس النفس عن الجزع واللسان عن التشكي، والجوارح عما حرم الله.

وهو أنواع ثلاثة: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله.

وحكم الرب ينقسم إلى أقسام ثلاثة: حكم كوني، وحكم شرعي، وحكم جزائي.

أي: فاصبر لحكم ربك الشرعي في تبليغ رسالته وعبادته، واصبر لحكمه الكوني فيما ينالك من أذى قومك وغير ذلك.

قال ابن تيمية[(١)]: «وذلك نص في الصبر على ما يناله من أذى الخلق وعلى المصائب السماوية، والصبر على الأول أشد، وصاحب الحوت ذهب مغاضباً لربه لأجل الأمر السماوي، ولهذا قال: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ والإزلاق بالبصر هو الغاية في البغض والغضب والأذى فالصبر على ذلك نوع من الحلم، وهو احتمال أذى الخلق وفي ذلك ما يدفع كيدهم وشرهم».

وقال السعدي[(٢)]: «﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ اي لما حكم به شرعاً وقدراً، والحكم القدري يُصبر على المؤذي منه، ولا يتلقى بالسخط والجزع، والحكم الشرعي يقابل بالقبول والتسليم والانقياد لأمره».

وأضاف عز وجل حكمه إلى اسمه عز وجل «الرب» الذي معناه الخالق المالك المدبر إشارة إلى أن الأمر له في ذلك كله.

---

(١) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ١٩.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٤٥٤.

وأضاف «رب» إلى ضميره ﷺ تشريفاً وتكريماً له ﷺ وطمأنة له ﷺ وأن الله سبحانه هو ربه ومولاه وناصره ومعينه.

﴿وَلَا تَكُن﴾ أي: ولا تكن في الاستعجال والمغاضبة وقلة الصبر، ﴿كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ يعني: ذا النون، وهو يونس بن متّى عليه الصلاة والسلام - حين غضب على قومه، ولم يصبر، وذهب متجها إلى البحر، وركبه وما جرى له في ذلك حيث اقترع أهل السفينة لما ثقلت بهم واشتدت بهم الأمواج أيهم يُلقى لئلا يغرقوا، فوقعت القرعة عليه أكثر من مرة ابتلاءً من الله له فألقوه فالتقمه الحوت وهو مليم.

﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أي: إذ نادى ربه ودعاه ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ الواو حالية، أي: حال كونه مكظوماً، ومعنى ﴿مَكْظُومٌ﴾ أي: مغموم مكروب، قد امتلأ هماً وحزناً، في بطن الحوت، وغمرات اليم بعد ما التقمه الحوت وغاص به في لجج البحر قال تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝١٤٢﴾ [الصافات: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «دعوة أخي ذي النون إذ دعا بها في بطن الحوت ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾»[1].

والمراد: لا تكن مثله في الاستعجال والمغاضبة، وليس النهي عن كونه مثله في مناداة ربه، فإن الله أثنى عليه في هذا النداء فاخبر أنه نجاه بسببه فقال: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨﴾ [الأنبياء: ٨٨].

﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ «لولا» شرطية غير جازمة، وهي حرف امتناع لوجود، أي: لولا أن أدركه نعمة ربه ولطفه عز وجل فرحمه وتاب عليه. وفي قوله ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ تعظيم لهذه النعمة لأنها من «ربه» خالقه ومالكه ومدبره، وفي إضافة ضميره إلى «الرب» تشريف وتكريم ليونس ـ عليه السلام.

﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ﴾ أي: لطرح في الأرض الفضاء الخالية ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ الواو حالية، أي:

---

(١) اخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٠٥، وأحمد ١/ ١٧٠.

حال كونه مذموماً غير ممدوح مليماً بذنب لكن الله عز وجل تداركه بنعمته وتغمده برحمته، فنبذ وهو ممدوح، وصارت حاله أحسن من حاله الأولى، ولهذا قال ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أراد الله حبس يونس في بطن الحوت، أوحى الله إلى الحوت أن خذه، ولا تخدش لحماً، ولا تكسر عظماً، فلما انتهى به إلى أسفل البحر، سمع يونس حساً، فقال في نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله إليه وهو في بطن الحوت: إن هذا تسبيح دواب البحر، قال: فسبَّح وهو في بطن الحوت، فسمع الملائكة تسبيحه، فقالوا: يا ربنا إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة؟ قال: ذلك عبدي يونس، عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر، قالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال: نعم، قال: فشفعوا له عند ذلك، فأمر الحوت فقذفه في الساحل، كما قال الله عز وجل: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾»[1].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن يونس النبي عليه السلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت، قال: «اللهم، لا إله إلا أنت، سبحانك، إني كنت من الظالمين» فأقبلت هذه الدعوة تحف بالعرش، فقالت الملائكة: يارب، صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة؟ فقال: أما تعرفون ذاك؟ قالوا: لايارب، ومن هو؟ قال: عبدي يونس، قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل، ودعوة مجابة؟ قال: نعم، قالوا: يارب، أولا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه من البلاء؟ قال: بلى، فأمر الحوت فطرحه في العراء»[2].

﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي: استخلصه ربه واصطفاه واختاره ونقاه من كل كدر.

﴿فَجَعَلَهُۥ﴾ بتوفيقه وتقديره الشرعي والكوني ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ من المرسلين المخلصين العبادة له - سبحانه - وفق شرعه وأمره ونهيه الذين صلحت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم وأحوالهم، فصارت حاله خيراً وأحسن من حاله الأولى كما صارت حال آدم وزوجه

---

(١) أخرجه البزار في مسنده فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥/ ٣٦٢.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٤٦٤ في تفسير سورة الأنبياء.

عليهما السلام بعد توبتهما أفضل من حالهما قبل الذنب والأكل من الشجرة.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى»[١].

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ الواو: استئنافية. أي: ويقارب الذين كفروا بالله وكذبوا رسله ﴿لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر «ليَزلقونك» بفتح الياء، وقرأ الباقون بضمها «ليُزلقونك» أي: لينفذونك بأبصارهم، أي ليصيبونك بأعينهم من حسدهم وحنقهم وغيظهم لولا حفظ الله لك وحمايته إياك منهم.

وهذا غاية ما يقدرون عليه من الأذى له ﷺ، والله حافظه وناصره، كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

﴿لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ أي: حين سمعوا القرآن منك، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٤].

وفي هذه الآية دليل على أن العين حق، لكن إصابتها وتأثيرها بأمر الله عز وجل كما وردت بذلك الأحاديث من طرق متعددة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين، وإذا استُغسلتم فاغسلوا»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «العين حق»[٣].

وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا شيء في الهام، والعين حق، وأصدق الطيرة الفأل»[٤].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ يُعوِّذ الحسن والحسين، يقول: «أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة» ويقول: «هكذا كان إبراهيم يعوذ إسحاق وإسماعيل عليهما السلام»[٥].

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٣٩٦، ومسلم في الفضائل ٢٣٧٧، وأبو داود في السنة ٤٦٦٩، وأحمد ١/ ٣٩٠.

(٢) أخرجه مسلم في السلام ـ باب الطب والمرض ٢١٨٨، والترمذي في الطب ٢٠٦٢.

(٣) أخرجه البخاري في الطب ـ باب العين حق ٥٧٤٠، ومسلم في الباب السابق ٢١٨٧، وابن ماجه في الطب، باب العين ٣٥٠٧، وأحمد ٢/ ٣١٨ – ٣١٩، ٤٨٧.

(٤) أخرجه الترمذي في أبواب الطب ما جاء أن العين حق والغسل لها ٢٠٦١، وقال: «حديث غريب» وأحمد ٢/ ٢٨٩.

(٥) أخرجه البخاري في الأنبياء ـ ما جاء في الرقية من العين ٣٣٧١، وأبو داود في السنة ٤٧٣٧، والترمذي في أبواب الطب ٢٠٦٠، وابن ماجه في الطب ٣٥٢٥.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: «يا محمد اشتكيت؟ قال: نعم»، قال: باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك، باسم الله أرقيك»(١).

وعنه رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنس، فلما نزلت المعوذتان أخذهما وترك ما سوى ذلك»(٢).

وعن أبي أمامة بن سهل بن حُنيف قال: «مر عامر بن ربيعة بسهل بن حُنيف وهو يغتسل، فقال: لم أر كاليوم ولا جلد مخبأة، فما لبث أن لُبِطَ به(٣) فأُتي به النبي ﷺ فقيل له أدرك سهلاً صريعاً، قال: «من تتهمون به»؟ قالوا: عامر بن ربيعة، قال: «علام يقتل أحدكم أخاه؟ إذا رأى أحدكم من أخيه ما يعجبه فليدع له بالبركة» ثم دعا بماء فأمر عامراً أن يتوضأ فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين، وركبتيه، وداخلة إزاره، وأمره أن يصب عليه»(٤).

وعن عائشة رضي الله عنها: «أن رسول الله ﷺ أمرها أن تسترقي من العين»(٥).

وعنها رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «استعيذوا بالله، فإن العين حق»(٦).

وعن أسماء بنت عميس رضي الله عنها قالت: يا رسول إن بني جعفر تصيبهم العين أفاسترقي لهم؟ قال: «نعم فلو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين»(٧).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا حسد، والعين حق»(٨).

فهذه الأحاديث كلها تدل مع الآية على أن العين حق، وأنها قد تقتل وقد تمرض،

---

(١) أخرجه مسلم في السلام ـ الطب والمرض والرقى ٢١٨٦، والترمذي في الجنائز ـ ما جاء في التعوذ للمريض ٩٧٢، وابن ماجه في الطب ـ من استرقى من العين ٣٥٢٣، وأحمد ٣/ ٢٨، ٥٦، ٥٨، ٧٥.

(٢) أخرجه النسائي في الاستعاذة ٥٤٩٤، والترمذي في الطب ٢١٣٥، وابن ماجه في الطب ٣٥١١، وقال الترمذي: «حسن غريب».

(٣) أي: صرع وسقط إلى الأرض.

(٤) أخرجه ابن ماجه في الطب – باب العين ٣٥٠٩، وأحمد ٣/ ٤٤٧، ٤٨٦، ٤٨٧.

(٥) أخرجه البخاري في الطب – رقية العين ٥٧٣٨ ومسلم في السلام، استحباب الرقية من العين ٢١٩٣، وابن ماجه في الطب ٣٥١٢.

(٦) أخرجه ابن ماجه في الطب ٣٥٠٨.

(٧) أخرجه الترمذي في الطب ـ ما جاء في الرقية من العين ٢١٣٦، ٢١٣٧، وابن ماجه في الطب ٣٥١٠، وأحمد ٦/ ٤٣٨، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(٨) أخرجه أحمد ٢/ ٢٢٢.

وغير ذلك، وكل ذلك بإرادة الله عز وجل.

كما يدل بعض هذه الأحاديث على مشروعية التعوذ وتعويذ الأولاد من العين، والرقية والاسترقاء منها، وأنه ينبغي إذا رأى الإنسان ما يعجبه أن يدعو له بالبركة.

وإذا كانت الإصابة بالعين حقاً بإرادة الله عز وجل فليس معنى ذلك أن نستسلم للأوهام والوساوس، ولما يقوله السحرة والمشعوذون والدجالون ومردة الجان من الأكاذيب في هذا، بل يجب على المسلم الاعتماد على الله عز وجل والتعوذ والتحصن بالأدعية والأوراد الشرعية، فإنها حصن حصين به يحفظ الله الإنسان من العين والسحر والجن وسائر الشرور قبل الإصابة بها وبعدها فإن شياطين الإنس والجن جعلوا من الإصابة بهذه الأمور مركباً لهم لتشكيك المسلمين في عقائدهم، ونقلهم من بر الأمان بالاعتماد على الله عز وجل والثقة به واللجوء إليه في حال السراء والضراء والتعلق به وحده سبحانه إلى حياة الأوهام والوساوس والمخاوف والقلق، ليروجوا أباطيلهم ودجلهم وكذبهم، ليأكلوا بذلك أموال الناس بالباطل، فإذا جاءهم المريض، أو من ليس عنده إلا وساوس وأوهام سارعوا إلى إدخاله في دوامة لا يخرج منها مدة حياته. فحكموا - قطعاً - بأنه مسحور، أو مصاب بالعين، أو فيه مس من الجنون رجماً بالغيب، فمن راجعهم لا يسلم من أحد الأمور الثلاثة حتى ولو كان جاء ليختبرهم وهو سليم معافى، حتى اتهم أناس بالسحر والعين وهم من ذلك براء، وحصلت بسبب ذلك عداوات وفرقة بين الأقارب والأزواج والإخوة والجيران، ومن بينهم تعامل وتعارف. وكل هذا من تلبيس الشيطان ووساوسه وأوهامه، ليفسد على الناس دينهم وعقائدهم، بل ودنياهم، ويؤجج ذلك ويروج له أكلة أموال الناس بالباطل من شياطين الإنس من السحرة والمشعوذين والدجالين ومرضى القلوب من بعض القراء هداهم الله، وكذا بعض مفسري الأحلام، ممن يريدون الشهرة، ولو على حساب دينهم ـ نسأل الله السلامة والعافية، وأن يكفي المسلمين شرورهم.

قوله ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ أي: ويقولون: إن محمداً لمجنون، أي: مصاب بالجنون وفقدان العقل، معتوه؛ لأنه جاءهم بالقرآن من عند الله عز وجل، وهذا منتهى ما قدروا عليه من الأذى القولي له ﷺ تارة يقولون مجنون وتارة شاعر وتارة ساحر، وتارة كاهن.

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ هذا رد عليهم، أي: ليس محمد ﷺ بمجنون كما تزعمون، وما القرآن الذي جاءكم به إلا ذكر من عند الله عز وجل للعالمين، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ

لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ [الزخرف: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤، ص: ٨٧، التكوير: ٢٧]. أي: يتذكرون به ما ينفعهم في دينهم ودنياهم.

الفوائد والعبر:

١- تقوية الله عز وجل لقلب نبيه ﷺ بأمره بالصبر، وإثبات ربوبيته الخاصة له.

٢- أن الصبر أكبر معين على القيام بالرسالة والدعوة إلى الله وتحمل الأذى في سبيل ذلك.

٣- نهي الله عز وجل لنبينا محمد ﷺ أن يكون في المغاضبة والاستعجال مثل يونس عليه السلام.

٤- أن ما حصل ليونس عليه السلام من الابتلاء من إلقائه في البحر والتقام الحوت له بسبب مغاضبته لقومه واستعجاله، وعدم صبره.

٥- أنه لا ملجأ في الشدائد إلا إلى الله عز وجل لهذا نادى يونس عليه السلام ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

٦ـ أن الأنبياء عليهم السلام ليسوا معصومين عن الصغائر لكنهم لا يقرون عليها بل سرعان ما ينبهون عليها ويحدثون منها توبة، ولهذا هنا لم يصرح بما حصل من يونس عليه السلام بينما صرح في ندائه ربه وتوبته إليه.

٧- نعمة الله العظمى على يونس عليه السلام حيث تداركه بنعمته وتاب عليه واستخلصه وجعله من الصالحين، فصارت حاله خيراً وأحسن من حاله الأولى.

٨- فضل نبينا محمد ﷺ على يونس عليه السلام وعلى سائر الأنبياء عليهم السلام.

٩- شدة عداوة الذين كفروا للنبي ﷺ ولما جاء به، وحسدهم له ومحاولتهم إصابته بأبصارهم.

١٠- أن العين حق تصيب بإذن الله عز وجل. وذكر الله عز وجل والتعوذ به كما أمر وقاية منها بإذنه عز وجل قبل وقوعها وعلاج لها بعد وقوعها.

١١- أن ديدن المكذبين للرسل والدعاة رميهم بأبشع الصفات تنفيراً للناس منهم.

١٢- الرد على المكذبين في رميهم الرسول ﷺ بالجنون، وإثبات أن ما جاء به من القرآن إنما هو ذكر للعالمين.

تفسير سورة الحاقة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢)﴾.

﴿الْحَاقَّةُ﴾ القيامة، وسميت بذلك لأنها محققة الوقوع، فهي واقعة لا محالة، ولأنها تظهر فيها الحقائق، ويتحقق فيها الوعد والوعيد، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾ [النبأ: ٣٩].

﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾ «ما» استفهامية. وهذا تعظيم لأمرها وتفخيم لشأنها، أي: ماهي الحاقه، أمرها عظيم وشأنها كبير.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ تعظيم لأمرها بعد تعظيم، وتفخيم له بعد تفخيم، والواو: عاطفة و«ما» استفهامية، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

أي: وما أعلمك ما هي الحاقة، إن أمرها عظيم، وشأنها جسيم، وخطرها كبير، وشرها مستطير، كما قال تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣)﴾ [القارعة: ١ ـ ٣]، وقال تعالى: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨)﴾ [الانفطار: ١٥ـ ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢)﴾ [الحج: ١ ، ٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى (٣٥) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى (٣٦) فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩)﴾ [النازعات: ٣٤ ـ ٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢)﴾ [عبس: ٣٣ ـ ٤٢].

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾ الآيات

عظم الله عز وجل أمر القيامة وشأنها ثم ذكر بعض الأمم المكذبين بها وما حل بهم

من العقوبات الدنيوية قبل القيامة تمهيداً لتفصيل أهوال القيامة

و«ثمود» هم قوم نبي الله صالح عليه السلام مساكنهم في الحجر شمال الجزيرة في «العلا»، وهي المعروفة بمدائن صالح.

و«عاد» هم قوم نبي الله هود عليه السلام وهم عاد الأولى، وهم عاد إرم، كما قال تعالى في سورة الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝﴾ [الآيات: ٦ ـ ٨] مساكنهم بالأحقاف جنوب الجزيرة في اليمن.

و﴿الْقَارِعَةُ﴾: هي القيامة سميت بذلك، لأنها تقرع القلوب وتفزع الناس وتزعجهم بأهوالها، كما قال عز وجل: ﴿الْقَارِعَةُ ۝ مَا الْقَارِعَةُ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝﴾ [القارعة: ١ ـ ٣].

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ﴾ الفاء: عاطفة، و«أما» حرف شرط وتفصيل.

﴿فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ أي: بالصيحة العالية الشديدة العظيمة الفظيعة التي تجاوزت الحد حيث صاح بهم جبريل عليه السلام صيحة شديدة قطعت قلوبهم في أجوافهم.

وقال بعض المفسرين: المراد بالطاغية: الطغيان والمعاصي والذنوب، كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۝﴾ [الشمس: ١١] أي: بسبب طغيانها.

ولا مانع من حمل الآية على المعنيين فبسبب طغيانهم أهلكوا بالطاغية، والجزاء من جنس العمل.

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ﴾ «الريح» تستعمل غالباً فيما يضر ويهلك، و«الرياح» بضد ذلك تستعمل غالباً في الخير وفيما ينفع، ولهذا رُوي في الحديث في دعاء هبوب الريح: «اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً، اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذاباً».

وقد تستعمل «الريح» في الخير وفيما ينفع، كما قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢].

﴿صَرْصَرٍ﴾ شديدة البرد، شديدة الصوت.

﴿عَاتِيَةٍ﴾ شديدة العصف والهبوب، عتت على «عاد» وزادت عن الحد.

وفي الحديث قال ﷺ: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور»[1].

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: سلطها عليهم. ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾.

أي: متتابعات كاملات بلا زيادة ولا نقصان مشؤومات نحسات كما قال عز وجل في

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة ١٠٣٥، ومسلم في صلاة الاستسقاء ٩٠٠ – من حديث ابن عباس – رضي الله عنهما.

سورة فصلت: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [الآية: ١٦].

﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ أي: مصروعين هالكين موتى.

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ كأنهم جذوع وسيقان نخل قطعت رؤوسها ﴿خَاوِيَةٍ﴾ ميتة منقلعة من منابتها هامدة ساقطة على الأرض فهم أجساد بلا رؤوس. كما قال تعالى: ﴿تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠]

قال ابن كثير[1]: «أي: جعلت الريح تضرب بأحدهم الأرض، فيخر ميتاً على أم رأسه، فينشدخ رأسه وتبقى جثته هامدة كأنها قائمة النخلة إذا خرت بلا أغصان»

﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ الفاء: عاطفة و«هل» حرف استفهام يفيد النفي. والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له أي: فهل تشاهد يا محمد ويا أيها الناظر لهم من باقية، أي: أنك لا ترى ولا تشاهد لهم من بقية، بل كلهم هلكوا وبادوا عن آخرهم. وهذه آثار الذنوب والمعاصي فإنها تذر الديار بلاقع.

﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ﴾ فرعون: هو ملك مصر الذي أرسل الله إليه موسى عليه السلام والذي ادعى الربوبية والألوهية، كما قال تعالى عنه أنه قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]. وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

﴿وَمَن قَبْلَهُ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب والكسائي بكسر القاف وفتح الباء: «ومن قِبَله» أي: أتباعه وجنوده من كفار القبط.

وقرأ الباقون: «ومن قَبْله» بفتح القاف وسكون الباء أي: ومن قبله من الأمم المكذبين للرسل.

﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتُ﴾ قرى قوم لوط التي أسقطها الله عز وجل، وجعل عاليها سافلها، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ [النجم: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [الحجر: ٧٤] والمراد بالمؤتفكات أهلها.

﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ أي: بالفعلة والأعمال الخاطئة، من الكفر وتكذيب رسل الله وكتبه والخطايا والمعاصي، ومنها إتيان الذكران من العالمين.

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٣٦.

﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أي: فعصوا رسول ربهم إليهم، و«رسول» اسم جنس، أي: رسل ربهم، والضمير الواو في «عصوا» وضمير «هم» في قوله «ربهم» يعودان إلى فرعون ومن قبله والمؤتفكات أي: كل من هؤلاء كذبوا الرسول الذي أرسله الله إليهم. كما قال تعالى: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤﴾ [ق: ١٤]، ومن كذب رسوله كمن كذب جميع الرسل، كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ۝١٠٥﴾ [الشعراء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ۝١٢٣﴾ [الشعراء: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثمود الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١].

﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾ أي: فأخذهم الله جميعاً أخذة زائدة في شدتها وعظمتها على الحد والمقدار، مهلكة.

يقال: ربا، أي: زاد، ومنه سمي الربا، وهو الزيادة.

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾ أي: لما زاد الماء على الحد، وارتفع على الأرض، وغمر السهل والجبل، وعمّ أهل الأرض الطوفان والغرق إلا من كان مع نوح عليه السلام في السفينة.

﴿حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ أي: في سفينة نوح عليه السلام الجارية على وجه الماء بقدرة الله عز وجل، فأنجيناكم من الغرق، وأغرقنا من سواكم من أهل الأرض، فالناس بعد هذا كلهم من سلالة نوح عليه السلام وممن نجوا معه في السفينة.

فامتن الله على الخلق الموجودين بعدهم أن حملهم في الجارية وهي السفينة في أصلاب آبائهم وأمهاتهم الذين نجاهم الله.

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ الضمير في قوله ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ يعود إلى نعمة الله عز وجل ومنته في إنجاء نوح عليه السلام ومن معه، أي: لنجعلها لكم عبرة وعظة تتذكرون بها نعمة الله تعالى عليكم وعلى أجدادكم، لأن النعمة على السابق نعمة على اللاحق.

ويحتمل عود الضمير على السفينة وكونها تجري على الماء، أي ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ أي: الجارية، والمراد جنسها.

قال ابن كثير[1] : «عاد الضمير على الجنس لدلالة المعنى عليه، أي وأبقينا لكم من جنسها ما تركبون على تيار الماء في البحار».

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٣٧.

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ١٣، ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٤١، ٤٢].

وقيل الضمير يعود إلى نفس سفينة نوح عليه السلام بقيت حتى أدركها أول هذه الأمة.

﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ أي: وتسمعها وتحفظها وتعقلها أذن سامعة حافظة عاقلة، عقلت عن الله فانتفعت بما سمعت من كتاب الله عز وجل.

قال ابن كثير[1]: «أي: من له سمع صحيح، وعقل رجيح، وهذا عام فيمن فهم، ووعى».

والمعنى: ويعقلها أولو الألباب ويأخذون العبرة منها وفي هذا تعريض بأهل الإعراض والغفلة والبلادة وعدم الفطنة لعدم وعيهم وتفكرهم في آيات الله الكونية والشرعية وعدم انتفاعهم بها.

الفوائد والعبر:

١ ـ إثبات القيامة وتحقق وقوعها وظهور الحقائق فيها لهذا سميت الحاقة.

٢ ـ شدة أهوال القيامة وأحوالها، وعظم أمرها وخطرها.

٣ ـ تكذيب ثمود وعاد بالقيامة وما حل بهم من العقوبات العاجلة فثمود أهلكوا بالصيحة الشديدة وعاد أهلكوا بالريح الصرصر العاتية.

٤ ـ ارتكاب فرعون ومن قبله وقوم لوط للأفعال الخاطئة ومعصيتهم لرسل ربهم وأخذهم بشدة وإهلاكهم.

٥ ـ إثبات ربوبية الله العامة لجميع الخلق.

٦ ـ شدة عذاب الله وعقابه وأخذه للظالمين والمجرمين.

٧ ـ التحذير من مسالك المكذبين للبعث المخالفين للرسل كثمود وعاد وفرعون ومن قبله والمؤتفكات، ومن أفعالهم الخاطئة بذكر ما حل بهم من العقوبات الشديدة والهلاك المدمر.

٨ ـ سوء عاقبة الكفر والذنوب والمعاصي وأن عاقبتها الهلاك والدمار وترك الديار بلاقع.

٩ ـ امتنان الله عز وجل على العباد وتذكيرهم بنعمة الله ـ عز وجل ـ على أبائهم بإنجائهم من الغرق بسفينة نوح عليه السلام.

١٠ ـ في إنجاء نوح عليه السلام ومن معه في السفينة، وتسيير السفن على البحار نعمة من الله ـ عز وجل، ودلالة على عظم قدرته ـ عز وجل، وعبرة وعظة لمن يعتبر ويتعظ.

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٣٧.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة عقوباته للمكذبين، وإنجاءه للرسل وأتباعهم في الدنيا، وهذا من الجزاء الدنيوي الدال على عظيم قدرته سبحانه وتعالى، ثم أتبع ذلك بما هو أشد وأعظم، وهو القيامة ومقدماتها وأهوالها وأحوالها والجزاء الأخروي للفريقين.

قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ الفاء: استئنافية، و«إذا» ظرفية شرطية غير عاملة أي: فإذا نفخ إسرافيل في الصور نفخة واحدة بأمر الله عز وجل إذا تكاملت الأجساد نابتة فتخرج الأرواح، فتدخل كل روح في جسدها فإذا الناس قيام لرب العالمين كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾ [الكهف: ٩٩].

وهي النفخة الثانية وتسبقها النفخة الأولى لصعق وموت كل من في السموات والأرض إلا من شاء الله، كما قال عز وجل: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾ [النازعات: ٦ ، ٧].

وأكدها بقوله ﴿نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ أي: مرة واحدة بلا تكرار، لأن أمر الله عز وجل نافذ لا يخالف ولا يمانع، كما قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢].

﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ رفعت من مكانها بأمر الله عز وجل ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: فدقتا وسويّتا. قال الطبري[1]: «زلزلتا زلزلة واحدة».

وقال ابن كثير[2]: «أي: فمدت مد الأديم العكاظي وتبدلت الأرض غير الأرض».

وقال السعدي[3]: «أي فتتت الجبال واضمحلت وخلطت بالأرض ونسفت عليها

(١) في «جامع البيان» ٢٣/ ٢٢٤.
(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٣٨.
(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٤٦١.

فكان الجميع قاعاً صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا».

قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾ [الفجر: ٢١]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم: ٤٨].

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ أي: فيوم ذاك وحينه قامت القيامة، وسميت القيامة بالواقعة لتحقق وقوعها، وقربه لأنها آتية لا محالة، وكل آت قريب.

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ اي: تفطرت وتصدعت. كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾ [الرحمن: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾﴾ [النبأ: ١٩].

﴿فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ أي: ضعيفة متداعية بعد أن كانت محبوكة قوية متماسكة لا فطور فيها ولا شقوق، وبعد أن كانت يضرب فيها المثل في قوة الخلق وكبره وشدته، كما قال عز وجل: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨].

﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾ الملك: اسم جنس، أي الملائكة الكرام.

﴿عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾ أي: على جوانب السماء وأطرافها وأركانها خاضعين لربهم مستكينين لعظمته.

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ﴾ أي: ويحمل عرش ربك يا محمد ورب كل مخلوق، والعرش هو أكبر المخلوقات وأضافه إلى الرب لأنه سبحانه استوى عليه كما قال تعالى ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: ٥].

والخطاب للنبي ﷺ وأضاف ضميره إلى الرب تشريفاً وتكريماً له ﷺ، لأن المراد بالربوبية هنا الربوبية الخاصة بأوليائه عز وجل أي: ويحمل عرش ربك فوق الخلائق يوم القيامة ثمانية من الملائكة في غاية القوة.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أذن لي أن أحدثكم عن ملك من حملة العرش، بُعْدما بين شحمة أذنه وعنقه مَخْفِقُ الطير سبعمائة عام»[1].

وفي رواية عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أذن لي أن أحدث عن ملك

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٧٠، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٣٩، وقال: «وهذا إسناد جيد، رجاله كلهم ثقات».

من ملائكة الله من حملة العرش: إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام»[1].

وقيل المراد بالعرش الذي يوضع في الأرض لفصل القضاء، كما قيل: إن المراد بقوله ﴿ثَمَٰنِيَةٌ﴾ ثمانية صفوف من الملائكة.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ أي: في ذلك اليوم تعرضون على الله للحساب والجزاء ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالياء على التذكير (لا يخفى) وقرأ الباقون بالتاء (لا تخفى) على التأنيث.

أي: لا تخفى عليه عز وجل منكم خافية من أقوالكم وأعمالكم الظاهرة والباطنة، وغير ذلك لأنه عز وجل عالم الغيب والشهادة يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فأما عرضتان فجدال ومعاذير، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فآخذ بيمينه وآخذ بشماله»[2].

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أخف عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾»[3].

الفوائد والعبر:

١ ـ تقرير النفخ في الصور ورد الأرواح إلى أجسادها وبعث الناس للحساب والجزاء وقيام القيامة الكبرى.

٢ ـ عظم أهوال يوم القيامة ففيها تحمل الأرض والجبال وتدك دكة واحدة وتنشق السماء وتتصدع وتتداعى وغير ذلك.

٣ ـ سرعة نفوذ أمر الله ـ عز وجل ـ وعظم قدرته.

٤ ـ انتشار الملائكة على أرجاء السماء وحمل ثمانية منهم عرش الرحمن فوق الخلائق.

٥ ـ إثبات العرش لله عز وجل واستوائه عز وجل عليه فوق الخلائق.

٦ ـ إثبات الربوبية الخاصة لله عز وجل، وهي ربوبيته لرسله وأوليائه.

٧ ـ تشريف النبي ﷺ وتكريمه بإضافة ضميره إلى اسم الرب سبحانه وتعالى.

٨ ـ عرض الخلائق على الله عز وجل في ذلك اليوم وعرض أعمالهم لا يخفى منهم شيء.

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة – باب الجهمية ٤٧٢٧.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الزهد – ذكر البعث ٤٢٧٧، وأحمد ٤/ ٤١٤، وأخرجه الترمذي في أبواب القيامة – ما جاء في العرض ٢٤٢٥ – من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه قال الترمذي: «ولا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة، ولا من أبي موسى». وأخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٢٣٠ – من حديث أبي موسى وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما – موقوفاً عليهما.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا – فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٤٠.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (٣٧)﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة النفخ في الصور والقيامة وبعض أهوالها وأحوالها، وعرض الخلائق على الله عز وجل، ثم أتبع ذلك بتفصيل حساب من يؤتى كتابه بيمينه، ومن يؤتى كتابه بشماله، وماذا يقول كل منهما، وماذا يقال له، وحال كل منهما ومآله وجزائه.

قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ الفاء: استئنافية و«أما» أداة تفصيل و«من» موصولة.

أي: فأما الذي أعطي كتاب عمله بيده اليمنى، وهو المؤمن تمييزاً وتكريماً له ورفعة.

﴿فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧١)﴾ [الإسراء: ٧١].

أي: فيقول لكل من لقيه من شدة فرحه واغتباطه واستبشاره وسروره.

﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ أي: خذوا وهاكم وتعالوا اقرؤوا كتابي، والهاء في «كتابيه» في الموضعين للسكت وكذا في «حسابيه» في الموضعين وفي «ماليه» و«سلطانيه».

فهو لمّا شاهد وقرأ في كتابه من الحسنات العظيمة الماحية للسيئات مما يبشر بالمغفرة والثواب العظيم ينادي فرحاً مسروراً، هاكم وتعالوا اقرؤوا كتابي كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩)﴾ [الانشقاق: ٧ ـ ٩].

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يدني الله المؤمن يوم القيامة فيقرره بذنوبه كلها حتى إذا رأى أنه قد هلك قال الله: إني سترتها عليك في

الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته بيمينه»[١].

﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ أي: إني علمت وتيقنت في حياتي في الدنيا أن البعث والقيامة والحساب والجزاء على الأعمال حق، وأني ملاق ومقابل حسابي وجزائي في ذلك اليوم كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة: ٤٦].

أي: فاستعد ـ بتوفيق الله وفضله ـ بالعمل بما يكون سبباً للنجاة في ذلك اليوم.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي: في عيشة مرضية يرضاها لنفسه، فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين. كما قال عز وجل ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر: ٢٧ ، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾﴾ [الغاشية: ٨ ـ ١٠].

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي: في جنة رفيعة المحل والمنازل والقصور والدور، وعالية رفيعة من حيث كون نعيمها في أعلى وأرفع درجات النعيم كيفا وكماً ونوعاً وأبدية.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض أعدها الله للمجاهدين في سبيله»[٢].

﴿قُطُوفُهَا﴾ قطوفها: ما يقطف من ثمارها ﴿دَانِيَةٌ﴾ أي: قريبة المنال، يتناولها من يريدها على أي حال كان واقفاً أو جالساً أو مضجعاً أو غير ذلك، لا يحول دونها شوك أو غيره كما قال تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [الإنسان: ١٤].

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ أي: يقال لهم هذا القول تكريماً لهم وامتناناً عليهم وتفضلاً أي: كلوا من كل طعام لذيذ، واشربوا من كل شراب شهي. وخص الأكل والشرب من بين الوان وأنواع النعيم لأهميتهما فهما كسوة الباطن.

﴿هَنِيٓـًٔۢا﴾ حال أي: حال كون الأكل والشرب هنيئاً، والهنيء هو اللذيذ الطعم المستطاب أكله وشربه من غير مكدر ولا منغص.

﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ﴾ الباء سببية، و«ما» موصولة، أي بسبب الذي أسلفتم، وقدمتم من الأعمال الصالحة من صلاة وزكاة وصيام وحج وصدقة وإحسان في عبادة الله وإلى عباد

---

(١) اخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٤١، ومسلم في التوبة ٢٧٢٨، وابن ماجه في المقدمة ١٨٣.

(٢) اخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٧٩٠، ومسلم في الإمارة ١٨٧٦، والنسائي في الجهاد ٣١٢٢، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٥٣.

الله، وفعل لأوامر الله وترك لنواهيه.

﴿فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ أي: في الأيام الماضية الفائتة في الدنيا التي جعلها الله مزرعة للآخرة.

فالأعمال الصالحة سبب لهذا النعيم، وليست عوضاً عنه خلافاً للمعتزلة وقد قال ﷺ: «لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[1].

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ الآيات.

بعدما ذكر الله مقال من يؤتى كتابه بيمينه ومآله، وما يقال له أتبع ذلك بذكر مقال من يؤتى كتابه بشماله ومآله، جمعاً بين الوعد والوعيد والترغيب والترهيب ليجمع المؤمن في طريقه إلى الله بين الخوف والرجاء حتى يلقى الله.

قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ أي: وأما الذي أوتي كتاب عمله بيده الشمال بعد أن تلوى وراء ظهره تمييزاً له وإذلالاً وخزياً له وفضيحة وعاراً، قال عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ۝ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝﴾ [الانشقاق: ١٠ ـ ١٢].

﴿فَيَقُولُ﴾ من شدة الهم والغم والحزن ﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ أي: اتمنى أني لم اعط كتابي، وذلك لما يرى من السيئات الكثيرة والقبائح الفظيعة والبشارة له بدخول النار.

﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ أي: ويا ليتني لم ادر ما هو حسابي، أي: لم أبعث ولم احاسب.

﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ أي: يا ليت الموتة التي متها كانت القاضية، أي: فلم أحي بعدها.

وقيل: إنه تمنى أن يموت مع أنه لم يكن شيء في الدنيا أكره إليه من الموت.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ﴾ «ما» نافية، أي: ما نفعني مالي ولا دفع عني شيئاً من عذاب الله تعالى لأني لم أقدم منه شيئاً للآخرة.

﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾ أي: ذهب واضمحل ما كان لي من الحجة والتسلط والقوة، من الجنود والمنعة والعدد والعدة والجاه العريض وغير ذلك.

أي: أن مالي وسلطاني ما نفعاني وما دفعا عني عذاب الله تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار ـ لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى ٢٨١٦، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠١ – من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿خُذُوهُ﴾ أمر من الله عز وجل للزبانية الغلاظ الشداد بأن يأخذوا من أوتي كتابه بشماله ويمسكوا به بشدة وعنف وبلا رحمة في المحشر.

﴿فَغُلُّوهُ﴾ أي: قيدوه بالأغلال والأوثاق في عنقه ويديه وقدميه وناصيته، كما قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾ [الرحمن: ٤١].

وقد ذكر المفسرون أنه إذا قال الله للزبانية ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ ابتدره سبعون ألف ملك، وقيل غير ذلك.

﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ﴾ الجحيم: النار العظيمة شديدة التوقد والاشتعال والحرارة والظلمة بعيدة القعر.

﴿صَلُّوهُ﴾: ادخلوه واغمروه فيها، وقلبوه على جمرها ولهبها.

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ﴾ من سلاسل الجحيم في غاية الحرارة ﴿ذَرْعُهَا﴾ اي طولها بالذراع ﴿سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ والذراع من المرفق إلى نهاية الأصابع بذراع الرجل المعتدل، وقيل بذراع الملك ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ أي: فانظموه فيها، وذلك بأن تدخل السلسلة من دبره وتخرج من فمه، ويعلق فيها في نار جهنم.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن رُصَاصَة مثل هذه، وأشار إلى مثل جمجمة أرسلت من السماء إلى الأرض، وهي مسيرة خمسمائة سنة، لبلغت الأرض قبل الليل، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفاً الليل والنهار، قبل أن تبلغ قعرها أو أصلها»[1].

﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ أي: إنما عذب بما ذكر بسبب أنه ﴿لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ أي: لا يصدق بالله العظيم الذي له غاية العظمة بل يكفر بالله وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ولا ينقاد لأمره ونهيه.

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ أي: ولا يحث أهله وغيرهم على إطعام المسكين من ماله وغيره.

والمسكين هو الفقير المحتاج، الذي أسكنه الفقر وأذله.

وإذا كان لا يحث على إطعام المسكين، فهو من باب أولى لا يطعم المساكين، فلا إحسان لديه في عبادة الله، ولا إلى عباد الله، لهذا عذب بما ذكر.

---

(١) اخرجه الترمذي في ابواب صفة جهنم - صفة طعام أهل النار ٢٥٨٨، وأحمد ٢/ ١٩٧ وقال الترمذي: «حديث حسن».

فهو لا يقوم بحق الله بعبادته وطاعته، ولا يؤدي حقوق خلقه في ما استخلفه الله فيه من المال لأن الدين الإسلامي قائم على دعامتين هما: الإحسان في عبادة الله، إخلاصاً له، ومتابعة لرسوله ﷺ، والإحسان إلى عباد الله بأنواع الإحسان بالقول والفعل والمال والجاه وغير ذلك.

ولهذا أمر الله بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وقرن بينهما في نحو اثنين وثمانين موضعاً لأن في الصلاة الإحسان في عبادة الله، وفي الزكاة الإحسان إلى عباد الله، بل إن القرآن كله والسنة النبوية كلها الأمر فيهما دائر بين الأمر بالإحسانين: الإحسان في عبادة الله عز وجل والإحسان إلى عباد الله، وقد قبض النبي ﷺ وهو يقول: «الصلاة وما ملكت أيمانكم» فما زال يكررها حتى ما يفيض بها لسانه»[1].

﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ﴾ أي يوم القيامة ﴿هَاهُنَا﴾ أي: في الآخرة.

﴿حَمِيمٌ﴾ أي: قريب، أو صديق مشفق يشفع له ويدفع عنه عذاب الله كما قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ۝١٨﴾ [غافر: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣].

والناس في الدنيا يتناصرون بينهم، ويدافع بعضهم عن بعض، ولكن في ذلك اليوم لا أحد ينتصر لأحد كما قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ۝٢٦﴾ [الصافات: ٢٥، ٢٦].

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ أي: وليس له في ذلك اليوم طعام إلا من غسالة صديد وقيح ودم أهل النار، وهو شر طعام أهل النار في غاية الحرارة والمرارة ونتن الريح وقبح الطعم. وقيل: المراد بالغسلين شجرة الزقوم.

﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ أي: لا يأكل هذا الغسلين إلا أهل الخطايا المتعمدة من الكفر وسائر المعاصي والذنوب، الذين أخطؤوا الطريق المستقيم، وسلكوا طريق الجحيم.

والخاطئون: جمع خاطئ، وهو من تعمد الخطأ.

فالخاطئون من تعمدوا الكفر والمعاصي والذنوب بخلاف المخطئ فهو من وقع في

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الجنائز - ما جاء في ذكر مرض رسول الله ﷺ ١٦٢٥، وأحمد ٦/ ٢٩٠، ٣١١ من حديث أم سلمة رضي الله عنها، وأخرجه أحمد أيضاً ١/ ٧٨ من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، و٣/ ١١٧ من حديث أنس رضي الله عنه.

الخطأ سهواً ومن غير قصد.

الفوائد والعبر:

١- انقسام الناس يوم القيامة إلى قسمين: مؤمن آخذ كتابه بيمينه وكافر آخذ كتابه بشماله.

٢- فضل اليمين على الشمال.

٣- فرح واستبشار من أوتي كتابه بيمينه وعرضه لكتابه على من لقيه، وذكر السبب الذي أوصله إلى ذلك وهو إيمانه بالبعث والحساب والجزاء.

٤- عظم ما أعد الله لمن أوتي كتابه بيمينه من الثواب والأجر العظيم فعيشته راضية، ومسكنه جنة عالية، ثمارها دانية، مع النعيم المعنوي بالتهنئة لهم على ما قدموا في الأيام الماضية.

٥- وجوب الإيمان بالبعث والاستعداد بالعمل الصالح.

٦- حزن واستياء من أوتي كتابه بشماله وهو الكافر، وتمنيه أنه لم يؤت كتابه ولم يدر ما حسابه، وأنه لم يبعث بعد الموتة الأولى.

٧- اعتراف من أوتي كتابه بشماله بأنه لم ينفعه ماله الذي كان يجمعه، ولا دفع عنه عذاب الله سلطانه وقوته في الدنيا، وهما اللذان كانا من أسباب تجبره وتكبره ورده الحق.

٨- شدة عذاب من أوتي كتابه بشماله، والجمع له في النار بين العذاب المعنوي والعذاب الحسي لقوله ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾ ففي هذا الأمر والقول عذاب معنوي وفي إيقاعه عليه عذاب حسي.

٩- أن سبب تعذيب المعذبين هو عدم إيمانهم بالله العظيم، وعدم أداء حقوق المساكين من خلقه.

١٠- وجوب الإيمان بالله إحساناً في عبادته وإخلاصاً له، والإحسان إلى خلقه وبهذا ينجو الإنسان من العذاب ويظفر بالثواب.

١١- ليس لمن أدخل النار قريب أو صديق ينفعه أو يدفع عنه العذاب.

١٢- ليس للمعذب في النار طعام سوى غسالة وصديد أهل النار مما لا يأكله إلا من ارتكبوا الخطايا والآثام من الكفر وغيره.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ۝ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ۝ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ۝ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ۝ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ۝ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ۝ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ۝ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ۝﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة القيامة وأهوالها، وانقسام الناس فيها إلى قسمين من يؤتى كتابه بيمينه، ومن يؤتى كتابه بشماله وجزاء كل منهما، ثم أتبع ذلك بالإقسام على أن القرآن حق والرد على المكذبين.

قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ الفاء: للاستئناف و «لا» زائدة من حيث الإعراب ومؤكدة من حيث المعنى، والقسم هو الحلف، والمعنى: فأقسم بالذي ترون وتشاهدون أيها الخلق من الأشياء والذي لا ترونه ولا تشاهدونه منها أي: أقسم بالأشياء كلها ويدخل في ذلك نفسه المقدسة. وهذا أعم قسم في القرآن الكريم، فإنه يعم العالم العلوي والسفلي والدنيا والآخرة وما يرى وما لا يرى من الملائكة والجن والإنس والعرش والكرسي وكل شيء، وكل ذلك من آيات الله ودلائل قدرته وربوبيته وصدق رسوله ﷺ، وأن ما جاء به هو من عند الله وكلامه وتنزيله، وليس بقول شاعر ولا بقول كاهن، وأنه حق من عند الله كما أن هذه الأشياء كلها حق ما يرى منها وما لا يرى.

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ هذا هو جواب القسم، «إنه» أي: القرآن الكريم ﴿لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ يعني: محمداً ﷺ، لأنه هو المبلغ عن الله عز وجل لهذا أضافه إليه، كما أضافه في سورة التكوير إلى الرسول الملكي جبريل عليه السلام لأنه الواسطة الذي نزل بالقرآن من عند الله عز وجل إلى النبي ﷺ قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ۝ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ۝﴾ [الآيات: ١٩ ـ ٢١].

وأضافه إلى الرسول بلفظ القول بينما أضافه إلى نفسه بلفظ الكلام في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، لأنه عز وجل هو المتكلم به، ولأن الرسول مأمور بأن يقول لمن أرسل إليهم ما أمره الله به، كما قال عز وجل ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [الإسراء: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ [النور: ٣٠]. ولهذا قال المسيح عليه السلام: ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ﴾ [المائدة: ١١٧].

قال ابن القيم[١]: «وفي إضافته إليه باسم الرسالة أبين دليل أنه كلام المرسِل، فمن أنكر أن يكون الله قد تكلم بالقرآن فقد أنكر حقيقة الرسالة. ولو كانت إضافته إليه إضافة إنشاء وابتداء لم يكن رسولاً، ولناقض ذلك إضافته إلى رسوله الملكي في سورة التكوير».

وقوله ﴿كَرِيمٍ﴾ أي: كريم الصفات والسجايا والأخلاق صلوات الله وسلامه عليه كما قال عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

وهو كريم ﷺ بتبليغ رسالة ربه إلى الناس وبيان ما أنزل إليه من الوحي أتم بيان وأكمله كما قال عز وجل ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٤].

ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها: «لو كتم محمد ﷺ شيئاً مما أوحي إليه من كتاب الله لكتم ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]»[٢].

وهو ﷺ كريم جواد بالمال جاءه رجل فسأله فأعطاه غنماً بين جبلين فرجع إلى قومه قائلاً: «يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاءً لا يخشى الفاقة» وفي رواية «وما يخاف الفقر»[٣].

وعن أبي سعيد رضي الله عنه أن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى إذا نفذ ما عنده قال: «ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله، وما أعطي أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر»[٤].

ولقد أحسن القائل:

هو البحر من أي النواحي أتيته	فلجته المعروف والجود ساحله
تعوّد بسط الكف حتى لو انه	ثناها لقبض لم تجبه أنامله
ولو لم يكن في كفه غير روحه	لجاد بها فليتق الله سائله[٥]

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ «ما» نافية، أي: وما هو - يعني القرآن الكريم بقول شاعر كما

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/٨.
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ١٧٧، والترمذي في التفسير ٣٠٦٨.
(٣) أخرجه مسلم في الفضائل ٢٣١٢ - من حديث أنس - رضي الله عنه.
(٤) أخرجه مسلم في الزكاة ١٠٥٣.
(٥) الأبيات لأبي تمام.

تزعمون، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ۝٣٠﴾ [الطور: ٣٠]، وقال الوليد بن المغيرة فيما حكى الله عنه ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ فتوعده الله عز وجل بقوله ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧﴾ [المدثر: ٢٦ ، ٢٧].

﴿قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ قرأ ابن كثير ويعقوب وهشام بالياء: ﴿مَا يُؤْمِنُونَ﴾ وكذا في قوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُونَ﴾ وقرأ الباقون في الموضعين بالخطاب. أي: قليلاً إيمانكم، والمراد: أنه لا إيمان عندكم، أي: فالذي حملكم على قولكم: إنه شاعر هو عدم إيمانكم وهم وإن كانوا يقرون بتوحيد الله، وأن الله عز وجل هو الرب الخالق الرازق كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

لكن هذا لم يدخلهم في الإيمان لأنهم كذبوا بتوحيد الألوهية وبالرسالات والكتب السماوية وبهذا ينتقض إقرارهم بتوحيد الربوبية لأن من لازمه الإقرار بتوحيد الألوهية.

﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ أي: وليس القرآن ﴿بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ والكاهن: هو من يدعي علم الغيب، والغيب لا يعلمه إلا الله كما قال عز وجل: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٦٥﴾ [النمل: ٦٥].

﴿قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: قليلاً تذكركم واتعاظكم، والذي حملكم على رميه بالكهانة هو عدم تذكركم فلو آمنوا وتذكروا لعلموا أنه رسول الله حقاً وصدقاً.

﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: أن هذا القرآن العظيم منزل من رب العالمين، ربوبية عامة، بمعنى خالقهم ومالكهم ومدبرهم، عالَم الإنس والجن والملائكة والحيوان والنبات والجماد وغير ذلك من العوالم.

فهو كلام الله عز وجل منزل من عنده، وليس من كلام البشر كما زعم المشركون أن الرسول ﷺ تقوّله من عند نفسه، وليس مخلوقاً كما يقول المعتزلة.

وفي الآية إثبات علو الله تعالى على خلقه علو الذات وعلو الصفات، لأن الإنزال يكون من أعلى إلى أسفل.

وفيها أنه تكلم بالقرآن حقيقة وأنه منزل من عنده غير مخلوق لقوله ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١﴾ [الزمر: ١]، وقال تعالى: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ

حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢].

وفيها أن ربوبيته الكاملة لخلقه تأبى أن يتركهم سدى لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يرشدهم إلى ما ينفعهم، ولا يحذرهم ما يضرهم، بل يتركهم هملاً بمنزلة الأنعام السائمة، فمن زعم ذلك لم يقدر رب العالمين حق قدره ونسبه إلى ما لا يليق به.

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾.

بعد ما بين الله عز وجل أن القرآن الكريم تنزيل منه عز وجل، جاء به من عنده المبلغ عنه رسوله ﷺ، ونفى أن يكون قول شاعر وكاهن كما زعم المشركون أتبع ذلك ببيان أنه لا يمكن أن يكون الرسول ﷺ تقوّله من عند نفسه كما يزعمون أيضاً قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: ٣٣ ، ٣٤]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣].

وقوله ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ الواو: استئنافية و«لو» شرطية غير عاملة، وهي حرف امتناع لامتناع و «تقوّل» بمعنى كذب وافترى واختلق من عند نفسه ﴿بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ أي: بعض الأكاذيب والافتراءات والاختلاقات، أي: بأن يكون افترى القرآن من عند نفسه كما يزعم المشركون، أو زاد فيه أو نقص أو غيّر وبدّل في الرسالة ونسب ذلك إلينا.

﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ أي: لعاجلناه بالعقوبة وأخذناه بيمينه وبقدرة وقوة شديدة.

﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ «الوتين» نياط القلب، وهو عرق يجري في الظهر حتى يتصل بالقلب، إذا انقطع بطلت القوى وهلك الإنسان، وقيل نخاع الظهر.

فلو قدر أن الرسول ﷺ تقول على الله ـ وحاشاه من ذلك ـ لعاجله الله بالعقوبة وأخذه أخذ عزيز مقتدر لأن حكمته تقتضي أن لا يمهل من كذّب وتقوّل عليه وبخاصة في أمر النبوة، فكيف ينصره ويؤيده بالمعجزات، فنصره له وتأييده بالمعجزات والآيات البينات وتمكينه له أعظم شهادة منه على صدق رسالته.

﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ الفاء: عاطفة، و «ما» نافية تعمل عمل ليس، و(أحدٍ) في محل رفع اسمها، و «حاجزين» خبرها منصوب بالياء. أي ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ أيا كان ﴿عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ يحجزون عنه عذابنا إذا استحق ذلك، ولا أحد منكم يمتنع منا إذا أردنا إهلاكه، لا بنفسه ولا بغيره.

وليس بيننا وبين أحد من الخلق نسب ولا حسب، وإنما المعول في ذلك تقوى الله وطاعته.

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥].

ولكنه ﷺ لم يتقول شيئاً من عند نفسه، ولم ينطق بشيء مما جاء به عن الهوى كما قال عز وجل ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٣، ٤].

ولهذا كان يقول ﷺ: «من يمنعني حتى أبلغ رسالة ربي»[(١)].

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي القرآن الكريم ﴿لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: لتذكير وموعظة للمتقين، يتذكرون به عظمة الله عز وجل، وأسماءه وصفاته وأفعاله وثوابه وعقابه ووعده ووعيده، وأمره ونهيه وما أعده لأوليائه من الجنان والنعيم، وما أعده لأعدائه من النار والجحيم، يتذكرون به أمور دينهم ودنياهم وأخراهم.

و«المتقين» الذين يتقون الله عز وجل بفعل أوامره وترك نواهيه.

وخص المتقين لأنهم هم الذين ينتفعون به ويتذكرون كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ أي: وإنا لنعلم - أنه مع هذا البيان والوضوح سيوجد منكم أيها الناس من يكذب بالقرآن، وهم لا يخفون علينا، فسنجازيهم بتكذيبهم، وفي هذا وعيد وتهديد لهم، وتكلم ـ عز وجل ـ عن نفسه بضمير العظمة في قوله (وإنا) وفي قوله (لقطعنا) لأنه العظيم سبحانه.

﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (وإنه) أي: التكذيب بالقرآن والرسالة ﴿لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: أسى وندامة على الذين كذبوا وكفروا يوم القيامة حيث لا ينفع الأسى والندم ذلك اليوم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام: ٢٧].

ويحتمل أن يعود الضمير في قوله ﴿إِنَّهُ﴾ إلى القرآن.

قال ابن كثير[(٢)]: «ويحتمل عود الضمير على القرآن أي: وإن القرآن والإيمان به

(١) أخرجه أبو داود في السنة ٤٧٣٤، والترمذي في فضائل القرآن ٢٩٢٥، وابن ماجه في المقدمة ٢٠١ من حديث جابر رضي الله عنه وقال الترمذي «حديث حسن صحيح».

(٢) في «تفسيره» ٨/٢٤٦.

لحسرة في نفس الأمر على الكافرين، كما قال: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [الشعراء: ٢٠٠، ٢٠١]، وقال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤]». ويقوي هذا قوله بعد ذلك: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾.

وقال ابن القيم[١]: «إن رسوله وكلامه حسرة على الكافرين إذا عاينوا حقيقة ما أخبر به كان تكذيبهم عليهم من أعظم الحسرات حين لا ينفعهم التحسر، وهكذا كل من كذب بحق وصدّق بباطل فإنه إذا انكشف له حقيقة ما كذب به وصدق به كان تكذيبه وتصديقه حسرة عليه، كمن فرط فيما ينفعه وقت تحصيله حتى إذا اشتدت حاجته إليه وعاين فوز المحصلين صار تفريطه عليه حسرة».

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: وإن القرآن ﴿لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ و«اللام» للتوكيد ومعنى ﴿لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: أعلى مراتب العلم.

أي: إن القرآن للحق المتيقن، والخبر الصدق، الذي لا مرية فيه ولا شك ولا ريب كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝﴾ [البقرة: ٢]، وقال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ [السجدة: ٢]، وأيضا هو حق اليقين لما فيه من الحقائق والمعارف الإيمانية والبراهين القطعية.

قال السعدي[٢]: «فأعلى مراتب العلم: اليقين، وهو العلم الثابت الذي لا يتزلزل ولا يزول، و«اليقين» مراتبه ثلاث، كل واحدة أعلى مما قبلها، أولها: علم اليقين، وهو العلم المستفاد من الخبر، ثم عين اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة البصر، ثم حق اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة الذوق والمباشرة».

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: بقولك: سبحان ربي العظيم. والذي معناه تنزيه الرب عن النقائص والعيوب، وعن مشابهة المخلوقين وعما لا يليق بجلاله.

و«العظيم» من أسماء الله ـ عز وجل على وزن «فعيل» يدل على إثبات صفة العظمة له ـ عز وجل، أي: الذي لا أعظم منه، وله الكبرياء والعظمة. فعظمه بعبادته والخضوع له وتقواه حق تقاته وذكر أوصاف جلاله ونعوت كماله.

رُوِيَ بسند فيه انقطاع عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «خرجت أتعرض

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/١٨.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/٤٦٨.

رسول الله ﷺ قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقمت خلفه، فاستفتح سورة الحاقة، فجعلت أعجب من تأليف القرآن قال: فقلت: هذا والله شاعر، كما قالت قريش، قال: فقرأ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ قال: فقلت: كاهن، قال: فقرأ: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ (٥٢)﴾، قال: فوقع الإسلام من قلبي كل موقع»[1].

الفوائد والعبر:

١ ـ إقسام الله عز وجل بما يُرى وبما لا يُرى ـ وهو أعظم قسم في القرآن ـ على تعظيم القرآن الكريم وأنه تنزيل من رب العالمين، نزّله الله عز وجل على رسوله محمد ﷺ، وليس بقول شاعر ولا كاهن، وذم الذين لا يؤمنون ولا يتذكرون.

٢ ـ أن لله ـ عز وجل ـ أن يقسم بجميع مخلوقاته وبما شاء منها.

٣ ـ إثبات علو الله عز وجل على خلقه علو الذات وعلو الصفات، وربوبيته العامة للعالمين.

٤ ـ أن القرآن كلام الله عز وجل منزل من عنده، وليس بمخلوق كما تقول المعتزلة ومن سلك مسلكهم الضال.

٥ ـ ثناء الله ـ عز وجل ـ على رسوله ﷺ والرد على من يزعمون أنه تقوّل القرآن من عند نفسه، وبيان عدم استطاعة الرسول ﷺ لا هو ولا غيره التقول على الله والكذب عليه، ولو تقول عليه متقول لأهلكه، لأن الله عز وجل لا يخفى عليه شيء ولا يعجزه شيء.

٦ ـ لا أحد يستطيع أن يمتنع من الله ـ عز وجل وعذابه.

٧ ـ أن القرآن الكريم تذكرة وموعظة وعبرة للمتقين.

٨ ـ علم الله عز وجل بأن من الناس من يكذب بالقرآن وما جاء به الرسول ﷺ، والوعيد والتهديد لهم.

٩ ـ أن التكذيب بالقرآن حسرة وندامة على الكافرين لإعراضهم عنه.

١٠ ـ أن القرآن الكريم هو الحق المتيقن والخبر الصدق الذي لا شك فيه ولا مرية.

١١ ـ مشروعية تسبيح الله عز وجل بتعظيمه وعبادته، وتنزيهه عن النقائص والعيوب وعن مشابهة المخلوقين.

١٢ ـ تشريف النبي ﷺ وتكريمه بإضافة ضميره إلى اسم «الرب» عز وجل بربوبيته الخاصة لأوليائه.

١٣ ـ إثبات اسم الله ـ عز وجل «العظيم» وصفة العظمة التامة له عز وجل، ولهذا تكلم ـ عز وجل ـ عن نفسه بضمير العظمة «نا» في هذه الآيات.

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ١٧ – ١٨، وانظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٢٤٥.

تفسير سورة المعارج

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ۝١٨﴾.

قوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر (سال) بألف دون همز، وقرأ الباقون بألف وهمز.

ومعنى ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ﴾ دعا داع واستفتح مستفتح، تكذيباً واستبعاداً وتعجيزاً ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ الباء تدل على تضمين الفعل «سال» معنى فعل آخر نحو «استعجل» أو «أجيب» ونحو ذلك.

وهذا أولى من القول بتضمين الحرف معنى حرف آخر - وإن كان الجميع وارداً في القرآن الكريم - لأن تضمين الفعل معنى فعل آخر أكثر وروداً في القرآن الكريم فينبغي الحمل عليه، فهو أولى فيكون التقدير هنا: سأل سائل فأجيب بعذاب واقع، أو استعجل سائل بعذاب واقع.

﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ جار ومجرور متعلق «بواقع»، أي: كائن للكافرين لا محالة لاستحقاقهم ذلك بكفرهم وتمردهم، فمنه ما قد يعجل لهم في الدنيا ومنه ما يدخر لهم في الآخرة.

كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٢﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝١٦﴾ [ص: ١٦].

رُوي عن ابن عباس: «أن قوله تعالى ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ﴾ الآيات نزلت في النضر بن الحارث بن كلدة»[1]. والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

(١) اخرجه ابن ابي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٧٣.

﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ أي: ليس لهذا العذاب دافع يدفعه، ولا راد يرده ويمنعه عنهم قبل نزوله، ولا يرفعه عنهم بعد نزوله، كما قال تعالى ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝﴾ [الطور: ٧، ٨].

﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: هذا العذاب واقع بهم من الله عز وجل فهو الذي يوقعه بهم فلا يستطيعون له دفعاً ولا منعاً.

﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ أي: صاحب السموات والعلو والجلال والعظمة والدرجات، والفواضل والنعم.

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ قرأ الكسائي: (يعرج) بالياء على التذكير، وقرأ الباقون بالتاء على التأنيث (تعرج).

أي: تصعد الملائكة والروح إليه عز وجل.

والملائكة: هم خلق من خلق الله عز وجل خلقهم الله من نور يعبدون الله، ويأتمرون بامره، ولا يعصونه كما قال عز وجل: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝﴾ [التحريم: ٦]، وقال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝﴾ [الأنبياء: ٢٠].

والروح، هو جبريل عليه السلام ملك الوحي كما قال عز وجل ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝﴾ [الشعراء: ١٩٣]، فيكون عطفه على الملائكة من باب عطف الخاص على العام، ويؤيد هذا ويقويه قوله عز وجل في سورة القدر ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝﴾ [القدر: ٤].

ومعنى ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ أي: تصعد الملائكة، وجبريل عليهم السلام إليه عز وجل بما وكل إليهم من الأمر.

ويحتمل أن يكون «الروح» اسم جنس لأرواح بني آدم، لأن الروح إذا قبضت يُصعد بها إلى السماء، فأما روح المؤمن فما يزال يُصعد بها من سماء إلى سماء حتى تصل إلى السماء السابعة بقربه عز وجل، وأما روح الكافر فتغلق دونها أبواب السماء فتعاد إلى الأرض.

كما في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال على الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه». وذكر قبض روحه ثم قال: «فيصعدون بها، فلا يمرون - يعني بها - على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟»..إلى أن قال: «حتى ينتهى به إلى السماء

الدنيا فيستفتحون له، فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهى به إلى السماء السابعة»، قال: «وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة سود الوجوه». وذكر قبض روحه ثم قال: «فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟» إلى أن قال: «حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا فيستفتح له، فلا يفتح له..» الحديث[١].

﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وهو يوم القيامة.

عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾ قال: «لو قدرتموه لكان خمسين ألف سنة من أيامكم، قال: يعني يوم القيامة»[٢].

وعن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: فهذا يوم القيامة، جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة»[٣].

وهكذا دلت السنة على هذا المعنى كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب كنز لا يؤدي زكاته إلا أحمي عليه في نار جهنم فيجعل صفائح فيكوى بها جنباه وجبينه حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار» الحديث[٤].

وعن أبي سعيد رضي الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ: «﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ما أطول هذا، فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن، حتى يكون أخف عليه من الصلاة المكتوبة يصليها في الدنيا»[٥].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قوله ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: «منتهى أمره من أسفل الأرضين إلى منتهى أمره من فوق سبع سموات ﴿مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، ويوم كان مقداره ألف سنة يعني بذلك نزول الأمر من السماء إلى الأرض،

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢٨٧، ٢٩٥ – ٢٩٦.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٧٤، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٤٩، وقال: «إسناده صحيح».
(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٢٥٣.
(٤) أخرجه مسلم في الزكاة ـ إثم مانع الزكاة ٩٨٧، وأبو داود في الزكاة ـ باب في حقوق المال ١٦٥٨، والنسائي في الزكاة ـ التغليظ في حبس الزكاة ٢٤٤٨، وأحمد ٢/ ٢٦٢، ٤٨٩ – ٤٩٠.
(٥) أخرجه أحمد ٣/ ٧٥، وابن حبان ٧٣٣٤، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٢٥٣، وأبو يعلى ١٣٩٠.

ومن الأرض إلى السماء في يوم واحد، فذلك مقداره ألف سنة، لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام ﴾»[1].

قال السعدي[2] في كلامه على قوله تعالى ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾: «ثم ذكر المسافة التي تعرج فيها الملائكة والروح إلى الله، وأنها تعرج في يوم بما يسر الله لها من الأسباب، وأعانها عليه من اللطافة والخفة وسرعة السير مع أن تلك المسافة على السير المعتاد مقدار خمسين ألف سنة، من ابتداء العروج إلى بلوغها ما حدلها وما تنتهي إليه من الملأ الأعلى ـ إلى أن قال: «هذا أحد الاحتمالات في تفسير هذه الآية الكريمة فيكون هذا العروج والصعود في الدنيا لأن السياق الأول يدل عليه، ويحتمل أن هذا في يوم القيامة لكن الله تعالى يخففه على المؤمن».

﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ أي: اصبر يا محمد على طاعة الله ـ عز وجل، وعلى دعوة قومك، وعلى أقدار الله المؤلمة ومن ذلك أذى قومك وتكذيبهم لك واستعجالهم العذاب.

﴿صَبْرًا جَمِيلًا﴾ «صبرا» مصدر مؤكد، و«جميلاً» صفة له.

والمعنى: صبراً لا جزع فيه ولا قلق، ولا ملل ولا تَضَجُّر، ولا شكوى فيه لغير الله كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨]. وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝﴾ [الشعراء: ٣].

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ «إنهم» يعني المشركين والمكذبين للنبي ﷺ.

﴿يَرَوْنَهُ﴾ أي: يرون العذاب وقيام الساعة ﴿بَعِيدًا﴾ أي: مستحيل الوقوع وينكرونه، ولهذا استعجلوا وقوعه، قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

﴿وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ أي: أنه عز وجل يرى قيام الساعة ووقوع العذاب قريباً لأنه رفيق حليم لا يعجل، ويعلم أنه لا بد أن يكون، كما أخبر به عز وجل فقال: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝﴾ [القمر: ١].

وكذلك المؤمنون يعتقدون قرب ذلك، لأن الله أخبر بذلك فهو آت، وكل آت

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٧٣.
(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٤٧٠ - ٤٧١.

قريب، ولأن عمر الإنسان قصير، وكذلك عمر الدنيا كلها قصير بما في ذلك حياة البرزخ بالنسبة للآخرة.

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ أي: أن قيام الساعة ووقوع العذاب الذي يستعجلونه، والذي هو قريب يكون ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾.

و«المهل» دردي وعكر الزيت المغلي، أو الرصاص المذاب والفضة المذابة و«العهن» الصوف المنفوش كما قال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾ [القارعة: ٥].

فمن علامات قيام الساعة ووقوع العذاب كون السماء المحبوكة الشديدة العظيمة الخلقة تذوب فتكون كالزيت المغلي في الذوبان والحمرة أو كالرصاص المذاب، وكون الجبال الشامخات الراسيات كالصوف المنفوش في الخفة، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ [النبأ: ٢٠]، ثم تكون بعد ذلك هباءً منثوراً.

وإذا كانت السماء والجبال مع عظمة خلقهما يعتريهما ما يعتريهما من التبدل والتغير، فكيف بالإنسان المخلوق الضعيف، ولهذا قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾ [النازعات: ٢٧].

﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ قرأ أبو جعفر (ولا يُسأل) أي: ولا يُطلب بعضهم من بعض، فلا يقال للحميم أين حميمك، وقرأ الباقون (ولا يَسأل).

أي: ويوم لا يسأل قريب قريبه عن حاله لانشغال كل بنفسه، والحميم: القريب المشفق كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [القصص: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٧]، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [لقمان: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [غافر: ١٨].

فالناس في الدنيا وبخاصة الأقارب يتناصرون فينصر بعضهم بعضا، وربما بالباطل لكن في ذلك اليوم هيهات لا أحد ينصر أحدا.

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي: يُبصَّر الأقارب بعضهم بعضا ويُعَرَّف بعضهم بعضا، ولا ينفع أحد أحداً، بل يفر بعضهم من بعض.

﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾ أي: يحب ويتمنى من اكتسب الجرائم من الكفر والذنوب والمعاصي وحق عليه العذاب.

﴿لَوْ يَفْتَدِى﴾ أي: لو يتخلص وينجو ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾ أي: من عذاب ذلك اليوم يوم القيامة ﴿بِبَنِيهِ﴾ أي: بأبنائه، وخص الأبناء دون البنات، لأنهم أغلى ما يملك، ويعدون للدفع والمنع في الدنيا غالباً أما في الآخرة فهم والبنات سواء لا يملكون شيئاً من ذلك.

﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ زوجته التي قد تكون أحب الناس إليه، ولا يرضى في الدنيا أن تنظر إليها العيون، ويقدم نفسه فداءً لها و حفاظاً عليها في ذلك اليوم يوم القيامة يود لو قدمها فداء لنفسه.

﴿وَأَخِيهِ﴾ الأخ من اشترك معك في أصليك «أبيك وأمك» وهو الشقيق، أوفي أحدها وهو الأخ لأب، أو الأخ لأم. والأخ من أهم من يعد في الدنيا للمناصرة وفي الحديث «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»[1] وإن كان الحديث عاماً في أخوة الإسلام لكن يدخل فيه دخولاً أولياً من جمع بين الأخوتين أخوة الإسلام وأخوة النسب.

ويقول شاعرهم:

أخـاك أخـاك إن مـن لا أخـا لـه ... كسـاع إلى الهيجـا بغـير سـلاح[2]

﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ أي: وعشيرته الأقربين ﴿ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾ أي: التي تضمه في النسب وتنصره وتدافع عنه في الشدة ويأوي إليها.

﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ويود لو يفتدي من العذاب بكل الذين في الأرض جميعاً ولو كان أغلى ما لديه.

﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ أي: ثم يخلصه ذلك الفداء من عذاب ذلك اليوم، أو ثم يخلصه الله عز وجل مقابل ذلك الفداء من عذاب ذلك اليوم.

قال ابن كثير[3]: «أي: لا يقبل منه فداء، ولو جاء بأهل الأرض، وبأعز ما يجده من

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم ٢٤٤٣، والترمذي في الفتن ٢٢٥٥ ـ من حديث أنس ـ رضي الله عنه.

(٢) البيت للربيع بن ضبع الفزاري.

(٣) في «تفسيره» ٨/ ٢٥٢.

المال، ولو بملء الأرض ذهباً، أو من ولده الذي كان في الدنيا حشاشة كبده يود يوم القيامة إذا رأى الأهوال أن يفتدي من عذاب الله به، ولا يقبل منه».

﴿كَلَّآ﴾ للردع والزجر والنفي أي: ليس له ما يود.

﴿إِنَّهَا﴾ أي: النار ﴿لَظَىٰ﴾ اسم من أسماء النار، سميت به، لشده لظاها واشتعالها وحرارتها.

﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ قرأ حفص عن عاصم (نزاعةً) بالنصب، وقرأ الباقون بالرفع (نزاعةٌ)، أي: تنزع الشوى وهو جلدة الراس، أو ما دون العظم من اللحم، أو مكارم وجهه، وأطرافه، فهي تنزع اللحم حتى تصل إلى العظم، بل حتى تنفد إلى القلب، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ [الهمزة: ٧].

والمعنى: ﴿كَلَّآ﴾ ليس له ما يود، وليس له إلا النار الموصوفة بما ذكر.

﴿تَدْعُوا۟﴾ أي: تنادي النار إلى نفسها ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ أي: الذي أدبر عن الإيمان فكذب به بقلبه ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: أعرض عنه بجوارحه فلم يستعملها في طاعة الله، بل استعملها في معصية الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الفرقان:١٢]، وقال تعالى: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾﴾ [الملك: ٧].

قال ابن كثير[١]: «تدعوهم يوم القيامة بلسان طلق ذلق، ثم تلتقطهم من بين أهل المحشر، كما يلتقط الطير الحب».

﴿وَجَمَعَ﴾ أي: جمع المال بعضه على بعض، وربما من أي طريق كان ﴿فَأَوْعَىٰٓ﴾ أي: جعله في أوعية وصناديق وأوكاه بالأقفال، ومنع حق الله فيه من الزكاة والنفقات الواجبة والمستحبة فجمع بين الإدبار والتكذيب بقلبه، والتولي عن العمل بجواحه والانكباب على الدنيا وجعلها أكبر همه.

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما أنها جاءت إلى النبي ﷺ فقال: «لا توعي فيوعي الله عليك ارضخي ما استطعت»[٢].

وكان عبد الله بن عكيم – رضي الله عنه – لا يربط كيسه، ويقول: سمعت الله

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٥٢.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة ـ الصدقة فيما استطاع ١٤٣٤، ومسلم في الزكاة – الحث على الإنفاق وكراهة الإحصاء ١٠٢٩.

يقول: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾(١).

وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى: «يا ابن آدم، سمعت وعيداً، ثم أوعيت الدنيا»(٢).

ومن هنا ينبغي أن يحذر الإنسان من فتنة المال والدنيا، فكم زلت بسبب ذلك من أقدام. وقد حذر منها المصطفى ﷺ فقال: «والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم»(٣) وهذا هو واقع كثير من أصحاب الأموال.

الفوائد والعبر:

١ ـ سؤال الكافرين العذاب واستعجالهم به استبعاداً لوقوعه وتكذيباً به وهو واقع من الله بهم لا محالة ولا دافع يدفعه عنهم.

٢ ـ علو الله وعظمته وجلاله وإفضاله وإنعامه لقوله ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾.

٣ ـ إثبات وجود الملائكة، وفضل جبريل من بينهم، وعروجهم إلى الله عز وجل.

٤ ـ إثبات يوم القيامة وطوله لقوله ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

٥ ـ أمر النبي ﷺ بالصبر الجميل على طاعة الله تعالى وعلى أقداره المؤلمة ومن ذلك الصبر على الأذى في سبيل الدعوة إلى الله عز وجل، وهو أمر له ولكل من سلك طريقه من أمته.

٦ ـ تعظيم الله ـ عز وجل ـ لنفسه لقوله (ونراه) وهو العظيم سبحانه.

٧ ـ قرب قيام الساعة وعذاب المكذبين، لأن ذلك آت لا محالة وكل آت قريب، ولأن عمر الإنسان بل عمر الدنيا ليس بشيء بالنسبة للآخرة.

٨ ـ شدة أهوال يوم القيامة وكرباته وانشغال كل قريب عن قريبه مع إبصار بعضهم بعضا.

٩ ـ تمني المجرم أن يفتدي من عذاب ذلك اليوم بأعز الناس عليه وأقربهم إليه، وغيرهم ولكن هيهات ليس له ذلك.

١٠ ـ شدة النار ولظاها وعذابها ومناداتها على أصحابها ممن أدبر وتولى عن الإيمان وكان همه جمع الحطام وكنزه.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٢٦٥.

(٢) ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٥٣.

(٣) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠١٥، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦١، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٦٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٩٧ ـ من حديث عمرو بن عوف ـ رضي الله عنه.

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة بعض أهوال يوم القيامة وحال المجرمين فيها، وتمنيهم التخلص من عذاب ذلك اليوم، وأن لظى مرصدة تدعو كل من أدبر عن الإيمان فكذب به بقلبه، وأعرض عنه بجوارحه، وجعل همه الدنيا ثم أتبع ذلك ببيان ضعف الإنسان عموما فهو جزوع إن أصابه الشر، ومنوع إن أصابه الخير إلا المؤمنين المصلين الذين ذكر الله صفاتهم في هذه الآيات، فهم عند المصيبة يصبرون، وعند الخير لا يمنعون.

قوله: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ أي: إن الإنسان عموماً، أي: جنس الإنسان ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾ أي: أوجد حال كونه هلوعاً.

وقد فسر عز وجل قوله ﴿هَلُوعًا﴾ بقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ وهذا من تفسير القرآن بالقرآن.

أي: إذا أصابه الشر والضر من فقر أو مرض أو ذهاب محبوب له من أهل أو ولد أو مال وغير ذلك ﴿جَزُوعًا﴾ أي: كثير الجزع والضجر والأسى. وربما حمله ذلك على فعل ما لا تحمد عقباه من لطم الخدود وشق الجيوب، وربما أدى به ذلك إلى الانتحار - كما هو مشاهد معلوم - نسأل الله السلامة والعافية.

قال ابن كثير[1]: «أي: إذا أصابه الضر فزع وجزع وانخلع قلبه من شدة الرعب، وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير».

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ﴾ أي: وإذا حصل له الخير بأن أنعم الله عليه بالمال ونحو ذلك ﴿مَنُوعًا﴾ شديد الحرص كثير المنع والإمساك بمنع حق الله في ذلك فيجزع في الضراء

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٥٣.

ويمنع في السراء.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «شر ما في رجل: شح هالع، وجبن خالع»[1].

﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ أي: إلا المؤمنين المصلين الموصوفين بما ذكر بعد من الصفات فهم مستثنون مما ذكر لأنهم بتوفيق الله لهم يصبرون عند الضراء ويشكرون عند السراء، لأنهم يأوون إلى ركن شديد وحصن منيع وهو إيمانهم بالله عز وجل وتوكلهم عليه، ومن توكل على الله كفاه.

قال ابن كثير[2]: «أي: الإنسان من حيث هو متصف بصفات الذم إلا من عصمه الله ووفقه وهداه إلى الخير ويسر له أسبابه».

وقال (إلا المصلين) ولم يقل: إلا المؤمنين، لأن الصلاة عمود الإسلام وأفضل العبادات وأعظمها ولا يقيمها ويحافظ عليها إلا من كان مؤمنا.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ أي: الذين هم على صلاتهم مواظبون يؤدونها في أوقاتها من غير تقديم ولا تأخير، بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها. فهذه هي الصلاة التي تنفع صاحبها، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، فلا يجزع صاحبها عند المصيبة ولا يمنع ما آتاه الله من خير، وما عداها فلا، وكم من مصل لكنه لا يتذوق هذه المعاني لخلل في صلاته، والله المستعان.

لهذا أكد هذا المعنى في آخر صفاتهم في هذه الآيات فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾، وقال تعالى في سورة المؤمنون: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝﴾ [الآيتان: ١ ، ٢].

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «يا أيها الناس عليكم من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا، وأحب الصلاة إلى النبي ﷺ ما دُووِمَ عليه، وإن قلت، وكان إذا صلى صلاة داوم عليها»[3].

﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ أي: في أموالهم حق محدد ونصيب مقرر مقدر من

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد - باب في الجرأة والجبن ٢٥١١، وأحمد ٢/ ٣٢٠.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٥٤.

(٣) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٧٠، ومسلم في صلاة المسافرين ٧٨٢، وأبو داود في الصلاة ١٣٦٨، والنسائي في القبلة ٧٦٢، وابن ماجه في الزهد ٤٢٣٨، وأحمد ٦/ ١٧٦، ١٨٠.

الزكاة والنفقات الواجبة والمستحبة.

﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ السائل: الذي يسأل الناس أي: يبتدئ بالسؤال، وله حق، كما جاء في الحديث: «للسائل حق وإن جاء على فرس»[(١)].

«والمحروم» الذي لا يسأل مع فقره وحاجته، ولا يفطن له فيتصدق عليه فهو محروم من العطاء لتعففه عن السؤال.

﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: والذين يصدقون ويوقنون بيوم القيامة والمعاد والحساب والجزاء على الأعمال، وإدانة كل بما عمل، ولهذا استعدوا له بالأعمال الصالحة. والتصديق بيوم الدين يستلزم التصديق بالرسل وبما جاؤوا به من الكتب.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون وجلون، كما قال الله عنهم ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور: ٢٦ ـ ٢٨].

وفي هذا أبلغ الرد على غلاة الصوفية الذين يقول قائلهم: لا أعبده خوفاً من ناره ولا رجاء في جنته، وإنما أعبده محبة له، فالمؤمن الحق يعبد الله محبة له وخوفاً من عذابه ورجاءً في ثوابه.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ أي: هو العذاب الذي يخشى ويحذر، ولا يأمنه أحد ممن عقل عن الله عز وجل أمره إلا بأمان من الله عز وجل.

ولهذا قال ﷺ: «لن يدخل أحداً عملُه الجنة قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: لا، ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل، فسددوا وقاربوا»[(٢)].

وفي خبر الإسرائيلي الذي عبد الله خمسمائة سنة وأخرج الله عز وجل له الرمانة ينزل كل يوم يأخذ منها، فلما قال الله عز وجل لملائكته أدخلوا عبدي الجنة برحمتي، قال: لا يا رب بل بعملي فوجد أن عمله طيلة خمسمائة سنة لا يعادل نعمة البصر، فقال الله عز وجل: أدخلوا عبدي النار بعدلي، فقال: لا يارب أدخلني الجنة برحمتك فأدخل

---

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة ـ حق السائل ١٦٦٥، وأحمد ٢٠١/١ من حديث علي بن أبي طالب وحسين بن علي رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١٦ ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الجنة»[1].

فالعمل الصالح سبب لدخول الجنة، وليس بعوض لذلك، وإنما دخول الجنة برحمة أرحم الراحمين سبحانه وتعالى، فالعبد المؤمن في هذه الحياة بين الخوف والرجاء، لا يأمن من مكر الله، ولا ييأس من روح الله.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ أي: حافظون لها عن الحرام من الزنا واللواط وإتيان الزوجات في أدبارهن وفي الحيض والنفاس، وإتيان البهائم والاستمناء باليد، والسحاق بين النساء، ومن كشف الفروج والنظر إليها وغير ذلك، ومن لازم ذلك غض الأبصار عن النظر إلى ما حرم الله تعالى من نظر الرجال إلى النساء والمردان، ومن نظر النساء إلى الرجال ونحو ذلك من الوسائل الداعية إلى فعل الفاحشة.

﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ «إلا» أداة استثناء.

أي: إلا على ما أباح الله لهم من أزواجهم أو ما ملكته أيمانهم من الإماء، فالأزواج أباح الله لهم ذلك بعقد النكاح بينهم، وما ملكته أيمانهم أباحهن الله لهم بملك اليمين.

﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ أي: فإنهم لا لوم عليهم في ذلك، لأن الله أباح الأزواج بعضهم لبعض بعقد النكاح بينهم، وأباح ملك اليمين من الإماء بعقد الملك.

﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ﴾ أي: فمن طلب غير وخلاف ذلك، والإشارة لقوله ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي: فمن طلب إشباع الشهوة في غير ما أباح الله وهو ما بين الزوجين، وبين السيد وأمته.

﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أي: فأولئك هم العادون على حدود الله، المجاوزون الحلال إلى الحرام كالزنا واللواط ونكاح المتعة ونحو ذلك.

وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيراً لهم، وأكد عظم اعتدائهم وجرمهم وتجاوزهم لحدود الله بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم».

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ الأمانات: جمع أمانة وهي تشمل كل ما ائتمن عليه الإنسان مما بينه وبين ربه من التكاليف الشرعية وغيرها، ومما بينه وبين الخلق

---

(١) أخرجه الحاكم في التوبة والإنابة ٤/ ٢٥٠ ـ من حديث جابر ـ رضي الله عنه. وقال: «صحيح الإسناد» وضعفه الذهبي. وقال ابن القيم في «شفاء العليل» ١/ ١١٤: «إسناده صحيح، ومعناه صحيح لا ريب فيه».

من الأموال والأعمال والأسرار وغير ذلك.

أي: والذين يرعون الأمانات، فيؤدون الأمانات إلى أهلها امتثالاً لقول الله عز وجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]. ولتعظيم الله عز وجل لها كما قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ولأمره ﷺ بأدائها قال ﷺ: «أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك»[١].

ويرعون العهود، وهي المواثيق والعقود التي بينهم وبين الله عز وجل، والتي بينهم وبين الخلق، فيؤدون حقوق الله امتثالاً لقول الله عز وجل ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١]، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

فمن أخص صفات المؤمنين رعاية الأمانات والعهود كما قال تعالى في سورة المؤمنون ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ [الآية: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾﴾ [الرعد: ٢٠].

كما أن الخيانة ونقض العهود من أخص صفات الكافرين والمنافقين كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»[٢].

وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: «إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[٣].

---

(١) أخرجه أبو داود في البيوع ٣٥٣٥، والترمذي في البيوع ١٢٦٤، والدارمي في البيوع ٢٥٩٧، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ٣٣، ومسلم في الإيمان - بيان خصال المنافق ٥٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٢١، والترمذي في الإيمان ٢٦٣١.

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان ٣٤، ومسلم في الإيمان ٥٨، وأبو داود في السنة ٤٦٨٨، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٢٠، والترمذي في الإيمان ٢٦٣٢.

﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ قرأ يعقوب وحفص عن عاصم بألف بعد الدال على الجمع (بشهاداتهم) وقرأ الباقون بغير ألف على الأفراد (بشهادتهم).

أي: يؤدون ما تحملوا من الشهادات على وجهها وبتمامها، من غير كتمان ولا زيادة ولا نقصان، على أنفسهم وعلى القريب والبعيد، وعلى العدو والصديق، لهم وعليهم، امتثالاً لقول الله عز وجل: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢]، وقوله تعالى: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠].

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي: يحافظون على صلاتهم بأدائها في أوقاتها من غير تقديم ولا تأخير، بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها.

وقد خص الله عز وجل هذه الصفات لفضلها، وافتتحها بذكر الصلاة واختتمها بذكر الصلاة في هذه السورة وفي سورة «المؤمنون» وذلك لفضل الصلاة وعظم منزلتها في الإسلام فهي عمود الإسلام والركن الثاني من أركانه، قال ﷺ: «استقيموا، ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»[1].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها»، قلت: ثم أي؟، قال: «بر الوالدين»، قلت: ثم أي؟، قال: «الجهاد في سبيل الله»[2].

وفي الآية الأولى منهما وصف المؤمنين بالديمومة على الصلاة، فقال: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ وفي الآية الأخيرة منهما وصفهم بالمحافظة عليها فقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ فوصفهم أولاً بالديمومة على الصلاة، ووصفهم ثانياً بالمحافظة عليها، كما وصفهم في سورة المؤمنون أولاً بالخشوع فيها، ووصفهم ثانياً بالمحافظة عليها وفي هذا ما لا يخفى من تأكيد عنايتهم بها.

وقد جمع الله للموصوفين بما ذكر سبع صفات عظيمة وهي: المداومة والمحافظة على

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الطهارة وسننها - المحافظة على الوضوء ٢٧٧، وأحمد ٥/ ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٨٢ - من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة - فضل الصلاة لوقتها ٥٢٧، ومسلم في الإيمان - كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال ٨٥، والنسائي في المواقيت ٦١٠، والترمذي ١٧٣.

الصلاة، وأداء حق المال من الزكاة والنفقات والصدقات والتصديق بيوم القيامة والحساب والجزاء على الأعمال، والإشفاق من عذاب ربهم، وحفظ فروجهم عن الحرام، ورعاية الأمانات والعهود، وإقامة الشهادات بالحق.

وقد ذكر عز وجل هذه الصفات بأوسع من هذا في مطلع سورة المؤمنون فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾ [المؤمنون: ١ ـ ١١].

قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي: أولئك الموصوفون بتلك الصفات ﴿فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ وأشار إليهم بإشارة البعيد تعظيماً لهم.

ونكّر «جنات» تعظيماً لها، وهي جنات الفردوس التي أعدها الله عز وجل لنزل أوليائه المتقين وحزبه المفلحين، كما قال تعالى في نهاية هذه الصفات في سورة المؤمنون ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾ [الآيتان: ١٠ ، ١١].

ولهذا جاء في الحديث: «فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن»[1].

﴿مُّكْرَمُونَ﴾ أي: لهم فيها أنواع الكرامة والنعيم الحسي والمعنوي كما قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ۝٤١ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ۝٤٢﴾ [الصافات: ٤١ ، ٤٢].

الفوائد والعبر:

١ ـ ضعف الإنسان أمام نوازع الشر والخير، فلا قوة له أمام ذلك إلا بالإيمان والقيام بمقتضاه، وأهم ذلك الصلاة، وغيرها من الصفات المذكورة. ففي ذلك الحصانة التامة بإذن ـ عز وجل.

٢ ـ أن الصلاة والمداومة عليها وحفظها مع الصفات المذكورة أكبر معين بتوفيق الله ـ عز وجل ـ على الثبات أمام تقلبات الحياة والصبر عند الضراء وعدم الجزع، والشكر عند

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد ـ درجات المجاهدين في سبيل الله ٢٧٩٠ ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وعدم المنع.

٣ ـ أن من لم يداوم على الصلاة ويحفظها بشروطها وواجباتها وأركانها وما استطاع من سننها فإنها لا تنفعه.

٤ ـ بيان صفات المؤمنين كاملي الإيمان، وهي: المداومة على الصلاة، وإيتاء الزكاة، والتصديق بيوم القيامة، والخوف من عذاب الله، وحفظ فروجهم إلا فيما أباح الله لهم، وحفظ أماناتهم وعهودهم ورعايتها، وقيامهم بالشهادة وأداؤها على الوجه المطلوب وحفظ صلاتهم بإقامتها كما شرعها الله عز وجل ـ فأكرم بها وأنعم من أوصاف عظيمة وصفات كريمة بها السعادة في الدنيا والآخرة.

٥ ـ وجوب المداومة على الصلاة والمحافظة عليها بإقامتها تامة كما شرعها الله، وإيتاء الزكاة وغيرها من النفقات الواجبة لمستحقيها والترغيب في صلاة النوافل والصدقات.

٦ ـ وجوب الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من الجزاء على الأعمال، والخوف من عذاب الله عز وجل.

٧ ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة، للمؤمنين المتصفين بالصفات المذكورة.

٨ ـ وجوب حفظ الفروج عن الحرام.

٩ ـ إباحة وطء الأزواج وملك اليمين.

١٠ ـ وجوب حفظ الأمانات والعهود ورعايتها.

١١ ـ وجوب القيام بالشهادات وأدائها بتمامها.

١٢ ـ أن للموصوفين بهذه الصفات عند الله الجنات والكرامة فيها.

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله عز وجل صفات المؤمنين المصلين وما أعد لهم من الكرامة في الجنات، ثم أنكر على الكفار وتوعدهم وهددهم.

قوله: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ الفاء استئنافية، و«ما» اسم استفهام للإنكار عليهم والتعجب من حالهم (قبلك) أي: أمامك وحولك وعن يمينك وعن شمالك.

﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: مسرعين مادي أعناقهم، اغتراراً منهم بأنفسهم، واستهزاء به ﷺ وبدعوته.

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ جماعات متفرقين.

عن جابر بن سمرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خرج عليهم وهم حلق، فقال: «ما لي أراكم عزين؟»[1].

﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، أي: أيطمع كل واحد منهم.

﴿أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر مقدر، أي: أيطمع كل واحد منهم في إدخاله جنة يتنعم فيها.

﴿كَلَّآ﴾ ردع وزجر لهم، فليس لهم ما يطمعون به من دخول الجنة، بل ليس لهم إلا النار وبئس القرار.

﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: أوجدناهم من الذي يعلمون ولا تخفى عليهم مهانته وحقارته وضعفه، وهو المني، فهم ضعفاء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المرسلات: ٢٠ ـ ٢٣]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة – الأمر بالسكون في الصلاة ٤٣٠، وأحمد ٥/٩٣، ١٠١.

﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۝﴾ [القيامة: ٣٧ ـ ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝﴾ [الطارق: ٥ ـ ١٠]، وقال تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝﴾ [الواقعة: ٥٧]، فاحتج عليهم بخلقه لهم على وجوب توحيده ومعرفته.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ الفاء: استئنافية، و«لا» صلة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى، والتقدير: أقسم برب المشارق والمغارب.

والمراد: مشارق الشمس ومغاربها في الشتاء والصيف، ومشارق ومغارب سائر الكواكب[1].

وفي إقسامه عز وجل بربوبيته للمشارق والمغارب تعظيم لنفسه عز وجل وتنبيه على عظم وسعة خلقه وملكه وتدبيره.

﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ ۝ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ هذا هو جواب القسم، فاقسم عز وجل بربوبيته للمشارق والمغارب على قدرته على تبديل خير منهم.

أي: خيراً من هؤلاء الكفار بأن نذهب بهم ونأتي بقوم يؤمنون ولا يكفرون، ويطيعون ولا يعصون، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ۝﴾ [محمد: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ۝﴾ [النساء: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ۝﴾ [الإنسان: ٢٨].

ويحتمل أن المعنى: «إنا لقادرون على أن نبدل خيراً منهم» يوم القيامة بأن نعيدهم بأبدان خير من هذه الأبدان.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: وما نحن بمغلوبين ولا عاجزين ولن يفوتنا ذلك، أو يمتنع منا إذا أردناه، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ۝ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ۝﴾ [القيامة: ٣، ٤].

قال ابن القيم[2]: «وعبر عن هذا المعنى بقوله ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ لأن المغلوب يسبقه

---

(١) انظر الكلام على قوله تعالى في سورة الرحمن ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الآية: ١٧].
(٢) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٢٦.

الغالب فيفوت عليه».

﴿فَذَرْهُمْ﴾ الأمر للنبي ﷺ أي: فدع يا محمد هؤلاء الكافرين واتركهم ﴿يَخُوضُوا﴾ بالباطل بأقوالهم.

﴿وَيَلْعَبُوا﴾ أي: يضيعوا أعمارهم باللهو واللعب بأبدانهم وأفعالهم والتمتع بالدنيا بلا عمل صالح ينفعهم غداً.

قال ابن القيم[1]: «فالخوض في الباطل ضد التكلم بالحق، واللعب ضد السعي الذي يعود نفعه على ساعيه، فالأول ضد العلم النافع، والثاني ضد العمل الصالح، فلا تكلم بالحق، ولا عمل بالصواب، وهذا شأن كل من أعرض عما جاء به الرسول لا بد له من هذين الأمرين».

﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ أي: حتى غاية ملاقاتهم يوم القيامة، الذي وعدهم الله بمجيئه ومجازاتهم فيه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، وعند ذلك سيعلمون سوء عاقبة أمرهم وسيجازون على أعمالهم ويندمون حيث لا ينفع الندم، وفي هذا تهديد شديد لهم ووعيد أكيد.

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ هذا وما بعده وصف لحالهم في ذلك اليوم، و(الأجداث) القبور ﴿سِرَاعًا﴾ أي: مسرعين إلى الداعي أي: يوم يبعثون ويقومون من القبور مسرعين إلى أرض المحشر والحساب والجزاء، كما قال تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾ [القمر: ٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ۝٤٢﴾ [ق: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: ٦].

﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ قرأ ابن عامر وحفص عن عاصم (نُصُب) بضم النون والصاد، وقرأ الباقون (نَصْب) بفتح النون وإسكان الصاد أي: كأنهم في سرعة نهوضهم من قبورهم وسرعتهم إلى أرض المحشر ﴿إِلَىٰ نُصُبٍ﴾ و«النصب»: الصنم، أو العلم والغاية.

﴿يُوفِضُونَ﴾ يسرعون والإيفاض: الاستباق والإسراع. أي: كأنهم في سرعتهم إلى أرض المحشر يسرعون إلى أصنام، أو إلى أعلام وغايات يستبقون إليها أيهم يستلمها أولاً.

وفي الآية الثانية قال تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٥/ ٢٩.

﴿٧﴾ [القمر: ٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس: ٥١]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ [طه: ١٠٨] أي: كلهم يؤم صوت الداعي ويتبعه لا يعوج عنه.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي: ذليلة أبصارهم منكسرة خاضعة.

﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: تغشاهم ذلة ومهانة شديدة مقابل كفرهم واستكبارهم عن طاعة الله تعالى في الدنيا، لأن العز كل العز بطاعة الله تعالى، والذل كل الذل في معصية الله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

فجمع لهم بين ذل الظاهر بخشوع أبصارهم، وذل الباطن بما يغشاهم من الذل كما قال تعالى: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [يونس: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ [القيامة: ٢٤، ٢٥].

﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ﴾ أي: يوم القيامة، وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيماً وتفخيماً لأمره، أي: ذلك اليوم وهو يوم القيامة ﴿ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ أي: الذي كان المشركون يوعدون بمجيئه وهم به يكذبون وقد رأوه عياناً، وهذه حالهم فيه.

الفوائد والعبر:

١ ـ التعجب من حال المشركين والكفار والإنكار عليهم في إسراعهم قبل الرسول ﷺ جماعات عن اليمين وعن الشمال غروراً منهم، واستهزاء به ﷺ وبدعوته.

٢ ـ مدى سفه الكفار وعظم جهلهم حيث يطمعون بدخول الجنة والنعيم بلا عمل منهم سوى التكذيب بالحق ورده، والإنكار عليهم في ذلك وردعهم وزجرهم، وتذكيرهم بأصل خلقهم وضعفه وحقارته ومهانته.

٣ ـ أن حكمة الله عز وجل في إيجاد البشر تقتضي إثابة المطيع وعقوبة العاصي.

٤ ـ إقسام الله عز وجل بنفسه وهو رب المشارق والمغارب على قدرته على تبديل الكفار المكذبين بخير منهم، وأنه سبحانه لا يعجزه شيء.

٥ ـ أمر الله عز وجل لنبيه ﷺ بترك الكفار في خوضهم ولعبهم وتضييع أعمارهم حتى يرافوا يوم القيامة، وفي هذا تهديد شديد لهم ووعيد أكيد، وتسلية له ﷺ.

٦ ـ إثبات البعث وخروج الكفار مسرعين من قبورهم ذليلة أبصارهم تغشاهم ذلة وهوان يتسابقون إلى المحشر يوم القيامة.

٧ ـ الإشارة إلى شدة يوم القيامة وأهواله، وأنه اليوم الذي تُوعَد به الكفار والمشركون.

تفسير سورة نوح

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾.

هذه السورة سورة عظيمة تمثل منهج الدعوة إلى الله عز وجل كما هي طريقة نوح عليه السلام في دعوته لقومه من حيث تنويع الأساليب، والجمع بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد، والصبر وتحمل الأذى في سبيل الدعوة، والتوجه إلى الله عز وجل وشكوى الحال إليه سبحانه.

وقد أفرد عز وجل قصة نوح عليه السلام وحدها لطول لبثه فيهم وتكرار دعوته إلى التوحيد والتحذير من الشرك.

قوله: ﴿إِنَّآ﴾ تكلم عز وجل عن نفسه بضمير العظمة لأنه العظيم سبحانه وتعالى، له كمال العظمة والكبرياء.

﴿أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ أي: بعثناه ليؤدي رسالتنا إليهم.

والرسول: هو من أوحي إليه بشرع وامر بتبليغه.

ونوح: هو أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض بعد آدم، وآدم نبي وليس برسول.

وهو نوح بن لامَكَ، وهو أحد أولي العزم الخمسة قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب: ٧].

﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ «أن» حرف مصدري ونصب، اي: بأن انذر قومك، أو: لأجل أن تنذر قومك.

والإنذار هو: الإعلام مع التخويف والتحذير، أي: أن أعلم قومك وخوفهم وحذرهم.

﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ اي: من قبل أن يحل بهم عذاب مؤلم موجع لهم حساً ومعنى في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ: ٤٦].

﴿قَالَ يَـٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ﴾ صدر خطابه عليه السلام لهم بالنداء تنبيهاً لهم وتعظيماً للأمر، والقوم: هم الجماعة الكثيرة من الناس رجالاً ونساء.

﴿لَكُمۡ﴾ أي: لا لغيركم كما قال ﷺ: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»[1].

﴿نَذِيرٞ﴾ أي: منذر ومحذر ومخوف ﴿مُّبِينٌ﴾ بين النذارة واضح البرهان، أي: بيّن في نفسه أنه نذير، ومبين ما أرسل للإنذار والتخويف منه كما قال ﷺ: «إني أنا النذير العريان»[2].

﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: بأن اعبدوا الله وحده بالخضوع والتذلل له وإخلاصه بالعبادة.

﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ بفعل أوامره وترك نواهيه والتي من أعظمها الشرك ووسائله.

﴿وَأَطِيعُونِ﴾ أي: امتثلوا أمري بفعل ما آمركم به وترك ما أنهاكم عنه.

﴿يَغۡفِرۡ لَكُم﴾ هذا من البشارة التي جاء بها نوح عليه السلام مع الإنذار، كما هي طريقة جميع الرسل عليهم السلام، كما قال الله عز وجل ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥].

وأمره الله عز وجل في مطلع السورة بالإنذار لقومه، وصرح لهم عليه السلام بأنه لهم نذير مبين ولم يأت التصريح بالبشارة والله أعلم وإنما دل عليها مضمون الآيات لما هم عليه من شدة الكفر والتكذيب والعناد كما هو واضح من الآيات.

والمغفرة هي: ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة عليه كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما في المناجاة: «أن الله عز وجل يدني المؤمن ويقرره بذنوبه، حتى إذا رأى أنه قد هلك قال الله عز وجل: أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»[3].

﴿مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ «من» صلة، زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى.

والمعنى: يغفر لكم ذنوبكم كلها وهو مقتضى الأدلة الشرعية، كما قال تعالى: ﴿يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في التيمم ٣٣٥، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٥٢١، والنسائي في الغسل والتيمم ٤٣٢ – من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٨٢، ومسلم في الفضائل ٢٢٨٣ – من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٤١، ومسلم في التوبة ٢٧٦٨، وابن ماجه في المقدمة ١٨٣.

[الزمر: ٥٣].

﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: ويؤجلكم إلى أجل ووقت محدد وهو مقدار بقائكم في الدنيا، وذلك بدفع العذاب الدنيوي العاجل عنكم، والمباركة في أعماركم، لأن الطاعة والبر وصلة الرحم تزيد في العمر قال ﷺ: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل مثراة في المال، منسأة في الأثر»(١).

وقال ﷺ: «من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أجله فليصل رحمه»(٢).

﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ أي: إن أجل الله عز وجل، أي: وقته الذي وقته لموتكم، أو لوقوع العذاب عليكم ﴿إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ أي: إذا حضر لا يمكن تأخيره وتأجيله، ولا أحد يستطيع منعه ودفعه. وفي هذا وعيد وتهديد لهم.

﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كنتم تعلمون حقيقة العلم النافع لأنبتم إلى ربكم، ولما كفرتم وكذبتم بالحق، ويحتمل أن يكون المراد بقوله ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: اعلموا ذلك.

الفوائد والعبر:

١ ـ إثبات رسالة نوح عليه السلام إلى قومه خاصة.

٢ ـ أن مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام هي الإنذار من العقوبات والعذاب، والبشارة بالنصر والتمكين والمغفرة والثواب.

٣ ـ أن الهدف من إرسال الرسل هو الدعوة إلى عبادة الله عز وجل وتقواه وطاعته والتحذير من الشرك.

٤ ـ قيام نوح عليه السلام بإنذار قومه ودعوتهم إلى عبادة الله عز وجل وتقواه وطاعته ووعده لهم على ذلك بمغفرة الله عز وجل لذنوبهم وتأخيرهم إلى أجل مسمى بتأخير العذاب الدنيوي عنهم.

٥ ـ أن أجل الله بالموت أو بإيقاع العذاب على المكذبين إذا جاء لا يمكن دفعه ولا تأجيله، ولا منعه، وما قدره الله كائن لا محالة.

٦ ـ أن الكفار لا علم عندهم يهتدون به إلى ما ينفعهم وينجيهم من عذاب الله.

---

(١) أخرجه الترمذي في البر والصلة ١٩٧٩ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه. وقال: «حديث غريب».

(٢) أخرجه البخاري في البيوع ٢٠٦٧، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٥٧، وأبو داود في الزكاة ١٦٩٣ – من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَٱسْتَكْبَرُوا ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

توجه نوح عليه السلام في الآيات السابقة بالنداء إلى قومه ينذرهم ويأمرهم بعبادة الله وتقواه وطاعته ويعدهم على ذلك بالمغفرة من الله عز وجل، وتأخيره العذاب عنهم ويحذرهم من تعجيله لهم في الدنيا.

ثم توجه بالنداء إلى ربه عز وجل يشكو إليه ما لقي من قومه من البعد والفرار، والاستكبار والمكر الكبّار، وعبادة الأصنام والضلال والإضلال، وذكر صبره عليه السلام عليهم تلك المدة الطويلة ألف سنة إلا خمسين عاماً فإليه عز وجل المشتكى في جميع الأحوال.

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾ أي: قال يا رب إني دعوت قومي إلى عبادتك وتقواك، وطاعتي ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي: في الليل والنهار، أي: في جميع الأحوال والأوقات.

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي: إلا بعداً عن الحق والإيمان ونفوراً منه، وإعراضاً عنه.

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي: سدوا آذانهم بأصابعهم، لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه استكباراً وعناداً، كما قال الله عز وجل عن كفار مكة ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: ٥٧].

﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ أي: غطوا رؤوسهم بثيابهم لئلا يسمعوا، أو تنكروا له لئلا يعرفهم مبالغة في إظهار الكراهة له ولدعوته.

﴿وَأَصَرُّوا﴾ أي: استمروا على ما هم عليه من الشرك والكفر والعناد وتشددوا في ذلك.

﴿وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ استكبارا مصدر مؤكد، أي: استكبروا استكباراً عظيماً، أي: استنكفوا وتكبروا عن قبول الحق واتباعه والانقياد له.

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾.

بعدما بين دعوته لهم في جميع الأوقات في قوله ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ بين أنه دعاهم في جميع الأحوال.

قوله ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ أي: ظاهراً بمسمع منهم كلهم.

﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ﴾ أي: دعوتهم علانية وصرخت وصحت بهم.

﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ أي: ودعوتهم خفية فيما بيني وبينهم، وأسررت لهم في ذلك غاية الإسرار.

فدعاهم عليه السلام ليلاً ونهاراً وجهراً وعلناً وسراً، مجتمعين وفرادى، ونوّع في أسلوب الدعوة، لعل ذلك ينجح معهم وينجع فيهم، ولكن هيهات.

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ أي: اطلبوا من ربكم مغفرة ذنوبكم، وتوبوا وارجعوا إليه.

﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ «الغفار» اسم من أسماء الله عز وجل على وزن «فعّال» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، يدل على أنه عز وجل ذو المغفرة العظيمة، لا يتعاظمه ذنب أن يغفره إذا صدق العبد في التوبة والرجوع إليه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال عز وجل: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٢]، وقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٨ – ٧٠]، وقال تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾.

هذا رزق وفضل من الله عز وجل عاجل لهم في الدنيا مع مغفرة ذنوبهم والثواب الآجل في الآخرة إذا استغفروا الله وتابوا إليه.

قوله: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ أي: يرسل السماء عليكم بالمطر غزيراً متتابعاً، وينزل عليكم من بركات السماء ورزقها كما قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝﴾ [الذاريات: ٢٢].

قال ابن كثير[1] في كلامه على الآية ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾: «أي: متواصلة الأمطار، ولهذا يستحب قراءة هذه السورة في صلاة الاستسقاء لأجل هذه الآية، وهكذا رُوِيَ عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه صعد المنبر ليستسقي، فلم يزد على الاستغفار، وقرأ الآيات في الاستغفار، ومنها هذه الآية ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝﴾ ثم قال: لقد طلبت الغيث بمجاديح السماء[2]، التي يستنزل بها المطر، وقرأ الآية التي في سورة «هود» حتى بلغ: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢]».

﴿وَيُمْدِدْكُم﴾ أي: ويمددكم من فضله وخزائنه التي لا تنفد ﴿بِأَمْوَٰلٍ﴾ وهي كل ما يتمول ويملك من أنواع الأموال من الذهب والفضة والدراهم والدنانير، والعقار والأثاث والمتاع وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝﴾ [الإسراء: ٢٠].

﴿وَبَنِينَ﴾ أي: ويمددكم بالذكور من الأولاد، وخصهم بالذكر لأن الذكور أفضل من الإناث وأحب إليهم، كما قالت امرأة عمران ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦].

فوعدهم إذا استغفروا الله وتابوا إليه بالإمداد بالأموال والبنين، وهما زينة الحياة الدنيا كما قال عز وجل: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]، وقال عز وجل متوعداً للوليد بن المغيرة ومذكراً له ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝﴾ [المدثر: ١١ ـ ١٣].

وكثرة الأموال خير إذا استعين بها على طاعة الله تعالى، ولهذا قال ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها»[3].

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٥٩ – ٢٦٠.

(٢) «المجاديح» هي وسائل استخراج الماء كالدلاء ونحوها، فيكون معنى قول عمر رضي الله عنه أنه بذل أهم أسباب استنزال المطر والغيث من الله عز وجل وهو استغفاره سبحانه وتعالى.

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٠٩، ومسلم في صلاة المسافرين ٨١٦، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠٨ – من حديث =

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ﴾ أي: ويجعل لكم بساتين كثيرة الأشجار والزروع والثمار تأكلون من ثمارها وتطعمون مواشيكم من نباتها.

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ أي: ويجعل لكم أنهاراً تجري وسط هذه الجنات تشربون منها، وتغتسلون فيها وتسقون منها زروعكم وحرونكم ومواشيكم، وتتمتعون برؤيتها وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٣٢].

وهكذا أمر الله محمداً ﷺ أن يقول لقومه: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾ [هود: ٣]، وقال هود لقومه: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود: ٥٢]، وقال صالح لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود: ٦١].

قوله: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾.

أمرهم عليه السلام بالاستغفار ورغبهم بالمغفرة من الله ـ عز وجل ـ وإنزال المطر وإمدادهم بالأموال والبنين والجنات والأنهار، ثم وبخهم وأنكر عليهم عدم الخوف من الله عز وجل، فقال: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ الآيات.

قوله: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ «ما» اسم استفهام معناه الإنكار عليهم ﴿وَقَارًا﴾ أي: عظمة وتقديراً، أي: ما لكم لا تخافون لله عظمة، ولا تخافون بأسه ونقمته ولا تقدرونه حق قدره، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١، الزمر: ٦٧].

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ الواو: حالية، و«قد» للتحقيق، أي: والحال أنه قد خلقكم

=

عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

أطواراً، فموجب خلقه لكم وإنعامه عليكم بسائر النعم أن تعبدوه وتعظموه.

ومعنى قوله ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أي: والحال أنه عز وجل خلقكم خلقاً من بعد خلق، وطوراً من بعد طور، فطوراً نطفة، وطوراً علقة، وطوراً مضغة، ثم عظاماً، ثم كسا العظام لحماً، ثم أنشاه خلقاً آخر، ثم اكتمال حمله في بطن أمه، ثم ولادته، ثم فترة الرضاع، ثم سن الطفولة، ثم التمييز، ثم الشباب، ثم الكهولة، ثم الشيخوخة ثم الهرم، ثم الرد إلى أرذل العمر، وفي تذكير الخلق في ابتداء خلقهم وأطواره تنبيه على قدرته التامة على بعثهم وإعادتهم بعد موتهم.

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ الهمزة للاستفهام التقريري.

أي: ألم تعلموا كيف أوجد الله سبع سموات ﴿طِبَاقًا﴾ بعضها فوق بعض كل سماء مقبية على الأخرى، وأوسع منها، سمك كل واحدة منها مسيرة خمسمائة عام، وبين كل واحدة والتي تليها مسيرة خمسمائة عام[1].

﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ أي: وجعل القمر في هذه السموات السبع نوراً، مستفاداً من نور الشمس.

﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ أي: وجعل الشمس فيهن، وفي هذا الكون مصباحاً مضيئاً، وسميت الشمس سراجاً لحرارتها، ولأنها أشد إضاءة من القمر، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء: ١٢].

قال ابن كثير[2]: «أي: فاوت بينهما في الاستنارة، فجعل كلاً منهما أنموذجاً على حدة، ليعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها، وقدر القمر منازل وبروجاً، وفاوت نوره، فتارة يزداد حتى يتناهى، ثم يشرع في النقص حتى يستسرّ، ليدل على مضي الشهور والأعوام».

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ «نباتا» مصدر مؤكد. أي: أنبتكم من الأرض نباتاً بخلق أبيكم

---

(١) سبق ذكر الحديث بذلك عند قول الله عز وجل ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٦٠.

آدم وإيجاده من التراب، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الروم: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام: ٢].

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ إذا متم ودفنتم فيها.

﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ «إخراجا» مفعول مطلق منصوب أي: ويخرجكم منها إخراجاً ببعثكم يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [الحج: ٧].

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ أي: مبسوطة مسطحة، ممهدة مستقرة مثبتة بالجبال الراسيات، صالحة مهياة للانتفاع بها والاستقرار والحياة والبناء عليها، والحرث والزرع فيها، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢٠][1].

﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ اللام للتعليل أي: جعلها لكم بساطاً لأجل أن تسلكوا منها طرقاً واسعة مختلفة أين شئتم من أرجائها، ولولا أنه بسطها ما أمكنكم ذلك، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥].

وهذا يوجب التأمل في كمال قدرته عز وجل في إيجاد هذه المخلوقات العظيمة لهذا أنكر عليهم نوح عليه السلام في هذه الآيات لم لا يعظمون الله ويخافونه مذكراً ومنبهاً لهم على عظيم قدرة الله عز وجل وعظيم نعمه عليهم في خلقهم وخلق السموات السبع الطباق، وإنارتهن بالقمر، وجعل الشمس سراجاً، وخلقهم من الأرض، وإعادتهم فيها وإخراجهم منها، وبسط الأرض لهم ليستطيعوا العيش والاستقرار عليها ويسيروا في جوانبها ويستخرجوا من خيراتها، مما يوجب عليهم أن يعظموه عز وجل ويعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئاً.

---

(١) انظر «الكلام على قوله تعالى في سورة الذاريات ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الآية: ٤٨].

الفوائد والعبر:

١ ـبذل نوح عليه السـلام غاية جهده في دعوة قومه في جميع الأوقات ليلاً ونهاراً وبشتى الأساليب جهاراً وإعلاناً وإسرارا، وصبره على أذاهم فينبغي للدعاة أن يستلهموا الدروس من هذا في تنويع أساليب الدعوة والصبر على الأذى في سبيلها.

٢ ـشدة عناد قوم نوح عليه السلام وفرارهم منه ومن دعوته وإصرارهم على الباطل، واستكبارهم.

٣ ـإثبات ربوبية الله الخاصة لنبيه نوح عليه السلام ـ وربوبيته العامة لجميع الخلق.

٤ ـإثبات صفة المغفرة الواسعة لله ـ عز وجل ـ لذنوب عباده، وأن خزائن السموات والأرض ورزق الدنيا والآخرة بيده عز وجل.

٥ ـجمع نوح عليه السلام في دعوته لقومه بين الترغيب بالوعد لهم بالمغفرة في الآخرة، والترغيب لهم في الرزق في الدنيا بالمطر وبالأموال والبنين والبساتين والأنهار.

٦ ـأن الاستغفار والتوبة سبب لمغفرة الذنوب وسعة الرزق من المطر والمال والبنين وغير ذلك.

٧ ـإنكار نوح عليه السلام على قومه عدم تعظيمهم لله وعدم خوفهم منه، وقد خلقهم سبحانه وتعالى طوراً بعد طور وأحسن خلقهم.

٨ ـتوجيه نوح ـ عليه السلام لقومه للنظر والتأمل في عظمة قدرة الله عز وجل في خلق سبع السموات الطباق وجعل القمر فيهن نوراً والشمس سراجاً، وفي إنباتهم من الأرض ثم إعادتهم فيها ثم بعثهم وإخراجهم منها، مما يوجب عليهم تعظيم الله ـ عز وجل وعبادته وحده لا شريك له. وكل إنسان مدعو إلى هذا التأمل.

٩ ـتذكير نوح عليه السلام قومه بنعمة الله عليهم بجعل الأرض بساطاً مستوية ليسلكوا طرقها وفجاجها ويستخرجوا من خيراتها. وفي هذا نعمة علينا وعلى كل مخلوق يدب على وجه الأرض، فلله الحمد على ذلك.

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

دعا نوح عليه السلام قومه وأنذرهم، وشكا إلى الله ما لقي منهم مبيناً أنه نوّع لهم في أساليب الدعوة ورغبهم ورهبهم، وخوفهم بالله، وبين لهم عظيم قدرته وعظيم نعمه عليهم في خلقهم وخلق السموات والأرض.

ثم شكا إلى الله عز وجل ثانية تماديهم في العصيان واتباعهم من لم تزدهم أموالهم وأولادهم إلا الخسار، وما حصل منهم من المكر الكبار، وعبادة الأصنام، وإغراقهم في الضلال والخطايا، مما سبب إغراقهم وإدخالهم النار ثم دعا عليهم عليه السلام بالهلاك عن آخرهم وسأل الله عز وجل المغفرة له ولوالديه ولمن دخل بيته من المؤمنين والمؤمنات ودعا على الظالمين بالتبار والخسار.

قوله: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ شكا نوح عليه السلام إلى ربه ثانية ما لقي من قومه قائلاً ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ أي: خالفوني وكذبوني بعد الإنذار والإعذار بتنويع أساليب الدعوة لهم والترغيب والترهيب، وتخويفهم وتذكيرهم بعظمتك وقدرتك وعظيم نعمك عليهم.

﴿وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر وعاصم بفتح الواو واللام (ووَلَده) وقرأ الباقون بضم الواو وإسكان اللام (ووُلْده).

أي: واتبعوا وأطاعوا وقلدوا الملأ والأشراف الذين متعوا بالأموال والأولاد واغتروا بالدنيا وركنوا إليها وغفلوا عن أمر الله تعالى، فصارت أموالهم وأولادهم خسارة ونقصاناً عليهم واستدراجاً لهم، وسبباً لطغيانهم وضلالهم وبعدهم عن طريق الحق، ومن تبعهم فهو مثلهم في الخسار والبوار.

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ «مكرا» مصدر، و«كبارا» صفة له، والمكر: هو الكيد بخفية في معاندة الحق، قال تعالى ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]، وقال تعالى:

﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ﴾ [سبأ: ٣٣]. والمعنى: ومكروا مكراً كبيراً عظيماً بليغاً فتمادوا في المخالفة والغي والعصيان والتمرد والضلال.

﴿وَقَالُواْ﴾ أي: قال بعضهم لبعض، أو قال لهم أصحاب الأموال والأولاد داعين إلى الشرك مزينينه لهم ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ أي: لا تتركنّ معبوداتكم وما عليه آباؤكم.

﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ أي: لا تتركنّ آلهتكم عموماً، ولا تتركنّ خصوصاً: ﴿وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ فنهوهم أولاً عن ترك عبادة آلهتهم عموماً، ثم نهوهم ثانياً عن ترك عبادة هذه الآلهة الخمسة خصوصاً، لأنها أعظم وأهم آلهتهم التي يعبدونها من دون الله. قرأ نافع وجعفر بضم الواو (وُداً) وقرأ الباقون بفتحها (وَداً).

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد: أما «ود» فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما «سواع» فكانت لهذيل، وأما «يغوث» فكانت لمراد، ثم لبني غطيف في الجرف عند سبأ، وأما «يعوق» فكانت لهمدان، وأما «نسر» فكانت لحمير، لآل ذي الكلاع، وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك، وتنسّخ العلم عبدت»[1].

وعن محمد بن قيس قال: «إن يغوث ويعوق ونسراً كانوا قوماً صالحين من بني آدم، وكان لهم، أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم»[2].

قال ابن القيم[3]: «قال غير واحد من السلف: كان هؤلاء قوماً صالحين في قوم نوح عليه السلام، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل».

﴿وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ﴾ أي: وقد أضلوا بدعوتهم إلى عبادة هذه الآلهة وعبادتهم إياها

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا﴾ ٤٩٢٠.
(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٣٠٣.
(٣) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٣٨.

كثيراً من الخلق وأبعدوهم عن عبادة الله وحده، فضل عن الحق بسبب عبادتها خلق كثير، وهي أول شرك حصل في بني آدم واستمر وانتشر بعد ذلك ولهذا دعا إبراهيم الخليل عليه السلام قائلاً ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦].

﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ دعاء منه عليه السلام على الظالمين من قومه، الذين ظلموا بعبادتهم غير الله وإشراكهم مع الله غيره، وأظلم الظلم الشرك كما قال لقمان لابنه فيما حكاه الله عنه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣].

والمعنى: ولا تزد الظالمين إلا بعداً وتيهاً عن الحق، أي: زدهم بعداً وتيهاً عن الحق.

وذلك بسبب ظلمهم وشركهم، فإن المعصية تجر إلى المعصية بعدها، كما قال عز وجل ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤].

﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ قرأ أبو عمرو (مما خطاياهم) بالألف بغير همز، وقرأ الباقون (مما خطيئاتهم) بالهمز والتاء.

أي: من كثرة ذنوبهم وكفرهم ومخالفتهم رسولهم، وبسبب ذلك أغرقوا بالطوفان كما قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ [الفرقان: ٣٧].

﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ أي: فنقلوا من الغرق إلى الحرق، ومن عمق البحار إلى عذاب النار، فأجسادهم للغرق، وأرواحهم للنار والحرق، كما قال عز وجل عن آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦].

﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾ أي: فلم يجدوا لهم أنصاراً وأعواناً ينقذونهم من عذاب الله ويدفعونه عنهم، لا من العذاب الدنيوي ولا من العذاب الأخروي كما قال عز وجل: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾﴾ [المعارج: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [آل عمران: ٥٦].

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ أي: لا تترك على الأرض من الكافرين أحداً يسكن الدار ويدور ويتحرك، بل أهلكهم واستأصلهم عن آخرهم وقد استجاب الله دعاءه، فأهلك بالغرق جميع من على وجه الأرض إلا من ركب معه في السفينة، حتى ولده لصلبه كان ضمن المغرقين كما قال تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود: ٤٣].

وقد قيل: إن دعوته عليهم بعد ما أوحى الله إليه ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم امرأة كلما رأت الماء حملت ولدها ثم صعدت الجبل، فلما بلغها الماء صعدت به منكبها، فلما بلغ الماء منكبها وضعت ولدها على رأسها، فلما بلغ الماء رأسها رفعت ولدها بيدها، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم هذه المرأة»[1].

وهكذا دعا موسى على فرعون وملئه فقال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس: ٨٨].

قال ابن كثير[2]: «وقد استجاب الله لكل من النبيين في قومه، وأغرق قومه بتكذيبهم لما جاء به».

وهنا نجد الفرق بين موقف نوح عليه السلام حين عصاه قومه وخالفوه وآذوه، وبين موقف محمد ﷺ إذ أخذ يردد حين آذاه قومه قائلاً: «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[3]. ولما قال له ملك الجبال: دعني أطبق عليهم الأخشبين يعني جبلي مكة، قال: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئاً»[4].

وبهذا وغيره فاق ﷺ وساد جميع الرسل وكان له الحوض المورود والشفاعة الكبرى

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٧٦، وقال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٦٤. «هذا حديث غريب ورجاله ثقات».

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٦٣.

(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٤٧٧، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٩٢، وابن ماجه في الفتن ٤٠٢٥ ـ من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٣١، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٩٥ – من حديث عائشة رضي الله عنها.

والمقام المحمود، حين يعتذر عن الشفاعة جميع الأنبياء، من أولي العزم وغيرهم حتى إن نوحاً عليه السلام يعتذر بقوله «إني استعجلت فدعوت على قومي اذهبوا إلى غيري».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله ادع على المشركين، فقال: «إني لم أبعث لعاناً وإنما بعثت رحمة»[1].

وليت من يعتدون في الدعاء وكذا من يدعون بما لم تجربه سنن الله الكونية ونحو ذلك من الأدعية التي لم ترد في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسوله ﷺ، بل ولا عن السلف الصالح رضوان الله عليهم، مما فيه مبالغة واعتداء في الدعاء أقول: ليتهم يلحظون هذا الأدب النبوي الكريم في الدعاء فإنه أحرى لقبول دعائهم.

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ﴾ أي: إنك إن تتركهم فلا تهلكهم يضلوا عبادك المؤمنين الموجود منهم ومن سيوجد، أي: إنهم خطر وضرر على المؤمنين في دينهم في الحال والاستقبال.

﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا﴾ أي: ولا يلدوا ولا ينسلوا إلا فاجراً بعمله مرتكباً للفجور والفواحش والذنوب ﴿كَفَّارًا﴾ بقلبه.

و«كفار» على وزن «فعّال» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، أي: عظيم الكفر بربه وبنعمه أي: إن بقاءهم مفسدة محضة لهم ولغيرهم.

قال ابن كثير[2]: «أي فاجراً في الأعمال، كافر القلب، وذلك لخبرته بهم، ومكثه بين اظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً».

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾

دعا نوح عليه السلام على الكافرين من قومه بالهلاك ثم دعا بالمغفرة له ولوالديه ولمن دخل بيته من المؤمنين والمؤمنات وبالخسران على الظالمين.

قوله: ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ﴾ أي: ولمن دخل مسجدي ومصلاي أو منزلي ﴿مُؤْمِنًا﴾ أي: حال كونه مؤمناً، وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة ٢٥٩٩.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٦٤.

رسول الله ﷺ يقول: «لا تصحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي»[1].

وخص هؤلاء المذكورين لتأكيد حقهم وتقديم برهم، ثم عمم الدعاء فقال:

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: واغفر لجميع المؤمنين والمؤمنات وهذا يشمل الأحياء منهم والأموات.

﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ أي: إلا خساراً ودماراً وهلاكاً في الدنيا والآخرة.

الفوائد والعبر:

١- شكوى نوح عليه السلام حاله إلى ربه عز وجل لما عصاه قومه. وأن الشكوى إليه عز وجل وحده.

٢- الحذر من فتنة المال والأولاد والاغترار بها، والحذر من تقليد واتباع من اغتروا بذلك فخسروا دينهم ودنياهم وآخرتهم.

٣- عظم كفر قوم نوح وكبر مكرهم وشدة تعلقهم بمعبوداتهم الباطلة وإضلالهم بهذه المعبودات كثيراً من الناس.

٤- الحذر من الشرك وأسبابه فإن هذه الأوثان كانت في الأصل أسماء لرجال صالحين صوروا للتأسي بهم في العبادة ثم لما طال الزمن أوحى الشيطان إلى الناس فعبدوهم.

٥- إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لنوح عليه السلام.

٦- جواز الدعاء على الظالمين والكافرين الضالين المضلين بزيادة الضلال والتبار والخسار والهلاك.

٧- إغراق قوم نوح عليه السلام وإدخالهم النار بسبب ذنوبهم ومعاصيهم وليس لهم من دون الله من أنصار.

٨- الإشارة إلى أن النار موجودة الآن معدة لأهلها تعذب بها أرواحهم لقوله ﴿فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾.

٩- إثبات عبودية المؤمنين الخاصة لربهم لقوله ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ﴾.

١٠- مشروعية الدعاء للوالدين وغيرهم من الأقارب المؤمنين ولعامة المؤمنين والمؤمنات.

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب – من يؤمر أن يجالس ٤٨٣٢، والترمذي في الزهد – ما جاء في صحبة المؤمن ٢٣٩٥.

تفسير سورة الجن

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: مالكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يبتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء. فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ وهو بنخلة عامداً إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا - والله - الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم. قالوا: يا قومنا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ وأنزل الله على نبيه: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ وإنما أوحي إليه قول الجن»[1].

وعن علقمة قال: سألت ابن مسعود، فقلت: هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: لا، ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقلنا: استطير؟ اغتيل؟ قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء، قال: فقلنا: يا رسول الله، فقدناك فطلبناك فلم نجدك، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فقال: «أتاني داعي الجن، فذهبت معهم، فقرأت عليهم القرآن»، قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم وسألوه الزاد، فقال: «كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً، وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم». قال رسول الله ﷺ: «فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم»[2].

وقد ذكر ابن كثير رحمه الله طرق هذا الحديث[3] ثم قال: «فهذه الطرق كلها تدل على أنه ﷺ ذهب إلى الجن قصداً، فتلا عليهم القرآن ودعاهم إلى الله عز وجل وشرع الله لهم على لسانه ما هم محتاجون إليه في ذلك الوقت، وقد يحتمل أن أول مرة سمعوه يقرأ القرآن لم يشعر بهم، كما قاله ابن عباس رضي الله عنهما، ثم بعد ذلك وفدوا إليه كما رواه ابن مسعود».

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان - الجهر بقراءة صلاة الفجر ٧٧٣، ومسلم في الصلاة - الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن ٤٤٩، والترمذي في تفسير سورة الجن ٣٣٢٣، وأحمد ١/ ٢٥٢، ٢٧٤، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٣١٠.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة - الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن ٤٥٠، والترمذي في الطهارة ٣٢٥٨، وأحمد ١/ ٤٣٦.

(٣) في «تفسيره» ٧/ ٢٧٢ - ٢٧٩ في الكلام على قوله تعالى: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن﴾ [الأحقاف: ٢٩- ٣٢].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾.

قوله ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ «قل» أمر للنبي ﷺ، أي: قل للناس ﴿أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ أي: اوحى الله إليّ ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي: أنه استمع جماعة من الجن إلى قراءتي القرآن.

وفي هذا دلالة على وجود الجن، وأن الرسول ﷺ مبعوث إلى الجن والإنس، وأن الجن كالإنس مكلفون مأمورون منهيون ومثابون ومعاقبون.

﴿فَقَالُوٓا۟﴾ لقومهم لما سمعوه ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ أي: سمعنا قرآنا عجيباً بديعاً بليغاً ليس من كلام الإنس والجن يعجب سامعه من فصاحته وبلاغته في ألفاظه ومعانيه وأخباره وأحكامه ومواعظه ووعده ووعيده وغير ذلك.

﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ أي: يدل إلى الرشد، و«الرشد» في الأصل الاهتداء إلى طرق الخير عامة، والمراد به في الآية الاهتداء إلى الحق وإلى الطريق المستقيم ـ كما قالوا فيما ذكر الله عنهم في الآية الأخرى ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠]، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، فالرشد الاهتداء إلى ما فيه مصالح الدين والدنيا، ولهذا وصف الله المؤمنين في سورة الحجرات بقوله ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الآية: ٧].

﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: صدقنا به وانقدنا له واتبعناه.

وهذا كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن

لَا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣٢].

﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ أي: ولن نشرك بربنا أحداً من الشركاء والمعبودات، بل سنعبده وحده ونخلص العبادة له وحده لا شريك له.

وفي قولهم: ﴿بِرَبِّنَآ﴾ إقرار منهم بربوبيته لهم وأنه الخالق المالك المدبر لهم ويلزم من هذا أن يفردوه بالعبادة وحده، فجمعوا بين الإيمان بالله وترك الشرك، بين الإيمان والتقوى، بين الإخلاص والمتابعة.

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ قرأ نافع وأبو بكر عن عاصم بكسر الهمزة في قوله ﴿وإنه﴾ وكذا ما بعده إلى قوله ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾ وقرأ الباقون بفتحها.

أي: وانه تعاظم وارتفع جلال ربنا وقدره وسلطانه وعظمته وغناه وآلاؤه ونعمه على خلقه، وتعالى بذاته وصفاته وأسمائه فله علو الذات والصفات وعلو القدر وعلو القهر كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠، سبأ ٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤].

﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ «ما» نافية، أي: ما جعل لنفسه صاحبة.

والصاحبة: الزوجة، ﴿وَلَا وَلَدًا﴾ الولد: جنس الأولاد من الذكور والإناث، أي: تعالى وتنزه سبحانه عن الصاحبة والولد، لأن اتخاذ الصاحبة والولد ينافي كمال العظمة والغنى، قال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤].

وفي هذا وما بعده ما يفيد أنهم آمنوا عن معرفة منهم بعظمة الله عز وجل، وعن فهم للإيمان وما يترتب عليه من مصالح الدين والدنيا ومن الثواب العظيم في الآخرة وليس إيمان العادة والإلف والتقليد، الذي قد يضعف أو يزول أمام الشبهات والشهوات.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ السفيه: من لا يحسن التصرف. والسفه يكون في الدين ويكون في المال ويكون في الولاية.

والمراد به هنا السفه في الدين كما قال عز وجل: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وقال تعالى في وصف اليهود ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ﴾ [البقرة: ١٤٢]، وقال تعالى في وصف المنافقين ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ

ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ [الأنعام: ١٤].

وأول من يدخل في قوله ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطٗا ۝٤﴾ إبليس وأتباعه وأعوانه.

﴿شَطَطٗا﴾ اي: قولاً جائراً عن الصواب مفرطاً في الكذب، وباطلاً كبيراً، وزوراً عظيما، من الإشراك بالله، ونسبة الصاحبة والولد له.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾ قرأ يعقوب بفتح القاف والواو مشددة، «تَقَوَّلَ» وقرأ الباقون بضم القاف وإسكان الواو مخففة «تَقُوْلَ».

أي: حسبنا أنهم لا يقدمون ولا يتجرؤون على الكذب على الله بالإشراك به ونسبة الولد والصاحبة إليه اغتراراً منا بما عليه السادة والرؤساء من الإنس والجن، وإحساناً منا الظن بهم، فلما سمعنا القرآن وآمنا به علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله في ذلك القول، وفي هذا نوع من الاعتذار عما حصل منهم من تقليد هؤلاء الرؤساء بما هم عليه من الباطل، وبدؤوا بذكر الإنس لأنهم أول من خوطب بالقرآن، وأول من بدأ بالتصديق والتكذيب قبل الجن، وأيضاً لئلا يعتقد إخوانهم من الجن أنهم ظاهروا الإنس عليهم.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ أي: يستعيذون بهم ويستنجدون تعظيماً لهم وخوفاً منهم، حيث كان الواحد منهم إذا نزل وادياً قال «أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهاء قومه»[1].

﴿فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا﴾ أي: فزاد الجنُّ الإنس خوفاً وذلاً ورعباً وإرهاباً وفزعاً، وزاد الإنسُ الجنَّ طغياناً وإثماً فازدادت جراة الجن وتعاظمهم عليهم وتخويفهم لهم، لما رأوا استعاذتهم بهم وخوفهم منهم، ليبقى الإنس على تعظيمهم والخوف منهم والتعوذ بهم.

﴿وَأَنَّهُمۡ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ أَحَدٗا﴾ اي: وأنهم اي الجن ظنوا وحسبوا كما ظننتم وحسبتم أيها الإنس ﴿أَن لَّن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ أَحَدٗا﴾ اي: أن لن يبعث الله بعد هذه المدة رسولاً.

ويحتمل أن المعنى: وأنهم ظنوا كما ظن الإنس أن لا بعث ولا حساب فأقدموا على الشرك والطغيان.

﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ اي التمسنا السماء وطلبنا خبرها، كما كنا نفعل من ذي قبل.

---

(١) انظر «تيسير العزيز الحميد» ص٢١١.

﴿فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ أي: وجدناها قد ملئت بالحرس الشديد، والشهب التي يرمى بها من استرق السمع فلم نستطع الوصول إليها ولا الدنو منها، وذلك حفظاً لها وحفظاً لكتابه العزيز القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠].

﴿وَأَنَّا كُنَّا﴾ أي: وأنا كنا قبل ذلك ﴿نَقْعُدُ مِنْهَا﴾ أي: من السماء ﴿مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ أي: للاستماع، أي لاستراق السمع بحيث يستمعون الكلمة الواحدة من خبر السماء فيلقونها على ألسنة الكهان فيكذبون معها مائة كذبة.

﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ أي: فمن يرم ويحاول الاستماع لخبر السماء الآن بعد نزول القرآن يجد له شهاباً من النجم مرصداً معداً له لا يخطئه بل يصيبه فيحرقه ويهلكه.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان الجن يستمعون الوحي، فيسمعون الكلمة فيزيدون فيها عشراً، فيكون ما سمعوا حقاً وما زادوا باطلاً، وكانت النجوم لا يرمى بها قبل ذلك فلما بعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتي مقعده إلا رمي بشهاب يحرق ما أصاب، فشكوا ذلك إلى إبليس، فقال: ما هذا إلا من أمر قد حدث، فبث جنوده، فإذا بالنبي ﷺ يصلي بين جبلي نخلة، فأتوه فأخبروه، فقال: هذا الذي حدث في الأرض»[1].

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ﴾ أي: وأنا لا ندري ولا نعلم ما هذا الأمر الذي حدث وحفظت من أجله السماء بالحرس الشديد والشهب.

﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الهمزة للاستفهام، أي: أهو شر اريد بالذين في الأرض وساكنيها.

﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ «أم» عاطفة، ويجوز كونها بمعنى «بل» والجملة بعدها استئنافية. أي: بل أراد بهم ربهم ﴿رَشَدًا﴾ أي: خيراً وصلاحاً ونجاحاً وفلاحاً فعرفوا بفطنتهم أن هذا ينذر بحدوث أمر عظيم وحدث كبير خيراً كان أو شراً.وفي ضمن ذلك إشارة إلى أن هذا ابتلاء فيه الرشاد والخير لأقوام، وفيه الشر والهلاك لأقوام.

وقد أسندوا الشر إلى ما لم يسم فاعله، وأسندوا إرادة الرشد إلى الله عز وجل تأدباً في العبارة كما في قول المؤمنين في الفاتحة ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، فنسبوا الإنعام إليه، والغضب

---

(١) اخرجه الترمذي في تفسير سورة الجن ٣٣٢٤، وأحمد ١/ ٢٧٤ وقال الترمذي «حسن صحيح».

لما لم يسم فاعله، كما أمر الله رسوله ﷺ أن يقول ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وفي الحديث قوله ﷺ: «والشر ليس إليك»[1].

ويؤخذ من الآيات عناية الله عز وجل برسوله ﷺ وبالقرآن الذي أوحاه إليه فمن أجل ذلك حرست السماء بالحرس الشديد والشهب.

الفوائد والعبر:

١- إثبات رسالة نبينا محمد ﷺ ووحي الله ـ عز وجل ـ إليه، وأن رسالته عامة للثقلين الإنس والجن،وإثبات وجود الجن.

٢- إثبات أنه ﷺ لا يعلم الغيب، فلا علم له إلا بما أوحاه الله إليه.

٣- في أمره ﷺ بالإخبار باستماع نفر من الجن إلى قراءته وإعجابهم بالقرآن وهدايته ـ وتأثرهم وإيمانهم به تنبيه للإنس أن لا يكون الجن خيراً منهم في هذا وحث لهم على المنافسة.

٤- هداية القرآن للرشد والحق وإعجازه في ألفاظه ومعانيه وأحكامه وأخباره، لهذا تأثر الجن وأعجبوا به لما سمعوه وآمنوا به وأعلنوا تعظيم الله عز وجل والبراءة من الشرك ومن الكذب على الله.

٥- أن الإيمان ينافي الشرك ولا يجتمع معه لقوله ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾ .

٦- إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة ـ للمؤمنين، وتعظيمه وتنزيهه عن الشريك والصاحبة والولد.

٧- اجتراء سفهاء الجن والإنس على نسبة الصاحبة والولد لله والإشراك به والكذب عليه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

٨- التحذير من الاستعاذة بغير الله من الجن أو غيرهم وأن في الاستعاذة بغير الله زيادة ذل وخوف للمستعيذ.

٩- تقرير وإثبات البعث والحساب والجزاء على الأعمال، والرد على منكريه من الجن والإنس.

١٠- حراسة السماء وحفظها بالشهب بعد بعثة محمد ﷺ ونزول القرآن الكريم حفظاً من الله عز وجل لكتابه العظيم ولنبيه ﷺ وتعظيماً لمبعثه.

١١- إقرار الجن واعترافهم بأنهم لا يعلمون الغيب ولا يدرون ما الحكمة فيما حصل من حراسة السماء، وفي هذا أبلغ الرد على أدعياء علم الغيب من السحرة والكهان والمنجمين والدجالين الذين يعتمدون على الجن فيما يزعمون.

١٢- أدب الجن في كلامهم وخطابهم إذ نسبوا الشر لما لم يسم فاعله، ونسبوا الرشد إلى الرب سبحانه فقالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ وهكذا ينبغي التأدب في مثل هذا كما قال ﷺ: «والشر ليس إليك».

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة ٧٦٠، والنسائي في الافتتاح ٨٩٧، والترمذي في الدعوات ٣٤٢٢ من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ الصالحون: جمع صالح، والصالح من صلح عمله بأن جمع بين الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ.

﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ أي: ومنا من هم دون الصالحين أي: مقتصدون، وقيل: ومنا غير ذلك أي: فساق وفجار وكفار.

﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ بيان لقوله ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾.

والطرائق: جمع طريقة، والقدد: جمع قدة، وهي الضروب والأجناس المختلفة، أي: كنا أصنافاً مختلفة، ومللاً ونحلاً شتى، ذوي مذاهب متفرقة، وآراء وأهواء متباينة.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: وأنا تيقنا أننا لن نعجز الله في الأرض ولن نفوته إذا طلبنا، ولن نستطيع الخروج من حكمه وقدرته.

﴿وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ أي: ولن نعجزه هاربين، ولو أمعنا في الهرب فهو علينا قادر وحكمه فينا نافذ سبحانه وتعالى.

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي: وأنا لما سمعنا الهدى، أي: القرآن الكريم الهادي إلى الصراط المستقيم، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

﴿ءَامَنَّا بِهِۦۖ﴾ أي: صدقنا به بقلوبنا وألسنتنا، وانقدنا بجوارحنا، وهم بهذا يفتخرون وحق لهم ذلك فإن الإيمان بالله والانقياد لأمره أعظم شرف وأعلى درجة يصل إليها البشر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ﴾ أي: فمن يؤمن بربوبيته ـ عز وجل ـ وألوهيته وأسمائه وصفاته، وينقد لشرعه.

﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ البخس: النقص، والرهق: الزيادة، أي: فلا يخاف نقصاً في حسناته وثوابه، ولا زيادة في سيئاته وعقابه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

وإذا سلم المؤمن من البخس والرهق والظلم والهضم حصل له الخير. وقال تعالى:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٦، ٧]، وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الزمر: ٧].

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾ أي: المنقادون بجوارحهم لأمر الله وشرعه الخاضعون له بالطاعة.

والإسلام: هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك.

﴿وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ أي: الجائرون العادلون عن طريق الحق وعن الصراط المستقيم، مأخوذ من «قسط» الثلاثي بمعنى جار وظلم، وليس من «أقسط» الرباعي الذي معناه: عدل وأنصف، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢، الحجرات: ٩، الممتحنة: ٨]. وقوله ﷺ: «إن المقسطين على منابر من نور يوم القيامة»[(١)].

﴿فَمَنْ أَسْلَمَ﴾ أي: فالذي أسلم، أو فالذين أسلموا ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أشاروا إليهم بإشارة الجمع باعتبار معنى «من» وأشاروا إليهم بإشارة البعيد تعظيماً لشأنهم.

﴿تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ أي: طلبوا وتوخوا وأصابوا طريق الرشاد والفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة والفوز بالجنة والنجاة من النار، وبحثوا عنه كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝﴾ [الليل: ٥- ١٠].

﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ أي: للنار وقوداً تسعر وتوقد بهم جزاء ظلمهم وكفرهم، كما قال تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤، التحريم: ٦].

وسميت النار بجهنم لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها، وشدة حرها أعاذنا الله وجميع المسلمين منها.

قال ابن القيم[(٢)]: «قد تضمنت هذه الآيات انقسامهم إلى ثلاث طبقات: صالحين، ودون الصالحين، وكفار، وهذه الطبقات بإزاء طبقات بني آدم، فإنها ثلاثة: أبرار، ومقتصدون، وكفار، فالصالحون بإزاء الأبرار، ومن دونهم بإزاء المقتصدين، والقاسطون

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة ١٨٢٧، والنسائي في آداب القضاة ٥٣٧٩ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
(٢) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٤٥.

بإزاء الكفار، وهذا كما قسم سبحانه بني إسرائيل إلى هذه الأقسام الثلاثة في قوله: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]».

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ أي: وأن لو استمروا على الطريق والنهج والمسلك المذكور نهج القاسطين ومسلكهم مسلك الظلم والجور.

﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ أي: لأسقيناهم ماءً كثيراً يكون سبباً لسعة رزقهم ورغدهم.

﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي: لنختبرهم ونبتليهم في سعة الرزق استدراجاً لهم كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

ويؤيد هذا المعنى من السياق قبله قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ فأقرب ما تفسر به الطريقة مسلك هؤلاء، وقوله بعده ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾.

ويحتمل أن معنى الآية ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ المثلى طريقة الإسلام الملة الحنيفية وثبتوا واستمروا عليها ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ كثيراً غزيراً يكون سبباً لسعة رزقهم كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي: لنختبرهم ونبتليهم فيما أعطيناهم أيشكرون فيستمرون على الاستقامة والطاعة أم تبطرهم النعمة فيرتدون ويكفرون. ويقوي هذا القول حمل الاستقامة على المعنى الظاهر والمتبادر منها وهو الاستقامة على الإسلام وطاعة الله تعالى. لكن يضعفه قوله ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ لأن الله عز وجل وعد المؤمنين المستقيمين على أمره وطاعته بتوسيع الرزق لا ليفتنهم بل إكراماً لهم كما في الآيتين المذكورتين، وكما هو مقتضى دلالة عموم نصوص الكتاب والسنة، وإن كان كثرة المال والرزق قد تكون في الأصل فتنة لكن لغير من وفقهم الله للاستقامة على دينه وطاعته، فإن الله يدرأ عنهم أسباب الفتنة ويحفظهم كما حفظوه، ما لم يغتروا بأنفسهم وهذا ينافي استقامتهم على طاعة الله تعالى.

فالسياق السابق واللاحق وقوله ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ كل هذا يقوي الاحتمال الأول،

ولهذا قال ابن كثير[1] بعد ذكره: «وله اتجاه، ويتأيد بقوله ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾».

﴿وَمَن يُعْرِضْ﴾ أي: ومن يعرض بقلبه ويتول ببدنه ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾ أي: عما أنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ من القرآن والسنة، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٤].

﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم ويعقوب «يسلكه» بالياء، وقرأ الباقون «نسلكه» بالنون.

ومعنى «يسلكه» يدخله كما قال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾ [المدثر: ٤٢]، أي: ما ادخلكم فيها وقال تعالى: ﴿ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٢] ومعنى الآية: يدخله عذاباً شاقاً يعلوه ويغلبه، كما قال تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ [المدثر: ١٧]، أي: ساكلفه مشقة من العذاب، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

ويؤخذ من هذا أن الجن كالإنس مكلفون مجزيون بأعمالهم.

الفوائد والعبر:

١- أن الجن مذاهب مختلفة وملل شتى، منهم الصالحون ومنهم دون ذلك، ومنهم المسلمون، ومنهم القاسطون الجائرون الظالمون.

٢- إثبات أن الله عز وجل لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وبهذا أيقن هؤلاء النفر من الجن بتوفيق الله لهم لما سمعوا القرآن.

٣- اعتزاز هؤلاء النفر من الجن بإيمانهم بالقرآن وما فيه من الهدى لما سمعوه وفرحهم واستبشارهم بذلك.

٤- ما أسعد من آمن بربه واستقام على شرعه يوفى أجره كاملاً من غير نقص من حسناته ولا زيادة في سيئاته.

٥- الوعد والبشارة والتهنئة لمن أسلموا بإصابتهم طريق الرشد والخير والسعادة في الدنيا والآخرة.

٦- الوعيد للقاسطين الظالمين بكونهم لجهنم وقوداً وحطباً.

٧- أن الاستقامة على دين الله وطاعته سبب لنزول الأمطار والبركات والخيرات.

٨- أن إنزال المطر وإغداق النعم قد يكون ابتلاءً وامتحاناً واستدراجاً.

٩- إثبات ربوبية الله الخاصة لعباده المؤمنين، وربوبيته العامة لجميع الخلق.

٩- الوعيد والتهديد لمن يعرض عن ذكر ربه بإدخاله في العذاب الشديد.

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٧٠.

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَـٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَـٰلَـٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ﴾ الواو: عاطفة. و«المساجد» مواضع الصلاة والسجود لله وعبادته.

﴿لِلَّهِ﴾ أي: لعبادته خاصة.

﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ أي: فلا تدعوا مع الله أحدا من الخلق، لا دعاء عبادة، ولا دعاء مسألة، أي: اعبدوه في هذه المساجد وحده ولا تشركوا معه أحداً، وفي هذا تحذير للمسلمين من أن يقعوا فيما وقع فيه اليهود والنصارى من الإشراك بالله في كنائسهم وبِيَعهم.

وقيل المراد بالمساجد أعضاء السجود، أي: هي لله فلا تسجدوا بها لغيره وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أسجد على سبعة أعظم: على الجبهة، وأشار بيده إلى أنفه، واليدين والركبتين وأطراف القدمين»[1].

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ قرأ نافع وأبو بكر عن عاصم بكسر الهمزة (وإنه) وقرأ الباقون بفتحها.

أي: وأنه لما قام عبد الله ورسوله محمد ﷺ يسأله ويتعبد له ويقرأ القرآن ويدعو إلى الله.

وأطلق عليه وصف العبودية، فقال «عبد الله» في مقام الدعاء والعبادة وهو من أعظم المقامات ولم يقل: وأنه لما قام رسوله أو نبيه يدعوه، لأن العبودية لله أشرف الأوصاف التي يوصف بها البشر من الرسل والأنبياء وغيرهم، ولهذا وصفه بها في مقام الإسراء والقرب منه عز وجل فقال: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، ولم يقل برسوله ولا بنبيه.

﴿كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ اللبد: الشيء الكثير المتراكم والمتلبد بعضه على بعض، أي: كاد الإنس والجن يتلبدون على النبي ﷺ أي: يجتمعون على عداوته، ورد دعوته.

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٨١٢، ومسلم في الصلاة – أعضاء السجود ٤٩٠، وأبو داود في الصلاة ٨٨٩، والنسائي في التطبيق ١٠٩٧، والترمذي في الصلاة ٢٧٣، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها ٨٨٣.

ويقويه قوله بعد ذلك: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾.

قال ابن كثير[1]: «وهو الأظهر لقوله بعده ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أي: قال[2] لهم الرسول حين آذوه وخالفوه وكذبوه وتظاهروا عليه، ليبطلوا ما جاء به من الحق، واجتمعوا على عداوته: ﴿إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي﴾ أي: إنما أعبد ربي وحده لا شريك له، وأستجير به وأتوكل عليه، ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾».

ويحتمل أن يكون معنى ﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ أي: كادوا يتراكمون عليه ﷺ حرصاً على اتباعه واستماع دعائه ﷺ وقراءته.

وقيل: إن الجن لما رأوا النبي ﷺ يصلي بأصحابه وائتمامهم به في ركوعه وسجوده وقيامه وجلوسه عجبوا من طواعية أصحابه، فقالوا لقومهم ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾، أي: كاد أصحابه من شدة متابعتهم له في صلاته أن يتلبدوا عليه.

﴿قُلْ﴾ قرأ أبو جعفر وعاصم وحمزة (قل) بغير ألف على الأمر، وقرأ الباقون (قال) بالألف على الخبر.

أي: قل يا محمد لهؤلاء الذين تلبدوا عليك مبيناً لهم منهجك وطريقتك وحقيقة ما تدعو إليه ﴿إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي﴾ «إنما» أداة حصر، ﴿أَدْعُواْ رَبِّي﴾ أي: أعبده وأسأله وأدعو إليه وحده ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ﴾ أي: بربي ﴿أَحَدًا﴾ من الشركاء، أو من الخلق، وهو تأكيد لعبادته له وحده.

وهذا إعلان منه ﷺ لمن اجتمعوا على عداواته أن هذا منهجه وطريقه وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإعلان منه لمن استمعوا إليه من الجن ولغيرهم أن هذا سبيله وطريق دعوته.

﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ أي: إني عبد ليس لي من التصرف شيء، فلا أملك لكم ضراً ولا نفعاً ولا غواية ولا رشداً ولا شراً ولا خيرا، بل مُلك ذلك وأمره كله لله عز وجل كما قال عز وجل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، وقال عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٧٢.

(٢) على قراءة الجمهور.

صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ أي: لن يمنعني من الله أحد إن أنا عصيته، أي: فلا يستطيع أحد نصرتي ودفع عذاب الله عني، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾ [يس: ٢٣].

﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ أي: ولن أجد من دون الله عز وجل ملجأ أركن إليه ولا نصيراً، لأنه لا ملجأ ولا منجا منه تعالى إلا إليه كما قال نوح عليه السلام ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣].

وإذا كان الرسول ﷺ وهو أشرف الخلق وسيد ولد آدم لا يملك ضراً ولا رشداً، ولا مجير له من الله، ولا ملجأ له من دون الله ولا نصير فغيره من الخلق من باب أولى وأحرى، وفي هذا رد على من يغلون به ﷺ وعلى من يغلون بالأولياء وأصحاب القبور ويطلبون منهم المدد وقضاء الحاجات.

﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ «إلا» أداة استثناء، والمعنى: إلا إبلاغ أمر الله ورسالاته إلى الناس، أي: ليس لي مزية على الناس إلا أن الله خصني بإبلاغ رسالاته إليهم، وهذا مستثنى من قوله ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ اي: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ اي: إلا تبليغ أمر الله ورسالاته فانا املكه. كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف: ١٨٨].

ويحتمل أن يكون الاستثناء من قوله ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ اي: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ فذلك وسيلتي إلى الله عز وجل للنجاة والخلاص من عذابه، قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥].

فالإيمان والعمل الصالح هما سبب النجاة والخلاص بتوفيق الله عز وجل وهما الوسيلة التي يتوسل بها العبد إلى ربه عز وجل ومن هذا توسل الثلاثة الذين دخلوا الغار فانطبقت عليهم الصخرة بصالح أعمالهم كما في حديث عبد الله بن عمر رضي الله

عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم حتى أووا المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، فقال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا اغبق قبلهما أهلاً أو مالاً، فنأى بي طلب الشجر فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين، وكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً، وكرهت أن أوقظهما فلبثت والقدح في يدي والصبية يتضاغون تحت قدمي، حتى برق الفجر فاستيقظا فشربا غبوقهما. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرّج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت شيئاً لكنهم لا يستطيعون الخروج...» الحديث[1].

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بمخالفة أمر الله ورسوله وارتكاب ما نهى الله عنه ورسوله بالكفر والتكذيب.

﴿فَإِنَّ لَهُۥ﴾ أي: فإن الله أعد له مجازاة له ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾ لا مفر له عنها ولا محيد، وسميت نار جهنم لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدة حرها.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ «خالدين» حال، وجمعت باعتبار معنى «من» وحيث رتب الله على المعصية هنا الخلود في جهنم فإن المراد بالمعصية الكفر المخرج من الملة، لأنه لا يخلد في النار إلا من مات على الكفر وهذه الآية هي الآية الثالثة في القرآن التي فيها التصريح بأبدية خلود أهل النار فيها، مع قوله تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾ [الآيتان: ١٦٨، ١٦٩]، وقوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾ [الآيتان: ٦٤، ٦٥].

وقد اختلف أهل العلم في تأبيد النار وتأبيد المعذبين فيها الذين ماتوا على الكفر على قولين الصحيح منهما كما هو صريح هذه الآيات أن النار لا تفنى ولا يفنى عذابها وهو قول جمهور أهل العلم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ أي: حتى إذا رأى من عصوا الله ورسوله من الجن والإنس الذي يوعدون يوم القيامة من الأهوال والعذاب بالنار، وشاهدوه عياناً وجزموا

---

(١) أخرجه البخاري في الإجارة ٢٢٧٢، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٢٧٤٣.

أنه واقع بهم ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾ أي: فسيعلمون حقيقة العلم يومئذ من الذي هو أضعف ناصراً، وأقل عدداً، أهم، أم المؤمنون، وأنهم هم الأضعف ناصراً، فلا أحد في ذلك ينصرهم، ولا هم ينتصرون بأنفسهم وأنهم هم الأقلون عدداً بالنسبة لأولياء الله المفلحين وجنده الأكثرين كما قال عز وجل ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾ [الفتح: ٧].

فحيث كانوا في الدنيا ينتقصون المؤمنين بضعف أنصارهم وقلة عددهم، ويفتخرون عليهم بقوة أنصارهم وكثرة عددهم جازاهم الله بنقيض ذلك فأبان لهم ضعفهم وضعف أنصارهم وقلة عددهم.

الفوائد والعبر:

١- وجوب إخلاص العبادة لله ـ عز وجل ـ بلا شريك، وأن المساجد إنما بنيت لعبادة الله عز وجل وحده، فلا يدعى معه فيها غيره، ولا يمنع أحد من ذكر الله عز وجل فيها.

٢ـ تشريفه ﷺ بالعبودية الخاصة لله ـ عز وجل، وهي أشرف ما يوصف به البشر.

٣- اجتماع الكفرة والمكذبين من الجن والإنس على عداوة الرسول ﷺ والكيد له ولدعوته.

٤- إعلان الرسول ﷺ إخلاص العبادة لربه عز وجل والبراءة من الشرك، ومن الحول والقوة وأنه لا يملك للخلق ضراً ولا نفعاً وأنه لا مجير له من الله إن خالف أمره ولا ملجأ له من دونه.

٥ـ إثبات ربوبيته ـ عز وجل ـ الخاصة ـ له ﷺ.

٦- أن مهمة الرسول ﷺ هي إبلاغ رسالة ربه.

٧- الوعيد الشديد لمن يعصي الله ورسوله بالخلود في نار جهنم خلوداً أبدياً.

٨- أن النار لا تفنى ولا يفنى عذاب المخلدين فيها.

٩- أن الجزاء من جنس العمل فحيث كان الكفرة والمكذبون يفتخرون في الدنيا بقوتهم وقوة أنصارهم وكثرة عددهم فيوم القيامة حين يرون العذاب يعلمون أنهم هم الأضعفون الأقلون فلا ناصر ينصرهم ويدفع عنهم عذاب الله عز وجل وفي هذا أبلغ الوعيد والتهديد.

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ «إن» نافية أي: ما أدري ﴿أقريب ما توعدون﴾ الهمزة للاستفهام، و«ما» موصولة أو مصدرية، أي: أقريب الذي توعدون، أو أقريب وعدكم.

﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا﴾ «أم» حرف عطف. «أمدا» أي: مدة وغاية طويلة.

والمعنى: قل يا محمد للناس: لا أدري أقريب الذي توعدون وهو البعث وقيام الساعة والحساب ومجازاتكم على أعمالكم، أم يجعل له ربي مدة وغاية طويلة، كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال عز وجل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ [النازعات: ٤٢ – ٤٤].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه في قصة مجيء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ وسؤاله عن الإيمان والإسلام والإحسان وعن الساعة وأماراتها وفيها قول جبريل عليه السلام للنبي ﷺ: «وأخبرني عن الساعة، قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»[1].

وفي حديث أنس ـ رضي الله عنه: «أن أعرابياً نادى النبي ﷺ بصوت جهوري، فقال: يا محمد، متى الساعة؟ قال: «ويحك، إنها كائنة، فما أعددت لها؟»، قال: أما إني لم أعد لها كثرة صلاة ولا صيام ولكني أحب الله ورسوله، فقال: «فأنت مع من أحببت». قال أنس: فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث»[2].

وعن أبي ثعلبة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يعجز الله هذه الأمة من نصف يوم»[3].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إني لأرجو أن لا تعجز أمتي

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٠، ومسلم في الإيمان ٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٩١، وابن ماجه في المقدمة ٦٤.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٨٨، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٣٩، والترمذي في الزهد ٢٣٨٥.

(٣) أخرجه أبو داود في الملاحم ٤٣٤٩.

عند ربها أن يؤخرها نصف يوم» قيل لسعد: وكم نصف ذلك اليوم؟ قال: «خمسمائة سنة»[١].

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: عالم ما غاب عن الحواس من المخلوقات والأمور والأحوال السابقة واللاحقة وغير ذلك، لا يعلم ذلك غيره كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ [يونس: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النحل: ٧٧]، وعلمه عز وجل بالشهادة من باب أولى.

﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أي: فلا يُطلع على غيبه أحدا من خلقه.

وفي هذا رد على أدعياء علم الغيب من السحرة والكهان والرمالين والمنجمين وصدق الله العظيم ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ: ١٤]، وقد أحسن القائل:

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى ... ولا زاجرات الطير ما الله صانع

وقال الآخر:

أطلاب النجوم أحلتمونا ... على علم أدق من الهباء

كنوز الأرض لم تصلوا إليها ... فكيف وصلتمُ علم السماء

﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ «إلا» للاستثناء، و«من» موصولة، والمراد بالرسول في قوله مِن رَّسُولٍ جنس الرسل فيعم الرسل من الملائكة والبشر، والمعنى: إلا الذين رضي عنهم من رسله وارتضاهم لرسالاته، فإنه عز وجل يطلعهم بما اقتضت حكمته أن يطلعهم عليه من الغيب بطريق الوحي تأييداً لهم، ولهذا تضمن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الإخبار عن كثير من المغيبات السابقة واللاحقة وغيرها.

﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ أي: يجعل من أمامه ومن ورائه حرساً وحفظة من الملائكة يحفظون ما أوحاه الله إليه من الشياطين حتى يبلغه على حقيقته من غير زيادة ولا نقصان كما قال عز وجل ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

قال ابن كثير[٢]: «أي: يختصه بمزيد معقبات من الملائكة يحفظونه من أمر الله،

---

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم ٤٣٥٠.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٧٣.

ويساوقونه على ما معه من وحي الله».

﴿لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ اللام للتعليل، أي: أنه عز وجل يحفظ رسله بالملائكة ليتمكنوا من تبليغ رسالاته عز وجل للناس ليظهر في علمه عز وجل أن قد أبلغوا رسالات ربهم، كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١].

فعلى هذا يكون المعنى: ليظهر في علمه عز وجل أن الرسل بلغوا رسالات ربهم بما أطلعهم عليه بحكمته ووحيه من بعض المغيبات تأييداً لهم مع أنه عز وجل قدر الأشياء وعلمها قبل كونها، ولهذا قال عز وجل: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾.

ويحتمل أن الضمير في قوله ﴿لِيَعْلَمَ﴾ يعود إلى الرسول أي ليعلم محمد ﷺ أن الرسل قبله قد بلغت عن الله رسالاته وأن جبريل والملائكة حفظوها وبلغوها إليه ﷺ.

وقيل ليعلم الناس أن الرسل عليهم السلام بلغوا عن الله رسالاته، ويدل على هذا قراءة يعقوب: (لِيُعلم) بضم الياء، أي: ليعلم الناس أن الرسل قد بلغوا.

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أي: أحاط بما عندهم وما أسروه وما أعلنوه، فقدره وعلم به علماً تاماً قبل كونه وبعده.

﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾ أي: علم عدد الأشياء كلها وضبطها ضبطاً كاملاً، فلم يخف عليه منها شيء.

الفوائد والعبر:

١- أمر الله لرسوله ﷺ برد علم الساعة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال إليه عز وجل، لأنه ﷺ لا علم له بها لا هو ولا غيره من الخلق.

٢- إثبات ربوبيته - عز وجل - الخاصة لرسله عليهم الصلاة والسلام - تشريفاً وتكريماً لهم.

٣- لا يعلم الغيب إلا الله وحده، فلا يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل، وفي هذا رد على السحرة والكهنة والرمالين والمنجمين وأدعياء علم الغيب.

٤- أن الله عز وجل قد يطلع بعض من ارتضى من رسله على شيء من الغيب بطريق الوحي تأييداً لهم.

٥- حفظ الله عز وجل لرسله ولوحيه إليهم، ليبلغوه كما أوحاه الله إليهم وليظهر في علمه عز وجل أنهم أبلغوا رسالاته إلى الناس.

٦- إحاطة علم الله عز وجل بالخلق، وما عندهم سواء أسروه أو أعلنوه، تقديراً له وعلماً به قبل كونه وبعده.

٧- إحصاء الله عز وجل عدد الأشياء كلها وضبطه لها ضبطاً تاماً كاملاً.

تفسير سورة المزمل

عن جابر رضي الله عنه قال: «اجتمعت قريش في دار الندوة، فقالوا: سموا هذا الرجل اسماً تصدر الناس عنه، فقالوا: كاهن، قالوا: ليس بكاهن، قالوا: مجنون، قالوا: ليس بمجنون. قالوا: ساحر، قالوا: ليس بساحر. فتفرق المشركون على ذلك، فبلغ ذلك النبي ﷺ فتزمل في ثيابه وتدثر فيها، فأتاه جبريل عليه السلام، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾»(١).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ۝٩﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ «يا» حرف نداء، و«أي» منادى مبني على الضم في محل نصب، و«ها» للتنبيه، و«المزمل» صفة لأي، أو بدل. و«المزمل» أصلها «المتزمل» ثم أدغمت التاء في الزاي لقربها منها، أي: المتلفف بثيابه المتدثر بها، وذلك حصل منه ﷺ أول ما ابتدأه الله عز وجل بالوحي بواسطة جبريل عليه السلام فجاء ﷺ إلى أهله ترعد فرائصه وهو يقول: «زملوني زملوني» ولهذا ناداه الله عز وجل في مطلع هذه السورة بقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾.

﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ أي: قم للصلاة فيه ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أي: إلا قليلاً منه للنوم والراحة.

﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾، ﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾ بدل كل من «الليل» والضمير يعود إلى الليل، أي: نصف الليل ﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾ «أو» عاطفة في الموضعين تفيد التخيير، والضمير في قوله «منه» يعود إلى «نصفه» أي: أو انقص من نصفه قليلاً في حدود ما بين النصف إلى الثلث ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ الضمير في «عليه» يعود أيضاً إلى «نصفه» أي: أو زد على نصفه قليلاً في حدود ما بين النصف إلى الثلثين، يدل على هذا قوله في آخر السورة ﴿۞إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾ [الآية: ٢٠].

فأمر الله عز وجل نبيه ﷺ بقيام الليل إلا قليلاً، ثم بين مقدار وقت القيام من الليل

---

(١) أخرجه البزار فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٧٥ وقال البزار: معلى بن عبد الرحمن - يعني أحد رواة الحديث - : قد حدث عنه جماعة من أهل العلم، فاحتملوا حديثه، لكنه تفرد بأحاديث لا يتابع عليها».

وحدده بنصف الليل، أو أنقص منه قليلاً، أو أزيد عليه قليلاً، فخيره بين حالات ثلاث: قيام نصف الليل كاملاً، أو النقصان منه قليلاً، أو الزيادة عليه قليلاً، وهذا فيه تيسير عليه ﷺ، ولهذا قال عز وجل في آخر السورة ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ وفي الحديث: «استقيموا ولن تحصوا»[1].

وقد أوجب الله عز وجل على النبي ﷺ وعلى المؤمنين في مطلع هذه السورة قيام الليل، وبين مقداره، كما دل على وجوبه عليه ﷺ قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الآية: ٧٩]، ثم نسخ الله عز وجل وجوب ذلك في آخر السورة، فعن سعد بن هشام قال: انطلقنا إلى عائشة رضي الله عنها فاستأذنا عليها، فقلت: أنبئيني بقيام رسول الله ﷺ فقالت: «ألست تقرأ هذه السورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾؟ قلت: بلى، قالت: إن الله تعالى افترض القيام في أول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ على النبي ﷺ وعلى أصحابه حولاً، حتى انتفخت أقدامهم، فأمسك الله تعالى خاتمتها اثني عشر شهراً، ثم أنزل التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعاً، بعد أن كان فريضة»[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت أول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ كانوا يقومون نحواً من قيامهم في شهر رمضان، حتى نزل آخرها، وكان بين أولها وآخرها نحو من سنة»[3].

﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ أي: واقرأ القرآن بتمهل وترسل وتدبر لألفاظه ومعانيه وأحكامه وهكذا كان يقرأ ﷺ.

عن حفصة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يقرأ السورة فيرتلها، حتى تكون أطول من أطول منها»[4].

وعن أنس رضي الله عنه أنه سئل كيف كانت قراءة رسول الله ﷺ فقال: «كانت مداً، ثم قرأ: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ يمد بسم الله، ويمد بالرحمن، ويمد بالرحيم»[5].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الطهارة وسننها ٢٧٧، والدارمي في الطهارة ٦٥٥ من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها - جامع صلاة الليل ٧٤٦، وأبو داود في الصلاة - صلاة الليل ١٣٤٢، والنسائي في قيام الليل ١٦٠١، وأحمد ٦/ ٥٤.

(٣) أخرجه أبو داود في الصلاة - أبواب قيام الليل - باب نسخ قيام الليل والتيسير فيه ١٣٠٥، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٣٥٩، ٣٦٢ ، والبيهقي في سننه في الصلاة - قيام الليل ٢/ ٥٠٠، والحاكم في تفسير سورة المزمل ٢/ ٥٠٥. وقال: «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٧٣٣، والنسائي في قيام الليل وتطوع النهار ١٦٥٨، والترمذي في الصلاة ٣٧٣.

(٥) أخرجه البخاري في فضائل القرآن - مد القراءة ٥٤٠٦، وأبو داود في الصلاة ١٤٦٥، والنسائي في الافتتاح ١٠١٤، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها ١٣٥٣.

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يقطعُ قراءته آية آية: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤﴾»[(١)].

وأمْره ﷺ بترتيل القرآن أمر له ولأمته، وهكذا جاءت الأحاديث في استحباب الترتيل والأمر بتحسين الصوت بالقرآن والتغني به وفضل ذلك.

فعن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «زينوا أصواتكم بالقرآن»[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن، يجهر به»[(٣)].

وفي رواية «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن»[(٤)].

وأعجبه ﷺ صوت أبي موسى رضي الله عنه في قراءته القرآن، وامتدحه فقال: «لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود» فقال أبو موسى رضي الله عنه: «لو كنت علمت أنك تسمع قراءتي لحبرته لك تحبيرا»[(٥)].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل، كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»[(٦)].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «لا تنثروه نثر الدَّقل[(٧)]، ولا تهذوه هذّ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة»[(٨)].

وعن أبي وائل قال: جاء رجل إلى ابن مسعود رضي الله عنه فقال: قرأت المُفَصَّل الليلة في ركعة فقال: هذّاً كهذّ الشعر. لقد عرفت النظائر التي كان رسول الله ﷺ يقرن

---

(١) أخرجه الترمذي في القراءات - ما جاء كيف كانت قراءة النبي ﷺ ٢٩٢٧، وأحمد ٦/ ٣٠٢، والبغوي في «معالم التنزيل» ٤/ ٤٠٧.

(٢) أخرجه أبو داود في الوتر - استحباب الترتيل في القراءة ١٤٦٨، والنسائي في الافتتاح - باب تزيين القرآن بالصوت ١٠١٥، وابن ماجه في إقامة الصلاة - باب في حسن الصوت بالقرآن ١٣٤٢، وأحمد ٤/ ٢٨٣، ٢٨٥.

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد - باب قول الله تعالى: ﴿وأسروا قولكم أو اجهروا به﴾ ٧٥٢٧.

(٤) أخرجها مسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٧٩٢، وأبو داود في الصلاة ١٤٧٣، والنسائي في الافتتاح ١٠١٧.

(٥) أخرجه البخاري في فضائل القرآن - حسن الصوت بالقرآن ٥٠٤٨، ومسلم في صلاة المسافرين - استحباب تحسين الصوت بالقرآن ٧٩٣، والترمذي في المناقب ٣٨٥٥ - من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٦) أخرجه أبو داود في الوتر - استحباب الترتيل في القراءة ١٤٦٤، والترمذي في فضائل القرآن ٢٩١٤، وأحمد ٢/ ١٩٢.

(٧) الدقل: رديء التمر ويابسه. انظر «النهاية» مادة «دقل».

(٨) أخرجه البغوي في «معالم التنزيل» ٤/ ٤٠٧.

بينهن فذكر عشرين سورة من المُفَصّل، سورتين في كل ركعة»[١].

والأمر بترتيل القرآن لأجل ضبط ألفاظه وتحسين الصوت به، ولأجل تدبر معانيه وهو الأهم ولهذا قال بعد ذلك ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾.

وليس من الترتيل المأموربه الاهتمام باللفظ وتحسين الصوت به دون التدبر لمعاني القرآن وأحكامه ـ كما هو حال كثير ممن يقرؤون القرآن ـ فذلك لا يجدي شيئاً وقد قال ﷺ «يقرأ القرآن أناس من أمتى لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[٣]: «ولا يجعل همته فيما حجب به أكثر الناس من العلوم عن حقائق القرآن، إما بالوسوسة في خروج حروفه وترقيقها وتفخيمها، وإمالتها، والنطق بالمد الطويل والقصير والمتوسط وغير ذلك، فإن هذا حائل للقلوب قاطع لها عن فهم مراد الرب من كلامه. وكذلك شغل النطق بـ (أأنذرتهم)، وضم الميم من (عليهم) ووصلها بالواو وكسر الهاء وضمها ونحو ذلك، وكذلك مراعاة النغم وتحسين الصوت، وكذلك تتبع وجوه الإعراب واستخراج التأويلات المستكرهة التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالبيان وكذلك صرف الذهن إلى حكاية أقوال الناس ونتائج أفكارهم. وكذلك تأويل القرآن على قول من قلّد دينه أو مذهبه، فهو يتعسف بكل طريق حتى يجعل القرآن تبعاً لمذهبه وتقوية لقول إمامه، وكل هؤلاء محجوبون بما لديهم عن فهم مراد الله من كلامه في كثير من ذلك أو أكثره»

﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ اي: سنلقي عليك بإيحائنا إليك إما بواسطة ملك الوحي جبريل عليه السلام، وإما وحياً منه عز وجل، أو بتكليمه من وراء حجاب كما قال عز وجل: ﴿۞وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ۝٥١﴾ [الشورى: ٥١].

﴿قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ هو الوحي إليه بالقرآن الكريم عظيم المعاني جليل الأوصاف.

وهو ثقيل أشد ما يكون نزوله على النبي ﷺ لعظمته فعن زيد بن ثابت رضي الله

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان – الجمع بين السورتين في ركعة ٧٧٥، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٨٢٢، والنسائي في الافتتاح ١٠٠٥، والترمذي في الجمعة ٦٠٢.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ٥٠٥٨، ومسلم في الزكاة ١٠٦٤، وأبو داود في السنة ٤٧٦٤، والنسائي في الزكاة ٢٥٧٨ ـ من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه.

(٣) انظر «دقائق التفسير» ٦/٥.

عنه قال: «فأنزل الله تبارك وتعالى على رسوله ﷺ وفخذه على فخذي فثقلت عليّ حتى خفت أن ترض فخذي، ثم سُرّي عنه، فأنزل الله عز وجل ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾»[1].

وعن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فيفصم عني، وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني، فأعي ما يقول، قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي ﷺ في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً»[2].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: سألت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، هل تحس بالوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أسمع صلاصِلَ، ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إلي إلا ظننت أن نفسي تفيض»[3].

وعن عائشة رضي الله عنه قالت: «إن كان ليوحَى إلى رسول الله ﷺ وهو على راحلته، فتضرب بجرانها[4]»[5].

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بقوله ﴿ثَقِيلًا﴾ أي: ثقيلاً العمل به على المكلفين، واختار الطبري أنه ثقيل من الوجهين[6].

لكن ينبغي أن يعلم أن العمل بالقرآن خفيف على من وفقه الله عز وجل لأن الله عز وجل وضع ببعثة النبي ﷺ وبما أوحى إليه من القرآن والسنة الآصار والأغلال عن هذه الأمة كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

بل إن الموفق حقاً يجد في تطبيق أحكام القرآن والسنة الراحة واللذة والسرور والطمأنينة وقوة المعنوية والنشاط ولهذا قال ﷺ لبلال: «أرحنا يا بلال بالصلاة»[7]

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٣٢، ومسلم في الإمارة ١٨٩٨، والنسائي في الجهاد ٣٠٩٩، والترمذي في التفسير ٣٠٣٣.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٢، والنسائي في الافتتاح ٩٣٤، والترمذي في المناقب ٣٦٣، وأخرجه مسلم مختصراً في الفضائل ٢٣٣٣.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٢٢٢.

(٤) الجران: باطن العنق، والمعنى: أنها تثبت في مكانها، ولا تستطيع الحركة ولا السير.

(٥) أخرجه أحمد ٢/ ١١٨.

(٦) انظر «جامع البيان» ٢٣/ ٣٦٦.

(٧) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٩٨٦، وأحمد ٥/ ٣٧١ ـ عن عبدالله محمد بن الحنفية عن صهر لهم من الأنصار وأخرجه أحمد أيضا ٥/ ٣٦٤ ـ عن سالم بن أبي الجعد عن رجل من أسلم أن النبي ﷺ قال: «يا بلال أرحنا بالصلاة»

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ أي: القيام والعبادة فيه، في جميع أوقاته وساعاته وآنائه، أي: الليل كله، وبخاصة ما كان منه بعد النوم والراحة واستعادة الجسم والفكر نشاطه وحيويته، وتطلق أيضاً ناشئة الليل على الفعل الذي ينشأ فيه، أي: على القيام نفسه لأنه ينشأ في الليل.

﴿هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا﴾ قرأ أبو عمرو وابن عامر (وِطاءً) بكسر الواو وفتح الطاء وألف ممدودة بعدها، وقرأ الباقون (وَطْئاً) بفتح الواو وإسكان الطاء من غير مد أي: أشد مواطأة بين القلب واللسان، أي: إن قيام الليل والصلاة والقراءة فيه أشد مواطأة بين القلب واللسان، أي: يوافق فيها القلب اللسان، بحيث يتدبر القارئ ما يقرأ، وهو المقصود الأهم من القراءة.

﴿وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ أي: أقوم قولاً وأصوب وأثبت قراءة.

قال ابن كثير[1]: «والمقصود أن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان، وأجمع على التلاوة، أي: أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار، لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش».

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾ أي: فراغاً طويلاً وتقلباً وتصرفا في قضاء حوائجك وذلك كافٍ، فتفرغ في الليل للقيام والصلاة.

﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ بأنواع الذكر بالقلب واللسان، وبالعبادات القولية والفعلية، البدنية والمالية وغير ذلك.

﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ أي: انقطع إليه انقطاعاً وأنب إليه وتعلق به بقلبك وأخلص له العمل، وتفرغ لعبادته، إذا انتهيت من قضاء حوائجك وأشغالك، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ۝﴾ [الانشراح: ٧، ٨].

ويؤخذ من قوله ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝﴾ أن التبتل والانقطاع إلى الله عز وجل وإلى عبادته إنما يكون بعد قضاء الإنسان الحوائج والمشاغل، وإعطاء الجسم الراحة الكافية، لا كما أراد الذين نهاهم النبي ﷺ عن التبتل، لأنهم أرادوا الانقطاع للعبادة وتحريم ما أحل الله لهم والمشقة على أنفسهم وترك مشاغلهم وحوائجهم.

﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ قرأ ابن عامر ويعقوب وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم

---

(١) في «تفسيره» ٨/٢٧٨.

(ربِ) بكسر الباء وقرأ الباقون برفعها.

أي: رب مشرق الشمس والكواكب ومغربها، خالقه ومالكه ومدبره والمتصرف فيه.

والمشرق والمغرب: اسم جنس يشمل المشارق والمغارب كلها.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحق إلا هو سبحانه وتعالى.

﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ أي: فاجعله وكيلا تتوكل وتعتمد عليه، وتفوض إليه جميع أمور دينك ودنياك مع تمام الثقة به سبحانه وتعالى.

وكثيراً ما يقرن الله عز وجل بين الأمر بعبادته والتوكل عليه، لأنه لا يستقيم أحدهما بدون الآخر، قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

الفوائد والعبر:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام.

٢- وجوب قيام الليل على النبي ﷺ وعلى أمته وهذا في أول الإسلام.

٣- مشروعية ترتيل القرآن الكريم وتدبر ألفاظه ومعانيه وأحكامه.

٤- أن القرآن الكريم ثقيل على النبي ﷺ حال نزوله، وهو أيضاً ثقيل في أحكامه إلا على من وفقه الله وخففها عليه.

٥- أن ساعات الليل هي أشد صفاء للذهن وحضوراً للقلب يواطئ فيها القلب اللسان، ويجمع فيها القارئ بين القراءة والتدبر.

٦- نعمة الله عز وجل على الخلق في خلق الليل والنهار، وجعل النهار وقتاً لطلب الرزق وقضاء الحاجات وجعل الليل وقتاً للراحة والنوم وقيام ما تيسر منه.

٧- في مراعاة سنن الله الكونية وجعل النهار وقتا لطلب الرزق والعمل، والليل للنوم والراحة وقيام ما تيسر - انتظام أمور الحياة الدينية والدنيويه وصلاحها وفي عكس ذلك قلب للموازين وإضطراب أمور الحياة وفسادها.

٨- الأمر بذكر الله عز وجل بالقلب واللسان والجوارح بأنواع الذكر القولية والفعلية، والانقطاع إليه عز وجل بالعبادة بعد الفراغ من المشاغل والحوائج التي لابد منها.

٩- إثبات عظمة الله عز وجل وربوبيته الخاصة لنبيه ﷺ وربوبيته العامة للمشارق والمغارب وغير ذلك، وانفراده عز وجل بالألوهية.

١٠- وجوب إخلاص العبادة لله عز وجل والاعتماد عليه وحده دون سواه.

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُولِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

أمر الله عز وجل نبيه ﷺ بقيام الليل وترتيل القرآن وتدبره، وذكر الله عز وجل والانقطاع إليه بالعبادة والتوكل عليه مما يعطيه الزاد الروحي والمعنوي على تحمل أعباء الرسالة، وما يلاقيه في سبيلها، ثم أمره بعد ذلك بالصبر على أذى المكذبين وهجرهم، وتوعدهم عز وجل بالعذاب.

قوله: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ الواو: عاطفة، و(ما) موصولة بمعنى (الذي) تفيد العموم، أي: اصبر على جميع ما يقولون مما يخالف ما جئت به ويؤذيك، من الإشراك مع الله غيره ونحو ذلك، ومن رميك بالسحر والشعر والكهانة والجنون، والافتراء والكذب ونحو ذلك. وقد تكون «ما» مصدرية، أي: اصبر على قولهم.

﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ الهجر: الترك ﴿جَمِيلًا﴾ أي: حسناً، أي: واتركهم تركاً حسناً لا جزع فيه، ولا قلق.

قال الطبري[1]: «والهجر الجميل هو الهجر في ذات الله، كما قال عز وجل: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام: ٦٨]».

﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: ودعني واتركني والمكذبين فأنا أتولى عقابهم وعذابهم، ولا تشغل نفسك بهم، وهذا وعيد شديد وتهديد أكيد للمكذبين للرسول ﷺ.

﴿أُولِي ٱلنَّعْمَةِ﴾ أرباب وأصحاب التنعم والترف وغضارة العيش، وأصحاب الأموال والغنى الذين أطغتهم النعمة، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ أي: أمهلهم وأنظرهم قليلاً من الوقت، كما قال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ

---

(١) في «جامع البيان» ٢٣/ ٣٨٠.

ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾ [الطارق: ١٧].

فالله عز وجل يمهل ولا يهمل، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣]، وقال تعالى: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥]، وقال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٢٤].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما نزلت هذه الآية: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾﴾ الآية، قالت: لم يكن إلا يسيراً حتى كانت وقعة بدر»[1].

ويؤخذ من الآية: التحذير من الانشغال بالنعم والأموال وأنها قد تحمل الإنسان على البطر والأشر والكبر ورد الحق والصد عن سبيل الله كما قال نوح عليه السلام ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾ [نوح: ٢١]، وقال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾ [التكاثر: ١، ٢]، وقال ﷺ: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»[2].

﴿إِنَّ لَدَيْنَآ﴾ أي: إن عندنا جاهزاً معداً ﴿أَنكَالًا﴾ قيوداً شديدة، ﴿وَجَحِيمًا﴾ أي: وناراً مستعرة ملتهبة مضطرمة حامية شديدة الحر، بعيدة القعر.

﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ أي: ذا نشوب في الحلق فلا ينساغ، ولا يدخل، ولا يخرج لما فيه من الشوك، ولمرارته وبشاعته وكراهة طعمه ونتن ريحه وخبثه.

﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: عذاباً مؤلماً، موجعاً حسياً للأبدان ومعنوياً للقلوب.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ «يوم» ظرف للوعيد الذي توعدوا به أي: يكون ذلك النكال والجحيم والطعام ذو الغصة والعذاب الأليم ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ اي: يوم وحين تهتز الأرض والجبال وتضطرب وتتزلزل، كما قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١]، وقال تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ [الواقعة: ٤، ٥]، وقال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ [الحاقة: ١٤].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٣٨١.
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ٩١، والترمذي في البر والصلة ١٩٩٩ ـ من حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه.

﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ الراسيات الصم الصلاب، ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ أي: تحولت وصارت كثباناً وأكواماً من الرمل، ﴿مَّهِيلًا﴾ رخواً ليناً ينتثر بعضه على بعض بعد أن كانت حجارة صلبة صماء ثابتة.

فالأرض والجبال على عظمتها في ذلك اليوم يعتريها من أمر الله ما يعتريها فتتبدل وتتغير، وهذا يدل على أن دوام الحال من المحال، وأن البقاء للحي الذي لا يموت سبحانه، فليعتبر أولو الألباب.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾ الخطاب لأهل مكة وغيرهم من الأمة امتناناً عليهم والمراد بالرسول محمد ﷺ.

﴿شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ أي: شاهداً عليكم بأعمالكم، كما قال عز وجل: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: «اقرأ عليَّ، قلت: أقرأ عليك القرآن وعليك أنزل؟!، قال إني أحب أن أسمعه من غيري، قال: فقرأت من أول سورة النساء حتى وصلت إلى قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ قال: حسبك، فنظرت إليه، فإذا عيناه تذرفان»[1].

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ وهو موسى بن عمران عليه وعلى نبينا وعلى جميع الأنبياء أفضل الصلاة والسلام، وفرعون هو ملك مصر في عهد موسى، وهو أشد الفراعنة كفراً.

﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ «ال» في «الرسول» للعهد الذكري، أي: الرسول المذكور آنفاً الذي أرسل إلى فرعون، وهو موسى عليه السلام.

أي: خالف فرعون موسى عليه السلام فيما جاء به من عند الله من وجوب عبادة الله وحده، بل ادعى الألوهية والربوبية فقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ أي: فأخذناه أخذاً شديداً بليغاً ثقيلاً، وعاقبناه عقاباً أليما، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ٤٥٨٢، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٨٠٠، وأبو داود في العلم ٣٦٦٨، والترمذي في التفسير ٣٠٢٤، وابن ماجه في الزهد ٤١٩٤.

﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ﴾ [الذاريات: ٤٠].

وفي ضمن هذا الخبر من الله عز وجل تحذير للمشركين من أهل مكة وغيرهم ممن كذّب محمداً ﷺ وهو أفضل الرسل أن يحل بهم ما حل بفرعون من الأخذ الشديد والنكال العظيم حين كذب موسى عليه السلام، بل بعذاب أشد من ذلك كيف؟ وقد كذبوا أفضل الرسل وسيد ولد آدم عليه أفضل الصلاة والسلام.

﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾ الاستفهام فيه معنى التعجب، و«يوما» مفعول لـ «تتقون» أي: فكيف تجعلون لكم وقاية إن كفرتم من عذاب يوم يجعل الولدان الصغار شيباً، يعني يوم القيامة.

وقيل: «يوماً» معمول لكفرتم، أي: كيف يحصل لكم تقوى إن كفرتم يوم القيامة وجحدتموه، أي: كذبتم به، وأنكرتم البعث والحساب والجزاء على الأعمال، لأن الإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان كما في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سؤال جبريل عن الإسلام والإيمان والإحسان، وفيه «الإيمان: أن تؤمن بالله ملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»[1].

ونكّر «يوماً» للتعظيم والتفخيم لشدة أهواله، أي: يوماً عظيماً ثقيلاً، هوله شديد، وشره مستطير كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ [الحج: ١، ٢]، وقال تعالى في مدح الرجال المسبحين بالغدو والآصال ﴿يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [النور: ٣٧]، وقال تعالى في وصف الأبرار: ﴿وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾ [الإنسان: ٧]، وأنهم يقولون: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا﴾ [الإنسان: ١٠].

وقال تعالى في وصف المكذبين: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ [الإنسان: ٢٧].

ومعنى قوله: ﴿يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾ أي: يشيب من شدة أهواله الولدان.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾، قال: «ذلك يوم القيامة، وذلك يوم يقول الله لآدم: قم فابعث من ذريتك بعثاً إلى النار،

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٠، ومسلم في الإيمان ٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٩١، وابن ماجه في المقدمة ٦٤.

قال: من كم يارب؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون، وينجو واحد» فاشتد ذلك على المسلمين، وعرف ذلك رسول الله ﷺ، ثم قال حين أبصر ذلك في وجوههم: «إن بني آدم كثير، وإن يأجوج ومأجوج من ولد آدم، وإنه لا يموت منهم رجل حتى ينتشر لصلبه ألف رجل، ففيهم وفي أشباههم جنة لكم»(١).

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ﴾ أي: السماء منشق بسبب شدة أهوال ذلك اليوم، أو السماء منشق في ذلك اليوم لشدة أهواله، كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ [الانفطار: ١]، وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ [الانشقاق: ١]، وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٦]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧].

﴿كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا﴾ أي: كان وعد هذا اليوم واقعاً متحققاً لا محالة ولا بد، ويمكن أن يعود الضمير إلى الله عز وجل وهو وإن لم يذكر قريباً إلا أنه معلوم، والمعنى عليه صحيح، أي: كان وعد الله بمجيء يوم القيامة واقعاً لا محالة.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ أي: إن هذه السورة وهذه الآيات في ذكر القيامة وأهوالها وأحوالها ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾ أي: تذكير وموعظة وعبرة لمن يتذكر ويتعظ ويعتبر وينزجر، وهم المؤمنون كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠].

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: فمن شاء جعل إلى ربه طريقاً موصلاً إليه باتباع رسوله ووحيه وشرعه كما قال ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ [الأنعام: ١٥٣]،

وذلك ممن شاء الله هدايته كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [الإنسان: ٣٠].

ويؤخذ من الآية إثبات المشيئة للعبد وأنه ليس مجبوراً على أفعاله، كما تقول الطائفة الجبرية.

---

(١) أخرجه الطبراني فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٨٣، وقال ابن كثير: «حديث غريب».

الفوائد والعبر:

١- تقوية الله عز وجل لقلب النبي ﷺ بأمره بالصبر على أذى المشركين وهجرهم هجراً جميلاً لا جزع فيه ولا قلق، وترك أمرهم إلى الله عز وجل.

٢- الوعيد الشديد والتهديد الأكيد للمكذبين للرسول ﷺ وبيان عظم ما أعد لهم من الأنكال والجحيم والطعام ذي الغصة والعذاب الأليم، في يوم شديدة أهواله، فيه ترجف الأرض والجبال وتتحول الجبال كثيباً مهيلاً.

٣- أن التنعم والترف من أسباب الطغيان ورد الحق وتكذيبه.

٤- أن الله عز وجل يمهل ولا يهمل.

٥- إثبات رسالة نبينا محمد ﷺ وشهادته على أمته.

٦- إثبات رسالة موسى عليه السلام إلى فرعون ومعصية فرعون ومكابرته وأخذه أخذاً شديداً وإغراقه.

٧- تخويف الكافرين والمكذبين وتحذيرهم من عذاب يوم عظيم يشيب من هوله الولدان وتنفطر به السماء وهو آت لا محالة.

٨- إثبات أن هذه السورة وهذه الآيات تذكير وموعظة للناس.

٩- إثبات المشيئة للإنسان فإن شاء سلك الطريق المؤدي إلى ربه طريق السعادة والنجاة، وإن شاء سلك غيره من السبل المؤدية إلى الهلاك وفي هذا الرد على الجبرية.

١٠- إثبات ربوبية الله - عز وجل - الخاصة لأوليائه.

﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾.

أمر الله عز وجل نبيه ﷺ في مطلع السورة بقيام الليل وأوجبه عليه وعلى المؤمنين ثم نسخ وجوب ذلك تخفيفاً عليه ﷺ وعلى أمته في هذه الآية، بعد أن قام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً كاملاً كما جاء ذلك في حديث عائشة وابن عباس رضي الله عنهما[1].

وهذه الواقعة تعد من أصح وقائع النسخ في القرآن الكريم عند جمهور المفسرين والأصوليين و الفقهاء[2].

قوله: ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وعاصم: ﴿ ونصفَهُ وثلثَهُ ﴾ بفتح الفاء والثاء وضم الهاءين وقرأ الباقون بكسرهما.

ومعنى ﴿أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾ أي: أقل من ثلثي الليل، وهو ما بين النصف والثلثين ﴿وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ أي: وتقوم تارة نصف الليل، وتارة ثلثه ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ أي: ويقوم هذا القيام جماعة من الذين معك من المؤمنين.

وهذه التقديرات الثلاثة هي التي أمر الله عز وجل بها نبيه ﷺ في قوله في مطلع السورة ﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ أي نصف الليل، أو انقص منه قليلاً في حدود ما بين النصف إلى الثلث، أو زد على النصف في حدود ما بين النصف إلى الثلثين.

قال ابن كثير[3] في كلامه على قوله ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ «أي: تارة هكذا، وتارة هكذا، وذلك كله من غير قصد منكم، ولكن لا تقدرون على المواظبة على ما أمركم به من قيام الليل، لأنه يشق عليكم».

﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: والله يقدر طول الليل والنهار وقصرهما واعتدالهما،

---

(١) سبق تخريجهما في الكلام على مطلع السورة.
(٢) انظر «الناسخ والمنسوخ» للنحاس ٣/ ١٢٩.
(٣) في «تفسيره» ٨/ ٢٨٤.

فتارة يطول الليل وينقص النهار، وتارة يطول النهار وينقص الليل، وتارة يعتدلان.

﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ الضمير في «تحصوه» يعود إلى ما أمر الله به من قيام الليل إلا قليلاً نصفه أو النقص منه قليلاً أو الزيادة عليه.

والمعنى: علم الله عز وجل أن لن تستطيعوا إحصاء وضبط هذا الوقت والمواظبة عليه من غير زيادة ولا نقصان، نظراً لاختلاف تقدير الليل والنهار، أي: لن تستطيعوا تقديره، ولن تطيقوا قيامه على التمام.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ التوبة لغة الرجوع. أي: فرجع بكم وخفف عنكم بنسخ وجوب قيام الليل إلى استحبابه.

﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ أي: فقوموا ما تيسر من قيام الليل، واتركوا ما تعسّر وشق عليكم، وعبر عن قيام الليل وصلاة ما تيسر منه بقراءة ما تيسر من القرآن، لأن قراءة القرآن من أعظم أركان الصلاة، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠] أي: ولا تجهر بقراءتك ولا تخافت بها.

ولهذا ليس في قوله ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ دليل لمن قال إنه لا يتعين قراءة الفاتحة في الصلاة لأن المقصود بذلك ما هو أعم من القرآن وهو قيام الليل والصلاة فيه، مع الأحاديث الصحيحة الصريحة في وجوب قراءة الفاتحة.

عن سعد بن هشام قال: قلت لعائشة رضي الله عنها: «أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن فهممت أن أقوم، ثم بدا لي قيام رسول الله ﷺ، قلت: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ، قالت: ألست تقرأ هذه السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾؟ قلت: بلى، قالت: فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم، وأمسك الله خاتمتها في السماء اثني عشر شهراً، ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعاً، من بعد فريضة، فهممت أن أقوم ثم بدا لي وتر رسول الله ﷺ، قلت: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن وتر رسول الله ﷺ، قالت: كنا نعد له سواكه وطهوره، فيبعثه الله لما شاء أن يبعثه من الليل، فيتسوك، ثم يتوضأ، ثم يصلي ثماني ركعات لا يجلس فيهن إلا عند الثامنة، فيجلس ويذكر ربه ويدعو ويستغفر، ثم ينهض ولا يسلم، ثم يصلي التاسعة، فيقعد فيحمد ربه ويذكره ويدعو، ثم يسلم تسليماً يسمعنا، ثم يصلي ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم، فتلك إحدى عشرة ركعة يا بني،

فلما أسن رسول الله ﷺ وأخذه اللحم أوتر بسبع، ثم صلى ركعتين وهو جالس بعدما يسلم، فتلك تسع يا بني، وكان رسول الله ﷺ إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها، وكان إذا شغله عن قيام الليل نوم أو وجع أو مرض صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة، ولا أعلم نبي الله ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة، ولا قام ليلة حتى أصبح، ولا صام شهراً كاملاً غير رمضان»[1].

وعنها قالت: كنت أجعل لرسول الله ﷺ حصيراً يصلي عليه من الليل، فتسامع الناس به فاجتمعوا، فخرج كالمغضب، وكان بهم رحيما، فخشي أن يكتب عليهم قيام الليل، فقال: «أيها الناس اكلَفُوا من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل من الثواب حتى تملوا من العمل، وخير الأعمال ما ديم عليه»[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أول ما نزل «أول المزمل» كانوا يقومون نحواً من قيامهم في شهر رمضان، وكان بين أولها وآخرها قريب من سنة»[3].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: «﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝﴾ فأمر الله نبيه والمؤمنين بقيام الليل إلا قليلا، فشق ذلك على المؤمنين، ثم خفف الله عنهم ورحمهم، فانزل بعد هذا ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾. إلى قوله: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ فوسع الله – ولله الحمد – ولم يضيق»[4].

فنسخ الله عز وجل بهذه الآية وجوب قيام الليل الذي أوجبه على المؤمنين في أول هذه السورة، وصار قيام الليل ـ ولله الحمد ـ سنة وليس بواجب كما في حديث طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس يسمع دوي صوته ولا يفهم ما يقول حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «خمس صلوات في اليوم والليلة» فقال: هل عليّ غيرها؟، قال: «لا، إلا أن تطوع»

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ٤٣، ومسلم في صلاة المسافرين ٧٨٢، وأبو داود في الصلاة ١٣٦٨، والنسائي في القبلة ٧٦٢، وابن ماجه في الزهد ٤٢٣٨، وأحمد ٦/ ٤٠، ٦١ والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٣٥٩ – ٣٦٠.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٣٥٩، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٨٠.

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٣٦٠ – ٣٦١.

الحديث[1].

﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾

في هذا بيان الحكمة والعلة والسبب في نسخ حكم قيام الليل من الوجوب إلى الاستحباب وهو هذه الأعذار.

وفي هذا دليل على أن أحكام الله عز وجل معللة ولحكم عظيمة.

قوله: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ أي: علم الله عز وجل أنه سيكون منكم أيها المؤمنون من اعتلت صحتهم بسبب المرض فيشق عليهم صلاة نصف الليل أو ثلثه أو ثلثيه، فليصلوا ما تيسر لهم وسهل عليهم، قياماً أو قعوداً أو على جنوبهم إن شق عليهم القيام ولهم أجر القائم فإن لم يستطيعوا فلهم أجر ما كانوا يعملون في الصحة.

﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يسافرون في الأرض والضرب في الأرض هو السير والسفر فيها.

﴿يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أي: يطلبون من رزق الله الواسع ليستغنوا عن الخلق فخفف الله عنهم، وفي تقديم طلب الرزق على القتال في سبيل الله إشارة إلى أهمية طلب الرزق والاستغناء عن الخلق.

﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: يقاتلون الكفار لإعلاء كلمة الله تعالى كما قال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[2] فيشغلهم ذلك عن قيام الليل، ولم يكن القتال شرع بعد، لأن السورة كلها مكية والقتال إنما شرع بالمدينة، وهذا من أعظم دلائل وأعلام نبوته ﷺ.

فهذه الأعذار الثلاثة: المرض، والسفر لطلب الرزق، والقتال في سبيل الله من أسباب تخفيف حكم قيام الليل من الوجوب إلى الاستحباب، بل إن الله عز وجل خفف عنهم في الصلاة المفروضة فأباح لهم القصر والجمع، بل أباح للمريض والخائف أن يصلي حسب حاله.

﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ تأكيد لقوله ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ وكرر – والله أعلم –

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ـ الزكاة في الإسلام ٤٦، ومسلم في الإيمان – بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام ١١، وأبو داود في الصلاة ٣٩١، والنسائي في الصلاة ٤٥٨.

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٤٥٨، ومسلم في الإمارة ١٩٠٤، وأبو داود في الجهاد ٢٥١٧، والنسائي في الجهاد ٣١٣٦، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٤٦، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٨٣ ـ من حديث أبي موسى – رضي الله عنه.

للامتنان على المؤمنين بالتخفيف عنهم.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى وجوب قيام قليل من الليل، وبخاصة على أهل القرآن لقوله ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ وقوله: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾.

وعن علي رضي الله عنه قال: الوتر ليس بحتم كصلاتكم المكتوبة، ولكن سنّ رسول الله ﷺ، وقال: «إن الله وتر يحب الوتر فأوتروا يا أهل القرآن»[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من لم يوتر فليس منا»[(٢)].

وعن بريدة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الوتر حق، فمن لم يوتر فليس منا، الوتر حق فمن لم يوتر فليس منا، الوتر حق فمن لم يوتر فليس منا»[(٣)].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن رجل نام حتى أصبح، فقال: «ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه»[(٤)].

فقيل معناه نام عن المكتوبة، وقيل: نام عن قيام الليل.

والراجح الذي عليه جمهور أهل العلم أن قيام الليل مستحب وليس بواجب لقوله ﷺ للرجل الذي سأله لما بين له وجوب الصلوات الخمس، فقال: هل عليَّ غيرها؟ قال: «لا إلا أن تطوع»[(٥)].

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لما خفف الله عن المؤمنين ونسخ وجوب قيام الليل إلى الاستحباب أتبع ذلك بالأمر بإقامة الصلوات المفروضة الواجبة وإيتاء الزكاة المفروضة، وفي هذا إشارة ودلالة على وجوب الاهتمام والعناية بالفرائض والواجبات وأنها لا تقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة.

ومعنى ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أقيموها إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها. والصلاة لغة: الدعاء، واصطلاحاً: التعبد لله عز وجل بأقوال وأفعال مخصوصة

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة استحباب الوتر ١٤١٦، والنسائي في قيام الليل - الأمر بالوتر ١٦٧٥، والترمذي في الصلاة ٤٥٣، وابن ماجه في إقامة الصلاة - ما جاء في الوتر ١١٦٩، وأحمد ١/ ١١٠، ١٤٣، وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة - باب فيمن لم يوتر ١٤١٩، وأحمد ٥/ ٣٥٧.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٧، ومسلم في صلاة المسافرين ٧٧٤، والنسائي في قيام الليل وتطوع النهار ١٦٠٨، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٣٠.

(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٧٠، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٧٧٤، والنسائي في قيام الليل ١٦٠٨، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٣٠.

(٥) سبق تخريجه.

مبتدأة بالتكبير مختتمة بالتسليم.

والمراد بالصلاة هنا الصلوات الخمس المفروضة، أي: وأقيموا الصلاة الواجبة.

﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: أعطوا الزكاة في أموالكم لمستحقيها، والزكاة لغة: النماء والزيادة واصطلاحاً: حق مالي واجب في مال مخصوص لطائفة مخصوصة على وجه مخصوص وهو الحول.

وسميت الزكاة بهذا الاسم لأنها تزكي المال وتزيده نماء، وتزكي نفس صاحب المال من البخل والشح وتزكي نفس الفقير المعطى منها فيسلم من الحقد والضغينة على الأغنياء، ويسلم من البحث عن المال بالطرق المحرمة كالسرقة والبغاء ونحو ذلك.

ولهذا جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال رجل: لأتصدقن بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون تصدق الليلة على سارق، فقال: اللهم لك الحمد على سارق، لأتصدقن الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية، فأصبحوا يتحدثون تصدق الليلة على زانية، فقال: اللهم لك الحمد على زانية لأتصدقن الليلة بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد غني، فأصبحوا يتحدثون تصدق الليلة على غني، فقال: اللهم لك الحمد على سارق وعلى زانية وعلى غني، فأتي فقيل له: أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقته، وأما الزانية فلعلها أن تستعف عن زناها، وأما الغني فلعله أن يعتبر فينفق مما أعطاه الله»[(١)].

وفي الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بعد نسخ وجوب قيام الليل إشارة وتنبيه إلى تعظيم أمر الواجبات وبالأخص الصلاة والزكاة، ولهذا قال عز وجل في الحديث القدسي «وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي ما افترضته عليه»[(٢)].

ولما سأل الأعرابي النبي ﷺ، وقال: دلني على عمل يدخلني الجنة قال له ﷺ: «تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا» فقال هل عليَّ غيرها، قال: «لا إلا أن تطوع»، قال: والذي بعثك بالحق نبياً لا أزيد على هذا ولا أنقص منه فلما ولى قال ﷺ: «أفلح إن صدق» وفي رواية

(١) اخرجه البخاري في الزكاة ١٤٢١، ومسلم في الزكاة ١٠٢٢، والنسائي في الزكاة ٢٥٢٣.

(٢) اخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٠٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

«من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا»[1].

وقد استدل بهذه الآية من قال: إن الزكاة فرضت بمكة لكن مقادير أنصبتها والمخرج منها لم يبين إلا بالمدينة.

والزكاة قرينة الصلاة في نحو اثنين وثمانين موضعاً في القرآن الكريم، وهما أعظم العبادات بعد الشهادتين فالصلاة أعظم العبادات البدنية، وهي عمود الإسلام، والزكاة أعظم العبادات المالية، وفي الصلاة الإحسان في عبادة الله، وفي الزكاة الإحسان إلى عباد الله.

﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ﴾ أمر الله عز وجل بإقامة الصلاة وجوباً، وقيام الليل استحبابا، وأتبع ذلك بالأمر بإعطاء الزكاة وجوباً والقرض الحسن والصدقة استحباباً فجمع في هذه الآيات بين الأمر بالصلاة الواجبة والمستحبة، وبين الصدقة الواجبة والمستحبة وهذا يقوي ما ذهب إليه جمهور أهل العلم من أن قيام الليل مستحب وليس بواجب.

ومعنى ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ﴾ اي: تصدقوا وأنفقوا في سبيله يثبكم على ذلك. والقرض في الأصل: ما يعطيه الإنسان ليقضاه من غير زيادة ولا مرابحة.

والله عز وجل غني عن خلقه ليس بحاجة أن يقرضوه بل كل ما هم فيه من النعم منه كما قال عز وجل: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ [النحل: ٥٣].

وإنما سمى الله عز وجل الصدقة والإنفاق في سبيله قرضاً ترغيباً في ذلك وبياناً لتكفله عز وجل التام بجزاء ذلك والإثابة عليه كما يلتزم المقترض برد القرض، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾[التوبة: ١٠٤]، بل إنه عز وجل يضاعف ثواب ذلك أضعافاً كثيرة، كما قال عز وجل ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةًۚ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ احتساباً لله عز وجل وبطيب نفس، وعدم منٍّ على المُقْرَض، ولا أذى له، ومن كسب حلال.

﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ﴾.

بعدما أمر الله عز وجل بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والقرض الحسن رغب وحث

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٤٦، ومسلم في الإيمان ١١، وأبو داود في الصلاة ٣٩١، والنسائي في الصلاة ٤٥٨ ـ من حديث طلحة بن عبيد الله ـ رضي الله عنه.

على فعل الخير عموماً وهذه الجملة معترضة بين قوله ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا﴾.

قوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ الواو: اعتراضية، و«ما» شرطية أي: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم﴾ بين يديكم وأمامكم ليوم القيامة (من خير) أي: من صدقات ونفقات في سبيل الله ومن الطاعات وأنواع البر ﴿تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا﴾ أي: تجدوا ثوابه عند الله مدخراً لكم، وخيراً مما قدمتموه في الدنيا، وخيراً مما أبقيتموه.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟ قالوا: يا رسول الله ما منا أحد إلا ماله أحب إليه، قال: «فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما أخر»[1].

﴿وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ أي: وأعظم ثواباً مما قدمتموه حيث يجازي سبحانه وتعالى الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. قال ﷺ: «وموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها»[2].

قال السعدي رحمه الله بعد كلامه على هذه الآية: «فوا أسفاه على أوقات مضت في الغفلات، وواحسرتاه على أزمان تقضت في غير الأعمال الصالحات، وواغوثاه من قلوب لم يؤثر فيها وعظ بارئها، ولم ينجع فيها تشويق من هو أرحم بها من نفسها، فلك اللهم الحمد، وإليك المشتكى، وبك المستغاث، ولا حول ولا قوة إلا بك».

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ «الغفور» و«الرحيم» اسمان من أسماء الله عز وجل.

أي: إن الله ذو مغفرة واسعة لمن تاب وأناب إليه واستغفره، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦].

وهو عز وجل ذو رحمة واسعة لجميع خلقه، ورحمة خاصة بالمؤمنين قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

وفي الأمر بالاستغفار بعد الأمر بالصلاة والزكاة والقرض الحسن والحث على فعل

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٤٢، والنسائي في الوصايا ٣٦١٢.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٧٩٦، ومسلم في الإمارة ١٨٨٠، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٥١ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

الخير عموماً إشارة إلى أن الإنسان مهما اجتهد فلا يسلم من تقصير، ولا يخلو عمله من نقص، وقد شُرِع الاستغفار في نهاية الأعمال كالصلاة والحج وغيرهما، وفي نهاية الأعمار، لأنه يُرقِّع ما حصل فيها من نقص لا يكاد يسلم منه أحد.

الفوائد والعبر:

١- تشريف الله ـ عز وجل ـ لنبيه ﷺ بخطابه، وربوبيته الخاصة له.

٢ـ نسخ وجوب قيام الليل لعلمه عز وجل وهو الذي يقدر الليل والنهار أن الرسول ﷺ ومن معه وأمته لا يستطيعون القيام به ولا إحصاءه وضبطه كما فرضه الله في أول السورة لاختلاف تقدير الليل والنهار.

٣- مراعاة التشريع الإسلامي أحوال المكلفين وقدراتهم.

٤- استحباب قيام ما تيسر من الليل وقراءة ما تيسر من القرآن فيه.

٥- أن أعظم ما في قيام الليل قراءة القرآن لهذا أطلق قراءة ما تيسر من القرآن على القيام.

٦- أن من الحكمة في نسخ وجوب قيام الليل وجعله مندوباً بقدر ما تيسر، مراعاة حال المرضى والمسافرين في الأرض لابتغاء الرزق من الله، والمقاتلين في سبيل الله.

٧- تأكيد نسخ وجوب قيام الليل وبقائه على الاستحباب لقوله ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾.

٨- وجوب إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وعظم مكانتهما في الإسلام.

٩- تعظيم أمر الواجبات في الإسلام. والترغيب في النوافل.

١٠- الحث على الصدقة والإنفاق والترغيب في ذلك بتسميته قرضاً وأن يكون ذلك خالصاً لوجه الله عز وجل وبطيب نفس وبلا من ولا أذى، ومن كسب حلال.

١١- أن ما قدمه المرء لنفسه اليوم من خير يجد ثوابه عند الله عز وجل مضاعفاً أضعافاً كثيرة، وخيراً منه، وفي هذا ترغيب في التطوع في سائر العبادات.

١٢- تكلفه ـ عز وجل ـ بمضاعفة جزاء من قدم خيراً لنفسه لقوله ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ﴾ ولهذا سماه «أجراً» كما سمى الصدقة والإنفاق في سبيل الله قرضاً. وفي هذا كله ترغيب في القرض، وتقديم الخير.

١٣ـ وجوب الاستغفار والتوبة والرجوع إلى الله والإنابة إليه على الدوام.

١٤- إثبات اسمين من أسماء الله عز وجل وهما «الغفور» «الرحيم» والمغفرة التامة والرحمة الواسعة له ـ عز وجل.

تفسير سورة المدثر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾.

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، قال: «أخبرني جابر بن عبد الله: أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي: «فبينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري قبل السماء، فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض فجئثت منه حتى هويت إلى الأرض، فجئت إلى أهلي، فقلت: زملوني، زملوني، زملوني، فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ إلى: ﴿فَٱهْجُرْ﴾» قال أبو سلمة: والرجز الأوثان، ثم حمي الوحي وتتابع»[١].

وفي رواية عن أبي سلمة عن جابر بن عبد الله: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ثم فتر الوحي عني فترة، فبينا أنا أمشي سمعت صوتاً» وذكر نحوه[٢].

فقوله ﷺ: «فإذا الملك الذي جاءني بحراء» وقوله في الرواية الثانية: «ثم فتر الوحي عني فترة» يتفق مع ما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها في بدء الوحي من أن أول سورة أنزلت هي: «اقرأ باسم ربك الذي خلق»[٣].

وهو قول جمهور أهل العلم من السلف والخلف.

وقد ثبت عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه القول بأن أول سورة نزلت سورة المدثر فعن يحيى بن أبي كثير قال: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن، قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ قلت: يقولون: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾؟ فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله عن ذلك، وقلت له مثل ما قلت لي، فقال جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال: «جاورت بحراء، فلما قضيت جواري هبطت فنوديت

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة المدثر ٤٩٥٤، ومسلم في الإيمان ـ بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ١٦١، والترمذي في التفسير ٣٣٢٥، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٠١.

(٢) أخرجها أحمد ٣/ ٣٢٥.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٤، ومسلم في الإيمان ١٦٠، وسيأتي ذكر الحديث بلفظه في تفسير سورة العلق.

فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، ونظرت أمامي فلم أر شيئاً ونظرت خلفي فلم أر شيئاً، فرفعت راسي فرايت شيئاً، فأتيت خديجة، فقلت: دثروني. وصبوا عليَّ ماء بارداً، قال: فدثروني وصبوا علي ماء بارداً قال: فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾»[1].

قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ صدّر عز وجل هذه السورة بالنداء تنبيهاً وتعظيماً.

و«المدثر» المتلفف بثيابه، المتغطي بها كالمزمل والمراد به النبي ﷺ.

﴿قُمۡ﴾ أي: قم وانهض بنشاط وشمر عن ساعد الجد وعن ساق العزم.

﴿فَأَنذِرۡ﴾ أي: فخوف وحذر الناس من عذاب الله عز وجل، آمراً وداعياً لهم إلى فعل وقول ما ينجيهم من عذاب الله، والبعد عما يعرضهم لعقاب الله.

وبهذا حصل الإرسال له ﷺ فنبئ ﷺ باقرأ وأرسل بالمدثر.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ أي: فعظمه وكبره بقولك: الله أكبر، وادع الناس إلى تعظيمه وعبادته وتكبيره.

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ أي: طهر بدنك وثيابك من الأحداث والنجاسات الحسية بالماء، وطهر بدنك وقلبك وخلقك من الذنوب والمعاصي والآثام والنجاسات المعنوية بالإيمان والتوبة والعمل الصالح، وحِل الملبس والمأكل.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه أتاه رجل فسأله عن هذه الآية ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ قال: «لا تلبسها على معصية ولا غدرة، ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي:

فإني بحمد الله لا ثوب فاجـــر ... لبستُ ولا من غـــدرة أتقنـــع»[2]

وقال الآخر:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه ... فكـــل رداء يرتديـــه جميــــــل[3]

أي: فكل خلق يتخلق به جميل.

وقال الآخر:

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلـــل ... وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة المدثر ٤٩٢٢، ومسلم في الإيمان ١٦١، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/٤٠٢ – ٤٠٣.

(٢) ذكره الطبري في «جامع البيان» ٢٣/٤٠٥، وصاحب «اللسان» في مادة «طهر».

(٣) البيت لدكين بن رجاء. انظر «الشعر والشعراء». ٢/٦١٢.

وإن تك قد ساءتك مني خليقةٌ فسُلي ثيابي من ثيابك تَنْسُلِ[١]

أي: فاستخرجي قلبي من قلبك.

وقال الآخر:

رموها بأثواب خفاف فلا ترى لها شبهاً إلا النعام المنفَّرا[٢]

أي: رموها يعني الرّكاب بأبدانهم.

وقال الآخر:

فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم[٣]

يعني بـ «ثيابه»: نفسه.

قال ابن القيم[٤]: «وجمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم على أن المراد بالثياب ههنا القلب والمراد بالطهارة إصلاح العمل والأخلاق».

وذكر أقوال السلف في المراد بقوله ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ فمن قائل المراد بثيابك قلبك أو أخلاقك، ومن قائل ثيابك طهرها من النجاسة الحسية والمعنوية بكونها من مكسب حلال، وغير ذلك من الأقوال ثم قال: «الآية تعم هذا كله وتدل عليه بطريق التنبيه واللزوم إن لم تتناول ذلك لفظاً فإن المأمور به إن كان طهارة القلب فطهارة الثوب وطيب مكسبه تكميل لذلك».

ويدل على هذا العموم ـ والله أعلم ـ جمع «ثيابك» فلو أريد البدن وحده، أو القلب وحده، أو غير ذلك لقال: «وثوبك فطهر».

﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ قرأ أبو جعفر ويعقوب وحفص بضم الراء، «والرُّجز» وقرأ الباقون بكسرها «والرِّجز».

والرجز: الأصنام والأوثان والشرك والمعاصي.

(فاهجر) أي: فاتركها وادع إلى تركها.

ولا يلزم من هذا تلبسه ﷺ بشيء من ذلك كقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

---

(١) هذان البيتان من معلقة امرئ القيس انظر «ديوانه» ص٣٧ طبعة بيروت.

(٢) البيت للشماخ.

(٣) البيت لعنترة بن شداد.

(٤) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٥٥، ٥٧، ٥٨.

﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ أي: ولا تمنن على الناس بما أسديت إليهم من معروف.

﴿تَسْتَكْثِرُ﴾ أي: تستكثر ما أسديت إليهم، وترى لك الفضل عليهم، أو تطلب منهم أكثر مما أسديت إليهم.

أي: أنه ينبغي أن يسدي الإنسان المعروف أياً كان لوجه الله وابتغاء مرضاته، لا لأجل أن يرد عليه أكثر من ذلك.

قال السعدي[1]: «بل أحسن إلى الناس مهما أمكنك وَانْس عندهم إحسانك واطلب أجرك من الله تعالى، واجعل من أحسنت إليه وغيره على حد سواء».

وأيضاً: ولا تمنن بعملك على ربك تستكثره، أي: ولا تدل على ربك بعمل عملته، ولهذا قال ﷺ: «لن يدخل أحداً منكم عملُه الجنة قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[2].

وفي قصة الإسرائيلي الذي عبد الله خمسمائة سنة، وأخرج الله له تلك الرمانة يتزل كل يوم من صومعته فيأخذ منها لما قال الله عز وجل: أدخلوا عبدي الجنة برحمتي. قال: لا يا رب بل بعملي، فوجد أن عمله طيلة خمسمائة سنة لا يعادل نعمة البصر الذي أعطاه الله إياه. فقال الله عز وجل: أدخلوا عبدي النار بعدلي. فقال: لا يا رب، أدخلني الجنة برحمتك فأدخله الجنة برحمته سبحانه[3].

﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاماً، فلما أكلوا، قال: ما تقولون في هذا الرجل؟ فقال بعضهم: ساحر. وقال بعضهم: ليس بساحر. وقال بعضهم: كاهن. وقال بعضهم: ليس بكاهن. وقال بعضهم: شاعر، وقال بعضهم: ليس بشاعر، وقال بعضهم سحر يؤثر، فأجمع أمرهم على أنه سحر يؤثر، فبلغ ذلك النبي ﷺ فحزن وقنع رأسه، وتدثر، فانزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٥٠٩.

(٢) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٨١٦، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الحاكم في التوبة والإنابة ٤/ ٢ وقال: «صحيح الإسناد» وضعفه الذهبي. وقال ابن القيم في شفاء العليل ١/ ١١٤: «إسناده صحيح، ومعناه صحيح لا ريب فيه».

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝﴾»[1].

ومعنى قوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ أي: اصبر ابتغاء وجه ربك على طاعة الله عز وجل وتبليغ الرسالة، وعلى ما تلاقي من أذى في سبيل ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠].

وفي هذا شد لأزره ﷺ وتقوية لقلبه كما قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ﴾ [الطور: ٤٨].

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ أي: فإذا نفخ إسرافيل في الصور والقرن بأمر الله عز وجل لقيام الناس من القبور، وجمع الخلائق للبعث والنشور.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ؟ فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فما تأمرنا يا رسول الله؟، قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا»[2].

﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم ينفخ في الصور ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ أي: يوم شديد عظيم ثقيل لكثرة أهواله وشدتها كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧] وقال تعالى في وصف الأبرار: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ أي: على الكافرين خاصة غير سهل، وفي هذا تخصيص لعسره بأنه على الكافرين خاصة، وتأكيد لشدة عسره لأن الصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها فوصف هذا اليوم بالعسر، ثم نفى عنه اليسر على الكافرين خاصة كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٨].

وذلك لأنهم قد يئسوا من كل خير وأيقنوا بالهلاك والبوار، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

---

(١) أخرجه الطبراني فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/٢٨٨.

(٢) أخرجه أحمد ٢/١٤٨، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤١٨ - ٤١٩.

[العنكبوت: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦].

ويفهم من قوله ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ أنه يسير على المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: 82].

وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قيل لرسول الله ﷺ" يوماً كان مقداره خمسين ألف سنة ما أطول هذا اليوم فقال رسول الله ﷺ: "والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا"[١]

الفوائد والعبر:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام.

٢ـ إثبات رسالة النبي ﷺ لقوله ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ فقد نبئ ﷺ باقرأ وأرسل بالمدثر.

٣- وجوب الدعوة إلى الله ـ عز وجل ـ وتكبيره، وتعظيمه وإخلاص العبادة له والبراءة من الشرك والطهارة من النجاسات المعنوية والحسية في القلب والبدن واللباس، عليه ﷺ وعلى أتباعه.

٤- لا يجوز أن يمن الإنسان بعمله أو يدل على ربه، كما لا يجوز أن يمن بما أعطى طلباً للاستكثار.

٥- وجوب الصبر ابتغاء وجه الله على طاعته عز وجل، وعن معصيته وعلى أقداره المؤلمة، ومن ذلك ما يلاقيه ﷺ في سبيل دعوته إلى ربه وكذا الدعاة إلى الله عز وجل من بعده.

٦ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة ـ له ﷺ تشريفاً له وتكريماً.

٧- إثبات البعث والنفخ في الصور، وشدة أهوال يوم القيامة وكرباته وما فيه من العسر الذي لا يسر معه على الكافرين.

٨- يسر يوم القيامة وخفته على المؤمنين لمفهوم قوله ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۝٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

أمر الله عز وجل رسوله ﷺ في الآيات السابقة بالصبر على أذى المشركين والكافرين وتوعدهم بالقيامة وما فيها من الشدة والعسر عليهم، ثم خص بالوعيد والتهديد في هذه الآيات أحد صناديدهم فقال: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ الآيات.

سبب النزول:

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر بن أبي قحافة فسأله عن القرآن، فلما خرج على قريش، قال: يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة، فوالله ما هو بشعر، ولا بسحر، ولا بهذْي من الجنون، وإن قوله لمن كلام الله، فلما سمع بذلك النفر من قريش ائتمروا فقالوا: والله لئن صبأ الوليد لتصبُوَنَّ قريش. فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام قال: أنا والله أكفيكم شأنه. فانطلق حتى دخل عليه بيته، فقال للوليد: ألم تر قومك قد جمعوا لك الصدقة؟ فقال: ألست أكثرهم مالاً وولداً؟ فقال أبو جهل: يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه. فقال الوليد: أقد تحدث به عشيرتي؟ فلا والله لا أقرب ابن أبي قحافة، ولا عمر، ولا ابن أبي كبشة، وما قوله ﴿إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ فأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ إلى قوله: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾»[1].

وقال قتادة: «زعموا أنه قال: والله لقد نظرت فيما قال الرجل، فإذا هو ليس بشعر، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه ليعلو ولا يعلى، وما أشك أنه سحر. فأنزل الله: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ الآية، ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ قبض ما بين عينيه»[2].

وعن عكرمة: «أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٢٩ - ٤٣٠، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» ١/ ٢٣٣.
(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٣٠.

فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام فأتاه فقال: أي عم، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً. قال: لم؟، قال: يعطونكه، فإنك أتيت محمداً تتعرض لما قِبلَه. قال: قد علمت قريش أني أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يعلم قومك أنك منكر لما يقول، وأنك كاره له، قال: فماذا أقول فيه؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله لا يشبه الذي يقول شيئاً من ذلك، والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو ولا يعلى، قال: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر فيه، فلما فكر قال: هذا سحر يأثره عن غيره، فنزلت: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ قال قتادة: خرج من بطن أمه وحيدا حتى بلغ ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾»[(١)].

قوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ اي: دعني واتركني والذي أوجدته وأخرجته من بطن أمه وحيداً فريداً بلا أهل ولا مال ولا ولد ولا عشيرة.

والمعنى: اترك أمره وعقابه وعذابه إلي، فأنا أكفيكه، فلا تباله.

والمراد بذلك الوليد بن المغيرة، كما دل على ذلك سبب النزول. وقد توعده الله عز وجل وعيداً شديداً، وهدده تهديداً أكيداً، وذمه ذماً لم يذم به غيره لشدة عناده واستكباره عن قول الحق.

﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا﴾ اي: مالاً كثيراً واسعاً.

﴿وَبَنِينَ﴾ اي: وجعلت له أولاداً ذكوراً ﴿شُهُودًا﴾ حضوراً عنده على الدوام لا يفارقونه، يقومون بخدمته وحاجاته ويستنصر بهم، ويفتخر بهم، ويأنس بوجودهم بجانبه، ويتمتع ويتملى بهم ويتزين، كما قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]. قيل: كان أولاده ثلاثة عشر، وقيل كانوا عشرة، وقيل غير ذلك.

﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ اي: مكنته من الدنيا، ويسرت له أسباب الحياة والعيش وهيأتها له.

﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ اي: ثم هو يطمع أن أزيده على ما جعلته له من المال الممدود والبنين الشهود، والتمهيد والعيش الرغيد، أي: يطمع في الزيادة على ذلك في الدنيا، ويطمع أن ينال نعيم الآخرة كما نال نعيم الدنيا.

﴿كَلَّا﴾ كلمة ردع وزجر أي: ردع له وزجر ونفي أن يزاد على ما عنده، أي: ليس

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/٤٢٩، والحاكم في «المستدرك» ٢/٥٠٧، وقال: «صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. وأخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» ١ / ٥٥٦.

الأمر كما يطمع، ثم علل لذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ أي: كلا لن أزيده لأنه كان لآياتنا، أي: للقرآن الكريم وما جاء فيه من الآيات البينات والحجج الواضحات والبراهين الساطعات ﴿عَنِيدًا﴾ أي: شديد المعاندة والجحود لآياتنا بعد أن عرفها.

﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ أي: سأكلفه وأحمله عذاباً شاقاً نفسياً وبدنياً، حسياً ومعنوياً، في الدنيا والآخرة، كما قال عز وجل: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥] فالكافر في دنياه وآخرته في مشقة وعذاب نفسي وبدني وأشد ذلك عذاب النار كما قال عز وجل: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ الآيات.

عن أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «ويل: واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره، والصعود جبل من نار يصعّد فيه الكافر سبعين خريفاً، ويهوي فيه كذلك أبداً»(١).

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ﴾ أي: إنما أرهقناه صعوداً لأنه ﴿فَكَّرَ﴾ أي: تروّى في نفسه وتأمل ماذا يقول في القرآن، وبماذا يصفه.

﴿وَقَدَّرَ﴾ أي: وقدّر ما فكّر فيه ليقول قولاً يبطل به القرآن، أو قدر ما يقول في القرآن.

﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ أي: لعن أشد اللعن وأهلك كيف قدر القول فيه، كما قال تعالى في المنافقين: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤] وذلك لأنه قدّر أمراً ليس في طوره، وتسوّر على ما لا يناله هو وأمثاله، وتكلف ما لا علم له به.

﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ تأكيد لما قبله، أي: ثم لعن وأهلك.

و«كيف» اسم استفهام للإنكار، أي: كيف قدر هذا التقدير الباطل، وقد يكون المعنى ثم لعن ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ أي: في أي تقدير أو على أي تقدير قدره.

﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ أي: تأمل وأعاد التفكر والتروي فيما يقول في القرآن.

﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ قطب وجهه، وقبض ما بين عينه.

﴿وَبَسَرَ﴾ زاد في العبوس وكلح وجهه، نفرة من الحق وكراهة للحق وبغضاً له.

قال الشاعر:

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٧٥، والترمذي في صفة جهنم ٢٥٧٦، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٢٧، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٨٣، وقال الترمذي: «حديث غريب».

وقد رابني منها صدود رأيته ... وإعراضها عن حاجتي وبسورها[1]

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ أي: رجع على عقبه ودبره، وتولى ببدنه.

﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ أي: تعاظم بقلبه عن الانقياد للقرآن. وهذا حصيلة ما قاده إليه تفكيره وتقديره السيء وسوء قصده ونظره القاصر وكراهته للحق وبغضه له أن تولى عن الحق واستكبر عن الانقياد له وتقوّل فيه الأقاويل.

﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ «إن» نافية بمعنى «ما» أي: ما هذا إلا سحر يؤثر، أي: ينقله السحرة بعضهم عن بعض، ونقله محمد عن غيره ممن كان قبله من السحرة، وحكاه عنهم.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ أي: ما هذا إلا قول البشر، بل قول شرار البشر وهم السحرة الكذابون الدجالون وليس هذا بكلام الله.

فتباً لمن تجرأ على وصف كلام الله عز وجل أعظم كلام وأبلغه بالسحر وتشبيهه بكلام البشر وسحقاً له وبعداً، فما أعظم خسارته، وما أشد عذابه.

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ وعيد وتهديد له، أي: سادخله سقر، أي: النار، واغمره فيها من جميع جهاته ليقاسي شدة حرها.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾ تعظيم وتهويل لشأنها وتفخيم لأمرها، أي: وما أعلمك ما سقر حرها شديد وقعرها بعيد، وخطرها جسيم، وهولها عظيم.

ثم بين عز وجل شيئاً من وصفها فقال:

﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ أي: لا تبقي ولا تترك شيئاً من بدن المعذب، ولا مما يلقى فيها إلا اكلته وأحرقته ولا تبقي من الشدة شيئاً إلا بلغته، قد بلغت من الشدة غايتها، ومن الأبدان جميعها.

والمعذبون فيها مخلدون لا يموتون ولا يحيون كما قال تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝﴾ [الأعلى: ١١ – ١٣]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦].

﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ أي: تلوح وتلفح وتحرق بشر وجلود المعذبين فيها بلهبها ولظاها وشدة حرها وقرّها.

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ أي: عليها من الزبانية الغلاظ الشداد الموكلين بتعذيب أهل النار

(١) البيت لتوبة بن الحُمَيِّر. انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة ٢/ ٢٧٥، «جامع البيان» ٢٣/ ٤٢٨، «الأمالي» ١/ ٨٨.

﴿تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾ قال ابن كثير[١]: «أي: من مقدمي الزبانية عظيم خلقهم غليظ خُلُقهم».

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، غُلب أصحابك اليوم، فقال: «بأي شيء»؟، قال: سألتهم يهود هل أعلمكم نبيكم عدة خزنة أهل النار؟ قالوا: لا نعلم حتى نسأل نبينا ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «أفغلب قوم سُئلوا عما لا يدرون فقالوا: لا نعلم حتى نسأل نبينا. قال رسول الله، عليّ بأعداء الله، لكن سألوا نبيهم أن يريهم الله جهرة»، فأرسل إليهم فدعاهم قالوا: يا أبا القاسم، كم عدة خزنة أهل النار؟ قال: «هكذا» وطبق كفيه، ثم طبق كفيه، مرتين، وعقد واحدة»[٢].

الفوائد والعبر:

١- تسلية النبي ﷺ وتقوية قلبه تجاه المكذبين والمعاندين من قومه لقوله ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾، وأن يترك أمرهم إلى الله ـ عز وجل.

٢- تهديد الوليد بن المغيرة ومن على شاكلته ممن أنعم الله عليهم بالمال والبنين ومهد لهم في الحياة فطغوا وتجبروا بالعذاب في الدنيا والآخرة.

٣- أن المال والبنين والجاه من أسباب الطغيان والفتنة في الدين كما قال عز وجل ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٦، ٧] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ [التغابن: ١٥].

٤- زجر هذا المعاند وتيئيسه من الزيادة، وأن الكفر والذنوب والمعاصي أعظم سبب لزوال النعم وحلول النقم.

٥- بيان ما أعده الله لهذا المعاند لآياته من العذاب الشاق يوم القيامة.

٦- جرأة الوليد بن المغيرة على الله عز وجل وتكلفه فيما يصف به القرآن وتمحله في ذلك وتقعره في تفكيره وتقديره وشدة إدباره عن الحق واستكباره حتى زعم أن القرآن ما هو إلا سحر يؤثر، ومن كلام البشر.

٧- الوعيد للوليد بن المغيرة بإصلائه النار وغمره فيها، ولعنه وإهلاكه.

٨- تعظيم سقر وهي النار، وبيان شدة عذابها، وأن عدة خزنتها تسعة عشر.

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٩٢.

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة المدثر ٣٣٢٧، وأحمد ٣/ ٣٦١، وأخرجه البزار فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣٩٤، وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٨٤، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (٣١) كَلَّا وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (٣٦) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧)﴾

قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾

أي: وما جعلنا خزنة النار القائمين على تعذيب أهلها إلا ملائكة، ليسوا بشرًا ضعافًا يغلبون بل هم ملائكة غلاظ القلوب، شداد الخلقة، لا يغالبون كما قال عز وجل: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾ [التحريم: ٦].

﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: وما جعلنا عددهم تسعة عشر وأخبرنا بذلك ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: إلا لامتحان وابتلاء الذين كفروا حتى تجرأ أبو جهل فقال: «يا معشر قريش، أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم»؟[1].

وقال أبو الأشدين – كلدة بن أسيد بن خلف: «يا معشر قريش اكفوني منهم اثنين وأنا أكفيكم سبعة عشر»[2].

وعلى هذا فيكون المعنى: وما جعلنا عدتهم إلا ابتلاءً وامتحاناً (للذين كفروا) لنعلم من يُصدِّق ممن يُكذِّب. ويدل على هذا قوله بعد ذلك ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾.

ويحتمل أن المعنى: وما جعلنا عدتهم إلا لعذاب الذين كفروا وعقابهم في النار كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣)﴾ [الذاريات: ١٣] أي: يُعذَّبون.

﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ اللام: للتعليل، و«يستقين» أبلغ من «يتيقن»، أي: لأجل أن يستيقن الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى الموجودين أيام بعثته ﷺ أنما جاء به حق من عند الله – عز وجل لموافقته ما جاء في كتبهم التوراة والإنجيل في عدة خزنة جهنم، وأنهم تسعة عشر.

﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ أي: ولأجل أن يزداد الذين آمنوا إيمانًا وذلك من وجهين:

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٣٦-٤٣٧.
(٢) انظر: «الروض الأنف» للسهيلي ١/ ٢٠٠، «تفسير ابن كثير ٨/ ٢٩٤. وانظر تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٨٤.

الأول: بما يشهدون من صدق أخبار نبيهم محمد ﷺ وموافقتها لما جاء به الأنبياء قبله.

والثاني: من كونهم يسارعون في تصديق ما جاء عن الله ورسوله، ويتلقون ذلك بالتسليم والقبول.

﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: ولأجل أن لا يشك الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون في أن عدة أصحاب النار من الملائكة تسعة عشر، وهذه الجملة على هذا المعنى مقررة ومؤكدة للجملة قبلها، لأن الصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها. وقد يكون نفي الريب محمولاً على نفي الريب عن عموم ما أخبر به الرسول ﷺ فيكون المعنى : أي: ولا يقع في قلوبهم ريب ولاشك في أن ما جاء به الرسول ﷺ حق وصدق.

﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: ولأجل أن يكون ذلك سببا في زيادة حيرة الذين في قلوبهم مرض الشك والنفاق، وهم المنافقون ﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ الجاحدون المكذبون، ليقولوا: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ «ماذا» اسم استفهام، أو «ما» اسم استفهام «ذا» اسم موصول، أي: ما الذي أراد الله بهذا مثلاً، أي: بهذا المثل.

فأخبر - عز وجل - أن الحكمة التي جعل لأجلها عدة خزنة النار تسعة عشر: فتنة للذين كفروا وابتلاءً واختبارًا لهم، وليستيقن الذين أوتوا الكتاب، ولزيادة إيمان المؤمنين، ولانتفاء الريب عن المؤمنين وأهل الكتاب، ولزيادة حيرة الذين في قلوبهم مرض والكافرين.

قال ابن القيم: «وهذه حال القلوب عند ورود الحق المنزل عليها: قلب يفتتن به كفرًا وجحودًا، وقلب يزداد به إيمانًا وتصديقًا، وقلب يتيقنه فتقوم عليه به الحجة، وقلب يوجب له حيرة وعمى، فلا يدري ما يراد به».

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ الكاف: حرف تشبيه، بمعنى «مثل» وهي صفة لمصدر محذوف، والإشارة لما سبق في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾.

أي: مثل هذا الابتلاء والإضلال والهداية ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾.

أي: يضل الله من يشاء بعدله، ويهدي ويوفق من يشاء بفضله.

قال ابن كثير[1]: «أي من مثل هذا وأشباهه يتأكد الإيمان في قلوب أقوام ويتزلزل

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٩٥.

عند آخرين، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة».

وفي الآية إثبات المشيئة لله ـ عز وجل ـ وهي الإرادة الكونية له عز وجل، وإثبات هداية الدلالة والتوفيق له ـ عز وجل ـ وأن ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن، وأنه يهدي من يشاء بفضله ويضل من يشاء بعدله لا راد لما قضى ولا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع.

وليس في هذا ما يتعلق به من يفعل المعاصي ويحتج بالقدر، لأن الإنسان لا يعلم ماذا قدر له.

وقد بين الله – عز وجل – طريق الحق وأمر باتباعه، وبين طرق الباطل ونهى عن اتباعها وقد قال – ﷺ – «اعملوا فكل ميسر لما خلق له فأهل السعادة ييسرون لعمل أهل السعادة، وأهل الشقاوة ييسرون لعمل أهل الشقاوة. ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝﴾ [الليل: ٥-١٠]»[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝﴾ [الإنسان: ٣] وقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝﴾ [البلد: ١٠].

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: وما يعلم عدد جنود ربك يا محمد وكثرتهم وشدة خَلْقهم، وغلظة خُلُقهم من الملائكة وغيرهم إلا هو سبحانه وتعالى ـ كما قال عز وجل: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].وفي إضافة ضميرة ﷺ إلى «رب» تشريف له ﷺ.

أي: إذا كان ـ عز وجل – أخبر أن على النار تسعة عشر من الملائكة فيجب تصديق خبره من غير شك ولاريب، وأيضًا فإن جنوده ـ عز وجل ـ لا يحصون عددًا وكثرة ـ كما قال عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝﴾ [الفتح: ٧].

وقال ﷺ – في صفة البيت المعمور الذي في السماء السابعة «فإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه آخر ما عليهم»[2].

وعن أبي ذر رضي الله عنه ـ قال: «قال رسول الله ﷺ: «إني أرى مالا ترون، وأسمع مالا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط[3] ما فيها موضع أربع أصابع إلا

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٤٩، ومسلم في القدر ٢٦٤٧، وأبو داود في السنة ٤٦٩٤، والترمذي في القدر ٢١٣٦، وابن ماجه في المقدمة ٧٨ ـ من حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٠٧، ومسلم في الإيمان ١٦٤، والنسائي في الصلاة ٤٤٨ – من حديث مالك بن صعصعة ـ رضي الله عنه.

(٣) تئط أي: قد أثقلها ما عليها من الملائكة.

عليه ملك ساجد، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصُّعُدات[1] تجأرون إلى الله - عز وجل» فقال أبو ذر: والله لوددت أني شجرة تُعضد»[2][3].

وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «ما في السموات السبع موضع قدم ولا شبر، ولاكف إلا وفيه ملك قائم، أو ملك ساجد، أو ملك راكع، فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعًا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك إلا أنا لم نشرك بك شيئًا»[4].

﴿وَمَا هِيَ﴾ أي: النار.

ويحتمل أن المعنى ﴿وَمَا هِيَ﴾ أي: هذه الآيات في وصف النار ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ أي: تذكير ووعظ لهم.

﴿كَلَّا﴾ حقًا، أو بمعنى «ألا» الاستفتاحية ﴿وَالْقَمَرِ﴾ الواو: حرف قسم وجر و﴿الْقَمَرِ﴾ مقسم به مجرور ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ معطوف على ما قبله: قرأ نافع ويعقوب وحمزة وخلف وحفص ﴿والليل إذ ادبر﴾ بإسكان الذال من غير ألف بعدها و«أدْبر» بهمزة مفتوحة مع إسكان الدال بعدها، وقرأ الباقون ﴿والليل إذا دبر﴾ بالألف بعد الذال، و﴿دبر﴾ بفتح الدال من غير همزة قبلها.

ومعنى ﴿أَدْبَرَ﴾ ولى وذهب. ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ أي: أشرق وأضاء وانكشف.

فأقسم عز وجل بالقمر ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ۝﴾ لما فيها من الآيات العظيمة الباهرة الدالة على كمال ربوبيته وعلمه وحكمته، وعنايته بخلقه.

﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ جملة جواب القسم. أي: إنها - أي: النار لإحدى العظائم الكبار، والدواهي العظام، والطامة الكبرى.

﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ نذيرًا : حال، أي: تخويفًا وتحذيرًا للبشر، وهم بنو آدم، وهي أيضًا نذير للجن لأنهم مكلفون.

﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ﴾ أي: لمن شاء منكم أيها الناس أن يتقدم إلى الأمام، فيعمل لما خلق له، فيخاف ويحذر، ويؤمن بالله ويعمل صالحًا ويستعد لما أمامه بطاعة الله.

﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ عما خلق له فلا يخاف ولا يحذر، بل يتولى ويعرض ويرتكب المعاصي

---

(١) الصعدات: الطرق

(٢) اي: تقطع

(٣) اخرجه أحمد ٥/ ١٧٣، والترمذي في الزهد ٢٣١٢، وابن ماجه في الزهد - باب الحزن والبكاء ٤١٩٠.

(٤) اخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» ١/ ١٦٠، وذكره ابن كثير في تفسيره ٨/ ٢٩٥.

قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

وهذا معنى المسارعة والمسابقة والمنافسة واستباق الخيرات الذي أمر الله – عز وجل – به في أكثر من آية وفي الحديث: «من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[1] .

وفي الحديث: «فإنه لايزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله – عز وجل»[2].

وقال الشاعر [3] :

ولم أجــد الإنســان إلا ابـــن ســعيه	فمــن كــان أســعى كــان بالمجـد أجـدرا
فلـــم يتـــأخر مـــن أراد تقـــدمًا	ولم يتقـــدم مـــن أراد تـــأخرا

الفوائد والعبر:

١ ـ بيان أن أصحاب النار التسعة عشر الموكلين عليها إنما هم ملائكة، وفي هذا تعظيم لشأنهم وإشارة لشدتهم وغلظتهم كما قال عز وجل ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

٢ ـ امتحان الذين كفروا من المشركين والمنافقين وغيرهم وابتلاؤهم في جعل عدة أصحاب النار تسعة عشر ليتمادوا في تكذيبهم وغرورهم وجراتهم على الله عز وجل، ولهذا قالوا: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾.

٣ ـ في ذكر عدة أصحاب النار في القرآن الكريم وأنهم تسعة عشر استيقان لأهل الكتاب لموافقة القرآن لما جاء في كتبهم وعدم شكهم وارتيابهم.

٤ ـ زيادة إيمان المؤمنين بذكر عدة أصحاب النار وعدم شكهم في ذلك لأنهم يسلمون بكل ما جاء من عند الله وعلى لسان رسوله ﷺ.

٥ ـ إثبات المشيئة لله ـ عز وجل، وأنه عز وجل يهدي من يشاء بفضله ويضل من يشاء بعدله.

٦ ـ أن جنود الله كثرة كاثرة لا يعلم كثرتهم وشدتهم وقوتهم إلا هو سبحانه وتعالى لقوله ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾.

٧ ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة ـ له ﷺ وخطابه تشريفاً وتكريماً له.

٨ ـ تذكير البشر بذكر النار وصفاتها السيئة المخيفة.

٩ ـ إقسام الله – عز وجل – بالقمر والليل إذا تولى وذهب والصبح إذا أقبل وأسفر على أن النار إحدى الفظائع العظام التي يخوف الله بها البشر. ولله أن يقسم بما شاء من خلقه.

١٠ ـ الغاية من الإنذار إقامة الحجة على الخلق والإعذار منهم ليتقدم منهم من شاء أن يتقدم بالإيمان والعمل الصالح وليتأخر منهم من شاء أن يتأخر بالكفر والمعاصي.

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٦٩٩، والترمذي في القراءات ٢٩٤٥، وابن ماجه في المقدمة ٢٢٥ – من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ١٩، ٣٤ – من حديث أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه .

(٣) البيتان لابن هانئ،انظر «ديوانه» ص١٤٠.

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ۝٣٩ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ۝٤١ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝٤٦ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ۝٤٧ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ۝٤٨ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝٤٩ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ۝٥١ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً ۝٥٢ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ۝٥٣ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ۝٥٤ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ۝٥٥ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ۝٥٦﴾.

قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ أي: كل نفس بالذي كسبت، أو بكسبها من خير أو شر ﴿رَهِينَةٌ﴾ أي: مرتهنة، عند الله – عز وجل – موقفة.

﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ «إلا» أداة استثناء.

و﴿أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ هم الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم ويكونون عن يمين الرحمن، ويؤخذ بهم ذات اليمين وهذا يشمل أصحاب اليمين والسابقين المقربين، لأن كل سابق مقرب هو من أصحاب اليمين، لا العكس. أي: إلا أصحاب اليمين فلا يرتهنون بما كسبوا بل هم طلقاء، فرحون.

وهذه الآيات كقوله ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝٤٠ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ۝٤١﴾ [الصافات: ٣٩-٤١].

وليس معناه أنهم لا يجازون بأعمالهم، بل كل عامل يجازى بعمله، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

﴿فِي جَنَّاتٍ﴾. أي: في بساتين في دار النعيم التي أعدها الله لهم فيها تمام الراحة والطمأنية وكمال المطلوب، لهذا أخذوا يتساءلون عن حال من فاته هذا النعيم ﴿يَتَسَاءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: يسال بعضهم بعضًا عن الكفار أرباب الجرائم والذنوب والمعاصي ما حالهم، وأين هم فيقول بعضهم لبعض ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ﴾ أي: عليهم قال تعالى: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٤، ٥٥].

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ «ما» للاستفهام، أي: سائلين لهم ما الذي أدخلكم في سقر؟ أي: في النار، و ما الذنب الذي استحققتموها بسببه؟ و لماذا لم تعملوا للنجاة منها؟ وفي هذا ما فيه من التوبيخ والتبكيت لهم وإثارة الأسى والحزن في قلوبهم.

﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ أي: قالوا: لأننا لم نكن من المصلين، أي لم نكن نصلي.

﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ أي: ولم نكن نزكي ونتصدق على المسكين المحتاج الذي أسكنه الفقر والحاجة وأذله.

فذكروا أول سبب لدخولهم سقر وهو ترك الصلاة، التي هي عمود الدين، وأعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وأهم العبادات البدنية وأول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة، وتركها كفر.

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله ﷺ – يقول: «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، فإن انتقص من فريضته شيء قال الرب – عز وجل انظروا هل لعبدي من تطوع فيكمل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله، على ذلك»[1].

وعن عبد الله بن شقيق قال: «كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة»[2].

وثنوا بترك إطعام المسكين، أي: بترك الزكاة. وهي أهم العبادات المالية، وأعظم العبادات بعد الصلاة، وهي قرينة الصلاة في نحو اثنين وثمانين موضعًا في القرآن الكريم.

فلا إخلاص عندهم في حق المعبود، ولا إحسان منهم للعبيد، كما قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝﴾ [الماعون: ٤، ٧] وقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ۝﴾ [التوبة: ٥٤].

﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ أي: وكنا نتكلم في الباطل، وفيما لا نعلم، مع المتكلمين في ذلك، ونرد به الحق، من رمي الرسول بالسحر والشعر والكهانة والجنون، وأن ما جاء به سحر أو شعر وغير ذلك.

ومن هنا ينبغي للمسلم الحذر من الخوض في الباطل من القيل والقال والغيبة والنميمة وتلقف الإشاعات، ونحو ذلك.

---

(١) أخرجه النسائي في الصلاة ٤٦٥، والترمذي في الصلاة ٤١٣، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٤٢٥ وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٢) أخرجه الترمذي في الإيمان ـ ما جاء في ترك الصلاة ٢٦٢٢.

﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي:نكذب بيوم القيامة يوم الحساب والجزاء وإدانة الناس بأعمالهم ونزعم أن لا بعث ولا حساب ولا جزاء، ولا جنة ولانار.

فجمعوا بين ترك الصلاة وعدم الإخلاص للمعبود، وبين منع الزكاة وعدم الإحسان إلى العبيد و الخوض بالباطل، والتكذيب بيوم الدين، يوم القيامة.

﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ اليقين: الموت - كما قال - عز وجل ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٩].

أي: استمرت حالنا على تلك الفعال والأقوال السيئة من ترك الصلاة وعدم إطعام المسكين ومن الخوض بالباطل والتكذيب بيوم القيامة ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ أي: حتى جاءنا الموت ونحن على هذه الحال.

عن أم العلاء - امرأة من الأنصار - رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون، وقد مات قال «أما هو فقد جاءه اليقين وإني لأرجو له الخير»[1].

وفي هذه الآية رد على غلاة الصوفية الذين يفسرون اليقين في قوله ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ أن المراد به حتى تصل إلى درجة يرتفع عنك فيها التكليف. والصحيح أن المراد به الموت كما هو في هذه الآية ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾.

﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ أي: فما تقبل فيهم شفاعة الشافعين وقد ماتوا على الكفر، وهذا على الفرض والتقدير لو وجد من يشفع لهم مع أنه لا أحد يشفع لهم كما قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر:١٨]، وقالوا فيما حكى الله عنهم ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء:١٠٠,١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الروم: ١٣].

وقال تعالى عن الشفعاء من الملائكة وغيرهم ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٨] والمجرمون أعمالهم لا يرضاها الله ـ عز وجل، فلا شافع لهم، ولو شفع لهم شافع لم يقبل الله - عز وجل - شفاعته فيهم، لأن من شرط الشفاعة إذن الله للشافع ورضاه عن المشفوع له. كما قال عز وجل ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ

---

(١) اخرجه البخاري في الجنائز ـ الدخول على الميت بعد الموت إذا ادرج في كفنه ١٢٤٣، واحمد ٤٣٦/٦.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ١٠٩﴾ [طه: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿۞وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ٢٦﴾ [النجم: ٢٦].

﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ﴾ الفاء: استئنافية و «ما» اسم استفهام للإنكار عليهم والتوبيخ لهم.

أي: فما لهؤلاء الكفرة المجرمين عن التذكرة والموعظة، أي عن القرآن ﴿مُعۡرِضِينَ﴾ أي متولين بقلوبهم وأبدانهم صادين غافلين عنها.

﴿كَأَنَّهُمۡ﴾ في إعراضهم ونفورهم الشديد عن التذكرة والموعظة.

﴿حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر بفتح الفاء ﴿مستنفَرة﴾ وقرأ الباقون بكسرها ﴿مستنفِرة﴾ وحمر: جمع حمار، يجمع على «حمر» وعلى «حمير» وعلى «أحمرة».

والمراد بها حمر الوحش لوصفها بقوله ﴿مُّسۡتَنفِرَةٞ﴾ أي: نافرة نفورًا شديدًا، ومستنفر بعضها بعضًا.

﴿فَرَّتۡ﴾ أي: هربت ونفرت وجفلت ﴿مِن قَسۡوَرَةِۭ﴾ أي: من مجموعة من الأسود تريد أكلها، أو من مجموعة من الرماة يريدون صيدها.

﴿بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ﴾ «بل» للإضراب الانتقالي أي: بل يريد كل واحد من هؤلاء الكفرة المجرمين أن يعطى وينزل عليه من السماء كتاب منشور خاص به، يزعم أنه لا ينقاد للحق إلا بذلك - كما أنزل على النبي - ﷺ - كما قال تعالى عنهم ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال تعالى عنهم أنهم قالوا: ﴿وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ﴾ [الإسراء: ٩٣].

وقد كذبوا كما قال تعالى عنهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٩٧﴾ [يونس:٩٦ ، ٩٧].

﴿كَلَّاۖ﴾ كلمة ردع وزجر، أي: ليس لهم ما طلبوا، وما قصدوا بذلك إلا التعجيز، ولو أوتوا صحفًا منشرة ما آمنوا.

﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ أي: بل لا يخافون ولا يخشون الآخرة وما فيها من العذاب والأهوال والنكال، ولو خافوها ما جرى منهم ما جرى.

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ﴾ ﴿كَلَّآ﴾ ردع لهم وزجر لإعراضهم عن القرآن، ونفي لزعمهم أن القرآن سحر يؤثر، ومن قول البشر.

أو بمعنى: حقًا، أي: حقًا إن القرآن العظيم تذكير وموعظة، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ۝﴾ [يس: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢ ، ٤٠]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [يونس: ٥٧].

﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ أي: فمن شاء من الناس تذكر واتعظ بمواعظ القرآن.

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ قرأ نافع المدني بالخطاب ﴿ وما تذكرون ﴾ وقرأ الباقون بالغيبة.

أي: وما يتعظون إلا من شاء الله أن يتعظ منهم، كقوله ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠ ، التكوير: ٢٩]

فمشيئة المخلوق تابعة لمشيئة الله – عز وجل، لأن مشيئة الله عز وجل تامة نافذة عامة لا يخرج عنها أحد فما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن، وفي هذا رد على القدرية الذين لا يدخلون أفعال العباد تحت مشيئة الله - ورد على الجبرية الذين يسلبون المشيئة من العبد.

﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ﴾ أي: هو سبحانه وتعالى – أهل أن يتقى ويُخاف ويُخشى بفعل أوامره واجتناب نواهيه وأن يعبد وحده، لأنه الإله العظيم الذي لا تنبغي العبادة إلا له.

﴿وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ أي: وأهل أن يغفر ذنوب من تاب إليه وأناب، ويسترها عن الخلق، ويتجاوز عن عقوبتها.

عن أنس – رضي الله عنه – قال: قرأ رسول الله ﷺ – هذه الآية: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ وقال: «قال الله عز وجل: أنا أهل أن أتقى، فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهًا فأنا أهل أن أغفر له»[1].

الفوائد والعبر:

١ ـ أن كل نفس مرتهنة يوم القيامة بعملها ومحبوسة في العذاب بسببه إلا أصحاب اليمين فلا يرتهنون ولا يحبسون بل هم طلقاء في جنات النعيم.

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ١٤٢، ٢٤٣، والترمذي في تفسير سورة المدثر ٣٣٢٨، وابن ماجه في الزهد – ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة ٤٢٩٩ وقال الترمذي « حسن غريب »

٢ ـتساؤل أهل الجنة فيما بينهم عن المجرمين وسؤالهم إياهم – تبكيتًا وتوبيخًا لهم ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ ؟

٣ ـأن من أعظم الجرائم ومن أكبر موجبات دخول النار ترك الصلاة، ومنع الزكاة، والخوض في الباطل، والتكذيب باليوم الآخر.

٤ ـأن الموت سبيل كل حي.

٥ ـنفي الشفعاء للمجرمين المكذبين كما قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر: ١٨].

٦ ـشدة إعراض المشركين ونفورهم عن التذكير بالقرآن ومواعظه.

٧ ـشدة عناد المجرمين وتكبرهم وتجبرهم وتعنتهم وطلب كل منهم أن ينزل عليه كتاب خاص به، وتكذيبهم بالآخرة، وعدم خوفهم منها.

٨ ـإثبات وتحقيق أن القرآن الكريم تذكرة وموعظة.

٩ ـإثبات المشيئة للعبد لقوله ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ وفي هذا رد على الجبرية القائلين بأن العبد مجبور على أفعاله.

١٠ ـ الحث على التذكر والاتعاظ بالقرآن الكريم.

١١ ـ إثبات المشيئة لله عز وجل، وأن مشيئة المخلوق تابعة لمشيئة الله فما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن.

١٢ ـ إثبات عظمة المولى عز وجل، وفضله، فهو سبحانه أهل أن يتقى ويخاف فيطاع، وأهل للفضل والتجاوز عن عباده ومغفرة ذنوبهم.

تفسير سورة القيامة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝٦ فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ۝١٤ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾.

قوله ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ (لا) زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى جيء بها لتأكيد نفي المقسم عليه.

قال ابن قتيبة [1]: «فإنها زيدت في الكلام على نية الرد على المكذبين، كما نقول في الكلام: لا والله ما ذاك كما تقول».

وقال ابن كثير[2]: «المقسم عليه متى كان منتفيًا جاز الإتيان بـ«لا» قبل القسم لتأكيد النفي. والمقسم عليه ههنا هو إثبات المعاد،والرد على ما يزعمه الجهلة من العباد من عدم بعث الأجساد».

وقال السعدي[3]: «ليست «لا» ههنا نافية ولازائدة، وإنما أتي بها للاستفتاح والاهتمام بما بعدها، ولكثرة الإتيان بها مع اليمين لا يستغرب الاستفتاح بها، وإن لم تكن في الأصل موضوعة للاستفتاح».

فأقسم عز وجل - بيوم القيامة وبالنفس اللوامة - على أن البعث وإحياء الموتى حق.

ويوم القيامة - هو يوم بعث الناس من قبورهم، وسُمي يوم القيامة لقيام الناس فيه من قبورهم للحساب والجزاء كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: ٦]، ولقيام الأشهاد فيه كما قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ۝٥١﴾ [غافر: ٥١] ولقيام الروح والملائكة فيه صفاً لا يتكلمون كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ

(١) في «تأويل مشكل إعراب القرآن» ص٢٤٦.
(٢) في «تفسيره» ٨/ ٣٠٠.
(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٥٢١.

صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾[النبأ: ٣٨]، ولقيام العدل الحقيقي فيه، والحساب كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم: ٤١].

والنفس اللوامة: أي التي من طبيعتها أنها تلوم صاحبها على الخير والشر، وكل نفس لوامة، فالنفس الخيرة: تلوم صاحبها على فوات الخير أو عدم الاستزادة منه، وتلومه على فعل الشر أو قوله، وتندم على ما فات من خير أو ما وقع من الشر، لو فعلت كذا، أو لو لم أفعل كذا، وبضدها النفس الخبيثة. قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾﴾ [القلم: ٣٠ ، ٣١]، وقال تعالى: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤] وفي قصة احتجاج آدم وموسى: «أتلومني على أمر قدره الله عليّ قبل أن أخلق، فحج آدم موسى»[1].

قال ابن القيم[2]: «وكل نفس لوامة، فالنفس السعيدة تلوم على فعل الشر وترك الخير، فتبادر إلى التوبة، والنفس الشقية بالضد من ذلك. وجمع سبحانه في القسم بين محل الجزاء، وهو يوم القيامة، ومحل الكسب وهو النفس اللوامة، ونبه سبحانه بكونها لوامة على شدة حاجتها وفاقتها وضرورتها إلى من يعرفها بالخير والشر ويدلها عليه، ويرشدها إليه، ويلهمها إياه، فيجعلها مريدة للخير، مرشدة له، كارهة للشر، مجانبة له، لتخلص من اللوم ومن شر ما تلوم عليه، ولأنها متلومة مترددة لا تثبت على حال واحدة».

ولم يذكر جواب القسم، إما لدلالة السياق عليه والعلم به، فقوله بعده ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴿٤﴾﴾ يدل على أن المقسم عليه كون البعث وإحياء الأبدان حق.

قال ابن القيم[3]: «ويجوز أن يكون من القسم المقصود به التنبيه على دلالة المقسم به وكونه آية، ولم يقصد به مقسمًا عليه معينًا فكأنه يقول: اذكر يوم القيامة والنفس اللوامة مقسمًا بها لكونها من آياتنا وأدلة ربوبيتنا».

وقال أيضًا: «فجمع بين الإقسام بالجزاء وعلى الجزاء، وبين مستحق الجزاء».

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٤٠٩ ومسلم في القدر ٢٦٥٣، والترمذي في القدر ٢١٣٤، وابن ماجه في المقدمة ٨٠ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٧٢- ٧٣، ٨٤-٨٥.
(٣) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٧٣ ، ٧٤.

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ أي: أيظن الإنسان أن لن نقدر على بعثه وجمع عظامه بعد تفتتها وتفرقها وصيرورتها رميمًا كما قال عز وجل: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

رُوِيَ أن عمر بن ربيعة أتى النبي ﷺ فقال: «حدثني عن يوم القيامة، متى يكون، وكيف حالها وأمرها؟ فأخبره النبي - ﷺ - بذلك، فقال: لو عاينت ذلك لم أصدقك يا محمد، ولم أومن به، أو يجمع الله هذه العظام؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية»[١].

﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ أي: بلى قادرين على ما هو أدق وأعظم وأدل على كمال قدرتنا، وهو تسوية أطراف أصابعه كما كانت - مع ما فيها من دقة البصمات واختلافها بحيث لا تشابه بصمات شخص ببصمات شخص آخر ـ وكذا سائر أطرافه وعظامه. وذلك مستلزم لجمع عظامه وجميع أجزاء بدنه،وأن قدرته - عز وجل على ذلك من باب أولى وأحرى .

وقال بعض المفسرين: المعنى: بلى قادرين على أن نسوي في الدنيا أصابع يديه ورجليه ونجعلها مستوية شيئًا واحدًا كخف البعير، وحافر الحمار بعد أن كانت متفرقة، فلا يمكنه أن يعمل بها شيئًا. وإذا كان عز وجل قادراً على تسوية وجمع أصابع يدي الإنسان ورجليه في الدنيا بعد أن كانت متفرقة، فهو قادر على جمع عظامه في الأخرة بعد تفرقها بالموت والبلى.

قال ابن القيم [٢]: «وهما وجهان حسنان، وكل منهما له ترجيح من وجه، فيرجح الأول أنه هو المقصود، وهو الذي أنكره الكفار، وهو إجراء على نسق الكلام واطراده، ولأن الكلام لم يسق لجمع العظام وتفريقها في الدنيا، وإنما سيق لجمعها في الآخرة بعد تفرقها بالموت.

ويرجح القول الثاني - أنه استدلال بآية ظاهرة مشهورة، وهي تفريق البنان مع انتظامها في كف واحد، وارتباط بعضها ببعض فهي متفرقة في عضو واحد، يقبض منها واحدة ويبسط أخرى، ويحرك واحدة والأخرى ساكنة، ويعمل بواحدة والأخرى معطلة وكلها في كف واحد، قد جمعها ساعد واحد، فلو شاء سبحانه لسواها فجعلها صفة واحدة كباطن الكف ففاته هذه المنافع والمصالح التي حصلت بتفريقها ففي هذا أعظم الأدلة على قدرته سبحانه على جمع عظامه بعد الموت».

---

(١) انظر «أسباب النزول للواحدي» ص ٢٩٦.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٧٤.

وقال ابن كثير[١] : «والظاهر من الآية أن قوله ﴿قَٰدِرِينَ﴾ حال من قوله: ﴿نَّجْمَعَ﴾ أي: أيظن الإنسان أنا لا نجمع عظامه؟ بلى سنجمعها قادرين على أن نسوي بنانه، أي: قدرتنا صالحة لجمعها، ولو شئنا لبعثناه أزيد مما كان، فنجعل بنانه - وهي أطراف أصابعه - مستوية».

﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ المراد بالإنسان هنا الكافر. والفجور: الكفر والمعاصي والكذب المتعمد والعناد، أي: بل يريد الكافر أن يمضي قدمًا في التكذيب والكفر والمعاصي ويدوم على فجوره لا ينزع عنه ما عاش، فيفجر في الحال، ويريد الفجور في غد وما بعده والاستمرار على ذلك.

ويحتمل أن المعنى: بل يريد الإنسان لِيُكَذِّب بما أمامه من البعث والقيامة، ولهذا قال بعده ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يسأل متى يوم القيامة مستبعدًا ومكذبًا بوقوعه.

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ۝﴾ [سبأ: ٢٩ ، ٣٠]، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝﴾ [الذاريات: ١٢]

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝﴾

أقسم عز وجل بالقيامة وأنها حق ثم ذكر بعض أهوالها.

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر، (برَق) بفتح الراء وقرأ الباقون (برِق) بكسرها.

أي: فإذا كانت القيامة برق البصر، أي: شخص فلا يطرف، وحار وانبهر وذل وخشع لما يشاهد من أهوال القيامة، التي كان يكذب بها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ۝ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ۝﴾ [إبراهيم: ٤٢ ، ٤٣].

﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ أي: ذهب ضوؤه ونوره وسلطانه.

﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ جمع بينهما في تكويرهما، وذهاب ضوئهما.

يجمعهما الذي يجمع عظام الإنسان بعدما فرقها البلى ومزقها فصارت رميمًا، ولم يجتمعا قبل ذلك قال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝﴾ [يس: ٤٠].

فيخسف القمر، وتكور الشمس، ويقذفان في النار، ليرى العباد أنهما مخلوقان

---

(١) في تفسيره ٨/٣٠١.

مسخران، وليرى الذين عبدوهما من دون الله أنهم كانوا كاذبين.

﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ أي: يقول الكافر إذا عاين هذه الأهوال يوم القيامة «أين المفر» : أين المهرب والخلاص والفكاك، يريد أن يهرب ويتخلص من الهول والعذاب ولكن هيهات.

﴿كَلَّا﴾ كلمة ردع وزجر وتهديد ﴿لَا وَزَرَ﴾ لا ملجأ ولا منجى ولا ملتجأ لأحد دون الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾ [الشورى: ٤٧].

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ أي: إلى ربك يا محمد ورب جميع الخلائق مصير الخلائق ومنتهاهم ومرجعهم ذلك اليوم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾ [ق:٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾﴾ [العلق: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ الإنباء: الإخبار بأمر عظيم مهم و «ما» موصولة تفيد العموم، أي : يُخبر الإنسانُ في ذلك اليوم، يوم القيامة، بجميع الذي قدمه من أعمال ونحوها، وبجميع الذي أخره من أعمال ونحوها فلم يعملها، صغيرها وكبيرها خيرها وشرها قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧ ، ٨].

﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ «بل» للإضراب أي: هو بصير على نفسه، عالم بجميع أقواله وأعماله الظاهرة والباطنة، حسيب على نفسه شهيد عليها، يشهد عليه سمعه وبصره وجلده ولسانه ويده ورجله، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [فصلت: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٤]، وقال تعالى ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس: ٦٥]، وقال

تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤﴾ [الإسراء: ١٤].

وكما جاء في حديث تقرير العبد بذنوبه «أتذكر ذنب كذا وكذا، فيقول: نعم يارب»[1].

﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ أي: ولو ألقى المعاذير وقدمها عن نفسه فهو بصير بها، عالم بأعماله، مهما جادل واعتذر أو أنكر ـ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ۝٢٣﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ۝١٨﴾ [المجادلة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ﴾ [غافر: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ﴾ [النحل: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ﴾ [النحل: ٨٧].

وكل هذه المعاذير لا تقبل، ومهما اعتذر الإنسان عن نفسه أو أنكر وجادل عنها فهو عالم بأعماله، ولهذا يقرر بأعماله فيقر بها، كما في قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤﴾ [الإسراء:١٤] فيقرؤه ولا يستطيع أن ينكر منه شيئًا كما قال المجرمون ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٤٩﴾ [الكهف:٤٩].

فالإنسان بصير على نفسه عالم بخفاياها وعيوبها، ولكنه قد يغفل عن نفسه ويتبصر بعيوب الآخرين فيكون حاله كما قيل: يرى القذاة في عين أخيه ولا يرى الجذع في عينه ـ نسأل الله العافية.

وأيضًا فإن الإنسان بما أعطاه الله من عقل وبصر وحنكة يحتال في تدبير أموره وأحواله ما استطاع كما يقال: «الأحدب يعرف كيف ينام» بل إن الحيوانات عندها شيء من التدبير لأحوالها حسب ما أعطاها الله – عز وجل – كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه:٥٠] أي: هداه لما خلق له، ومن هنا ترى النمل يدخر قوت الشتاء في الصيف، وتغدو الطيور أول النهار خماصا في طلب العيش، وتروح آخر النهار إلى أوكارها مليئة البطون.

---

(١) سبق تخريجه.

الفوائد والعبر:

١ ـإقسام الله – عز وجل – بيوم القيامة والنفس اللوامة – على أن البعث وإحياء الموتى حق، ولله – عز وجل – أن يقسم بما شاء من مخلوقاته.

٢ ـفي إقسامه – عز وجل – بالقيامة تعظيم لشأنها وأمرها، وفي إقسامه بالنفس اللوامة توجيه إلى التأمل في طبيعتها وكثرة تلونها وتلومها، ومن ثم حملها على ما فيه صلاحها وسعادتها في الدنيا والآخرة.

٣ ـاستبعاد المكذبين للقرآن بعث الأجساد وإنكارهم ذلك.

٤ ـإثبات قدرة الله – عز وجل – على بعث الأجساد وجمع أجزائها جميعًا مهما دقت، ومن ذلك أطراف الأصابع والبصمات.

٥ ـرغبة الكافر بالاستمرار على الكفر والفجور وتكذيبه بيوم القيامة وسؤاله عنه استبعادًا.

٦ ـشخوص البصر وحيرته وانبهاره من شدة أهوال يوم القيامة ومنها خسف القمر وجمع الشمس والقمر.

٧ ـطلب الكافر المكذب المفر والمهرب في ذلك اليوم، ولكن هيهات لا مفر ولا محيد ولا ملجأ ولا منجى في ذلك اليوم من الله إلا إليه، إليه المستقر والمعاد وهو لجميع الخلق بالمرصاد.

٨ ـ إثبات الربوبية الخاصة والعامة لله ـ عز وجل.

٩ ـإخبار الإنسان في ذلك اليوم بما قدم من أعمال صالحة وما أخر منها فلم يعمله، وما قدم من أعمال سيئة، ومجازاته على ذلك كله.

١٠ ـ أن الإنسان بصير على نفسه، عالم بجميع أقواله وأفعاله حسيب على نفسه شهيد عليها مهما التمس لها الأعذار وجادل عنها.

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾.

سبب النزول:

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: «كان رسول الله ﷺ يُعالج من التنزيل شدة، فكان يحرك شفتيه فأنزل الله – عز وجل -: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ قال: جمعه في صدرك، ثم تقرأه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ فاستمع له وأنصت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ – كما قرأه» [(١)]

وفي رواية: «كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي يلقى منه شدة، وكان إذا نزل عليه عرف في تحريكه شفتيه، يتلقى أوله ويحرك شفتيه خشية أن ينسى أوله قبل أن يفرغ من آخره، فأنزل الله ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾»[(٢)].

قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ «لا» ناهية. والخطاب للنبي ﷺ والضمير في «به» في الموضعين يعود إلى القرآن الكريم،وهو غير مذكور – فيما تقدم من السورة، لكنه معلوم.

والمعنى: لا تحرك بالقرآن لسانك لأجل الاستعجال به، وأنصت واستمع لما يلقى إليك منه كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه:١١٤].

وقد كان – ﷺ – إشفاقًا منه وحرصًا – يبادر إلى أخذه من الملك ويسابقه في قراءته، ويحرك لسانه وشفتيه ليحفظه خشية أن يضيع منه شيء، أو يفوته، فنهاه الله – عز وجل – عن ذلك وتكفل له بجمعه فقال:

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾، أي: إن علينا جمعه في صدرك وحفظه فيه، وتيسير قراءته وتلاوته عليك كما أُنزل – كما قال عز وجل ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الدخان: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧،

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٥، ومسلم في الصلاة – الاستماع للقراءة ٤٤٨، والنسائي في الافتتاح ٩٣٥، وأحمد ٣٤٣/١.

(٢) أخرجها ابن أبي حاتم في « تفسيره » ٣٣٨٧/١٠.

٢٢، ٣٢، ٤٠]، وقال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعلى: ٦، ٧].

﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ أي: إذا قرأه عليك الملك عن الله عز وجل ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ أي: فاقرأه بعده كما أقرأك، فأُمر - ﷺ بالمتابعة، ونُهي عن العجلة والموافقة. والمتابعة مجيء الشيء بعد الشيء، والموافقة: مجيء الشيء مع الشيء.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ اي: ثم بعد جمعه في صدرك وتلاوتك له - كما أنزل - فإن علينا تفسيره وبيان معانيه وما فيه من الأحكام والحكم والآداب والأخلاق وغير ذلك.

وبهذا تكفل الله - عز وجل - لرسوله - ﷺ - بتيسير تدبر القرآن له، حفظًا وتلاوة لألفاظه وفهماً لمعانيه، وتطبيقًا لأحكامه، ولهذا بين ﷺ - لأمته هذا القرآن أتم بيان بأقواله وأعماله وتقريراته.

كما امر ـ عز وجل ـ الأمة بتدبره فقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ۝﴾ [محمد: ٢٤].

ويؤخذ من هذا التاني والتثبت في طلب العلم، وانه ينبغي لطالب العلم أن يصبر ويستمع إلى معلمه حتى يقضي كلامه، ثم يعيده عليه، أو يسأل عما أشكل عليه منه ولا يقاطعه أو يبادره قبل فراغه.

كما يؤخذ منه أن النبي - ﷺ - كما بين للأمة ألفاظ الوحي فإنه قد بين لهم معانيه.

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ قرأ نافع وابو جعفر وحمزة والكسائي وعاصم بالخطاب في: ﴿تُحِبُّونَ﴾ و ﴿وَتَذَرُونَ﴾ وقرأ الباقون بالغيب فيهما.

﴿كَلَّا﴾ للردع والزجر أي: ليس الأمر كما تزعمون أن لا بعث ولا حساب.

﴿بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ «بل» للإضراب أي: بل تحبون الدنيا العاجلة الفانية فتعملون لها وتتنافسون فيها، لأن لذاتها ونعيمها عاجل، والإنسان مولع بحب العاجل وإيثاره على الآجل.

﴿وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ اي: وتتركون العمل للآخرة الباقية والمسارعة والمسابقة إليها والمنافسة فيها، لأنها متاخرة وآجلة، فحملكم حب الدنيا العاجلة الفانية على الفجور والتكذيب وشغلكم عن الاستعداد للآخرة،كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]. وقال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝﴾ [التكاثر: ١، ٢].

وقال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢، ٣]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النحل: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠].

وحب الدنيا رأس كل خطيئة، وأساس كل بلية وسبب كل رزية، فما حصل من كفر وتكذيب فبسببها، وما حصل من ذنوب ومعاصٍ فبسببها، وما حصل من عداوة وبغضاء حتى بين الأقارب فبسببها، ولهذا قال ﷺ: «والله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تفتح الدنيا عليكم كما فتحت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم»[1].

وقد ذم الله - عز وجل - الدنيا وبين حقارتها ودناءة منزلتها، كما امتدح الآخرة وبين عظم منزلتها بما فيه الكفاية لأولي العقول والبصائر لكن حب الدنيا يعمي ويصم:

قد نادت الدنيا على نفسها ... لو كان في العالم من يسمع
كم واثق بالعمر أفنيته ... وجامع بددت ما يجمع

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ۝ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۝﴾.

بين عز وجل في الآيتين السابقتين أن مما حمل على الفجور والتكذيب إيثار الحياة الدنيا على الآخرة، ثم أتبع ذلك بذكر ما يدعو لإيثار الآخرة على الدنيا بذكر الفرق بين حال المنعمين وحال المعذبين في ذلك اليوم.

قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ «ناضرة» من النضارة والحسن والبهاء أي: وجوه يومئذ حسنة بهية مشرقة متهللة مسرورة عليها رونق ونور لما هي فيه من نعيم القلوب وبهجة النفوس ولذة الأرواح، كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝﴾ [الغاشية: ٨، ٩].

وكما قال ﷺ: «أول زمرة يدخلون الجنة على هيئة البدر»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠١٥، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦١، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٦٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٩٦- من حديث عمرو بن عوف - رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٦، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٣٤، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٣٧، وابن =

﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ «ناظرة» من النظر، أي تنظر إلى ربها وتراه عيانًا كما قال – ﷺ: «إنكم سترون ربكم عيانًا»[(١)].

وعن أبي سعيد وأبي هريرة ـ رضي الله عنهما – أن ناسًا قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: «هل تضارون في رؤية الشمس والقمر ليس دونها سحاب»؟ قالوا: لا. قال: «فإنكم سترون ربكم كذلك»[(٢)].

وعن جرير بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: «نظر رسول الله ﷺ ـ إلى القمر ليلة البدر، فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»[(٣)].

وعن أبي موسى – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى الله إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»[(٤)].

وعن صهيب – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة قال: يقول الله تعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم، وهي الزيادة» ثم تلا هذه الآية: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[(٥)].

وعن جابر بن عبد الله – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يتجلى للمؤمن يضحك يعني في عرصات القيامة»[(٦)].

وعن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ -: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لينظر في ملكه سنة، يرى أقصاه كما يرى أدناه، ينظر إلى أزواجه وخدمه، وإن أفضلهم منزلة لينظر في وجه الله كل يوم مرتين»[(٧)].

=

ماجه في الزهد ٤٣٣٣ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٤٣٥ – من حديث جرير بن عبد الله ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٧٤، ومسلم في الإيمان ـ معرفة طريق الرؤية ١٨٢.

(٣) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٥٤، ومسلم في المساجد ٦٣٣، وأبو داود في السنة ٤٧٢٩، والترمذي في صفة الجنة ٣٥٥١، وابن ماجه في المقدمة ١٧٧.

(٤) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٧٨، ومسلم في الإيمان – إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى ١٨٠.

(٥) أخرجه مسلم في الإيمان ١٨١، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٢، وابن ماجه في المقدمة ١٨٧.

(٦) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٥٨، ومسلم في الإيمان ١٩١.

(٧) أخرجه أحمد ٢/١٣، والترمذي في تفسير سورة القيامة ٣٣٣٠.

إلى غير ذلك من الأحاديث الصحيحة الصريحة في الدلالة على ثبوت رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة. وعليه يدل مفهوم قوله تعالى في الكفار ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝﴾ [المطففين: ١٥].

قال ابن كثير[1]: «وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله – عز وجل – في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث لا يمكن دفعها ولا منعها».

وبعد أن ذكر بعض هذه الأحاديث قال: «وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام، وهداة الأنام».

وقال السعدي في الكلام على الآية[2]: «أي: ينظرون إلى ربهم على حسب مراتبهم ومنهم من ينظره كل يوم بكرة وعشيًا، ومنهم من ينظر كل جمعة مرة واحدة فيتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، وجماله الباهر الذي ليس كمثله شيء».

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ أي: ووجوه في ذلك اليوم «باسرة» أي: عابسة كالحة كاشرة مسودة حزينة خاشعة ذليلة وهي وجوه الكفار كما قال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ۝﴾ [عبس: ٤٠ – ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝﴾ [الغاشية: ٢ – ٤].

﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ أي: تستيقن أن يفعل بها داهية وأمر عظيم مهلك يقصم فقار الظهر ويقطعها، أي: تستيقن أن مصيرها ومآلها إلى عذاب النار وبئس المصير.

الفوائد والعبر:

١ ـ نهي الله ـ عز وجل ـ لنبيه ـ ﷺ ـ عن تحريك لسانه استعجالاً بالقرآن وحرصاً منه ﷺ وخوفًا من فوات شيء منه وتكفل الله – عز وجل – له بجمعه وقراءته وبيانه له.

٢ ـ ينبغي أن يقرأ المتعلم للقرآن بعد نهاية قراءة معلمه، وينبغي التثبت والتأني في طلب العلم.

٣ ـ بيان الله ـ عز وجل ـ لنبيه ـ ﷺ ألفاظ القرآن ومعانيه وأحكامه وأخباره ومواعظه ووعده ووعيده وغير ذلك.

٤ ـ التنديد بمن يحبون الدنيا العاجلة الفانية فينشغلون بها عن الآخرة الباقية والتهديد والوعيد لهم.

٥ ـ نضارة وحسن وجوه أهل الجنة، ونظرهم إلى ربهم ـ سبحانه وتعالى.

٦ ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لأوليائه.

٧ ـ بسور وجوه الكفار ومساءتها من شدة الهول والعذاب وتوقع ما هو أدهى وأعظم وأشد.

---

(١) في «تفسيره» ٨/٣٠٦.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/٥٢٦– ٥٢٧.

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله – عز وجل – في الآيات السابقة انقسام الناس في الآخرة إلى مسرور منعم، ومحزون معذب ثم ذكر ما يسبق ذلك من حالة الاحتضار وما عنده من الأهوال والفزع ثبتنا الله وجميع المسلمين بالقول الثابت ثم توعد عز وجل ـ من خالف أمره وكذب وتولى، ثم ختم السورة بما بدأها به وهو إثبات البعث والمعاد والقيامة.

قوله: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ «كلا» للردع والزجر والتهديد، أي: سيعلمون سوء عاقبة أمرهم في تلك الحال ويندمون حين لا ينفع الندم.

ويحتمل كونها بمعنى: حقًا، أي: حقًا عندما يحصل ما ذكر وتقبض الروح فإن المساق إلى الله.

أي: كلا إذا انتزعت الروح من الجسد وبلغت التراقي. والتراقي : جمع ترقوة، وهي العظام التي بين النحر والعاتق «وهي قريبة من الحلقوم، ولهذا قال تعالى في سورة الواقعة : ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الآيات: ٨٣ – ٨٧].

وعن بسر بن جحاش أن رسول الله ﷺ – بصق يومًا في كفه، فوضع عليها أصبعه، ثم قال: «قال الله تعالى: ابن آدم أنّى تعجزني، وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين برديك، وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتصدق وأنّى أوان الصدقة»[1].

﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ أي: مَن راقٍ يرقي، ومَن طبيب شاف يداوي. مِن رقى يرقي كرمى يرمي، ومصدره «رقية».

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢١٠، وابن ماجه في الوصايا – النهي عن الإمساك في الحياة والتبذير عند الموت ٢٧٠٧.

قال السعدي[1]: «أي: مَن يرقيه، من الرقية، لأنهم انقطعت عنهم الأسباب العادية فتعلقوا بالأسباب الإلهية».

وقيل مَن يرقى بروحه من الملائكة؟ ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ من رقي يرقى كشقي يشقى، ومصدره «رُقِيّ» فعلى هذا يكون من كلام الملائكة. والأظهر القول الأول.

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾.

أي: وأيقن وجزم أن الذي نزل به هو الفراق للأهل والولد والمال، وللدنيا كلها والانتقال للآخرة.

﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ أي: التوت والتصقت واجتمعت ساقا الميت إحداهما بالأخرى بعد موته ولفه في الكفن، والتفت عليه شدة الدنيا وشدة الآخرة في آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة وعظم الأمر وصعب الكرب.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ أي: إلى ربك يا محمد ورب كل مخلوق ذلك اليوم السوق والمرجع والمآل والمآب كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنعام: ٦١ ، ٦٢]، وقال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الجاثية: ٢٦].

وفي حديث البراء بن عازب – رضي الله عنه – في قبض روح العبد المؤمن قوله – ﷺ – «فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهى به إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض..» الحديث [2] .

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾ إخبار من الله – عز وجل – ووصف لحال الكافر في الدنيا.

قوله: ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ أي: فلم يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وغير ذلك مما يجب الإيمان به من المغيبات، وبما جاء به الرسول – ﷺ – من الوحي من عند الله عز وجل.

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٥٢٧.

(٢) سبق تخريجه.

﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ اي: ولا صلى الصلوات المفروضة وغيرها، وخص الصلاة من بين الواجبات لعظم مكانتها في الإسلام فهي الصلة بين العبد وبين ربه، وأعظم العبادات البدنية واهمها، وهي عمود الإسلام.

﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ اي: ولكن كذّب بقلبه ما جاء من الحق عن الله ورسوله، وما أخبر به الكتاب والسنة من المغيبات.

﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ اعرض بجوارحه عن الصلاة وغيرها مما جاء من الحق فلم يعمل به.

قال ابن كثير[1]: «كان في الدار الدنيا مكذبًا للحق بقلبه، متوليًا عن العمل بقالبه، فلا خير فيه باطنًا ولا ظاهرًا».

﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ اي: يتبختر ويختال في هيئته ومشيته أشرًا وبطرًا، فكهًا مسرورًا غير وجل ولا خائف مما هو عليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المطففين: ٣١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ [الانشقاق: ١٣ - ١٥].

بل إن هؤلاء الكفرة المكذبين من كبرهم وغرورهم يطمعون أن يكونوا أحسن من غيرهم في الآخرة كما قال قائلهم فيما ذكر الله عنهم: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾ [فصلت: ٥٠].

وكما قال صاحب الجنة: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف: ٣٦]، وكما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾﴾ [مريم: ٧٧ - ٧٩].

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله - ﷺ - : «إذا مشت أمتي المطيطياء، وخدمها أبناء الملوك أبناء فارس والروم سُلّط شرارها على خيارها»[2].

﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ زجر وتهديد شديد، ووعيد أكيد لمن جمع بين تكذيب الحق بقلبه والإعراض عنه بجوارحه، وبين الاختيال والأشر والبطر والسرور بما هو عليه من الشر.

---

(١) في «تفسيره» ٨/٣٠٧.
(٢) أخرجه الترمذي في الفتن ٢٢٦١، وابن المبارك في «الزهد» ١٨٧ وقال الترمذي: «حديث غريب».

قال ابن كثير[1]: «أي: يحق لك أن تمشي هكذا وقد كفرت بخالقك وبارئك، كما يقال في مثل هذا على سبيل التهكم والتهديد كقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝٤٩﴾ [الدخان: ٤٩]، وكقوله: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ۝٤٦﴾ [المرسلات: ٤٦]، وكقوله ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الزمر : ١٥]، وكقوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]».

﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ تأكيد للتهديد ووعيد على إثر وعيد.

وقد قيل إن هذه الآيات نزلت في أبي جهل.

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ أي: أيظن الإنسان – يعني الكافر – أن يترك مهملاً لا يؤمر ولا ينهى ولا يبعث فيثاب أو يعاقب، فهذا ينافي حكمة الله – عز وجل – في خلقه له كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ۝١١٦﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

قال ابن القيم[2]: «ومن أسرارها أن إثبات النبوة والمعاد يعلم بالعقل، وهذا أحد القولين لأصحابنا وغيرهم وهو الصواب، فإن الله سبحانه – أنكر على من حسب أنه يترك سدى فلا يؤمر ولا ينهى، ولا يثاب، ولا يعاقب، ولم ينف سبحانه ذلك بطريق الخبر المجرد، بل نفاه نفي مالا يليق نسبته إليه، ونفي منكر على من حكم به وظنه».

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً﴾ الاستفهام للتقرير، أي: بلى لقد كان الإنسان هكذا. و«النطفة» هي الماء القليل، أي: لقد كان الإنسان « نطفة » أي ماءً قليلاً مهينًا كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠﴾ [المرسلات: ٢٠].

﴿مِّن مَّنِىٍّ﴾ أي: من ماء الرجل وماء المرأة ﴿يُمْنَىٰ﴾ قرأ يعقوب وحفص ﴿يمنى﴾ بالياء على التذكير، وقرأ الباقون ﴿ تمنى ﴾ بالتاء على التأنيث.

ومعنى ﴿ يمنى ﴾ أي: يصب ويراق في أرحام النساء، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾ [الطارق: ٥ – ٧].

﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ أي: ثم كان علقة من الدم تعلق في جدار الرحم، ﴿فَخَلَقَ﴾ أي: فخلق العلقة مضغة، ثم خلق المضغة عظامًا ثم كسا العظام لحمًا، ثم أنشأه خلقًا آخر. ﴿فَسَوَّىٰ﴾ أي: فسوى خلقه وأتقنه وأحكمه على أحسن حال، تام الأعضاء، معتدل القامة،

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٣٠٨.

(٢) انظر « بدائع التفسير » ٥/ ٨٣.

ناطقًا سميعًا بصيرًا كما قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الإنسان: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٢- ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار: ٦ - ٨].

وفي حديث عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ - قال: «يجمع خلق أحدكم في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم علقة مثل ذلك، ثم مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويكتب رزقه وأجله وشقي أو سعيد» [(١)].

﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ أي: الصنفين والجنسين ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾.

﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: أليس الذي خلق الإنسان ونقله في هذه الأطوار المختلفة قادراً على إحياء الموتى وبعثهم.

والاستفهام كسابقه للتقرير. والجواب عن الاستفهامين بأن يقال: «بلى» أو «بلى وانا على ذلك من الشاهدين» أو بلى إنه على كل شيء قدير.

أي: فالقادر على خلق الإنسان بعد أن كان عدمًا من هذه النطفة مرورًا بمراحل الخلق بعدها حتى صار خلقًا سويًا قادر من باب أولى وأحرى على أن يحيي الموتى بعد موتهم وهذا أهون عليه كما قال - عز وجل - : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨ ، ٧٩].

قال ابن القيم[(٢)]: « فإذا تأمل العاقل البصير أحوال النطفة من مبدئها إلى منتهاها دلته على المعاد والنبوات كما تدله على إثبات الصانع وتوحيده وصفات كماله، وكمال قدرته وحكمته، وأنه الملك الحق المتعالي عن أن يخلقها عبثًا ويتركها سدى بعد كمال خلقها».

وعن موسى بن أبي عائشة قال: «كان رجل يصلي فوق بيته، فكان إذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٠٨، ومسلم في القدر ٢٦٤٣، وأبو داود في السنة ٤٧٠٨، والترمذي في القدر ٢١٣٧، وابن ماجه في المقدمة ٧٦.

(٢) انظر « بدائع التفسير » ٥/ ٩٠.

ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ؟ قال: سبحانك، فبكى، فسألوه عن ذلك، فقال: سمعته من رسول الله ﷺ»[١].

وروي عن أبي هريرة – رضي الله عنه قال: : قال رسول الله ﷺ : «من قرأ منكم بالتين والزيتون فانتهى إلى آخرها : ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾؟ فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين. ومن قرأ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فانتهى إلى ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ؟ فليقل: بلى ومن قرأ ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ فبلغ: ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ ؟ فليقل: آمنا بالله»[٢].

وعن قتادة قوله: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ذكر لنا أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأها قال: «سبحانك وبلى»[٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه مر بهذه الآية: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ ؟ فقال: «سبحانك، فبلى»[٤].

الفوائد والعبر:

١ ـ التذكير بساعة الاحتضار والفراق والرجوع إلى الله عز وجل.

٢ ـ إذا نزل الموت ضاق الفضاء، وبطلت الحيل، ولم تجد الأسباب.

٣ ـ جواز الرقية وطلب الاستشفاء.

٤ ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة والعامة.

٥ ـ الردع والزجر والوعيد والتهديد للكافر الذي لم يصدق بالقرآن وما جاء به الرسول ﷺ ولم يصل لله، بل كذب بقلبه وتولى ببدنه وجوارحه ومشى بين الناس مختالاً متكبرًا معجبًا بنفسه.

٦ ـ أن الصلاة أعظم العبادات في الإسلام، وتركها كفر لقوله ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

٧ ـ الحذر من عدم التصديق بما جاء عن الله وترك الصلاة والتكذيب والتولي والكبر والاختيال والإعجاب لأنها صفات الكفار.

٨ ـ اعتقاد الكافر أنه متروك هملاً لا يؤمر ولا ينهى، ولا يبعث فيجازى بعمله ينافي حكمة الله عز وجل في خلقه.

٩ ـ تقرير الإنسان وتذكيره بنعمة الله – عز وجل – عليه في إيجاده ونقله في أطوار خلقه وضعفه إلى أن صار بشراً سوياً سميعاً بصيراً.

١٠ ـ إثبات قدرة الله – عز وجل – التامة على البعث وإحياء الموتى، لأن الذي خلق الخلق من العدم قادر على إعادة خلقهم من باب أولى.

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة – باب الدعاء في الصلاة ٨٨٤، وابن أبي حاتم في « تفسيره » ١٠/ ٣٣٨٩. قال ابن كثير في « تفسيره» ٨/ ٣٠٩.: «: تفرد به أبو داود ولم يسم هذا الصحابي ولا يضر ذلك».

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة – مقدار الركوع والسجود ٨٨٧، والترمذي في تفسير سورة التين ٣٣٤٧.

(٣) أخرجه الطبري في « جامع البيان » ٢٣/ ٥٢٨.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٨٩.

تفسير سورة الإنسان

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: «كان النبي ﷺ - يقرأ في الجمعة في صلاة الفجر الم تنزيل السجدة و ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ »[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾.

قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ «هل» حرف استفهام للتقرير، أي: قد أتى على الإنسان وقت طويل من الدهر لا وجود له ولا ذكر، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ۝٦٧﴾ [مريم: ٦٧].

قال ابن كثير[2]: « انه أوجده بعد أن لم يكن شيئا يُذكر لحقارته وضعفه».

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: أوجدناه من نطفة، وهي المني كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧﴾ [القيامة: ٣٧].

﴿أَمْشَاجٍ﴾ أي: أخلاط من عناصر مختلفة من ماء الرجل وماء المرأة، ثم ينتقل من طور إلى طور ومن حال إلى حال كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ أي: نختبره بالتكاليف أيعمل بما خلق له أم لا - كما قال عز وجل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ أي: كمّلنا خلقته وحواسه، ومنها السمع والبصر، والتي هي من أهم ما أنعم الله به على الإنسان بعد العقل - لأنهما طريقا المعرفة إليه، فبالسمع

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة - ما يقرأ في يوم الجمعة ٨٩١، ومسلم في الجمعة، ٨٨٠، والنسائي في الافتتاح ٩٥٥، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨٢٣.

(٢) في « تفسيره » ٨/ ٣١٠.

يسمع الإنسان الآيات الشرعية، وبالبصر ينظر في آيات الله الشرعية والكونية، وقد يكون السمع والبصر نقمة على الإنسان إذا استعملهما في سماع الباطل والنظر إليه.

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: دللناه على طريق الحق وأرشدناه إليه بما أنزلنا من الوحي في القرآن الكريم وعلى لسان النبي الكريم ﷺ - كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝﴾ [البلد: ١٠] أي: بينا له طريق الخير وطريق الشر. وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝﴾ [الأحزاب: ٤].

﴿إِمَّا شَاكِرًا﴾ «إما» أداة تفصيل أي: إما شاكرًا لله - عز وجل - نعمه العظيمة عليه، بخلقه وإيجاده من العدم ومنحه السمع والبصر ودلالته وإرشاده إلى طريق الحق، وذلك بسلوك طريقه المستقيم والإقرار والاعتراف بنعمه عليه واستعمالها في طاعته - عز وجل.

﴿وَإِمَّا كَفُورًا﴾ بربه جحودًا لنعمه مستعملاً لها في معصيته معرضًا عن الحق بقلبه متولياً عنه ببدنه.

عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ - : «كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه، فإذا أعرب عنه لسانه، فإما شاكرًا وإما كفورًا»[(١)]

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝﴾ [الشمس: ٧ - ١٠].

وكقوله - ﷺ: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»[(٢)].

ويؤخذ من قوله: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ إثبات أن العبد فاعل مريد حقيقة، وأن إرادته تابعة لمشيئة الله وإرادته، وفي هذا رد على القدرية الذين يقولون إن العبد يخلق فعل نفسه، وعلى الجبرية القائلين بأن العبد مجبور على أفعاله لا إرادة له.

وقد تضمنت هذه الآيات الثلاث أول أحوال الإنسان ووسطها ومنتهاها.

فقد كان عدمًا، ثم خلقه الله وأوجده وأتم خلقه، ثم بين له طريق الخير وطريق الشر في كتبه وعلى ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام، فانقسم الناس إلى شاكر لنعم الله قائم بحقوقه، وإلى كفور بربه وبنعمه، ثم أتبع ذلك بذكر حال الفريقين في الآخرة وجزائهم.

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٣٥٣.

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة - فضل الوضوء ٢٢٣ - من حديث أبي مالك الأشعري - رضي الله عنه.

الفوائد والعبر:

١ ـ امتنان الله – عز وجل – على الإنسان في إيجاده من العدم بعد أن لم يكن شيئًا مذكورا.

٢ ـ أن الإنسان خلق من ضعف، من نطفة وأخلاط من ماء الرجل والمرأة، وانتقل من طور إلى طور حتى صار إنسانًا سويًا سميعاً بصيراً.

٣ ـ أن الله – عز وجل – خلق الإنسان وأوجده للابتلاء والامتحان، لينظر أيشكر أم يكفر.

٤ ـ أن نعمة السمع والبصر من أعظم النعم فعلى الإنسان أن يستعملها فيما ينفعه في دينه ودنياه.

٥ ـ لا عذر للإنسان ولاحجة له، فقد بين الله عز وجل له طريق الخير وأمره بسلوكه وبين له طرق الشر وحذره منها.

٦ ـ أن العبد فاعل مريد ليس مجبورًا على أفعاله فله أن يختار طريق الشكر، وله أن يختار طريق الكفر.

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله - عز وجل - في الآيات السابقة أنه أوجد الإنسان وهداه وأرشده إلى طريق الحق وهو إما شاكر لربه ونعمه عليه سالك طريق الحق، وإما كفور بربه ونعمه معرض عن الحق، ثم أتبع ذلك بذكر ما أعده لكل فريق، وأنه أعد للكافرين السلاسل والأغلال والسعير والعذاب الأليم، وأعد للأبرار أصناف النعيم من نضارة الوجوه وسرور القلوب والمساكن والملابس والحلي والمجالس والثمار والشراب والخدم والنعيم المقيم والملك الكبير. ونبه بما ذكر من نعيم الأبرار بعظم نعيم من فوقهم في المنزلة، وهم المقربون، والذين ذكر الله من نعيمهم أنهم يشربون من عين الكافور، كما قال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين: ٢٨].

قوله: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: إنا أعددنا وهيأنا وجهزنا وأرصدنا للكافرين بالله المكذبين لرسله الجاحدين لشرعه.

﴿سَلَاسِلَا﴾ جمع سلسلة، ممنوع من الصرف لأنه على صيغة منتهى الجموع، أي: سلاسل يُسلكون بها ويسحبون في الجحيم.

﴿وَأَغْلَالًا﴾ يغلون ويقيدون بها ويوثقون وتشد فيها أيديهم إلى أعناقهم، ونواصيهم إلى أقدامهم. كما قال تعالى: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [غافر: ٧١ ، ٧٢]، وقال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾ [الحاقة: ٣٠ - ٣٢]، وقال تعالى:

﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾ [الرحمن: ٤١]، وقال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦]

﴿وَسَعِيرًا﴾ أي: ونارًا مستعرة ملتهبة تسعر بها أجسامهم وتحرق بها أبدانهم كلما نضجت جلودهم بدلوا جلودًا غيرها ليذقوا العذاب.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ الآيات

بعد أن ذكر الله - عز وجل - ما أعده للكافرين من السلاسل والأغلال والسعير ذكر ما أعده للأبرار من أنواع النعيم ممتدحًا لهم على طريقة القرآن في الجمع بين الوعد والوعيد، ليجمع العبد بين الخوف والرجاء.

قوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ الأبرار: جمع «بَرّ»، وفي معناه «بار» ويجمع على «بررة» و«البَرُّ» و«البار» مأخوذ من «البِّر» وهو في الأصل كلمة جامعة لكل خصال الخير، الظاهرة والباطنة، قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩].

وهو الذي تسكن إليه النفس ويطمئن إليه القلب، كما قال ﷺ: «البر ما سكنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب»[1] ومنه حسن الخلق، كما قال ﷺ: «البر حسن الخلق»[2].

والمراد بالأبرار في الآية من فعلوا الواجبات وتركوا المنهيات، ومن ذلك الوفاء بالنذر، وإطعام الطعام للمحتاجين من المساكين واليتامى والأسارى مع الإخلاص لله تعالى في ذلك، والخوف من عذابه ومن أهوال يوم القيامة، والصبر في ذات الله كما قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا

---

(١) أخرجه أحمد، ٤/ ١٩٤، والدارمي في الأضاحي ٢٥٣٣ من حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه.
(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة ٢٥٥٣، والترمذي في الزهد ٢٣٨٩ - من حديث النواس بن سمعان - رضي الله عنه

﴿قَمْطَرِيرًا ۝﴾ والمراد بهم أصحاب اليمين[1]

﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ أي: من كاس الخمر اللذيذ الذي لا يُنزفون بسببه ولا يُصدعون.

﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ مزاجها: ما تمزج به، أي: كأس خمر ممزوجة بالكافور ليبرده ويكسر حدته .

والكافور: نبت بارد طيب الرائحة – وفرقٌ ما بين كافور الدنيا وكافور الجنة قال ابن عباس – رضي الله عنهما – «ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء»[2] .

ولهذا تنتفي عما في الجنة جميع الآفات التي تصيب ما يماثلها في الدنيا في الاسم، كما قال تعالى: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝﴾ [الواقعة: ٢٨] فقوله: ﴿مَّخْضُودٍ﴾ أي: قد خضد وقطع شوكه وهو آفة السدر في الدنيا يؤذي من يريد قطعه .

وقال تعالى: ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [آل عمران: ١٥] أي: مطهرة من الحيض والنفاس والبول والغائط وغير ذلك من الأدناس التي في نساء الدنيا.

وقال تعالى: ﴿۞ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢٧] أي: دار السلامة من الآفات التي في دار الدنيا.

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ «عينًا» منصوب بدل من «كافورا» أي: ذلك الكأس اللذيذ ممزوج بكافور من معين لا ينضب ولا ينقطع،وهي عين الكافور ومعنى ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ أي: يشربون ويروَوْنَ، ولهذا قال: «بها» ولم يقل «منها» لأن الفعل : «يشرب» ضمن معنى «يَرْوَى» ومن هذا قول الشاعر:

شربن بماء البحر ثم ترفعت *** متى لجج خضر لهن نشيج[3]

والمراد بالعبودية في قوله: ﴿عِبَادُ اللَّهِ﴾ العبودية الخاصة، وأضافهم إليه إضافة تشريف وتكريم والمراد بهم المقربون وهم خاصة الخاصة كما قال تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ۝﴾ [المطففين: ٢٧ ٢٨].

---

(١) انظر الكلام على قوله تعالى: في سورة الواقعة ﴿ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ﴾ [الآية: ٢٧].

(٢) انظر «مجموع الفتاوى» ٥/٢٥٧ ، ١١/٤٨٢ ، «بدائع التفسير» ٥/٩٨.

(٣) البيت لأبي ذؤيب الهذلي انظر «ديوان الهذليين» ١/٥١، ٥٢.

قال ابن تيمية [١]: «وذكر سبحانه أن شراب الأبرار يمزج من شراب عباده المقربين لأنهم مزجوا أعمالهم، ويشربه المقربون صرفاً خالصًا، كما أخلصوا أعمالهم، وجعل سبحانه شراب المقربين من الكافور الذي فيه من التبريد والقوة ما يناسب برد اليقين وقوته لما حصل لقلوبهم ووصل إليها في الدنيا مع ما في ذلك من مقابلته للسعير».

وقال ابن كثير [٢]: «أي هذا الذي مزج لهؤلاء الأبرار من الكافور هو عين يشرب بها المقربون من عباد الله صرفًا بلا مزج، ويروون بها».

أي: فالأبرار وهم أصحاب اليمين يشربون من كأس ممزوجة بالكافور.

والمقربون يشربون صرفاً من عين الكافور.

كما يشرب الأبرار من خمر ممزوج بالتسنيم، ويشرب المقربون صرفاً من عين التسنيم كما قال: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝﴾ [المطففين: ٢٥ - ٢٨].

﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي: يصرفون جداولها ويقدرون ينابيعها ويجرونها حيث شاؤوا، وأين شاؤوا من بساتينهم ودورهم وقصورهم ورياض الجنة وغير ذلك، بدون كلفة، ومن غير أخاديد.

﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ أي: من صفات الأبرار: الوفاء بالنذر. والنذر : ما أوجبه الإنسان على نفسه من التزامات وعهود. والوفاء به واجب. قال ﷺ: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه» [٣].

وإذا كانوا يوفون بالنذر الذي هو غير واجب في الأصل عليهم إلا بإيجابهم على أنفسهم فهم يقومون بالواجبات والفروض الأصلية التي أوجبها الله عليهم من باب أولى وأحرى.

قال ابن تيمية [٤] : «وذكر سبحانه الوفاء بالنذر وهو أضعف الواجبات، فإن العبد هو الذي أوجب على نفسه التزامه، فهو دون ما أوجبه الله سبحانه عليه، فإذا وفى لله

---

(١) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ٢٢.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٣١٢.

(٣) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور - النذر في الطاعة والنذر فيما لا يملك وفي معصية الله ٦٦٩٦، وأبو داود في الأيمان والنذور ٣٢٨٩، والنسائي في الأيمان والنذور ٣٨٠٦، والترمذي في النذور والأيمان ١٥٢٦، وابن ماجه في الكفارات ٢١٢٦ - من حديث عائشة - رضي الله عنها.

(٤) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ٢٢.

بأضعف الواجبين الذي التزمه هو، فهو بأن يوفي بالواجب الأعظم الذي أوجبه الله عليه أولى وأحرى» .

﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا﴾ «يومًا» مفعول به منصوب لـ«يخافون» وهو يوم القيامة، ولا يصح أن يعرب ظرفًا لأن المؤمنين لا يخافون في ذلك اليوم - كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

ونكّر «يوماً» للتعظيم والتفخيم والتهويل - كما في قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٧]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [الإنسان: ١٠]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإنسان: ٢٧].

﴿كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ أي: كان شره وهوله وكربه وعذابه فاشيًا ممتدًا طويلاً منتشرًا غاية الانتشار عامًا لجميع الناس إلا من رحم الله ، كما قال شعيب عليه السلام ﴿وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤] لأن الناس في هوله وكربه على قدر أعمالهم فمنهم من يبلغ العرق إلى ساقيه ومنهم من يبلغ العرق إلى ركبتيه، ومنهم من يبلغ العرق إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا - كما جاء في الحديث [(١)] وهم في مرورهم على الصراط كذلك على قدر أعمالهم منهم من يمر كالريح، وكالطير، وكأجاويد الخيل والركاب، ومنهم من يمشي مشيًا ومنهم من يحبو حبًا - كما جاء في الحديث[(٢)] .

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي: في حال محبتهم له، إما لحاجتهم إليه أو لغير ذلك، وذلك منهم تقديمًا لمحبة الله - عز وجل على محبة أنفسهم، وإيثارًا لغيرهم من المحتاجين على أنفسهم، وإذا بذلوه في هذه الحال فهم لما سواه من حقوق الله وحقوق العباد أبذل قال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال تعالى ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وقال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ١٨٣، وأحمد ٣/ ٢٥ من حديث أبي سعيد - رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٤٨، ومسلم في الزكاة - بيان أفضل الصدقة ١٠٣٢، وأبو داود في الوصايا ٢٨٦٥، والنسائي في الزكاة ٢٥٤٢ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

وقال ﷺ: «خير الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر»[1].

روى نافع أن ابن عمر رضي الله عنه – مرض فاشتهى عنبًا –أول ما جاء العنب – فارسلت صفية – يعني امرأته – فاشترت عنقوداً بدرهم فاتبع الرسولَ السائلُ، فلما دخل به قال: السائل، السائل. فقال ابن عمر: أعطوه إياه فأعطوه إياه، ثم أرسلت بدرهم آخر فاشترت عنقودًا فاتبع الرسول السائل، فلما دخل قال: السائل، السائل. فقال ابن عمر: اعطوه إياه . فاعطوه إياه. فأرسلت صفية إلى السائل. فقالت: والله إن عدت لا تصيب منه خيرًا أبدًا. ثم أرسلت بدرهم آخر فاشترت به»[2].

﴿مِسْكِينًا﴾ وهو الذي أسكنه الفقر والحاجة وأذله مأخوذ من المسكنة، وهي الذل والانكسار، وسكون الحركة، لأن الفقر – عياذًا بالله منه ـ يذل صاحبه، إن جلس فبمؤخرة المجلس، يؤثر السكوت دائماً لأنه إن تكلم لم يسمع منه، وإن سمع منه لم يصدق، لا وزن له ولا قيمة عند كثير من الناس الذي يزنون الناس بالدرهم والدينار.

﴿وَيَتِيمًا﴾ وهو الذي فقد أباه وهو دون البلوغ، ولا شيء له، ذكرًا كان أو أنثى، مأخوذ من اليتم وهو الانفراد فإذا بلغ زال عنه اليتم، لقوله – ﷺ – «لايتم بعد احتلام»[3].

﴿وَأَسِيرًا﴾ وهو المأسور المحبوس المسجون، سواء كان من المسلمين أو من غيرهم. وقد أمر الرسول – ﷺ – أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء.

وقال بعض المفسرين: المراد بالأسير: الرقيق. والظاهر أن الأسير هو المأسور المحبوس حرًا كان أو عبدًا مسلمًا كان أو كافرًا.

فهو يشمل الرقيق وغيره، بل إن الرقيق أيضًا يدخل ضمن المساكين والأيتام.

وفي كونهم يخصون بالإطعام هذه الأصناف الثلاثة المحتاجة دليل على أنهم لا يريدون بذلك مكافأة – كما يفعل بعض من يعاوضون بإطعامهم وإنفاقهم، بل

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤١٩، ومسلم في الزكاة ١٠٣٢، وأبو داود في الوصايا ١٨٦٥، والنسائي في الزكاة ٢٥٤٢ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البيهقي في سننه – فيما ذكر ابن كثير في « تفسيره » ٨/ ٣١٣.

(٣) أخرجه أبو داود في الوصايا ٢٨٧٣ ـ من حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه.

ويعاوضون بإنصافهم وقولهم كلمة الحق أو سكوتهم عن الباطل – ولهذا قال بعده:

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ أي: قائلين لهم بلسان الحال ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير : «أما والله ما قالوه بألسنتهم، ولكن علم الله به من قلوبهم، فأثنى عليهم به ليرغب في ذلك راغب»[1].

وما قاله مجاهد وسعيد بن جبير جيد من حيث المعنى لأن حمل الآية على أنهم قالوه بلسان المقال فيه بعد من وجهين: الأول: أنه لا يُستحسن أن يقال للمتصدق عليه هذا المقال.

والثاني: أنه لا يستحسن أن يقول المتصدق أنا أطعم لوجه الله – لأن الله أعلم بنيته وسريرته.

و « إنما » أداة حصر. والمعنى : إنما نطعمكم ابتغاء وجه الله وطلب مرضاته ورجاء ثوابه.

وقوله: ﴿لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ أي: لله – عز جل – ويعبر بالوجه لشرفه.

ويؤخذ من الآية وجوب الإخلاص لله – عز وجل – وإثبات الوجه لله عز وجل.

﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً﴾ أي: لا نطلب منكم مجازاتنا بالمال على إطعامنا لكم.

﴿وَلَا شُكُورًا﴾ « شكورا » مصدر كالقعود، أي: ولا نريد منكم أن تشكرونا بالثناء علينا بالقول واللسان مقابل ذلك.

فتضمن فعلهم: المحبة والإخلاص والإحسان.

وأركان الشكر في الأصل ثلاثة: الاعتراف بنعمة المنعم، والثناء عليه بها، والاستعانة بها على رضاه.

وحيث جمع هنا بين الجزاء والشكور حسن حمل الجزاء على المجازاة بالمال، وحمل الشكر على الثناء بالقول.

وهكذا ينبغي أن يكون المؤمن في جميع صدقاته وأعماله مخلصًا العمل لله لا يطلب على شيء من ذلك مجازاة من الناس أو شكرًا منهم.

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا﴾ أي: شديد الجهمة والشر، تعبس فيه وجوه الكفار والعصاة وتكلح. والعبوس: قبض ما بين العينين.

قال ابن تيمية[2]: «ثم أخبر سبحانه عنهم بما صدقهم عليه قبل أن يقولوه حيث

---

(١) اخرجه عنهما الطبري في « جامع البيان » ٢٣/٥٤٦.

(٢)انظر «دقائق التفسير» ٥/٢٣.

قالوا: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠﴾: [الآية: ١٠] فصدقهم قبل قولهم، إذ يقول تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ [الآية: ٧]».

﴿قَمْطَرِيرًا﴾ شديد العبوس شديدًا هوله، عظيمًا بلاؤه طويلاً أمده.

قال الشاعر:

بني عمنا هل تذكرون بلاءنا عليكم إذا ما كان يوم قماطر [1]

فحملهم خوفهم من الله وعذابه في هذا اليوم الشديد على القيام بما يكون سببًا لنجاتهم في هذا اليوم من فعل الطاعات والكف عن المعاصي.

﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ﴾ أي: حفظهم الله وحماهم وكفاهم شر ذلك اليوم وأذاه وعذابه، وسهل عليهم شدائده وكرباته، وأمنهم مما يخافون - كما قال عز وجل: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝١٠٣﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وقال عز وجل : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٨٢﴾ [الأنعام: ٨٢].

﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ بين قوله في الجملة السابقة ﴿فَوَقَاهُمُ﴾ وقوله هنا ﴿وَلَقَّاهُمْ﴾ جناس بليغ. وقدم قوله ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ﴾ على قوله: ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ وما بعدها من الآيات في ذكر نعيمهم، لأن التخلية قبل التحلية.

ومعنى قوله ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ أي: وأكرمهم وأعطاهم ومنحهم نضارة وحسناً وبهاء وبهجة في وجوههم، وسرورًا وفرحًا واستبشارًا في قلوبهم كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩﴾ [عبس: ٣٨ ، ٣٩] فجمع الله لهم بين نعيم الظاهر والباطن، وبين النعيم الحسي والمعنوي. نسأل الله تعالى من فضله.

قال ابن تيمية[2]: «وقاهم شر ما يخافونه ولقاهم فوق ما كانوا يأملونه».

وقال أيضًا: «فوصفهم سبحانه بجمال الظاهر والباطن، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١﴾ » فالنضرة جمال وجوههم، والسرور جمال قلوبهم، كما قال: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ۝٢٤﴾ [المطففين: ٢٤]».

---

(١) انظر «معاني القرآن» للفراء ٣/٢١٦، «جامع البيان» ٢٣/ ٥٤٧، «لسان العرب» مادة «قمطر».

(٢) انظر « دقائق التفسير» ٥/٢٢.

وسرور القلب هو سبب نضارة الوجه واستنارته، ونضارة الوجه واستنارته هي علامة سرور القلب، لهذا قدمها لأنها هي العلامة الظاهرة على السرور.

قال كعب بن مالك - رضي الله عنه - : «أسلمت على رسول الله ﷺ - وهو يبرق وجهه من السرور، وكان رسول الله ﷺ - إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه»[1].

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «دخل عليّ رسول الله ﷺ - مسرورًا تبرق أسارير وجهه»[2].

﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟﴾ الباء: سببية، و « ما » مصدرية.

والصبر لغة: الحبس والمنع، واصطلاحًا: حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عما حرم الله.

أي: وأثابهم بسبب صبرهم على طاعة الله - عز وجل - وعن معاصيه، وعلى أقداره المؤلمة.

﴿جَنَّةً﴾ أي: بستانًا ودارًا فسيحة ومنزلاً رحبًا، فيها ألوان النعيم والعيش الرغيد. والمراد بقوله «جنة» جنس الجنات.

﴿وَحَرِيرًا﴾ أي: ولباسًا من حرير كما قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣، فاطر: ٣٣].

قال السعدي[3] : « ولعل الله إنما خص الحرير، لأنه لباسهم الظاهر، الدال على حال صاحبه».

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ الآيات.

ذكر الله - عز وجل - في الآيتين السابقتين وقايته للأبرار شر يوم القيامة ومنحهم النضارة والسرور وإثابتهم بسبب صبرهم بالجنة والحرير. ثم أخذ في تفصيل أحوالهم في الجنة وما أعد لهم فيها من ألوان النعيم.

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٥٥٦، ومسلم في التوبة - حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه ٢٧٦٩، والترمذي في التفسير ٣١٠٢، وأحمد ٣/٤٥٦ - ٤٥٩.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب - صفة النبي ﷺ ٣٥٥٥، ومسلم في الرضاع - العمل بإلحاق القائف الولد ١٤٥٩، وأبو داود في الطلاق ٢٢٦٧، والنسائي في الطلاق ٣٤٩٣، والترمذي في الولاء والهبة ٢١٢٩، وابن ماجه في الأحكام ٢٣٤٩.

(٣) في « تيسير الكريم الرحمن » ٧/ ٥٣٤.

قوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ أي: متكئين في الجنة . والاتكاء : التمكن من الجلوس في حال الطمأنينة والراحة والرفاهية، كالتمرفق وهو الجلوس مع الاتكاء على المرفق، وكالتربع في الجلوس، والاضطجاع .

وفي الحديث قوله - ﷺ - : «أما أنا فلا آكل متكئًا»[1].

والأرائك: جمع أريكة، وهي السرر.

فجلوسهم على هذه الأسرة جلوس المطمئن المنبسط المسرور المرتاح.

﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا﴾ أي: لا يرون فيها شمساً يزعجهم ويؤذيهم حرها ﴿وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ الزمهرير: البرد، أي: ولا يرون فيها بردًا يؤلمهم. فجوها في غاية الاعتدال في ظل ظليل كما قال تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ أي: وقريبة منهم ظلال أشجارها، وقريبة إليهم أغصانها.

﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا﴾ ذللت: جعلت مذللة منقادة ﴿قُطُوفُهَا﴾ ما يقطف ويلتقط من جناها وثمارها. أي: جعلت ثمارها مذللة منقادة لهم ﴿تَذْلِيلًا﴾ أي: غاية التذليل والانقياد، متى اشتهوها تدلت عليهم من أغصانها يأخذونها على أي حال كانوا، قائمين أو جالسين أو مضطجعين لا يردهم عنها بُعد ولا شوك، كما قال تعالى: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ۝﴾ [الرحمن: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝﴾ [الحاقة: ٢٣].

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾ أي: ويطوف عليهم الولدان والخدم بأوان من فضة فيها طعامهم كما قال تعالى في الآية التاسعة عشرة من هذه السورة ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ۝ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨]، وقال: تعالى: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ۝﴾ [الطور: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝﴾ [الصافات: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الزخرف: ٧١].

﴿وَأَكْوَابٍ﴾ أيضًا من فضة فيها شرابهم. والأكواب: هي الكيزان والجرار والأقداح

---

(١) أخرجه البخاري - في الأطعمة - الأكل متكئًا ٥٣٩٨، وأبو داود في الأطعمة - ما جاء في الأكل متكئًا ٣٧٦٩، والترمذي في الأطعمة - ما جاء في كراهة الأكل متكئًا ١٨٣٠، وابن ماجه في الأطعمة - الأكل متكئًا ٣٢٦٢، وأحمد ٣٠٨/٤، ٣٠٩ - من حديث أبي جحيفة - رضي الله عنه.

التي لا عرى لها ولا خراطيم.

﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا۠﴾ أي: كانت هذه الأكواب ﴿قَوَارِيرَا۠﴾ والقوارير: جمع قارورة. والقارورة تكون من الزجاج. أي: إن هذه الأكواب التي يشربون بها في بياض الفضة وصفاء قوارير الزجاج، شفافة يرى ما في باطنها من ظاهرها.

رُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما – قال: «ليس في الجنة شيء إلا قد أعطيتم في الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة»[(١)].

قال ابن القيم[(٢)]: «فأخبر سبحانه وتعالى عن مادة تلك الآنية أنها من الفضة، وأنها بصفة الزجاج وشفافته، وهذا من أحسن الأشياء وأعجبها، وقطع سبحانه توهم كون تلك القوارير من زجاج فقال: ﴿قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ﴾».

﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أي: قدروها بأنفسهم فجاءت كما قدروها، أو قدرها لهم من يطوف عليهم من الولدان والخدم. والتقدير: جعل الشيء بقدر مخصوص فجاءت هذه الأكواب مقدرة من حيث ما فيها من شراب بكونه قُدِّر لهم من غير زيادة ولانقصان، ومن حيث حجمها بكونها بقدر الكف، ومن حيث لذتها فأتتهم على ما قدروا في خواطرهم.

قال ابن القيم[(٣)]: «فقدرت الصناع هذه الآنية على قدر ريهم لا يزيد عليه ولا ينقص منه، وهذا أبلغ في لذة الشارب فلو نقص عن ريه لنقص التذاذه، ولوزاد حتى يشمئز منه حصل له ملالة وسآمة من الباقي».

﴿وَيُسْقَوْنَ﴾ أي الأبرار ﴿فِيهَا﴾ أي: في الجنة، أو في هذه الأكواب ﴿كَأْسًا﴾ أي: كاس خمر.

﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ أي: ما تمزج به وتخلط ﴿زَنجَبِيلًا﴾ وهو نبت عظيم الفائدة طيب الطعم والرائحة.

﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ ﴿عَيْنًا﴾ بدل من ﴿زَنجَبِيلًا﴾ أي:عينًا في الجنة ﴿تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ لسلاسة سيلانها وانقيادها، وسلاستها في الحلق ولذتها وحسنها فالأبرار يسقون كأس الخمر ممزوجة بالزنجبيل من عين السلسبيل. والمقربون يشربون من عين السلسبيل صرفاً بلا مزج[(٤)].

---

(١) اخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/٣٣٩١.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٥/٩٨.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٥/٩٨ – ٩٩.

(٤) انظر «جامع البيان» ٢٣/٥٦١.

قال ابن تيمية[١] بعد كلامه على قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾ [الإنسان: ٥] «وأخبر سبحانه أن لهم شرابًا آخر ممزوجًا من الزنجبيل لما فيه من طيب الرائحة ولذة الطعم والحرارة التي توجب تغير برد الكافور وإذابة الفضلات وتطهير الأجواف، ولهذا وصفه سبحانه بكونه شراباً طهورًا - أي:مطهراً لبطونهم».

وقال ابن كثير[٢]: «فتارة يمزج لهم الشراب بالكافور وهو بارد، وتارة بالزنجبيل وهو حار ليعتدل الأمر وهؤلاء يمزج لهم من هذا تارة ومن هذا تارة. وأما المقربون فإنهم يشربون من كل منهما صرفاً».

﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ويدور على أهل الجنة في طعامهم وشرابهم وخدمتهم ﴿وِلْدَٰنٌ﴾ جمع وليد وهو الصغير ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: باقون على سن الصغر، لا يكبرون ولا يهرمون ولا يتغيرون، لأن الصغير هو الأنسب والأصلح للخدمة . وهم أيضًا في غاية الحسن: مقرَّطون مسوَّرون. قال الشاعر:

ومخلَّداتٌ باللجين كأنما ... أعجازهُنَّ رواكد الكُثْبانِ[٣]

وهؤلاء الولدان غلمان أنشاهم الله في الجنة كما أنشأ الحور العين، وقيل هم أولاد المسلمين الذين يموتون قبل البلوغ والتكليف، وقيل: هم أطفال المشركين.

والأظهر القول الأول فهم غلمان ينشئهم الله لهم كما قال تعالى: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ۝٢٤﴾ [الطور: ٢٤].

قال ابن القيم[٤]: «وهؤلاء غير أولادهم، فإن من تمام كرامة الله تعالى لهم أن يجعل أولادهم مخدومين معهم، ولا يجعلهم غلمانًا لهم».

﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ أي: إذا رأيت هؤلاء الولدان في انتشارهم في الخدمة وكثرتهم وحسن خلقتهم وبياض أجسامهم ونضارة وجوههم، ونظافة ثيابهم، وجمال حليهم ظننتهم لؤلؤًا مفرقًا غير منظوم في حسن خلقته وجماله وبياضه وبهائه.

---

(١) انظر « دقائق التفسير » ٥/ ٢٢.

(٢) في « تفسيره » ٨/ ٣١٧.

(٣) البيت ذكره ابن قتيبة في « غريب القرآن » ٤٤٧. وانظر « اللسان » مادة « خلد ».

(٤) انظر « بدائع التفسير » ٥/ ١٠٢.

قال ابن القيم[1]: «وفي كونه منثورًا فائدتان: إحداهما: الدلالة على أنهم غير معطلين، بل مبثوثون في خدمتهم وحوائجهم. والثانية: أن اللؤلؤ إذاكان منثورًا ولاسيما على بساط من ذهب وحرير كان أحسن لمنظره وأبهى من كونه مجموعًا في مكان واحد».

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ - و لكل من يصلح له .

و ﴿ثَمَّ﴾ ظرف مكان، أي: وإذا رأيت هناك في الجنة، أي: رمقت ما عليه أهل الجنة من النعيم الكامل من سعة دورها وقصورها ورياضها وكثرة أنهارها وخضرة بساتينها، وتنوع مأكولاتها ومشروباتها، وما فيها من الحور العين والخيرات الحسان، والغلمان والولدان، والفوز برضى الرحمن، والتمتع بخطابه والنظر إليه في تلك الجنان.

﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ أي: شاهدت نعيمًا عظيمًا وملكًا كبيرًا أعده الله لهم وإذا كان الله - عز جل - عظم هذا النعيم، ووصف هذا الملك بكونه كبيرا - فلا أحد يقدر عظمة ذلك وكبره، ولا يدرك وصفه وكنهه إلا العظيم سبحانه وتعالى.

فعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه قال: قال النبي - ﷺ : «يقال لآخر أهل النار خروجًا منها وآخر أهل الجنة دخولاً فيها: اذهب فادخل الجنة فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها، أو إن لك مثل عشرة أمثال الدنيا.. »[2]

وعن ابن عمر رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ : «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة ، ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه»[3] .

وإذا كان هذا هو ملك أدنى أهل الجنة فما بالك بملك من هو أعلى منه فهو بلا شك أوسع وأعظم ـ نسأل الله تعالى من فضله.

﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وحمزة بإسكان الياء وكسر الهاء عاليْهِم، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الهاء (عاليَهُم).

وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف وأبو بكر عن عاصم: (خضرٍ) بالخفض صفة لـ﴿سُندُسٍ﴾ على إرادة الجنس، وقرأ الباقون بالرفع (خضرٌ) صفة لـ ﴿ثِيَابُ﴾ وهذا يوافق قوله تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾ [الكهف: ٣١].

---

(١) انظر « بدائع التفسير » ٥/ ١٠٠.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٧١، ومسلم في الإيمان ١٨٦، والترمذي في صفة جهنم ٢٥٩٥، وابن ماجه في الزهد ٤٣٣٩.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ١٣.

﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ أي عالي أبدانهم يجلل ظواهرهم ويجملها ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾ السندس هو رقيق الحرير والديباج ورفيعه ويكون مما يلي أبدانهم كالقمصان ونحوها لنعومته، كما قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣، فاطر: ٣٣].

﴿خضرٌ﴾ أي: لونها أخضر، وهو من أحسن الألوان وأجملها.

(وإستبرقٌ) قرأ ابن كثير ونافع وعاصم (وإستبرقٌ) بالرفع عطفًا على ﴿ثيابُ﴾ وقرأ الباقون بالخفض عطفًا على ﴿سُندُسٍ﴾.

والإستبرق: غليظ الحرير والديباج، مما فيه بريق ولمعان، وهو مما يلي الظاهر .

قال ابن القيم[1]: «وتأمل ما دلت عليه لفظة «عاليهم» من كون ذلك اللباس ظاهرًا بارزًا يجمل ظواهرهم ليس بمنزلة الشعار الباطن، بل الذي يلبس فوق الثياب للزينة والجمال».

﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ أي: ألبسوا في أيديهم أساور من فضة ذكورهم وإناثهم وهؤلاء هم الأبرار، وأما المقربون فكما قال: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝﴾ [الحج: ٢٣].

وفي الحديث: «في الجنة جنتان آنيتهما وما فيهما من ذهب للمقربين وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما لأصحاب اليمين»[2].

قال ابن تيمية[3]: «فإن قيل: فلم اقتصر من آنيتهم وحليهم على الفضة دون الذهب؟ ومعلوم أن الجنان جنتان من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وما فيهما.

قيل سياق هذه الآيات إنما هو في وصف الأبرار ونعيمهم مفصلاً دون تفصيل جزاء المقربين، فإنه سبحانه إنما أشار إليه إشارة تنبه على ما سكت عنه وهو أن شراب الأبرار يمزج من شرابهم، فالسورة مسوقة بصفة الأبرار وجزائهم على التفصيل. وذلك - والله أعلم - لأنهم أعم من المقربين وأكثر منهم، ولهذا يخبر سبحانه عنهم بأنهم ثلة من الأولين وثلة من الآخرين، وعن المقربين السابقين بأنهم ثلة من الأولين وقليل من الآخرين. وأيضًا فإن في ذكر جزاء الأبرار تنبيهًا على أن جزاء المقربين مالا عين رأت ولا

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٩٦.
(٢) سبق تخريجه في تفسير قوله تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ [الرحمن: ٤٦].
(٣) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ٢٤.

اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وأيضًا، فإنه سبحانه ذكر أهل الكفر وأهل الشكر، وأهل الشكر نوعان أبرار أهل يمين، ومقربون سابقون، وكل مقرب سابق فهو من الأبرار ولا ينعكس فاسم الأبرار والمقربين كاسم الإسلام والإيمان أحدهما أعم من الآخر.

وأيضًا: فإنه سبحانه أخبر أن هذا جزاء سعيهم المشكور، وكل من الأبرار والمقربين سعيهم مشكور، فذكر سبحانه السعي المشكور والسعي المسخوط».

﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ أي: وسقاهم ربهم شرابًا يطهر بواطنهم ويزينهم.

وأسند الفعل إلى الرب وأضاف ضميرهم إليه تكريمًا وتشريفًا لهم.

فجمل – عز وجل – ظواهرهم بالحرير والحلي، وجمل بواطنهم بالشراب الطهور الذي يطهرها من الحسد والحقد والغل وسائر الأخلاق السيئة والأدناس الحسية والمعنوية، ويتحول إلى ريح كريح المسك يخرج من أبدانهم.

عن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه – أنه قال: «إذا انتهى أهل الجنة إلى باب الجنة وجدوا هنالك عينين فكانما الهموا ذلك فشربوا من إحداهما، فأذهب الله ما في بطونهم من أذى ثم اغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم»[(١)].

﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ أي: يقال لهم هذا تكريمًا وتهنئة لهم وإنعامًا معنويًا عليهم.

والإشارة في قوله «إن هذا» إلى ما أعطاهم الله من الجنة وألوان النعيم فيها مما ذكره الله في قوله: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾ وغير ذلك مما هم فيه من النعيم.

أي: إن هذا النعيم الذي أعطيتموه كان لكم مجازاة وإثابة على ما أسلفتموه من الأعمال الصالحة، فهي سبب الثواب العظيم – كما قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ٢٤].

﴿وَكَانَ سَعْيُكُم﴾ أي: وكان سعيكم في الدنيا، أي: عملكم ﴿مَّشْكُورًا﴾ أي: كان عملكم عملاً صالحًا تشكرون عليه، ويجازيكم الشكور سبحانه على العمل القليل منكم بالأجر العظيم والثواب الجسيم والنعيم المقيم.

فجمع الله ـ عز وجل ـ لهؤلاء الأبرار بين ألوان النعيم الحسي، والنعيم المعنوي بالتهنئة لهم كما قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأعراف: ٤٩]

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/٣١٨.

وقول الملائكة لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ۝٧٣﴾ [الزمر: ٧٣]، وقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ۝٢٤﴾ [الرعد: ٢٤].

ويقول أهل العلم: إن النعيم المعنوي لا يقل عن النعيم الحسي.

قال ابن القيم[1] «فجمع لهم سبحانه بين الأمرين: أن شكر سعيهم وأثابهم عليه، والله تعالى يشكر عبده إذا أحسن طاعته، ويغفر له إذا تاب عليه، فيجمع للعبد بين شكره لإحسانه ومغفرته لإساءته إنه غفور شكور».

الفوائد والعبر:

١ ـ الوعيد الشديد والتهديد الأكيد للكافرين بالسلاسل والأغلال والسعير.

٢ ـ الوعد والبشارة للأبرار بما أعد الله لهم من الوان النعيم ومن ذلك كأس الخمر الممزوجة بالكافور.

٣ ـ إثبات عبودية المقربين الخاصة لله ـ عز وجل ـ وأنهم يشربون من عين الكافور صرفاً ويفجرونها تفجيرا.

٤ ـ امتداح الله – عز وجل – للأبرار بذكر صفاتهم من الوفاء بالنذر وخوف يوم القيامة وشدائده وأهواله، وإطعام الطعام مع محبتهم له للمحتاجين من المساكين واليتامى والأسارى إخلاصًا لله – عز وجل – ، لا لطلب المجازاة منهم ولا الشكور. والترغيب في هذه الصفات.

٥ ـ وقاية الله – عز وجل – للأبرار شر يوم القيامة ومنحهم النضارة في وجوههم والسرور في قلوبهم ومجازاتهم بصبرهم جنة يسكنونها وحريرًا يلبسونه.

٦ ـ اكتمال سرور الأبرار وانبساطهم في مجالسهم في أجمل الأجواء وأعدلها، في جنان ظلالها دانية، وثمارها مذللة، يطاف عليهم فيها بطعامهم وشرابهم بآنية وأكواب مقدرة من فضة، ويسقون فيها كأس خمر ممزوجة بالزنجبيل من عين السلسبيل.

٧ ـ دوران الولدان المخلدين والخدم الذين هم كاللؤلؤ المنثور في الحسن والجمال على أهل الجنة بطعامهم وشرابهم وحوائجهم.

٨ ـ عظم نعيم الأبرار في الجنة وكبر ملكهم وسعته.

٩ ـ جمال مظهر الأبرار في الجنة ومخبرهم ولباسهم وحليتهم الظاهرة والباطنة فلباسهم الحرير وحليتهم أساور من فضة وشرابهم الطهور.

١٠ ـ الجمع للأبرار بين النعيم الحسي من السكن في الجنان وما فيها من الوان النعيم من المآكل والمشارب وغير ذلك وبين النعيم المعنوي للقلوب من التهنئة لهم بما أعد الله لهم، وأن هذا جزاء لهم على سعيهم وعملهم المشكور.

١١ ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة للأبرار، وشكره لهم، وهو الشكور سبحانه وتعالى.

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/١٠٢.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾.

قوله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ بعد ما ذكر الله - عز وجل - ما أعده للمكذبين من السلاسل والأغلال والسعير، وما أعده للأبرار من ألوان النعيم امتن على رسوله - ﷺ - بما أنزله عليه من القرآن العظيم، الذي من تمسك به فاز بالنعيم المقيم، ومن أعرض عنه صار إلى العذاب الأليم.

ويؤخذ من قوله: (نزلنا) علو الله عز وجل على خلقه لأن الإنزال يكون من أعلى إلى أسفل كما يؤخذ منه أن القرآن منزل غير مخلوق - كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

وقوله: ﴿تَنزِيلًا﴾ أي: مفرقًا في خلال ثلاث وعشرين سنة كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: ١٠٦].

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: فاصبر لحكم ربك وقضائه الكوني وما قدره من تكذيب قومك وأذيتهم لك وغير ذلك، واصبر لحكم ربك وقضائه الشرعي بتكليفك بتبليغ الرسالة والدعوة إلى الله - عز وجل - وامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

وفي عطف قوله ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ على قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ إشارة إلى أن القرآن الكريم والتأمل بما فيه من الدروس والمواعظ والعبر من أعظم ما يعين على الصبر. كما أن فيه إشارة إلى أنه سوف يناله أذى بسبب إبلاغ هذا القرآن ونشره بين الناس فليستعد لذلك.

﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ الآثم: الفاجر، كثير الإثم بجوارحه الظاهرة. و «أو» عاطفة، أي: لا تطع هذا ولا هذا. والكفور: هو الجحود بقلبه: أي: لا تطعهما، ولا تطع واحدًا منهما في مخالفة أمر الله ومعصيته.

قال ابن تيمية[1]: «ولما كان صبره عليه لا يتم إلا بمخالفته لمن دعاه إلى خلافه من

(١) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ٢٥.

كل آثم أو كفور، نهاه عن طاعة هذا وهذا، وأتى بحرف «أو» دون «الواو» ليدل على أنه منهي عن طاعة أيهما كان: إما هذا وإما هذا، فكأنه قيل له لا تطع أحدهما، وهو أعم في النهي من كونه منهيًا عن طاعتهما، فإنه لو قيل له: لا تطعهما، أو لا تطع آثمًا وكفورا لم يكن صريحًا في النهي عن طاعة كل منهما بمفرده».

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ أي: اذكر اسم ربك ورب كل مخلوق، وخصه بقوله: ﴿رَبِّكَ﴾ مع أنه عز وجل رب كل مخلوق وذلك - والله أعلم - تذكيرًا له بنعمة الله عليه بربوبيته له الربوبية الخاصة، بل خاصة الخاصة باصطفائه للنبوة والرسالة، وتفضيله على الأنبياء وسائر الخلق.

أي: واذكر اسم ربك بإقامة الصلاة المفروضة وأداء النوافل والذكر والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، لأن ذكر الله أعظم معين على الصبر.

﴿بُكْرَةً﴾ أول النهار ﴿وَأَصِيلًا﴾ آخر النهار كما قال تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب: ٤٢]، وكقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾ [غافر: ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران: ٤١]، وقوله تعالى ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [مريم: ١١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الكهف: ٢٨].

وهذا يدل على فضل هذين الوقتين، وهما ينتظمان صلاة الفجر وصلاة العصر، كما قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾ [ق: ٣٩] وهما البردان، قال ﷺ: «من صلى البردين دخل الجنة»[١] أي: صلاة الفجر وصلاة العصر.

وقال ﷺ: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»[٢].

وقال ﷺ: «لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها»[٣] يعني

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٧٤، ومسلم في المساجد ٦٣٥ - من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٥٤، ومسلم في المساجد ٦٣٣ - من حديث جرير بن عبد الله - رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في المساجد ٦٣٤، وأبو داود في الصلاة ٤٢٧، والنسائي في الصلاة ٤٧١ - من حديث عمارة بن رؤيبة عن أبيه - رضي الله عنه.

صلاة الفجر وصلاة العصر.

بل إن هذين الوقتين ينتظمان جميع أوقات الصلوات الخمس فبكرة صلاة الصبح، وأصيلاً بقية الصلوات.

وأيضًا فإن قوله: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ قد يحمل على جميع الأوقات، أي: اذكر اسم ربك في جميع الأوقات. كما قال تعالى عن أهل الجنة ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[مريم: ٦٢] ورزق أهل الجنة لا ينقطع على الدوام.

وفي الأمر بذكر اسمه عز وجل بكرة وأصيلاً بعد الأمر بالصبر تنبيه على أن ذكر الله عز وجل وطاعته أكبر معين على الصبر.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ﴾ أي: أكثر له من السجود والتسبيح، أي: أكثر من الصلاة له كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩﴾ [الإسراء: ٧٩].

وخص السجود والتسبيح بالذكر مع أن المراد الصلاة كلها، لأن السجود والتسبيح من أهم أركان وواجبات الصلاة.

﴿لَيْلًا طَوِيلًا﴾ هذا مقيد مبين في سورة المزمل بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ [المزمل: ١- ٤]. وقوله: ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزمل: ٢٠].

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: إن هؤلاء المكذبين ﴿يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ أي: يحبون الدنيا العاجلة الفانية ويعملون لها ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ﴾ أي: ويتركون أمامهم، كما في قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۝٧٩﴾ [الآية: ٧٩] أي: أمامهم.

﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ اي يومًا سيصيرون إليه، ثقيلاً عظيماً، شديد هوله مستطير شره عسير على الكافرين غير يسير كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾ [القمر: ٨]، وقال تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾ [المدثر: ٩ ، ١٠].

لكنه خفيف يسير على المؤمنين كما قال ﷺ: « والذي نفسي بيده إنه ليخفف عن

المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا»[(١)]

وفي هذه الآية: ذم لمن أحبوا الدنيا العاجلة الفانية فانشغلوا بها عن العمل للدار الباقية تقديمًا لداعي الحس على داعي العقل، والناس في هذا بين مقل ومستكثر فينبغي الحذر من ذلك.

﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ أي: نحن أوجدناهم من العدم، ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ أي: قوينا وأحكمنا وحسنا وسوينا خلقهم كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾ [الانفطار: ٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾ [الأعلى: ٢].

قال ابن تيمية: «ثم ذكر سبحانه خلقهم وإحكامه وإتقانه بما شد من أسرهم وهو ائتلاف الأعضاء والمفاصل والأوصال و ما بينها من الرباطات وشد بعضها ببعض، وحقيقته القوة فلا يكون ذلك إلا فيما له شد ورباط ومنه الإسار وهو الحبل الذي يشد به الأسير»[(٢)].

﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ أي: إذا شئنا بدلنا أشباههم وصورهم، أو ذهبنا بهم وأتينا بقوم آخرين غيرهم، كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ۝١٣٣﴾ [النساء: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝٢٠﴾ [إبراهيم: ١٩، ٢٠، فاطر: ١٦، ١٧]، وقال تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١﴾ [الواقعة: ٦٠ ، ٦١].

ويحتمل أن المعنى: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ ببعثهم يوم القيامة خلقًا جديدًا باعيانهم وأمثالهم، أي: أن الذي خلقهم أول مرة قادر على إعادة خلقهم بعد الموت وبعثهم.

ولا مانع من حمل الآية على المعنيين.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ أي: إن هذه السورة تذكرة وموعظة.

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: فمن شاء جعل إلى ربه طريقًا ومسلكًا موصلاً إليه فتذكر واتعظ واتبع هدى الله الذي أنزله وصراطه المستقيم المؤدي إليه، كما قال – عز وجل – ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٧٥ ـ من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه.

(٢) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ٢٥.

ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٣]، وقال عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾﴾ [المدثر: ٥٤، ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾[عبس: ١١، ١٢].

وكقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾﴾ [النبأ: ٣٩].

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالغيب (وما يشاءون) وقرأ الباقون بالخطاب (وما تشاءون).

والمعنى: أن مشيئة الخلق تابعة لمشيئة الله – عز وجل – ومشيئته نافذة فيهم فما شاء كان ومالم يشأ لم يكن. أي: فلا يستطيع أحد أن يهدي نفسه، ولا يجلب لها نفعًا أو يدفع عنها ضرًا إلا أن يشاء الله ذلك.

والمراد بالمشيئة الإرادة الكونية، فإنه لا يقع في الكون أيّ حركة أو سكون إلا بمشيته عز وجل وإرادته ـ وفي الآية إثبات المشيئة لله عز وجل وإثبات المشيئة للخلق، وأن مشيئتهم تبع لمشيئة الله عز وجل.

وفي إثبات المشيئة للخلق رد على الجبرية القائلين بأن الخلق مجبورون على أفعالهم، وفي كون مشيئتهم تبعاً لمشيئة الله ـ عز وجل ـ رد على المعتزلة والقدرية القائلين بأن العبد يخلق فعله وأنه قد يشاء مالا يشاؤه الله – تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرا.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [المدثر: ٥٦]، وقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ أي: إن الله كان ذا العلم الواسع فيما خلق وقدر وشرع وفي غير ذلك، كما قال عز وجل: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨] فعلمه عز وجل محيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة قبل الوجود، وبعد الوجود، وبعد العدم، يعلم ما كان وما يكون ومالم يكن لو كان كيف كان يكون، كما قال موسى عليه السلام – لما سئل القرون الأولى قال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه: ٥٢].

﴿حَكِيمًا﴾ أي: ذا الحكم التام بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي وذا الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

ومن علمه عز وجل الواسع علمه بمن يستحق الهداية فييسر له أسبابها ومن يستحق الغواية فيصرفه عنها لما له في ذلك من الحكم التام والحكمة البالغة.

وكثيرًا ما يقرن عز وجل بين اسميه: «العليم» و «الحكيم» لأنه باجتماع العلم الواسع مع الحكم التام والحكمة البالغة يزداد كمالاً إلى كمال [1]

﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ﴾ اي: يوفق من يشاء فيدخله في رحمته – الخاصة بالمؤمنين كما قال عز وجل ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝﴾ [الأحزاب: ٤٣]. فيدخلهم في رحمته بالإيمان ويسكنهم برحمته فسيح الجنان.

﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾: منصوب بإضمار فعل يفسره «أعد» ويقدر بأوعد ونحوه لأن «أعد» لا يتعدى باللام.

والظالمين: جمع ظالم. والظلم: النقص قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣] اي: ولم تنقص منه شيئاً وهو أيضاً وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان وأظلم الظلم الشرك – كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝﴾ [لقمان: ١٣].

أي: والظالمين الذين اختاروا الكفر على الإيمان والضلال على الهدى.

﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾ اي: هيا وجهز لهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ اي: عذابًا مؤلمًا موجعًا حسًا ومعنىً.

اي: أنه – عز وجل – لم يوفقهم للهداية بل قدر عليهم الضلال والكفر وأعد لهم عذاب النار. كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

فيهدي من يشاء برحمته وفضله ويضل من يشاء بعدله ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝﴾ [الأنبياء: ٢٣].

الفوائد والعبر:

١- امتنان الله – عز وجل – على الرسول ﷺ بإنزال القرآن الكريم عليه وتشريفه بذلك.

٢- إثبات علو الله – عز وجل – على خلقه لأن الإنزال يكون من أعلى إلى أسفل.

٣- أن القرآن الكريم منزل غير مخلوق. والرد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن .

٤- نزول القرآن الكريم منجمًا في ثلاث وعشرين سنة حسب الوقائع والأحداث .

---

(١) راجع الكلام على قوله تعالى في سورة الحجرات: ﴿والله عليم حكيم﴾ [الآية: ٨].

٥- أمر الله – عز وجل – نبيه ﷺ – بالصبر لحكمه الشرعي بتكليفه بالرسالة والقيام بأمره ونهيه والصبر لحكمه القدري، وعلى أذى قومه وما يلاقيه من أذى في سبيل الدعوة، وفي هذا تثبيت له ﷺ وتقويةٌ لقلبه، ولأتباعه في الدعوة إلى الله أسوة به في هذا.

٦- نهي الله – عز وجل – لنبيه – ﷺ – عن طاعة المكذبين أهل الإثم والكفر، وهو نهي له ﷺ وللمؤمنين.

٧- أمر الله – عز وجل لرسوله – ﷺ – بذكره بصلاة الفرائض والنوافل وأنواع الذكر في أول النهار وآخره وفي جميع الأوقات وبقيام الليل، وهو أمر له – ﷺ – ولأمته.

٨- ذم الذين انشغلوا بالدنيا العاجلة الفانية عن الاستعداد ليوم القيامة الثقيل وما فيه من الأهوال العظام والفضائح الجسام.

٩- تذكير المكذبين والناس عامة بنعمة الله – تعالى – عليهم بخلقهم وتقويتهم.

١٠- إثبات قدرة الله – عز وجل – على تبديلهم بغيرهم أو إنشائهم خلقاً آخر، لأن القادر على البداءة قادر على الإعادة من باب أولى وأحرى.

١١- أن هذه السورة تذكير وموعظة فيها بيان طريق الحق والأمر باتباعه وبيان طريق الشر والنهي عن سلوكه وبيان ما أعده الله من الجزاء لأتباع كل من الطريقين، وهكذا كل سور القرآن الكريم وآياته فيها الوعظ والتذكير بهذا.

١٢- أن الإنسان ليس مجبورًا على فعله بل له اختيار ومشيئة لقوله ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ وفي هذا رد على الجبرية.

١٣- إثبات ربوبية الله - عز وجل - الخاصة لنبيه ﷺ ولعباده المؤمنين.

١٤- إثبات المشيئة التامة النافذة لله – عز وجل –، وأن مشيئة المخلوق تابعة لمشيئة الله – عز وجل – لقوله ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ وفي هذا رد على القدرية.

١٥- إثبات اسمين من أسماء الله – عز جل – وهما : "العليم" و"الحكيم".

١٦- إثبات العلم التام الواسع – لله – عز وجل.

١٧- إثبات الحكم التام النافذ لله – عز وجل – بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وإثبات الحكمة البالغة له – عز وجل: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

١٨- في اتصافه عز وجل بالعلم الواسع، والحكمة والحكم التامين اجتماع كمال إلى كمال وبلوغه – عز وجل – غاية الكمال.

١٩- الوعد للمؤمنين بإدخالهم رحمته وجنته، والوعيد للظالمين بالعذاب الأليم.

تفسير سورة المرسلات

عن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – قال: بينما نحن مع النبي – ﷺ – في غار بمنى، إذ نزلت عليه: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ فإنه ليتلوها، وإني لأتلقاها من فيه، وإن فاه لرطب بها، إذ وثبت علينا حية، فقال النبي ﷺ: «اقتلوها» فابتدرناها فذهبت، فقال النبي ﷺ: «وقيت شركم ووقيتم شرها»[1].

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما: «أن أم الفضل – رضي الله عنها سمعته يقرأ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١﴾ فقالت: يابني ذكرتني بقراءتك هذه السورة، إنها لآخر ما سمعت من رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب»[2].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝١٣ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝١٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾.

قوله: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥﴾ الواو: حرف قسم وجر، «والمرسلات»: مقسم به مجرور. وكذا ما عطف عليه وهي: العاصفات والناشرات والفارقات والملقيات.

والمراد بالمرسلات والعاصفات والناشرات: الرياح.

فالمرسلات عرفًا هي الرياح – كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ [الحجر: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧].

ومعنى ﴿عُرْفًا﴾ يتبع بعضها بعضًا، شيئًا فشيئًا.

﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾ هي الرياح ـ كما قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأنبياء: ٨١]، وقال تعالى: ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ [يونس: ٢٢].

---

(١) اخرجه البخاري في الحج ١٨٣٠، ومسلم في السلام ٢٢٣٤، والنسائي في مناسك الحج ٢٨٨٤.

(٢) اخرجه البخاري في الأذان – القراءة في المغرب ٧٦٣، ومسلم في الصلاة – القراءة في الصبح ٤٦٢، وأحمد ٦/٣٣٨.

ووصفت الرياح بكونها عاصفات لأنها تهب وتعصف، يقال: عصفت الريح إذا هبت بتصويت.

وعَطْفُ العاصفات بفاء التعقيب على المرسلات يدل على أنهما نوع واحد.

﴿وَالنَّشِرَاتِ نَشْرًا﴾: هي الرياح تنشر السحاب في آفاق السماء – كما يشاء الله – عز وجل، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [الروم: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ [فاطر: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف:٥٧].

وقد قال بعض المفسرين: المراد بالمرسلات الملائكة والأظهر أن المراد بها الرياح ويؤيده عطف العاصفات والناشرات عليها. وكذا قيل المراد بالناشرات الملائكة تنشر كتب بني آدم أو تنشر أجنحتها في الجو عند صعودها ونزولها وغير ذلك وقيل: المراد بالناشرات الأمطار تنشر الأرض ، أي: تحييها.

والأظهر والله أعلم أن المراد بالمرسلات والعاصفات والناشرات: الرياح.

﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ۝ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾.

المراد بالفارقات: الملائكة تنزل بأمر الله على الرسل الذي به التفريق بين الحق والباطل، والحلال والحرام.

﴿فَرْقًا﴾ أي: تفريقًا واضحًا لا لبس فيه، يميز الحق من الباطل والهدى من الضلال والحلال من الحرام. كما قال عز وجل في وصف الرسول ﷺ: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: بأمر الله الذي أنزله ﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقيل المراد بالفارقات: الرياح تفرق السحاب ههنا وههنا. لكن عطف ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ عليه بفاء التعقيب يضعفه بل يأباه.

﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾: الملائكة تلقي إلى الرسل عليهم الصلاة والسلام الذكر وهو الوحي الذي أوحاه الله إليهم كما قال عز وجل ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝﴾ [النحل: ٤٤]، وقال تعالى ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ۝﴾ [الزخرف: ٤٤].

﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ منصوبان على المفعول له و «أو» عاطفة، أي: لأجل الإعذار والإنذار.

ومعنى ﴿عُذْرًا﴾ أي: إقامة للحجة على الخلق – كما قال عز وجل: ﴿رُّسُلًا

﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

ومعنى ﴿نُذْرًا﴾ اي: تخويفًا وتحذيراً للخلق من عذاب الله – عز وجل – كما قال عز وجل ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر: ٢٤].

فالله – عز وجل أرسل الرسل وأنزل الكتب للإعذار وإقامة الحجة على الخلق، ولإنذارهم وتحذيرهم من عذاب الله – عز وجل –، وتبشير من آمن منهم بما أعده الله للمؤمنين. كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [المائدة: ١٩].

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ هذا هو المقسم عليه فأقسم الله – عز وجل – بهذه الخمس وهي: المرسلات والعاصفات والناشرات والفارقات والملقيات على أن ما يوعدون من البعث والحساب والجزاء لواقع، أي: كائن لا محالة متحتم وقوعه من غير شك ولا ارتياب.

أي: أقسم عز وجل بالرياح التي فيها حياة الأرض والنبات والأبدان وبالملائكة التي تنزل بأمر الله بالتفريق بين الحق والباطل وتلقي الذكر الذي به حياة القلوب على أن البعث حق.

﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ أقسم الله عز وجل – على أن البعث والقيامة حق ثم ذكر بعض أهوالها في هذه الآية وما بعدها.

وقوله ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ اي: ذُهب بها ومحي نورها وضوؤها – كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾﴾ [التكوير: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾﴾ [الانفطار: ٢] .

والمعنى: فإذا النجوم ذهب ضوؤها وحصلت هذه الأهوال والعلامات المذكورة وقع ما يوعدون .

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾ اي: وإذا السماء المحبوكة الخلق التي لا فطور فيها شقت وفطرت كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾ [الانفطار: ١]، وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ [الانشقاق: ١]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ [الفرقان:٢٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾ [الرحمن: ٣٧]، وقال تعالى:

﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾ [الحاقة: ١٦].

هكذا تكون حال السماء من عظيم هول ذلك اليوم وقد كانت محبوكة محفوظة لا فطور فيها - كما قال عز وجل ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾﴾ [الذاريات: ٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [ق: ٦]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الملك: ٣، ٤].

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ أي وإذا الجبال قلعت من أماكنها وألقيت واستوت مع الأرض، فلا يبقى لها عين ولا أثر، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧] أي: ظاهرة لا جبال فيها.

وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾﴾ [الواقعة: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ [الحاقة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [المزمل: ١٤].

﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ أي: جعل لهم وقت مؤجل لجمعهم وحان ذلك الوقت كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الزمر: ٦٩].

﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ الاستفهام للتعظيم والتفخيم والتهويل، أي: لأي يوم أجل جمعها ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ أي: ليوم القيامة الذي يفصل الله فيه بين الرسل وأممهم وبين الحق والباطل وبين العباد في حقوقهم، ويحاسب كلاً منهم منفصلاً منفردًا كما قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الدخان: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الحج: ١٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [السجدة: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾﴾ [النبأ: ١٧]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ

ﭐلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم: ٤٧، ٤٨].

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ توكيد وتعظيم وتفخيم وتهويل لأمره، أي: وما أعلمك ما يوم الفصل هو يوم ثقيل عظيم عسير إلا على من يسره الله – تعالى – عليه.

﴿وَيۡلٞ﴾ كلمة تهديد ووعيد وهلاك ويقال: إنه واد في جهنم. عن معاوية بن حيدة عن أبيه ـ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك الناس، ويل له، ويل له»(١).

﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ أي: في ذلك اليوم يوم الفصل ﴿لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ للرسل وما جاؤوا به من الحق، أي: ويل لهم من عذاب الله ذلك اليوم ويا حسرتهم وشدة عذابهم وسوء منقلبهم.

وقد ذكر عز وجل هذا الوعيد والتهديد ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ عشر مرات في هذه السورة، بعدما أقسم على البعث والمعاد بالرياح والملائكة وذكر بعض أهوال يوم القيامة وعظمها واستدل عليه بالخلق الأول ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ وفي ذلك أبين دليل وأظهره على صحة ما أقسم عليه ولهذا كان المكذب به في غاية الجحود والعناد والكفر فاستحق الويل بعد الويل، فتضاعف عليه الويل، كما تضاعف منه الكفر والتكذيب.

الفوائد والعبر:

١- إقسام الله – عز وجل – بالرياح والملائكة على أن البعث والجزاء على الأعمال حق، ولله – عز وجل – أن يقسم بما شاء من مخلوقاته .

٢- كثرة فوائد الرياح، وعظمها، وفضل الملائكة وعظم أعمالهم.

٣- إقامة الحجة على الخلق والإعذار منهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

٤- التحذير من عذاب الله ـ عز وجل، ومن القيامة وأهوالها الشديدة ومنها انطماس النجوم وانفراج السماء ونسف الجبال.

٥- تحديد وقت لجمع الرسل وأممهم للفصل بينهم أجل ليوم الفصل العظيم الشديد يوم القيامة.

٦- الوعيد والتهديد للمكذبين في ذلك اليوم.

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ـ التشديد في الكذب ٤٩٩٠، والترمذي في الزهد ٢٣١٦، وأحمد ٥/ ٥ـ٦، ٧.

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٦ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ۝١٧ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٨ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٩ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ۝٢٣ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٤ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ۝٢٦ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ۝٢٧ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٨﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

توعد الله المكذبين بالعذاب الأخروي يوم القيامة، ثم توعدهم بالعذاب الدنيوي بأن يوقع بهم ما أوقع بالمكذبين المجرمين قبلهم من الإهلاك في الدنيا.

قوله: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الهمزة للاستفهام ومعناه التقرير، أي: أما أهلكنا الأولين من المكذبين للرسل من الأمم الماضية بأنواع العقوبات في الدنيا - كما قال عز وجل: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٤٠﴾ [العنكبوت: ٤٠].

﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ﴾ من أشباههم من المكذبين بعدهم.

﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾: أي: مثل هذا الإهلاك نفعل بالمجرمين، أي: نعاقبهم من الأولين والآخرين فبين عز وجل أن سنته السابقة واللاحقة إهلاك المجرمين ليعتبر اللاحق بالسابق.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ وعيد لهم بالعذاب يوم القيامة بالنار.

وقد يحمل على الوعيد بالعذاب الدنيوي بالإهلاك والعذاب الأخروي بالنار.

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ الاستفهام للتقرير، أي: أما أوجدناكم أيها الآدميون من ماء حقير ضعيف، وهو مني الرجل والمرأة كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾ [الطارق: ٥ - ٧].

وعن بسر بن جحاش القرشي أن النبي ﷺ قال: «يقول الله - عز وجل: أنى تعجزني ابن آدم وقد خلقتك من مثل هذه»[1].

﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي: فجعلنا هذا الماء المتكون من ماء الرجل والمرأة ﴿فِى قَرَارٍ﴾ أي: في

---

(١) اخرجه أحمد ٤/ ٢١٠، وابن ماجه في الوصايا - النهي عن الإمساك في الحياة والتبذير عند الموت ٢٧٠٧.

مكان استقرار تام، وهو الرحم به يستقر وينمو ﴿مَّكِينٍ﴾ متمكن في الرحم، حفيظ لما أودع فيه، في جو معتدل بعيد عن الحر والبرد.

﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ اي: إلى وقت مقدر معلوم ومدة معينة تسعة أشهر او اكثر او اقل، والغالب تسعة أشهر، وقد يولد لعارض لستة أشهر ويعيش، وقد يولد لأكثر من ذلك. وقد رُوِيَ أن الضحاك ولد لأربع سنين بعدما خرجت أسنانه الضواحك فسمي الضحاك.

﴿فَقَدَرْنَا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر والكسائي بتشديد الدال (فقدَّرنا) وقرأ الباقون بتخفيفها.

أي: فقدرنا على ذلك الخلق وعلى تقديره وغيره.

﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ امتداح من الله عز وجل – لنفسه – وهو أهل المدح والثناء سبحانه. أي: فنعم القادرون نحن على خلق ذلك وعلى خلق غيره وتقديره، وعلى إعادة الخلق بعد فنائه.

وفي هذه الآيات من قوله ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠﴾ إلى قوله ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ۝٢٣﴾ تذكير للخلق بأصل خلقهم وامتنان عليهم وبيان قدرته عز وجل على إعادة خلقهم بعد فنائهم. ولهذا جاء بعده الوعيد بقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٤﴾.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ الاستفهام للتقرير اي: أما جعلنا الأرض كفاتا، اي: كنّاً ووعاءً للخلق.

﴿أَحْيَآءً﴾ اي: حال حياتكم على ظهرها في الدور والقصور.

﴿وَأَمْوَٰتًا﴾ بعد مماتكم في بطنها في القبور، فهم في حال حياتهم على ظهرها، وبعد مماتهم في بطنها فهي مسخرة لهم ومذللة حال حياتهم يسيرون عليها ويعمرونها ويسكنون فوقها ويزرعونها ويستخرجون من خيراتها، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ۝١٥﴾ [الملك: ١٥].

وهي ستر لهم بعد موتهم تدفن وتوارى في باطنها أجسادهم عن السباع والوحوش، ولئلا تتأذى بها البلاد والعباد.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ﴾ اي: وجعلنا في الأرض جبالاً ثابتات عاليات كبيرة عظيمة الارتفاع، هي لها بمثابة الأوتاد لئلا تميد بأهلها وتضطرب كما قال تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ

أَرْسَـٰهَا ﴿٣٢﴾ [النازعات: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ [النبأ: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل:١٥، لقمان: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١].

﴿وَأَسْقَيْنَـٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ أي: ماءً عذبًا زلالاً من نقع السحاب كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الواقعة: ٦٨، ٦٩].

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾ [الفرقان: ٤٨ ، ٤٩].

وقال تعالى: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ [الفرقان: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ [فاطر: ١٢] .

وفيما ذكر الله عز وجل من قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَأَسْقَيْنَـٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾ امتنان على الخلق بتسخير الأرض لهم وجعلها وعاء لهم في حياتهم وبعد مماتهم، وترسيتها بالجبال ليتمكنوا من العيش عليها، وفي إنزال المطر وسقيهم منه. وفي ذلك تذكير بعظيم قدرته - عز وجل - وتذكير لهم بوجوب شكره ولهذا قال بعده: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾ أي: ويل ذلك اليوم للمكذبين لرسل الله وكتبه الجاحدين لنعمه المنكرين لقدرته.

الفوائد والعبر:

١- الوعيد والتهديد للمجرمين المكذبين من المتأخرين بإهلاكهم كالمجرمين الأولين، وتقرير أن مصير الجميع الهلاك والعذاب في الدنيا والآخرة.

٢- تذكير الإنسان بأصل خلقه ونعمة الله عليه في ذلك، وأنه خلق من ضعف وحقارة، وانتقل من طور إلى طور حتى صار بشرًا سويًا.

٣- عظم قدرة الله عز وجل وعنايته بالإنسان وأطوار خلقه، وظهور أثر عنايته به وقدرته- عز وجل - في تقدير قراره في الرحم في بطن أمه.

٤- إثبات قدرة الله عز وجل، التامة على الخلق الأول، وعلى الخلق الثاني من باب أولى وأحرى.

٥- تذكير الخلق بنعمه عز وجل - عليهم وبدلائل قدرته حيث جعل الأرض لهم وعاءً حال حياتهم على ظهرها وفي بطنها بعد مماتهم، وأرساها بالجبال، وسقاهم ماءً فراتًا عذباً زلالاً.

٦- تأكيد الوعيد والتهديد للمكذبين.

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله عز وجل فيما سبق من الآيات بعض علامات القيامة وتوعد المكذبين بالعذاب في ذلك اليوم ثم فصل ما توعدهم به من العذاب في هذه الآيات.

قوله: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ أي يقال لهم: أي: للمكذبين بالبعث والجزاء على الأعمال والجنة والنار ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ أي: اذهبوا مسرعين إلى الذي كنتم به تكذبون، أي: إلى النار.

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ أي: امضوا واذهبوا مسرعين إلى (ظل ذي ثلاث شعب) وهو ظل لهب ودخان النار إذا ارتفع وصعد، فمن شدته وقوته ينشعب ويتمايز إلى ثلاث شعب، أي: ثلاث قطع من النار، وهو الذي قال الله فيه ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾﴾ [الواقعة: ٤٣].

﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ أي: ان هذا الظل وهو ظل لهب النار والدخان ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ يظل من الحر ﴿وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ أي: ولا يدفع ولايقي من لهب النار لمن هو فيه - كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [الأعراف: ٤١].

﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ إنها، أي: النار، تقذف بشرر عظيم يتطاير من لهبها ﴿كَٱلْقَصْرِ﴾ أي: كالبناء والقصور العظيمة.

وقيل المراد بالقصر:الغليظ العظيم من الخشب كأصول الخشب والنخل.

﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ قرأه حمزة والكسائي وخلف وحفص ﴿جِمَٰلَتٌ﴾ بغير الف بعد اللام على الإفراد، وقرأ الباقون بالجمع (جمالات).

أي: كأنه الجمال السود التي تضرب إلى لون فيه صفرة مما يدل على شدة ظلمة النار ولهبها وجمرها وشررها وأنها سوداء.

وقال بعضهم المراد بقوله: ﴿جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾: حبال السفن.

ولما ذكر عظم النار وشدة أهوالها أتبع ذلك بالوعيد والتهديد فقال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ أي: لا يتكلمون - كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [النمل: ٨٥].

﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: ولا يؤذن لهم بالاعتذار، فيعتذرون، لأنه لا عذر لهم في الحقيقة، بل قد قامت عليهم الحجة بإرسال الرسل وإنزال الكتب، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، ولو اعتذروا لم ينفعهم ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الروم: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[غافر: ٥٢].

ولا ينافي هذا ما جاء في بعض الآيات أنهم يتكلمون كما في قوله تعالى عنهم: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف: ٧٧].

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٦، ١٠٧].

وقوله ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ [ص: ٦٢ - ٦٤] إلى غير ذلك من الآيات.

وذلك أن عرصات القيامة حالات ومواقف ففي حالات ومواقف لا ينطقون وفي حالات ومواقف أخرى يتكلمون، وهكذا.

وبعد أن نفى نطقهم ذلك اليوم وعدم الإذن لهم ليعتذروا أكد الوعيد والتهديد لهم فقال ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ أي: يوم الفصل بين العباد ففريق في الجنة وفريق في السعير، والفصل بينهم في المظالم بإنصاف المظلوم من الظالم حتى إنه ليقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء كما جاء في الحديث [1] ومحاسبة كل منهم منفصلاً منفردًا

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٢، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٢٠، وأحمد ٢/٢٣٥ - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

﴿جَمَعْنَٰكُمْ﴾ الخطاب للمكذبين من هذه الأمة ﴿وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ المكذبين من الأمم السابقة، يجمعهم الله عز وجل يوم جمع الخلائق كلها في صعيد واحد.

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ الكيد هو الحيلة والمكر بخفية، أي: إن كان لكم حيلة وطريق للتخلص من قبضتي وعذابي فافعلوا، وأنى لهم ذلك كما قال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الرحمن: ٣٣].

فقوله ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ مجرد تحدٍ وتهديد لهم، ولهذا أكد التهديد بعده بقوله ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ وإلا فهو - عز وجل - لا يكيده أحد بل يكيد الكائدين - كما قال عز وجل: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: ١٥، ١٦]، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾ [هود: ٥٧].

وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه - عز وجل أنه قال: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني»[١].

الفوائد والعبر:

١- تبكيت المكذبين وتعذيبهم في النار حسياً ومعنوياً.

٢ ـ عظم عذاب النار وحر ظلها وشدة لهبها وكبر شررها.

٣- تأكيد وعيد المكذبين وتهديدهم.

٤- إلجام أفواه أهل النار فلا ينطقون وعدم الإذن لهم في الاعتذار فيعتذورن.

٥- جمع المكذبين من هذه الأمة وممن قبلهم وتحديهم بأن يخلصوا أنفسهم من عذاب الله وأنى لهم ذلك.

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٢٥٧ - من حديث أبي ذر - رضي الله عنه.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (٤٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٥) كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ (٤٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ (٤٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ (٥٠)﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة ما أعده للمكذبين من ألوان العذاب، ثم ذكر ما أعده للمتقين من ألوان النعيم - على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب، ليجمع المؤمن في طريقه الي الله في هذه الحياة بين الخوف والرجاء

قوله ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ اي: الذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

﴿فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ﴾ اي: في ظلال الجنة وعيونها، التي ظلها ظليل، وعيونها التسنيم والسلسبيل.

قال تعالى ﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (٥٧)﴾ [النساء: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]، وقال تعالى ﴿إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ (٥٦)﴾ [يس: ٥٥، ٥٦].

وهذا بخلاف الذي أعد للمكذبين والذي وصفه الله بقوله ﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ (٣١)﴾ وبقوله: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (٤٤)﴾.

وبخلاف من قال الله فيهم ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ (٥)﴾ [الغاشية: ٤، ٥].

﴿وَفَوَٰكِهَ﴾ اي: وفواكه كثيرة مختلفة متنوعة﴿مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ اي: من الذي يشتهون، فما طلبوا وجدوا - كما قال تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَـٰكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢)﴾ [الرحمن: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠)﴾ [الواقعة: ٢٠].

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا﴾ اي: يقال لهم تكريمًا لهم ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا﴾ والهنيء: اللذيذ الطعم، محمود العاقبة، من غير منغص ولا مكدر، فليس فيه آفة من الآفات، ولا ينقطع ولا يزول.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ اي: بسبب الذي كنتم تعملون، أو بسبب عملكم الصالح، لأن العمل سبب لدخول الجنة وليس بعوض عن دخول الجنة، وإنما دخولها برحمة أرحم

الراحمين - كما قال ﷺ «لن يُدْخِل أحدَكم عملُه الجنة. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[1] .

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إنا كذلك أي: كهذا الجزاء والتكريم العظيم نجزي الذين أحسنوا العمل، فجمعوا بين الإخلاص لله - عز وجل، ومتابعة الرسول - ﷺ، وأحسنوا في عبادة الله - عز وجل، وأحسنوا إلى عباد الله.

وفي قوله - عز وجل لهم ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تكريم لهم ونعيم معنوي يخالط شَغاف قلوبهم لا يقل عماهم فيه من النعيم الحسي - نسأل الله - تعالى من فضله.

ثم أكد - عز وجل - وعيد المكذبين وتهديدهم فقال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا﴾ خطاب للمكذبين وتهديد لهم ووعيد، أي: كلوا وتمتعوا مدة قليلة وهي بقية أعماركم في هذه الدنيا الفانية - كما قال تعالى ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة: ٣٨].

﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ أي:إنكم مرتكبون للجرائم من الكفر وأنواع الجرائم،أي: فليس لكم إلا هذا المتاع القليل الحقير في الدنيا ثم مصيركم إلى النار، ولهذا قال بعده ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ كما قال تعالى ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾ أي: إذا قيل لهؤلاء المجرمين المكذبين صلوا مع المسلمين وأدوا أعظم العبادات وأشرفها وهي الصلاة أبوا وامتنعوا كفرًا وعنادًا واستكبارًا، ولهذا توعدهم فقال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إذا لم يؤمنوا بالقرآن - كلام الله - عز وجل - فبأي كلام بعده يؤمنون - كما قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [الجاثية: ٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦ ، ٩٧].

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٨١٦ - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

رُوِيَ عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال: «إذا قرأ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١﴾ فقرأ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾ ؟ فليقل: آمنت بالله وبما أنزل»[1].

الفوائد والعبر:

١- جمع القرآن الكريم بين الوعد والوعيد والترغيب والترهيب.

٢- بيان ما أعده الله عز وجل - للمتقين المحسنين من ألوان وأنواع النعيم الحسي من الظلال والعيون والفواكه والمآكل والمشارب، ومن النعيم المعنوي للقلوب من التهنئة والترحيب بهم.

٣- الترغيب بتقوى الله - عز وجل - والإحسان في عبادته وإلى عباده.

٤- توبيخ المجرمين وتهديدهم ووعيدهم فهم وإن أكلوا ومتعوا قليلاً فمردهم إلى العذاب الشديد.

٥- امتناع المكذبين المجرمين من الصلاة والركوع والسجود لله - عز وجل وهذا من أعظم أسباب عذابهم كما في قوله تعالى ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣﴾ [المدثر: ٤٢ ، ٤٣].

٦-أن القرآن الكريم هو أفضل كتب الله - عز وجل - وأبلغها أثرًا في الدعوة إلى الإيمان، وأن من لم يؤمن بالقرآن فلا سبيل له إلى الإيمان.

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣٢٥.

فهرس موضوعات المجلد الثاني

تفسير سورة المجادلة إلى نهاية تفسير سورة المرسلات

الموضـــــوع الصفحة

تَنْوِيرُ العُقُولِ وَالأَذْهَانِ

فِي

تَفْسِيرِ مُفَصَّلِ القُرْآنِ

إعداد

أ.د سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

الأستاذ بقسم القرآن وعلومه

بكلية الشريعة وأصول الدين - جامعة القصيم

المجلد الثالث

من سورة النبأ إلى آخر سورة الناس

دار العاصمة

للنشر والتوزيع

ح دار العاصمة للنشر والتوزيع ، ١٤٢٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية اثناء النشر

اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله

تنوير العقول والأذهان في تفسير مفصل القرآن. /

سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم - الرياض ، ١٤٢٨هـ

٣مج

ردمك ٨-٣٨-٦٩٢-٩٩٦٠ (مجموعة)

٨-٤١-٦٩٢-٩٩٦٠ (ج٣)

١- القرآن - تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٢٨/٤٢٣٢

رقم الإيداع: ١٤٢٨/٤٢٣٢
ردمك: ٨-٣٨-٦٩٢-٩٩٦٠ (مجموعة)
٨-٤١-٦٩٢-٩٩٦٠ (ج٣)

الطبعة الأولى
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

دار العاصمة
المملكة العربية السعودية
الرياض - ص.ب ٤٢٥٠٧ - الرمز البريدي ١١٥٥١
هاتف ٤٩١٥١٥٤ - ٤٩٣٣٣١٨ - فاكس ٤٩١٥١٥٤

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة النبأ

هذه السورة أول أوساط المفصل.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾.

قوله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾.

أرسل الله عز وجل نبيه محمداً ﷺ وأنزل عليه الكتاب بالحق للدعوة إلى عبادة الله عز وجل، وإثبات البعث والحساب والجزاء على الأعمال فكذبه المشركون إنكاراً لما جاء به واستبعاداً للبعث بعد الموت، وأخذوا يتساءلون فيما بينهم في ذلك وفي هذا نزل قوله ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾.

قوله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي: عن أي شيء يتساءل المشركون، أي: يسأل بعضهم بعضاً. وهذا استفهام أجاب عنه بقوله: ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾.

أي: هم يتساءلون عن النبأ العظيم، والنبأ هو الخبر الهام، والمراد به ما دعاهم إليه النبي ﷺ من الإقرار بنبوته، والتصديق بما جاء به من عند الله ـ عزوجل، والإيمان بالبعث بعد الموت والحساب والجزاء.

﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ بين مصدق به ومكذب، ومؤمن به وكافر.

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ «كلا» للردع والزجر ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ تهديد ووعيد ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ تأكيد للردع والزجر والتهديد والوعيد للمكذبين للرسول ﷺ وبالقرآن والمعاد، وأنهم سيعلمون علم اليقين سوء عاقبة كفرهم وتكذيبهم حين ينزل بهم عذاب الله العاجل في الدنيا والآجل في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، وقال تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ [القمر: ٢٦].

قال أبو العتاهية:

ستعلم في الحساب إذا التقينا غداً عند الإله من الملوم

سينقطع التروح عن أناس من الدنيا وتنقطع الغموم

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ هذا وما بعده إلى قوله ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ استدلال على كمال قدرته عز وجل وعظم آياته في الكون، في الأرض والجبال والأنفس والليل والنهار والسموات والشمس والسحاب والنبات وغير ذلك الدال على كمال قدرته عز وجل على البعث، وعلى كل شيء، وتذكير للعباد بنعمه ليشكروه عليها.

قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ الهمزة للاستفهام التقريري، أي: قد جعلنا الأرض مهاداً.

وجعل هنا بمعنى «صير» تنصب مفعولين، الأول: «الأرض» والثاني: «مهاداً».

و«الجعل» ينقسم إلى قسمين جعل شرعي، وجعل كوني، وهو المراد هنا.

ومعنى ﴿مِهَٰدًا﴾ أي: ممهدة مفروشة مبسوطة للخلائق مذللة لهم مستقرة ثابتة، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: ٥٣، الزخرف: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٩، ٢٠]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ أي: وجعلنا الجبال أوتاداً ثبتنا بها الأرض، وأرسيناها حتى لا تضطرب وتميد بأهلها، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥، لقمان: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ [الرعد: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ [الحجر: ١٩، ق: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ﴾ [المرسلات: ٢٧].

وقد ذكر أهل العلم أن هذه الجبال التي نشاهدها ثلثاها في عمق الأرض وثلثها فقط

فوق الأرض.

﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: أصنافاً ذكوراً وإناثاً ليحصل التزاوج بين الذكر والأنثى، ويسكن كل منهما إلى الآخر ويأنس به ويستمتع، ويحصل بذلك التناسل وعمارة الكون.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١١].

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ أي: قاطعاً للتعب تحصل به الراحة للجسم من عناء السعي في النهار في طلب المعاش، فإذا تعب الإنسان ثم نام استيقظ وقد زال عنه التعب ورجع إلى حيويته ونشاطه واستقبل يومه بجد كأنه ولد لتوه قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [الروم: ٢٣].

والنوم أخو الموت وهو الموتة الصغرى، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢].

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي: ساتراً للكون ومغطياً له بظلامه، قال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [الشمس: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١]، أي: يغشى الكون والخليقة بظلامه فيسكن فيه الناس.

﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ أي: وقتاً للمعيشة والسعي والتكسب والحركة والعمل، وذلك بطلوع الشمس فيه وإشراقه وإضاءته قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢].

فمن دلائل كمال قدرة الله عز وجل وعظيم نعمه جعل الليل وقتاً للنوم والنهار وقتاً لطلب المعاش كما قال تعالى مذكراً بذلك ومخوفاً من زواله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧١، ٧٢].

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا﴾ أي: سبع سموات، كما قال عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

﴿شِدَادًا﴾ أي: قوية محبوكة محكمة رفيعة البناء واسعة الأرجاء، قال تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ [النازعات: ٢٧ ، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ [الذاريات: ٧]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ [الملك: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧].

وسمى سبحانه وتعالى خلق السموات بناء كما قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [غافر: ٦٤]، لأنها سقف الكون، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ أي: وجعلنا سراجاً منيراً وهي الشمس، ﴿وَهَّاجًا﴾ أي: يتوهج ضوؤها فتعم الكون بمنافعها بدفئها وحرارتها وضوئها وغير ذلك، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢].

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ المعصرات: السحاب ينعصر منها المطر ويخرج من خلالها ولا ينصب انصباباً بقوة فيضر ما ينزل عليه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ [النور: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ [الروم: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [فاطر: ٩].

﴿مَاءً ثَجَّاجًا﴾ أي: منصباً بكثرة وغزارة وتتابع، قال ﷺ: «أفضل الحج العج والثج»[1]

---

(١) أخرجه الترمذي في الحج ٨٢٧، وابن ماجه في المناسك ٢٩٢٤ من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

والثج: إراقة وصب دماء الهدي.

وعن حمنة بنت جحش رضي الله عنها في حديث المستحاضة حين قال لها رسول الله ﷺ: «أنعت لك الكرسف» يعني أن تحتشي بالقطن، قالت: يا رسول الله، هو أكثر من ذلك إنما أثج ثجاً[1] أي: صباً متتابعاً كثيراً.

ومع إنزاله عز وجل هذا الماء بكثرة وغزارة فهو مقدر كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾ [الزخرف: ١١]، ولهذا سمي ميكائيل بهذا الاسم لأنه يكيل القطر.

وكل ما في باطن الأرض من المياه هو من ماء المطر كما قال تعالى: ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨]، وقال تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢]، أي: نحن الذين خزناه في الأرض، وقال تعالى: ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١].

﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا﴾ اللام للتعليل، اي: لأجل أن نخرج بهذا الماء (حبا) اي: أنواع الحبوب من البر والشعير والذرة وغيرها مما يأكله الناس والأنعام ويدخر، قال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣].

﴿وَنَبَاتًا﴾ اي: خضراً مما يأكله الناس والأنعام رطباً، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ [الأنعام: ٩٩].

﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ اي: بساتين وحدائق ملتفة بأنواع الأشجار مختلفة الثمار في طعومها وروائحها وأشكالها والوانها، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق: ٩ – ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾ [النمل: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ

---

(١) اخرجه أبو داود في الطهارة ٢٨٧، والترمذي في أبواب الطهارة ١٢٨، وابن ماجه في الطهارة ٦٢٧، وأحمد ٦/ ٤٣٩.

دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ [الأنعام: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٦ - ٣١].

الفوائد والعبر:

١- تكذيب المشركين لرسول الله ﷺ ولما جاء به من الوحي والإخبار بالبعث واختلافهم في ذلك وتساؤلهم عنه إنكاراً له واستبعاداً.

٢- تعظيم أمر مبعثه ﷺ وما جاء به من الوحي من عند الله عز وجل وتقرير أمر البعث والحساب والجزاء على الأعمال.

٣- الزجر والردع والوعيد والتهديد للمكذبين له ﷺ ولما جاء به من الوحي والإخبار بالمعاد وتأكيد ذلك.

٤- إثبات عظمة الله عز وجل، وقدرته الباهرة بذكر آياته في الكون، في الأرض والجبال والأنفس والليل والنهار والسماء والشمس والسحاب والنبات والاستدلال بذلك على قدرته عز وجل على البعث.

٥- تقرير نعم الله عز وجل العظيمة على العباد بجعل الأرض ممهدة مبسوطة لهم وترسيتها بالجبال، وجعل الناس وسائر الحيوانات أزواجاً ليأنس بعضهم ببعض، وجعل النوم راحة للأبدان والليل وقتاً للسكون والراحة، والنهار وقتاً للمعاش، وخلق السموات السبع الشداد وإنارة الكون بالشمس المتوهجة، وإنزال المطر من السحاب، وإخراج الحب والنبات وأنواع الجنات إلى غير ذلك من النعم العظيمة، وكل واحدة من هذه النعم تستوجب الوقوف عندها والتأمل فيها وشكرها.

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

زجر الله عز وجل في الآيات السابقة المكذبين بالبعث وتوعدهم وهددهم، وبين لهم بعض نعمه عليهم وعلى سائر الخلق ودلائل قدرته على بعثهم، ثم أتبع ذلك بتأكيد مجيء هذا اليوم الذي فيه يبعثون ويحاسبون، وتفصيل بعض أحواله وأهواله.

قوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ يوم الفصل: يوم القيامة، سمي بذلك لأن فيه الفصل بين العباد، بين الرسل وأممهم، وبين الناس فيما بينهم، وإنصاف المظلوم من الظالم، وإعطاء كل ذي حق حقه حتى إنه ليقتص في ذلك اليوم للشاة الجلحاء من الشاة القرناء[1].

وأخيراً يفصل بين أهل السعادة وأهل الشقاء ففريق في الجنة وفريق في السعير.

﴿كَانَ مِيقَٰتًا﴾ أي: له وقت محدد لا يتقدم عنه ولا يتأخر، ولا يزيد ولا ينقص، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٧، ٣٨، ص: ٨٠، ٨١].

وفي هذا تأكيد مجيئه وأنه آت لا محالة بوقته الذي حدده الله له وفي هذا رد على منكري البعث والمعاد مطلقاً، وعلى من دعا منهم بالعذاب واستعجله، كما قال تعالى عنهم ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ أي: يوم ينفخ إسرافيل عليه السلام في الصور

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٢، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٢٠، وأحمد ٢/ ٢٣٥ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

وهو «القرن» بأمر الله عز وجل النفخة الثانية لقيام الناس من قبورهم إلى أرض المحشر للحساب والجزاء وهما نفختان الأولى نفخة الفزع والصعق والموت والثانية نفخة البعث والقيام للحساب كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦، ٧].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كيف أنعم، وقد التقم صاحب القرن «القرن»، وحنى جبهته، وأصغى سمعه ينظر متى يؤمر»[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين: أربعون»، قالوا: أربعون يوماً؟، قال: «أبيت»، قالوا: أربعون شهراً؟، قال: «أبيت»، قالوا: أربعون سنة؟، قال: «أبيت»، قال: «ثم يُنزلُ الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقلُ، ليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً، وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة»[(٢)].

﴿فَتَأْتُونَ﴾ أي: فتحيون، فتأتون لموقف القيامة والحساب والعرض.

﴿أَفْوَاجًا﴾ جمع فوج، والفوج: الجماعة من الناس، أي: فتأتون جماعات جماعات كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ [الجاثية: ٢٨].

﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي: شققت السماء وفطرت، كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، وقال تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ [المزمل: ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١].

﴿فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ أي: طرقاً ومسالك لنزول الملائكة، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥].

﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ أي: وسيرت الجبال العظيمة العالية بعد أن كانت راسية ثابتة لا تتحرك، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ

---

(١) اخرجه الترمذي في صفة القيامة - ما جاء في شان الصور ٢٤٣١ وقال: «حديث حسن». واخرجه احمد ٣/ ٧، واخرجه ايضاً ٤/ ٣٧٤ من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه.

(٢) اخرجه البخاري في «تفسير سورة عم يتساءلون» ٤٨١٤، ومسلم في الفتن واشراط الساعة ٢٩٥٥، واخرجه مختصراً ابو داود في السنة ٤٧٤٣، والنسائي في الجنائز ٢٠٧٧، وابن ماجه في الزهد ٤٢٦٦.

أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ٩، ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٩، القارعة: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣].

﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ السراب: ما يخيل للناظر انه شيء، وليس بشيء، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩]، والمعنى: أن الجبال تذهب بالكلية، فلا عين ولا أثر، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ [المرسلات: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ [الواقعة: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۝﴾ [الحاقة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا ۝﴾ [المزمل: ١٤].

فتسيير الجبال وكونها في الخفة كالعهن المنفوش وفي السرعة كمر السحاب ينتهي بذهابها واضمحلالها، وقد جمع هذين المعنيين، وهما التسيير وذهابها بالكلية قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧] فانتهى تسييرها إلى اضمحلالها وذهابها بالكلية وكونها قاعاً صفصفا لا ترى فيها عوجاً ولا امتا، ولهذا قال في هذه الآية: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ اي: ظاهرة لا يحجبها شيء.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ «جهنم» اسم من أسماء النار، سميت به لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدة حرها، ومعنى ﴿ مرصاداً ﴾ اي: مرصدة معدة مهياة.

﴿ للطاغين ﴾ اي: للمتجاوزين حدود الله، بترك ما أمر الله به وارتكاب ما نهى الله عنه، المتجاوزين الإيمان إلى الكفر، والعبادة التي خلقوا من أجلها إلى الشرك، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝﴾ [الذاريات: ٥٦]

﴿ مآبا ﴾ اي: مرجعاً ومصيراً ومأوى ومنقلباً ومنزلاً، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ ۝ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۝﴾ [النازعات: ٣٧ - ٣٩]، وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ۝﴾ [النساء: ١٢١]، وقال تعالى: ﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝﴾ [الحديد: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ۝﴾ [الصافات: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ۝ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ۝﴾ [ص: ٥٥، ٥٦].

﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ﴾ قرأ حمزة (لبثين) بغير الف، وقرأ الباقون ﴿ لابثين ﴾ بالألف، والمعنى مقيمين فيها ﴿ أحقاباً ﴾ جمع «حقب» والحِقَبُ: جمع «حِقْبَة» والحقبة: الدهر، والمدة الطويلة، وقيل: ثمانون سنة، والمعنى: مقيمين فيها دهوراً ومدداً طويلة لا تنتهي ولا تنقطع، لأن المراد بالطاغين الكفار المكذبون، والصحيح من أقوال أهل العلم وهو ما دل عليه القرآن الكريم في أكثر من آية أن النار لا تفنى ولا يفنى عذاب أهلها [1].

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾ اي: لا يجدون في جهنم برداً تبرد به ظواهر أبدانهم.

﴿وَلَا شَرَابًا﴾ يذهب ظماهم، وتبرد به أجوافهم

﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ كقوله في سورة ص: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝﴾ [الآية: ٥٧]، قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص (غسَّاقا) بتشديد السين، وقرأ الباقون بتخفيفها.

﴿ إلا حميماً ﴾ الاستثناء منقطع، اي: لكن يذوقون حميماً وغساقاً والحميم: هو الماء الحار الذي بلغ الغاية في الحرارة، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ۝﴾ [الرحمن: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ۝﴾ [محمد: ١٥]، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۝﴾ [الأنعام: ٧٠، يونس: ٤].

والغساق: هو صديد أهل النار وعرقهم في غاية النتن والكراهة، أو سائل من الزمهرير في جهنم في غاية البرودة والنتن والكراهة، قال تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ۝ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝﴾ [الحاقة: ٣٦].

﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ اي: هذا العذاب الذي صاروا إليه عقوبة لهم وفق أعمالهم السيئة، لأن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ۝﴾ [النجم: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝﴾ [يونس: ٤٤].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾ لما ذكر ما أعد للطاغين المكذبين من عذاب جهنم وما لهم فيها من أنواع العذاب وفق أعمالهم السيئة ذكر الأعمال

---

(١) انظر تفسير قوله تعالى في سورة الجن ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۝﴾.

التي هي سبب تعذيبهم في هتين الآيتين ليتبين وجه الموافقة بين عذابهم وأعمالهم.

قوله ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ اي: لا يؤملون ولا يعتقدون أن هناك معاداً وحساباً، ولا يخافون المجازاة على كفرهم وطغيانهم، لأنهم يكذبون بالبعث بعد الموت وينكرونه، وهذا انحراف في العقيدة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ۝﴾ [الفرقان: ٤٠]،

ولهذا قال عز وجل عن المؤمنين ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ۝﴾ [الكهف: ١١٠].

﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ اي: وكذبوا بآياتنا الشرعية التي أنزلناها على رسلنا وأعظمها القرآن الكريم المنزل على أفضل الرسل محمد ﷺ وهذا انحراف في القول والعمل.

﴿ كذابا ﴾ مصدر من غير الفعل، اي: تكذيباً عظيماً.

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ من اعمالهم وأقوالهم وغيرها.

﴿ احصيناه ﴾ اي: ضبطناه وعددناه عداً دقيقاً ﴿ كتاباً ﴾ اي: كتابة، فعلمنا أعمالهم وأقوالهم كلها وغيرها وضبطناها عدداً وكتابة، قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝﴾ [ق: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ۝﴾ [يس: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ۝﴾ [الجن: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝ ﴾ [يونس: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى عن لقمان انه قال لابنه ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝﴾ [لقمان: ١٦].

﴿فَذُوقُوا۟﴾ وجّه الخطاب إليهم بعد أن كان بضمير الغيبة لتأكيد توبيخهم وتقريعهم وتبكيتهم وإهانتهم، ومواجهتهم بذلك، أي: فذوقوا عذاب جهنم وحميمها وغساقها.

﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ أي: فلن نزيدكم إلا عذاباً فوق عذابكم، كما قال عز وجل: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ۝﴾ [ص: ٥٧، ٥٨]، فهم في زيادة من العذاب مع أنهم يطمعون بالتخفيف كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۝﴾ [غافر: ٤٩].

وقوله: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ وما فيه من توبيخ وتقريع وتبكيت عذاب معنوي ينصب على القلوب لا يقل عن العذاب الحسي، ولهذا رُويَ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أنه قال: «لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾، قال: فهم في مزيد من العذاب أبداً»[1].

الفوائد والعبر:

١- إثبات يوم القيامة وأن له وقتاً محدداً لا يتقدم عنه ولا يتأخر.

٢- الفصل بين الخلائق يوم القيامة.

٣- إثبات النفخ في الصور لحياة الخلق وبعثهم وقدومهم على الله عز وجل للحساب.

٤- شدة أهوال يوم القيامة من النفخ في الصور، وفتح السماء وانشقاقها وانفطارها، وتسيير الجبال واضمحلالها وأعظم ذلك وأشده جهنم المرصدة المعدة الآن مآباً للطاغين لا خروج لهم منها لا يذوقون فيها إلا الحميم والغساق.

٥- التحذير من الكفر والطغيان، والوعيد الشديد والتهديد الأكيد للطاغين المكذبين بالآيات والمعاد، والحساب والجزاء على الأعمال.

٦- أن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان، ولا يظلم ربك أحداً.

٧- إحصاء الله عز وجل لجميع أعمال العباد وكتابتها عليهم.

٨- الجمع للمكذبين بين العذاب المعنوي للقلوب والعذاب الحسي للأبدان.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/٣٦.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَـٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

بعد ما ذكر الله عز وجل ما أعده للطاغين المكذبين من العذاب المعنوي والحسي أتبع ذلك بذكر ما أعده للمتقين من النعيم المعنوي والحسي لأن القرآن الكريم مثاني فيه الجمع بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، والشيء وضده، ليجمع الإنسان في سيره إلى الله عز وجل في هذه الحياة بين الخوف والرجاء، كما قال الإمام أحمد رحمه الله: «ينبغي أن يكون الإنسان في عبادته لربه بين الخوف والرجاء فأيهما غلب هلك صاحبه».

قوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ «إن» حرف توكيد ونصب و«المتقين» الذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧١].

و«مفازاً» أي: فوزاً ونُكِّر للتعظيم، أي: مفازاً عظيماً، والمفاز والفوز: النجاح والفلاح والسلامة من المرهوب والظفر بالمطلوب، النجاة من النار والفوز بالجنة، كما قال تعالى: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الزمر: ٦١]، وقال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنعام: ١٦].

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾ [الجاثية: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾ [البروج: ١١].

وقال تعالى عن الكافرين: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨٨]، أي: فلا تحسبنهم بمنجاة من العذاب. ففي المفاز والفوز نجاة من العذاب، وحصول الثواب من المتنزه والحدائق والأعناب والكواعب الأتراب والكأس الدهاق، والتخلية قبل التحلية.

﴿حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا ﴿٣٣﴾ وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا ﴿٣٥﴾﴾
هذا تفسير لقوله: ﴿ مفازاً ﴾ وتفصيل لما أعد الله للمتقين من أنواع النعيم.

﴿ حدائق ﴾ أي: بساتين أشجارها عظيمة وكثيرة متنوعة من النخيل والرمان وغيرها كما قال تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ ﴿٦٨﴾﴾ [الرحمن: ٦٨].

﴿ واعناباً ﴾ جمع عنب وخص الأعناب بالذكر لمزيتها وفضل ثمرها من بين الأشجار.

﴿وَكَوَاعِبَ﴾ جمع كاعب، أي: ونساء كواعب من الحور العين، أي: نواهد، ثديهن كالرمان مستديرة، بقدر قبضة اليد، ولم يتدلين إلى أسفل.

﴿ اترابا ﴾ أي: على سن واحدة سن ثلاث وثلاثين كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ﴿٣٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ﴿٣٧﴾﴾ [الواقعة: ٣٥ ـ ٣٧].

﴿وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا﴾ اي: وكاس خمر مملوة صافية متابعة.

﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا﴾ أي: لا يسمعون في الجنة ﴿لَغۡوٗا﴾ أي: كلاماً لاغياً باطلاً لا فائدة فيه.

﴿وَلَا كِذَّٰبٗا﴾ قرأ الكسائي بتخفيف الذال، وقرأ الباقون بتشديدها، اي: لا يسمعون فيها تكذيباً وإثماً، فلا يَكْذبون، ولا يُكَذِّب بعضُهم بعضاً ولا يُكْذَب عليهم.

كما قال تعالى: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾﴾ [مريم: ٦٢].

ولهذا سماها الله عز وجل دار السلام، فقال تعالى: ﴿۞ لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ﴾ [الأنعام: ١٢٧]، اي: دار السلامة من الآفات ومن كل عيب ونقص.

ويحتمل عود الضمير في قوله ﴿ فيها ﴾ إلى كاس الخمر فيكون المعنى: لا يسمعون بسببها ﴿لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا﴾ كما في قوله تعالى في سورة الطور ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ﴿٢٣﴾﴾ [الطور: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوۡلٞ﴾ [الصافات: ٤٦]، اي: لا تغتال العقول فتذهبها.

﴿جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ اي: هذا المفاز الذي جعله الله للمتقين وما فيه من الوان النعيم مجازاة وإثابة لهم على تقواهم، وفي قوله ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ إشارة إلى عظم هذا الثواب، وان الله عز وجل تفضل به عليهم، لا ان ذلك واجب عليه سبحانه، ولهذا قال بعده ﴿عَطَآءً حِسَابٗا﴾ وذلك ان العمل الصالح سبب للثواب وليس بعوض عنه.

والخطاب للنبي ﷺ وفي إضافة «رب» إلى ضميره ﷺ تشريف وتكريم له ﷺ، لأن المراد بهذا الربوبية الخاصة برسوله عز وجل وأوليائه.

﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾ أي: عطاء كثيراً وافياً كافياً محاسبة لهم على أعمالهم كما قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝﴾ [النساء: ٦].

وأيضاً: ﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾ أي: محسوباً مقدراً كما قال عز وجل ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝﴾ [الرعد: ٨].

وينبغي أن يُلحظ الفرق بين قوله في مجازاة الطاغين ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ وبين قوله هنا ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ ففي مجازاة الطاغين يكون الجزاء موافقاً لأعمالهم عدلاً منه عز وجل، وفي مجازاة المتقين يكون الجزاء مضاعفاً لهم وأوفى وأفضل من أعمالهم فضلاً منه عز وجل.

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ذكر الله عز وجل ربوبيته الخاصة لنبيه محمد ﷺ في قوله: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ﴾ تشريفاً وتكريماً له ﷺ، ثم أتبع عز وجل بذكر ربوبيته العامة للسموات والأرض وما بينهما.

قرأ ابن عامر ويعقوب والكوفيون «ربِّ» بخفض الباء، وقرأ الباقون برفعها، أي: خالق ومالك ومدبر السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات والعوالم.

﴿الرحمن﴾ قرأ ابن عامر ويعقوب وعاصم بخفض النون، وقرأ الباقون برفعها، وهو صفة لرب على القراءتين فيهما. أي: الذي اسمه الرحمن، وصفته الرحمة كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ۝﴾ [الفرقان: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

و(الرحمن) على وزن (فعلان) يدل على اتصافه عز وجل بالرحمة الواسعة، رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، كما قال عز وجل ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣]. ورحمة فعلية يوصلها من شاء من خلقه كما قال عز وجل ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ۝﴾ [العنكبوت: ٢١]، رحمة خاصة بأوليائه المؤمنين ورحمة عامة لجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم ناطقهم وبهيمهم، بها شمل سبحانه جميع خلقه بنعمه وإحسانه وأمدهم بفضله كما قال عز وجل: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝﴾ [الإسراء: ٢٠].

﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ أي: لعظمته وجلاله لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [هود: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

الفوائد والعبر:

١- أن القرآن الكريم مثاني يجمع فيه بين الترغيب والترهيب.

٢- وعد الله عز وجل المتقين بالفوز العظيم، بالنجاة من النار، ودخول الجنة والتمتع بما فيها من ألوان النعيم.

٣- الجمع لأهل الجنة بين حصول النعيم من البساتين والحدائق والأعناب والكواعب والخمر وغير ذلك، وبين السلامة من الأذى والمنغصات والمكدرات من اللغو والكذب ونحو ذلك.

٤- تشريفه ﷺ وتكريمه بإضافة «رب» إلى ضميره ﷺ في قوله ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ﴾.

٥- عظم جزاء المتقين عند ربهم وأن الله عز وجل هو الذي تفضل به عليهم بسبب تقواهم لقوله ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾.

٦- أن الأعمال إنما هي سبب للفوز بالجنة والنجاة من النار وليست عوضاً عن ذلك.

٧- أن كل عطاء من الله عز وجل، وهو مقدر محسوب لقوله ﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾.

٨- إثبات الربوبية لله عز وجل بقسميها الربوبية الخاصة لرسله وأوليائه، والربوبية العامة لجميع الخلق.

٩- إثبات اسم الله عز وجل (الرحمن) وما يدل عليه من إثبات صفة الرحمة الذاتية والفعلية الخاصة والعامة.

١٠- إثبات العظمة والجلال لله عز وجل وأنه لا يقدر أحد على مخاطبته إلا بإذنه عز وجل.

١١- في تقديم قوله (الرحمن) على قوله ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ ما يشير إلى أن رحمته عز وجل سبقت غضبه كما جاء في الحديث، وأنه عز وجل إلى العفو أقرب منه إلى الانتقام.

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝٣٨ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ۝٣٩ إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ۝٤٠﴾

قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ الروح: هو جبريل عليه السلام كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، وقال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ [القدر: ٤].

وخص جبريل بالذكر من بين الملائكة لقربه من الله وعظم منزلته وشرفه لأنه الموكل بالوحي، وعطف الملائكة عليه من باب عطف العام على الخاص كما عطفه عليهم في قوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤] من باب عطف الخاص على العام.

ويحتمل أن المراد بالروح بنو آدم، لأن الله أوجد فيهم الأرواح والأول أظهر ولا مانع من حمل الآية على المعنيين فالملائكة وبنو آدم كلهم سيقومون صفاً بين يديه عز وجل لا يتكلمون.

﴿ صفاً ﴾ أي: صفاً واحداً، أو مصطفين صفوفاً.

﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ أي: لا أحد يتكلم منهم تعظيماً لله عز وجل وهيبة منه، كقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾، وقوله: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨].

﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾ «إلا» للاستثناء أي: إلا من أذن له الرحمن سبحانه بالكلام فإنه يتكلم، كقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [هود: ١٠٥].

﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ أي: وقال قولاً صواباً، أي: حقاً، قال ﷺ: «ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، وكلام الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم»[(١)].

وقال بعض المفسرين ومن ذلك قول: لا إله إ لا الله، ومن ذلك الشفاعة لمن أذن الله له أن يشفع حسب ما أذن فيه تبارك وتعالى.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: المحقق الوقوع، الكائن لا محالة، اليوم الحقيقي الذي يظهر فيه الحق تمام الظهور، ويقوم فيه العدل، والذي يستحق أن يستعد له تمام الاستعداد.

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٨٠٦، ومسلم في الإيمان ـ معرفة طريق الرؤية ١٨٢ – من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ كقوله: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٩]، أي: فمن شاء جعل إلى ربه مرجعاً ومنقلباً وطريقاً يؤدي به إلى مرضاة الله عز وجل، وذلك بسلوك طريق الحق والهدى، المؤدي إلى الله عز وجل كما قال سبحانه وتعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [الحجر: ٤١]، وقال هود عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٢٦].

وفي الآية إثبات المشيئة للعبد؛ لكنها مشيئة مقيدة بمشيئة الله تعالى كما قال عز وجل: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩].

والمراد بالمآب هنا: المآب الخاص، مآب أولياء الله المتقين وحزبه المفلحين، وإلا فإن الناس في المآب العام كلهم آيبون وراجعون إلى الله عز وجل ومصيرهم إليه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يونس: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾ [ق: ٤٣].

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ﴾ اي: حذرناكم وخوفناكم بما أنزلنا من الكتب وعلى ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام.

﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾ وهو عذاب يوم القيامة لأنه آت وكل آت قريب، ولأن عمر الإنسان في هذه الحياة قصير، ومن مات قامت قيامته، ولأن عمر الدنيا كلها لا يساوي شيئاً بالنسبة للآخرة كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة: ٣٨].

﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ اي: يوم نشر الدواوين وتطاير الصحف، فآخذ كتابه بيمينه وآخذ كتابه بشماله من وراء ظهره، فيرى كل امرئ الذي قدمته يداه، أي: جميع أعماله من خير أو شر مما بطشته يداه أو مشت إليه رجلاه أو تكلم به لسانه، أو انطوى عليه جنانه، وكل ما عملته جوارحه الظاهرة والباطنة. كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾

[الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ [التكوير: ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٦ ـ ٩].

فقدم أخي المسلم خيراً تجده غداً، واحذر من ضد ذلك قال ﷺ: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»[١]، وهذا ما عناه لبيد بقوله:

وما الناس إلا عاملان فعامل ... يتبر ما يبني وآخر رافع

وقال الآخر:

فلم أجد الإنسان إلا ابن سعيه ... فمن كان أسعى كان بالمجد أجدرا

فلم يتأخر من أراد تقدماً ... ولم يتقدم من أراد تأخرا[٢]

وقد قيل:

قدم لنفسك توبة مرجوة ... قبل الممات وقبل حبس الألسن[٣]

وقال الآخر:

قد رشحوك لأمر إن فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل[٤]

وقال الآخر:

الأمر جد وهو غير مزاح ... فاعمل لنفسك صالحاً يا صاح[٥]

وقال الآخر:

سوف ترى إذا انجلى الغبار ... أفرس تحتك أم حمار[٦]

﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ اي: يتمنى الكافر ويود حين ينظر إلى أعماله السيئة، ويرى عذاب الله تعالى وأهوال ذلك اليوم أنه كان في الدنيا تراباً لم يخلق ولم

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة ٢٢٣، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.
(٢) هذان البيتان لابن هانئ انظر «ديوانه» ص١٤٠.
(٣) البيت لمحمود الوراق.
(٤) البيت للطغرائي.
(٥) البيت لنشوان الحميري.
(٦) البيت لبديع الزمان الهمذاني.

يوجد، أو أنه لم يبعث، وذلك حين يقضى بين البهائم حتى إنه ليقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء[1] ثم يقول الله لها كوني تراباً فحينئذ يود الكافر أن لو كان تراباً مثلها، ولكن هيهات ذلك.

الفوائد والعبر:

١- عظمة الله تعالى وهيبته وجلاله.

٢- فضل جبريل عليه السلام على سائر الملائكة.

٣- خضوع جميع الخلائق لله عز وجل يوم القيامة، وقيامهم بين يديه صفوفاً.

٤- عدم قدرة أحد في ذلك اليوم على الكلام ـ هيبة من الله عز وجل وتعظيماً له وإجلالا ـ إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً.

٥- أن يوم القيامة محقق الوقوع، كائن لا محالة، به يظهر الحق تمام الظهور، وهو اليوم الذي يستحق أن يستعد له تمام الاستعداد.

٦- الترغيب بسلوك الطريق المؤدي إلى مرضاة الله عز وجل.

٧- إثبات المشيئة للعبد، وأنه ليس مجبوراً على فعله كما تقوله المبتدعة الجبرية لقوله ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾.

٨ ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لمن تاب وأناب إليه.

٩- إقامة الحجة على الخلق بإرسال الرسل إليهم وإنزال الكتب عليهم وإنذارهم وتحذيرهم من عذاب الله تعالى.

١٠- قرب القيامة وعذابها.

١١- رؤية الإنسان يوم القيامة لكل ما قدم من خير أو شر، قليلاً كان أو كثيراً ومحاسبته ومجازاته على ذلك.

١٢- تمني الكافر في ذلك اليوم عندما يرى العذاب والأهوال كونه تراباً ليسلم من ذلك وهيهات أن يحصل له ذلك.

١٣ـ الترغيب في عمل الخير، والتحذير من عمل الشر.

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٢، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٢٠، وأحمد ٢/ ٢٣٥ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

تفسير سورة النازعـــات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩) يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١٤)﴾.

قوله: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ الواو حرف قسم وجر والنازعات وما عطف عليها مقسم به، أي: أقسم بالنازعات.

﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾ هي الملائكة تنزع أرواح بني آدم من أجسادهم، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١)﴾ [الأنعام: ٦١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [النساء: ٩٧].

﴿غَرْقًا﴾ أي: نزعاً بشدة وعنف وهذا بالنسبة لأرواح الكفار، لأنها إذا دعتها الملائكة للخروج تفرقت في الجسد فتُغرق الملائكة في نزعها بشدة وعنف وتُنتزع من الجسد كما يُنتزع السَّفُّود [١] من الصوف المبلول، كما جاء في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الطويل: «وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب فتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول» [٢].

﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ الواو: عاطفة، والناشطات: الملائكة، تنشط أرواح المؤمنين أي: تسلها برفق ولين ويسر وسهولة وسرعة وخفة فتخرج روح المؤمن تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء كما جاء في حديث البراء رضي الله عنه.

وسميت الملائكة الناشطات أخذاً من الأنشوطة وهي العقدة والربط الذي ينفك بسرعة وسهولة، بمجرد سل أحد طرفيه.

﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ الملائكة تسبح في الهواء في طريق ممرها إلى ما أمرت به، كما

---

(١) السَّفُّود: بالتشديد حديدة اللحم ذات شعب معقفة معروفة يشوى بها اللحم.
(٢) أخرجه أحمد ٤/ ٢٨٧ - ٢٨٨، ٢٩٦.

تسبح الطير في الهواء، والأفلاك في السماء، كما قال تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، وتسبح بأمر الله عز وجل، أي تسرع فيه كما يسرع السابح في الماء.

﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ الفاء: عاطفة، أي: الملائكة تسبق وتسرع إلى فعل ما أمرت به، لا تبطئ عنه، ولا تتأخر كما قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ أي: الملائكة تدبر ما أمر الله بتدبيره من أمور الخلق، فجبريل موكل بالوحي، وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور، وميكائيل موكل بالمطر والنبات، وملك الموت موكل بقبض الأرواح، ورضوان موكل بالجنة، ومالك موكل بالنار، ومنهم حملة العرش، وخزنة النار والموكلون بحفظ العباد وكتابة أعمالهم وغير ذلك.

فاقسم عز وجل بالملائكة في أوصافها الخمسة، وهي نزعها لأرواح الكفار، ونشطها لأرواح المؤمنين، وكونها تسبح بالهواء وتسرع بأمر الله وتسبق إلى فعل ما أمرت به، وتدبر ما أمرها الله بتدبيره وفي هذا تعظيم لها ولله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته.

وحذف جواب القسم لتعظيمه وتفخيمه وتهويله وتقديره: والله لتبعثن. وعلى هذا يدل قوله ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ وما بعده.

قال ابن القيم [١]: «وجواب القسم محذوف يدل عليه السياق وهو البعث المستلزم لصدق الرسول ﷺ، وثبوت القرآن أو أنه من القسم الذي أريد به التنبيه على الدلالة والعبرة بالمقسم به دون أن يراد مقسماً عليه بعينه، وهذا يتضمن الجواب المقسم عليه وإن لم يذكر لفظاً...»

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ «يوم» ظرف متعلق بمحذوف، أي: لتبعثن ونحو ذلك والراجفة: النفخة الأولى في الصور نفخة الصعق ليموت كل مخلوق إلا من شاء الله.

﴿تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ أي: تتبعها النفخة الثانية في الصور المرادفة لها لبعث الناس وقيامهم من قبورهم، وبينهما أربعون عاماً، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨]. وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات: ١٣، ١٤].

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام،

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ١٢٠.

فقال: «يا أيها الناس اذكروا الله، اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه»[1].

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ وهي قلوب الكفار والعصاة، ومعنى ﴿ واجفة ﴾ خائفة قلقة مضطربة منزعجة.

﴿أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ﴾ أي: أبصارها ذليلة حقيرة لما تشاهده من الأهوال، ولما تترقبه من العذاب والنكال، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَـٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥].

وأضاف الأبصار إلى القلوب لأن القلوب هي لب الأبدان عليها مدار الصلاح والفساد، وعليها مدار النعيم والعذاب وقيل أضيفت إليها للملابسة.

﴿يَقُولُونَ﴾ أي: يقول المشركون المنكرون للبعث والمعاد والحساب ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والاستبعاد والتعجب والاستغراب أي: أئنا لمعادون ومرجوعون أي: لا يمكن أن نرد.

﴿فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾ أي: في الحياة بعد الموت، أي: أئنا لمبعوثون بعد الموت.

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا﴾ الاستفهام كسابقه، أي: أئذا متنا وكنا عظاماً (نَّخِرَةً) قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر عن عاصم (ناخرة) بالألف، وقرأ الباقون (نخرة) بغير ألف والمعنى على القراءتين، أي: بالية متفتتة، نخرتها الرمال والرياح، فكيف نرد إلى الحياة بعد ذلك كقوله تعالى عنهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الإسراء: ٤٩، ٩٨]، وقوله: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المؤمنون: ٣٥ ـ ٣٧]، وقوله: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الصافات: ١٦].

وقال بعض المفسرين: المراد بالحافرة النار، وهذا لا ينافي القول الأول، لأنهم يردون إلى النار بعد إحيائهم وبعثهم.

﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ أي: قال المشركون المكذبون المنكرون للبعث تلك، أي: الرجعة للحياة بعد الموت إن كانت حقاً ﴿ إذاً ﴾ أي: حينها (كَرَّةٌ) أي:رجعة. ﴿خاسرة﴾ أي: سنخسر فيها غاية الخسران، وهم بهذه الشهادة على أنفسهم بالخسران

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤٥٧، وأحمد ١٣٦/٥ وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

يؤكدون تكذيبهم وإنكارهم للمعاد، وكأنهم يقولون تمادياً منهم بالإنكار والاستبعاد إنْ بُعِثْنا بعد الموت فنحن نقبل أن نخسر الصفقة ذلك اليوم.

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي: فإنما هي أمر من الله عز وجل مرة واحدة لإسرافيل لينفخ في الصور نفخة واحدة هي نفخة البعث كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ۝﴾ [القمر: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝﴾ [يس: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۝﴾ [الحاقة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝﴾ [يس: ٥١]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝﴾ [الإسراء: ٥٢].

﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ الساهرة وجه الأرض وظاهرها، أي: فإذا هم قيام في الحشر على ظهر الأرض بعد أن كانوا في باطنها، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ۝﴾ [الصافات: ١٩].

الفوائد والعبر:

١- إقسام الله عز وجل بالملائكة بأوصافهم وأعمالهم المذكورة ولله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته لأن إقسامه بها يدل على عظمته هو، لأنه يقسم بما خلق.

٢- إثبات البعث والمعاد لأن الله عز وجل أقسم عليه.

٣- فضل الملائكة وعظم منزلتهم عند الله عز وجل وعظم أعمالهم وما أعطاهم الله عز وجل من القوة والخفة والسرعة والقدرة على تدبير ما يأمرهم الله عز وجل به.

٤- إثبات النفختين، وتتابعهما وهما من أعظم أهوال القيامة النفخة الأولى ليموت من في السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات إلا من شاء الله، والنفخة الثانية لإحياء الخلق وبعثهم وقيامهم بين يدي الله عز وجل.

٥- انزعاج قلوب الكفار العصاة يوم القيامة، وشدة خوفهم وقلقهم واضطرابهم وذل أبصارهم وحقارتها.

٦- إنكار المشركين واستبعادهم للبعث والمعاد بعد الموت.

٧- اعتراف المشركين والمكذبين وإقرارهم بالصفقة الخاسرة يوم القيامة.

٨- أن بعث الخلائق وإعادتهم أمر يسير على الله عز وجل، فبأمره عز وجل مرة واحدة لإسرافيل لينفخ في الصور نفخة واحدة فإذا الخلائق قيام بين يديه عز وجل ينظرون.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

أقسم الله عز وجل في الآيات السابقة على إثبات القيامة رداً على المكذبين بالبعث المنكرين للمعاد وذكرْ ما ينتظرهم فيها من الأهوال والعقوبات الآجلة في ذلك اليوم.

ثم أتبع ذلك بذكر قصة موسى عليه السلام مع فرعون وتكذيبه له وعصيانه وسعيه ضد الحق، بل وادعائه الربوبية، وما حل به من العقوبة العاجلة والآجلة تسلية للنبي ﷺ وتخويفاً لقومه، وليتعظ بذلك من يخشى الله.

قوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يتأتى خطابه، أي: هل جاءك خبر موسى، أو هل سمعت بخبره.

وفي هذا الخطاب تشويق للمخاطب والسامع للتأمل في هذه القصة. وموسى هو موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام أفضل أنبياء بني إسرائيل وأحد أولي العزم من الرسل، أنزلت عليه التوراة أفضل الكتب المنزلة بعد القرآن الكريم، وقد ذكر الله عز وجل حديث موسى وقصته في القرآن الكريم أكثر من غيره وأشمل وأوسع لأنه نبي اليهود وهم كثيرون في المدينة وحولها. وهم من اشد الأمم تكذيباً وعناداً.

﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ﴾ أي: حين ناداه ربه عز وجل نداءً سمعه موسى عليه السلام، وكلمه سبحانه تكليماً بلا واسطة، قال تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ [مريم: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: ١٦٤].

﴿بِالْوَادِ﴾ الوادي: مجرى السيل بين الجبال والتلال والآكام.

﴿الْمُقَدَّسِ﴾ المطهر المعظم.

﴿طُوًى﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم هنا وفي سورة طه (طوىً) بالتنوين، وقرأ الباقون بغير تنوين في الموضعين، وهو اسم للوادي الذي نادى الله فيه نبيه موسى عليه السلام وأوحى إليه فيه.

﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ ارسله إلى فرعون بقوله ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ أي: امض إلى فرعون، وهو ملك مصر آنذاك، ثم صار فرعون علماً على كل من ملك مصر كافراً.

﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أي: إنه تجاوز الحد في الكفر والتجبر والتكبر والتمرد والعتو حتى وصل به الأمر إلى أن ادعى الربوبية والألوهية، فقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٤﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨].

﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾قرأ نافع وابو جعفر وابن كثير ويعقوب بتشديد الزاي: (تَزَّكى)، وقرأ الباقون بتخفيفها: (تَزكى).

﴿فَقُلۡ﴾أي: فقل له ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ استفهام للتشويق وتعبير لطيف لاستمالته إلى الحق، وليس هناك الطف من هذا والين منه، فلم يقل له: لم لا تزكى؟ ولم يامره بذلك، فيقول: تزك بل تلطف معه في التعبير والان له في القول كما قال تعالى لموسى وهارون ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ۝٤٤﴾ [طه: ٤٤].

ومعنى قوله: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: هل لك إلى آن تتطهر من الشرك والكفر بالتوحيد والإيمان.

﴿وَأَهۡدِيَكَ﴾ أي: أدلك وارشدك ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ خالقك ومالكك ومدبرك والمنعم عليك بسائر النعم فتقر له بالربوبية والألوهية وحده.

﴿فَتَخۡشَىٰ﴾ أي: فتخاف الله عز وجل وعقابه العاجل والآجل.

فاخرج الكلام مخرج العرض ولم يخرجه مخرج الأمر تلطفاً في الخطاب وتليناً له، وعرض عليه أمراً يقبله كل عاقل، ولا يرده إلا كل أحمق وهو التزكي الذي معناه النماء والطهارة والبركة والزيادة، وأسند التزكي وأضافه إلى المخاطب بينما أضاف الهداية والدلالة إلى نفسه فكأنه يقول: أنا أدلك وأسير بين يديك، وأنت تزكي نفسك وتخشى ربك الذي خلقك ورباك بنعمه العظيمة وفي هذا استعطاف له وتذكير له بنعم الله عليه[1].

وينبغي للدعاة إلى الله ـ عز وجل ـ والمربين والمصلحين والوالدين في تربية أولادهم وغيرهم استلهام الدروس من هذه التوجيهات الإلهية العظيمة لتتحقق بإذن الله ـ عز وجل ـ الفائدة المرجوة.

﴿فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ أي: فارى موسى عليه السلام فرعون واظهر له العلامة الكبرى، والحجة العظمى، والدليل الواضح على صدق ما جاء به من عند الله عز وجل، ومن ذلك أن يلقي عصاه في الأرض فتنقلب حية تسعى، ثم ياخذها فتعود إلى حالتها

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ١٢١، ١٢٣.

الأولى، ويدخل يده في جيبه فتخرج بيضاء آية من آيات الله من غير عيب من برص أو غيره، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾ [طه: ١٧ ـ ٢٣].

وقد يراد بالآية الكبرى جنس الآيات التي جاء بها موسى كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾ [طه: ٥٦].

وإنما كانت هتان الآيتان من أعظم الآيات التي أرسل الله بها موسى عليه السلام وهما العصا واليد، لأن السحر كان منتشراً شائعاً آنذاك فأعطاه الله عز وجل آيات يبطل بها كيد السحرة الذين تصدوا لموسى عليه السلام ودعوته.

﴿فَكَذَّبَ﴾ أي: كذب وجحد وكفر بقلبه بما جاء به موسى وقال ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٧].

﴿وَعَصَىٰ﴾ أي: أبى أن ينقاد بجوارحه، فكذب الخبر، وعصى الأمر، وخالف أمر الله وارتكب نهيه، كما قال تعالى عنه: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾ [طه: ٥٦]. وهو مع هذا يعلم أن ما جاء به موسى عليه السلام هو من عند الله كما قال موسى عليه السلام فيما ذكر الله عنه: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ أي: ثم لم يكتف بالتكذيب والعصيان، بل أدبر وتولى يسعى لرد الحق ومضادته بالباطل فرمى موسى بالسحر وقال: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [طه: ٥٧، ٥٨]، وقال: ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾ [الإسراء: ١٠١].

وجمع السحرة لإبطال الحق، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ [يونس: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾ [طه: ٦٠].

﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾ أي: فجمع قومه، فنادى بهم بصوت مرتفع ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ ادعى أنه الرب الذي هو الأعلى، الذي لا أحد فوقه، لأن «الأعلى» اسم تفضيل من العلو أي: الذي لا أحد أعلى منه.

كما ادعى الألوهية فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص: ٣٨]، وقال أيضاً: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧].

وبهذا صار فرعون وأتباعه كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ [القصص: ٤١].

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي: فعاقبه الله تعالى عقوبة الآخرة في النار وعقوبة الدنيا في الغرق ونكل به فصار نكالاً لغيره كما قال تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [المزمل: ١٦]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الذاريات: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الإشارة لأخذه عز وجل لفرعون وتنكيله به بعقوبة الدنيا والآخرة ﴿لَعِبْرَةً﴾ أي: لعظة وزجراً ﴿لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ أي: لمن يخاف الله عز وجل فيتعظ وينزجر بها بخلاف من لا يخشى الله فلا تؤثر فيه المواعظ والزواجر.

الفوائد والعبر:

١- تسلية النبي ﷺ بذكر حديث موسى عليه السلام حين أرسله الله عز وجل إلى فرعون وما جرى بينهما وتكذيبه، وأخذه عز وجل وعقوبته له، وفي ذلك تهديد وتخويف وتحذير للمكذبين من قومه ﷺ.

٢- إثبات الكلام لله عز وجل على ما يليق بجلاله وأنه عز وجل نادى موسى عليه السلام وكلمه تكليما. وشرفه بذلك، وبربوبيته الخاصة له.

٣- شرف بعض الأمكنة على بعض بتشريف الله لها بجعلها أماكن لرسالاته ونزول وحيه وعبادته، ولهذا شرّف الله عز وجل وادي «طوى» وطهّره، لأنه عزّ وجَل نادى فيه نبيه موسى عليه السلام وأرسله.

٤- تجاوز فرعون وتماديه بالكفر والطغيان.

٥- أمر الله عز وجل موسى عليه السلام بالتلطف مع فرعون وتليين القول له لاستمالته للحق لعله يتطهر ويخشى الله.

٦- يجب على الدعاة إلى الله عز وجل التلطف مع من يدعون لأن الله أمر بهذا موسى في دعوته لفرعون الذي بلغ الغاية في الطغيان فغيره من باب أولى وأحرى، وكما قال تعالى

لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[طه: ٤٤].

٧- إثبات هداية الدلالة والإرشاد وأن الرسل عليهم الصلاة والسلام هداة إلى الله أي: مرشدون إليه وإلى طريقه المستقيم، وكذا من سلك طريقهم في الدعوة إلى الله عز وجل.

٨- أن الرسل عليهم السلام جاؤوا بالدعوة إلى التزكي والتطهر من الذنوب والمعاصي، وإلى خشية الله عز وجل.

٩- إثبات ربوبية الله - عز وجل - العامة لجميع الخلق.

١٠- إقامة موسى عليه السلام الحجة الواضحة والبرهان القاطع على صدق ما جاء به وأنه رسول من عند الله بما أظهره لفرعون من الآيات الكبرى الدالة على ذلك من انقلاب العصا حية واليد وغير ذلك.

١١- تمادي فرعون بالكفر والطغيان وتكذيبه لموسى عليه السلام وعصيانه له وإدباره وسعيه في الصد عن الحق ومكابرته، وادعائه الربوبية.

١٢- أخذ الله عز وجل لفرعون وعقوبته له في الدنيا بالغرق وفي الآخرة بالنار والحرق.

١٣- ينبغي أخذ العظة والعبرة مما أحل الله بفرعون من العقوبة والحذر من أخذ الله عز وجل وعقابه.

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

بعد ما ذكر الله عز وجل خبر موسى عليه السلام حين أرسله إلى فرعون وتكذيبه له وعصيانه، وسعيه لمضادة الحق بالباطل وادعاءه الربوبية، وأخذ الله عز وجل له بالعقوبة العاجلة والآجلة وفي ذلك تخويف للمكذبين بالبعث أتبع ذلك بالاستدلال على قدرته عز وجل على بعث الناس بخلق السماء والأرض والجبال والليل والنهار، والامتنان عليهم بذلك.

قوله ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع، والخطاب لعامة الناس ويدخل فيه المشركون المنكرون للبعث دخولاً أولياً، والمعنى: ءأنتم أيها الناس أشد وأعظم خلقاً.

﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ «أم» عاطفة، والسماء معطوف على الضمير «أنتم» أي: أم السماء أشد خلقاً في كيفية خلقها وعظمتها وسعتها، وفي هذا تقرير أمر البعث والمعاد، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٧١].

﴿بَنَىٰهَا﴾ فسره بقوله ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ أي: رفع سقفها وجرمها وبناءها، وجعلها سقف المخلوقات كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ﴾ [الرعد: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾ [النبأ: ١٢]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة: ٢٢].

﴿ فسواها ﴾ أي: فجعلها مستوية البناء، محبوكة الخلق، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ﴾ [البقرة: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾﴾ [الذاريات: ٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ﴾ [الملك: ٣].

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أي: واظلم ليلها وجعله أسود حالكاً.

﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ أي: وأظهر نهارها وأناره وجعله مشرقاً مضيئاً، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن

رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢].

فمن أعظم نعم الله عز وجل أن جعل الليل مظلماً ليسكن الناس فيه ويناموا ويستريحوا بعد عناء النهار، ومن رحمته أن جعل النهار مشرقاً منيراً ليتصرف فيه الناس لطلب معاشهم قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧٣].

ولهذا فإن من أعظم أسباب ضياع الأعمار والأعمال والنقص والخلل في أمور الدين والدنيا مخالفة فطرة الله، وسهر الليل أو جعله وقتا للعمل، وجعل النهار وقتا للنوم.

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ الإشارة بقوله ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ ترجع إلى خلق السماء وبنائها وتسويتها فذلك واقع قبل دحو الأرض فخلق عز وجل الأرض ثم خلق السماء ثم دحا الأرض، كما قال تعالى: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت: ٩ ـ ١٢].

وبهذا جمع ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من السلف بين الآيات في هذا [١].

وقوله ﴿ دحاها ﴾ فسره بقوله ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ اي: أخرج منها الماء والمرعى وارساها بالجبال وأودع فيها ما أودع من الخيرات من المعادن وغير ذلك وبسطها.

ومعنى قوله: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ اي: ثبتها في أماكنها، وارسى الأرض بها لئلا تميد بأهلها كما قال عز وجل ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان: ١٠]. وقد قال بعض أهل العلم: إن ثلثي هذه الجبال في عمق وباطن الأرض وثلثها فقط على ظاهر الأرض.

﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ متاعاً: مفعول لأجله، والمتاع ما يتمتع به في الحياة وفي السفر، ثم ينتهي، والحياة كلها سفر.

أي: دحا الأرض وأخرج منها ماءها ومرعاها وأرساها بالجبال لأجل أن تتمتعوا بما

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٧/ ١٥٤ – ١٥٥.

أخرج منها من الماء والمرعى، وتستقروا وتعيشوا على ظهرها أنتم وأنعامكم.

الفوائد والعبر:

١- الاستدلال على قدرة الله عز وجل على بعث الناس بعد موتهم بخلق السماء والأرض والجبال والليل والنهار وإخراج الماء والنبات.

٢- أن خلق السماء بعد خلق الأرض ودحو الأرض بعد خلق السماء، أي: أن الله عز وجل خلق الأرض ثم خلق السماء، ثم دحا الأرض.

٣- الامتنان على العباد ببناء السماء فوقهم، وإظلام ليلها وإظهار نهارها وبما أودع لهم في الأرض من الخيرات وما أخرجه لهم منها من الماء والمرعى وبإرسائها بالجبال ليعيشوا على ظهرها، ويتمتعوا بخيراتها هم وأنعامهم.

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ (٣٥) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (٣٦) فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٤١) يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا (٤٥) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦)﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

أقسم الله عز وجل في مطلع هذه السورة على أن القيامة حق، ثم ختمها بذكر بعض اهوالها وأحوال الناس فيها، وأن منتهى علمها إلى الله عز وجل.

قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ﴾ الفاء استئنافية و«إذا» ظرفية شرطية و«الطامة الكبرى» هي القيامة، سميت بذلك لأنها تَطُمُّ وتزيد على كل أمر هائل مفظع، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦].

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ﴾ أي: يوم مجيئها ﴿يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ﴾ «ما» مصدرية، أو موصولة، أي: يتذكر الإنسان سعيه، أو الذي سعاه، أي: عمله وما قدمه من خير أو شر، عندما يقرأ كتابه، ويقال له ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

فيا لها من ذكرى ليست كالذكريات، ذكرى يشيب لهولها الوليد قال تعالى: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤)﴾ [الفجر: ٢٣، ٢٤]، فما أعظم الحسرات آنذاك.

﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ﴾ أي: وأظهرت الجحيم، وهي النار، سميت بذلك لعظمها وشدة توقدها وحرها وبعد قعرها، وظلمتها.

﴿لِمَن يَرَىٰ﴾ لكل من يشاهد وينظر، فرآها الناس عياناً، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٧]، وقد قال ﷺ: «ليس الخبر كالمعاينة»[1].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالنار تقاد بسبعين ألف زمام بكل زمام سبعون ألف ملك»[2].

فيا ترى ما حال الناس في ذلك الموقف، اللهم ارحمنا برحمتك الواسعة. والله لو شب

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢١٥ – من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٤٢.

حريق كبير في جانب من البلد لصعق كثير من الناس، وأصيب كثير منهم بالحيرة والذهول والدهشة وهرع الكثير منهم فارين هاربين لا يلوون على أحد، ولو كان أقرب الناس إليهم وأعزهم لديهم، ولربما دهس بعضهم بعضاً من شدة الهروب والتدافع.

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ «أما» في الموضعين أداة تفصيل، و«من» في الموضعين موصولة أي: فاما الذي طغى.

ومعنى ﴿طغى﴾ تجاوز حدود الله في التكذيب والكفر والتمرد والعتو والعناد.

﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: قدّم الحياة الدنيا الفانية على أمر دينه وما خلق له وعلى الآخرة الباقية كما قال تعالى ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]، وقال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١، ٢].

فإيثار الحياة الدنيا والانشغال بها سبب للطغيان، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧]، ولهذا قال ﷺ: «والله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم»[(١)].

﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ أي: فإن الجحيم وهي النار ﴿هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ الذي يأوي ويرجع إليه وينتهي ويصير إليه، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٥]، ولهذا جاء في الدعاء: «ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا»[(٢)].

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي: وأما الذي ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي: خاف قيامه غداً بين يدي ربه عز وجل فاستعد لذلك المقام، كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٥١].

وخاف من نظر الله ـ عز وجل ـ إليه واطلاعه عليه فراقبه وخشيه واتقاه كما قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، وهو على هذا من إضافة المصدر إلى الفاعل، قال الشاعر:

---

(١) أخرجه البخاري في الجزية ٣١٥٨، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦١، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٦٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٩٧ من حديث عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٠٢ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وقال الترمذي «حسن غريب».

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل   خلوت ولكن قل عليّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة   ولا أن ما يُخفى لديه يغيب[1]

وكان الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ كثيراً ما يتمثل بهذين البيتين.

وقال الآخر:

وإذا خلوت بريبة في ظلمة   والنفس داعية إلى العصيان
فاستَحْيِ من نظر الإله وقل لها   إن الذي خلق الظلام يراني

﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ﴾ أي: ونهى النفس الأمارة بالسوء ﴿عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي: عن اتباع هواها وما تشتهيه من الشهوات المحرمات والشبهات، والجمها بلجام التقوى، فإن الهوى مُرْدٍ، ومُهْلِك، والنفس غالباً أمارة بالسوء كما ذكر الله عز وجل عن امرأة العزيز أنها قالت: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ﴾ [يوسف: ٥٣].

﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي: فإن الجنة دار المتقين هي مأواه ومصيره ومنقلبه ومستقره كما قال تعالى: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: يسالك الناس ﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: عن القيامة.

وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ بالمضارع، ولم يقل: سالوك، وذلك لكثرة هذا السؤال وتكرره منهم في الماضي والحاضر واستمرار وروده منهم، وذلك لعظمتها وشدة أهوالها، ولهذا جاء ذكر السؤال عنها في هذه السورة وسورة الأعراف وهما مكيتان، وفي سورة الأحزاب وهي مدنية، قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ﴾ [الآية: ١٨٧]، وقال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ﴾ [الآية: ٦٣].

وسميت القيامة ـ والله أعلم – بالساعة – لتحقق وقوعها وقربه، وتحديده في علم الله ـ عز وجل ـ كما سميت بالواقعة والحاقة وغير ذلك.

﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ أي: متى وقوعها ومجيئها، منهم من يسأل عنها سؤال استعجال واستبعاد وإنكار لها، وهم المشركون المنكرون للبعث كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ

---

(١) هذان البيتان لصالح بن عبد القدوس انظر «ديوانه» ص١٣٣.

ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨]، وهؤلاء أكثر الخلق.

ومنهم من يسأل عنها ليستعد لها بالعمل الصالح، كالذي قال لرسول الله ﷺ متى الساعة؟، قال له: «ماذا أعددت لها؟»، قال: ما أعددت لها من كثير صوم ولا صلاة، ولكني أحب الله ورسوله، فقال ﷺ: «المرء مع من أحب»[1].

﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ أي: ليس عندك علمها، ولا فائدة لك بمعرفة ذلك.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ أي: إلى ربك وحده منتهى علمها؛ متى وقوعها، وكيف وقوعها، لا إلى غيره، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [فصلت: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الزخرف: ٨٥].

ولهذا لما سأل جبريل النبي ﷺ عن الساعة قال ﷺ: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»[2].

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ﴾ قرأ أبو جعفر بتنوين «منذر» وقرأ الباقون بغير تنوين، و«إنما» أداة حصر، والحصر هنا إضافي، لأن الرسول ﷺ منذر ومبشر، ومأمور مكلف كغيره.

والمعنى: إنما أنت في موضوع الساعة مجرد منذر من يخشاها ليس لديك علم وقوعها، وكيف وقوعها ولا فائدة لك ولا للأمة ولا مصلحة لكم بمعرفة ذلك، بل المصلحة في إخفائها عن الخلق.

ومعنى (منذر) أي: مخوف ومحذر.

﴿مَن يَخْشَىٰهَا﴾ أي: الذي يخشاها ويخافها، لما فيها من الأهوال والعذاب والنكال، وهو ﷺ منذر لجميع الناس من يخشى الساعة ومن لا يخشاها، وإنما حصر إنذاره ﷺ فيمن يخشاها، لأن الذي يخشاها هو المنتفع بالإنذار المستفيد منه دون من لا يخشاها، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٦١٦٨، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٤١ - من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٠، ومسلم في الإيمان ٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٩١، وابن ماجه في المقدمة ٦٤، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأيضاً فهو ﷺ منذر ومبشر لقوله ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وهو مكلف بالعبادة كغيره كما سبق.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾ أي: يوم يرون القيامة وأهوالها وشدائدها.

﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾ في الحياة الدنيا.

﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ العشية آخر النهار من الظهر إلى غروب الشمس والضحى أول النهار من طلوع الشمس إلى منتصف النهار، وقد تحمل العشية على الليل كله، والضحى على النهار كله، كما قال تعالى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩﴾ [النازعات: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ [الضحى: ١، ٢].

فما أقصر الدنيا بالنسبة للآخرة، وما أقصر ما مضى بالنسبة لما بقي، وما أقصر عمر الإنسان فيها، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥].

ولو سألت معمراً في سن التسعين أو المائة أو ما فوق ذلك عما مضى من عمره لقال لك كأني لم أعش إلا هذه اللحظة.

والإنسان بين ثلاثة أيام: يوم مضى بما فيه، ويوم مستقبل بما فيه لا يدري الإنسان أيدركه أو لا يدركه، ويوم حاضر ينبغي أن يستغله الإنسان بما ينفعه في دينه ودنياه.

الفوائد والعبر:

١- شدة أهوال يوم القيامة وفظاعتها، وأنها أطم وأشد وأدهى من أي شدة.
٢- تذكر الإنسان يوم القيامة ما قدمه من عمل خيراً كان أو شراً.
٣- إظهار الجحيم وإبرازها ليراها الخلائق يوم القيامة.
٤- أن مأوى الناس ومآلهم يوم القيامة حسب أعمالهم فمن طغى وآثر الحياة الدنيا فمأواه الجحيم، ومن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فمأواه جنات النعيم.
٥- التحذير من الطغيان وتجاوز الحد وإيثار الدنيا على الآخرة، والترغيب في مراقبة الله عز وجل وخوف الوقوف بين يديه.
٦- كثرة سؤال الناس للنبي ﷺ عن الساعة متى قيامها تكذيباً بها وإنكاراً لها من أكثر الناس، واستعداداً لها من بعضهم.
٧- تفرده عز وجل بعلم الساعة متى وقوعها وكيف يكون.
٨- أن النبي ﷺ لا يعلم متى الساعة، وإنما هو منذر ومحذر منها.
٩- قصر عمر الدنيا بالنسبة للآخرة وقصر عمر الإنسان فيها.

تفسير سورة عبس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۝١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ۝١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ۝١٦﴾.

سبب النزول:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه «في قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ قال: جاء ابن أم مكتوم إلى النبي ﷺ وهو يكلم أبيّ بن خلف، فأعرض عنه، فأنزل الله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢﴾ فكان النبي ﷺ بعد ذلك يكرمه»[(١)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «أنزلت ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى أتى إلى رسول الله ﷺ فجعل يقول: أرشدني، قالت: وعند رسول الله ﷺ من عظماء المشركين، قالت: فجعل النبي ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر، ويقول: أترى فيما أقول بأساً؟، فيقول: لا، ففي هذا أنزلت ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾»[(٢)].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «أنزل الله قوله ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢﴾ في ابن أم مكتوم»[(٣)].

قوله: ﴿ عبس ﴾ أي: قطب جبينه، وما بين عينيه.

﴿ وتولى ﴾ أعرض، والمراد بهذا النبي ﷺ وجاء الكلام بضمير الغيبة في قوله ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ تلطفاً معه ﷺ في العتاب.

﴿أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ هو عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه وهو رجل أعمى جاء إلى النبي ﷺ يستقرئه ويطلب منه أن يعلمه مما علمه الله، وكان ﷺ منشغلاً في دعوة من يطمع في إسلامهم من أشراف وعظماء قريش ليُسْلم بإسلامهم خلق كثير فعبس وجهه

---

(١) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/٣٤٣.

(٢) أخرجه الترمذي في «تفسير سورة «عبس» ٣٣٣١، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/١٠٢ وقال الترمذي «حديث حسن غريب».

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/٣٣٩٩.

ﷺ وأعرض عنه طمعاً في إسلام أولئك فعاتبه الله عز وجل على ذلك.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾ الواو: عاطفة، و«ما» اسم استفهام، والخطاب للنبي ﷺ و«يزكى» أصلها «يتزكى» فادغمت التاء بالزاي للتخفيف. أي: وما يعلمك يا محمد لعل هذا الرجل الأعمى يتطهر وتزكو نفسه.

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ قرأ عاصم (فتنفعه) بنصب العين، وقرأ الباقون برفعها، أي: أو لعله يتعظ فتنفعه الموعظة.

﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ﴾ «أما» حرف شرط وتفصيل، و«من» موصولة أي: وأما الذي استغنى بماله وقوته وجاهه، فأعرض عن الموعظة، ورأى أنه في غنى عنها كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝﴾ [الليل: ٨ ـ ١٠].

﴿فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير بتشديد الصاد، وقرأ الباقون بتخفيفها.

أي: فأنت تتعرض له وتقبل عليه، وتطلب إقباله طمعاً في هدايته وإسلامه.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ أي: وما عليك الا يتطهر هذا المستغني أي: لست ملزماً بهدايته كما قال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨].

﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ﴾ أي: وأما الذي جاءك مقبلاً ﴿يسعى﴾ في طلب التطهر والموعظة.

﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ أي: وهو يخاف الله عز وجل بقلبه.

﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ أي: تتشاغل عنه بغيره.

وفي هذا وما قبله إشارة إلى حرص هذا الرجل الأعمى على التزكي والتذكر وأنه أرجى بالتزكي والتذكر من أولئك الأشراف الذين يرون أنهم في غنى عن ذلك، ولقد كان لهذا الرجل الأعمى شأن عظيم في الإسلام، فهو الذي أنزل الله فيه الاستثناء في قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٥]، لما جاء يشتكي إلى رسول الله ﷺ ضرارته وانه لا يستطيع الجهاد[1] وهو مؤذن رسول الله ﷺ وروى عنه عدة من الأحاديث رضي الله عنه.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٣٢، والنسائي في الجهاد ٣٠٩٩، والترمذي في التفسير ٣٠٣٣، وأحمد ٥/ ١٨٤، ١٩١ ـ من حديث زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ وأخرجه البخاري أيضا ٢٨٣١، ومسلم في الإمارة ١٨٩٨ وغيرهما من حديث البراء بن عازب ـ رضي الله عنه.

وفي هذه الآيات ما يبين بجلاء قيام هذا الدين الإسلامي على العدل في جميع أحكامه، ومن ذلك المساواة في الدعوة إلى الله بين سائر طبقات الناس، الغني والفقير، والشريف والوضيع، والسادة والعبيد، والرجال والنساء، والكبار والصغار. فلا يجوز تحت أي مبرر كان ترك المساواة في هذا، فمع أنه ﷺ انما تشاغل عن هذا الأعمى بمن يرى ان في إسلامه أثراً في إسلام غيره لمكانته في قومه، وايضاً فإن هذا الأعمى قد آمن وإنما يريد زيادة الاسترشاد، لكن الله عز وجل عاتبه على ما حصل منه تأكيداً لوجوب المساواة بين الناس في دعوتهم إلى الله عز وجل.

ولقد حاول المكذبون وأعداء الرسل التمييز بين طبقات الناس في الدعوة إلى الله فقال قوم نوح عليه السلام له: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود: ٢٧]، وقالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، فقال لهم نوح عليه السلام ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ۝ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٩، ٣٠].

وهكذا قال المشركون للنبي محمد ﷺ اطرد هؤلاء المستضعفين ونتبعك فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢].

وفي الآية دليل على القاعدة المشهورة أنه «لا يترك أمر معلوم لأمر موهوم، ولا مصلحة متحققة لمصلحة متوهمة».

وفي هذا أعظم الدلالة على أن القرآن الكريم كلام الله عز وجل والرد على من يزعمون أن الرسول ﷺ افتراه من عند نفسه إذ كيف يعاتب المرء نفسه.

وفيه أن الرسول ﷺ ليس بمعصوم لا هو ولا غيره من الرسل من الوقوع في الصغائر[1] لكنهم لا يُقَرُّون عليها، ولا يؤخرون التوبة بل سرعان ما يحدثون توبة منها بتوفيق الله لهم، وهم بعد التوبة أكمل منهم قبلها.

﴿كَلَّآ﴾ حقاً ﴿إِنَّهَا﴾ اي هذه الموعظة، او هذه السورة، او آيات القرآن الكريم ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ اي: موعظة يتعظ بها ويعتبر من وفقه الله كما قال تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝﴾ [طه: ٢، ٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝﴾ [الحاقة: ٤٨].

---

(١) انظر «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» ٤/ ٣١٩.

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي: فمن شاء ذكر الله عز وجل، وذكر مواعظ القرآن بقلبه ولسانه، وجوارحه الظاهرة والباطنة فاتعظ بذلك، كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾﴾ [المدثر: ٥٤، ٥٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾ [المزمل: ١٩، الإنسان: ٢٩].

﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ أي: آيات القرآن الكريم ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ وصحف وصحائف: جمع صحيفة. ومعنى ﴿ مكرمة ﴾ أي: معظمة عند الله عز وجل.

﴿مَّرْفُوعَةٍ ﴾ عالية القدر والمنزلة عند الله عز وجل.

﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾ من الدنس والزيادة والنقص والتحريف والتبديل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢].

﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ وهم الملائكة، وسفرة: جمع سفير يقال في جمعه: سفرة، وسفراء. وسمي الملائكة سفرة لأنهم كتبة يكتبون الوحي والأعمال ونحو ذلك.

والسِّفر بالكسر الكتاب، والجمع أسفار، ومن هذا قوله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾ [الجمعة: ٥]، أي: كتباً في العلم لا ينتفع بها.

وسمي الملائكة سفرة أيضاً من السفارة وهي الوساطة، لأنهم وسطاء بين الله وبين رسله وخلقه، فجبريل عليه السلام هو السفير والواسطة بين الله عز وجل وبين رسله في تبليغ وحيه عز وجل إليهم، والكتبة الذين يكتبون أعمال بني آدم سفراء بين الله وبين خلقه في ذلك، وكذلك الحفظة للإنسان والموكلون بتدبير أوامر الله في خلقه وغيرهم كل هؤلاء سفراء بين الله وبين خلقه، والسفير هو الواسطة بين الناس وفي حديث أبي رافع رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ تزوج ميمونة وكنت السفير بينهما»[1].

قال الشاعر:

وما أدع السفارة بين قومي ... وما أمشي بغش إن مشيت

﴿كِرَامٍۭ﴾ في أخلاقهم أي: ذوي أخلاق كريمة، وصفات شريفة، خَلْقاً، وخُلُقاً مكرمين

---

(١) أخرجه مسلم في النكاح - تحريم نكاح المحرم ١٤١١.

عند الله عز وجل، ومكرمين عند خلقه كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝٢٤﴾ [الذاريات: ٢٤]، أي: حديث ضيوفه المكرمين من الملائكة.

﴿بَرَرَةٍ﴾ في قلوبهم وأعمالهم، أي: بارين مطيعين لله عز وجل كما قال سبحانه وتعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم: ٦].

وهكذا ينبغي لحامل القرآن وقارئه أن يتدبره فيتخلق بأخلاقه، ويتأدب بآدابه ويمتثل أوامره ويجتنب نواهيه.

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرؤه وهو عليه شاق له أجران»[1].

الفوائد والعبر:

١- معاتبة الله عز وجل لنبيه ﷺ في عبوسه وإعراضه عن هذا الرجل الأعمى وإقباله على غيره.

٢- أنه ﷺ ليس معصوماً من الوقوع في الصغائر وغيره من الرسل من باب أولى لكنهم لا يُقرُّون عليها وسرعان ما يتوبون منها بتوفيق الله لهم.

٣- إثبات صدق رسالته ﷺ وما جاء به من عند الله تعالى.

٤- وجوب التسوية في الدعوة إلى الله بين سائر طبقات الناس، والعناية بدعوة وتعليم من جاء مقبلاً يريد التذكر والتطهر، وعدم الانشغال عنه بدعوة المعرضين.

٥- هداية القلوب وتزكيتها بيد الله عز وجل فقد يتزكّى ويتذكر ويهتدي من لا يظن به ذلك، وقد لا يتزكى، ولا يتذكر، ولا يهتدي من طمع في هدايته.

٦- ثناء الله - عز وجل - على الأعمى عبد الله بن أم مكتوم - رضي الله عنه - حيث جاء مقبلاً على الله طالباً الهداية والتذكرة يرجو ثواب الله ويخشى عقابه، وذم المعرض عن ذلك المستغني عن التذكرة وعن ربه.

٧- بلوغ القرآن الغاية في التذكير إقامة للحجة على الخلق لقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ [النساء: ٥٨].

٨- إثبات المشيئة للإنسان لقوله ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾، وفي هذا رد على الجبرية.

٩- عظم منزلة القرآن الكريم وعلو مكانته ورفعته عند الله عز وجل وحفظه من الزيادة والنقصان والتحريف والتبديل والتغيير.

١٠- فضل الملائكة وكرامتهم عند الله عز وجل وطاعتهم له.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة عبس ٤٩٣٧، ومسلم في الصلاة - فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع به ٧٩٨، وأبو داود في الوتر - ثواب قراءة القرآن ١٤٥٤، والترمذي في فضائل القرآن - فضل قارئ القرآن ٢٩٠٤، وابن ماجه في الأدب - ثواب القرآن ٣٧٧٩، وأحمد ٦/ ٤٨، ٩٤.

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

بعد ما بين عز وجل أن آيات القرآن الكريم تذكرة وعظة لمن يتعظ أتبع ذلك بلعن الإنسان الذي كفر بذلك وأنكر البعث، وطرده عن رحمة الله وإهلاكه، وتوبيخه وتذكيره بأصل خلقه وضعفه وحقارته ومراحل حياته، وقدرته عز وجل التامة على ذلك للاستدلال بذلك على قدرته التامة على بعثه بعد الموت كما قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾ [الكهف: ٣٧].

قوله ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: لعن وطرد عن رحمة الله، وأهلك الإنسان الكافر المكذب بالبعث، المنكر له.

﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ «ما» استفهامية، أي: ما الذي حمله على الكفر، وقد تكون «ما» للتعجب، أي: ما أعظم كفره وما أشده، كذّب الرسول ﷺ والقرآن الكريم، وأنكر البعث والمعاد والحساب والجزاء مع قيام الحجة ووضوح الأدلة والبراهين على ذلك.

﴿مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ الاستفهام للتقرير، وكلمة «شيء» نكرة في سياق الاستفهام تفيد التحقير والتقليل أي: من شيء حقير مهين ضعيف خلقه وأوجده.

﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾ النطفة الماء القليل، أي: من ماء قليل، وهو مني الرجل والمرأة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة: ٣٧ ـ ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [غافر: ٦٧].

﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ أي: قدر خلقه أطواراً: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة وقدّر أجله ورزقه

وعمله وشقي أو سعيد كما في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق، قال: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم علقة مثل ذلك، ثم مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فيكتب رزقه وأجله وشقي أو سعيد»[1].

وقدَّره أيضاً بأن سوى خلقه وأتمَّه وأكمله كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾ [القيامة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى: ٢، ٣].

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ ثم الطريق للخروج من بطن أمه يسره وسهله، وكذا الطريق لمعرفة الخير والشر يسره وبينه كما قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ١٠]، أي: بينا له طريق الخير والشر.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ﴾ أي: ثم بعد أن أحياه عز وجل ما شاء من العمر أماته بقبض روحه وإخراجها من البدن.

﴿فَأَقْبَرَهُۥ﴾ جعله ذا قبر، أي: جعل له قبراً يواري جسده ستراً وإكراماً له وتشريفاً واحتراماً.

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ أي: ثم متى شاء عز وجل بعثه وأحياه بعد موته للحساب والجزاء كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: ٤٠].

وفي حديث حذيفة رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال: «اللهم بك أحيا وأموت وإذا أصبح قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يُركَّب»[3].

فاستدل عز وجل بقدرته على خلق الإنسان من نطفة على قدرته على بعثه من باب أولى وأحرى كما قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٠٨، ومسلم في القدر ٢٦٤٣، وأبو داود في السنة ٤٧٠٨، والترمذي في القدر ٢١٣٧، وابن ماجه في المقدمة ٧٦.

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٣٩٤، وأبو داود في الأدب ٥٠٤٩، والترمذي في الدعوات٣٤١٧، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٨٠.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة الزمر ٤٨١٤، ومسلم في الفتن ـ ما بين النفختين ٢٩٥٥ وأبو داود في السنة ٤٧٤٣، والنسائي في الجنائز ٢٠٧٧، وابن ماجه في الزهد ٤٢٦٦، وأحمد ٢/ ٣١٥.

ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [الحج: ٥].

﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ «كلا» للردع والزجر، أي: كلا لما يقض الإنسان ﴿مَا أَمَرَهُ﴾ أي: لم يؤد الذي أمره الله عز وجل به من الفرائض والواجبات.

او ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ﴾ الله ﴿مَا أَمَرَهُ﴾ اي: ما امر به كوناً وقدراً، اي: انه لم يات ولم يحن وقت أمره بنشر الخلائق وبعثهم وحسابهم، بل له موعد منتظر.

قوله: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

استدل عز وجل بالآيات السابقة على قدرته التامة على البعث بخلق الإنسان من النطفة، ثم استدل على ذلك بإحياء الأرض بعد موتها في هذه الآيات وفي هذا وذاك امتنان على الإنسان، وتذكير له بنعم الله عز وجل عليه.

قوله: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾ اي: فلينظر الإنسان إلى طعامه ويتأمل فيه، من أين هو، وما هي أسبابه ومراحله، وليعلم أن من وراء ذلك خالقاً عظيماً ومدبراً حكيماً، وأن لذلك أسباباً ومراحل قدرها وأوجدها العليم الخبير كما قال تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الروم: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة: ٦٥، ٦٦].

﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ قرأ الكوفيون بفتح الهمزة، وقرأ الباقون بكسرها، اي: أنا أنزلنا الماء من السماء والسحاب على الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾ [الفرقان: ٤٨].

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ اي: ثم شققنا الأرض للنبات ﴿ شقا ﴾ كثيراً فنبت ونما وظهر على وجه الأرض.

﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ اي: فانبتنا في الأرض أنواع الحبوب كالبر والأرز والذرة والشعير وغير ذلك.

﴿وَعِنَبًا﴾ ياكلونه طرياً وجافاً، وهو من افضل وانفع الفواكه، ولهذا خصه بالذكر من

بين الفواكه.

كما امتن الله عز وجل به على أهل الجنة فقال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ۝﴾ [النبأ: ٣١ ـ ٣٢]، مع الفرق الشاسع والبون الواسع بين عنب الجنة وعنب الدنيا.

﴿وَقَضْبًا﴾ القضب: هو العلف الذي تأكله الدواب من القت وغيره.

﴿وَزَيْتُونًا﴾ الزيتون من أفضل الأشجار وأكثرها بركة يؤكل ثمرها، ويتخذ زيتها أُدماً، ويدهن ويستشفى به، ويستصبح به، وغير ذلك، أقسم الله تعالى به في قوله ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝﴾ [التين: ١]، وامتدح شجرته بقوله: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور: ٣٥].

﴿وَنَخْلًا﴾ يؤكل ثمرها بسراً ورطباً وتمراً، وهي من أفضل وأبرك الأشجار، وثمرها من أفضل الثمار، إن لم يكن أفضلها، ويعد غذاء كاملاً، قال تعالى: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝﴾ [ق: ١٠].

وقال ﷺ: «إن من الشجر شجرة مثلها مثل المؤمن ـ النخلة»[١]

وفي حديث عروة بن الزبير أنه سأل خالته عائشة رضي الله عنها لما أخبرته أنه يمر الشهران ما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار، قال عروة: فقلت: يا خالة ما كان يعيشكم؟ قالت: «الأسودان: التمر والماء»[٢].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يا عائشة بيت لا تمر فيه جياع أهله، يا عائشة بيت لا تمر فيه جياع أهله، أو جاع أهله، قالها مرتين أو ثلاثاً»[٣].

ولفضل النخل وثمرها ذكرها الله عز وجل من أشجار الجنة فقال تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ۝﴾ [الرحمن: ٦٨] مع الاختلاف الكبير بين نخل الجنة ونخل الدنيا.

﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾ أي: وبساتين ذات أشجار طويلة كبيرة، كثيرة متنوعة

﴿وَفَٰكِهَةً﴾ الفاكهة كل ما يتفكه به من أنواع الثمار ويؤكل طرياً رطباً، أي: وأنبتنا لكم فيها الأشجار المختلفة ذات الفواكه والثمار المتنوعة.

---

(١) اخرجه البخاري في العلم ٦١، ومسلم في صفات المنافقين ٢٨١١ ـ من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما.

(٢) اخرجه البخاري في الهبة وفضلها ٢٥٦٧، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٧٢، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٧١، وابن ماجه في الزهد ٤١٤٥.

(٣) اخرجه مسلم في الأشربة ٢٠٤٦، وابو داود في الأطعمة ٣٨٣١، والترمذي في الأطعمة ١٨١٥، وابن ماجه في الأطعمة ٣٣٢٧.

﴿وَأَبًّا﴾ الأبّ: الكلأ والعشب الذي ترعاه البهائم والأنعام.

وقد رُوِيَ أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه سئل عن قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ فقال: «أي: سماء تظلني، وأي أرض تقلني إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم»[1].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «قرأ عمر بن الخطاب ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ فلما أتى على هذه الآية: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١﴾ قال: عرفنا ما الفاكهة، فما الأب؟، فقال: لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا هو التكلف»[2].

وقد امتن الله عز وجل في مواضع كثيرة من القرآن الكريم بإنزال الماء وإخراج النبات والزروع والفواكه والثمار، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ [الأنعام: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ [الأنعام: ١٤١]، وقال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [النحل: ١٠، ١١].

﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ أي: متعة ومعاشاً لكم ولأنعامكم تتمتعون بها في هذا الدار الفانية، وفي إخراج طعام الإنسان من الأرض دليل على إخراجه منها بعد موته، ولهذا أتبعه بقوله ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ الآيات.

الفوائد والعبر:

١- حكم الله عز وجل الكوني على الإنسان الكافر بالإهلاك والطرد من رحمته لقوله (قتل الإنسان ما أكفره) وجواز الدعاء عليه بذلك.

٢- الإنكار على الإنسان الكافر وتوبيخه، والتعجب من إعراضه وكفره وإنكاره البعث مع وضوح الحجة وبيان المحجة وتمام قدرة الله وإنعامه عليه.

---

(١) أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام عن إبراهيم التيمي، قال: سئل أبو بكر - إلى آخره - ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٣٤٨/٨، وقال: «وهذا منقطع بين إبراهيم التيمي والصديق».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ١٢٠ وقال ابن كثير في «تفسيره» ٣٤٨/٨: «إسناده صحيح».

٣- تذكير الإنسان بضعفه وتقدير أطوار خلقه في بطن أمه ثم ولادته، ثم موته ودفنه، ثم بعثه ونشره إذا شاء عز وجل ذلك، ليستدل بذلك على عظيم قدرة الله عز وجل ويعرف نعمة الله عز وجل عليه فينقاد لأمره.

٤- زجر الإنسان الكافر وردعه في عدم امتثاله لما أمره الله عز وجل به.

٥- إثبات المعاد، وأن نشر الخلائق وبعثهم وحشرهم له موعد ووقت قضاه الله لم يأت بعد، وإذا جاء لا يؤخر.

٦- يجب على الإنسان النظر والتأمل في طعامه، وأسبابه، ومراحل تكوينه من صب الماء من السماء، وشق الأرض وإنبات النبات من الحبوب والعنب والقضب والزيتون والنخل والفاكهة والأب والتي أخرجها الله متعة للناس ولأنعامهم للامتنان عليهم بذلك وليعرفوا تمام قدرة الله تعالى وعظم نعم الله عليهم فيشكروها بطاعته ـ عز وجل.

٧- الإشارة لحقارة الدنيا وفنائها وأنها مجرد متاع ثم تنقضي وتزول.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة من دلائل قدرته على البعث قدرته على خلق الإنسان وعلى إحياء الأرض بعد موتها، ثم ختم عز وجل السورة بذكر أحوال الناس في ذلك اليوم العظيم يوم القيامة كما ختم سورة النازعات قبلها بنحو من هذا.

قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ كقوله في سورة النازعات ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ و«الصاخة» القيامة سميت بذلك لأنها تصخ الآذان بصيحتها وأهوالها.

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ أي: يوم مجيء الصاخة والقيامة ﴿يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ﴾ أي: يهرب الإنسان من عظم الخطب وشدة الكرب من أعز الناس عليه وأقربهم وأحبهم إليه، مع رؤيته لهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ [المعارج: ١٠، ١١].

﴿مِنْ أَخِيهِ﴾ الأخ من شارك الإنسان في أصليه أو في أحدهما، فقد يكون شقيقاً، وقد يكون أخاً لأب، وقد يكون أخاً لأم، وليس الأخ بأقرب، ولا بأحق ممن ذكروا بعده، ولا بأحب منهم غالباً لكنه قُدم عليهم ـ والله أعلم ـ لأن الإخوة غالباً يعتد بعضهم ببعض للنصرة في الدنيا، وبخاصة الإخوة من جهة العصبة والنسب كما قال قائلهم:

أخاك أخاك إن من لا أخا له ... كساع إلى الهيجا بدون سلاح[1]

﴿وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾ أي: ويفر ويهرب من أمه الحنون العطوف، حلوة اللبن، ومن أبيه الذي كان يحوطه ويرعاه، وقد كانا سبب وجوده في هذه الحياة، وأعظم الناس حقاً عليه، قرن الله عز وجل حقهما بحقه في آيات عدة، وقدم عز وجل الأم هنا لعظم حقها كما قالﷺ للرجل الذي سأله يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟، قال: «أمك»، قال: ثم من؟، قال: «أمك»، قال: ثم من؟، قال: «أمك»، قال في الرابعة: ثم من؟، قال: «أبوك»[2].

﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ زوجته، أي: ويهرب من زوجته الحبيبة رفيقة عمره، وسكنه الذي يسكن

---

(١) البيت للربيع بن ضبع الفزاري.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب ٥٩٧١، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٤٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إليه في الدنيا والتي يحفظها ويصونها، ولا يسمح لأعين الآخرين أن تنظر إليها في الدنيا.

﴿وَبَنِيهِ﴾ جمع ابن، أي: ويهرب الإنسان من أبنائه الذين هم فلذة كبده وثمرة فؤاده يتزين بهم في الدنيا ويعتز ويفتخر، وهم أقرب الناس وأحبهم إليه.

﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ اي: لكل إنسان من هؤلاء يوم القيامة أمر يشغله عن غيره، أي: كل منهم منشغل بطلب الخلاص لنفسه، لا يلوي على شيء سواها، ويخاف أيضاً من حقوق الآخرين عليه، وأن يروا ما ينزل به، ولهذا ولغيره فهو يفر من أقرب الأقربين إليه وأحبهم وأغلاهم لديه.

ولهذا لما قال ﷺ: «إنكم تحشرون حفاة عراة غرلاً» قالت عائشة رضي الله عنها: واسوأتاه الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟، قال ﷺ: «الأمر أعظم من أن ينظر بعضهم إلى بعض»[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث الشفاعة أن الناس يأتون إلى آدم ونوح وغيرهما من الأنبياء كل منهم يقول: «نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري» حتى تنتهي إلى محمد ﷺ فيشفع لهم إلى ربه عز وجل[(٢)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «تحشرون حفاة عراة غرلاً، فقالت امرأة، أيبصر أو يرى بعضنا عورة بعض؟ قال: يا فلانه: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾، أو ما اشغله عن النظر»[(٣)].

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «يبعث الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً»، فقالت عائشة: يا رسول الله، فكيف بالعورات؟ وفي رواية أنها قالت يا رسول الله: واسوأتاه الرجال والنساء، قال يا عائشة: «الأمر أعظم من ذلك ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ »[(٤)].

وعن عكرمة قال: «يلقى الرجل زوجته فيقول لها: يا هذه، أي: بعل كنت لك؟

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق – الحشر ٦٥٢٧، ومسلم في صفة الجنة – فناء الدنيا ٢٨٥٩ – من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٣٤٠، ومسلم في الإيمان ١٩٤، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٣٤.

(٣) أخرجه الترمذي في تفسير سورة «عبس» ٣٣٣٢، وقال «حديث حسن صحيح»، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/٣٤٠٠.

(٤) أخرجه النسائي في الجنائز – باب البعث ٢٠٨٣، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٠٠، وروي من حديث سودة بمعناه، أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ١٢٥.

فتقول: نعم البعل كنت، وتثني بخير ما استطاعت، فيقول لها: فإني أطلب إليك اليوم حسنة واحدة تهبيها لي لعلي أنجو مما ترين، فتقول له: ما أيسر ما طلبت، ولكني لا أطيق أن أعطيك شيئاً أتخوف مثل الذي تخاف، قال: وإن الرجل ليلقى ابنه فيتعلق به فيقول: يا بني، أيّ والد كنت لك؟ فيثني بخير، فيقول له: يا بني، إني احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك لعلي أنجو بها مما ترى، فيقول ولده: يا أبت، ما أيسر ما طلبت، ولكني أتخوف مثل الذي تتخوف، فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً، يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾»[1].

فما أصعب هذا الموقف، وما أشده، وما أعظمه إذ كيف يهرب الإنسان من أعز الناس عليه وأقربهم وأحبهم إليه؛ أخيه وأمه وأبيه وزوجته وبنيه؟ وكيف تذهل فيه المرضعة عما أرضعت كما قال عز وجل: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ [الحج: ٢] إنها شدائد القيامة وكرباتها وأهوالها العظام ـ اللهم ارحمنا برحمتك والطف بنا يا لطيف.

تبرأ الشركاء والأنصار، وفر الأقارب والأصهار، وانقطع الرجاء إلا من الواحد القهار، وانشغل كل بنفسه عن غيره يبغي لها النجاة من النار.

وقد أحسن القائل:

لنفسي أبكي لست أبكي لغيرها   لنفسي من نفسي عن الناس شاغل

وإذا كان الإنسان سينشغل بنفسه عن أعز الناس لديه وأقربهم وأحبهم إليه في ذلك اليوم، فيا ليت الكثيرين ـ اليوم ـ ممن يرى الواحد منهم القذاة في عين أخيه، ولا يرى الجذع في عينه يتذكرون هذا فينشغلون في هذه الحياة بعيوبهم عن عيوب الآخرين ويا ليت من يتناصرون بينهم من أقارب وغيرهم في الباطل يتذكرون هذا الموقف العصيب فيرتدعون.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ أي: في ذلك اليوم العظيم ينقسم الناس إلى فريقين: فريق وجوههم ﴿مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ وهم المؤمنون – نسأل الله تعالى من فضله – ومعنى ﴿ مسفرة ﴾ أي: مشرقة مضيئة مستنيرة، كما جاء في الحديث: «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر»[2].

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣٤٩.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٦، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٣٤، والترمذي في صفة الجنة =

﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ أي: ظهر عليها السرور والبشر الدال على سرور القلب وابتهاجه، واستبشرت بالجنة كما قال تعالى: ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت: ٣٠].

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: وفريق وجوههم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ أي: عليها غبار.

﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ تغشاها وتعلوها ظلمة شديدة وسواد.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ أي: أولئك الموصوفون بهذه الصفات ﴿هُمُ ٱلْكَفَرَةُ﴾ الذين كفروا بالله بقلوبهم فانكروا ربوبيته والوهيته وأسماءه وصفاته وآياته وشرعه ورسالاته.

﴿ٱلْفَجَرَةُ﴾ الذين ارتكبوا الفجور بجوارحهم واعمالهم الظاهرة كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: ٢٧].

الفوائد والعبر:

١- شدة أهوال القيامة وصيحتها.

٢- انشغال كل إنسان في ذلك اليوم بخلاص نفسه، وفراره من أقرب الناس إليه، أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه.

٣- يجب استحضار هذا المشهد، وأنه في ذلك اليوم لا ينفع أحد أحداً.

٤- انقسام الناس في ذلك اليوم إلى فريقين حسب أعمالهم فريق وجوههم مسفرة مستنيرة ضاحكة مسرورة مستبشرة بما أعد لها من النعيم والكرامة وهم المؤمنون، وفريق وجوههم يعلوها الغبار، وتغشاها الظلمة والسواد وهم الكفرة الفجرة.

٥- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح، والترهيب من الكفر والفجور.

=

٢٥٣٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٣٣ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تفسير سورة التكوير

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾، و ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١﴾ و ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾ »(1).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾.

قوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ «إذا» ظرفية شرطية غير جازمة وتكوير الشيء بمعنى لفه. أي: إذا الشمس لفت وذهب بنورها ورمي بها في النار.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الشمس والقمر مكوران يوم القيامة»(2).

وفي رواية عن أبي هريرة رضي الله عنه: «الشمس والقمر نوران في النار يوم القيامة»(3).

وفي ذلك إغاظة للذين عبدوها من دون الله كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨﴾ [الأنبياء: ٩٨].

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ أي: انتثرت وتساقطت كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢﴾ [الانفطار: ٢].

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أي: جعلت تسير تمهيداً لدكها ونسفها كما قال تعالى ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠﴾ [الطور: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠﴾ [النبأ: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾ [القارعة: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤﴾ [الحاقة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ

---

(1) أخرجه أحمد ٢/ ٢٧، ٣٦، والترمذي في تفسير سورة ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ ٣٣٣٣ - وقال: «حديث حسن غريب».

(2) أخرجه البخاري في بدء الخلق - صفة الشمس والقمر بحسبان ٣٢٠٠.

(3) أخرجه البزار فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣٥٢.

عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٥- ١٠٧].

﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ﴾ العشار: النوق الحوامل في الشهر العاشر، واحدها عُشَراء، وهي خيار الإبل، وأنفس الأموال آنذاك.

﴿عُطِّلَتْ﴾ أي: تخلى عنها أهلها وأهملوها بلا راع ولا حلب وسُيِّبت، وهي من أنفس الأموال، وذلك لظهور علامات القيامة ومقدماتها، وانعقاد أسبابها.

﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ﴾ الوحوش: جمع وحش، وهو الحيوان المتوحش الذي ينفر من الناس بخلاف الحيوان الإنسي والأهلي، والمراد بالوحوش هنا - والله أعلم - جميع الحيوانات والبهائم، وإنما خصت الوحوش بالذكر لأنها إذا حشرت مع توحشها فغيرها من باب أولى.

﴿حُشِرَتْ﴾ أي: جمعت في أرض المحشر. والحشر: الجمع، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [ص: ١٩] فتجمع الوحوش والبهائم ليقتص لبعضها من بعض، كما في الحديث، «حتى إنه ليقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء ثم يقال لها كوني تراباً»[(١)].

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب (سُجِرت) بتخفيف الجيم، وقرأ الباقون بتشديدها (سُجِّرت)، أي: وإذا البحار العظيمة التي تمثل نحو ثلاثة أرباع الأرض أو أكثر أشعلت وأوقدت فصارت ناراً تتأجج، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾﴾ [الطور: ٦]، أي: الموجج ناراً.

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ أي: جمع كل شكل إلى نظيره ومثيله وشكله كما قال تعالى: ﴿۞ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]، فجمع أهل الخير إلى بعضهم، وجمع أهل الشر إلى بعضهم.

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سئل عمر عن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾﴾ فقال: «يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة، ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار، فذلك تزويج الأنفس»[(٢)].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٠٤.

وقيل: ﴿وإذا النفوس زوجت﴾ أي: زوجت الأرواح بالأجساد، أي: ردت كل روح إلى جسدها.

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ الموءودة: هي البنت تدفن وتدس في الأرض وهي حية بعد ولادتها كما كان أهل الجاهلية يفعلون ذلك، فإذا ولد لأحدهم أنثى ساءه ذلك كراهة منهم للبنات مخافة العار والفقر، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ۝﴾ [الزخرف: ١٧، ١٨].

فيوم القيامة تسأل الموءودة هذا السؤال ﴿بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ قرأ أبو جعفر بتشديد التاء «قتّلت»، وقرأ الباقون بتخفيفها أي: بسبب أي ذنب «قتِلت»، وهذا السؤال لتوبيخ قاتلها، وجوابه: أنها قتلت بلا ذنب.

ومن الوأد إسقاط الجنين بعد نفخ الروح فيه، أي: بعد مضي مائة وعشرين يوماً عليه، من غير ضرورة، وقد عد ﷺ العزل من ذلك.

فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ سئل عن العزل فقال: «ذلك الوأد الخفي»[1].

وعن سلمة بن يزيد الجعفي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الوائدة والموءودة في النار، إلا أن تدرك الوائدة الإسلام فيعفو الله عنها»[2].

وعن حسناء ابنة معاوية بن الصريمة عن عمها قال: قلت: يا رسول الله، من في الجنة؟ قال: «النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والمولود في الجنة، والوئيد في الجنة»[3].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «الموءودة هي المدفونة فمن زعم أنها في النار فقد كذب، بل هي في الجنة».

وفي رواية عنه قال: «أطفال المشركين في الجنة، فمن زعم أنهم في النار فقد كذب يقول الله عز

---

(١) أخرجه مسلم في النكاح – جواز الغيلة، وهي: وطء المرضع وكراهة العزل ١٤٤٢، وأبو داود في الطب – باب في الغيل ٣٨٨٢، والنسائي في النكاح – باب الغيلة ٣٣٢٦، والترمذي في أبواب الطب – ما جاء في الغيلة ٢٠٧٢، وابن ماجه في النكاح – باب الغيل ٢٠١١، وأحمد ٦/ ٤٣٤.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٤٧٨.

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ٥٨.

وجل: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾، قال ابن عباس: هي المدفونة»[1].

ولو صح قول من قال الموءودة في النار فيما إذا كان أبوها غير مسلم، فإنه لا يصح أن يقال: إنها في النار إذا كان أبوها مسلماً، لأنه لا إشكال أن أطفال المسلمين معهم في الجنة، وفي أولاد المشركين الخلاف هل هم في الجنة أو في النار مع آبائهم، أو يمتحنون في عرصات القيامة وهذا هو الأظهر، وفيه جمع بين الأقوال.

ورُوِيَ عن خليفة بن حصين، قال: «قدم قيس بن عاصم على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: إني وأدت اثنتي عشرة ابنة لي في الجاهلية، أو ثلاث عشرة، قال: «أعتق عددهن نسماً» فأعتق عددهن نسماً»[2].

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر ويعقوب وعاصم بتخفيف الشين، وقرأ الباقون بتشديدها (نشّرت) والصحف جمع صحيفة، وهي ما تكتب فيها الأعمال ومعنى ﴿نُشِرَتْ﴾ أي: أعطي كل إنسان صحيفته وكتاب أعماله بيمينه أو بشماله - مفتوحاً - يوم نشر الدواوين وتطاير الصحف، كما قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤]، أي: وكل إنسان ألزمناه عمله في عنقه. وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٧١﴾ [الإسراء: ٧١]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩﴾ [الحاقة: ١٨، ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥﴾ [الحاقة: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾ [الإنشقاق: ٧، ١٢].

وهذا مما يوجب على المسلم الإقلاع عن الذنوب والمعاصي ومحاسبة النفس محاسبة دقيقة كمحاسبة الشريك الشحيح لشريكه، بل أشد، والحرص على القيام بحقوق الله وحقوق الخلق.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ أي: كشفت وازيلت عن مكانها وطويت، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٠٣ - ٣٤٠٤، ٣٤٠٦.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٠٧.

﴿نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧].

﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن ذكوان وحفص بتشديد العين (سعِّرت)، وقرأ الباقون بتخفيفها.

و(الجحيم) اسم من أسماء النار سميت به لبعد قعرها وظلمتها وشدة حرها ﴿سعرت﴾ أي: أشعلت وأوقدت.

﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ أي: قربت لأهلها وادنيت إكراماً لهم.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ هذا هو جواب «إذا» في قوله ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ وما بعدها، أي: إذا وقعت هذه الأهوال وتبدلت الأحوال عند ذلك علمت كل نفس ﴿مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ أي: ما قدمت من عمل، من خير أو شر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٤٩﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠].

الفوائد والعبر:

١- عظم أهوال يوم القيامة وشدتها.

٢- تبدل الأحوال في ذلك اليوم وتغيرها فالشمس تكور، والنجوم تتساقط، والجبال تسير، والبحار تؤجج ناراً، والسماء تزال عن مكانها إلى غير ذلك، وهذا يدل على أن دوام الحال من المحال وأن البقاء للحي القيوم سبحانه وتعالى.

٣- انشغال الناس عند ظهور علامات القيامة وأهوالها عن أنفس أموالهم.

٤- بلاغة القرآن الكريم في مخاطبة الناس بما يعرفون لقوله ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ وقد كانت حين نزول القرآن الكريم هي أنفس الأموال عند العرب.

٥- جمع الوحوش والبهائم يوم القيامة ليقتص لبعضها من بعض ثم يقال لها كوني تراباً.

٦- جمع كل شكل إلى نظيره وقرينه في ذلك اليوم الأخيار مع الأخيار والأشرار مع الأشرار.

٧- سؤال الموءودة عن سبب قتلها وبأي ذنب، توبيخاً وتقريعاً لقاتلها وانتصاراً لها.

٨- تطاير الصحف ونشرها بين الخلائق فآخذ كتابه بيمينه، وآخذ كتابه بشماله من وراء ظهره.

٩- تسعير الجحيم وإيقادها لتعذيب الكافرين والعصاة.

١٠- تقريب الجنة لأهلها المتقين تكريماً لهم.

١١- أن من كرم الضيافة أن يؤتى بالطعام إلى الضيوف ويوضع بين أيديهم، لا أن يهيأ ثم يقومون إليه.

١٢- علم كل نفس بما قدمته من خير أو شر بعد معاينتها لهذه الأهوال، واطلاعها على صحيفة أعمالها.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

عن عمرو بن حريث قال: «صليت خلف النبي ﷺ الصبح، فسمعته يقرأ ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾»[1].

قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾ الفاء: استئنافية. و«لا» للتنبيه وتأكيد القسم.

والتقدير: أقسم بالخنس. ولله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، لأن إقسامه عز وجل بها يدل على عظمته هو ـ سبحانه وتعالى ـ وهذا بخلاف المخلوق فلا يقسم إلا بالله تعالى.

وخبر الله عز وجل صدق وقوله حق بلا قسم كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١١٥] أي: صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأحكام، وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء: ١٢٢]، وإنما جاء القسم في القرآن الكريم جرياً على أسلوب العرب في تأكيدهم الكلام بالقسم، وكذلك الحال بالنسبة لخبر الرسول ﷺ ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه «أخبرنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق»[2].

و«الخنس» هي النجوم تخنس أي تختفي بالنهار، بعد ظهورها بالليل. ومنه سمي الشيطان بالخناس، لأنه يخنس ويختفي عند ذكر الله عز وجل.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه حين لقي النبي ﷺ وهو جنب قال: «فانخنست»[3] أي اختفيت.

﴿ٱلۡجَوَارِ﴾ جمع جارية يقال في جمعها: جوار، وجاريات أي: أنها تجري، أي: تسير، وليست بثابتة، ومن هنا سميت الكواكب السيارة.

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة – القراءة في الصبح ٤٧٥، وأبو داود في الصلاة ٨١٧، والنسائي في الافتتاح ـ القراءة في الصبح بإذا الشمس كورت ٩٥١، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨١٧.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في الغسل ٢٨٣، وأبو داود في الطهارة ٢٣١، والترمذي في الطهارة ١٢١.

﴿ٱلْكُنَّسِ﴾ الغُيَّب، أي: اللاتي يغبن بالليل، فهن يظهرن فيه ثم يغبن فأقسم عز وجل بالنجوم في أحوالها كلها، من طلوعها وجريانها وغروبها واختفائها.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ أي: إذا أدبر وولى وذهب، ولهذا قال بعده ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي: إذا أقبل وانفلق وأضاء وأسفر عقب إدبار الليل كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، وكما قال تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾﴾ [المدثر: ٣٣، ٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾﴾ [الليل: ٢].

قال الشاعر:

حتى إذا الصبح له تنفسا وانجاب عنها ليلها وعسعسا[1]

ويحتمل أن معنى قوله ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ أي: إذا أقبل بظلامه فيكون كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾﴾ [الليل: ١]، وقوله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾﴾ [الضحى: ١، ٢]، والأول أظهر، وأعظم في الدلالة والعبرة.

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ هذا هو المقسم عليه، فأقسم عز وجل بالنجوم والليل إذا أقبل أو أدبر، والصبح إذا انفلق وأضاء على أن القرآن قول رسول كريم.

والضمير في «إنه» يعود إلى القرآن الكريم، وإن لم يسبق له ذكر في السورة لأنه معلوم معهود.

فأقسم عز وجل بهذه الآيات العظيمة وما فيها من الدلائل التامة على عظيم قدرة الله عز و جل ونعمه الجسيمة على أمر عظيم، وهو أن القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ أي: لتبليغ رسول كريم – وهو جبريل عليه السلام – كما قال تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، فأضافه عز وجل إلى جبريل عليه السلام لأنه هو الواسطة بين الله عز وجل وبين الرسول ﷺ، كما أضافه إلى النبي ﷺ في قوله في سورة الحاقة ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الآيتان: ٤٠، ٤١] لأنه ﷺ هو المبلغ عن الله عز وجل، فهو كلام الله عز وجل سمعه جبريل من الله عز وجل، وسمعه محمد ﷺ من جبريل، وكل من جبريل ومحمد ﷺ مبلغ عن الله عز وجل ورسول من عنده.

---

(١) البيت لعلقمة بن قرط. انظر «مجاز القرآن» ٢/ ٢٨٧ – ٢٨٨، «جامع البيان» ٢٤/ ١٦٢.

وقسمه عز وجل في قوله ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الحاقة: ٣٨ ـ ٤١] أعظم من قسمه في قوله هنا ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ﴾ الآيات لأن المقسم به في قوله ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أعم فهو يعم الإقسام بكل شيء.

وقوله ﴿ رسول ﴾ أي: ملك مرسل من عند الله عز وجل لتبليغ القرآن الكريم للرسول ﷺ، وهو جبريل عليه السلام ونكّره تعظيماً له عليه السلام.

﴿ كريم ﴾ شريف حسن الأخلاق والصفات، جميل المنظر بهي الصورة كثير الخير أجرى الله على يديه نقل رسالاته عز وجل إلى رسله عليهم الصلاة والسلام، والتي فيها خير الدنيا والآخرة وهو أفضل الملائكة، وأعظمهم وأشرفهم عند الله عز وجل.

﴿ ذي قوة ﴾ أي: ذي قوة وشدة في خلقه، وفي بطشه وفعله كما قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ﴾ [النجم: ٥، ٦].

فجبريل ـ عليه السلام بما منحه الله ـ عز وجل من قوة وشدة لا تستطيع الشياطين الدنو منه، ولا التعرض لما يحمله من وحي الله تعالى كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١] وهو بما منحه الله من قوة يوالي الرسول ﷺ ويناصره على من عاداه، وينفّذ بقوته ما أمر الله به، ومن قوته أنه قلب ديار قوم لوط عليهم فاهلكوا بأمر الله عز وجل.

﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ اي عند الله عز و جل صاحب العرش العظيم، قال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ [غافر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [البروج: ١٥، ١٦].

وذو العرش صاحب العرش سبحانه وتعالى الذي استوى على العرش، كما قال تعالى ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: ٥].

﴿مَكِينٍ﴾ أي: له عند الله عز وجل مكانة عظيمة، ومنزلة رفيعة، ووجاهة، وهو أقرب الملائكة إلى الله عز وجل.

﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ «ثم» بمعنى «هناك» أي: مطاع أمره مسموع قوله في الملأ الأعلى لوجاهته وشرفه بين الملائكة.

﴿أَمِينٍ﴾ اي: ذو أمانة عظيمة على ما اؤتمن عليه من الوحي، فوصف عز وجل

جبريل عليه السلام بخمس صفات عظيمة، وهي كونه: كريماً، قوياً، ذا مكانة عند الله تعالى، مطاعاً في السموات، أميناً.

وكل هذه الصفات تتضمن تزكية سند القرآن الكريم، وأنه سماع محمد ﷺ من جبريل، وسماع جبريل عليه السلام من رب العالمين، وفيه تشريف وتعظيم للقرآن الكريم كما أن فيه مدحاً وتشريفاً لجبريل عليه السلام.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ الواو: عاطفة والجملة معطوفة على جملة جواب القسم، فهي من جملة المقسم عليه، والخطاب لأهل مكة، أي: وما صاحبكم يعنى محمداً ﷺ ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ أي: بمختل العقل، كما تزعمون، وهم ـ وإن تفوهوا بهذا وزعموه ـ فهم يعلمون أنه ليس بمجنون، وأنهم كاذبون ولهذا قال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ أي: الذي تعرفونه وتعرفون صدقه وامانته وكمال عقله، كما قال تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝﴾ [القلم: ٢].

وهذا رد على المشركين في زعمهم الباطل، كما قال الله تعالى عنهم ﴿وَقَالُوا يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝﴾ [الحجر: ٦]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝﴾ [الدخان: ١٤].

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾ الواو: عاطفة، واللام للقسم، أي: والله لقد رأى محمد ﷺ جبريل عليه السلام على الصورة التي خلقه الله تعالى عليها، له ستمائة جناح.

﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي: بالأفق البين الظاهر العالي، أفق السماء الشرقي وهي الرؤية الأولى التي كانت بالأبطح وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝﴾ [النجم: ٥ ـ ١٠].

﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بالظاء ﴿بظنين﴾ أي: وما محمد على ما أنزل إليه من الوحي بمتهم بالكذب، بل هو صادق أمين، كما كان ﷺ يلقب بين قومه بالأمين وعلى هذا فالرسول الملكي أمين والرسول البشري أمين.

وقرأ الباقون بالضاد ﴿ بضنين ﴾، أي: وما محمد بما أنزل إليه من الوحي ببخيل، يقال: ضنّ، أي: بخل – كما قال الشاعر:

بـلادي وإن جـارت علـيَّ عزيـزة ... وأهلـي وإن ضـنوا علـيَّ كـرام

أي: وإن بخلوا.

وقال الآخر:

ألا أصبحت أسماء جاذمة الحبل وضنت علينا والضنين من البخل[1]

أي: وبخلت علينا.

والمعنى: وما محمد ﷺ على الوحي ببخيل، بل بذله ﷺ ونشره، وبلغه لكل أحد وأشهد على ذلك أمته، وربه.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ أي: وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم، أي: ما هو مما توحيه شياطين الجن إلى شياطين الإنس من الكهنة ونحوهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [الشعراء: ٢١٠ ـ ٢١٢].

والشيطان: كل متمرد، عات، خارج عن طاعة الله عز وجل من الإنس والجن والحيوانات، قال تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١٢].

و«رجيم» «فعيل» بمعنى «مفعول» أي: مرجوم حساً ومعنى، بالرمي بالشهب وإخراجه من الجنة، وبلعنه وطرده عن رحمة الله عز وجل.

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ أي: أيّ طريق تسلكون أبين من هذه الطريق التي بينت لكم؟ كما قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المرسلات: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [الجاثية: ٦]، وقال تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يونس: ٣٢].

وأين تذهب عقولكم في تكذيبكم بالقرآن وزعمكم أنه ليس بكلام الله، ورميكم الرسول ﷺ بالجنون، وإعراضكم عن طاعة الله تعالى مع وضوح الحق، كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لوفد بني حنيفة حين قدموا مسلمين وأمرهم فتلوا عليه شيئاً من قرآن مسيلمة الذي هو في غاية الهذيان والركاكة فقال: «ويحكم أين يُذهب بعقولكم، والله إن هذا الكلام لم يخرج من إل، أي: من إله»[2].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ «إن» نافية بمعنى «ما» لأنها جاءت بعدها «إلا»، أي: ما

---

(١) البيت للبعيث انظر «لسان العرب» مادة «ضنن».

(٢) انظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٣٦٢.

هو يعني القرآن الكريم إلا تذكير وموعظة للعالمين من الإنس والجن كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [يوسف: ١٠٤]، يذكرهم بربهم وأسمائه وصفاته وأفعاله وحقوقه على عباده، ويذكرهم بمبدئهم ومعادهم، وما فيه سعادتهم في دينهم ودنياهم وأخراهم.

وإنما يُخص بالتذكرة به المتقون والمؤمنون ونحو ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحاقة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود: ١٢٠] لأنهم هم الذين ينتفعون به، ولهذا قال بعد هذا.

﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ هذا بدل من قوله ﴿ للعالمين ﴾ أي: للذي شاء منكم الاستقامة على الطريق المستقيم كقوله ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾ [المزمل: ١٩، الإنسان: ٢٩]. فلا سبيل للاستقامة على هذا الطريق إلا باتباع القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾ [طه: ٩٩ ـ ١٠١]، وقال تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٦].

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ «ما» نافية أي: وما تشاءون من شيء من استقامة أو غيرها إلا أن يشاء الله ذلك فلا يمكن أن يشاء الخلق إلا ما شاءه الله وأراده.

﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم و«العالمين» كل ما سوى الله عز وجل من الملائكة والإنس والجن والحيوان والنبات والجماد، وغير ذلك، فما شاء سبحانه كان وما لم يشأ لم يكن.

الفوائد والعبر:

١- إقسام الله عز وجل بالنجوم في أحوالها الثلاث حال اختفائها، وحال جريانها وحال غيبتها وبالليل في حال إقباله وإدباره وبالصبح في حال بروزه وظهوره على أن القرآن الكريم قول رسول كريم بلغه عن الله عز وجل وهو جبريل عليه السلام بلغه للنبي محمد ﷺ.

٢- شرف جبريل عليه السلام، وفضله من بين الملائكة حيث خصه الله عز وجل بتبليغ وحيه إلى رسله وامتدحه عز وجل بالكرم والقوة ورفعة منزلته عنده، وطاعته في الملأ الأعلى وأمانته على وحي الله عز وجل.

٣- تعظيم القرآن الكريم، وإثبات قوة سنده حيث إن الواسطة بين الله عز وجل وبين النبي ﷺ هو جبريل عليه السلام الأمين، الموصوف بما ذكر.

٤- الرد على المشركين في رميهم النبي ﷺ بالجنون.

٥- إثبات رؤية النبي ﷺ لجبريل عليه السلام بالأفق الظاهر الأعلى على صورته التي خلقه الله عليها وله ستمائة جناح.

٦- إثبات كرمه ﷺ في تبليغ الوحي وأمانته عليه، ونفي كونه بخيلاً به أو متهماً عليه.

٧- إثبات أن القرآن الكريم كلام الله عز وجل وليس بقول شيطان رجيم كما زعم المشركون.

٨- انقطاع حجة المكذبين للقرآن الكريم، إذ لا طريق أبين وأوضح من طريق القرآن.

٩- أن القرآن الكريم ذكرى وموعظة للعالمين من الإنس والجن.

١٠- أن من يتذكر بالقرآن ويتعظ به هو من شاء الاستقامة وسلك طريق الحق وتحرى الرشد، وهم المؤمنون المتقون.

١١- إثبات المشيئة للإنسان وأنه ليس مجبوراً على أفعاله كما يقول الجبرية.

١٢- أن الدين الإسلامي وسط بين الغلو والجفاء والإفراط والتفريط لقوله ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾.

١٣ـ إثبات مشيئة الله ـ عز وجل ـ وإرادته الكونية، وإثبات ربوبيته العامة لجميع العالمين.

١٤- أن مشيئة الخلق ليست مستقلة لوحدها، بل هي تابعة لمشيئة الله عز وجل، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وفي هذا رد على القدرية الذين يزعمون أن العبد يستقل بمشيئته ويخلق فعله ـ تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

تفسير سورة الانفطار

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قام معاذ فصلى العشاء الآخرة فطوّل فقال النبي ﷺ: «يا معاذ أفتّان أنت؟، اقرأ «والشمس وضحاها»، «والضحى»، «والليل إذا يغشى»، «وسبح اسم ربك الأعلى»»(1).

وفي رواية «أفتّان يا معاذ؟، أفتان يا معاذ؟، «أين كنت عن «سبح اسم ربك الأعلى»، «والضحى»، و «إذا السماء انفطرت»»(2).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

قوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ «إذا» ظرفية شرطية غير عاملة.

﴿ٱنفَطَرَتْ﴾ أي: انشقت كقوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ [المزمل: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾ [الرحمن: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾ [الحاقة: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ [الانشقاق: ١]، وقوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾﴾ [النبأ: ١٩].

﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ أي: تساقطت كقوله ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾﴾ [التكوير: ٢].

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ أي: فجر بعضها على بعض فاختلط مالحها بعذبها وصارت بحراً واحداً.

﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ أي: قلب ترابها وأخرج ما فيها من الموتى، فقاموا لله عز وجل.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ أي: إذا وقعت هذه الأهوال والأحوال والعلامات الأربع آنذاك علمت كل نفس الذي قدمته من الأعمال الصالحة، والذي أخرته منها فلم تعمله، أو علمت الذي قدمته من خير أو شر، والذي أخرته من خير أوشر، وذلك بعد

---

(1) أخرجه البخاري في الأدب ٦١٠٦، ومسلم في الصلاة - القراءة في العشاء ٤٦٥.
(2) أخرجه النسائي في الافتتاح - القراءة في العشاء الآخرة ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ ٩٩٧.

العرض وتطاير الصحف.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ [القيامة: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ [التكوير: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ «يا» حرف نداء و«أي» منادى مبني على الضم في محل نصب، و«ها» للتنبيه، والمراد بالإنسان الكافر أو جنس الإنسان لأن الإنسان من حيث هو إنسان ظلوم جهول كفار.

﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ﴾ «ما» استفهامية و«غرك» بمعنى: خدعك، أي: أيّ شيء خدعك يا أيها الإنسان بربك، خالقك ومالكك ومدبرك ﴿ٱلْكَرِيمِ﴾ كثير الخير والنوال، وعظيم النعم والأفضال، فكذبت خبره وأنكرت البعث، وعصيته وخالفت أمره، وارتكبت نهيه، كما رُويَ في الأثر: «يقول الله يوم القيامة: ابن آدم ما غرك بي؟ ابن آدم ماذا أجبت المرسلين»(١).

قال جمع من السلف: غرّه والله جهله.

وقال بعضهم: غره كرم الله وحلمه لقوله ﴿بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾(٢).

أي: كيف عصيت ربك وخالفت أمره، وأنكرت نعمه وأفضاله عليك.

فقوله ﴿بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ مع دلالته على عظيم فضل الله على الإنسان بربوبيته وخيره المسدى إليه - فيه أيضاً تذكير وتنبيه إلى أن الواجب على الإنسان مقابلة نعم الله عليه بالشكر لا بالكفر.

وفي هذا تهديد ووعيد وتحذير للإنسان أن يغره الشيطان والنفس الأمارة بالسوء، والهوى والدنيا.

قال الشاعر:

إنـي بليـت بـأربع لم يَخْلُقُـوا ... إلا الشـدائد شـقوتي وعنـائي

إبليس والـدنيا ونفسـي والهـوى ... كيـف الخـلاص وكلـهم أعـدائي

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣٦٤.

(٢) انظر «تفسير ابن أبي حاتم» ١٠/ ٣٤٠٨.

وعليه أن لا يغتر بستر الله وكرمه وإمهاله فإن الله عز وجل يمهل ولا يهمل، قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥].

﴿الَّذِي خَلَقَكَ﴾ أي: أوجدك وأنشأك من العدم ﴿فَسَوَّاكَ﴾ جعلك مستوي الخلقة متناسب الأعضاء، كما قال تعالى: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾ [الكهف: ٣٧].

﴿فَعَدَلَكَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم بتخفيف الدال (فعَدَلك)، وقرأ الباقون (فعدَّلك) بتشديدها أي: جعلك معتدل الخلق منتصب القامة في أحسن الهيئات والأشكال.

عن جبير بن نفير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه، فوضع عليها إصبعه ثم قال: «قال الله عز وجل: ابن آدم، أنى تعجزني، وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين، وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتصدق، وأنى أوان الصدقة»(١).

﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ﴾ أي: في أي صورة من الصور، وأي شكل من الأشكال ﴿مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ أي: كيفما شاء عز وجل ركب صورتك وشكلك، وقد سوّى خلقتك وعدّل قامتك وحسّن صورتك، بفضله وكرمه عليك، فاشكره ولا تكفره ولو شاء لجعل صورتك قبيحة كصورة قرد أو خنزير أو كلب أو حمار، أو غير ذلك.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله إن امرأتي ولدت غلاماً أسود؟ قال: «هل لك من أبل»؟ قال: نعم، قال: «فما ألوانها؟» قال: حمر قال: «فهل فيها من أورق؟»، قال: نعم، قال: «فأنى أتاها ذلك؟»، قال: عسى أن يكون نزعه عرق، قال: «هذا عسى أن يكون نزعه عرق»(٢).

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ قرأ أبو جعفر بالياء (يكذبون) وقرأ الباقون بالتاء (تكذبون).

﴿ كلا ﴾ للردع والزجر والوعيد والتهديد، و«بل» للإضراب الانتقالي، أي: مع هذا الخلق، والإعداد والإمداد ﴿تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ أي: بما جاء به الرسول ﷺ من الوحي والرسالة كما قال المكذبون للرسل ﴿وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢١٠، وابن ماجه في الوصايا – النهي عن الإمساك في الحياة والتبذير عند الموت ٢٧٠٧.

(٢) أخرجه البخاري في الطلاق – إذا عرّض بنفي الولد ٥٣٠٥، ومسلم في اللعان ١٥٠٠، وأبو داود في الطلاق ٢٢٦٠، والنسائي في الطلاق ٣٤٧٨، والترمذي في الولاء والهبة ٢١٢٨، وابن ماجه في النكاح ٢٠٠٢.

[يس: ١٥]، وتكذبون بالبعث والحساب والجزاء على الأعمال، كما قالوا ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المؤمنون: ٣٧].

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ الواو: حالية، أي: والحال إن عليكم لحافظين من الملائكة يحفظونكم ويحصون أعمالكم.

وأكد الجملة بـ «إن» واللام وحذف الموصوف الملائكة واكتفى بالصفة إشارة لشدة حفظهم وضبطهم لأعمال العباد، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾ [الطارق: ٤]، وقال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨].

﴿كِرَامًا﴾ أي: ذوي أخلاق كريمة وصفات حميدة وعندهم من الكرم والأمانة والصفات الحميدة ما يجعلهم يقومون بما وكلوا به أتم قيام دون زيادة أو نقصان، كراماً عند الله تعالى كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الذاريات: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ كرام بررة ﴾ [عبس: ١٦].

﴿كَاتِبِينَ﴾ أي: يكتبون جميع أعمالكم وأقوالكم، فاحذروا واستحيوا منهم، وأكرموهم فلا تقابلوهم بالقبائح، وأجِلُّوهم من أن يروا منكم ما تستحيون أن يراكم عليه من هو مثلكم، فالملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم.

﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: يعلمون الذي تفعلون، أو يعلمون فعلكم.

أي: يعلمون فعلكم بالمشاهدة، وأقوالكم بالسماع، وجميع أحوالكم بما أعلمهم الله عز وجل وأقدرهم عليه حتى أعمال القلوب، ولهذا قال ﷺ: «فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة»[1].

الفوائد والعبر:

١- عظم أهوال يوم القيامة وتبدل الأحوال فيها وتغيرها، فالسماء المحبوكة تنفطر، والكواكب تنتثر وتتساقط، والبحار يفجر بعضها على بعض، والقبور يخرج ما فيها من الأموات.

٢- إثبات البعث والمعاد.

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ـ من هم بحسنة أو بسيئة ٦٤٩١، ومسلم في الإيمان ـ إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب ١٣١ – من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

٣- علم كل نفس في ذلك اليوم بما قدمته من الأعمال وما أخرته، فلم تعمله.

٤- توبيخ الإنسان على جهله واغتراره بربه وكرمه، وتفريطه في حقه عز وجل.

٥- تذكير الإنسان بربوبية الله - عز وجل - له، وكرمه - عز وجل - وتمام قدرته، وعظيم نعمه عليه، خلقه فسواه وعدل صورته فجعله في أحسن خلقة وأجمل صورة، ولو شاء لجعله على أقبح صورة مما يوجب عليه شكر نعمة الله عليه وعبادته والانقياد له.

٦- الردع والزجر والتهديد والوعيد للمكذبين بالدين والحساب والجزاء على الأعمال.

٧- وجوب الإيمان بالحفظة الكرام من الملائكة، وكتابتهم لأعمال العباد.

٨- علم الملائكة الحفظة الكرام الكاتبين بأفعال العباد الظاهرة والباطنة، وكتابتهم لها بأمانة دون زيادة أو نقصان.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

بين عز وجل في الآيات السابقة أنه أوكل على الخلق ملائكة حافظين كراماً كاتبين يعلمون أفعال العباد ويكتبونها لمحاسبتهم ومجازاتهم عليها، ثم أتبع ذلك بذكر أن مآل الأبرار إلى النعيم وأن مآل الفجار إلى الجحيم.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ الأبرار: جمع «بَرّ» والبَرّ: كثير الطاعة، كثير الخير والإحسان، محسن في عبادة الله، ومحسن إلى عباد الله.

والبِّر: حسن الخلق، وما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، كما قال ﷺ[(١)] وهو كلمة جامعة لخصال الخير كلها، من الأعمال الظاهرة والباطنة، من الإيمان بالله وبجميع أركان الإيمان الستة وبكل ما يجب الإيمان به، وأنواع القربات والطاعات من الإنفاق على المحتاجين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والوفاء بالعهد والصبر في البأساء والضراء وحين البأس، وتقوى الله، وغير ذلك، قال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال تعالى في وصف الملائكة ﴿كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس: ١٦]، أي: كرام مطيعين. وجماع ذلك تقوى الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ﴾ [البقرة: ١٨٩].

ومنه سمي بر الوالدين وهو طاعتهم والإحسان إليهم، قال تعالى: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾ [مريم: ١٤].

وقد روي عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إنما سماهم الله الأبرار، لأنهم بروا الآباء والأبناء»[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ١٩٤، والدارمي في الأضاحي ٢٥٣٣ - من حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن عساكر فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣٦٦.

والمراد بالأبرار أصحاب اليمين، وهم المقتصدون كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢].

وقد يراد بالأبرار هنا ما يشمل المقربين، السابقين إلى الخيرات بإذن الله، وذلك لأن الله ذكرهم في مقابل الفجار أصحاب الجحيم.

﴿لَفِي نَعِيمٍ﴾ اللام للتوكيد، والنعيم: ما يتنعم ويلتذ به، أي: إنهم في نعيم معنوي، وهو نعيم القلب، ونعيم حسي، وهو نعيم البدن، في جنات النعيم.

وهم أيضاً في نعيم معنوي وقلبي في حياتهم الدنيا لطمأنينتهم ورضاهم بقضاء الله وقدره وذكرهم له كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨].

وقال ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»[1].

﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ﴾ الفجار: جمع فاجر، وهم أهل الكفر والفجور، ضد الأبرار.

﴿لَفِي جَحِيمٍ﴾ اللام للتوكيد. والجحيم هي النار سميت بذلك لبعد قعرها وظلمتها وشدة حرها، فهم فيها في عذاب معنوي للقلب وعذاب حسي للبدن، كما أنهم في الدنيا في شقاء معنوي للقلب، وشقاء حسي للبدن.

قال ابن القيم[2]: «لا تظن أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ مختص بيوم المعاد فقط بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة، وهؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثة، وأي لذة ونعيم في الدنيا أطيب من بر القلب وسلامة الصدر ومعرفة الرب تبارك وتعالى، ومحبته، والعمل على موافقته، وهل العيش في الحقيقة إلا عيش القلب السليم..».

وقال في موضع آخر: «وهل النعيم إلا نعيم القلب، وهل العذاب إلا عذاب القلب، وأي عذاب أشد من الخوف والهم والحزن وضيق الصدر، وإعراضه عن الله والدار الآخرة، وتعلقه بغير الله، وانقطاعه عن الله، بكل واد منه شعبة، وكل من تعلق به وأحبه من دون الله، فإنه يسومه سوء العذاب».

﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يدخلونها ويغمرون فيها ويقاسون حرها من كل جهة ومن كل جانب.

﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي: يوم القيامة، وسمي يوم الدين لأن الناس يدانون فيه بأعمالهم، أي:

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقاق ٢٩٩٩ – من حديث صهيب رضي الله عنه.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ١٥٠.

يجازون بها ويحاسبون عليها، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ أي: وما هم عن الجحيم بغائبين، أي: أنهم مقيمون فيها إقامة أبدية لا يخرجون عنها أبداً ولو ساعة كما قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ١٦٩﴾ [النساء: ١٦٩]، وقال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ٦٥﴾ [الأحزاب: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ٢٣﴾ [الجن: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧﴾ [البقرة: ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ٣٧﴾ [المائدة: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ٧٥﴾ [الزخرف: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ٧٧﴾ [الزخرف: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٤٩﴾ [غافر: ٤٩].

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ «ما» للاستفهام في الموضعين وهو للتعظيم والتفخيم، أي: وما أعلمك.

﴿مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ أي: ما هو يوم الدين، هو يوم عظيم لا كالأيام، يوم طويل، ثقيل عبوس قمطرير، عسير، شره مستطير، يشيب من هوله الوليد، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ٢﴾ [الحج: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ٥﴾ [المطففين: ٤، ٥]، وقال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ٤﴾ [المعارج: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ٢٧﴾ [الإنسان: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ١٠﴾ [الإنسان: ١٠]، وقال تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ١٠﴾ [المدثر: ٩، ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ٧﴾ [الإنسان: ٧]، وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ١٧ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ [المزمل: ١٧].

﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ تأكيد لعظمة ذلك اليوم. أي: ثم ما أعلمك ما هو يوم الدين؟

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔاۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ تفسير لقوله ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ وإيضاح له، أي: يوم الدين، هو ذلك اليوم الذي لا تملك فيه نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ٢﴾ ثم فسره بقوله

﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾ [الطارق: ١- ٣]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢﴾ ثم فسره بقوله ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣﴾ [البلد: ١١ - ١٣]، وقوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾ ثم فسره بقوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾ [القارعة: ١ ـ ٥]، وقوله تعالى: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠﴾ ثم فسره بقوله: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾ [القارعة: ٩ ـ ١١]، وقوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥﴾ ثم فسره بقوله: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾ [الهمزة: ٤ ـ ٧].

ولهذا قال المفسرون إذا قال ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ فإنه يدريه بمعنى يفسر ذلك له، وإذا قال ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فإنه لا يدريه كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۝٦٣﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]، وقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾ [عبس: ٣].

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب برفع الميم: (يومُ)، وقرأ الباقون بنصبها.

«شيئاً» نكرة في سياق النفي تعم، أي: يوم لا تملك نفس لنفس أي شيء مهما كان صغيراً كان أو كبيراً، قليلاً كان أو كثيراً، من جلب نفع أو دفع ضر أو غير ذلك، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٧] فالناس في الدنيا يتناصرون ويدافع بعضهم عن بعض لكن في الآخرة هيهات ذلك.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لما أنزلت هذه الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا فعمّ وخصّ، فقال: «يا بني كعب بن لؤي انقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس انقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب انقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً»[1].

﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ اي: والأمر في ذلك اليوم كله لله عز وجل وحده بلا منازع،

---

(١) اخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٥٣، ومسلم في الإيمان ٢٠٤، والنسائي في الوصايا ٣٦٤٤، والترمذي في التفسير ٣١٨٥، وأحمد ٢/ ٣٦٠.

كما قال تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: ٤]، وقال تعالى ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [الحج: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝١٦﴾ [غافر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ [الأنعام: ٧٣].

قال قتادة رحمه الله: «﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ والأمر - والله - اليوم لله، ولكنه يومئذ لا ينازعه أحد»[1].

وإن المسلم لتأخذه الدهشة أن يمر كثير من المسلمين على هذه الآية ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ ولا يستوقفه معناها، وهل كان الأمر في يوم من الأيام لغيره سبحانه؟ كلا، بل له الأمر اليوم وقبله وبعده، وفي ذلك اليوم، كما قال تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤]، وإنما معنى ذلك أنه يظهر للناس جميعاً تمام الظهور في ذلك اليوم كمال ملكه عز وجل، حيث يخضع جميع الخلق لأمره وحكمه، الملوك وما ملكوا بلا منازع، بخلاف الحال في الدنيا فإن الكثير من الناس من الملوك والمملوكين يتقلبون في ملك الله، ويتمتعون بنعمه ويبارزونه بالمعاصي فهذا كله ينتهي وينقطع كما قال تعالى: ﴿۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ۝١١١﴾ [طه: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۝١٠٨﴾ [طه: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [هود: ١٠٥].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يطوي الله عز وجل السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟، أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟، أين المتكبرون؟»[2].

الفوائد والعبر:

١- أن مآل الأبرار إلى النعيم في جنات النعيم.

٢- أن مآل الفجار إلى الجحيم والعذاب الأليم.

٣- إصلاء الفجار بالنار وغمرهم فيها يوم القيامة.

٤- خلود الفجار والكفار في النار وعدم خروجهم منها.

٥- عظم يوم القيامة وشدة أهواله وتأكيد ذلك.

٦- يوم القيامة لا يملك أحد لأحد شيئاً لا نصراً ولا دفعاً، ولا منعاً ولا نفعاً.

٧- ظهور انفراده عز وجل بالملك والأمر تمام الظهور يوم القيامة.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤ / ١٨٤.

(٢) أخرجه مسلم في صفة القيامة ٢٧٨٨، وابن ماجه في المقدمة ١٩٨، وأخرجه البخاري مختصراً في التوحيد ٧٤١٣.

تفسير سورة المطففين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾.

سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما قدم نبي الله ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك»[1].

ولهذا روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «أنه سئل من أحسن الناس هيئة وأوفاه كيلاً؟ أهل مكة أو المدينة؟ قال: حق لهم، أما سمعت الله يقول: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾»[2].

وروى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال له رجل: «يا أبا عبد الرحمن إن أهل المدينة ليوفون الكيل، قال: وما يمنعهم أن يوفوا الكيل، وقد قال الله عز وجل ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ حتى بلغ ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾»[3].

قوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ «ويل» كلمة زجر وتهديد ووعيد وخسار وهلاك.

و﴿ المطففين ﴾ جمع مطفف، والتطفيف: البخس والنقص في المكيال والميزان، ولهذا فسره بقوله:

﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ أي: إذا اكتالوا لأنفسهم وتقاضوا من الناس ﴿يستوفون ﴾ يأخذون حقهم تاماً وافياً.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾ أي: إذا كالوا للناس أو وزنوا لهم ﴿يُخْسِرُونَ﴾ أي: يبخسون الكيل والوزن وينقصونه ويعطون الناس حقهم ناقصاً، فجمعوا بين الشح في طلب حقهم كاملاً بلا مسامحة، والبخل بمنع ما يجب عليهم من إتمام الكيل والوزن لغيرهم.

وهذا الوعيد والتهديد يوجب على الإنسان العدل فيما له وما عليه في الكيل والوزن

---

(١) أخرجه ابن ماجه في التجارات – التوقي في الكيل والوزن ٢٢٢٣.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٠٩.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ١٨٥ – ١٨٦.

وغير ذلك كما قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال تعالى ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾ [الإسراء: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ [الرحمن: ٩].

وذكر الله عز وجل عن شعيب عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥]، وقال لهم: ﴿وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [هود: ٨٤ ، ٨٥].

وإنما توعد الله عز وجل المطففين بهذا الوعيد الشديد لأن حقوق الخلق مبنية على المشاحّة، ولا بد من أدائها إما في الدنيا وإما في الآخرة، ولهذا قال ﷺ لأصحابه «أتدرون من المفلس؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم عنده ولا متاع، قال: «إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بأعمال مثل الجبال، ثم يأتي وقد شتم هذا ولطم هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإذا فنيت حسناته أخذ من سيئاتهم فطرحت عليه ثم طرح في النار»[1].

وإذا كان هذا الوعيد الشديد والتهديد الأكيد لمن يطففون الكيل والوزن الحسي، فيأخذون حقهم وافياً، ويبخسون الناس حقهم في ذلك، فإن بخس الناس حقوقهم في الأمور المعنوية قد يكون أشد من ذلك وأعظم كاحتقار الناس وتنقصهم والتكبر عليهم، وعدم الإنصاف من النفس، وعدم قول الحق عليها بل ولا قبوله.

فالحذر الحذر من بخس حقوق الآخرين حسية كانت أو معنوية من الوالدين والأولاد والأزواج والإخوة وغيرهم من الأقارب والجيران وسائر الناس.

فكم من زوج يقصِّر في حق زوجه ويطالبه بحقه كاملاً، وكم من قريب يبخس حق قريبه ويطالبه بحقه كاملاً.

وكم من إنسان يدعي الدين والتقى والزهد والورع، ويهمهم بالتوبة ويوجه الناس ويدعوهم لكنه لا ينصف من نفسه، ولا يقول الحق عليها، بل ولا يقبله، يرى القذاة في

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨١، والترمذي في صفة القيامة ٢٤١٨ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

عين اخيه ولا يرى الجذع في عينه، يكيل بمكيالين، ينتقد الآخرين ولا يقبل أن ينتقد، بل لا يقبل أن يُنصح.

ولا شك أن هذا ونحوه يدل على مرض القلب وفساده، فإن المسلم الحق من أنصف من نفسه، وقال الحق وقبله له وعليه وشغلته عيوبه عن عيوب غيره، واعترف بضعفه، واتهم نفسه بالتقصير، وقبل النصح، بل وشكر عليه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ١٣٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

فما أصعب الإنصاف من النفس، وما أشده على النفوس فكم من إنسان يستطيع قيام الليل وصيام النهار، والقيام بكثير من الطاعات وأعمال البر لكنه يقف دون مرتبة الإنصاف من نفسه، وإن ادعى ذلك فهو كما قيل:

وكل يدعي وصلاً بليلى ... وليلى لا تقر لهم بذاكا

عن المعرور بن سويد رضي الله عنه قال: «لقيت أبا ذر بالربذة وعليه حلة وعلى غلامه حلة، فسألته عن ذلك، فقال: إني ساببت رجلاً فعيّرته بأمه، فقال لي النبي ﷺ: «يا أبا ذر أعيّرته بأمه إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم»[1].

وفي هذا أروع الأمثلة في الإنصاف فرضي الله عنك يا أبا ذر.

وقد أعجبني موقف لأحد الإخوة رحمه الله جاء يخطب لأحد أبنائه ابنة خال له رحمه الله فقال له خاله يا أبا محمد هل تشير بولدك، يعني هل تنصحني أن أزوجه ابنتي فقال له رحمه الله تعالى: لا والله يا خال ما أشير به، يعني لا أنصحك بتزويجه، وكان رحمه الله لاحظ على ابنه أمراً لا يُؤثّر على تزويجه. اللهم اغفر له وارحمه جاء يخطب لولده وأشار

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٣٠، ومسلم في الأيمان ١٦٦١، وأبو داود في الأدب ٥١٥٧.

على والد البنت ألا يزوجه لما استشاره، ما أصعب هذا وأشده على النفوس. اللهم وفقنا للإنصاف من أنفسنا وقول الحق وقبوله وإن كان علينا.

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ﴾ «ألا» الهمزة للاستفهام الإنكاري و«لا» نافية. أي: ألا يتيقن أولئك المطففون، والظن يأتي في القرآن كثيراً بمعنى اليقين كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)﴾ [البقرة: ٤٦]، أي: يتيقنون ذلك.

﴿أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ أي: أنهم مخرجون من قبورهم أحياء بعد موتهم.

﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: ليوم القيامة الذي فيه يحاسبون ويجازون على أعمالهم وهو يوم عظيم، ثقيل عسير عبوس قمطرير شره مستطير، قال تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢)﴾ [الحج: ١، ٢].

ولهذا نكّر «يوم» ووصفه بأنه عظيم، ولا يقدر عظمته إلا من وصفه بذلك، وهو العظيم سبحانه وتعالى.

﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: يوم يقوم الناس من قبورهم ويقفون بين يدي الله عز وجل حفاة عراة غرلاً، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨)﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٥١)﴾ [يس: ٥١].

ومن هنا سمي يوم القيامة بهذا الاسم لقيام الناس فيه من قبورهم، وقيامهم بين يدي الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦)﴾ [الرحمن: ٤٦]، أي: خاف القيام بين يديه عز وجل، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٤١)﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]، ولقيام الحساب والجزاء فيه والعدل الحقيقي كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١)﴾ [إبراهيم: ٤١]، وقيام الأشهاد كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١)﴾ [غافر: ٥١]. ولقيام الروح فيه والملائكة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨].

عن ابن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦)﴾ حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ ٤٩٣٨، ومسلم في الجنة - صفة القيامة أعاننا الله على أهوالها =

وعن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل، قال سليم - أحد رواة الحديث - ما أدري ما يعني بالميل، أمسافة الأرض، أم الميل الذي تكتحل به العين، قال: «فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً»، قال: وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه»[1].

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يفتتح قيام الليل: يكبر عشراً، ويحمد عشراً، ويسبح عشراً، ويستغفر عشراً، ويقول: «اللهم اغفر لي واهدني وارزقني وعافني، أعوذ بالله من ضيق المقام يوم القيامة»[2].

ولهذا خوف الله عز وجل المطففين بهذا اليوم العظيم، لأن الإيمان به وبما فيه من الأهوال والحساب والثواب والعقاب من أعظم ما يحمل على العمل وقد رُوي عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «لولا الإيمان باليوم الآخر لرأيت من الناس غير ما ترى»، أي: لتنكر الناس بعضهم لبعض وتهالكوا في المعاصي والشرور.

الفوائد والعبر:

١- الوعيد والتهديد للمطففين الذين يأخذون حقهم وافياً من الناس ويبخسون حقوق الناس، والإنكار عليهم، وتذكيرهم بالبعث والمعاد والقيام بين يدي الله في ذلك اليوم العظيم.
٢- وجوب الإيمان بالبعث والمعاد والقيام بين يدي رب العباد يوم القيامة وأن ذلك من أعظم الأسباب التي تحمل على تقوى الله ومراقبته وأداء الحقوق، ولهذا خوّف الله المطففين بهذا اليوم العظيم.
٣- وجوب مراقبة الله عز وجل وإيفاء الكيل والوزن، والعدل في التعامل مع الخلق.
٤- لا يجوز أن يكيل الإنسان بمكيالين يأخذ حقه من الناس وافياً وينتقص حقوق الناس، ويجب الإنصاف من النفس وإعطاء كل ذي حق حقه مادياً كان أو معنوياً.
٥ـ عظمة يوم القيامة وشدة أهواله.
٦ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ العامة لجميع الخلق.

=

٢٨٦٢، والترمذي في القيامة ٢٤٢٢، وابن ماجه في الزهد ٤٢٧٨، وأحمد ٢/ ١٣، ١٩.

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٦٤، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٢١، وأحمد ٦/ ٣-٤، وأخرجه أحمد ٥/ ٢٥٤ بنحوه من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، ومن حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه ٤/ ١٥٧.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة ـ ما يستفتح به الصلاة من الدعاء ٧٦٦، والنسائي في قيام الليل وتطوع النهار ١٦١٧.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝١٧﴾.

قوله: ﴿كَلَّآ﴾ في هذا الموضع، وفي الموضعين بعده للردع والزجر والوعيد والتهديد.

﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾ «كتاب» بمعنى مكتوب و(الفجار) جمع فاجر، وهم الكفرة أصحاب الفجور المكذبون بالبعث.

﴿لَفِى سِجِّينٍ﴾ اللام للتوكيد و«سجين» مأخوذ من السَّجن وهو الحبسُ والتضييق، أي: إن مصيرهم ومأواهم مكان ضيق ضنك مظلم موحش، في أسفل النار في الأرض السفلى، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣﴾ [الفرقان: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ [التين: ٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

وفي حديث البراء رضي الله عنه في قبض روح الكافر «اكتبوا كتابه في سجين»[(١)].

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ تعظيم وتفخيم لأمره، أي: وما أعلمك ما سجين، سفوله شديد، وضيقه عظيم، وسجنه مقيم، وعذابه أليم.

﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ توكيد لقوله ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ أي: توكيد لما كتب لهم من المصير إلى سجين.

ومعنى ﴿مَّرْقُومٌ﴾ أي: مكتوب مختوم مفروغ منه لا يغير ولا يبدل ولا يزاد فيه ولا ينقص منه، وذلك أن هذا من الكتابة والقضاء الكوني الذي لا بد أن يقع قطعاً.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ «ويل» كلمة زجر وتهديد ووعيد وهلاك ودمار وخسار والمعنى: ما أشد عذاب المكذبين في ذلك اليوم ويقال أيضاً: إنه واد في جهنم.

عن معاوية بن حيدة عن أبيه رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ويل للذي يحدث فيكذب، ليضحك الناس، ويل له، ويل له»[(٢)].

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة - المسألة في القبر ٤٦٥٣، وأحمد ٤/ ٢٨٧، والحاكم ١/ ٣٧ - وقال «صحيح على شرط مسلم» ووافقه الذهبي.
(٢) أخرجه أبو داود في الأدب ـ التشديد في الكذب ٤٩٩٠، والترمذي في الزهد ٢٣١٦، وأحمد ٥/ ٥ - ٦، ٧.

﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ تفسير وبيان ﴿لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي: الذين يكذبون بيوم القيامة الذي يدان فيه الناس بأعمالهم، ويعتقدون استحالة وقوعه ولا يصدقون به.

﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ﴾ أي: وما يكذب بيوم الدين وينكر وقوعه ﴿إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ﴾ «إلا» للحصر، أي: إلا كل متجاوز الحق إلى الباطل، والحلال إلى الحرام في أقواله وأفعاله ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الإثم، أي: كثير الذنوب. وقيل: ﴿معتد﴾ في أفعاله ﴿ أثيم ﴾ في أقواله.

﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ﴾ أي: إذا تقرأ عليه ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ أي: آياتنا الشرعية، القرآن الكريم.

﴿قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: قال عن آيات الله إذا سمعها هذه ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ «الأساطير» جمع أسطورة، أي: خرافاتهم وحكاياتهم التي تذكر للتسلي، ولا حقيقة لها، ولا أصل، أي: هذا مجموع مما سطره الأولون في كتبهم من أخبار وخرافات وغير ذلك، كما قال تعالى عنهم ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝﴾ [الفرقان: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝﴾ [الأنفال: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝﴾ [النحل: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ۝ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝﴾ [النمل: ٦٧، ٦٨].

وهكذا كل من لم يصل نور الإيمان إلى قلبه.

﴿كَلَّاۖ﴾ أي: كلا، ليس الأمر كما زعموا أن لا بعث ولا حساب، ولا كما ادعوا أن القرآن أساطير الأولين، فالبعث حق وصدق والقرآن كلام رب العالمين سبحانه وتعالى.

﴿بَلۡۜ﴾ للإضراب الانتقالي.

﴿رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ أي: غلب عليها، وغشيها وغطاها، وحجبها وأعماها عن الحق، والرين: هو الحجاب الكثيف المانع للقلب من رؤية الحق، والانقياد له.

﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ «ما» مصدرية، أو موصولة، أي: كسبهم، أو الذي كانوا يكسبون من الذنوب المتراكم بعضها على بعض، أي: حال بين قلوبهم وبين معرفة الحق والاهتداء إليه ما عملوه من الذنوب والمعاصي المتراكمة فصارت هذه الذنوب حجاباً بينهم وبين قلوبهم، وبينهم وبين ربهم وخالقهم.

كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ۝﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ

لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَـٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ [البقرة: ٨١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، فإن زاد زادت، حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذي ذكر الله في قوله ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ »[1].

فالمعصية سبب للمعصية بعدها، والمعاصي سبب لانطماس القلوب، وعمى البصائر، وحيرتها ولهذا تجد كثيراً من الناس، بل كثيراً من المسلمين يتخبطون في كثير من أمورهم وأحوالهم، ولا يوفقون فيها للحق والصواب بسبب الذنوب والمعاصي. وما تعيشه الأمة اليوم من أحداث وتفرق وخلافات أدت إلى اختلاف القلوب كل ذلك سببه الذنوب والمعاصي وصدق الله العظيم ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٤٠].

فلا طريق لمعرفة الحق والاهتداء إليه والخروج من الحيرة والتذبذب أمام كل القضايا والمشكلات، إلا بالرجوع إلى الله عز وجل وسؤاله الرشد والهداية كما قال عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، أي: ما تفرقون به بين الحق والباطل والخير والشر، في أمور الدين والدنيا، وقال عز وجل في الحديث القدسي: «وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي عليها وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»[2].

ولهذا كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة[3].

وكان ﷺ يدعو ويقول: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[4].

---

(١) اخرجه الترمذي في تفسير سورة المطففين ٣٣٣٤، وابن ماجه في الزهد - ذكر الذنوب ٤٢٤٤، وأحمد ٢/ ٢٩٧، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٢٠٠، وقال الترمذي «حديث صحيح».

(٢) اخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٠٢ - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

(٣) اخرجه ابو داود في الصلاة ١٣١٩، وأحمد ٥/ ٣٨٨ - من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٤) اخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٧٧٠، وابو داود في الصلاة ٧٦٧، والنسائي في قيام الليل ١٦٢٥، والترمذي في الدعوات ٣٤٢٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٥٧ - من حديث عائشة - رضي الله عنها.

وكان ﷺ يقول: «اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي سمعي نوراً، وفي بصري نوراً، وعن يميني نوراً، وعن يساري نوراً، ومن أمامي نوراً، ومن خلفي نوراً، ومن فوقي نوراً، ومن تحتي نوراً، واجعل لي نوراً»[١].

والمصيبة أن كثيراً من المسلمين اليوم عدلوا عن هذا المنهج الرباني والذي فيه الضمان بإذن الله تعالى لمعرفة الحق والاهتداء إلى الصواب في كل أمر وصار كثير منهم يبحث عن الدواء من مصدر الداء، ويطلب الحق من مصدر الباطل، والخير من مصدر الشر، وذلك من خلال الرجوع لوسائل الإعلام المختلفة من القنوات الفضائية والإذاعات وشبكة المعلومات والصحف والمجلات التي تزيد الطين بلة، وتؤدي إلى زيادة الحيرة، وجلها أسست لهذا الغرض، فمتى كان الذئب راعياً للغنم، وأصبح كثير من الناس يركض وراء السراب والماء بين يديه، كما قيل:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما   والماء فوق ظهورها محمول

فيا أخي المسلم إذا أردت الهداية والتوفيق والسعادة ومعرفة الحق والاهتداء إلى الصواب في كل نازلة، فالزم تقوى الله بأداء الواجبات والبعد عن المنهيات وأداء حقوق الله وحقوق الخلق، وما توليت من أعمال للأمة يمنحك الله بصيرة في أمر دينك ودنياك ولن تضار بإذن الله عز وجل، وأبشر بالخير إن شاء الله.

﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: عن رؤية ربهم في الآخرة ﴿لَّمَحْجُوبُونَ﴾ أي: لممنوعون عقوبة لهم، ومفهوم هذا أن المؤمنين يرون ربهم في ذلك اليوم، وأنهم يتلذذون بالنظر إليه أعظم من سائر اللذات، لأن رؤيتهم له عز وجل أعظم نعيمهم وأعلاه ولهذا قال ﷺ في الدعاء: «وأسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة»[٢]. وقد قال عز وجل: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وفسر ﷺ الحسنى بالجنة والزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم[٣].

وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وعلى

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٣١٦، ومسلم في صلاة المسافرين ٧٦٣، وأبو داود في الصلاة ١٣٥٣، والنسائي في التطبيق ١١٢١، والترمذي في الصلاة ٢٣٢ – من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه النسائي في السهو ١٣٠٥ ـ من حديث عمار بن ياسر ـ رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان ١٨١، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٢، وابن ماجه في المقدمة ١٨٧ من حديث صهيب رضي الله عنه.

هذا دلت السنة وأجمع الصحابة والأئمة، قال ﷺ: «إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس صحواً ليس دونها سحاب»[١].

وفي حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه: «كما ترون القمر ليلة البدر، لا تضامون في رؤيته»[٢].

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ أي: لداخلوها ومغمورون فيها ومقاسون حرها.

﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: ثم يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ والتبكيت والتحقير والتصغير ﴿ هذا ﴾ أي: حرمانكم من رؤية الرب الغفار، وإصلاؤكم الجحيم والنار ﴿ الذي كنتم به ﴾ في الدنيا ﴿ تكذبون ﴾ فتقولون: لا بعث ولا حساب ولا ثواب ولا عقاب. وهذا من العذاب المعنوي المنصب على القلوب، والذي لا يقل عن العذاب الحسي.

الفوائد والعبر:

١- أن كتاب الفجار ومصيرهم ومأواهم في مكان ضيق ضنك في أسفل النار في الأرض السفلى.

٢- تأكيد شدة سوء هذا المكان سفولاً وضيقاً وظلمة ووحشة وتحتم مصير الفجار إليه.

٣- الوعيد والتهديد للمكذبين بالحق وبالبعث والحساب والجزاء على الأعمال.

٤- لا يكذب بالبعث إلا كل متجاوز الحق إلى الباطل والحلال إلى الحرام كثير الإثم والذنوب مكذب للقرآن.

٥- أن الذنوب والمعاصي تغشى القلوب وتعميها عن الحق.

٦- حرمان الفجار من رؤية ربهم عز وجل في الآخرة، وحجبهم عنه، وإثبات ربوبيته - عز وجل - العامة لجميع الخلق.

٧ - إثبات رؤية المؤمنين لربهم في الجنة لقوله في الفجار ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝﴾ ومفهوم هذا أن المؤمنين يرونه وعلى هذا دل الكتاب والسنة، وعليه أجمع الصحابة وسلف هذه الأمة.

٨ - إدخال الفجار الجحيم واصلاؤهم وغمرهم فيها وإحاطتها بهم من كل جهة.

٩ - الجمع للفجار بين العذاب الحسي في الجحيم والعذاب المعنوي المنصب على القلوب من التقريع والتوبيخ والتبكيت والتحقير.

---

(١) اخرجه البخاري في التوحيد - قوله ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝﴾ ٧٤٤٠، ومسلم في الإيمان ١٨٢، ١٨٣، من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(٢) اخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٥٤، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٦٣٣، وابو داود في السنة ٤٧٢٩، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥١، وابن ماجه في المقدمة ١٧٧، من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة مآل الفجار الكفار المكذبين بالبعث والحساب، وتوعدهم بالويل والهلاك والدمار، والحرمان من رؤية الجبار، وإصلائهم بالجحيم والنار ثم أتبع ذلك بذكر مآل الأبرار وما أعد الله لهم في أعالي الجنان من النعيم.

قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ هذا مقابل قوله ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ و«كلا» هنا بمعنى: حقاً، و«كتاب» بمعنى: مكتوب.

و(الأبرار) جمع بر، وهم المؤمنون المتبعون لأوامر الله والمجتنبون لنواهيه كثيرو الخير والإحسان وضدهم الكفار الفجار[1].

﴿لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ اللام للتوكيد، و(عليين) مأخوذ من العلو والارتفاع، أي: إن مصيرهم و مآلهم في مكان عال مرتفع، وهو أعلى الجنة في السماء السابعة.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ تعظيم وتفخيم لأمره، أي: وما أعلمك ما عليون منزل رفيع ومكان وسيع، ومجلس كريم، فيه ألوان النعيم.

﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ توكيد لقوله ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ أي: توكيد لما كتب لهم من المصير إلى عليين ﴿مَّرْقُومٌ﴾ أي: مكتوب لا يتغير ولا يتبدل ولا يزاد فيه ولا ينقص منه.

﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أي: يحضره المقربون عند الله عز وجل من الملائكة والنبيين وسادات المؤمنين تنويهاً بهذا الكتاب وإشهاراً له، وتعظيماً لشأن الأبرار وإشادة بذكرهم.

والمقربون: جمع «مقرب» وهم الذين تقربوا إلى الله عز وجل بالإيمان والأعمال الصالحة فقربهم إليه كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، أي: اطلبوا إليه القربة والزلفى عنده.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ هذا بيان لما كتب لهم في عليين و«النعيم» كل ما تتنعم وتسر به القلوب وكل ما تلذ به وترتاح له النفوس من المآكل والمشارب والأزواج والمساكن

---

(١) انظر: الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝﴾ [الانفطار: ١٣].

والبساتين وغير ذلك من ألوان النعيم المعنوي نعيم القلب والنعيم الحسي نعيم البدن.

﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ هذا إلى قوله: ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ تفصيل للنعيم المذكور في قوله ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾.

و ﴿ الأرائك ﴾ جمع أريكة، وهي السرر المزينة المزخرفة الرفيعة عليها الفرش الناعمة الحسنة البهية وضع عليها مثل الظل.

﴿ ينظرون ﴾ أي: ينظرون إلى ما أعطاهم الله من النعيم والملك الكبير، والذي أعلاه النظر إلى وجه الله الكريم.

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة، يرى أقصاه كما يرى أدناه، وإن أعلاهم لمن ينظر إلى الله في اليوم مرتين»[١].

وهذا في مقابل ما أعده الله للفجار من العذاب الأليم، والحرمان من رؤية الرب الرحيم.

﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ قرأ أبو جعفر ويعقوب بضم التاء وفتح الراء (تُعرَف) ورفع (نضرةُ)، وقرأ الباقون بفتح التاء وكسر الراء، (تَعرِف)، ونصب (نضرةَ). أي: تعرف وترى في وجوههم إذا نظرت إليها نضارة التنعم وحسنه وبهاءه وبريقه، وبهجة الفرح والسرور لأن أثر ذلك يبدو واضحاً على الوجوه، وفي الحديث: «أنه ﷺ إذا سُر استنار وجهه كأنه قطعة قمر»[٢].

﴿يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ﴾ أي: يسقون من شراب الرحيق، وهو الخمر، الذي يطوف به عليهم الولدان المخلدون كما قال عز وجل: ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الواقعة: ١٧ ـ ١٩].

﴿مَّخۡتُومٍ﴾ أي: مختوم عليه عن أن يداخله شيء ينقص لذته، أو يفسد طعمه ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞ﴾ قرأ الكسائي (خاتمه) وقرأ الباقون (ختامه) أي: آخر شربة منه، برائحة المسك.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أيما مؤمن سقى مؤمناً شربة

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ١٣، والترمذي في تفسير سورة القيامة ٣٣٨٦.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب ٣٥٥٦، ومسلم في التوبة ٢٧٦٩، والترمذي في التفسير ٣١٠٢ – من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

على ظمأ، سقاه الله يوم القيامة من الرحيق المختوم، وأيما مؤمن أطعم مؤمناً على جوع، أطعمه الله من ثمار الجنة، وأيما مؤمن كسا مؤمناً ثوباً على عري كساه الله من خُضْر الجنة»[1].

﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات: ٦١].

﴿ وفي ذلك ﴾ الإشارة إلى ما أعده الله عز وجل للأبرار من ألوان النعيم السابقة وغيرها، ﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ﴾ التنافس والمنافسة: المسابقة يقال نافسته أي: سابقته سباقاً بلغ بي النفس.

أي: وفي الحصول على هذا النعيم والعيش الكريم والخير العميم فليتسابق المتسابقون بأعمال البر من فعل الطاعات والقربات والخيرات والأعمال الصالحات والبعد عن المنهيات.

﴿وَمِزَاجُهُۥ﴾ أي: ما يمزج به ويخلط هذا الرحيق الذي يسقى منه الأبرار ﴿مِن تَسْنِيمٍ﴾ أي: من شراب من عين تسمى ﴿ تسنيم ﴾ تنبع من الفردوس في أعلى الجنة، وهو أفضل شراب أهل الجنة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة»[2].

ولهذا فسر ذلك بقوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أي: هذا التسنيم. ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ «عينا» مفعول به لفعل محذوف تقديره أعني، أو أمدح، أو يسقون.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ صرفاً وتمزج لأصحاب اليمين مزجاً»[3].

ومعنى ﴿يشرب بها﴾ أي: يشربون منها ويرتوون، ولهذا قال ﴿بها﴾ ولم يقل (منها) فضمن «يشرب» معنى «يروى» فعدي بالباء، كما في قول الشاعر:

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ١٣ – ١٤.
(٢) أخرجه البخاري في التوحيد ـ كان عرش الرحمن على الماء ٧٤٢٣.
(٣) انظر «مجموع الفتاوى» ٦/ ١٢.

شربن بماء البحر ثم ترفعت   متى لجج خضر لهن نئيج[١]

و﴿المقربون﴾ هم المقربون عند الله عز وجل وهم السابقون المذكورون في قوله ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝﴾ [الواقعة: ١٠، ١١].

وهم السابقون بالخيرات كما في قوله ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢].

والمعنى: أن هذه العين المسماة ﴿تَسْنِيمٍ﴾ والتي نبعها وشرابها أفضل وأعلى شراب أهل الجنة يشرب منها صرفاً بلا خلط المقربون ويرتوون منها بينما تمزج مزجاً للأبرار وهم أصحاب اليمين بالرحيق، كما في قوله هنا ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝﴾ [المطففين: ٢٥ ـ ٢٧]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝﴾ فهذا خليط من الخمر والكافور للأبرار ثم قال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝﴾ [الإنسان: ٥، ٦]، أي: عين الكافور يشرب منها المقربون خالصة صرفاً، بلا مزج ويرتوون.

والجزاء من جنس العمل فكما خلصت أعمال المقربين كلها خلص شرابهم. وكما مزج الأبرار الطاعات بغيرها مزج لهم شرابهم.

الفوائد والعبر:

١- جمع القرآن الكريم بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد.

٢ـ أن كتاب الأبرار ومصيرهم ومأواهم إلى عليين، وهذا أمر محقق لا مرية فيه.

٣- تعظيم منزلة الأبرار وعلو مكانتهم في الجنة وتأكيد ذلك لهم.

٤- تشريف الأبرار وتكريمهم بشهود المقربين كتابهم المرقوم.

٥- عظم ما أعده الله للأبرار من النعيم، فهم على الأسرة ينظرون إلى ما أعد لهم من الملك العظيم، مع بهجة القلوب ونضارة الوجوه، شرابهم الرحيق المختوم بالمسك الممزوج بالتسنيم.

٦- أن هذا النعيم العظيم الذي أعده الله للأبرار هو الذي يجب أن يتنافس فيه المتنافسون ويتسابق إليه المتسابقون.

٧- أن المقربين يشربون صرفاً من عين التسنيم.

---

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي انظر «ديوان الهذليين» ١/ ٥١، ٥٢.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

بعد ما ذكر الله عز وجل مآل الفجار، وما أُعد لهم من أنواع العذاب، وذكر مآل الأبرار وما أعده لهم من ألوان النعيم، ذكر ما كان يلقاه المؤمنون من المجرمين الفجار في الدنيا من الضحك والاستهزاء بهم ورميهم بالضلال فجعل الله العاقبة للمتقين وجوزي الكفار بما كانوا يفعلون.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾ أي: الذين ارتكبوا الجرائم والموبقات.

﴿كَانُواْ﴾ أي في الدنيا ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ﴾ أي: يضحكون من المؤمنين استهزاء وسخرية بهم بسبب إيمانهم.

﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ أي: إذا مر هؤلاء المجرمون بالمؤمنين يغمز بعضهم بعضا بالإشارة باليد، أو بالعين أو بغير ذلك تنقصاً للمؤمنين واحتقاراً لهم وسخرية منهم.

ويحتمل أن المعنى: وإذا مر الذين آمنوا بهؤلاء المجرمين ﴿ يتغامزون ﴾.

والمعنى متقارب وهو ان هؤلاء المجرمين إذا رأوا المؤمنين يتغامزون احتقاراً لهم وسخرية منهم وقريب من هذا قول المنافقين في غزوة تبوك فيما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وغيره: «ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء ـ يعنون رسول الله ﷺ وأصحابه، فأنزل الله قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التوبة: ٦٥ ـ ٦٦]»[1].

﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ﴾ أي: إذا رجع هؤلاء المجرمون إلى أهلهم من أزواج وأولاد وغيرهم ﴿ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ قرا ابو جعفر وحفص (فكهين) بغير ألف وقرأ الباقون

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١١/٥٤٣.

(فاكهين) بالألف، أي: رجعوا حال كونهم متفكهين متلذذين بتنقصهم للمؤمنين واحتقارهم لهم، واستهزائهم بهم وسخريتهم منهم، ومن هنا قيل للغيبة فاكهة المجالس.

ومتفكهين بنعم الله عليهم التي لا تحصى لكنهم لم يشكروها، بل كفروها واشتغلوا بالاستهزاء بالمؤمنين واحتقارهم فجمعوا بين الكفر بالله وبنعمه وأذية عباده المؤمنين.

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ أي: إذا رأى هؤلاء المجرمون الذين آمنوا قالوا: إن هؤلاء القوم ﴿ لضالون ﴾ أي: لتائهون عن الحق والصواب وليسوا على هدى.

وهذا دأب المكذبين في كل زمان ومكان كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات: ٥٢]، وإذا كان هذا يقال للرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - فمن دونهم سيرمى بالضلال ونحو ذلك من باب أولى. فانتبه أخي المسلم لهذا، ولا يفت في عضدك ما دمت على الحق.

﴿وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾ أي: وما بعث هؤلاء المجرمون على المؤمنين ﴿حافظين﴾ يرقبونهم ويحفظون أعمالهم ويحصونها ويحكمون عليهم، فلم اشتغلوا بهم وأهملوا أنفسهم، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٨ - ١١١].

ولهذا فإن من ضعف العقل وانطماس البصيرة انشغال المرء بعيوب غيره عن عيوب نفسه، يرى القذاة في عين أخيه، ولا يرى الجذع في عينه، وكما قيل:

قبيح من الإنسان ينسى عيوبه ويذكر عيباً في أخيه قد اختفى

ولو كان ذا عقل لما عاب غيره وفيه عيوب لو رآها بها اكتفى

﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ الجزاء من جنس العمل وكما يدين المرء يدان فكما ضحك المجرمون والكفار من المؤمنين في الدنيا فإن المؤمنين يضحكون منهم يوم القيامة جزاء وفاقاً.

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ الأرائك: جمع اريكة، أي: على الأسرة والفرش الحسنة الناعمة ينظرون إلى ما أعد الله لهم من النعيم وأعلاه النظر إلى وجه الله الكريم، فتبين بهذا انهم هم المهتدون حقاً، لا الضالون، كما زعم المجرمون. وأيضاً ينظرون إلى هؤلاء

المجرمين وهم في النار يعذبون.

﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ﴾ «هل» للاستفهام التقريري، أي: هل جوزي الكفار ﴿مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: الذي كانوا يفعلون، أو فعلهم.

والجواب: نعم جوزي الكفار على فعلهم أوفر الجزاء وأتمه وأكمله حتى إنه قوبل ضحكهم من المؤمنين في الدنيا بضحك المؤمنين منهم في الآخرة والجزاء من جنس العمل ولا يظلم ربك أحدا.

الفوائد والعبر:

١- شدة عداوة الكفار والمجرمين وأذيتهم للمؤمنين وضحكهم منهم في الدنيا واستهزاؤهم بهم، وتنقصهم واحتقارهم لهم.

٢- تفكه هؤلاء المجرمين عند رجوعهم إلى أهلهم باستهزائهم بالمؤمنين وباحتقارهم لهم، وتفكههم بنعم الله عز وجل وكفرهم به وبنعمه.

٣- وجوب الحذر من الاستهزاء أو السخرية بأحد من المؤمنين، أو بشيء من الدين أو كفر النعم فهذا دأب الكفار والمجرمين والمنافقين.

٤- جرأة المجرمين والكفرة والمنافقين على رمي المؤمنين بالضلال، واتهامهم لهم بأشد الاتهامات تنفيراً للناس منهم.

٥- الرد على المجرمين في حكمهم على المؤمنين بالضلال، وانشغالهم بهم، وبمالا يعنيهم عن أنفسهم.

٦ – الحذر من انشغال المرء عما يعنيه بما لا يعنيه، وعن عيوب نفسه بعيوب الآخرين.

٧- أن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان، فكما ضحك المجرمون من المؤمنين في الدنيا، وتفكهوا في ذلك، ضحك منهم المؤمنون في الآخرة وهم على الأسرة ينظرون إلى ما هم فيه من النعيم، وإلى أولئك المجرمين يعذبون.

٨- مجازاة الكفار بفعلهم.

تفسير سورة الانشقاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ (١٤) بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا (١٥)﴾.

قوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ (٣٧)﴾ [الرحمن: ٣٧]، أي: إذا السماء انفطرت وتصدعت وانفتحت وانفرجت وذلك يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ (١)﴾ [الانفطار: ١]، وقال تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا (١٩)﴾ [النبا: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ (٩)﴾ [المرسلات: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: ٢٥].

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أي: استمعت لربها – خالقها ومالكها والمتصرف فيها -.

ومنه الحديث: «ما أذن الله لشيء كأذنه لنبي يتغنى بالقرآن»[١]. أي: ما استمع الله لشيء كاستماعه لنبي يتغنى بالقرآن.

ومنه قول الشاعر[٢]:

صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به ... وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

فالمعنى: استمعت لربها وأطاعت أمره لها بالانشقاق، كما أطاعته في ابتداء خلقه لها قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ (١١)﴾ [فصلت: ١١].

﴿وَحُقَّتْ﴾ أي: وحق لها ووجب عليها أن تسمع وتطيع لأمره، لأن هذا من أمره

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ٥٠٢٣، ومسلم في صلاة المسافرين ٧٩٢، وأبو داود في الصلاة ١٤٧٣، والنسائي في الافتتاح ١٠١٧ – من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) نسب هذا البيت إلى قعنب بن أم صاحب. انظر «الحماسة» لأبي تمام ٢/ ١٧٠، و«عيون الأخبار» لابن قتيبة ٣/ ٨٤، و«لسان العرب» مادة «أذن».

الكوني وهو نافذ لا محالة، لأنه عز وجل ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ [مريم: ٣٥].

﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ أي: دك ما عليها من جبال وبناء وغير ذلك ووسعت، ومدت كما يمد الأديم ويبسط.

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ أي: وألقت ما في باطنها من الأموات وتخلت عنهم، وذلك بعد النفخ في الصور كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس: ٥١].

وأيضاً ألقت ما فيها من الكنوز وتخلت عن ذلك كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الاسطوان من الذهب والفضة فيجيء القاتل فيقول في هذا قتلت، ويجيء القاطع فيقول في هذا قطعت رحمي، ويجيء السارق فيقول في هذا قطعت يدي. ثم يَدَعونه فلا يأخذون منه شيئاً»[1].

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ توكيد لاستماعها لربها وطاعتها له.

وجواب «إذا» في قوله ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ وما بعده محذوف، وهو مفهوم من السياق وتقديره حوسب الإنسان وجوزي ورأى ما قدم من خير أو شر، وعلى هذا يدل قوله بعده ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ الآيات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ نداء وخطاب للإنسان جنس الإنسان، من مؤمن، وكافر.

﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ الكدح: السعي والعمل.

قال الشاعر:

وما الدهر إلا تارتان فمنهما ... أموت وأخرى أبتغي العيش أكدح[2]

ومعنى الآية: إنك عامل وساع إلى ربك، أي: حتى تصل إلى ربك وتنتهي إليه، كما قال عز وجل ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

﴿ كدحاً ﴾ مصدر مؤكد، أي: عملاً وسعياً حثيثاً بجد ومشقة، إما خيراً، وإما شراً،

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة – الترغيب في الصدقة ١٠١٣، والترمذي في الفتن ٢٢٠٨.

(٢) البيت للعجير السلولي.

وشتان بين الكادحين.

قال ﷺ: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»[(١)].

قال لبيد:

وما الناس إلا عاملان فعامل ... يُتبِّر ما يبني وآخر رافع

﴿فملاقيه﴾ الفاء للترتيب والتعقيب، أي فملاق ربك عن قريب وسيجازيك بما عملت قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍ﴾ [العنكبوت: ٥] وكل آت قريب.

والعمر مهما طال في هذه الحياة فهو قصير، قال تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المؤمنون: ١١٢].

والحياة البرزخية مهما طالت أسرع وأقرب من ذلك ولهذا قال الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، وقال أصحاب الكهف ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩]، وقد لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً. فما أسرع ملاقاة الإنسان لربه، وما أقرب ذلك.

عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال جبريل: يا محمد عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه»[(٢)].

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر تلقاء وجهه فلا يرى إلا النار، فاتقوا النار ولو بشق تمرة»[(٣)].

قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾.

صلة هذه الآيات بما قبلها:

بعد ما بين ـ عز وجل ـ أن كل إنسان كادح في هذه الحياة وساع إلى ربه فملاقيه

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة ٢٢٣ – من حديث أبي مالك الأشعري – رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود الطيالسي – فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣٧٨.

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة ـ الصدقة قبل الرد ١٤١٣، ومسلم في الزكاة – الحث على الصدقة ولو بشق تمرة ١٠١٦، والنسائي في الزكاة ٢٥٥٢، ٤/ ٢٥٦.

فيجازيه بعمله ذكر انقسام الناس في ذلك اليوم إلى فريقين، فآخذ كتابه بيمينه، وآخذ كتابه بشماله من وراء ظهره، وتفصيل حال كل منهما في ذلك اليوم.

قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ الفاء: عاطفة، و«أما» حرف شرط وتفصيل و«من» اسم شرط جازم، أي: فأما من أعطي كتاب عمله بيده اليمنى تكريماً له، وهو المؤمن.

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط.

أي: فسوف يحاسب حساباً سهلاً خفيفاً، أي: عرضاً بلا مناقشة لحديث عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «من نوقش الحساب عذب»، قالت: فقلت: أليس الله يقول: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ ؟ قال: «ليس ذاك بالحساب، ولكن ذلك العرض، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب»[1].

وعنها رضي الله عنها قالت: «سمعت رسول الله ﷺ يقول في بعض صلاته: «اللهم حاسبني حساباً يسيراً» فلما انصرف قلت: يا رسول الله، ما الحساب اليسير؟، قال: «أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه، إنه من نوقش الحساب يا عائشة يومئذ هلك»[2].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «يدني الله المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه[3]، ويقرره بذنوبه فيقول أتذكر ذنب كذا وكذا؟ فيقول أي ربي. فيقول الله عز وجل أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»[4].

﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ أي: ويرجع من موقف الحساب إلى أهله في الجنة من الحور العين، وممن من الله عليهم من أهله في الدنيا بدخول الجنة من الأزواج والأولاد والوالدين وغيرهم بعد الفراق بينهم في الدنيا.

﴿ مسرورا ﴾ أي: قد استنار وجهه وظهرت عليه آثار سرور قلبه وفرحه واغتباطه بإعطائه كتابه بيمينه، وما فيه من الأجر والفضل من الله عز وجل، وبتيسير حسابه وتخفيفه، فيا حسن المنقلب، قال تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝﴾ [الإسراء: ٧١]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ ٤٩٣٩، ومسلم في كتاب الجنة - إثبات الحساب ٢٨٧٦، وأبو داود في الجنائز ٣٠٩٣، والترمذي في تفسير سورة ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ ٢٤٢٦، وأحمد ٦/ ٤٧.

(٢) أخرجه أحمد ٦/ ٤٨، وقال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣٧٩: «صحيح على شرط مسلم»، وأخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٢٣٦ - ٢٣٩.

(٣) أي: ستره ورحمته.

(٤) سبق تخريجه.

اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ١٩ ـ ٢٤].

قال أبو حازم رحمه الله: «أما المحسن فكالغائب يرجع إلى أهله فرحاً مسروراً، وأما المسيء فكالآبق يرجع إلى مولاه خائفاً مذعوراً».

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ﴾ الواو: عاطفة، أي: وأما من أعطي كتاب عمله.

﴿وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ أي: بشماله بعد أن تلوى وراء ظهره وهو الكافر كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ [الحاقة: ٢٥].

فأعطي كتابه بشماله إهانة له واحتقاراً وإذلالاً كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأحقاف: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

ولويت يده وراء ظهره لأنه نبذ كتاب الله عز وجل وراء ظهره ولم يرفع به رأساً والجزاء من جنس العمل.

﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا﴾ أي: فسوف ينادي بالثبور والهلاك والخسار، واثبوراه واهلاكاه واخساراه، كما قال تعالى عنه في سورة الحاقة: ﴿فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾ [الآيات: ٢٥ ـ ٢٧].

﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر والكسائي بضم الياء وفتح الصاد وتشديد اللام (ويُصَلّى) وقرأ الباقون بفتح الياء وإسكان الصاد وتخفيف اللام (ويَصْلَى).

(سعيرا) أي: ناراً مستعرة متوقدة، وهي «فعيل» بمعنى «مفعول» أي: مسعورة.

والمعنى: ويدخل النار المستعرة ويغمر ويُقلّب فيها ويقاسي حرها.

﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ أي: إنه كان في الدنيا في أهله، زوجه وأولاده وأقاربه فرحاً مغتبطاً بما هو عليه من الباطل، وذلك لموت قلبه، وعدم تفكيره في العواقب، وعدم خوفه مما أمامه.

وشتان بين هذا السرور الفاني الذي يعقبه الحزن والندم، والسرور في جنات النعيم، ولهذا قال ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[1].

وليس في قوله ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ ما يدل على حظر أن يكون المسلم في أهله

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٥٦، والترمذي في الزهد ٢٣٢٤، وابن ماجه في الزهد ٤١١٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

مسروراً، أو انه ينبغي أن يكون محزوناً، أو أن لا يسر بشيء أبداً، بل إن المسلم هو الأولى بالسرور والسعادة حقاً في الدنيا والآخرة، لكن سرور الدنيا وسعادتها مشوب بالكدر، لهذا ينبغي أن لا يطمئن إليها المسلم، وأن يكون منها على وجل.

﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أي: إنه اعتقد أنه لن يرجع إلى ربه، فهو لا يؤمن بالبعث، ولا يرجو ثواباً ولا يخشى عقاباً. والظن يستعمل كثيراً في القرآن بمعنى اليقين كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦]، أي: يعتقدون أنهم ملاقو ربهم.

والحَوْرُ: الرجوع، ومنه قوله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من الحور بعد الكور»[1].

قال لبيد:

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه ... يحور رماداً بعد إذ هو ساطع

والمعنى: إنه ظن أن لن يرجع إلى الله، ولن يبعث بعد موته كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨﴾ [يس: ٧٨].

﴿بَلَىٰٓ﴾ حرف جواب لإيجاب المنفي، أي: بلى سيرجع إلى ربه ويقف بين يديه كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: ١٦].

﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ أي: إن ربه عز وجل كان به بصيراً في الدنيا خبيراً بأعماله، محصياً لها، بصيراً به في الآخرة سيحاسبه ويجازيه عليها ولا يمكن أن يتركه سدى بلا تكليف ولا مجازاة.

الفوائد والعبر:

١- انشقاق السماء يوم القيامة واستماعها لأمر الله لها بذلك وطاعتها له.
٢- مد الأرض، وإلقاؤها ما في باطنها من الأموات وتخليها عنهم واستماعها لأمر الله لها بذلك وطاعتها له.
٣- ان أمر الله الكوني نافذ لا محالة لا محيد عنه، ولا مفر منه، لقوله ﴿ وحقت ﴾ أي: وحق لها ووجب عليها أن تطيع.
٤- سعي الإنسان وكدحه حتى يلقى ربه فيجازيه بعمله خيراً كان أو شراً، ولا محيد له عن ذلك.
٥- انقسام الناس في ذلك اليوم إلى سعيد يعطى كتابه بيمينه ويحاسب حساباً يسيراً ويرجع إلى أهله في الجنة فرحاً مسروراً، وإلى شقي يعطى كتابه بشماله من وراء ظهره يدعو على نفسه بالويل والثبور ويصلى السعير، لاغتباطه وسروره بين أهله في الدنيا بما هو عليه من الباطل وإنكاره البعث والمعاد.
٦- إثبات البعث والمعاد والحساب والجزاء على الأعمال.
٧- أن الله بصير بالعباد في دنياهم وأخراهم مطلع على أعمالهم وسيجازيهم عليها.
٨- إثبات ربوبية الله - عز وجل - العامة لجميع الخلق.

---

(١) أخرجه مسلم في الحج ١٣٤٣، والنسائي في الاستعاذة ٥٤٩٨، والترمذي في الدعوات ٣٤٣٩، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٨٨ - من حديث عبد الله بن سرجس - رضي الله عنه.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ﴿٢٥﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة بعض علامات وأهوال القيامة من انشقاق السماء ومد الأرض وإخراجها ما في باطنها من الأموات، وأن الإنسان ساعٍ إلى ربه فملاقيه فآخذ كتابه بيمينه مخفف حسابه وآخذ كتابه بشماله مثقل حسابه ثم أتبع ذلك بالقسم في هذه الآيات على تأكيد ما سبق وأن الإنسان سينقل من حال إلى حال حتى يصل إلى مأواه الأخير الجنة أو النار.

قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ الفاء: استئنافية، و«لا» للتنبيه وتأكيد القسم، والمعنى: أقسم بالشفق، والشفق: هو الحمرة بعد غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة.

عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ قال: «وقت المغرب ما لم يغب الشفق»[1].

وقال بعض المفسرين: المراد بالشفق النهار كله، لقوله بعده ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ وقال بعضهم: المراد به الشمس لقوله ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ والأشهر والأظهر القول الأول.

﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ معطوف على ما قبله فهو من جملة المقسم به و«ما» موصولة، أي: والذي وسق، أي: والذي ضم وحوى وجمع من نجم ودواب ووحوش وهوام وظلمة وغير ذلك.

﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ أي: إذا اجتمع نوره، وتم وكمل، واستوى واستدار، وذلك ليالي الإبدار.

﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾

هذا هو جواب القسم، أقسم عز وجل بثلاثة أشياء متعلقة بالليل، وهي الشفق، والليل وما جمع، والقمر إذا كمل.

---

(١) اخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٦١٢، وأبو داود في الصلاة ٣٩٦، والنسائي في المواقيت ٥٢٢، وأحمد ٢/ ٢١٠، ٢٢٣.

قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف (لتَركبَن) بفتح الباء، خطاباً للمفرد، أي: لتركبن أيها الإنسان أي: لتنقلَن من حال إلى حال.

وقرأ الباقون بضمها (لتركبُن) بضم الباء خطاباً للجمع، أي: لتَركبُن أيها الناس حالاً بعد حال، أي: لتنقلُن من حال إلى حال.

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٩﴾: حالاً بعد حال»(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم»(٢).

وعن سهل بن سعد الأنصاري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لتركبن سنن من كان قبلكم مثلاً بمثل»(٣).

وهذا هو الأظهر في معنى الآية، فدوام الحال من المحال فقد كان الإنسان عدماً لا ذكر له، ثم خلقه الله عز وجل، وانتقل في بطن أمه من حال إلى حال ومن طور إلى طور، ثم ولد، وانتقل من الطفولة إلى الصبا إلى الشباب ثم إلى الهرم و الشيخوخة وهو في ذلك بين رخاء وشدة، وغنى وفقر، وصحة وسقم، وعز وذل، وسرور وحزن، إلى غير ذلك من الأحوال، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وقلبه في ذلك كله إما متعلق بالله عز وجل وطاعته وإما متعلق بالدنيا وزهرتها من الأموال أو النساء والأولاد أو القصور والمراكب ونحو ذلك. وهو في ذلك ينتقل من مكان إلى مكان، ومن دار إلى دار إلى أن يموت فينتهي إلى مصيره ومأواه في دار القرار، فإما إلى الجنة دار المقربين والأبرار وإما إلى النار وبئس القرار.

عن ابن شماسة المهري قال: «حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياقة الموت، فبكى طويلاً، وحوّل وجهه إلى الجدار، فجعل ابنه يقول: يا أبتاه أمَا بشرّك رسول الله ﷺ بكذا؟ أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا؟، قال: فأقبل بوجهه، فقال: إن أفضل ما نعد شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، إني كنت على أطباق ثلاث: لقد رأيتني وما أجد أشد بغضاً

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٤٠

(٢) أخرجه البخاري في الفتن ٧٠٦٨، والترمذي في الفتن ٢٢٠٦.

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ٣٤٠، وأخرجه أيضاً من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه ٥/ ٢١٨، والترمذي في الفتن وقال: «حديث حسن صحيح».

لرسول الله ﷺ مني، ولا أحب إليّ أن أكون قد استمكنت منه، فقتلته، فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار، فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك، فبسط يمينه، قال: فقبضت يدي، قال: «مالك يا عمرو؟» قال: قلت: أردت أن أشترط، قال: «تشترط بماذا؟» قلت: أن يغفر لي، قال: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله» وما كان أحد أحب من رسول الله ﷺ ولا أجل في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت لأني لم أكن أملأ عيني منه، ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة، ثم ولينا أشياء ما أدري ما حالي فيها..» الحديث[1].

ولما كان هذا المقسم به وعليه فيه أعظم الأدلة على ربوبيته عز وجل ووحدانيته وكماله وصدق رسله، وعلى المعاد، عقبه بقوله:

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الفاء: عاطفة، و«ما» للاستفهام الإنكاري، أي: فما الذي يمنعهم من الإيمان؛ أو أي شيء يمنعهم من الإيمان مع وضوح البرهان، وتحقق انتقالهم من حال إلى حال إلى أن ينتهوا إلى دار القرار، قال تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ۝٣٩﴾ [النساء: ٣٩].

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩﴾ أي: وما الذي يمنعهم إذا تلي عليهم القرآن أن يخضعوا له وينقادوا لأوامره ويصلوا، ويسجدوا على الأعضاء السبعة عند سجداته تعظيماً له، وشكراً لله عز وجل.

وقد ثبت أن النبي ﷺ سجد في هذه السورة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «سجدنا مع رسول الله ﷺ في ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝١﴾ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾»[2].

وعن أبي رافع رضي الله عنه قال: «صليت مع أبي هريرة العتمة، فقرأ ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ فسجد، فقلت له، قال: سجدت خلف أبي القاسم ﷺ فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه»[3].

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ١٢١.

(٢) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٥٧٨، وأبو داود في الصلاة ١٤٠٧، والنسائي في الافتتاح السجود في ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ ٩٦٣، والترمذي في الجمعة ٥٧٣، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها ١٠٥٨.

(٣) أخرجه البخاري في الأذان ٧٦٦، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٥٧٨، وأبو داود في الصلاة ١٤٠٨، والنسائي في الافتتاح ٩٦١.

وقد استدل بهذه الآية على وجوب سجود التلاوة بعض أهل العلم واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية، والصحيح أنه سنة مؤكدة، وليس بواجب لما ثبت عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قرأ سورة النمل فلما وصل آية السجدة نزل من المنبر فسجد، ثم قرأها من الجمعة الثانية فمر بها ولم يسجد فقال رضي الله عنه: «إن الله لم يفرض علينا السجود إلا أن نشاء»[1] وكان ذلك بمحضر من الصحابة رضي الله عنهم ولم ينكر عليه أحد، وقد قال ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ»[2].

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ «بل» للإضراب الانتقالي، أي: بل الذين كفروا يكذبون بالحق ولا يصدقون به جحوداً وعناداً، فهذا هو سبب عدم إيمانهم وعدم سجودهم.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾ «أعلم» أفعل تفضيل، أي: أنه عز وجل أعلم من كل احد ﴿بِمَا يُوعُونَ﴾ أي: بما يجمعون ويضمرون، بل هو ـ عز وجل ـ أعلم بهم من أنفسهم كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝﴾ [الملك: ١٤].

والمعنى: والله أعلم بالذي يجمعون ويضمرون في صدورهم من الكيد للحق والعداوة له ولأهله، وما يجمعون من أعمال باطلة، وأموال هي زادهم إلى النار.

قال عبيد بن الأبرص[3]:

الخير يبقى وإن طال الزمان به ... والشر أخبث ما أوعيت من زاد

أي: أخبث ما جمعت من زاد.

﴿فَبَشِّرْهُم﴾ الخطاب والأمر للرسول ﷺ ولكل من يصلح خطابه، أي: فبشرهم أيها المبشر، وأخبرهم ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ كما قال تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝﴾ [النساء: ٣٨].

والبشارة في الأصل تستعمل فيما يسر، أخذاً من انبساط البشرة واتساعها عند ورود الخبر السار لها، واستعملت هنا في البشارة بالعذاب الأليم على سبيل التهكم والاستهزاء.

﴿ اليم ﴾ «فعيل» بمعنى «مفعل» أي: مؤلم حساً ومعنى.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ «إلا» أداة استثناء بمعنى «لكن» فالاستثناء منقطع، أي: لكن

---

(١) أخرجه البخاري في سجود القرآن ـ من رأى أن الله عز وجل لم يوجب السجود ١٠٧٧ – من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أبو داود في السنة ٤٦٠٧، والترمذي في العلم ٢٦٧٦، وابن ماجه في المقدمة ٤٢ – من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

(٣) انظر «لسان العرب» مادة «وعى».

﴿الذين آمنوا﴾.

والإيمان لغة: التصديق كما قال إخوة يوسف ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ۝١٧﴾ [يوسف: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [سبأ: ٣١] أي: لن نصدق بهذا القرآن ولا بالذي سبقه من الكتب السماوية.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم من صلاة وزكاة وصوم وحج وجهاد وبر للوالدين وصلة للأرحام وأداء لحق الجار، وأمر بمعروف ونهي عن منكر وغير ذلك.

وحذف الأعمال، واكتفى بالصفة، وهي ﴿ الصالحات ﴾ لأن المهم في العمل أن يكون صالحاً، أي: خالصاً لله عز وجل، وفق سنة رسوله ﷺ.

﴿لَهُمْ أَجْرٌ﴾ «لهم» جار ومجرور خبر مقدم، و«أجر» مبتدأ مؤخر، أي: لهم خاصة دون غيرهم. ونكّر «أجر» للتعظيم، أي: ثواب عظيم، وسمي الثواب أجراً، تشبيهاً له بأجرة الأجير، لأن الله عز وجل بكرمه وفضله وامتنانه تكفل بهذا الثواب وأوجبه على نفسه.

﴿غَيْرُ مَمْنُونٍۭ﴾ أي: غير مقطوع، ولا ممنوع، كما قال تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨].

وغير ممنون به عليهم، كمنة الخلق بعضهم على بعض، وإلا فإن لله عز وجل المنة والفضل والإنعام على جميع خلقه بنعمة الربوبية العامة وله المنة والفضل والإنعام على أوليائه المتقين وحزبه المفلحين بنعمة الربوبية الخاصة كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١١].

الفوائد والعبر:

١- إقسام الله عز وجل بالشفق، والليل وما جمع، والقمر إذا اكتمل ـ على انتقال الناس من حال إلى حال إلى أن يلقوا ربهم.

٢- أن دوام الحال من المحال والبقاء للحي القيوم ـ سبحانه وتعالى ـ.

٣- لله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته لأن إقسامه بها يدل على عظمته هو وعظمة مخلوقاته.

٤- الإنكار على الكافرين في عدم إيمانهم، وعدم خضوعهم وسجودهم عند تلاوة القرآن مع ما فيه من المواعظ والأحكام، وتحقق انتقالهم من حال إلى حال إلى أن يلقوا ربهم.

٥- تكذيب الكفار للرسول ﷺ وللقرآن.

٦- علم الله عز وجل بما يجمع الكفار ويضمرون في صدورهم من الكيد للحق والعداوة له ولأهله، وما يجمعون من الأعمال الباطلة والأموال المحرمة وغير ذلك.

٧- البشارة للكفرة المكذبين بالعذاب الأليم حساً ومعنىً تهكماً بهم وسخرية منهم.

٨- البشارة للذين آمنوا وعملوا الصالحات بالثواب العظيم غير المقطوع، ولا الممنوع.

تفسير سورة البروج

عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج، والسماء والطارق»[١].

وعنه رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ أمر أن يقرأ بالسموات في العشاء»[٢].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝١٠ ﴾.

قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ الواو: حرف قسم وجر، والسماء مقسم به مجرور.

﴿ ذات البروج ﴾ أي: صاحبة البروج، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ۝٦١﴾ [الفرقان: ٦١].

والبروج: جمع برج، مأخوذ من الظهور والعلو والارتفاع، وهي النجوم والكواكب العظام، أو منازل الشمس والقمر، وهي اثنا عشر برجاً، تسير الشمس في كل واحد منها شهراً، ويسير القمر في كل واحد منها يومين وثلثا، فذلك ثمان وعشرون منزلة، ويستسر ليلتين.

وهذه البروج الاثنا عشر هي: الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة، والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت.

﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ يوم القيامة، الموعود وقوعه وبعث الناس فيه، كما قال تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ۝١٠٤﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

﴿ وشاهد ﴾ يوم الجمعة ﴿ ومشهود ﴾ يوم عرفة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في هذه الآية: ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ قال: ﴿ واليوم الموعود ﴾ يوم القيامة ﴿ وشاهد ﴾ يوم الجمعة، وما طلعت شمس ولا غربت على يوم أفضل من يوم الجمعة فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله

---

(١) اخرجه احمد ٢/ ٣٢٦ ـ ٣٢٧.

(٢) اخرجه احمد ٢ / ٣٢٧.

فيها خيراً إلا أعطاه الله إياه، ولا يستعيذ فيها من شر إلا أعاذه ﴿ ومشهود ﴾ يوم عرفة»[١].

وقد رواه بعض الأئمة موقوفاً على أبي هريرة رضي الله عنه قال: «الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة، والموعود يوم القيامة»[٢].

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اليوم الموعود يوم القيامة، وإن الشاهد يوم الجمعة، وإن المشهود يوم عرفة، ويوم الجمعة ذخره الله لنا[٣] »[٤].

فاليوم الموعود يوم القيامة بلا خلاف، وأكثر المفسرين على أن المراد بقوله ﴿وشاهد﴾ يوم الجمعة ﴿ ومشهود ﴾ يوم عرفة.

وقيل: الشاهد الله لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

وقيل: الشاهد محمد ﷺ لقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١]، وكذا أمته شهود، والملائكة والجوارح شهود أيضاً.

وقيل: الشاهد يوم عرفة، وقيل: الشاهد يوم الذبح، وقيل الشاهد الإنسان.

كما قيل: المشهود يوم القيامة لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [هود: ١٠٣].

وقيل: المشهود يوم الجمعة لما رواه أبو الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثروا عليّ من الصلاة يوم الجمعة فإنه يوم مشهود، تشهده الملائكة»[٥].

قال ابن القيم[٦]: «وأعم المعاني فيه أنه المدرِك والمدرَك، والعالم والمعلوم، والرائي والمرئي، وهذا أليق المعاني، وما عداه من المعاني ذكرت على وجه التمثيل لا على وجه التخصيص».

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ هذا هو جواب القسم والمقسم عليه عند أكثر المفسرين فأقسم عز وجل بالسماء ذات البروج، وبشاهد ومشهود على أنه ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾.

وقال ابن القيم[٧]: «والأحسن أن يكون هذا القسم مستغنياً عن الجواب، لأن القصد

---

(١) أخرجه ابن خزيمة، وفيه موسى بن عبيدة الربذي وهو ضعيف الحديث، وأخرجه بأخصر من هذا بإسناده الترمذي في التفسير ٣٣٣٩، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٢٦٢، ٢٦٥، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٢٩٨ – ٢٩٩، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٢٦٢ – ٢٦٤.

(٣) أي: خصنا به وهدانا إليه دون من قبلنا.

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٢٦٦.

(٥) أخرجه ابن ماجه ١٦٣٧، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٢٧٠.

(٦) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ١٦٩.

(٧) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ١٧١.

التنبيه على المقسم به وأنه من آيات الرب العظيمة ويبعد أن يكون الجواب ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾».

ومعنى ﴿ قتل ﴾ أي: لعن أشد اللعن، وطرد وأبعد عن رحمة الله، أشد الطرد والإبعاد وأُهلك ﴿ أصحاب الأخدود ﴾ الأخدود مفرد وجمعه أخاديد وهي الحفر المستطيلة في الأرض.

﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ «النار» بدل اشتمال من الأخدود.

﴿ ذات الوقود ﴾ أي: صاحبة الوقود، وهو الحطب الكثير المتأجج ناراً.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ «إذ» ظرف بمعنى «حين» أي: حين هم على جوانب هذه النار جلوس على الأسرة يتفرجون ويتفكهون.

﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ «ما» موصولة أو مصدرية، أي: وهم على الذي يفعلونه بالمؤمنين، أو على فعلهم بالمؤمنين من فتنتهم لهم في دينهم وطرحهم في النار وتعذيبهم.

﴿شُهُودٌ﴾ أي: يشاهدون وينظرون مغتبطين بهذا الإجرام في حق المؤمنين، مما يدل على قسوة قلوبهم ونزع الرحمة منها وجبروتهم، يقحمون المؤمنين في النار ويرونها تلتهمهم ولا تتحرك مشاعر الرحمة في قلوبهم.

﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي: وما وجدوا عليهم في شيء إلا من أجل أنهم آمنوا بالله، وكان هذا يوجب إكرامهم ومحبتهم لا أذيتهم وقتلهم كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ۝﴾ [المائدة: ٥٩].

﴿ العزيز ﴾ اسم من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل» يدل على اتصافه عز وجل بالعزة التامة بأنواعها الثلاثة: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع فهو عز وجل قوي قاهر غالب ممتنع أن يُنال بسوء.

﴿ الحميد ﴾ اسم من أسماء الله عز وجل أيضاً على وزن «فعيل» يدل على اتصافه عز وجل بالحمد فهو عز و جل حميد في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، له الحمد على ذلك كله، له الحمد في السموات والأرض وعلى الدوام كما قال عز وجل: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝﴾ [الروم: ١٨].

وله الحمد في الأولى والآخرة كما قال تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ

ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [القصص: ٧٠].

وله عز وجل الحمد على كل حال، ولهذا قال ﷺ في حديث ابن عمر رضي الله عنهما «الحمد لله على كل حال»[(١)].

وهو عز وجل حميد يَحمد من يستحق الحمد من عباده بثنائه عليهم ورضاه عنهم، قال ﷺ: «إن الله يرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها»[(٢)].

ولهذا فإن معنى صلاة الله ـ عز وجل ـ على أنبيائه ورسله وأوليائه هو الثناء عليهم في الملأ الأعلى.

وفي اقتران هذين الاسمين في ختام هذه الآية بعد لعن أصحاب الأخدود إشارة إلى أنه عز وجل ذو العزة التامة لا يضام من لاذ بجنابه، فلو شاء لانتصر للمؤمنين.

الحميد على ما قدر على هؤلاء المؤمنين، ولو شاء لم يقدر ذلك عليهم، لكن له في ذلك كله الحكمة التامة والحجة البالغة، وهو المحمود على كل حال.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ صفة ثالثة له عز وجل. وقدم الخبر «له» لإفادة التخصيص، أي: الذي له وحده ملك السموات والأرض فهو وحده المالك للسموات والأرض وما فيهما وما بينهما.

والخلق كلهم وما يملكون ملك لله عز وجل وملكهم لما يملكون ملك نسبي قاصر، لا يجوز لهم التصرف فيه إلا فيما أباحه الله عز وجل.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي على كل شيء مطلع، لا يغيب عنه شيء، ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، ومن ذلك ما يفعله هؤلاء الكفار بالمؤمنين من فتنتهم لهم في دينهم وإحراقهم في النار، وسيجازيهم بعملهم.

وقدم متعلق الخبر، وهو قوله ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ على الخبر «شهيد» لتأكيد عموم اطلاعه على كل شيء كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس: ٦١].

وقد اختلف المفسرون في المراد بأصحاب الأخدود، ومن أصح ما ورد في ذلك ما

---

(١) اخرجه الترمذي في الأدب ٢٧٣٨، وقال: «حديث غريب» وأخرجه ابن ماجه في الأدب – فضل الحامدين ٣٨٠٣، والحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء ١/ ٤٤٩، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٧٣٤، والترمذي في الأطعمة ١٨١٦ – من حديث أنس رضي الله عنه.

جاء في حديث صهيب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ في قصة الملك والساحر والراهب والغلام، وفي آخره قوله ﷺ: «ثم قال الغلام للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، فإن أنت فعلت ما آمرك به قتلتني، وإلا فإنك لا تستطيع قتلي، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد ثم تصلبني على جذع، وتأخذ سهماً من كنانتي ثم قل: باسم الله رب الغلام، فإنه إذا فعلت ذلك قتلتني، ففعل، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، فقيل للملك: أرأيت ما كنت تحذر؟ فقد والله نزل بك، قد آمن الناس كلهم، فأمر بأفواه السكك فخدت فيها الأخاديد، وأضرمت فيها النيران، وقال: من رجع عن دينه فدعوه، وإلا فأقحموه فيها، قال: فكانوا يتعادون فيها ويتدافعون فجاءت امرأة بابن لها ترضعه، فكأنها تقاعست أن تقع في النار، فقال الصبي: اصبري يا أماه فإنك على الحق»[1].

وفي رواية فقال في آخره: «يقول الله عز وجل: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ حتى بلغ: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ »[2].

وجاء في بعض الآثار أن الملك الذي خد هذا الأخدود هو ذو نواس ملك نجران، وأن الذين وقع عليهم التعذيب هم نصارى نجران وفي ذلك أنزل الله عز وجل ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ وقيل: إنهم أهل فارس، وقيل غير ذلك[3].

والأهم من هذا كله أخذ العبرة، واستلهام الدروس من هذه القصة، وذلك من وجهين:

الأول: جرأة المجرمين والكفار على ارتكاب أبشع الجرائم الوحشية بالمؤمنين من تحريق وقتل وغير ذلك وخلو قلوب كثير منهم من الرحمة، بل ومن الإنسانية مع ما يزعمونه من الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان، وما المقابر الجماعية والقتل الجماعي والوحشي في مذابح صبرا وشاتيلا، وفي البوسنة والهرسك وغيرها، وما التعذيب الوحشي في سجن غوانتنامو، وفي سجن أبو غريب وغير ذلك إلا نتاجاً وصوراً لما عليه أعداء الإسلام من الوحشية والهمجية، فأين مناداتهم بالحرية والديمقراطية واحترام حقوق الإنسان، والإنسانية؟! وصدق الله العظيم ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق – قصة أصحاب الأخدود والصاحب والراهب والغلام ٣٠٠٥، والترمذي في تفسير سورة نوح ٣٣٤٠، وأحمد ٦/١٦ – ١٨، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٢٧٣ – ٢٧٥.

(٢) جاء هذا في رواية الترمذي.

(٣) انظر «سيرة ابن هشام» ١ / ٣٤ ـ ٣٧، «جامع البيان» ٢٤/ ٢٧٠ – ٢٧٦.

ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ [التوبة: ١٠]، وقال تعالى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الممتحنة: ٢].

ولهذا ينبغي الا يغتر بهم فهم وإن أظهروا الصداقة، فهم في الحقيقة الباطنة أعداء وذئاب ولو لبسوا جلود الضأن، وكما قيل:

إن الأفاعي وإن لانت ملامسها ... عند التقلب في أنيابها العطب

وقال الآخر:

لا تأمنن عدواً لان جانبه ... خشونة الصل عقبى ذلك اللين

والوجه الثاني مما يستلهم من هذه القصة:

صبر هؤلاء المؤمنين على هذا الابتلاء العظيم، وتقديم أرواحهم للنار فداءً لدينهم إذ لا بقاء لشيء بعد الدين، وفي هذا أعظم الدروس والعبر للمؤمنين بعدهم وبخاصة الدعاة إلى الله عز وجل والموجهين والمربين وأهل الحسبة وغيرهم ليعلموا أن طريق الجنة ليس مفروشاً بالورود والرياحين، وإنما هو طريق شاق محفوف بالمكاره كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وقال ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات»[1].

وقد أحسن القائل:

فدرب الصاعدين كما علمتم ... به الأشواك تكثر لا الورود[2]

ومما يؤسف له أن كثيراً من المسلمين تخلى عن مسؤولياته، لا لشيء إلا أنه لا يريد

---

(١) اخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها واهلها ٢٨٢٣، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٩ – من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) البيت للشاعر وليد الأعظمي في كتابه «الزوابع».

أن يتحمل في سبيل دينه أدنى أذى، فأصبح حالهم كما قال عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠].

بل إن كثيراً من المسلمين أصبح لا يتحمل في سبيل دينه أدنى مشقة فتراه مثلاً يستثقل صلاة الجماعة، ويريد أن يتحلل منها وبخاصة صلاة الفجر، بل باع كثير من المسلمين دينهم بعرض من الدنيا، فتكالبوا على جمع الأموال بالطرق المشتبهة أو المحرمة وهذا مصداق قوله ﷺ: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا»[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: فتنوهم في محاولتهم صدهم عن دينهم كما قال تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١] أي: الفتنة في الدين والصد عنه وأيضاً فتنوا المؤمنين والمؤمنات بإحراقهم في النار، قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الذاريات: ١٣] أي: يعذبون.

﴿ ثم لم يتوبوا ﴾ أي: ثم لم يرجعوا إلى الله عز وجل ويقلعوا عما هم عليه من الكفر ويندموا على ما سلف منهم، ويعزموا على عدم العودة إليه، فعرض الجواد الكريم التوبة عليهم مع ما ارتكبوه من الكفر به، والظلم والقتل لعباده المؤمنين ولو تابوا لغفر لهم ولم يعذبهم، وقد قال عز وجل لموسى وهارون لما أرسلهما إلى فرعون وقد ادعى الربوبية والألوهية: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٤].

﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ خبر «إن» أي: فلهم مجازاة لهم على فعلهم بالمؤمنين ﴿ عذاب جهنم ﴾ وجهنم: اسم من أسماء النار، سميت به لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدة حرها.

﴿وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ فالجزاء من جنس العمل أي: فلهم عذاب الإحراق في النار كما أحرقوا المؤمنين في نار الأخدود.

فانتصر ـ عز وجل ـ وهو الحكيم العليم ـ للمؤمنين بمجازاة أصحاب الأخدود بإحراقهم وتعذيبهم بنار جهنم وهو القوي العزيز.

الفوائد والعبر:

١- إقسام الله عز وجل بالسماء صاحبة البروج واليوم الموعود وشاهد ومشهود على لعن

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ١١٨، والترمذي في الفتن ٢١٩٥ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وإهلاك أصحاب الأخدود الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات في دينهم وحرقوهم بالنار.

٢- أن لله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته الكونية وآياته وأحكامه الشرعية.

٣ـ التنبيه على عظمة الله ـ عز وجل ـ في خلق السموات وما فيها من البروج، وعظمة يوم القيامة وشدة أهواله، وعظمة شاهد ومشهود.

٤- أن لله عز وجل في تسليط هؤلاء الكفار على المؤمنين حكماً، منها استدراج هؤلاء الكفار من حيث لا يعلمون ومنها رفعة درجات المؤمنين، ولتكون عبرة وعظة لمن بعدهم إذ لا بد من الابتلاء والامتحان.

٥- جرأة المجرمين والكفار على ارتكاب أبشع الجرائم في حق المؤمنين من تحريق وقتل بأبشع الصور، وخلو قلوبهم من الرحمة في الوقت الذي يزعمون فيه احترامهم لحقوق الإنسان والحرية والإنسانية.

٦- أن هؤلاء الكفار فتنوا المؤمنين لا لشيء إلا لأنهم آمنوا بالله وهكذا أعداء الرسل وأعداء أتباعهم في كل زمان ومكان يؤذون المؤمنين بغير ما اكتسبوا.

٧- إثبات اسم الله (العزيز) وصفة العزة التامة لله عز وجل عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع.

٨- إثبات اسم الله (الحميد) وأن له عز وجل الحمد كله وهو المحمود في كل حال وعلى كل حال.

٩- إثبات أن الله عز وجل له ملك السموات والأرض.

١٠- إثبات اطلاع الله عز وجل على كل شيء، ومن ذلك فتنة هؤلاء الكفار للمؤمنين وفي هذا تبشير وتحذير، ووعد ووعيد.

١١- كرم الله عز وجل حيث عرض التوبة على هؤلاء الكفرة المجرمين مع كفرهم به وفتنتهم لأوليائه المؤمنين.

١٢- الوعيد الشديد والتهديد الأكيد لهؤلاء الكفرة المجرمين إن لم يتوبوا بعذاب جهنم وعذاب الحريق.

١٣- أن الجزاء من جنس العمل فكما أحرق هؤلاء الكفرة المجرمون أولياء الله المؤمنين بالنار جازاهم الله بعذاب جهنم وعذاب الحريق.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

بعد ما بين عز وجل ما أعده للكفرة المجرمين قتلة المؤمنين من عذاب جهنم وعذاب الحريق أتبع ذلك ببيان ما أعده للذين آمنوا وعملوا الصالحات من الجنات والفوز الكبير، على طريقة القرآن الكريم في الجمع بين الترغيب والترهيب، ثم أتبع ذلك ببيان قدرته عز وجل التامة على تنفيذ هذا الوعد، وذلك الوعيد فقال: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: صدقوا بقلوبهم ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ أي: وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم الظاهرة وحذف الموصوف وهو «الأعمال» واكتفى بالصفة ﴿ الصالحات ﴾ لأن المهم أن يكون العمل صالحاً، يتوفر فيه شرطا صلاح العمل، وهما: الإخلاص لله عز وجل، ومتابعة الرسول ﷺ.

﴿لَهُمْ﴾ خاصة عند الله عز وجل ﴿جَنَّـٰتٌ﴾ وهي ما أعده الله عز وجل لنزول أوليائه من البساتين ذات الأشجار الكثيرة والثمار المتنوعة والمساكن العالية والغرف الرفيعة وغير ذلك كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧].

وقال ﷺ: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[(١)].

ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء فقط»[(٢)].

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ صفة لـ «جنات» أي: تجري من تحت أشجارها، ومساكنها وغرفها الأنهار، كما قال عز وجل: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [الزمر: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ـ ما جاء في صفة الجنة ٣٢٤٤، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ـ باب صفة الجنة ٢٨٢٤ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١/٤١٦، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١/٦٦.

تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [العنكبوت: ٥٨] والأنهار جمع نهر، وهي كما ذكر الله عز وجل في سورة محمد ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [الآية: ١٥].

وهي تجري بغير أخدود، قال ابن القيم[1]:

أنهارها في غير أخدود جرت سبحان ممسكها عن الفيضان

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ الإشارة لما أعده الله عز وجل للذين آمنوا وعملوا الصالحات من الجنات والأنهار.

و«الفوز» هو النجاح والفلاح والظفر بالمطلوب والنجاة من المرهوب، الفوز بالجنة والنجاة من النار.

﴿ الكبير ﴾ الذي لا فوز أكبر منه، ولا نعيم أعظم منه، ويكفي أن العلي الكبير وصف هذا الفوز بالكبير، فلا يقدر قدر كبره، إلا العلي الكبير سبحانه وتعالى.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ﴾ أي: إن انتقام ربك يا محمد وأخذه للكفرة المجرمين والطغاة الظالمين ﴿لَشَدِيدٌ﴾ أي: ذو شدة أي: عظمة وقوة، من حيث كمه وكيفه، لأنه عز وجل القوي العزيز، ذو القوة المتين، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ أي: إنه عز وجل من تمام عزته وقوته وكمال قدرته ﴿ يبدئ﴾ أي: يخلق ابتداء ﴿ ويعيد ﴾ أي: يبعث بعد الموت كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الروم: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وهو عز وجل الذي يُبدئ كل شيء ويعيد كل شيء له الخلق والأمر كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤].

وهو سبحانه الذي يبدئ ويعيد، يقلب الليل والنهار، ويداول الأيام، ويبدل الأحوال من عز إلى ذل ومن ذل إلى عز ومن صحة إلى مرض ومن مرض إلى صحة ومن شدة إلى رخاء ومن رخاء إلى شدة وهكذا، ولهذا لا يجوز الأمن من مكر الله، ولا القنوط

---

(١) في «النونية» ص٢٢٩.

من رحمته، وكما قيل:

ما بين طرفة عين وانتباهتها يبدل الله من حال إلى حال

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ لمن تاب وآمن وعمل الصالحات وهذه الآية بعد قوله ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ كقوله: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨].

فأخذه للظالمين بعدله أخذ عزيز مقتدر، ومغفرته للتائبين - بفضله - مغفرة متودد إلى عباده يحبهم ويحبونه.

و«الغفور» و«الودود» من أسماء الله عز وجل كل منهما على وزن «فعول» فـ «الغفور» مشتق من المغفرة، وهي ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة كما في حديث ابن عمر في المناجاة في تقرير العبد بذنوبه وفيه قوله ﷺ: «يدنى المؤمن من ربه، حتى يضع عليه كنفه، فيقرره بذنوبه، أتعرف ذنب كذا، أتذكر ذنب كذا؟، فيقول: نعم ربي فيقول الله عز وجل: أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»[1].

و«الودود» مشتق من المودة، وهي خالص المحبة، فهو عز وجل ودود، محب ومحبوب، يحب أولياءه المؤمنين ويحبونه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

فالودود المحب لأوليائه، المتحبب إليهم بنعمه الحبيب إليهم، الذي محبته لهم ومحبتهم له أقوى من كل محبة كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقال عن شعيب عليه السلام أنه قال: ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ۝﴾ [هود: ٩٠].

وفي اقتران اسم «الودود» بالرحيم وبالغفور معنى لطيف وهو أنه عز وجل يرحم عبده، ويغفر له، إذا تاب إليه ويحبه مع ذلك، ولو كان ممن أسرف على نفسه بخلاف المخلوق فإن الإنسان قد يرحم ويعفو عمن أساء إليه ولكن لا يحبه.

وهو عز وجل يحب الأقوال والأعمال الصالحة، قال ﷺ: «أحب الكلام إلى الله:

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٦٨٥، ومسلم في التوبة ٢٧٦٨، وابن ماجه في المقدمة ١٨٣.

سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»[1].

وقال ﷺ: «ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر»[2].

وهو عز وجل يحب الأماكن الفاضلة، قال ﷺ عن مكة: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»[3].

وقال ﷺ: «أحب البلاد إلى الله مساجدها»[4].

وفي الحديث: «أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مسلم»[5].

﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ أي: صاحب العرش. وفي إضافته العرش إلى نفسه دلالة على عظمة العرش، فهو سقف المخلوقات وأكبرها وأوسعها.

وفي ذلك دلالة على قربه منه سبحانه غاية القرب واختصاصه به غاية الاختصاص واستوائه عز وجل عليه، كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾ [طه: ٥].

﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بخفض الدال (المجيدِ) على أنه صفة للعرش، وقرأ الباقون برفع الدال (المجيدُ) على أنه صفة للرب عز وجل كما قال تعالى: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ۝﴾ [هود: ٧٣] فعلى هذه القراءة يكون معنى (المجيد) أي: الممجَّد المعظَّم ذو العلو والعظمة والكبرياء كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «العظمة إزاري، والكبرياء ردائي»[6]. ذو الصفات الكثيرة التي لا تحصى الكاملة الواسعة، وذو الخير الكثير الدائم، المتضمن لسعة العلم والقدرة والملك والغنى والجود والإحسان والكرم.

وعلى قراءة خفض الدال يكون «المجيد» صفة للعرش، والعرش عظيم كريم كبير،

---

(١) أخرجه مسلم في الآداب ٢١٣٧ – من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الصوم ٢٤٣٨، والترمذي في الصوم ٧٥٧، وابن ماجه ١٧٢٧ – من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الترمذي في المناقب – فضل مكة ٣٩٢٥ـ من حديث عبد الله بن عدي بن حمراء الزهري ـ رضي الله عنه وقال: «حديث حسن غريب صحيح».

(٤) أخرجه مسلم في المساجد ـ فضل الجلوس في مصلاه بعد الصبح وفضل المساجد ٦٧١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) أخرجه الطبراني في «الكبير» ١١/ ٨٤ ـ من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما.

(٦) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٢٠، وأبو داود في اللباس ٤٠٩٠، وابن ماجه في الزهد ٤١٧٤، من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما.

بل هو أكبر المخلوقات وسع السموات والأرض والكرسي.

وفي الحديث في دعاء الكرب: «لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم»[(١)].

ورُويَ عن أبي ذر رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض»[(٢)].

وقد قال الله تعالى عن الكرسي: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وإذا كان العرش مجيداً فخالقه عز وجل – أحق بالمجد – كما دلت عليه قراءة الرفع، وغيرها.

وخص العرش بالذكر من بين المخلوقات لعظمته، ولاستوائه عز وجل عليه، ولأنه أخص المخلوقات بالقرب منه عز وجل.

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ «فعّال» أي: أنه عز وجل يفعل بإرادته، ومهما أراد من شيء فعله، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، لا يُسأل عما يفعل، الخلق خلقه، والملك ملكه، والأمر أمره، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

رُويَ أنه قيل لأبي بكر رضي الله عنه وهو في مرض الموت: «هل نظر إليك الطبيب؟، قال: نعم، قالوا: فما قال لك؟قال: قال لي: إني فعّال لما أريد»[(٣)].

ويؤخذ من الآية أنه يفعل بإرادته عز وجل، وأنه إذا أراد شيئاً فعله فلا يعجزه شيء وأن إرادته وفعله متلازمان، فما أراد أن يفعله فعله، وما فعله فقد أراده، بخلاف المخلوق فإنه يريد ما لا يفعل، وقد يفعل ما لا يريد، فما ثم فعّال لما يريد إلا الله وحده، وفعله عز وجل كله لحكمة علمناها أو لم نعلمها.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾ أي: هل جاءك يا محمد خبر الجنود ممن عصوا الله وكذبوا رسله، وماذا أحل بهم من العقوبات والبأس الشديد، وفي هذا وما بعده تسلية له ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٣٤٥، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٢٧٣٠، والترمذي في الدعوات ٣٤٣٥، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٨٣ ـ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٣٤٥، ومسلم في الذكر والدعاء ٢٧٣٠، والترمذي في الدعوات ٣٤٣٥، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٨٣.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٤/٥٣٩ وهو منقطع وانظر «فتح المجيد» ص٦١٦.

على تكذيب قومه وتقوية لعزيمته، وفيه تحذير وتهديد للمكذبين من أمته فهذا تقرير لقوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾.

﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ «فرعون» هو ملك مصر الذي أرسل الله إليه نبيه موسى وأخاه هارون عليهما السلام فكابر وعاند وادعى الربوبية والألوهية، وأهلكه الله وجنوده بالغرق، فأجسادهم للغرق وأرواحهم للحرق بالنار كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦].

﴿ وثمود ﴾ هم قوم نبي الله صالح عليه السلام مساكنهم شمال الجزيرة في العلا، المعروفة الآن بمدائن صالح. كذبوا صالحاً عليه السلام وعقروا الناقة فأهلكهم الله بالصيحة والصاعقة.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ﴾ «بل» للإضراب الانتقالي، أي: بل الذين كفروا وجحدوا ربوبية الله وألوهيته وأسماءه وصفاته وشرعه.

﴿ في تكذيب ﴾ أي: في تكذيب للرسول ﷺ ولما جاء به من الوحي من عند الله عز وجل.

﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ أي: انه عز وجل محيط بهم من كل جانب لا يعجزونه ولا يفوتونه محيط بهم بعلمه وقدره وقدرته وسلطانه وعقابه، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].

﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: بل ما جاء به الرسول ﷺ من عند الله من الوحي العظيم المعلوم.

﴿قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ أي: قرآن عظيم كريم، رفيع المنزلة واسع المعاني عظيمها كثير الخير والعلم، معجز في ألفاظه ومعانيه وأحكامه وأخباره ومواعظه، ووعده ووعيده وغير ذلك لأنه كلام الحميد المجيد.

﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ قرأ نافع برفع الظاء، وقرأ الباقون بخفضها.

أي: في لوح كتب الله عز وجل فيه كل شيء قضاه وقدره ﴿ محفوظ ﴾ عند الله عز وجل في الملأ الأعلى من الزيادة والنقصان والتحريف والتبديل والتغير، وتطاول الشياطين كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الزخرف: ٤] وقال تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: ٣٩].

وهو محفوظ من الزيادة والنقصان والتحريف والتبديل والتغيير بعد إنزاله كما قال

تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢].

الفوائد والعبر:

١- جمع القرآن الكريم بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد.

٢- أن الإيمان قول وعمل واعتقاد لقوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم وفي هذا رد على المرجئة الذين يقولون يكفي مجرد الإيمان بلا عمل.

٣- أن من شرط قبول العمل كونه صالحاً، أي: خالصاً لله عز وجل وعلى سنة رسوله ﷺ.

٤- عظم ما أعده الله عز وجل من الثواب للمؤمنين من الجنات والأنهار والفوز الكبير.

٥- شدة بطشه عز وجل وأخذه للمكذبين الظالمين.

٦ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة له ﷺ ولأتباعه.

٧- قدرته عز وجل التامة على إبداء الخلق وإعادته وعلى تبديل الأحوال وإعادتها.

٨- إثبات اسم الله «الغفور» وما يدل عليه من إثبات صفة المغفرة الواسعة له عز وجل.

٩- إثبات اسم الله «الودود» وما يدل عليه من إثبات صفة المودة والمحبة له عز وجل وأنه يُحِب ويُحَب.

١٠- إثبات استوائه عز وجل على العرش وعظمته وكبريائه وكمال صفاته وكثرة خيره وإفضاله وإنعامه.

١١ – إثبات عظمة العرش وسعته وأنه أكبر المخلوقات.

١٢- إثبات صفة الفعل والإرادة لله عز وجل وأنه يفعل بإرادته، ومهما أراد شيئاً فعله، وفعله لحكمة علمناها أو لم نعلمها.

١٣- التذكير بقصص المكذبين، فرعون وثمود وما أحل الله بهم من العقوبات لما عصوا رسله وخالفوا أمره – تسلية للنبي ﷺ – وتحذيراً للمكذبين من أمته.

١٤- مكابرة الكفرة في تكذيب الرسول ﷺ وما جاء به من الوحي من عند الله عز وجل.

١٥- الوعيد والتهديد للكفرة المكذبين بأن الله محيط بهم ولن يفلتوا من قبضته.

١٦- عظمة القرآن وسعة معانيه وإعجازه، وحفظ الله عز وجل له في اللوح المحفوظ وبعد إنزاله على محمد ﷺ.

تفسير سورة الطارق

عن جابر بن سمرة رضي الله عنه «أن النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر والعصر بـ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ ونحوهما»[١].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠)﴾.

قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ﴾ الواو: حرف قسم وجر، و«السماء» مقسم به مجرور ﴿وَالطَّارِقِ﴾ معطوف على السماء.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ تعظيم وتفخيم له، أي: وما أعلمك ما الطارق، ثم فسره بقوله: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ وسمي النجم طارقاً لأنه لا يرى إلا بالليل، ومن يأتي بالليل يسمى طارقاً. ومنه الحديث: «أنه ﷺ نهى أن يطرق الرجل أهله ليلاً»[٢]. وقوله في الدعاء: «إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن»[٣].

قال الشاعر:

ألا طرقت من آخر الليل زينب ... عليك سلام هل لما فات مطلب

ومعنى ﴿ الثاقب ﴾ المضيء، الذي يثقب الظلام بنوره.

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ هذا هو جواب القسم، قرأ أبو جعفر وابن عامر وعاصم وحمزة بتشديد الميم «لمَّا» وقرأ الباقون بتخفيفها «لَمَا». وإنْ بمعنى «ما» النافية و«لمَّا» بمعنى «إلا» أي: ما كل نفس إلا عليها حافظ.

فاقسم - عز وجل - بالسماء، وبالطارق وهو النجم المضيء: أنَّ كل نفس من بني آدم عليها حافظ من الملائكة موكل بحفظها بأمر الله - عز وجل - كما قال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ

---

(١) أخرجه النسائي في الافتتاح – القراءة في الركعتين الأوليين من صلاة العصر ٩٣٦.
(٢) أخرجه البخاري في الحج، ١٨٠١، ومسلم في الإمارة – كراهية الطروق وهو الدخول ليلاً لمن ورد من سفر ٧١٥، والترمذي في الاستئذان والآداب ٢٧١٢ – من حديث جابر – رضي الله عنه.
(٣) أخرجه أحمد ٣/ ٤١٩ – من حديث عبد الله بن خنبش - رضي الله عنه.

﴿مَنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].ويحفظ أعمالها كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٢].

﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ﴾ الفاء للتفريع أي: فلينظر الإنسان نظر تأمل وتفكر واعتبار.

﴿مِمَّ خُلِقَ﴾ أي: من أي شيء خلق، ليعرف أصل خلقه وضعفه، وليعلم عظيم قدرة الله عز وجل، ويعترف بالمعاد، لأن من قدر على الخلق الأول فهو أقدر على إعادته من باب أولى.

﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ وهو مني الرجل الذي يندفق بلذة وقوة وهو دافق ومدفوق، ومنه ومن ماء المرأة يتكون أول خلق الإنسان، من نطفة ثم علقة ثم مضغة إلى أن يكون خلقاً سوياً، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ [الإنسان: ٣٧ ـ ٣٩].

﴿يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ أي: يخرج هذا الماء ﴿مِن بَيْنِ الصُّلْبِ﴾ وهي عظام ظهر الرجل والترائب وهي عظام صدر المرأة ـ فسبحان العليم الخبير.

ويحتمل أن المراد بالترائب ترائب الرجل أيضاً أي عظام صدره، لأنه قال ﴿يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ ولم يقل: يخرج من الصلب والترائب، وهذا كقوله ﴿مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾ [النحل: ٦٦]، ولأن الله أخبر أنه خلقه من نطفة والنطفة ماء الرجل، وهو الذي يوصف بالدفق وقيل المراد بالصلب: ظهر كل من الزوجين، والترائب أطرافهما.

﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ﴾ أي: إنه عز وجل على إعادة الإنسان وبعثه بعد موته وفنائه ﴿لَقَادِرٌ﴾ أي: لذو قدرة تامة على ذلك، لأن من قدر على البداءة قادر على الإعادة بطريق الأولى، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿يَوْمَ﴾ أي: يوم القيامة الذي فيه ﴿تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ أي: تمتحن وتختبر القلوب التي عليها مدار الصلاح والفساد، وعلى ما فيها يرتب الثواب والعقاب، فيظهر ما فيها من الأسرار والمكنونات، ويصبح السر علانية كما قال تعالى: ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات: ٩ ، ١٠]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «يرفع لكل غادر لواء يوم القيامة، يقال: هذه غدرة فلان بن فلان»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٦١٧٧، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٣٥، وأبو داود في الجهاد ٢٧٥٦، والترمذي في السير ١٥٨١.

﴿فَمَا لَهُۥ﴾ أي: فما للإنسان في ذلك اليوم الذي أعيد فيه خلقاً جديداً، وظهر ما كان يسره ويخفيه فصار علانية ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ أي: فما له من قوة في نفسه يستطيع بها إنكار ما ظهر من قبح سريرته، ويدفع بها عنه عذاب الله.

﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ أي: وما له من ناصر ولا معين من خارج نفسه، يدفع عنه ذلك كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ۝﴾ [الأنبياء: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۝﴾ [المؤمنون: ١٠١].

الفوائد والعبر:

١- إقسام الله عز وجل بالسماء، والطارق أن كل نفس عليها حافظ من الملائكة يحفظها ويحفظ أعمالها.

٢- يجب على الإنسان أن ينظر ويتأمل في أصل خلقه ليرى ضعفه وعظيم قدرة الله تعالى.

٣- أن أصل خلق الإنسان من ماء الرجل والمرأة، وهو نطفة المني الذي يخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة.

٤- إثبات البعث لأن الذي قدر على الخلق الأول هو أقدر على الخلق الثاني من باب أولى.

٥- امتحان القلوب يوم القيامة، وإظهار ما انطوت عليه من المكنونات.

٦- الوعيد لمن كذب أمر الله عز وجل يوم القيامة، وأنه لا يستطيع دفع عذاب الله عنه لا بنفسه ولا بغيره.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ الواو: حرف قسم وجر، والسماء مقسم به مجرور والمراد بها العلو.

﴿ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ أي: صاحبة الرجع، وهو المطر، وسمي المطر بالرجع لأنه يرجع ويتكرر، والمطر سبب الرزق، وأيضاً هي ذات الرجع بأقدار الله وأوامره، قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٢].

﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ معطوف على ما قبله فهو من جملة المقسم به، ومعنى ﴿ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ أي: صاحبة الصدع، والصدع: هو الشق للنبات.

﴿ إنه ﴾ أي القرآن الكريم ولم يسبق له ذكر لكنه معلوم معهود.

﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ أي: لقول حق، وحكم عدل، يفصل بين الحق والباطل.

﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ أي: وما هو باللعب واللغو والعبث، الذي لا جد فيه ولا ثمرة له ولا فائدة منه.

وفي الحديث: «وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أذله الله»[1].

فهو جد وأيّ جد، فيه البشارة والوعد الصادق، وفيه النذارة والوعيد الشديد والتهديد الأكيد.

قال الشاعر:

الأمر جد وهو غير مزاح ... فاعمل لنفسك صالحاً يا صاح[2]

وقال الآخر:

قد رشحوك لأمر إن فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل[3]

(١) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن - ما جاء في فضل القرآن ٢٩٠٦ - من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
(٢) البيت لنشوان الحميري.
(٣) البيت للطغرائي.

والمناسبة بين المقسم به والمقسم عليه واضحة فإن الله عز وجل أقسم بالسماء ذات المطر وبالأرض ذات الشق للنبات وفي هذا إشارة إلى حياة الأرض بعد موتها والمقسم عليه القرآن الكريم الذي به حياة القلوب بعد موتها.

﴿ إنهم ﴾ أي: الكفار والمكذبون ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ الكيد: هو المكر والتدبير بخفية، أي: يمكرون مكراً عظيماً لصد الناس عن اتباع الرسول ﷺ وما جاء به من الوحي من عند الله عز وجل.

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ اي: واكيد لهم كيداً، اي: امكر بهم مكراً اشد واعظم من مكرهم مقابلة لهم على مكرهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠].

وكيده لهم استدراجهم من حيث لا يعلمون والإملاء لهم، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣]، وقال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥].

والله عز وجل لا يوصف بالكيد والمكر والخداع والاستهزاء ونحو ذلك إلا على سبيل المقابلة في حق الكائدين والماكرين والمخادعين والمستهزئين كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة: ١٤، ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النمل: ٥٠].

﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ﴾ انظرهم ولا تستعجل لهم الانتقام والعذاب.

﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ اي: انظرهم قليلاً وسترى ما يحل بهم من العقوبات العاجلة والآجلة والعذاب والنكال كما قال تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾ [المزمل: ١١]، وقال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة: ١٢٦].

والرب تعالى هو الذي يمهلهم وإنما خرج الخطاب للرسول ﷺ على جهة التهديد

والوعيد لهم، أو على معنى انتظر بهم قليلاً وفي هذا تسلية له ﷺ وتهديد للمشركين من قومه.

الفوائد والعبر:

١- إقسام الله عز وجل بالسماء ذات المطر وبالأرض ذات الشق للنبات أن القرآن الكريم قول فصل وحق، جد ليس بالهزل.

٢- تعظيم القرآن الكريم ووجوب اتباعه.

٣- أن الكفار لا يألون جهداً في الكيد للحق وأهله، ولكن الله محيط بهم يكيد لهم ويمكر بهم وهو خير الماكرين.

٤- تقوية قلب النبي ﷺ تجاه أذى الكافرين وتطاولهم على الحق وأنه تعالى يمهلهم ولا يهملهم، وهو عز وجل لهم بالمرصاد.

٥- الوعيد الشديد والتهديد الأكيد للكافرين وأن العذاب لهم على الأبواب

تفسير سورة الأعلى

عن البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: «أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم فجعلا يقرئاننا القرآن، ثم جاء عمار وبلال وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين، ثم جاء النبي ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله ﷺ قد جاء، فما جاء حتى قرأت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ في سُوَر مثلها»[١].

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: «كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾»[٢].

وعن جابر رضي الله عنه أنه قال: صلى معاذ بن جبل الأنصاري لأصحابه العشاء فطول عليهم، فانصرف رجل منا فصلى، فأُخبر معاذٌ عنه فقال: إنه منافق، فلما بلغ ذلك الرجل دخل على رسول الله ﷺ فأخبره ما قال معاذ؟ فقال له النبي ﷺ : «أتريد أن تكون فتاناً يا معاذ، إذا أممت الناس، فاقرأ بالشمس وضحاها، و﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، و﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، و﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾»[٣].

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، و ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما»[٤].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ يقرأ في الوتر: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾»[٥].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧

---

(١) اخرجه البخاري في تفسير سورة (سبح اسم ربك الأعلى) ٤٩٤١.

(٢) اخرجه احمد ١/ ٩٦.

(٣) اخرجه البخاري في الأدب ٦١٠٦، ومسلم في الصلاة - القراءة في العشاء ٤٦٥، وأبو داود في الصلاة ٧٩٠، والنسائي في الافتتاح ٩٨٤، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨٣٦.

(٤) اخرجه مسلم في الجمعة - ما يقرأ في صلاة الجمعة ٨٧٨، وأبو داود في الصلاة - ما يقرأ في الجمعة ١١٢٢، والنسائي في الجمعة ١٤٢٤، والترمذي في الجمعة ٥٣٣، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها - ما جاء في القراءة في صلاة العيدين ١٢٨١، واحمد ٤/ ٢٧١.

(٥) اخرجه الترمذي في الصلاة ٤٦٢.

وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ .

قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: قل: سبحان ربي الأعلى.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال: سبحان ربي الأعلى»[1].

ومعنى تسبيحه عز وجل تنزيهه بالقلب واللسان عن النقائص والعيوب، وعن مشابهة المخلوقين وذكره عز وجل وعبادته ودعاؤه.

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه، قال: لما نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ قال لنا رسول الله ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم» فلما نزلت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال: «اجعلوها في سجودكم»[2].

وهذا يدل على وجوب التسبيح في الركوع والسجود.

والرب: هو الخالق المالك المدبر.

و«الأعلى» على وزن «أفعل» التفضيل مثل «الأكرم».

ولهذا قال النبي ﷺ لما قال أبو سفيان: أعل هبل، أعل هبل، فقال النبي ﷺ: «ألا تجيبونه؟»، قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: «الله أعلى وأجل»[3].

فله عز وجل العلو المطلق: علو الذات وعلو الصفات، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥، الشورى: ٤]، وقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠ ، الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

وله عز وجل علو القدر، قال عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٩١، الزمر: ٦٧]، وله عز وجل علو القهر كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ [الزمر: ٤].

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة – الدعاء في الصلاة ٨٨٣، وأخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٣١٠ موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة ـ ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده ٨٦٩، وابن ماجه في إقامة الصلاة ـ التسبيح في الركوع والسجود ٨٨٧.

(٣) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠٤٣، وأبو داود في الجهاد ٢٦٦٢ من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

قال ابن تيمية[١]: «فتبين أن اسمه (الأعلى) يتضمن اتصافه بجميع صفات الكمال، وتنزيهه عما ينافيها من صفات النقص، وعن أن يكون له مثل، وأنه لا إله إلا هو، ولا رب سواه».

قال ابن القيم[٢]:

فهو العلي بذاته سبحانه ... إذ يستحيل خلاف ذا ببيان

وهو العلي فكل أنواع العلو ... له فثابتة بلا نكران

ولهذا ناسب أن يقول المسلم وهو معفر وجهه بالسجود لله عز وجل «سبحان ربي الأعلى» إعلاناً منه بأن لله عز وجل العلو المطلق سبحانه وتعالى.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ أي: الذي اوجد جميع المخلوقات ﴿فَسَوَّىٰ﴾ أي: فسوى بين خلقه في الإحكام والإتقان، وسوى خلقه بأن جعله على أحسن خلقة وأتمها؛ الإنسان والحيوان والسموات والأراضين، وسائر المخلوقات، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: ٨]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨﴾ [القيامة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [السجدة: ٩]، وقال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩].

﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ﴾ قرأ الكسائي «قَدَر» بتخفيف الدال وقرأ الباقون بتشديدها «قدَّر»، أي: والذي قدَّر مقادير كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفرقان: ٢].

﴿فَهَدَىٰ﴾ أي: فهدى كل مخلوق وأرشده لما خلق له وقُدِّر، وهذه هي الهداية الكونية العامة، قال عز وجل: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: ٥٠]، ومن ذلك بيان طريق الخير والشر للإنسان كما قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ٣].

---

(١) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ٥٩.

(٢) انظر «النونية» ص١٤٦.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»[١].

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السموات والأرض»[٢].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أول ما خلق الله القلم فقال: اكتب، فقال: ماذا أكتب؟، فقال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة»[٣].

وفي هذا إثبات قدر الله السابق للخلق، وأنه قدر المقادير وكتبها وعلم بها قبل كونها، وهدى كل مخلوق لما قدر له، وفيه إشارة إلى أنه خلق كل مخلوق لحكمة وغاية مقصودة، فلا تتم مصلحته إلا بهدايته لتلك الغاية، من الحيوانات والنباتات والجمادات وسائر المخلوقات.

فسبحان ربنا الأعلى الذي خلق فسوى خلقه في أحسن صورة وأتمها، والذي قدَّر المقادير وهدى كل مخلوق لما قُدِّر له.

سبحان من هدى النحل يصنع العسل المصفى.

سبحان من هدى النمل لا يحفر جحره إلا في مرتفع من الأرض خشية السيول، ويدخر في الصيف قوته للشتاء، سبحان من هداه يقرض أطراف الحبوب حتى لا تنبت إذا جاءها الماء، ويخرجها من الجحر وينشرها لئلا تتعفن فإذا يبست أدخلها.

سبحان من هدى البعير، يضل صاحبه في وسط الصحراء فيهديه إلى الطريق، وإلى مواضع الماء، وسبحان من هداه أن يتحاشى في سيره وطء أي كائن حي مهما صغر حتى النملة فيما قيل.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾ أي: والذي أخرج النبات من الأرض مما ترعاه البهائم وغيرها، فكسا به الأرض وجملها كما قال تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ [الروم: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥﴾ [الحج: ٥].

وقد أحسن القائل:

---

(١) أخرجه مسلم في القدر ٢٦٥٣.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣١٩٢.

(٣) أخرجه أبو داود في السنة ٤٧٠٠، والترمذي في القدر ٢١٥٥ - وقال «حديث غريب».

تأمل في نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات بأحداق هي الذهب السبيك
على كثب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

والعطف في قوله ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ﴾ من عطف الصفات، والعطف يقتضي الاشتراك بين المعطوف والمعطوف عليه، وأن بينهما مغايرة، إما في الذات، وإما في الصفات، فهو عز وجل موصوف بكل صفة من هذه الصفات ممدوح بها مثنى عليه بها، وكل صفة منها مستوجبة لذلك.

﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً﴾ أي: فجعله هشيماً يابساً متكسراً بعد أن كان غضاً رطباً.

﴿أَحْوَىٰ﴾ أي: أسود بعد أن كان أخضر، كما قال تعالى ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ [القلم: ٢٠] أي: كالليل الأسود البهيم.

وهذا مثل للحياة الدنيا وزوالها وللعمر وفنائه، وللكافر المغتر بالدنيا وسوء عاقبته ومآله.

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ﴾ الخطاب للنبي ﷺ أي: ستقرئك يا محمد القرآن فلا تنساه، وهذا وعد منه تعالى وتطمين للنبي ﷺ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٧].

﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ «إلا» أداة استثناء، أي: إلا ما شاء الله أن ينسيك إياه مما ينسخ، قال تعالى: ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ۝﴾ [الرعد: ٣٩].

وأيضاً إلا ما شاء الله أن يقع منك من النسيان فتذكر بعد ذلك كغيرك من البشر ولهذا نسي في صلاته ﷺ وقال: «إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني»[1].

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ أي: يعلم الذي يظهره الخلق ويعلنونه والذي يضمرونه ويسرونه، من الأقوال والأفعال، الظاهرة والباطنة، أي: يعلم جهرهم وإعلانهم، وإخفاءهم وإسرارهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝﴾

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة ٤٠١، ومسلم في المساجد ٥٧٢، وأبو داود في الصلاة ١٠٢٠، والنسائي في السهو ١٢٤٢، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٢٠٣ – من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

[طه: ٧]، وقال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ۝١١٠﴾ [الأنبياء: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣﴾ [الملك: ١٣].

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي: نوفقك للطريقة اليسرى في جميع أمورك ونسهل عليك، ونجعل شريعتك سهلة سمحة لا حرج فيها كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [الليل: ٥ ـ ٧]، وقال ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له، فأهل السعادة ييسرون لعمل أهل السعادة، وأهل الشقاوة ييسرون لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾»[1].

﴿فَذَكِّرْ﴾ أي: عظ الناس وذكرهم بالله وآياته وأيامه ونعمه وشرعه، والخطاب للنبي ﷺ والأمة أسوة به في ذلك.

﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ قال بعض المفسرين «إن» شرطية، أي: إن نفعت الذكرى فذكِّر، وإن لم تنفع فلا تذكِّر.

وقال بعضهم: المعنى ذكر بكل حال فإن الذكرى سوف تنفع.

والأظهر أن معنى الآية ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي: حيث نفعت الموعظة بأن تكون الموعظة نافعة مفيدة واقعة موقعها من غير إطالة فيها تجلب الملل، ولا إكثار منها يحدث السأم، وقد كان ﷺ يتخول أصحابه في الموعظة.

فعن أبي وائل قال: كان عبد الله يعني ابن مسعود ـ يذكِّر الناس في كل خميس فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، لوددت أنك ذكرتنا كل يوم قال: «أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملكم، وإني أتخولكم بالموعظة كما كان النبي ﷺ يتخوّلنا مخافة السآمة علينا»[2].

والعبرة بالموعظة بالكيف لا بالكم، وخير الكلام ما قل ودل، وقصير غير مخل، خير من طويل ممل.

وبأن تكون الموعظة مناسبة لمستوى عقول وأفهام المخاطبين بها، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله»[3].

---

(١) سيأتي تخريجه في تفسير سورة الليل.
(٢) أخرجه البخاري في العلم ٧٠، ومسلم في صفة القيامة ٢٨٢١، والترمذي في الأدب ٢٨٥٥.
(٣) أخرجه البخاري في العلم ١٢٧.

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»[١].

وبأن تكون في الوقت والحال المناسبين بحيث تكون الأنفس متهيئة مقبلة فإن للنفوس إقبالاً وإدباراً فلا تكون في وقت حاجة الناس إلى الراحة والنوم، ولهذا كره النبي ﷺ الحديث بعد العشاء الآخرة[٢].

ولا في وقت شدة ألم وغضب، ولا في وقت شدة جوع أو ظمأ، ولا في حر أو برد مزعجين.

ولا في وقت الناس منشغلون فيه بالسلام على بعضهم البعض كما يحصل في بعض المناسبات يتكلم بعضهم ويقرأ القرآن، والناس يتوافدون ويسلم بعضهم على بعض بعد طول غيبة مع كثرة الصخب واللغط، فإذا سلم الناس بعضهم على بعض وانتظم المجلس فلا بأس بذلك بعد إذن صاحب المنزل بذلك.

ولهذا فإن الأولى عدم الموعظة بعد خطبة وصلاة الجمعة لعدة أمور:

اولاً: أن هذا مخالف لقول الله عز وجل ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠] فقد أمر الله عز وجل بعد قضاء الصلاة بالانتشار في الأرض والتفرق فيها لابتغاء الرزق من الله.

ثانياً: أن في هذا مخالفة لهديه ﷺ في كونه يتخول أصحابه في الموعظة مخافة السآمة والملل عليهم.

ثالثاً: أن في الموعظة في هذا الوقت حبساً للناس وإحراجاً لهم، ففيهم ذو الحاجة والحاقن، وبخاصة من جاؤوا في الساعات الأولى.

رابعاً: أن الموعظة بعد خطبة الجمعة قد تنسي موضوع وخطبة الجمعة ومضمونها وهو في الغالب أهم.

ويفهم من قوله تعالى ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أنه إذا لم تنفع الذكرى ولم تجد شيئاً ولم تكن واقعة موقعها فلا ينبغي التذكير في هذه الحال.

---

(١) اخرجه مسلم في المقدمة – النهي عن الحديث بكل ما سمع ٥.

(٢) اخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٦٨، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٦٤٧، وابو داود في الصلاة ٣٩٨، والنسائي ٤٩٥ – من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كان يكره النوم قبل العشاء والحديث بعدها».

فإذا كان المخاطب بالموعظة في حال غير مناسبة للتذكير فالأولى، بل ينبغي عدم تذكيره في هذه الحال لأنه قد يؤدي التذكير في غير وقته المناسب إلى مفسدة تفوق المصلحة المرجوة من ذلك، ولهذا قيل: «ليكن أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر غير منكر»[١].

ومع وجوب مراعاة أن تكون الذكرى مناسبة في الوقت والحال ونحو ذلك إلا أنه لا يجوز أن يجعل من هذا ذريعة للتساهل في التذكير أو تركه، بحجة أن الذكرى قد لا تنفع فقد قال الله عز وجل ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

قال السعدي[٢]: «﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ أي: ما دامت الذكرى مقبولة، والموعظة مسموعة، سواء حصل من الذكرى جميع المقصود، أو بعضه ومفهوم الآية أنه إن لم تنفع الذكرى، بأن كان التذكير يزيد في الشر أو ينقص من الخير لم تكن مأموراً بها، بل هي منهي عنها».

﴿سَيَذَّكَّرُ﴾ أي: سيتعظ وينتفع بالذكرى ﴿مَن يَخْشَىٰ﴾ أي: الذي يخاف الله وقيامه بين يديه كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ [الفرقان: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النازعات: ٤٥].

والخشية أخص من الخوف، لأنها تدل على عظم المخشي وعلم الخاشي كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ أي: ويترك الموعظة جانباً ويعرض عنها بقلبه وبدنه ﴿ الأشقى ﴾ اسم تفضيل، أي: الذي بلغ الغاية في الشقاء، وكتب عليه ذلك وهو الكافر، الذي لا ينتفع بالذكرى، فهذا لا سبيل إلى إسعاده.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم علقة مثل ذلك، ثم مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويكتب رزقه وأجله وعمله، وشقي أو سعيد»[٣].

ومن هنا ينبغي للإنسان أن يوطن نفسه في مواضع التذكير فإنه لا يعدم فائدة وأجراً على ذلك، وقد ضعفت أنفس كثير من الناس حتى أصبح لا يستطيع الانتظار لسماع

---

(١) انظر «مجموع الفتاوى» ٢٨/١٢٦.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/٦١٢ – ٦١٣.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٠٨، ومسلم في القدر ٢٦٤٣، وأبو داود في السنة ٤٧٠٨ والترمذي في القدر ٢١٣٧، وابن ماجه في المقدمة ٧٦.

حديثين أو ثلاثة يقرأهما الإمام بعد الصلاة، وربما وقف في الشارع طويلاً يتكلم مع الآخرين دون أن يحسب لهذا الوقت حساباً ولا شك أن النفس تحتاج إلى ترويض وتوطين لفعل الخير وسماعه قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٥٣].

وقد أحسن القائل:

والنفس كالطفل إن تهمله شب على ... حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم[1]

﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾﴾ [الليل: ١٤، ١٥] أي: الذي يدخل النار الكبرى ويغمر فيها ويقاسي حرها، وهي نار الآخرة، وسميت الكبرى لأنها ضوعفت على نار الدنيا بتسعة وستين جزءاً كما قال ﷺ: «ناركم التي توقدون عليها جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم»[2].

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ أي: ثم لا يموت في النار فيستريح من العذاب.

﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ أي: ولا يحيا حياة طيبة، بل هي حياة شقاء وعذاب، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾ [فاطر: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف: ٧٧].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم، أو قال بخطاياهم فأماتهم إماتة، حتى إذا كانوا فحماً أذن بالشفاعة، فجيء بهم ضبائر ضبائر، فبُثّوا على أنهار الجنة، ثم قيل يا أهل الجنة، أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل» فقال رجل من القوم: كأن رسول الله ﷺ قد كان في البادية»[3].

وهذا الحديث يدل على أن المراد بقوله ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ أهل النار الذين هم أهلها، وهم الكفرة المخلدون فيها.

---

(١) البيت لشرف الدين البوصيري.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٦٥، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٤٣، والترمذي في صفة جهنم ٢٥٨٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان – إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار ١٨٥، وأحمد ٣/ ٥، ١١، ٢٠.

الفوائد والعبر:

١- وجوب تسبيح الرب سبحانه وتعالى لأمر الله عز وجل نبيه بذلك وهو أمر له ﷺ ولأتباعه.

٢ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لنبيه ﷺ.

٣- إثبات اسم الله «الأعلى» وصفة العلو المطلق له عز وجل علو الذات وعلو الصفات وعلو القهر، وعلو القدر.

٤- كمال عظمة الله عز وجل وقدرته فهو الذي خلق الخلق فسواه، وقدر مقادير الخلق وهدى كل مخلوق لما قدر له، وأخرج النبات ثم جعله أسود يابساً.

٥- الرد على القدرية القائلين بأن الله لم يقدر أفعال العباد.

٦- الإشارة إلى أن الحياة الدنيا متاع قليل، وإلى قصر عمر الإنسان فيها، لقوله: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ﴾.

٧- وعد الله عز وجل لرسوله ﷺ بأن يقرئه القرآن فلا ينسى إلا ما شاء الله أن ينسيه إياه مما ينسخه ونحو ذلك.

٨ ـ إثبات المشيئة والإرادة لله ـ عز وجل ـ وأنه ـ عز وجل ـ قد ينسي نبيه ما شاء وينسخ ما شاء.

٩- علم الله عز وجل بما يجهر به الخلق وما يخفونه، وما يُظهر وما يُسر.

١٠- وعد الله عز وجل لرسوله ﷺ بتيسيره لليسرى في شريعته وفي أمور دينه ودنياه.

١١- أمر الله عز وجل لرسوله بالتذكير حيث تنفع الذكرى، وهو أمر له ﷺ ولأمته.

١٢- ينبغي أن يكون التذكير في الوقت المناسب والحال المناسب.

١٣- إنما يتذكر وينتفع بالموعظة من يخشى الله عز وجل ويصرف عنها الأشقى الذي هو من أهل النار.

١٤- أن نار الدنيا صغرى بالنسبة لنار الآخرة، فهي النار الكبرى العظيمة.

١٥- أن المعذب في النار لا يموت فيستريح، ولا يحيا حياة طيبة، بل هو في شقاء أبدي وعذاب سرمدي ـ نسأل الله السلامة والعافية.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ «قد» حرف تحقيق (أفلح) فاز ونجح ونجا من المرهوب وظفر بالمطلوب، زحزح عن النار وادخل الجنة، كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: الذي تطهر، اي : طهر نفسه ظاهراً وباطناً من الشرك والمعاصي، وطهرها بالعمل الصالح ومن ذلك أداء زكاة المال وزكاة الفطر، وغير ذلك.

﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ﴾ بانواع الذكر من التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير وقراءة القرآن وغير ذلك من الأعمال الصالحة.

﴿فَصَلَّىٰ﴾ اي: فصلى الصلوات الخمس في أوقاتها، وغيرها من الصلوات كصلاة العيد وغيرها.

وفي عطف قوله ﴿فصلى﴾ على قوله ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ﴾ دلالة على عظم منزلة الصلاة بين أنواع الذكر، لأن الصلاة من ذكر الله فهذا من عطف الخاص على العام.

وقد حمل بعض المفسرين قوله ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ على أداء زكاة الفطر، وقوله ﴿فَصَلَّىٰ﴾ على أداء صلاة العيد، والآية أعم من هذا فهي تشمل هذا وغيره.

وفي تقديم قوله ﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾ على قوله ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ إشارة إلى أن صدقة الفطر تخرج قبل صلاة العيد، كما أن في ذلك إشارة إلى عظم حقوق الخلق، لأن في قوله ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ حثاً على الإحسان إلى عباد الله، كما أن في قوله ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ حثاً على الإحسان في عبادة الله عز وجل وفي ذلك ايضاً إشارة إلى أن التخلية قبل التحلية.

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ «بل» للإضراب الانتقالي.

﴿تؤثرون﴾ قرأ أبو عمرو بالياء (يؤثرون) وقرأ الباقون بالتاء (تؤثرون) أي: تقدمون الحياة الدنيا، وتختارون نعيمها المنغص المكدر الزائل على الآخرة وسميت هذه الحياة «الدنيا» لقربها فهي قبل الآخرة، ولهذا سميت الأولى، كما قال تعالى: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ [الضحى: ٤]، ولأنها دنيئة حقيرة لا قيمة لها بالنسبة للآخرة.

والمعنى: بل تقدمون الحياة الدنيا الفانية على الآخرة الباقية، فتعملون للدنيا وتتركون العمل للآخرة.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قرأ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ فلما بلغ ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ ترك القراءة واقبل على أصحابه، وقال: «آثرنا الدنيا على الآخرة فسكت القوم، فقال: آثرنا الدنيا، لأنا رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها، وزويت عنا

الآخرة، فاخترنا هذا العاجل، وتركنا الآجل»[1].

﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي: والدار الآخرة خير من الدنيا وأبقى منها كما قال تعالى: ﴿وَلَلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤] فالدنيا لا تساوي شيئاً بالنسبة للآخرة كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

وقال ﷺ: «لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء»[2].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له»[3].

وذلك أن الدنيا دار كبد ونكد ونصب، دار الهموم والأحزان والمصائب، والآخرة لمن وفقه الله دار النعيم والثواب والسرور والحبور.

والآخرة أبقى من الدنيا لأن الدنيا تفنى وتزول، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف: ٤٥].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى»[4].

﴿إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ الإشارة في قوله ﴿إن هذا﴾ إلى قوله ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾.

رُوِيَ عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ: هل عندنا مما في صحف إبراهيم؟، فقال ﷺ: «نعم»، وقرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٣٢٢.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٢٠، وابن ماجه في الزهد ٤١١٠ - من حديث سهل بن سعد - رضي الله عنه. وقال الترمذي «حديث صحيح غريب».

(٣) أخرجه أحمد ٦/ ٧١.

(٤) أخرجه أحمد ٦/ ٤١٢.

صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾»[(١)].

ويحتمل رجوعه إلى قوله ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ ويحتمل رجوعه إلى كل آيات السورة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ قال: كلها في صحف إبراهيم وموسى»[(٢)].

والصحف: جمع صحيفة، و«الأولى» بمعنى الصحف السابقة المتقدمة.

وصحف إبراهيم: هي ما أنزله الله عز وجل على نبيه وخليله إبراهيم عليه السلام – سماها الله «صحفاً» هنا وفي قوله ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: ٣٦، ٣٧] ولم يرد تسميتها باسم كتاب معين كالقرآن والزبور والتوراة والإنجيل.

وصحف موسى هي التوراة التي أنزلها الله على موسى بن عمران عليه السلام كما قال الله عز وجل عن القرآن ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس: ١٣ ـ ١٦].

ويؤخذ من هذا التوافق بين القرآن الكريم وصحف إبراهيم وموسى وغيرها من الكتب السماوية وبخاصة في أصول الشرائع حيث اشتمل القرآن على كل ما في هذه الكتب من أصول الشرائع والدعوة إلى الخير والتحذير من الشر وبهذا صار مهيمناً عليها كما قال عز وجل ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

الفوائد والعبر:

١- تحقيق الفلاح والفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب لمن زكى نفسه وماله وذكر اسم ربه وصلى له.

٢ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة ـ لمن تطهر وذكر اسم ربه وصلى له.

٣- إيثار كثير من الناس وتقديمهم للحياة الدنيا الحقيرة الفانية على الآخرة العظيمة الباقية.

٤- إثبات اليوم الآخر والدار الآخرة.

٥- الترغيب في الاستعداد للآخرة التي هي خير وأبقى وهي الحياة الحقيقية.

٦- توافق الكتب السماوية في أصول الشرائع.

٧- إثبات صحف إبراهيم وموسى، واشتمالها على ما جاء في هذه السورة أو بعضه.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» ١/١٦٦ – ١٦٩ من حديث طويل وقد ذكر الحافظ المنذري في «الترغيب والترهيب» قطعة منه في باب الترهيب من الظلم وفي باب الترغيب في الصمت، وقال في آخره: رواه أحمد والطبراني وابن حبان في صحيحه، والحاكم، وقال: «صحيح الإسناد».

(٢) أخرجه النسائي فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤٠٥.

تفسير سورة الغاشية

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ قرأ في العيدين ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ و ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾ وإن وافق يوم جمعة قرأهما جميعاً»[1].

وعن الضحاك بن قيس أنه سأل النعمان بن بشير رضي الله عنه: «بم كان رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة مع سورة الجمعة؟، قال: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾»[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ۝٧ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾.

قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ الاستفهام للتنبيه والتعظيم، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له الخطاب. وهذا كقوله ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝٢٤﴾ [الذاريات: ٢٤]، وقوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥﴾ [النازعات: ١٥]، وقوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ۝١٧ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ۝١٨﴾ [البروج: ١٧، ١٨].

أي: هل جاءك نبأ وخبر الغاشية، وهي القيامة، سميت بذلك لأنها تغشى الناس بأهوالها، وتذهلهم بشدتها.

ولهذا ذكر بعد هذا أحوال الناس فيها وانقسامهم إلى فريقين فقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ إلى قوله ﴿وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ﴾

قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ أي: وجوه في ذلك اليوم ذليلة من الخزي والفضيحة، وهي وجوه الكفار والمكذبين، فهم في ذلك اليوم أشد ما يكونون ذلاً وخوفاً كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾ [الشورى: ٤٥].

﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ أي: عاملة في ذلك اليوم عملاً يكون فيه النصب والتعب من جر

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في الجمعة - ما يقرأ في صلاة الجمعة ٨٧٨، وأبو داود في الصلاة - ما يقرأ في الجمعة ١١٢٣، والنسائي في الجمعة ١٤٢٣، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها - ما جاء في القراءة في الصلاة يوم الجمعة ١١١٩.

السلاسل والأغلال الثقيلة والخوض في العذاب في نار جهنم.

وقيل: قد عملت في الدنيا عملاً كثيراً، نصبت وتعبت فيه لكنه لم ينفعها، لأنه عمل غير صالح ليس خالصاً لله ولا على سنة رسوله ﷺ كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

عن أبي عمران الجوني قال: «مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بدير راهب، قال: فناداه: يا راهب، فأشرف، قال: فجعل عمر ينظر إليه ويبكي، فقيل له: يا أمير المؤمنين ما يبكيك من هذا؟ قال: ذكرت قول الله عز وجل في كتابه ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝﴾ فذاك الذي أبكاني»[1].

وهذا المعنى وإن كان صحيحاً إلا أن دلالة السياق على المعنى الأول أظهر، لأن السياق في أهوال وأحوال القيامة.

وهذا المعنى الذي أشار إليه عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ موجود في بعض المنتسبين إلى الإسلام، كمن يزكي ويصوم ويحج، ويعمل بعض الطاعات لكنه يقع في الرياء والشرك، أو لا يصلي ونحو ذلك، فهذا عمله يذهب هباء منثوراً.

كما أنه قد يفوت على كثير من المسلمين أجر كثير من الأعمال التي يقومون بها في خدمة الأمة والقيام بمسؤولياتها كالتدريس والأعمال الوظيفية في الوظائف الشرعية وغيرها بسبب غياب النية والاحتساب مما يسبب أيضا مع فوات الأجر التبرم من العمل والإحباط وانحطاط المعنويات وانتظار التقاعد المبكر، وما علموا أن العمل في خدمة الأمة ومصالحها جهاد يؤجرون عليه إذا هم أخلصوا النية وأحسنوا العمل. فوا أسفا على أعمار وأعمال تضيع سدى بسبب غياب النية والاحتساب فهذا موظف يشكو من الدوام، وهذا مدرس يشكو من النصاب، وهذا إمام ومؤذن يشكو من الارتباط وهكذا وكل هذا بسبب غياب حسن النية والاحتساب.

---

(١) أخرجه أبو بكر البرقاني – فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤٠٦ – ٤٠٧.

فيا أخي الكريم لتربح جميع عمرك أحسن العمل واستحضر النية الصالحة في عملك وفي جلوسك مع أهلك وأولادك وإخوانك، وفي أكلك وشربك ونزهتك وبيعك وشرائك ونومك وجميع أحوالك في أمور دينك ودنياك، ولا تكن من الغافلين. واعلم أن الموفقين عاداتهم عبادات، وأن المخذولين عباداتهم عادات. وانظر أين أنت من هؤلاء وهؤلاء.

﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب، وأبو بكر عن عاصم بضم التاء (تُصلى) وقرأ الباقون بفتحها (تَصلى). أي: تدخل ناراً شديدة الحرارة تغمرها من كل جانب، وتُقلَّب فيها.

﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ أي: تسقى من عين بالغة الغاية في الحرارة، كما قال: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ۝ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ۝﴾ [الواقعة: ٥٤، ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ۝﴾ [محمد: ١٥]

﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ﴾ أي: ليس لهم في النار طعام يأكلونه.

﴿إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ أي: إلا طعاماً من ضريع، وهو شجر في النار خبيث شديد المرارة منتن الرائحة كثير الشوك ينشب في الحلق كما قال تعالى: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ [المزمل: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۝ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۝ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ۝﴾ [الدخان: ٤٣ ـ ٤٦].

﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ لا يحصل به سمن الجسم، ولا يدفع الجوع، ولا ينفع الجسم لا ظاهراً ولا باطناً، فمسكنهم النار الحامية، وشرابهم المهل والحميم، وطعامهم الضريع والزقوم فبئس الحال و المآل.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ ذكر في الآيات السابقة حال ومصير وعذاب الأشقياء وهم الكفار المكذبون ثم أتبع ذلك بذكر حال ومصير ونعيم السعداء، وهم المؤمنون، فقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ إلى قوله ﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾.

قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿نَّاعِمَةٌ﴾ أي: تظهر عليها آثار الترف والنعمة، ونضارة النعيم، وبهجة القلوب وسرورها، وهي وجوه المؤمنين.

﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ أي: لعملها الذي قدمته في الدنيا ﴿رَاضِيَةٌ﴾ لأنه كان سبب دخولها الجنة وتنعمها فيها، وسعادتها في دنياها وأخراها.

﴿فِي جَنَّةٍ﴾ الجنة هي دار النعيم التي أعدها الله لأوليائه المتقين وحزبه المفلحين ﴿عَالِيَةٍ﴾ أي: رفيعة المنزلة فوق السموات في أعلى عليين وسقفها عرش الرحمن، قال تعالى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ [الزمر: ٢٠] وهي عالية أيضاً أي: عظيمة القدر.

﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء المضمومة (لا يُسمع) و«لاغيةٌ» بالرفع، وقرأ نافع بالتاء المضمومة (تُسمع)، وقرأ الباقون بالتاء المفتوحة (تَسمع) ونصب (لاغيةً) أي: لا تسمع في الجنة كلمة ساقطة، أو لا معنى لها، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ [مريم: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ۝﴾ [الطور: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ۝﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦].

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ ﴿عين﴾ اسم جنس، أي: فيها عيون جاريات أي: سارحات، تجري بغير أخدود، يفجرونها، ويشربون منها، ويصرفونها كيف شاؤوا كما قال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦].

منها: عين التسنيم، والكافور والسلسبيل، قال تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ۝﴾ [المطففين: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝﴾ [الإنسان: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ۝﴾ [الإنسان: ١٨]، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «أنهار الجنة تفجر من تحت تلال، أو من تحت جبال المسك»[١].

وهذه العيون والأنهار تجري في غير أخدود.

قال ابن القيم[٢]:

أنهارها في غير أخدود جرت ... سبحان ممسكها عن الفيضان

﴿فِيهَا سُرُرٌ﴾ السرر: جمع سرير، وهي موضع الجلوس والاضطجاع ﴿مَّرْفُوعَةٌ﴾ أي: عالية مرتفعة السمك كثيرة الفرش ناعمة الملمس، عليها الحور العين، فهي مرفوعة

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٤٠٨.

(٢) انظر «النونية» ص٢٢٩.

مرتفعة حساً ومعنى.

﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ أقداح معدة للشراب.

﴿وَنَمَارِقُ﴾ نمارق: جمع نِمرقة - بكسر النون، أي: وسائد ومرافق يتكأ عليها ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾ أي: مصفوف بعضها إلى بعض فجمعت بين لذة الاتكاء إليها وجمال الصف، وحسن الترتيب.

﴿وَزَرَابِيُّ﴾ أي: وبسط جميلة فاخرة.

﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ مفرقة مبسوطة في المجالس ههنا وههنا لمن أراد الجلوس عليها.

عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ ذات يوم لأصحابه: «ألا مشمر للجنة، فإن الجنة لا خطر لها، هي ورب الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وفاكهة كثيرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة في مقام أبداً في حبرة ونضرة، في دور عالية سليمة بهية»، قالوا: نحن المشمرون لها يا رسول الله، قال: «قولوا إن شاء الله»، ثم ذكر الجهاد وحض عليه»[1].

الفوائد والعبر:

١- إثبات القيامة وأنها تغشى الناس بأهوالها وشدائدها.

٢ـ تشريف الله ـ عز وجل ـ لنبيه ﷺ في خطابه له، وتنبيهه وأمته لعظيم يوم القيامة.

٣- انقسام الناس في ذلك اليوم العصيب إلى فريقين: فريق وجوههم ذليلة مصيرهم النار الحامية وما فيها من ألوان العذاب، وفريق وجوههم ناعمة مصيرهم الجنة وما فيها من أصناف النعيم.

٤- نَصَبُ المعذبين وتعبهم وعملهم بجر السلاسل والخوض في النار.

٥- عمل الكفار وأهل البدع أعمالا كثيرة ونصبهم فيها، لكنها لا تنفعهم، بل تكون هباء منثورا.

٦- يجمع للمعذبين بين اصطلاء النار الحامية، وشراب الحميم وطعام الضريع المنتن المر الذي ينشب بالحلق، ولا يسمن ولا يغني من جوع.

٧- نعومة وجوه أهل الجنة لعظم ما هم فيه من النعيم المعنوي والحسي.

٨- رضى المنعمين في الجنة عن سعيهم وما أعد لهم وهذا من أعظم النعيم المعنوي.

٩- علو الجنة ومنازلها ورفعة سررها وفرشها.

١٠- سلامة أهل الجنة من المنغصات والمكدرات ومن سماع اللغو لقوله: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾.

١١- عظم ما أعد لأهل الجنة من ألوان النعيم، فعيون جارية، وسرر مرفوعة، وأكواب موضوعة، ووسائد مصفوفة، وبسط مفرقة مبسوطة في المجالس.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الزهد ٤٣٣٢.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

بعد ما ذكر عز وجل انقسام الناس يوم القيامة إلى أشقياء وسعداء، وذكر حال ومآل كل منهم وما أعد له من الجزاء أتبع ذلك بالأمر بالتأمل والنظر في عظيم مخلوقاته الدالة على كمال قدرته وعظمته واستحقاقه للعبادة وحده وقدرته على بعث الناس وحسابهم.

قوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتقريع للمكذبين بالبعث المنكرين للمعاد.

أي: أعموا فلا ينظرون نظر تأمل وتفكر ﴿إِلَى ٱلْإِبِلِ﴾ هذه المخلوقات العجيبة التي بين أيديهم يركبونها ويحلبونها ويأكلون لحمها، وينتفعون بأوبارها وجلودها وغير ذلك من منافعها.

﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ أي: كيف خلقت على هذه الكيفية العظيمة من كبر الأجسام وقوتها، وتركيبها الغريب العجيب، ولين انقيادها، وشدة صبرها وتحملها، وكثرة منافعها، تحمل الركاب والأثقال، ويستخرج بها الماء من الآبار، وتشرب ألبانها، وتعد من أنفع وأحسن الأغذية للجسم ويستشفى بها وبأبوالها من الحمى ومن كثير من الأمراض المستعصية والجلدية وغيرها، وتؤكل لحومها، وينتفع بوبرها وجلودها إلى غير ذلك من منافعها العظيمة وفوائدها الكثيرة ولهذا خصها بالذكر من بين سائر بهيمة الأنعام، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: ٧١ - ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [النحل: ٧].

فتحمل الأثقال العظيمة، بل من قوة هذه الإبل أن الأثقال تحمل عليها وهي باركة، ثم تقوم بحملها وهذا من عناية الله عز وجل بالإنسان حيث لا يمكنه الحمل عليها وهي قائمة لارتفاعها فأعطاها الله عز وجل هذه القوة وأقدرها على القيام بحملها، كما أقدرها

على قطع المسافات الطويلة، وتحمل شدة الحر والظمأ وشدة البرد وظروف الحياة الصحراوية القاسية على اختلاف فصول السنة، ويقال أنها تصبر عن الماء وتتحمل العطش نحو عشرة أيام في شدة الحر.

وتدل صاحبها إذا تاه عن الطريق، كما تدله إلى مورد الماء، وتفي لصاحبها إذا أحسن إليها، وتنتقم منه ولو بعد حين إذا أساء إليها، وتتحاشى في سيرها وطء أيّ كائن حي مهما صغر حتى النملة فيما قيل.

وقد ذكر أن رجلاً كان يسير خلف جمله في الصحراء في آخر الليل وكان مجموعة من اللصوص «الحنشل» نائمين في وسط الطريق لعل أحداً يأتي فيأخذوا ما معه، فأبصرهم الجمل وتنحى عنهم جانباً، أما صاحبه فاستمر في طريقه حتى وقع عليهم، فقاموا وأخذوا جمله وما معه.

ويقال: إنها إذا فقدت فصيلها بين الإبل رجعت إلى آخر مكان درّت فيه على ولدها وأرضعته فيه ولا تكاد تخطئ ذلك غالباً، وهو كذلك إذا كان يستطيع المشي، يبحث عنها في آخر مكان رضعها فيه، وتحزن وتصاب بحالة نفسية عندما يؤخذ وليدها، أو يذبح أمامها جمل آخر، وتحس بمصدر الخطر على أهلها إذا أقبل وجهته فتسرع في السير إن كانت في مسير، وتشنف آذانها وتمد عنقها وتضطرب وتنهض إذا كانت باركة إنذاراً لأهلها بالخطر.

وأهل الإبل يعرفون من عجائب أحوالها الشيء الكثير. لكن مما يستغرب من الإبل مع ماذكر عنها عدم ابتعادها عن السيارات في الطرقات العامة بينماكثير من الحيوانات تبتعد عنها. فقد يكون هذا بسبب غرورها وكبريائها واعتدادها بقوتها أو غير ذلك.

﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ معطوف على الإبل، أي: أفلا ينظرون إلى السماء كيف رفعها الله عز وجل فوقهم بلا عمد - كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ [ق: ٦]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧﴾ [الرحمن: ٧].

﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ اي: كيف جعلت منصوبة قائمة أمام أعينهم راسخة راسية في الأرض لئلا تميد بأهلها في وسط الماء المحيط بها من كل جانب، قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥، لقمان: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١]، مع ما أودع الله فيها من المنافع من المعادن وغيرها.

وقد ذكر بعض أهل العلم أن ما نشاهده من الجبال فوق سطح الأرض هو مقدار ثلثها فقط وثلثها راسخة في الأرض.

﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ اي: كيف بسطت ومدت ومهدت وفرشت، فجعلت مسطحة يسهل العيش والبناء عليها وزراعتها والاستفادة من خيراتها مع أنها في الأصل كروية الشكل، قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الذاريات: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح: ١٩، ٢٠].

فوجه الله عز وجل العرب إلى النظر والتأمل في آيات الله الكونية التي بين أيديهم ويشاهدونها: الإبل التي يركبونها، ويحملون عليها أثقالهم، ويحلبونها ويأكلون لحومها، وينتفعون بأوبارها وجلودها إلى غير ذلك من منافعها، وإلى السماء التي فوقهم، وإلى الجبال المنصوبة أمام أعينهم، وإلى الأرض التي يعيشون عليها ويسيرون، وينتفعون بخيراتها، وهذا أدعى لقبولهم، وأقوى في قيام الحجة عليهم، وكان شريح القاضي رحمه الله يقول لأصحابه: «اخرجوا بنا ننظر إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت».

وهذا بخلاف ما لو وجهت أنظارهم لما لم يكن مشاهداً لهم ولا معلوماً مما جد من المخترعات والمصنوعات من السيارات والطائرات وانتقال الأصوات بواسطة الآلات، وغير ذلك مما هو داخل تحت قوله عز وجل ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل: ٨].

وعن أبي تميمة عن رجل من قومه أتى النبي ﷺ أو قال شهدت النبي ﷺ وأتاه رجل فقال: أنت رسول الله؟ أو قال: أنت محمد؟ فقال: «نعم» قال: إلام تدعو؟، قال: «أدعو إلى الله عز وجل وحده، من إذا كان بك ضر دعوته كشفه عنك، ومن إذا أصابك عام سنة دعوته أنبت لك، ومن إذا كنت في أرض قفر، فأضللت فدعوته رد عليك..»[1].

وفي رواية أن رسول الله ﷺ قال له: «من ذا الذي ينبت النبات؟»، قال: الله، قال: «من الذي تدعوه في البحر؟»، قال: الله»

وعن أنس رضي الله عنه قال: كنا نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل، فيسأله ونحن نسمع، فجاء رجل من أهل البادية، فقال: يا محمد، إنه أتانا رسولك، فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك؟، قال:

---

(١) اخرجه احمد ٤/ ٦٥.

«صدق»، قال: فمن خلق السماء؟، قال: «الله»، قال: فمن خلق الأرض؟، قال: «الله»، قال: فمن نصب هذه الجبال، وجعل فيها ما جعل؟، قال: «الله»، قال: فبالذي خلق السماء والأرض ونصب هذه الجبال، آلله أرسلك؟، قال: «نعم»، قال: وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا؟، قال: «صدق»، قال: فبالذي أرسلك، آلله أمرك بهذا؟، قال: «نعم»، قال: وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا؟، قال: «صدق»، قال: فبالذي أرسلك، آلله أمرك بهذا؟، قال: «نعم»، قال: وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلا؟، قال: «صدق»، قال: ثم ولى، فقال: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن، فقال النبي ﷺ: «لئن صدق ليدخلن الجنة»(١).

﴿فَذَكِّرْ﴾ أي: ذكر الناس يا محمد، وعظهم بما أنزل الله إليك من الكتاب والحكمة كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝﴾ [ق: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [الذاريات: ٥٥].

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ ﴿ إنما ﴾ أداة حصر، والحصر هو: إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه. أي: ما أنت إلا مذكر فقط، كما قال تعالى: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٣، وقال تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ۝﴾ [آل عمران: ٢٠].

وقد ذكّر ﷺ وبلّغ البلاغ المبين حتى أتاه من ربه اليقين، وكان يردد ﷺ وهو يجود بنفسه «الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم»(٢).

﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ أي: لست يا محمد على الناس بمتسلط جبار تكرههم على الإيمان كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس، حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على

---

(١) أخرجه البخاري معلقاً في العلم ـ ما جاء في العلم ٦٣، وأخرجه موصولاً مسلم في الإيمان ـ في بيان الإيمان بالله وشرائع الدين ١٢، والنسائي في الصيام ـ وجوب الصيام ٢٠٩١، والترمذي في أبواب الزكاة – ما جاء إذا أديت الزكاة فقد قضيت ما عليك ٦١٩.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الجنائز ١٦٢٥، وأحمد ٦/ ٢٩٠، ٣١١، والبغوي في «معالم التنزيل» ١/ ٤٢٦ ـ من حديث أم سلمة ـ رضي الله عنها.

الله عز وجل ثم قرأ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝﴾»[١].

فمهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام، ومنهم محمد ﷺ سيدهم وافضلهم هي التذكير وتبليغ الدعوة فقط، وهكذا مهمة الدعاة إلى الله والمصلحين والمربين، أما هداية القلوب فهي بيد علام الغيوب.

وفي هذا تسلية له ﷺ وهي تسلية للدعاة والمصلحين من أمته، لأنه إذا كان ﷺ تمرد عليه من تمرد من قومه بل من قرابته، وقال الله عز وجل له ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ مع أنه مرسل من عند الله عز وجل مؤيد بالوحي، فتمرد كثير من الناس على الدعاة من بعده من باب أولى وأحرى.

﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ الاستثناء منقطع، أي: لكن من أعرض عن اتباع الحق والعمل به ببدنه وجوارحه، ﴿ وكفر ﴾ أي: وجحده بقلبه ولسانه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝﴾ [القيامة: ٣١ ـ ٣٢].

﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ وهو عذاب الآخرة في النار، كما قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۝﴾ [القلم: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ [الرعد: ٣٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى»، قالوا: يا رسول الله، و من يأبى؟، قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»[٢].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا كلكلم يدخل الجنة إلا من شرد على الله شراد البعير على أهله»[٣].

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ في هذا وعد لمن آمن، ووعيد لمن كفر، كما أن فيه تسلية للرسول ﷺ تجاه من تولى وكفر من قومه.

قرأ أبو جعفر بتشديد «الياء» (إِيَّابهم)، وقرأ الباقون بتخفيفها (إيابهم) أي: إلينا رجوعهم ومآبهم ومصيرهم، وعلينا طريقهم ونحن لهم بالمرصاد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝﴾ [الفجر: ١٤].

---

(١) اخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٤٦، ومسلم في الإيمان – الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله ٢١، وأبو داود في الجهاد ٢٦٤٠، والنسائي في الجهاد ٣٠٩٠، والترمذي في الإيمان ٢٦٠٦، وابن ماجه في الفتن ٣٩٢٧.

(٢) اخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة ٧٢٨٠.

(٣) اخرجه أحمد ٥/ ٢٥٨.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ أي: ثم إن علينا محاسبتهم على أعمالهم ومجازاتهم عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

لكن المؤمنين يحاسبون حساباً يسيراً كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝﴾ [الانشقاق: ٧، ٨].

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «يدني الله المؤمن يوم القيامة فيقرره بذنوبه، فيقول أتذكر ذنب كذا وكذا؟، فيقول: نعم ربي، فيقول الله عز وجل: أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»[١].

وأما الكافرون فيحاسبون حساباً عسيراً كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ۝ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ۝﴾ إلى قوله: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۝﴾ [الحاقة: ٢٥ ـ ٣٢].

فتحصى عليهم أعمالهم ويناقشون عنها أمام الملأ وعلى رؤوس الأشهاد، ويقال: ﴿هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ۝﴾ [هود: ١٨].

ولهذا قال النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «من نوقش الحساب هلك»، وفي رواية: «عذب»[٢].

الفوائد والعبر:

١- الحث على النظر والتأمل في آيات الله ومخلوقاته العظيمة، والإنكار على من يغفل عن ذلك.

٢- عظم آيات الله عز وجل وتمام قدرته في خلق الإبل ورفع السماء، ونصب الجبال وسطح الأرض.

٣- مخاطبة الناس بما يعرفون فقد وجه الله العرب للنظر فيما بين أيديهم من المخلوقات إقامة للحجة عليهم ﴿إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝﴾.

٤- أن مهمة الرسول ﷺ والواجب عليه، وعلى أتباعه التذكير، وهداية الناس بيد الله عز وجل.

٥- أن الرسول ﷺ ليس بمسلط على الناس يلزمهم الهداية.

٦- الوعيد لمن تولى وكفر بالعذاب الأكبر يوم القيامة عذاب النار.

٧- أن مرجع الخلائق كلهم ومصيرهم إلى الله عز وجل وعليه حسابهم، ومجازاتهم على أعمالهم.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير باب ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ ٤٩٣٩، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها - إثبات الحساب ٢٨٧٦.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٣٦، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٧٦، وأبو داود في الجنائز ٣٠٩٣، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٢٦ ـ من حديث عائشة ـ رضي الله عنها.

تفسير سورة الفجر

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: صلى معاذ صلاة، فجاء رجل فصلى معه فطوّل، فصلى في ناحية المسجد ثم انصرف، فبلغ ذلك معاذاً، فقال: منافق. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فسأل الفتى، فقال: يا رسول الله، جئت أصلي معه فطوّل عليَّ، فانصرفت وصليت في ناحية المسجد، فعلفت ناضحي، فقال رسول الله ﷺ: «أفتان يا معاذ؟، أين أنت من ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾»[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾.

قوله: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤﴾.

الواو: حرف قسم وجر، و«الفجر» وما عطف عليه وهو قوله ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤﴾ كل ذلك مقسم به مجرور، ولله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته لما فيها من الدلالة على عظمته هو، أما المخلوق فلا يجوز أن يقسم إلا بالله.

﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ هو الصبح والنور الساطع الذي يكون متصلاً بالأفق الشرقي ويمتد شمالاً وجنوباً، قبل طلوع الشمس بساعة ونصف إلى ساعة وربع تقريباً حسب اختلاف الفصول، وهو الفجر الصادق الذي لا ظلمة بعده، بل يتلوه طلوع الشمس، وهو وقت عظيم لأنه وقت إقبال ضوء النهار وإدبار ظلمة الليل، ووقت صلاة الفجر، التي قال الله عنها: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨﴾ [الإسراء: ٧٨]، وهو وقت إمساك الصائم عن المفطرات. وعُرِّف «الفجر» باللام، لأنه معروف لكل أحد.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ عشر ذي الحجة، والمراد أيامها، أقسم الله عز وجل بها لعظيم فضلها، قال ﷺ: «ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام» يعني عشر ذي

---

(١) أخرجه النسائي بهذا اللفظ فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤١٢، وقد سبق تخريجه في تفسير سورة الأعلى، وليس فيه ذكر «والفجر».

الحجة، قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟، قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله ولم يرجع من ذلك بشيء»[١].

وقيل: إن المراد بهذه الليالي العشر الاواخر من رمضان، لقوله: «وليال» ولم يقل (وأيام) فأقسم الله عز وجل بهذه الليالي لشرفها وفضلها لأن فيها ليلة القدر، وكان الرسول ﷺ يقومها ويعتكف فيها ويرغب في ذلك.

﴿وَٱلشَّفْعِ﴾ يوم النحر ﴿ وَٱلْوَتْرِ ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بكسر الواو (والوِتر)، وقرأ الباقون (والوَتر) بفتحها ﴿ والوتر ﴾ يوم عرفة.

عن جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن العشر عشر الأضحى، والوتر يوم عرفة، والشفع يوم النحر»[٢].

وقال بعض المفسرين: الشفع الخلق كله، والوتر: الخالق سبحانه كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن لله تسعة وتسعين اسماً مائةً إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر»[٣].

وقال بعضهم: الشفع والوتر: المخلوقات منها شفع ووتر، وكذلك العبادات كلها منها ما هو شفع، ومنها ما هو وتر. أي: في عددها فالصلاة منها ما هو شفع كالثنائية والرباعية، ومنها ما هو وتر كالثلاثية.

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن الشفع والوتر، فقال: «هي الصلاة بعضها شفع، وبعضها وتر»[٤].

قال ابن القيم[٥]: «هذه الشعائر المعظمة منها شفع ومنها وتر، في الأمكنة والأزمنة والأعمال، فالصفا والمروة شفع، والبيت وتر، ومنى ومزدلفة شفع، وعرفات وتر، وأما الأعمال فالطواف وتر، وركعتاه شفع، والطواف بين الصفا والمروة وتر، ورمي الجمار

---

(١) أخرجه البخاري في العيدين – فضل العمل في أيام التشريق ٩٦٩، وأبو داود في الصوم ٢٤٣٨، والترمذي في الصوم ٧٥٧، وابن ماجه ١٧٢٧ ـ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه احمد ٣/٣٢٧، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٣٤٨. قال ابن كثير في «تفسيره»: «إسناد رجاله لا بأس بهم، وعندي أن المتن في رفعه نكارة».

(٣) أخرجه البخاري في الشروط ٢٧٣٦، ومسلم في الذكر والدعاء ٢٦٧٧، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٦٠.

(٤) أخرجه احمد ٤/٤٣٧، والترمذي في تفسير سورة الفجر٣٣٤٢، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٣٥٤، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/٣٤٢٣.

(٥) انظر «بدائع التفسير» ٥/٢٠٦ – ٢٠٧.

وتر، كل ذلك سبع سبع، وهو الأصل فإن الله وتر يحب الوتر، والصلاة منها شفع ومنها وتر، والوتر يوتر الشفع فتكون كلها وتراً، وأما الزمان فإن يوم عرفة وتر، ويوم النحر شفع.. إلى أن قال وذكرت أقوال أخر هذه أصولها، ومدارها كلها على قولين: أحدها أن الشفع والوتر نوعان للمخلوقات والمأمورات، والثاني: أن الوتر الخالق، والشفع المخلوق، وعلى هذا القول فيكون قد جمع في القسم بين الخالق والمخلوق».

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴾ أي: والليل إذا سار ومضى وذهب وأدبر.

والسُّرى هو السير في الليل، وفي المثل «عند الصباح يحمد القوم السُّرى»

ويحتمل أن المعنى: والليل إذا أقبل بظلامه فيكون عز وجل أقسم بالليل إذا أقبل بظلامه وبالفجر إذا أقبل بضيائه كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝﴾ [التكوير: ١٧، ١٨].

فأقسم عز وجل بالليل في سريه إقبالاً وإدباراً لما فيه من الآيات العظيمة والأوقات الفاضلة من أوقات الصلوات والنزول الإلهي، وغير ذلك.

﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجۡرٍ﴾ «هل» حرف استفهام للتحقيق والتقرير ﴿ في ذلك ﴾ الإشارة للقسم السابق وما أقسم به.

﴿لِّذِي حِجۡرٍ﴾ أي: لصاحب عقل ولب وحجا وبصيرة، وسُمي العقل حجراً لأنه يحجر على صاحبه ويمنعه عما لا يليق به من الأفعال والأقوال.

والمعنى: في هذا القسم الذي أقسم الله به في هذه الآيات أعظم الإقناع والكفاية لمن كان ذا عقل ولب وألقى السمع وهو شهيد.

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾ الهمزة للاستفهام التقريري، أي: ألم تعلم كيف فعل ربك بهم، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح خطابهُ و(عاد إرم) هم أولاد عاد بن إرم ينتهي نسبهم إلى نوح عليه السلام، وهم عاد الأولى أرسل الله إليهم نبيه هوداً عليه السلام ومنازلهم بالأحقاف جنوب الجزيرة في اليمن.

﴿ ذات العماد ﴾ عطف بيان، أي: صاحبة العماد، نسبة إلى الأعمدة الشديدة الطويلة التي ترفع بها بيوت الشعر والخيام التي يسكنونها.

﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ أي: القبيلة التي لم يخلق مثلها في جميع البلاد، من حيث كبر وطول أجسامهم وعظم خلقهم وقوة تركيبهم، وشدة قوتهم وبطشهم، حتى إنه رُويَ أن الواحد منهم يحمل الصخرة العظيمة فيلقيها على الحي فيهلكهم، ولهذا ذكَرهم

نبي الله هود عليه السلام بهذه النعمة التي خصهم الله بها من بين أهل بلادهم وزمانهم ليشكروا الله تعالى على ذلك فقال: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف: ٦٩].

لكنهم لم يزدادوا بهذه النعمة إلا استكباراً في الأرض، وعتواً وتجبراً، وتكذيباً لـ«هود» عليه السلام، وجحوداً لآيات الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت: ١٩].

وحيث كانوا يفتخرون ويتعاظمون بقوتهم أهلكهم بألطف الأشياء وهي الريح العقيم وجعلهم عبرة لمن بعدهم، قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة: ٦ ـ ٨]، وقال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات: ٤١، ٤٢].

﴿وَثَمُودَ﴾ هم قوم نبي الله صالح عليه السلام.

﴿الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ﴾ اي: قطعوا الصخر ونحتوها وخرقوها، لما أعطاهم الله من قوة، قال تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الشعراء: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الحجر: ٨٢]، ومنه قوله في الحديث: «مجتابي النمار»[1]. اي: مقطعو النمار[2] ومخرقوها.

﴿بِالْوَادِ﴾ اي: بواد القرى، وادي الحجر شمال الجزيرة.

وقد كذبوا صالحاً عليه السلام وعصوا أمر الله عز وجل، وعقروا الناقة التي أرسلها الله عز وجل لهم آية إجابة لطلبهم، وقد أهلكهم الله عز وجل بالصيحة والصاعقة والرجفة صاح بهم جبريل عليه السلام صيحة شديدة قطعت قلوبهم في أعماق أجوافهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة ١٠١٧ – من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) النمار: هي الأزر والشمال المخططة من صوف.

وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [الحجر: ٨٠ ـ ٨٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [فصلت: ١٧]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾[الأعراف: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾ [الحاقة: ٥].

ومساكنهم معروفة الآن وهي المسماة الآن «مدائن صالح» في العلا شمال الجزيرة، وقد مر عليها النبي ﷺ في طريقه إلى تبوك وأسرع وقنّع رأسه وقال ﷺ: «لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم»[(١)].

﴿وَفِرْعَوْنَ﴾ فرعون: ملك مصر، الذي أرسل الله إليه نبيه موسى عليه السلام، وهو أعظم الفراعنة جرأة على الله عز وجل حيث ادعى الربوبية والألوهية فقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] واستذل بني إسرائيل يُقتّل أبناءهم ويستحيي نساءهم.

﴿ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ أي: صاحب الأوتاد، والأوتاد: جمع وتد، أي: صاحب الأوتاد التي يعذب بها الناس يوتدهم ويعلقهم بها، ومنهم امرأته آسية بنت مزاحم رضي الله عنها، فقد رُوي أنه ضرب لها أربعة أوتاد ثم جعل على ظهرها رحى عظيمة حتى ماتت.

وقيل: إن المراد بقوله: ﴿ ذي الأوتاد ﴾ أي: ذي الجنود الذين ثبتوا ملكه، كما تثبت الأرض بالأوتاد.

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ «الذين» اسم موصول يعم من ذكر قبل، وهم عاد إرم، وثمود وفرعون.

ومعنى ﴿طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ أي: تجاوزوا الحد فخالفوا أمر الله وعتوا وتجبروا.

﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾ أي: أكثروا فيها الفساد المعنوي بالكفر والمعاصي وإضلال

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير – تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾ ٤٧٠٢، ومسلم في الزهد – النهي عن الدخول على أهل الحجر إلا من يدخل باكيا ٢٩٨٠، من حديث عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما.

وأذية العباد، المؤذن بفساد وخراب البلاد، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أي: أنزل عليهم ربك يا محمد ﴿ سوط عذاب ﴾ أي: رجزاً من العذاب والعقاب العاجل في الدنيا أهلكهم به كل منهم بقدر جرمه وذنبه.

ونكّر «سوط عذاب» إما لتعظيمه، وإما لتقليله، وأنه بيسير من عذابه أهلكهم واستأصلهم جميعاً، مع جبروتهم وطغيانهم.

فأهلك عاداً بالريح العقيم، وأهلك ثمود بالصيحة والصاعقة والرجفة، وأهلك فرعون وقومه بالغرق، قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ بعد ما ذكر الله عز وجل ما أنزله من العذاب على عاد وثمود وفرعون أتبع ذلك بأنه عز وجل بالمرصاد لجميع الخلق والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له ، أي:إن ربك يا محمد ﴿ لبالمرصاد ﴾ لجميع خلقه يسمع أقوالهم، ويرى أعمالهم، وطريقهم كلهم عليه ومردهم وإيابهم إليه وحسابهم عليه، فلا يمكن أن يفلت منهم أحد، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦] فالطريق عليه والمرجع إليه، والطريق إلى غيره مسدودة وفي هذا وعيد شديد وتهديد أكيد للمكذبين.

الفوائد والعبر:

١- إقسام الله عز وجل بالفجر، وعشر ذي الحجة، والشفع والوتر والليل إذا يسر تعظيماً لنفسه عز وجل وشرعه وقدرته، وتنبيهاً إلى فضل هذه الأوقات خصوصاً، وإلى أهمية الوقت عموماً.

٢- أن في إقسامه عز وجل بما ذكر ما يشفي ويكفي لمن كان ذا لب وعقل.

٣- التذكير بما فعل الله عز وجل بعاد إرم وثمود وفرعون مع قوتهم وجبروتهم حيث عذبهم أهلكهم بسبب طغيانهم وفسادهم وفي هذا تسلية له ﷺ تجاه تكذيب قومه، وتخويف وتحذير لهم.

٤- إثبات ربوبية الله - عز وجل - الخاصة لنبيه ﷺ، ولكل مؤمن.

٥- أن الله عز وجل بالمرصاد لجميع الخلق، فمرورهم عليه، ومصيرهم إليه، وحسابهم عليه.

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾.

قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ الفاء استئنافية، و«أما» حرف شرط وتفصيل، ﴿الإنسان﴾ جنس الإنسان، ﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي: إذا ما امتحنه ربه واختبره، والابتلاء: الامتحان، ويكون بالخير والشر كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء: ٣٥] فيبتلى الإنسان بالشر أيصبر أم يجزع ويفجر، ويبتلى بالخير أيشكر أم يكفر.

وقد أحسن القائل:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ بالأموال والأولاد والصحة وغير ذلك، أي: أكرمه مطلق إكرام، لا الإكرام المطلق.

﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ فبدل أن يشكر نعمة الله عليه ويعترف له بها يظن أن هذا الإكرام والتنعيم الدنيوي إكرام من الله عز وجل له فيغتر بذلك وأنه إنما أوتي ذلك لأنه أهل له، وما علم أن ذلك قد يكون استدراجاً له كما قال تعالى عن قارون أنه قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]. وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر بتشديد الدال «فقدّر» وقرأ الباقون بتخفيفها «فقدَر» أي: وأما إ ذا ما امتحنه فضيق عليه رزقه وعطاءه

﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ معترضاً على قضاء الله وقدره، وظاناً أن ما حصل له من تضييق رزقه إهانة من الله عز وجل له، فاعجب بنفسه عند الإكرام، ولم يشكر نعمة الله عليه، وجزع عند تضييق رزقه، واعترض على ربه وهذا حال الإنسان من حيث العموم ظلوم جهول.

﴿كَلَّا﴾ للردع والزجر، أي: ليس الأمر كما زعم واعتقد، فليس في إكرام الله عز وجل وتنعيمه له بشيء من الدنيا إكرام له الإكرام المطلق، وليس في تضييق رزقه إهانة له، بل هذا مقتضى حكمة الله عز وجل وعدله، وليس في الابتلاء بتوسيع الرزق أو تضييقه دلالة على إكرام الله عز وجل للإنسان أو إهانة، أو محبة منه له أو عدمها لأن الله عز وجل يبتلي بالنعم، كما يبتلي بالمصائب والنقم، ويعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب،

ويمنعها عمّن يحب وعمّن لا يحب. ويبتلي عبده بنعمة قد تجلب له نقمة وبنقمة قد تجلب له نعمة.

وإنما الشأن كل الشأن في توفيق الله للعبد لتقواه كما قال عز وجل ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] وعلى من ابتلي بالمال والغنى أن يشكر ولا يغتر بذلك وعلى من ابتلي بالضيق والفقر أن يصبر، ولا يجزع، والعاقبة للمتقين.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الدين إلا من أحب فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه»[١].

وقال ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط»[٢].

وقال ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى المرء على قدر دينه»[٣].

فالحمد لله الذي لم يجعل إعطاء الدنيا دليلاً على الكرامة عنده، بل جعل الأكرم من الخلق أتقاهم له عز وجل، لينال ذلك من وفقه الله من الفقراء والأغنياء، والأصحاء والمرضى، بل جعل الابتلاء بالفقر والمرض والمصائب من دلائل محبته، وأسباب القرب إليه.

ويقوى هذا المعنى ويتأكد عند المؤمن حقاً، ويضعف عند ضعف الإيمان، وينعدم عند عدم الإيمان، فالمؤمن إذا أكرمه الله ونعمه اعترف بفضل الله عليه وشكره، ولم يزعم أن هذا باستحقاقه لذلك، بل يخاف أن يكون ذلك استدراجاً له، وعندما يبتلى بالفقر وضيق الحال يصبر، ويخاف أن يكون ذلك بشؤم ذنوبه، ويعلم أن ما عند الله خير له.

﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ «بل» للاضراب الانتقالي، أي: بل إنكم إذا أكرمكم الله ونعمكم ﴿لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾.

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٨٧.
(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٩٦ – من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. وقال «حديث حسن غريب».
(٣) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٩٨، وابن ماجه في الفتن ٤٠٢٣، والدارمي في الرقاق ٢٧٨٣، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

قرأ أبو عمرو ويعقوب، بالياء في قوله (بل لا يكرمون) وقوله (ولا يحاضون) وقوله (ويأكلون) (ويحبون) وقرأ الباقون بالتاء.

و«اليتيم» من مات أبوه قبل بلوغه، من ذكر أو أنثى، لقوله ﷺ: «لا يتم بعد احتلام»[1]. وسمي يتيماً من الانفراد، لانفراده عن أبيه أو عن أبويه.

ومعنى إكرام اليتيم الإنفاق عليه وتوجيهه والدفاع عنه وعن حقوقه، وتعويضه ما فقد من عطف أبيه أو من عطف أبويه.

وفي الآية ترغيب وحث على إكرام اليتيم وأداء حقوقه وقد عظم الله عز وجل حق اليتيم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢﴾ [النساء: ٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠﴾ [النساء: ١٠].

ورُويَ عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه»[2].

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» وأشار بالسبابة والوسطى وفرّج بينهما شيئاً»[3].

﴿وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ أي: ولا يحث بعضكم بعضاً على إطعام المسكين. و«المسكين» هو المحتاج الذي لا يجد كفايته أو لا يجد شيئاً، وهو الفقير، وسمي بـ«المسكين» أخذاً من السكون واللصوق في الأرض وعدم الحركة لأن الفقر أسكنه وأذله نسأل الله العافية. ومن لا يحض غيره على إطعام المسكين، فهو من باب أولى وأحرى لا يطعم المسكين.

ولعل من الحكمة في قوله ﴿وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ ولم يقل: ولا تطعمون المسكين أن كل إنسان يستطيع الحث على إطعام المسكين، لكن قد يكون هناك الكثير من الناس لا يقدرون على إطعام المسكين بأنفسهم لفقرهم، فاشترك الجميع في

---

(١) اخرجه أبو داود في الوصايا ٢٨٧٣ من حديث علي رضي الله عنه.

(٢) اخرجه ابن ماجه في الأدب – حق اليتيم ٣٦٧٩.

(٣) اخرجه البخاري في الطلاق ٥٣٠٤، والترمذي في البر والصلة ١٩١٨.

أجر الإطعام الحاث عليه والمطعم من ماله، وفيه أيضاً أنه ينبغي للمجتمع المسلم التواصي بهذا، وأن يحض بعضهم بعضاً عليه وأن يكون من يتولى تدبير الطعام من زوجة أو ولد، أو خادم أو غيرهم قد أعطي الإذن في هذا.

﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾ أي: وتأكلون الميراث ﴿ أكلاً لما ﴾ أي: من أي جهة حصل من حلال أو حرام، أي: أكلا يَلُمُّ ويلف كل شيء من حلال أو حرام، من ميراث الشخص أو ميراث غيره.

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ أي: وتحبون المال حباً كثيراً عظيماً شديداً.

قال الشاعر:

إن تغفـــر اللــــهم تغفـــر جمـــا وأي عبــــد لــــك لا ألمّـــا[1]

الفوائد والعبر:

١- جهل الإنسان في ظنه أن ابتلاء ربه له بالنعمة إكرام له، وأن ابتلاءه له بتضييق رزقه إهانة له، والحقيقة غير ذلك.

٢ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ العامة لجميع الخلق.

٣- أن الإكرام للإنسان بتوفيقه لتقوى الله عز وجل، والإهانة في خذلانه وعدم توفيقه لذلك وقد قال عز وجل ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

٤- أن الله يبتلي بالغنى كما يبتلي بالفقر من يحب ومن لا يحب.

٥- الزجر والوعيد لمن لا يكرمون اليتيم، ولا يتحاضون على طعام المسكين، ويأكلون التراث من حل أو حرام ويتهالكون على حب المال.

٦- وجوب إكرام اليتيم وإطعام المسكين، والإحسان إليهما والعطف عليهما.

٧- عناية الدين الإسلامي باليتامى والمساكين.

---

(١) البيت لأبي خراش الهذلي. انظر «لسان العرب» مادة «جمم».

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾.

قوله ﴿كَلَّآ﴾ للردع والزجر للكافرين المكذبين.

﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ أي: إذا هدم ما عليها من بناء وسويت جبالها مع سهولها وبسطت، قال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ [الحاقة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [المزمل: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾﴾ [الانشقاق: ٣]، أي مدت كما يمد الأديم، وزيد في سعتها، وقال تعالى عن الجبال ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١٠٧].

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أي: وجاء ربك يا محمد لفصل القضاء بين العباد وهو مجيء يليق بجلاله وعظمته.

﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ «الملك» جنس الملائكة، أي: وجاء الملائكة بين يدي الله عز وجل صفوفاً صفوفاً، وصفاً بعد صف.

﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ أي: وأتي في ذلك اليوم ﴿ بجهنم ﴾ وهي النار سميت بهذا الاسم لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدة حرها.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»[١].

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: في ذلك اليوم عندما يرى جهنم، وتبدو الحقيقة عياناً، يتذكر الإنسان حاله في الدنيا وتفريطه في عمل الخير والاستزادة منه كما في قوله تعالى ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق: ٢٢].

﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي: وأين له الذكرى وقد فات أوانها وذهب زمانها.

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ أي: يقول متمنياً نادماً على تفريطه في جنب الله ﴿يَٰلَيْتَنِى

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة ـ باب في شدة حر جهنم وقعرها، وما تأخذه من المعذبين ٢٨٤٢، والترمذي في صفة جهنم ـ ما جاء في صفة النار ٢٥٧٣.

﴿قَدَّمْتُ﴾ عملاً صالحاً كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفرقان: ٢٧].

﴿لِحَيَاتِي﴾ الآخرة الباقية الدائمة، والتي هي الحياة الحقيقية كما قال تعالى ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤].

ولهذا قال ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «ولا يتمنين أحدكم الموت، إما محسناً فلعله أن يزداد خيراً، وإما مسيئاً فلعله أن يستعتب»[(١)].

وعن محمد بن أبي عميرة رضي الله عنه وكان من أصحاب رسول الله ﷺ قال: «لو أن عبداً خر على وجهه من يوم ولد إلى أن يموت هرماً في طاعة الله لحقره يوم القيامة، ولود أنه يرد إلى الدنيا كيما يزداد من الأجر والثواب»[(٢)].

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ قرأ يعقوب والكسائي «لا يعذَّب» بفتح الذال مع تشديدها، (ولا يوثَق وثاقه أحد) بفتح الثاء، أي: ففي ذلك اليوم لا يعذَّب مثل عذاب هذا المكذب أحد ولا يوثق ويقيَّد مثل تقييده أحد فهو أشق الناس عذاباً وأشدهم وثاقاً وتقييداً لكفره وتكذيبه.

وقرأ الباقون (لا يعذِّب) بكسر الذال مع تشديدها، (ولا يوثِق) بكسر الثاء أي: ففي ذلك اليوم لا يعذب عذاب الله أحد، ولا يوثِق وثاقه أحد، بل عذابه أشق، ووثاقه وتقييده أشد، لمن كفر به وكذب رسله وشرعه.

وفي هذا أشد التهديد والوعيد للكفرة والمجرمين والعصاة.

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ بعد ما ذكر شدة عذابه عز وجل ووثاقه لمن كفر به وكذب رسله، أتبع ذلك بذكر ما أعده للنفس المؤمنة من الرضا والكرامة في الجنة فقال: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ الآيات، أي: يا أيتها النفس المؤمنة الآمنة الساكنة الثابتة التي رضيت بقضاء الله وقدره، واطمأنت إلى ذكره وأيقنت بوعده وثوابه وأمنت من عذابه كما قال عز وجل ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «قل اللهم إني أسألك

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ١٨٥ ورواه عتبة بن عبد عن رسول الله ﷺ ٤/ ١٨٥.

نفساً بك مطمئنة، تؤمن بلقائك، وترضى بقضائك، وتقنع بعطائك»[١].

﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ أي: ارجعي وعودي إلى جوار ربك وجنته، وما فيها من ألوان النعيم، الذي أعلاه النظر إلى وجهه الكريم، كما قال مؤمن آل فرعون فيما ذكر الله عز وجل عنه ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [غافر: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦٢].

﴿رَاضِيَةً﴾ في نفسها عن ربها وعما أعد لها من النعيم.

﴿مَّرْضِيَّةً﴾ أي: قد رضي الله عنها بسبب إيمانها وعملها الصالح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ۝﴾ [البينة: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝﴾ [المجادلة: ٢٢].

وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الطويل قوله ﷺ: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت عليه السلام، حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذا الروح الطيب، فيقولون فلان ابن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا...»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا حُضر المؤمن أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فيقولون اخرجي راضية مرضياً عنك إلى روح، وريحان، ورب غير غضبان..»[٣].

﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾ أي: في عدادهم وفي جملتهم كما قال ﷺ: «اللهم الرفيق الأعلى»[٤].

وفي إضافتهم إليه عز وجل تشريف وتكريم لهم لأنهم أهل العبودية الخاصة.

---

(١) رواه الحافظ ابن عساكر في ترجمة رواحة بنت أبي عمرو الأوزاعي عن أبيها فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/٤٢٣.

(٢) أخرجه أحمد ٤/٢٨٧ – ٢٨٨، ٢٩٦.

(٣) أخرجه النسائي في الجنائز ١٨٣٣.

(٤) أخرجه البخاري في المغازي ٤٤٣٧، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٤٤٤، والترمذي في الدعوات ٣٤٩٦ من حديث عائشة رضي الله عنها.

﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ أي: وادخلي جنتي التي أعددتها لعبادي الصالحين فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وفي إضافتها إليه عز وجل تشريف وتعظيم لها.

وهـذا النـداء وهـذا الخطاب الذي يبهج القلـوب ويشرح الصـدور، يقـال لها عند لقـاء الله عز وجل يوم احتضارها، وعند لقاء الله عز وجل يوم قيام الناس لرب العالمين كما تبشرهم الملائكة بذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ۝ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ۝﴾ [فصلت: ٣١ ـ ٣٢].

وفي ندائه عز وجل للنفس المطمئنة، ووصفها بهذا الوصف، وأمرها بالرجوع إليه عز وجل، وإضافة ضميرها إلى اسمه عز وجل «الرب» وجعلها ضمن أهل ربوبيته الخاصة بأوليائه وإرضائها والرضا عنها، وأمرها بالدخول ضمن أهل عبوديته الخاصة، وفي جنته كل هذا تشريف وتكريم لها نسأل الله ـ تعالى ـ من فضله.

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾ قال: نزلت وأبو بكر جالس، فقال يا رسول الله، ما أحسن هذا فقال: «أما إنه سيقال لك هذا»[1].

ولا شك أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه أول من يدخل تحت هذه الآية من الأمة، لأنه أفضل الأمة بعد نبيها ﷺ.

وفي الأثر: «ما طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على أفضل من أبي بكر».

الفوائد والعبر:

١- التهديد والوعيد بالقيامة وأهوالها من اندكاك الأرض، والإتيان بجهنم على أهل الموقف.

٢- مجيء الرب عز وجل للفصل بين عباده، والملائكة بين يديه صفوفاً.

٣ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لنبيه ﷺ، ولكل نفس مؤمنة مطمئنة.

٤- تذكر الإنسان في ذلك اليوم عندما يشاهد أهوال القيامة لكن لا تنفعه الذكرى.

٥- ندم الكافر على تفريطه، وتمنيه أنه آمن وقدم عملاً صالحاً في الدنيا لحياته الأخرى، ولكن هيهات.

٦- تعذيبه عز وجل في ذلك اليوم للكفرة المجرمين عذاباً لا يعذبه أحد وإيثاقه لهم وثاقاً لا يوثقه أحد وفي هذا من الوعيد والتهديد ما فيه الكفاية.

٧- البشارة والتهنئة للنفس المؤمنة المطمئنة برجوعها إلى ربها راضية مرضية، ودخولها ضمن عباد الله المخلصين المكرمين، وفي جنته، وهذا غاية التكريم.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٢٩ ـ ٣٤٣٠.

تفسير سورة البلد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾.

قوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ «لا» للاستفتاح والتنبيه وتوكيد القسم، وليست نافية والمعنى: أقسم بهذا البلد، والمراد بـ (البلد) مكة أم القرى، أقسم الله عز وجل بها لشرفها وعظمها، فهي أحب أرض الله إلى الله عز وجل كما قال ﷺ: «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»[1].

﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ الواو: حالية والخطاب للنبي ﷺ.

والتقدير: أقسم بهذا البلد حال كونك يا محمد ﴿حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ أي: يحل لك أن تقاتل فيه، وذلك ساعة من نهار، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد، ولا يختلى خلاه، وإنما أحلت لي ساعة من نهار وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، ألا فليبلغ الشاهد الغائب» وفي لفظ: «فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله أذن لرسوله، ولم يأذن لكم»[2].

ويحتمل أن المعنى ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ أي: حال كونك حالاً فيه، أي: ساكناً محلاً غير محرم لأن حلول النبي ﷺ بهذا البلد يزيده شرفاً إلى شرفه ولأن أمن هذا البلد إنما تظهر به النعمة حال الحل من الإحرام، والحرمة هنا للمكان، وفي حال الإحرام للفعل، وأيضاً فإنه إذا أقسم به وفيه الحلال، فإذا كان فيه الحرام فهو أولى بالتعظيم والأمن.

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ الواو: عاطفة أي: وأقسم بالوالد، وهو آدم ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ أي: ومن ولد وهم ذريته، فأقسم عز وجل بأصل المكان ومرجعه وهي مكة (أم القرى) وبأصل السكان

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب ـ فضل مكة ٣٩٢٥ ـ من حديث عبد الله بن عدي الزهري ـ رضي الله عنه وقال: «حديث حسن غريب صحيح».

(٢) أخرجه البخاري في الحج ١٨٣٤، ومسلم في الحج ـ تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام ١٣٥٣، وأبو داود في المناسك ٢٠١٧، والنسائي في مناسك الحج ٢٨٩٢، والترمذي في السير ١٥٩٠، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٧٣.

ومرجعهم، وهو آدم عليه السلام.

وقيل: المراد كل والد من بني آدم وما ولد، أو كل والد من الحيوانات مطلقاً وما ولد.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ هذا هو المقسم عليه، فأقسم عز وجل بالبلد الحرام حال كون النبي ﷺ حلاً فيه، وأقسم عز وجل بالوالد وما ولد على أنه عز وجل خلق الإنسان في كبد.

واللام في قوله ﴿ لقد ﴾ واقعة في وجوب القسم و«قد» للتحقيق والتوكيد فأكّد عز وجل هذه الجملة بثلاث مؤكدات: القسم، واللام، و«قد» ومعنى قوله ﴿ في كبد ﴾، أي: منتصباً مستوياً مستقيماً، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾ [الانفطار: ٦، ٧]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين: ٤] وهذا مما يوجب عليه شكر هذه النعمة العظيمة، لا أن يتجبر وتبطره النعمة.

ويحتمل أن المعنى: في نصب، في جميع أطوار حياته يكابد متاعب الدنيا ومصائبها، وأشد ذلك مجاهدة النفس والشيطان والهوى والدنيا، والمجاهدة في الصبر على طاعة الله وعن معصيته وعلى أقداره المؤلمة إلى أن يدخل الجنة إن كان من المقبولين، وإلا استمر على ذلك بل ازداد شقاء إلى شقاء إن كان من أصحاب الجحيم.

وكلا المعنيين صحيح، ولا مانع من حمل الآية عليهما معاً.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ.

أي: أيظن الإنسان ﴿أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ أي: أنه قد يغتر بعنفوان شبابه وكبريائه وقوته فيظن هذا الظن وأنه متروك سدى فيقول أنا أعمل ما شئت بنفسي ومالي كما قال تعالى عن عاد ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، فرد الله عليهم بقوله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ قرأ ابو جعفر بتشديد الباء (لبّدا) وقرأ الباقون بتخفيفها (لبَدا).

أي: انفقت وافنيت مالاً كثيراً يُلبّد بعضه على بعض، فهو يفتخر في إفنائه المال الكثير في شهواته وفي غير وجهه، ولو أنفقه في وجهه لم يكن ذلك إهلاكاً له، بل إبقاءً له،

كما قال ﷺ: «يقول ابن آدم مالي مالي قال: وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت» وفي رواية «فأبقيت»[(١)].

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ وهذا أيضاً إنكار عليه، أي: أيظن الإنسان أن الله عز وجل لم يطلع عليه فيما أهلك من ماله، وفي جميع أحواله فيحصي عليه ما عمل من خير وشر وفي هذا وعيد وتهديد لمن يغتر بقوته وماله.

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾ الهمزة للاستفهام التقريري، أي: ألم نصيِّر له عينين يبصر بهما الأشياء، وهما من أعظم نعم الله عز وجل عليه ينظر بهما في آيات الله الشرعية والكونية ويبصر بهما الطريق، وينظر بهما إلى ما يريد، وهما الحبيبتان، كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «ما لعبدي المؤمن جزاء إذا أخذت حبيبته فصبر إلا الجنة»[(٢)].

﴿وَلِسَانًا﴾ ينطق به ويتكلم، ويعبر به عما في نفسه، ويفصح به عما في ضميره، فتميز بذلك عن سائر الحيوانات وعمن ابتلي بالبكم فأصبح لا يستطيع الإفصاح عما في نفسه إلا بلغة الإشارات القاصرة.

﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ يستعين بهما في الكلام وأكل الطعام وهما جمال لوجهه وفمه.

وخص هذه الأعضاء الثلاثة: العينين، واللسان، والشفتين، لأنها أكثر الأعضاء حركة وأكثرها كسباً للأعمال، إما للإنسان بالتأمل في آيات الله الكونية والشرعية، وفي ذكره وشكره والدعوة إليه وتعليم العلم ونحو ذلك، وإما على الإنسان بالنظر إلى ما حرم الله، وفي الكلام في الباطل والزور والغيبة والنميمة ونحو ذلك.

﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ أي: ودللناه وبينا له طريق الخير والشر، والهدى والضلال والرشد والغي كما قال عز وجل: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۞ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۞﴾ [الإنسان: ٢، ٣].

فذكَّر عز وجل الإنسان وقرره بأعظم نعم الله عليه ليستدل بها على عظيم فضل الله عز وجل عليه وعلى إثبات الخالق وصفات كماله، وصدق رسله، ووعده ووعيده كما

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٥٨، والنسائي في الوصايا ٣٦١٣، والترمذي في الزهد ٢٣٤٢ من حديث مطرف عن أبيه رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المرضى – فضل من ذهب بصره ٥٦٥٣، والترمذي في الزهد – ما جاء في ذهاب البصر ٢٤٠٠، وأحمد ٣/ ٢٨٣ – من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه وأخرجه أحمد أيضاً ٢/ ٢٦٥ – من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال عز وجل: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢١] وليشكر الله عليها ويقوم بحقوقه، لا أن يكفر به ويستعين بنعمه على معاصيه، كما هو واقع كثير من الناس وصدق الله العظيم ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

الفوائد والعبر:

١- إقسام الله عز وجل بالبلد الحرام مكة حال كونه ﷺ حلاً بها، وبالوالد وما ولد على أنه خلق الإنسان في كبد.

٢- تعظيم الله عز وجل للبلد الحرام، وتشريفه لرسوله محمد ﷺ، وتكريمه للإنسان.

٣- نعمة الله عز وجل وفضله على الإنسان حيث سوى خلقه وجعله معتدل الخلقة، متناسب الأعضاء.

٤- أن الله عز وجل خلق الإنسان في كبد في هذه الحياة يعاني متاعب الدنيا ومصائبها وشدائد الآخرة.

٥- خطأ الإنسان وجهله في ظنه أن الله لن يقدر عليه، ولن يراه.

٦- أن ما أنفقه الإنسان من المال في غير مرضاة الله عز وجل فهو خسارة وسيحاسب عليه.

٧- تقرير الإنسان بنعم الله عز وجل عليه من العينين واللسان والشفتين وهدايته النجدين.

٨- إقامة الحجة على الإنسان ببيان طريق الخير وطريق الشر له بإرسال الرسل وإنزال الكتب إعذاراً وإنذاراً.

﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ﴿٢٠﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

أقسم الله عز وجل بالبلد الحرام وبآدم وولده على أنه عز وجل خلق الإنسان في كبد مستوي الخلق يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة، وبين أنه قادر عليه ومطلع، وذكّره بما أنعم عليه به من العينين واللسان والشفتين وبيان طريق الخير والشر له، وهذا كله يشير إلى الأمانة التي حملها الإنسان، وعظم الهدف الذي خلق من أجله، ولهذا قال بعده ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾.

قوله: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾ الفاء عاطفة، و«لا» نافية أي: فلا هو اقتحم العقبة، كقوله ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١]، ويحتمل أن تكون (فلا) للتحضيض أي: فهلا اقتحم العقبة.

ومعنى ﴿ اقتحم ﴾ أي: تجاوز، والاقتحام: التجاوز بمشقة، و ﴿ العقبة ﴾ في الأصل: الطريق الوعر في الجبل، وتطلق على الأمر الشديد الصعب الشاق، وهي هنا مَثَلٌ ضربه الله عز وجل لمجاهدة النفس والشيطان في فعل الطاعات والبعد عن المنهيات.

وقيل: المراد بالعقبة الصراط الذي يضرب على متن جهنم وفي الحديث: «إن العقبة كؤود لا يجوزها المثقلون»[1]

فهذه العقبة شديدة حسية كانت أو معنوية، لا يجتازها إلا المُضْمِرون المُخِفّون المشمرون، ويهلك دونها المنقطعون، وهم أكثر الخلق.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾ «ما» اسم استفهام، والجملة اعتراضية بين العقبة وتفسيرها، والمراد بها تعظيم أمر العقبة وتفخيم شأنها، والتشويق لها، أي: وما أعلمك ما العقبة.

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾.

هذا بيان لقوله ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾، أي: بيان لكيفية اقتحام العقبة، وبماذا تقتحم.

قوله ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي (فكَّ) بالفتح و ﴿رقبةً﴾

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» ٤/ ٦١٨. وقال: «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه».

بالنصب، وقرأ الباقون برفع (فكُّ) وخفض (رقبةٍ) أي: عتق رقبة وتحريرها وتخليصها من الرق، أو من القتل، أو الأسر.

وفي تقديمها في الذكر تعظيم لعتق الرقاب، كما في حديث سعيد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل إربٍ منها إرباً منه من النار، حتى إنه ليعتق باليد اليد، وبالرجل الرجل، وبالفرج الفرج»[(١)].

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: علمني عملاً يدخلني الجنة، فقال: «لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة، أعتق النسمة وفك الرقبة»، فقال يا رسول الله، أو ليستا بواحدة؟، قال: «لا، إن عتق النسمة أن تنفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في عتقها، والمنحة الوكوف[(٢)] والفيء على ذي الرحم الظالم، قال: فإن لم تطق ذلك فأطعم الجائع واسق الظمآن وأمر بالمعروف وانه عن المنكر، فإن لم تطق ذلك فكف لسانك إلا من الخير»[(٣)].

وعن عمرو بن عبسة السلمي رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من ولد له ثلاثة أولاد في الإسلام فماتوا قبل أن يبلغوا الحنث أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم، ومن شاب شيبة في سبيل الله كانت له نوراً يوم القيامة، ومن رمى بسهم في سبيل الله بلغ به العدو أصاب أو أخطأ كان له كعدل رقبة، ومن أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منها عضواً منه من النار، ومن أنفق زوجين في سبيل الله، فإن للجنة ثمانية أبواب، يدخله الله من أي باب شاء منها»[(٤)].

وعن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أعتق رقبة مسلمة فهو فداؤه من النار»[(٥)].

﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي (أو أَطْعَمَ) وقرأ الباقون (أو إطعام)

---

(١) اخرجه البخاري في الكفارات ـ قول الله تعالى: ﴿أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾ ٦٧١٥، ومسلم في العتق ـ فضل العتق ١٥٠٩، والترمذي في النذور ـ ثواب من أعتق رقبة ١٥٤١، واحمد ٢/ ٤٢٢.

(٢) أي: المنيحة كثيرة اللبن.

(٣) اخرجه احمد ٤/ ٢٩٩.

(٤) اخرجه احمد ٤/ ١١٣، ٣٨٤، ٣٨٦، وابو داود في العتق ـ اي الرقاب أفضل ٣٩٦٥، ٣٩٦٦، والنسائي في الجهاد ٣١٤٣، ٣١٤٤، ٣١٤٥. وابن ماجه في الجهاد ٢٨١٢، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٤٢٢، وقال ابن كثير عن اسانيد هذا الحديث عند احمد «وهذه أسانيد جيدة قوية» «تفسير ابن كثير» ٨/ ٤٢٩.

(٥) اخرجه احمد ٤/ ١٤٧، ١٥٠.

﴿ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴾ أي: في يوم ذي مجاعة شديدة، والسغب: الجوع الشديد.

﴿يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ﴾ اليتيم: من فقد أباه دون البلوغ لقوله ﷺ: «لا يتم بعد احتلام»[١].

﴿ذَا مَقۡرَبَةٍ﴾ أي: ذا قرابة لمن أطعمه، لأن الصدقة على القريب أفضل كما قال ﷺ: «إن الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان: صدقة وصلة»[٢].

والمعنى: أو أطعم في يوم ذي مجاعة شديدة يتيماً من أقاربه، جمع بين الصفتين اليتم والقرابة.

﴿أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ﴾ أي: أو أطعم ﴿ مسكيناً ﴾ و«المسكين» هو الفقير المحتاج الذي لا شيء عنده.

﴿ ذا متربة ﴾ أي: لاصقاً بالتراب، يلتحف الثرى والتراب من شدة الفقر والحاجة، ومن هنا سمي المسكين مسكيناً للصوقه إلى الأرض وسكونه فهو ساكن لا يتحرك كالملقى على الأرض، ساكتٌ لا يتكلم لأنه إن تكلم لم يسمع وإن سُمع لم يصدق، أذله الفقر – الذي يذل أعناق الرجال، قال ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر وعذاب القبر»[٣].

وقد عظم الله عز وجل حق اليتيم والمسكين، لأن اليتيم فقد من ينفق عليه ويعوله ويدافع عنه وعن حقوقه، ولأن المسكين أذله الفقر والمسكنة ويعظم حق اليتيم والمسكين ويزداد عندما تطغى الأنانية والشح وتضعف الرحمة أو تنعدم عند كثير من الناس فيضيع اليتيم والمسكين في خضم الحياة، وبين الفواتح والخواتم والله المستعان.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ «ثم» عاطفة، وهي للتراخي في الفضل والرتبة، فالإيمان مؤخر في اللفظ مقدم في الفضيلة والرتبة، وفي تقديم فك الرقبة وإطعام الجائع يتيماً ذا قرابة أو مسكيناً ذا فاقة شديدة على الإيمان دليل على عظم هذه الأعمال.

أي: ثم هو مع هذا الإحسان العظيم إلى عباد الله بعتق الرقاب وإطعام اليتامى والمساكين في وقت المجاعة من الذين آمنوا، أي: صدقوا بقلوبهم وانقادوا بجوارحهم،

---

(١) أخرجه أبو داود في الوصايا ٢٨٧٣ من حديث علي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه النسائي في الزكاة – الصدقة على الأقارب ٢٥٨٢، والترمذي في الزكاة ـ الصدقة على ذي القرابة ٦٥٣، وابن ماجه في الزكاة ١٨٤٤، وأحمد ٤/ ٢١٤ ـ من حديث سلمان بن عامر الضبي ـ رضي الله عنه. قال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤٣٠ «وهذا إسناد صحيح».

(٣) أخرجه النسائي في السهو ١٣٤٧ – من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

فجمعوا بين الإحسان إلى عباد الله والإحسان في عبادة الله عز وجل، وبين العمل والإخلاص لله عز وجل كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝﴾ [الإسراء: ١٩].

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ أي: أوصى بعضهم بعضاً بالصبر، وهو من صَبَرَ، إذا حبس ومنع، والصبر: حبس النفس عن الجزع، وحبس اللسان عن التشكي والتسخط، والجوارح عما حرم الله من لطم الخدود وشق الجيوب وغير ذلك، وهو أنواع ثلاثة: صبر على طاعة الله تعالى، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة.

والصبر منزلة عظيمة فهو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝﴾ [الزمر: ١٠]، وقال ﷺ: «وما أعطي أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر»[1].

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ أي: وأوصى بعضهم بعضاً بالرحمة للخلق التي هي من أنبل وأعظم الصفات وأحبها إلى الله عز وجل، قال ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، الرحم شُجْنة من الرحمن فمن وصلها وصله الله، ومن قطعها قطعه الله»[2].

وقال ﷺ: «من لا يرحم لا يرحم»[3].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من لم يرحم صغيرنا، ويعرف حق كبيرنا فليس منا»[4].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ أي: أصحاب اليمين، أي: المتصفون بهذه الصفات، والذين جمعوا بين الإحسان في عبادة الله عز وجل، والإحسان إلى عباد الله، هم الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم ويكونون عن يمين الرحمن ويؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة وقد أشار إليهم بإشارة البعيد ﴿ أولئك ﴾ تعظيماً لشأنهم.

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٦٩، ومسلم في الزكاة ١٠٥٣، وأبو داود في الزكاة ١٦٤٤، والنسائي في الزكاة ٢٥٨٨، والترمذي في البر والصلة ٢٠٢٤ ـ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب – باب في الرحمة ٤٩٤١، والترمذي في البر ـ ما جاء في رحمة الناس ١٩٢٤ – من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب ٥٩٩٧، ومسلم في الفضائل ٢٣١٨، وأبو داود في الأدب ٥٢١٨، والترمذي في البر والصلة ١٩١١ – من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب – باب في الرحمة ٤٩٤٣، والترمذي في البر والصلة ١٩١٩ وقال: «حديث غريب».

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ بعد ما ذكر صفات المؤمنين ومآلهم أتبع ذلك بذكر الكافرين ومآلهم.

أي: والذين كفروا بآياتنا الكونية والشرعية وجحدوها وكذبوا بها.

﴿هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ أي: هم أصحاب الشؤم، وأصحاب الشمال، الذين يعطون كتبهم بشمائلهم من وراء ظهورهم، ويؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار.

وقد أكد هذا الوصف فيهم بثلاث مؤكدات: كون الجملة اسمية، ومعرفة الطرفين، وضمير الفصل «هم».

﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾ أي: مطبقة مغلقة الأبواب، لا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها، كما قال تعالى في سورة الهمزة ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝﴾ [الآيتان: ٨، ٩].

الفوائد والعبر:

١- عظم الأمانة التي حملها الإنسان، وأن أمامه عقبة كؤوداً لا يجتازها إلا المشمرون.

٢- حضّ الإنسان وحثه على اجتياز العقبة بعتق الرقاب، وإطعام اليتامى والمساكين، مع الإيمان والتواصي بالصبر والرحمة.

٣- أن الصدقة على اليتيم القريب صدقة وصلة، وأنه كلما اشتدت الحاجة كانت الصدقة أفضل.

٤- رعاية الإسلام لليتامى والمساكين.

٥- أن الإيمان شرط لقبول الأعمال من العتق والإطعام وغير ذلك.

٦- الإشارة إلى عظم عتق الرقاب وإطعام اليتامى والمساكين، لتقديمهما على شرط الإيمان.

٧- الترغيب في الصبر والرحمة، والتواصي بهما.

٨- أن من جمع بين الإيمان والعمل الصالح فهو من أصحاب اليمين.

٩- سوء حال ومآل الذين كفروا بآيات الله عز وجل فهم أصحاب الشؤم السالكون ذات الشمال إلى النار المؤصدة المطبقة عليهم.

تفسير سورة الشمس

عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: «هلا صليت بـ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١﴾، ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١﴾، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾»[١].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾.

قوله: ﴿وَالشَّمْسِ﴾ الواو حرف قسم وجر، و«الشمس» مقسم به مجرور ﴿وَضُحَاهَا﴾ معطوف على الشمس، والمراد به ضوؤها، وهو النهار كله، كما في قوله تعالى ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۝٢٩﴾ [النازعات: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ [الضحى: ١، ٢]، وإنما أضاف الضحى إليها، لأن الشمس هي سبب النهار، وهي آية النهار المبصرة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ۝١٢﴾ [الإسراء: ١٢].

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ الواو: عاطفة هنا وفي المواضع بعدها إلى قوله ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ وكل هذا داخل في جملة المقسم به.

أي: وأقسم بالقمر إذا تلا الشمس، أي: إذا تبعها في المنازل والنور.

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ أي: والنهار حين يجلي الشمس ويظهرها، وإن كان ظهورها هو سبب النهار، أو حين يجلي ظلمة الليل ويزيلها، أو يجلي الأرض والخليقة ويبينها ويظهرها ويضيئها بنوره كما قال تعالى: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [الليل: ٢].

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ أي: والليل حين يغشى الشمس ويسترها وإن كان مغيبها هو سبب الليل، أو حين يغطي الأرض والخليقة ويسترها بظلامه.

﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ أي: والسماء، والذي بناها، وهو الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧﴾ [الذاريات: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا

---

(١) سبق تخريجه.

شِدَادًا ﴿١٢﴾ [النبأ: ١٢]. فأقسم عز وجل بالسماء، وبنفسه الكريمة وتكون «ما» هنا موصولة، بمعنى «من» التي تطلق على العالم.

وقيل إن «ما» مصدرية، أي: والسماء وبنيانها العظيم وهكذا في قوله ﴿ وما طحاها﴾ ﴿ وما سواها ﴾.

ومعنى ﴿ بناها ﴾: خلقها ورفعها وجعلها سقفاً محفوظاً، كما قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾ ثم فسر ذلك فقال: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢].

﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ اي: والأرض، والذي طحاها، أي: بسطها وفرشها ومهدها، وهو الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الذاريات: ٤٧].

وهتان الآيتان كقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾ [ق: ٦، ٧].

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ اي: ونفس والذي سواها، وهو الله عز وجل، وقوله ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ عام في كل نفس، أو خاص بنفس الإنسان المكلف بدليل ما بعده.

ومعنى ﴿ سواها ﴾ خلقها وجعلها مستوية الخلق، مستقيمة على الفطرة كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار: ٦ ـ ٨]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾ [القيامة: ٣٦ ـ ٣٨]، وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].

وقال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء»[1].

---

(١) اخرجه البخاري في الجنائز ١٣٥٨، ومسلم في القدر ٢٦٥٨، وأبو داود في السنة ٤٧١٤ – من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وعن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله عز وجل: وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم»[١].

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ أي: جعلها محلاً للفجور والتقوى، وبيّن لها الفجور ونهاها عنه وحذرها منه، وأرشدها إلى التقوى وأمرها بها ورغبها فيها، وهداها ويسرها لما قدره لها كما جاء في حديث عمران بن حصين رضي الله عنه أن رجلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشيء قُضي عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجة عليهم؟، فقال: «لا، بل شيء قُضي عليهم، ومضى عليهم، وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝﴾»[٢].

وقال ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة، فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة، فييسر لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝﴾ الآية»[٣].

وفي هذه الآية رد على القدرية الذين ينفون تقدير الله وخلقه لأفعال العباد.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ هذا هو جواب القسم، فأقسم الله عز وجل بالشمس وضوئها والقمر إذا تبعها والنهار إذا جلى الظلمة، والليل إذا غطى البسيطة بظلامه، وبالسماء والذي بناها، وبالأرض والذي بسطها ومهدها، والنفس والذي سواها على انه ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾.

وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ «قد» للتحقيق في الموضعين وحذفت منه اللام لطول الكلام و«أفلح» بمعنى فاز وأنجح وسعد ونجا من المرهوب وحصل على المطلوب، وزحزح عن النار، وأدخل الجنة كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

﴿مَن زَكَّاهَا﴾ أي: الذي زكا نفسه، أي: طهرها بالإيمان والعمل الصالح من الشرك والمعاصي والرذائل والأحداث، وسائر النجاسات الحسية والمعنوية - كما قال تعالى: ﴿قَدْ

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٦٥ - من حديث طويل.

(٢) أخرجه مسلم في القدر ٢٦٥٠، وأحمد ٤/٤٣٨، والطبري في «جامع البيان»٢٤/ ٤٤٢.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٤٩، ومسلم في القدر ٢٦٤٧، وأبو داود في السنة ٤٦٩٤، والترمذي ٢١٣٦، وابن ماجه في المقدمة ٧٨ - من حديث علي - رضي الله عنه.

أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى: ١٥، ١٦].

وفي هاتين الآيتين إثبات فعل العبد وكسبه، وتعليق فوزه وعدمه على ذلك، وفي هذا رد على الجبرية الذين يقولون: إن العبد مجبور على فعله.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا مر بهذه الآية: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ وقف ثم قال: «اللهم آت نفسي تقواها أنت وليها ومولاها وخير من زكاها»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ قال: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها»[2].

وعن عائشة رضي الله عنها أنها فقدت النبي ﷺ من مضجعه فلمسته بيدها، فوقعت عليه وهو ساجد، وهو يقول: «رب أعط نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها»[3].

وعن زيد بن أرقم قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم، إني أعوذ بك من العجز والكسل وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم، إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها»[4].

﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ أي: وقد خسر من اخفاها وأخملها، وأرداها، وأوبقها بالمعاصي وأهانها ودنسها كما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾.

فشتان بين من طهر نفسه وأكرمها بطاعة الله تعالى، والبعد عن معصيته، ووضعها موضعها اللائق بها، فأفلح وسعد في دنياه وأخراه، وبين من أخملها وأخفاها، وأهانها وأذلها، فظلمها وبخسها حقها، وقد كرمها الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا

---

(١) أخرجه الطبراني فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤٣٦.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٣٦.

(٣) أخرجه أحمد ٦/ ٢٠٩.

(٤) أخرجه مسلم في الذكر - التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٢٧٢٢، والنسائي في الاستعاذة ٥٤٥٨، وأحمد ٤/ ٣٧١.

تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ [الإسراء: ٧].

قال ﷺ: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»[١].

وقد حكى هذا المعنى الشاعر بقوله:

وما الناس إلا عاملان فعامل ... يُتَبِّر ما يبني وآخر رافع[٢]

قال ابن القيم[٣]: «والفاجر أبداً خفي المكان زمن المروءة، غامض الشخص، ناكس الرأس، فكأن المتصف بارتكاب الفواحش دس نفسه وقمعها، ومصطنع المعروف شهر نفسه ورفعها، وكانت أجواد العرب تنزل الربى ويفاع الأرض لتشهر نفسها للمعتفين، وتوقد النيران في الليل للطارقين، وكانت اللئام تنزل الأولاج والأطراف والأهضام، لتخفي أماكنها على الطالبين، فأولئك أعلوا أنفسهم وزكوها، وأولئك أخفوا أنفسهم ودسوها. وأنشد:

وبَوَّأْتُ بَيْتَكَ في مَعْلَمٍ ... رحيبِ المباءةِ والمسرحِ

كفيتَ العفاةَ طلابَ القِرى ... ونبحَ الكلابِ لِمُسْتَنْبِحِ»

وقد أحسن القائل:

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها ... هوانا بها كانت على الناس أهونا

وقال الأخر:

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه ... فكن طالباً في الناس أعلى المراتب[٤]

وقال الآخر:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكرام المكارم[٥]

وقال الآخر:

ومن يتهيب صعود الجبال ... يعش أبد الدهر بين الحفر[١]

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة ٢٢٣ - من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٢) البيت للبيد.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٢٢٦ - ٢٢٧.

(٤) البيت لعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه.

(٢) البيت للمتنبي.

فانتبه أخي الكريم لهذه المعاني وضع نفسك موضعها اللائق بها، واحملها على ما فيه سعادتها في دينها ودنياها، وخذ نصيبك من ربك، ولا تأت يوم القيامة من المفلسين.

الفوائد والعبر:

١- إقسام الله عز وجل بعدد من آياته الكونية، بالشمس والقمر، والنهار والليل، والسماء والأرض، وبالنفس الإنسانية، وبنفسه عز وجل للدلالة على عظمته، وكمال قدرته، والتأمل في آياته وشكره على نعمه وآلائه.

٢- إقسام الله عز وجل على فلاح من زكى نفسه بطاعة الله وخيبة من أخفاها ودنسها بمعصية الله.

٣- وجوب تزكية النفس وتطهيرها بالإيمان والعمل الصالح، والحذر من تدنيسها وإهانتها بالمعاصي.

٤- إثبات القدر وأن الله خالق أفعال العباد، والرد على القدرية، وإثبات فعل العبد، والرد على الجبرية لقوله ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾.

=

(٣) البيت لأبي القاسم الشابي.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

أقسم الله عز وجل في الآيات السابقة على فلاح من زكى نفسه وخيبة من دساها ثم اتبع ذلك بذكر قصة تكذيب ثمود وطغيانهم وعقرهم الناقة، وردهم الحق بعد ما عرفوه، وعقوبة الله عز وجل لهم، وفي هذا تهديد ووعيد للمكذبين من هذه الأمة.

قوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ أي: كذبت قبيلة ثمود نبيهم صالحاً عليه السلام فيما جاءهم به من الحق من عند الله عز وجل.

﴿بِطَغْوَىٰهَآ﴾ أي: بسبب طغيانها ومجاوزتها الحد في الكفر وتجبرها وتكبرها. والطغيان: مجاوزة الحد كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١].

فحملهم الطغيان ومجاوزه الحد في الكفر والمعاصي على التكذيب بالحق بقلوبهم، لأن عقوبة المعصية معصية بعدها كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾ تفسير لتكذيبهم وطغيانهم، أي: إذ انطلق مسرعاً لعقر الناقة ﴿ أشقاها ﴾ أي: أشقى ثمود، أي: أعظمها شقاء، وهو أحيمر ثمود، واسمه: قدار بن سالف، وكان رجلاً شريراً صعب المرام.

عن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «الا أحدثك باشقى الناس»؟، قال: بلى، قال: «رجلان: أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذا – يعني قرنه – حتى تبتل منه هذه، يعني لحيته»[1].

﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ﴾ يعني: قدار بن سالف، وكان رجلاً شديداً عزيزاً منيعاً فيهم.

عن عبد الله بن زمعة رضي الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ فذكر الناقة وذكر الذي عقرها، فقال: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾: «انبعث لها رجل عارم[2] عزيز منيع في رهطه،

---

(١) اخرجه ابن ابي حاتم في «تفسيره» ١٠/٣٤٣٨.

(٢) أي: صعب على من برومه، كثير الشر.

مثل أبي زمعة»[1].

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ صالح عليه السلام، ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: ذروا ناقة الله، أو لا تمسوا ناقة الله بسوء، وهي الناقة التي طلبوها آية لهم فأخرجها الله لهم من صخرة صماء، وجعلها آية وحجة عليهم قال تعالى عن صالح عليه السلام أنه قال لهم ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال أيضاً: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾ [هود: ٦٤]، وقال أيضاً: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٦].

﴿وَسُقْيَٰهَا﴾ شربها، أي: ولا تعتدوا على شربها يوم وردها قال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ [القمر: ٢٨].

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ اي: فكذبوا رسول الله صالحاً عليه السلام فيما جاءهم به، وما حذرهم منه من الاعتداء على الناقة وشربها، وما توعدهم عليه من العذاب.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي: عقروا الناقة، أي: قتلوها، قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ [هود: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الشعراء: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾ [القمر: ٢٩].

﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾ أي: أطبق عليهم ربهم العذاب بسبب ذنبهم.

﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ أي: جعلهم في العقوبة سواء، لأنهم اتفقوا وأجمعوا على عقر الناقة، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأعراف: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [هود: ٦٧]،

---

(١) اخرجه البخاري في تفسير سورة ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ ٤٩٤٢، ومسلم في صفة الجنة ونعيمها – النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ٢٨٥٥، والترمذي في تفسير سورة ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ ٣٣٤٣، وأحمد ١٧/٤.

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾ [القمر: ٣١]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[فصلت: ١٧].

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر بالفاء (فلا يخاف) وقرأ الباقون بالواو (ولا يخاف) أي: ولا يخاف عز وجل عاقبتها وتبعتها، أي: لا يخاف تبعة إهلاكه لهم وإطباقه العذاب عليهم وجعلهم في العقوبة سواء، لأنه عز وجل لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فالخلق خلقه، والملك ملكه، والأمر أمره، قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٥]، وقال تعالى في الحديث القدسي: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني»[1].

الفوائد والعبر:

١- تكذيب ثمود رسول الله إليهم صالحاً عليه السلام بسبب طغيانهم وإقدامهم على عقر الناقة التي طلبوها، وجعلها الله لهم آية، بعد تحذيره ـ عليه الصلاة والسلام لهم.

٢- أن الطغيان سبب للتكذيب والكفر، وأن المعصية تجر إلى المعصية بعدها.

٣- إهلاك الله عز وجل لثمود، وإطباق العذاب عليهم على السواء بسبب ذنبهم.

٤ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ العامة لجميع الخلق.

٥- أن الله عز وجل لا يخاف عاقبة ما أوقعه بهم من العذاب، لأنه القوي العزيز، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٧٧ من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

تفسير سورة الليل

تقدم في حديث معاذ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له لما ذكر له أنه أطال في صلاة العشاء: «هلا صليت بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ ، ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾ و ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ »[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾.

قوله: ﴿وَٱلَّيْلِ﴾ الواو: حرف قسم وجر، و«الليل» مقسم به.

﴿إِذَا يَغْشَىٰ﴾ أي: حين يغطي الأرض والخليقة بظلامه.

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ الواو: عاطفة في هذا الموضع والذي بعده، أي: وأقسم بالنهار إذا ظهر وبان، وأشرق وأضاء البسيطة بطلوع الشمس.

﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ «ما» موصولة. أي: وأقسم بالذي خلق الذكر والأنثى من الإنس والجن وسائر الحيوانات والنباتات وهو الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿ وخلقناكم أزواجاً ﴾ [النبأ: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩﴾ [الذاريات: ٤٩].

وقال بعضهم: إن «ما» مصدرية، والمعنى: وخَلْقُ الذكر والأنثى.

عن إبراهيم النخعي، قال: قدم أصحاب عبد الله على أبي الدرداء، فطلبهم فوجدهم فقال: «أيكم يقرأ على قراءة عبد الله؟ قالوا: كلنا، قال: أيكم أحفظ؟، فأشاروا إلى علقمة، فقال: كيف سمعته يقرأ ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ ؟، قال علقمة: ﴿والذكر والأنثى﴾، قال: أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ هكذا، وهؤلاء يريدوني أن أقرأ ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ والله لا أتابعهم»[2].

وفي لفظ عن إبراهيم عن علقمة: أنه قدم الشام، فدخل مسجد دمشق، فصلى فيه ركعتين، وقال: «اللهم ارزقني جليساً صالحاً، قال: فجلس إلى أبي الدرداء، فقال له أبو

---

(١) سبق تخريجه في مطلع تفسير سورة الأعلى.

(٢) أخرجه البخاري - تفسير سورة ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ ٤٩٤٤، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٨٢٤، والترمذي في القراءات ٢٩٣٩.

الدرداء: ممن أنت؟، قال: من أهل الكوفة، قال: كيف سمعت ابن أم عبد يقرأ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝﴾ قال علقمة: ﴿وٱلذَّكَرِ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾، فقال أبو الدرداء: لقد سمعتها من رسول الله ﷺ فما زال هؤلاء حتى شككوني، ثم قال: ألم يكن فيكم صاحب الوساد وصاحب السر، الذي لا يعلمه أحد غيره[1]، والذي أجير من الشيطان على لسان النبي ﷺ، صاحب الوساد: ابن مسعود، وصاحب السر: حذيفة، والذي أجير من الشيطان: عمار»[2].

﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ جواب القسم.

والسعي: هو العمل الذي يهتم به صاحبه ويجتهد فيه حسب الإمكان، ﴿لشتى﴾ أي: لمختلف متفرق.

فأقسم عز وجل بالليل إذا غشي الخليقة بظلامه، وبالنهار إذا بان وظهر وأضاء البسيطة بنوره، وبنفسه عز وجل وهو الذي خلق الذكر والأنثى ـ أقسم على أن سعي العباد وأعمالهم واهتماماتهم وجهودهم مختلفة، متنوعة متفرقة، فعامل خيراً، وعامل شراً، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

وقال ﷺ: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»[3].

فشتان بين من يعمل لخلاص نفسه ونجاتها وسعادتها في الدنيا والآخرة، وبين من يعمل لهلاكها وشقائها في الدنيا والآخرة.

شتان بين الحالتين فإن ترد ... جمعاً فما الضدان يجتمعان[4]

﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾.

رُويَ أنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه كان يعتق الأرقاء من المساكين ابتغاء وجه الله تعالى[5].

قوله: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ الفاء: استئنافية، و«أما» حرف شرط

---

(١) الوساد: المخدة، وفي رواية للبخاري: «صاحب السواك، أو صاحب السرار». وصاحب السر: أي صاحب سر رسول الله ﷺ، وهو حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، وقد أسر إليه النبي ﷺ بأسماء المنافقين.

(٢) أخرجه أحمد ٦/٤٤٩.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) البيت لابن القيم ضمن القصيدة «النونية» ص١١.

(٥) انظر «جامع البيان» ٢٤/٤٦٦.

وتفصيل في الموضعين و«من» موصولة في الموضعين.

أي: فأما الذي أعطى، أي: أخرج ما أمر به من النفقات الواجبة والمستحبة كالزكاة والإنفاق على الأهل والأولاد، وسائر الصدقات، وقام بفعل المأمورات من الواجبات كالصلاة والصيام والحج وبر الوالدين وصلة الأرحام وغيرها، ومن المستحبات كنوافل العبادات وغيرها.

﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ أي: واتقى الله بالبعد عن المنهيات.

وفي تقديم قوله ﴿أَعْطَىٰ﴾ إشارة إلى أهمية أداء حقوق الخلق، وأهمية النفع المتعدي إلى الخلق، وأهمية فعل المأمورات من الواجبات والمستحبات.

﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: صدق بلا إله إلا الله وما يستوجبه الإيمان بها من الإيمان بجميع أصول الدين وفروعه كما جاءت في الكتاب والسنة، وصدق بالمثوبة الحسنى على ذلك من الله عز وجل بالخلف في الدنيا وبالجنة في الآخرة، قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

رُويَ عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن الحسنى، قال: «الحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم»[(١)].

وهذه هي المراتب الثلاث التي يدور عليها الدين: فعل المأمور، وترك المحظور، وتصديق الخبر.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، والسين للتحقيق، أي: فسنيسره لليسرى في أموره كلها، في أمور دينه ودنياه، ونوفقه لعمل الخير ونهيء له أسبابه، لأن من جزاء الحسنة الحسنة بعدها، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ۝﴾ [الطلاق: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾ الواو: عاطفة، أي: وأما الذي بخل بما آتاه الله من المال فمنع حق الله فيه، ولم يقم بما أمره الله بالقيام به.

﴿وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ أي: واستغنى بنفسه وماله عن ربه ورحمته وتقواه.

وقابل قوله ﴿ اتقى ﴾ بقوله ﴿ استغنى ﴾ تبشيعاً لحال تارك التقوى ومبالغة في ذمه وأنه بهذا المسلك فعل فعل المستغني عن ربه مع أن كل مخلوق لا غنى له عن ربه طرفة عين.

﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: وكذب بلا إله إلا الله، وبالمثوبة الحسنى والمجازاة على العمل في

---

(١) اخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٢/ ١٦٢، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٦/ ١٩٤٥.

الدنيا والآخرة.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ أي: فسنيسره في أموره كلها للعسرى، ونهيء له الشر وأسبابه، لأن من جزاء السيئة السيئة بعدها، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

ولا يُغتر بما عليه الكفار من النعم الظاهرة فهم في شقاء وضيق نفسي قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وهو أيضاً استدراج لهم كما قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣].

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتى رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله، ومعه مخصرة فنَكَّس[1] فجعل ينكت بمخصرته، ثم قال: «ما منكم من أحد، وما من نفس منفوسة[2] إلا كتب مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة»، قال رجل: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا، وندع العمل؟، فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى أهل السعادة، ومن كان منا من أهل الشقاء فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة؟، فقال ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاء، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾»[3].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم غربت فيه شمسه إلا وبجنبتيها ملكان يناديان يسمعه خلق الله كلهم إلاالثقلين: اللهم أعط منفقاً خلفاً، وأعط ممسكاً تلفاً»، وأنزل الله في ذلك القرآن: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ

---

(١) المخصرة: ما اخذه الإنسان بيده من عصا أو عكازة أو مقرعة أو قضيب، وقد يتكئ عليه وقوله «فنَكَّس» أي: خفض رأسه وطأطأه على هيئة المهموم.

(٢) منفوسة أي: مخلوقة ومولودة.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ ٤٩٤٧، ٤٩٤٨، ومسلم في القدر ٢٦٤٧، وابو داود في السنة ٤٦٩٤، والترمذي في القدر ـ ما جاء في الشقاء والسعادة ٢١٣٦، وابن ماجه في المقدمة ـ باب القدر ٧٨، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٤٦٩ – ٤٧١.

لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾»[1].

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ﴾ «ما» استفهامية، أي: وأي شيء يغني عنه ماله إذا بخل به.

﴿إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ أي: إذا هلك وألقي في النار.

والجواب: لا ينفعه هذا المال ولا يدفع عنه شيئاً.

ويحتمل أن تكون «ما» نافية، أي: وما ينفعه ماله، ولا يدفع عنه، إذا هلك وألقي في النار.

الفوائد والعبر:

١- إقسام الله عز وجل بالليل إذا غشي الخليقة بظلامه، وبالنهار إذا تجلى وظهر، وبنفسه الشريفة وهو الذي خلق الذكر والأنثى أن سعي الناس مختلف، فساع في خلاص نفسه وفكاكها، وساع في إهلاكها وإيباقها.

٢- أن لله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وأن يقسم بنفسه لما في ذلك كله من الدلالة على كمال عظمته وتمام قدرته.

٣- الترغيب في التأمل في آيات الله عز وجل الكونية، الليل والنهار، وفي خلق الذكر والأنثى من الإنسان والحيوان والنبات، وشكره عز وجل على هذه النعم.

٤- شتان بين من يسعى في فكاك نفسه وإعتاقها، وبين من يسعى في هلاكها وإيباقها.

٥- البشارة لمن أعطى من ماله وقام بفعل ما أمر به، واتقى بترك ما نهي عنه، وصدق بالمثوبة الحسنى على ذلك بتوفيقه للخير، وتيسير أموره.

٦- وجوب دفع الإنسان ما عليه من حقوق مالية وغيرها كالزكاة والنفقة على الأهل، واستحباب السخاء والبذل مما أعطاه الله من مال وغيره، ووجوب تقوى الله وتصديق شرعه، والثقة بوعده.

٧- أن الأعمال الصالحة يأخذ بعضها برقاب بعض، والحسنة سبب للحسنة بعدها كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

٨- التحذير من البخل بما على الإنسان من حقوق في نفسه وماله، والاستغناء عما عند الله عز وجل والتكذيب بشرعه وجزائه، والوعيد لمن فعل ذلك بتيسيره للشر.

٩- أن الأعمال السيئة يجر بعضها بعضاً، والسيئة سبب للسيئة بعدها.

١٠- أن المال لا ينفع صاحبه ولا يدفع عنه إذا بخل به واستغنى به عن ربه عز وجل ولا ينقذه من عذاب النار إذا هلك وتردى فيها.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٤٦٥، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٤١.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

أقسم عز وجل في مطلع السورة أن سعي الناس مختلف، وبيَّن انقسامهم إلى فريقين وحال ومآل كل منهما، ثم أتبع ذلك بأنه سبحانه قد أقام الحجة على الخلق وبيَّن لهم طريق الهدى، وأن الدنيا والآخرة ملك له وحذر من النار، وبين صفة من يصلاها ومن يجنبها.

قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ أي: إن علينا إرشادهم وبيان طريق الهدى لهم وطريق الضلال، وبيان الحق من الباطل، والحلال من الحرام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ١٠].

وأيضاً فإن طريق الهدى عليه عز وجل وموصل إليه كما قال عز وجل ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩]، وقال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [الحجر: ٤١].

وقد بين عز وجل للناس الهدى أتم بيان وأقام الحجة على الخلق بإرسال الرسل وإنزال الكتب، قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وأكمل الدين وأتم النعمة ببعثة محمد ﷺ فلم يلحق بربه حتى ترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلا هالك[1].

قال أبو ذر رضي الله عنه: «لقد تركنا محمد ﷺ وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلا أذكرنا منه علماً»[2].

وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه: «لقد علَّمنا نبينا ﷺ حتى الخراءة»[3]. أي:

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة ٤٦٠٧، والترمذي في العلم ٢٦٧٦، وابن ماجه في المقدمة ٤٤ ـ من حديث العرباض بن سارية ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد ٥/١٥٣.

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة ـ الاستطابة ٢٦٢.

علمنا حتى آداب الخلاء وقضاء الحاجة.

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ أي: وإن لنا ملك الآخرة والدنيا والتصرف فيهما، كما قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٢٥]، فالخلق خلقه والملك ملكه والأمر أمره كما قال عز وجل ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقدم الآخرة مع أنها متاخرة من حيث الزمن لأهميتها، فهي الدار الحقيقية كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وقدمها أيضاً لأن فيها يظهر تمام ملك الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩].مع ما في ذلك من مراعاة الفواصل.

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ أي: فحذرتكم وخوفتكم ناراً تتوهج وتستعر وتشتعل وهي نار الآخرة.

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنذرتكم النار، أنذرتكم النار، أنذرتكم النار»، حتى لو أن رجلاً كان بالسوق لسمعه من مقامي هذا. قال: حتى وقعت خميصة كانت على عاتقه عند رجليه»[1].

وعنه رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة رجل توضع في أخمص قدميه جمرة يغلي منها دماغه»[2].

وفي رواية: «إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل، ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً، وإنه لأهونهم عذاباً»[3].

﴿لَا يَصْلَاهَا﴾ أي: لا يدخلها ويغمر فيها ويقاسي حرها ﴿إِلَّا الْأَشْقَى﴾ أي: إلا الذي كتب عليه الشقاء، وبلغ فيه غايته كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١٠٦].

﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ تفسير للأشقى، أي: الذي كذب بقلبه ما أخبر الله به ورسوله ﴿ وتولى ﴾ بجوارحه عن العمل بما أمر الله به ورسوله، فخالف الأمر وارتكب النهي وكفر ظاهراً وباطناً.

---

(١) اخرجه احمد ٤/ ٢٧٢.

(٢) اخرجه البخاري في الرقاق – صفة الجنة والنار ٦٥٦١، ومسلم في الإيمان ـ اهون اهل النار عذاباً ٢١٣، والترمذي في صفة الجنة ٢٦٠٤، واحمد ٤/ ٢٧٤.

(٣) اخرجه مسلم في الإيمان – اهون اهل النار عذاباً ٢١٣، واخرجه البخاري مختصراً في الرقاق ٦٥٦٢.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار إلا شقي»، قيل: ومن الشقي؟، قال: «الذي لا يعمل بطاعة الله ولا يترك لله معصية»[١].

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى» قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟، قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»[٢].

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

قال ابن كثير[٣]: «وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك، ولا شك أنه داخل فيها، وأولى الأمة بعمومها».

قوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ أي: وسيبعد عنها جانباً، ويزحزح عنها ﴿الأتقى﴾ أي: التقي وكلما كان الإنسان لله أتقى كان عن النار أبعد.

﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ تفسير لقوله ﴿ الأتقى ﴾ أي: الذي يعطي ماله أي: يخرج وينفق ماله ويصرفه في سبيل الله وطاعته.

﴿ يتزكى ﴾ أي: ليطهر نفسه وماله، فتزكو نفسه وتطهر من الشح والبخل ونحو ذلك ويزكو ماله وينمو ويزيد ويسلم من الآفات بإذن الله عز وجل.

قال السعدي[٤]: «فدل هذا على أنه إذا تضمن الإنفاق المستحب ترك واجب كدين ونفقة ونحوهما فإنه غير مشروع بل تكون عطية مردودة عند كثير من العلماء، لأنه يتزكى بفعل مستحب يفوت عليه الواجب».

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ﴾ أي: وليس لأحد ممن يعطيهم هذا المزكي لنفسه وماله ﴿عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ أي: ليس إعطاؤه لهم مكافأة لهم على سابق نعمة منهم إليه أو منة منهم عليه.

﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ إلا إخلاصاً لله عز وجل وتحقيقاً لرضاه وطلباً لرؤية وجهه الكريم في جنات النعيم.

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٣٤٩.
(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام – الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ ٧٢٨٠، وأحمد ٢/ ٣٦١.
(٣) في «تفسيره» ٨/ ٤٤٤.
(٤) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٦٣٩.

﴿ الأعلى ﴾ أي: الأعلى على خلقه الذي استوى على عرشه سبحانه وتعالى الذي له العلو المطلق: علو الذات وعلو الصفات، وعلو القهر، وعلو القدر.

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ الواو: استئنافية واللام موطئة للقسم أي: والله لسوف يرضى بنيله ما كان يرجو من رؤية الله عز وجل والنعيم المقيم، والنجاة من نار الجحيم.

وسياق الآيات يدل على أنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، كما ذكر هذا كثير من المفسرين، بل ذكر بعضهم الإجماع عليه، فإنها اشتملت على صفات عظيمة هي من صفات خواص المؤمنين، بل من صفات خواص الصديقين ورتب عليها وعد بالرضى من المولى العظيم ولا شك أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، لكن أبا بكر الصديق رضي الله عنه أول من يدخل في عمومها، فلقد كانت له رضي الله عنه الأيادي الكريمة والمواقف العظيمة في بذل نفسه وماله في سبيل الله، والدفاع عن رسول الله ﷺ فقد كان صاحبه في الهجرة، قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه ما خلا أبا بكر فإن له عندنا يداً يكافيه الله بها يوم القيامة، وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، الا وإن صاحبكم خليل الله»(١).

وفي رواية، قال رسول الله ﷺ: «ما نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر، فبكى أبو بكر، وقال: وهل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله»(٢).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، قال: «رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي ﷺ وهو يصلي، فوضع رداءه في عنقه فخنقه به خنقاً شديداً فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه فقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾»(٣).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أمنّ الناس

---

(١) اخرجه الترمذي في المناقب ٣٦٦١ وقال «حديث حسن غريب».
(٢) اخرجه ابن ماجه في المقدمة ٩٤ – من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) اخرجه البخاري في المناقب ٣٦٧٨.

عليّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً من أمتي لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام، لا يبقين في المسجد باب إلا سد إلا باب أبي بكر»[١].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: كنت جالساً عند النبي ﷺ، إذ أقبل أبو بكر آخذاً بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبتيه، فقال النبي ﷺ: «أما صاحبكم فقد غامر، فسلم، وقال: إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيء، فأسرعت إليه، ثم ندمت، فسألته أن يغفر لي فأبى عليّ، فأقبلت إليك، فقال: يغفر الله لك، يا أبا بكر، ثلاثاً، ثم إن عمر ندم، فأتى منزل أبي بكر، فسأل: ثَمَّ أبو بكر؟، فقالوا: لا، فأتى إلى النبي ﷺ فسلم فجعل وجه النبي ﷺ يتمعّر حتى أشفق أبو بكر، فجثا على ركبتيه، فقال: يا رسول الله، والله أنا كنت أظلم مرتين، فقال النبي ﷺ: «إن الله بعثني إليكم، فقلتم كذبت، وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي مرتين، فما أوذي بعدها»[٢].

وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل، قال: فأتيته، فقلت: «أي الناس أحب إليك؟، قال: عائشة، فقلت من الرجال؟، فقال: أبوها، قلت: ثم من؟، قال: ثم عمر بن الخطاب، فعد رجالاً»[٣].

وقد أعتق أبو بكر رضي الله عنه من ماله كثيراً من الأرقاء والمستضعفين من المسلمين من أيدي المشركين وتعذيبهم، منهم بلال بن رباح وسلمان الفارسي رضي الله عنهما وغيرهما. وكانت له أياد بيضاء على كثير من الناس حتى على بعض سادات العرب، ولهذا قال عروة بن مسعود الثقفي يوم صلح الحديبية لما قال له أبو بكر رضي الله عنه: «امصص ببظر اللات أنحن نفرّ وندعه؟ يعني رسول الله ﷺ. فقال له عروة: أما والذي نفسي بيده لولا يد لك عندي لم أجزك بها لأجبتك»[٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أنفق زوجين في سبيل الله دعته خزنة الجنة: يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان»، فقال أبو بكر

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة ٤٦٦، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٣٨٢، والترمذي في المناقب ٣٦٦٠.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٦١.

(٣) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٦٢، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٣٨٤، والترمذي في المناقب ٣٨٨٥.

(٤) أخرجه البخاري في الشروط ـ الشروط في الجهاد ٢٧٣١، ٢٧٣٢ ـ من حديث مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة ـ رضي الله عنهما.

الصّديق: يا رسول الله، ما على أحد يدعى من تلك الأبواب من ضرورة، فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟، قال رسول الله ﷺ: «نعم، وأرجو أن تكون منهم»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح منكم اليوم صائماً؟، قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، قال: فمن تبع منكم اليوم جنازة؟، قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، قال: فمن أطعم اليوم مسكيناً؟، قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، قال: فمن عاد منكم اليوم مريضاً؟، قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، فقال رسول الله ﷺ: ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة»[2].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق فوافق ذلك عندي مالاً، فقلت اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً، قال: فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟»، قلت: مثله، وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال: «يا أبا بكر، ما أبقيت لأهلك؟»، قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: والله، لا أسبقه إلى شيء أبداً»[3].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر»[4].

وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد في الجنة، وسعيد في الجنة، و أبو عبيدة بن الجراح في الجنة»[5].

وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: أتت امرأة النبي ﷺ فامرها أن ترجع إليه، قالت: أرأيت إن جئت ولم أجدك؟، كأنها تقول الموت. قال ﷺ: «إن لم تجديني فائتي أبا بكر»[6].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت لما مرض رسول الله ﷺ مرضه الذي مات فيه، فحضرت الصلاة، فأذن، فقال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس» الحديث[7].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما طلعت الشمس ولا

---

(١) اخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢١٦، ومسلم في الزكاة ١٠٢٧، والنسائي في الزكاة ٢٤٣٩، والترمذي في المناقب ٣٦٧٤.

(٢) اخرجه مسلم في الزكاة ١٠٢٨.

(٣) اخرجه أبو داود في الزكاة ١٦٧٨، والترمذي في المناقب ٣٦٧٥.

(٤) اخرجه الترمذي في المناقب ٣٧٩٠، وابن ماجه في المقدمة ١٥٥.

(٥) اخرجه الترمذي في المناقب ٣٧٤٧.

(٦) اخرجه البخاري في المناقب ٣٦٥٩، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٣٨٦، والترمذي في المناقب ٣٦٧٦.

(٧) اخرجه البخاري في الأذان ٦٦٤، ومسلم في الصلاة ٤١٨، والترمذي في المناقب ٣٦٧٢، وابن ماجه في إقامة السنة ١٢٣٢.

غربت بعد النبيين والمرسلين على أفضل من أبي بكر»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لما توفي رسول الله ﷺ واستُخلف أبو بكر بعده، وكفر من كفر من العرب، قال عمر لأبي بكر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله»، فقال: والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه، فقال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق»[٢].

وعن عمر رضي الله عنه قال: «لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان الأمة كلها لرجح بهم إيمان أبي بكر»[٣].

وقال بكر بن عبد الله المزني رحمه الله: «ما سبق أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام ولكن بشيء وقر في قلبه»[٤].

الفوائد والعبر:

١- تكفل الله عز وجل ببيان الهدى والرشاد إقامة للحجة على العباد.

٢- أن لله عز وجل ملك الآخرة والدنيا.

٣- التحذير والإنذار من نار شديدة اللظى واللهب لا يدخلها إلا الأشقى المكذب بالحق المعرض عنه.

٤- وعد الله عز وجل الذي لا يخلف الميعاد بإبعاد الأتقى عن النار الذي ينفق ماله ليطهر نفسه ابتغاء مرضاة الله تعالى لا مجازاة لأحد على نعمة ووعده تعالى بأن يرضيه.

٥- الترغيب في الإنفاق ابتغاء وجه الله والإخلاص لله في ذلك.

٦- إثبات الوجه لله عز وجل. وإثبات ربوبيته ـ عز وجل ـ الخاصة لأوليائه.

٧- فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

---

(١) أخرجه عبد الرحمن بن حميد في مسنده، وأبو نعيم في الحلية، وله شواهد عند الطبراني من حديث جابر وسلمة بن الأكوع رضي الله عنهما انظر «تاريخ الخلفاء» للسيوطي ص٤٦.

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام ٧٢٨٥، ومسلم في الإيمان ٢٠، وأبو داود في الزكاة ١٥٥٦، والنسائي في الزكاة ٢٤٤٣، والترمذي في الإيمان ٢٦٠٧.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان بسند صحيح، وروي مرفوعاً من حديث ابن عمر رضي الله عنهما من طرق لا يخلو شيء منها من مقال، انظر «المقاصد الحسنة» ص٣٤٩ حديث ٩٠٨.

(٤) انظر «المقاصد الحسنة» ص٣٦٩ حديث ٩٧٠.

تفسير سورة الضحى

هذه السورة أول قصار المفصل

عن جندب بن سفيان رضي الله عنه قال: «اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتت امرأة[1]، فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾»[2].

وفي رواية عن جندب، قال: «أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ، فقال المشركون: وُدِّع محمد، فأنزل الله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾»[3].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾.

قوله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ الواو: للقسم، و«الضحى» مقسم به، وهو صدر النهار أو النهار كله لمقابلته بالليل في قوله ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ أي: والضحى إذا أشرق وأضاء الأرض بنوره كقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ [الشمس: ١]، وقوله: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ٢].

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ أي: إذا غشى وغطى الأرض والخليقة بظلامه وسكن وادلهم كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾ [الليل: ١]، وقوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤﴾ [الشمس: ٤]، يقال ليلة ساجية، أي: ساكنة الريح والأصوات.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾ هذا هو جواب القسم.

فاقسم الله عز وجل بالضحى وضيائه، والليل وظلامه وهما من المتضادات الدالة على عظيم قدرة الله عز وجل، أقسم على أنه عز وجل ما ودع نبيه ﷺ وما قلاه، وأن

---

(١) قيل: إن هذه المرأة هي أم جميل امرأة أبي لهب.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ﴿والضحى﴾ ٤٩٥٠، ومسلم في الجهاد - ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين ١٧٩٧، وأحمد ٤/ ٣١٢-٣١٣.

(٣) أخرجها البخاري في الجمعة ١١٢٥، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٩٧، والترمذي في التفسير ٣٣٤٥.

الآخرة خير له من الدنيا وأن الله سيعطيه حتى يرضى.

قوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ أي: ما تركك ربك وما أهملك منذ اعتنى بك ورباك.

﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ أي: وما قلاك ربك وما أبغضك منذ أحبك.

وهذا في معرض الرد على قول المشركين لما أبطأ عنه ﷺ جبريل عليه السلام قالوا: «ودعه ربه وقلاه»، فنفى عز وجل أن يكون ترك نبيه ﷺ وأبغضه ومفهوم هذا أنه عز وجل معتنٍ به ﷺ، محبٌ له كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أقسم عز وجل على نفي ما ادعاه المشركون من تركه عز وجل لنبيه ﷺ وبغضه له، ثم اتبع ذلك ببيان ما أعده له من الكرامة في الآخرة، وما سيمتنّ به عليه من النعم في الدنيا والآخرة.

قوله: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ﴾ الواو: عاطفة، واللام للابتداء، أي: ووالله للآخرة خير لك ﴿مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: من الدنيا، وسميت الآخرة بهذا الاسم لأنها متأخرة في الزمنِ بعد الدنيا، وإلا فهي الدار الحقيقية كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

ولهذا لما زار أبو بكر وعمر رضي الله عنهما أم أيمن رضي الله عنها بكت، فقالا لها: «ما يبكيك؟، ما عند الله خير لرسوله ﷺ؟ فقالت: ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء فهيجتهما على البكاء فجعلا يبكيان معها»[1].

كما سميت الدنيا بهذا الاسم لأنها متقدمة على الآخرة من حيث الزمن، ولأنها دنيئة حقيرة، وقد تمثل ﷺ هذه الحقيقة المسلَّمة في سيرته العطرة، فكان ﷺ أزهد الناس في الدنيا وأشدهم طلباً للآخرة.

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «اضطجع رسول الله ﷺ على حصير، فأثر في جنبه، فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه، وقلت: يا رسول الله، الا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئاً؟، فقال رسول الله ﷺ: «مالي وللدنيا؟! ما أنا

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة ٢٤٥٤ وأخرجه ابن ماجه مختصراً في الجنائز ١٦٣٥ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

والدنيا؟! إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»[١].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل»، وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»[٢].

ولهذا لما خيَّر الله عز وجل نبيه ﷺ بين أن يؤتيه زهرة الحياة الدنيا وبين ما عنده اختار ما عند الله عز وجل[٣].

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء»[٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم أو متعلم»[٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[٦].

فالدنيا لا تساوي شيئاً بالنسبة للآخرة كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة: ٣٨].

والآخرة خير من الدنيا له ﷺ خاصة وللمؤمنين عامة كما قال تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٧].

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ الواو: عاطفة، واللام للقسم، أي: ووالله لسوف يعطيك ربك فترضى و«سوف» لتحقيق الشيء في المستقبل فهذا وعد له ﷺ من ربه عز وجل بأن يعطيه من الخير في الدنيا والآخرة حتى يرضى، وقد أعطاه عز وجل من

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٤٨٣، وابن ماجه في الزهد - مثل الدنيا ٤١٠٩، وأحمد ١/ ٣٩١، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤١٦، وأخرجه مختصراً الترمذي في الزهد ٢٣٢٣، وابن ماجه في الزهد ٤١١٤.

(٣) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار - هجرة النبي ﷺ إلى المدينة ٣٩٠٤، ومسلم في فضائل الصحابة - فضائل أبي بكر الصديق ٢٣٨٢ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٢٠، وابن ماجه في الزهد ٤١١٠.

(٥) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٢٢، وابن ماجه في الزهد ٤١١٢، وقال الترمذي: «حسن غريب».

(٦) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٥٦، والترمذي في الزهد ٢٤٢٤، وابن ماجه في الزهد ٤١١٣.

الخير العاجل: التمكين لدينه، والتأييد له ونصره على أعدائه، وظهور الحق، وزهوق الباطل، ودخول الناس في دين الله أفواجاً إلى غير ذلك.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصةً وبعثت إلى الناس عامة»[1].

وعن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوِيَ لي منها وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد، إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة، وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها»[2].

وأعطاه الله عز وجل من الخير الآجل ما لا يخطر على بال من الشفاعة الكبرى والمقام المحمود والحوض المورود، وجنات الخلود وشهادته هو وأمته على الأمم وغير ذلك.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «عرض على رسول الله ﷺ ما هو مفتوح على أمته من بعده كنزاً كنزاً، فسر بذلك، فأنزل الله ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ فأعطاه في الجنة ألف ألف قصر، في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم»[3].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ »[4].

وقال ﷺ لأصحابه: «إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة»، قالوا: فكبرنا، قال: «إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة»، فكبرنا، قال: «إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبرنا»[5].

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة ٤٣٨، ومسلم في المساجد ٥٢١، والنسائي في الغسل والتيمم ٤٣٢.

(٢) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة ٢٨٨٩، وأبو داود في الفتن والملاحم ٤٢٥٢، والترمذي في الفتن ٢١٧٦، وابن ماجه في الفتن ٣٩٥٢.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٤٨٨ – قال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤٤٨: «وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس، ومثل هذا لا يقال إلا عن توقيف».

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤٤٨.

(٥) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٣٤٨، ومسلم في الإيمان ٢٢٢ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وعد الله عز وجل في الآية السابقة نبيه ﷺ بأنه سوف يعطيه فيرضى، ثم ذكّره عز وجل بما أسبغ عليه من عظيم النعم ليشكره عليها ويحدث بها ويتيقن أن ما عند الله له في الآخرة خير من الدنيا، وأن ربه سوف يعطيه حتى يرضى.

قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ الهمزة للاستفهام، ومعناه التقرير. أي: ألم تكن يتيماً فآواك، وذلك أن أباه توفي وهو في بطن أمه، وتوفيت أمه آمنة بنت وهب، وعمره ست سنوات، فاجتمع عليه ﷺ مع اليتم بفقد الأب فقد الأم.

﴿فَآوَىٰ﴾ أي: فآواك، بأن سخر الله لك من يؤيك ويكفلك وينصرك حيث كفله جده عبد المطلب إلى أن توفي وعمره ﷺ ثمان سنوات، ثم كفله عمه أبو طالب، فأحاطه بعظيم عنايته ورعايته في صغره، ولما ابتعثه الله على رأس الأربعين سنة من عمره ناصره أشد المناصرة، ووقف سداً منيعاً دون أذى قومه أن يصل إليه، فلم يستطيعوا النيل منه ﷺ حتى توفي أبو طالب قبيل الهجرة.

وفي هذا يقول أبو طالب:

ولما رأيت القوم لاودّ فيهمُ ... وقد قطعوا كل العرى والوسائل

وقد صارحونا بالعداوة والأذى ... وقد طاوعوا أمر العدو المزايل

وقد حالفوا قوماً علينا أظنةً ... يعضون غيظاً خلفنا بالأنامل

إلى أن قال:

كذبتم وبيت الله[1] نُبزى[2] محمدا ... ولما نطاعن دونه ونناضل

ونسلمه حتى نصرع دونه ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل

إلى أن قال:

لعمري لقد كلفت وجداً بأحمد ... وإخوته دأب المحب المواصل

فلا زال في الدنيا جمالاً لأهلها ... وزيناً لمن والاه رب المشاكل

فمن مثله في الناس أيّ مُؤمَّل ... إذا قاسه الحكام عند التفاضل

---

(١) هذا قسم بالبيت والقسم بغير الله لا يجوز ولكن ليس بعد الشرك ذنب فابو طالب مشرك كافر.

(٢)اي: نسلبه ونغلب عليه.

حليم رشيد عادل غير طائش ... يوالي إلهاً ليس عنه بغافل

فوالله لولا أن أجيء بسبة ... تُجرُّ على أشياخنا في المحافل

لكنا اتبعناه على كل حالة ... من الدهر جداً غير قول التهازل

لقد علموا أن ابننا لا مكذَّب ... لدينا ولا يُعنى بقول الأباطل

فأصبح فينا أحمد في أرومة ... تُقصِّر عنه سَورة المتطاول

حَدِبتُ بنفسي دونه وحَمَيْته ... ودافعت عنه بالذُّرى والكلاكل

فأيده رب العباد بنصره ... وأظهر ديناً حقُّه غيرُ باطل

رجال كرام غير ميلٍ نَماهُم ... إلى الخير آباءٌ كرام المحاصل

فإن تك كعب من لؤيّ صُقَيْبَة[1] ... فلا بد يوماً مرَّة مِن تزايُل[2]

فسبحان من سخَّر أبا طالب ـ وهو مشرك ـ يحوط النبي ﷺ ويدافع ويذود عنه، وينافح من أجله وصدق ﷺ إذ يقول: «إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»[3].

ولما توفي عمه أبو طالب استطال عليه سفهاء قريش وجهالهم، فاختار الله له الهجرة إلى المدينة، فرحب به الأنصار رضي الله عنهم وآووه هو وأصحابه المهاجرين كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ [الحشر: ٩].

واستقبلوه فرحين مستبشرين يرددون:

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع

أيها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطاع

جئت شرفت المدينة ... مرحباً يا خير داع

---

(١) يعني: قريبة.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام ١/٢٩١ – ٢٩٩.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد ٣٠٦٢، ومسلم في الإيمان ١١١، وأحمد ٢/٣٠٩، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فأحاطه الله عز وجل بعنايته منذ كان في بطن أمه، وبعد ولادته، وسخر له من يؤويه، وأيده بمن يناصره ويدافع عنه بعد مبعثه ﷺ حتى ظهر دينه على الأديان كلها، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وأصبح كل واحد من المؤمنين ـ وهم ولله الحمد لا يحصون كثرة ـ يفديه بنفسه وأهله وماله وكل هذا من إيواء الله عز وجل ونصره له ﷺ.

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ أي: وكنت ضالاً عن هذا الدين والشرع القويم أي: لم تهد إليه بعد ﴿فَهَدَىٰ﴾ أي: فهداك الله إليه بما أنزل عليك من الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وليس معنى كونه ﴿ ضالاً ﴾ أنه على دين قومه الشرك، بل كان ﷺ على الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام وكان يتعبد في غار حراء ابتعاداً عما عليه قومه من الشرك.

ومثل هذا قوله ﷺ: «أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة»[1]. أي: أنهم لم يهتدوا إلى هذا اليوم فهدانا الله إليه.

﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ أي: وكنت فقيراً ذا عيال فأغناك الله، بما أعطاك من مال خديجة رضي الله عنها، وبما أفاء عليك من الغنائم، ولهذا قال ﷺ: «وجعل رزقي تحت ظل رمحي»[2].

واعظم من ذلك وأهم ما رزقه الله عز وجل من غنى النفس والقناعة، التي هي كنز لا يفنى.

فجمع الله ـ عز وجل ـ له بين مقامي الفقير الصابر والغني الشاكر مع ما كان عليه ﷺ من ضيق الحال وقلة ذات اليد، وقد عرضت عليه الدنيا فلم يلتفت إليها، وآثر ﷺ أن ينام على الحصير.

---

(١) أخرجه مسلم في الجمعة ٨٥٦، والنسائي في الجمعة ١٣٦٨ – من حديث أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما.
(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٥٠ ـ من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما وذكره البخاري معلقاً في الجهاد ـ ما قيل في الرماح.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «عرض عليَّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً، قلت: لا يارب ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً»، أو نحو هذا: «فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإن شبعت شكرتك وحمدتك»[1].

وكان يمر على بيوته ﷺ الهلالان والثلاثة لا يوقد فيها نار فقيل لعائشة رضي الله عنها فما طعامكم حينئذ؟، قالت: «الأسودان التمر والماء»[2].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من طعام بر، أو خبز بر ثلاث ليال تباعاً»[3].

وشكا إليه أزواجه ﷺ ضيق الحال وطالبنه بزيادة النفقة، فخيرهن بين الحياة الدنيا وزينتها ومفارقتهن، وبين الله ورسوله والدار الآخرة والبقاء في عصمته ﷺ فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة.

وخرج ﷺ ذات يوم هائماً على وجهه من شدة الجوع، فلقيه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فسألهما «ما الذي أخرجكما في هذه الساعة؟»، فقالا: يا رسول الله أخرجنا الجوع، فقال ﷺ: «وأنا والله الذي أخرجني الجوع» الحديث[4]..

واستضافه ﷺ رجل، فدخل على أزواجه ﷺ فسألهن هل عندكن من شيء فقلن: لا، فخرج إلى أصحابه يسألهم: «من يضيف ضيف رسول الله ﷺ وله الجنة؟»، فقال أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه: أنا. وفيه وفي زوجته نزل قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]»[5].

واستمر به الحال ﷺ هكذا إلى أن لحق بالرفيق الأعلى، فتوفي ﷺ بأبي هو وأمي، ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من شعير[6]، ولو أراد ﷺ الدنيا لأتته من كل حدب وصوب، ولكنه ﷺ آثر ما يبقى على ما يفنى وعرف حقارة الدنيا، وأنها متاع غرور، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠].

فهي متاع حائل، وظل زائل ولهذا كان ﷺ يقول: «مالي وللدنيا إنما أنا كراكب

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٤٧ وقال «حديث حسن» وأحمد ٥/ ٢٥٤.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم في الزهد والرقاق ٢٩٧٠.

(٤) سيأتي تخريجه في تفسير سورة التكاثر.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩١٦ – من حديث عائشة رضي الله عنها.

استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»[١].

ويقول ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس»[٢].

ويقول ﷺ: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنّعه الله بما آتاه»[٣].

وكان من أشد ما خاف ﷺ على أمته انفتاح الدنيا عليهم، قال ﷺ: «والله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم»[٤].

ولهذا جاء في الأثر أن الله عز وجل يدرأ الدنيا عمن يحب، ويحوطه عنها، وذلك لأنها مزلة قدم، فكم من أناس غرقوا في وحلها فخسروا دينهم ودنياهم وآخرتهم، حيث انشغلوا بها عن طاعة الله عز وجل وعن الاستعداد لما أمامهم، وخرجت بهم من الحلال إلى الحرام فصار الحلال ما حل بأيديهم ولو كان من طريق المعاملات المحرمة، قال ﷺ: «لو أن ابن آدم أعطي وادياً من ذهب لابتغى ثانياً، ولو أعطي ثانياً لابتغى ثالثاً، ولا يملأ جوف ا بن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»[٥].

قال ابن الإمام أحمد كانت نفقتنا سبعة عشر درهماً فقلت لأبي يا أبتي زد في النفقة فقال: «يا بني أيام قلائل، طعام دون طعام، ولباس دون لباس حتى نلقى الله».

وقال ابنه أيضاً: «مكثت نعلا أبي في رجليه ثمان عشرة سنة كلما انخرمت رقعها».

﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾

لما ذكر عز وجل ما امتن به على نبيه ﷺ من النعم الدينية والدنيوية أتبع ذلك بالأمر بأداء حقوق هذه النعم.

قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ اي: كما كنت يتيماً فآواك الله فلا تقهر اليتيم وهذا خطاب له ﷺ ولكل فرد من افراد امته، اي: فاما اليتيم فلا تذله وتهنه وتعتد عليه وعلى

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) اخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٤٦، ومسلم في الزكاة ١٠٥١، والترمذي في الزهد ٢٣٧٣، وابن ماجه في الزهد ٤١٣٧ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) اخرجه مسلم في الزكاة ١٠٥٤، والترمذي في الزهد ٢٣٤٨، وابن ماجه في الزهد ٤١٣٨ – من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٤) اخرجه البخاري في الجزية ٣١٥٨، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦١، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٦٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٩٧ – من حديث عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه.

(٥) اخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٣٨ من حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنه واخرجه الترمذي في المناقب ٣٧٩٣ من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

ماله وحقوقه، بل أحسن إليه وتلطف به ودافع عنه وعن حقوقه، وخص اليتيم لصغره وضعفه فهو عرضة لكل طامع ممن لا يخافون الله، ولهذا عظم الله عز وجل حق اليتيم في كتابه الكريم، وعظمه رسوله المصطفى الكريم في سنته المطهرة.

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أي: وكما كنت ضالاً فهداك الله فلا تنهر السائل المسترشد الطالب للعلم والهدى ولا تزجره وترده، بل عامله باللطف واللين، وأرشده إلى الحق وبينه له.

وأيضاً فكما كنت عائلاً فأغناك الله فلا تنهر المسكين ذا الحاجة إذا جاء يطلب العون والمساعدة، بل ساعده ما أمكن أو اعتذر منه بلطف، قال ﷺ: «أعطوا السائل ولو جاء على فرس»[(١)].

وقال ﷺ: «ردوا السائل ولو بظلف محرق»[(٢)].

ولهذا كان ﷺ لا يرد سائلاً، ويعطي عطاء من لا يخشى الفقر، ويعطي حتى ينفد ما عنده، وكان ﷺ كما وصفه القائل:

تعود بسط الكف حتى لو انه ... ثناها لقبض لم تطعه أنامله

تراه إذا ما جئته متهللاً ... كأنك تعطيه الذي أنت سائله

ولو لم يكن في كفه غير روحه ... لجاد بها فليتق الله سائله[(٣)]

وكان ﷺ أسوة في التواضع للوفود وطالبي الحاجات والسائلين والمسترشدين، فعن أبي مسعود رضي الله عنه قال: أتى النبي ﷺ رجل فكلمه فجعل ترعد فرائصه، فقال له ﷺ: «هوّن عليك فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد»[(٤)].

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (نعمة) مفرد مضاف فتعم كل نعم الله عليه من إيوائه بعد اليتم وهدايته من الضلالة، وإغنائه من العيلة، وغير ذلك، ولكن أعظم هذه النعم وأهمها نعمة النبوة والرسالة.

والمعنى: وأما بنعمة ربك عليك بالنبوة فحدث وبلغ الناس. وقد بلغ ﷺ البلاغ

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ – في كتاب الجامع – مرسلاً من حديث زيد بن أسلم ١٨٧٦.

(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة – حق السائل ١٦٦٧، والنسائي في الزكاة - تفسير المسكين – رد السائل ٢٥٦٥، والترمذي في الزكاة – ما جاء في حق السائل ٦٦٥، وأحمد ٥/ ٣٨١ – من حديث بجيد الأنصاري عن جدته رضي الله عنها.

(٣) الأبيات لأبي بكر الشبلي.

(٤) أخرجه ابن ماجه في الأطعمة ٣٣١٢.

المبين، بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده، وترك أمته على المحجة البيضاء، ليلها ونهارها سواء، لا يزيغ عنها بعده إلا هالك.

وأيضاً فحدث بنعمة الله عليك بإيوائك بعد أن كنت يتيماً وتذكر ذلك فلا تنهر اليتيم، وحدث بنعمة الله عليك بالغنى بعد أن كنت فقيراً فلا تنهر السائل، وتحدث بسائر نعم الله عليك بذكرها وشكرها، ولهذا كان ﷺ أشكر الناس لربه، قام ﷺ الليل حتى تفطرت قدماه، فقالت له عائشة رضي الله عنها: لم تفعل ذلك يا رسول الله، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟، قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»[(١)].

وكان ﷺ يقول في الدعاء: «اللهم اجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها عليك، قابليها، وأتمها علينا»[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله»[(٣)].

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أُبلي بلاءً فذكره فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره»[(٤)].

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»[(٥)].

الفوائد والعبر:

١- إقسام الله عز وجل بالضحى والليل إذا سجا، لما فيهما من دلائل قدرته وعظمته، وتنبيهاً على أهمية الوقت.

٢- عناية الله عز وجل بنبيه ﷺ وتثبيته له وطمأنته في الإقسام له على أنه ما ودعه وما قلاه رداً على ما زعمه المشركون المرجفون.

٣- إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لنبيه ﷺ وتشريفه بها وتكريمه.

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة ١١٣٠، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٨١٩، والنسائي في قيام الليل وتطوع النهار ١٦٤٤، والترمذي في الصلاة ٤١٢، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٤١٩ – من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة – التشهد ٩٦٨ – من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب – شكر المعروف ٤٨١١، والترمذي في البر – الشكر لمن أحسن إليك ١٩٥٤، وقال: «حسن صحيح».

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب – شكر المعروف ٤٨١٤.

(٥) أخرجه الترمذي في الأدب ٢٨٢٠ – وقال «حديث حسن» وروُيَ بمعناه من حديث أبي الأحوص عن أبيه رضي الله عنه – أخرجه أبو داود في اللباس ٤٠٦٣، والنسائي ٤٨١٩.

٤ـ أن ما عند الله عز وجل في الآخرة خير له ﷺ من الدنيا وما فيها، وكذلك لأتباعه.

٥- وعد الله عز وجل الذي لا يتخلف أنه سيعطي نبيه ﷺ من الخير في نفسه وأمته في الدنيا والآخرة حتى يرضى، وقد أعطاه من ذلك الكثير، وما ادخره له عنده عز وجل أجل وأعظم.

٦- امتنان الله عز وجل على نبيه ﷺ بإيوائه له بعد اليتم، وهدايته له بعد الضلالة، وإغنائه له بعد العيلة تذكيراً له بذلك، وتدليلاً على أنه سيعطيه من الخير العاجل والآجل حتى يرضى.

٧- النهي له ﷺ عن قهر اليتيم وإذلاله وفي هذا تذكير له ﷺ بنعمة الله عز وجل عليه بإيوائه بعد اليتم وهو نهي له ﷺ ولأمته.

٨- النهي له ﷺ عن نهر السائل وزجره وفي هذا تذكير له ﷺ بنعمة الله عز وجل عليه بإغنائه بعد العيلة وهو نهي له ﷺ ولأمته.

٩- تعظيم الإسلام لحق اليتيم والمسكين نظراً لشدة حاجتهما إلى العناية والرعاية، ولا عجب فهو دين التكافل الاجتماعي.

١٠- أمر الله عز وجل لنبيه ﷺ بالتحدث بنعمة الله عليه بالنبوة وغيرها وقد حدث ﷺ وبلغ البلاغ المبين وقام شكراً لله حتى تفطرت قدماه، وأخبر بما من الله به عليه من سائر النعم.

١١- ينبغي للمؤمن أن يشكر نعم الله عز وجل عليه، ويتحدث بها، ويظهر أثرها اعترافاً لله عز وجل بها.

تفسير سورة الانشراح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾﴾.

قوله ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ أي: أما شرحنا لك صدرك، والاستفهام إذا دخل على النفي كان معناه التقرير أي: قد شرحنا لك صدرك.

والمعنى: شرحنا صدرك للإسلام ونورناه بنور الإيمان والنبوة، فأصبح واسعاً رحباً في تبليغ الرسالة والدعوة إلى الله تعالى، وامتثال أوامر الله ـ عز وجل ـ واجتناب نواهيه، والصبر على ذلك، وعلى أقدار الله كما قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ الآية إلى قوله ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥].

كما شرح الله صدره وشقه حسياً كما في حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به، قال: «بينما أنا في الحطيم، أو قال في الحجر مضطجعاً إذ أتاني آت، فجعل يقول لصاحبه الأوسط بين الثلاثة قال: فأتى فَقَدَّ، أو فشق ما بين هذه إلى هذه» يعني من ثغرة نحره إلى شعرته، قال: «فاستخرج قلبي، قال: فأتيت بطست من ذهب مملوء إيماناً وحكمة فغسل قلبي ثم حشي، ثم أعيد» الحديث(١).

وكما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه الطويل في سماعه ﷺ وهو ابن عشر سنين واشهر بكلام فوق راسه، وإذا رجل يقول لرجل: أهو هو قال: نعم، إلى أن قال ﷺ: «فهوى أحدهما إلى صدري ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع، فقال له أخرج الغل والحسد فأخرج شيئاً كهيئة العلقة، ثم نبذها فطرحها، فقال له: أدخل الرأفة والرحمة، فإذا مثل الذي أخرج شبه الفضة، ثم هز إبهام رجلي اليمنى، فقال: اغد، واسلم، فرجعت بها

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٨٨٧، ومسلم في الإيمان ١٦٤، والنسائي في الصلاة ٤٤٨، والترمذي في التفسير ٣٣٤٦.

أغدو، رقة على الصغير، ورحمة للكبير»[١].

ولهذا كان ﷺ كما وصفه الله عز وجل: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ أي: طرحنا وأنزلنا عنك ذنبك وغفرنا لك، كما قال تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، وكان ﷺ يقوم الليل حتى تفطرت قدماه فقالت له عائشة رضي الله عنها لم تفعل ذلك يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟، قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»[٢].

وهو صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء معصومون عن الوقوع في الكبائر، وعن الوقوع في الخطأ فيما يتعلق بتبليغ الرسالة، لكنهم غير معصومين عن الصغائر، لكن لا يُقَرُّون عليها وسريعاً ما يتوبون منها[٣].

﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أي: الذي أثقل ظهرك وآله، فامتن الله عز وجل على رسوله ﷺ بهذا، لأن ثقل الظهر يمنع من قطع مسافة السفر، فكيف بالسفر الطويل، فالأوزار تمنع القلب من السير إلى الله عز وجل وتمنع الجوارح من النهوض في طاعته.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ أي: أعلينا لك ذكرك، فجعلنا ذكرك عالياً بين الأنبياء وبين سائر الناس من الأولين والآخرين في الدنيا والآخرة، فهو أفضل الأنبياء وسيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل، فقال: إن ربي وربك يقول: كيف رفعت ذكرك؟، قال: الله أعلم. قال: إذا ذكرتُ ذكرتَ معي»[٤].

وعن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لما فرغت مما أمرني الله به من أمر السموات والأرض قلت: يارب إنه لم يكن نبي قبلي إلا وقد كرمته، جعلت إبراهيم خليلاً، وموسى كليماً، وسخرت لداود الجبال، ولسليمان الريح والشياطين، وأحييت لعيسى الموتى فما جعلت لي؟، قال: أوليس أعطيتك أفضل من ذلك كله، أني لا أذكر إلا ذكرت معي وجعلت صدور أمتك أناجيل يقرؤون القرآن ظاهراً، ولم أعطها أمة،

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ١٣٩.
(٢) سبق تخريجه قريباً.
(٣) انظر «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» ٤/ ٣١٩.
(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٤٩٥، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٤٥.

وأعطيتك كنزاً من كنوز عرشي: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[١].

فذكره ﷺ مرتبط بذكر الله عز وجل في الشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمداً رسول الله، وهما الركن الأول من أركان الإسلام، وهما متلازمتان لا تصح إحداهما دون الأخرى، فمن شهد أن لا إله إلا الله ولم يشهد أن محمداً رسول الله لم ينفعه ذلك وكذا العكس.

ولهذا قُرن بينهما في الأذان وهو من أعظم شعائر الإسلام.

قال حسان بن ثابت رضي الله عنه[٢]:

أَغَــرُّ عليــه للنبــوة خــاتم ... مــن الله مــن نــور يلــوح ويشــهد

وضـم الإلـه اسـم الـنبي إلى اسمـه ... إذا قـال في الخمـس المـؤذن أشـهد

وشـق لـه مـن اسمـه ليجلّـه ... فـذو العـرش محمـود وهـذا محمـد

وقُرن بينهما بالتشهد في الصلاة: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله»[٣].

ورفع ذكره بأن أوجب تقديم محبته وطاعته على محبة كل مخلوق وطاعته، وجعل اتباعه شرطاً في صحة كل عبادة.

وكما شرح عز وجل صدر رسوله ﷺ ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره، فإن لأتباعه المؤمنين حظاً من ذلك بقدر صدق متابعتهم له ﷺ فهم أشرح الناس صدوراً، وأوضعهم أوزاراً، وأرفعهم ذكراً.

وأبعد الناس عن الله عز وجل أضيقهم صدوراً، وأثقلهم أوزاراً، لأنهم يبحثون عن سعة الصدر والسعادة في ارتكاب الذنوب والأوزار، وهم أخمل الناس ذكراً وأقلهم قدراً.

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ هذه هي النعمة الرابعة التي أنعم الله بها على نبيه محمد ﷺ وهي له ولأمته، وهو جعله مع العسر يسراً وتأكيد ذلك، وفي هذا بشارة له ﷺ أن ما هو فيه من عسر وضيق من قومه سيعقبه اليسر بإذن الله عز وجل

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «دلائل النبوة» فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤٥٢.

(٢) انظر «ديوان حسان» ص٣٣٨ تحقيق أ.د سيد حسنين، د/ حسن العيد ـ القاهرة ١٩٤٧ م.

(٣) أخرجه البخاري في الأذان ٨٣١، ومسلم في الصلاة ٤٠٢، وأبو داود في الصلاة ٩٦٨، والنسائي في التطبيق ١١٦٢، والترمذي في الصلاة ٢٨٩، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها ٨٩٩ ـ من حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه.

وهكذا حصل له ﷺ.

والعسر: الضيق والشدة، واليسر: السعة والفرج، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝﴾ [الطلاق: ٧].

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ جالساً وحياله جحر، فقال: «لو جاء العسر فدخل هذا الجحر لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه، فأنزل الله عز وجل: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾»[1].

وقال ﷺ: «وإن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسر»[2].

﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ توكيد لما قبله، وفيه دلالة على أنه لن يغلب عسر يسرين أي: إن مع كل عسر يسرين من الله عز وجل، كما روي عن الحسن مرسلاً قال: «خرج النبي ﷺ يوماً مسروراً فرحاً وهو يضحك، وهو يقول: «لن يغلب عسر يسرين، لن يغلب عسر يسرين، إن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً »[3].

ولهذا قال بعض أهل العلم: إن العسر لما ذكر معرفاً في الموضعين بأل التي للعهد دل ذلك على أن الثاني هو الأول فهو مفرد، وإن اليسر لما ذكر منكراً في الموضعين دل على أن الثاني غير الأول فهما اثنان فكل عسر معه من الله يسران ولن يغلب عسر يسرين.

وهذا وعد من الله عز وجل لا يتخلف، لأنه عز وجل لا يخلف الميعاد، وخبره أصدق الأخبار.

ولهذا فإن من قواعد الشريعة أن المشقة تجلب التيسير فعندما يشق على الإنسان الوضوء يتيمم، وعندما تشق عليه الصلاة قائماً يصلي قاعداً، وعندما يشق عليه الصوم يفطر، ويقضي، أو يطعم، وهكذا.

وهذا من فضل الله عز وجل ورحمته أن جعل العسر يعقبه يسران، وجعل الكرب يعقبه الفرج، وجعل النصر مع الصبر، ولقد أحسن القائل:

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ذرعاً وعند الله منها المخرج

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/٣٤٤٦، والبزار في مسنده فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/٤٥٣.

(٢) أخرجه أحمد ١/٣٠٧، والترمذي في صفة القيامة ٢٥١٦ - من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وقال «حسن صحيح».

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٤٩٥ - ٤٩٦.

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكان يظنها لا تفرج[١]

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

وكل الحادثات إذا تناهت فموصول بها الفرج القريب

وقال أبو العتاهية:

اصبر لكل مصيبة وتجلد واعلم بأن المرء غير مخلد

واصبر كما صبر الكرام فإنها نوب تنوب الآن تفرج من غد

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ أي: فإذا فرغت من مشاغلك في أمور الأمة والدعوة، وأمور الدنيا وارتاح بالك.

﴿ فانصب ﴾ أي: فانصب في العبادة وقيام الليل.

وذلك أن حضور القلب إنما يكون بعد الفراغ من مشاغل الدنيا، ولهذا قال ﷺ: «لا صلاة بحضرة طعام، ولا هو يدافعه الأخبثان»[٢].

وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «إذا أقيمت الصلاة وحضر العشاء فابدؤوا بالعشاء»[٣].

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ قدم المتعلق لإفادة الحصر، أي: ارغب إلى ربك لا إلى غيره، أي أقبل على ربك، وأخلص له النية وتقرب إليه وثق به تمام الثقة في جميع أمورك. وكثير من الناس يؤتون بسبب الضعف في هذا الجانب.

وقيل: إذا فرغت من الصلاة المكتوبة فانصب في الدعاء وارغب إلى ربك بسؤال مطالبك، واستدل على هذا بمشروعية الدعاء والذكر بعد الصلوات المكتوبة، وهذا المعنى وإن كان صحيحاً فإن حمل الآية عليه فيه بعد، والأظهر القول الأول.

الفوائد والعبر:

١- امتنان الله عز وجل على رسوله ﷺ بشرح صدره بالنبوة والإيمان والإسلام وهذه أعظم منة وأكبر نعمة.

---

(١) البيان لإبراهيم بن العباس الصولي.

(٢) أخرجه مسلم في المساجد – كراهة الصلاة بحضرة الطعام الذي يريد أكله في الحال ٥٦٠، وأبو داود في الطهارة - أيصلي الرجل وهو حاقن ٨٩، وأحمد ٦/ ٤٣، ٥٤ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري في الأطعمة ٥٤٦٥، ومسلم في المساجد - كراهة الصلاة بحضرة الطعام ٥٥٨، وابن ماجه في الإقامة - إذا حضرت الصلاة ووضع العشاء ٩٣٥.

٢- فضل الله عز وجل عليه ﷺ بوضع وزره ومغفرة ذنبه.

٣- أن الأوزار والذنوب ثقل وعناء في الدنيا والآخرة تستلزم التوبة وطلب المغفرة من الله عز وجل.

٤- إعلاء الله عز وجل شأن نبيه محمد ﷺ ورفع ذكره بين الأنبياء والخلائق في الدنيا والآخرة.

٥- تكفل الله عز وجل ووعده بأن مع كل عسر يسرين من الله عز وجل وأنه لن يغلب عسر يسرين فلله الحمد والفضل والمنة.

٦- أمر الله عز وجل لرسوله ﷺ إذا فرغ من مشاغله في أمور الأمة والدعوة، وأمور الدنيا، وارتاح باله بالعبادة وقيام الليل والرغبة إلى الله عز وجل. وللأمة فيه ﷺ الأسوة في هذا الأمر كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥] أي: ابتغوا إليه القربة وارغبوا إليه بالأعمال الصالحة.

٧ـ تشريفه ﷺ بربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة له وتكريمه.

تفسير سورة التين

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «سمعت النبي ﷺ يقرأ: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾ في العشاء، وما سمعت أحداً أحسن صوتاً منه أو قراءة»[(١)].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾.

قوله: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ الواو: للقسم و(التين والزيتون) مقسم بهما وهما الشجرتان المعروفتان اللتان هما من أفضل الأشجار وأكثرها فوائد، وأعظمها منافع، وأطيبها ثمرة، مَنْبِتُهما أرض بيت المقدس، فإنه أكثر البقاع زيتوناً وتيناً، وهي الأرض التي بارك الله فيها، وبعث فيها كثيراً من أنبيائه عليهم السلام.

فأقسم الله عز وجل بهذا الشجر ذي الثمر الطيب والفوائد الكثيرة والمنافع العظيمة، ومنابته المباركة أرض بيت المقدس، كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١].

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران عليه السلام وأضيف «طور» وهو الجبل، إلى «سينين» وهي البقعة، يقال: سينين، ويقال: سيناء.

﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ وهو مكة، وإشار إليه بإشارة القريب لقربه، أقسم الله به لأنه أشرف البقاع وأحبها إلى الله، البلد الحرام الذي يأمن من دخله كما قال تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وقال ﷺ: «إن هذا البلد حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة»[(٢)].

فأقسم عز وجل بهذه الأماكن الثلاثة العظيمة، التي بعث الله بها أنبيائه ورسله،

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان، ـ القراءة في العشاء ٧٦٩، ومسلم في الصلاة ـ القراءة في العشاء ٤٦٤، وأبو داود في الصلاة ١٢٢١، والنسائي في الافتتاح ١٠٠٠، والترمذي في الصلاة ٣١٠، وابن ماجه في الصلاة ٨٣٥، وأحمد ٢٩٨/٤، ٣٠٢.

(٢) أخرجه البخاري في الجزية ٣١٨٩، ومسلم في الحج ١٣٥٣، وأبو داود في المناسك ٢٠١٧، والنسائي في مناسك الحج ٢٨٧٥ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

أصحاب الشرائع العظام، والأمم العظيمة، عيسى بن مريم وموسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام تعظيماً لهذه الرسالات العظيمة وتشريفاً لهذه الأماكن، وبدأ بالأشرف، ثم الأشرف منه ثم الأشرف منهما.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ جواب القسم، فأقسم عز وجل بالمواضع الثلاثة على خلقه الإنسان في أحسن تقويم، واللام في قوله ﴿ لقد ﴾ واقعة في جواب القسم، و«قد» للتحقيق.

أي: والله لقد أوجدنا الإنسان في أحسن صورة، وأجمل هيئة، منتصب القائمة، متناسب الأعضاء، سوي الخلقة، وميزناه بالعقل، ولهذا خصصناه بالتكليف، كما قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار: ٦ ـ ٨]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾ [القيامة: ٣٧، ٣٨] وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾﴾ [الأعلى: ٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ [الملك: ٢٣].

﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ هذا من جملة جواب القسم، فأقسم عز وجل على بداية الإنسان ونهايته، أي: ثم أرجعناه بعد هذا الحسن والخلقة السوية والتميز بالعقل إن لم يؤمن بالله ويعمل صالحاً إلى الدرك الأسفل من النار في الأرض السفلى كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾﴾ [المطففين: ٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]، وقال تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف: ٢٦].

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ «إلا» أداة استثناء، فاستثنى عز وجل من الرد إلى أسفل سافلين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فهم في أعلى عليين، كما قال تعالى ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾﴾ [المطففين: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾.

واستثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات من قوله ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ يدل على أن المراد بذلك رده إلى أسفل سافلين في النار بسبب كفره، لا أن المراد رده إلى الهرم كما

قال بعضهم.

قال ابن تيمية[1]: «فإنه سبحانه أقسم على ذلك بأقسام عظيمة بالتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين، وهي المواضع التي جاء منها محمد والمسيح وموسى، وأرسل الله بها هؤلاء الرسل مبشرين ومنذرين وهذا الإقسام لا يكون على مجرد الهرم الذي يعرفه كل أحد، بل على الأمور الغائبة، التي تؤكد بالأقسام، فإن إقسام الله هو على أنباء الغيب. وفي نفس المقسم به - وهو إرسال هؤلاء الرسل - تحقيق للمقسم عليه وهو الثواب والعقاب بعد الموت».

ومعنى الآية: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بقلوبهم وألسنتهم ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم واكتفى بالصفة وهو كون الأعمال صالحات، لأن المهم في العمل وشرط قبوله أن يكون صالحاً، أي: خالصاً لله عز وجل وفق سنة نبيه محمد ﷺ.

وجمع بين الإيمان وعمل الصالحات لأن من اكتفى بأحدهما فليس بمؤمن.

﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ﴾ أي: فلهم عند الله عز وجل ثواب عظيم وجزاء كبير، وسمى عز وجل ثوابهم أجراً، لأنه سبحانه تكفل به والتزم به لهم تفضلاً وكرماً.

﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع، وغير ممنون به عليهم كما يمن المخلوق بما أعطى، لأن الله عز وجل أكرم الأكرمين يعطي العطاء الجزيل بغير حساب، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٨﴾ [النور: ٣٨] وله سبحانه وتعالى المنة الكبرى والنعمة العظمى على جميع خلقه، ومنته على عبده فيها تمام النعمة ولذتها وطيبها، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ [القصص: ٥].

والمراد بهذا الأجر نعيم الجنة والخلود الأبدي فيها، نسأل الله تعالى من فضله.

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ لم يقل «فمن» لأن «ما» يراد به الصفات دون الأعيان، كأنه قال: فما المكذب لك بعد بالدين، أي: بالجزاء على الأعمال بعد الإخبار به وذكر دلائله، أي: لا يكذبك به إلا جاهل ظالم لنفسه.

وعلى هذا فالخطاب في قوله ﴿ فما يكذبك ﴾ للنبي ﷺ.

ويحتمل أن الخطاب للإنسان المكذب بالدين وتكون «ما» للاستفهام الإنكاري، أو

---

(١) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ١٥٦.

للتعجب والتحقير لمن شأنه هكذا.

أي: فما الذي يحملك يا ابن آدم على التكذيب بالجزاء على الأعمال في الدنيا والبرزخ والمعاد، وقد عرفت أن الله هو الذي خلقك من العدم، وجعل خلقك في أحسن تقويم، وهو قادر على إعادتك وبعثك من باب أولى.

وسمي الجزاء على الأعمال بـ «الدين» لأن المرء فيه يجازى ويدان بما عمل إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ولهذا يقال كما تدين تدان، أي: كما تعمل تجازى

وسمى الله عز وجل نفسه «الديّان» أي: الجازي لعباده بما عملوا كما في الحديث «أنا الملك أنا الديان»[1].

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ الهمزة للاستفهام التقريري، أي: بلى سبحانه هو أحكم الحاكمين. و«أحكم» اسم تفضيل.

أي: هو ـ سبحانه ـ أحكم وأعدل الحاكمين في أحكامه الشرعية والكونية والجزائية، له كمال الحكم في أحكامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وله كمال الحكمة بقسميها: الحكمة الغائية والحكمة الصورية وحكمته عز وجل تقتضي أن لا يترك الخلق سدى، بلا أمر ولا نهي، ولا ثواب ولا عقاب.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ منكم ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ فانتهى إلى آخرها: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝﴾ فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين»[2].

الفوائد والعبر:

١- إقسام الله عز وجل بالمواضع الثلاثة المباركة التي بعث الله بها محمداً وموسى وعيسى ابن مريم عليهم الصلاة والسلام تعظيماً لها.

٢- أن لله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته لما في ذلك من الدلالة على عظمته وقدرته، أما المخلوق فلا يقسم إلا بالله.

٣- وجوب تأمين من دخل الحرم فلا يعتدى عليه ما لم يعتد أو يرتكب جرماً فإن الحرم لا يجير محدثاً.

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٤٩٥ – من حديث جابر رضي الله عنه عن رجل سمعه من رسول الله ﷺ. وذكره البخاري بقوله: «ويذكر عن جابر عن عبد الله بن أنيس سمعت النبي ﷺ يقول: «يحشر الله العباد فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك، أنا الديان» كتاب التوحيد – باب ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ .

(٢) سبق تخريجه في آخر تفسير سورة القيامة.

٤- إقسامه عز وجل أنه خلق الإنسان في أحسن صورة وأعدل خلقة امتناناً عليه بهذه النعمة العظيمة، وتذكيراً له بها ليشكر الله عليها.

٥- أن من تنكب الجادة وخرج عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها وكفر بالله فمرده النار أسفل سافلين، ولا كرامة.

٦- أن الله عز وجل قدر الكفر كوناً، وإن لم يرضه شرعاً، لقوله ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾.

٧- ثناء الله ـ عز وجل ـ على المؤمنين، وأنه لا بد من الجمع بين الإيمان والعمل الصالح، لقوله ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

٨- لا بد لصحة العمل وقبوله من كونه صالحاً يتوفر فيه شرطان: الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ.

٩- أن الله عز وجل أعد للذين آمنوا وعملوا الصالحات أجراً عظيماً في الجنة غير مقطوع عنهم، ولا ممنون به عليهم منة الخلق.

١٠- إثبات البعث والحساب والجزاء على الأعمال، والإنكار على من يكذب به لقوله ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾.

١١- تقرير أن الله عز وجل أحكم وأعدل الحاكمين، له كمال الحكم بأنواعه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وله تمام الحكمة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

١٢- أن ما قضاه الله وحكم به من بعث الرسل، وإنزال الكتب وخلق الإنسان وجعله محلاً للتكليف، وتقدير الكفر والإيمان، والبعث والحساب والجزاء هو الحكم العدل، والحكمة التامة.

تفسير سورة العلق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ .

عن عائشة رضي الله عنه قالت: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه، وهو: التعبد الليالي ذوات العدد، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق، وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ[1]، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فقال: «زملوني زملوني» فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع» الحديث[2].

فهذه السورة العظيمة هي أول سورة نزلت، وهذه الآيات المباركات ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ إلى قوله: ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ أول ما بدئ به من أمر النبوة والوحي إلى رسول الله ﷺ وهي تباشير النعمة المهداة والرحمة المسداة للعالمين بإنزال القرآن الكريم ومبعث سيد المرسلين نبينا محمد عليه أزكى الصلاة والتسليم.

قوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ أي: اقرأ ما ينزل وما يتلى عليك من القرآن مبتدئاً ومستعيناً ومتبركاً ومتيمناً باسم ربك، خالقك ومالكك ومدبرك، ولم يقل باسم الله، لأن المقام مقام خلق وتصرف وتدبير، ولإشعاره ﷺ بربوبية الله عز وجل له، الربوبية الخاصة.

فأول آية نزلت من القرآن تأمر بالقراءة تعظيماً للعلم وبياناً لشرفه وفضله، وإشارة إلى أن هذا الدين دين القراءة والعلم كما قال ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل

---

(١) قوله: «ما أنا بقارئ» أي: إنني لست من ذوي القراءة.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٤، ومسلم في الإيمان - بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ١٦٠، والترمذي في المناقب ٣٦٣٢، وأحمد ٦/ ٢٣٢ - ٢٣٣.

مسلم»[1].

كما تأمر أيضاً بالتسمية في ابتداء القراءة وهي مشروعة في ابتداء السورة، لأنها آية مستقلة من القرآن تنزل مع كل سورة.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ أي: الذي خلق الخلق وأوجده ولم يذكر مفعول «خلق» ليعم كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝﴾ [الفرقان: ٢]، وهذا تذكير بعظمته عز وجل إذ لا خالق غيره، ولا رب سواه.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ تخصيص بعد تعميم، لشرف الإنسان من بين سائر المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝﴾ [الإسراء: ٧٠]، فكرمه الله عز وجل بالعقل والعلم والمعرفة وخصه بالتكليف والجزاء.

و(علق) جمع: علقة، وجُمع لأن المراد بالإنسان في قوله ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ الجنس، أي: جنس الإنسان، فهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝﴾.

ومعنى ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ أي: أوجد الإنسان وأنشأه من علقة تعلق في جدار الرحم، فهو ينتقل في أطوار خلقه من نطفة إلى علقة، إلى مضغة، إلى أن يصير بشراً سوياً، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۝ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝﴾ [القيامة: ٣٧ - ٣٩].

﴿ٱقْرَأْ﴾ تأكيد للأمر الأول، أو تأسيس، لأن الأمر الأول قرن بما يتعلق بالربوبية والخلق والقدر، والثاني قرن بما يتعلق بالعلم والشرع.

﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ «الأكرم» اسم تفضيل أي: الذي هو أكرم الأكرمين، والكرم كثرة الخير، والخير كله منه عز وجل كما قال ﷺ: «والخير كله بيديك»[2].

ومن كرمه العظيم وجوده العميم أن أنزل القرآن الكريم، وبعث محمداً ﷺ نعمة على العباد، ورحمة للعالمين، وعلم الإنسان، وشرفه بالعلم على سائر المخلوقات، من الملائكة وغيرهم، وأضاف ضميره ﷺ إلى اسمه عز وجل «الرب» تشريفاً له وتكريماً.

﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ أي: علّم الكتابة بالقلم، لأن العلم يكون في الأذهان، ويكون في اللسان، ويكون بالكتابة، وهي أعظم وسيلة لحفظ العلم والحقوق والوصايا وضبط

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة ٢٢٤ - من حديث أنس - رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٣٤٨، ومسلم في الإيمان ٢٢٢ - من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

الشهادات، وتقييد ونقل مذاهب السلف وأخبارهم للخلف.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش، وقالوا: أتكتب كل شيء تسمعه، ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب والرضا؟، فأمسكت عن الكتاب فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأومأ بأصبعه إلى فيه، فقال: «اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق»[1].

وقد أحسن القائل:

العلم صيد والكتابة قيده ... قيِّد صيودك بالحبال الواثقة

فمن الحماقة أن تصيد غزالة ... وتتركها بين الخلائق طالقة

﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فأخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئاً وجعل له السمع والبصر والفؤاد، ويسر له أسباب العلم، فعلمه القرآن والحكمة والكتابة بالقلم، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨]. وقال تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن: ٢ ـ ٤].

الفوائد والعبر:

١- أن أول القرآن نزولاً على النبي ﷺ قوله ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ إلى قوله ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

٢- وجوب القراءة والتعلم وتأكيد ذلك.

٣- مشروعية البسملة عند قراءة بداية كل سورة.

٤- إثبات الربوبية الخاصة لله عز وجل.

٥- تشريف النبي ﷺ وتكريمه بإضافة ضميره إلى اسم الرب عز وجل وإدخاله تحت أهل ربوبيته الخاصة.

٦- تعظيم اسم الله عز وجل، وأنه سبحانه الخالق العظيم الأكرم.

٧ ـ بيان أصل خلق الإنسان وضعفه وأنه خلق من علقة.

٨- فضل الله عز وجل على الإنسان، خلقه وشرفه على سائر المخلوقات، وعلمه الكتابة بالقلم، وعلمه ما لم يكن يعلم.

٩- الترغيب في تعلم الكتابة بالقلم.

---

(١) أخرجه أبو داود في العلم ٣٦٤٦.

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾.

قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ «كلا» كلمة ردع وزجر، وقيل: بمعنى حقاً.

﴿إن الإنسان﴾ أي: جنس الإنسان، وبخاصة الكافر.

﴿ليطغى﴾ أي: يتجاوز الحد في الفرح والأشر والبطر، ويتجاوز الحلال إلى الحرام والحق إلى الباطل، والإيمان إلى الكفر.

﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ أي: أن رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله، وأنه في غنى عن الله عز وجل ورحمته كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [الليل: ٨].

وهذا إنما يكون من الإنسان الكافر، لأن من اعتقد بأنه في غنى عن الله عز وجل وعن رحمته فهو كافر، وإن ادعى الإيمان، لكن كثيراً من ضعاف الإيمان قد يغترّ بالمال والغنى وهذا أمر مشاهد مما يوجب الحذر من ذلك.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «منهومان لا يشبعان: صاحب العلم، وصاحب الدنيا، ولا يستويان، فأما صاحب العلم فيزداد رضى الرحمن، وأما صاحب الدنيا فيتمادى في الطغيان، ثم قرأ عبد الله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ وقال للآخر: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]»[(١)].

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ويحتمل كونه للإنسان عموماً، أو لمن طغى واستغنى بماله، أي: إن إلى ربك المرجع والمآل والمصير فيجازي كلاً بما عمل، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة: ٢٨١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ هذه الآية إلى آخر السورة نزلت في أبي جهل لعنه الله، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «لو فعله لأخذته الملائكة»[(٢)].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٥٠.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ ٤٩٥٨، والترمذي في تفسير سورة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ ٣٣٤٨، وأحمد ١/ ٢٤٨.

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ يصلي عند المقام، فمر به أبو جهل بن هشام، فقال: يا محمد، ألم أنهك عن هذا؟، وتوعده فاغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره، فقال: يا محمد، بأي شيء تهددني؟، أما والله، إني لأكثر هذا الوادي نادياً، فانزل الله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ قال ابن عباس: لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين اظهركم؟ قال: فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعفرن وجهه في التراب، قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي زعم ليطأ على رقبته قال: فما فَجِئَهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه. قال: فقيل له مالك؟، فقال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة. فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً» قال: فأنزل الله عز وجل – لا ندري في حديث أبي هريرة أو شيء بلغه ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ إلى آخر السورة»[2].

قوله: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ الاستفهام للتعجب. والخطاب للنبي ﷺ أو لكل من يصلح له.

والناهي هنا هو أبو جهل ـ لعنه الله ـ كما دل عليه سبب النزول أي: أخبرني عن حال هذا الرجل وتعجب من حاله.

وقوله: ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ المراد به نبينا محمد ﷺ، فأبو جهل ينهى الرسول ﷺ عن الصلاة عند الكعبة، وأطلق عز وجل عليه ﷺ اسم العبودية، لأنها أفضل ما يوصف به البشر، وصفه الله عز وجل بها في أعلى المقامات حال قربه منه في الصلاة والقراءة والدعاء فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝﴾ [الجن: ١٩]، وحال قربه منه ليلة الإسراء، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١].

ولو كان هناك وصف أفضل من وصف العبودية لوصفه به في هذين المقامين.

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ الاستفهام للإنكار، والخطاب لأبي جهل ـ لعنه الله ـ أي: أخبرني إن كان هذا الذي تنهاه عن الصلاة وهو محمد ﷺ ﴿ على الهدى ﴾ أي: على الحق والسداد والرشاد في فعله.

---

(١) أخرجه الترمذي في الموضع السابق ٣٣٤٩، وأحمد ١/ ٣٢٩، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٥٣٧، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(٢) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار ـ قوله: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴾ ٢٧٩٧، وأحمد ٢/ ٣٧٠، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٥٣٨.

﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ «أو» عاطفة بمعنى الواو، أي: وأمر بالتقوى بقوله، أي: و أمر بتقوى الله، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، وهو ﷺ كذلك في فعله وقوله، فِلمَ تنهاه وتتوعده على ذلك.

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ الاستفهام والخطاب للنبي ﷺ أي: ارأيت يا محمد ﴿ إن كذب ﴾ هذا الناهي بالحق بقلبه، ﴿ وتولى ﴾ أي: أعرض عن الحق ببدنه، أي: استمر على التكذيب والتولي.

﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ، والتهديد والوعيد أي: ألم يعلم هذا الناهي عن الصلاة المكذب للحق المتولي عنه أن الله عز وجل مطلع عليه وعلى غيره يرى أفعاله، ويسمع كلامه وسيجازيه بما عمل.

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ «كلا» أداة زجر وتهديد ووعيد، أي: كلا لئن لم يرجع أبو جهل عما هو عليه من التكذيب بالحق والإعراض والصد عنه.

﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ اللام واقعة في جواب القسم، أي: والله لئن لم ينته ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ والسفع: القبض على الشيء وجذبه بشدةً، والناصية: مقدمة شعر الرأس، أي: لنقبضن على ناصيته ونأخذه ونجذبه بها بشدة وقوة وعنف، وال في «الناصية» للعهد الذهني أي: ناصيته المعهودة كأنه اشتهر بها وقد أُخذ وجر بناصيته في الدنيا يوم بدر، ويؤخذ بناصيته ويجر بها في الآخرة في النار، وتوسم بالسواد، كما قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ۝٤١﴾ [الرحمن: ٤١].

﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ «ناصية» بدل من ناصية الأولى، ﴿ كاذبة ﴾ في مقالها ﴿خاطئة﴾ متعمدة الخطأ في فعالها، يقال: خاطئ، ومخطئ، فالخاطئ من ارتكب الذنب عمداً، والمخطئ من ارتكبه جهلاً ونسياناً فهذا معذور والأول مأزور غير معذور، فهذا الناهي كاذبة أقواله، خاطئة أفعاله، وليس بعد الكفر والتكذيب بالحق ذنب.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، واللام لام الأمر، وفيها معنى التحدي و(ناديه) أي: أهل ناديه، والنادي في الأصل المجلس الذي ينتدي فيه القوم، أي: يجتمعون للتخاطب والتشاور والاستئناس، وكان ابو جهل معظماً في قريش، وله ناد يجتمع إليه الناس فيه، من قومه وعشيرته، وكان يفتخر فيهم.

﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ الزبانية، جمع: زبنية، ماخوذ من «الزبن» وهو الدفع، والمراد بهم ملائكة العذاب وخزنة جهنم الغلاظ الشداد، أي: سندعوهم إلى أخذه، وحينها يعلم غروره بافتخاره بكثرة أهل ناديه وعشيرته، وأنهم لن يجدوا عنه شيئاً.

﴿كَلَّا﴾ كلمة ردع وزجر لأبي جهل ﴿لَا تُطِعْهُ﴾ أي: لا تطعه يا محمد فيما ينهاك عنه من الصلاة والعبادة عند الكعبة وأينما كنت، واثبت على ما أنت عليه كما قال تعالى:

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾﴾ [القلم: ٨].

﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾ أي: صل واقترب إلى ربك بالعبادة والركوع والسجود، واستمر على ذلك، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥] أي اطلبوا إليه القربة بالأعمال الصالحة.

وعبر عن الصلاة بالسجود لأنه من أفضل حالاتها ومن أعظم أركانها، قال ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا من الدعاء»(١).

ويشرع السجود عند تلاوة هذه الآية، لما روي أن رسول الله ﷺ كان يسجد في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ و ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾ (٢).

الفوائد والعبر:

١- الردع والزجر والتهديد والوعيد لمن أطغاه الغنى.

٢- أن من طبيعة الإنسان أن يطغيه الغنى ويبطره إلا من رحم الله فثبته وحفظه، ولهذا يجب أن يكون المسلم من هذا على حذر.

٣- إثبات ربوبية الله - عز وجل - الخاصة لنبيه ﷺ ولأوليائه، وربوبيته العامة لجميع الخلق.

٤- إثبات المعاد وأن المرجع والمصير إلى الله عز وجل.

٥- التعجب من حال أبي جهل - لعنه الله - والإنكار عليه في نهيه للنبي ﷺ عن الصلاة وفي تكذيبه للحق وإعراضه عنه.

٦- إثبات وتقرير أنه ﷺ على الهدى في عبادته لله عز وجل وصلاته وفيما يأمر به من تقوى الله عز وجل.

٧- تقرير رؤية الله عز وجل لأبي جهل وأذاه لرسول الله ﷺ، واطّلاعه التام على جميع الخلق وأعمالهم.

٨- الزجر والتهديد لأبي جهل إن لم ينته عما هو عليه من الأذى لرسول الله ﷺ والصد عن الحق بأخذه بناصيته الكاذبة الخاطئة وتأكيد زجره وتهديده.

٩- جهل أبي جهل بعظمة الله عز وجل وقوته وقدرته ولهذا تحداه الله عز وجل بدعوة أهل ناديه ليدافعوا عنه ويمنعوه من زبانية جهنم.

١٠- إثبات خزنة جهنم.

١١- نهيه - عز وجل - له ﷺ عن طاعة أبي جهل وأمره عز وجل له ﷺ بالصلاة والسجود والتقرب إليه والاستمرار على ذلك.

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة - ما يقال في الركوع والسجود ٤٨٢، وأبو داود في الصلاة ٨٧٥، والنسائي في التطبيق ١١٣٧ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

تفسير سورة القدر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝﴾.

قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ اي: إنا انزلنا القرآن ﴿فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ وقد تكلم عز وجل عن نفسه بضمير العظمة لأنه هو العظيم سبحانه وتعالى.

وضمير الهاء في قوله ﴿ أنزلناه ﴾ يعود إلى القرآن الكريم، ولم يسبق له ذكر في السورة لكنه معلوم، أي: أنزلنا القرآن العظيم المعلوم المعروف المعهود، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝﴾ [البقرة: ٢].

وفي قوله ﴿ أنزلناه ﴾: إثبات علو الله عز وجل على خلقه، لأن الإنزال يكون من اعلى إلى أسفل.

كما أن فيه أن القرآن الكريم منزل غير مخلوق كما هو مذهب أهل السنة والجماعة خلافاً للمعتزلة.

﴿فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ الليلة: ما بين غروب الشمس إلى طلوع الفجر. و«القدر»: هو الشرف والعظمة، والمعنى: في الليلة العظيمة ذات القدر والشرف العظيم، والتي تقدر فيها الأعمال وهي الليلة المباركة، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝﴾ [الدخان: ٣، ٤] وهي في شهر رمضان المبارك، كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ومعنى إنزال القرآن فيها بدء نزوله فيها، ثم تتابع نزوله بعد ذلك على رسول الله ﷺ خلال ثلاث وعشرين سنة.

وقيل: معنى إنزاله فيها: أنه أنزل فيها جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا، ثم نزل مفرقاً حسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ تعظيم لأمرها، وتفخيم لشأنها، أي: وما أعلمك ﴿مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ هي ليلة عظيمة القدر رفيعة الشرف كثيرة الخير والبركة.

﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ هذا وما بعده تفسير لقوله ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾.

ومعنى ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ ان العمل الصالح فيها خير وأفضل من

العمل في ألف شهر خالية منها، أي: خير من العمل بما مقداره ثلاث وثمانين سنة وأربعة أشهر، ليس فيها هذه الليلة، وهذا كما قال ﷺ: «رباط يوم في سبيل الله خير من ألف ليلة فيما سواه من المنازل»[1].

وقال ﷺ «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما حضر رمضان، قال رسول الله ﷺ: «قد جاءكم شهر رمضان، شهر مبارك، افترض الله عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب الجنة، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغل فيه الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر، من حرم خيرها فقد حرم»[3].

ولهذا قال ﷺ: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»[4].

﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ أي: تتنزل الملائكة إلى الأرض شيئاً فشيئاً، والملائكة: جمع مَلَك.

﴿ وَٱلرُّوحُ ﴾ هو جبريل عليه السلام عطف على الملائكة من عطف الخاص على العام لمكانته بينهم، لأنه الأمين على الوحي كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤].

﴿فِيهَا﴾ أي: في هذه الليلة العظيمة ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ أي: بامره عز وجل الكوني، وذلك لكثرة بركتها وخيرها، وتنزل الرحمة فيها، قال ﷺ: «وإن الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى»[5].

﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي: بكل أمر مما يامرهم الله تعالى به، ومن أجل كل أمر قضاه الله وقدره في تلك السنة من الآجال والأرزاق وغير ذلك كما قال عز وجل: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [الدخان: ٤].

﴿سَلَـٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ قرأ الكسائي وخلف بكسر اللام «مطلِع»، وقرأ الباقون بفتحها «مطلَع» أي: هي سلام أي: ما يقدر فيها إلا السلامة والخير، ويكثر فيها سلام

---

(١) اخرجه أحمد ١/ ٦٢، ٦٥ - من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٢) اخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٩٢، ومسلم في الإمارة ١٨٨١، والنسائي في الجهاد ٣١١٨، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٤٨، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٥٦ - من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٣) اخرجه البخاري في الصوم ١٨٩٨، ١٨٩٩، ومسلم في الصيام ١٠٧٩، والنسائي في الصيام ٢٠٩٧، والترمذي في الصوم ٢٨٢، وأحمد ٢/ ٢٣٠.

(٤) اخرجه البخاري في الصوم ١٩٠١، ومسلم في صلاة المسافرين ٧٦٠، وأبو داود في الصلاة ١٣٧٢، والنسائي في الصيام ٢٢٠٢، والترمذي في الصوم ٦٨٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) سيأتي تخريجه.

الملائكة على المؤمنين، والسلامة من الذنوب ومغفرة الآثام.

﴿هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ أي: وقتها إلى مطلع الفجر الثاني.

وقد أخفى الله عز وجل هذه الليلة ليجتهد الناس في العبادة تحرياً لها، وهي في رمضان، وفي العشر الأواخر منه على الصحيح، وهي في أوتار العشر آكد، وأكدها ليلة سبع وعشرين[(١)].

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «اعتكف رسول الله ﷺ العشر الأول من رمضان واعتكفنا معه، فأتاه جبريل فقال: إن الذي تطلب أمامك، فاعتكف العشر الأوسط، واعتكفنا معه، فأتاه جبريل، فقال: الذي تطلب أمامك، ثم قام النبي ﷺ صبيحة عشرين من رمضان، فقال: «من كان اعتكف معي فليرجع، فإني رأيت ليلة القدر، وإني أنسيتها، وإنها في العشر الأواخر، في وتر، وإني رأيت كأني أسجد في ماء وطين» وكان سقف المسجد جريداً من النخل، وما نرى في السماء شيئاً، فجاءت قزعة فمطرنا، فصلى بنا النبي ﷺ حتى رأيت أثر الطين والماء على جبهة رسول الله ﷺ تصديق رؤياه» وفي رواية: «في صبح إحدى وعشرين»[(٢)].

وعن عبد الله بن أنيس رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ قال: «أُريت ليلة القدر ثم أُنسيتها، وأراني صبحها أسجد في ماء وطين، قال: فمطرنا ليلة ثلاث وعشرين، فصلى بنا رسول الله ﷺ فانصرف وإن أثر الماء والطين على جبهته وأنفه، قال: وكان عبد الله بن أنيس يقول: ثلاث وعشرين»[(٣)].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليلة القدر ليلة أربع وعشرين»[(٤)].

وعن بلال رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليلة القدر ليلة أربع وعشرين»[(٥)].

وعن واثلة بن الأسقع ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «أنزلت صحف

---

(١) هناك أقوال أخرى ضعيفة لا دليل عليها، فقيل إنها في السنة كلها، وقيل في رمضان كله، وقيل أول ليلة منه، وقيل ليلة سبع عشرة، وقيل ليلة تسع عشرة وقيل غير ذلك.

(٢) أخرجه البخاري في صلاة التراويح ٢٠٦٦، ومسلم في الصيام – فضل ليلة القدر ١١٦٧، وأبو داود في الصلاة ٨٩٤.

(٣) أخرجه مسلم في الباب السابق ١١٦٨.

(٤) أخرجه أبو داود الطيالسي انظر «منحة المعبود» ١/ ٢٠١ قال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤٦٨: «إسناده رجاله ثقات».

(٥) أخرجه أحمد ٦/ ١٢ قال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤٦٨ «ابن لهيعة ضعيف. وقد خالفه ما رواه البخاري عن بلال: «أنها أول السبع من العشر الأواخر» قال ابن كثير: فهذا الموقوف أصح».

إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان»[١].

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «التمسوها في العشر الأواخر من رمضان، في تاسعة تبقى، في سابعة تبقى، في خامسة تبقى»[٢].

وقد فسره أكثر أهل العلم بليالي الأوتار، وهو الأظهر، وحمله بعضهم على الأشفاع.

وقوله «في تاسعة تبقى» في حال نقصان الشهر تكون ليلة تاسعة تبقى ليلة إحدى وعشرين، وفي حال تمامه تكون ليلة اثنتين وعشرين.

وقوله: «في سابعة تبقى» تحتمل ليلة ثلاث وعشرين وذلك في حال نقصان الشهر، وتحتمل ليل أربع وعشرين في حال تمامه.

وقوله: «في خامسة تبقى» تحتمل ليلة خمس وعشرين في حال نقصان الشهر، وتحتمل ليلة ست وعشرين في حال تمام الشهر.

وعن زر قال: سألت أبي بن كعب رضي الله عنه، فقلت: «إن أخاك ابن مسعود يقول: من يقم الحول يصب ليلة القدر، فقال: رحمه الله، أراد أن لا يتكل الناس، أما إنه قد علم أنها في رمضان وأنها في العشر الأواخر، وأنها ليلة سبع وعشرين، ثم حلف لا يستثنى أنها ليلة سبع وعشرين، فقلت: باي شيء تقول ذلك، يا أبا المنذر؟، قال بالعلامة أو بالآية التي أخبرنا رسول الله ﷺ أنها تطلع يومئذ لا شعاع لها»[٣].

قال ابن كثير[٤]: «وفي الباب عن معاوية وابن عمر وابن عباس وغيرهم، عن رسول الله ﷺ: أنها ليلة سبع وعشرين».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «دعا عمر بن الخطاب أصحاب محمد ﷺ فسألهم عن ليلة القدر، فأجمعوا على أنها في العشر الأواخر، قال ابن عباس: فقلت لعمر: إني لأعلم أو: إني لأظن، أي ليلة القدر هي، فقال عمر: أي ليلة هي؟ قال: سابعة تمضي – أو سابعة تبقى من العشر الأواخر، فقال عمر: ومن أين علمت ذلك؟، قال ابن عباس، فقلت: خلق الله سبع سموات، وسبع أرضين، وسبع أيام، وإن الشهر يدور على سبع،

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ١٠٧.

(٢) أخرجه البخاري في صلاة التراويح ٢٠٢١، وأبو داود في الصلاة ١٣٨١.

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٧٦٢، والترمذي في الصوم ٧٩٢، وأحمد ٥/ ١٣٠.

(٤) في «تفسيره» ٨/ ٤٦٩.

وخلق الإنسان من سبع، ويأكل من سبع، ويسجد على سبع، والطواف بالبيت سبع، ورمي الجمار سبع، لأشياء ذكرها، فقال عمر: لقد فطنت لأمر ما فطنا له، وكان قتادة يزيد عن ابن عباس في قوله: ويأكل من سبع، قال: هو قول الله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾﴾ [عبس: ٢٧ ـ ٣١]»[١].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ ليخبرنا بليلة القدر فتلاحى رجلان من المسلمين، فقال: «خرجت لأخبركم بليلة القدر، فتلاحى فلان وفلان، فرفعت، وعسى أن يكون خيراً لكم، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة»[٢].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن ليلة القدر فقال رسول الله ﷺ: «في رمضان، فالتمسوها في العشر الأواخر، فإنها في وتر إحدى وعشرين، أو ثلاث وعشرين، أو خمس وعشرين، أو سبع وعشرين، أو آخر ليلة»[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر: «إنها ليلة سابعة أو تاسعة وعشرين، وإن الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى»[٤].

وعن أبي بكرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «في تسع يبقين، أو سبع يبقين، أو خمس يبقين، أو ثلاث، أو آخر ليلة يعني التمسوا ليلة القدر»[٥].

لهذه الأحاديث وغيرها بلغت الأقوال في تحديدها إلى عشرة أقوال عدد ليالي العشر حال تمام الشهر ولا إشكال في أنها في العشر الأواخر من رمضان لاتفاق الأحاديث الصحيحة على ذلك، وأوتارها آكد، وآكدها ليلة إحدى وعشرين، وثلاث وعشرين، وسبع وعشرين، وآكد هذه الثلاث ليلة سبع وعشرين.

ومع صحة الأحاديث في تحديدها في أكثر من ليلة فالأولى التماسها وتحريها في جميع ليالي هذه العشر، إضافة إلى أن من أهل العلم من قال: إن ليلة القدر تنتقل في العشر الأواخر.

---

(١) أخرجه الطبراني فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤٦٩ قال ابن كثير: «وهذا إسناد جيد قوي، وغريب جداً، والله أعلم».

(٢) أخرجه البخاري في صلاة التراويح ٢٠٢٣.

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ٣٢٠.

(٤) أخرجه أحمد ٢/ ٥١٩ وأبو داود الطيالسي، انظر «منحة المعبود» ١/ ٢٠٠، قال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤٧٠: «تفرد به أحمد، وإسناده لا بأس به».

(٥) أخرجه الترمذي في الصوم ـ ما جاء في ليلة القدر ٧٩٤، قال الترمذي «حديث حسن صحيح».

عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان»[١].

وهكذا جاء في حديث عبادة المتقدم: «التمسوها في العشر الأواخر».

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر من رمضان، فقال رسول الله ﷺ «أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر فمن كان متحريها فليتحرها في السبع الأواخر»[٢].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ قلت: أخبرني عن ليلة القدر، أفي رمضان هي أو في غيره؟، قال: «بل هي في رمضان»، قلت: تكون مع الأنبياء ما كانوا، فإذا قبضوا رفعت[٣]؟، أم هي إلى يوم القيامة؟، قال: «بل هي إلى يوم القيامة»، قلت: في أي رمضان هي؟، قال: «التمسوها في العشر الأول، والعشر الأواخر»، ثم حدّث رسول الله ﷺ وحدّث، ثم اهتبلت غفلته قلت: في أي العشرين هي؟، قال: «ابتغوها في العشر الأواخر، لا تسألني عن شيء بعدها»، ثم حدّث رسول الله ﷺ ثم اهتبلت غفلته فقلت: يا رسول الله، أقسمت عليك، بحقي عليك لما أخبرتني في أي العشر هي؟، فغضب عليّ غضباً لم يغضب مثله منذ صحبته، وقال: «التمسوها في السبع الأواخر، لا تسألني عن شيء بعدها»[٤].

ولهذا كان رسول الله ﷺ يجتهد في هذه الليالي العشر ما لا يجتهد في غيرها.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله»[٥].

وفي رواية عنها: «كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر ما لا يجتهد في غيره»[٦].

وعنها رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عز وجل، ثم اعتكف أزواجه من بعده»[٧].

---

(١) اخرجه البخاري في صلاة التراويح ٢٠١٧، ومسلم في الصيام - فضل ليلة القدر ١١٦٩، والترمذي في الصوم ٧٩٢.

(٢) اخرجه البخاري في الباب السابق ٢٠١٥، ومسلم في الباب السابق ١١٦٥.

(٣) اخذ من هذا بعض أهل العلم أن ليلة القدر كانت في الأمم الماضية وجمهور أهل العلم، بل حكي عليه الإجماع أنها من خصائص هذه الأمة، وروي في هذا أن النبي ﷺ أري أعمال أمته، فكأنه تقاصر أعمارهم أن لا يبلغوا من العمل الذي بلغ غيرهم في طول العمل، فأعطاه الله ليلة القدر، خيراً من ألف شهر»، انظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٤٦٦.

(٤) اخرجه أحمد ٥/ ١٧١.

(٥) اخرجه البخاري في الباب السابق ٢٠٢٤، ومسلم في الاعتكاف - الاجتهاد في العشر الأواخر من رمضان ١١٧٤، وأبو داود في الصلاة ١٣٧٦، والترمذي في الصوم ٧٩٦، وابن ماجه في الصيام ١٧٦٨، وأحمد ٦/ ٦٦.

(٦) اخرجها مسلم في الموضع السابق ١١٧٥، والترمذي في الموضع السابق ٧٩٦، وابن ماجه في الموضع السابق.

(٧) اخرجه البخاري في الصوم - الاعتكاف في العشر الأواخر ٢٠٢٦، ومسلم في الاعتكاف - اعتكاف العشر الأواخر =

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: «كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان»[(١)].

وينبغي الحرص على تحري هذه الليلة وقيامها والإكثار فيها من الصلاة وقراءة القرآن والذكر والدعاء، والاستغفار والصدقة والبر والصلة وغير ذلك من أعمال الخير.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، أرأيت إن وافقت ليلة القدر ما أقول؟ قال: «قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني»[(٢)].

الفوائد والعبر:

١- إثبات العظمة لله عز وجل لقوله ﴿ إنا أنزلناه ﴾.

٢- إثبات العلو لله عز وجل لقوله ﴿ أنزلناه ﴾ لأن الإنزال يكون من علو إلى أسفل.

٣- تعظيم القرآن الكريم وأنه معلوم معهود لقوله ﴿ أنزلناه ﴾.

٤- أن القرآن الكريم منزل غير مخلوق لقوله ﴿ أنزلناه ﴾ وهذا ما عليه سلف الأمة وأهل السنة، خلافاً للمعتزلة القائلين بخلق القرآن.

٥- أن ابتداء نزول القرآن في ليلة القدر، في شهر رمضان لقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝﴾ وقوله في سورة البقرة ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [الآية: ١٨٥].

٦- فضل ليلة القدر وعظم شأنها ومكانتها.

٧- الترغيب في قيام هذه الليلة والإكثار من الأعمال الصالحة فيها وأنها خير من ألف شهر، وأنها سلام حتى مطلع الفجر.

٨- تنزل الملائكة والروح في هذه الليلة بإذن ربهم وأمره، وكثرتهم في الأرض، وفضل جبريل عليه السلام وشرفه عليهم.

٩- إثبات ربوبية الله - عز وجل - الخاصة للملائكة عليهم السلام.

١٠- فضل الله عز وجل على هذه الأمة بإعطائهم هذه الليلة المباركة العظيمة التي تعدل عبادتها عبادة ألف شهر، أي عبادة ثلاث وثمانين سنة وأربعة أشهر خالية من هذه الليلة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والمحروم من حرم خير هذه الليلة.

١١- أن هذه الليلة سلام، يقدر فيها الخير والسلامة من الشرور، ومغفرة الذنوب والآثام، وكثرة السلام على المؤمنين من الملائكة ومن بعضهم على بعض.

١٢- أن ليلة القدر تبدأ من غروب الشمس إلى طلوع الفجر الثاني.

=

من رمضان ١١٧٢، وأبو داود في الصوم ٢٤٦٢.

(١) أخرجه البخاري في الباب السابق ٢٠٢٥، ومسلم في الباب السابق ١١٧١، وأبو داود في الصوم ٢٤٦٥، وابن ماجه في الصيام ١٧٧٣.

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥١٣، وابن ماجه في الدعاء - الدعاء بالعفو والعافية ٣٨٥٠، وأحمد ٦/ ١٨٢.

تفسير سورة البينة

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ لأبيّ بن كعب: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قال: وسماني لك؟، قال: «نعم»، فبكى»[1].

وعن مالك بن عمرو بن ثابت الأنصاري قال: «لما نزلت: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إلى آخرها، قال جبريل: يا رسول الله، إن ربك يأمرك أن تقرئها أبياً، فقال النبي ﷺ لأبيّ: «إن جبريل أمرني أن أقرئك هذه السورة»، قال أبيّ: وقد ذكرت ثَمَّ يا رسول الله؟، قال: «نعم»، قال: فبكى أبيّ»[2].

وفي رواية عن أبيّ رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال لي: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن، قال: فقرأ ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال: فقرأ فيها ولو أن ابن آدم سأل وادياً من مال، فأعطيه، لسأل ثانياً، ولو سأل ثانياً، فأعطيه لسأل ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب، وإن ذلك الدين عند الله الحنيفية، غير المشركة، ولا اليهودية، ولا النصرانية، ومن يفعل خيراً فلن يكفره»[3].

والمراد بقوله ﷺ: «أن أقرأ عليك»، أي: قراءة تبليغ وإسماع وتلقين لأبي بن كعب رضي الله عنه، وليس المراد به أن النبي ﷺ يقرأ ليصحح له أبي بن كعب قراءته كما قيل، وقالوا هذا من باب تواضعه ﷺ.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦﴾.

قوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: لم يكن الذين كفروا بالله، أي: جحدوا ربوبيته

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٨٠٩، ومسلم في فضائل الصحابة ـ من فضائل أبي بن كعب ٧٩٩، والترمذي في المناقب – فضل أبي بن كعب رضي الله عنه ٣٧٩٢، وأحمد ٣/ ١٣٠.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٤٨٩.

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ١٢٣، ١٣١ – ١٣٢، والترمذي في المناقب ٣٧٩٣، وقال «حديث حسن».

وألوهيته وأسماءه وصفاته وشرعه وما أمر الله بالإيمان به أو شيئاً من ذلك.

﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ «من» بيانية فيها بيان لاسم الموصول «الذين»، فكل من أهل الكتاب والمشركين كفار، لأنهم كذبوا الرسول ﷺ وما جاءهم به من عند الله، بل إن أهل الكتاب كذبوا رسلهم الذين بشروا به ﷺ.

و ﴿ أهل الكتاب ﴾ هم اليهود والنصارى ﴿ والمشركين ﴾ هم عبدة الأوثان والأصنام.

وكل من أهل الكتاب وعبدة الأوثان والأصنام مشركون، لأن اليهود قالوا: عزير ابن الله، وقال النصارى: المسيح ابن الله، كما قال عز وجل: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣].

وإنما أفرد أهل الكتاب بالذكر عن المشركين لأنهم أوتوا الكتاب، فإذا ذكر المشركون بالإفراد دخل معهم أهل الكتاب وعبدة الأوثان عموماً، لأن الكل مشركون، وإذا قرن بينهما بالذكر فالمراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى خاصة، والمراد بالمشركين عبدة الأوثان والأصنام.

﴿مُنفَكِّينَ﴾ اي: تاركين ما هم عليه من الكفر والشرك، منتهين عن غيهم وضلالهم، ولم يكونوا أيضاً متفرقين في أمر النبي ﷺ، أو لم يكونوا متروكين على ما هم عليه بلا نذر، كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ اي: إلا بعد مجيء البينة، أو حتى إقامة الحجة عليهم بإيتائهم البينة التي فيها بيان الحق من الباطل، كما قال تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ بدل من البينة وتفسير لها، فالبينة: رسول مرسل من عند الله عز وجل وهو محمد ﷺ.

وفي تنكير «رسول» تعظيم له ﷺ فهو ﷺ أفضل الرسل عليهم الصلاة والسلام، وهو سيد ولد آدم ولا فخر، من غير غلو ولا إطراء.

﴿يَتْلُوا﴾ أي: يقرأ ﴿صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ كقوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝﴾ [عبس: ١٣، ١٤] وصحف: جمع صحيفة، وهي الورق والألواح التي فيها القرآن الكريم.

ومعنى ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ أي: مطهرة من الزيادة والنقص والتبديل والتغيير والباطل كما قال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝﴾ [الحجر: ٩].

﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ أي: في هذه الصحف المطهرة مكتوبات وأحكام ﴿ قيمة ﴾ فأخبارها صادقة وأحكامها مستقيمة عادلة، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأحكام، وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝﴾ [النحل: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝﴾ [الأنعام: ١٦١].

﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ كان المؤمل في أهل الكتاب والمشركين أن يتركوا ما هم عليه من الكفر والشرك بعد إتيان البينة إليهم ببعثة محمد ﷺ ونزول القرآن الكريم لكن أهل الكتاب لما جاءتهم البينة تفرقوا فآمن بعض منهم وكفر أكثرهم حسداً منهم وبغياً.

وكانوا يقولون للمشركين من عبدة الأصنام قبل مبعثه ﷺ: لا ننفك عما نحن عليه من ديننا حتى يبعث النبي الموعود الذي هو مكتوب في التوراة والإنجيل، فلما بعث الله محمداً ﷺ من العرب كفروا به وتفرقوا حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق.

قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ۚ﴾ [يونس: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ﴾ [الشورى: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم

مَا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وفي الحديث: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة» قالوا: من هم يا رسول الله؟، قال: «ما أنا عليه وأصحابي»(١).

ونص على أهل الكتاب بالتفرق دون المشركين، لأن أهل الكتاب عندهم علم به لوجوده في كتبهم فتفرقهم عن عناد واستكبار وحسد فالحجة عليهم أقوم وتفرقهم وتكذيبهم أعظم.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟﴾ أي: وما أمر أهل الكتاب في التوراة والإنجيل، وما أمروا هم وجميع الناس في القرآن الكريم ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: إلا بعبادة الله عز وجل.

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: حال كونهم في عبادتهم لله مخلصين له العبادة وحده ﴿حُنَفَآءَ﴾ أي: على الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام أي: مائلين عن الشرك معتدلين على التوحيد والإخلاص لله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٣].

وهذا ما دعا إليه الرسل كلهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

والعبادة لغة: الذل والخضوع، وشرعاً: اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

وتشمل فعل الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات، وكذا فعل المباحات من الأكل والشرب والنوم والترويح عن النفس ونحو ذلك بقصد المحافظة على صحة البدن، والتقوي بذلك على طاعة الله تعالى، فالموفقون ـ كما قال أهل العلم:

---

(١) اخرجه ابو داود في السنة ٤٥٩٦، والترمذي في الإيمان ـ افتراق هذه الأمة ٢٦٤٠، وابن ماجه في الفتن – افتراق الأمة ٣٩٩١ – ٣٩٩٣، واحمد ٢/ ٣٣٢ – من حديث ابي هريرة رضي الله عنه واخرجه احمد ايضا من حديث انس ابن مالك رضي الله عنه ٣/ ١٢٠، ١٤٥.

عاداتهم عبادات، والمخذولون عباداتهم عادات. فانتبه لهذا رعاك الله.

﴿وَيُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُوا ٱلزَّكَوٰةَ﴾ معطوف على قوله ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ من باب عطف الخاص على العام لأن الصلاة أعظم العبادات البدنية، والزكاة أعظم العبادات المالية، وفي الصلاة الإحسان في عبادة الله، وفي الزكاة الإحسان إلى عباد الله.

أي: ويقيموا الصلاة إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها.

والصلاة لغة: الدعاء، كما في قوله تعالى ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ﴾ [التوبة: ١٠٣] أي: ادع لهم.

وشرعاً: التعبد لله عز وجل بأقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم.

﴿وَيُؤۡتُوا ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: ويعطوا الزكاة لمستحقيها من الفقراء والمساكين وغيرهم والتي هي حق الله عز وجل في المال.

والزكاة: لغة النماء والزيادة، سميت بذلك لأنها تزكي المال وتزيده، وتزكي نفس الغني من رذيلة البخل والشح، وتزكي نفس الفقير من الحقد والحسد لإخوانه الأغنياء، وتحميه بإذن الله عز وجل عن البحث عن المال من طرق الحرام كالسرقة ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

والزكاة: شرعاً: نصيب مقدر شرعاً في مال معين، يصرف لطائفة مخصوصة.

﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ الإشارة إلى ما جاء به الرسول ﷺ من القرآن الكريم والأمر بعبادة الله، والإخلاص له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيماً له.

والمعنى: وذلك دين الملة الحنيفية المستقيمة ملة إبراهيم كما قال تعالى ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١﴾ [الأنعام: ١٦١]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ [التوبة: ٣٦].

ودين الأمة المعتدلة الوسط أمة محمد ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ [البقرة: ١٤٣].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾

بعد ما ذكر كفر أهل الكتاب والمشركين وتفرق أهل الكتاب بعد بيان الحق لهم في كتاب الله تعالى، وعلى لسان رسوله محمد ﷺ ذم الفريقين، وبين أن مصيرهم ومآلهم نار جهنم، وسميت نار جهنم لجهمتها وظلمتها وسوادها وبعد قعرها وشدة حرها أعاذنا الله وجميع المسلمين منها.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ﴾ أي مقيمين فيها إقامة أبدية، لأن الصحيح الذي دل عليه القرآن الكريم أن النار لا تفنى، ولا يفنى أهلها، ولا ينتهي عذابهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ قرأ نافع بالهمز (البريئة) وقرأ الباقون بلا همز (البرية) وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيراً لهم، أي: أولئك هم شر الخليقة التي ذرأها وبرأها الباري سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ۝﴾ [الأنفال: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝﴾ [الأنفال: ٥٥].

الفوائد والعبر:

١- إخبار القرآن الكريم بأن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين لم يكونوا منفكين عما هم عليه من الكفر والشرك ومتفرقين حتى تأتيهم البينة.

٢- أن أهل الكتاب كفار، لأنهم لم يؤمنوا بمحمد ﷺ وما جاء به، بل لم يؤمنوا برسلهم الذين بشروا به ﷺ كما أنهم مشركون.

٣- ببعثته ﷺ ظهر الحق، وبان الصبح لذي عينين.

٤- عظم منزلة الرسول ﷺ، وما جاء به من الوحي والشرع القويم لقوله: ﴿رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ۝ فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ ۝﴾.

٥- أن أهل الكتاب لم يتفرقوا حتى بعث النبي ﷺ فآمن بعضهم وكفر أكثرهم حسداً منهم وبغياً.

٦- لم يؤمر أهل الكتاب في التوراة والإنجيل ولا في القرآن هم وغيرهم من الناس إلا بعبادة الله وحده وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة – فأصول الشرائع كلها متفقة.

٧- وجوب إخلاص العبادة لله عز وجل وحده بلا شريك وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن ذلك هو الدين القيم.

٨- عظم منزلة التوحيد، وأنه أساس الإيمان، وعظم منزلة الصلاة فهي أهم العبادات البدنية، وعظم منزلة الزكاة فهي أهم العبادات المالية.

٩- الوعيد الشديد للذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، وأن مآلهم نار جهنم خالدين فيها.

١٠- أن النار لا تفنى ولا يفنى عذاب أهلها.

١١- ذم الكفرة من أهل الكتاب والمشركين وأنهم شر الخليقة وكفى بهذا ذما.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾.

صلة الآيتين بما قبلهما:

بعد ما ذم - عز وجل - الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، وبين أن مصيرهم نار جهنم امتدح الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وبين ما أعد لهم من عظيم الجزاء في جنات عدن.

وهم طبقات أربع كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ۝٧٠﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ اي: صدقوا بقلوبهم وألسنتهم وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم وحذف الموصوف وهو الأعمال، واكتفى بالصفة، وهي «الصالحات» لأن المهم في العمل كونه «صالحاً» يتوفر فيه: الإخلاص لله عز وجل، ومتابعة الرسول ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ اي: اولئك هم خير الخليقة، وأشار إليهم بإشارة البعيد تعظيماً لهم ورفعة لشأنهم، وقد أكد خيريّتهم بعدة مؤكدات: إن، وكون الجملة اسمية، معرفة الطرفين، وضمير الفصل «هم».

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بخير البرية»؟، قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: «رجل آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، كلما كانت هيعة[1] استوى عليه، ألا أخبركم بالذي يليه»؟، قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: «رجل في ثلة من غنمه، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، ألا أخبركم بشر البرية»؟ قالوا: بلى، قال: «الذي يَسأل بالله فلا يُعطى به»[2].

وقد استَدل بهذه الآية من قال بتفضيل المؤمنين على الملائكة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «تعجبون من منزلة الملائكة من الله، والذي نفسي بيده لمنزلة العبد المؤمن عند الله يوم القيامة أعظم من منزلة ملك، واقرؤوا إن

(١) هيعة: اي صوت مفزع ومخيف.
(٢) اخرجه احمد ٢/٣٩٦.

شتم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝﴾ »(١).

﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: ثوابهم وأجرهم عند ربهم يوم القيامة.

وفي قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ إشارة لتكفله عز وجل لهم بذلك، وعظمة جزائهم، لأنه من الرب العظيم الخالق المالك المدبر الجواد الكريم سبحانه وتعالى.

وفي إضافة ضميرهم إلى «الرب» عز وجل تشريف وتكريم لهم، لأن المراد بهذا الربوبية الخاصة.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أي: جنات إقامة أبدية، والجنات هي المساكن العظيمة والمنازل العالية، التي أعدها الله لأوليائه المتقين، والتي تجن وتستر من فيها لكثرة بساتينها، وأشجارها وثمارها وغرفها.

﴿ عدن ﴾ العدن: الإقامة في المكان وعدم النزوح عنه، ومن نعيم أهل الجنة أن كلاً منهم لا يريد التحول عن مكانه وعما هو عليه، لأنه لا يرى أن أحداً أكمل منه، ولا أن هناك مكاناً أو نعيماً أفضل مما هو فيه، لأن الله عز وجل أذهب عنهم الحزن، وأذهب عن قلوبهم الغل، فلا يظعنون منها ولا يرتحلون، ولا يطلبون غاية فوقها، كما قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ۝﴾ [الكهف: ١٠٨]، وقد ضمن الله عز وجل لهم ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ۝﴾ [الحجر: ٤٨]. وقال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ۝﴾ [طه: ٧٦].

وهذا بخلاف حال أهل الدنيا فإن الإنسان لا يكاد يكمل بناء بيته إلا ويرى أنه لو وضع كذا مكان كذا لكان أولى وهكذا، ولا يكاد يستقر في منزل، إلا ويرى أن هناك أحسن منه، سواء رآه من تلقاء نفسه أو زهده فيه أولاده وأهله أو الجار، أو أهل الحي أو غير ذلك لأن الله كتب النقص على الدنيا وأهلها فاقنع فيها بما تيسر، واستعد لما أمامك.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: تجري وتسير من تحت أشجارها وقصورها وغرفها الأنهار، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الزمر: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝﴾ [يونس: ٩].

وهي كما ذكر الله عز وجل ﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

يشربون منها ويتمتعون برؤيتها ويصرفونها حيث شاؤوا بلا أخدود، قال ابن

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٥٤.

القيم[1]:

أنهارها في غير أخدود جرت ... سبحان ممسكها عن الفيضان

من تحتهم تجري كما شاؤوا مفـ ... جرة وما للنهر من نقصان

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي: مقيمين فيها إقامة أبدية لا تحول ولا تزول، لا يموتون ولا يمرضون ولا ييأسون، ولا يحزنون، قال تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ۝﴾ [الحجر: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ۝﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥].

﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بسبب إيمانهم، وأعمالهم الصالحة، ولهذا جازاهم خير الجزاء وأعلى ذلك وأعظمه رضاه عنهم ورؤيتهم لوجهه الكريم.

﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بما أثنى به عليهم من الخيرية بين البرية، وبما أعده لهم من الجزاء العظيم في جنات النعيم، فلا تسأل عن حالهم وقد نزلوا ضيوفاً على أكرم الأكرمين.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟، فيقولون: وما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك، قالوا: يارب، وأي شيء أفضل من ذلك، فيقول: أحل لكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً»[2].

﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ الإشارة للثناء العظيم، والجزاء بجنات النعيم الذي أعده الله لهم، وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيماً له، أي: ذلك الثناء العظيم، والجزاء بجنات النعيم للذي خاف ربه مع هيبة وإجلال وتعظيم له، فاتقاه وآمن وعمل صالحاً، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]، فانتبه أخي لهذا وخذ نصيبك من ربك.

---

(١) انظر «النونية» ص٢٢٩.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٤٩، ومسلم في الإيمان ١٨٣، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٥.

الفوائد والعبر:

١- جمع القرآن بين الترغيب والترهيب.

٢- إثبات أن الإيمان قول وعمل واعتقاد والرد على أهل الإرجاء.

٣- أن من شرط قبول العمل كونه صالحاً، أي: خالصاً لله عز وجل، تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ.

٤- ثناء الله عز وجل وامتداحه للذين آمنوا وعملوا الصالحات بأنهم خير الخليقة، وكفى بهذا شرفاً وفخراً لهم.

٥- عظم ما أعده الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات عنده في جنات عدن من الأنهار وألوان النعيم مع الخلود الأبدي فيها، ورضى الله عنهم ورضاهم عنه.

٦ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة للمؤمنين أهل خشيته ـ عز وجل .

٧- الترغيب في خشية الله عز وجل وأن هذا الأجر العظيم لكل من خشي ربه.

تفسير سورة الزلزلة

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله، أقرئني سورة جامعة، فأقرأه: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾ حتى إذا فرغ منها، قال الرجل: والذي بعثك، لا أزيد عليها أبداً، ثم أدبر الرجل، فقال رسول الله ﷺ: «أفلح الرويجل، أفلح الرويجل»[(١)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه: «هل تزوجت يا فلان؟»، قال: لا، والله يا رسول الله، ولا عندي ما أتزوج به، قال: «أليس معك ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ ؟» قال: بلى، قال: «ثلث القرآن»، قال: «أليس معك ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ ؟» قال: بلى، قال: «ربع القرآن»، قال: «أليس معك ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ ؟»، قال: بلى، قال: «ربع القرآن»، قال: «أليس معك ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ ؟»، قال: بلى، قال: «ربع القرآن تزوج»[(٢)].

وفي رواية عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿ إذا زلزلت ﴾ عُدلت له بنصف القرآن ومن قرأ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ عُدلت له بربع القرآن، ومن قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ عُدلت له بثلث القرآن»[(٣)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿ إذا زلزلت ﴾ تعدل نصف القرآن و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ تعدل ثلث القرآن و ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ تعدل ربع القرآن»[(٤)].

---

(١) اخرجه ابو داود في الصلاة ١٣٩٩، واحمد ٢/١٦٩.

(٢) اخرجه الترمذي في فضائل القرآن ـ ما جاء في سورة الإخلاص ٢٨٩٥، وقال «حديث حسن».

(٣) اخرجه الترمذي في الباب السابق ٢٨٩٣ – وقال «حديث غريب».

(٤) اخرجه الترمذي في فضائل القرآن – ما جاء في سورة الإخلاص، وفي سورة ﴿ إذا زلزلت ﴾ ٢٨٩٤، وقال «حديث غريب».

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾.

قوله: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ «إذا» ظرفية شرطية غير عاملة، أي: إذا حركت الأرض واضطربت وارتجفت وارتجت.

﴿ زلزالها ﴾ أي: تحريكها واضطرابها الشديد العظيم، فاندك ما عليها من بناء وجبال حتى صارت قاعاً صفصفا لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾ [الحج: ١].

﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ اي: اخرجت الأرض ما فيها من الموتى ودفائن الكنوز والأموال، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤﴾ [الانشقاق: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾ [الزمر: ٦٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الاسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل، فيقول: في هذا قتلت، ويجيء القاطع، فيقول: في هذا قَطعت رحمي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قُطعت يدي، ثم يدعونه، فلا يأخذون منه شيئاً»[(١)].

﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ أي: الكافر المنكر للبعث مستنكراً مستغرباً، أو جنس الإنسان يريد دوام الحال ودوام الحال من المحال.

﴿مَا لَهَا﴾ أي: ما الذي حدث لها تزلزلت واضطربت بعد ما كانت ساكنة مستقرة ثابتة، وأخرجت ما في باطنها، كما قال تعالى عن منكري البعث: ﴿قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ۗ هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٢﴾ [يس: ٥٢].

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ اي: في ذلك اليوم تخبر الأرض بما عمل الناس على ظهرها من خير أو شر، وتشهد عليهم.

---

(١) اخرجه مسلم في الزكاة – الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها ١٠١٣، والترمذي في الفتن ٢٢٠٨.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾ قال: «أتدرون ما أخبارها؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، أن تقول: عمل كذا وكذا، يوم كذا وكذا، قال: فهذه أخبارها»[1].

وعن ربيعة الجرشي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تحفظوا من الأرض، فإنها أمكم، وإنه ليس من أحد عامل عليها خيراً أو شراً إلا وهي مخبرة به»[2].

ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ۝٢٩﴾ [الدخان: ٢٩].

وعن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال له: «إني أراك تحب الغنم والبادية، فإذا كنت في غنمك أو باديتك فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة سمعته من رسول الله ﷺ»[3].

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي: بان ربك يا محمد أمرها بأن تتزلزل، وتخرج أثقالها، وتخبر بما عمل عليها من خير أو شر.

وفي إضافة ضميره ﷺ إلى اسم «الرب» تشريف وتكريم له ﷺ، لأن المراد بهذا الربوبية الخاصة لأوليائه عز وجل.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ﴾ اي: يصدرون ويرجعون من موقف الحساب.

﴿أَشْتَاتًا﴾ حال، أي: مختلفين ومتفرقين تفرقاً لا لقاء بعده، ما بين سعيد سالك ذات اليمين إلى الجنة نسأل الله تعالى من فضله، وشقي سالك ذات الشمال إلى النار نسأل الله تعالى السلامة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝٨٥ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ۝٨٦﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦]، وقال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ۝٧﴾ [الشورى: ٧].

﴿لِّيُرَوْا﴾ بضم الياء، أي: ليريهم الله أعمالهم، ويجازوا عليها، خيرها وشرها.

وقرأ بعضهم (لَيَروا) بفتح الياء، أي: ليشاهدوا أعمالهم ويجازوا عليها وذلك بأن

---

(١) اخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤٢٩، وأحمد ٢/ ٣٧٤، وقال الترمذي «حديث حسن غريب».

(٢) اخرجه الطبراني فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤٨١.

(٣) اخرجه البخاري في الأذان - رفع الصوت بالنداء ٦٠٩، والنسائي في الأذان ٦٤٤، وابن ماجه في الأذان والسنة فيه ٧٢٣.

يعطى كل منهم كتاب عمله، فمنهم من يعطى كتابه بيمينه، ومنهم من يعطى كتابه بشماله بعد أن تلوى وراء ظهره، فيقرأ كل منهم كتابه، فيرى أعماله، ويحاسب عليها، قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ الفاء: عاطفة، و«من» شرطية أي: فمن يعمل زنة ذرة من خير، والذرة هي النملة الصغيرة، أو ما يرى في شعاع الشمس من الهباء.

﴿ يره ﴾ جواب الشرط أي: ير عمله وثوابه فيجازى بما عمل من خير مهما قل أو كثر.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ أي: ير عمله وعقابه، فيجازى بما عمل من شر مهما قل أو كثر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ﴾ [النساء: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩]. وهذا لعمر الله منتهى العدل.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الخيل لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر ..» الحديث ـ وفيه: «وسئل رسول الله ﷺ عن الحمر، فقال: «ما أنزل عليّ فيها إلا هذه الآية الجامعة الفاذة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾»[1].

وعن صعصعة بن معاوية رضى الله عنه عم الفرزدق: «أنه أتى النبي ﷺ فقرأ عليه ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ قال: حسبي، لا أبالي أن لا أسمع غيرها»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٦٠، ومسلم في الزكاة ـ إثم مانع الزكاة ٩٨٧، والنسائي في الخيل ٣٥٦٣، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٣٦، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٨٨.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ٥٩.

وهذا في مقام العدل، وأما في مقام الفضل فإن الله يضاعف لمن يشاء ممن عملوا الخير، ويعفو عمّن يشاء ممن عملوا الشر إذا كان ذلك دون الشرك بالله.

وفي قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ ترغيب في عمل الخير وإن كان قليلاً، ولهذا قال ﷺ فيما رواه عدي بن حاتم رضي الله عنه: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة»(١).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يا نساء المؤمنات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فِرسِن شاة»(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لها: «يا عائشة استتري من النار ولو بشق تمرة، فإنها تسد من الجائع مسدها من الشبعان»(٤).

كما أن في قوله ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ تحذيراً من عمل الشر وإن كان قليلاً.

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقول: «يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب فإن لها من الله طالباً»(٥).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه» وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلاً، كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سواداً، وأججوا ناراً، وأنضجوا ما قذفوا فيها»(٦).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال: «لما نزلت: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه قاعد، فبكى حين أنزلت، فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا أبا بكر؟» قال: يبكيني هذه السورة. فقال له رسول الله ﷺ: «لولا

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة ـ اتقوا النار ولو بشق تمرة ١٤١٧، ومسلم في الزكاة ١٠١٦، والنسائي في الزكاة ٢٥٥٢.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٢٦، والترمذي في الأطعمة ١٦٣٣.

(٣) أخرجه البخاري في الهبة ٢٥٦٦، ومسلم في الزكاة - الحث على الصدقة ولو بالقليل ١٠٣، والترمذي في الولاء والهبة ٢١٣٠.

(٤) أخرجه أحمد ٦/ ٧٩.

(٥) أخرجه ابن ماجه في الزهد – ذكر الذنوب ٤٢٤٣، وأحمد ٦/ ١٥١، والدارمي في الرقاق ٢٧٢٦.

(٦) أخرجه أحمد ١/ ٤٠٢ – ٤٠٣.

أنكم تخطئون وتذنبون فيغفر الله لكم لخلق الله أمة يخطئون ويذنبون فيغفر لهم».

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر: «ما رأيت في الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذر الشر، ويدخر الله لك مثاقيل ذر الخير حتى توفاه يوم القيامة»[1].

الفوائد والعبر:

١- شدة أهوال القيامة ففيها تتزلزل الأرض وتضطرب وتخرج أثقالها.

٢- استنكار الإنسان واستغرابه ما حصل للأرض من التزلزل بعد الثبات والاستقرار، وإخراج أثقالها يريد دوام الحال ودوام الحال من المحال.

٣- إخبار الأرض آنذاك بأن الله أوحى لها بالتزلزل وإخراج ما فيها، والإخبار بما عمل عليها من خير أو شر.

٤- تشريف الرسول ﷺ وتكريمه بإضافة ضميره إلى اسم «الرب» عز وجل، لأن المراد بهذا الربوبية الخاصة.

٥- صدور الناس من موقف الحساب متفرقين ليروا أعمالهم وجزاءها فسالك ذات اليمين، وسالك ذات الشمال.

٦- محاسبة الخلائق بالعدل الحقيقي والوزن الدقيق على أعمالهم، من غير زيادة ولا نقصان وهذا في مقام العدل، وأما في مقام الفضل فإن الله يضاعف لمن يشاء ممن عملوا الخير، ويعفو عن من يشاء ممن عملوا الشر، إذا كان ذلك دون الشرك.

٧- إثبات الوزن لأعمال العباد.

٨- وجوب محاسبة النفس محاسبة دقيقة في أداء حقوق الله، وحقوق الخلق وفي القيام فيما يتولى الإنسان من مصالح الأمة، لأن الحساب دقيق والناقد بصير.

٩- الحرص على فعل الخير مهما قل والبعد عن الشر مهما قل.

---

(١) اخرجهما الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٥٦٤.

تفسير سورة العاديات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾﴾.

قوله ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ الواو: حرف قسم وجر، و«العاديات» مقسم به، والمراد بها الخيل تعدو في سبيل الله، والعدو: هو الجري السريع الشديد وقيل: المراد بالعاديات الإبل.

﴿ ضبحاً ﴾ منصوب على المصدرية، أي: يضبحن ضبحاً، أو على الحال، أي: ضابحات.

والضبح: هو صوت نفس الفرس في صدرها يسمع حين تعدو بشدة وقوة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه حكاه «اح، اح»[1]، قال عنترة:

والخيـــل تكـــدح حـــين تضـــ ـــبح في حيـــاض المـــوت ضـــبحاً

﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾ أي: الخيل توري النار عند قرع حوافرها على الأرض الصخرية حين تعدو في سبيل الله لصلابة حوافرها.

﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ أي: الخيل تغير على الأعداء وقت الصباح كما كان رسول الله ﷺ يغير كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه «أن النبي ﷺ كان إذا غزا بنا قوماً لم يكن يغزو بنا حتى يصبح وينظر، فإن سمع أذاناً كف عنهم وإن لم يسمع أذاناً أغار عليهم، قال: فخرجنا إلى خيبر فانتهينا إليهم ليلاً، فلما أصبح ولم يسمع أذاناً ركب..»[2].

﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ﴾ أي: حركن وهيجن في وقت إغارتهن وفي معترك الخيول ووسط المعركة.

﴿ نَقْعًا﴾ أي: غباراً من شدة العدو والكر والفر.

﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ أي: توسطن جميعهن بمن عليهن أرض المعركة وجموع الأعداء.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٥٧٥.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان ـ ما يحقن الأذان من الدماء ٦١٠.

وفي إقسامه عز وجل بالخيل وهي تعدو في سبيل الله، وتضبح أصواتها وتوري النار بقدح حوافرها، وتغير على الأعداء وقت الصباح فتثير الغبار وتتوسط الجموع، في هذا دلالة على أهمية الجهاد في سبيل الله، وعظم مكانته في الإسلام، وعلى أن الخيل من أعظم وسائل الجهاد كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال ﷺ: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الخيل لثلاثة، لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر، فأما الذي له أجر، فرجل ربطها في سبيل الله فأطال طِيَلَها[٢] في مرج أو روضة، فما أصابت في طيلها ذلك في المرج والروضة كان له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفاً أو شرفين[٣] كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه، ولم يرد أن يسقي به كان ذلك حسنات له، وهي لذلك الرجل أجر، ورجل ربطها تغنياً وتعففاً، ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها، فهي له ستر، ورجل ربطها فخراً ورئاءً ونواءً[٤] فهي على ذلك وزر» فسئل رسول الله ﷺ عن الحمر فقال: «ما أنزل الله فيها شيئاً إلا هذه الآية الفاذة الجامعة ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝﴾»[٥].

والناظر في أحوال الناس اليوم يرى أن كثيراً ممن يقتنون الخيول يقتنونها للرياء والمفاخرة.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾

هذا هو المقسم عليه فأقسم الله عز وجل بالخيل حين تعدو وتغير في سبيل الله على ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ أي: إن الإنسان ﴿لربه﴾ خالقه ومالكه ومدبره «الكنود» أي: لجحود كفور، والمراد بالإنسان جنس الإنسان من حيث هو، ومعنى الآية يحتمل الجحود والكفر المخرج من الملة، ويحتمل كفر النعم، التي قل من يشكرها كما قال

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٥٠، ومسلم في الإمارة ١٨٧٣، والنسائي في الخيل ٣٥٧٥، والترمذي في الجهاد ١٦٩٤، وابن ماجه في التجارات ٢٣٠٥ - من حديث عروة بن الجعد رضي الله عنه.

(٢) الطِيَل: رباط الفرس، أي: جعل رباطها طويلاً بحيث تدور وترعى فيما حولها.

(٣) قال في «النهاية» مادة «سنن»: «استن شرفاً أو شرفين»: استن الفرس يستن إستناناً، أي: عدا لمرحه ونشاطه شوطاً أو شوطين، ولا راكب عليه».

(٤) أي: مناوأة ومعاداة.

(٥) أخرجه البخاري في المساقاة ٢٣٧١، ومسلم في الزكاة ٩٨٧، والنسائي في الخيل ٣٥٦٣، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٣٦، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٨٨.

تعالى ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ۝﴾ [سبأ: ١٣].

﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ أي: وإن الله عز وجل ﴿ على ذلك ﴾ أي: على ما يحصل من الإنسان من الكفر والجحود لنعم الله ﴿ لشهيد ﴾ أي: شاهد مطلع لأنه عز وجل لا تخفى عليه خافية من أعمال العباد كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ۝﴾ [يونس: ٤٦].

ويحتمل عود الضمير في قوله ﴿ وإنه ﴾ إلى الإنسان، أي: وإن الإنسان على كفره وجحوده لشهيد يشهد على نفسه بلسان حاله، لظهور ذلك عليه في أقواله وأفعاله وعلى جوارحه، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝﴾ [النور: ٢٤].

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ هذا يقوي أن الضمير في قوله ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝﴾ يعود إلى الإنسان.

﴿ وإنه ﴾ أي الإنسان ﴿ لحب الخير ﴾ أي: لحب المال، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾ [البقرة: ١٨٠]، أي: إن ترك مالاً.

﴿ لشديد ﴾ أي: شديد المحبة للمال، حريص عليه، بخيل به ممسك له.

قال طرفة:

أرى الموت يعتام الكرام ويعتلي ... عقيلـة مـال الفـاحش المتشـدد

﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ الهمزة للاستفهام، ومعناه التحضيض.

أي: أفلا يعلم الإنسان ﴿ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾ أي: بعث الذي في القبور من الأموات ونشر للحساب والجزاء.

﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أي: مُيِّز وجمع الذي في الصدور من الأسرار والمكنونات، وابرز واظهر، خيراً كان أو شراً، فصار السر علانية والباطن ظاهراً كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝﴾ [الطارق: ٩].

فصار الجسم بارزاً على الأرض والسر بادياً على الوجه كما قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الرحمن: ٤١]، وقال تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝﴾ [القلم: ١٦].

فياخيبة قلوب حصيلتها الكفر والتكذيب والنفاق، ووأسفا على قلوب مليئة بالضغائن والأحقاد وسوء الظن والحسد للعباد.

﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿لَّخَبِيرٌ﴾ الخبير: المطلع على بواطن الأمور ودقائقها، وخفياتها، وهو عز وجل مطلع من باب أولى على ظواهر الأمور وجلائلها وجلياتها.

وفي إضافة اسم «الرب» - عز وجل - إلى ضميرهم في قوله ﴿ إن ربهم ﴾ إشارة إلى كمال وتمام خبرته عز وجل بهم، لأنه ﴿ ربهم ﴾ خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

وهو سبحانه وتعالى خبير بالعباد في جميع الأوقات والأماكن والأحوال في الدنيا والآخرة، لا تخفى عليه منهم خافية، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: ١٩].

وإنما قال عز وجل في الآية ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ فخص خبره بهم في ذلك اليوم مع أنه خبير بهم في كل وقت لظهور تمام وكمال خبرته عز وجل في ذلك اليوم عندما تعرض على الخلق أعمالهم كمثاقيل الذر لمجازاتهم عليها كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

وفي قوله ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ وعد ووعيد، وعد لمن آمن وعمل صالحاً، ووعيد لمن كفر بالله وجحد نعمه.

الفوائد والعبر:

١- إقسام الله - عز وجل - بالخيل حال عدوها في سبيل الله، وضبحها وقدح حوافرها، وإغارتها صباحاً، وإثارتها للغبار وسط المعركة - ولله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته.

٢- عظم مكانة الجهاد في الإسلام، وفضل الخيل وأهميتها في الجهاد.

٣- استحباب الإغارة على الأعداء في الجهاد صباحاً.

٤ - إثبات ربوبية الله - عز وجل - العامة لجميع الخلق.

٥ - جحود الإنسان وكفره بربه وبنعمه.

٦- وجوب الإيمان بالله، والاعتراف بنعمه - عز وجل - وشكرها والحذر من جحودها وكفرها.

٧- أن الإنسان شهيد بلسان مقاله أو حاله على كفره بربه وجحوده لنعمه، والله مطلع عليه وهو خير الشاهدين.

٨- أن الإنسان مجبول على حب المال فينبغي الحذر من الانسياق وراءه ونسيان الآخرة.

٩- إثبات البعث والحساب وإخراج ما في القبور من الأموات والكنوز، وما في الصدور من المكنونات.

١٠- وجوب العمل على إصلاح القلوب وسلامة الصدور قبل أن تفتضح بإظهار ما فيها من الفساد وسوء الاعتقاد والضغائن.

١١- ظهور كمال علم الله عز وجل ودقيق خبرته للخلائق إذا أخرج ما في القبور من الأموات والدفائن، وجمع وأظهر ما في الصدور من المعتقدات والمكنونات والضغائن.

تفسير سورة القارعة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾.

قوله ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ أي: القيامة، وسميت القيامة بالقارعة لأنها تقرع القلوب بأهوالها، وتفزع الناس وتزعجهم بشدائدها كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ۝٨٧﴾ [النمل: ٨٧].

﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ «ما» للاستفهام ومعناه التعظيم والتفخيم لأمرها.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ تعظيم لأمرها بعد تعظيم، أي: وما أعلمك ما القارعة، أمرها عظيم، وهولها جسيم، وعذابها شديد، وخبرها أكيد.

﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ هذا وما بعده تفسير للقارعة، فيه بيان شيء من أهوالها وأحوالها، أي: يوم يكون الناس من شدة الهول والفزع والتفرق والانتشار والحيرة والذهول ﴿كَٱلْفَرَاشِ﴾ الفراش: جمع فراشة، وهي الحيوانات الصغيرة الطائرة، التي يموج بعضها في بعض لا تدري أين تذهب، وتتهافت في الليل على الأنوار والمصابيح وعلى النار لضعف إدراكها، وسميت بالفراش، لافتراشها وانتشارها.

﴿ٱلْمَبْثُوثِ﴾ المتفرق المنتشر، والذي يتطاير هنا وهناك، كما قال تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧﴾ [القمر: ٧].

فتأمل أخي المسلم حال الناس وضعفهم في ذلك الموقف وحيرتهم وذهولهم، وهم أهل العقول والأذهان وتأمل حالك بينهم.

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ أي: وتكون الجبال الصم الصلاب الراسيات كالصوف المنفوش المبعثر الذي لخفته وتمزقه تطير به أدنى ريح، فالجبال في ذلك اليوم في سرعة سيرها وخفتها وتفتتها، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾ [الواقعة: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١٠٧].

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾ الآيات. بعد أن ذكر

عز وجل بعض أهوال القيامة، وحال الناس فيها، ذكر انقسام الناس فيها إلى قسمين حسب أعمالهم:

قوله: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ﴾ الفاء: استئنافية، و«أما» حرف شرط وتفصيل و«من» موصولة.

أي: فأما الذي ثقلت موازين أعماله الصالحة ورجحت حسناته على سيئاته ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي: في عيشة كريمة في الجنة يرضاها لنفسه كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠].

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ﴾ فرجحت سيئاته على حسناته، بأن طاشت موازين أعماله الصالحة، فرجحت سيئاته على حسناته أو لم تكن له حسنات أصلاً كالكافر.

﴿فَأُمُّهُۥ﴾ أي: فمرجعه ومصيره ومأواه الذي يأوي إليه لا مأوى له سواه.

﴿هَاوِيَةٌ﴾ أي: نار عمقها شديد، وقعرها بعيد، يهوي المعذب فيها على أم رأسه في دركاتها لا يكاد يدرك قعرها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبة، فقال النبي ﷺ: «تدرون ما هذا»؟، قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «هذا حجر رُمي به في النار منذ سبعين خريفاً، فهو يهوي في النار، الآن حتى انتهى إلى قعرها»[(١)].

وقال ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب»[(٢)].

وفي رواية: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى أن تبلغ ما بلغت يهوي بها سبعين خريفاً في النار»[(٣)].

وعن الأشعث بن عبد الله الأعمى، قال: «إذا مات المؤمن ذهب بروحه إلى أرواح المؤمنين، فيقولون: رَوِّحوا أخاكم، فإنه كان في غم الدنيا، قال: ويسألونه، ما فعل فلان؟، فيقول: مات، أوما جاءكم؟، فيقولون: ذهبوا به إلى أمه الهاوية»[(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٤٤.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٧٧، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٨٨ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣١٤، وابن ماجه في الفتن ٣٩٧٠، وأحمد ٢/ ٢٩٧، ٣٣٤، ٣٥٥ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وقال الترمذي «حسن غريب».

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٥٩٦.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ﴾ تعظيم لأمرها وهولها وخطرها. أي: وما أعلمك ما هي (والهاء) للسكت.

﴿نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾ أي: هي نار شديدة الحرارة لقوة لهبها وسعيرها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ناركم التي توقدون عليها جزء من سبعين جزءا من نار جهنم»، قالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية؟، فقال: «إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً، كلهن مثل حرها»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب أكل بعضي بعضا، فائذن لي بنفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون في الشتاء من بردها، وأشد ما تجدون في الصيف من حرها»[2].

الفوائد والعبر:

١- شدة أهوال القيامة وأنها تقرع القلوب بأهوالها، وأن أمرها عظيم وخطبها جسيم.

٢- اضطراب الناس في ذلك اليوم وتفرقهم وحيرتهم لما يشاهدون من أهوال القيامة، وخوفاً من عذاب الله تعالى.

٣- تغير أحوال الجبال الراسيات مع عظمتها من أهوال ذلك اليوم وكونها في الخفة كالصوف المنفوش تمهيداً لدكها ونسفها.

٤- انقسام الناس في ذلك اليوم إلى فريقين: فريق ثقلت موازين حسناتهم فهم في عيشة راضية في الجنة، وفريق خفت موازين حسناتهم فمآلهم النار الحامية.

٥- إثبات وزن الأعمال، والعدل بين الناس في حسابهم ومجازاتهم على قدر أعمالهم.

٦- الترغيب في الاستزادة من الحسنات، والترهيب من كثرة السيئات.

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ـ صفة النار وأنها مخلوقة ٣٢٦٥، ومسلم في الجنة ـ شدة حر نار جهنم ٢٨٤٣، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٨٩، وأحمد ٢/ ٢٤٤، ٤٦٧.

(٢) أخرجه البخاري في الباب السابق ٣٢٦٠، ومسلم في المساجد ٦١٧، وأبو داود في الصلاة ٤٠٢، والترمذي في صفة جهنم ٢٥٩٢، وابن ماجه في الصلاة ٦٧٨.

تفسير سورة التكاثر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾.

قال ابن القيم[1]: «أخلصت هذه السورة الموعد والوعيد والتهديد، وكفى بها موعظة لمن عقلها».

قوله: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ خطاب لكل من اتصف بهذا الوصف من جميع الناس فكل من ألهاه التكاثر من المسلمين وغيرهم فهو داخل تحت هذا الخطاب.

أي: شغلكم وأذهلكم التكاثر عن طاعة الله عز وجل وعبادته، وعن المقصود من خلقكم، وهو عبادة الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

والتكاثر: تفاعل من الكثرة، أي: ألهاكم مكاثرة بعضكم لبعض، أي: طلب كل واحد منكم أن يكون أكثر من الآخر بالمال والولد وغير ذلك كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

وحذف متعلق التكاثر ليشمل كل ما يتكاثر به سوى طاعة الله تعالى من الأموال والأولاد والأنصار والجنود والعدد والعدة والعتاد وغير ذلك، كما قال تعالى عن صاحب الجنة أنه قال لصاحبه ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤].

قال ابن القيم[1]: «فالتكاثر في كل شيء من مال أو جاه أو رياسة أو نسوة أو حديث أو علم ولاسيما إذا لم يحتج إليه، والتكاثر في الكتب والتصانيف وكثرة المسائل وتفريعها وتوليدها، والتكاثر أن يطلب الرجل أن يكون أكثر من غيره، وهذا مذموم إلا فيما يقرب إلى الله، فالتكاثر فيه منافسة في الخيرات ومنافسة إليها».

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٣٠٧ - ٣٠٨.

وإذا كانت المكاثرة فيما يتقرب به إلى الله تعالى كالعلم ونحوه لأجل المكاثرة نفسها والرياء والسمعة والمفاخرة فإن هذا أشد خطراً وأعظم ضرراً.

﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ أي: إلى غاية أن متم ودفنتم في المقابر، وكلما شاب الإنسان ازداد حبه للمال والمكاثرة به.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ دخل على رجل من الأعراب يزوره، فقال: «لا بأس طهور إن شاء الله»، فقال: قلت: طهور؟، بل هي حمى تفور، على شيخ كبير، تزيره القبور، قال: «فنعم إذاً»[١].

وعن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: «﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾» يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يقول العبد: مالي مالي، وإنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدق فاقتنى، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس»[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يشيب ابن آدم وتبقى معه اثنتان حب الدنيا وطول الأمل»[٤].

وفي حديث أنس «ويبقى معه اثنتان حب المال وطول العمر»[٥].

وفي رواية: «يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان: الحرص والأمل»[٦].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان ويبقى واحد؛ يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله ويبقى عمله»[٧].

وعن أنس بن مالك عن أبي بن كعب رضي الله عنهما قال: «كنا نرى أن هذا الحديث من القرآن «لو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى وادياً ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٤٧٠، وأحمد ٣/ ٢٥٠.
(٢) أخرجه مسلم في الزهد ٢٩٥٨، والترمذي في تفسير سورة ألهاكم التكاثر ٣٣٥٤، وأحمد ٤/ ٢٤.
(٣) أخرجه مسلم في الزهد ٢٩٥٩، وأحمد ٢/ ٣٦٨، ٤١٢.
(٤) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٢٠.
(٥) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٢١، ومسلم في الزكاة ١٠٤٧، والترمذي في الزهد ٢٣٣٩، وابن ماجه في الزهد ٤٢٣٤.
(٦) أخرجها أحمد ٣/ ١١٥.
(٧) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥١٤، ومسلم في الزهد ٢٩٦٠.

التراب، ويتوب الله على من تاب» حتى نزلت هذه السورة ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ إلى آخرها»[(١)].

عن ميمون بن مهران قال: «كنت جالساً عند عمر بن عبد العزيز فقرأ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ فلبث هنيهة، فقال: يا ميمون، ما أرى المقابر إلا زيارة، وما للزائر بد من أن يرجع إلى منزله، أي: من جنة أو نار».

ورُوِيَ أن بعض الأعراب سمع رجلاً يتلو هذه الآية ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ فقال: «بعث القوم ورب الكعبة، أي: أن الزائر سيرحل من مقامه ذلك إلى غيره»[(٢)].

فالمكث في القبور وإن طال هو مجرد زيارة، والمصير والمآل إلى دار القرار، إما في الجنة، وإما في النار.

وبهذا يعلم خطأ ما يكتب في الصحف والجرائد والمجلات وغيرها عن المتوفى من قولهم «انتقل إلى مثواه الأخير» فإن المكث في القبور مجرد زيارة وإنما المثوى الأخير في الآخرة إما في الجنة وإما في النار.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ردع وزجر ووعيد وتهديد وإنذار وتخويف، أي: كلا سوف تعلمون في المستقبل.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ توكيد للردع والوعيد، كقوله تعالى في سورة النبأ ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾ [الآيتان: ٤، ٥]

أي: سوف تعلمون عاقبة أمركم وأن التكاثر لا ينفعكم.

وقيل: ليس هذا من التأكيد، بل العلم الأول في القبر، والثاني في الآخرة.

وقيل: العلم الأول عند المعاينة والثاني عند البعث، وقيل: العلم الأول عند المعاينة ونزول الموت، والعلم الثاني في القبر واستدل ابن القيم لصحة هذا القول من عدة أوجه قال[(٣)]: «أحدها: أن الفائدة الجديدة والتأسيس هو الأصل وقد أمكن اعتباره مع فخامة المعنى وجلالته، وعدم الإخلال بالفصاحة، الثاني: توسط «ثم» بين العِلمين، وهي مؤذنة بتراخي ما بين المرتبتين، زماناً وخطراً، الثالث: أن هذا القول مطابق للواقع، فإن المحتضر يعلم عند المعاينة حقيقة ما كان عليه، ثم يعلم في القبر وما بعده ذلك علماً يقيناً هو فوق

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٤٠، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٥٩٩.

(٢) انظر «تفسير ابن أبي حاتم» ١٠/ ٣٤٥٩ – ٣٥٦٠.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٣٠٩ – ٣١٢.

العلم الأول، الرابع: أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره من السلف فهموا من الآية عذاب القبر، الخامس: أن هذا مطابق لما بعده، من قوله ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ فهذه الرؤية الثانية غير الأولى من وجهين: إطلاق الأولى، وتقييد الثانية بعين اليقين وتقدم الأولى وتراخي الثانية عنها».

والآية محتملة كل ما ذكر والله أعلم.

﴿كَلَّا﴾ كما سبق للردع والزجر والتهديد.

﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: لو تعلمون علم اليقين في الحال.

أي: العلم اليقيني الذي يحملكم على العمل، ولا يتخلف موجبه غالباً، فلو علمتم ذلك علماً يقينياً لما ألهاكم شيء عن موجبه وهو تقديم طاعة الله تعالى على كل شيء، ومن هذا قول حسان بن ثابت رضي الله عنه في أهل بدر:

سـرنا وسـاروا إلى بـدر لحتفهم ... لـو يعلمـون يقـين العلـم مـا سـاروا

﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ اللام واقعة في جواب قسم مقدر، أي: والله «لترون الجحيم» قرأ ابن عامر والكسائي بضم التاء، وقرأ الباقون بفتحها.

وهذا تفسير للوعيد المتقدم في قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وأبهم المتوعد به أولاً وكرره، ثم أظهره هنا تفخيماً وتعظيماً للأمر، وتغليظاً في التهديد والوعيد، وزيادة في التهويل.

واللام في قوله ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ لام قسم محذوف لتوكيد الوعيد، والتقدير: والله لترون الجحيم، أي: لتشاهدنها بأبصاركم.

قال ابن تيمية[1] : «والخبر محذوف، أي: لكان الأمر فوق الوصف، ولعلمتم أمراً عظيماً، ولألهاكم عن التهاكم، فإن الالتهاء بالتكاثر إنما وقع من الغفلة وعدم اليقين كما قال تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَـٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:١٤٦].

ومثل قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»[2].

وحذف جواب «لو» كثير في القرآن تعظيماً وتفخيماً، فإنه أعظم من أن يوصف أو يتصور بسماع لفظ، إذ المخبر ليس كالمعاين».

---

(١) انظر «دقائق التفسير» ٦/ ٣٠٦.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٦٢١، ومسلم في الفضائل ٢٣٥٩، من حديث أنس رضي الله عنه.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: نفس اليقين، معاينة بعيونكم ومشاهدة بأبصاركم، كما قال تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى بالنار يوم القيامة تقاد بسبعين ألف زمام بكل زمام سبعون ألف ملك يجرونها...» الحديث[١]

وليس الخبر كالمعاينة ـ كما قال ﷺ [٢]، ولهذا قال إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وهو عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام عنده العلم اليقيني بقدرة الله عز وجل على إحياء الموتى لكنه أراد زيادة اليقين والاطمئنان القلبي باجتماع عين اليقين إلى علم اليقين، ولهذا قال نبينا ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم»[٣] يعني أن إبراهيم عليه السلام لم يشك ولو شك لكنا أولى بالشك منه.

﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ ثم: عاطفة، واللام موطئة للقسم، والتقدير: ثم والله لتسألن.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة بعد زيارتكم المقابر، والخطاب لجميع الناس فالمؤمن يسأل سؤال تذكير، والكافر يسأل سؤال توبيخ وتقريع.

﴿عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: عن كل ما أنعم الله به عليكم، مما تتنعمون به في هذه الدنيا من اللذات ورغد وطيب العيش ولينه، من المآكل والمشارب والمساكن والمراكب والفرش والملابس، ومن الأمن في الأوطان والصحة في الأبدان، كما قال ﷺ: «من أصبح منكم آمناً في سربه معافى في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»[٤].

يُسألون عن كل ما هم فيه من النعيم، من أين اكتسبوه، وفيم صرفوه وبذلوه، وهل شكروا الله تعالى عليه، واستعانوا به على طاعته أم جحدوه وكفروه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: «ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟» قالا: الجوع يا رسول

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٤٢، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٧٣.
(٢) أخرجه أحمد ١ / ٢١٥، ٢٧١ ـ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما.
(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٣٧٢، ومسلم في الإيمان ١٥١ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.
(٤) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٤٦، وابن ماجه في الزهد ٤١٤١ ـ من حديث سلمة بن عبد الله بن محصن الأنصاري عن أبيه وقال الترمذي «حسن غريب».

الله، قال: «والذي نفسي بيده لا أخرجني إلا الذي أخرجكما، قوموا»، فقاموا معه، فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحباً وأهلاً فقال لها رسول الله ﷺ: «أين فلان»؟، قالت: ذهب يستعذب لنا ماء، إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله ما أجد اليوم أكرم أضيافاً مني، قال: فانطلق فجاء بعذق فيه بسر وتمر ورطب، فقال: كلوا من هذه، وأخذ المدية، فقال رسول الله ﷺ: «إياك والحلوب» فذبح لهم فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العذق، وشربوا، فلما شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم»[(١)].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به»[(٢)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ»[(٣)].

وعن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: «لما نزلت ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ قال الزبير: يا رسول الله، فأي النعيم نسأل عنه، وإنما هو الأسودان: التمر والماء؟، قال أما إنه سيكون»[(٤)].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه نحوه، وقال: «إنما هو الأسودان، وسيوفنا على عواتقنا، فقال: «إن ذلك سيكون»[(٥)].

أي: إن النعيم سيكون ويحدث لكم، أو إن السؤال يقع على ذلك وإن كان تمراً وماءً فإنه من النعيم.

فتأمل أخي الكريم هذه النصوص واعلم أن الله عز وجل لم يكلفنا شططا، بل أمرنا بالتوسط في جميع أحوالنا وأمورنا، كما قال الله عز وجل ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ

---

(١) أخرجه مسلم في الأشربة ٢٠٣٨ وابن ماجه في الذبائح ٣١٨١.
(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤١٦. وأخرج الترمذي أيضاً نحوه من حديث أبي برزة رضي الله عنه.
(٣) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤١٢، وابن ماجه في الزهد ٤١٧٠، وأحمد ١/٢٥٨، ٣٤٤.
(٤) أخرجه الترمذي في التفسير ٣٣٥٦ وقال «حديث غريب».
(٥) أخرجه الترمذي في التفسير ٣٣٥٧.

﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقال تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

وقال ﷺ: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير سرف ولا مخيلة»[(١)].

واعلم أيضاً أن الدنيا والآخرة أشبه بالضرتين فمن مال إلى إحداهما أضر بالأخرى لا محالة وقد قال ﷺ: «والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم»[(٢)].

والمراد بالهلاك في قوله ﷺ: «فتهلككم» الهلاك الحقيقي، وهو نسيان لقاء الله والدار الآخرة، وهو الخسارة الكبرى والمصيبة العظمى، وذلك لعظم فتنة المال، فهو سبب للإخلال بالواجبات، والتي من أعظمها الصلاة فيحمل على الانشغال عنها وتأخيرها ونسيانها، وعدم حضور القلب، فيها كما يحمل صاحبه على التكبر والطغيان كما قال عز وجل: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧].

وقد يحمل صاحبه على الجراة على التعامل المحرم، ومنع الواجب إضافة إلى ما يسببه من صدمات وأمراض نفسية وبدنية وفقدان للسعادة، فإن صاحب المال في تعب في النهار، وقلق وتفكير في الليل، حتى إنه وجد من نسي أولاده وأهله وأقاربه بسبب ذلك، فالانهماك في طلب المال والدنيا سبب للتقصير في حقوق الخالق وفي حقوق الخلق، والشقاء في الدنيا والآخرة، بل وصل سوء الحال ببعض من فتنوا بالدنيا وجمع المال أن يتمنى أولادهم موتهم في حياتهم ليتقاسموا ذلك المال فبئس الحال والمآل.

واعلم أن للتكاثر صوراً كثيرة منها بل من أعظمها واظهرها أن يسعى الإنسان جاهداً ليكون أكثر من غيره وأفضل في ماله وولده ومنصبه وجاهه ومسكنه ومركبه وغير ذلك من أمور الدنيا مباهاة ومفاخرة، ومنافسة في زخرف الدنيا وحطامها الفاني.

ومنها أن يكون هم الإنسان وشغله الشاغل وتفكيره في يقظته ومنامه زيادة رصيده في البنك، فتراه يلهث طول يومه لتحقيق ذلك بشتى الوسائل، وربما وقع في المتشابه أو

---

(١) أخرجه ابن ماجه في اللباس ٣٦٠٥، وأحمد ٢/ ١٨١ - من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه، وذكره البخاري معلقاً في اللباس - باب قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ انظر «فتح الباري» ١٠/ ٢٥٢.

(٢) أخرجه البخاري في الجزية ٣١٥٨، ومسلم في الزهد ٢٩٦١، والترمذي في صفة القيامة والرقائق ٢٤٦٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٩٧، من حديث عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه.

المحرم من أجل ذلك ومن تأمل أحوال الناس رأى هذا عياناً.

ومنها أن يكون همّ الإنسان التمتع بأكبر قدر من متع الدنيا ولذائذها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمراكب وغير ذلك ـ كأنه خلق لهذا ـ فتجده يسعى جاهداً في اختيار أنواع الأكلات، والتفنن في أشكال الطبخات والمشويات ونحو ذلك، نظرية من يعيش ليأكل، لا من يأكل ليعيش، وقد قال ﷺ: «ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه»[(١)].

قال أبو الفتح البستي:

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته ... لتطلب الربح فيما فيه خسران

أقبل على النفس فاستكمل فضائلها ... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

وتجد من هذا همه ومبلغ علمه يسعى جاهداً في تشييد المباني وزخرفتها وبناء الاستراحات والمتنزهات في هذا العمر الزهيد، وكأنه سيخلد في الدنيا أو سيعمر فيها عمر نوح عليه السلام.

وقد كان الناس في الأمس القريب يسكنون بيوتاً شعبية متواضعة صغيرة جداً من الطين ثم انتقلوا إلى بيوت من الحجر أكبر منها، ثم انتقلوا إلى الفلل والعمائر ذات الأدوار، ثم جاء عصر الاستراحات وما أدري ماذا سيكون بعد ذلك، وقد قال ﷺ: «يؤجر الرجل في نفقته كلها إلا في التراب والبناء»[(٢)].

ويعلم الله كم خسرنا في هذا من الأموال، بل وكم أضعنا فيها من الأوقات وكم فرطنا بسببها في الواجبات وكل ذلك على حساب ديننا والله المستعان.

وإن العاقل اللبيب المنصف الذي يقدر قيمة الحياة ومكانة الآخرة ويعرف حقارة الدنيا يدرك الفرق بين صلاة يؤديها مع الإمام وجماعته في مسجد الحي الذي يقيم فيه أو في غيره من المساجد من حيث إقامتها بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها، والأذكار والسنن قبلها وبعدها، وبين صلاة يؤديها في الاستراحة إما منفرداً أو مع واحد أو اثنين أو اكثر لا يقيم كثيراً مما شرع فيها أو قبلها أو بعدها كما هو الواقع، ولا جدال في هذا.

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٨٠، وابن ماجه في الأطعمة ٣٣٤٩ – من حديث المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤٨٣ – من حديث حارثة بن مضرّب ـ رضي الله عنه ـ وقال: «حديث حسن صحيح».

فكم قصرنا في حق الله عز وجل، وفي حق الوالدين والأزواج والأولاد والأقارب والجيران، بسبب تضييع كثير من الأوقات في هذه الاستراحات والمتنزهات إضافة إلى ما يحصل في هذه التجمعات في هذه الاستراحات من القيل والقال والغيبة والنميمة وتزجية الأوقات التي هي حياة الإنسان، وهي أغلى وأهم وأوجب ما ينبغي حفظه واستغلاله بما فيه السعادة حقاً في الدنيا والآخرة كما قال الشاعر:

والوقت أنفس ما عنيت بحفظه وأراه أسهل ما عليك يضيع

وتجد أيضاً من كان همه التمتع بأكبر قدر من متع الدنيا يسعى دائماً لتأمين الكماليات ومتابعة الموديلات والموضات في السيارات والملابس والأثاث وغير ذلك.

وقد نام ﷺ على حصير فأثر في جنبه صلوات الله وسلامه عليه فقال له أصحابه رضي الله عنهم: لو اتخذنا لك وطاءً فقال ﷺ: «ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»(١).

وتجد أيضاً من كان هذا همه مشغوفاً بالأسفار والتنقلات هنا وهناك بل ربما سافر إلى بلاد الكفار، ترويحاً عن النفس كما يقولون وبحثاً عن السعادة كما يزعمون.

فإهدار للأموال وتضييع للأعمار، وتعرض للأخطار، واقتراف للأوزار نسأل الله تعالى إصلاح الأحوال.

فكن أخي الكريم من الدنيا على وجل، واعبرها ولا تعمرها عمارة المقيم، واستعد لما أمامك، ولا تنس نصيبك من الدنيا، قال الله عز وجل ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [القصص: ٧٧].

واعلم بارك الله فيك أنك لا تلام على كفاف، كما قال ﷺ(٢).

فخذ نصيبك من الدنيا زاداً وبلغة، وكن خائفاً من فتنتها أشد من خوفك من الفقر، عسى أن تسلم من فتنتها وما إخالك سالما.

واحرص على شكر نعم الله عز وجل باستعمالها في طاعته ومرضاته والاعتراف له بها ظاهراً وباطناً، وعدم الإسراف والمباهاة والمفاخرة فيها، فإن الفضل لله عز وجل ولا

---

(١) اخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٧٧، وابن ماجه في الزهد ٤١٠٩ ـ من حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٢) اخرجه مسلم في الزكاة ١٠٣٦ من حديث ابي أمامة رضي الله عنه.

يجوز تقليد الآخرين، ومجاراتهم في البذخ والإسراف في الولائم، بل ولا في الحياة اليومية إرضاءً للسفهاء، فإن من التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس كما جاء في الحديث[1].

والعجيب أن بعض الناس إذا قدّم الطعام لضيوفه قال لهم معتذراً: هذا ليس حقكم، أو ليس قدركم، ونحو ذلك، بمعنى: أن حقكم علينا أكبر من هذا، وهذا لا يجوز لما فيه من ازدراء النعمة وانتقاصها، بل ينبغي أن يقدم لهم ما تيسر، ويحمد الله على ذلك.

واحذر أخي الكريم من إهانة النعم، واقتصد فيها، واعلم أن هناك الملايين من المسلمين يموتون جوعاً، وهم في أمس الحاجة إلى الطعام وغيره من متطلبات الحياة، فتصدق عليهم بما زاد عندك، وخذ نفسك وأهلك بالمحاسبة، ومعرفة قدر نعم الله عليك، واعلم أن الفخر كل الفخر، والكرم كل الكرم بتقوى الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

واحرص على الحفاظ على ما يتبقى من فضول الطعام وغيره واحترامه بإعطائه المحتاجين أو الجهات الخيرية التي توصله إليهم، فإن كان باقي الطعام لا يصلح للإنسان أكله فليعط للحيوانات والطيور، فإن لم يمكن ذلك، فليوضع في مكان نظيف تأكله السباع والهوام وغيرها.

ولنحذر جميعاً من وضعه في صناديق الزبالة مع القذر والأذى، فإن ذلك سبب للعقوبة العاجلة والآجلة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

فالنعم صيد والشكر قيد، والنعم إذا شكرت قرّت، وإذا كفرت فرّت، قال علي رضي الله عنه[2]:

إذا كنت في نعمة فارعها	فإن المعاصي تزيل النعم
وحافظ عليها بتقوى الإلـ	ـه فإن الإله سريع النقم

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٤١٤ - من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) انظر «ديوانه» ص١٧٥ - ١٧٦ جمع نعيم زرزوره.

الفوائد والعبر:

١- التحذير من التكاثر والمباهاة والمفاخرة بالأموال والأولاد وغير ذلك، والانشغال بذلك عن طاعة الله تعالى وعن الاستعداد للدار الآخرة.

٢- أن من حصلت عنده الكثرة من غير مكاثرة واستعان بها على طاعة الله تعالى فليس داخلاً في الذم لقوله ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ ثم رتب عليه ما رتب من الوعيد.

وقد كان عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما، وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهم من أكثر الناس مالاً، وما ضرهم ذلك لما جعلوا المال مطية للآخرة، فقد جهز عثمان رضي الله عنه جيش العسرة ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها، حتى قال النبي ﷺ فيه: «ما ضرّ عثمان ما فعل بعد اليوم»[١].

وقد قال ﷺ لعمرو بن العاص ـ رضي الله عنه: «نعم المال الصالح للرجل الصالح»[٢].

٣- الإشارة إلى حقارة الدنيا وما فيها من الملذات على اختلاف أشكالها، وأن الاشتغال بالمكاثرة بذلك من اللهو واللعب كما قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الحديد: ٢٠].

٤- الإشارة إلى أن الاقتصاد والتوسط في الأمور والأحوال الدنيوية هو الأصل وهو الأولى لأن الخروج عن ذلك قد يؤدي بالإنسان إلى ما لا ينبغي من المكاثرة ونحو ذلك.

٥- أن المكاثرة بما يعود على الإنسان بالنفع في دينه وآخرته ليست من التكاثر المذموم بل من المسابقة والمسارعة إلى الخيرات والمنافسة فيها كما قال عز وجل ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨، المائدة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة : ١٠، ١١]، وقال تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وقد تسابق أبو بكر الصديق والفاروق ـ رضي الله عنهما لما دعا النبي ﷺ إلى

---

(١) اخرجه الترمذي في المناقب ٣٧٠١ – من حديث عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه.

(٢) اخرجه احمد ٤/١٩٧، ٢٠٢.

الصدقة، فجاء عمر بنصف ماله وظن أنه يسبق أبا بكر، وإذا أبو بكر قد جاء بكل ماله ـ رضي الله عنهما، فقال عمر: «والله لا أسبقه إلى شيء أبداً»[1].

٦- إعجاز القرآن الغيبي حيث أخبر بهذا الخطاب العام للناس بأنه ألهاهم التكاثر وهذا هو الواقع فعلاً في السابق واللاحق إلا من رحم الله وفي هذا الإشارة إلى عدم الاغترار بما عليه كثير من الناس من التكاثر وغيره كما قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

٧- إثبات القبر وعذابه لقوله: ﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾ .

٨- إثبات البعث بعد الموت والقيامة وما فيها من الأهوال ورؤية النار لقوله ﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾ فهذا يدل على أن الإقامة في البرزخ وفي المقابر زيارة فقط ثم يبعث الناس ويردون إلى الدار الآخرة دار القرار.

٩- الزجر والردع والوعيد الشديد، والتهديد الأكيد لمن ألهاه التكاثر عن طاعة الله تعالى.

١٠- العلم اليقيني برؤية النار يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ [مريم: ٧١].

١١- أن من ألهاه التكاثر عن طاعة الله وما خلق له فعلمه اليقيني برؤية النار ضعيف إذ لو اكتمل عنده علم اليقين برؤيتها ما ألهاه التكاثر عما خلق له.

١٢- اجتماع عين اليقين إلى علم اليقين في رؤية النار في الآخرة فعلم اليقين بأن رؤيتها حاصلة بل وورودها دل عليه القرآن والسنة، وفي عرصات القيامة ترى عياناً.

١٣- إثبات الحساب والسؤال عن النعم التي أنعم الله بها على العبد في الدنيا.

١٤- وجوب أخذ النعم من طرق حلال وصرفها في وجوهها في الطرق الحلال.

١٥- وجوب شكر نعم الله تعالى في استعمالها في طاعته والبعد عن معصيته، وأداء حق الله فيها واحترامها وعدم إهانتها وعدم الإسراف فيها.

---

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة ١٦٧٨، والترمذي في المناقب ٣٦٧٥، والدارمي في الزكاة ١٦٦٠ ـ من حديث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه.

تفسير سورة العصر[١]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝﴾.

قال ابن كثير[٢]: «ذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة الكذاب، وذلك بعدما بعث رسول الله ﷺ وقبل أن يسلم عمرو، فقال له مسيلمة: ماذا أنزل على صاحبكم في هذه المدة؟ قال: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة. فقال: وماهي؟ فقال: ﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ ففكر مسيلمة هنيهة ثم قال: وقد أنزل عليَّ مثلها، فقال له عمرو: وما هو؟ فقال: «يا وبر يا وبر إنما أنت أذنان وصدر وسائرك حقر نقر» ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب»[٣].

وقال الشافعي رحمه الله: «لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم»[٤].

قوله: ﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ الواو: حرف قسم وجر، و﴿العصر﴾ مقسم به. والعصر: هو الزمان والدهر،وهو الأيام والليالي، كما قيل:

ولن يلبث العصران يوم وليلة   إذا طلبا أن يدركا ما تيمما[٥]

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ جواب القسم «والعصر» والمراد بالإنسان جنس الإنسان.

والخسر: ضد الربح، أي: إن الإنسان جنس الإنسان من حيث هو لفي خسران ونقصان وهلاك.

قال ابن القيم[٦]: «الإنسان من حيث هو إنسان خاسر، إلا من رحمه الله فهداه، ووفقه للإيمان والعمل الصالح في نفسه وأمر غيره به».

---

(١) قد أفردت هذه السورة برسالة خاصة بعنوان: «ربح أيام العمر في تدبر سورة العصر» وقد ضمنت جلها في هذا التفسير.

(٢) في «تفسيره» ٨ / ٤٩٩.

(٣) قال ابن كثير بعد ذكر هذا الخبر: «والوبر: دويبة تشبه الهر، أعظم شيء فيه أذناه وصدره وباقيه دميم. فأراد مسيلمة أن يركب من هذا الهذيان ما يعارض به القرآن، فلم يرج ذلك على عابد الأوثان في ذلك الزمان».

(٤) انظر «مفتاح دار السعادة» ص٦١، «تفسير ابن كثير» ٨/ ٤٩٩.

(٥) البيت لحميد بن ثور الهلالي وهو في ديوانه ص ٨.

(٦) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٣٢٩.

وقال أيضاً: «فاقسم بالعصر الذي هو زمان أفعال الإنسان ومحلها على عاقبة تلك الأفعال وجزائها، ونبه بالمبدأ وهو خلق الزمان والفاعلين وأفعالهم على المعاد، وأن قدرته كما لم تقصر عن المبدأ لم تقصر عن المعاد، وأن حكمته التي اقتضت خلق الزمان وخلق الفاعلين وأفعالهم».

وإقسامه عز وجل بالزمن بقوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ وكذا في مواضع عدة من القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤﴾ [الشمس: ١ ـ ٤].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ١ ـ ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١ ـ ٢]، كل ذلك للدلالة على أهمية الوقت، لأنه عمر الإنسان، ووقت العمل الصالح الذي به النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة، كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

وهو الذي سيحاسَب عنه العبد ويسأل عنه يوم القيامة، كما قال ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به»[١].

وهو مما أقام الله به الحجة على الخلق كما قال عز وجل: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧] وفي الحديث: «أعذر الله إلى امرئ أخر أجله حتى بلغه ستين سنة»[٢].

وهو أغلى وأنفس ما أعطاه الله للعبد وأمره بحفظه.

قال الشاعر:

والوقت أنفس ما عُنيت بحفظه ... وأراه أسهل ما عليك يضيع[٣]

وقال الآخر:

دقات قلب المرء قائلة له ... إن الحياة دقائق وثوان[٤]

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤١٧ ـ من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه وقال: «حديث حسن صحيح» وأخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ٢٤١٦.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤١٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) البيت للوزير الصاحبي يحيى بن هبيرة. انظر «الذيل لطبقات الحنابلة» ٤/ ٢٣٦.

(٤) البيت للشاعر أحمد شوقي، وهو ضمن قصيدته في رثاء مصطفى كامل باشا، وهو في ديوانه «الشوقيات» ٣/ ١٥٨.

وهو عمر الإنسان الذي بذهابه ذهاب المرء كما قيل:

يسر المرء ما ذهب الليالي وكان ذهابهن له ذهابا

وكما قيل:

المرء يفرح بالأيام يقطعها وكل يوم يُدنِّيه إلى الأجل

وإقسامه عز وجل بالعصر على أن الإنسان لفي خسر إلا من اتصف بالصفات المذكورة يعد إشارة إلى أن الخسارة الحقيقية هي الخسارة في الدين، فهي المصيبة العظمى والطامة الكبرى، والجرح الذي لا يندمل، والكسر الذي لا يجبر، كما قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

فالمصيبة العظمى والخسار الذي لا خسار بعده أن يصاب الإنسان في دينه، فيموت على الكفر أو على المعاصي، كما قال تعالى عن أبي لهب ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] أي خسرت يداه وخسر فعلاً. نسأل الله السلامة - فليست المصيبة - أن يصاب الإنسان بالخسارة في ماله أو في نفسه أو في أهله أو ولده، أو قريبه أو صديقه سواء بمرض أو موت أو غير ذلك، وهذا - وإن كان كله يسمى مصيبة - لكن المصيبة العظمى هي المصيبة في الدين وكما قيل:

وكل كسر فإن الله يجبره وما لكسر قناة الدين جبران

وهي التهلكة والهلاك فإن الأنصار رضي الله عنهم لما أعز الله الإسلام قال بعضهم لبعض: لو رجعنا لإصلاح أموالنا ومزارعنا، كأنهم أرادوا ترك الجهاد، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥][1].

وقد فهم هذا المعنى سلف هذه الأمة من صحابة رسول الله ﷺ ومن بعدهم من ذوي البصيرة في الدين، فنأوا بأنفسهم عن المعاصي، وها هو سلمة بن صخر البياضي رضي الله عنه يأتي فزعاً مرعوباً إلى رسول الله ﷺ قائلاً: «يا رسول الله هلكت وأهلكت». قال له رسول الله: «ما أهلكك؟» قال: يا رسول وقعت على امرأتي وأنا

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد - قوله ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾، ٢٥١٢، والترمذي في التفسير ٢٩٧٢، وابن ماجه ٤٧١١، والحاكم ٢/ ٨٤، ٢٧٥ - من حديث أبي أيوب. وقال الترمذي: «حسن صحيح».

صائم..» الحديث[١].

فقد أحسّ رضي الله عنه بعظم المعصية وسوء عاقبتها وجاء تائباً يسأل عن المخرج منها.

قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ استثنى عز وجل من جنس الإنسان عن الخسران الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم.

والإيمان لغة التصديق، قال تعالى عن إخوة يوسف أنهم قالوا لأبيهم ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧] أي: بمصدق.

وقال ابن تيمية معناه الإقرار فلا يكفي مجرد التصديق[٢].

وشرعاً: قول باللسان واعتقاد بالجنان ـ وهو القلب، وعمل بالأركان ـ وهي الجوارح.

والإيمان بمعناه اللغوي والشرعي يندرج تحته كل ما يجب الإيمان به من أركان الإيمان الستة، وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وبكل ما يجب الإيمان به من الغيوب الماضية والمستقبلة. وضده الكفر.

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: الأعمال الصالحات، وحذف الموصوف وهي الأعمال واكتفى بالصفة وهي «الصالحات» لأن المهم في العمل كونه صالحاً. والعمل لا يكون صالحاً إلا إذا توفر فيه شرطان: الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ، يدل على هذين الشرطين أدلة كثيرة من الكتاب والسنة.

فمما يدل على وجوب الإخلاص لله تعالى من الكتاب قوله ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

ومن السنة قوله تعالى في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»[٣].

ومما يدل على وجوب متابعة الرسول ﷺ من الكتاب، قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم، باب إذا جامع في رمضان ولم يكن له شيء فتصدق عليه فليكفر ١٩٣٦، ومسلم في الصيام، باب تغليظ تحريم الجماع في نهار رمضان على الصائم ١١١١، وأبوداود في الصوم ٢٣٩٠، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» ٧/٦٣٨.

(٣) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٨٥، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠٢ ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ﵟٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚﵞ [الحشر: ٧]، ومن السنة قوله ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[١].

ويجمع الدلالة على الشرطين مثل قوله تعالى: ﵟوَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗاﵞ [النساء: ١٢٥] أي اخلص العمل لله وهو متبع الرسول ﷺ. وقوله ﵟبَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞﵞ [البقرة: ١١٢] وقوله تعالى: ﵟفَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢاﵞ [الكهف: ١١٠].

ﵟوَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِﵞ قال ابن القيم[٢] «إرشاد إلى منصب الإمامة في قوة الدين، كقوله تعالى: ﵟوَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَﵞ [السجدة: ٢٣٢]. فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين».

ﵟوَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّﵞ «الحق» هو الأمر الثابت الذي لا يسوغ انكاره مما جاء في الكتاب والسنة والمعنى: أوصى بعضهم بعضاً بلزوم الحق والتمسك به، قولاً وفعلاً واعتقاداً، فعلاً للطاعات وتركاً للمنهيات.

ﵟوَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِﵞ أي: أوصى بعضهم بعضاً بالصبر، وهو لغة: الحبس والمنع، وشرعاً: حبس النفس عن الجزع واللسان عن التشكي والجوارح عما حرم الله» وهو أنواع:- صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة.

وأعلاها الصبر على طاعة الله، ثم الصبر عن معصية الله، ومنه صبر نبي الله يوسف ـ عليه السلام عن الفاحشة. ثم الصبر على أقدار الله ـ ومنه صبر نبينا محمد ﷺ على أذى قومه، وصبر يوسف عليه السلام على فعل إخوته به.

قال ابن القيم[٣]: «والصبر نوعان: نوع على المقدور كالمصائب، ونوع على المشروع، وهذا النوع أيضاً نوعان: صبر على الأوامر، وصبر عن النواهي، فذاك صبر على الإرادة والفعل، وهذا صبر عن الإرادة والفعل. فأما النوع الأول من الصبر فمشترك بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، ولا يثاب عليه لمجرده إن لم يقترن به إيمان واختيار، قال النبي ﷺ

---

(١) اخرجه البخاري في الصلح ٢٦٩٧، ومسلم في الأقضية ١٧١٨، وأبوداود في السنة ٤٦٠٦، وابن ماجه في المقدمة ١٤ ـ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٣٣٠.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٣٣٠ ـ ٣٣١.

في حق ابنته «مرها فلتصبر ولتحتسب»[1]، وعلى حسب اليقين بالمشروع يكون الصبر على المقدور، وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]. فمن قل يقينه قل صبره، ومن قل صبره خفّ واستخف، فالمؤمن الصابر رزين،لأنه ذو لب وعقل، ومن لا يقين لـه ولا صبر عنده خفيف طائش، تلعب به الأهواء والشهوات، كما تلعب الريح بالشيء الخفيف، والله المستعان».

وقال ابن القيم أيضاً[2] بعد ما ذكر قول الشافعي: «لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم» قال: «وبيان ذلك أن المراتب أربع باستكمالها يحصل للشخص غاية كماله: إحداها: معرفة الحق، الثانية: عمله به، الثالثة: تعليمه من لا يحسنه، الرابعة: صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه.

فذكر تعالى المراتب الأربعة في هذه السورة، وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر أن كل أحد في خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهم الذين عملوا بما علموه من الحق فهذه مرتبة أخرى، وتواصوا بالحق، ووصى بعضهم بعضاً بالصبر عليه والثبات، فهذه مرتبة رابعة، وهذه نهاية الكمال؛ فإن الكمال أن يكون الشخص كاملاً في نفسه مكملاً لغيره، وكماله بإصلاح قوتيه العلمية والعملية، فصلاح القوة العلمية بالإيمان، وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات، وتكميله غيره بتعليمه إياه، وصبره عليه، وتوصيته بالصبر على العلم والعمل. فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره. والحمد لله الذي جعل كتابه كافياً عن كل ما سواه، شافياً من كل داء، هادياً إلى كل خير».

الفوائد والعبر:

١ـ أن لله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته لقولـه ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ وذلك لأن إقسامه عز وجل بما خلق يدل على عظمته هو، فكأنه عز وجل يقول: أقسم بما خلقت. أما المخلوق فلا يجوز أن يقسم بغير الله لأن القسم تعظيم للمقسم به، ولا يجوز ذلك إلا

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز ١٢٨٤، ومسلم في الجنائز ٩٢٣ من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٣٢٥.

لله. قال ﷺ: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»[(١)]. وقال ﷺ: «لا تحلفوا بآبائكم، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت»[(٢)].

٢ ـ الإشارة إلى ما في العصر وهو الوقت من العبرة والآية، فإن مرور الليالي والأيام والشهور والأعوام وجريان الأفلاك وتعاقب الفصول من أعظم الآيات الكونية، كما أن في ذلك دلالة على أهمية العصر وهو الوقت في حياة الإنسان، لأن الله عز وجل أقسم به للدلالة والتنبيه على أهميته، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ١٢].

٣ ـ أن كل إنسان خاسر إلا من اتصف بالصفات الأربع المذكورة في السورة لأن الله أقسم بالعصر، أن الإنسان لفي خسر، واستثنى من ذلك من اتصف بالصفات المذكورة.

٤ ـ أن حقيقة الخسران أن يصاب الإنسان في دينه لأن الصفات الأربع المذكورة كلها مما يتعلق بالدين.

٥ ـ أن حقيقة الربح والفوز أن يسلم للإنسان دينه، فكل خسارة أو مصيبة دون ذلك تهون.

٦ ـ وجوب الإيمان والعمل الصالح لقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

٧ ـ أنه لا يكفي مجرد الإيمان دون العمل الصالح، لقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فالإيمان قول وعمل واعتقاد وفي هذا رد على المرجئة الذين يقولون يكفي مجرد الإيمان.

٨ ـ أن من شرط قبول العمل أن يكون صالحاً أي: يتوفر فيه الشرطان: الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ.

٩ ـ وجوب التواصي بلزوم الحق والأخذ به، والتعاون والتناصح في ذلك، لقوله ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ﴾.

١٠ ـ أنه لا يكفي مجرد الإيمان والعمل الصالح بالنفس فقط دون وصية الآخرين به

---

(١) اخرجه أبوداود في الأيمان والنذور ٣٢٥١، والترمذي في النذور والأيمان ١٥٣٥ ـ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وحسنه الترمذي، وصححه ابن حبان ٦/ ٢٧٨، والحاكم ١/ ١٨، ٤/ ٢٩٧ ووافقه الذهبي، وانظر «تيسير العزيز الحميد» ص٥٨٩.

(٢) اخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٧٩، ومسلم في الإيمان ١٦٤٦ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، واخرجه مسلم ١٦٤٨ من حديث عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه.

وحثهم عليه، والتناصح في ذلك والدعوة إلى الله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتعاون في ذلك.

١١ ـ وجوب الصبر، والتواصي به؛ صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة، لقوله: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾.

١٢ ـ أن من لازم الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق: التواصي بالصبر. فلا يتم الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق إلا بالتواصي بالصبر بأنواعه الثلاثة، فلا يستقيم دين الإنسان إلا بالصبر قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «الا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس بان الجسد، ثم رفع صوته فقال: ألا لا إيمان لمن لا صبر له»[1].

وهو نصف الإيمان[2]. قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] وقال ﷺ: «ما أعطي أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر»[3].

قال ابن القيم[4] «فالحق هو الإيمان والعمل، ولا يتمان إلا بالصبر عليهما والتواصي بهما. كان حقيقاً بالإنسان أن ينفق ساعات عمره، بل أنفاسه فيما ينال به المطالب العالية ويخلص به من الخسران المبين، وليس ذلك إلا بالإقبال على القرآن وتفهمه وتدبره واستخراج كنوزه وآثاره ودفائنه، وصرف العناية إليه، والعكوف بالهمة عليه، فإنه الكفيل بمصالح العباد في المعاش والمعاد، والموصل إلى سبيل الرشاد».

١٣ـ أن الرابحين حقاً من جمعوا بين الصفات الأربع المذكورة، وهي الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، لقوله ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ فكل إنسان خاسر إلا من اتصف بهذه الصفات.

قال ابن القيم[5]: «وأن حكمته التي اقتضت خلق الزمان وخلق الفاعلين وأفعالهم، وجعلها قسمين خيراً وشراً تأبى أن يسوي بينهم، وأن لا يجازي المحسن بإحسانه والمسيء

---

(١) انظر «تيسير العزيز الحميد» ص٥١٢.

(٢) أخرج أبو نعيم في «الحلية» والبيهقي في «شعب الإيمان»: «أن الصبر نصف الإيمان» انظر «تيسير العزيز الحميد» ص٥١٢.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٧٠، ومسلم في الزكاة ١٠٥٣ ـ من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه.

(٤) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٣٢٧.

(٥) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٣٢٩.

بإساءته وأن يجعل النوعين رابحين أو خاسرين، بل الإنسان من حيث هو إنسان خاسر، إلا من رحمه الله فهداه ووفقه للإيمان والعمل الصالح في نفسه، وأمره غيره به، وهذا نظير رده الإنسان إلى أسفل سافلين واستثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات من هؤلاء المردودين».

وقفة تأمل:

أخي المسلم: قف عند كل آية من آيات هذه السورة العظيمة بل عند كل كلمة منها، بل عند كل حرف وتأمل فيها.

تأمل وتفكر، لماذا أقسم المولى عز وجل بالعصر؟ وما هو العصر؟ وما حقيقة الخسارة؟ وما حقيقة الربح؟

واعلم أن الله عز وجل أقسم بالعصر تنبيها وتذكيراً وإشارة ودلالة على اهمية العصر وعظيم قيمته ووجوب حفظه، والعصر هو الزمن، وهو عمر الإنسان، الذي لا يقدر بثمن عند من عرف أن الأمر جد، ليس بالهزل كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

وكما قيل:

قد رشحوك لأمر لو فطنت لـه فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

وقال الآخر:

الأمـــر جـد وهو غير مـزاح فاعمل لنفسك صالحاً يا صـاح

وعند من عرف قدر الحياة وأنها ميدان التنافس والتسابق والمسارعة للأعمال الصالحة التي فيها السعادة الحقيقية في الدنيا والآخرة، كما قال عز وجل: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠، ١١]، وقال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

ونعمت المسابقة والمسارعة والمنافسة ـ والله المستعان ـ.

وقد أحسن القائل:

ولم أجد الإنسان إلا ابن سعيه فمن كان أسعى كان بالمجد أجدرا

فلم يتأخر من أراد تقــدمــاً ولم يتقــدم من أراد تأخـــرا [1]

أخي في الله لا يغرك ما عليه كثير من الناس من المنافسة على أمور الدنيا الفانية، والزهد فيما دعاهم الله إليه من المنافسة والمسارعة والمسابقة فيما فيه سعادة الدارين من الأعمال الصالحة، وتأمل قول الله عز وجل: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقولـه تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقولـه تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ﴾ [ص: ٢٤].

وقد روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال «لا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين ولا تستوحش من الحق لقلة السالكين»

فخذ أخي في الله نفسك بالجد والمنافسة والمسابقة والمسارعة في الخير، ولا تنس نصيبك من الدنيا، واعلم أن الغبطة حقاً في العمل الصالح، الذي هو صمام الأمان وسر السعادة في الدنيا والآخرة، فاجعل منافستك في ذلك، كن سباقاً إلى المساجد وإلى أداء الواجبات من حقوق الله وحقوق الخلق، كن ورعاً مبتعداً عن محارم الله.وإذا رأيت من ينافسك في الدنيا فنافسه في الآخرة، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إذا رأيت الرجل ينافسك في الدنيا فنافسه في الآخرة».

واعلم وفقك الله أن الغبن في هذا ليس باليسير، بل لا يكاد يوصف، وفرق ما بين الثرى والثريا. وكما قيل:

سوف ترى إذا انجلى الغبار أفرسٌ تحتــك أم حمــار

واعلم أن الخسارة في هذا لا تشبهها خسارة، فالخسارة الكبرى والمصيبة العظمى، والكسر الذي لا يمكن جبره أن يصاب الإنسان في دينه فيخسر دنياه وآخرته ونفسه وأهله وولده وماله وكل شيء، كما قال عز وجل: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

واعلم أن الربح في هذا لا يقدر ولا يحد، بل هو سعادة الدنيا والآخرة، نسأل الله تعالى من فضله التوفيق للإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، فهذا غاية الربح، وهذا تمام النعمة الذي عناه الله عز وجل بقوله: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ﴾

---

(١) هذان البيتان لابن هانئ، انظر «ديوانه» ص١٤٠.

[البقرة: ١٥٠]، وبقوله: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣]. وهو طريق الذين أنعم الله عليهم النعمة الحقيقية كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ۝ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

وهو الهداية المنشودة لعباد الله بقولهم ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

فقف أخي ـ بارك الله فيك ـ على مفترق هذين الطريقين وتأمل ببصيرة وحضور قلب، وقارن وقلّب الفكر والنظر عسى أن يظهر لك ويتبين البون الشاسع والفرق الواسع فتجتنب طريق أهل الخسران، وتلزم طريق أهل الربح والسعادة والإنعام وما أراك تعدل به طريقا وفقك الله.

واعلم ـ أخي الكريم ـ أن الربح والسعادة مطلب لكل أحد، فكل يسعى بحثاً عن ذلك، لكن المؤسف حقاً ـ كم هم الذين عرفوا طريق السعادة حقاً ـ سؤال يطرح نفسه؟ وجوابه باختصار:

أن السواد الأعظم من الناس جهلوا طريق السعادة، بل طلبوها في غير مظانها فصدق فيهم قول الشاعر:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس[1]

ففئام من الناس حسبوا الربح والسعادة بالسعي لتحقيق شهوات النفس، وإرخاء العنان لها في ذلك، ولو كان مما حرم الله، كالفجور وشرب الخمور والغناء والمجون ونحو ذلك، وأين لهؤلاء الربح والسعادة، وقد طلبوهما بما يحقق الخسران والشقاوة.

وفئام من الناس حسبوا الربح والسعادة في الانهماك بالمباحات فهم يلهثون وراء جمع المال، وتنويع المآكل والمشارب، واختيار الملابس الأنيقة، والفرش الوثيرة، والمساكن المزخرفة، والمراكب الفاخرة والموضات والموديلات والمخترعات والأسفار والتنقلات بين الدول والبلدان بحثاً عن الأجواء اللطيفة المعتدلة، والحدائق الغناء والمناظر الجميلة والآثار القديمة والملاعب والملاهي ـ وهؤلاء أيضاً أخطؤوا طريق السعادة وحرموا منها، فلم يذوقوا لها طعما.

---

(١) البيت لأبي العتاهية وهو في ديوانه ص١٩٤.

وأقول لأولئك وهؤلاء ولنفسي ولكل من يطلب الربح والسعادة حقاً: أبى الله أن يكون الربح والسعادة إلا بالإيمان والعمل الصالح تحت مظلة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٤].

ولله در الحسن البصري رحمه الله حيث قال: «مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا ألذّ ما فيها».

نعم والله إننا مساكين، فما أكثر الذين خرجوا ويخرجون من الدنيا وما ذاقوا ألذّ ما فيها.

وقال رحمه الله: «التمسوا حلاوة الإيمان في ثلاث: في الصلاة، وذكر الله، وقراءة القرآن، فإن لم تجدوها فاعلموا أن الباب مغلق».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة».

فليت شعري من ذاق منا تلك اللذّة، لذة الإيمان، ومن دخل منا تلك الجنة جنة التنعم بتلقي أوامر الديان، وخدمته، والتلذذ بمناجاته وعبادته، والتوكل عليه، فهذا غاية الربح ومنتهى السعادة، نسأل الله الكريم من فضله.

فَتَذَوَّق أخي لذة الإيمان، وتنعم بجنة الدنيا بالانقياد للملك الديان وأسلم وجهك لـه، وسلِّم أمرك إليه كما قال عز وجل ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] فإن أخذت بهذا فأبشر فانت ولدت الآن.

هنا تجد في نفسك محبة الله ومحبة رسوله ﷺ ومحبة الخير وأهله، هنا تجد محبة المسارعة لأداء الواجبات من حقوق الله وحقوق الخلق، وأعمال البر كلها، هنا تجد الورع عن المحرمات، تجد في الله عوضاً عن كل ما فاتك من الدنيا ولا تأسى على شيء منها، وإنما تحزن على ما فاتك من نصيبك من ربك، تجد قلبك معلقاً بالمساجد، تجد أحلى صوت تسمعه:الله أكبر،تجد اسعد اللحظات في عمرك وقوفك مصلياً تناجي ملك الملوك، أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين، المولى العزيز الرحيم، تجد القناعة في نفسك، تجدك لا تحس بالفراغ النفسي لامتلاء قلبك بحب الله وما يقربك إليه. إن طلب الناس السعادة في المساكن والمراكب والمتنزهات وأنواع الشهوات والملذات طلبتها في مناجاة الله، وتدبر

---

(١) انظر «الوابل الصيب» ١/ ٦٩.

كلامه والقيام بطاعته وأمره، وهذا قمة السعادة.

هنا تجد الأمن، تجد الطمأنينة، تجد الرضى بما قسم الله لك، تجد البركة في العمر ولو كان قصيراً، تجد البركة في الرزق وإن كان مضيقاً، تجد تيسير الله لأمورك، وتسخيره الخلق لك بلا درهم منك لهم ولا دينار، وصدق الله العظيم حيث قال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «من أراد السعادة الأبدية فليلزم عتبة العبودية».

وختاماً: فإن من لم يجد السعادة بتلقي أوامر الله وتنفيذها، والحذر من نواهيه والبعد عنها وإسلام الوجه لله، وتسليم الأمر له والتوكل عليه فلن يجد للسعادة طعماً ولو حيزت له الدنيا بحذافيرها.

تفسير سورة الهمزة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝﴾.

روي أن هذه السورة نزلت في الأخنس بن شريق، وقيل في أُبي بن خلف، وقيل في الوليد بن المغيرة ـ والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾

﴿وَيْلٌ﴾ دعاء وزجر وتهديد ووعيد بالوبال وسوء الحال وشدة العذاب والهلكة والخسارة والخزي، وقيل هو أيضاً اسم واد في جهنم.

قال الشاعر:

إذا خـــان الأمــــير وكاتبــــاه وقاضــي الأرض داهــن في القضــاء

فويــــل ثــــم ويــــل ثــــم ويــــل لقاضي الأرض من قاضي السماء[1]

﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ الهمزة: كثير الهمز، واللمزة كثير اللمز، وفي هذا ما يفيد أن الهمز واللمز صارا صفتين ملازمتين له.

والهمز يكون بالفعل بالسخرية من الناس، بالإشارة باليد أو بالعين أو اللسان أو غير ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١٠، ١١].

واللمز يكون بالقول باللسان، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾ [التوبة: ٥٨].

وقيل العكس: الهمز يكون بالقول، واللمز يكون بالفعل، ويكونان في الحضور، وقد يكونان في الغيبة، قال الشاعر:

تــدلي بــودي إذا لاقيــتني كــذبا وإن أُغيَّبْ فأنــت الهــامز اللمــزة[2]

قال ابن تيمية[3]: «الهمز أشد، لأن الهمز الدفع بشدة.. ومنه ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ

(١) هذان البيتان للإمام الشوكاني.

(٢) البيت لزياد الأعجم انظر «مجاز القرآن» ٢/ ٣١١، «جامع البيان» ٢٤/ ٦١٦.

(٣) انظر «دقائق التفسير» ٦/ ٣٠٨.

هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [المؤمنون: ٩٧]، ومنه قول النبي ﷺ «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من همزه، ونفخه، ونفثه» فالهمز مثل الطعن لفظاً ومعنى، واللمز الكذب والعيب».

والمعنى: الهلاك والخسار والعذاب والخزي والبوار لكل من يهمز الناس ويلمزهم بقوله وفعله وإشارته ويطعن فيهم، ويعيبهم، ويأكل لحومهم، وينتقصهم ويزدريهم في حال غيبتهم أو حضورهم.

﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وروح بتشديد الميم (جمّع) على التكثير، وقرأ الباقون «جمع» بدون تشديد.

أي: جمع المال بعضه على بعض، وركب من أجله كل صعب، واستباح كل محظور، من المعاملات الربوبية المحرمة وغيرها، وبالغ في جمعه حتى حمله ذلك على منع الحقوق الواجبة فيه والمستحبة كما قال تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ [المعارج: ١٨]، وقال تعالى: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ [القلم: ١٢].

﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾ أي: بالغ في تعداده وانشغل به تكاثراً وتفاخراً واغتباطاً به، وخوفاً من نقصانه وطمعاً في زيادته كما قال ﷺ: «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب»[١].

فحمله حب المال على الحرص على جمعه وتعداده، والبخل به كما حمله الكبر وحب الشرف على انتقاص غيره بالهمز واللمز.

عن حكيم بن حزام ـ رضي الله عنه ـ قال: «سألت رسول الله فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني. ثم قال: «يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، كالذي يأكل ولا يشبع، اليد العليا خير من اليد السفلى» قال حكيم: فقلت يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا فكان أبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ يدعوان حكيماً إلى العطاء، فيأبى أن يقبله» الحديث[٢].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «يأتي على الناس زمان لا

---

(١) اخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٣٦، ومسلم في الزكاة ١٠٤٩، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) اخرجه البخاري في الزكاة ١٤٧٢، ومسلم ـ مختصراً في الزكاة ١٠٣٥.

يبالي المرء ما أخذ منه المال أمن الحلال أم من الحرام»[1].

وقد قال ﷺ: «إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه...» الحديث[2].

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ أي: اعتمد على كثرة ماله، يظن أن ماله يبقيه حياً لا يموت أو يزيد في عمره، ويخلد ذكره، فكان ماله سبباً في طول أمله في الحياة الدنيا، وغفلته عن الآخرة، وما درى أنه بالجمع للمال، وتعداده، ومنع الحقوق فيه، وبهذا الظن يقصف أيام عمره ويقضي على بركته، ويخمل ذكره ولهذا قال ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له»[3].

وفي هذا إشارة إلى أن سبب البركة في العمر، هو العمل الصالح، وأن يكسب المال من حلال ويؤدي حق الله فيه، ولا يشتغل به عن طاعة الله تعالى، وأن يكون كما قال ابن عمر رضي الله عنهما: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء»[4].

فما أبرك عمر من كان هذا شعوره وما أقصر عمر من كان ساهياً لاهياً حتى فاجاه الموت مهما طال عمره في هذه الحياة.

﴿كَلَّآ﴾ كلمة زجر وردع له ووعيد وتهديد، ونفي لما توهمه من أن ماله سيخلده، وقد أحسن القائل:

قد نادت الدنيا على نفسها لو كان في العالم من يسمع

كم واثق في العمر أفنيته وجامع بددت ما يجمع[5]

﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾ اللام واقعة في جواب القسم، والتقدير: والله لينبذن في الحطمة.

أي: ليلقين ويطرحن فيها، والنبذ: الإلقاء على سبيل الإهانة. فلم ينفعه ماله الذي كان يجمعه ويعدده، ويظن أنه سيخلده، بل صار زاده إلى النار، كما قال ﷺ لكعب بن

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع ٢٠٥٩، والنسائي في البيوع ٤٤٥٤.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٢، ومسلم في المساقاة ١٥٩٩، وأبو داود في البيوع ٣٣٢٩، والنسائي في البيوع ٤٤٥٣، والترمذي في البيوع ١٢٠٥، وابن ماجه في الفتن ٣٩٨٤ ـ من حديث النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد ٦/ ٧١ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤١٦، والترمذي في الزهد ٢٣٣٣، وابن ماجه في الزهد ٤١١٤ – من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٥) البيتان لجحظة البرمكي.

عجرة ـ رضي الله عنه: «إنه لا يربو لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به»[1].

و ﴿ الحطمة ﴾ النار كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣]، أي: يدفعون إليها بشدة.

وسميت النار الحطمة لأنها تحطم كل ما يلقى فيها حساً ومعنى.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾ تفخيم وتهويل وتعظيم لشانها،و«ما» استفهامية، أي: وما أعلمك ما الحطمة.

﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ تفسير لـ «الحطمة».

﴿نَارُ ٱللَّهِ﴾ اضافها عز وجل إليه لزيادة التخويف، أي: نار الله العظيمة التي خلقها وأعدها لتعذيب الكفرة والعصاة عدلاً منه عز وجل، وما ظلمهم ولكن أنفسهم يظلمون.

﴿ٱلْمُوقَدَةُ﴾ أي: المستعرة المشتعلة، التي وقودها الناس والحجارة.

﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ أي: التي من شدة حرها وعذابها تشرف على القلوب أي: تنفذ من الأجسام إلى القلوب، التي عليها مدار صلاح الأعمال وفسادها، والتي هي محل الألم المعنوي، فيجمع للمعذبين فيها بين الألم الحسي للأبدان والألم المعنوي للقلوب، والألم المعنوي لا يقل عن الألم الحسي من تحطيم المعنويات والإهانة والتبكيت والتقريع والتوبيخ والتيئيس من الخروج ونحو ذلك.

﴿إِنَّهَا﴾ أي: الحطمة، ﴿عَلَيْهِم﴾ أي: على كل من ألقي ونبذ فيها، من كل همزة لمزة جمّاع للمال معدد له، يظن أنه سيخلده، من الكفرة والعصاة.

﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾: مطبقة مغلقة الأبواب.

قال الشاعر:

تحـــن إلى أجبـــال مكـــة نـــاقتي ومن دونهـا أبـواب صـنعاء موصـدة

﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر عن عاصم (في عُمُد) بضم العين والميم. وقرأ الباقون بفتحهما وهي على القراءتين جمع عمود، ومعنى ﴿مُّمَدَّدَةٍۭ﴾ طويلة ممدودة.

والمعنى: أن هذه العمد ممدودة من خلف الأبواب لزيادة الإيصاد وإحكامه عليهم.

---

(١) أخرجه الترمذي في الجمعة ٦١٤ ـ وقال: «حديث حسن غريب».

وفي هذا إشارة إلى يأسهم من الخروج منها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠].

الفوائد والعبر:

١- إثبات البعث والجزاء على الأعمال لقوله ﴿وَيْلٌ﴾.

٢- الوعيد والتهديد للهمزة اللمزة الذي من صفته همز الناس ولمزهم والطعن فيهم واغتيابهم وتنقصهم بقوله وفعله وإشاراته وحركاته والاغترار بما جمعه من مال، والانشغال به عن طاعة الله ـ تعالى.

٣- التنديد بالمغترين بالمال المنشغلين بجمعه وتعداده عن طاعة الله تعالى، المانعين لحق الله فيه.

٤- وجوب الحذر من فتنة المال، والانشغال به عن طاعة الله تعالى وعبادته وقد قال ﷺ: «والله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم»[1].

٥- شدة خطر التكالب على جمع المال ومنع حق الله فيه، والانشغال بعده وإحصائه وأنه سبب لنسيان الآخرة، وطول الأمل.

٦- استحالة الخلود في هذه الدار، لقوله ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾.

٧- الزجر والردع لمن كانت هذه صفته همزة لمزة جماعاً للمال معدداً له ظاناً أن هذا المال سيخلده، وبيان أن مصيره أن يلقى ويطرح في النار.

٨- شدة عذاب النار وأنها تحطم كل ما يلقى فيها، وتحطم المعذبين فيها حسياً ومعنوياً.

٩- تأكيد عظم هول النار وشدة خطرها لقوله ﴿ وما أدراك ما الحطمة ﴾.

١٠- أن النار مسعرة موقدة مهيأة لتعذيب الكفرة والعصاة، لقوله: ﴿نار الله الموقدة﴾.

١١- أن عذاب النار كما يؤلم الأجساد حسياً يشرف على القلوب ويؤلمها معنوياً.

١٢- أن النار تطبق وتغلق على من فيها، وتحكم عليهم أبوابها، بوضع العمد من خلفها، تيئيساً لأهلها من الخروج منها أبد الآباد.

---

(١) سبق تخريجه.

تفسير سورة الفيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾.

قال ابن كثير[1]: «هذه من النعم التي امتن الله بها على قريش، فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل الذين قد عزموا على هدم الكعبة، ومحو أثرها من الوجود، فأبادهم الله، وأرغم آنافهم، وخيب سعيهم، وأضل عملهم، وردهم بشر خيبة، وكانوا قوماً نصارى، وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالاً مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان، ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ فإنه في ذلك العام ولد على أشهر الأقوال، ولسان حال القدر يقول: لم ننصركم يا معشر قريش على الحبشة لخيريتكم عليهم، ولكن صيانة للبيت العتيق، الذي سنشرفه ونعظمه ونوقره ببعثة النبي الأمي محمد صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء».

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ الاستفهام للتقرير، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له الخطاب، أي: ألم تشاهد وتُخبر وتسمع.

والمعنى: أنك قد رأيت آثار فعل الله بهم وسمعت الأخبار بذلك، وفي هذا امتنان من الله عز وجل عليه ﷺ وعلى أمته، بحفظ بيته وحمايته، وتخويف للمجرمين المكذبين.

قال القرطبي[2]: «كانت قصة أصحاب الفيل فيما بعد من معجزات النبي ﷺ، وإن كانت قبله وقبل التحدي، لأنها كانت توكيداً لأمره وتمهيداً لشأنه، ولما تلا عليهم رسول الله ﷺ هذه السورة كان بمكة عدد كثير ممن شهد تلك الوقعة ولهذا قال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ولم يكن بمكة أحد إلا وقد رأى قائد الفيل وسائقه أعميين يتكففان الناس، وقالت عائشة رضي الله عنها مع حداثة سنها: لقد رأيت قائد الفيل وسائقه أعميين يستطعمان الناس».

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ﴾ الاستفهام كسابقه للتقرير وكيدهم هو مكرهم وتدبيرهم السيء في السر والعلن لصد الناس عن الحرم وسعيهم لهدم الكعبة.

﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾ أي: في ضياع وبطلان وخيبة وخسران وضلال كما قال تعالى: ﴿وَمَا

---

(١) في «تفسيره» ٨/٥٠٢.

(٢) في «الجامع لأحكام القرآن» ٢٠/ ١٩٥.

﴿كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٢٥].

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ أبابيل، أي: جماعات يتبع بعضها بعضاً، وهي طيور سود بحرية أمثال الخطاطيف، كل طير يحمل ثلاثة أحجار، واحد في منقاره واثنان في رجليه.

﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ السجيل: الشديد الصلب، وهي حجارة من طين محرّق حتى تحجر، مكتوب على كل حجر اسم صاحبه، كما قال تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝ مُّسَوَّمَةً﴾ [الذاريات: ٣٣، ٣٤].

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ العصف: ورق الزرع الذي لم يقضب، أي: «التبن»، أو ورق الزرع وورق البقل إذا أكلته البهائم فراثته فصار درينا وألقته الرياح هنا وهناك.

قال ابن كثير[1]: «المعنى أن الله سبحانه وتعالى أهلكهم ودمرهم وردهم بكيدهم وغيظهم لم ينالوا خيرا، وأهلك عامتهم ولم يرجع منهم مخبر إلا وهو جريح، وكما جرى لملكهم أبرهة فإنه انصدع صدره عن قلبه حين وصل إلى بلده صنعاء، وأخبرهم بما جرى لهم، ثم مات».

وخلاصة قصة أصحاب الفيل:

أن أبرهة الأشرم ملك اليمن آنذاك أرسل إلى النجاشي ملك الحبشة يقول له: إني سابني لك كنيسة بأرض اليمن لم يبن قبلها مثلها، فشرع في بناء كنيسة هائلة بصنعاء رفيعة البناء، عالية الفناء، مزخرفة الأرجاء، سمتها العرب «القلّيس»، لارتفاعها، لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بنائها، وعزم أبرهة الأشرم على أن يصرف حج العرب إليها كما يحج إلى الكعبة بمكة ونادى بذلك في مملكته، فكرهت العرب العدنانية والقحطانية ذلك، وغضبت قريش لذلك غضباً شديداً حتى قصدها بعضهم، وتوصل إلى أن دخلها ليلاً فأحدث فيها وكر راجعاً، فلما رأى السدنة ذلك الحدث رفعوا أمره إلى ملكهم أبرهة، وقالوا له: إنما صنع هذا بعض قريش غضباً لبيتهم الذي ضاهيت هذا به فأقسم أبرهة ليسيرن إلى بيت مكة وليخربنه حجراً حجرا، وقيل إن فتية من قريش دخلوها فأججوا فيها ناراً، وكان يوماً فيه هواء شديد فاحترقت وسقطت إلى الأرض، فتاهب أبرهة لذلك وسار في جيش عرمرم لئلا يصده أحد عنه، واستصحب معه فيلاً عظيماً كبير الجثة لم ير مثله، يقال له «محمود» وكان قد بعثه إليه النجاشي ملك الحبشة

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٥٠٩.

لذلك ويقال: معه ثمانية أفيال، وقيل: اثنا عشر فيلاً، وقيل: غير ذلك، لأجل أن يهدم الكعبة، بأن يجعل السلاسل في الأركان وتوضع في عنق الفيل ثم يزجر ليلقى الحائط جملة واحدة، فلما سمع العرب بمسيره أعظموا ذلك جداً، ورأوا أن حقاً عليهم المحاجبة دون البيت، ورد من أراده بكيد، فخرج إليه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له «ذو نفر» فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله من هدمه وخرابه، فأجابوا وقاتلوا أبرهة، فهزمهم لما يريده الله عز وجل من كرامة البيت وتعظيمه، وأسر «ذو نفر» فاستصحبه معه، ثم مضى لوجهه حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمي في قومه فقاتلوه فهزمهم أبرهة، وأسر «نفيل بن حبيب» فأراد قتله ثم عفا عنه واستصحبه معه ليدله في بلاد الحجاز، فلما اقترب من أرض الطائف خرج إليه أهلها ثقيف وصانعوه خيفة على بيتهم الذي عندهم الذي يسمونه «اللات» فأكرمهم وبعثوا معه «أبارغال» فلما انتهى أبرهة إلى المغمس وهو قريب من مكة نزل به وأغار جيشه على سرح أهل مكة من الإبل وغيرها فأخذوه، وكان في السرح مائتا بعير لعبد المطلب، وبعث أبرهة حناطة الحميري، وأمره بأن يأتيه بأشرف قريش، وأن يخبره أن الملك لم يجيء لقتالكم، إلا أن تصدوه عن البيت، فدل على عبد المطلب بن هاشم، وبلغه عن أبرهة ما قال فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه، وإن يخلّ بينه وبينه، فوالله ما عندنا دفع عنه، فقال له حناطة: فاذهب معي إليه فذهب معه، فلما رآه ابرهة أجلّه، وكان عبد المطلب رجلاً جميلاً حسن المنظر، ونزل أبرهة عن سريره، وجلس معه على البساط، وقال لترجمانه قل له ما حاجتك؟، فقال للترجمان إن حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي، فقال أبرهة لترجمانه قل له: لقد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني عن مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه، لا تكلمني فيه؟!، فقال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت رباً يمنعه، قال: ما كان ليمتنع مني، قال: أنت وذاك.

ويقال إنه ذهب مع عبد المطلب جماعة من أشراف العرب، فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن البيت فأبى عليهم، ورد أبرهة على عبد المطلب إبله، ورجع عبد المطلب إلى قريش، فأمرهم بالخروج من مكة والتحصن في رءوس الجبال تخوفاً عليهم من معرة الجيش، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر

من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده، وقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

لاهُمَّ إن المرء يمـ نـع رحله فامنع حِلالك

لا يغلبنَّ صليبُهم ومِحالُهم غدْواً مِحالك

وذُكر أنهم تركوا عند البيت مائة بدنة مقلدة لعل بعض الجيش ينال منها شيئاً بغير حق فينتقم الله منه، فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ فيله، وعبأ جيشه، فلما وجهوا الفيل نحو مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنبه ثم أخذ بأذنه وقال: «ابرك محمود أو ارجع راشداً من حيث جئت فإنك في بلد الله الحرام» ثم أرسل أذنه فبرك الفيل، وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد في الجبل، وضربوا الفيل ليقوم فأبى، فضربوا في رأسه بالطبرزين، وأدخلوا محاجن لهم في مراقه فبزغوه - أي: أدموه - ليقوم فأبى فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ووجهوه إلى مكة فبرك، وأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها حجر في منقاره وحجران في رجليه، أمثال الحمص والعدس، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك، وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق، ويسألون عن نفيل ليدلهم على الطريق، هذا ونفيل على رأس الجبل مع قريش وعرب الحجاز ينظرون ماذا أنزل الله بأصحاب الفيل من النقمة، وجعل نفيل يقول:

أين المفر والإله الطالب والأشرم المغلوب ليس الغالب

ويقول من أبيات عدة:

حمدت الله إذ أبصرت طيراً وخِفْتُ حجارة تلقى علينا

فكل القوم يسأل عن نفيل كأن عليَّ للحبشان دينا

فمنهم من هلك مكانه، ومنهم من هرب وجعل يتساقط عضواً عضواً وغنم أهل

فمنهم من هلك مكانه، ومنهم من هرب وجعل يتساقط عضواً عضواً وغنم أهل مكة ما معهم من ذهب وأموال وغير ذلك[١].

الفوائد والعبر:

١- امتنان الله عز وجل على النبي ﷺ وعلى أمته بحفظ بيته العتيق وحمايته.

٢- تسلية الرسول ﷺ عما يلاقيه من تكذيب قومه.

٣- التخويف والتحذير للمكذبين والمجرمين.

٤- إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لنبيه ﷺ.

٥- وجوب التأمل والاعتبار في آيات الله الكونية وعقوباته لأعدائه المجترئين على حرماته.

٦- شدة أخذ الله وانتقامه وأليم عقابه فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

٧- شدة اجتراء بعض الخلق على حرمات الله ومحادة الله تعالى والإفساد في الأرض فهذا أبرهة أراد هدم بيت الله الحرام فأبطل الله كيده، وقبله فرعونٍ كابرٍ بما هو أشد من ذلك فادعى الربوبية والألوهية ـ تعالى الله عما يقول ويفعل الظالمون علواً كبيراً.

٨- أن كيد الكافرين والفاسقين وأهل المحادة لله عز وجل ومدبري السوء والشر في ضلال وبطلان وبوار وخسران.

٩- قدرة الله تعالى التامة، وعظيم سلطانه وتسخيره ما شاء من المخلوقات لنصرة الحق والدفاع عن حرماته عز وجل فامتناعِ الفيل من التوجه نحو مكة بقدرة العزيز الحكيم وبقدرته عز وجل العظيمة سلط عليهم طيرا أبابيل ترميهم بهذه الحجارة التي كان بها هلاكهم.

١٠- عظم حرمة الكعبة والبيت الحرام قبل الإسلام وبعده فما قصه الله علينا في هذه السورة من إهلاك أصحاب الفيل دليل على عظمة هذا البيت وحماية الله له ودفاعه عنه منذ أن بناه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ولا تزال حرمة هذا البيت إلى يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]، وقال ﷺ: «إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وإنه قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، الا فليبلغ الشاهد الغائب»[٢].

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٥٠٣ – ٥٠٧. وانظر «جامع البيان» ٢٤/ ٦٣٥ – ٦٤٣ «تاريخ الأمم والملوك» ٢/ ١٣٦ – ١٣٨، «سيرة ابن هشام» ١/ ٥١ – ٥٥.

(٢) اخرجه البخاري في اللقطة ٢٤٣٤، ومسلم في الحج ـ تحريم مكة وصيدها ١٣٥٥، وابو داود في المناسك ٢٠١٧، وابن ماجه في الديات ٢٦٢٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تفسير سورة قريش

روي عن أم هانئ بنت أبي طالب أن رسول الله ﷺ قال: «فضَّل الله قريشاً بسبع خلال: أني منهم، وأن النبوة فيهم، والحجابة والسقاية فيهم، وأن الله نصرهم على الفيل، وأنهم عبدوا الله عز وجل عشر سنين لا يعبده غيرهم، وأن الله أنزل فيهم سورة من القرآن ثم تلاها رسول الله ﷺ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم لإيلاف قريش ﴾ إلى آخر السورة»[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾.

قوله: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ «إيلاف»: مصدر يقال: آلف الشيء يؤالفه إيلافاً. ويقال ألف المكان يألفه إلفاً وإلافاً؛ إذا اعتاده وألفه، وزالت الكلفة عنه، والنفرة منه.

قرأ ابن عامر: «لإلف قريش» وقد جمعها من قال:

زعمتم أن إخوتكم قريش   لهم إلف وليس لكم إلاف[2]

وقرأ أبو جعفر (ليلاف قريش)، وقرأ الباقون (لإيلاف).

والجار والمجرور (لإيلاف) متعلق بمحذوف، تقديره: اعجبوا لإيلاف قريش فاللام لام التعجب.

أي: اعجبوا لإيلاف قريش، ونعمتي عليهم في ذلك، يؤيد هذا إجماع المسلمين على أن سورتي الفيل وقريش كل منهما سورة مستقلة عن الأخرى.

وقيل تقديره: حبسنا عن مكة الفيل وأهلكنا أهله ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ فكان السورة على هذا متعلقة بسورة «الفيل» فسورة الفيل وما جاء فيها تعليل لهذه السورة وما جاء فيها، وهما في مصحف أبي بن كعب رضي الله عنه سورة واحدة بلا فصل.

أي: أهلكنا أصحاب الفيل لأجل قريش وأمنهم واستقامة مصالحهم وانتظام رحلتهم في الشتاء لليمن، وفي الصيف للشام لأجل التجارة والمكاسب.

والأظهر المعنى الأول، ولا مانع من حمل الآية على المعنيين.

---

(١) أخرجه البيهقي في الخلافيات – فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٥١٣.

(٢) انظر «الكشاف» ٤/ ٢٣٥، «لسان العرب» مادة «ألف».

وقيل: متعلق بقوله ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين.

وقريش: ولد النضر بن كنانة، وهم قبائل شتى، وسموا قريشاً بتصغير القرش بدابة في البحر عظيمة، تعبث بالسفن، ولا تطاق إلا بالنار.

وقيل: سموا بذلك من القرش وهو الكسب، لأنهم كانوا يضربون في الأرض طلباً للكسب، قال ﷺ: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»(١).

ومعنى ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ لأجل إيلاف قريش، أي: إلفهم واعتيادهم هتين الرحلتين لقوله بعد هذا ﴿إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾ فقوله: ﴿إِۦلَٰفِهِمْ﴾ بدل من قوله ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ ومفسر له و«رحلة» مفعول به منصوب: لإيلافهم، وفيه تفخيم لأمر الإيلاف وتذكير بعظيم النعمة فيه.

أي: لإيلافهم وإلفهم واعتيادهم رحلة الشتاء إلى اليمن لدفء جوها في الشتاء ورحلة الصيف إلى الشام لبرودة جوها في الصيف، وذلك في تجاراتهم وتنقلاتهم فهم آمنون في سفرهم ومقامهم لحرمة الحرم وأهله.

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ أي: شكراً لله عز وجل على هذه النعمة العظيمة عليهم وتأمينهم في مقامهم وأسفارهم بحرمة الحرم يجب أن يعبدوه وحده كما ذكر الله عز وجل عن نبيه ﷺ أنه قال: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النمل: ٩١].

والعبادة لغة: التذلل والخضوع والتواضع. يقال: طريق معبد، أي: مذلل.

وهي شرعاً: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وتشمل فعل الواجب والمندوب، والمباح مع حسن النية والقصد، وكذا ترك المحظور والمكروه.

والرب: الخالق المالك المدبر، فرب البيت بمعنى: خالقه ومالكه والمتصرف فيه.

ورب كذا أيضاً بمعنى صاحبه كما قال عز وجل ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠] أي: صاحب العزة.

والبيت: المراد به الكعبة والبيت الحرام، والبيت في الأصل: ما يقوم على أركان،

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل ٢٢٧٦، والترمذي في المناقب ٣٦٠٥ ـ من حديث واثلة بن الأسقع ـ رضي الله عنه.

وأشار إليه بإشارة القريب «هذا» للتعظيم.

﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ الذي: صفة لـ«رب» في قوله ﴿رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ وهي صفة كاشفة، لأن إطعامهم من جوع من معاني ربوبيته، ومن تدبيره وتصريفه لهم، والمعنى: أنه منّ عليهم بالرزق والمطاعم.

والجوع: هو المخمصة، وخلو البطن من الطعام، يعقبه الموت، وقد استعاذ منه النبي ﷺ بقوله: «اللهم إني أعوذ بك من الجوع، فإنه بئس الضجيع»[1].

فالجائع لا يستطيع العمل لدينه ولا لدنياه.

﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ معطوف على ما قبله. أي: أنه عز وجل منّ عليهم بنعمة الأمن وعدم الخوف في مقامهم وأسفارهم بسبب حرمة الحرم، فهم في الحرم آمنون لحرمة الحرم، وإذا خرجوا في أسفارهم أمنوا لأنهم أهل الحرم، والأمن سبب للرزق فمّن الله عز وجل عليهم بإطعامهم من الجوع وقاية لهم من الهلاك في أمر باطن، وأمّنهم من الخوف وقاية لهم من الهلاك بأمر ظاهر.

وذلك بسبب دعاء إبراهيم عليه السلام ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]. ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦].

وفي تنكير «جوع» و«خوف» إشارة إلى شدة ما كانت عليه قريش من الجوع والخوف، وأعظم بهما من مصيبتين لا تقل إحداهما عن الأخرى، لأن الجائع والخائف كل منهما لا يستطيع العمل لدينه ولا لدنياه، والخوف سبب للجوع، والجوع سبب للموت، لهذا امتن الله عز وجل على قريش بهتين النعمتين العظيمتين اللتين هما سبب الاستقرار والحياة، والعمل الديني والعمل الدنيوي، وهما الرزق والمطاعم للأبدان، والأمن على الدماء والأعراض والأموال في الأسفار والأوطان، كما قال عز وجل: ﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ [المائدة: ٩٧]، فبذلك تقوم أمور دينهم ودنياهم وكما قال عز وجل: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٥٤٧، والنسائي في الاستعاذة ٥٤٦٨، وابن ماجه في الأطعمة ٣٣٥٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وعنه ﷺ قال: «من أصبح منكم آمناً في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»[١].

ولا يعرف قدر هتين النعمتين إلا من فقدهما.

ويفهم من قوله ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ أن من لم يقيد هتين النعمتين بعبادة الله عز وجل وشكره عليهما فإنه عرضة لزوالهما، إذ بالشكر تدوم النعم وبالكفر تزول وتحل النقم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

الفوائد والعبر:

١- التذكير بنعم الله عز وجل ولفت الأنظار إلى النظر والتفكر في ذلك للقيام بما يجب تجاهه.

٢- أن من نعم الله تعالى وأفضاله على قريش أن يسر لهم الرزق وأسبابه بأمنهم في مقامهم وفي أسفارهم.

٣- انقسام السَّنة إلى شتاء وصيف لقوله: ﴿إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾ يقال: طلوع الثريا أول الصيف وستة أشهر بعده صيف، وبعد الستة الشتاء.

٤- جواز التنقل والاختيار في التجارات والأعمال والحاجات حيث الجو المناسب برودة ودفئاً لأن الله امتن على قريش بإيلافهم هاتين الرحلتين وأقرهم على ذلك.

٥- وجوب شكر نعمة الربوبية، نعمة الخلق والرزق والأمن وغير ذلك، بالعبودية لله تعالى وطاعته.

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٤٦، وابن ماجه في الزهد ٤١٤١ من حديث عبيد الله بن محصن الخطمي عن أبيه وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

٦- وجوب إخلاص العبادة لله تعالى وحده لقوله ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ أي: وحده دون سواه.

٧- شرف البيت وفضله، والامتنان على قريش به، لأن الله خصه هنا بالربوبية فقال: ﴿رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ مع أنه عز وجل رب كل شيء، لكن ربوبيته عز وجل للبيت من الربوبية الخاصة.

٨- أن المستحق للعبادة هو الرب الخالق المالك المدبر مطعم عباده من الجوع، ومؤمنهم من الخوف، دون سواه لقوله ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِيٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفِۭ﴾.

٩- أن كل ما يتمتع به الخلق من الرزق والأمن وغير ذلك من النعم التي لا تحصى كل ذلك من الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾ [لقمان: ٢٠].

١٠- عظم نعمة الرزق والإطعام من الجوع، ونعمة الأمن ولهذا خصهما سبحانه وتعالى بالذكر وامتن عليهم بذلك فقال: ﴿ٱلَّذِيٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفِۭ﴾ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٖ﴾ [القصص: ٥٧] فلك اللهم الحمد والشكر على نعمة الرزق والإطعام والأمن في الأوطان، وعلى سائر نعمك الظاهرة والباطنة.

تفسير سورة الماعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝﴾.

قوله ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ الهمزة للاستفهام أي: هل عرفت، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

﴿ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ أي: الذي ينكر البعث والمعاد والحساب والجزاء على الأعمال بالثواب والعقاب كما قال عز وجل ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ٩].

ولهذا سُمي يوم القيامة «يوم الدين» كما في قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، لأن الناس فيه يدانون ويجازون بأعمالهم.

ثم بين صفة هذا المكذب بالدين فقال: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أي: فذلك الذي يدفع اليتيم بعنف وشدة وغلظة، ويقهره ويظلمه ولا يرحمه، ولا يحسن إليه ولا يعطف عليه، قد نزعت الرحمة من قلبه والعياذ بالله.

و«اليتيم» هو من مات أبوه وهو دون البلوغ، قال ﷺ: «لا يتم بعد احتلام»[(١)]. فهو بحاجة إلى من ينفق عليه ويدافع عنه ويربيه، ويرعى حقوقه، وبخاصة عندما يطغى الظلم والأنانية، ولهذا عظم الشرع حق اليتيم، قال تعالى: ﴿وَءَاتُوا ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٩]، وقال ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات» وذكر منهن «أكل مال اليتيم»[(٢)].

وقال ﷺ: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى، وفرج بينهما»[(٣)].

---

(١) اخرجه أبو داود في الوصايا ٢٨٧٣ من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) اخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٦٧، ومسلم في الإيمان ٨٩، وأبو داود في الوصايا ٢٨٧٤، والنسائي في الوصايا ٣٦٧١ – من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) اخرجه البخاري في الطلاق ٥٣٠٤، وأبو داود في الأدب ٥١٥٠، والترمذي في البر والصلة ١٩١٨ – من حديث =

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أي: ولا يحث غيره، ولا يبعث أهله على طعام المسكين كقوله ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ۝ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ [الفجر: ١٧، ١٨]، وإذا كان لا يحث على طعام المسكين فمن باب أولى أنه بنفسه لا يطعم المسكين، لأن الإطعام والإنفاق أثقل على النفوس وقد قال قائل المشركين فيما حكى الله عنهم: ﴿أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ﴾ [يس: ٤٧].

والمسكين: هو من لا يجد شيئاً أو من لا يجد كفايته، مأخوذ من السكون وهو اللصوق بالأرض وعدم الحركة لأن الفقر أسكنه وأذله، وبخاصة عندما يقاس الناس بالدرهم والدينار فهو إن تكلم لم يسمع كلامه، وإن سمع لم يصدق، كالمريض بين الأصحاء وما به من مرض حاله بين الناس كما قال الشاعر:

إذا قل مال المرء قل صحابه ... وضاقت عليه أرضه وسماؤه

وأصبح لا يدري وإن كان حازماً ... أقدامه خير له أم وراؤه

وإن غاب لم يشتق إليه خليله ... وإن مات لم يسرر صديقاً بقاؤه[1]

وقد عظم الإسلام حق المساكين والفقراء، وجعل لهم نصيباً من الزكاة، كما قال تعالى في سورة التوبة ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ [الآية: ٦٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله» وأحسبه قال: «كالقائم لا يفتر، وكالصائم لا يفطر»[2].

فوصف عز وجل المكذب بالدين بأنه ﴿ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ لأن أداء الحقوق وإنفاق المال في سبيل الله محزّ عظيم، به يعرف الصادق من الكاذب، وقوة الإيمان وضعفه فكم من إنسان يهمهم في المساجد ويحوقل، ولكنه لا ينصف من نفسه ويعتدي على الآخرين ويأكل حقوقهم، ويمنع ما في المال من حقوق واجبة أو مستحبة، والدين إنما هو: إحسان في عبادة الله عز وجل، وإحسان إلى عباد الله

=

سهل بن سعد رضي الله عنه.

(١) الأبيات لأبي حيّان التوحيدي، انظر «ديوانه» ص٢٤٦.

(٢) أخرجه البخاري في النفقات ٥٣٥٣، ومسلم في الزهد ٢٩٨٢، والنسائي في الزكاة ٢٥٧٧، والترمذي في البر والصلة ١٩٦٩، وابن ماجه في التجارات ٢١٤٠.

بأداء حقوقهم ونفعهم.

وقد قال ﷺ: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»[١].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[٢].

﴿فَوَيْلٌ﴾ ويل: بمعنى هلاك وحسرة وزجر ووعيد وتهديد وعذاب، ويقال أيضا: هو اسم واد في جهنم[٣].

﴿لِّلْمُصَلِّينَ﴾ أي: الذين يصلون.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ قال: «عن صلاتهم» ولم يقل «في صلاتهم»؛ لأن السهو في الصلاة ليس أمراً اختيارياً، ومما لا يمكن التحرز منه تماماً، وقد وقع منه ﷺ فغيره من باب أولى، ولهذا رُويَ عن أنس وعطاء بن دينار رضي الله عنهما أنهما قالا: «الحمد لله الذي قال: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ولم يقل (في صلاتهم)»[٤].

ومعنى ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ أي: عن صلاتهم غافلون، غير مبالين بها، إما بتركها أحياناً كفعل المنافقين يصلون أمام الناس ويتركونها إذا خلوا كما قال الله عنهم: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

وعن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً»[٥].

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز ١٢٨٤، ومسلم في الجنائز ٩٢٣، وأبو داود في الجنائز ٣١٢٥، والنسائي في الجنائز ١٨٦٨ من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٩٤١، والترمذي في البر والصلة ١٩٢٤ - وقال الترمذي «حديث حسن صحيح».

(٣) جاء في الأثر ان جهنم تستعيذ منه في اليوم أربعمائة مرة أعد للمرائين، أخرجه الطبراني في الصغير ٢/ ١٤٧، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٥١٥.

(٤) ذكره عن أنس الزمخشري في «الكشاف» ٤/ ٢٣٦، وذكره عن عطاء بن دينار ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٥١٤، وأخرج بعضه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٦٦٤ عن عطاء.

(٥) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٤٩، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٦٢٢، وأبو داود في الصلاة ٤١٣، والنسائي في المواقيت ٥٠٩، والترمذي في الصلاة ١٦٠.

وإما بتأخيرها عن وقتها المحدد لها شرعاً، أو بالتهاون بأدائها بشروطها وأركانها وواجباتها على الوجه المأمور به، وعدم الخشوع وحضور القلب لما يتلى فيها، أو تأخيرها إلى أن يضيق وقتها، أو إلى وقت الضرورة، ونحو ذلك.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ أي: يقصدون الرياء في أعمالهم، فيعملون العمل ويحسّنونه ليراهم الناس فيثنوا عليهم كما قال تعالى في المنافقين: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

وفي الحديث عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «من سمّع الناس بعمله سمّع الله به وحقره وصغره»[١].

والرياء أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ولهذا قال ﷺ: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر فسئل عنه فقال الرياء»[٢].

وقال ﷺ في الدعاء: «قولوا: اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً ونحن نعلم ونستغفرك لما لا نعلم»[٣].

﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ أي: ويمنعون العارية المعتادة بين الناس بخلاً منهم، كالقدر والفأس، والدلو والميزان والإبرة والكتاب وغير ذلك من الأمتعة التي يتعاطاها الناس، بل ويمنعون الحق الواجب كالزكاة.

قال عكرمة: «رأس الماعون زكاة المال وأدناه المنخل والإبرة»[٤].

وقال محمد بن كعب: «الماعون: المعروف»[٥].

وقال الحسن: «هو المنافق الذي يمنع زكاة ماله، فإن صلى راءى، وإن فاتته لم يأس عليها»[٦].

قال ابن كثير[٧]: «أي: لا أحسنوا في عبادة ربهم، ولا أحسنوا إلى خلقه، حتى ولا بإعارة ما ينتفع به ويستعان به مع بقاء عينه ورجوعه إليهم، فهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٢١٢.
(٢) أخرجه أحمد ٥/ ٤٢٩ من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه.
(٣) أخرجه أحمد ٤/ ٤٠٣ ـ من حديث أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٦٩.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٦٩.
(٦) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٦٧.
(٧) في «تفسيره» ٨/ ٥١٦.

القربات أولى وأولى».

الفوائد والعبر:

١- تقرير وإثبات البعث والجزاء على الأعمال لقوله ﴿أرأيت الذي يكذب بالدين﴾.

٢- أن الإيمان بالبعث والجزاء على الأعمال من أعظم ما يحمل الإنسان على الإحسان في عبادة الله والإحسان إلى عباده لقوله ﴿ أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم ﴾ إلى آخر السورة، ولهذا يقرن الله عز وجل بين الإيمان به سبحانه والإيمان باليوم الآخر، لأن اليوم الآخر من أعظم ما يحمل على الامتثال حيث فيه الجزاء على الأعمال، ولهذا روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «لولا الإيمان باليوم الآخر لرأيت من الناس غير ما ترى».

٣- أن من صفات المكذب بالدين أنه يدفع اليتيم ويظلمه ولا يؤدي حقه.

٤- أن من صفات المكذب بالدين أنه لا يحض على طعام المسكين.

٥- الحث على العناية باليتيم وأداء حقوقه، وإطعام المسكين والإحسان إليه، لأن ذلك من صفات المصدقين بوعد الله.

٦- حفظ الدين الإسلامي لحقوق اليتامى والمساكين والضعفاء، وتعظيمه لخطر الاعتداء على حقوقهم ضماناً لها ودفاعاً عنها، ولهذا رتب على الاعتداء عليها أعظم الوعيد.

٧- الوعيد الشديد للذين يتهاونون بالصلاة، وأن ذلك من صفات المكذبين بالدين.

٨- الحث والترغيب على أداء الصلاة على الوجه الأكمل، وكذا سائر العبادات لأن ذلك من صفات المؤمنين المصدقين بوعد الله.

٩- وجوب الإخلاص لله والحذر من الرياء لأنه من صفات المكذبين بالدين والمنافقين.

١٠- التحذير من منع الحقوق الواجبة والمستحبة كالزكاة والصدقة والعارية، وأن ذلك من صفات المكذبين بالدين.

١١- الحث على فعل المعروف والإحسان بعد أداء الواجب، لأن هذا من صفات المؤمنين المصدقين بوعد الله، وفي الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس وأحب الأعمال إلى الله تعالى سرور تدخله على

مسلم أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً، ولئن أمشي في حاجة اخي أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد ـ يعني مسجد المدينة ـ شهراً»[1].

١٢- أن المطلوب من المسلم أمران هما: الإحسان في عبادة الله، والإحسان إلى عباد الله فقد بدأت السورة بذكر الإحسان إلى عباد الله كاليتيم والمسكين ثم ذكرت الإحسان في عبادة الله والإخلاص فيها وبخاصة الصلاة التي هي عمود الدين وحذرت من الرياء ثم ختمت السورة بالحث على الإحسان إلى عباد الله بأنواع الإحسان من أداء الزكاة والعارية.. الخ، وكأن السورة تشير إلى أن أهل الإحسان إلى عباد الله هم أهل الإحسان في عبادة الله في الصلاة وغيرها وفي الحديث: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله»[2].

فتأمل أخي المسلم هذين المحورين الذين تركزت عليهما معاني هذه السورة واعلم أن القرآن كله بل التشريع كله بما فيه الكتاب والسنة يدور عليهما واغتنم أيام عمرك دائراً بين الإحسان في عبادة الله عز وجل؛ إخلاصاً له سبحانه وتعالى، ومتابعة لرسوله ﷺ، وبين الإحسان إلى عباد الله بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة، وأبشر بالخير إن شاء الله تعالى.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ١١/ ٨٤.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٨١١، والترمذي في البر والصلة ١٩٥٤ – من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تفسير سورة الكوثر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

عن يزيد بن رومان قال: «كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ يقول: دعوه فإنه رجل أبتر، لا عقب له، إذا هلك انقطع ذكره، فأنزل الله هذه السورة»[1].

قوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ «إنا» تكلم عز وجل عن نفسه بضمير العظمة، لأنه سبحانه وتعالى هو العظيم لما له من صفات الكمال والجلال في ذاته وفي ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته كما قال سبحانه عن نفسه ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥، الشورى: ٤].

﴿أَعْطَيْنَٰكَ﴾: الخطاب للنبي ﷺ أي: آتيناك ﴿الكوثر﴾ الخير الكثير.

أي: إنا أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة، ومنه النهر والحوض الذي ترد عليه أمته، كما في حديث أنس رضي الله عنه قال: «بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد إذا أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسماً قلنا ما أضحكك يا رسول الله؟، قال: أنزلت علي آنفاً سورة، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟، قلنا الله ورسوله أعلم، قال: فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد نجوم السماء، فيختلج العبد منهم فأقول رب إنه من أمتي فيقول: إنك لا تدري ما أحدث بعدك»[2].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما عرج بالنبي ﷺ إلى السماء قال: «أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: الكوثر»[3].

وجاء في بعض روايات حديث أنس رضي الله عنه: «ماؤه أشد بياضاً من اللبن

---

(١) أخرجه ابن إسحاق - انظر «السيرة النبوية» لابن هشام ١/ ٣٩٣، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٦٩٨.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة، ٤٠٠، والنسائي في الافتتاح ٩٠٤، وأحمد ٣/ ١٠٢.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة الكوثر ٤٩٦٤، ومسلم في الإيمان ١٦٢، وأبو داود ٤٧٤٨، وأحمد ٣/ ٢٤٧، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٦٨٥ - ٦٨٩.

وأحلى من العسل، فيه طيور أعناقها كأعناق الجزر»[١].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ نهر أعطيه نبيكم ﷺ شاطئاه عليه در مجوف، آنيته كعدد نجوم السماء»[٢].

وجاء في وصفه: طوله شهر وعرضه شهر، وأن من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً.

وعن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الكوثر: «هو الخير الذي أعطاه الله إياه»، قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير: فإن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة، فقال: «النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه»[٣].

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «الكوثر: نهر في الجنة حافتاه ذهب وفضة، يجري على الياقوت والدر، ماؤه أبيض من الثلج وأحلى من العسل»[٤].

ومن الكوثر، وهو الخير الكثير: اصطفاؤه ﷺ للرسالة، ورفع ذكره، وشرح صدره، قال عز وجل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الانشراح: ١ -٤].

ومنه ما جاء في حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهورا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأعطيت الشفاعة، وأحلت لي الغنائم، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة»[٥].

وقدم الضمير (نا) من «إنا» وبنى عليه الفعل للدلالة على أن هذا العطاء منه عز وجل خاصة، وأكد ذلك بحرف التوكيد «إن»، وحذف موصوف الكوثر على طريق الاتساع والتعميم ليعم كل خير.

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٢٢٠ - ٢٢١، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٦٨٨ - ٦٨٩.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الكوثر ٤٩٦٥.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة الكوثر ٤٩٦٦.

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٦٧٩ - ٦٨٠ وإسناده صحيح.

(٥) أخرجه البخاري في التيمم - باب قول الله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَآءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ ٣٣٥، ومسلم في - المساجد ومواضع الصلاة ٥٢١.

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ الفاء للتعقيب، أي: فشكراً لربك على ما أعطاك من الخير الكثير في الدنيا والآخرة صل له الصلوات الخمس المكتوبة وصلاة العيد وصلاة النوافل وغيرها،وانحر هديك وأضحيتك له وباسمه عز وجل بعد صلاة العيد. والنحر يكون للإبل، والذبح لغيرها.

أي: أخلص لله تعالى في صلاتك ونحرك ولا تبال بمن يتعبد لغير الله فيسجد لغير الله وينحر لغير الله.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وكان ﷺ يصلي العيد ثم ينحر نسكه، ويقول: «من صلى صلاتنا ونسك نسكنا فقد أصاب النسك، ومن نسك قبل الصلاة فلا نسك له»[(١)].

وقد جعل الله عز وجل قرة عينه ﷺ وراحة بدنه في الصلاة[(٢)].

وفي حديث جابر رضي الله عنه: «أنه ﷺ أهدى في حجة الوداع مائة بدنة نحر منها ثلاثاً وستين بيده الشريفة»[(٣)].

وفي قوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ إشارة إلى أنه ينبغي عليك أن لا تتأسف على شيء من الدنيا، واترك الالتفات إلى الناس، ولا تبال بما ينالك منهم وعليك بالاعتصام بالله، والصلاة والنسك له، وفيها التعريض بحال الأبتر الشاني الذي صلاته ونسكه لغير الله.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ استئناف فيه تعليل للأمر بالإقبال على الصلاة لربه والنحر له وعبادته وحده وعدم المبالاة بشانئه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قدم كعب بن الأشرف مكة، فقالت له قريش: انت سيدهم الا ترى إلى هذا المُنْبَتِر من قومه؟ يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحج،

---

(١) اخرجه البخاري في الجمعة ٩٥٥، ومسلم في الأضاحي ١٩٦١، وابو داود في الضحايا ٢٨٠٠، واحمد ٤/٣٠٣ - من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) كما في حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حبب إلي من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة» اخرجه النسائي في عشرة النساء ٣٩٣٩.

(٣) اخرجه البخاري في الحج ١٥١٦، ومسلم في الحج ١٢١٨، وابو داود في المناسك ١٧٨٧، والترمذي في الحج ٨١٧.

وأهل السدانة وأهل السقاية، فقال: أنتم خير منه قال: فنزلت إن شانئك هو الأبتر»[1].

وقيل: نزلت في أبي لهب، وقيل: في أبي جهل.

ومعنى ﴿شَانِئَكَ﴾ أي: مبغضك يا محمد، والشَّنآن: هو البغض الشديد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [المائدة: ٨].

﴿الْأَبْتَرُ﴾ مقطوع الأثر والذكر.

والمعنى: إن مبغضك يا محمد ومبغض ما جئت به من الهدى والحق هو مقطوع النسل والأثر والذكر، المقطوع عن كل خير، فلا تباله، وفي هذا تثبيت لقلبه ﷺ وتقوية له، وقد أكد عز وجل هذا له بعدة مؤكدات: «إن»، وضمير الفصل «هو»، وتعريف الخبر، وكونه على وزن «أفعل» التفضيل.

الفوائد والعبر:

١- إثبات العظمة لله عز وجل لقوله عن نفسه (إنا) بضمير العظمة.

٢- عظم ما أعطاه الله لرسوله ﷺ وأكرمه به وما وعده به من الخير الكثير لقوله ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾.

٣- إثبات الحوض المورود الذي أعطيه ﷺ في الجنة لقوله ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ وقد فسره ﷺ بالحوض المورود في الجنة.

٤- أن العطاء والمنع من الله عز وجل فهو المعطي والمانع، رب جميع الخلق؛ خالقهم ومالكهم ومدبرهم ورازقهم، فيجب التوجه بالسؤال إليه لا إلى غيره، كما قال عز وجل ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢].

٥ ـ إثبات وإظهار كبريائه عز وجل وعلو شأنه وعز سلطانه يؤخذ هذا من الإظهار بدل الإضمار في قوله ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ ولم يقل ﴿فصل لي﴾.

٦ـ تشريفه ﷺ بخطاب الله ـ عز وجل له، وربوبيته الخاصة له وتكريمه، والامتنان عليه بذلك.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٧٠٠، والبزار في مسنده فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٥٢٥ قال ابن كثير «إسناده صحيح».

٧- وجوب الإخلاص لله تعالى في جميع العبادات البدنية والمالية من الصلاة والنسك وغير ذلك لقوله ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾.

٨- عدم جواز الأضحية قبل صلاة العيد لقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ وعن البراء ابن عازب رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلي، ثم نرجع فننحر، من فعله فقد أصاب سنتنا ومن ذبح قبل فإنما هو لحم قدمه لأهله، ليس من النسك في شيء، فقام أبو بردة بن نيّار، وقد ذبح، فقال: إن عندي جذعة، فقال: اذبحها، ولن تجزي عن أحد بعدك، فمن ذبح بعد الصلاة تم نسكه، وأصاب سنة المسلمين»(١).

٩- أن الأبتر مقطوع الأثر والذكر، المقطوع من كل خير هو من أبغض رسول الله ﷺ وما جاء به من الحق، لقوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾.

١٠- دفاع الله عز وجل عن رسوله ﷺ وعنايته به وبأوليائه عز وجل كما قال عز وجل ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨].

١١- أن العاقبة للتقوى وأن الفوز والفلاح لأولياء الله عز وجل، وأن الخيبة والخسران والبوار لأعداء الله وأعداء رسله.

---

(١) أخرجه البخاري في الأضاحي ٥٥٤٥، ومسلم في الأضاحي ١٩٦١، وأبو داود في الضحايا ٢٨٠٠، والنسائي في صلاة العيدين ١٥٦٣.

تفسير سورة الكافرون

تسمى هذه السورة أيضاً مع سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ سورتي الإخلاص لأن في كل منهما الأمر بإخلاص العبادة لله عز وجل والبراءة من الشرك.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ قرأ بـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وبـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ في ركعتي الطواف»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر»[٢].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما «أن الرسول ﷺ يقرأ بهما في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب»[٣].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقول: «نعم السورتان هما تقرؤونهما في الركعتين قبل الفجر ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾»[٤].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان النبي ﷺ يقرأ في الوتر بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ و ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ في ركعة واحدة»[٥].

وعن فروة بن نوفل رضي الله عنه أنه أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، علمني شيئاً أقوله إذا أويت إلى فراشي، قال: «اقرأ ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ فإنها براءة من الشرك»[٦].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾.

رُوِيَ أن المشركين طلبوا من الرسول ﷺ أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدون إلهه سنة فأنزل الله هذه السورة كما قال تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [ن: ٩].

---

(١) أخرجه مسلم في الحج – حجة النبي ﷺ ١٢١٨، وأبو داود في المناسك ١٩٠٥، والنسائي في مناسك الحج ٢٩٦٣، والترمذي في الحج ٨٦٩، وابن ماجه في المناسك ٣٠٧٤.

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٧٢٦، والنسائي في الافتتاح ٩٤٥، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١١٤٨.

(٣) أخرجه النسائي في الافتتاح – القراءة في الركعتين بعد المغرب ٩٩٢.

(٤) أخرجه ابن ماجه في إقامة الصلاة ١١٥٠، والدارمي في الصلاة ١٤٣٩.

(٥) أخرجه النسائي في قيام الليل ١٧٠٢، ١٧٠٣، والترمذي في الصلاة ٤٦٢، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١١٧٢.

(٦) أخرجه أبو داود في الأدب ٥٠٥٥، والترمذي في الدعوات ٣٤٠٣.

قوله: ﴿قُلْ﴾ الأمر للنبي ﷺ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ «يا» حرف نداء، و «أي» منادى مبني على الضم في محل نصب، لأن المنادى منصوب على أنه مفعول و«الكافرون» صفة لأي، أو بدل منها.

والكافرون: جمع كافر، والكفر لغة: الستر والتغطية والجحود، ومنه سُميَ الزارع كافراً، لأنه يستر البذر ويغطيه في الأرض، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: ٢٠]، ومنه سميت الكفارة كفارة، لأنها تستر الذنب وتغطيه، وسُمي الليل كافراً لأنه يستر الكون بظلامه، وسُمي وعاء طلع النخل كفراً وكافوراً لأنه يستر الطلع بداخله.

فالكافرون: من جحدوا شريعة الله، وأنكروا وجود الله وربوبيته وألوهيته وأسماءه وصفاته أو شيئاً مما أوجب الله الإيمان به، وهو ضد الإيمان.

والكافرون هنا مخصوص بمن سيموتون على الكفر، ممن علم الله أنهم لا يؤمنون كالوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل وأمية بن خلف، والأسود بن عبد المطلب وكعب ابن الأشرف، وأبي جهل وغيرهم.

ولهذا قال ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ ولم يقل «يا أيها الذين كفروا» للدلالة على هذا المعنى، وأن الكفر وصف ملازم لهم مما يوجب البراءة والمجانبة لهم دائماً.

ويحتمل أن المراد عموم الكافرين، أي جنس الكفار وهو ظاهر اللفظ.

﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ لا: نافية و«ما» موصولة، أي: لا أعبد الآن الذي تعبدونه من الأصنام والأوثان والأنداد من الأحجار والأشجار وأصحاب القبور وغير ذلك، وأتبرأ من ذلك ظاهراً وباطناً، وعبر بـ «ما» لأن معبوداتهم منها العالم وغير العالم.

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ الواو عاطفة، و«لا» نافية كسابقتها، والخطاب للكافرين.

و«ما» موصولة، وجاء التعبير بها هنا، وهي لغير العالم، لأن المقصود الصفة، وهو كونه عز وجل الموصوف بأنه المعبود الحق.

والمعنى: ولا أنتم عابدون الآن الذي أعبد، وهو الله وحده لا شريك له.

وجاء النفي بـ «لا» في هذين الموضعين وفي الموضعين بعدهما دون «لن» لأن النفي بـ «لا» أبلغ منه بـ «لن» وأدل على دوام النفي وطوله.

﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ أي: ولا أنا عابد في المستقبل الذي تعبدونه من الآلهة، ولا

يجوز ذلك شرعاً، ولا يمكن أن يكون مني ذلك لعصمته ﷺ.

فقوله: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ نفي للفعل، لأنها جملة فعلية، وقوله ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ نفي قبوله لذلك بالكلية، لأن النفي بالجملة الاسمية آكد، فكأنه نفى الفعل وكونه قابلاً لذلك، ومعناه نفي الوقوع ونفي الإمكان الشرعي. وفي ذلك نفي للموافقة في المعبود، ونفي للموافقة في العبادة.

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ اي: ولا انتم في المستقبل عابدون الذي أعبد، وهو الله عز وجل، بل ستزدادون بعداً عن الحق كما قال عز وجل ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ﴾ [المائدة: ٦٤].

فالخلاصة أن النفي في الجملتين الأوليين نفي للعبادة في الماضي، وفي الجملتين الأخيرتين نفي للعبادة في المستقبل مع ما في ذلك من تأكيد النفي في الحالين، لكن نفي عبادته ﷺ معبوداتهم أبلغ في التأكيد لأنه جاء مرة بالفعل، ومرة باسم الفاعل، بينما جاء نفي عبادتهم معبوده باسم الفاعل فقط.

﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ﴾ وهو الكفر والشرك ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ وهو الإيمان والتوحيد، وفي هذا إعلان البراءة والانفصال التام عن كل ما هم عليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤١]، وقال تعالى: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ [الشورى: ١٥].

وحذفت الياء من قوله ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ مراعاة للفواصل - والله أعلم - كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ۝ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ۝ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ۝ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨ – ٨١].

الفوائد والعبر:

١- أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله عز وجل لقوله ﴿ قل ﴾ وفي هذا الرد على طائفتين من طوائف أهل الضلال: الطائفة الأولى من يزعم من المشركين وغيرهم بأن هذا القرآن من نظمه ﷺ ابتدأ به، والطائفة الثانية طائفة الغلاة الذين يرفعونه ﷺ إلى مقام الربوبية فهو ﷺ عبد لا يعبد ورسول لا يكذب.

٢- تصدير الكلام بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام لقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾.

٣- جواز مخاطبة الكافرين وندائهم بما هم عليه من الكفر، لقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا

ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

٤- تثبيت الله عز وجل لنبيه ﷺ على ما هو عليه من عبادة الله عز وجل وحده، في الحاضر والمستقبل لقوله ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي: في الحاضر، ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ أي: في المستقبل وفي هذا تيئيس للكافرين من تنازله ﷺ لهم عن شيء مما جاء به، وبيان لعصمة الله عز وجل له عن ذلك.

٥- استمرار هؤلاء الكفار الذين وجه لهم النداء في هذه السورة على الكفر، وأنهم لا يمكن أن يؤمنوا، فكما لم يؤمنوا في الماضي فلن يؤمنوا في الحاضر ولا في المستقبل، لقوله في الموضعين ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾.

٦- إثبات تقدير الله مقادير كل شيء في الأزل كما قال ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له فأهل السعادة ييسرون لعمل أهل السعادة، وأهل الشقاوة ييسرون لعمل أهل الشقاوة»[١].

فمن كتب الله له الهداية فلا سبيل لإضلاله، ومن كتب له الضلالة فلا سبيل لهدايته.

ومن تقدير الله سبحانه ثباته ﷺ على عبادة الله وحده وعدم عبادته ما يعبده الكافرون، واستمرار هؤلاء الكفار على الكفر وعدم عبادتهم لمعبوده ﷺ وهو الله وحده لا شريك له.

٧- إثبات علم الله الأزلي المحيط بكل شيء ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، ومن ذلك إخباره عز وجل بثباته ﷺ على الإيمان والإخلاص، واستمرار هؤلاء الكفار على الكفر والشرك.

٨- إثبات إعجاز القرآن الكريم فيما أخبر به من أخبار وقعت كما أخبر.

٩- إثبات نبوته ﷺ، وأن ما جاء به من عند الله حق لما اشتمل عليه من أخبار وقعت كما أخبر.

١٠- وجوب البراءة المحضة من الشرك وأهله لقوله ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ وقوله ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ وإثبات العبادة لله وحده لقوله ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ فالأول نفي عبادة غير الله، والثاني إثبات العبادة لله عز وجل وحده، فتضمنت السورة

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٤٩، ومسلم في القدر ٢٦٤٧، وأبو داود في السنة ٤٦٩٤، والترمذي في القدر ٢١٣٦ وابن ماجه في المقدمة ٧٨ – من حديث علي رضي الله عنه.

النفي والإثبات، وهو معنى كلمة الإخلاص: «لا إله إلا الله»، ومعنى قول إبراهيم عليه السلام ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، ولهذا سميت هذه السورة مع ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ سورتي الإخلاص وكان النبي ﷺ يقرن بينهما في سنة الفجر وسنة المغرب، وركعتي الطواف وفي الوتر.

١١- الإشارة إلى ما كان عليه ﷺ من الثبات على عبادة الله وحده والبراءة من الشرك، وأن ذلك هو المقصود الأول من السورة لهذا قدم قوله ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ وهو براءته من معبوداتهم، على ذكر براءتهم من معبوده، والذي هو المقصد الثاني من السورة، والذي هو أيضاً مكمل ومحقق لبراءته ﷺ من معبوداتهم.

١٢- تقرير المفاصلة والمباعدة بين أهل الإيمان والتوحيد، وأهل الكفر والشرك، وعدم الالتقاء بين الفريقين لقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ وفي هذا رد على من يريدون التوفيق بين الأديان الباطلة والمنسوخة وبين الإسلام، وبين المعتقدات الباطلة وبين معتقد أهل السنة والجماعة، فشتان بين الحق والباطل.

شتان بين الحالتين فإن ترد ... جمعاً فما الضدان يجتمعان [(١)]

١٣- التهكم بالكفار فيما اختاروه لأنفسهم من نصيب الكفر والشرك بدل عبادة الله وحده، يدل على هذا تقديم قسمهم ونصيبهم في قوله ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ فهم أشبه بمن اقتسم مع شريكه سماً وعسلاً فرضي لنفسه بالسم ولشريكه بالعسل.

---

(١) هذا البيت من القصيدة النونية لابن القيم انظر ص١١.

تفسير سورة النصر[١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝﴾.

وقت نزولها:

عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال: قال لي ابن عباس: «يا ابن عتبة، أتعلم آخر سورة من القرآن نزلت؟ قلت: نعم ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال: صدقت»[٢].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «نزلت هذه السورة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ على رسول الله ﷺ أوسط أيام التشريق[٣]، فعرف أنه الوداع، فأمر براحلته القصواء فرُحلت، ثم قام فخطب الناس..» فذكر خطبته المشهورة[٤].

موضوعها:

الإيذان بقرب وفاته ﷺ، وحثه على لزوم التسبيح بحمد الله، واستغفاره.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة وقال: « **إنه قد نُعِيَتْ إليَّ نفسي** » فبكت ثم ضحكت، وقالت: أخبرني أنه نعيت إليه نفسه فبكيت، ثم قال: « **اصبري فإنك أول أهلي لحاقاً بي** » فضحكت»[٥].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن

---

(١) وتسمى هذه السورة سورة «التوديع» روي هذا عن ابن مسعود رضي الله عنه. انظر « الكشاف » ٤/ ١٤٠، «الجامع لأحكام القرآن» ٢٠/ ٢٢٩. وقد أفردتها برسالة سميتها: «تدارك بقية العمر في تدبر سورة النصر» وقد ضمنت جلها في هذا التفسير.

(٢) أخرجه النسائي فيما ذكر ابن حجر في «فتح الباري» ٨/ ٧٣٤، والطبراني فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٥٣١. وقد خرج البخاري في التفسير ٤٦٥٤ عن «البراء أن آخر سورة نزلت براءة». والمراد به والله أعلم بعضها، وأن آخر سورة نزلت كاملة هي النصر. انظر «فتح الباري » ٨/ ٣١٦، ٧٣٤.

(٣) روي أنها لما نزلت بكى عمر والعباس رضي الله عنهما، فقيل لهما إن هذا يوم فرح، فقالا: بل فيه نعي النبي ﷺ. انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ٢٠/ ٢٣٢.

(٤) أخرجه البيهقي في الحج - باب خطبة الإمام بمنى أوسط أيام التشريق ٥/ ١٥٢.

(٥) أخرجه البيهقي - فيما ذكر ابن كثير في « تفسيره » ٨/ ٥٢٩. وأخرجه أحمد ١/ ٢١٧، ٣٤٤، ٣٥٦ مختصراً دون ذكر فاطمة، وإسناده صحيح. وأخرج ابن أبي حاتم في « تفسيره » ١٠/ ٣٤٧٢ - الأثر ١٩٥٢١ من حديث أم حبيبة رضي الله عنها قصة بكاء فاطمة.. الخ.

بعضهم وجد في نفسه، فقال: لِمَ يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال إنه ممن علمتم. فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم، فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريهم. فقال: ما تقولون في قول الله عز وجل: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفُتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا. فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، فذلك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا أعلم منها إلا ما تقول»[1].

قال ابن كثير [2]: «فالذي فسر به بعض الصحابة من جلساء عمر رضي الله عنهم أجمعين من أنه قد أمرنا إذا فتح الله علينا المدائن والحصون أن نحمد الله ونشكره؛ يعني: ونصلي له، ونستغفره معنى مليح صحيح، وقد ثبت له شاهد من صلاة النبي ﷺ يوم فتح مكة ثماني ركعات. وفي سنن أبي داود: « أنه ﷺ كان يسلم يوم الفتح من كل ركعتين » [3].

وهكذا فعل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يوم فتح المدائن.

قال ابن كثير: وأما ما فسر به ابن عباس وعمر رضي الله عنهما من أن هذه السورة نُعي فيها إلى رسول الله ﷺ نفسه الكريمة: واعلم أنك إذا فتحت مكة ـ وهي قريتك التي أخرجتك ودخل الناس في دين الله أفواجاً فقد فرغ شغلنا بك في الدنيا، فتهيأ للقدوم علينا والوفود إلينا، فالآخرة خير لك من الدنيا، ولسوف يعطيك ربك فترضى، ولهذا قال: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾».

وروي أنها لما نزلت خطب رسول الله ﷺ: «إن عبداً خيره الله بين الدنيا وبين لقائه، فاختار لقاء الله» فعلم أبو بكر رضي الله عنه فقال: بل نفديك، أو فديناك بآبائنا وأمهاتنا

---

(١) أخرجه البخاري في تفسيره سورة ﴿إذا جاء نصر الله﴾ ٤٩٦٩، ٤٩٧٠، والترمذي في التفسير ٣٣٦٢، والطبري في «جامع البيان» ٣٠/ ٢١٥ ـ ٢١٦.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٥٣٢.

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة ٣٥٧، ومسلم في الحيض ٣٣٦، وأبو داود في الصلاة ١٢٩٠، ١٢٩١، والنسائي في الطهارة ٢٢٥، والترمذي في الصلاة ٤٧٤، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها ١٣٢٣ عن أم هانئ: «أنه ﷺ عام الفتح قام فصلى ثمان ركعات ... قالت: وذاك ضحى».

وأموالنا»[١].

وهكذا روي عن جميع المفسرين من التابعين ومن بعدهم أنها في الإخبار بدنو أجله ﷺ والاستعداد للقاء ربه[٢].

قوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ «إذا» ظرفية شرطية غير عاملة قال الزمخشري[٣]: «منصوب بسبح وهو لما يستقبل. قال: والإعلام بذلك قبل كونه من أعلام النبوة»[٤].

و « جاء » فعل ماضٍ مبني على الفتح، وهو فعل الشرط.

﴿نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ عونه لك على الأعداء من كفار قريش وغيرهم.

﴿وَٱلۡفَتۡحُ﴾ فتح مكة. وعطفه على قوله ﴿نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ وهو من نصر الله من عطف الخاص على العام تنويهاً بشأنه. و «ال» فيه للعهد الذهني، أي: الفتح العظيم المعروف المعهود في أذهانكم.

قال ابن كثير[٥]: «والمراد بالفتح هـهنا فتح مكة قولاً واحداً، فإن أحياء العرب كانت تتلوم بإسلامها فتح مكة، يقولون إن ظهر على قومه، فهو نبي، فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجاً».

وكان فتح مكة لعشر مضين من شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة، وحين دخلها ﷺ وقف على باب الكعبة ثم قال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك لـه، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده »[٦].

﴿وَرَأَيۡتَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ﴿ٱلنَّاسَ﴾ البشر، بنو آدم من العرب وغيرهم.

﴿يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ يدخلون في محل نصب على الحال، على اعتبار أن «رأيت» بصرية أو هي مفعول ثان على اعتبار «رأيت» علمية.

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٦٥٩، ٣٦٦٠ من حديث ابن أبي المُعَلّى عن أبيه رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن غريب»، ومن حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن صحيح». وانظر «الكشاف» ٤/ ٢٤٠.

(٢) انظر « جامع البيان » ٣٠/ ٢١٥ ـ ٢١٦.

(٣) في « الكشاف » ٤/ ٢٣٩.

(٤) ويحتمل كونها للماضي، بمعنى: إذ قد جاء، وعليه تكون متعلقة بمقدر ككمل الأمر أو أتم النعمة على العباد أو نحو ذلك لا بسبح.

(٥) في « تفسيره » ٨/ ٥٣٠.

(٦) أخرجه البخاري في العمرة ١٧٩٧، ومسلم في الحج ١٣٤٤ ـ من حديث ابن عمر مطولاً.

ومعنى ﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ أي: يسلمون، فيدخلون في دين الله «الإسلام» الذي لا يقبل الله من أحد سواه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

﴿أَفْوَاجًا﴾ جمع فوج، والفوج الجماعة، أي جماعات، جماعات.

عن عمرو بن سلمة رضي الله عنه قال: «لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ، وكانت الأحياء تتلوم[1] بإسلامها فتح مكة، يقولون: دعوه وقومه، فإن ظهر عليهم، فهو نبي»[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما رسول الله ﷺ في المدينة إذ قال: «الله أكبر، الله أكبر، جاء نصر الله والفتح، جاء أهل اليمن. قيل يا رسول الله، وما أهل اليمن؟ قال قوم رقيقة قلوبهم، لينة طباعهم، الإيمان يمان، والفقه يمان، والحكمة يمانية»[3]. وفي رواية زيادة «سخية قلوبهم عظيمة خشيتهم، فدخلوا في دين الله أفواجاً»[4].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية»[5].

قال ابن كثير[6]: «فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجاً، فلم تمض ستتان حتى استو سقت[7] جزيرة العرب إيماناً، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام، ولله الحمد والمنة».

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه بكى ذات يوم فقيل له: ما يبكيك؟ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس دخلوا في دين الله أفواجاً، وسيخرجون من دين

---

(١) تتلوم، أي: تنتظر. انظر «لسان العرب» مادة «لوم».
(٢) أخرجه البخاري في المغازي ٤٣٠٢، والنسائي في الأذان ٦٣٦.
(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٣٠/ ٢١٥. وانظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٥٣١.
(٤) ذكرها القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» ٢٠/ ٢٣٠.
(٥) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٥٧٥، ومسلم في الحج ١٣٥٣، وأبوداود في المناسك ٢٤٨٠، والنسائي في البيعة ٤١٧٠، والترمذي في السير ١٥٩٠.
(٦) في «تفسيره» ٨/ ٥٣٣.
(٧) أي: امتلأت إيماناً، انظر: «لسان العرب» مادة «وسق».

الله أفواجاً»[١].

والمعنى: إذا أتم الله لك النصر على الأعداء وفتح مكة ودخل الناس في دين الله جماعات جماعات فسبح بحمد ربك الخ. ويؤيد هذا ظاهر السياق، وإجراء «إذا» على معناها للاستقبال ويكون في هذا البشارة بحصول ذلك، وذلك علم من أعلام نبوته ﷺ، ويكون نزول السورة قبل فتح مكة.

ويحتمل أن المعنى: قد جاء نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله أفواجاً. ويؤيد هذا ما جاء في أن هذه السورة نزلت في حجة الوداع، وفتح مكة قبل ذلك بسنتين تقريباً، ويكون في ذلك الامتنان عليه ﷺ بما تم من النصر والفتح، ودخول الناس في دين الله أفواجاً.

﴿فَسَبِّحْ﴾ هذا أمر، والأمر في الأصل للوجوب.

والتسبيح: هو تنزيه الله عن النقائص والعيوب، وعن مشابهة المخلوقين.

﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: متلبساً بحمده، أي: حامداً له مثنياً عليه واصفاً له بالكمال مع المحبة والتعظيم قارناً جامعاً بين تسبيحه عز وجل وحمده، بقولك: «سبحان الله وبحمده» «سبحانك ربنا وبحمدك» ونحو ذلك، وبما هو أعم من ذلك، بذكره وشكره عز وجل، وعبادته والصلاة له وغير ذلك، ولهذا لما فتح ﷺ الكعبة صلى ثماني ركعات.

﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ أي: سله واطلب منه المغفرة.

والمغفرة: هي ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن عقوبته كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما في المناجاة: «أن الله عز وجل يدني المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه ـ أي ستره ورحمته ـ فيقرره بذنوبه، فيقول: أتذكر ذنب كذا وكذا؟ فيقول: أي رب نعم. فيقول الله عز وجل: أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»[٢].

وقَرَن عز وجل التسبيح والتحميد باسم الرب وصفة الربوبية تذكيراً بنعمه عز وجل، وهو أنه هو المربي بنعمه.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾.

كان: مسلوبة الزمان، أي: كان ومازال سبحانه وتعالى.

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٣٤٣.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٦٨٥، ومسلم في التوبة ٢٧٦٨، وابن ماجه في المقدمة ١٨٣، وأحمد ٢/ ٧٤.

﴿تَوَّابًا﴾: اسم من أسماء الله عز وجل على وزن «فعّال» يدل على أنه عز وجل من صفته التوبة الواسعة الكثيرة العظيمة، فهو كثير التوفيق لعباده للتوبة، كثير القبول لتوبة من تاب منهم.

وتوبة الله على العبد تنقسم إلى قسمين: توفيقه عز وجل للعبد أن يتوب، كما قال عز وجل عن الثلاثة الذين خلفوا ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ [التوبة: ١١٨]، أي: وفقهم للتوبة ليتوبوا، والقسم الثاني. قبوله توبة عبده إذا تاب، كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما صلى رسول الله ﷺ بعد إذ أنزلت عليه سورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾إلا يقول: فيها: «سبحانك ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي»[(١)].

وعنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي» يتأول القرآن »[(٢)].

وعنها رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر في آخر أمره من قول «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه» وقال: «إن ربي كان أخبرني أني سأرى علامة في أمتي، وأمرني إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره إنه كان تواباً، فقد رأيتها: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾»[(٣)].

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد، ولا يذهب ولا يجيء إلا قال: «سبحان الله وبحمده» فقلت يا رسول الله، إنك تكثر من «سبحان الله وبحمده» لا تذهب ولا تجيء، ولا تقوم ولا تقعد إلا قلت: «سبحان الله وبحمده»؟ قال: «إني أمرت بها، فقال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ إلى

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ـ تفسير سورة ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ ٤٩٦٧، ومسلم في الصلاة ٤٨٤.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ـ تفسير سورة ﴿إذا جاء نصر الله﴾ ٤٩٦٨، ومسلم في الصلاة ـ ما يقال في الركوع والسجود ٤٨٤، وأبوداود في الصلاة ـ الدعاء في الركوع والسجود ٨٧٧، والنسائي في التطبيق ١٠٤٧، وابن ماجه في إقامة الصلاة ـ التسبيح في الركوع والسجود ٨٨٩، وأحمد ٦/ ٤٣، ٤٩، ١٩٠. ومعنى «يتأول القرآن» أي: يرى أن ذلك معنى قوله ﴿فسبح بحمد ربك﴾ وعملا بمقتضاه.

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة ـ ما يقال في الركوع والسجود ٤٨٤، وأحمد ٦/ ٣٥.

آخر السورة»[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ قال: نعيت لرسول الله ﷺ نفسه حين أنزلت، فأخذ في أشد ما كان اجتهاداً في أمر الآخرة..»[2].

الفوائد والعبـــر:

١ـ البشارة بنصر الله لرسوله ﷺ وفتح مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، بحيث يكون كثير منهم من أهله وأنصاره، بعد أن كانوا من أعدائه. وقد وقع هذا المبشر به.

٢ـ تحقيق نصر الله عز وجل للرسول ﷺ والمسلمين وتمكينهم من فتح مكة وغيرها لقوله ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ قال بعضهم: المعنى: قد جاء نصر الله والفتح.

٣ـ دخول الناس في دين الله أفواجاً بعد نصر الله لرسوله ﷺ والمسلمين وفتح مكة، بخلاف ما كان عليه الأمر قبل الفتح، ولهذا قال عز وجل: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ﴾ [الحديد: ١٠].

٤ـ امتنان الله ـ عز وجل ـ على رسوله ﷺ والمؤمنين بنصره لهم، وفتح مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، وأن ذلك من نعم الله تعالى عليهم الموجبة لشكره، ولهذا قال بعده ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾.

٥ـ أن النصر بيد الله عز وجل لقوله ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، وقال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

٦ـ وجوب تنزيه الله عز وجل عن النقائص والعيوب وعن مشابهة المخلوقين، مقروناً ذلك بحمده عز وجل.

---

(١) اخرجه الطبري في «جامع البيان» ٣٠/ ٢١٦.

(٢) سبق تخريجه.

٧ـ أن لله عز وجل الكمال المطلق من جميع الوجوه، والحمد المطلق، فهو المنزه عن جميع النقائص والعيوب وعن مشابهة المخلوقين، وهو المحمود في جميع الأحوال وعلى كل حال.

٨ـ التذكير بنعم الله على العباد التي لا تحصى، من نعمة النصر والفتح، ودخول الناس في دين الله أفواجاً وغير ذلك، لقوله ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فَقَرْنُ الحمد بوصف ربوبيته الخاصة لنبيه ﷺ فيه تذكير بنعمه ـ عز وجل ـ عليه وعلى أمته.

٩ـ تشريفه ﷺ وتكريمه بربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة له.

١٠ـ وجوب الاستغفار والتوبة إلى الله ـ عز وجل ـ لقوله: (واستغفره) وهو أمر له ﷺ ولأمته.

ولهذا كان ﷺ يقول: «يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه، فإني أتوب إلى الله وأستغفره في كل يوم مائة مرة، أو أكثر من مائة مرة»[(١)] .

وكان يقول ﷺ: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»[(٢)].

وكان ﷺ يقول في دعائه: «اللهم اغفر خطئي وعمدي، وجدّي وهزلي، وإسرافي في أمري، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم، وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير»[(٣)].

وليس في أمره عز وجل لنبيه ﷺ بالاستغفار ما يلزم منه وقوع الذنب منه ﷺ مع أنه ﷺ وكذا غيره من الأنبياء معصومون من الخطأ في تبليغ ما أرسلوا به، ومن الوقوع في الكبائر، أما الصغائر فقد تقع منهم على الصحيح من أقوال أهل العلم، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله لكنهم لا يُقَرُّون عليها، بل سرعان ما يتوبون منها[(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٢٧٠٢، وأبو داود في الصلاة ١٥١٥، وأحمد ٤/٢١١، ٢٦٠ ـ من حديث الأغر المزني رضي الله عنه. وأخرجه ابن ماجه في الأدب ٣٨١٥ ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٣٠٧، والترمذي في التفسير ٣٢٥٩، وابن ماجه في الأدب ٣٨١٦ ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٣٩٨، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٢٧١٩ من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٤) انظر «مجموع الفتاوى» ٤/٣١٩، ١٠/٢٩٣ ـ ٣١٣، ١٥/١٥٠، «الرسل والرسالات» للأشقر ص١٠٧ ـ ١١١.

١١ـ وجوب شكر الله على نعمة النصر على الأعداء والفتح للمسلمين وعلى كل نعمة من نعمه عز وجل بتسبيحه وتحميده واستغفاره والتوبة إليه.

١٢ـ مشروعية سجدة الشكر، وقول «سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي» في الركوع والسجود لقوله ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: وكان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي، يتأول القرآن»[1].

١٣ـ الإشارة إلى أن النصر يستمر للدين، ويزداد عند شكر الله بالتسبيح بحمده واستغفاره، كما قال عز وجل: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]. ولم يزل نصر الله لدينه في عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين ومن بعدهم لما كانت الأمة شاكرة لله عز وجل، مسبحة بحمده مستغفرة، قائمة بأمره متمسكة بحبله، ولما حدث في الأمة ما حدث من المخالفة لأمر الله أصابها ما أصابها من الضعف والاختلاف والتفرق، ووعد الله بالنصر ثابت لا يتخلف. كما قال عز وجل ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

١٤ـ الإشارة إلى قرب دنو أجله ﷺ، وحثه ﷺ على ختام عمره بالتسبيح بحمد الله واستغفاره، ليستعد ويتهيأ للقاء ربه.

١٥ـ فضل التسبيح والتحميد والاستغفار، لأن الله أمر بذلك في ختام الأعمار، كما في هذه السورة، وأمر به في ختام الأعمال، كالصلاة والصوم والحج وغير ذلك.

١٦ـ وجوب الاستعداد للقاء الله عز وجل، والانتقال من هذه الدار الفانية إلى الدار الآخرة الباقية، كما قال عز وجل: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]. أي: لهي الحياة الحقيقية، فيجب على كل إنسان الاستعداد لهذا اللقاء العظيم، ولذلك الانتقال، وأن يزداد في الاستعداد لذلك كلما تقدم به العمر، فيكثر من التسبيح بحمد الله واستغفاره فإن التسبيح والتحميد والاستغفار ختام الأعمال وختام الأعمار، ولنا في نبينا ﷺ خير أسوة فقد أمره الله عز وجل بذلك بعد أن أتم له النصر والفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وتقدم به العمر صلوات الله وسلامه عليه، فكان يكثر من تسبيح الله عز وجل وحمده واستغفاره وذكره استجابة لأمر الله عز وجل له في هذه السورة، وفي قوله

(١) سبق تخريجه.

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الانشراح: ٧، ٨]. فكان أشد ما كان اجتهاداً في أمر الآخرة كما قال ابن عباس رضي الله عنهما[1].

١٧- إثبات اسم الله - عز وجل - «التواب» وصفة التوبة له - عز وجل - وهي قسمان: توفيقه عبده للتوبة، وقبولها منه.

فائــدة بم يكون الاستعداد للقاء الله؟

يكون الاستعداد للقاء الله عز وجل بأمور عدة من أهمها ما يلي:

الأمر الأول: تقوى الله عز وجل بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وهي رأس الأمر كله، ومن أعظم ما يعين على ذلك ما يلي:

أولاً: التفكر في عظمة الله عز وجل، وما لـه من صفات الكمال والجلال، مما جاء في الكتاب والسنة، ودلت عليه الآيات الكونية. قال عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

ثانياً: التفكر في نعم الله عز وجل على العباد، التي لا تحصى كما قال عز وجل: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨]، وقال عز وجل: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وقد قال عز وجل ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

ثالثاً: التفكر في حقارة الدنيا، ودنو منزلتها، وكيف وصفها الله في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ [الحديد: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ [العنكبوت: ٦٤] وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥، الحديد: ٢٠]، وقال تعالى:﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦] وقال تعالى:﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

وقال ﷺ: «لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً

---

(١) سبق تخريجه.

شربة ماء»[١].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاءً، فقال: «مالي وما للدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»[٢].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي، فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» وكان ابن عمر يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»[٣].

ويالله ما مدى بركة عمر من وفقه الله لهذا التصور، ثم أعطاه من العمر ما أعطاه، ويا لله ما أقل بركة عمر معمر غاب عنه هذا التصور، وعاش غافلاً لاهياً حتى فاجأه الأجل.

ولقد أحسن القائل[٤].

فما نحن في دار المنى غير أننـــا ... شغفنا بدنيا تضمحل وتذهب

فحثوا مطايـــا الارتحال وشمروا ... إلى الله والدار التي ليس تخرب

رابعاً: التفكر في عظمة الآخرة وعلو مكانتها ورفعة منزلتها، وأنها دار القرار ودار الحياة الحقيقية، إما نعيم أبدي، نسأل الله من فضله، أو عذاب سرمدي، نسأل الله السلامة، كما قال عز وجل: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

خامساً: أن يتفكر الإنسان في ضعفه، فهو من أضعف المخلوقات، إن لم يكن أضعفها، وعمره بالنسبة لأعمار من سبق من الأمم لا يساوي شيئاً. قال ﷺ: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك»[٥]. فيستمد قوته من القوي المتين سبحانه،

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٢٠، وابن ماجه في الزهد ٤١١٠ من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٧٧، وابن ماجه في الزهد ٤١٠٩ قال الترمذي «حديث حسن صحيح. وفي الباب عن ابن عمر وابن عباس».

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤١٦، والترمذي في الزهد ٢٣٣٣، وابن ماجه في الزهد ٤١١٤.

(٤) هذان البيتان من قصيدة للشاعر ابن عثيمين مطلعها:

هو الموت ما منه ملاذ ومهرب ... متى حط ذا عن نعشه ذاك يركب

انظر «ديوان ابن عثيمين» ص٤٩٨، طبعة دار المعارف بمصر.

(٥) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٥٠، وابن ماجه في الزهد ٤٢٣٦، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن غريب».

ويستمد بركة العمر من الحي القيوم الذي لا يموت.

سادساً: أن يكون فراق هذه الدنيا، والرحيل منها دائماً منه على بال، وأن يكثر من ذكر هاذم اللذات «الموت» كما قال ﷺ «أكثروا من ذكر هاذم اللذات»[1].

فمن وفقه الله عز وجل للتفكر في هذه الأشياء كان ذلك ـ بإذن الله عز وجل ـ من أكبر العون لـه على تقوى الله.

فمن عظم الله عز وجل وقدره دعاه ذلك إلى الفرار إليه واللجوء إليه ومحبته وخوفه ورجائه، ومن تفكر في نعمه عز وجل على العباد دعاه ذلك إلى شكره، ومن تفكر في حقارة الدنيا دعاه ذلك إلى عدم الاغترار بها، ومن تفكر في عظمة الآخرة دعاه ذلك إلى الإقبال عليها والتزود لها، ومن تفكر في ضعفه دعاه ذلك إلى استمداد القوة من القوي المتين، ومن تفكر في قصر عمره دعاه ذلك إلى الحرص على استغلاله بالخير والعمل الصالح، ومن تذكر الموت والرحيل من هذه الدار دعاه ذلك إلى المبادرة بالعمل الصالح أيام الحياة، والاستعداد للدار الآخرة.

الأمر الثاني: مما يستعد به للقاء الله والدار الآخرة.

أداء ما عليه من حقوق لله تعالى، أو للخلق، والخروج منها كلها وبخاصة حقوق الخلق من الدماء والأعراض والأموال وغير ذلك، فإن حقوق الخلق مبنية على المشاحة، فامك وأبوك وولدك كل منهم سيطالبك بحقه إن كان لـه حق عندك ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٧].

بل إن العاقل اللبيب يحرص كل الحرص على عدم تحمل أي حق للخلق من الديون وغيرها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، لأن الإنسان لا يدري متى يفجاه الأجل، ونفس المؤمن معلقة بدينه حتى يُقضى عنه، كما جاء في الحديث[2].

ومن صدق الثقة بموعود الله عز وجل وجزيل ثوابه أن يعفو الإنسان عما لـه من حقوق عند الآخرين، من دم أو عرض أو مال ونحو ذلك ما أمكنه ذلك، قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾

---

(١) اخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٠٧، والنسائي في الجنائز ١٨٢٤، وابن ماجه في الزهد ٤٢٥٨ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح غريب».

(٢) اخرجه الترمذي في الجنائز ١٠٧٨، ١٠٧٩، وابن ماجه في الأحكام ٢٤١٣، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[البقرة: ٢٣٧]وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

فاحرص أخي المسلم بارك الله فيك على أن تقدم على ربك وليس لأحد من الخلق عليك حق ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، وتأمل خطورة الأمر، وتذكر قول الناصح الأمين ﷺ لأصحابه: «أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا. فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار»(١).

واحرص أخي المسلم على مسامحة إخوانك المسلمين والعفو عن هفواتهم، واعلم أنك كما تدين تدان، فإن كنت تحب أن يعفو الله عن ذنوبك وهفواتك فاعف عن الآخرين، وكن من الذين قال الله فيهم: ﴿۞ وَسَارِعُوٓا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣، ١٤٣]. نسأل الله الكريم من فضله.

واحذر أن يكون في نفسك حقد أو عداوة أو ضغينة أو حسد لأحد من المسلمين، حتى وإن أساء إليك، واعلم أنه قل من يسلم من ذلك، واعلم أن هذا مركب صعب وعقبة كؤود وصدق الله العظيم: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

واعلم أخي المسلم أنك لن تهدأ، ولن تنام قرير العين ولن تذق طعم السعادة حتى تجعل العفو والتسامح ديدنك، وما إخالك ترضى بالدون، وأنت تجد ما هو أعظم وأوفى منه، فإن من كان شعاره العفو والتسامح فأجره على العفو الكريم، بلا حد ولا عد ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

---

(١) اخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨١، والترمذي في صفة القيامة ٢٤١٨ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فعالج قلبك، والعاقبة للمتقين ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، عسى أن تلقى الله وقد تخلصت مما عليك من الحقوق فلا أحد يطالبك بشيء، وعفوت عما لك من الحقوق فيكافئك عن ذلك صاحب العفو والفضل والإحسان بكرمه وجوده ـ وما أراك تعدل بهذا شيئاً.

وتأمل وفقك الله مدى الفرق الشاسع والبون الواسع بين من يأتي غداً يطلب حقوقه عند الآخرين من أقاربه وجيرانه وإخوانه وغيرهم فيقتطع له من أعمالهم بقدر حقه ولو كان مثقال ذرة، وبين من يقال له بلسان الحال أو المقال أنت سامحت أصحاب الحقوق التي لك والله ـ عز وجل ـ أولى منك بالمسامحة فخذ ما شئت من الأجر والفضل بلا حد ولا عد ـ شتان بين هذا وهذا، وبين الثرى والثريا.

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعاً فما الضدان يجتمعان[1]

الأمر الثالث:

كتابة وصيته وما عليه من حقوق، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده»[2].

والوصية واجبة بالاتفاق إذا كان الإنسان عليه أو له حقوق يجب بيانها وكتابتها، كأن يكون عليه ديون للناس، أو له عليهم ديون، ليؤدى ما عليه من حقوق من تركته، ولأن الحقوق التي له على الناس تعد من تركته.

وجمهور العلماء على أنها مستحبة إذا لم يكن عليه حقوق يجب بيانها فيستحب أن يوصي بشيء من ماله للفقراء والمساكين من غير الوارثين. قالوا: لأن وجوب الوصية منسوخ بآيات المواريث.

وذهب بعض أهل العلم إلى أنها واجبة قالوا: لأن آيات المواريث إنما هي مخصصة لآية الوصية خصصتها في الأقربين غير الوارثين. فالميراث للوالدين والأقربين الوارثين، والوصية لغير

---

(١) البيت لابن القيم في «نونيته» ص١١.

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٣٨، ومسلم في الوصية ١٦٢٧، وأبوداود في الوصايا ٢١١٨، والنسائي في الوصايا ٣٦١٥، والترمذي في الجنائز ٩٧٤، وابن ماجه في الوصايا ٢٦٩٩.

الوارثين.

ومما ينبغي أن يعلم من أحكام الوصية أمران وهما من الأهمية بمكان؛

الأول: مقدارها.

اعلم أخي المسلم ـ بارك الله فيك ـ أن الوصية جائزة في الثلث وما دونه لقوله ﷺ لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «الثلث والثلث كثير»(١).

ويستحب أن تكون الوصية دون الثلث، لقوله ﷺ لسعد: «والثلث كثير»، ولهذا قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع لكان أفضل؛ لأن رسول الله ﷺ قال: «الثلث والثلث كثير، أو كبير»(٢).

وقال ابن عباس أيضاً: «الذي يوصي بالخمس أفضل من الذي يوصي بالربع، والذي يوصي بالربع أفضل من الذي يوصي بالثلث»(٣).

وقد أوصى أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ بالخمس وقال: «رضيت لنفسي بما رضي الله به لنفسه ورسوله»(٤) يعني في قوله تعالى: ﴿۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١].

وقال علي ـ رضي الله عنه ـ: «لأن أوصي بالخمس احب إلي من أن أوصي بالربع، ولأن أوصي بالربع احب إليَّ من أن أوصي بالثلث ومن أوصى بالثلث لم يترك شيئاً»(٥) فالأفضل أن تكون الوصية في الخمس وعليه أكثر السلف، واستحب بعضهم إذا كان المال كثيراً والورثة أغنياء أو قلة أن يزيد من الخمس إلى الربع لأنه أنفع للفقراء والمساكين(٦).

---

(١) اخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٤٢، ومسلم في الوصية ١٦٢٨، وابوداود في الوصايا ٢٨٦٤، والنسائي في الوصايا ٣٦٢٦، والترمذي في الوصايا ٢١١٦ من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «عادني رسول الله ﷺ في حجة الوداع من وجع اشفيت منه على الموت. فقلت يا رسول الله بلغني ما ترى من الوجع وأنا ذو مال، ولا يرثني إلا ابنة واحدة أفاتصدق بثلثي مالي؟ قال: لا. قلت أفاتصدق بشطره؟ قال: لا. الثلث، والثلث كثير، إنك أن تذر ورثتك اغنياء خير من أن تذرهم يتكففون الناس».

(٢) اخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٤٣، ومسلم في الوصية ١٦٢٩.

(٣) اخرجه البيهقي في الوصايا ٦/ ٢٧٠.

(٤) اخرجه عبد الرزاق في الوصايا «المصنف» ٩/ ٦٦، الأثران ١٦٣٦٣ ـ ١٦٣٦٤، وابن ابي شيبة في الوصايا «المصنف» ١١/ ٢٠٠ ـ الأثر ١٠٩٦٥، والبيهقي في الوصايا «سنن البيهقي» ٦/ ٢٧٠.

(٥) اخرجه عن علي عبد الرزاق في الوصايا ٩/ ٦٦ وابن ابي شيبة في الوصايا ١١/ ٢٠٢، والبيهقي في الوصايا ٦/ ٢٧٠.

(٦) انظر: «المصنف» لعبد الرزاق ٩/ ٦٦، ٦٧، «المصنف» لابن ابي شيبة ١١/ ٢٠٠ ـ ٢٠٣، «سنن البيهقي» ٦/ ٢٧٠، «احكام القرآن» للهراسي ١/ ٣٧٠، «الكشاف» ١/ ٢٥٠، «المحرر الوجيز» ٤/ ٩٣، «تفسير ابن كثير» ٢/ ١٩٢، «العذب الفائض» ٢/ ١٨٢.

والعجيب أن كثيراً من الناس يعتقدون أن الوصية لابد أن تكون في الثلث، وكأنها لا تجوز بأقل منه، وذلك أمر مشتهر بين عامة الناس من المنتسبين إلى العلم والعوام، ينقله الخلف عن وصايا السلف.

الأمر الثاني: مصرفها:

اعلم أخي ـ بارك الله فيك ـ أن الوصية ينبغي أن توجه للأفضل من أعمال البر، وأن تكون مطلقة في وجوه البر كلها يُقدّم الأهم فالأهم، ويترك ذلك للناظر على الوصية.

والعجيب في هذا الأمر: أن كثيراً من الوصايا في السابق مقيدة في جهات ـ هي بلا شك من البر ـ لكن نفعها وفضلها أقل، كأن تكون مقيدة في حجة أو أضحية أو عشاء في رمضان، وهذه وإن كانت من وجوه البر فهناك ما هو أولى منها وأهم كبناء المساجد وتعليم القرآن الكريم والسنة المطهرة ومساعدة الفقراء والمساكين وحفر الآبار وفتح الطرق، وبناء المستشفيات والمراكز لغسيل الكلى وعلاج الأورام وغيرها، ودور الرعاية الاجتماعية وغير ذلك مما يحتاجه المسلمون في مصالحهم العامة والخاصة.

كما أن مما يستحب أن يوصي به أهله ومن خلفه تقوى الله والصلاة، وحقوق من تحت أيديهم، فعن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: كان آخر كلام رسول الله ﷺ: «الصلاة الصلاة، واتقوا الله فيما ملكت أيمانكم»[1]. وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: كانت عامة وصية رسول الله ﷺ ـ حين حضرته الوفاة وهو يغرغر بنفسه: «الصلاة وما ملكت أيمانكم»[2]. وفي حديث أم سلمة ـ رضي الله عنها: «فما زال يقولها حتى ما يفيض بها لسانه»[3]. وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنه ﷺ أخذ يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه ويقول: «لا إله إلا الله إن للموت سكرات»[4]، وعنها: أنه كان يقول: «اللهم اغفر لي وارحمني والحقني بالرفيق الأعلى»[5]. وفي رواية عنها أنه كان يقول: «اللهم أعني على غمرات الموت أو سكرات الموت»[6].

هذا وقد استحب بعض أهل العلم أن يكتب في صدر الوصية ما رواه محمد بن سيرين عن أنس بن مالك قال: «كانوا يكتبون في صدور وصاياهم: بسم الله الرحمن

---

(١) أخرجه ابو داود في الأدب ٥١٥٦، وابن ماجه في الوصايا ٢٦٩٨.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الوصايا ٢٦٩٧، وأحمد ٣/ ١١٧.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الجنائز ١٦٢٥، وأحمد ٦/ ٢٩٠.

(٤) أخرجه البخاري في المغازي ٤٤٤٩.

(٥) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة ٢٤٤٤، والترمذي في الدعوات ٣٤٩٦، وابن ماجه في الجنائز ١٦١٩، وأحمد ٦/ ٢٣١.

(٦) أخرجه الترمذي في الجنائز ٩٧٨ وقال الترمذي: «حديث غريب» وابن ماجه في الجنائز ١٦٢٣، وأحمد ٦/ ٦٤.

الرحيم هذا ما أوصى به فلان، إنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله ﷺ وأن الجنة حق، وأن النار حق ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧] وأوصى من تركه من أهله أن يتقوا الله، ويصلحوا ذات بينهم، ويطيعوا الله ورسوله إن كانوا مؤمنين، وأوصاهم بما أوصى إبراهيم بنيه ويعقوب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[البقرة: ١٣٢]»[(١)].

وإنني أقول بهذه المناسبة يجب على طلبة العلم والمحاضرين والخطباء تنبيه الناس إلى هذه الأحكام وأمثالها التي تخفى على الكثيرين وهي من مهمات أمور الدين. وفق الله الجميع لكل خير.

وأخيراً، وعوداً على بدء أقول: إن من الاستعداد للقاء الله والدار الآخرة ـ مع ما سبق ذكره ـ أن يكون الإنسان كلما تقدم به العمر أكثر تنظيماً لأحواله وتفرغاً لعبادة ربه، فإن الله عز وجل في هذه السورة العظيمة سورة النصر آذن رسوله ﷺ بقرب وفاته، وبانتهاء مهمته في هذه الحياة، وأمره بالتوجه إلى الله والتفرغ لتسبيح الله وحمده واستغفاره، كما قال تعالى في سورة الانشراح: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الانشراح: ٧، ٨].

ولن يتيسر ذلك للإنسان إلا إذا اكتفى من التعلق بالدنيا بما تدعو الحاجة إليه، وهو نصيبه من الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧].

وأنت أخي المسلم أحد رجلين: إما منَعم موسع عليه في رزقه، وإما مبتلى مضيّق عليه في ذلك ـ كما ذكر الله عز وجل[(٢)]، فإن كنت ممن ابتلي بضيق الحال، وقلة ذات اليد، وتحتاج إلى الكد والعمل الساعات الطويلة للسعي في طلب الرزق، لإعفاف نفسك وأهل بيتك، مما لا تستطيع معه التفرغ للعبادة فالزم أداء الفرائض واجتناب النواهي مع القيام بما قدرت عليه من النوافل، وأبشر بالخير فإنك مثاب مأجور على طلب الرزق لإعفاف نفسك بإذن الله عز وجل فإن السعي لطلب الرزق من طاعة الله تعالى وعبادته. فإن الإنسان يؤجر حتى على ما يجعل في في امرأته[(٣)].

وإن كنت ممن نعمّه الله ووسع له في رزقه فاحذر أن تبطرك النعمة وتلهيك الدنيا

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» الوصايا ـ كيف نكتب الوصية ٩/ ٥٣، وابن أبي شيبة في «المصنف» الوصايا ١١/ ٢٣٢، والبيهقي في «سننه» ٦/ ٢٢٧.

(٢) في قوله تعالى ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن وإما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن﴾ [الفجر: ١٥ ـ ١٦].

(٣) كما في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: «وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها حتى ما تجعل في في امرأتك» أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٤٢، ومسلم في الوصية ١٦٢٨.

عن طاعة الله عز وجل، وفرغ نفسك بعض الوقت لعبادة ربك والاستزادة من نوافل العبادة، واحرص على ذلك كلما تقدم بك العمر، وخذ أكبر نصيب من ربك، واحفظ دينك، وقدم مالك وقاية لدينك، فإن كان لك أموال تشغلك إدارتها، من تجارة، أو زراعة، أو صناعة، أو غير ذلك فشجع أولادك على مساعدتك، بل وعلى النيابة عنك لتتفرغ لما هو أهم وهو عبادة ربك، ولا تبخل على أولادك في هذا ولوشاطرتهم بعض مالك، فالمال إن بخلت به عنهم شغلك عن طاعة الله حتى آخر لحظة من عمرك، ثم تركته وانتقل بعدك إليهم، بل لا تبخل بمالك على من تقيمه يدير أعمالك وإن لم يكن من أولادك مادام أنه يكفيك إدارة تلك الأموال لتتفرغ لعبادة ربك بقلب حاضر خاشع منيب.

واعلم أن الدنيا بما فيها لا قيمة لها إذا ضيعت نصيبك من ربك، والله المستعان.

وختاماً أقول: أخي المسلم تذكر أن المفازة بعيدة، وأن السفر شاق وأن العقبة كؤود فاعدَّ للأمر عدته.

بكى أبو هريرة رضي الله عنه لما حضرته الوفاة، ثم قال رضي الله عنه: «والله ما أبكي على دنياكم هذه، وإنما أبكي على طول سفري وقلة زادي»[1].

وبكى معاذ بن جبل رضي الله عنه عند وفاته، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال رضي الله عنه: «أبكي إذا صلى المصلون ولست فيهم، وإذا صام الصائمون ولست فيهم وإذا ذكر الذاكرون ولست فيهم».

وإن مما يثير العجب أن الواحد منا إذا أراد سفراً من الأسفار من بلد إلى بلد آخر كالسفر للحج أو العمرة أو غير ذلك يعد للأمر عدته ويتجهز لذلك بإعداد الزاد والمزاد والراحلة واختيار الرفقة، ويتفقد السيارة ومحركاتها وعجلاتها ونحو ذلك.

بل إن بعض الناس إذا هم بسفر من الأسفار ظل طول ليله يدخل ويخرج، يرقب الصباح، ولم تذق عينه غمضاً اهتماماً وتحفزاً لهذا السفر ـ فأين هذا السفر من السفر للقاء الله والدار الآخرة.

اللهم ألهمنا رشدنا ووفقنا للاستعداد لما أمامنا، ووفقنا للإخلاص والسداد في القول والعمل، ولا تكلنا إلى انفسنا ولا إلى أحد من خلقك طرفة عين ولا أقل من ذلك.

---

(١) انظر «سير أعلام النبلاء» ٢/ ٤٠.

تفسير سورة المسد

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى: يا صباحاه، فاجتمعت إليه قريش، فقال: «ارأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم، أكنتم تصدقوني؟ قالوا: نعم، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا تباً لك، فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾.

وفي رواية: فقام ينفض يديه، وهو يقول: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟، فأنزل الله ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [١].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾.

قوله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ قرأ ابن كثير (ابي لهْب) بإسكان الهاء، وقرأ الباقون بفتحها.

﴿تَبَّتْ﴾ أي: خسرت وخابت وهلكت، والتباب: هو الهلاك والخيبة والخسران، يقال في المثل: «أشابة أم تابة» أي: هالكة من الهرم والتعجيز.

وأبو لهب: هو أحد أعمام النبي ﷺ واسمه: عبد العزى بن عبد المطلب، وكنيته: أبو عتبة وإنما سمي بـ «أبي لهب» لإشراق وجهه ووضاءته، وكان شديد البغض والعداوة والكراهة للنبي ﷺ، شديد التنقص له ﷺ، والازدراء به، وبدينه، كثير الأذية له ﷺ، لا دين يردعه، ولا حمية للقرابة تمنعه.

عن أبي ربيعة الديلي رضي الله عنه قال: «رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز، وهو يقول: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»، والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل أحول وضيء الوجه ذا غديرتين [٢]، يقول: إنه صابئ كاذب، يتبعه حيث ذهب، فسألت

---

(١) اخرجه البخاري في التفسير - تفسير سورة ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ ٤٩٧١ - ٤٩٧٣، ومسلم في الإيمان ٢٠٨، والترمذي في التفسير ٣٣٦٣، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٧١٥ - ٧١٦، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٧٣.

(٢) الغديرتان: هما الذؤابتان من الشعر.

عنه، فقالوا: هذا عمه أبو لهب»[١].

ومعنى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ أي هلك وخاب وخسر وشقي هو بنفسه، وضل عمله وسعيه، وهذا دعاء عليه، وإنما خص التباب باليدين، لأن العمل أكثر ما يكون بهما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الحج: ١٠]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤]، ولا يقال في مثل هذا مجاز مرسل أطلق الجزء وأراد الكل، بل واضح من السياق أن المراد بذلك الشخص نفسه.

وليس في ذكر «أبي لهب» بكنيته تكريم له، كما يقال: إن الأصل في الكنية التكريم، وإنما ذكر بكنيته - والله أعلم - ليشتهر أمره، لأنه مشهور بكنيته، ولأن اسمه «عبد العزى» معبد لغير الله وليوافق نسبه وكنيته ما آل إليه فهو أبو لهب وسيصلى ناراً ذات لهب[٢].

﴿وَتَبَّ﴾ أي: تحقق هلاكه وخيبته وخسرانه فعلاً، فلم يربح، وهذا إخبار من الله عز وجل بمصيره ونهايته، وأنها التباب والهلاك والخيبة والخسران فالأول دعاء عليه[٣]، والثاني إخبار عنه.

وقد وقع هذا كما أخبر الله عز وجل حيث مات أبو لهب على الكفر والشرك فخسر دينه ودنياه[٤].

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ﴾ ﴿مَآ﴾ نافية، أي: ما دفع عنه العذاب ماله الذي كان يجمعه عنده ويحتمل أن تكون «ما» استفهامية ويكون المعنى: أي شيء أغنى عنه ماله الذي كان يجمعه.

﴿وَمَا كَسَبَ﴾ الواو عاطفة، و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: والذي كسب، أو وكسبه.

أي: وما كسب من العمل الذي يظنه على شيء ومن الجاه ومن الولد وغير ذلك،

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٤٩٢، ٤/ ٣٤١ - ٣٤٢ وانظر «السيرة النبوية» لابن هشام ١/ ٣٥١، ٤٢٣.

(٢) وقيل إن الاسم أشرف من الكنية فذكر بما هو أقل، قالوا: ولهذا ذكر الأنبياء كلهم بأسمائهم لا بكناهم، انظر «الجامع لأحكام القرآن» ٢٠/ ٢٣٦.

(٣) والدعاء من الله عليه يحتمل أن يراد به تعليم عباده الدعاء عليه، وأمرهم بذلك، ويحتمل أن يراد به ذمه في الملأ الأعلى، كما أن الصلاة على النبي ﷺ من الله معناها الثناء عليه في الملأ الأعلى.

(٤) أصابه مرض خطير مات بسببه، فلم يتمكنوا من تغسيله، فأراقوا عليه الماء فقط، وكان ذلك قبل وقعة بدر.

لأن الولد من الكسب كما جاء في الحديث «إن أطيب ما أكلتم من كسبكم وإن أولادكم من كسبكم»[1].

وقد روي عنه أنه كان يقول: «لئن كان ما يقول ابن أخي حقاً فإني أفتدي نفسي يوم القيامة بمالي وولدي، فأنزل الله ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾.

والمعنى: أنه لم ينفعه ماله الذي جمعه، ولا ما كسبه من عمل أو ولد وغير ذلك، والذي كان سبب طغيانه، ولم يدفع عنه عذاب الله والتباب والخسران في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى عن قوم نوح ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: ٢١].

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا﴾ أي: سيدخلها ويقاسي حرها ولفحها، ويغمر فيها، وتحيط به من كل جانب، والسين للاستقبال، وتفيد الوعيد، أي: هو كائن لا محالة، وإن تراخى وقته إليها، ونكرت (ناراً) للتهويل والتعظيم.

﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ ذات: صفة لـ «ناراً» منصوبة، أي: ذات توقد واشتعال، وشرر ولهيب، وإحراق شديد.

فلم ينفع أبا لهب قربه من النبي ﷺ لما كفر وعاند وجحد الحق وسعى في إبطاله وقد أحسن القائل:

لعمـــرك مـــا الإنســـان إلا بدينـــه فلا تترك التقوى اتكالاً على النسب

لقـد رفـع الإسـلام سـلمان فـارس وقد وضـع الشـرك النسيب أبا لهـب

ولما سال ﷺ ربه أن يدعو لأمه أنزل الله قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤].

ولما شق عليه ﷺ وعز عليه أن يموت عمه أبو طالب على الكفر مع الأيادي البيضاء التي قدمها للنبي ﷺ في الدفاع والذود عنه طيلة حياة أبي طالب أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

---

(١) أخرجه أبو داود في البيوع -الرجل يأكل من مال ولده ٣٥٣٠، وابن ماجه في التجارات ـ ما للرجل من مال ولده ٢٢٩٢، وأحمد ٢/ ١٧٩، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» ٤/ ١٥٨ـ من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وقد سبق تخريجه من حديث عائشة ١/ ٢٨٣.

وقد أحسن القائل :

أبي الإسلام لا أبَ لي سواه ... إذا افتخروا بقيس أو تميم[١]

﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ الواو عاطفة، «وامرأته» معطوف على الضمير المستتر في قوله ﴿سَيَصۡلَىٰ﴾.

فالتقدير سيصلى هو وامرأته ناراً ذات لهب، ويحتمل كون الواو استئنافية وامرأته: مبتدأ، وخبره جملة ﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٌ﴾.

﴿حَمَّالَةَ﴾ قرأها عاصم بالنصب، مفعول به لفعل محذوف تقديره «أذم»، وقيل حال من «وامرأته»، وقرأها الباقون بالرفع (حَمَّالَةُ) صفة لـ (امرأة).

و﴿حَمَّالَةَ﴾ مضاف، و ﴿ٱلۡحَطَبِ﴾ مضاف إليه.

وهي أم جميل العوراء، واسمها أروى بنت حرب، أخت أبي سفيان، وكانت شديدة الأذى لرسول الله ﷺ تتعاون هي وزوجها على الإثم والعدوان، وتسعى غاية ما تقدر عليه في أذية الرسول ﷺ.

وكانت تحمل الشوك من الحسك والسعدان وغير ذلك وتلقيه في طريق النبي ﷺ أذية له وكرهاً، وكانت تمشي بالنميمة.

يقال: فلان يحطب على فلان، إذا ورّش عليه ووشى به، قال الشاعر:

من البيض لم تُصطد على ظهر لأمة ... ولم تمش بين الحي بالحطب الرطب

يعني: لم تمش بين الحي بالنميمة، وجعل الحطب رطباً ليدل على التدخين الذي هو زيادة في الشر.

فهي بأذيتها للرسول ﷺ وسعيها بالفساد والنميمة، ومساعدتها لزوجها على الباطل والكفر والجحود والفساد تجمع على ظهرها الأوزار كما تجمع الحطب في النار لتحرق نفسها وزوجها.

﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾ «في جيدها» جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، و(حبل) مبتدأ مؤخر (من مسد) جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لـ (حبل) التقدير: كائن من مسد.

---

(١) البيت لنهار بن توسعة.

و«جيدها» عنقها ورقبتها.

﴿حَبۡلٌ مِّن مَّسَدِۭ﴾ أي: مما يفتل فتلاً قوياً من الحبال من الليف، أو الخوص، أو الجلود وغير ذلك.

قال الجوهري[1] : «المسد: الليف، والمسد أيضاً: حبل من ليف أو خوص، قد يكون من جلود الإبل أو أوبارها، ومَسَدت الحبل أمسُده مسداً: إذا أجدت فتله».

والمعنى: في عنقها حبل مفتول فتلاً قوياً من النار يطوق به.

وقد رُويَ أنها كانت لها قلادة فاخرة، فقالت لأنفقنها في عداوة محمد، فأعقبها الله بها حبلاً في جيدها من مسد النار[2].

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: «لما نزلت ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾ أقبلت العوراء، أم جميل بنت حرب، ولها ولولة، وفي يدها فهر، وهي تقول:

مذمماً أبينا ... ودينه قلينا ... وأمره عصينا

ورسول الله ﷺ جالس في المسجد، ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر، قال: يا رسول الله قد أقبلت، وأنا أخاف عليك أن تراك، فقال رسول الله ﷺ: «إنها لن تراني»، وقرأ قرآنا اعتصم به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا﴾ [الإسراء: ٤٥]، فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر، ولم تر رسول الله ﷺ فقالت: يا أبا بكر، إني أخبرت أن صاحبك هجاني، قال: لا ورب هذا البيت ما هجاك، فولت، وهي تقول: قد علمت قريش أني ابنة سيدها»[3].

الفوائد والعبر:

١- الدعاء بالتباب والخيبة والخسران والهلاك على أبي لهب لقوله ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾ وهذا دعاء عليه، وذم له.

٢- حكم الله تعالى الكوني بهلاك أبي لهب وخسرانه، وإبطال كيده الذي يكيد به للرسول ﷺ ولدينه.

---

(١) في «الصحاح» مادة «مسد».

(٢) انظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٥٣٦.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٧٢ - الأثر ١٩٥٢٢. وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٥٣٦ وقال: «وقد روى الحافظ أبو بكر البزار معناه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال البزار: «لا نعلمه يروى بأحسن من هذا الإسناد عن أبي بكر رضي الله عنه».

٣- أن ما حكم الله به كوناً نافذ لا محالة، لقوله ﴿وَتَبَّ﴾ وهذا من الله إخبار بأن أبا لهب تب وخسر فعلاً، وهذا موجب أن يموت أبو لهب على الكفر والشرك وقد وقع ذلك.

٤- أن المال والكسب من الولد وغيره لا يغني عن صاحبه شيئاً، ولا يدفع عنه أو يمنعه عذاب الله إذا لم يتخذ العبد له وقاية من عذاب الله بالإيمان بالله والعمل الصالح.

٥- أن المال والولد ونحو ذلك قد يكون سبباً للفتنة، ورد الحق، والتكبر عن الانقياد له، والغرور بذلك، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، وقال تعالى عن الوليد ابن المغيرة: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ [المدثر: ١١ – ١٥]، وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧]، وقال عن صاحب الجنتين أنه قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

٦- الوعيد لأبي لهب وامرأته حمالة الحطب في إصلائهما النار ذات اللهب والشرر والتوقد والاشتعال الشديد.

٧- أنه ليس بين الله وبين أحد من خلقه نسب، وأنه لا ينفع الإنسان غداً إلا ما قدم من الإيمان والعمل الصالح فلا ينفع الإنسان شرف نسبه، ولا قرابته، مع الكفر والشرك والمعاصي، فأبو لهب عم النبي ﷺ لم ينفعه ذلك لما كفر وعاند وجحد الحق وسعى في إبطاله، بل سيصلى ناراً ذات لهب.

٨- صحة أنكحة الكفار فيما بينهم لقوله ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ وهكذا أسلم الكثير من الصحابة ولم يأمرهم النبي ﷺ بتجديد أنكحتهم وكان ﷺ يدعوهم لآبائهم.

٩- أن مما تعذب به امرأة أبي لهب حمالة الحطب أن يجعل في عنقها حبل من مسد النار.

١٠- التحذير من أذية الرسول ﷺ والمؤمنين وقد ذكر المفسرون أن امرأة أبي لهب كانت تؤذي رسول الله ﷺ وتعين زوجها على أذيته والكيد له وللإسلام والمسلمين، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا

مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧، ٥٨].

١١- التحذير من السعي بين الناس بالنميمة، وقد ذكر أهل التفسير أن امرأة أبي لهب كانت تمشي بالنميمة بين الناس، والنميمة من أكبر الكبائر. فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مر النبي ﷺ بقبرين، فقال: «إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، بلى إنه كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة»[1].

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة نمام»[2].

قال الفضيل بن عياض: «ثلاث تهد العمل الصالح، وتفطر الصائم، وتنقض الوضوء[3]: الغيبة والنميمة والكذب»

وقال أكثم بن صيفي لبنيه: «إياكم والنميمة فإنها محرقة، وإن النمام ليعمل في ساعة ما لا يعمل الساحر في شهر».

قال بعضهم:

إن النميمة نار ويك محرقة ... ففر عنها وجانب من تعاطاها[4]

١٢- في هذه السورة آية باهرة من آيات الله، فإن الله أنزل هذه السورة، وأبو لهب وامرأته لم يهلكا، وأخبر أنهما سيعذبان في النار ولا بد، ومن لازم ذلك أنهما لا يسلمان فوقع كما أخبر عالم الغيب والشهادة.

١٣- في هذه السورة معجزة ظاهرة، ودليل واضح، وبرهان ساطع على ثبوت نبوة نبينا محمد ﷺ.

١٤- أن الجزاء من جنس العمل فحيث دعا أبو لهب على النبي ﷺ بالتباب دعي عليه بذلك بل حكم الله عز وجل - عليه بذلك وكما كان هو وامرأته يؤذيان النبي ﷺ كان لهما العذاب والأذى في نار جهنم.

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء ٢٠٩، ومسلم في الطهارة ٤٣٩، وأبو داود في الطهارة ١٩، والنسائي في الجنائز ٢٠٤١، والترمذي في الطهارة ٦٥ وابن ماجه في الطهارة وسننها ٣٤١.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠٥٦، ومسلم في الإيمان ١٠٥، وأبو داود في الأدب ٤٨٧١، والترمذي في الصلة ٢٠٢٦.

(٣) كونها تهد العمل الصالح ظاهر فأعمال النمام تذهب لغيره، وأما كونها تفطر الصائم وتنقض الوضوء فمعناه أنها تنقص الأجر.

(٤) انظر «الجامع لأحكام القرآن» ٢٠/ ٢٣٩.

تفسير سورة الإخلاص[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾

سبب نزول هذه السورة

عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: «إن المشركين قالوا للنبي ﷺ: انسب لنا ربك، فأنزل الله عز وجل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾»[2].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «أن أعرابياً جاء إلى النبي ﷺ، فقال: انسب لنا ربك، فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلى آخرها»[3].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «جاءت اليهود إلى النبي ﷺ، منهم كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب،فقالوا: يا محمد صف لنا ربك، الذي بعثك فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ﴾ فيخرج منه شيء ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ فيخرج من شيء»[4].

ومحصل هذه الروايات بمجموعها أن المشركين من أهل مكة ومن أهل الكتاب سألوا النبي ﷺ أن ينسب ويصف لهم ربه فأنزل الله هذه السورة.

---

(١) قد أفردت هذه السورةمع سورتي المعوذتين برسالة سميتها «الحرز الأمين في تدبر سورة الإخلاص والمعوذتين» وقد ضمنت جلها في هذا التفسير، مع ما فيها من الإطناب والاستطراد لأمور تربوية وتوجيهية وفوائد أرجو من الله العلي القدير أن ينفع بها وأن يعفو عني.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» ٥/ ١٣٣ ـ ١٣٤، والترمذي في التفسير ـ تفسير سورة الإخلاص ٣٤٢٤، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٧٢٧ وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٧٤ ـ الأثر ١٩٥٣٢.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٧٢٨، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٥٣٨. وقال «إسناده مقارب» وقال ابن كثير أيضاً ـ بعدما ذكر رواية ابن جرير لـه قال: «وقد أرسله غير واحد من السلف».

وقد روي من طريق أبي وائل عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «قالت قريش لرسول الله ﷺ: انسب لنا ربك» فنزلت هذه السورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٥٣٨ وقال: «قال الطبراني: رواه الفريابي وغيره عن أبي وائل مرسلاً».

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٧٤ ـ الأثر ١٩٥٣٤، وفي رواية عن يوسف بن عبدالله بن سلام أن عبد الله بن سلام قال: «يا رسول الله انعت لنا ربك، فأنزل الله هذه السورة، فأسلم عبد الله بن سلام» أخرجها ابن أبي حاتم ـ الأثر ١٩٥٣٣.

فضل هذه السورة:

سورة الإخلاص سورة عظيمة من أعظم سور القرآن الكريم لما اشتملت عليه من الدلالة على أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات. ولهذا سميت سورة الإخلاص.

وقد وردت أحاديث عدة في فضلها، وفضل قراءتها في الصلاة وخارجها، وفي أدبار الصلوات، وفي الصباح والمساء، وعند النوم والقيام منه، وللاستشفاء بها، وفي أنها تعدل ثلث القرآن، إلى غير ذلك. منها ما يلي:

أ ـ ما ورد في فضل قراءتها وفضل حبها وحب قراءتها:

عن عائشة رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ بعث رجلاً في سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: سلوه، لأي شي يصنع ذلك؟ فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها. فقال النبي ﷺ: «أخبروه أن الله تعالى يحبه»[1].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه ـ قال: كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى يفرغ منها، ثم يقرأ سورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة، فكلمه أصحابه، فقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة، ثم لا ترى أنها تجزئك، حتى تقرأ بالأخرى، فإما أن تقرأ بها، وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى. فقال: ما أنا بتاركها إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت، وإن كرهتم تركتكم، وكانوا يرون أنه من أفضلهم، وكرهوا أن يؤمهم غيره. فلما أتاهم النبي ﷺ ـ أخبروه الخبر، فقال: «يا فلان، ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك؟ وما يحملك على لزوم هذه في كل ركعة»؟ قال: إني أحبها، قال: «حبك إياها أدخلك الجنة»[2].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه قال: أقبلت مع النبي ﷺ فسمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٣٧٥، ومسلم في صلاة المسافرين ـ فضل قراءة (قل هو الله أحد)، ٨١٣، والنسائي في الافتتاح ـ الفضل في قراءة (قل هو الله أحد) ٩٩٣.

(٢) أخرجه البخاري معلقاً في كتاب الأذان ٧٧٤، والترمذي في فضائل القرآن ـ ما جاء في سورة الإخلاص ٢٩٠١، وقال: «حديث غريب»،وأخرجه أحمد ٣/ ١٤١ مختصراً عن أنس قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ـ فقال: «إني أحب هذه السورة (قل هو الله أحد) فقال رسول الله ﷺ: «حبك إياها أدخلك الجنة».

﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «وجبت». قلت: وما وجبت؟ قال:«الجنة»[1].

وعن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى يختمها عشر مرات بنى الله لـه قصراً في الجنة، فقال عمر: إذن نستكثر يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: الله أكثر وأطيب»[2].

ب ـ ما ورد في أنها تعدل ثلث القرآن:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يرددها فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ، فذكر ذلك لـه، وكان الرجل يتقالها، فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن»[3].

وفي رواية عن أبي سعيد قال، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة فشق ذلك عليهم، وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: (الله الصمد) ثلث القرآن»[4].

وفي رواية عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: بات قتادة بن النعمان يقرأ الليل كله بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «والذي نفسي بيده لتعدل نصف القرآن، أو ثلثه»[5].

---

(١) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن ـ ماجاء في سورة الإخلاص ٢٨٩٧، ومالك في الموطا ـ كتاب القرآن ـ ما جاء في قراءة (قل هو الله أحد) حديث ٤٨٤.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٤٣٧ وقال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٥٤٤: «تفرد به أحمد» وأخرجه الدارمي في مسنده من حديث سعيد بن المسيب بأطول من هذا، ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٥٤٤ وقال: «مرسل جيد».

(٣) أخرجه البخاري في الأيمان ـ باب كيف كان يمين النبي ﷺ، ٦٦٤٣، وفي فضائل القرآن ـ فضل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ٥٠١٣، ٥٠١٤، وفي التوحيد ٧٣٧٤، وأخرجه أبوداود في الصلاة ١٤٦١، والنسائي في الافتتاح ٩٩٥. وروى نحوه من حديث أبي مسعود البدري ـ رضي الله عنه أحمد ٤/ ١٢٢، وابن ماجه في الأداب ـ ثواب القرآن ٣٧٨٩.

(٤) أخرجها البخاري في فضائل القرآن ـ باب فضل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ٥٠١٥ وقد أخرج مسلم في صلاة المسافرين ـ فضل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾٨١١، وأحمد ١/ ٤٧٧ ـ من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه نحوه. وكذلك روى نحوه من حديث أبي أيوب الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ أحمد ٥/ ٤١٨ ـ ٤١٩، والترمذي في فضائل القرآن ـ فضل سورة الإخلاص ٢٨٩٦.

ومن حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط قالت: قال رسول الله ﷺ (قل هو الله أحد) تعدل ثلث القرآن» أخرجه أحمد ٦/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤.

وهكذا روي عن نفر من أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن» رواه النسائي في اليوم والليلة. انظر: «تفسير ابن كثير» ٨/ ٥٤٢.

(٥) أخرجها البخاري في فضائل القرآن ٥٠١٤، وأحمد ٣/ ١٥ ـ ورُوِيَ معنى هذا من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، أخرجه أحمد ٢/ ١٧٣.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:«احشدوا فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن، فحشد من حشد، ثم خرج النبي ﷺ، فقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثم دخل. فقال بعضنا لبعض: قال رسول الله ﷺ: فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن، إني لأرى هذا خبراً جاء من السماء، ثم خرج نبي الله ﷺ، فقال: إني قلت سأقرأ عليكم ثلث القرآن، الا إنها تعدل ثلث القرآن»(١).

جـ ـ ما ورد في فضل قراءتها مع المعوذتين في الصباح والمساء.

عن معاذ بن عبد الله بن خبيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لـه: «قل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين حين تمسي، وحين تصبح ثلاث مرات تكفيك من كل شيء»(٢).

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته، فأخذت بيده، فقلت: يا رسول الله بم نجاة المؤمن؟ قال يا عقبة: «أخرس لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك»(٣) قال: ثم لقيني رسول الله ﷺ؛ فابتدأني فأخذ بيدي فقال يا عقبة بن عامر: «الا أعلمك خير ثلاث سور أنزلت في التوراة والإنجيل والزبور والقرآن العظيم؟» قال: قلت بلى، جعلني الله فداك. قال: فأقرأني ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ثم قال: يا عقبة، «لا تنسهن، ولا تبت ليلة حتى تقرأهن»، قال: فما نسيتهن منذ قال: «لا تنسهن» وما بت ليلة قط حتى أقرأهن. قال عقبة: ثم لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته، فأخذت بيده، فقلت: يا رسول الله، أخبرني بفواضل الأعمال. فقال: «يا عقبة، صل من قطعك، وأعط من حرمك، وأعرض عمن ظلمك (٤)»(٥).

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة، باب فضل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ٨١٢، والترمذي في فضائل القرآن ـ ماجاء في سورة الإخلاص ٢٩٠٠، وابن ماجه في الأدب ٣٧٨٧.

وروي من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، أو رجل من الأنصار قال: قال رسول الله ﷺ من قرأ (قل هو الله احد) فكأنما قرأ بثلث القرآن» رواه أحمد فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٥٤١.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب، باب ما يقول إذا أصبح ٥٠٨٢، والنسائي في الاستعاذة ٥٤٢٨، ٥٤٢٩، والترمذي في الدعوات ٣٥٧٥ ، وأحمد ٥/ ٣١٢.

(٣) في هذا التوجيه الكريم: التحذير من فضول الكلام، وفضول مخالطة الأنام، والحث على صدق الإنابة والتوبة من الآثام ـ والله المستعان.

(٤) هذه الصفات الثلاث لا تتوفر إلا لمن وفقه الله للتذرع بالصبر كما قال عز وجل ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

(٥) أخرجه أحمد ٤/ ١٥٨ ـ ١٥٩، وأخرجه الترمذي مختصراً ـ وليس فيه ذكر خيرية هذه السور ـ في الزهد ـ ما جاء في حفظ اللسان ٢٤٠٦، وقال: «حديث حسن».

=

د ـ ما ورد في قراءتها مع المعوذتين عند النوم.

عن عائشة رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما، فقرأ فيهما ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ثم يمسح ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه، وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات»[1].

هـ ـ ما جاء أن فيها اسم الله الأعظم.

عن سليمان بن بريدة عن أبيه رضي الله عنه أنه دخل مع رسول الله ﷺ المسجد فإذا رجل يصلي يدعو، يقول: «اللهم إني أسألك بأني أشهد أن لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن لـه كفواً أحد. قال: «والذي نفسي بيده لقد سأله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب»[2].

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.

(قل) أمر للنبي ﷺ ولكل من يصلح لـه الأمر والخطاب من أفراد أمته. أي: قل قولاً جازماً به، معتقداً لـه، عارفاً بمعناه.

(هو الله أحد) «هو» ضمير الشأن مبتدأ، وخبره «الله أحد» والجملة من المبتدأ وخبره في محل نصب مقول القول،وكذا ما بعدها.

ولفظ الجلالة «الله» معناه المألوه المعبود بحق محبة وتعظيماً، وذلاً وخضوعاً، وخوفاً ورجاءً.

وقال (أحد) ولم يقل: الأحد، لأنه ليس في الموجودات ما يسمى أحداً في الإثبات مفرداً غير مضاف سواه سبحانه وتعالى، بخلاف النفي وما في معناه كالاستفهام، فإنه يقال:

=

وهذا الحديث إن صح لا يعارض ما ثبت في صحيح البخاري وغيره من حديث أبي سعيد بن المعلى وغيره من أن سورة الفاتحة هي أفضل وأعظم سورة في القرآن، وتكون خيرية هذه السور الثلاث بين سور القرآن ما عدا سورة الفاتحة التي هي أفضل سورة في القرآن بدلالة الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ـ باب المعوذات ٥٠١٧، وأبوداود في الأدب ما يقال عند النوم ٥٠٥٦، والترمذي في أبواب الدعوات ـ ما يقرأ من القرآن عند النوم ٣٤٠٢، وابن ماجه في الدعاء، ما يدعو به إذا أوى إلى فراشه ٣٨٧٥.

(٢) أخرجه أبو داود في الوتر ـ باب الدعاء ١٤٩٣، والترمذي في أبواب الدعوات ـ جامع الدعوات ٣٤٧٥، وابن ماجه في الدعاء ـ باب اسم الله الأعظم ٣٨٥٧.

هل عندك أحد، وما جاءني أحد.

ومعنى (أحد) أي الواحد، الأحد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ولهذا قال بعده ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

قال ابن كثير[1] رحمه الله تعالى: «يعني هو الواحد الأحد، الذي لا نظير له، ولا وزير، ولا نديد ولا شبيه،ولا عديل، ولا يطلق هذا اللفظ على أحد في الإثبات إلا على الله ـ عز وجل ـ لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله».

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل رفع خبر ثان لـ «هو».

وأدخل «ال» على الصمد لأن المستحق لوصف الصمدية على الكمال والتمام هو الله وحده لا شريك له بخلاف المخلوق فهو وإن سمي صمداً من بعض الوجوه فلا يقال له «الصمد» بالصمدية المطلقة، وإنما يقال له «صمد» بمطلق الصمدية.

و(الصمد) المقصود في جميع الحوائج، المستغني عن كل ما سواه، والذي كل ما سواه محتاج ومفتقر إليه، الذي تصمد وتتجه إليه الخلائق، وتقصده في طلب قضاء حوائجهم ومسائلهم الدينية والدنيوية،قال تعالى: ﴿إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النحل: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٣، ٦٤].

والصمد: السيد الذي قد كمل في سؤدده، والذي بلغ من كل وصف مما يوصف به غاية كماله ونهايته، سؤدداً وشرفاً وعظمة وحلماً وعلماً وحكمة وحكما،الحي القيوم الذي لا زوال له،والذي لم يلد ولم يولد.

والصمد الذي لا جوف له، وقيل غير ذلك.

قال ابن تيمية[2] بعدما ذكر الأقوال في معنى «الصمد» قال: «قلت الاشتقاق يشهد للقولين جميعاً، قول من قال: إن الصمد الذي لا جوف له، وقول من قال: إنه السيد، وهو على الأول أدل، فإن الأول أصل الثاني».

---

(١) في «تفسيره» ٨/٥٤٧.

(٢) انظر «دقائق التفسير» ٦/٣٥٦ ـ ٣٦٩.

وقال ابن كثير[(١)] بعد سياق كثير من الأقوال في معنى «الصمد»: «وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبراني في «كتاب السنة» له بعد إيراده كثيراً من هذه الأقوال في تفسيره «الصمد»: وكل هذه صحيحة، وهي صفات ربنا عز وجل، هو الذي يُصمد إليه في الحوائج،وهو الذي قد انتهى سؤدده، وهو الصمد الذي لا جوف له ولا يأكل ولا يشرب، وهو الباقي بعد خلقه.وقال البيهقي نحو ذلك».

﴿لَمْ يَلِدْ﴾ أي: لم يكن له ولد، كما قال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣]، وقال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا (٨٨) لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨، ١٥٩].

﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ أي: لم يتولد من غيره، فيكون محدثاً، بل هو القائم بذاته، القيوم أزلاً وابدا.

لأن (الولد) ما تولد من شيء أو شيئين كآدم خلق وتولد من التراب، وحواء خلقت وتولدت من آدم، وعيسى تولد من مريم، أنثى بلا ذكر، وسائر الخلق تولدوا من ذكر وأنثى.

وعلى هذا فالولد محدث مخلوق بعد أن لم يكن كما قال عز وجل: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، أي: قد أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً، وقال تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٧].

وما كان محدثاً مخلوقاً فهو يفنى كما قال عز وجل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٥٤٧ ـ ٥٤٨.

والله عز وجل هو الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية كما قال عز وجل: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ أي: لم يكن لـه مكافئاً، ولا مماثلاً، ولا شبيهاً، ولا نظيراً، كما قال عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

قال السعدي[1]: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ لا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله تبارك وتعالى، فهذه السورة مشتملة على توحيد الأسماء والصفات».

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٦٨٦.

الفوائد والعبر:

١ـ أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله عز وجل لقوله (قل) وفي هذا الرد على من يزعم من أهل الكفر والضلال أن الرسول ﷺ اختلق القرآن، وأن هذا النظم كلامه ابتدأ به. كما أن في هذا الرد على الغلاة الذين يرفعونه ﷺ إلى مقام الربوبية فهو ﷺ عبد لا يعبد ونبي ورسول لا يكذب.

٢ ـ إثبات العبادة لله تعالى وحده دون سواه، لقوله: (هو الله أحد)، لأن معنى لفظ الجلالة (الله): المألوه المعبود بحق محبة وتعظيماً.

٣ ـ إثبات الوحدانية لله عز وجل، وأنه الواحد الأحد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله لقوله (قل هو الله أحد)، بل كل هذه السورة دليل على إثبات توحيد الأسماء والصفات لـه عز وجل.

٤ ـ إثبات ربوبيته عز وجل وحاجة الخلائق كلهم إليه عز وجل وغناه سبحانه وتعالى عمن سواه، لقولـه (الله الصمد) أي: الذي تصمد إليه الخلائق وتتجه إليه وتقصده بطلب قضاء الحوائج، إذ الخير كله بيديه، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع.

٥ ـ نفي الولد والمجانس والقريب المدانى لـه عز وجل لقولـه ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ كما قال عز وجل ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣].

٦ ـ الرد على أهـل الشرك من أهل الكتاب وغيرهم في نسبتهم الولـد إلى الله عـز وجل، وقول اليهود عزير ابن الله، وقول النصارى المسيح ابن الله، وزعم المشركين أن الملائكة بنات الله، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ۝ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ [الزخرف: ١٥، ١٦].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

وقال تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «قال الله عز وجل: كذبني ابن آدم

ولم يكن لـه ذلك، وشتمني ولم يكن لـه ذلك، فأما تكذيبه إياي، فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق باهون عليّ من إعادته [١]. وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدا، وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن لـه كفواً أحد» [٢].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا احد أصبر على أذى يسمعه من الله إنهم يجعلون لـه ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم» [٣].

٧ ـ إثبات أنه عز وجل الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية لقولـه (ولم يولد) لأن ما تولد من غيره محدث، ونهايته إلى الفناء والله عز وجل منزه عن ذلك كله، قال عز وجل: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

٨ ـ تنزيه الله عز وجل عن المكافئ والشبيه والمثيل والنظير لقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ فلا مكافئ لـه ولا شبيه، ولا مثيل، ولا نظير، بل هو الواحد الأحد، في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ، وقال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

٩ ـ وجوب الإقرار والاعتراف ظاهراً وباطناً، بنطق اللسان وتصديق القلب، وانقياد الجوارح بألوهية الله عز وجل ووحدانيته وصمديته وربوبيته، وتنزهه عن الولد والوالد والمكافئ لقوله ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلى آخر السورة.

---

(١) كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨].

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٧٤، ٤٩٧٥، والنسائي في الجنائز ٢٠٧٨.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠٩٩، ومسلم في صفة القيامة، ٢٨٠٤.

تفسير سـورة الفلـق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾

كان النبي ﷺ قبل نزول هذه السورة وسورة الناس يتعوذ من الجان وعين الإنسان فلما نزلت المعوذتان أخذبهما، وترك ما سواهما[1].

اسم السورة:

تسمى هذه السورة: سورة الفلق.وتسمى مع السورة التي بعدها ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ بالمعوذتين قال ابن القيم[2]: «فسورة الفلق تتضمن الاستعاذة من شر المصيبات، وسورة الناس تتضمن الاستعاذة من شر العيون التي أصلها كلها الوسوسة».

سبب النزول:

روي عن ابن عباس وعائشة رضي الله عنهما، أن هذه السورة مع سورة الناس نزلتا في سحر اليهود للنبي ﷺ[3].

فضل المعوذتين:

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾»[4].

وفي بعض الروايات: أن الرسول ﷺ قال لعقبة بن عامر رضي الله عنه: «الا أعلمك سورتين من خير سورتين قرأ بهما الناس؟» قلت: بلى يا رسول الله فاقرأني: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ثم أقيمت الصلاة فتقدم رسول الله ﷺ فقرأ بهما ثم مر بي، فقال: «كيف رأيت يا عقيب اقرأ بهما كلما نمت، وكلما قمت»[5].

---

(١) أخرجه النسائي في الاستعاذة٥٤٩٤، والترمذي في الطب ٢٠٥٨ ـ وقال: «حديث حسن غريب» وابن ماجه في الطب ٣٥١١ ـ من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) انظر «التفسير القيم» ص٦٠٠.

(٣) انظر «التفسير القيم» ص٥٦٧، «تفسير ابن كثير» ٨/ ٥٥٧.

(٤) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ـ باب فضل قراءة المعوذتين ٨١٤، ، والنسائي في الافتتاح ٩٥٣، والترمذي في التفسير ـ تفسير المعوذتين ٣٣٦٧، وأحمد ٤/ ١٤٤، ١٤٦، ١٤٩، ١٥٠.

(٥) أخرجه أبو داود في الوتر ١٤٦٢، والنسائي في الاستعاذة ٥٠٢٤، ٥٠٢٥.

وعن عقبة بن عامر قال: «أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذات في دبر كل صلاة»[(١)].

وعن ابن عابس الجهني أن النبي ﷺ قال له: يا ابن عابس «ألا أدلك، أو قال: ألا أخبرك بأفضل ما يتعوذ به المتعوذون؟ قال: بلى يا رسول الله. قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، هاتين السورتين»[(٢)].

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يقرأ بهما وينفث في كفيه، ويمسح بهما رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، وما بلغت يداه من جسده»[(٣)].

قال ابن القيم رحمه الله[(٤)]: «والمقصود: الكلام على هاتين السورتين، وبيان عظيم منفعتهما، وشدة الحاجة بل الضرورة إليهما، وأنه لا يستغني عنهما أحد قط، وأن لهما تأثيراً خاصاً في دفع السحر والعين وسائر الشرور، وأن حاجة العبد إلى الاستعاذة بهاتين السورتين أعظم من حاجته إلى النفس والطعام والشراب واللباس».

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾.

﴿قُلْ﴾ الأمر فيه للرسول ﷺ ولكل فرد من أفراد أمته ممن يصلح له الخطاب، فلا يدخل فيه المجنون والصغير ونحوهما لقوله ﷺ: «رفع القلم عن ثلاثة؛ النائم حتى يستيقظ، والمجنون حتى يفيق، والصغير حتى يبلغ»[(٥)].

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: «سألت رسول الله ﷺ عن المعوذتين؟ فقال: «قيل لي، فقلت: فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ»[(٦)].

وجملة ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ وما بعدها إلى نهاية السورة في محل نصب مقول القول.

ومعنى ﴿أَعُوذُ﴾: اعتصم والتجئ واستجير واتحصن واتحرز والوذ وهذا هو الركن

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٥٢٣، والنسائي في السهو ١٣٣٦، والترمذي في فضائل القرآن ٢٩٠٣، وقال الترمذي «حديث غريب». وأحمد ٤/ ١٥٥.

(٢) أخرجه النسائي في الاستعاذة ٥٤٣٢.

(٣) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ٥٠١٨، ومسلم في السلام ٢١٩٢، وأبو داود في الطب، ٣٩٠٢، وابن ماجه في الطب ٣٥٢٩.

(٤) انظر «التفسير القيم» ص٥٣٧.

(٥) أخرجه أبو داود في الحدود ٤٤٠٣، والترمذي في الحدود ١٤٢٣، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٤٢ ـ من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٦) أخرجه البخاري في تفسير سورة الناس ٤٩٧٦، ٤٩٧٧.

الأول من أركان الاستعاذة، وهو نفس «التعوذ».

﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ (برب) جار ومجرور متعلق بقوله (أعوذ) وهذا هو الركن الثاني من أركان الاستعاذة، وهو: المستعاذ به، وهو رب الفلق. والباء: للاستعانة، و (الرب) لغة: ماخوذ من التربية والتنمية للشيء والقيام عليه وإصلاحه.

قال تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ [النساء: ٢٣]، أي: اللاتي تربونهن في حجوركم. وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، أي: القيوم على كل شي سبحانه.

والرب: هو الخالق المالك المدبر، فرب الفلق خالقه ومالكه ومدبره.

ويأتي «الرب» بمعنى المعبود، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٤٩]، اي:آلهة.

ويأتي بمعنى «الصاحب» كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠]، فالمعنى هنا: صاحب العزة.

و(الرب) بالتعريف لا يطلق إلا على الله.

و«رب كذا» بالإضافة يطلق على الله وعلى غيره، فيقال: رب الدار، ورب الناقة، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾ [يوسف: ٥٠].

وربوبية الله عز وجل لخلقه تنقسم إلى قسمين: ربوبية عامة لجميع خلقه بمعنى: خالقهم ومالكهم ومدبرهم، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وربوبية خاصة بأوليائه بتوفيقه لهم للطريق المستقيم في الدنيا، وفي الآخرة إلى الجنة، كما في قول المؤمنين ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

و(الفلق): الخلق، والشق، وكل ما انشق عن شيء فهو فلق، فالصبح والحب فلق، قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٥]، وقال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]. أي الذي خلق وشق الحب والنوى فاخرج منه النبتة فأخرج من الحبة السنابل الكثيرة المشتملة على مئات الحبات كما قال عز وجل: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وأخرج من النواة النخلة، بل العدد من النخيل المثمرة، كما قال عز وجل: ﴿وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

وخلق وشق الصبح وضياءه من ظلام الليل الدامس البهيم، وفي الحديث: «أنه ﷺ ما رأى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح»[١].

وكل ما انفلق وانشق عن غيره من نبات، وحيوان وغير ذلك فهو فلق.

قال ابن تيمية رحمه الله[٢]: «وإذا قيل: الفلق يعم ويخص، فبعمومه للخلق استعيذ من شر ما خلق، وبخصوصه للنور النهاري - يعني الصبح - استعيذ من شر غاسق إذا وقب».

وقال ابن القيم رحمه الله [٣]: «واعلم أن الخلق كله فلق، وذلك أن فَلَق «فَعَل» بمعنى «مفعول» كقبض وسلب وقنص بمعنى مقبوض ومسلوب ومقنوص. والله عز وجل (فالق الإصباح) و (فالق الحب والنوى) وفالق الأرض عن النبات، والجبال عن العيون، والسحاب عن المطر، والأرحام عن الأجنة، والظلام عن الإصباح، ويسمى الصبح المتصدع عن الظلمة «فلَقاً وفرَقاً» يقال: هو أبيض من فرَق الصبح وفلَقه.. يفرق ظلام الليل بالإصباح.. ومنه فلقه البحر لموسى، وسماه «فلقاً»».

قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

في هذه الآيات: الركن الثالث من أركان الاستعاذة، وهو المستعاذ منه، وهو أمور أربعة. الأول منها: ذكره الله عز وجل بقوله:

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ فهذا هو المستعاذ منه الأول في هذه السورة. وقوله ﴿مِن شَرِّ﴾ جار ومجرور متعلق بـ(أعوذ) و (ما) موصولة، وهي تفيد العموم، لكنه عموم تقييدي وصفي لا عموم إطلاقي، أي: أعوذ برب الفلق من شر جميع المخلوقات التي فيها شر، سواء من شرور الدنيا أو الآخرة، من شر شياطين الإنس والجن، وشر السباع والهوام، وشر النار وشر النفس كما قال ﷺ «ونعوذ بالله من شرور أنفسنا»[٤]، وغير ذلك، وليس المراد الاستعاذة من شر كل ما خلقه الله، وإن كان مما ليس فيه شر، بل هو خير محض

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٣، ومسلم في الإيمان ١٦٠، وأحمد ٦/ ١٥٣، ٢٣٢ - من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) انظر «دقائق التفسير» ٦/ ٤٩٦.

(٣) انظر «التفسير القيم» ص٥٦٢.

(٤) أخرجه أبو داود في النكاح ٢١١٨، والنسائي في الجمعة ١٤٠٤، والترمذي في النكاح ١١٠٥، وابن ماجه في النكاح ١٨٩٢ - من حديث عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه.

كالجنة والملائكة، وكذا الأنبياء فإنهم خير محض، بل الخير كله حصل على أيديهم.

فدخل تحت قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ الاستعاذة من كل شر، في أي مخلوق قام به الشر: من حيوان أو غيره، إنسياً كان أو جنياً أو هامة أو دابة أو ريحاً أو صاعقة، أو أي نوع كان من أنواع البلاء والشرور.

وقد رُويَ أنه ﷺ إذا سافر فأقبل الليل، قال: «يا أرض ربي وربك الله أعوذ بالله من شرك، وشر ما فيك، وشر ما خلق فيك، وشر ما يدب عليك، أعوذ بالله من أسد وأسود، ومن الحية والعقرب، ومن ساكن البلد، ومن والد وما ولد»[1].

قال ﷺ: «من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل منه»[2].

وفي الحديث الآخر: «أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق وذرأ وبرأ ومن شر ما ينزل من السماء، ومن شر ما يعرج فيها ، ومن شر ما ذرأ في الأرض، ومن شر ما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن»[3].

والشر: هو الآلام الحسية والمعنوية، الجسدية والنفسية، وما يسببها من الكفر والشرك والمعاصي، فما من ألم نفسي أو معنوي، جسدي أو نفسي إلا سببه الكفر والمعاصي، قال عز وجل: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

قال ابن القيم رحمه الله[4]: «الشر يقال على شيئين على الألم، وعلى ما يفضي إليه، فالمعاصي والكفر والشرك وأنواع الظلم شرور، وإن كان لصاحبها فيها نوع لذة، لكنها شرور لأنها أسباب للآلام ومفضية إليها كإفضاء سائر الأسباب إلى مسبباتها، فترتب الألم عليها كترتب الموت على تناول السموم القاتلة وعلى الذبح، والإحراق في النار، والخنق بالحبل، وغير ذلك من الأسباب التي تكون مفضية إلى مسبباتها ولابد، ما لم يمنع من

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد ٢٦٠٣ ـ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٧٠٨، والترمذي في الدعوات ٣٤٣٧، وابن ماجه في الطب ٣٥٤٧ ـ من حديث خولة بنت حكيم رضي الله عنها.

(٣) أخرجه أحمد ٣/٤١٩ ـ من حديث عبد الرحمن بن خَنْبَش رضي الله عنه.

(٤) انظر «التفسير القيم» ص٥٤٤ ـ ٥٤٨.

السببية مانع، أو يعارض السبب ما هو أقوى منه... وهل زالت عن أحد قط نعمة إلا بشؤم معصيته، فإن الله إذا أنعم على عبد نعمة حفظها الله عليه، ولا يغيرها حتى يكون هو الساعي في تغييرها عن نفسه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣].

ومن تأمل ما قص الله في كتابه من أحوال الأمم الذين أزال الله نعمه عنهم وجد سبب ذلك جميعه إنما هو مخالفة أمره وعصيان رسله، وكذلك من نظر في أحوال أهل عصره، وما أزال الله عنهم من نعمه وجد ذلك كله من سوء عاقبة الذنوب كما قيل:

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن المعاصي تزيل النعم[1]

فما حفظت نعمة لله بشيء قط مثل طاعته، ولا حصلت فيها الزيادة بمثل شكره، ولا زالت عن العبد نعمة بمثل معصيته لربه، فإنها نار النعم التي تعمل فيها كما تعمل النار في الحطب اليابس، ومن سافر بفكره في أحوال العالم استغنى عن تعريف غيره له.

وأما كون مسبباتها شروراً فلأنها آلام نفسية وبدنية، فيجتمع على صاحبها مع شدة الألم الحسي ألم الروح بالهموم والغموم والأحزان والخسران ولو تفطن العاقل اللبيب لهذا حق التفطن لأعطاه حقه من الحذر والجد والهرب، ولكن قد ضُرب على قلبه حجاب الغفلة ليقضي الله أمراً كان مفعولاً فلو تيقظ حق التيقظ لتقطعت نفسه في الدنيا حسرات على ما فاته من حظه العاجل والآجل من الله، وإنما يظهر هذا حقيقة الظهور عند مفارقة هذا العالم والإشراف والاطلاع على عالم البقاء فحينئذ يقول ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر: ٢٤]، ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

ولما كان الشر هو الآلام وأسبابها كانت استعاذات النبي ﷺ جميعها مدارها على هذين الأصلين فكل ما استعاذ منه أو أمر بالاستعاذة منه فهو إما مؤلم، وإما سبب يفضي إليه، فكان يتعوذ في آخر الصلاة من أربع، وأمر بالاستعاذة منهن، وهي: «عذاب القبر،

---

(١) هذا البيت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر «ديوانه» ص١٧٥، ١٧٦ - جمع نعيم زرزورة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

وعذاب النار» فهذان أعظم المؤلمات «وفتنة المحيا والممات، وفتنة المسيح الدجال» وهذان سبب العذاب المؤلم، فالفتنة سبب العذاب... فعادت الاستعاذة إلى الاستعاذة من الألم والعذاب وأسبابه.وهذا من آكد أدعية الصلاة...».

وقال ابن القيم أيضاً [(١)]: «والشر المستعاذ منه نوعان: أحدهما: موجود، يطلب رفعه، والثاني: معدوم، يطلب بقاؤه على العدم، وأن لا يوجد.

كما أن الخير المطلق نوعان: أحدهما: موجود، فيطلب دوامه وثباته، وأن لا يسلبه. والثاني: معدوم، فيطلب وجوده وحصوله، فهذه أربعة هي أمهات مطالب السائلين من رب العالمين، وعليها مدار طلباتهم».

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ هذا هو المستعاذ منه الثاني في هذه السورة، وهو والمستعاذ منه الثالث، والرابع كلها داخلة ضمن المستعاذ منه الأول، وهو قوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ من باب التخصيص بعد التعميم لعظم ضرر هذه الأشياء الثلاثة وشدة خفائها.

والغاسق هو الليل وظلمته، يقال غسق الليل وأغسق الليل إذا أظلم ومنه قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء: ١٧].

وقوله: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ أي: إذا أقبل ودخل في كل شيء، والوقوب: الدخول، وهو دخول الليل بغروب الشمس.

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: «أخذ النبي ﷺ بيدي، فنظر إلى القمر فقال يا عائشة استعيذي بالله من شر هذا، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب»[(٢)].

فالقمر غاسق إذا وقب، أي: إذا غاب، والليل غاسق إذا دخل بظلمته كل شيء.

وقيل المراد بغسق الليل: برودته.

قال ابن القيم[(٣)]: «ولا تنافي بين القولين فإن الليل بارد ومظلم، فمن ذكر برده فقط، أو ظلمته فقط اقتصر على أحد وصفيه».

والأظهر من القولين، القول الأول أن المراد بالغاسق الليل إذا أقبل ودخل بظلامه، ومنه القمر إذا وقب.

---

(١) انظر «التفسير القيم» ص٥٤٨.

(٢) أخرجه الترمذي في «التفسير» ٣٣٦٦. وقال «حديث حسن صحيح».

(٣) انظر «التفسير القيم» ص٥٥٨.

قال ابن القيم: «والظلمة في الآية أنسب لمكان الاستعاذة فإن الشر الذي يناسب الظلمة أولى بالاستعاذة من البرد الذي في الليل، ولهذا استعاذ برب الفلق، الذي هو الصبح والنور، من شر الغاسق الذي هو الظلمة، فناسب الوصف المستعاذ به المعنى المطلوب بالاستعاذة».

وإنما أمر الله بالاستعاذة من شر الغاسق إذا وقب وهو الليل إذا أقبل بظلمته ودخل في كل شيء، لأن الليل هو محل الظلام وفيه تتسلط وتنتشر شياطين الإنس والجن والهوام وغيرها من الأرواح الشريرة والخبيثة المؤذية والمفسدة.

ولهذا قال ﷺ: «إذا أقبل الليل فكفوا صبيانكم فإن الشياطين تنتشر حينئذٍ فإذا ذهب ساعة من العشاء فخلوهم، وأغلق بابك، واذكر اسم الله، وأطفئ مصباحك واذكر اسم الله، وأوك سقاءك واذكر اسم الله، وخمِّر إناءك واذكر اسم الله، ولو تعرض عليه شيئاً»[1].

وفي رواية: «فإن الله عز وجل يبث في ليله من خلقه ما يشاء»[2].

فالشياطين من الإنس والجن والحيوانات تتسلط في الليل لأنه محل الظلام ما لا تتسلط بالنهار، لأن النهار نور، والشياطين إنما سلطانهم في الظلمات والمواضع المظلمة، وعلى أهل القلوب المظلمة بالكفر والمعاصي، الخالية من ذكر الله ونوره.

قال ابن تيمية[3] بعدما ذكر القولين في معنى «غاسق» قال: «فالقمر أحق ما يكون بالليل بالاستعاذة، والليل مظلم، تنتشر فيه شياطين الإنس والجن مالا تنتشر بالنهار، ويجري فيه من أنواع الشر ما لا يجري بالنهار من أنواع الكفر والفسوق والعصيان والسحر والسرقة والخيانة والفواحش، وغير ذلك، فالشر دائماً مقرون بالظلمة، ولهذا إنما جعله الله لسكون الآدميين وراحتهم، لكن شياطين الإنس والجن تفعل فيه من الشر ما لا يمكنها فعله بالنهار، ويتوسلون بالقمر وبدعوته، والقمر وعبادته. وأبو معشر البلخي له «مصحف القمر» يذكر فيه من الكفريات والسحريات ما يناسب الاستعاذة منه».

وقال ابن القيم[4]: «روي أن سائلاً سأل مسيلمة: كيف يأتيك الذي يأتيك؟ فقال: «في ظلماء حندس» وسئل النبي ﷺ: «كيف يأتيك؟ فقال: «في مثل ضوء النهار» فاستدل

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٨٠، ومسلم في الأشربة ٢٠١٢، وأبوداود في الأشربة ٣٧٣٣، والترمذي في الأطعمة ١٨١٢، وابن ماجه في الأدب ٣٧٧١ ـ من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجها أحمد ٣/٣٠٦، ٣٥٥.

(٣) انظر «دقائق التفسير» ٦/٤٩٧.

(٤) انظر «التفسير القيم» ص٥٦٠ ـ ٥٦٢.

بهذا على نبوته، وأن الذي يأتيه ملك من عند الله، وأن الذي يأتي مسيلمة شيطان.

ولهذا كان سلطان السحر إنما هو بالليل دون النهار، فالسحر الليلي عندهم هو السحر القوي التأثير، ولهذا كانت القلوب المظلمة هي محال الشياطين وبيوتهم ومأواهم والشياطين تجول فيها وتتحكم، كما يتحكم ساكن البيت فيه، وكلما كان القلب أظلم كان للشيطان أطوع، وهو فيه أثبت وأمكن.

ومن ههنا تعلم السر في الاستعاذة برب الفلق في هذا الموضع، فإن الفلق هو الصبح الذي هو مبدأ ظهور النور، وهو الذي يطرد جيش الظلام، وعسكر المفسدين في الليل فيأوي كل خبيث وكل مفسد وكل لص، وكل قاطع طريق إلى سرب أو كن أو غار، وتأوي الهوام إلى أجحرتها، والشياطين التي انتشرت بالليل إلى أمكنتها ومحالها.

فأمر الله عباده أن يستعيذوا برب النور، الذي يقهر الظلمة ويزيلها، ويقهر عسكرها وجيشها، ولهذا ذكر سبحانه في كل كتاب: أنه يخرج عباده من الظلمات إلى النور، ويدع الكفار في ظلمات الكفر، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ هذا هو المستعاذ منه الثالث في هذه السورة، وهو: شر النفاثات.

و«النفاثات» جمع نفاثة، وهن السواحر اللاتي يرقين وينفثن في العقد، أي اللاتي يعقدن عقداً وينفثن على كل عقدة، حتى ينعقد ما يردن من السحر، والنفث: هو النفخ مع ريق، وهو دون التْفل، وهو مرتبة بينهما. والعقد: عقد الخيوط التي يعقدنها وينفثن فيها قال ﷺ: «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئاً وكل إليه»[1].

والمراد بالنفاثات: الأنفس الخبيثة السواحر، فيشمل جميع الأنفس السواحر الخبيثة، من الذكور والإناث.

وقيل المراد النساء السواحر، وخص النساء بالذكر لأن السحر فيهن أكثر لضعف عقولهن ودينهن.

---

(١) اخرجه النسائي في تحريم الدم ٤٠٧٩ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

قال ابن القيم [(١)]: «والجواب المحقق أن النفاثات هنا: هن الأرواح والأنفس النفاثات لا النساء النفاثات، لأن تأثير السحر إنما هو من جهة الأنفس الخبيثة والأرواح ا لشريرة، وسلطانه إنما يظهر منها، ولهذا ذكرت النفاثات هنا بلفظ التأنيث، دون التذكير، والله أعلم».

وقال أيضاً [(٢)]: «والنفث فعل الساحر، فإذا تكيفت نفسه بالخبث والشر الذي يريده بالمسحور، ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة، نفخ في تلك العقد نفخاً معه ريق، فيخرج من نفسه الخبيثة نفس ممازج للشر والأذى، مقترن بالريق الممازج لذلك، وقد تساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور، فيقع فيه السحر بإذن الله الكوني القدري، لا الأمري الشرعي».

وقال الزمخشري [(٣)]: «وعرف النفاثات لأن كل نفاثة شريرة، ونكر غاسق لأنه ليس كل غاسق فيه الشر إنما يكون في بعض دون بعض، وكذلك كل حاسد لا يضر، ورب حسد محمود وهو الحسد في الخيرات».

والسحر من صفات اليهود، فهم أسحر الناس قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

قوله ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ هذا هو المستعاذ منه الرابع والأخير في هذه السورة، وهو شر الحاسد إذا حسد.

والحاسد: هو الذي يكره الخير للغير، وربما سعى بمنع ذلك أوزواله عنهم بما يستطيع من الأسباب بفعله بيده، أو بقوله بلسانه، أو بتمني زوال النعمة عنهم، وغير ذلك.

وهكذا ذكر ابن القيم [(٤)] للحسد المذموم مرتبتين: الأولى: تمني زوال النعمة عن الغير، والثانية تمني استصحاب عدم النعمة، قال: «فهو يكره أن يحدث الله لعبده نعمة، بل يحب أن يبقى على حاله، من جهله، أو فقره، أو ضعفه، أو شتات قلبه عن الله، أو قلة دينه، فهو يتمنى دوام ما هو فيه من نقص وعيب، فهذا حسد على شيء مقدر، والأول حسد

---

(١) انظر «التفسير القيم» ص٥٦٤.

(٢) انظر «التفسير القيم» ص٥٦٣.

(٣) في «الكشاف» ٤/ ٢٤٤.

(٤) انظر «التفسير القيم» ص٥٨٤.

على شيء محقق، وكلاهما حاسد، عدو نعمة الله، وعدو عباده، وممقوت عند الله وعند الناس».

وإبليس أول الحاسدين، حسد أبانا آدم عليه السلام على شرفه وفضله، وأبى أن يسجد له حسداً وكبراً. وعلى هذا فالحسد يكون من شياطين الجن وشياطين الإنس، وهذا النوع من الحسد من كبائر الذنوب، وهو المراد بقوله ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ وفي الحديث: «إياكم والحسد فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أو قال العشب»[١].

وإنما حرم الحسد وعُد من كبائر الذنوب لما فيه من الاعتراض على قضاء الله وقدره في قسمته الأرزاق بين عباده كما قيل:

سبحان من قسم الحظوظ فهذا ... يتغنى وذاك يبكي الديارا

وأيضاً لما فيه من أذية المحسود بلا ذنب منه ولا جرم، وغير ذلك.

ويدخل في الحاسد: العائن الذي يؤذي المحسود بنفسه وعينه، وإن لم يؤذه بيده ولسانه، كما قال عز وجل عن المشركين: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾ [القلم: ٥١]، قال ابن كثير[٢]: «أي: ليعينونك بأبصارهم، بمعنى: يحسدونك لبغضهم إياك، لولا وقاية الله لك، وحمايته إياك منهم، وفي هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق بأمر الله عز وجل، كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة».

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في رقية جبريل للنبي ﷺ قوله: «بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس أو عين حاسد، الله يشفيك»[٣].

فقد أعاذ جبريل عليه السلام النبي ﷺ من شر عين كل حاسد.

وقال ﷺ: «العين حق، لو كان شيء سابق القدر لسبقته العين وإذا استغسلتم فاغسلوا»[٤].

فالعائن حاسد، لكنه حاسد خاص، وهو أضر من الحاسد، ولهذا ـ والله أعلم ـ إنما

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٩٠٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٢٧.
(٣) أخرجه مسلم في السلام ٢١٨٦، وأخرجه أيضاً من حديث عائشة رضي الله عنها ٢١٨٥.
(٤) أخرجه مسلم في السلام ٢١٨٨ ـ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.وأخرجه أيضاً بلفظ «العين حق» ٢١٨٧، وكذا البخاري في الطب ٥٧٤٠ ـ كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

جاء في السورة ذكر الحاسد دون العائن، لأنه أعم، فكل عائن حاسد ولابد، وليس كل حاسد عائناً، فإذا استعاذ من شر الحاسد دخل فيه العائن.

وقوله: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ أي: إذا أظهر حسده وحققه وعمل بمقتضاه من بغي الغوائل للمحسود بقوله، أو فعله، أو إتباعه لنفسه ما عند المحسود من نعمة وفي الحديث: «إذا حسدت فلا تبغ»[1]. لأنه إذا لم يظهر الحسد، ولم يظهر أثر ما أضمره فلا ضرر منه يعود على المحسود.

قال ابن القيم[2]: «ومعلوم أن الحاسد لا يسمى حاسداً إلا إذا قام به الحسد كالضارب والشاتم والقاتل ونحو ذلك. ولكن قد يكون الرجل في طبعه الحسد وهو غافل عن المحسود لاهٍ عنه، فإذا خطر على ذكره وقلبه انبعثت نار الحسد من قبله إليه، وتوجهت إليه سهام الحسد من قلبه، فيتأذى المحسود بمجرد ذلك، فإن لم يستعذ بالله، ويتحصن به، ويكن له أوراد من الأذكار والدعوات والتوجه إلى الله، والإقبال عليه بحيث يدفع عنه من شره بمقدار توجهه وإقباله على الله وإلا ناله شر الحاسد ولابد، فقوله تعالى: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ بيان لأن شره إنما يتحقق إذا حصل منه الحسد بالفعل».

وقال أيضاً[3]: «ومعلوم أن عينه ـ أي الحاسد ـ لا تؤثر بمجردها، إذ لو نظر إليه نظر لاهٍ ساهٍ عنه كما ينظر إلى الأرض والجبل وغيره لم يؤثر فيه شيئاً، وإنما إذا نظر إليه نظر من قد تكيفت نفسه الخبيثة، وانسمّت واحتدت، فصارت نفساً غضبية خبيثة حاسدة أثرت بها تلك النظرة، فأثرت في المحسود تأثيراً بحسب صفة ضعفه وقوة نفس الحاسد...».

قال القرطبي[4]: «والحسد أول ذنب عُصي الله به في السماء، وأول ذنب عُصي الله به في الأرض، فحسد إبليس آدم، وحسد قابيل هابيل، والحاسد ممقوت مبغوض مطرود ملعون، ولقد أحسن من قال:

قل للحسود إذا تنفَّس طعنة ... يا ظالماً وكأنه مظلوم»

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه الحافظ عبد الرحمن الأصفهاني في «الإيمان» عن الحسن البصري مرسلاً، وأخرجه الطبراني فيما ذكره ابن كثير في «التفسير» ٧/ ٣٧٥ من حديث حارثة بن النعمان بلفظ «إذا حسدت فاستغفر الله».

(٢) انظر «التفسير القيم» ص٥٧٣ ـ ٥٧٤.

(٣) انظر «التفسير القيم» ص٥٧٥.

(٤) في «الجامع لأحكام القرآن» ٢٠/ ٢٥٩.

فضرر الحسد إنما يعود على الحاسد لاغتمامه بسرور غيره، وقد روي عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه قال: «لم أر ظالماً أشبه بالمظلوم من حاسد»[١].

وهو من أكبر الكبائر، ومحبط للأعمال.

وفي الحديث: «إياكم والحسد، فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أو العشب»[٢].

وقال ﷺ: «دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء»[٣].

فهو مع الكبر الذي حمل إبليس على ترك السجود لآدم والكفر والخروج من ملكوت السموات والأرض وطرده وإبعاده وتخليده في النار، كما قال عز وجل عنه أنه قال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١]، و قال: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ [الإسراء: ٦٢]، وقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢٣، ص ٧٦].

وهو الذي حمل أحد ابني آدم على قتل أخيه لما تقبل الله قربانه دونه، كما قال عز وجل ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

وهو من صفات اليهود، فهو الذي حملهم على رد رسالة الحق، رسالة نبينا محمد ﷺ، كما قال الله عز وجل عنهم: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وقال عز وجل: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٥].

وهو مما حمل ثمود على تكذيب نبيهم صالح، ورد دعوته، كما قال الله عز وجل عنهم أنهم قالوا: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٥].

وهو مما حمل كفار قريش على تكذيب الرسول ﷺ، ورد دعوته، كما قال الله

---

(١) انظر «الكشاف» ٤/ ٢٤٤.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٥١٠ ـ من حديث الزبير بن العوام رضي الله عنه.

عز وجل عنهم أنهم قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

والحسد داء عضال، ومرض عام ومنتشر، لا يكاد يسلم منه أحد، إلا من عصمه الله، وقد قيل: «ما خلا جسد من حسد لكن الكريم يخفيه واللئيم يبديه».

وقيل للحسن البصري رحمه الله: «أيحسد المؤمن قال: ما أنساك إخوة يوسف».

قال ابن القيم رحمه الله [(١)]: «وتأمل تقييده سبحانه شر الحاسد بقوله ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ لأن الرجل قد يكون عنده حسد، ولكن يخفيه ولا يترتب عليه أذى بوجه ما، لا بقلبه ولا بلسانه، ولا بيده، بل يجد في قلبه شيئاً من ذلك، ولا يعامل أخاه إلا بما يحب فهذا لا يكاد يخلو منه أحد إلا من عصمه الله، .. لكن الفرق بين القوة التي في قلبه من ذلك، وهو لا يطيعها، ولا يأتمر بها بل يعصيها طاعة لله وخوفاً، وحياء منه، وإجلالاً له أن يكره نعمه على عباده، فيرى ذلك مخالفة لله وبغضاً لما يحبه الله، ومحبة لما يبغضه، فهو يجاهد نفسه على دفع ذلك، ويلزمها بالدعاء للمحسود، وتمني زيادة الخير له، بخلاف ما إذا حقق ذلك وحسده، ورتب على حسده مقتضاه، من الأذى بالقلب واللسان والجوارح، فهذا الحسد المذموم، هذا كله حسد تمني زوال النعمة».

وقال أيضاً [(٢)]: «فهذه السورة من أكبر أدوية الحسد، فإنها تتضمن التوكل على الله والالتجاء إليه، والاستعاذة به من شر حاسد النعمة، فهو مستعيذ بولي النعمة ومموليها كأنه يقول: يا من أولاني نعمته وأسداها إليَّ أنا عائذ بك من شر من يريد أن يستلبها مني ويزيلها عني، وهو حسب من توكل عليه، وكافي من لجأ إليه.. قال تعالى ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]».

وقال ابن القيم أيضاً [(٣)]: «فقد اشتملت السورة على الاستعاذة من كل شر في العالم، وتضمنت شروراً أربعة يستعاذ منها: شراً عاماً، وهو شر ما خلق، وشر الغاسق إذا وقب، فهذان نوعان، ثم ذكر شر الساحر والحاسد، وهما نوعان أيضاً، لأنهما من شر النفس

---

(١) انظر «التفسير القيم» ص٥٨٣.
(٢) انظر «التفسير القيم» ص٥٨٥.
(٣) انظر «التفسير القيم» ص٥٨٢ ـ ٥٨٣.

الشريرة، وأحدهما يستعين بالشيطان ويعبده وهو الساحر.

والنوع الثاني: من يعينه الشيطان وإن لم يستعن به، وهو الحاسد، لأنه نائبه وخليفته، لأن كليهما عدو نعم الله ومنغصها على عباده».

الفوائد والعبر:

١ ـ حاجة الرسول ﷺ كغيره من البشر إلى الاعتصام بالله واللجوء إليه، وأنه قد تصيبه العوارض التي أُمر في هذه السورة بالاستعاذة من شرها، وأنه ﷺ لا يملك جلب الخير لنفسه، ولا دفع الضر عنها، وكذا غيره من الخلق من باب أولى لا يملكون شيئاً من ذلك، وإنما المالك لذلك كله هو الله عز وجل لقوله ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ وهذا أمر له ﷺ ولأفراد أمته.وفي هذا رد على الذين يغلون بالنبي ﷺ، ويصرفون له شيئاً من أنواع العبادة، مما لا يجوز صرفه إلا لله، ومما لا يقدر عليه إلا الله، كالذين يطلبون منه ﷺ كشف الكروب، ودفع الخطوب، ونحو ذلك، ولهذا لما سأل أبي بن كعب رسول الله ﷺ عن قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ قال: «قيل لي، فقلت»[1].

٢ ـ أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله عز وجل لقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، كما قال عز وجل: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقال عز وجل: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [النور: ٥٤، العنكبوت: ١٨]. وفي هذا رد على من يقول من المشركين ومن سلك طريقهم: إن هذا القرآن العربي وهذا النظم كلام الرسول ابتدأ به.

٣ ـ إثبات الربوبية العامة لله عز وجل لقوله: ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ فهو الذي فلق وخلق جميع الخلق وهو مالكهم ومدبرهم.

٤ ـ مشروعية الاستعاذة برب الفلق من جميع شرور الخلق، لقوله ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾.

٥ ـ إثبات كمال قدرته عز وجل لقوله: ﴿رب الفلق﴾ قال شيخ الإسلام ابن تيمية[2]: «وفلق الشيء عن الشيء هو دليل على تمام القدرة، وإخراج الشيء من ضده، كما يخرج الحي من الميت، والميت من الحي، وهذا من نوع الفلق فهو سبحانه قادر على

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر «دقائق التفسير» ٦/٤٩٨.

دفع الضد المؤذي بالضد النافع».

٦ ـ أن المستعاذ به هو الله وحده (رب الفلق) فهو الذي يعيذ ويعصم من استعاذ به من جميع الشرور، بخلاف من سواه فلا قدرة لهم على ذلك، بل لا يزيدون من استعاذ بهم إلا خوفاً ورهقاً كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

٧ ـ أن عامة المخلوقات قد لا تخلو من الشر لقوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ و «ما» ههنا موصولة تفيد العموم لكنه عموم تقييدي لا إطلاقي، أي: (من شر ما خلق) مما فيه شر كشياطين الإنس والجن والنار والهوام وغير ذلك، ولا يدخل في هذا ما هو خير محض من المخلوقات كالجنة والملائكة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

٨ ـ أن الشر ليس إلى الله لقوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ فالشر مسند في الآية إلى المخلوق المفعول، لا إلى الخالق سبحانه، فالشر في مخلوقاته، وفي مفعولاته، لا في فعله عز وجل كما قال ﷺ: «والشر ليس إليك»[(١)].

قال ابن القيم رحمه الله[(٢)]: «فإن الشر لا يدخل في شيء من صفاته، ولا في أفعاله، كما لا يلحق ذاته تبارك وتعالى، فإن ذاته لها الكمال المطلق، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وأوصافه كذلك لها الكمال المطلق، والجلال التام، ولا عيب فيها ولا نقص بوجه ما، وكذلك أفعاله كلها خيرات محضة، لا شر فيها أصلاً. وما يفعله من العدل بعباده وعقوبة من يستحق العقوبة منهم هو خير محض، إذ هو محض العدل والحكمة، وإنما يكون شراً بالنسبة إليهم، فالشر وقع في تعلقه بهم وقيامه بهم، لا في فعله القائم به تعالى، ونحن لا ننكر أن يكون في مفعولاته المنفصلة، فإنه خالق الخير والشر. ولكن هناك أمران ينبغي أن يكونا منك على بال، أحدهما: أن ما هو شر ومتضمن للشر فإنه لا يكون إلا مفعولاً منفصلاً لا يكون وصفاً له، ولا فعلاً من أفعاله.

الثاني: أن كونه شراً هو أمر نسبي إضافي، فهو خير من جهة تعلق فعل الرب وتكوينه به، وشر من جهة نسبته إلى من هو شر في حقه، فله وجهان هو من أحدهما خير

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٧٧١، وأبوداود في الصلاة ٧٦٠، والترمذي في الدعوات ٣٤٢١ ـ من حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه.

(٢) انظر «التفسير القيم» ص٥٥٠ ـ ٥٥٢.

وهو الوجه الذي نسب منه إلى الخالق سبحانه وتعالى، خلقاً وتكويناً ومشيئة، لما فيه من الحكمة البالغة التي استأثر بعلمها، وأطلع من شاء من خلقه على ما شاء منها».

ثم مثّل ابن القيم رحمه الله ـ بقطع يد السارق فهو شر بالنسبة إليه، وخير محض بالنسبة إلى عموم الناس، لما فيه من حفظ أموالهم، ودفع الضرر عنهم، وخير بالنسبة إلى متولي القطع أمراً وحكماً، لما في ذلك من الإحسان إلى عبيده عموماً بإتلاف هذا العضو المؤذي لهم المضر بهم، فهو محمود على حكمه بذلك وأمره به، مشكور عليه، يستحق عليه الحمد من عباده، والثناء عليه، والمحبة له.

ومثّل أيضاً بقتل الصائل عليهم في دمائهم وحرماتهم... إلى أن قال: «وتأمل طريقة القرآن في إضافة الشر تارة إلى سببه، ومن قام به، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وكقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦]، وتارة بحذف فاعله، كقوله حكاية عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]. فحذفوا فاعل الشر ومريده، وصرحوا بمريد الرشد» إلى غير ذلك من الأمثلة التي ذكرها رحمه الله[1].

٩ ـ مشروعية الاستعاذة برب الفلق من الليل إذا أقبل بظلامه، ودخل في كل شيء، لقوله ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ وهذا من عطف الخاص على العام، لأنه داخل تحت عموم قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ وإنما خص هذا بعد العموم، لأن الليل وظلمته محل سلطان الأنفس والأرواح الشريرة والخبيثة ووقت انتشارها للسعي بالفساد، من شياطين الإنس والجن والهوام، وغير ذلك.

١٠ ـ مشروعية الاستعاذة برب الفلق من شر السواحر لقوله: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾. وهذا أيضاً كسابقه من عطف الخاص على العام فإنه داخل تحت عموم قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ وإنما خص شر السواحر ـ كما خص قبله شر الغاسق ـ لعظيم خطر السحر، وشدة شر السواحر.

١١ ـ إثبات حقيقة السحر وتأثيره بإذن الله الكوني لقوله ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ ولقوله عز وجل: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ

(١) انظر «التفسير القيم» ص٥٥٥.

هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢]. وقال تعالى: ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

وعن زيد بن أرقم قال: «سحر النبي ﷺ من اليهود فاشتكى لذلك أياماً. قال: فجاءه جبريل فقال: إن رجلاً من اليهود سحرك عقد لك عقداً في بئر كذا وكذا، فأرسل إليها من يجيء بها، فبعث رسول الله ﷺ علياً رضي الله عنه فاستخرجها، فجاء بها، فحللها قال: فقام رسول الله ﷺ كأنما نشط من عقال، فما ذكر ذلك لليهودي، ولا رآه في وجهه قط حتى مات»[١].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ سحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن ـ قال سفيان بن عيينة: وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا ـ فقال: «يا عائشة أعلمت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه؟ أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي. فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟ قال مطبوب. قال: ومن طبّه؟ قال: لبيد بن الأعصم، رجل من بني زريق حليف ليهود، وكان منافقاً. قال: وفيم؟ قال: في مشط ومشاقة. قال: وأين؟ قال: في جَفّ طَلْع ذكر، تحت راعوفة في بئر ذروان، قال: فأتى البئر حتى استخرجه، فقال: هذه البئر التي أريتها، وكأن ماءها نقاعة الحناء[٢]، وكأنّ نخلها رؤوس الشياطين. قال: فاستخرج فقلت: أفلا ـ أي: تنشّرت؟ قال: أما الله فقد شفاني، وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً»[٣].

قال ابن القيم[٤]: «وهذا الحديث ثابت عند أهل العلم بالحديث، متلقى بالقبول

---

(١) أخرجه أحمد ٤/٣٦٧، والنسائي في التحريم ـ باب سحرة أهل الكتاب ٣٨٠٢.

(٢) المشاقة: المشاطة، وهي الشعر الذي يسقط من الرأس واللحية عند التسريح بالمشط. والجف: قشر الطلع. راعوفة البئر: صخرة تترك في أسفل البئر إذا حفرت تكون ناتئة هناك، فإذا أرادوا تنقية البئر جلس المنقي عليها. وبئر ذروان: بئر بني زريق بالمدينة. والنقاعة: ما أنقع فيه الشيء، وهو هنا الماء الذي أنقع فيه الحناء، انظر «النهاية» «لسان العرب» مادة «مشق» ومادة «جفف» ومادة «رعف» ومادة «نقع»، «التفسير القيم» ص٥٦٤.

(٣) أخرجه البخاري في الطب ـ باب هل يستخرج السحر ٥٧٦٥، وأحمد ٦/٩٦.

(٤) انظر «التفسير القيم» ص٥٦٦، ٥٧٠.

بينهم، لا يختلفون في صحته».

وليس في هذه الأحاديث الثابتة في أنه ﷺ سحر تصديق لقول المشركين: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الإسراء: ٤٧، الفرقان: ٨]، وكما قال قوم صالح: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣] وكذا قال قوم شعيب لـه ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٥].

لأن الذي أصابه ـ كما دلت عليه هذه الأحاديث ـ مرض من الأمراض يصيب غيره، ولا يمنع من اتباعه ﷺ وهذا بخلاف ما زعمه المشركون، وكذا ما قاله قوم صالح وقوم شعيب لهما فإنهم يقصدون بأن هؤلاء الرسل سحروا فزالت عقولهم حتى أصبحوا لا يدري الواحد منهم ما يقول كالمجانين.

كما قال الله تعالى عنهم: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٣، ١٤]، وهم يقصدون بذلك تحذير سفهائهم من اتباع الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وقد أنكر تأثير السحر، وأن لـه حقيقة طائفة من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم، وقالوا: إنه لا تأثير للسحر البتة، لا في مرض، ولا قتل، ولا حلّ ولا عقد، وقولهم هذا لا مستند لـه إلا تحكيم عقولهم القاصرة، وهو باطل بدلالة الكتاب والسنة وخلاف ما عليه عامة علماء الأمة، بل وخلاف ما يدل عليه الواقع.

قال ابن القيم(١) بعد ما ذكر هذا القول: «وهذا خلاف ما تواتر به الآثار عن الصحابة والسلف، واتفق عليه الفقهاء، وأهل التفسير والحديث، وما يعرفه عامة العقلاء... ».

١٢ ـ أن السحر من أعظم الذنوب، بل هو من أكبر الكبائر، لأن الله أمر بالاستعاذة من السواحر، بعد الأمر بالاستعاذة من جميع شرور الخلق مما يدل على خطره وعظيم جرمه وشدة ضرره وشره. وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات» وذكر منهن «السحر»(٢).

---

(١) انظر «التفسير القيم» ص٥٧١ ـ ٥٧٢.

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٦٧، ومسلم في الإيمان ٨٩، وأبوداود في الوصايا ٢٨٧٤، والنسائي في الوصايا ٣٦٧١.

ولهذا كانت عقوبة الساحر القتل حداً كما قال ﷺ: «حد الساحر ضربة بالسيف»[1].

وعن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال كتب لنا عمر: «أن اقتلوا كل ساحر وساحرة، قال فقتلنا ثلاث سواحر»[2].

وصح عن حفصة رضي الله عنها أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها.

قال الإمام أحمد: «صح عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ قتل الساحر»، يعني: عمر وحفصة وجندب بن عبد الله رضي الله عنهم[3].

١٣ ـ مشروعية الاستعاذة برب الفلق من شر الحاسد إذا حسد، لقوله: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ وخصه بالذكر مع أنه داخل تحت قوله ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ كشر الغاسق إذا وقب وشر النفاثات في العقد كل ذلك من باب ذكر الخاص بعد العام تنبيها وتوكيداً على عظم خطر وضرر هذه المخصوصات.

١٤ ـ أن الحسد إنما يؤثر، إذا أظهره الحاسد وحققه، وعمل بمقتضاه من بغي الغوائل للمحسود بقوله، أو فعله، أو إتباعه لنفسه ما عند المحسود من نعمة، وفي الحديث: «إذا حسدت فلا تبغ»[4]. وذلك لأن الحسد لا يكاد يخلو منه أحد. ويكثر الحسد بين الأقران الذي يزاولون أعمالاً وحرفاً متشابهة كأصحاب المحلات التجارية والبيع والشراء، وأصحاب الأعمال المهنية، وأرباب الأعمال الوظيفية والمناصب الذين يحصل بينهم التنافس، وكذا كثير من طلاب العلم، بل والعلماء إلا من عصمه الله من ذلك، ولهذا يجب الاحتراس والحذر كل الحذر من ذلك، وتعاهد القلب وإصلاحه والنأي به عن هذا المرض الخطير والداء الوبيل فإن القلوب عليها مدار صلاح الأعمال، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩]. وقال ﷺ: «ألا

---

(١) أخرجه الترمذي في الحدود ١٤٦٠، من حديث جندب رضي الله عنه، وقال الصحيح أنه موقوف. ورواه أيضاً الدارقطني والبيهقي والحاكم، وقال: «صحيح غريب» وضعفه البخاري. وقال الذهبي في الكبائر إنه من قول جندب. وقال بعضهم يتقوى بكثرة طرقه، فقد خرجه جمع منهم البغوي الكبير والصغير، والطبراني والبزار، ومن لا يحصى كثرة. واختلفوا في جندب المذكور، فقال بعضهم: هو جندب بن عبد الله البجلي، وقال بعضهم: إنه جندب الخير الأزدي، ورواه بعضهم من حديث بريدة أن النبي ﷺ قال: «يضرب ضربة فيكون أمة وحده». انظر «تيسير العزيز الحميد» ص٣٩٠ ـ ٣٩٢.

(٢) ذكره في «تيسير العزيز الحميد» ص ٣٩٢، وقال: «إسناده حسن».

(٣) انظر «تيسير العزيز الحميد» ص٣٩٢ ـ ٣٩٤.

(٤) سبق تخريجه، وفي الحديث أيضا: «إذا رأى أحدكم من أخيه ما يعجبه فليدع له بالبركة» أخرجه ابن ماجه في الطب ٣٥٠٩ ـ من حديث أبي أمامة بن سهل بن حنيف رضي الله عنه.

إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[١].

١٥ ـ أنه لا واقي ولا كافي ولا حافظ ولا معيذ من جميع شرور الخلق ومن شر الغاسق والسحر والحسد وغير ذلك إلا الله وحده، لأن الله أمر بالاستعاذة به سبحانه من جميع هذه الشرور وقد قال عز وجل: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]، وقال عز وجل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ الطلاق: ٣]. وقال ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «احفظ الله يحفظك» الحديث[٢].

وفي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن من قال حين يخرج من بيته: «بسم الله آمنت بالله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، أجابه الملك بقوله: كفيت ووقيت، وتنحى عنه الشيطان»[٣].

فائدتـــــان:

الفائدة الأولى: أسباب تحريم الحسد.

وإنما حرم الله الحسد، ونهى عنه، وأمر بالاستعاذة من شر الحاسد لأسباب عدة، منها ما يلي:

أولاً: أن الحسد فيه اعتراض على قضاء الله وقدره وحكمته في تقسيمه الأرزاق بين عباده.

ثانياً: أنه سبب لرد الحق، وعدم قبوله كما ذكر الله عز وجل عن أهل الكتاب، قال عز وجل: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

ثالثاً: أنه من نواقض عرى الإيمان الموجبة لمحبة الخير لأخيه المسلم، وقد قال ﷺ: «لا

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٢، ومسلم في المساقاة ١٥٩٩، وأبوداود في البيوع ٣٣٢٩، والنسائي في البيوع ٤٤٥٣، والترمذي في البيوع ١٢٠٥ ـ من حديث النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٥١٦، وقال «حسن صحيح» وأحمد ٤/٢٨٦، ٢٨٨، من حديث حنش الصنعاني عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقال: «هذا إسناد مشهور، ورواته ثقات». وقال ابن رجب: «إسناد حسن لا بأس به» وقد شرحه بطوله ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» وفي رسالته «نور الاقتباس في وصية الرسول ﷺ لابن عباس».

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٤٢٦.

يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[١].

رابعاً: أن فيه اعتداءً على المحسود بغير جرم منه، إلا أن الله أعطاه من فضله، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

خامساً: أنه لا يعود على الحاسد إلا بالهم والكمد والأسى. وقد قيل: «لله در الحسد ما أعْدَ لَـه عاد على صاحبه فقتله».

وقال الشاعر:

دع الحسود وما يلقاه من كمده يكفيك منه لهيب النار في كبده

سادساً: أن الحاسد مبغض ممقوت عند الله وعند الناس، لأنه عدو نعمة الله، وعدو عباد الله.

قال ابن القيم[٢]: «فالحاسد عدو نعمة الله وعدو عباده، وممقوت عند الله وعند الناس، ولا يسود أبداً، ولا يواسى، فإن الناس لا يسودون عليهم إلا من يريد الإحسان إليهم، فأما عدو نعمة الله عليهم فلا يسودونه باختيارهم أبداً، إلا قهراً يعدونه من البلاء والمصائب التي ابتلاهم الله بها فهم يبغضونه وهو يبغضهم».

سابعاً: أن الحاسد بدل أن يسعى ويعمل ينشغل بمتابعة ما عند الآخرين، وما أعطاهم الله من فضله، والواجب عليه أن يبذل السبب في السعي والعمل، ويسأل الله من فضله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢].

ثامناً: أن الحسد سبب لإيقاع العداوة والبغضاء بين الناس، لأنه يحمل الحاسد على الاعتداء على المحسود، ومنع حقه، وجحد فضله، مما يوغر الصدور، ويشعل نار العداوة بين الناس.

تاسعاً: أنه كبيرة من كبائر الذنوب، ومن صفات إبليس لعنه الله فهو الذي حسد آدم لشرفه، وأبى أن يسجد لـه حسداً وكبراً، وهو من صفات اليهود المغضوب عليهم.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٤٥، والنسائي في الإيمان ٥٠١٦، والترمذي في صفة القيامة ٢٥١٥، وابن ماجه في المقدمة ٦٦، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) انظر «التفسير القيم» ص٥٨٤.

عاشراً: أنه مرض قلبي من أخطر أمراض القلوب ومحبط للأعمال، قال ﷺ: «دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء، وهي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين»[1]. وفي الحديث: «إياكم والحسد فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أو قال العشب»[2].

الفائدة الثانية: الأسباب التي بها يندفع شر الحاسد بإذن الله عز وجل.

يندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب ذكرها ابن القيم رحمه الله[3]: أُلخصها فيما يلي:

أحدها: التعوذ بالله من شره، والتحصن به واللجوء إليه، وهو المقصود بهذه السورة.

السبب الثاني: تقوى الله وحفظه عند أمره ونهيه، فمن اتقى الله تولى الله حفظه ولم يكله إلى غيره، قال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك»[4]. فمن حفظ الله حفظه ووجده أمامه أينما توجه، ومن كان الله حافظه وأمامه فممن يخاف؟ وممن يحذر؟

السبب الثالث: الصبر على عدوه، وألا يقاتله، ولا يشكوه، ولا يحدث نفسه بأذاه أصلاً، فما نصر على حاسده وعدوه بمثل الصبر عليه، والتوكل على الله، ولا يستطل تأخيره وبغيه، فإنه كلما بغى عليه كان بغيه جنداً وقوة للمبغي عليه المحسود، يقاتل به الباغي نفسه، وهولا يشعر، فبغيه سهام يرميها من نفسه إلى نفسه، ولو رأى المبغي عليه ذلك لسره بغيه عليه، ولكن لضعف بصيرته لا يرى إلا صورة البغي، دون آخره ومآله، وقد قال تعالى: ﴿۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۚ﴾ [الحج: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) انظر «التفسير القيم» ص٥٨٥ ـ ٥٩٤.
(٤) سبق تخريجه .

السبب الرابع: التوكل على الله، فمن يتوكل على الله فهو حسبه، والتوكل على الله من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم، وهو من أقوى الأسباب في ذلك، فإن الله حسبه، أي: كافيه، ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع لعدوه، فلو توكل العبد على الله حق توكله وكادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل لـه ربه مخرجاً من ذلك وكفاه ونصره.

السبب الخامس: فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه، وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر لـه، فلا يلتفت إليه، ولا يخافه، ولا يملأ قلبه بالفكر فيه، وهذا من أنفع الأدوية، ومن أقوى الأسباب المعينة على اندفاع شره، فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوه ليمسكه ويؤذيه، فإذا لم يتعرض لـه، ولا تماسك هو وإياه، بل انعزل عنه، لم يقدر عليه، فإذا تماسكا وتعلق كل منهما بصاحبه حصل الشر، هكذا الأرواح سواء.

السبب السادس: الإقبال على الله، والإخلاص لـه، وجعل محبته ورضاه والإنابة إليه محل خواطر نفسه وأمانيها. قال تعالى حكاية عن إبليس: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢ ـ ٨٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩ ـ ١٠٠].

وقال عن يوسف الصديق، ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

السبب السابع: تجريد التوبة إلى الله من الذنوب التي سلطت عليه أعداءه فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

فما سلط على العبد من يؤذيه إلا بذنب يعلمه أو لا يعلمه، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها، وما ينساه مما عمله أضعاف ما يذكره، وفي الدعاء المشهور: «اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم»[1] فما يحتاج العبد إلى الاستغفار منه مما لا يعلمه أضعاف أضعاف ما يعلمه، فما سلط عليه مؤذ إلا بذنب.

---

(١) اخرجه أحمد ٤/ ٤٠٣

ولقي بعض السلف رجل فاغلظ له، ونال منه، فقال له: قف حتى أدخل البيت، ثم أخرج إليك، فدخل فسجد لله وتضرع إليه وتاب، وأناب إلى ربه، ثم خرج إليه، فقال له ما صنعت؟ فقال: تبت إلى الله من الذنب الذي سلطك به عليّ.

وليس في الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها، فإذا عوفي العبد من الذنوب عوفي من موجباتها.

فليس للعبد إذا بُغي عليه، وأُوذي، وتسلط عليه خصومه شيء أنفع من التوبة النصوح.

وعلامة سعادته: أن يعكس فكره ونظره على نفسه وذنوبه وعيوبه، فيشتغل بها، وبإصلاحها، وبالتوبة منها، فلا يبقى فيه فراغ لتدبر ما نزل به، بل يتولى هو التوبة، وإصلاح عيوبه، والله يتولى نصرته وحفظه والدفع عنه ولابد، فما أسعده من عبد، وما أبركها من نازلة نزلت به، وما أحسن أثرها عليه، ولكن التوفيق والرشد بيد الله، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، فما كل أحد يوفق لهذا، لا معرفة به، ولا إرادة له، ولا قدرة عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

السبب الثامن: الصدقة والإحسان ما أمكنه، فإن لذلك تأثيراً عجيباً في دفع البلاء، ودفع العين، ودفع الحسد، ولو لم يكن في هذا إلا تجارب الأمم قديماً وحديثاً لكفى به، فما تكاد العين والحسد والأذى يتسلط على محسن متصدق، وإن أصابه شيء من ذلك كان معاملاً فيه باللطف والمعونة والتأييد، وكانت له فيه العاقبة الحميدة، فالمحسن المتصدق في خفارة إحسانه وصدقته، عليه من الله جنة واقية، وحصن حصين.

وبالجملة: فالشكر حارس النعمة من كل ما يكون سبباً لزوالها، فما حرس العبد نعمة الله عليه بمثل شكرها، ولا عرضها للزوال بمثل العمل فيها بمعاصي الله، وهو كفران النعمة وهو باب إلى كفر المنعم.

فالمحسن المتصدق يستخدم جنداً وعسكراً يقاتلون عنه وهو نائم على فراشه.

السبب التاسع: وهو من أصعب الأسباب على النفس وأشقها عليها، ولا يوفق له إلا من عظم حظه من الله، وهو إطفاء نار الحاسد والباغي والمؤذي بالإحسان إليه، فكلما ازداد أذىً وشراً وبغياً وحسداً ازددت له إحساناً، وله نصيحة، وعليه شفقة، وما أظنك تصدق بأن هذا يكون، فضلاً عن أن تتعاطاه، فاسمع الآن قول الله عز وجل: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ

مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٣٦﴾ [فصلت: ٣٤ ـ ٣٦].

وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٤].

وكان ﷺ يسلت الدم عنه ويقول: «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[(١)].

فجمع في هذه الكلمات الأربع مقامات من الإحسان، قابل بها إساءتهم العظيمة إليه، أحدها: عفوه عنهم، والثاني: استغفاره لهم، والثالث: اعتذاره عنهم بأنهم لا يعلمون، والرابع: استعطافه لهم بإضافتهم إليه فقال: «رب اغفر لقومي».

وكما تحب أن يعفو الله عن تقصيرك وإساءتك فاعف أنت عمن قصّر في حقك، وآذاك، وأساء إليك، فكما تدين تدان، وكما تفعل مع عباد الله يفعل الله معك.

وفي هذا نزل في شأن الصديق رضي الله عنه: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

وفي الحديث: «وليأت للناس الذي يحب أن يؤتى إليه»[(٢)].

فمن تصور هذا وشغل به فكره هان عليه الإحسان لمن أساء إليه مع ما يحصل له من نصر الله ومعيته الخاصة، كما قال ﷺ للذي شكا إليه قرابته، وأنه يحسن إليهم وهم يسيئون إليه، قال: «لا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك»[(٣)].

هذا مع ما يتعجله من ثناء الناس عليه، ويصيرون كلهم معه على خصمه، فإن كل من سمع أنه محسن إلى ذلك الغير وهو مسيء إليه وجد قلبه ودعاءه وهمته مع المحسن على المسيء، وذلك أمر فطري، فطر الله عليه عباده، فهو بهذا الإحسان قد استخدم عسكراً لا يعرفهم ولا يعرفونه، ولا يريدون منه إقطاعاً، ولا خبزاً. هذا مع أنه لابد له من عدوه وحاسده من إحدى حالتين: إما أن يملكه بإحسانه فيستعبده وينقاد إليه ويذل له.. وإما أن يفتت كبده، ويقطع دابره إن أقام على إساءته إليه، فإنه يذيقه بإحسانه

---

(١) اخرجه البخاري في الأنبياء ٣٤٧٧، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٩٢، وأحمد ١/ ٣٨٠، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) اخرجه من حديث طويل مسلم في الإمارة ١٨٤٤، وأبوداود في الفتن والملاحم ٤٢٤٨، والنسائي في البيعة ٤١٩١، وابن ماجه في الفتن ٣٩٥٦، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٣) اخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٥٨، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أضعاف ما ينال منه بانتقامه، ومن جرب هذا عرفه حق المعرفة.

السبب العاشر: وهو الجامع لذلك كله، وعليه مدار هذه الأسباب، وهو تجريد التوحيد، والترحل بالفكر فى الأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم، قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٠٧]. وقال النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»[1].

فإذا جرد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سواه، وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله. وتجرد لله محبة وخشية وإنابة وتوكلاً واشتغالاً به عن غيره والله يتولى حفظه والدفع عنه، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، وبحسب إيمان العبد يكون دفع الله عنه، فإن كمل إيمانه دفع الله عنه أتم دفع، وإن مزج مزج لـه، وإن كان مرة ومرة فالله لـه مرة ومرة، كما قال بعض السلف: «من أقبل على الله بكليته أقبل الله عليه جملة، ومن أعرض عن الله بكليته أعرض الله عنه جملة، ومن كان مرة ومرة فالله لـه مرة ومرة».

فالتوحيد حصن الله الأعظم الذي من دخله كان من الآمنين. قال بعض السلف: «من خاف الله خافه كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه كل شيء».

قال ابن القيم[2] رحمه الله بعد أن ذكر هذه الأسباب: «هذه عشرة أسباب يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر، وليس لـه أنفع من التوجه إلى الله، وإقباله عليه وتوكله عليه وثقته به، وألا يخاف معه غيره، بل يكون خوفه منه وحده، ولا يرجو سواه، بل يرجوه وحده، فلا يعلق قلبه بغيره، ولا يستغيث بسواه، ولا يرجو إلا إياه، ومتى علق قلبه بغيره ورجاه وخافه وكل إليه، وخذل من جهته، فمن خاف شيئاً غير الله سُلِّط عليه، ومن رجا شيئاً سوى الله خذل من جهته، وحرم خيره، هذه سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً».

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر «التفسير القيم» ص٥٩٤.

تفسير سورة الناس

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الله تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ٦﴾.

قوله: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ الأمر للنبي ﷺ، وهو امر له، ولأمته، بل لكل فرد من افراد أمته، وهكذا كل امر او خطاب في القرآن الكريم له ﷺ فهو له ولأمته، ما لم يدل دليل على خصوصيته ﷺ بذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ [الأحزاب: ٥٠] فلا يصح لامرأة ان تهب نفسها لغيره ﷺ.

وجملة: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ وما بعدها في محل نصب مقول القول. وقوله ﴿أَعُوذُ﴾ هذا هو الركن الأول من اركان الاستعاذة، وهو «التعوذ».أي: أعتصم والتجئ وأستجير.

﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ هذا هو الركن الثاني من أركان الاستعاذة، وهو المستعاذ به. وهو: رب الناس.

﴿بِرَبِّ﴾ جار ومجرور متعلق بـ (اعوذ) والباء للاستعانة.

و«الرب» هو الخالق المالك المدبر، فرب الناس خالقهم ومالكهم ومدبرهم بنعمه الظاهرة والباطنة.

والناس: أصله: «أناس» ثم زيدت فيه الألف واللام. قال الشاعر:

إن المنـــايـــا يطلعـــ ـــن على الأناس الآمنينا [١]

وهو على هذا مشتق من «أنس» فالناس كالإنسان كل منهما مشتق من الأنس، لأنهم يأنس بعضهم ببعض، أو هو مشتق من «النوس» وهو الحركة المتابعة، وسمي البشر ناساً، لأنهم ينوسون، أي: يتحركون حركة ظاهرة وباطنة، وصحح هذا ابن القيم [٢].

---

(١) البيت لذي جرن الحميري. انظر: «اشتقاق اسماء الله الحسنى» ص٣٢، «الكشاف» ١/ ٦.

(٢) انظر «بدائع الفوائد» ٢/ ٢٦٤.

أو أنهما مشتقان من الإيناس: وهو الرؤية والمشاهدة، كما قال تعالى: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩]، أي: رآها وشاهدها. وقال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: ٦] أي: أبصرتموه ورأيتموه.

فسمي البشر «ناساً» من هذا المعنى، لأنهم يُرَون ويُشاهدون، بخلاف الجن، فهم مستترون لا يشاهدون. وسمي الإنسان: إنساناً، لأنه يُؤنس، أي: يُرى بالعين.

وقيل إنهما مشتقان من النسيان، كما قال أحدهم:

وما سمي الإنسان إلا لنسيه ولا القلب إلا أنه يتقلب

وقد رد هذا ابن القيم، وقال: «لو كان الإنسان مشتقا من النسيان لقيل: «نسيان» ولم يُقل: إنسان»[1].

قال الزمخشري[2]: «وإنما أضاف الرب هنا إلى الناس خاصة، لأن الاستعاذة وقعت من شر الموسوس في صدور الناس، فكأنه قيل: أعوذ من شر الموسوس إلى الناس بربهم الذي يملك عليهم أمورهم وهو إلههم ومعبودهم».

﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ عطف بيان على قوله ﴿رب الناس﴾ وكرر المضاف إليه، وأظهره في الموضعين، لأن عطف البيان للبيان فكان مظنة للإظهار دون الإضمار.

﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: مالكهم ومدبرهم الذي يأمرهم وينهاهم، وكل ملك مالك، وليس كل مالك ملكاً.

﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: معبودهم الذي يتوجهون إليه في جميع عباداتهم، إذ لا معبود لهم بحق سواه.

قال ابن القيم[3]: «وقدم الربوبية لعمومها وشمولها لكل مربوب وأخر الألوهية لخصوصها، لأنه سبحانه إنما هو إله من عبده ووحده، واتخذه دون غيره إلهاً، فمن لم يعبده ويوحده فليس بإلهه، وإن كان في الحقيقة لا إله له سواه، ولكن المشرك ترك إلهه الحق، واتخذ إلهاً غيره باطلاً، ووسط صفة الملك بين الربوبية والإلهية، لأن الملك هو المتصرف

---

(١) انظر «بدائع الفوائد» ٢/ ٢٦٤.

(٢) في «الكشاف» ٤/ ٢٤٥.

(٣) انظر «التفسير القيم» ص٥٩٨.

بقوله وأمره، فهو المطاع إذا أمر، وملكه لهم تابع لخلقه إياهم، فملكه من كمال ربوبيته، وكونه إلههم الحق من كمال ملكه، فربوبيته تستلزم ملكه وتقتضيه، وملكه يستلزم إلهيته ويقتضيها، فهو الرب الحق، الملك الحق، الإله الحق، خلقهم بربوبيته، وقهرهم بملكه، واستعبدهم بألوهيته».

فالمستعاذ به هو: رب الناس، ومالكهم ومعبودهم. وكرر الاسم الظاهر «الناس» دون الضمير، فلم يقل: «رب الناس وملكهم وإلههم» تقوية للمعنى، وهو أنهم إنما يستعيذون بمن له هذه الصفات العظيمة، وهو كونه: رب الناس، ومالكهم وإلههم، والمقصود: الاستعاذة بمجموع هذه الصفات، حتى كأنها صفة واحدة.

وتتضمن هذه الصفات الثلاث جميع قواعد الإيمان، ومعاني أسماء الله الحسنى. فالرب هو القادر الخالق الباري... وأما الملك فهو المعبود الآمر الناهي المعز المذل الذي يصرف أمور عباده كما يحب، ويقلبهم كيف يشاء.. وأما الإله فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال، ولهذا يدخل في هذا الاسم «الله» جميع الأسماء الحسنى، فهو جامع لجميع أسماء الله الحسنى وصفاته العلى.

قال ابن القيم[1]: «وإذا كان وحده هو ربنا وملكنا وإلهنا فلا مفزع لنا في الشدائد سواه، ولا ملجأ لنا منه إلا إليه، ولا معبود لنا غيره، فلا ينبغي أن يدعى ولا يخاف ولا يرجى ولا يحب سواه، ولا يذل لغيره ولا يخضع لسواه، ولا يتوكل إلا عليه».

وقصر - عز وجل هنا ربوبيته وملكه وألوهيته على الناس - مع أنه عز وجل رب جميع الخلق ومليكهم وإلههم لأن الناس هم المكلفون وتكريماً وتشريفاً لهم، كما قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ هذا هو الركن الثالث من أركان الاستعاذة وهو المستعاذ منه، وهو: ﴿شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ و «شر» مفرد مضاف إلى «الوسواس» وهو معرف بأل فيفيد الاستعاذة من جميع شرور الوسواس.

والوسواس: هو الشيطان. وأصل الوسوسة هي الحركة والصوت الخفي.

---

(١) انظر «التفسير القيم» ص٥٩٧.

قال الأعشى [(١)]:

تسمع للحلي وَسْواساً إذا انْصَرفت كما استعان بريح عِشْرقٌ زَجِل

فالوسواس: الإلقاء الخفي في النفس، إما بصوت خفي لا يسمعه إلا من أُلقي إليه، وإما بغير صوت، كما يوسوس الشيطان إلى العبد.

والمراد بالوسواس هنا: الشيطان، وهو ذات لا مصدر[(٢)]، وأصله: الشيطان الوسواس، فحذف الموصوف هنا وأقيم الوصف مكانه، لغلبة هذا الوصف على الشيطان، فصار كالعلم عليه، وجرى مجرى الاسم، فحسن حذف الموصوف، كما يقال: المسلم والكافر، ونحو ذلك.

قال ابن كثير [(٣)]: «وهو الشيطان الموكل بالإنسان فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين يزين لـه الفواحش، ولا يألوه جهداً في الخبال، والمعصوم من عصمه الله. قال ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قرينه قالوا:وأنت يا رسول الله؟ قال: نعم، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير»[(٤)].

وَوُصف الشيطان وسُمي بالوسواس لدقة وخفاء مداخله ومجاريه من الإنسان كما قال ﷺ: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»[(٥)].

والوسواس من جنس حديث النفس قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦] أي: ما تحدث به نفسه. وقال ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به»[(٦)]، وهو نوعان: خبر إما عن ماض يُذكِّره به، وإما عن مستقبل يُحدِّثه بفعله أو يُخوِّفه وقوعه، ونحو ذلك من الأماني والمواعيد الكاذبة. والنوع الثاني: إنشاء وهو إما أمر أو نهي أو إباحة.

---

(١) انظر «ديوانه» ص١٠٥ شرح وتعليق محمد محمد حسين، مؤسسة الرسالة، «لسان العرب» مادة «وسس».

(٢) وقيل: مصدر.

(٣) في «تفسيره» ٨/ ٥٥٨.

(٤) أخرجه مسلم في صفة القيامة ٢٨١٤، وأحمد ١/ ٣٨٥، ٣٩٧، ٤٠١، ٤٦٠، والدارمي في الرقاق ٢٦١٨، من حديث سالم بن أبي الجعد عن أبيه عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه

(٥) أخرجه البخاري في الاعتكاف ٢٠٣٨، وفي الأدب ٦٢١٩، ومسلم في السلام ٢١٧٥، وأبوداود في الصوم ٢٤٧٠، وابن ماجه في الصيام ١٧٧٩، من حديث صفية رضي الله عنها زوج النبي ﷺ. وأخرجه مسلم أيضاً ٢١٧٤، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٦) أخرجه البخاري في العتق ٢٥٢٨، ومسلم في الإيمان ١٣٧، وأبوداود في الطلاق ٢٢٠٩، والنسائي في الطلاق ٣٤٣٣، والترمذي في الطلاق واللعان ١١٨٣، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(الخناس) هذه الصفة الثانية للشيطان. و«الخناس» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة على وزن «فعّال» من خنس يخنس، إذا توارى واختفى بعد ظهوره كما قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥]، وهي النجوم تخنس وتختفي بالنهار وتظهر وتبدو في الليل.

ومنه قول أبي هريرة رضي الله عنه: «لقيني النبي ﷺ في بعض طرق المدينة، وأنا جنب فانخنست منه»[(١)]: أي: اختفيت.

وهو أيضاً مأخوذ من معنى الرجوع والتأخر، كما في الحديث: «إذا نُودي للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين، فإذا قُضي النداء أقبل، فإذا ثُوّب بها أدبر، فإذا قُضي أقبل، حتى يخطر بين الإنسان وقلبه، فيقول اذكر كذا، اذكر كذا، لما لم يكن يذكر ـ حتى لا يدري أثلاثاً صلى أم أربعاً»[(٢)].

وهكذا حال الشيطان مع العبد، فإن غفل العبد عن الذكر أقبل عليه الشيطان بخيله ورجله وجثم على قلبه، وبذر فيه أنواع الوساوس، من تزيين الأعمال السيئة وغير ذلك. وإذا ذكر العبد ربه، واستعاذ بالله من الشيطان انخنس الشيطان وتوارى وتصاغر واختفى وتراجع وتأخر وفي الحديث: «ما رُئي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر، ولا أغيظ منه في يوم عرفة، وما ذاك إلا لما رأى من تنزل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام، إلا ما رئي يوم بدر..» الحديث[(٣)].

ولهذا جاء بصيغة المبالغة «خنّاس» لبيان شدة هروبه، وعظم نفوره عند ذكر الله، وأن هذا دأبه وعادته دائماً وأبداً إذا ذكر الله هرب وخنس، وإذا غفل العبد عاوده بالوسوسة.

ولهذا جاء في الحديث: «إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان»[(٤)].

﴿ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ هذه صفة ثالثة للشيطان فوصفه أولاً بالوسوسة، ثم وصفه ثانياً بالخنّاس، ثم وصفه ثالثاً بكونه يوسوس في صدور الناس.

والصدور: جمع صدر، وهو ساحة القلب وبيته، فتجتمع فيه هذه الوساوس

---

(١) أخرجه البخاري في الغسل ٢٣٨، ومسلم في الحيض ٣٧١، وأبوداود في الطهارة ٢٣١، والنسائي في الطهارة ٢٦٩، والترمذي في الطهارة ١٢١.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان ٦٠٨، ومسلم في الصلاة ٣٨٩، وأبوداود في الصلاة ٥١٦، والنسائي في الأذان ٦٧٠، والترمذي في الصلاة ٣٩٧، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٢١٦، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ ـ في الحج ٩٦٢، من حديث طلحة بن عبيد الله بن كريز رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أحمد ٣/ ٣٠٥، ٣٨٢ ـ من حديث جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه.

والواردات، ثم تلج إلى القلب، قال الله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وشرور الشيطان كثيرة لا تحصى، وأعظم صفاته وأشدها شراً، وأقواها تأثيراً، وأعمها فساداً الوسوسة، لهذا وصفه الله عز وجل بها، وهي أصل كل شر يقع في الأرض من ترك للواجبات، أو تقصير بها، أو انتهاك للمحرمات، ومن ظلم للنفس والغير، وغير ذلك.

قال ابن القيم[1]: «ووصفه بأعظم صفاته وأشدها شراً، وأقواها تأثيراً، وأعمها فساداً، وهي الوسوسة، التي هي مبادئ الإرادة، فإن القلب يكون فارغاً من الشر والمعصية، فيوسوس إليه،ويخطر الذنب بباله، فيصوره لنفسه ويمنيه ويشهيه، فيصير شهوة، ويزينها له ويحسنها، ويخيلها له في خياله حتى تميل نفسه إليه، فيصير إرادة، ثم لا يزال يمثل له، ويخيل ويمني ويشهي، وينسي علمه بضررها، ويطوي عنه سوء عاقبتها، فيحول بينه وبين مطالعته، فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاذه بها فقط، وينسى ما وراء ذلك، فتصير الإرادة عزيمة جازمة، فيشتد الحرص عليها من القلب فيبعث الجنود في الطلب، فيبعث الشيطان معهم مدداً لهم وعوناً، فإن فتروا حركهم، وإن ونوا أزعجهم - إلى أن قال: فاصل كل معصية وبلاء إنما هو الوسوسة، فلهذا وصفه الله بها، لتكون الاستعاذة من شرها أهم من كل مستعاذ منه وإلا فشره بغير الوسوسة حاصل أيضاً».

وقال أيضاً: «ومن شره أنه قعد لابن آدم بطرق الخير كلها، فما من طريق من طرق الخير إلا والشيطان مرصد عليه، يمنعه بجهده أن يسلكه، فإن خالفه وسلكه ثبطه فيه وعوقه وشوش عليه بالمعارضات والقواطع، فإن عمله وفرغ منه قيض له ما يبطل أثره ويرده على حافرته».

قوله ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ من الجنة: جار ومجرور متعلق بمحذوف وقع حالاً، والتقدير: كائناً من الجنة والناس.

و«الناس» معطوف على «الجنة» وهو بيان للذي يوسوس، اي أن الذي يوسوس في صدور الناس نوعان: شياطين جن، وشياطين إنس، كما قال تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

---

(١) انظر «التفسير القيم» ص٦٠٩ ـ ٦١٠.

وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «إن الملائكة تُحدِّث في العنان [(١)] بالأمر يكون في الأرض فتستمع الشياطين الكلمة، فتقرها في أذن الكاهن، كما تقر القارورة فيزيدون معها مائة كذبة من عند أنفسهم»[(٢)].

وعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تعوذ بالله من شياطين الإنس والجن، قلت: أو للإنس شياطين؟ قال: نعم شر من شياطين الجن»[(٣)].

ومن وسوسة شياطين الإنس: وسوسة نفس الإنسان له كما قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦]، وعنه ﷺ قال: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به، أو تعمل به»[(٤)].

وقيل: إن قوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بيان للناس الموسوس في صدورهم. والمعنى: الذي يوسوس في صدور الناس، الذين هم من الجنة والناس. فالموسوس في صدروهم على هذا قسمان: جن وإنس. فالوسواس وهو الشيطان يوسوس للجني كما يوسوس للإنسي.

والأظهر القول الأول وقد ضعف ابن القيم رحمه الله القول الثاني من وجوه عدة[(٥)]:

الأول: أنه لم يقم دليل على أن الجني يوسوس في صدر الجني، ويدخل فيه كما يدخل في الإنسي ويجري فيه مجراه من الإنسي.

الثاني: أنه على هذا فاسد من جهة اللفظ أيضاً، فإنه قال: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ فكيف يبين الناس بالناس.

الثالث: أنه قسّم الناس إلى قسمين: جنة وناس، وهذا غير صحيح، فإن الشيء لا يكون قسيم نفسه.

الرابع: أن الجنة لا يطلق عليها اسم الناس بوجه، لا أصلاً، ولا اشتقاقاً، ولا استعمالاً، ولفظها يأبى ذلك، فإن الجنة إنما سموا جناً من الاجتنان، وهو الاستتار، فهم مستترون عن أعين البشر.

---

(١) العنان: الغمام. انظر «النهاية في غريب الحديث» ولسان العرب، مادة «عنن».

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢١٠، ومسلم في السلام ٢٢٢٨.

(٣) أخرجه النسائي في الاستعاذة ٥٥٠٧، وأحمد ٥/ ١٧٩، ٢٦٥.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) انظر «التفسير القيم» ص٦١٥.

الفوائد والعبر:

١ ـ أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله عز وجل لقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ وفي هذا الرد على من يزعم من أهل الكفر والضلال أن هذا القرآن من نظمه ﷺ ابتدأ به.

٢ ـ حاجة الرسول ﷺ كغيره من البشر إلى الاعتصام بالله، واللجوء إليه، وأنه ﷺ كغيره من البشر قد يصيبه ما يصيبهم من الوساوس، وأنه لا يملك لنفسه دفع ضر أو جلب خير، وإنما المالك لذلك كله هو الله عز وجل لقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ إلى قولـه: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ وفي هذا الرد على من يرفعونه ﷺ إلى مقام الربوبية، فهو ﷺ عبد لا يعبد ورسول لا يكذب.

٣ ـ إثبات الربوبية العامة لله عز وجل فهو رب جميع الناس مؤمنهم وكافرهم لقوله ﴿بِرَبِّ النَّاسِ﴾ فهو خالقهم ومالكهم.

٤ ـ إثبات الملك العام لله عز وجل، فهو ملك الناس، ومدبرهم لـه الأمر والنهي بقسميهما الشرعي والكوني، لقوله ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾.

٥ ـ إثبات الألوهية العامة لله عز وجل، فهو إله الناس ومعبودهم الحق، ولو عبد بعضهم غيره، فليس لهم في الحقيقة معبود سواه لقوله ﴿إِلَٰهِ النَّاسِ﴾.

قال تعالى: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝٣٩ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٣٩، ٤٠].

٦ ـ مشروعية الاستعاذة برب الناس وملكهم وإلههم من شر الشيطان ووساوسه لقوله ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ إلى قولـه ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾.

٧ ـ عظم خطر الشيطان ووساوسه فهو أصل الشر كله، وأصل كل كفر وفسوق وعصيان لأن الله أمر بالاستعاذة به سبحانه والاعتصام بجنابه من الوسواس.

٨ ـ أن من طبيعة الشيطان أنه يوسوس عند الغفلة عن ذكر الله ويخنس ويختفي ويتراجع ويتأخر ويتصاغر عند ذكر الله عز وجل لأن الله وصفه بقوله ﴿الْخَنَّاسِ﴾ فيجب التحصن منه بذكر الله على الدوام.

٩ ـ أن الشيطان الذي يوسوس في صدور الناس على نوعين شياطين جن وشياطين إنس لقوله: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ كما قال

وَٱلنَّاسِ﴾ كما قال عز وجل ﴿شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وسوسة الشيطان للإنسان على أنواع ودرجات:

فمن وسوسته تزيين الكفر والشرك:

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣].

وقال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

ومن وسوسته تزيين المعاصي:

قال تعالى عن الأبوين عليهما السلام: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ۝٢٠ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ۝٢١ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٠ ـ ٢٢].

وقال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

وقد جعل الله للشيطان سلطاناً على قلوب أهل الكفر والنفاق، كما جعل له نفوذاً على أهل الغفلة والمعاصي، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

وقال ﷺ: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»[1].

ومن وسوسته: ما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «يأتي الشيطان أحدكم، فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق الله؟

---

(١) سبق تخريجه.

فمن وجد ذلك فليستعذ بالله ولينته»[١].

وفي رواية أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا يا رسول الله: إن أحدنا ليجد في نفسه ما أن يكون حممة أحب إليه من أن يتكلم به. قال: «الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة»[٢].

ومن وسوسته أيضاً: أن يشغل القلب بحديثه ووساوسه فيوقعه في نسيان ما أراد فعله أو قوله من أمر ديني أو دنيوي كما قال تعالى حكاية عن صاحب موسى عليه السلام أنه قال: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف: ٦٣] وتقدم في الحديث: «أنه يخطر بين المصلي وبين قلبه، فيقول: اذكر كذا، اذكر كذا، لما لم يكن يذكر، حتى لا يدري أثلاثا صلى أم اربعاً»[٣].

ومن وسوسته: أنه يوهم الإنسان ويخوفه من الأمور المستقبلة ويحمله على التشاؤم دائماً، ويجعل الحياة مظلمة في عينيه فتنتابه المخاوف على المستقبل، والمخاوف من الأعداء، ومن العين،ومن المرض، ومن الموت، ونحو ذلك وكل ذلك من الشيطان أخزاه الله.

وعلاج ذلك قوة الإيمان بالله والتوكل عليه واطراح هذه الوساوس، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

ومن وسوسته: أن يوحي إلى أعوانه من شياطين الإنس بأن يقول أحدهم أو يفعل ما فيه ضرر على العبد المسلم، فكم دبر الشيطان من مكيدة للمؤمنين على أيدي أعوانه من شياطين الإنس بسفك دم، أو انتهاك عرض، أو شتم وسب، أو مقالة سوء، أو نجوى، يريد بها الشيطان إلحاق الضرر والأذى والحزن بالمؤمنين ونحو ذلك، كما قال عز وجل ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٠].

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٧٦، ومسلم في الإيمان ١٣٤.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٣٤٠.

(٣) سبق تخريجه.

وخلاصة القول: أن وسوسة الشيطان على أنواع لا تكاد تحصى كثرة، وهي سبب لكل بلية ولكل معصية تقع في الأرض من ترك للواجبات أو انتهاك للمحرمات وهي على مراتب[١] :

فهو يأتي الإنسان فيدعوه إلى الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله ليكون من جنده ومن أعوانه على الشر.

فإن أيس منه، وكان ممن سبق لـه الإسلام في بطن أمه دعاه إلى المرتبة الثانية من الشر، والتي هي باب من الكفر والشرك، وهي البدعة، وحببها إليه لعظم ضررها في الدين، وكون ضررها متعدياً، وشدة تمسك صاحبها بها لا يكاد يتوب عنها، كما دلت على ذلك الآثار، وكما هو حال أهل البدع.

فإن عجز عن إيقاعه في هذه المرتبة، وكان ممن وفق إلى السنة ومعاداة أهل البدع والضلال دعاه إلى المرتبة الثالثة من الشر وهي الوقوع في الكبائر على اختلاف أنواعها.

فإن عجز عنه دعاه إلى المرتبة الرابعة، وهي الوقوع في الصغائر والاستهانة بها، وهي إذا اجتمعت أهلكت صاحبها وفي الحديث: «إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه»[٢].

وقال ﷺ: «يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب فإن لها من الله طالباً» [٣]،

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار»[٤].

فإن عجز عن إيقاعه في هذه المرتبة دعاه إلى المرتبة الخامسة وهي الانشغال بالمباحات من المآكل والمشارب وتزجية الأوقات بالنزه في المصايف والاستراحات والسياحة هنا وهناك إيثاراً للشهوات ورغبات النفس، وبهذا ضاعت كثير من أعمار الخلق.

بل أدى ذلك بالكثيرين إلى التقصير في الواجبات، والتفريط في حق الله وحقوق

---

(١) انظر «التفسير القيم» ص٦١٤.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٤٠٢، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الزهد ٤٢٤٣، من حديث عائشة رضي الله عنها. وقال في الزوائد: «إسناده صحيح، ورجاله ثقات».

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٦/ ٦٥١، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٣/ ٩٣٤، الأثر ٥٢١٦.

الخلق، كالوالدين والأزواج والأولاد والأقارب والجيران والتفريط في حق النفس، وعدم أخذها بالحزم في أداء الواجبات، والبعد عن المنهيات، والنظر في كتاب الله، وفي سنة رسوله ﷺ الذي هو الغذاء الروحي للنفس، والذي لا حياة للقلوب إلا به.

ولعمر الله لقد خرج الناس بهذه المباحات عن الحد حتى ضاعت أعمار وأعمال وأموال، ونسي كثير من الناس أن الدنيا مزرعة للآخرة، وأن الحياة ميدان مسارعة، ومسابقة ومنافسة للفوز بتلك الدار، وأن الأيام والليالي خزائن للأعمال.

فكم من حقوق لله ـ عز وجل ـ كالصلاة وغيرها ضيعت وفرط فيها بسبب الركض وراء هذه المباحات.

وكم من حقوق للخلق أهدرت بسبب ذلك.

فكم من والد مقعد على أحر من الجمر يتمنى أن يرى أولاده معه على مائدة طعام؛ غداء أو عشاء أو إفطار، أو أن يكون بجانبه أحد أولاده لتهيئة القهوة له أو لضيوفه ولكن هيهات، الأولاد كلهم مشغولون بلا شغل في الفلوات والخلوات والاستراحات والذهاب يميناً وشمالاً وهنا وهناك والحصلة صفر ـ والله المستعان.

وكم من زوجة تنتظر زوجها بفارغ الصبر إلى ساعة متأخرة من الليل ولو حرك الهواء أحد الأبواب أو مرّ بها قط وهي غافلة طار عقلها خوفاً وفزعاً وزوجها مشغول خارج البيت بلا شغل، ولو جاء وهي نائمة لأوسعها سباً وشتماً، إن لم يضربها أو يهددها بالضرب والطلاق.

وكم من أولاد ـ هم فلذات الأكباد ـ ليس لهم نصيب من جلوس والدهم بينهم وتربيته لهم وحنانه عليهم، بل ربما ليس لهم نصيب من رؤيته إلا النزر القليل يأتي إلى البيت وهم نائمون ويخرج في الصباح إلى العمل، وإذا جاء من العمل تناول غداءه على وجه السرعة ثم انطلق خارج البيت إلى هَوِيٍّ من الليل وهكذا.

وكم من أقارب وجيران وأخوات وإخوان أضحت حقوقهم في خضم النسيان بسبب ما ذكر.

وكم من مسؤوليات عامة أو خاصة ضُيعت وفرط فيها بسبب هذه الأحوال.

وكم من شخص صار قلبه خواء مظلماً خرباً لخلوه من الغذاء الروحي؛ من الذكر وقراءة القرآن والسنة وتدبر ما فيهما من المعاني والأحكام بسبب انغماسه في هذه الأوحال وانشغاله بها. وصدق الله العظيم:

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

فإن عجز الشيطان عن شغل العبد بالمباحات دعاه إلى المرتبة السادسة، وهي الاشتغال بالمفضول عما هو أفضل منه، ليفوت عليه ثواب العمل الفاضل، ويزيح عنه الفضيلة ويقلل من فضله وثوابه، فيظن أن هذا الداعي من الله لاعتقاده أن هذا خير، وأن الشيطان لا يأمر بخير، فيقول: هذا الداعي من الله.

قال ابن القيم[1]: «ولم يصل علمه إلى أن الشيطان يأمر بسبعين باباً من أبواب الخير، إما ليتوصل إلى باب واحد من الشر، وإما ليفوت بها خيراً أعظم من تلك السبعين باباً وأجل وأفضل..».

وادهى من ذلك وأشد منه أن يترك الشخص العمل الذي يتقاضى عليه أجراً كالأذان والإمامة أو العمل الوظيفي في مصالح المسلمين بحجة أنه ذاهب لفعل طاعة كالعمرة، أو حضور درس أو محاضرة، أو الخروج للدعوة، أو للصلاة على جنازه واتباعها ونحو ذلك، لأن هذا لا يعد من الاشتغال بالمفضول فحسب - بل إن هذا من الاشتغال بالسنة عن الواجب، وياليت كثيراً ممن يتساهلون في مثل هذا يدركون ذلك.

كيف يعتقد من كان يتولى أمراً من أمور المسلمين، من أذان، أو إمامة أو أي مسؤولية من مسؤوليات الأمة أنه يسوغ له ترك مسؤوليته بحجة الذهاب لأداء العمرة ونحو ذلك، وهل سيحصل له من الأجر على ذلك مثل أجر من احتسب وتحمَّل مسؤوليته، كلا، بل إنه إلى التأثم أقرب، ولم يرد في كتاب ولا سنة جواز ذلك فضلاً عن أن يؤجر فاعله، ولم يقل بهذا أحد من علماء الأمة سلفاً وخلفاً، وإنما هذا من مداخل الشيطان ووساوسه، وتقديم هوى النفس على حكم الله، وإني لأدعو المسلمين عموماً وأرباب مسؤوليات الأمة خصوصاً، من الأئمة والمؤذنين وعامة الموظفين والآباء والمربين وغيرهم إلى التنبه إلى هذا، فنحن أمة إسلامية ديننا الإسلامي دين الجد والعمل لا محل للفراغ في حياتنا، وقت المسلم بين المسجد والبيت والعمل، وساعة للترفيه والراحة عند الملل، فكل فرد منا على مسؤولية من مسؤوليات الأمة.

---

(١) انظر «التفسير القيم» ص ٦١٢ - ٦١٣.

فهذا مؤذن، وهذا إمام، وهذا والد، وهذا مدرس، وهذا موظف. وكل منا على ثغر من ثغور الإسلام، كما قال الأوزاعي رحمه الله: «ليعلم كل منكم أنه على ثغر من ثغور الإسلام فالله الله أن يؤتى الإسلام من قبله».

وإن من أكبر مصائب الأمة أن لا تدري أين مكمن الداء فيها، فتضل في حيرة من أمرها، أو ربما تظن الداء دواء لجراحاتها.

فما أكثر الذين يتباكون ويتلاومون على واقع الأمة، وكأنهم يدعون لأنفسهم الكمال ـ فإذا تأملت في واقعهم، وسبرت أحوالهم وجدت أن كثيراً منهم من أكبر أسباب ضعف الامة، بل هم العبء الأثقل على كاهل الأمة، شأنهم التلاوم والقيل والقال، والتنصل من مسؤوليات الأمة، وانتقاد الولاة والعلماء والدعاة والمصلحين والعاملين، مع التفريط في حقوق الله، وفي حقوق الخلق، من الوالدين والأولاد، والأزواج والأقارب والجيران، وفي حقوق عامة المسلمين ومسؤوليات الأمة، وقد قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

فالأمة ليست بحاجة إلى الدعاوي الفارغة والحماس الأجوف، بل هي أحوج ما تكون إلى رجال لهم رصيد من الصدق مع الله وتقواه بأداء حقوقه وحقوق الخلق، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، ومن لم يجاهد النفس والشيطان فلن يستطيع مجاهدة الأعداء، ومن خان حي على الصلاة خان حي على الكفاح، ومن لم يقم أركان الإسلام وأهم واجباته فلن يقيم ما دون ذلك، ومن ترك الواجب لم ينتفع بالقيام بما دونه إن قام به.

ومجمل القول أن الأمة تحتاج إلى الرجل الراحلة الذي يتحمل مسؤولياته، ويملأ ويسد مكانه في الأمة، بأداء حقوق الله، وحقوق الخلق، في البيت والمسجد والعمل الوظيفي والشارع فهذا هو الجندي المجاهد، وما أقل هذا في الأمة، وصدق المصطفى ﷺ حيث قال: «الناس كإبل مائة لا يوجد فيها راحلة»[1].

فالحاكم والأمير والوزير والقاضي والإمام والمؤذن والمدرس والموظف والتاجر والعامل وغيرهم ممن ائتمنوا على مسؤوليات الأمة كل منهم مثاب مأجور إذا قام بالعمل على الوجه الأكمل، مع حسن النية في أداء الواجب وخدمة الأمة.

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٩٨، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٥٤٧، والترمذي في الأمثال ٢٨٧٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٩٠ ، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

ومما يؤسف لـه أن كثيراً من الناس يتشبثون بفعل بعض النوافل والأعمال التطوعية مع تفريطهم في أهم الواجبات في حقوق الله وحقوق الأمة، ولا تقبل نافلة حتى تؤدى فريضة. جاء أعرابي إلى النبي ﷺ يسأل عن الإسلام فقال لـه النبي ﷺ: «تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً. قال يا رسول الله هل عليّ غيرها؟ قال: لا إلا أن تطوع. فقال الأعرابي: والذي بعثك بالحق لا أزيد على هذا ولا أنقص منه. فلما ولى قال ﷺ: من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا» وفي رواية: «أفلح إن صدق»[(١)].

وإنني أنادي الغيورين من أبناء الأمة رجالاً ونساءً من الآباء والأمهات والمربين والموجهين والمدرسين والخطباء والدعاة والواعظين إلى العودة بالأمة إلى المنهج الصحيح، فإن به الضمان بإذن الله عز وجل لسعادة الأمة في دنياها وأخراها ـ والله المستعان.

فائــــدة فيما يعتصم به الإنسان من الشيطان:

ذكر ابن القيم رحمه الله[(٢)] قاعدة نافعة فيما يعتصم به العبد من الشيطان ويستدفع به شره ويحترز به منه، وذلك عشرة أسباب، ألخصها فيما يلي:

١ ـ الحرز الأول: الاستعاذة بالله من الشيطان، كما قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

وعن سليمان بن صرد ـ رضي الله عنه ـ قال: «استب رجلان عند النبي ﷺ ونحن عنده جلوس، وأحدهما يسب صاحبه مغضباً قد احمر وجهه، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول النبي ﷺ ـ فقال: «إني لست بمجنون»[(٣)].

٢ ـ الحرز الثاني: قراءة المعوذتين. فقد كان النبي ﷺ يتعوذ بهما في كل ليلة، وقال ﷺ : «ما تعوذ متعوذ بمثلهما»[(٤)]. وأمر عقبة بن عامر أن يقرأ بهما دبر كل صلاة[(١)].

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٤٦، ومسلم في الإيمان ١١، وأبوداود في الصلاة ٣٩١، والنسائي في الصلاة ٤٥٨، من حديث طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه.

(٢) انظر «التفسير القيم» ص٦٢٠ ـ ٦٣١.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب ـ باب الحذر من الغضب ـ ٦١٥٥، ومسلم في البر ـ باب فضل من يملك نفسه عند الغضب ٢٦١٠.

(٤) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٤٦٣، من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

وقال ﷺ: «إن من قرأهما مع سورة الإخلاص ثلاثاً حين يمسي، وثلاثاً حين يصبح كفته من كل شيء»[٢].

وقد تقدم ذكر كلام ابن القيم في أن حاجة الإنسان إلى التعوذ «بهستين السورتين أشد من حاجته إلى الطعام والشراب والنفس واللباس فتأمل هذا.

٣ ـ الحرز الثالث: قراءة آية الكرسي، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتى آت، فجعل يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ ـ فذكر الحديث إلى أن قال: فقال رسول الله ﷺ: «إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح..»[٣].

٤ ـ الحرز الرابع: قراءة سورة البقرة. كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، وإن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان»[٤].

٥ ـ الحرز الخامس: قراءة خاتمة سورة البقرة، كما في حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»[٥].

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق بألفي عام أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، فلا يقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان»[٦].

٦ ـ الحرز السادس، قراءة أول سورة «حم المؤمن» إلى قوله «إليه المصير» مع آية

=

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٧٥، وأبوداود في الصلاة ١٣٧٩، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٢٦٨، من حديث أبي مسعود البدري رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٧٨٠، وأبوداود في المناسك ٢٠٤٢، والترمذي في فضائل القرآن ٢٨٧٧، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠٠٨، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٨٠٧، ٨٠٨.

(٦) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن ٢٨٨٢، والدارمي في فضائل القرآن ٣٢٥٣.

الكرسي لحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حم المؤمن إلى «إليه المصير» وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما حتى يمسي، ومن قرأهما حين يمسي حفظ بهما حتى يصبح»(١).

٧ ـ الحرز السابع: قول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير مائة مرة، لحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتب له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي. ولم يات أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك»(٢).

٨ ـ الحرز الثامن: كثرة ذكر الله عز وجل، وهو من أنفع الحروز وبه طمانينة القلب، كما قال عز وجل: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

٩ ـ الحرز التاسع: الوضوء والصلاة، قال ابن القيم: «وهذا من أعظم ما يُتحرز به، ولاسيما عند توارد قوة الغضب والشهوة، فإنها نار تغلي في قلب ابن آدم.. والوضوء يطفئها، والصلاة إذا وقعت بخشوعها والإقبال فيها على الله أذهبت أثر ذلك كله. وهذا أمر تجربته تغني عن إقامة الدليل عليه»(٣).

١٠ ـ الحرز العاشر: الإمساك عن فضول النظر والكلام والطعام ومخالطة الأنام، فإن الشيطان إنما يتسلط على ابن آدم وينال منه غرضه من هذه الأبواب الأربعة ـ ويا صعوبة التخلص منها إلا على من وفقه الله. فإن فضول النظر يدعو إلى الاستحسان ووقوع صورة المنظور إليه في القلب، والاشتغال به، والفكرة في الظفر به.

وفي الأثر: «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس فمن غض بصره لله أورثه الله حلاوة يجدها في قلبه إلى يوم يلقاه».

وقد قيل:

كل الحوادث مبداها من النظـــر ومعظم النار من مستصغر الشرر

---

(١) اخرجه الترمذي في فضائل القرآن ٢٨٧٩.

(٢) اخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٩٣، ومسلم في الذكر والدعاء ٢٦٩١، والترمذي في الدعوات ٣٤٦٨، وابن ماجه في الأدب ٣٧٩٨.

(٣) انظر «التفسير القيم» ص٦٢٤.

كم نظرة فتكت في قلب صاحبها　　　　فتك السهام بلا قــوس ولا وتــر[1]

والإمساك عن فضول الطعام:

فإن تتبع أطايب المأكولات وأنواعها سبب للغفلة عن ذكر الله وكون الإنسان بهيمياً همه بطنه، كما أن الإكثار من الأكل سبب للتخمة والكسل وثقل الجسم عن العمل وفي الحديث: «ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»[2].

والإمساك عن فضول الكلام:

فإن الإكثار من الكلام فيما لا يعني سبب للوقوع فيما لا ينبغي، ولهذا أمر الإسلام بحفظ اللسان، قال تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

وفي حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، أنه قال: فقلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به أو فيما نقول بألسنتنا؟ قال: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»[3].

والإمساك عن فضول مخالطة الأنام:

فإن فضول مخالطة الأنام من أعظم أسباب الشرور والآثام، فيجب أن تكون مخالطة العبد للناس على قدر الحاجة.

والناس في هذا أربعة أقسام:

القسم الأول: مَنْ مخالطته كالغذاء لا يستغنى عنه في اليوم والليلة ـ وهم العلماء بالله وأمره، الناصحون لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

القسم الثاني: من مخالطته كالدواء يحتاج إليه عند المرض، فما دام الشخص صحيحاً فلا حاجة لـه في مخالطتهم، وهم من لا يستغنى عن مخالطتهم في مصلحة المعاش، فتكون مخالطتهم بقدر الحاجة.

القسم الثالث: من مخالطتهم كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه، وقوته وضعفه، فمنهم من تكون مخالطته ضرراً عليك في دينك ودنياك فهم كمرض الموت المخوف،

---

(١) انظر «التفسير القيم» ص٦٢٤ ـ ٦٢٩.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٨٠، وابن ماجه في الأطعمة ٣٣٤٩، من حديث المقدام بن معديكرب رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٣) أخرجه الترمذي في الإيمان ٢٦١٦، وابن ماجه في الفتن ٣٩٧٣، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

ومنهم من تكون مخالطته كوجع الضرس يشتد فإذا فارقك سكن الألم، ومنهم من تكون مخالطته حمى الروح، وهو الثقيل البغيض، الذي لا تستفيد منه ولا يستفيد منك، لا يحسن أن يتكلم فيفيدك، ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك، ولا يعرف نفسه فيضعها منزلتها، فمخالطة هذا النوع ـ وهم كل مخالف ـ حمى الروح، ومن نكد الدنيا على العبد أن يبتلى بواحد من هذا الضرب، وليس له بد من معاشرته ومخالطته فليعاشره بالمعروف، حتى يجعل الله له من أمره فرجاً ومخرجاً.

القسم الرابع: من مخالطته الهلك كله بمنزلة أكل السم كأهل البدع والضلال الصادون عن سنة رسول الله ﷺ.

فالحزم كل الحزم البعد عنهم، والحذر منهم، والتماس مرضاة الله تعالى ورسوله بإغضابهم.

وكما قيل:

لقد زادني حباً لنفسي أنني ... بغيض إلى كل امرئ غير طائل[1]

فائدة: في الفرق بين الموسوس والساحر والحاسد

أمر الله عز وجل في سورة الناس بالاستعاذة من شر الوسواس، وأمر في سورة الفلق بالاستعاذة من شر الساحر والحاسد.

فأفرد الاستعاذة من شر الوسواس في سورة الناس، لأن الوسواس وإن كان بسبب من شياطين الجن والإنس كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ إلا أنه إنما يؤذي العبد من داخل بواسطة مساكنته له وقبوله منه، ولهذا يعاقب العبد على تماديه مع الوساوس، لأن ذلك بسعيه وإرادته بخلاف شر الحاسد والساحر فإنه لا يعاقب عليه.

وقرن عز وجل بين الاستعاذة من الساحر والحاسد، لأن شر كل منهما خارج عن إرادة المسحور والمحسود فلا يعاقبان على ما يحصل لهما بل يؤجران إذا صبرا على ذلك.

وكل من السحر والحسد من شرور شياطين الإنس والجن، كالوسواس، إلا أن الحسد أخص بشياطين الإنس، لأنه يدل على شر النفس وطبعها، ليس هو شيئاً اكتسب

---

(١) البيت للطرماح وهو في «ديوانه» ص٣٤٦، تحقيق عزة حسن ، دمشق ١٩٦٨م.

من غيرها، وإن كان كثيره من المعاصي من تزيين الشيطان وتسويله، لكن لو لم تكن النفس خبيثة شريرة ومحلاً لذلك لما حصل الحسد.

أما السحر فإنه إنما يكون باكتساب أمور أخرى كالاستعانة بالأرواح الشيطانية، والتقرب إلى الشيطان وعبادته من دون الله، والسجود له، ونحو ذلك.

فائدة أخيرة:

لعلك أخي المسلم بعد تدبرك في كلام أهل العلم على هذه السور الثلاث سورة الإخلاص والمعوذتين اتضح لك ما فيها من الوقاية والحفظ والشفاء بإذن الله عز وجل لأمراض القلوب والأبدان، وخرجت بشخصية المسلم الحق، الذي يجمع بين فعل الأسباب والتوكل على الله، ولا يخاف بعد ذلك إلا الله، ولا يرجو إلا الله، ولا يعتمد إلا على الله، ولا يستعيذ إلا بالله. فهذا غاية العزة والسعادة والسؤدد والكرامة، وكما قيل:

ساعيش رغم الداء والأعداء ... كالنسر فوق القمة الشماء

النور في جنبي وبين جوانحي ... فعلام أخشى السير في الظلماء

* * *

تم الفراغ منه في يوم الجمعة الرابع عشر من شهر رمضان المبارك من عام ١٤٢٧هـ من هجرة المصطفى ﷺ. فالحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً ـ وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس موضوعات المجلد الثالث
تفسير سورة النبأ إلى نهاية تفسير سورة الناس

الفهارس العامة

أ. فهـرس السـور

ب. فهرس الأحاديث والآثار

ج. فهرس الأشعار

أ - فهـرس السـور

ب- فهرس الأحاديث والآثار

(ث)

(خ)

(ش)

جـ - فهرس الأشعار

أ

ب

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل	خلوت ولكن قل علي رقيب	صالح بن عبد القدوس	١١٧/١، ٢/٣٢٨،
ولا تحسبن الله يغفل ساعة	ولا أن ما يخفى عليه يغيب		٣٩/٣
لقد نقبت في الآفاق حتى	رضيت من الغنيمة بالإياب	امرؤ القيس	١٢٢/١
وكاتبون وما خطت أناملهم	حرفاً وما لمزوا ما خط في الكتب		٢٠١/١
فما أقرب الآتي وأبعد ما مضى	وهذا غراب البين في الدار ينعب	محمد بن عثيمين	٢٩٦/١
فإن يك بعض هذا اليوم ولى	فإن غداً لناظره قريب		٣٢٦/١
ولو كانت الأخلاق تحوي وراثة	ولو كانت الآراء لا تتشعب		٣٤٤/١
لأصبح كل الناس قد ضمهم هوى	كما كان كل الناس قد ضمهم أب		
ولكنها الأقدار كل ميسر	لما هو مخلوق له ومقرب		
أين المفر والإله الطالب	والأشرم المغلوب ليس الغالب	نفيل بن حبيب	٣٧٥/١، ٢٨٩/٣
لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب	ولا ينال العلا من طبعه الغضب	عنترة بن شداد	٥٢٢/١
فإن تسألوني بالنساء فإنني	خبير بأدواء النساء طبيب		١٢/٢
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله	فليس له من ودهن نصيب		
يردن ثراء المال حيث وجدنه	وشرخ الشباب عندهن عجيب		
عسى الكرب الذي أمسيت فيه	يكون وراءه فرج قريب	هدبة بن خشرم	١٣٩/٢، ٢٩٩
هو الموت ما منه ملاذ ومهرب	متى حط ذا عن نعشه ذاك يركب	محمد بن عثيمين	١٩٧/٢، ٣٢٢/٣
وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت	فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا	أحمد شوقي	٣٥٢/٢
إن الأفاعي وإن لانت ملامسها	عند التقلب في أنيابها العطب		١١٢/٣

وقد أولوا معاً فهماً وعلماً	وجاءهم من الله النذير		
نذير صادق أدى كتاباً	وآيات مبينة تنير		
وقالوا ما أتيت بأمر صدق	وأنت بمنكر منا جدير		
فقال بلى لقد أديت حقاً	يصدقني به الفهم الخبير		
فمن يتبعه يهدى لكل رشد	ومن يكفر به يجز الكفور		
فلما أشربوا غدراً وكفراً	وجد بهم عن الحق النفور		
أري الله النبي برأي صدق	وكان الله يحكم لا يجور		
فأيده وسلطه عليهم	وكان نصيره نعم النصير		
فغودر منهم كعب صريعاً	فذلت بعد مصرعه النضير		
فذاقوا غب أمرهم وبالاً	وغودر منهم نخل ودور		
عسى فرج يأتي به الله إنه	له كل يوم في خليقته أمر	محمد بن إسماعيل	٢/١٣٩، ٢٢٩
بعلم وحلم ساد في قومه الفتى	وكونك إياه عليك يسير		٢/٣٥٢
يا راقد الليل مسروراً بأوله	إن الحوادث قد يطرقن أسحارا	محمد بن حازم الباهلي	٢/٣٧٥
لا تفرحن بليل طاب أوله	فرب آخر ليل أجج النارا		
أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها	وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا	حاتم الطائي	٢/٣٧٤
رموها بأثواب خفاف فلا ترى	لها شبهاً إلا النعام المنفرا	الشماخ	٢/٤٨٤
بني عمنا هل تذكرون بلاءنا	عليكم إذا ما كان يوم قماطر		٢/٥٣٢
ومن يتهيب صعود الجبال	يعش أبد الدهر بين الحفر	أبو القاسم الشابي	٣/١٨٠
سرنا وساروا إلى بدر لحتفهم	لو يعلمون يقين العلم ما ساروا	حسان بن ثابت	٣/٢٥٩
سبحان من قسم الحظوظ فهذا	يجفى وذاك يبكي الديارا		٣/٣٥٧
كل الحوادث مبداها من النظر	ومعظم النار من مستصغر الشرر		٣/٣٩٢
كم نظرة فتكت في قلب صاحبها	فتك السهام بلا قوس ولا وتر		

س

يضيء كضوء سراج السليـ	ـط لم يجعل الله فيه نحاسا	النابغة الجعدي	٣٧٦/١
حتى إذا الصبح له تنفسا	وانجاب عنها ليلها وعسعسا	علقمة بن قرط	٦٣/٣
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها	إن السفينة لا تجري على اليبس	أبو العتاهية	٢٧٨/٣

ع

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى	ولا زاجرات الطير ما الله صانع		٢٢٩/١، ٤٥٨/٢
أبلغ إياداً وخلل في سراتهم	إني أرى الرأي إن لم أعص قد نصعا	لقيط الإيادي	٢٩٥/١
يا قوم لا تأمنوا إن كنتم غيراً	على نسائكم كسرى وما جمعا		
هذا كتابي إليكم والنذير معاً	لمن رأى رأيه منكم ومن سمعا		
وقد بذلت لكم نصحي بلا دخل	فاستيقظوا إن خير العلم ما نفعا		
وقدّمن فاكهة في الأكل	قبل الطعام لحصول النفع		٤٠٩/١
وما المال والأهلون إلا ودائع	ولابد يوماً أن ترد الودائع		٤٧٧/١
قد نادت الدنيا على نفسها	لو كان في العالم من يسمع		٥١٥/١، ٥١٣/٢، ٢٨٣/٣
كم واثق في العمر أفنيته	وجامع بددت ما يجمع		
ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض	على الماء خانته فروج الأصابع		٥١٥/١
ولابد من شكوى إلى ذي مروءة	يواسيك أو يسليك أو يتوجع		١٠/٢
زنيم تداعاه الرجال زيادة	كما زيد في عرض الأديم الأكارع	الخطيم التميمي الجاهلي	٣٦٠/٢
فإني بحمد الله لا ثوب فاجر	لبست ولا من غدرة أتقنع	غيلان بن سلمة الثقفي	٤٨٣/٢
وما الناس إلا عاملان فعامل	يتبر ما يبني وآخر رافع	لبيد	٢٣/٣، ٩٨، ١٧٩

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه	يحور رماداً بعد إذ هو ساطع	لبيد	٣/١٠١
طلع البدر علينا	من ثنيات الوداع		٣/٢٠١
وجب الشكر علينا	ما دعا لله داع		
أيها المبعوث فينا	جئت بالأمر المطاع		
جئت شرفت المدينة	مرحباً يا خير داع		
والوقت أنفس ما عنيت بحفظه	وأراه أسهل ما عليك يضيع		٣/٢٦٤، ٢٦٩
	ف		
العلم يرفع بيتاً لا عماد له	والجهل يهدم بيت العز والشرف		٢/٤٧، ٣٤٨
قبيح من الإنسان ينسى عيوبه	ويذكر عيباً في أخيه قد اختفى		٣/٩٤
ولو كان ذا عقل لما عاب غيره	وفيه عيوب لو رآها بها اكتفى		
زعمتم أن إخوتكم قريش	لهم إلف وليس لكم إلاف		٣/٢٩١
	ق		
إذا جاءني يوم القيامة قائد	عنيف وسواق يسوق الفرزدقا	الفرزدق	١/١٠٣
احفظ لسانك أن تقول فتبتلى	إن البلاء موكل بالمنطق	صالح بن عبد القدوس	١/٢٨١
	ك		
وكل يدعي وصلاً بليلى	وليلى لا تقر لهم بذاكا		١/٧٣، ٣/٨١
هي الدنيا تقول بملء فيها	حذار حذار من بطشي وفتكي		١/٥١٥
فلا يغرركم مني ابتسام	فقولي مضحك والفعل مبكي		
تأمل في نبات الأرض وانظر	إلى آثار ما صنع المليك		٣/١٣٢
عيون من لجين شاخصات	بأحداق هي الذهب السبيك		
على قضب الزبرجد شاهدات	بأن الله ليس له شريك		
لا هم إن المرء يمـ	ـنع رحله فامنع حلالك	عبد المطلب	٣/٢٨٩
لا يغلبن صليبهم	ومحالهم غدواً محالك		

ل

م

وترى اللبيب محسداً لم يجترم	شتم الرجال وعرضه مشتوم		
وكذاك من عظمت عليه نعمة	حساده سيف عليه صروم		
حُيِّيت من طلل تقادم عهده	أقوى وأقفر بعد أم الهيثم	عنترة بن شداد	٣٣٤/١
لا طيب للعيش ما دامت منغصة	لذاته بادكار الموت والهرم		٥١٢/١
إذا غامرت في شرف مروم	فلا تقنع بما دون النجوم	المتنبي	٥١٦/١
من فاته الزرع في وقت البذار فما	تراه يحصد إلا الهم والندما		٥٢٤/١
قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت	ويبتلي الله بعض القوم بالنعم		٥٢٨/١، ٣٦٣/٢، ١٥٨/٣
وإذا شكوت إلى الأنام فإنما	تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم		١٠/٢
لا تشكونْ لمخلوق لنورك	شكوى الجريح إلى الغربان والرخم		١٠/٢
إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن	برأي نصيح أو نصيحة حازم		١٢/٢
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة	فإن الخوافي قوة للقوادم		
رأيت العلم صاحبه كريم	ولو ولدته آباء لئام	الشافعي	٤٧/٢
وليس يزال يرفعه إلى أن	يعظم أمره القوم الكرام		
ويتبعونه في كل حال	كراعي الضأن تتبعه السوام		
فلولا العلم ما سعدت رجال	ولا عرف الحلال ولا الحرام		
بلادي وإن جارت علي عزيزة	وأهلي وإن ضنوا علي كرام		٨٧/٢، ٦٥/٣
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه	وإن يرق أسباب السماء بسلم	زهير	١٩٧/٢
إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه	وصدق ما يعتاده من توهم		٢٥٢/٢
وعادى محبيه بقول عداته	وأصبح في شك من الليل مظلم		

إن المنايا يطلعـ	ـن على الأناس الآمنا	ذو جرن الحميري	٥٨/١، ٣٧٤/٣
أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم	فطالما استعبد الإنسان إحسان	أبو الفتح البستي	١٥١/١
وإن أساء مسيء فليكن لك في	عروض زلته صفح وغفران		
يبسة مسكينة	تشكو ولا تبكي		٣٥٣/١
لسانها مقطوع	ولا لها دموع		
أنهارها في غير أخدود جرت	سبحان ممسكها عن الفيضان	ابن القيم	٤١٥/١، ٤٨٩، ١٨٣/٢، ١١٦/٣، ١٤٤، ٢٤١
من تحتهم تجري كما شاؤوا مفجـ	ـرة وما للنهر من نقصان		
وهو العزيز فلن يرام جنابه	أنى يرام جناب ذي السلطان	ابن القيم	٤٥٥/١، ٦٤/٢
وهو العزيز القاهر الغلاب لم	يغلبه شيء هذه صفتان		
وهو العزيز بقوة هي وصفه	فالعز حينئذ ثلاث معان		
وهي التي كملت له سبحانه	من كل وجه عادم النقصان		
هو أول هو آخر هو ظاهر	هو باطن هي أربع بوزان	ابن القيم	٤٥٧/١
ما قبله شيء كذا ما بعده	شيء تعالى الله ذو السلطان		
شهدت بأن وعد الله حق	وأن النار مثوى الكافرينا	عبد الله بن رواحه	٤٦١/١
وأن العرش فوق الماء طاف	وفوق العرش رب العالمينا		
وتحمله ملائكة شداد	ملائكة الإله مسومينا		
شتان بين الحالتين فإن ترد	جمعاً فما الضدان يجتمعان	ابن القيم	٥٢٢/١، ٦٦/٢، ١١٤، ٢٣٦، ٣٣٧، ١٨٥/٣، ٣١١، ٣٢٥
وهو السميع يرى ويسمع كل ما	في الكون من سر ومن إعلان	ابن القيم	١٤/٢
ولكل صوت منه سمع حاضر	فالسر والإعلان مستويان		
والسمع منه واسع الأصوات لا	يخفى عليه بعيدها والداني		

الصدر	العجز	القائل	الجزء/الصفحة
فاستحي من نظر الإله وقل لها	إن الذي خلق الظلام يراني		
هُمُ إذا سمعوا خيراً ذكرت به	وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا	قعنب بن أم صاحب	٩٦/٣
لا تأمنن عدواً لان جانبه	خشونة الصل عقبى ذلك اللين		١١٢/٣
فهو العلي بذاته سبحانه وهو العلي فكل أنواع العلو له	إذ يستحيل خلاف ذا ببيان ثابتة بلا نكران	ابن القيم	١٣٠/٣
إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها	هواناً بها كانت على الناس أهونا		١٧٩/٣
يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته أقبل على النفس فاستكمل فضائلها	لتطلب الربح مما فيه خسران فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان	أبو الفتح البستي	٢٦٣/٣
دقات قلب المرء قائلة له	إن الحياة دقائق وثواني	أحمد شوقي	٢٦٩/٣
حمدت الله إذ أبصرت طيراً فكل القوم يسأل عن نفيل	وخفت حجارة تلقى علينا كأن علي للحبشان ديناً	نفيل بن حبيب	٢٨٩/٣

هـ

الصدر	العجز	القائل	الجزء/الصفحة
ما يبلغ الأعداء من جاهل	ما يبلغ الجاهل من نفسه	صالح بن عبد القدوس	٣٨/١
ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها	كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه		٢٧٧/١
فتى الفتيان ما بلغوا مداه	ولا يكدي إذا بلغت كداها	الخنساء	٢٨١/١
انظر لتلك الشجرة من ذا الذي أنبتها ذاك هو الله الذي ذو حكمة بالغة	ذات الغصون النضرة وشق منها الثمرة أنعمه منهمرة وقدرة مقتدرة		٤٣١/١
إياك والدنيا الدنية إنها متاع غرور لا يدوم سرورها	هي السحر في تخييله والخرافة وأضغاث حلم خادع ببهائه	ابن مشرف	٥١٤/١